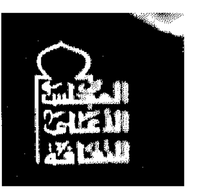




المشروع القومي للترجمة

جان لاكوتير

شامبوليون

حياة من نور

164

ترجمة وتقديم وتعليق : نبيل سعد

اهداءات ٢٠٠١
المهندس/ محمد عبد السلام العمرى
الإسكندرية

المشروع القومى للترجمة

شامپوليون

حياة من نور

چان لاكوتير

ترجمة وتقديم وتعليق
نبيل سعد





٢٠٠٠

JEAN LACOUTURE

CHAMPOLLION

une vie de lumières

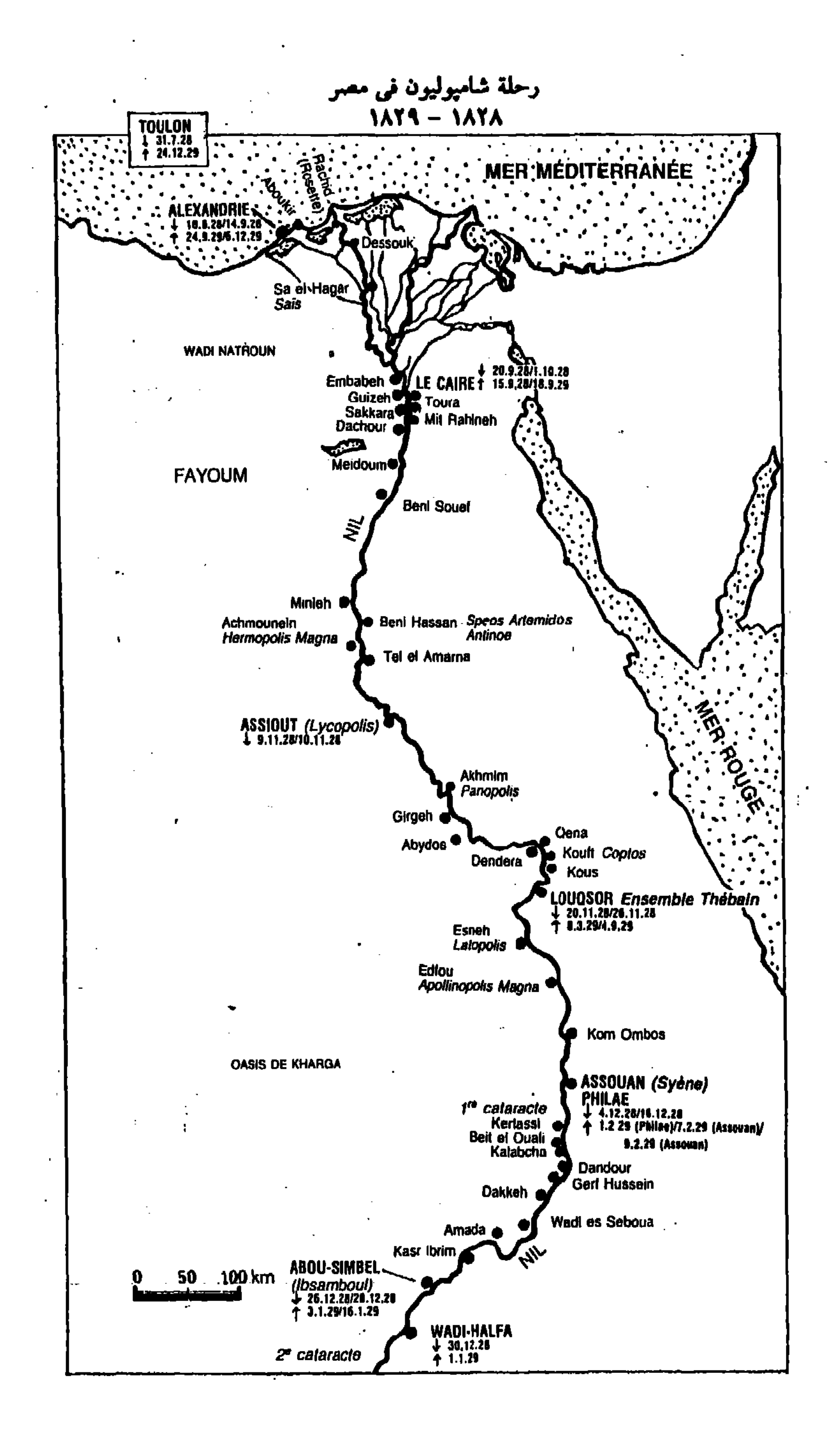
BERNARD GRASSET

PARIS

إهداء المترجم

إلى ابني ياسر





رحلة شامبوليون فى مصر
١٨٢٨ - ١٨٢٩
TOULON
↓ 31.7.28
↑ 24.12.29
MER MÉDITERRANÉE
Rachid (Rosette)
Aboukir
ALEXANDRIE
Dessouk
Sa el-Hagar
Sais
WADI NATROUN
LE CAIRE
Embabeh
Guizeh
Sakkara
Dachour
Toura
Mit Rahineh
FAYOUM
Meidoum
Beni Souef
NIL
Minieh
Achmouneïn
Hermopolis Magna
Beni Hassan
Speos Artemidos
Antinoe
Tel el Amarna
ASSIOUT (Lycopolis)
Akhmim
Panopolis
Girgeh
Abydos
Dendera
Qena
Kouft Coptos
Kous
LOUQSOR Ensemble Thébain
MER ROUGE
Esneh
Latopolis
Edfou
Apollinopolis Magna
Kom Ombos
OASIS DE KHARGA
ASSOUAN (Syène)
PHILAE
1re cataracte
Kertassi
Beit el Ouali
Kalabcha
Dandour
Gerf Hussein
Dakkeh
Wadi es Seboua
Amada
Kasr Ibrim
NIL
ABOU-SIMBEL
(Ibsamboul)
↑ 3.1.29/16.1.29
0 50 100 km
WADI-HALFA
↓ 30.12.28
↑ 1.1.29
2e cataracte



تقديم

« ذاب فى حب مصر »

إذا كانت صحف هذه الأيام تلهث وراء أخبار الأحداث السياسية ، فإن صحافة أوروبا كانت تهتم فى القرن التاسع عشر بأنباء المواضيع العلمية والأدبية فى المقام الأول . وكانت أنباء حل لغز حرف هيروغليفى تحتل صدر الصفحات الأولى من صحف أوروبا كلها .

وكان اهتمامها عظيماً بنبأ اكتشاف ضابط صغير فى سلاح المهندسين فى جيش بونابارت فى مصر (ملازم أول مهندس بيير بوشار) حجراً من البازلت الأسود من بين أطلال قلعة قديمة كان يقوم بترميمها فى مدينة رشيد . وكان الحجر قد نقشت عليه نصوص مكتوبة بثلاثة أنواع من الحروف : الإغريقية والديموطيقية (كتابة مصرية قديمة ، غير الهيروغليفية) والهيروغليفية ؛ ومنذ ذلك الحين (أغسطس ١٧٩٩) وحتى ٢٢ سبتمبر١٨٢٢ عندما تمكن شامبوليون من موضوعه وكشف ألغاز الكتابة الهيروغليفية ظلت الأوساط المثقفة والعلمية فى جميع أنحاء العالم تتابع بشغف كبير أنباء حل اللغز الهيروغليفى ، فإذا ظن أحدهم أنه فهم معنى حرف أو حرفين اعتبر ذلك نصراً كبيراً . ولكن سرعان ما كان يتضح أن هذا النصر سابق لأوانه بل إنه زاد الأمور تعقيداً ؛ إلى أن توصل شامبوليون إلى إيجاد الحل الحقيقى .

فلم يكن اكتشاف شامبوليون الذى حدث عام ١٨٢٢ هو لحروف اللغة المصرية القديمة المقدسة فقط وإنما – وذلك هو الأهم – اكتشف المنظومة المركبة التى تقوم عليها استخدامات الحروف الهيروغليفية .

الذى حدث بعد ذلك الاكتشاف هو أن جميع الصروح والمعابد المصرية القديمة والبرديات المنتشرة فى جميع أنحاء العالم راحت تتكلم . وكان بعض هذه الآثار قد نقله الرومان منذ أكثر من سبعة عشر قرناً عندما احتلوا مصر . ومثال ذلك المسلات التى تزين ميادين روما إلى يومنا هذا ، والبعض الآخر انتزع من جدران المعابد المصرية ومن المقابر الفرعونية ، وتم إخراجه من مصر ليكون متاحف فى بلدان العالم المختلفة . هذا بالطبع بخلاف المجاميع الخاصة بالأفراد ... كل هذه الآثار أخذت تتكلم فجأة وتبوح بما كانت تتكتم عليه لأكثر من ألف وسبعمائة عام .

ولكى نقدر أهمية ما اكتشفه شامبوليون يجب أن نعرف أن الكومبيوتر لم يتمكن من كشف ألغاز لغات قديمة أقل صعوبة من لغز الهيروغليفية .

إذا كان شامبوليون قد تمكن من الحل ، فذلك لأنه لم يتعامل معه بعقله فقط بل بقلبه أيضاً ، وهذا هو الجانب الأهم فى العملية كلها . وهذا هو ما أظهره چان لاكوتير فى هذا الكتاب .

وچان لاكوتير الذى نشر أكثر من خمسة وأربعين كتاباً حتى الآن أحبَّ مصر هو أيضاً . عاش فيها كصحفى إبان قيام ثورة يوليو وعرف عبد الناصر عن قرب ، وألَّف عن مصر ثلاثة كتب بمفرده أو مع زوجته سيمون لاكوتير ، وهو دائم التردد عليها مرة على الأقل سنوياً . ويمكن القول إن لاكوتير لم يكن ليكتب مثل هذا الكتاب الرائع والدقيق والمشوق - تشويق الروايات البوليسية - لو لم يحب مصر مثلما أحبها شامبوليون .

شامبوليون عشق مصر .. بل يمكن أن نقول إنه «ذاب» فى حبها بالمعنى الكامل للكلمة . أى أنه فى تفانيه لها أعطاها طاقته كلها وصحته وفكره ، ومات شاباً فى الثانية والأربعين من عمره . على الرغم من مظهره الجسدى القوى .

كتب لأخيه من مدينة الأقصر عندما زار مصر فى أواخر حياته ومكث بها نحو ثمانية عشر شهراً : «إن كيانى كله لمصر ، إنها كل شىء بالنسبة لى» .

حب چان - فرانسوا شامبوليون لمصر لم يكن مقصوراً على تاريخها وآثارها وإنما كان لشعبها أيضاً . ويقول چان لاكوتير : «نراه ، يهتم بسرعة كبيرة بهذا الشعب الوريث البعيد لتاريخ كله عظمة .. إلا أن حالته الحالية تؤثر فيه بعمق ... وكان لا يتحرج أثناء حياته اليومية فى صعيد مصر من تقديم نصائحه للفلاحين لكى يتقادوا المضايقات التى كانوا يتعرضون لها من قبل السلطات المحلية أو لكى يتقادوا تسديد بعض الضرائب المُجحفة على الرغم من أن ذلك لم يكن ليخفى عن عيون جواسيس الباشا .» (محمد على الكَبير) كما أن شامبوليون قد عمل كل ما فى وسعه لدى الباشا لكى يحافظ على الآثار المصرية القديمة . إذ إن المعابد كانت تفكك فى تلك الفترة وتستخدم أحجارها فى تشييد المصانع وخاصة مصانع السكر . وعندما كتب شامبوليون مذكرة للباشا عن هذا الموضوع كان قد تم بالفعل تدمير ثلاثة عشر معبداً من أجمل المعابد وأكملها . قال له شامبوليون بدبلوماسية كبيرة «إنه من مصلحة مصر أن تعمل حكومة سموكم على الحفاظ الكامل على الصروح والمبانى الأثرية الذى تسبب هدمها فى إثارة الأسى فى أوروبا كلها ، ويعلم الكافة بالطبع أن هذه العمليات التخريبية البربرية

تمّت ضد رغباتكم السامية ونواياكم الطيبة المعروفة لدى الجميع وعلى يد حفنة من الأفراد لا يقدرون الأضرار التى يسببونها للبلاد دون أن يكونوا على دراية بذلك ...» .

هذا الكتاب يلقى الضوء أيضًا على العلاقات التى كانت قائمة بين فرنسا ومصر فى مرحلة من أهم مراحل تاريخها الحديث ؛ مرحلة بناء الدولة الحديثة على يد محمد على ومحاولة تحويل مصر من ولاية تتبع الإمبراطورية «الخلافة» العثمانية إلى دولة مستقلة ذات سيادة . أصبحت هى ذاتها شبه إمبراطورية ممتدة الحدود والتأثير فى العالم . ونتعرف من الكتاب على ما كان يدور فى كواليس الحكم وعلى الدور الذى لعبه القناصل الأجانب للتأثير على والى مصر وقدرة محمد على الفائقة على تحليل الأمور واتخاذ القرارات الصائبة فى السياسة الدولية فى ظل صراعات هائلة كانت تتصادم فيها مصالح القوتين العظميين فى ذلك الوقت إنجلترا وفرنسا ، وفيما بينهما قوى أخرى مثل روسيا والنمسا ... يكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى أن محمد على رفض تمامًا حفر قناة السويس وقاوم كل الضغوط التى مارسها عليه الفرنسيون وعلى الأخص قنصلها الداهية دروڤيتى الذى كان مقربًا جدًا من الباشا ويعتبر من أهم مستشاريه وعلى الرغم من علماء فرنسا الذين تركوا بلادهم شبانًا وجاءوا إلى مصر بعدما كفروا بالحياة فى فرنسا وتطوعوا للعمل على نهضتها ، لأنها – فيما آمنوا به – كانت بالنسبة لهم أم حضارتهم . ومن هؤلاء السان سيمونيون وغيرهم ... وهم الذين ساعدوا الباشا فى تشييد مصر الحديثة فاستغلهم فى بناء المصانع وبناء السدود (القناطر الخيرية و ... الخ) إلا أن الباشا ظل على رفضه ، لا يلين بالنسبة لحفر قناة السويس ؛ لأنه بنظره الثاقب تأكد أنها ستجلب على مصر المصائب والكوارث ؛ لأنها ستصبح عرضة للأطماع العالمية . فانتظر الطامعون وفاته إلى أن رضخ «سعيد» للضغوط وثبتت صحة تقديرات الباشا .

إذا كان الحديث عن تلك الفترة من الحياة السياسية المصرية مشوقة فإنها تصبح أكثر تشويقًا بقلم چان لاكوتير . فمن خلال الخلفية التى وضعها چان لاكوتير لأحداث حياة شامبوليون تشعر أنك فى قلب عملية اتخاذ القرار سواء فى مصر أو فرنسا وبلاد أخرى كثيرة .

كانت الفترة التى عاشها شامبوليون هامة بالنسبة لمصر وبالنسبة لأوروبا وفرنسا على وجه الخصوص ؛ إذ رأت صعود بونابارت على أنقاض الثورة الفرنسية إلى أن أصبح الإمبراطور نابليون وسقوطه وعودة الملكية ثم سقوطها .

وچان لاكوتير مؤرخ دقيق بخلاف كونه أديبًا فذًا ، ويقول على سبيل المثال عن نابوليون وما قام به فى مصر :

«إذا كانت الحملة (الفرنسية على مصر) تعتبر كارثة سياسية وعسكرية لوثتها أعمال مروعة لا يمكن وصفها وحصرها فإن بونابارت - وقد كان عبقريًا فى أعمال البروباجندا - نجح فى تحويلها إلى ملحمة ...» .

وفى مكان آخر يقول لاكوتير : «لن نروى هنا أحداث المعارك التى دارت من الأول من يوليو ١٧٩٨ حتى الثانى من سبتمبر ١٨٠١ التى أدت - مرورًا بانتصارات كبيرة - إلى كوارث عظيمة .. حتى الانسحاب فى السرّ للجنرال القائد العام ثم الرحيل المخزى لما تبقى من قوات الحملة - (أربعون في المائة بين قتلى ومفقودين) على ظهر سفن الأسطول البريطانى .... كان الفشل ذريعًا والخسائر فادحة والمحصلة النهائية كئيبة» .

سعة ثقافة وعلم وحياد المؤلف تجعله يضع الأمور فى إطارها الواسع (الصراعات العالمية الدائرة فى تلك الحقبة التاريخية المهمة) ثم فى إطار أقل اتساعًا (فرنسا ، إنجلترا ، تركيا ، مصر ...) ثم فى مدن تجرى فيها أحداث الكتاب : الإسكندرية القاهرة - باريس - جرونوبل - الأقصر - تورينو - ڤيينا - لندن .... الخ .

ثم تضيق العدسة وتقترب أكثر فأكثر من المركز لترى الأفراد فى منازلهم ، وتتعرف على أثاث بيوتهم والروائح الصادرة من مطابخها ، وتطل من نوافذها على شوارعها بمحلاتها التجارية وهكذا .. كل ذلك يضفى على القراءة متعة الفهم العميق لما يجرى من أحداث . مثال ذلك ما ينقله لاكوتير من خطاب لشامبوليون لأخيه الأكبر عن باريس بعد أن رآها لأول مرة وهو فى السابعة عشرة من عمره . « المناطق المحيطة بباريس بدت لى قبيحة لدرجة مقززة .. خيبة أملى بسبب اكتشافى أن باريس ليست جميلة جعل معدتى تضطرب .. أوحال شوارع باريس (...) ورؤية هذا الكم الهائل من الناس المشغولين يمرون بسرعة داخل مركباتهم الجميلة ... كل ذلك جعلنى أشعر بحزن عميق ...» .

لم يكن شامبوليون يحب باريس ، وكان يسميها «عاصمة فرنسا القذرة» ، وظل على رأيه هذا إلى أن توفى ، أما رأيه عن القاهرة فهو مختلف تمامًا .. سحرته فأحبها ، وبهرته فأشاد بها ، وكتب إلى أخيه بعد أن زارها ومكث بها عدة شهور : «قالوا أشياء سيئة كثيرة عن القاهرة ، أما أنا فسعيد جدًا فيها ، إن شوارعها التى يبلغ عرضها

من ثمانية إلى عشرة أقدام تبدو لى محسوبة بعناية تامة لتفادى تأثير درجات الحرارة المرتفعة جداً . ورغم أنها مرصوفة فهى نظيفة لدرجة تثير الإعجاب (...) باريس وهى فى قمة أناقتها أكثر قذارة منها . »

بفضل اكتشاف شامبليون عادت مصر القديمة تتحدث عن نفسها فتم التواصل بين العصور القديمة والحديثة لتاريخها الذى ظل مبتوراً عنها لأكثر من سبعة عشر قرناً ، وتواكب هذا الاتصال بين المراحل التاريخية مع بداية بناء مصر الحديثة على يد محمد على الكبير .

سعة ثقافة وعلم چان لاكوتير وفهمه العميق للشأن المصرى أضافت الكثير لأهمية ما قام به شامبليون .

نبيل سعد

القاهرة – ١٩٩٩



تمهيد

وميض هائل من نور صامت

« سيجئ يوم يظهر فيه أن المصريين قد مجدوا آلهتهم بلا طائل . هذه الأرض عظيمة القدسية ، وطن الأهرام والمعابد بأكملها مغطاة بالمقابر والرفات .. آه !! يا مصر !! يا مصر لن يبقى من معتقداتك سوى الأساطير ، وفيما بعد حتى أبناؤك لن يصدقونها .. ولن يُبقي الدهر سوى كلمات محفورة فى الحجر تحكى مآثرك الدينية ..» .

هيرماس تريسميجيست

عرف قرن «التنوير» ذروة مجده فى الثلاثين من سبتمبر ١٧٩١ فى تلك الليلة تزامن حدثان ، الأول فى باريس حيث اختتمت الجمعية الوطنية التأسيسية أعمالها ، وقد أصدرت الإعلان الذى تؤكد فيه «أن كل رجل فى فرنسا حرّ» ومنحت اليهود حق المواطنة ، وقررت فيه بطلان «الجرائم الوهمية» ؛ أى العيب فى الذات الملكية والهرطقة .. والحدث الآخر فى ڤيينا حيث كان بضعة مئات من أهالى إحدى ضواحيها المغرمين بما تعود أن يقدمه مسرح «أوف دير ڤيدن» من عروض ممتعة – لحضور العرض الأول لمسرحية غنائية بقيادة واضع موسيقاها ڤولجانج موزارت ، ويؤدى أهم الأدوار فيها مؤلفها إيمانويل شيكانيدار .. وهى مسرحية «الناى السحرى» .

تحكى المسرحية كيف انتصر النور على الظلمات من خلال أسطورة مصرية قديمة تصف كيف انتصر الحكيم «ساراسترو» على الملكة الشؤم ملكة مملكة الليل المظلم ... وهكذا يتحقق حلم مؤلفى الإنسيكلوبيديا .. المتنورين أصحاب الـ Aufklärung ... فمن خلال هذا العمل يعرض موزار وهو العضو بالحركة الماسونية العالمية والمنتمى لإحدى لجانها

المسماة «نحو الأمل المتوج حديثا» يعرض على العالم باسم إيزيس وأوزيريس مثلا أعلى فى الأخوة المستنيرة التى تعتبر مصر الفرعونية فى موقع المركز منها . إن أوبريت «الناى السحرى» هى نموذج للمسرح الغنائى الألمانى "Singspiel" ، كما أنها جزء من التراث الموسيقى الغنائى للماسونية (Orátorio) وتعتبر الوصية الروحية لموزار ، كما أنها تعتبر المدخل الرسمى أو المقدمة المضيئة لما تلاها من اكتشافات . ففيها يقود الحكيم ساراسترو ، أستاذ تفسير الإشارات ، تلاميذه عبر عراقيل الليل موصلاً إياهم إلى ضوء النهار . غير أن هذا الإلهام كان فى احتياج إلى توضيح ، كما كان هذا القبس فى انتظار أن يتحول إلى نور وضاء .. كما بقت هذه الدروس الإنسانية التى حملتها هذه الألحان السماوية على حالها ثماراً لخيال فنان جوال . الحضارة المصرية القديمة - إذن - كانت تبهر العالم كله ؛ غير أن السؤال المطروح كان «ماذا كانت هذه الحضارة تقول ، وما الذى كانت توصى به هذه الحكمة الرمزية ؟» تعددت فرضيات الشرح وتضاربت من الأب كيرتشار إلى چوزيف دوجينى ومن الأسقف واربورتون إلى بول - إيرنست چابلونسكى والقس بارتيليمى . وبقى الدرس المصرى عصيا على الفهم . يشده بعضهم فى اتجاه السحر ، ويدفعه البعض الثانى ناحية الرمزية ، فى حين يجذبه الآخرون نحو العقلانية .. وعصى الدرس على الجميع هائمًا على سطح مياه النيل بين الضفتين مستمراً على حالته الافتراضية .

هذه الحضارة المهيبة مهابة الشمس هى أقرب من الأبدية من أى حضارة أخرى ... وكان صمتها يسحر الألباب كما يسحرها امتدادها الزمنى وأبعادها الهائلة .. وأبو الهول الذى كان مدفونًا فى رمال الجيزة بقى رمزًا لهذه الأسرار المستعصية على الفهم ، أمينًا عليها .

الصمت

تسعة أشهر قبل العرض الأول «للناى السحرى» ولد فى «فيجاك» وهى مدينة صغيرة تتبع مقاطعة جاسكونيا الشمالية الرجل الذى كان سيعطى لخطاب ساراسترو معناه الكامل يجسد بنات أفكاره ، وهو : چان فرنسوا شامبوليون . فبعد ثلاثين عامًا من عرض الناى السحرى سيرجع إلى هذا الشاب القادم من مقاطعة كوارسى الفرنسية الفضل فى أن أصبحت تصورات موزار وشيكاندر الذهنية واقعًا يقينيًا .

لم يكن ماحدث كتبديد النهار لظلمات الليل . فلم تجر الأمور على هذا النحو ، ولم يصرخ أحدهم قائلا «وجدتها ، وجدتها» فى الرابع عشر من سبتمبر ١٨٢٢ .. إن عظمة شامبوليون لا تكمن فى أنه نصّب نفسه صانعًا للمعجزات ، ولكن فى أنه عرف كيف يجمع ومضات النور التى كانت تظهر وتختفى خلال الليل ، ويجمع شملها لتصبح كشفًا ،

وفى أنه كان يجمع فى شخصه المكتشف الرائد والوارث لأعمال أسلافه ، وأنه أسس مشروعه على الدراسة والبحث وعلى مقدار يساويهما من الحدس .

لم تكن مصر فى نهاية عصر التنوير – القرن الثامن عشر الميلادى – ملفوفة بظلمة حالكة . إن الظلال الثقيلة التى غلفتها بها قرارات الإمبراطور المسيحى تيودوز قبل ألف وخمسمائة عاما بتحريم الشعائر والثقافة المصرية حملت فى طياتها إشارات كثيرة . وإذا كان چان فرنسوا شامبوليون قد نجح فى تأسيس علم جديد هو علم المصريات ، فإن ذلك يرجع إلى أنه لم يستسلم لثقل مئات عديدة من سنين الصمت هذه ولأنه عرف كيف يحتفظ برباطة الجأش وهو يمعن النظر فى هذا الليل اللانهائى حتى اكتشف نجومه . وعلى الرغم من ذلك فإننا لن نعطى عبقريته حق قدرها إلا إذا أوضحنا أن الهوة التى عقد العزم على عبورها كانت سحيقة وممتدة ، وأن ما حاوله الرواد الأوائل لم يكن سوى جسوراً ضعيفة ورخوة ومهزوزة أقاموها ؛ لأنهم كانوا يعملون فى الظلام .

ولكن فلنعد إلى التسلسل الزمنى للأحداث ونلتزم به فهو إذا كان يتسبب فى الإحساس بالدوار إلا أنه يضع أيضاً علامات قيمة على الطريق ، وبطريقة ما يشير إلى دروب تؤدى إليه وأضواء لتنيره ، .. فإذا كان السحر الذى خلبت به مصر الخيال العلمى والشعرى والدينى أيضا العالم الغربى كان بهذه الدرجة من القوة ، وإذا كانت حضارة النيل قد ألحت لهذه المدد طويلة على أعظم أرباب الفكر من فيثاغورس إلى لايبنتيز ومن أفلاطون إلى هيجل فذلك يرجع إلى خليط سرى مكون من نور وصمت ، من روعة مشعة وسكون لانهائى .

من الأمور المتفق عليها الآن هو إرجاع نشأة التاريخ والكتابة المصرية إلى قرنين قبل الألفية الثالثة التى تسبق الميلاد ، فى عصر الملك مينا خليفة الملك/ العقرب الأسطورى ؛ ومينا هو أول من تكلل رأسه بالتاج المزدوج لمصر العليا ومصر السفلى* .
أما نهاية هذا التاريخ ، وكذلك استخدام الكتابة المعبرة عنه ، فمن السهل تحديدها بعام ٣٨٤ بعد الميلاد عندما أصدر الإمبراطور تيودوزس مرسومه الآمر بإغلاق المعابد «الوثنية» .

خمسة وثلاثون قرنا ! ما هى الحضارة التى يمكن أن تدعى لنفسها مثل هذا الدوام والأهم من ذلك نفس هذه الاستمرارية ؟ مع الأخذ فى الاعتبار أنه منذ أن غزاها

* لن ندخل هنا بالطبع فى الجدل الدائر حول أسبقية مصر أو سومر .

قمبيز لم تعد مصر سوى أحد الأقاليم الفارسية قبل أن تصبح يونانية ثم رومانية ثم مسيحية ومنذ عام ٦٣٩ إسلامية .

وفى جميع الأحوال فقد ازدهرت على ضفاف النيل طوال خمسة وعشرين قرنا ثقافة دينية وسياسية تبدو كما لو أنها نوع من الحياة التي سبقت الحضارة الإنسانية . وعلى الرغم من أن التوقف المفاجئ لاستخدام الكتابة (الهيروغليفية) قد ألقى بها فى جب الأساطير والميثولوچيا فهى لم تفقد أبداً قوة سحرها .. أليست هى العصر القديم لعصرنا القديم ؟ !

يحكى أفلاطون فى كتابه Timée أن سولون لدى زيارته لمصر نزل ضيفا على كاهن عجوز وقص عليه تاريخ بلاده فقاطعه مضيفه قائلا : «إنكم يا معشر اليونانيين لازلتم أطفالا فلا يوجد بعد شيوخ فى اليونان ... - فسأله سولون : ماذا تقصد ؟ - فرد عليه الكاهن العجوز : إنكم مازلتم شباباً فى التفكير ؛ لأنه لا يوجد لديكم بعد أى تراث قديم بحق ولا أى نظرية أو عقيدة شابت مع الزمن ..» .

ولسهولة تصور هذه الأوضاع نقول إن الفترة الزمنية التى تفصل (المثال اليونانى الأشهر) بيريكليس فى القرن الخامس قبل الميلاد عن الملك زوسر صاحب الهرم المدرج فى سقارة الذى كان يتحدى فى ذلك الحين عواصف الصحراء منذ خمسة وعشرين قرنا توازى تقريباً الفترة التى تفصلنا نحن عن قمة الحضارة اليونانية . وأن المواطن الرومانى المعاصر للإمبراطور أغسطس الذى ولد عام ٦٣ قبل الميلاد كانت الحضارة الفرعونية بالنسبة له توازى فى بعدها بُعد حرب طروادة عنا . وعندما كان هيرودوت - صاحب أقدم بحث تاريخى منظم عن مصر يمكن الرجوع إليه - يزور مصر حول عام ٤٥٠ قبل الميلاد - كانت قد مرت ألفيتان على تشييد خوفو لهرمه فوق هضبة الجيزة مقترنا باسمه حاميا لمقبرته ، وكان لابد أن تمر ألفيتان أخريان ليتمكن أحد الآباء اليسوعيين الألمان (كيرشار) من التوصل إلى أحد المفاتيح المؤدية لفك رموز الكتابة المقدسة .

المزلاج وضعه عدم التسامح وأحكمت غلقه مئات السنين ، وشارك فى ذلك أيضا طائفة الكتبة ؛ لأنهم - كما يشرح هيجل عن حق - كانوا يريدون أن يجعلوا من أنفسهم حماة الأسرار من أعين الشعب ؛ لأن هذه الكتابة لم تكن تستهدف الحياة الاجتماعية ولكنها كانت تصون هيبة الأسرار والطقوس .. وهو ما وصفه چاك ديريدا فى مقدمته :

«إنها عملية كهنوت وتسلط هدفها السيطرة ..» [1] .. لأن هذا «المخطط الكهنوتى» استهدف حماية «القوة الكونية» المنسوبة لهذه اللغة من وراء حفاظه على السر المهاب .

وإذا كان السر قد ظل طوال هذا الكم من القرون سراً فذلك لم يكن مرجعه عدم وجود باحثين عظماء يعوزهم الفضول العلمى .. بل إن هناك عددا لا يحصى من الرحّالة – خاصة اليونانيين – الذى زاروا مصر المستعمرة .. التى كانت قد دخلت مرحلة الانحطاط ، ولكن ما زالت ثرية بثقافتها وآلهتها . ذلك فى الفترة ما بين فتح الإسكندر لها وانتصار المسيحية فيها ... وكان الكتبة والكهنة يستقبلون هؤلاء الرحالة عن طيب خاطر بل ويمدونهم أحيانًا بما يجدد به علمهم من معلومات فى علوم الهندسة والفلك .

يؤكد سيرج سونرون أنهم كانوا يمتنعون عن تلقينهم «العلم المقدس» أى مبادئ الكتابة الهيروغليفية إذ أن اختصاصهم بها كان يؤكد سلطانهم ويرفع من هيبتهم علاوة على أنها هى القادرة وحدها على تقديم «تفسير العالم» .

ويشهد تعبير قاله كاهن مصرى قديم هذا الجانب الغير قابل للوصف ، والذى لا يضاهيه شىء ، والذى تتم به الكتابة فى الحضارة المصرية القديمة ، إذ قال : «لا يوجد شىء عظيم أو جميل تم عمله ... دون أن يكون قد تم تسجيله كتابة منذ زمن طويل ...» [2]

ومع ذلك يخطئ من يعتقد أن الحضارة قد هوت فى جب جهالة العالم الخارجى لها بعد أن اختفى قراء أوراق البردى والمسلات من الوجود فلم يكن الليل حالكا تماما بين تيودوز وشامپليون ؛ فقد كانت تضيئه بعض الشعلات التى سمحت بحدوث محاولات وتجارب تقريبية أدت إلى بعض الاكتشافات ، ومن ثم استمرار التراث .

لكن ظلت مصر – الصامتة العظيمة – حية على الدوام !! حية ولكن منقبة .. فى التوراة والثقافة اليونانية والسلطة الرومانية ومن خلال الأفلاطونية الجديدة لعصر النهضة وأخيراً من خلال بعض الطوائف الدينية التي قدست الإلهة إيزيس فى الغرب بعد تحوير الديانة المصرية القديمة .. ولذا يجب أخذ كل هذه العلامات التى على الطريق فى الاعتبار والتى قادت الباحثين وزودتهم بالمعلومات أحيانًا وضللتهم أحيانًا أخرى طوال الفترة من القرن الرابع حتى القرن التاسع عشر ، وهى التى وضعت چان – فرانسوا شامبوليون على الدرب الذى أدى به إلى اكتشافه العظيم فى سبتمبر ١٨٢٢ ، وقد نجح هو دون الآخرين ؛ لأنه عرف كيف يطرح أسئلته على هذه الرموز المتناثرة بصورة أفضل من الذين سبقوه كما عرف كيف يجمع الدلائل ويضبط سويا الفتات الذى جادت به ذاكرة التاريخ ، والتى كانت المادة الأولى التى استعانت بها حصافته .

ذكرت مصر كثيراً فى التوراة (التى يقرؤها شامبوليون فى نصها العبرى وهو فى الثالثة عشرة من عمره) وإن كان ذكرها غالبًا ما كان يجرى على أنها العدو الذى يعذب ويفسد الشعب المختار . وقد سجل چورچ بوزنار عدد ٦٨٠ (ستمائة وثمانين) ذكرا لمصر فى التوراة وفى المقابل لم يظهر اسم إسرائيل سوى مرة واحدة فى نص فرعونى وهو الموجود على لوحة مينيبتاح والذى يقول : «إن إسرائيل قد خربت ولم يعد لبذرتها وجود ..» .

جمع الفلسطينيون وبلادهم فلسطين وفرقوا فى الوقت ذاته بين مصر الفرعونية وشعب التوراة وظلت علاقات الطرفين مضطربة طوال العشرين قرنا المذكورين فى سفرى التكوين والخروج .. فهل يمكن إغفال الدور الذى لعبته مصر فى تاريخ يوسف وفكر موسى وفى تشريعات سليمان أو تضرعات حرميا ؟ وكيف يمكن دراسة مختلف مراحل العائلات الحاكمة فى مصر دون ذكر الغارات التى شنها هؤلاء الآسيويون من الهكسوس إلى قبائل آل كنعان والتى تسببت فى العديد من المشاكل للملوك المصريين .. وجاء ضمن أسماء «القادة الأجانب» المشاغبين التى ذكرها الكتبة المصريون ذكر إبيرريانو والذى يعتقد البعض أنه إبراهيم . ظهر موسى فى فترة حكم الأسرة التاسعة عشرة حين كان العديد من الآسيويين يعيشون فى بلاط فرعون فى حين كان العديد من البدو يعملون بالسخرة فى الوادى . وقد وصلت وعورة الأعمال التى سخروا لها إلى درجة لا تحتمل أدت إلى الخروج من مصر . وهو ما يمكن تحديد زمن حدوثه بعدة عشرات من السنين سبقت تحرير النص الكوارثى المتحدث على لوحة مينا بتاح الذى سبق ذكره أعلاه .

بعد هذه القطيعة المأساوية عادت الوشائج تتواصل بين السلطات المصرية وقادة أورشليم فى عصر تانيس ومملكة يهودا ، وذلك حوالى العام الألف قبل الميلاد .. ولم يخْفِ الملك سليمان ما استعاره من حضارة الدولة المصرية ، والذى يمكن للقارئ المدقق للتوراة أن يسجلها ، ولعله يسمع وهو يقرأ صوت الأنبياء وهم يندون بالحكم المستبد المطلق للفراعنة .

كان كل شيء يتعارض فى النظامين ، فالجانب البشرى الموجود فى تعدد الآلهة المصرية الذى يستوحيه النظام القائم فى طيبة وعلى قمته الملك / الإله ، والذى يعتبر أعجوبة من التوازن الصامد . كان هذا يتعارض مع الأيديولوچية التوراتية التى تتأسس كليةً على معجزة نجاة الشعب المختار من النكبات والكوارث وعلى ولائه المثير للشجن لإله إبراهيم الأوحد . كل شيء عند المصريين هو نظام وعقل واستمرار ، فى حين يعلن كل شيء عند الآخرين عن مأساويته وتفككه وإلهاميته .

غير أن التوراة ذات الرسالة الكونية الشاملة لم تكن لتغفل التعاليم الواردة من وادى النيل ، وهى تلك التى استخلصها شامبوليون عبر قراءته لها ، فهو مؤرخ الحضارات الكبرى وهو أيضا عبقرى فى المقارنة بينها . كان أثر المصدر المصرى - أى ثقافة وادى النيل على الإغريق - على نفس القدر من الأهمية للتأثيرات الحاسمة التى كانت لعبقريتهم بالنسبة لأهل عصر النهضة الأوروبى بعد ألفى سنة ... مع فارق وحيد أن «السفر إلى مصر» كان فرضًا واجبًا على رواد الفكر اليونانى أعظم بكثير من زيارة اليونان على معاصرى إيرازم ورونسار .

قام سارج سونرون [3] بوضع قائمة - غير كاملة بطبيعة الحال - للعلماء والشعراء والفلاسفة اليونانيين الذين أصروا على عبور البحر المتوسط للنهل من المعارف والحقائق فى مصر ؛ لأنهم كانوا يعتبرونها «مهدا للعلم كله والحكمة كلها» . ويضيف سونرون أنه إذا حدث ، ولم يتمكن بعضهم لسبب أو لآخر من القيام بهذه الزيارة الواجبة على كل عالم ومفكر ؛ فإن كتاب سيرهم الذاتية كانوا يعملون على إضافة نص خيالى عن هذه الزيارة التقليدية ؛ لأن عدم إجرائها يجعل من أى مفكر أو مبتكر يونانى شخصية محلية أو غير ذات أهمية .

لم يتخلف أحد من الكبار : أورفيوس الذى اشترك فى الاحتفالات الديونزية - حسب ما أورد ديودور - وهوميروس الذي كرر ذكر «النهر ايجيبيوس» ، والذى أسر أوليسس بالقرب منه ، وذلك فى ملحمته الأوديسا . ولم يتخلف سولون كما ذكرنا من قبل ولا طاليس ولا فيثاغورس .. الذى يقول عنه جاميليك إنه أمضى ما لا يقل عن اثنين وعشرين عاما داخل المعابد المصرية تحصل فيها على العلم الذى «بسببه يعتبر فيثاغورس من العلماء» ، وناهيك عن أفلاطون الذى يُعتقد أنه أقام مع يودوكس فى معيّة كهنة هليوبوليس لمدة ثلاثة عشر عامًا .

وسنرى أن چان - فرنسوا شامبوليون سينسب نفسه إلى أفلاطون ، وذلك فى خطاب وجهه إلى صديقته أنچيليكا پاللى - التى هى أيضا من أصل يونانى - يؤكد فيه أن «أفلاطونيته» ترجع إلى أنه «تشبع بالتعاليم المصرية التى هى المنبع الخصب الذى نهل منه مواطنك أفلاطون ، كما نهل رجل آخر أعظم منه بما أحدثه من عمل خير ألا وهو فيثاغورس ، فشرع شعوب إيطاليا المحظوظين» [4] .

كتب هنرى چوليفى مقال نشرته مجلة سيلكس تحت عنوان مُعبر «أفلاطون عالم المصريات» يؤكد أن صاحب كتاب «تيميه» أخذ عن النموذج المصرى نظريته الخاصة

عن الفن التى تعتبر بمثابة بيداجوجيا إصلاحية وتقويمية ، وكانت مصدر الإلهام لكتابه «الجمهورية» . وعلى العموم فإن أفلاطون والأفلاطونية ذكر بتاريخ الحضارة المصرية فى العديد من مراحله .

أما سقراط ، وإن لم يقم بالزيارة الواجبة لمصر ، إلا أننا نلاحظ أن أفلاطون فى «فيدون» يمتدح السهولة التى يلقى بها سقراط دروساً مصرية ، وهو ما يعنى على الأرجح أن المعلم كان كثيراً ما يستعين «بلوجوس» حكماء مصر .

ومهما بلغت درجة تأثر الكتاب والفلاسفة والعلماء اليونانيين بدروس الحضارة الفرعونية فلم يرتبط اسم أحدهم بمصر بنفس تألق اسم هيرودوت ، فهو يخصص لها خمسة وثلاثين فصلاً عن حولياته ، وهو لا يزال بعد أربعة وعشرين قرناً نموذجاً لا نظير له فى التحقيق البحثى على ضفاف نهر النيل . كان هيرودوت أكثر تحمساً لخصائص مصر الجغرافية ولعادات وتقاليد أهلها أكثر من انبهاره بعظمة فنونها ؛ فقد رأى فى هذا البلد الصامد الأصل المطلق لكل شىء . ولذلك فهى يجب أن تقرأ بل يجب أن تفك شفرتها ... وكان ذلك أعظم دافعاً تأثر به الشاب شامبوليون الذى كان يجيد مثل أخيه الأكبر الدراسات اليونانية كما كان قارئاً نهماً لأبى التاريخ .

أما بلوتارك فقد عاد من مصر وقد كتب مؤلفه «عن إيزيس وأوزيريس» الذى يشارك فى عملية انتشار الطقوس الإيزيسية فى أوروبا ، وهو يدين فى كتابه هذا بالكثير للكاهن مانتيون* فقد كانت مؤلفاته متاحة للتداول فى القرن الأول قبل الميلاد ، وقد استخلص سوزون من ذلك قوله : «مهما بلغ فلاسفة اليونان من شهرة فقد كانوا يرفعون من درجة الإعجاب الشعبى بهم إذا أمكن إرجاع مصدر علمهم إلى المرحلة المصرية» (5) .

لا توجد مثل هذه العلاقة الحميمة المبهرة فى العلاقات المصرية الرومانية . فقد طُبعت هذه العلاقات منذ البداية بكارثة حريق مكتبة الإسكندرية لدى استيلاء قيصر على المدينة فى عام ٤٧ ق. م . وهى المكتبة التى كانت تضم كنوز الثقافة المصرية المحررة باليونانية أو المترجمة عنها ، وعلى وجه الخصوص الثلاثين جزءاً المكونين لمؤلف مانيتون «إچيبتياكا» ثم تأثرت هذه العلاقات بالنظام الاستعمارى الذى فرضته روما على شعب وأرض النيل محولة إياها إلى إقطاعية مصدراً للجباية ، كما تأثرت أخيراً بالنهب المنظم للمواقع والآثار الفرعونية بواسطة الولاة الرومان .

---

* هو كاهن مصرى قديم من القرن الثالث قبل الميلاد ومن ضمن ما كتب تاريخ الأسر الحاكمة المصرية .

ومع ذلك فقد قام چيرمانيكوس برحلة لمصر سجلها تاسيت بدقة فى كتبه وذكر فى كتابه أن كاليجولا كان ممن عبدوا آلهة النيل . وفيما بعد زارها أيضا الإمبراطور هادريان ، وكان معه خليله أنتينوس ، وقام بحفر اسمه على قدم أحد تمثالى ممنون العملاقين .. ثم عندما غرق محبوبه الأثير فى النهر أعطى إحدى المدن المصرية اسم «أنتينويه» .

وعلى العموم ، فإن روما كانت مزينة كلها من ساحة الإله مارس إلى ميدان الإلهة مينرڤا بالآثار الفرعونية والتى عملت على تعريف زوارها الأوروبيين العديدين بالفن المصرى . وبعد ذلك فى عام ١٥٨٨ وضعت مسلة الكرنك فى ميدان لاتران وقبل شامبليون الذى زارها وانبهر بها فى ١١ مارس ١٨٢٥ زار الأب اليسوعى أتاناز كيرشار المدينة الأبدية (روما) قبله بقرنين ومن الكتابات الهيروغليفية المنقوشة على مسلاتها السبعة عشرة حاول حل شفرة اللغة الهيروغليفية .

وعلى الرغم من أن الرومان كانوا يولون لحضارة النيل أهمية أقل من التى كان يوليها أساتذتهم اليونانيون إلا أنهم كانوا عاملا مفيدا فى نشرها . ولم يكن سيسيرون وحده الذى ادعى اكتشاف الأصل الفرعونى لعالم الآلهة اليونانية . وجعل من الإله تحوت إله الحكمة والكتابة أصلا للإله اليونانى هيرماس .. غير أن الكاهن الأفلاطونى «كليمنت السكندرى» أعلن فى نهاية القرن الثانى أن تحوت مخترع الهيروغليفية كان مؤلف النصوص الأساسية للحكمة المصرية القديمة المعروفة بالهيرمتيكية ، (أو السرية) .. عبر هذه المؤلفات ازدهرت فى بلاط آل الميديتشى فى القرن الخامس عشر أفلاطونية حديثة كان منشؤها هو مارسيليه فيشان . وهل يوجد شىء أكثر أفلاطونية من التصور الرمزى الذى تكوّن لدى أهل ذلك العصر عن الحروف الهيروغليفية مما كتبه «هورا بوللون» * وقدم فيه تصوراً للعالم حيث تكون الأشياء رموزاً ، وهكذا فإن عصر نهضة العصور القديمة أثار نهضة مصرية موجودة فى خلفيتها بل تعتبر أحياناً أساسا لها .

وعبر الحركة الأفلاطونية استمر انتشار تيار من الحكمة المصرية حتى عصر الإصلاح المضاد . ظلت الكنيسة تنظر إليه بارتياب ، إلا أنها امتنعت عن مجابهته لفترة زمنية طويلة إلى أن جاء اليوم الذى حكمت فيه على چيوردانو برونو بالحرق حياً .. وعندئذ انكمش الفكر الأفلاطونى الهيروميتيكى فى مجالات علم الفلك والكيمياء والطب والهندسة ؛ حيث «ظلت الحكمة المصرية القديمة تمارس تأثيرها القوى والنشيط» كما كتب إيريك إيڤرسان [6] .

---

* مؤلفه «هيروجليفيكا» اكتشف عام ١٤١٩ فى جزيرة اندروس ونشر بعد قرن من الزمان فى ڤينيسيا .

غير أن الحضارة الفرعونية أخذت طرقًا أخرى أقل سرية من السبل التى طرقتها الأفلاطونية الجديدة لتأصل وجودها فى الغرب وهو عبادة أكثر آلهتها طهارة : الزوجة والأم وسـيـدة الأراضى والميـاه - إيزيس . وإذا كـان تاريخ الولع بالمصـريات (الإيچيبتومينا) أو الجنون الأوروبى بها لم يتم تسجيله على الوجه الأكمل ، فإن تاريخ أحد المكونات الأساسية لهذه الحالة وهو «الإيزيسية» قد كتبه يورجس بالتروساياتيس : وهو «البحث عن إيزيس» (7) فـهـو يرى أن هدّ المعابد ومنع إقامة العبادات وتحريم استخدام الكتابة المقدسة قد حول هذه الحضارة فى نهاية القرن الرابع من مجال دراسة الآثار إلى مجال الروايات والأساطير ، مما دعم انتشارها جعل آلهتها يمنحونها فرصة الأخذ بالثأر بأن انتشرت فجأة عبر الإمبراطورية الرومانية كلها بل وفرضت نفسها بإلحاح على الأفئدة . بعد كاليجولا ودومينيسيان «معتنقى الحضارة المصرية» فى العلن شيد كاراكالا «إيزيوم» أول معبد إيزيسى فوق الكويرينالى فى روما دامجا هكذا عبادة الإلهة الكبرى مع الديانة الإمبراطورية . ومنذ ذلك الحين أصبح آلهة وادى النيل رعاة الفيالق الرومانية من بومبي إلى الدانوب ومن جوليا (فرنسا) إلى الجزر البريطانية وحتى أطراف العالم المتحضر .

وإذا كان قد تم اكتشاف آثار عبادات إيزيسية من بلچيكا حتى مدينة ليون (وكشف كنز شيلديريك الذى عثر عليه فى تورنيه عام ١٦٥٣ أن أسلاف كلوڤيس كانوا يعبدون الآلهة المصرية) فإن أهم هذه الآثار تظهر واضحة فى باريس والمنطقة المحيطة بها . ومنذ القرن السادس عشر أشار چيل كوروزيه أن كنيسة سان چيرمان دى بريه * شيدت فوق موقع إيزيوم معبد لإيزيس - وأن ضاحية إيسى الباريسية اسمها تحوير لاسم الإلهة المصرية ، وأن ضاحية مولون كان اسمها إزيوس . وباريس ذاتها سميت هكذا بعد أن استوعبت جارتها تلك quasi par Isïs .. أما سانت - أمان فهو يذهب إلى أبعد من ذلك ؛ إذ كتب فى عام ١٦٤٤ يقول إن أصل كلمة باريس هو فاريا (ابنة فارعون) إيزيس - فهل من مزيد ؟

وعلى العموم فإن كتاب كبار - كثيرون منهم من رجال الدين الكاثوليك - يؤكدون أن جزيرة لاسيتيه ** كانت مقراً لمعبد إيزيس الذى كان يقع بالقرب من الموقع الذى شيدت عليه كاتدرائية نوتردام ، كما أن هؤلاء المؤلفين يقرون بأن المسيحية تمد بعض جذورها فى الديانة المصرية القديمة . وتذهب كريستين دى بيزان إلى الإيحاء بأن

* فى وسط باريس الحالية (المترجم) .

** وهى فى قلب باريس على نهر السين (المترجم) .

إيزيس هى نموذج للعذراء مريم .. كما يذهب آخرون إلى القول بأن حورس ابن إيزيس هو نموذج مسبق للمسيح .. كما يقال إن بوابات نوتردام وكنيسة سان چيرمان وكنيسة سانت چينييف (التى هدمت عام ١٨٠٦) كانت بها الأدلة على ذلك .

ويوجد ضمن المؤرخين المسيحيين (دون مولينيه ، دون مارتان دون بانييه) من يؤكد أن إيزيس كانت ضمن الآلهة التى يعبدها الدرويد (رجال الدين فى فرنسا القديمة - لاجول - قبل المسيحية) (المترجم) كما يؤكدون أن آلهة أخرى من مصر القديمة كانت ضمن من يقدمون لها الشعائر مثل أوزيريس وأبيس . لقد عارض بعض المفكرين مثل الكونت دى كايلوس هذا النوع من النظريات ولكن يبقى أن إيزيس ظلت من عصر الدرويد إلى العصر الكلاسيكى تؤكد وجودها ضمن الآلهة التى تركتها المسيحية تهيم فى الوجدان الواعى أو اللاواعى للشعب الفرنسى . وهكذا فإن مصر الفرعونية اندمجت معها داخل الميراث الدينى والفكرى لفرنسا منذ ما قبل قرن التنوير والانتشار الهائل ما أطلق عليه اسم «الإيچيپتومينا» أو «الولع المرضى بمصر» .

لم تتوقف مصر - ومن خلال التوراة ثم الحضارة اليونانية - الرومانية ثم الأفلاطونية الحديثة بعد ذلك من خلال الإيزيسية -عن فرض وجودها على العالم حتى لو كان ذلك فى شكل خرافى أو أسطورى . ولكن الحضارة المصرية - وعلى الرغم من هذا الإلحاح الضاغط لم يبق فيها سوى مصدر هائل للافتراضات . وذلك ابتداءً من تاريخ تدمير أعمال مانيتون* التى كانت بمثابة الذاكرة الوحيدة المفهومة للقرون التى اختفت وابتداءً من ذلك اليوم الذى تحدى فيه كاتب مصرى شجاع المحظورات وحفر فى الرابع والعشرين من أغسطس ٣٩٤ م** آخر الحروف الهيروغليفية على أحد أعمدة معبد فيلة .

ماذا كان ممكن «لرجل عادى» من القرن السابع عشر أن يعرف عن مصر ؟ ما عدا ما كانت تقوله له التوراة - التى كان الكاثوليك يتشككون فيها حينذاك - ويقوله الفلاسفة اليونانيون والرومانيون - فإن معارفه كانت قليلة .

لم تساعد الحروب الصليبية كثيراً على معرفة «عالم الكفر» ... هناك ... بعض حجاج بيت المقدس الذين اكتشفوا خط سير العائلة المقدسة والقديس مرقس ، كما أن أغلب من قرأ مؤلفات لابروييار اعتقد أن الأهرامات كانت صوامع سيدنا يوسف وأن أبا الهول كان ينتظر عودة أوديب ..

---

* هذه الأعمال كتبت باللغة اليونانية .

** ندين بهذه الدقة المدهشة لسرج سونرون .

ومع ذلك ففى النصف الثانى من ذلك القرن (السابع عشر) عاد الموضوع المصرى يظهر على السطح من جديد. فبعد أن لفت ليبنيتز* العظيم عام ١٦٧٢ انتباه بلاط فرنسا الملكى النهم إلى أرض الفراعنة . (وذلك لسبب فريد : وهو أن الملك العظيم (لويس الرابع عشر) كان يمكنه أن يضرب هناك «الجمهوريين» الهولنديين بأن يدمر نشاطهم التجارى مع بلاد الهند الشرقية) أرسل الوزير كولبار أحد الآباء الدومينيكان ألمانى الجنسية اسمه ڤانزلاب فى مهمة إلى مصر ، وهو يعتبر أول مستكشف أوروبى لانتينويه .

وفى خط مواز لهذا الاستكشاف على أرض الواقع تعددت تحريات وافتراضات باحث عظيم فى شئون مصر وذلك فى مدينة روما حيث يُوجد العديد من آثارها وهو الأب اليسوعى الألمانى أتاناز كيرشار الذى نشر عام ١٦٥٢ كتابه أوديب المصرى OEdipus AEgyptiacus . وكانت إحدى افتراضاته الحدسية هى التى فتحت الطريق أمام شامبوليون ؛ فهو الذى خمن أن اللغة القبطية – اللغة الدينية لأقباط مصر – هى النسخة الصوتية للكتابة الهيروغليفية .

ولما أشرف القرن السابع عشر على الانتهاء كان القنصل الفرنسى بونوادى مايية يرسم الأهرامات ، ويكتب وينشر وصفا جيدا لها وإن لم يكن يكتفى بذلك فقد كان ينقب ويسرق روائع الآثار وأثرى بها مجموعات الملك [8] الأثرية ومجموعة الكونت دى كايلوس .. وهو فى ذلك كان الرائد الذى احتذى به زملاؤه الذين ورثوا مركزه فى عهد محمد على باشا . ثم بعد بضعة سنوات جاء إلى مصر الأب اليسوعى كلودسيكار ، وكان من دارسى اللغة العربية وملماً باللغة القبطية ، وإذا كان قد حضر فى بداية الأمر بصفته مبعوثا من الوصى على العرش إلا أنه سرعان ما تحول من موظف فى الخدمة الرسمية إلى باحث ذى رؤية شاملة يجوب أنحاء وادى النيل زائرا معبد الكرنك داخلا وادى الملوك مغامرا حتى أبو سمبل ليرسم أول خريطة حديثة لمصر .. قبل أن يموت فى القاهرة وهو يعالج مرضى الجزام .

سجل جان لوكلان ظهور موجة من الولع بجمع الآثار فى القرن السابع عشر تولدت عنها ما سمى بـ «غرف الروائع» وهو يقول : «فى عام ١٦٤٨ ظهرت فى مرسيليا ما أطلق عليه «أصنام من مصر لحفظ الموميوات بإحكام» وهو اسم تورية واضح للتوابيت الأثرية . وعرف عن ريشوليو ومازاران والوزير سيجييه أنهم كانوا

---

* سنرى (فى الفصل التاسع) أنه اهتم بمسألة الكتابة الهيروغليفية .

من كبـار جامعـى التحف . إن أقدم كاتالوج موجود عن المجموعة الملكية وهو المؤرخ فى مـايو ١٦٨٤ يضم بعض الآثار المصـرية . كمـا أن راعى الكنيسـة الخـاص بالملك لويس الرابع عشر – القس فوڤيل – كان يمتلك تمثالا صـغيرا لإلهة القط بست تحمل فى يدها إله الرق . أما نيقولا فوكيه فقد كان يمتلك تبوتين باعهما له بعض التجار جلبوهمـا إلى مرسيليا فى سبتمبر ١٦٣٢ وقد ارتجل لافونتين بعض الأبيات عندما رآهما فى منزل وزير المالية فى سان مانديه :

لم أستطع كتم الضحك

قائلا يا مولاى حورس

إنك أذهلتنا جميعا ..

إن أبناء بلدك

كما يبدون – يرتدون مريلة الأطفال

وأراها مصنوعة بطريقة غريبة .

وقد نشر ميشيل دوڤاشتار مقالا فى مجلة الإيچيبتولوچيا (المجلد ٣٧ لعام ١٩٨٦) تضمن كشف جرد للآثار المصرية الموجودة فى مكتبة لويس الرابع عشر عام ١٦٨٤ ، ويتضح منه أنها كانت تحتوى على ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين قطعة ، منها : تمثال جميل من حجر البازلت يسمى «اليشب الأسود» وأحد الآلهة من حجر السفير الأبيض وعدداً من الجعارين ومن الصلاصل شخاشيخ وسبعة عشر مومياء مصرية منها اثنتان غير سليمتين» .

هكذا فى مطلع قرن التنوير ومع ظهور موجة جنون الولع بمصر بدأ يتشكل نوع من العلوم يمكن تسميته «ما قبل الإيچيپتولوچيا» وهو كان مبنيا على تخمينات كيرتشر الحدسية وعلى أعمال چابلونسكى واقتراحات ڤاربوتون والرسومات التى رفعها مابييه . وملاحظات سيكار .. ولذلك فإن هؤلاء الذين توغلوا فى مصر بعد ذلك ويتصورونها بل ويعيدوا تشكيل صورتها قاموا بذلك على أسس أكثر صلابة .

أول فريق تقدم على الدرب جمع مجموعة مدهشة من الرحالة ثم سار على آثار خطاهم شعراء وموسيقيون وباحثون وعلماء لغات وفلك ومعهم أيضا دجالون وعاملون في مجال التجميل وفنانون تشكيليون وعلماء اجتماع ...

من مجموعة عشرات المتهورين كاشفي أسرار الألغاز نختار ثلاثة :

البحارة الدنمركي فريدريك نوردن الذي أبحر وهو في الثلاثين من عمره إلى مصر ثم أبحر في مياه النيل صعودا حتى فيلة ومعابد النوبة قبل أن يعود ليموت في باريس بعد خمس سنوات تاركا مجموعة رائعة من رسومات «آثار طيبة» .. وقد أثبت أنه كان يتمتع بموهبة فنية راقية وهو يقدم - كما فعل ڤيڤان دونون من بعد - أفضل تصوير وتأثير للفن الفرعوني - ولا شك أن شامبوليون قد اطلع على هذا العمل الرائع وأشاد - كما فعل قبله شاتوبريان - بدقة النقل .

إذا كان نوردن بحاراً فإن ريتشارد پوكوك القادم من ميناء ساوثهامبتون الإنجليزي لم يكن كذلك بل كان رجل دين ولم يسافر من أجل التبشير لدينه بين المحمديين بقدر ما جاء يستكشف روائع الإبداع الفني . ووصل حتى أسوان بعد أن زار الأديرة القبطية على البحر الأحمر . وإننا لنقدر بساطة العنوان الذي صدر به مذكراته عن رحلته : «وصف لبلاد الشرق وبعض المناطق الأخرى» : الرؤيا ثاقبة والأسلوب سلس . وقد نال هو أيضا إعجاب شاتوبريان كما قرأه شامبوليون .

أما كلود - لوي فورمون ، فقد كان أكثر الثلاثة قربًا من عالم المصريات الحقيقي . فهو كان يعمل مترجمًا في المكتبات الملكية . وقد زار مصر السفلى عام ١٧٤٦ ، ونشر بعد بضع سنوات كتاب «وصف هضبتي هيليوبوليس وممفيس» وهو يتميز بأنه حدد بدقة المكان السليم لعاصمة الفراعنة القديمة بالقرب من سقارة عند البدرشين . بل إنه أشار أيضا إلى وجود هرم رابع في الجيزة .

في الوقت ذاته الذي كان هؤلاء الرجال الشجعان ينتزعون فيه من وادي النيل أسراره الدفينة قام آخرون بإضفاء شكل فني وفلسفي للأسطورة المصرية العائدة للانتشار من جديد .

ولم يلهب كتاب مخيلة الغرب مثلما فعل كتاب الأب چان تيراسون الذي نشر عام ١٧٣١ في باريس (9) تحت عنوان «سيتوس» وعنوانه الفرعي «تاريخ أو قصة حياة مأخوذة من الآثار المصرية وعن قصص مصر القديمة» أردف به ملحوظة لم تخدع أحداً :

«مترجم عن مخطوط يونانى اكتشف فى مدينة الإسكندرية تحت حكم الإمبراطور مارك – أورال» . ويؤكد الأب تيراسون فى مقدمة كتابه أنه يدين فى عمله لأستاذين هما مؤلفا كتاب «تيليماك» وكتاب «أسفار فورش» وهما مؤلفان خياليان . كما أنه يشير إلى رجوعه إلى أعمال هيرودوت وديودور وبلوتارك وهى بالطبع المصادر البحثية التى اعتمد عليها .

سيتوس كان أحد أمراء مصر فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ابن الملك أوزوروت والملكة نيفتى التى توفيت تاركة مكانها لزوجة الأب الرهيبة : ديلوكا . إلا أن الطفل يجد حليفًا فى شخص معلمه الحكيم أميديس .. وهنا نلاحظ الخطوط العريضة التى بنيت عليها شخصيات أوبرا الناى السحرى . خاصة وأن التجربة الأولى التى كان على سيتوس أن يجابهها هى ظهور «ثعبان مرعب» وهو نفس المنظر الافتتاحى لأوبرا موزار .

لم تكن رواية الأب تيراسون مجرد تمجيد للحكمة المصرية القديمة ؛ لأن هذا القس هو الذى كان معروفا أنه عضو فى الحركة الماسونية ملأ قصته ببعض الملامح الفلسفية السائدة فى زمنه . فنقرأ مثلا أن سيتوس يقول لمعلمه أميديس الذى كان يمتدح له الأعمال العظيمة التى شيدها الفراعنة : «لا أعتقد أن يجب السماح بتعذيب الناس بحجة تمجيد الآلهة» .

إن أحد أهم الجوانب الملفتة فى «سيتوس» والتى جعلت منه مرجعا من مراجع الماسونية فى ذلك العصر هو ما تضمنه من شعائر وتقوس وأهداف عملية إدخال العضو الجديد إلى الماسونية ، فنقرأ مثلاً هذه السطور : «بعد أن تتم إدخال الأمن إلى قلبه بواسطة النار والماء والهواء يتلقى العضو المقبول حديثًا النور ويصبح له الحق فى إعداد روحه للكشف أمامه عن أسرار الإلاهة العظيمة إيزيس ..» (10) وكان وقع هذا الكشف على سيتوس مثيرًا لدرجة جعلته يتخلى عن وراثة العرش لأخيه ليحتجب وسط الكهنة . ليأتى إليه الملوك والعظماء لاستشارته حول مختلف الأمور ، فقد أصبح أكثر العارفين بالأسرار من بين المتطلعين عليها .

لم تكن قصة «سيتوس» أحد الكتب الأساسية للماسونية فقط كما لم تكن فقط مصدر إلهام موزار لتأليفه أوبرا «الناى السحرى» بل إنها أوحت له أيضا بقصة أوبرا «ثاموس ، ملك مصر» والذى عرضت قبل ذلك بعشرين عامًا (وسوف نعود للحديث عنها فيما بعد) .

أعيد طبع رواية «سيتوس» في ١٧٦٧ و١٧٩٥ و١٨١٣ ، وكان أحد الكتب الأكثر رواجا في ذلك الوقت* ولابد أن قرأها الأخوان شامبوليون خاصة وأن أباهما كان صاحب مكتبة ويمكن إعتبار هذه الرواية إحدى الحلقات في سلسلة العوامل التي أدت إلى وصول كشاف الرموز إلى اكتشافه العظيم .

قد يدهشنا اليوم أن تيراسون قد جعل مصر مصدراً للإشعاع الماسوني علماً بأن عالمها كله كان يدور في فلك الدين ، وكانت خاضعة تماماً لسلطة الحاكم الإله ، وهكذا فعل بعده أيضا موزار وجوته وهولباك وغيرهم من الماسونيين ، ولكن في القرن الثامن عشر وهو عصر «الاستبداد المستنير» فإن الأمر كان يبدو طبيعيا . ذلك لأن قرن التنوير كان يرى التسلط الفرعوني – والذي ندد به سيتوس كما سبق أن أشرنا – أن حضارة وادي النيل هي الترياق المنقذ من سلطة رجال الدين المقيدة للفكر فهي مشبعة بالحكمة والتوازن بالفكر الإنساني والحيوية النشطة . قرن التنوير كان يجابه العالم الأسود والمتشنج للآباء اليسوعيين ورجال الكنيسة الآخرين ورجال محاكم التفتيش والوعاظ المهددين بثوابر الأمور في اليوم الآخر وقادة «الإصلاح المضاد» بالنور الساطع لأمون – رع وبعظمة الشمس الهائلة وبالتوازن الكامل لتعدد الآلهة فهو يعتبره قمة التعبير العقلي .

هذا التيار الماسوني المصري أخذ وجها كاريكاتوريا في شخصية سيئة السمعة اسمها جوزيف بالسامو – وكنايته كاجليوسترو . فقد أعلن نفسه «القفطي الأعظم» – محولا الباء إلى فاء لإضافة مسحة من الغموض الشرقي للصورة التي اخترعها (قفطي بدلاً من قبطي) وأسس عام ١٧٨٤ في سروردبار في باريس «أم المحافل للتحول إلى الماسونية المصرية العليا» ثم جال في أوروبا وذاع صيته في الصالونات والقصور ناشراً طقوساً ادعى أنها «مصرية» ؛ حيث امتزج السحر بالإثارة الجنسية التي تولت عرضها أو ممارستها زوجة بالسامو (11) .

ولم تعتبر هذه القصة مجرد مسلسل روائي لكاتب ساخر فقد أخذت روما ومكتب البابا هذه المغامرة – أو لعلها بدت كما لو أنها تأخذها على محمل الجد لدرجة أنها رفعت على هذا الدجال قضية عام ١٧٩٠ «لممارسته الماسونية» .. وكان من المحتمل أن ينتهي به الأمر بالموت حرقاً ... الواقع أن كاجليوسترو قد انتهى به الأمر في السجن

---

* حولها أحد المؤلفين المغمورين : «تانيفو» إلى مسرحية شعرية عام ١٧٣٩

حيث توفى . ولعله أنقذ نفسه من المصير الأسوء بأن «أقرّ» أن الماسونية هى التى وضعت المخطط العالمى الذى أثمر عن هذه الثمرة المسمومة التى هى الثورة الفرنسية .. وقد استغلت الكنيسة الكاثوليكية هذه النظرية على أوسع نطاق ... غير أن ما يشد اهتمامنا فى هذا المقام ليست القصة فى حد ذاتها - والتى تناولها بشكل جيد جداً جيرار دى نرفال فى روايته «الملهمون Les illuminés » ، ولكن ما يهمنا أن نلفت النظر إليه هنا هو أن يلجأ دجال كبير وذلك فى عصر ڤولتير صاحب كتابى زائير ومحمد إلى مصر ليستقى منها النور الذى يجعل مشروعه يبرق لدرجة خلبت ألباب الناس وذلك على أعتاب العروش المالكة !

إذا كان بالسامو هو كاريكاتير لافتتان قرن التنوير بالحضارة المصرية ، فإن موزار يقدم أسمى صورة لهذا الافتتان . إن الفلاسفة الماسونيين هم الذين قادوه نحو مصر : ففى عام ١٧٧٣ وكان فى السابعة عشر من عمره طلب منه تأليف المقدمة الموسيقية وموسيقى أغانى الكورس وكذلك القطع التى تتخلل فصول عرض مسرحية تاريخية . اسمها «تاموس ، ملك مصر» للمؤلف توبيافون جبلار ، الذى كان يرأس جمعية ماسونية فى مدينة ڤيينا وقد بدأ جبلار بالموسيقار جلوك صاحب أوبرا «أورفيوس» إلا أنه رفض العرض علماً بأن جلوك كان ماسونياً أيضاً .. أما موزار فقد تحمس للعرض حتى أنه أعاد كتابته وأضاف إلى تآليفه الموسيقى بعد سبع سنوات من العرض الأول أى فى عام ١٧٨٠

ازداد افتتان موزار بمصر القديمة بعد أن تعرف على أكثر المستنيرين شهرة إيجناز ڤون يورن صاحب كتاب عن الحضارة الفرعونية ، وهو الذى أوحى بتأليف «الناى السحرى» كما كان الأصل الغامض لصورة شخصية ساراسترو . إلى هذه الفترة يرجع دخول موسيقار سالزبورج عضوا فى المجموعة الماسونية المسماه «نحو فعل الخير» ثم بعد ذلك فى المجموعة الأكثر أهمية وشهرة المسماه «الأمل المتوج حديثاً» .

ولكى نؤكد على أهمية الجذور المصرية لعمل موزار الموسيقى هذا ، فإننا نشير إلى أنها لما عرضت لأول مرة فى أوبرا باريس عام ١٨٠١ كان ذلك تحت عنوان «أسرار إيزيس» ، وبهذه المناسبة نشير أيضاً أن هذا المسرح ذاته هو الذى عرضت فيه قبل ذلك بنصف قرن - أوبرا - باليه «ميلاد أوزيريس» للموسيقار الفرنسى رامو .

لم يكن الجو العام مشبعاً فقط بالموسيقى والأغانى .. فقد كانت خطوط الزخارف والمعمار أيضاً تشارك فى تأكيد الولع المرضى الملح بمصر القديمة .. ففى الوقت الذى

كان فيه ملك بروسيا فريديريك - جليوم الثاني - (وهو بالمناسبة ماسونى أيضًا) - يملك حدائق فى مدينة بوتسدام مزينة بالأهرامات والمسلات وأبا الهول - ويتشبه به جوستاف الثالث ملك السويد فى مدينة هاجا ، كان يتم بناء منبح للعجل أبيس فى درسدن «وكان بمثابة تجميع لكافة المواضيع المصرية الشائعة حينذاك» (12) .. فقد كان المشهد الجمالى الفرنسى يعيد تشكيل ذاته فى نفس هذا الاتجاه . وفى هذا الصدد .

كتب المؤرخ الفنى لوى هوتكور يقول : «منذ عصر لويس الرابع عشر انتشرت تماثيل أبو الهول كتكئات للكراسى وكحاملات لرخام الكونسولات .. والأشكال الإيزيسية المختلفة المنحوتة فى البرونز كانت تثبت فى رخام مداخن تدفئة المنازل . كما أن المسلات كانت تنتشر فى الحدائق بجانب الأكشاك والمبانى الأخرى المستوحاة من الشرق الأقصى» . (13) كل ذلك زاد انتشاره لدرجة الجنون غداة الحملة على مصر ثم طوال فترة الإمبراطورية النابليونية : فلم يكن هذا الاتجاه بمثابة تشبه بتيار سائد لموضة العصر ، ولكنه كان يحدث من باب تقديم فروض الواجب للإمبراطور .

وقد أعطى كتاب وصف مصر والرسام فيفان دونون للفنانين المجملين وإلى المعماريين المستندات الجادة التى تسمح لهم بالاستهلام الدقيق منها .

ومع ذلك فقد ظهر استثناءان أمام هذا التيار الجارف : أولهما يتمثل فى مجموعة مؤلفى كتاب دائرة المعارف أو الإنسيكلوبيديون فقد وقفوا متحفظين إزاءه على الرغم من أن قرن الفلاسفة كله كان يبدو مسكونا بأشباح الأهرامات وأسرار إيزيس والطقوس السرية المصرية القديمة .. والذى يتصفح اليوم الإنسيكلوبيديا الأولى هذه معتقداً أنه سيجد بها العديد من الرسومات الكاشفة عن الولع المرضى بالمصريات الشائع فى ذلك العصر من خلال الماسونية سيصاب بخيبة أمل . ففى باب الآثار القديمة الثرى بالموضوعات لن يجد سوى لوحة واحدة للمعمار المصرى بها صورتان ضعيفتان للأهرام وواجهات المعابد .. علمًا بأن الشخصيتين اللتين أشرفتا على تأليف هذا المرجع الأساسى ، هما ديدرو ودالمبار لم يكن ليرفضا أى شىء للماسونية التى هى مرتبطة ارتباط وثيقًا بالولع بمصر القديمة .

ولا يجد المرء أى مبرر لعدم اهتمام القائمين على هذا المؤلف الأساسى بحضارة وادى النيل العظيمة .. فهل ضايقت «الموضة» المصرية ديدرو ودالمبار فأرادوا أن يقفوا فى وجهها ؟ هل استنبطوا وجود عملية غش وراء هذا التيار يريد العودة إلى نوع من الإيمان المزيف ؟ وهل وجد أن هذه الطقوس الدينية وتلك الأسرار والاحتفالات

التجريبية للدخول فى عضوية الجمعيات السرية عودة مقلقة إلى مقدسات التدين ؟ علينا أن نسجل فى جميع الأحوال هذا التحفظ . فهو موقف لا يبرره عدم وجود مستندات جادة أو آثار حقيقية : فقد كانت روما مليئة بهذه الآثار كما سبق وأشرنا .

أما الاعتراض الآخر الذى تصدى لموجة الولع بمصر القديمة فقد تمثل فى شخص المؤرخ الفنى : وينكلمان فقد نشر كتابه تاريخ الفن عام ١٧٦٤ ، وعندما كان التيار فى أوجه .. ويعتبر هذا الكتاب بمثابة نشيد مدح يمجد هيمنة الحضارة اليونانية لدرجة أن جميع الحضارات الأخرى بجانبها تبدو كما لو أنها موصومة بإدانة فنية ولا يرجع ذلك إلى عدم معرفة چوهان وينكلمان بمصر : فقد درسها بطريقة أعمق من الذين سبقوه ولدرجة أنه يمكن القول إنه ساهم فى الكشف عن عالم الفراعنة . إلا أنه كان يعتبر مصر لحظة زمنية أو ظهور انتروبولوچى مفاجئ فى التاريخ البشرى - ولا يعتبرها فصل من فصول تاريخ الفن . فبالنسبة لوينكلمان تعتبر مصر الفرعونية شاهدا على قدرات الإنسان وعلى قدراته الاجتماعية الخلاقة واهتماماته الدينية لا على عبقريته الفنية . إنه يرى فيها مجتمعًا فى طور التكوين مما يشمله من آلهة وكهنة وملوك . مقدمة أو مسودة لنظم كانت ستظهر بعدها - وهو لذلك لم ير فيها الجمال الذى يعبر عن نفسه وهو الشىء الذى يعود اكتشافه إلى شامبوليون .

قبيل اندلاع الثورة الفرنسية أضيف مؤلفان مهمان إلى المجموعة الشاملة للمراجع المصرية التى كانت تمكن العلماء من مختلف التخصصات من المراجعة والبحث .. ويعتبر أحد هذين المؤلفين من الأعمال الرئيسية الهامة * .

كلود سافارى كان يسافر للمتعة الشخصية . وكان عمره ستة وعشرين عامًا عندما قام برحلته إلى مصر حيث مكث فى القاهرة وضواحيها القريبة ثلاث سنوات بين ١٧٧٦ حتى ١٧٧٩ لم يكن عليمًا بمصر القديمة علمًا بأنه قرأ أعمال «مابيه» و «سيكار» وهو يرجع إليهما دون ذكر اسميهما - بل كان اهتمامه منصبًا على المجتمع

---

* من الصعب أن نحدد هنا بدقة مكانة سونينى دى مانونكور وهو معاصر لسافارى ودى فولنى . أما كتابه «رحلة إلى مصر السفلى والعليا» التى قام بها بين عامى ١٧٧٧ و١٧٨٠ لم ينشر سوى عام ١٧٩٩ - بالإضافة إلى أنه كان من تلاميذ علامة الأحياء «بوفون» ولم يلق على آثار مصر الفرعونية سوى «نظرة سريعة قلقة» فلم يشاهد طيبة سوى من بعد و «فى عجالة»

المصرى المعاصر له . غير أن كتابه «خطابات مرسلة من مصر» يحتوى على الأقل على وصف لرحلة قام بها للجيزة . كتب فيها : «رأينا قمتى هرمين كبيرين إن منظر هذه الأثريين العتيقين اللذين قاوما تخريب الأمم وسقوط الأمبراطوريات وآثار الزمن المدمرة يثيران الاحترام فى النفوس ... تحية إلى آخر عجائب العالم السبعة !! وتوقيراً لعظمة الشعب الذى شيدها !!» .

ثم يلى ذلك وصفًا لزيارته هرم خوفو وهو يزحف بين الثعابين والخفافيش داخل المجرى المؤدى للغرفة الجنائزية وتابوتها المفتوح والمنهوب . كان هذا الكاتب ذا نية حسنة ومتفاءل ويتضح ذلك فى هذه الرسالة التى تضمنتها مجموعة «خطابات مرسلة من مصر» . يقول فيها : «إذا وضع هذا البلد الجميل بين يدى أمة صديقة سيعود ليصبح مركز تجارة العالم كله . والجسر الذى يربط بين أوروبا وآسيا . وستعود هذه البلاد السعيدة لتكون مرة أخرى وطنًا للعلوم وأسعد مكانا يقام فيه فى العالم . صدقنى يا سيدى إذا قلت لك أن هذه المشاريع ليست تهيئات مستحيلة التحقيق» . لذلك يمكن اعتبار ساڤارى بالرجوع إلى هذا الحديث ، أحد رواد الحملة التى جردت بعد ذلك بخمسة عشر عامًا .

أما كونستانتان دى شاسبوف ، وكنيته «ڤولنى» فقد كان معدنه مختلفًا . فهو مولود عام ١٧٥٧ فى منطقة مان ولوار وهو صديق للانسيكلوبيديين وكان شديد الإعجاب بفولتير لدرجة أنه اختار كنيته هذه تعبيراً دائمًا عن تبجيله لأستاذه فالمقطع الأول مأخوذ من الجزء الأول لفولتير والمقطع الثانى مأخوذ من المقطع الثانى للبلدة التى يقيم فيها : فرنى .. كما أنه لم يبدأ رحلته إلى الشرق من عام ١٧٨٣ إلى ١٧٨٥ إلا بعد أن درس اللغة العربية لمدة سنتين كاملتين .. وكان ذلك دون جدوى فقد اتضح له أن ما درسه فى الكوليج دى فرانس علاقته بعيدة عن المستخدم فى الحياة اليومية لسكان وادى النيل .

إن كتابه «رحلة إلى مصر وسوريا» الذى نشر عام ١٧٨٧ يدخل فى باب علم الاجتماع ويعتبر تمهيداً لما كتبه «توكڤيل» بعد ذلك . وقد نشر مرة أخرى عام ١٨٥٢ ضمن أعماله الكاملة وتظهر فى مقدمة الكتاب مقدمة – لم يذكر اسم محررها – يؤكد فيها أن «الرحلة ..» «عرفت نجاحا سريعا ومتألقا وأقل إثارة للجدل عن أى كتاب آخر» وينقل كاتب المقدمة عن الجنرال بارتيه قوله فى كتابه «سرد للحملة على مصر» : «إن كتاب ڤولنى كان بمثابة دليل الفرنسيين فى مصر . وهو المؤلف الوحيد الذى لم يخذلهم أبداً» .

يصف ڤولني بدقة المكونات المختلفة لسكان مصر وهو يقول عن الأقباط : «هذا الجنس من الرجال السمر عبيدنا وموضع ازدراءنا هو نفس الجنس الذى ندين له بفنوننا وعلومنا وحتى باستخدامنا للتعبير بالكلمات» – وعن المماليك يقول : «إنهم عبيد لأقصى الأسياد استبداداً لا قانون لهم سوى العنف الذى يتسم به العسكر المتوترين والأجلاف (....) وإذا اجتمعوا كان ذلك تجمهراً وإذا ساروا فمحتشدين وإذا حاربوا فهم كقطاع الطرق (....) إن نفوسهم نفوس الأرقاء وهم فى منزلة الملوك ...» .

وبعد أن يرجع إلى أعمال مابيه وسيكار وبوتوك ونورد ونيبور وسافارى يتسائل ڤولني : «ما هو مصدر تحمس الرحالة إلى مصر ؟» أما هو فتحليله لا تجد فيه أى قدر من الحماس ؛ إذ يقول : «إن فنون مصر الآن هى فى مرحلة الطفولة والأفكار فيها تعيش عصر البربرية (...) هيئتها العامة هى الانهيار التام والفقر المدقع (...) هذا الشعب يستحق الشفقة لا الازدراء وهو سيتحرر من عبوديته إن توفرت له الوسائل (الآن) النار المكمورة لا تنتظر سوى اليد التى تعرف كيف تحركها ...» .

ثم نقرأ هذه التأملات التى لابد وأن تثير الإعجاب ، فهى ترفع من شأن المعبر عنها من كونه رحالة جسور إلى مستوى المؤرخ :

«لا ريب أن الاهتمام بهذا الشعب هو الذى يجب أن يثير الاهتمام بالآثار .. ولكن إذا امتلكت مصر أمة محبة للفنون الجميلة * فهى ستجد فيها إمكانيات تسمح بمعرفة العصور القديمة وهى الإمكانيات المستعصية علينا فى أنحاء الأرض الأخرى (...) إن هذه الآثار القديمة الشامخة مدفونة فى الرمال لتصونها كما لو كانت فى خزن خاصة وذلك لمصلحة الأجيال القادمة .. وعلينا أن نؤجل رجاءنا وأملنا فى حل لغز اللغة الهيروغليفية إلى ذلك الحين ولعله يكون أقرب مما نتصور . علماً بأنى أعتقد أن الوسائل المتاحة حالياً تكفى للوصول إلى حل الشفرة هذه» .

ويمكن أن نتصور تأثير قراءة هذا الكلام على رجال مثل بونابارت وشامبوليون من بعده – فهو كلام واضح جامع عن التفكك الذى يستدعى الفاتحين وعن الإمكانات التى هى بمثابة الإلهام بالنسبة لجلاّب الحضارة وعن العجائب التى تنتظر المستكشفين وعن الأسرار التى تلهب خيال الباحثين .. وإذا كنا لا نعرف على وجه الدقة تأثير كتاب

* نفس التعبير تقريبا استخدمه سافارى كما سبق ما أشرنا فى الصفحة السابقة . وهو بمثابة دعوة جديدة للاستعمار .

ڤولنى على الفيلسوف فإننا نعلم عن يقين أن الجنرال كان من قرائه المتحمسين ، وأن منه الرفيق الذى لا يفارقه فيما يتعلق بالشأن المصرى ثم أصبح فيما بعد من أصدقاء المؤلف .

عرف القرن الثامن عشر قمة المجد بقيام الثورة الفرنسية بظلالها وأنوارها ويتزامن معها وصول الولع المرضى بالمصريات إلى هذه الدرجة السامية ذاتها وأفضل المعبرين عن الحكمة المتزايدة التى تميز بها هذا الزمن المضطرب هم ثلاثة رجال : نيقولا دى بونڤيل وشارل دوپوى وألكسندرلونوار .. فقد ساهمت الدعاية (ولو كانت كلمة بروباجندا قد اخترعت فى ذلك الوقت لكانت التعبير الأدق) التى قاموا بها فى إثراء الأيديولوچيا التى قامت فى البداية على أساس الموضوعات المستقاه من أهل روما القديمة كما كان يتصورها الرسام داڤيد فى لوحاته - بموضوعات مصرية كما أنهم جعلوا من أحد أعظم الاحتفالات طقسًا دينيًا إيزيسيًا هائلاً ، وكان ذلك بمناسبة افتتاح النافورة التى أقيمت على أنقاض الباستيل . نافورة «إعادة الشباب» .

● نيقولا دى بونڤيل كان من الماسونيين وكان من المقرر إعدامه بالمقصلة لولا أن قيام حركة التاسع من شهر تيرمبور الثورى أنقذ رقبته . وقد نشر كتاب «روح الأديان» عام ١٧٩١ حاول فيه - كما فعل أستاذه كور دى جوبلان - أن يجعل من عالم الآلهة المصريين القدماء المصدر الرئيسى لأفكار الثورة وإرهاصات ميلاد دينٍ عالميٍ جديدٍ تكون أهم آلهته إيزيس والمسيح وفى ركبهم يسير آلهة مصر الآخرون .

● شارل دوپوى كان أستاذا فى الكوليج دو فرانس وعضوا فى الجمعية التأسيسة نشر بعد ذلك بثلاث سنوات كتابا عنوانه «أصل الديانات أو الديانة العالمية» والذى زعم فيه أن هذا الأصل لا يمكن أن يكون سوى على ضفاف النيل . ويزعم فيه أن المسيحية ما هى سوى اقتباس للمعتقدات المصرية القديمة . ويذهب مريده سيلڤان ماريشال إلى أبعد من ذلك شارحًا ما قاله على طريقته بأن كتب يقول : «إن عابدى المسيح لا يعرفون أن تقديسهم لمريم مصدره موجود على ضفاف النيل» [14]

● الكسندر لونوار كان من تلاميذ دوپوى .. عين عام ١٧٧٠ مسئولاً عن المبانى العامة . وبعد ذلك بتسعة عشر عامًا نشر كتابه : «شرح الكتابة الهيروجليفية» * .. وكان هذا الكتاب هدفًا لأسلوب شامبليون الساخر فيما بعد .. ولكنه كان يؤكد فى

---

* انظر الفصل السابع .

وقت قيام الثورة وبإصرار ، مستنداً فى ذلك إلى الهيبة التى تضفيه على شخصه وظيفته الرسمية ، أن المسيحية ليست سوى تحويراً لديانة طيبة وأن «الأشكال الرمزية للشخصيات التى تتزين بها واجهات كنائسنا القديمة هى نوع من الرموز الهيروغليفية المشابهة للرسومات المصرية القديمة» .

وتعليقاً على ذلك كتب بالتروسايتيس يقول «لقد انقلبت الأوضاع فى الفكر الثورى . لم تعد مصر أسطورة للحكمة الموازية للعهد القديم فى التوراة . فقد استخدمت الأسطورة المصرية حينذاك فى عملية إسقاط المسيحية وذلك بإعادتها إلى مستوى الديانات البدائية . واعتبرت رواية أوزيريس وقصة المسيح رمزاً للموت والعودة إلى الحياة كما هو الحال بالنسبة للدورات التى تعرفها الطبيعة ...» . ويضيف بالتروسايتيس قائلا : «ولكن من المعروف أن أى نضال مناهض لأى دين ينتهى به الحال بأن يصبح دينا آخر» . [15] وقد اعتنق الكسندر لونوار دين إيزيس وأصبح ابتداءاً من عام ١٨١٢ أهم المبشرين به . المهم هو أن كل شىء كان يأتى من مصر ويعود إليها .. ولذلك فإن الشاب الذى بدأ يدخل مرحلة الوعى فى بداية القرن الجديد لم يجد موضوعاً جديراً بالاهتمام أكبر من «مصر الصامتة» .

فى خضم هذه اللجة من حمى الولع بمصر وتخيل عالم آلهتها بزغت أكثر الأفكار جنوناً والتى يمكن أن تعبر أبداً عن فكر رجل من رجال الدولة وخاصة إذا كان رجل الدولة هذا هو شارل – موريس دى تاليران – بيريجور وزير خارجية حكومة «الديركتوار» الذى يعتبر أكثرهم وضوحاً وأكثرهم رجاحة وعمقاً فى رؤاهم . فهو الذى حوّل حلم الحملة على مصر الذى داعب خيال بعضهم إلى مشروع سياسى وحربى علماً بأنه نفى ذلك فيما بعد .

الفكرة نفسها نبتت قبل ذلك بفترة طويلة – ففى كتابه «التاريخ العالمى» أكد «بوسوييه» [16] أن إعادة الكشف عن روائع طيبة قد تكون من الأعمال السامية الجديرة «بالملك العظيم» (لويس الرابع عشر) .. ثم فى منتصف القرن التالى – الثامن عشر – جعل «شوازول» من نفسه بطل حركة المطالبة بضم وادى النيل إلى فرنسا : الواقع أن تاليران عندما أعلن تأييده لفكرة قيام حملة عسكرية على مصر على أساس ما أورده فى شرح أسباب ذلك قنصل فرنسا فى مصر ابن مرسيليا : شارل ماجالون – رجع فى تأييده هذا إلى سلفه الأشهر شوازول – وكان ذلك فى صورة بحث تقدم به إلى «معهد فرنسا» (لانستيتو) عام ١٧٩٧ ثم فى مذكرة بعث بها إلى حكومة الديركتوار فى يناير ١٧٩٨ أوضح تاليران فى هذين البحثين أن الامبراطورية العثمانية على وشك الانهيار وعليه فيتعين على فرنسا أن تستولى على بعض من حطام هذا الانهيار وعلى مصر بالذات ، خاصة وأنه لم يعد لتركيا فيها «أى قدر من السلطة» .

وقد ناقض شاتوبريان هذا الكلام فيما تضمنه كتابه «مذكرات من وراء اللحد» :
«يتحمس الفرنسيون لدرجة النشوى بالحملة العسكرية على مصر .. إنهم لا يرون أنهم بذلك يطعنون النزاهة بنفس القدر الذى يطعنون به أيضًا الحق السياسى : ففى إطار السلام الذى يخيم على العلاقات التى تربطنا بأقدم حلفاء فرنسا * نقوم نحن بمهاجمتها وننتزع منها مقاطعتها الخصبة فى وادى النيل .. وذلك دون ما إعلان لحرب كما لو كنا مثل الجزائريين فى إحدى غزواتهم على مرسيليا أومقاطعة بروڤانس [17] ليستولواعليها . »

فى تقرير تالى رفعه الوزير لحكومة الديركتوار فى الرابع عشر من فبراير ١٧٩٨ عاد مرة أخرى يستشهد بآراء سافارى وڤولنى ليؤكد«إن مصر لا تنتظر سوى قيام حكم عاقل ومتنور ليستثمر ثرواتها» وراح بعد ذلك فى تطوير فكرة جديدة مفادها أن احتلال مصر سيسمح بإعادة فتح الطريق إلى الهند من السويس وهو بمثابة «ضرب انجلترا فى مقتل» . كان الموضوع إذن فى تصور تاليران هو القيام بعملية ذات هدف مزدوج استعمارى واستراتيجى . علاوة على كونها مناورة فى السياسة الداخلية : فمثله مثل بقية أعضاء حكومة الديركتوار – وعلى رأسهم الوزير بارّاس أراد تاليران أن يبعد بونابارت عن فرنسا فاتح إيطاليا وكانت شهرته قد بلغت أوجها مما بدأ يهدد السلطة القائمة التى هى أصلا هشة وضعيفة . ولكن بونابارت تردد فى قبول المهمة حسبما قال أخوه جوزيف . وإذا كانت فكرة المغامرة قد داعبته للغاية كما تشهد على ذلك برقية بعث بها إلى «الديركتوار» قبيل عودته من راشتات وما أسرّ به إلى سكرتيره بوريان فى إيطاليا إلا أنه استشعر – كما يورد فوشيه(وزير الداخلية) – فخًا ينصبه له باراس وتاليران» ولكن ما هو الحل ؟ هل يعبر البحر إلى انجلترا فيكون ذلك مخاطرة أكبر مما يمكن أن يحتمل نتائجها أم يبقى على حاله فيتآكل هو وما قام به أيضًا ؟ اختار إذن أن يسلك الدرب الذى سبقه عليه قيصر ... نحو الشرق فى أثر الإسكندر الأكبر . اختلطت فى نفسه أكثرالأحلام رومانسية مع أكثر الأفكار واقعية وأكثر الحسابات دقة . لابد وأنه رأى ما فى هذا المشروع من «هوس الجنون» [18] إذ أنه سيحرم فرنسا من أفضل جيش لديها ومن أفضل جنرالاتها الاستراتيجيين فى الوقت الذى كانت الحرب تتهددها من جديد .. بل إن المشروع كان يمكن أن يغرقهم تمامًا وإلى الأبد لما كان لانجلترا من تفوق بحرى هائل فى البحر الأبيض المتوسط .. وعليه فما هو مقدار فرصة الأسطول الفرنسى فى الإفلات من مطاردة نلسون له ؟ الإجابة هى : الفرصة معدومة ... ومع ذلك اختار بونابارت أن يعتمد على نجمه العالى .

---

* إشارة إلى المعاهدة التى أبرمت فى القرن السادس عشر بين فرنسوا الأول والعاهل التركى .

لما كان العدو الرئيسى فى لندن وإمعانًا فى تضليله حتى لحظة الإقلاع فإن الوجهة الرسمية للحملة البحرية كانت الجزر البريطانية وكان النداء الذى وجهه بونابارت لقواته لحظة فرد الأشرعة فى ١٩ مايو ١٧٩٨ يبدأ هكذا : «أيها الجنود ، إنكم أحد أجنحة جيش غزو انجلترا .. ولذلك فعليكم أن تخوضوا حروب البحار ...» .

حاول نابليون فى منفاه بجزيرة سانت هلين أن يسرد أنبل رواية لأحداث هذه المغامرة المتهورة للماريشال برتران * واستمر هذا السرد لعدة أيام طوال ... كما أن نابليون يكرر على مسامع لاس كاز ما يدعى أنه قاله أثناء الحملة : «لقد جئت لكى أحول اهتمام أوربا وأثبت أنظارها على العالم القديم فى مركزه» (19) أى أنه اعتبرها نوعا من «الدعاية لمصر» .. ولكن يخطئ من يكتفى بالاستهزاء من هذا القول – لأن الرفعة والسمو عنده كثيرا ما كانا يتواءمان مع البشاعة واللا معقول .

يجدر أن نسجل أيضا أن عام ١٧٩٨ هو الذى ظهر فيه كتاب إيتيان لوتييه «رحلة أنتينور إلى بلاد اليونان وآسيا» الذى طواه النسيان وقد أقر المؤلف أنه نقله عن كتاب الأب بارتيليمى : «رحلة الشاب أنارشازيس» .وعشية قيام الحملة كتب شاتوبريان مشيراً إلى هذا الكتاب عند نشره فيقول : «.. حتى «رحلة انتينور» بدت فى أول الأمر على أنها واقع جاد : «سندخل إلى مصر الغامضة .. نفتش أرجاء الأهرامات ... نفك طلاسم الهيروغليفية ..» (20) .

وبشكل عام فإن فكرة تكليف الحملة العسكرية بمهمة علمية عظمى موازية لها تكشف عن أكثر الجوانب إيجابية فى عبقرية بونابارت . فى كتابه «مغامرة بونابارت فى مصر» (21) كتب الكولونيل الإنجليزى «إلجود» يقول : «تعتبر هذه الحملة بمقارنتها بجميع حروب نابليون أعظمها من الناحية الإنسانية وأكثرها جدارة بالاهتمام» كما أنه يشير أيضا إلى أن مثل هذه الأفكار قد دارت من قبل فى ذهن كل من ريشوليو .. كولبار وهناك آخرون يفضلون الإشارة إلى سابقة الإسكندر الأكبر الذى اصطحب معه أيضًا المفكرين والفنانيين» .

بعد عودته من إيطاليا بفترة قصيرة انتخب بونابارت عضوا فى «المعهد» أو «الإنستيتو» قسم «الميكانيكا» . وما أن اتخذ قرار القيام بمغامرته فى مارس ١٧٩٨ إلا وسارع باستدعاء زميليه مونج وبرتوليه – الأول رياضى أشهر والآخر كيميائى عظيم – لينضموا إليه فى مشروعه . ويبدو أن مونج قد تثاقل فى بادئ الأمر مما حدا به بأن يكلف برتوليه بتجنيد أعظم الرجال من أجل القيام بحملة علمية كبرى دون تحديد

* برتران كان هو أيضًا من أعضاء الحملة على مصر .

وجهتها كما أنه كلف الجنرال كافاريللى دو فالجا ضابط سلاح المهندسين الذائع الصيت والجدير بالاحترام – ليقوم بالمهمة ذاتها .

بعد شهرين كان الجنرال القائد الأول «لجيش حملة انجلترا» فى طريقه إلى ميناء طولون وهو على يقين من أنه يمكنه أن يعتمد على خدمات كتيبة مكونة من أفضل العقول التى عرفها ذلك العصر . وقد أعلن نابليون حينذاك : «ثلث أعضاء «المعهد الانستيتو» مصاحبون لنا فى الحملة» . ولكن ما هو الهدف من ذلك ؟ لقد بقى السر محفوظًا * بدقة على الرغم من أن بونابرت قد قام بمصادرة جميع الحروف العربية الموجودة فى جميع مطابع روما وأن سيلفستر دو ساسى المكلف بتدريس اللغة العربية فى الكولاج دو فرانس قد اشتكى من أن أفضل تلاميذه قد تم تجنيدهم فجأة فى حين أن زميله أستاذ العلوم الشرقية لانجلاس – الذى سيدخل فى صراع مع الأخوين شامبوليون – رفض الانضمام للحملة كما رفض الشاعر دوسيس والموسيقى ميهول .

سواء سافر لانجلاس أم لا فإن بريق هذه الكتيبة لم يضاهيه بريق أى مجموعة أخرى فى ذلك العصر : ١٦٧ عالما ومهندسًا وفنانًا وعالم آثار (اثنان منهم عادوا أدراجهم بعد الوصول إلى مالطة) كانوا أعضاء نذكر منهم : مونج وبيرتوليه وفورييه (الذى سيلعب دورًا هامًا فى موضوعنا هذا) وجوفروا سانتيلار – وعالم الاقتصاد چان – باتيست سى وعالم الجغرافيا إدم چومار والمهندس نيقولا كونتى وعالم المعادن ديودا دى دولوميو والطبيب جراح لارى (الذى قال عنه نابليون فى وصيته أنه «أكثر الرجال الذين عرفتهم فضيلة») والطبيب دى چينات والرسامان دوترتر وردوتيه والمستعرب فانتور دى بارادى – الذى أصبح مترجم بونابارت والذى لقى حتفه فى حصار عكا – وأهمهم من وجهة نظرنا «ڤيڤيان دينون» رسام وعالم من علماء الجمال وروائى و«مراسل» صحفى والذى أصبح مؤرخ الحملة والذى سنلقاه بعد قليل بصفته هذه .

---

* كتب عن ذلك ڤيلار دوتراج فى «يوميات وذكريات من الحملة على مصر» (١٨٩٩) : «قرار الحملة على مصر اتخذه الديركتوار فى ٥ مارس ١٧٩٨ (١٥ فانتوز عام ٦) . وانتشرت الشائعة فى أنحاء باريس تقول أن هناك حملة جديدة على وشك أن تقوم (...) ولا أعلم لماذا تصور البعض أنها ستكون بعيدة على الرغم من أن مقصدها ظل سرًا لا يعرفه أحد . ومع أن البعض قال أنها ذاهبة إلى انجلترا إلا أن القليل من الناس صدقوا هذا القول على الرغم من الأمر الذى أصدرته الحكومة إلى بونابارت بالتوجه إلى ميناء بريوت . وسرعان ما عُرف أن مونج وبرتوليه ونوربيه والعديد من العلماء سيصاحبون الجنرال القائد العام فى حملته التى بدت أنها ستكون علمية بقدر ما هى عسكرية .

وماذا عن علماء المصريات ؟ لا يوجد أحد - لسبب بسيط هو أن علم المصريات لم يكن معروفا بعد وأن هؤلاء الرجال بالذات هم الذين سمحوا لچان - فرنسوا شامبوليون بأن يؤسس هذا العلم بما نتج عن رحلتهم من تسجيل للملاحظات وجمع المستندات ورسم للصور وجمع للمواد والأشياء - وهناك سبب آخر وهو أن الأصل فى الحملة كما تصورها مخططوها بما فيهم بونابارت هو أنها حملة استعمارية . وأصطحاب العلماء كان هدفه الأول هو الإعداد للاستغلال العلمى والتنمية التقنية للبلاد . لقد كان الهدف الموضوع لمهندس المساحة والميكانيكا والتعدين ولعلماء الطبيعة والاقتصاد والكيمياء والچيولوچيا هو إقامة أول عمل استعمارى علمى ولم يكن الهدف هو البحث عن سيزوستريس . ولكن حدث بعد فترة أى فى صيف ١٧٩٩ أى بعد فشل العملية السياسية العسكرية أن قرر بونابارت عشية انسحابه المفاجئ أن يثأر من القدر بطريقة مدهشة بأن أرسل حملتين علميتين إلى مصر العليا بهدف إرساء أسس ما عرف فيما بعد بعلم المصريات .

لن ندع أنفسنا نروى أحداث المعارك التى جرت من الأول من يوليو ١٧٩٨ حتى الثانى من سبتمبر ١٨٠١ والتى أدت - مروراً من انتصارات براقة إلى كوارث كبيرة ، من الأهرامات إلى أبو قير ومن عكا إلى طيبة ، قبل وبعد الانسحاب السرّى للجنرال القائد العام (٢٢ أغسطس ١٧٩٩) - إلى الرحيل المخزى لما تبقى من قوات الحملة (أربعين فى المائة من القتلى والمفقودين) على ظهر الأسطول البريطانى . فمن وجهة النظر هذه كان الفشل ذريعاً والخسائر فادحة والمحصلة النهائية كئيبة .

إن ما يهمنا هنا - مع وعينا بأن نشاط البعض لا يمكن فصله من العمليات التى قام بها الآخرون - هو ما اتخذته اللجنة العلمية فى مجال المعرفة بمصر القديمة والحديثة - أكثر من اهتمامنا بالتحركات التى قام بها بونابارت وكليبر . ودوسى وصورا مع العلم بأن عملياتهم هذه كثيراً ما كانت هائلة - وسنرى فى هذا الصدد أن ثقافة شخصية مثل دوسيه أوبيليار أو مينو قد أفادت المكتشفين والفنانين .

فى ٢٢ أغسطس ١٧٩٨ أى بعد بضعة أسابيع من دخول القاهرة أسس بونابارت «معهد مصر» * واحتفظ لنفسه فيه بمقعد فى قسم الرياضيات إلى جانب كافاريللى وأيضاً (فى المراحل الأولى) إلى جانب ياوره المقرب له چوزيف سولكوفسكى الذى كان

---

* يطلق عليه اليوم «المجمع العلمى المصرى» ومقره بالقاهرة بشارع القصر العينى إلا أننا سنحتفظ هنا بالترجمة الحرفية له «معهد مصر» Institut d'Egypte (المترجم) .

نبيلاً بولندياً انضوى تحت لواء الثورة الفرنسية وكان دارساً متميزاً للغة العربية وقتل خلال ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) .

كانت أعمال المعهد ذات أبعاد ثلاثة : الأولى وهى ذات صبغة استعمارية أولية استهدفت المنفعة الفورية : مثل خميرة الخبز وصيانة الترع وتحسين الرى وإنشاء الورش وكان الذى يسهر على هذه الأنشطة هو «كونتى» وكان يتمتع بفكر خلاق لا مثيل له وكانت هذه الأعمال تعمل على تلبية احتياجات الجيش الميكانيكية والمادية وعلى تجهيز البلاد بالمعدات اللازمة وإلى تنمية المنتجات الزراعية ... بينما كانت توجد مطبعتان تنشر إحداهما صحيفة «لوكورييه دو ليجيبت» تحت إدارة فورييه سكرتير عام المعهد و «لاديكاد إيجيبسيان» تحت إشراف تاليان .

النوع الثانى من الأعمال التى نيطت بالمعهد كانت تلك التى تستهدف تقييماً علمياً لحالة مصر المعاصرة . وأحد نتائج هذا النشاط هو الصرح العظيم كتاب «وصف مصر» . الذى هو بمثابة شاهد على عصر ألفته مجموعة من العلماء المثقفين ونشر منذ ١٨٠٩ فى عشرين جزء ويعتبر الانعكاس الأكثر دقة للواقع سمح به تقدم العلوم فى ذلك الوقت . وسنعود إلى الحديث عنه بالطبع .

أما النوعية الثالثة لهذه الأعمال فقد انكبت على إعادة اكتشاف مصر القديمة . كان بونابارت واقعاً تحت سحر الإسلام (وكان قد أعلن أنه حامى الإسلام لدى دخوله القاهرة علماً بأنه أقر فى منفاه بجزيرة سانت هيلينا فيما بعد أن قوله هذا كان فيه شىء من «الشعوذة») ويبدو أنه لم يكن يعطى اهتماماً كبيراً بالحضارة الفرعونية . وفيما عدا الأهرامات التى أتاحت له فرصة النطق بعبارة صارت تاريخية – علماً بأن البعض يشكك فى أنه أطلقها أصلاً فإن صروح وآثار وادى النيل لم تؤثر فيه فيما يبدو كثيراً .. فإذا طالعنا كتاب «تذكار سانت هيلين» سنقرأ ما يلى :

«يقول لاسكاز إنه كان (أى بونابارت) يعتبرأن كل ما رآه فى مصر وعلى وجه الخصوص هذه الأطلال التى تثير كل هذا الإطناب لا يقبل أى مقارنة بباريس (...) وكان الفرق الوحيد فى رأيه يكمن فى أن مصر تحتفظ بآثار خالدة بفضل صفاء سماءها وطبيعة موادها الأولية فى حين أن درجات الحرارة الأوروبية لا تسمح بذلك أبداً فى بلادنا ... وكان يندم كثيراً على الرغم من ذلك لأنه لم يقم معبداً مصرياً فى باريس [22]» .

عندما زار الجيزة رفض أن يزور الهرم الأكبر من الداخل لأنه اعتبر أن الزحف يعتبر عملاً لا يليق بمكانة القائد العام إلا أن رؤية الأهرامات جعلته يعلق عليها تعليقاً غير عادى ، إذ صُعق مونج عندما سمعه يقول إنه طبقًا لحساباته فإن الأحجار المستخدمة فى بناء الأهرامات الثلاثة تسمح ببناء سور ارتفاعه ثلاثة أمتار حول فرنسا (وقد تأكد الرياضى مونج من صحة هذه الحسبة ..) . غير أن ج . س – هيرولد – أفضل المؤرخين البريطانيين للحملة – يشير إلى أن بونابارت «وكان قادراً على تقييم جدوى ما هو عديم الجدوى» شجع هذا النوع من الأبحاث بعد أن شعر بأنها ستعود على بلاده بمكانة عظيمة .. وما أن صدر هذا التشجيع إلا وانطلق عديد من أعضاء اللجنة العلمية على الرغم من أن تكوينهم العلمى لم يكن يؤهلهم لأداء دور «الأثريين» فى رسم المعابد والباروليف ونسخ الهيروغليفيات على قدر الإمكان وذلك لصالح الذين سيعملون على كشف الأسرار التى كانت لا تزال تحيط حينذاك بحضارة النيل ، فكان من بين هؤلاء من كان مساحًا مثل ڤيلار دو تيرج * وچولوا أو دوبوا – إيميه ، أو كان عالم جغرافيا مثل چومار أو عالم فيزياء مثل مالوس أو أحياء مثل دولوميو أو عالم لغويات مثل چان – چوزيف مارسيل أو رسامًا مثل دوتارتر .

وكيف يمكن التعريف بالأعمال التى نهض بها معهد مصر بأفضل من نقل ما قاله أحد المشاركين فيها ومن شاهد فريد عليها ؟ فقد كتب جوفروا سانت هيلار إلى صديقه كوڤييه يقول : «إننى أعيش فى المركز من بوتقة حية من الأنوار (...) إننا نهتم بكل نشاط بجميع المسائل التى تشغل الحكومة وبالعلوم التى تطوعنا بإرادتنا لخدمتها» [23] .

أما المؤرخ المصرى عبد الرحمن الجبرتى الذى وصف الحملة فى موضع آخر بأنها «موجة من الكوارث الرهيبة» فننقل عنه هذه الملحوظة الجميلة عن مكتبة المعهد : «إذا تقدم أحد المسلمين (...) استقبله الفرنسيون (...) معبرين له عن سعادتهم بهذه الزيارة خصوصًا إذا ما اكتشفوا فيه الدراية والمعرفة والاهتمام بدراسة العلوم (...) كان ذلك بالفعل يخلب الألباب . فقد زرت هذه المكتبة عدة مرات ....» [24] .

إذا كانت الحملة تعتبر كارثة سياسية وعسكرية لوثتها أعمال مروعة لا يمكن حصرها(نجح بونابارت وقد كان عبقريًا فى أعمال البروباجندا فى تحويلها إلى ملحمة جرت فى بلاد بعيدة وغريبة حتى يتمكن من فرض سيطرته فى (شهر «برومار» الثورى) ...

* الذى حور اسمه إلى دوڤيلار إبان المرحلة الجمهورية .

إلا أنها كانت من وجهة نظر علم المصريات - الجنينى فى ذلك الوقت - فيضاً كريماً غزيراً .. بل يمكن أن نتحدث بصددها - إذا اعتبرنا ذلك تلاعباً بالألفاظ أم لا بأنها كانت بمثابة عملية قيصرية .. إذ أنها أهدت دفعة واحدة إلى هذا العلم الوليد ثلاثة كنوز لا تقدر بثمن ألا وهى : حجر رشيد ، وكتاب «ريبورتاج» لفيفان دونون وكتاب وصف مصر .

فى التاسع عشر من يوليو ١٧٩٩ أعلن المواطن ميكال - أنج لانكريه - فى معهد مصر - عن اكتشافه فى رشيد عن مخطوطات «قد تكون ذات نفع كبير» (25) . ولم يمض شهران على ذلك الإعلان أى فى ١٥ سبتمبر إلا ونشرت صحيفة كوريبه ديچيبت فى عددها السابع والثلاثين برقية مؤرخة فى ١٩ أغسطس أثارت الأمل فى قلوب جميع الذين يهتمون بحل لغز الهيروغليفيات - ومنهم على الأرجح الأخ الكبير من آل شامبوليون - الذى كان قد وصل لتوه لمدينة جرونوبل للإقامة فيها حيث اهتم سريعاً كما سنرى فيما بعد بكل ما يتعلق بالتاريخ القديم وبمصر على وجه التحديد (26) .

«رشيد فى الثانى من فروكتيدور العام السابع * .

«تم العثور وسط الأعمال التى قام بها المواطن دوتبول لتدعيم قلعة رشيد القديمة على الضفة الغربية للنيل (...) على حجر من الجرانيت الأسود الرائع . حبيباته رفيعة للغاية وصلب جداً لدى طرقه (..) ارتفاعه ٣٦ بوصة وعرضه ٢٨ بوصة ويتراوح سمكه من ٩ إلى ١٠ بوصات ** توجد على أحد وجهيه فقط المصقول صقلاً ناعماً ثلاثة مخطوطات مختلفة منحوتة فى ثلاث مجموعات من الخطوط المتوازية . المجموعة العليا - الأولى - مكتوبة بحروف هيروغليفية (...) المجموعة الثانية - الوسطى - مكتوبة بحروف يعتقد أنها سريانية *** . أما المجموعة الثالثة فهى مكتوبة باليونانية (...) تمت ترجمة جزء من النص اليونانى بأوامر من الجنرال مينو (...) يتيح هذا الحجر فرصة عظيمة لدراسة الحروف الهيروغليفية بل لعلها ستتيح فرصة إيجاد مفتاح لغزها .

---

* حسب التقويم الثورى الفرنسى .

** ١,٢٠ متر ، ٩٠ سم و٣٢ سم .

*** هى كما سنرى حروف ديموتيقية أى النسخة الشعبية والمتأخرة الهيروغليفية . ومنذ شهر سبتمبر ١٧٩٩ حدد اثنان من المتخصصين فى معهد القاهرة وهما ج - ج - مارسيل وريمى راج هذه الكتابة الوسطى بأنها «حروف متصلة» .

«تم تكليف المواطن بوشار * (...) الذى كان يتولى الأعمال الهندسية (...) بنقل هذا الحجر إلى القاهرة» .

يحدث كثيراً أن يمر الباحثون دون أن يدروا بجوار الكنوز دون أن يروها . ولا يمكن أن ينطبق ذلك على مكتشفى هذا الحجر الرائع ولا يمكن أن نقول أن رؤيتهم كانت تعوزها الدقة : لأن هذا الحجر هو الذى أعطى «مفتاح» اللغز . إن الأهمية القصوى لهذا الحجر المكتشف وضحت تماماً وللوهلة الأولى أمام أعين هؤلاء الذين شاركوا فى العملية – وهو ما يلقى الضوء على نوعيتهم الرفيعة – من بوشار إلى دوتبول ومن مينو إلى المحرر فى صحيفة الكوريبه (المسئول عنها كما سبق ذكره هو چوزيف فورييه أمين عام معهد مصر والذى سنلتقى به فيما بعد ...) .

أهمية الاكتشاف وقد تأكدت بهذه الطريقة لم تكن لتخفى على أحد وعلى وجه الخصوص على الإنجليز . فبعد أن أجبروا مينو الذى تولىٰ بعد بونابارت وكليبر على نصف استسلام فى أغسطس ١٨٠١ أصروا على ضم حجر رشيد إلى غنائمهم الحربية . وعلى الرغم من عناد مينو وإصرار أعضاء المعهد ** فقد أخذوه إلى «البريتش ميوزيوم» حيث لازال يجلس على عرشه فيه . وقد اضطر الباحثون الذين لم يتمكنوا من السفر إلى لندن إلى الاعتماد فى أعمالهم على نسخ غير دقيقة منه . ومن هؤلاء چان فرانسوا شامبليون .

وفيما كان اللوح المقدس لعلم المصريات يتم الكشف عنه كان دومينيك ڤيڤان دونان *** يستعد لترك مصر على متن الفرقاطة لامويرون إلى جانب الجنرال القائد العام ومعه أقرب القادة من معاونيه (مثل بيرتيه ومورا ولان ومارمون) وكذلك مونج وبيرتوليه . ولكن لا يمكن أن نقول أن هذا الأبيكورى (المحب للحياة) المقدام كان يغادر البلاد وأيديه ورأسه فارغة . فهو سيعطى إلى كل ما أنجزه وهو بجوار الجنرال دوسى

---

* الملازم أول بيير بوشار . ضابط مهندس ٢٧ عاما ، تمت ترقيته إلى رتبة النقيب بعد اكتشافه هذا بفترة قصيرة .

** «سمح الجنرال هاتشيسون للعلماء بالاحتفاظ بمجموعاتهم إلا أنه أصر على الاحتفاظ بحجر رشيد الذى تركه له مينو وهو يحتج : «إنك تريده يا سيدى الجنرال ؟ فيمكنك إذن الاحتفاظ به مادمت أنت الأقوى ...» (راجع جـ . س . هيرولد . بونابارت فى مصر ، الناشر : بلون ١٩٦٢ ، ص ٤٦٨) .

*** «ڤيڤان» مثله مثل «دومينيك» هو جزء من اسمه المركب من اسمين أما لقبه دينون فكان يكتب فى كلمة واحدة حتى خلال النظام الذى سبق الثورة خلافاً لما يتردد كثيراً من أنه تركيبة من حرف «دو» وكلمة «نون» وهو الحرف الذى يدل على الانتماء إلى أسر النبلاء فى النظام الملكى السابق على الثورة : أبو ڤيڤان كان رجلا عادياً .

في صعيد مصر بريقًا ستتردد أصداؤه وتؤثر تأثيراً بالغًا على الرأى العام خلال السنوات الأولى من القرن يكاد يعادل تأثير حجر رشيد فى تأسيس علم المصريات أو على الأقل فى التقديم له .

كان بونابارت قد ضمه إلى الحملة على مضض تحت إلحاح چوزيفين حيث كان يلمع ويثير البهجة فى صالونها بأسلوبه المرح الذى كان يتسم به العهد السابق على الثورة . ولم يكن عضوا فى المعهد وقد تعدى عمره الخمسين – هذا القادم من مقاطعة بورجونى ذو القلب الطيب الكبير والقلم المتألق كان بمثابة روح الحملة المتأججة وقناصها . ويبدو أنه كان ضمن القلة القليلة من «العلماء» الذين لا يدخلون فى زمرة الكوادر الخاضعة للنظام العسكرى . وكان ينظر إليه على أنه «ضيف» الجنرال القائد العام .

وإذ كانت تربطه علاقات صداقة بمينو فى منطقة الدلتا وبدوسيه فى صعيد مصر كان يبدو حراً تمامًا فى تحركاته . كان يشاهد فى كل مكان من الإسكندرية إلى الأقصر يرسم المعابد والمعارك وصورا من الحياة الشعبية . إلا أن أكثر ما سيثير إعجابًا مستحقًا به هو حصاد أعماله فى الصعيد . شارك عن قرب فى المعارك التي أبرز المترجم لحياته (إبراهيم غالى) وحشيتها [27] عن صدق وفى الحياة الصعبة اليومية للجنود . مما أثار احترامهم له . ثم بفضل ثقة كل من دوسيه ونائبه بيليار * لم يتوقف عن استخدام موهبته وثقب رؤياه وهدوء أعصابه الذى ساعده كثيراً فى ظروف بالغة الصعوبة – من القيام بتنفيذ رسوماته التى صنعت شهرته العظيمة .

ويروى أناتول فرانس فى مقال خصه به فى صحيفة «لافى ليترار» (الحياة الأدبية) بعد أن عجز عن إيجاد الوقت اللازم للترجمة لحياة هذا الرسام الذى انضوى تحت لواء الثورة (والذى يشبه فى أعماله الرسام فراجونار) . وقد رسم لنفسه لوحة جميلة معروضة فى مسقط رأسه شالون حيث نراه شخصية متحدية وساخرة ، لون بشرته وردى وأنفه ينم عن الشجاعة وعينه تتكامش تحت قبعة زارع كرمة مصنوعة من البوص .

يروى أناتول فرانس عنه هذا الحدث الذى يلخص جيداً براعة هذه الشخصية الأبيقوريه المقدامة :

«... أخذ يرسم . وإذ هو قد أشرف على إنهاء عمله مرت رصاصة وهى تصفر فوق الورقة التى أمامه . فرفع رأسه ورأى أحد الأعراب يقوم بتعمير بندقيته .. مدّ يده

* استعان بيومياته عن المعارك فى كتاباته .

إلى سلاحه الممدود على الأرض وأتحف الأعرابى بطلقة فى صدره ثم أقفل حافظة أوراقه ... فى المساء قال له الجنرال دوسيه «إن خط الأفق فى رسمك غير مستو - أجابه دينون قائلا ، واه ! إن هذا خطأ الإعرابى إذ أنه أطلق رصاصته مبكراً !» .

فلنستمع إلى ڤيڤان دونون ذاته وهو الذى وصف نفسه بأنه «جندى - أكروباتى» : «لما كان يتحتم علينا ملاحقة عدو دائم التحرك على فرسه فإن تحركات الفرقة كانت باستمرار متعددة وغير متوقعة .. فكنت لذلك مضطراً فى بعض الأحيان أن أمر مرور الكرام أمام الآثار الأكثر أهمية (...) رسوماتى نفذتها فى معظم الأحيان فوق ركبتى أو فى الوضع واقفاً أو حتى وأنا ممتطياً فرسى ... فلم أتمكن قط من الانتهاء من واحد منها وفقاً لإرادتى .. إذ لم أنجح عبر عام كامل من إيجاد لوحة منصوبة بشكل جيد يمكننى أن أضع مستطرتى فوقها» .

غير أن ما يعطى قيمة لهذا الريبورتاج المدهش عبر الحرب وعبر القرون فهو الحس الجمالى للرسام الذى تمكن قبل شامبوليون من اكتشاف جمال فن لم يكن يحظى حتى ذلك الحين سوى بدهشة المسافر لقدمه الأسطورى وأبعاده المتناهية الضخامة ، كما يعطيه قيمته أيضا التفانى من أجل العلم الذى دفعه إلى نسخ كتابات هيروغليفية لا يفهم منها شيئًا لعدة ساعات متواصلة معرضًا حياته للخطر وفى جو حرارته خانقة .

ويقول دينون «إن نقش هذه الكتابات تم بوضوح الصراحة لدرجة أنى أعتقد أن المصريين كان لهم طريقة خاصة لصب معدن أدواتهم لنحت الجرانيت . إن كل هذا النحت أجرى بواسطة الحفر ليبرز المنحوت داخل فراغ عمقه بوصتين وقد احتفظ بدقته بصورة تثير الإعجاب» (إن هذه الملحوظة سبقت ملحوظة شبيهة بها تماماً قالها شامبوليون بعد ذلك بثلاثين عاماً) .

هل كان ڤيڤان دونون ذا «ذوق فنى سىء» (28) كما قيل عنه بعد ذلك ؟ إذا كان رأيه فى تمثالى (ماردى) ممنون أنهما «غير جميلين ولا سحر فيهما» - وله كامل الحرية فى عدم محاسبته على ذلك - فإن الإعجاب الذى أثارته فيه مشاهدة الأهرامات وأبو الهول يعتبر قمة فريدة فى جمال الإحساس : «إذا كانت هذه الرأس تنقصها ما اتفق على تسميته بسلامة الأسلوب . أى الأشكال المشوقة القوام والمتعالية التى صور بها الإغريق آلهتهم فإن أحداً لم يف قط هذا الوجه حقه فى جمال بساطته ومرور الطبيعة الهادئ والممتد طويلاً فوقه وهو بالفعل يستحق كل الإعجاب» .

أما ما قاله عن معبد «تنترا» (يطلق عليه اليوم اسم دندره) فقد أصبح قولاً مأثوراً : «لن أجد قط تعبيراً يعكس ما أحسسته عندما كنت على عتبة تنترا ... وددت لو أمكننى رسم كل شىء ولكنى لم أجرؤ على مسك القلم . أحسست بأنى لن أرتفع قط إلى درجة سمو ما تعجب به عيناى وإنى سأحط من قدر ما أردت تقليده ... لم يحدث فى أى مكان آخر أن وجدت نفسى محاطاً بمثل هذا القدر من الأشياء التى تثير إعجابى ... أخذت ... والقلم فى يدى ... أمر من شىء إلى آخر يشاغلنى أحدهم عن الآخر مجذوب لذلك دائماً ، ينتزعنى منه شىء آخر دائماً ، كانت تنقصنى عيون وأيد ورأس أوسع يمكنها أن تشاهد وترسم وترتب كل ما نال إعجابى . كنت أخجل من عدم كفاية الرسومات التى نقلت بها كل هذه الأشياء المتسامية .. ولكنى كنت أريد الاحتفاظ بذكراها (...) كنت أخشى أن يهرب منى دندره إلى الأبد» .

وفى دندره أيضا عرف كيف يجد الوقت وكيف يمضى ساعات طويلة مضنية – بإيعاز من المساحين الشباب جولوا وڤيلار دو تيراچ الذى يثير وعيهم بعبقرية الفن المصرى الدهشة والإعجاب – من أجل نسخ «الزودياك» المشهور أى خريطة السماء التى سوف تثير فيما بعد – حول تأريخ البشرية – مناقشات حادة سيضع لها شامبوليون حداً بعد ذلك بربع قرن * .

مهما بلغت مشاعر ڤيڤان دونون من الحدة فقد عرف كيف يضيف إليها الذكاء العلمى . فهو سريعاً ما اقتنع بأن «الهيروغليفيات المنحوتة فى الحوائط لم تكن الكتب الوحيدة لهذا الشعب العالم» وقد اكتشف فى مدينة جابو لفافة من ورق البردى فى يد مومياء نشرها عام ١٨٠٢ مع مجموعة من الرسومات المنقولة بطريقة الجرافور (الحفر) ضمها إلى الطبعة الأصلية لكتابه «رحلة إلى شمال مصر وصعيدها» وهى تشكل مع حجر رشيد أحد المستندات التى سينكب عليها الباحثون وعلى رأسهم وأفضلهم جميعاً شامبوليون .

ما أن عاد ڤيڤان دونون إلى القاهرة (يوليو ١٧٩٩) استقبله بونابارت على الفور . وتحت سحر مارواه له مدعماً بالرسومات التى أراها إياه توصل الجنرال إلى خلاصة غاية فى الأهمية : ففى ٢٧ تيروبدور عام ٧ (وهو اليوم ذاته الذى اكتشف فيه حجر رشيد ...) أصدر مرسوما بإنشاء لجنتين يرأس كوستاز إحداها ويرأس فورييه الأخرى أنيطت بهما مهمة زيارة ودراسة آثار مصر القديمة فى الصعيد دراسة علمية ونسخها بكل دقة رسماً : وهكذا ففى الوقت الذى كان يستعد فيه للاعتراف بهروبه ذاته

* راجع الباب ١١

بفشله السياسى والعسكرى وبفقدانه لمصر الحديثة بدأ بونابارت غزو مصر عريقة التاريخ الذى يمتد لآلاف السنين ، ومثلما ترك هروب الجنرال القائد العام داخل الجيش أثراً كله مرارة فإن انسحاب دونون كان له تأثير سيء على زملائه فى المعهد المصرى . إذ كانوا ينتظرون منه تقريراً عن مهمته وشعروا بأن عودته المبكرة إلى باريس ستدفعه إلى الكشف عنها مما سيعود عليه بالمجد وذلك على حسابهم هم وأنه سيسوق لذلك حجة أنه لا يمكنه أن «يمنع مواطنيه من الانتفاع من الثمار التى جناها (هو) وكلفته (هو) كل هذا العناء ..» من ذا الذى يمكنه ألا يغفر لهذا المراسل الذكى والمقدام أنه ضمن لنفسه «خبراً خاصاً» (سكوب بلغة الصحافة) حتى لو كان حصل عليه بطريقة فيها شيء من الإجحاف بالنسبة للآخرين ؟

ابتداءاً من ١٨٠٢ ظهر فى باريس كتاب «رحلة إلى شمال وصعيد مصر إبان حملة الجنرال بونابارت ، بقلم ڤيڤان دونون وقام بطبع الكتاب « الأصلية مكونة من جزء من القطع الربعى للنص ومن جزء فى حجم (الأطلس) أو الأطلنطى للصور . وكان يباع لدى المؤلف بشارع حـ . روسو ولدى المطبعة فى أروقة اللوڤر .

بخلاف المقدمة – وهو الخطاب الذى حرره دونون لإلقائه أمام زملائه فى معهد مصر – فإن الجزء الأول يتكون من جزئين : قصة الرحلة وشرح للوحاته وواحد وأربعين لوحة التى يتضمنها المجلد الثانى وتضم كل لوحة منها تقريباً عدة مواضيع (وبعضها ينفرد بموضوع واحد فى صفحة كاملة مثل المنظر الليلى البديع لميدان الأزبكية فى فترة الفيضان) * .

إهداء هذه الطبعة الأولى من الكتاب كان بطبيعة الحال إلى بونابارت . وقد عرف الكتاب أربعين طبعة خلال ذلك القرن وهو نجاح فاق نجاح كتاب ڤولنى ولم يتفوق عليه فى ذلك الوقت سوى كتاب عبقرية المسيحية (لشاتو بريان) وقد نشر فى العام ذاته . وقد جاء فى الإهداء : « ... ستستقبل أوروبا – وقد عرفت أنى كنت فى صحبتكم فى إحدى أكثر حملاتكم تعلقاً بالذكرى – كتابى هذا باهتمام كبير . لم أهمل أى شيء لكى أجعل منه جديراً بالبطل الذى أردت أن أهديه له (...) إن ضم بريق اسمك إلى عظمة آثار مصر يعتبر ربطاً لعظمة أمجاد قرننا هذا بالعصور التى تتخطى بعظمتها الأساطير ...» .

---

* حفر دستة من هذا اللوح تم بيد دينون نفسه . ويجب أن نسجل هنا البراعة التكنيكية المتمثلة فى حفر مئات من الرسومات خلال الفترة الزمنية القصيرة التى تفصل عودة دونون ونشر كتابه .

وإذ كان متلقى هذا الإهداء قد أصبح القنصل الأول فقد ظهر اسمه على رأس المائتين والأربعين مشتركا فى اقتناء الطبعة الأصلية يسبق اسمى كامباسيريس ولوبران القنصلين الآخرين كما يسبق أسماء تاليران وفوشيه وملكى أسبانيا وبروسيا والسفراء وأصحاب البنوك والفنانين والتجار وعدد كبير من الإنجليز وقدماء الحملة على مصر والآنسة هنرى عضو مسرح الفنون وتالما من المسرح الفرنسى وفولنى ولانجلاس وكاتروماز * ... وأخيراً أكثرهم أهمية جميعاً على الرغم من المظاهر دوكرو أمين مكتبة مدينة جرونوبل ** ذلك لأننا متأكدون أن الشقيقين شامبوليون قد تمكنا من الاطلاع على هذا الكتاب المثير ومن التأمل أمام هذه الصور المثيرة للإبداع وقد أتيح ذلك للأخ الكبير عندما انتقل للإقامة فى هذه المدينة عام ١٧٩٩ والثانى عام ١٨٠١ .

أما الكنز الثالث الذى عاد به مشاركو بونابارت فى رحلته البحرية فقد ظهر بعد ذلك بفترة طويلة . فإذا كان كل ما احتاجه النشيط دونون لتحرير وحفر ونشر ريبورتاچه المصور لم يتعد السنتين مفضلاً أن يحتفظ بطابعه «البدائى» الذى تركه فى نفسه كرحالة مبهور فإن الفترة التى احتاجتها اللجنة العلمية التى عادت من الشرق عام ١٨٠١ كانت عشرين عاماً كاملة وأكثر لتنشر من ١٨٠٩ حتى ١٨٢٢ عملها الضخم وهو عبارة عن تسع مجلدات من النصوص فى القطع الكامل (فوليو) وأحد عشر مجلداً من اللوح قدمت للجمهور تحت عنوان «وصف أو مجموعه الملاحظات والأبحاث التى تم إجراؤها فى مصر إبان حملة الجيش *** الفرنسى» . نشر بأوامر من صاحب الجلالة الإمبراطور نابليون . هذا العمل الذى جاء ليكمل ويحدد عمل ڤيڤان دونون التمهيدى يعتبر كما يقول چان ڤاركوتار «القاعدة التي أمكن تشييد علم المصريات فوقها» (29) .

ستحاول بطبيعة الحال قياس مقدار التأثير المباشر على الشقيقين شامبوليون لهذا البعث الذى طرأ على الموضوع الذى وُلعا به – وقد ازداد هذا التأثير حدة لدى الأخ الأكبر – چاك – چوزيف – إذ أنه سيشارك فى تحرير مقدمة الكتاب التى أنيط بها الأمين العام السابق لمعهد مصر چوزيف فورييه من قبل اللجنة وكان قد أصبح فيما بعد محافظاً لمقاطعة الإيزار .

---

* شخصيات سنلتقى بها فيما بعد .

** اسم آخر سيرد كثيراً فى هذا السرد ...

*** من الغريب أن يكون الانتباه مركزا على الجيش وحده .

فى انتظار ذلك نسجل أن كتاب الوصف - بعد كتاب الرحلة لڤيڤان دونون - عمل على خلق جو عام ، إذا ما قورن بذلك الذى نجم عنه مرض الولع بمصر (الإيچيتومينيا) فى القرن السابق ، يعتبر مصطنعًا وسطحيًا فى عشرات الأعوام الأولى من القرن التاسع عشر . استولت مصر على الأنظار واحتلت صورها مخيلات الناس بواسطة الكتب والصور المحفورة والأشياء والأثاث والأعمدة . وإذ ارتبطت لفترة طويلة بالأسطورة الإمبراطورية (النابوليونية) فإن هذه الصور الملحة لم تتأثر بل قاومت كوارث أعوام ١٨١٤ و١٨١٥ * .

إن الذى أوصل السحر المصرى الذى سيطر على الألباب أو على الثقافة إلى قمته كان مشاركة أعظم كتاب العصر فى ذلك . ففى يوليو ١٨٠٦ توجه فرانسوا رونيه دو شاتوبريان إلى الشرق فى رحلة قادته إلى أثينا وأزمير وبيرجام والقدس ويافا والإسكندرية والقاهرة .

لم يقم صاحب كتاب «ناتشاز» برحلته ليصفها مثلما فعل ساڤارى أو ڤولنى وإنما قام بها من أجل الملحمة المسيحية التى كان يفكر فيها . ولكى يضفى أيضًا جوًا من الترقب ومن المجد ومن الوجد إلى الموعد الذى حدده - فى أسبانيا - للقاء ناتالى دى نواى ... وتجدر الإشارة إلى أن نشر كتاب «الشهداء» الذى كرس سفره الحادى عشر كله لمصر ، سبق بعامين نشر الرحلة من باريس إلى القدس الذى لا يحظى فيه وادى النيل سوى بباب واحد كتب فى عجالة .

عوملت مصر فى كتاب «الشهداء» معاملة خاصة : «زرت طيبة ذات المائة باب وتنتيريس ** ذات الآثار الرائعة وبعضا من الأربعين ألف مدينة التى يمر عليها النيل عبر مجراه» ياه !! أربعون ألفا ... شىء جميل أن يرى أحدهم أن مصر «بقرة ولاّدة» وأن أهراماتها «بواباتها الجنائزية» غير أنه ليس فى مثل هذا الكتاب كان يمكن للشاب شامبوليون أن يجد ما يشفى ويرضى ولعه علمًا بأننا نعرف أنه قرأه دون أن يثير حماسه .

كما لم يرضيه كتاب «الرحلة» الذى نشر عام ١٨١١ إن الڤيكونت دوشاتوبريان يعتقد أنه رأى «بالعين المجردة» أبا الهول من قمة قلعة المقطم (عشرون كيلومترا تفصل بينهما) وهو لم ير داع للذهاب إلى منطقة الأهرامات فقد منعه الفيضان من ذلك على حد قوله .

---

* هزائم نابوليون المتوالية والتى أدت إلى سقوطه (المترجم) .

** تسمية مختلفة (يونانية) لدندرة .

وقد كلف القنصل بالذهاب إلى هناك «ليكتب اسمه على هذه المقابر الضخمة مثلما جرت العادة وذلك عند أول فرصة سانحة» . وبذلك يكون قد وضع خاتمه السحرى على مصر الفراعنة بهذه الطريقة غير المباشرة والتى منحت أيضاً الأبحاث التى تخصها بركات عبقريته الشاردة .

جرى إثراء مجموعة المراجع التى سيعتمد عليها شامبوليون فى معالجته للغز الأكبر فى تلك السنوات ، بأعمال واكتشافات وملحوظات قام بها ثلاثة من الرحالة المقدامين ، إثراءً أفضل وأقوى من صفحات شاتوبريان المتعجلة . وهؤلاء هم عالم التاريخ الطبيعى المولود فى مدينة نانت ، فريدريك كايو ، والنحات المرسيلى چان - چاك ريفو ، والإيطالى الساحر چان باتيستا بيلزونى . الأول عاد عام ١٨١٩ من حملة جسورة فى وادى النيل حيث قام بالتنقيب عن الآثار حتى أبو سمبل وأطلع الأخوين شامبوليون على «لوحة الملوك» التى اكتشفها فى معبد رمسيس الثانى فى أبيدوس والثانى كان منقباً لا يعرف الكلل يعمل لحساب القنصل دروڤيتى وفر لهما كمية ضخمة من نسخ للمخطوطات وذلك فى بداية العشرينات من القرن . أما الثالث فهو الذى كان ينقل القرون الزمنية والجبال من طيبة وممفيس حتى أنه نقل وعرض فى باريس مقبرة سيتى الأول مما أوصل حمى موضة الولع المصرى إلى ذروتها عام ١٨٢٢ * .

الملف المصرى الذى انغمس فيه الباحثون عن حل لغز الهيروغليفيات فى بداية القرن التاسع عشر كان يتكون من نوعين من المشاركة : الأول أصحابه هم «المستشرقون» والآخر «الأثريون» .

الأوائل هم - من هيرودوت إلى مايبه ومن فوردن إلى ڤولنى ومن دونون إلى بلزونى - الذين ذهبوا إلى المواقع ذاتها لزيارة أو دراسة آثار حضارة ظلت قائمة وصمدت أمام الكوارث والتحريم وفقدان ذاكرة الكلام حتى لو كان ذلك من خلال دراستهم للسكان الأقباط الذين رأى منهم العديد من الزوار نبض التراث المهشم للقرون العظيمة الفائتة .

أما الآخرون فيبدون أقل مصداقية . فقد حاولوا من خلال مستندات مشكوك فى صحتها فى كثير من الأحيان وهى على العموم منقولة وغير مفهومة فى بعض الأحيان الأخرى - أن يعيدوا تكوين جماليات ولغة ومعانى الثقافة الفرعونية ، من هؤلاء على سبيل المثال الأب أثناس كيرشار وچوزيف دو چينى والأب بارتيليمى وچابلونسكى

---

* بيعت هذه المقبرة فيما بعد إلى انجلترا .

ووابر بورتون والدبلوماسى الدانماركى زويجا وشارل دوبوى والكساندر لونوار وعالم اللغويات الفرنسى سيلفاستر دو ساسى والنبيل السويدى أكربالد وعالم الطبيعة الإنجليزى يانج .

يبدو أن چان – فرانسوا شامبوليون قد أعطى اهتمامًا أكبر للأوائل . فهم الذين أتوا بوقائع وملاحظات يمكن التأكد من صحتها ، عن الآخرين الذين اتسمت أعمالهم بوفرة ما تقدمه من افتراضات ونظم تفكير عشوائية . ولكن لا يعنى ميله للسخرية من هؤلاء «الأثريين» أنه أهمل مداخلاتهم ..

فى الوقت الذى أطلق بونابارت أسطوله من المحاربين والعلماء فى اتجاه مصر كان چان – فرانسوا شامبوليون البالغ من العمر سبع سنوات وخمسة أشهر قد تعلم لتوه القراءة فى كتاب صلوات القداس المملوك لوالدته . وذلك يجعلنا بعيدين عن الأسطورة التى تضعه فى زمرة مجموعة عام ١٧٩٨ أما الأخ الأكبر چاك – چوزيف فقد كان قد بلغ حين ذاك التاسعة عشرة . وكان ولوعًا بمصر وكان يخطط – حسبما يقول – ليلحق إن عاجلا أو آجلا بالمشاركين فى الحملة المقدسة فى القاهرة . وكان على العموم مهتمًا بالاطلاع على أعمالهم وتحركاتهم من خلال قراءته صحيفة لوركوربيه ديچيبت على وجه الخصوص والتى كانت تتلقاها مكتبة مدينة جرونوبل بعد شهر أو اثنين من صدورها كما كانت تتلقاها (حسبما أوردت مدام هارتلوبان أفضل المحققين فى سيرة صاحب الكشف) مكتبة فيجاك . هل حاول بالفعل إثارة اهتمام ابن عمه النقيب أندريه شامبوليون الذى سافر من ميناء طولون فى مايو ١٧٩٨ بصحبة اللواء الثالث عشر الذى يقوده الجنرال داريكو ولم تصله أى أنباء عنه سوى لدى عودته فى ١٨٠١ ؟ سنعود إلى هذا الحديث لاحقا .

فى جميع الأحوال توجد علاقة قوية ومباشرة يمكن الكشف عنها بين حملة بونابارت وما أسفرت عنه (حجر رشيد ومارواه ڤيڤان دونون وكتاب «وصف مصر») والاكتشاف الذى أدخل اسم شامبوليون فى سجل المجد .



١ - الحياة فى فيچاك فى عهد الثورة

أين ؟ متى ؟ فيمن ؟ - لا توجد عبقرية : - فلاحو مقاطعة دوفينية - حرفة البائع المتجول (حامل الخرج) - چاك صاحب المكتبة وچاكو الساحر - الزوجة المريضة - المقصلة فى الميدان - ابن المعجزة ؟ - كتاب القداس الذى حلت شفرته - دون كالال

إذا أردنا فهم شخصية رجل ، هل يجب أن نعرف أين ولد ؟ أم الأفضل أن نعرف متى ولد ؟ أم من صلب من ؟ إن كُتّاب السير الشخصية لم يفصلوا فى الأمر بعد .. إن بعضهم يعتقد أن مولد أحدهم فى أجاكسيو هو أهم العوامل* . والبعض الآخر يعتقد أن مولد المؤرخ له فى » أغسطس ١٩١٤ هو ذلك العامل المؤثر وذاك الآخر - فى النهاية - يقول : بل أن يكون أبوه جزاراً أو أمه عازفة لآلة البيانو .

أما بالنسبة لچان - فرنسوا شامبوليون فقد ولد فى فيچاك ، احدى المدن الصغيرة التابعة لمنطقة كارسى الشحيحة الموارد والتى كانت لهذا السبب قليلة الاتصال بالعالم الخارجى .. ولد فى ٢٣ ديسمبر عام ١٧٩٠ عن أب صاحب مكتبة - كان قبل ذلك بائعا متجولا وعن أم من أصل بورجوازى لكن أمية وظلت مريضة لفترة طويلة . يجب الا نغفل أبداً فيما يتعلق بشامبوليون نشأته فى هذه المنطقة المعزولة ولا هذه الأصول المتباينة ولا هذا التاريخ الذى كانت الثورة (الفرنسية) تتأهب فيه للولوج إلى مرحلة شديدة الإضطراب من تطورها .

فى بداية عام ١٧٨١ وصل إلى فيچاك شخص يدعى چان - فريديريك دو ريشبراى ويعمل مفتشا ملكيا للضرائب والمالية .. للتأكد من أن أهل قطاع « جيان العليا » يدفعون الضرائب المفروضة عليهم بالفعل أو أنها ثقيلة على عاتقهم ، وكان هذا المفتش يسجل إجابات السكان على الأسئلة التى يطرحها عليهم فى « يوميات رحلة عمل »[1] وهى تعطى فكرة عن الحالة المادية التى كانت عليها « دائرة » أو « بلدية » فيچاك . وتعد هذه النصوص مؤشرا لها تضمنته فيما بعد المطالب التى تقدمت بها منطقة كارسى فى عريضتها إلى « المؤتمر العام »** مثلما فعلت المناطق الفرنسية الأخرى . استهدف السؤال الأول التعرف على المنتجات المحلية :

---

* إشارة إلى نابليون بونابارت - (المترجم) .

** وكان عدد سكان فيچاك أكثر بقليل من ستة آلاف

الإجابة : « النبيذ والقمح والجاودار والقنب والتين والجوز والكستناء ؛ أما الباقى فهو غير جدير بالتسجيل . ».

س : مم تستخرج المواد الغذائية وبأى وسيلة ؟

جـ : نحصل على الزيوت من منطقة البالانجو دوك » والجبن من مقاطعة أوفرنى، أما الباقى من بوردوعن طريق الأنهار أو بالعربات أو على ظهر الحمير »

س : ما هو تعداد السكان ؟

حـ : « من المعتقد أن عدد السكان رجالا ونساء وأطفالا يقدر بنحو مائة ألف »*

س : هل من عبقرى بينهم ؟

جـ :– لايوجد. الناس فى قطاع شاتينيال أفظاظ: شديدو الالتصاق بمصالحهم – عنيدون ومشاكسون .. وبشكل عام فإن تطور الأفكار يحدث ببطء شديد كما يصعب للغاية تحريك قدراتهم الذهنية ليسايروا أى أسلوب جديد .. بشكل عام فالنشاط وخاصة فى الريف والذكاء ضعيف فى الثقافة ».

عن حالة الثراء أو الفقر ؟

« الفلاحون والفعلة يعانون من الفقر ويعيشون ليومهم ، ويعرفون الضنك الشديد إذا زاد تعداد أفراد الأسرة ، ويزدادون مرض وبؤسا إذا عرض منهم واحد لفترة طويلة .. المستهلكون حالتهم العامة من ناحية الثروة عادية جداً سواء كانوا من النبلاء أو من رجال القانون أو تجارا أو بورجوازيين . وقد يصعب على المرء – حتى لو أراد – أن يذكر أى استثناءات .. »

كيف يمكن تحسين هذا الوضع ؟

« سكان فيجاك وبقية القرى الهام الواقعة فى نطاق دائرتها يميلون للعمل فى التجارة غير أن ضيق ذات اليد يمنعهم من عمل صفقات ذات أهمية كما أن حالة الطرق وعدم وجود انهار قابلة للملاحة في تنفيذ ماهو متاح أمامهم .. »

---

* مؤتمر « ليزيتا جينيرو » les Etats Généraux يجمع ممثلين لمكونات الدولة فى العهد الملكى وهى ممثلو الكنيسة والنبلاء والقطاع الثالث أو عامة الشعب . من جميع المناطق . وكان يدعوه الملك للإجتماع فى الحالات الحرجة . وكان آخر إجتماع له فى ١٧٨٩ . وهو الذى مهد للثورة – (المترجم).

من المؤكد بالطبع أن أحداً لا يضخم من دخله أمام موظف الضرائب سواء كان فرداً أو مصلحة حكومية عامة .. ولكن من الواضح أن هذه البلاد فقيرة وأهلها ليسوا على المستوى الذى يسمح لهم بالاعتماد على أنفسهم لسد حاجاتهم أمام نوائب الطبيعة .

ومع ذلك فإننا نلحظ شيئين : أولاً : إذا كان الريف فقيرا و « المستهلكون» يعانون ضيق ذات اليد فإن بورجوازية مدينة فيچاك كانت فى شئ من رغد العيش . فعشية قيام الثورة أمكن إحصاء أربعة عشر معلما من صناع القبعات (من مجموعة سان كريبان) وأربعة من البنائين وصانع قباقيب واحد مما يعنى وصول المنطقة إلى مرحلة من مراحل الحداثة .

والأمر الثانى هو أنه لايبدو أن رجال الكنيسة كانوا يعانون من حالة الفقر السائدة[2] . فقد سجل السيدريشبراى الإجابة التالية على سؤال عن حالة الكنيسة المحلية وهى مؤشرا واضحاً على ذلك : « عشرون ألف جنيه غير خاضعة لأية ضريبة ويستفيد منها الكاهن رئيس كنيسة المقطاعة واثنان من مساعديه وشماس وثمانية قسس وأربعة رجال دين مكلفون أسبوعيا وأثنان من الدعاة وأثنان من الكتبة وثمانية عمال وموظفان وموظف علمانى واحد . »

وإذا استفسر عن النبلاء كان الجواب : « السيد باريس ، وهو يقطن باريس ، يمتلك اقطاعية مركيزية مونبران ، أما بارونية كاسترنو دى بروتونو فهى ملك الدوق دى شوفروز أما الدوق دوزاس فهو أيضا بارون إقطاعية كابديناك .. »

معنى ذلك عدد لابأس به من الأراضى الإقطاعية تتبع نبلاء من غير أبناء المقاطعة .

حركات العنف التى قام بها الفلاحون بعد ذلك بسبع سنوات ترجع أسبابها إلى تلك الأوضاع .

لم تكن مقاطعة كارسى مركزا ثوريا نشطا .. غير أن أهلها كما جاء فى نص السيد / ريشبراى - كانوا « مشاغبين ومعاندين » وذلك هو مصدر هيمنة رجال القانون فى فيچاك التى ماتزال إلى يومنا هذا تطبع الروح السائدة فى هذه المدينة الصغيرة ، وهى تفخر بأنها بلد آل شامبوليون وكذلك المشرع فرنسوا بوتاريك الذى كان فى ذلك الوقت نداً لمونتسكيو .

كانت الثورة الفرنسية فى الأساس شأنا من شئون رجال القانون وقد فرض رجال القانون فى فيچاك ريادتهم النشطة فى ذلك الوقت ، وعندما ساءت الأمور بعد ذلك قامت المقصلة بأداء وظيفتها فى الميدان العالى : ولابد أن الطفل الذى ولد على بعد خطوتين من ذلك المكان عام ١٧٩٠ قد سمع صريرها وأدرك شيئا عن الإنتفاضات التى هزت المدينة .. خاصة وأن چاك شامبوليون – والد چان فرنسوا قد أنيطت به بعض المسئوليات الخاصة بهذا الأمر بعد ذلك بثلاثين عاما مما حدا بالمحافظين من أهل جرونوبل أن يطلقوا عليه كنية « روبسبير » .. (سنحاول التعرف فيما بعد على أهمية هذه المسئوليات) . أما الآن فنكتفى بأن ميلاده فى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠ تزامن تقريبا مع وقوع ثلاثة أحداث هامة عجلت فجأة من العملية الثورية : ففى الوقت الذى صوتت فيه الجمعية التأسيسية بالموافقة على بيان تعلن فيه تقديرها لچان – چاك روسو وقف چان – بول مارا يلقى خطابا ضد الملك كان بمثابة عريضه إتهام تنبئ بقيام الجمهورية التى طالب بها .. والحدث الثالث هو صدور قانون يوجب إرجاع أى إختراع لصاحبه .

كان چاك شامبوليون – والد المكتشف – أصلا من مقاطعة الدوفينيه .. وقد أرهق بعض كتاب السير الشخصية من أفراد العائلة وغيرهم أنفسهم لتقديمه على أنه من أصل نبيل لفرع من عائلة شامبوليون من مقاطعة الجابانسيه والفرع الآخر من مقاطعة الفالبونية . فهل كان حقا من سلالة إقطاعية ؟ كتب أحد المؤرخين – فى كتابه سلسلة الأحداث العالمية ، Chronologie universelle : « الكتابة الهيروغليفية ، فك شفرتها «السيد دى شامبوليون* » وسيجد بعض المؤرخين الآخرين أجداداً من الضابط كانوا قريبى الصلة بالنبيل « دوليدجيار » شخص يدعى بيرانجية دو جويا ، وأحدى مرافقات مدام دوتنسان ونبيل آخر يعمل إلى جوار دوق دورليان وكذلك أحد ياورا دوق دى شارتى فى جيماب » ، وكلها محاولات تثير التعاطف إلا أنها لا تتفق مع الفكرة التى كانت لدى چان – فرنسوا شامبوليون عن أصوله .. فهو يفخر بأنه « فلاح حر » وذلك فى خطاب له سيأتى ذكره فيما بعد .

توجد بالفعل أسرة تدعى « مارتان دوشامبوليون » كما هو ثابت فى بعض المستندات الخاصة بمقاطعة « دوفينيه » ويتعلق أحد هذه المستندات بوعد بدوطة لم تدفعها أسرة سيدة من عائلة دو جويا إلى أحد النبلاء يحمل نفس الاسم . ومن هذه السلالة نجد محاربين وقساوسة ومحاميين .. ولكن الابحاث التى قام بها الباحثون

* مقطع دى de الذى سبق اللقب فى الفرنسية ينسب الاسم إلى الإقطاعية التى تمثلها الأسرة وهى عادة ماتشير إلى نبل أصول صاحب الاسم (المترجم) .

الجرونوبليون* لم تسفر عن اكتشاف علاقة معلنة بين هؤلاء النبلاء المحاربين وعلماء الآثار القادمين من فيچاك . ومن ناحية أخرى وفى إحدى المذكرات المحفوظة فى أرشيف العائلة وممهورة بملحوظات بخط جاك - جوزيف (الأخ الاكبر) ورد ذكر بعض الأصول الايطاليه .. « شيبولو » ؟ « كامبوليونى » التقارب اللفظى واضح كما أن مقاطعة الدفينيه قريبة من مقاطعة البيمون الايطالية . إن حب جان - فرنسوا لإيطاليا سيظهر بوضوح فى مناسبات عدة ولكن هل يتحتم الرجوع إلى الأجداد لكى يشعر بالحب تجاه هذه البلد ؟

أحد الباحثين (من مدينة لاترونش) من منطقة ليزار ويدعى مسيو شاموران يحدد موطن عائلة شامبوليون فى قرية من قرى بلاد الألب العليا ، كان إسمها كامبولنوس . فى عام ١٣٧٠ تم تطور الاسم ليصبح شامبوليو (١٥٥٧) ثم شامبوليون عام (١٥١٦) تم تطور النطق لتصبح كتابته بالطريقة الحديثة الحالية Champollion .

أما أحدث الأبحاث فهى ترجع أصول عائلة « شامبوليون » إلى تجمع سكانى صغير يدعى لاروش . تابع لمدينة ڤالجوفرى ** بالقرب من مقاطعة ڤاليون ، جنوب مقاطعة الوازين على بعد خمسة وثلاثين كيلومتر من مدينة جرونوبل .. وكانوا فلاحين بسطاء أو بالأحرى فلاحين وتجار ويحملون بضاعتهم على اكتافهم إذ كانوا يهجرون واديهم المرتفع فى فصل البرد القارس بعد أن تغطيه الثلوج ليمارسوا مهنة التجارة الجوالة - وقد يصلون فى ترحالهم إلى مناطق تبعد كثيرا عن موطنهم .. وهذا النشاط كان يدر لكل بيت دخلا لابأس به .

ومن ناحيه أخرى فهؤلاء الباعة المتجولون كانوا - يجمعون معلومات كثيرة خلال رحلاتهم الطويلة بما جعل أهل وديان الوازان أكثر علماً من كثير من سكان المدن المحيطة ، وقد عثر الكولونيل أوهارن خلال أبحاثه فى السجلات الكنسية على عدة توقيعات لأفراد يحملون إسم شامبوليون من ڤالجوفرى » ومنهم العديد من النساء وكان يعتبر ذلك شيئا يندر وجوده فى الوسط القروى والكاثوليكى فى ذلك العصر *** إلا أنه لاحظ فى الوقت ذاته أن بارتيليمى شامبوليون جد مؤسس علم المصريات لم يكن فى مقدوره التوقيع باسمه .

---

* على وجه الخصوص الكولونيل چان أوهارم فى « النشرة الشهرية لأكاديمية الدوفينيه » يناير ١٩٧٣ ص ١٢ إلى ٢٢

** الأخ الاكبر چاك - چوزيف سيصبح فيما بعد عمدة هذه المدينة .

*** أما البروتستانت فإن وجوب قراءة الكتاب المقدس كان يرفع نسبة من يستطيعون القراءة والكتابة بينهم.

هذا البارتيليمى تزوج من مارى جيريو (أو جيرو) التى أنجبت له خمسة أنجال إستطاعوا أن ينقلوا الأسرة من مستوى الفلاحة إلى البرجوازيه الصغيرة : أحدهم أصبح « قنصلا » لمقاطعة ڤالبونيه – وهو مركز نو أهمية محلية – والثانى كان يعمل « موثقاً للعقود » والثالث تزوج من إبنه احد تجار مدينة جرونويل * والرابعة ولدت إبنا اسمته « أندريه » وسنلتقى به فيما بعد ضابطا فى الجيش فى مصر.**

آخر أبناء بارتيليمى ولد عام ١٧٤٤ أسموه چاك .. ويبدو أن كونه أصغر الأبناء قد حرمه من الميراث مما نتج عنه حرمانه من التيار الصاعد الذى أخذ بقية أعضاء الأسرة إلى مستوى إجتماعى أعلى .. إذ سنجده فى المكانة التى كانت عليها العائلة فى الأصل : مزارعاً وبائعا متجولا . إلا أنه تخصص فى بيع الكتب .. وقد راح يجوب الطرق وخاصة عبر الهضبة العليا وهى التى كان يعبرها البائعون الجائلون القادمون من منطقة جبال الألب .. وأخذته جولاته بعيداً وسريعا إلى مقاطع كارسى على بعد عدة أسابيع من موطنه فى الدوفينيه التى وصلها فى أحد أيام عام ١٧٧٠ .

والسؤال الملح فى هذه الحالة هو : لماذا رحل بعيداً وبهذه السرعة ؟ ومهما كان والد چاك چوزيف وچان فرنسوا غير ميّال بطبعه للاستقرار فى المنزل فإن من حق الدارس أن يتساءل عن السبب وراء مايبدو للوهلة الأولى نفياً ... من المؤكد أن تخوم فرنسا وساڤوا وسويسرا وإيطاليا تعتبر منطقة واعدة بالصفقات المربحة بالنسبة لتاجر كتب جوال إذا قورنت بمنطقة كارسى المغلقة على نفسها والفقيرة طبقاً لما سجله ريشبراى فى تقريره . فهل كان چاك شامبوليون ينقل كتباً ممنوعة التداول مما نتج عنه إبتعاده عن المنطقة الحدودية ؟

سنجد بداية لشرح ما حدث فى خطاب بعثت به مادام دولابرييار وهى حفيدة إحدى بنات أخ چان فرنسوا شامبوليون إلى چول ماريو رئيس جمعية « أصدقاء فيچاك العتيقة » : « .. فى تاريخ غير محدد ولأسباب يصعب أيضا تحديدها ولكنها كانت بالقطع سياسية ، جرى طرد أحد أفراد هذه العائلة من آل شامبوليون من المحافظة وتم مصادرة ممتلكاته فيما بين عامى ١٧٦٥ و ١٧٧٠ وكان محبا للكتب

---

* وهو سيساعد بدوره فى صعود نجم چاك – چوزيف .

** سبق ذكر هذا الموضوع وسنعود إليه فى الفصل الثانى من الكتاب .

ودارساً للغات ومثقفا .. ولكى يتغلب على النوائب فقد عمل فى المجال الذى يعرفه وهو بيع الكتب متجولا .. وقد أوصلته الطرق إلى منطقة « اللوت »(3) .

هل كان وجود قريب لچاك شامبوليون رجل الدين فى كنيسة سان - سوڤير هو الذى شده ناحية فيچاك ؟ الأب بويا يدعى ذلك دون أن يأتى بالبرهان .

جاء فى أحد مستندات سجلات اللوت أن عمودية فيچاك هى التى أخذت مبادرة تمويل هذا البائع المتجول لكى يفتتح لنفسه محلا لتجارة الكتب حيث أن المدينة لم يكن بها هذا النشاط .

وعلى الرغم من ذلك فإن چاك شامبوليون لم يتخل عن حياة التجوال بشكل نهائى إذا سنراه يتاجر فى أسواق المدن وخاصة سوق بوكار .. إلا أنه نجح فى أن يكون له مقر دائم حتى لو لم يستقر هو نفسه تماماً وذلك لأن المال الذى أخذه من العمودية له لم يكن ذا شأن .

وكان زواجه من چان فرنسواز چاليو - وهو فى الثلاثين - عام ١٧٧٣ هو الذى سمح له بشراء دكان ومنزل مدركاً بذلك شيئا من الثراء .

كان آل چاليو يقطنون ضاحية فيسال المتاخمة وهم برجوازيون متأصلون . ولكن والد چان - فرنسواز كان يعمل نساجاً مثل أبيه ومهنة النسيج كانت تعد من الحرف النبيلة - غير أن العائلة كانت تفتخر بوجود موثقين للعقود بين الأجداد ولعدة أجيال . كما أن والدة چان - فرنسواز كانت من عائلة توليبه وهى إبنة عمدة المدينة السابق . بزواجه من هذه الآنسة دخل چاك وسط مجموعة صغار وجهاء فيچاك .

لم نحصل على أى صورة لوالدى چان - فرنسوا . كانا على مشارف عامهما الثلاثين عندما إقترنا وهذه السن تعد متأخرة للغاية بالنسبة لسيدة فى ذلك العصر غيران الذى يدهش أكثر هو أن هذه السيدة ذات الأصول البرجوازية الحضرية كانت لاتقرأ ولاتكتب . وقد ورد فى عقد الزواج المؤرخ فى ٢٣ يناير ١٧٧٣ « بين چاك شامبوليون -التاجر - المولود فى لاروش - دى - ڤالبونيه - وفرنسواز چاليو الإبنة الطبيعية والشرعية لچاك چاليو - تاجر - وهى تقدم له دوطة مقدارها أربعمائة جنيه نقداً راجعها وتسلمها المدعو شامبوليون (...)» وقد وقع على العقد أحد عشر شخصا ولكنه غير موقع من العروس « لأنها لاتعرف كيف تقوم بذلك »(4)

قبل ستة أشهر من العقد أى فى ٦ يوليو ١٧٧٢ كان چاك شامبوليون قد إشترى المنزل الذى سيقيم فيه مع أسرته ودفع نصف ثمنه فى إنتظار إستلام دوطة زوجته . غير أنه لم يشتر مقر مكتبته* إلا فى عام ١٧٧٩ وذلك فى الميدان الأسفل» (بلاس باس) وكان يستأجرها قبل أن يشتريها - وذلك جعل منه صاحب مكتبة موثق.(5)

كون چاك أصبح عضوا فى برجوازية فيچاك وفيما بعد رب أسرة لم يمنعه من الاشتراك فى نشاط الأسواق الجوالة .. وقد نجد فى هذا الترحال أسباب مولد چان - فرنسوا - أو على الأقل أحد أسباب عودة نجلى « تاجر المكتب » إلى منطقة الدوفينيه - وقد أدت عودتهما هذه دوراً حاسماً فى إتجاهاتهما الفكرية ، وفى تحالفاتهما ونجاحاتهما .

منذ القرن السادس عشر ومن بعده عصر التصحيح La Réforme وعلى الأخص فى القرن الثامن عشر أدى تاجر الشنطة أو التاجر المتجول أو بسميه تاجر الخرج دورا إجتماعيا وخاصة إذا كانت تجارته هى الكتب . فهو ليس فقط حاملا للسلع بل هو أيضا ناقلا للأخبار .. إذا أنه ينشر الإشاعات السارية فى المدن والطرق العامة إلى أكثر القرى بعداً وعزلة .. فهو يختلط بعامة الناس الذين لا أصل لهم المعدمين والشحاذين الهاربين من الطاعون ومن الحروب .. مثل هؤلاء زاد عددهم كثيرا فى نهاية القرن الخامس عشر بسبب هجرة الغجر « المصريين » و« البوشمان » و« الرومانيين » إلى غرب أوروبا .

كان هؤلاء الباعة المتجولون يحملون فى خروجهم بالاضافة للعاديات الدينية وصور القديسيين - مطبوعات أخرى تمت بوساطة الحفر على الخشب (اكسيلوجرافيا) وكان الكتاب يؤرق السلطات الدينية والملكية سواء بسواء لما قد يحمله من أراء .. وكان يجب إذن التحكم فى إنتشاره . ومن ناحيتهم فقد قاوم أصحاب المكتبات ذوو العناوين الثابتة إنتشار بيع الكتب عن طريق الباعة الجائلين بسبب صعوبة التحكم فى تحصيل نسبتهم فى حقوق الطبع التى اشتروها من مؤلفى الكتب .

من الناحية الرسمية كان لايحق للبائع الجائل أن ينقل أو يبيع سوى أشياء محددة مثل الكتيبات الدينية والنصائح العامة والتقاويم وكتب محو الأمية وروايات

---

* أصبح فيما بعد محلا لتجارة الأقمشة ، وهو الآن « بقالة جملة ».

عصر الفروسيه . وأضيف إلى القائمة فيما بعد مجموعة كتب « المكتبه الزرقاء » وكانت تطبع فى مدينة تروا Troyes (مركز صناعة الخردوات التى هى أهم بضائع الباعة الجائلين) .. أما من الناحية الواقعية فقد أصبح بائع الخرج عاملا مؤثرا للغاية فى نشر الأفكار « الجديدة أو الهدامة » لعصر التنوير بوساطة الكتب .

ويقول لوسيان فابر وهـ . جـ مارتان فى مؤلفهما « ظهور الكتاب »[6] أن الباعة الجائلين كانوا ينقلون فى خروجهم أشياء عديدة غير تلك المسموح بها .. وفى جميع فترات الأزمات لوحظ بانتظام تزايد عدد « رجال من المتشردين » الذين يبيعون المنشورات والروايات خلسة فى أكثر الأماكن إزدحاما .. فى القرن السادس عشر تم حرق العديد من الباعة الجائلين أحياء وذلك لأنهم ضبطوا وهو يبيعون كتباً هرطقية وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر فى فرنسا زج بالعديد من هؤلاء فى سجن الباستيل لأنهم كانوا يبيعون كتيبات سياسية مناهضة للحكم الملكى . »

چاك شامبوليون لم يسجن فى الباستيل ولم يحرق .. لكن ما حدث على الأرجح هو أنه طلب منه أن يذهب « فى داهية » إلى أبعد مايمكن . ولهذا السبب فهو لم يذهب إلى إبنيه الذين أقاما بعد ذلك فى مقاطعة الدوفينيه وأصبحا من المشاهير ومتبوئين مراكز تجعله يفخر بهما* فى حين أنه كان كثير السفر فى إتجاه الشرق – أوبالأحرى الجنوب الشرقى . ففى كل عام تقريبا كان هذا البرجوازى المحدث من جبيان العليا يشارك خلال شهر يوليو فى حمى اللهو والمرح والمكاسب التى تتيحها سوق بوكار .

الأرباح كانت غير قانونية أحيانا .. فقد كتب مالزارب فى كتابه « بحث فى حرية الصحافة » يشير إلى هؤلاء « القوم الذين يهبطون من جبالهم ليتسوقوا الكتب من مدينة ليون ومن غيرها » . ثم يضيف « منذ سنتين أو ثلاثة ذهب أحد أصحاب المكتبات الباريسيين إلى سوق بوكار ليصادر كتبا أعيد طبعها دون إذن » .

بعد ذلك بقرن كامل وعلى الرغم من أن السوق كانت قد بدأت تفقد أهميتها وبريقها أشار الفونس دوديه فى روايته « نونا رومتان » إلى قوة تأثيرها على الجماهير الغفيرة بسبب « هذه الوشائج الأخوية الماسونية » التى كانت تربطهم بها :

« كانت سوق بوكار ومازالت أسبوعين أو شهرا من حياة الحرية واللهو والمفاجآت فى معسكر للبوهيميين ... كل ذلك تحت مسمى المعاملات التجارية ...

---

* لعله ظهر مرة واحدة هناك بصحبة إبنه البكر ولفترة قصيرة جدا .

هذه المجموعة متعددة الألوان من الإسبان وسكان ساردينا واليونانيين جلاليبهم الطويلة وشباشبهم المطرزة والأرمن بعمائمهم المصنوعة من الفرو والاتراك بأرديتهم المزركشه ومراوحهم وسراويلهم القطنية الواسعة ذات اللون الرمادى ... إلخ ».

من المؤكد ، طبقاً للعديد من الشواهد ، أن چاك بائع الخرج كان واقعا تحت تأثير هذا السحر وكل شئ يدل على أنه كثيرا ما كان ينغمس فى حياة « المعسكر البوهيمى » هذا ... (حتى بعد إصطحابه لچاك - چوزيف إبنه الاكبر عندما راح يبحث عن عمل فى الدوفينيه) .. لقد كان رجلا مرحا ومیالا لشرب الخمر .. فهل نذهب إلى الاعتقاد بأنه أقام علاقات من نوع خاص مع بعضهن أو أن بعض الأشياء الغريبة التى مرت فى حياته ترجع إلى ذلك السبب ؟ أو أن بعض هؤلاء « البوشمانيين » أو « الغجر » أو « المصريين » * قد دخلوا حياته حتى اندمجوا فيها ودخلوا فى خصوصياته إلى أن ظهر فى فيچاك ولد صغير أسمر البشرة سرعان ما أطلقت عليه كناية « الشرقى » ؟ ..هذا الولد الذى سيتحمس بسرعة لمصر ؟ ... تخيلات ... أم تهيئات ؟؟ كل شئ جائز .

ومع ذلك فإن أهم مراحل الحياة العملية لچاك شامبوليون قضاها فى فيچاك واعتبارا من عام ١٧٧٩ وبعد ستة أعوام من زواجه كانت زوجته قد أنجبت له أربعة أطفال بقى منهم ثلاثة على قيد الحياة وأخذ وضعه المادى ينتعش .. فهو لم يكتفى بأن أعد خبيرا فى المكتبات يقوم بتقييم مجموعات الكتب التى يمتلكها نبلاء منطقة قوس - وهو ماتشهد عليه السجلات المحلية - بل أكثر من مشاريعه التجارية الصغيرة فاستأجر أراض زراعية ، كما إشترى وظيفة ذات دخل فى الكنيسة ، وإشترى كذلك مقر مكتبته المطل على الميدان الأسفل (Place Basse) وكان يستأجره حتى ذلك الوقت . وعلاوة على كل ذلك فقد إشترى فى العام ذاته (١٧٧٩) مقر إقامته فى حارة لابولوسكورى وهو المنزل الذى ولد فيه چان - فرنسوا** .

---

* يعتقد البعض أن كلمة « جيبسى » أو غجرى كما نقول فى العربية هى تحوير كلمة ابجيسيان أو مصرى بالغربية - (المترجم) .

** الذى أصبح منذ عام ١٩٨٦ متحف شامبوليون .. لم يتفق المؤرخون على هذا التاريخ (١٧٧٩) الذى ظهر فى الأوراق التى نشرها السيد / كالمون .. فقد نشرت الآنسة مونيك إسكات مقالا موثقا تشير فيه أن صاحب المكتبة إشترى المنزل نحو عام ١٧٧٢ كما أنها توضح أنها لم تجد أى مستند يوضح أصل هذا المبنى (راجع مجلة ميدى - بيرينيه) رقم ١١٥ - أغسطس ١٩٨١) الآنسة إسكات هى التى عملت بنجاح على تحويل هذه الدار إلى متحف .

وبشكل عام – كما يقول أندريه نوال – المثقف المقيم بالمنطقة – كان صاحب المكتبة شامبوليون رجل أعمال ناجح (...) كانت مكتبة المدرسة المحلية ثرية جدا بالكتب وكانت تشترى مقتنياتها من مكتبة الميدان (...) كما كانت تفعل أيضا عائلات فوكو دالزون ودوجاش ، ورابونديج ... » كانوا يقتنون كتبا فى الزراعة والطب والقواميس المختلفة وكتاب « العصافير » تأليف بريسون (١٧٦٠) .. و – الأغرب من ذلك كله – صدق أو لاتصدق – كتاب « هيروغليفيات الفراعنة » لمؤلفة فارتوبرون فى طبعته الفرنسية* التى ظهرت عام ١٧٤٤(7)

توفى أول أبناء فرنسواز وچاك بعد مولده بساعات فى أكتوبر ١٧٧٣ وأسموه جييوم . ثم ولدت لهما إبنة – تيريز – بعد ذلك بعام واحد ثم بيترونيل بعد عامين ثم (چاك – جوزيف » فى ٨ أكتوبر ١٧٧٨ الذى سيصبح الرائد والمشرف على صغر الأبناء چان – فرنسوا .. ولعلنا نقول بلغة هذه الأيام أنه كان مدير أعمال أخيه الأصغر .. بعد چاك – چوزيف ولد چان –باتيست الذى توفى وهو فى الثالثة– ثم ولدت مارى – چان عام ١٧٨٢ .. وبعد ذلك بثمانية أعوام كاملة احتفل آل شامبوليون بآخر العنقود : چان فرنسوا الذى سيدخل اسم شامبوليون فى سجل الأمجاد.

كان هذا المولد غريبا من جميع الوجوه ليس فقط لأن المولود أصبح فيما بعد شخصية فذة ولكن بسبب الظروف الفريدة التى أحاطت بمولده وبسبب الروايات التى ترددت حوله .. وسنأخذ ذلك فى الاعتبار مع طرح الأسئله اللازمة .

فى مؤلفها القيم * الذى خصصته لمؤسس علم المصريات نقلت هيرمينى هارتلوبان فى ١٩٠٦(8) رواية من هذه الروايات وذلك دون أى تقييم نقدى لها وهى تدور حول أعمال السحر .. مصدر الرواية الوحيد الذى يعتد به مذكور فى النسخة الأصلية باللغة الألمانية (ص ٢ ، هامش ٤) وهذه المذكرة الهامشية لم تظهر فى الترجمة الفرنسية للكتاب التى ظهرت بعد ٧٥ عاما من الأصل الألمانى . والمرجع الذى ذكرته هو «مذكرة فى الفراسة الدماغية خاصة بشامبوليون الصغير » تليت على جمعية فرينولوجيا – باريس فى ١٢ نوفمبر ١٨٣٣ ونشرت فى صحيفة هذه الجمعية (B N 8 Ln 27 57613) صاحب هذا البحث هو الدكتور جانان ** – وهو أحد

---

* سنعود إلى هذا المؤلف فى الفصل التاسع .

** تربطه بچان ، فرانسوا علاقات شبه أسريه .

تلامذة مخترع علم الفرينولوجيا (أو الفراسة الدماغية) المسمى «جال » - وكان قد كشف على جان - فرنسوا بعد ذلك بعشرين عاماً :

« لما كانت أتفه الظروف تعد ذات أهمية بالنسبة لتاريخ الشخصيات العظيمة فمن الواجب على أن أذكر علامه مميزة ..

« كانت والدة شامبوليون تعانى من ألام روماتيزمية حادة جداً تمنعها من إستخدام أطرافها وقد حاولت دون جدوى أن تخفف من آلامها بالوسائل الطبيه .. إلى أن أحضروا لها قرويا لايعرف القراءة ولكنه أصبح مشهورا بسبب نجاحه فى علاج حالات عديدة فى الناحية » .

« قام هذا الرجل بتدليكها بنبيذ ساخن بعد أن تم غلى أعشاب طبية فيه .. شربت منه وفى اليوم الثالث من هذا العلاج قامت من سريرها وقد برأت تماماً من الداء .. ولكن الأغرب من ذلك كانت النبوءة التى قالها هذا المعالج لمدام شامبوليون .. وكانت حينذاك فى الثامنة والأربعين وكانت قد توقفت عن الانجاب منذ عشرسنوات .. فقد قال لها أنها ستلد إبنا فى وقت قريب وأنه سيشرفها .. وقد ولد شامبوليون الصغير بعد ذلك بعام . ».

كل ذلك لايوحى بأى ثقة . وعندما تتكرر هذه القصة على لسان سيدة إسمها مدام لاكروا فإن المدالك غير المعروف ينجح فى الحصول على إسم : « جاكو الساحر » .. كما تتضح الوصفة السحرية « شربت مرة واحدة كميات كبيرة من منقوع مغلى لأعشاب طبية وهى ممدة على فرشة من الأعشاب المغلية » .. كل ذلك مضاف إليه جملة تاريخية : « بشر جاكو الساحر مريضته بانها ستلد أبنا » سيصبح : عالما مستنيرا للقرون القادمة* .

هل كان الهدف من هذه الأسطورة هو إضافة لمسة إبهار لتاريخ رجل هو أصلا فى غنى عنها فأن ماحققه فى حياته قد فاق كل تصور ؟ أم أن الهدف كان التمويه على الرواية الحقيقية ؟ وهى أن تكون أمه الحقيقية من الأغراب أو بكلمات أخرى أنه ولد

* أما إيميه شامبوليون - فيجاك إبن أخ جان فرنسوا فقد ذكر القصة فى كتابه « رجلان إسمهما شامبوليون » ولكنه لخصها فى الجملة التالية على لسان الساحر : « ... طفلا سيسعدها » .

خارج إطار الزواج . هذا الافتراض لا يدعمه فقط الحياة غير السوية التى عاشها والده وإنما أيضا عدم معقوليه الرواية الرسمية المزوقة التى تقول أولى إدعاءتها أن أمه ولدته وهى فى الثامنة والأربعين وهذه السن تعتبر متقدمه بالنسبة للقرن الثامن عشر علما بأن صحتها كانت معتله للغاية وكانت قد توقفت عن الانجاب منذ مايقرب من عشر سنوات .. ثم أن هذا الابن المعجزة لم يذكرها أبداً فى جميع مراسلاته فى حين أنه أشار فى العديد من المرات وحتى مماته - أى بعد خمسة وعشرين عاما من وفاة مدام شامبوليون : شخص عزيز عليه للغاية فاته فى فيچاك .

باختصار نقول أنه فى ٢٣ ديسمبر ١٧٩٠* ولد طفل فى حالة صحية جيدة بشرته سمراء وذلك فى المنزل الكائن بحارة لابود وسكورى . أما سجل كنيسة نوتردام دوبوى فمسجل به أنه تم تعميده بها فى ذات الليلة : « فى عام ألف وسبعمائة وتسعين وفى اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر تم تعميد جان فرنسوا شامبوليون المولود فى اليوم ذاته من الزواج الشرعى للسيد / چاك شامبوليون تاجر الكتب وفرنسواز - إبنه جاليو - التابعين لهذه الكنيسة . أبوه الروحى هو چان - فرنسوا** شامبوليون - طالب - أخوه .. وأمه الروحية (اشبينته) هى دوروتى جاليو - خالته وقع عليه أبو الطفل وأبوه الروحى والأم الروحية لم توقع .

توقيع : شامبوليون - القس بوسكيه - شامبوليون .

الدار سادتها الحياة وضوضاء ثلاث بنات وولدين أكبرهم عمره اثنا عشر عاما .

المدينة سادتها حمّى الثورة المتفاعلة . التى لن تلبث أن تحدث بها أيضا الهزات العنيفة التى عمت البلد كله .. فى حين أثار الاطماع بيع « الأملاك الوطنية » وكان أحد الطامعين هو چاك شامبوليون الذى لم يترك الفرصة تمر دون أن يقتنى حقل عنب كان يمتلكه رهبان وذلك فى ربيع عام ١٧٩١ . ثم إشترى بعد ذلك بعضاً من قطع الأثاث ..

---

* كتاب ميشو « السيرة الدولية » و « القاموس الاسيكلوبيدى لفرنسا » تأليف ف . لوبا يذكران عن خطأ أن ميلاده هى ١٧٩١ ، وقد نقل هذا الخطأ سيلفستر دوساس ذاته فى « مذكرة عن شامبوليون الصغير » ١٨٣٣

** القس بوسكيه أخطأ فذكر إسم المولود بدلا من إسم أخيه .

وهكذا كانت الأمور مستمرة فى سيرها الحسن كل شئ إذن كان على مايرام فيما عدا حدوث مشكلة إغلاق المدرسة التى كان چاك - چوزيف يدرس بها والتى كان يديرها الرهبان . فقد احتلها الحرس الوطنى . ولذلك تحتم البحث عن مدرس خاص ليتابع تعليم جاك جوزيف - أثرى المستقبل - والذى كانت شهيته للتحصيل ثابتة بوضوح . تولى هذه المهمة قسان على التوالى* إلى أن عين سكرتيرا فى الشئون الإدارية لبلدية المدينة وذلك عام ١٧٩٤ .

وهنا يثار سؤال - ضمن أسئلة عديدة أخرى - حول الآثار التى تركتها أحداث الثورة المختلفة على هذه الأسرة . إذا سلمنا بما تتناقله الرواية التقليدية كما فعلت هيرميني هارتلوبان [9] فإن چاك شامبوليون كان « على رأس الشرطة » فى فيچاك فى العام الثالث للثورة أى أثناء حكم « الارهاب » .. وذلك يحدد موقع آل شامبوليون من القلاقل : وهو فى قلبها ذاته . إذ كان على رئيس البوليس فى ذلك العهد أن يتخذ قرارات خطيرة للغاية وأن يشترك فى عمليات وحشية .. إلا أن المؤلفة تشير إلى إحتمال ايواء شامبوليون الأب . لاثنين من الرهبان كانا معرضين لخطر داهم ومع ذلك فإن وضعه قد تعرض لخطر كبير فى التاسع من تيرميدور وهذا يلقى بظلال من الشك على النشاط القمعى لچاك شامبوليون خاصة وأننا سنرى فيما بعد أن ابنه الأكبر قد عبر فيما كتب عن إرتياحه لما حدث فى ذلك التاريخ **.

يشير أدرية توال فى أحد النصوص التى نشرها « أصدقاء شامبوليون » فى فيچاك - إلى هذه الفترة بطريقة توحى بأن آل شامبوليون كانوا ضمن تيار الـ SANS/CULOTTE المتمردين إبان الثورة إن لم يكونوا اصلا قادة هذا التيار :

« فى عام ١٧٩٤ لم يكن الطفل (چان - فرنسوا) قد تعدى الرابعة *** من عمره عندما كانت الجماهير الهادرة فى الميدان العالى تصرخ : « تحيا الجمهورية » . ويومها سقطت ثلاثة رؤوس بفعل المقصلة وذلك فى الساعة السادسة والنصف وقد تم إعدام المحكوم عليهم الثلاثة وسط الفرحة العارمة للجماهير »[10].

---

* راجع الفصل الثانى .

** يشير أحد المستندات التى اكتشفت مؤخرا أن چاك شامبوليون كان عضوا فى لجنة المدينة عام ١٧٩٣ (نقلا عن مدام سيمون فواساك)

*** الواقع أن حكم الإرهاب سقط فى يوليو ١٧٩٤ حين كان چان فرنسوا فى الثالثة والنصف من العمر .

الشئ المؤكد الذى يذكره هذا الكاتب المحلى هو أن مكتبة شامبوليون كانت تحصل على الصحافة الثورية مثل « نشره المحكمة الثورية » و « صديق الشعب ، صحيفة سياسية محايدة »[11] . وكان زبائن المكتبة يعلقون على مايقرأونه فى المكتبة – علما بأن هذه الصحف كانت تصل بعد ثلاثة أو أربعة أسابيع من صدورها وهى المدة التى كانت تستغرقها « العربة الحمراء » للوصول إلى فيجاك قادمة من باريس .

باختصار يقول إنه حتى لو نحينا جانباً إحتمال قيام جاك شامبوليون بدور قائد الشرطة المحلى فإن الواقع هو أن الثورة كانت حاضرة بكل ثقلها فى حياة هذه الأسرة أو على الأقل فى حياة الطفل الذى كان يلعب فى شارع صغير لا يبعد سوى ثلاثين خطوة من الميدان العالى . أى المكان الذى كانت المقصلة منصوبة فيه وذلك حتى الشهر الثورى تيرميدور وقد زرع مكانها بعد ذلك شجرة الحرية التى كانت إحتفالات الثورة تقام حولها فى صخب .

ماهى النفس التى لا تتأثر مدى الحياة بتلك الأحداث الجسام ؟ خاصة إذا كانت إحدى هذه النفوس هى نفس چان – فرنسوا وهى من أكثرها حساسية وأقلها تحكماً فى ذاتها بالنظر إلى غرابه علاقاتها الأسرية .

إننا نعرف كل شئ تقريبا عن العلاقات التى ربطت بين الطفل – ثم الشاب – بأخيه الأكبر الذى قال عن نفسه أنه كان بالنسبة له الأب والأستاذ والتلميذ (الأب ؟) وكان له فيما يبدو أب حقيقى إلا أننا لانعرف تقريباً أى شئ عن العلاقات التى كانت تربط چان – فرنسوا بأبويه سوى أنهما لم يقررا منحه فرص التعليم الحقيقية سوى فى وقت متأخر وأنهما تركاه يسافر فى سن صغيره وهو عشر سنوات وثلاثة شهور لمدينة بعيدة ليعيش مع أخيه بصورة نهائية .

لن نتعرف على مشاعر چان – فرنسوا نحو أبيه سوى بعد فترة طويلة من خلال مراسلاته وهى مشاعر قاسية فى أغلب الأحيان وخاصة منذ ١٨١٧ عندما تسببت الفوضى التى إتسمت بها حياة چاك شامبوليون فى إيصال نباته إلى حافة الافلاس الكامل . إلا أننا نلاحظ أنه حتى قبل أن يترك الدار للسفر إلى جورنوبل فى ١٨٠١ أن حياة الولد الصغير كانت تدور فى فلك أخيه الأكبر الذى يبدو وكأنه يأخذ وحده كافة القرارات حتى وهو على بعد مئات الأميال من فيجاك .. كل شئ يوحى بأن الأبوين قد

تنازلا تماماً لچاك - جوزيف - سواء فى فيچاك نفسها أو فى جرونوبل ثم فى باريس - عن مسئولية التعليم بل والانفاق على الولد والمراهق چان فرنسوا .

هل كانت مواقف الأب السياسية أو المراكز التى تبوأها بين عام ١٧٨٩ و ١٧٩٤ هى التى جعلت منه غير لائق لأن يكون مربيا فى نظر الرأى العام ؟؟ وهل تسبب ذلك فى أنه كان شخصية مرفوضة ؟ لا يوجد أى دليل يثبت ذلك .. هل أصبح سكيرا ؟ على العموم فإن عدم وضوح وجوده يثير الدهشة اكثر مما يثيره غياب وجود الأم الأمية التى ظلت على حالها إلى أن توفيت عام ١٨٠٧* على الرغم من مهنة زوجها والنشاط الفكرى الهائل الذى قام به ولداها . وكذلك إنبتاها تيريز ومارى ولكن بدرجة أقل وهما اللتان أدارا المكتبة بعد والدهما .

توجد قصة أخرى ربما تدخل أيضا فى حيز الأساطير ولكنها أكثر إبتكارا من رواية « چاكو السحر » وهى على العموم أكثر طرافة وبالقطع هى بمثابة النبوءة ويجدر ذكرها ، فهى تعطى فكرة معبرة عما عرفته هذه الطفولة من احداث فريدة . القصة الوحيدة التى توضح كم هى مبهمة العلاقة مع أم تبدو غائبة فى حين يعوض هذا الغياب بعض الشئ يقظة اخواته البنات .

وإذا كان العديد من المؤلفين قد رووا هذه القصة الطريفة فإننا سننقلها هنا من كتاب هيرمينى هارتلوبان :

« ... بما أنهم أرادوا إبعاده عن الدراسة لعدة سنوات** فقد أخذ يبحث عن وسيلة يخترق بها أسرار الكتب . كانت الأم قد لقنته عدة صلوات من كتاب القداس الخاص بها*** وقد حفظ هذه المقاطع عن ظهر قلب .. وسرعان ما تحصل على نسخة من الكتاب - وطلب من أحدهم أن يحدد له فيه النصوص التى حفظها (-) وراح يعطى معان خياليه للحروف المطبوعة للتمييز بينهما ، ثم نقلها كتابة (كيف ؟ هل كان يعرف الكتابة بعد؟) ثم راح يقارن بين الكلمات التى تعرف على بعضها . إلى أن نجح بهذه الوسيلة (..) إلى تحديد كل كلمة وكل مقطع فى كتاب الصلوات الذى حفظه.(12)

* الجدير بالتسجيل أنه عندما طلب منها التوقيع على وصيتها عام ١٨٠٧ أعلنت أنها لا يمكنها ذلك «بسبب رعشة فى يديها » (راجع كالمون - دراسات من اللوت، ١٩٨٢، ص ٢٥١)

** لماذا ؟ كان چاك - چوزيف ضعيف البنيان فى حين كان أخوه الأصغر عفيا منذ ولادته .

*** لابد وأنها قد حفظتها عن طريق السمع بما أنها كانت لاتعرف القراءة .

وهكذا فمن الأصوات إلى الرموز ومن هذه إلى تلك إخترع - الفن فى نشأته - بأن إمتلك مبادئ طريقته التى ستتبلور تماما بعد عشرين عاماً - فهو سيقفز من اللغة اليونانية إلى اللغة القبطية من القبطية إلى الديموتيقية ومنها إلى الهيراتيقيه والهيروغليفية موفقاً بهذه الطريقة « بين أصوات الأحياء المسموعه والحروف الميتة » (13)

هكذا تباطأ صاحب مكتبة الساحة السفلى فى تعليم هذا الطفل البالغ من العمر خمس أو ست سنوات فى ذلك الحين تعليما يتناسب مع ما يملكه بكل وضوح من إمكانيات ذهنية غير عادية . فيتولى چاك - چوزيف تعويض هذا العجز بقدر ما يمكن وقد شجعه فى ذلك تمسك الطفل به . وهو الذى يكبره باثنى عشر عاماً . خاصة وأنه كان قارئا نهما للكتب ويعرف أضعاف مايعرفه معظم التلاميذ المحليين الآخرين فى التاريخ واللغات القديمة .

وإذ بالدروس الأخوية تتوقف فجأة . فبعد أن صدم الأخ الاكبر فيما يبدو عندما لم ينجح فى السفر مع إبن عمه أندريه ضمن حملة بونابارت على مصر - وهى القصة التى ثارت حولها عدة إفتراضات كما سنوضحه فيما بعد - وبعد ان زاد إحساسه بالاختناق فى حارة لابود وسكيرى وقد بلغ التاسعة عشرة من العمر نجح فى الحصول على وظيفة صغيرة فى أحد متاجر مدينة جرونوبل وجدها له أولاد عمامه المقيمون فى مقاطعة دوفينية .. كان قد قابلهم مع أبيه فى سوق بوكير . وهكذا خرج چاك - چوزيف من بوكير عام ١٧٩٨ - وكان هذا بمثابة محنة لا مثيل لها بالنسبة للولد الصغير الذى لن يتمكن أحد من مواساته فى ذلك لفترة طويلة . لقد كان سفر الأخ بكل تأكيد بداية أهم أزمة عاشها الطفل فى فيچاك .

وعليه — فقد دخل مدرسة البنين الأوليه التى أعادت عمودية فيچاك إفتتاحها بتمويل منها فى مقر المدرسة التى أغلقت عام ١٧٩٠ (14) دخلها عشية بلوغه سن الثامنة فى نوفمبر ١٧٩٨ ولم يكن سعيدا ولا ناجحا فيها . وسرعان ما أعتبر تلميذا سيئا . فهو يبغض كل ما يتعلق بالحساب وهو ضعيف فى الإملاء* ويتسبب ذلك فى تكرار معاقبته .. علاوة على شخصية سريعة الغضب ، غير المرتبة .. كل ذلك يرجع غالبا إلى كونه « آخر العنقود » داخل أسرته يفسده تدليل أخواته .. وسرعان ما يتهمش ولا يحلم سوى باليوم الذى يخرج فيه من تحت سلطة أساتذته .

---

* سيستمر على هذا الحال لفترة طويلة جداً .

تلك هى الفترة التى كتب فيه على مايبدو خطاباً غير مؤرخ من بضعه سطور لم يتم فك شفرة سوى سطريه الأولين :

"Montreser frère je vous prie demefere savoir de tes nouvellesge te prie"

أما الباقى فهو غير مقروء ..[15]

يبدو من سير الأمور أنهم كانوا بصدد تنشئة تلميذ بليد وغير متواءم مع مجتمعه متمرد : ولا نعرف كيف توصل إلى إحاطة أخيه علماً بما يحدث وكان هذا الآخر يقيم بصفة دائمة فى مقاطعة دوفينيه وإقناعه بمايريد . لكن يبدو واضحاً أن تدخل چاك – چوزيف هو الذى أدى إلى إخراجه من المدرسة ووضعه تحت رعاية قس إسمه دون كالمالز وهو الذى تولى تعليم أخيه الأكبر قبل ذلك بعشرة أعوام .. ولأن القس احتفظ بذكرى طيبة عن تلك التجربة فقد قبل أن يتولى شئون الأخ الأصغر المشاكس .

الرواية التى قامت مدام هارتلوبان بترديدها جعلت من « دوم كالمت » كما نسميه المربى الأول لجاك جوزيف ثم لجان فرنسوا شامبوليون ، راهبا من البنيديكتان مناهضا للدستور المدنى الذى طبقته الثورة على رجال الكنيسة وأن جاك شامبوليون تطوع بشجاعة فى استقباله وإيوائه فى داره بشارع بودوسكيرى .

أما شارل – أوليفيه كاربونال فهو يشكك فى صحة هذه الرواية فى كتابه «شامبوليون الآخر » L'Autre Champollion»، أما السيد ميشال فوريه – وهو باحث من فيچاك – فقد أرسل لنا خطابا يؤكد فيه أن الشخصية التى نحن بصددها غالباً ما تكون چان چوزيف كالمالز الذى انتخب عام ١٧٩١ القس المسئول عن كنيسة دوبوى التى تتبعها عائلة شامبوليون والتى عمد فيها چان فرنسوا .. وقد توصل إلى تلك النتيجة بعد أن رجع فى بحثه إلى قائمة رجال الكنيسة الذين أقسموا والذين لم يقسموا (الولاء للثورة) كما رجع أيضا إلى مقارنة خط أستاذ چاك – جوزيف وجان فرنسوا ببعض النصوص الأخرى كتبها بخط ، ثم أن دون كلاماز كان يسكن على بعد بضعه أمتار من سكن شامبوليون فى شارع البكردوسكيرى كما أن العديد من العقود تحمل إمضاءه بجوار إمضاءات العديد من أفراد العائلة .

لا أحد كان يستحق أكثر منه لقب صديق العائلة الذى أطلقه عليه چاك – چوزيف .. بالاضافة إلى أن شامبوليون الأب (چاك – چوزيف) كان ثوريا معلنا (جاكوبى) لدرجة لا تسمح له بأن يأتمن أحد أعداء الثورة على تعليم أبنائه حتى لوكان هذا الشخص من أصدقائه .. وهذا الجانب من القصه هو الذى يهم المؤرخ فى المقام الأول

.. لأن تربيه الأخوين شامبوليون لم تكن من النوع الذى يشكك فى الولاء للثورة الذى إرتبط بها أهل البيت جميعا . كان دم كالماز بالتأكيد رجلا غزير العلم ، راجح العقل واسلوبه فى الكتابه لايخلو من الأناقة . تحت رعايته تفتحت شخصية چاك چوزيف أولا ثم چان - فرنسوا أفضل بكثير مما حدث لهما فى المدرسة .

هل تأثر أسلوبه التعليمى بكتاب چان چاك روسو : أيميل ؟ من المؤكد أن القس وتلميذه إلتزما ببعض مبادئ الفيلسوف . فأمضيا أكثر فترات الدرس فى الريف ، وربط المعلم على قدر الإمكان بين أقواله وحقائق الحياة وطاحونة جريفول ، والحشرات والنباتات وكذلك الأثار القديمة مثل الطريق الرومانى المؤدى إلى موقع «الأوكسيلودونوم» * القريب والقصر العتيق المجاور للابالان ومبنى الضيافة الذى شيده سوللى ** (وزير مالية لويس الرابع عشر) فى المدينة الصغيرة .

كان إهتمام الولد الصغير مشدودا لمادتين تحمس لهما : النبات والنجوم التى سحرت لغتها لب التلميذ الصغير كما علمه إياها دوم كالماز . إلا أن هذا الأخير لم يساير تعاليم الفيلسوف چان چاك روسو فى نقطة واحدة من مشروعه التعليمى وهو دراسة اللغات التى كان روسو لا يحبذها ، ذلك لأن الولد كان قد أثبت نبوغه فى مجال اللغات القديمة مما دفع القس إلى تشجيعه خاصة أنه هو نفسه كان فيما يبدو يحسن التعليق على النصوص الدينية .

وهكذا تحصل چان فرنسوا خلال هذين العامين اللذين قضاهما بجوار دوم كالماز (١٨٠٠ - ١٧٩٩) على مبادئ راسخة للاتينية والأغريقية وبعض من العبرية بالاضافة إلى التاريخ الطبيعى والفلك .

وحتى نحسن تقييم تطور هذه الدروس ونتائجها نعطى الكلمة للإثنين : المعلم والتلميذ وقبلهما لصاحب هذا المشروع التعليمى ومنسقه . فى التاسع والعشرين من شهر ترميدور عام ٧ (الموافق ١٧ أغسطس ١٨٠٠) كتب چاك - چوزيف شامبوليون خطابا لدوم كالماز من مدينة جرونوبل حيث يقيم منذ مايقرب من عاميين :

---

* فى كابديناك الأعلى

** أصبح اليوم « دار النقود » وقدتم ترميمه على أكمل وجه

« سيدى علمت بكل سرور أنكم تفضلتم بالموافقة على إعطاء دروسكم وعنايتكم لأخى الصغير . لو كنت أحبه أقل مما أشعر به نحوه أو لوكنت لاأحبه قط لكان لايعنينى أن يكون أستاذه عالما ، طيب القلب ومتسامحاً أو أن يكون مدعيا ، فظا وجافا ، غير أن الحب الذى أكنه لأخى يجعلنى أمل فى أن يكون معلمه من النوع الأول . وها أنا أرى أمنياتى قد تحققت وأنى أهنئ أخى لأنه عثر فى شخصكم على المعلم والصديق : ولاشك أننا سنراه – بعد أن يكون العمر قد شكل شخصيته – ينضم لى وللأسرة للتعبير عن إمتناننا لكم (...) أسمح لنفسى بأن أطلب منكم مذكرة صغيرة عن برنامج دراسته قدراته وتطوره .. »[16]

وجاءه رد المعلم :

« فيجاك ، فى ٨ نيفوز عام ٩* (٢٩ ديسمبر ١٨٠٠)

« إنى بكل تأكيد أقبل مساعدة أخيكم وليسعدنى أن أشعر بشئ من الفخر لأنى أشارك فى تشكيل مثل هذه الموهبة الجميلة لو لم يكن متقلبا لهذه الدرجة ؟ إلا أننى آمل أن أراه يحرز تقدما بخطى عملاقة فى مجال الأدب حيث أن فى أمكانه سلوك هذا الدرب بشئ من النجاح عندما يكون العمر قد أنضج الدروس المتواضعة التى أعطيها له . انه لم يتعد التاسعة بعد ويمكنكم أن تتصور بسهولة ما يمكن لطفل فى سنه أن يفعله عندما يكون إعتماده كاملا على حنان الأب والأم وعلى تسامح أستاذه (...) لقد كنت مرتبطا بكم بكل صدق ولما كان الود يحتاج لما يزكيه ولم يعد فى إمكانى أن أضيف لكم شيئا تحتاجونه فإنى أهنئ نفسى إذ أتمكن من صنع شئ له . وبالمناسبة فإنى أرجو أن تدركوا أنى أحصل على مقابل لعنائى : فإنى أعتقد فى لعبتنا هذه سيكون رهانى عليه رابحا ، إنه متعلق بى جداً وذلك يزيد من رعايتى له .

« لقد بدأ يقدر أول مصاعب اللغة اللاتينية وهو ينجح من وقت لآخر فى ترجمة نص إلى هذه اللغة ترجمة مقبولة .. أما تراجمه من اللاتينيه فقد قام بنقل نص واحد إلى الفرنسيه دفعنى إلى أن أطلب منه المزيد حيث أنه نجح فى التعبير الجيد عن المعنى اللاتينى .

---

* عدم تعود القس دم كارملز على التقويم الثورى جعله يؤرخ خطابه عام « ٨ »

أنه يتمتع بقدر كبير من التذوق وقدر كبير من حب الدراسة إلا أن هذا التذوق وهذا الميل يذوبان فى نوع من اللامبالاة والاهمال يصعب وصفهما . ففى بعض الأيام تراه يريد معرفة كل شئ وفى أيام أخرى تراه لا يفعل شيئا .

« لقد مررنا بمثل هذه الفترة السعيدة من العمر ، لم نكن نرغب خلالها أن يوبخنا أحد واليوم بعد أن قدرنا قيمة المعرفة نشعر بالغضب تجاه اساتذتنا لأنهم لم يسلكوا جميع الوسائل المتاحة لكى يمزجوا ما هو نافع بما هو مشوق حتى نتمكن من المضى فى درب العلوم المتينة .

« كان يمكن لنا أن نصل إلى مرادنا لو كانت الكتب الإبتدائية متوافرة ولكنكم تعرفون أننا محرومون فى هذا البلد من كافة الوسائل .. ولذلك فإننا نعتقد أننا سنصبح أكثر فائدة للبشرية لوتعرفتم فى أوقات فراغكم على وسائل حديثه لدى معلمى مدينة جرونوبل وأفدتمونا بعد ذلك بوجهة نظركم .. لعلنا نتمكن بنجاح من تنمية ذلك النوع من العبقرية التى نتلمسها لدى شباب هذا البلد ...

« القس : كاالمز »(17)

بعد بضعة أيام يكتب چان فرنسوا لأخيه الأكبر خطاباً يستخدم فيه صيغة الجمع للمرة الوحيدة تعبيرا عن الإحترام ولعلها تكون قد أمليت عليه من دوم كاالمز .

« فيچاك فى ٢ يناير ١٨٠١ (بعد أيام من بلوغه العاشرة) أخى العزيز جدا . بعد طول إنتظار بلغت المنى بأن تسلمت خطابكم العزيز . وقد إزداد سرورى بأن علمت أنكم فى أتم صحة .. أما أنا فأحمد الله على أنى فى صحة جيدة جداً وكذلك الحال بالنسبة للوالد والوالدة ولأخواتنا العزيزات * وهن يرسلن لكم قبلاتهن الصادرة من أعماق قلوبهن . أشكركم على النصائح التى تفضلتم بها علينا وسأبذل كل جهدى كل يوم لأطبقها . لقد طلبتم عينة مما نعرفه .. وإنى أرسلها طيه .

« أرجوكم أن تسامحوا عقلى الصغير لأنه متقلب بعض الشئ وأمل أن تقومه نصائحكم . أرجوكم أن تبلغوا كافة الأقارب الأعزاء بأسفى هذا وأن تقبلوهم بالنيابة عنى . السيد كاالمات (كذا) كان ، فى منتهى السعادة بخطابكم العزيز وهو يؤكد لكم

---

* من الغريب أن صفة « العزيز » لم تقرن سوى للأخوات .

اعتزازه بصداقتكم .. فى الختام ياأخى العزيز أقبلكم من أعماق قلبى (...) تأكدوا إنى سأبقى مدى الحياة أخاكم المطيع .

شامبوليون الأصغر ».

أرفق هذا الخطاب نص ترجمة إلى اللغة اللاتينية قام بتزويقها برسومات عديدة والنص الفرنسى قدمه له دوم كالمز : وترجمته إلى العربية :

« إن الله يحبنى عندما أعطى خبزى للفقراء . أنطوان (؟) سيحبنى عندما أحفظ دروسى جيدا الرجال الذين يمارسون الفنون يعملون لصالح العلوم (...) التلميذ العاقل لا يغضب أحد قط . »(18)

ما يلفت النظر فى محاولات التعبير التى يقوم بها جان – فرنسوا فيما بين الثامنة والعاشرة من عمره هو ضعفه فى الإملاء أكثر من عدم استواء الخط الذى راح يتحسن من نص لآخر .

من المؤكد أننا نحتاج لكى نحكم على التلميذ حكما سليماً مقارنة أعماله بما كان يقدمه معاصروه لمدرسيهم فى هذه المجتمعات شبه البلدية . غير أننا لاننسى أن والد جان – فرنسوا كان صاحب مكتبة وأن الطفل كان يمضى ساعات طويلة فى متجر أبيه وعلاوة على ذلك فقد تعلم القراءة وحده وهى تجربة كانت مفيدة جداً فى تكوين شخصيته .

يتحتم علينا أن نسجل باختصار أنه بالرغم من كل هذه الإمكانات فإن هذا الولد كان ضعيفاً للغاية فى هذا المجال وهو فى العاشرة من عمره مما تسبب له كما رأينا فى توبيخ أخيه له . ومع ذلك فإن هذا الطفل كان يمتلك مواهب خاصة جداً ستزدهر فيما بعد ..

بعد أسابيع قليلة يوجه جاك – جوزيف – وقد إزداد موقفه من أخيه أبوة – هذه السطور المعبرة بما فيها من نصائح عن مدى سلطة الأخ الكبير وعمق أحاسيسه تجاه شقيقه الأصغر .

« جرونوبل ، ٩ بلوفيوز ، عام ٩ (٢٩ فبراير ١٨٠١)

أريدك أن تفى بالوعد الذى قطعته على نفسك فى خطابك الأخير بأن تتبع النصائح التى قدمتها لك من موقع الصداقة التى أكنها لك وإذا كنت أشعر ببعض

الأسف فهو لأنى لا يمكننى إسداءها لك شخصيا ومشاركة والدى العزيز ووالدتى العزيزة * فى الإعتناء بك بالإضافة إلى عناية دوم كاللز المتسامحة .

« بما أنك إعترفت لى بأن تفكيرك متقلب لذا يتحتم عليك أن تمنحه بعضا من الثقل . لا تنسى أبداً أن الوقت الذى يضيع لايمكن إستعاضته . وأعتن بواجباتك . تذكر أن أكثر ما يعيب التلميذ هو الكسل والإهمال (...) إذا كنت تريد أن تحضر لتبقى بجانبى ** فيجب أن تتعلم شيئا وبسرعة لأن الجهلة لايصلحون لشئ . إذا أردت أن أحصل من والدنا العزيز *** على موافقته لكى تبقى معى فيتحتم عليك من جانبك أن تحصل على رضاه بقدر الإمكان عندئذ ستكون هنا معى فى مدينة كبيرة ولن تترك صداقتى لك أى شئ تبتغيه دون أن تلبيه . وعلاوة على ذلك فإنك ستتعرف على جميع اقربائك ومنهم أبناء عمومة فى مثل سنك يدرسان مثلك ويحققان تقدما فى كل يوم . فإذا لم تكن على نفس مستواهما عندما تحضر إلى هنا فلن يكون فى ذلك ما يشرفك (...) إن القراءة مفيدة للغاية وتساعد على تكوين الفكر والأحاسيس ، وأنت تتمتع بهذه المقدرة فاستفد منها . من الأفضل أن تجتهد فى تحسين خطك والأهم أيضا أن تتقدم فى الإملاء . إن القراءة ستساعدك كثيرا فى كل ذلك .

« أود أن تتواصل من اليوم مراسلاتنا وأن تقول لى كل ما يخصك ، امنحنى هذا السرور إلى أن أتمكن من إحضارك إلى هنا وهو ما قد يحدث أقرب مما تتصور . تقدمك وحده هو الذى سيحسم الأمر . قبلاتى ..» (19)

أرفق الأخ الأكبر بهذا الخطاب خطاباً مطولا لدوم كاللز ننقل منه بعض الأسطر على أن نعود إليه فيما بعد عندما نحاول التعرف عن قرب على شخصية جاك جوزيف *** :

« جرونوبل فى ٩ بلوفيوز عام ٩ (٢٩ يناير ١٨٠١)

أكد لى خطابكم الموقر المؤرخ ٢٨ ديسمبر الفكره التى كنت كونتها عن أخى الصغير . إن طبيعته التى قدرت أنها متهيجة ومشاكسة جعلتنى أتخوف من أن يتسبب

---

* حصل الأبوان هنا علي صفة « الاعزاء » .. مع ملاحظة أن الأخ الأكبر هو الذى يكتب

** فى جرونوبل ، مما يوضح أن مشروع إنتقاله إليه كان يدرس منذ فترة .

*** انظر الفصل الثانى

فى قدر أكبر من الهموم للشخص الذى يوافق على أن يتولى تعليمه . إن رعايتكم له ستزيد أن أمكن ذلك من إمتنانى لكم . وأرجو أن يعوضكم الود الذى اكنه لشخصكم عن مجهودكم ولو بقدر قليل . أرجو أن تواصلوا رعايتكم له ... » [20]

لم يمض على ذلك التاريخ سوى شهر ونصف إلا وكانت «رعاية » دوم كالملز قد توقفت : فقد ركب چان - فرنسوا العربة المتجهة إلى مدينة « ليون » ثم المتجهة إلى مدينة جرونوبل وذلك فى نهاية مارس ١٨٠١ ليلحق بأخيه الأكبر فى الدوفينيه واضعا نفسه تحت وصايته . هل سافر هذا الولد الصغير البالغ من العمر عشر سنوات وثلاثة شهور وحده ؟ من غير المحتمل أن يكون أبوه قد رافقه فى رحلته ولم يتوافر مايدل على أن جاك - جوزيف قد إنتقل إلى ليون للقاء أخيه الصغير. لأن الذى إستقبله هناك هو أحد أصدقاء چاك چوزيف من رجال الدين إسمه مارتان .

فإذا صح أن الصغير « إميل » فيچاك قد قام بهذه الرحلة الطويلة وحده (وهى تساوى رحلة عبر الأطلنطى فى زمننا هذا) فلا بد أن نتخيل مدى ما شعر به من فخر وما أضفته عليه من ثقة بالنفس واعتزاز بها .

هل نجازف الآن ونرسم صورة شخصية لچان - فرنسوا وهو فى العاشرة من عمره بناء على المؤشرات المتوافرة لدينا وبناء على ما نعرفه عن أفعاله وتحركاته هو وأهله يوم أن ترك فيچاك للحاق بأخيه فى كبرى مدن الدوفينيه التى هى مواطن الأسرة ؟

چان - فرنسوا ولد متوهج المزاج ، حاد فى تحركاته وتلقائى فى إندفاعه وسريع فى ردود أفعاله : لون بشرته بنى غامق ويصفه البعض بأنه مائل إلى اللون الزيتونى . عيناه لوزيتا الشكل غامقتان للغاية ، قرنيتهما صفراء تطلق شرارا تحت خصلات من شعر داكن السواد ، يتفق البعض على وصفه بأنه سريع الإنفعال بل عنيف : « صعيدى » دمه ساخن ، رأينا كيف أن أخاه قد وصفه بأنه « متهيج ومشاكس » .

وما دمنا قد ذكرنا « إيميل » (كتاب چان چاك روسو) فإننا نستعير منه كلمة فريدة لجأ إليها روسو ليصف بها هذه النوعية من الأولاد إذ يقول « ولد ديسكول » أو ذلك « الذى يهشم الأثاث الذى يستخدمه ويكسر شبابيك غرفته » [21] ؟ يجب ألا نبالغ فى هذا الاتجاه لقد نعتوه يوما بأنه Cabochard وهى الصفة الدقيقة لمثل هذا النوع من المزاج المندفع السيكلوتيمى المتذبذب دون وسطية بين القمة والقاع ولا يرى مواد دراسته سوى من خلال كرهه العميق والمناهض للرياضة الحسابيه وولعه الإيجابى

بدراسة اللغات والسماء والنباتات ، إندفاع يليه تخلى وحماس ثم إرهاق . هذا هو جان فرنسوا وسيبقى دائما هكذا .

لن نتوقف طويلا عند هذه الجملة أو تلك إلى قالها كالملز مثل « الخطوات العملاقة التى يمكنه أن يقوم بها فى مجال الأدب » .. لأن فى ذلك بعضا من الكلام لأصحاب مهنة التدريس .. غير أننا نرى فى لهجة الأستاذ أنه يكن لهذا التلميذ الفريد إهتماماً فائقا على الرغم من أنه « متقلب» « كسول » و«مهمل » ومثبط للهمم فى بعض الأحيان .

نضيف إلى موهبة حبه للغات التى سجلها دوم كالملز لدى جان فرنسوا ميلا حاسماً للرسم منذ تلك الفترة من حياته ويجب الا نهمل هذه النقطة . لأنه عمل على تطوير هذه الموهبة بكل الحماس الذى يضعه فيما يحب ولأن « شامبوليون الصغير » سيجعل من هذه الموهبة سلاحاً غالى الثمن فى دراسته للحروف التى هى فى كثير من الأحوال تعبيرا أنيقاً عن الواقع (بالنسبة لتسمية « شامبوليون الصغير » فقد أطلق عليه هذا الاسم وهو فى تلك السن بالمقارنة بأخيه الأكبر إلى أن إتفق الإثنان على إستخدام إسم مستعار من اللغة العربية وهو « صغير » « Seghir » .) ومن كثرة المرات التى أعاد بها نسخ الحروف الهيروغليفية باعتناء كبير ودقة متزايدة نجح العالم المكتشف من التعود على هذه الرموز السرية ثم التغلب عليها وترويضها .

لنعد فى الختام إلى المجال الاسرى حتى نتمكن من تقييم هذا الولد ذى الإمكانات المتباينة القيمة والمزاج المتقلب والمندفع . فهل يمكن الحديث عن غياب الأب ؟ فى خطابه المؤرخ ٢٩ يناير ١٨٠١ أشار إلى قرار يبدو أن « والدنا العزيز » قد إتخذه (دون أى إشارة إلى والدتهما) مما يجعل من الواجب تصحيح ماسبق قوله عن تقلب صاحب المكتبة فى دوره التربوى : كان فى إمكانه على الأقل إستخدام حقه فى الإعتراض .. وأقل ما يمكن قوله فى هذا الصدد أنه إستخدم هذا الحق تجاه إبنه بنفس القدر الشحيح الذى إستخدمه لويس السادس عشر تجاه نواب الأمة . يجب أن ندخل فى تقييمنا لعدم إنتظام هذا الولد « الديسكول » ضعف السلطة الأبوية الملاحظ عند جاك شامبوليون وربما أيضا العناية الزائدة عن الحد التى أولتها أخواته له لتعويضه عن غياب الأم (ربما يسبب مرض أو إعاقة ما ؟)

سيهرب جان فرنسوا وهو فى العاشرة وثلاثة شهور من هذه التربية العرجاء التى كانت تتفاقم ليلتحق فى جرونويل بالذى سيصبح بالنسبة لقلبه – بمثابة الأب ثم أيضا بعد ذلك بقليل بالنسبة لعقله أيضا .



٢ - أخ ، أم أستاذ ، أم أب ؟

ثيو وفنسنت ؟ من بلزاك إلى ستندال - إبن القرن - إنتهازية - ترشيح للمشاركة فى حملة نابوليون ؟ محب للكتب لدرجة مرضية - من جاربيل إلى ميلان - زيجة مناسبة - سحر الشرق .

لم يذهب الغلام جان - فرنسوا شامبوليون فى نهاية مارس ١٨٠١ لاكتشاف أو غزو مدينة ، إنما ذهب إلى لقاء رجل هو أخوه الأكبر . بالتأكيد كانت جرونويل فى نظره المدينة الكبيرة المهيبة فهى عاصمة الإقليم الذى تنتمى له عائلته . غير أن ما كان يهمه بالفعل هو جاك - جوزيف ووجوده وكذلك نصائحه وحمايته - كدنا نكتب أبوته .

لهذا السبب يجب التأكيد الآن مع بداية هذه الحياة المنطلقة - على الدور الذى لا يقبل أى مقارنة والذى أداه الأخ الأكبر ، وهو الدور الذى سيصعب تمييزه عن دور الأخ الاصغر على المستوى العلمى والذى يستحيل عدم إحلاله محل دور الأب على المستوى المعنوى فهل يستوجب هذا أن نقدم للقارئ سيرة ذاتية مزدوجة تعيد تشكيل الفريق المكون من التوأمين شامبوليون ؟ لقد فضلنا أن نبرز ما يستحيل إختزاله فى العبقرية وما يميزها عن التطبيق وحسن الصنعة وسعة المعرفة والموهبة ؛ هذه التفرقة التى أحسن جان كوكتو التعبير عنها حين قال « الموهبة تفعل ما تريد أما العبقرية فهى تفعل ما يمكنها » .

بعد هذا الاستطراد فإنه لا يسعنا إلقاء مايكفى من ضوء على ما شارك به طول بال المثقف فى تكوين المكتشف وإن تم ذلك أحيانا بالحاح قاس . لقد أثرت أحيانا المقارنة بين علاقة الأخوين شامبوليون وتلك العلاقة التى قامت فى نهاية القرن بين ثيو وفنسنت ڤان جوخ . سنعاود الحديث عن هذه المقارنة ولكن نبادر ونقول أن ثيو الذى كان الأخ الاصغر - لم يشارك قط بيده فى وضع الألوان التى نبعت فيها « زهور عباد الشمس » التى رسمها فنسنت ، كما فعل جاك - جوزيف عندما اضطر على سبيل المثال جان فرنسوا أن يحيط المجتمع العلمى الممثل فى شخص مسيو داسييه باكتشافه الذى تم فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ .

سنخطئ فى تقييم ما قام به المكتشف إذا نحن أغفلنا وقوف هذا الأخ الأكبر الذى لا يكل إلى جانبه أو أمامه يناديه ويشجعه ويساعده بماله وبمشورته وبمعارفه (بكل ما تشير إليه الكلمة من معان) . لقد كان بالنسبة له الحارس ومرشد الدرب ، مزيل الصعاب وحامل الزاد منسق المستندات والمراجع ، هو المعبر الذى أوصله لهدفه نظير أخيه الذى حضر مولد عبقريته قبل أن يدافع عن فتوحاته وأن يحافظ على ذكراه بصفته « أبيه وأستاذه وتلميذه » فى آن واحد .

من هنا تأتى الأهمية التى سنوليها لهذه الشخصية التى تبدو كما لو أنها قفزت مباشرة من رواية من روايات عصره . إن طموحه المحموم ودماثة طباعه الاجتماعية وصعوده الدءوب فى المجتمع وفى مجال العلوم تعيد إلى الذاكرة ماحدث لأبطال روايتى « رجل عظيم قادم إلى باريس من الريف » أو « مباهج ومزلات الغوانى » هو لوستو – أو فينو أوجيرو فى حين تذكرنا النزوات العبقريه للأخ الأصغر ومطالبه وتقلباته المزاجية ولهيبه غير المحكوم وبراعته فى أن يصنع لنفسه الأعداء – بأبطال روايات ستندال مثل جوليان أو لوسيان سنكتفى بهذا القدر من المقارنة .. غير أننا سنعود قريبا إلى ستندال فى معرض حديثنا عن هذا أو ذاك – عندما نستكشف جرونوبل فى مطالع القرن التاسع عشر ...

إذا كان من الصعب – كما رأينا – استكشاف السنوات الأولى من حياة جان فرنسوا شامبوليون : – « الشقى » الصغير المقيم فى حارة لابود وسكيرى – فمن السهل جدا أن نكون لانفسنا فكرة عن طفولة وفترة مراهقة اخيه الأكبر . فقد عكف – غداة بلوغه الحادية والعشرين – على كتابة الفصل الأول من سيرته الذاتية التى لم تكتمل * مع عمليات التجميل التى غالبا ما تصاحب مثل هذا العمل (حتى عندما يقوم به مؤلف مثل جان جاك روسو) فإننا نتعرف بكل وضوح على الحقيقة البينة : حقيقة الثورة ثم الامبراطورية النابليونية وبشائر الرومانسية : زمن بدا كما لو أن إعلان حقوق الإنسان قد يسمح بفتح الطريق أمام الجميع نحو الثقافة .

تحت عنوان « السنوات العشرون الأولى من حياتى » كتب جاك – جوزيف شامبوليون فى ٢٧ برومار عام ٨ (١٧ نوفمبر ١٧٩٩) فى جرونوبل قبل أن ينضم اليه أخوه الصغير بأربعة شهور ، هذا المشروع « لاعترافاته » :

---

* اكتشفها وذكرها للمرة الأولى (جزئيا) ش – أو كاربونال (المرجع المذكور سابقا) فى حين أن إيميه شامبوليون فيجاك – ابن المؤلف ذاته – لم يذكرها قط .

« ولدت بعد ظهر يوم ٦ أويه ٧ أكتوبر ١٧٧٨* . ولدتني أمي دون مساعدة أي طبيب بمفردها تقريبا ضآلة جسمي وضعف تكويني قللا كثيرا من البهجة التي جلبها مولدى لوالدى فقد كنت أول ذكر يولد لهما وكان مظهرى لاينبئ بأن سلالتهم ستكون كبيرة .

« رضعت لبن أمي . طفولتي كانت بالنسبة لوالديّ سلسلة من المخاوف والأزمات ... وأدين ببقائي لاستمرارية العناية الدءوبة التي حظيت بها (...) لقد إستمرت المخاوف ذاتها وتكررت نفس الأزمات ولكن قابلتها نفس العناية المثابرة التي لم تتوقف مدعمة بمودة لم تضعف ، غمرتني ...

« عملية تعليمي بدأت وأنا مازلت صغيرا ، فما أن بدأت أتفوه ببعض الكلمات إلا وكنت قد وضعت في رعاية سيدة عجوز ورعة - كاتينو - التي أصبحت مربيتي أكثر من كونها معلمتي . فقد مزجت بين رعايتها الأمومية لي وبين دروس القراءة الأولية ؛ وهي التي علمتني كيف أميز بين الحروف . ويمكنني أن أقول أن والدى قد تركاني لفترات طويلة عندها فلم يكن ذلك للتعليم على يديها بقدر ماكان ليجعلاني أتمتع بالرقة والعناية التي حبت الطبيعة بها هذا الجنس ... »

يستحيل هنا أن نمنع انفسنا من أن نتسائل عن طبيعة هذه الزوجين جاك وجان - فرنسواز شامبوليون . فهما قد رزقا بإبن ذكر بعد الذى توفي بعد مولده قبل خمس سنوات وبعد بنتين كانا قد بلغا الرابعة والثانية من عمرهما .

ليس من الصعب أن نصدق جاك جوزيف عندما يقول أن « ودأصادقاً » جعلهما «لايتواينيان » عن الاعتناء بهذا « الوريث الذكر » ، لكن لماذا عهد به إلى سيدة غريبة فور أن تمكن من « النطق ببعض الكلمات » حتى لو كانت هذه السيدة « قديسة » ضمن القديسات . خاصة وأن الله حباه بأم وأختين أكبر منه وفي الإمكان أن يتمتع داخل أسرته بالرقة والعناية التي حبت بها الطبيعة الجنس اللطيف ؟ قد يكون السبب في أن العرف في ذلك الوقت يقضي بوضع الطفل في رعاية مربية » . ومع ذلك فالملاحظ هو تعدد الأمور الغريبة داخل هذه الأسرة والتي ستزداد مع جان - فرنسوا ! يبدو مؤكداً أن الأم لم تكن في حالة تسمح لها بتولي مسئولية إبن ذكر .

« بقيت في كنف المربية كاتينو حتى سن السابعة ** عندئذ طلبت أن أذهب إلى

* راجع ش - أو كاربونال سجل كنيسة نتردام دوبوى في فيجاك ويؤكد أن جاك - جوزيف قد تم تعميده في ٦ أكتوبر ١٧٧٨ وكان قد ولد في اليوم السابق (راجع المؤلف المذكور ص ١٢).

** ست سنوات كاملة قضاها بعيداً عن بيت الأسرة في شارع لابوبوسكيرى .

المدرسة ،الحقنى والدى لدى القس المسئول وهو الذى علمنى القراءة وجعلنى أحفظ عن ظهر قلب بعض صفحات الكتاب الأولى وأراد أن يعلمنى الكتابة أيضا . وعندما بلغت التاسعة أراد لى أبى أن أتعلم اللغة اللاتينية غير أنه لم يكن لديه أى معرفة بهذه اللغة . ومع ذلك فقد حاول فى أحد الأيام أن يترجم عنها نصا ولما جعلنى أقرأ له فى كتاب المزامير ذلك المزمور الذى يبدأ باللغة اللاتينية بهذا المطلع : Portis Horode impie ترجمها إلى الفرنسية « بوابو رودس ساروا مترجلين ».

« وعليه فقد قرر والدى بناء على نصيحة صديقه دوجيه* أن يطلب من السيد – دور سيسى أن يتولى رعايتى (..) بدأ تعليمى الحقيقى عند السيد وسيسى وكان ذلك بأن عمل على تخليصى من العادات السيئة واللهجة المتكلفة التى نقلتها عن معلمى السابق (...) كان مسيودوسي فى الخمسين تقريبا (...) وكان رجلا متعلما بحق وفى إمكانه تعليم الآخرين (...) وكما هو معتاد فقد كان يحابى بعض تلاميذه وكنت ضمن هؤلاء . كان يخصنى برعاية متميزة خاصة عندما إكتشف أن لدى إستعدادات طبيعة للتحصيل (...) كان تقدمى فى الدراسة سريعا فلحقت بعد فترة وجيزة بصديقى دوج (...) ولم نفترق عن بعضنا لمدة طويلة (...) وإستمر مسيو دوسيسى فى رعايتنا (..) رابطا سمعته بتقدمنا حتى أصبح الموضوع بالنسبة له مسأله كرامة شخصية (...)

« عندما إندلعت الثورة كنا على هذا الحال (...) المشاكل التى لا حقت مسيو دوسيسى (...) حرمتنا من تعاليمه .

أغلق مدرسته (..) فلم يبق أمامنا سوى الإلتحاق بالمدرسة (...) فى الوقت ذاته تلقيت بعض الدروس من أستاذ الرقص الملحق بالكتيبة المرابطة فى فيجاك ... »

فى ١٧٩١ عندما بلغ جاك – جوزيف الثالثة عشرة قبل فى الفصل الخامس ، بعد عشرة أشهر من مولد جان – فرنسوا ، ولم تسجل ذاكرته هذا الحدث فلم يذكرة** . غير أن المدرسة إضطرت إلى غلق أبوابها بسبب « المضايقات الثورية » وكان حينذاك فى المرحلة الثانوية وقد حصل على قدر جيد من المعارف فى اللغتين اللاتينية واليونانية . وأراد أن يتعلم البلاغة . فلجأ أبوه إلى دوم كالمز للمرة الأولى ، فوافق على تحمل

* نجل السيد / دوجية سيظل قريب الصلة بالأخوين شامبوليون وسيسدى لهم خدمات جليلة كما سنرى فيما بعد –

** كان يحرر مذكراته عام ١٧٩٩

المسئولية عن طيب خاطر مؤكدا على أنه لا يقوم بذلك سوى بصفته صديقاً » ولكن سرعان ما يجب إيقاف هذه الدروس لأن ممثلى الثورة المتجولين جعلوا من « رجال الدين أشخاصاً محتقرين ومشكوك فيهم ، وكانت شخصيتهم فى ذاتها محرجة فى نظر رسل القانون هؤلاء » .

بعد أن حرم من المعلمين أخذ چاك جوزيف يلتهم الكتب قرأ هوميروس وفيرچيل وسيسيرون وبلوتارك .. إلا أن أباه قرر أن الوقت قد حان لكى يجعل من نفسه شخصا نافعا فوجد له وظيفة فى إدارة « الدائرة » فى ديوان « المراسلات العامة » وذلك فى شهر « فلوريال » عام ٢ – ولم يكن قد تعدى السادسة عشرة ومع ذلك فسرعان ما اناطوا به تسجيل القوانين وإعطاء تأشيرات الجوازات بل وأكثر من ذلك كلفوه بمهمة منح شهادات « المواطنه الحسنة » !!

كانت فترة « الإرهاب » حركة باريسه فى الأساس – إلا أنها تسببت فى إثارة المشاعر والعقول فى مقاطعة جيبان العليا ... ولذلك فإن من المرجح أن جاك شامبوليون كان يتمتع حينذاك بقدر من النفوذ ، حتى لو لم يثبت أنه كان قائداً للشرطة .

يقول جاك جوزيف عن وظيفته الجديدة: صادفت هذه المأمورية هواى لأنها إتفقت مع ميلى الطبيعى لحب الاستطلاع .. ففى تلك الفترة تواصل ورود سيل من المطبوعات نتيجة للقوانين الثورية فكان كل شئ يمر من بين يدى ومن كل شئ كنت أحصل على نسخة : البريد والتقارير والخطب والمحاضر والقوانين والقرارات ... من هنا شرعت فى تكوين مجموعة القوانين والتقارير .. وكان مفتاح سجلات المحفوظات (الارشيف) تحت تصرفى .. »

هذا لايعنى أن نأخذ هذا الشاب العليم ببواطن الأمور على أنه من مجموعة «اللامتسرولين » المتطرفين المتعصبين (Sans - Culottes) :

« ثم جاء يوم ٩ تيرميدور * (٢٧ يوليو ١٧٩٤) . ونتج عنه تجديد الإدارة بالكامل تلى ذلك شطب العاملين الذين لم يسيروا فى الخط السياسى لهذا اليوم وكانت أرائى السياسية لا تضعنى فى زمرتهم** . اجتاحت موجه من اليأس عددا كبيراً من الموظفين (...) فلم يبق تقريبا سوى أعضاء السكرتارية والذين تكفلوا بكل شئ طوال

---

* ٩ تيرمبدرو فى ذلك اليوم .

** ذلك يعنى أنه « ترميدورى » أى غير ثورى .

مدة الشهرين التى تلت إحتضار مكاتب المنطقة الإدارية (...) فكان من نصيبى تحمل مسئولية المراسلات وتحرير القرارات الإدارية (...) واعتمد رئيس السكرتارية على مجهوداتى فى تصريف شئونه (...) فى مقابل ذلك (يضيف جاك - جوزيف ببساطة شديدة) حصلت على تقدير الجميع وعلى صداقة المعلم الكبير (؟) ».

نحن - إذن - بصدد شاب حاذق عرف كيف يعبر دون خسائر فيما بين عامى ١٧٩٤ و ١٧٩٥ - عواصف « تيرميدور » وإقامة النظام الجديد محافظا على وضعه الآمن لأن طبيعته كما كان يعبر عنها معتدلة أصلا ، وكان من الممكن أن نجد فى هذه السطور تلخيصا لحياته المديدة (فقد توفى وهو فى التسعين من العمر) لولا أنه أثبت فيما بعد أن مرونته كانت تتسلح أحيانا بشجاعة صادقة :

عندما لاحظ جاك شامبوليون (الأب) أن « عواصف الثورة » هدأت وعادت التجارة إلى نشاطها ، أراد أن يدخل إبنه عالم الأعمال وكان قد بلغ التاسعة عشرة ، وكان له أولاد عمومة يقطنون مدينة ليون ومدينة جرونوبل .. فحاول أن يبعث لهم «سكرتير بلدية المقاطعة » ليقيم لديهم ، على الرغم من أنه كان قد أخذ على عاتقه كما سبق ورأينا - تربية جان فرنسوا الذى كان يقترب من الثامنة .

اصطحب تاجر الكتب إبنه الأكبر إلى بوكير ، ومنها إلى ليون الا أنه وجد أن هذه المدينة الكبيرة الواقعة على نهر الرون قد خربتها أحداث العنف الثورية ولم يعد فيها شئ يصلح لجاك - جوزيف وكان عليه أن ينتظر العام التالى وفى سوق بوكير - وبالتحديد يوم ٢٩ يوليو ١٧٩٨ وافق أولاد العمومة المقيمون فى جرونوبل على طلب جاك شامبوليون بأن يصطحبوا معهم جاك جوزيف ليعمل تحت التمرين لدى « شاتيل ، شامبوليون وريف » .

بدا هنا أن خطته فى الحياة كمثقف قد توقفت فجأة .. ومع ذلك لانجد أثراً لأى تمرد فى تقييمه النهائى لما يحدث بل نجد قبولا مع بعض الأسى للقضاء والقدر (كما حدث « لرنيه » بطل رواية شاتوبريان) ولا نجد تلك الطاقة التى راحت تحرك أبطال الروايات المعاصرة له - كما ستحركه هو نفسه بعد تلك الفترة بقليل إذا أنه سيتسلح بتلك الحالة الذهنية المقدامة : « هل أنا قد بلغت السن الذى يتحتم على المرء فيها أن ينظر إلى المستقبل نظرة واضحة ،، ومع ذلك فليس لدى مشروع ولا طموح وأترك نفسى أهيم دون هدف (...) فى استسلام كامل ودون أى أمل فى سعادة ولا خوف

من بلية . أنتظر أن يقترح عليّ أحد قرارا حاسماً أتخذه أو يعرض على مشروعاً أنفذه . وإذا فرض على أن أبلور هدفى فى كلمات لقلت أنى أشعر بميل جارف للأعمال العظيمة تلك التى تخرج عن المعتاد وإنى مستعد أن أشارك فى رحلة إلى بلاد بعيدة .

وإذا كنت قد ندمت على شئ فهو أنى لم أنضم للحملة على مصر . كما أقول أنى إذا خيرت بين كافة المهن لأخترت فى الغالب الحياة العسكرية . وفى كلمة نهائية أقول أن أقل شئ يكفى لاسعادى لو أمكننى أصلا أن أكون سعيدا !!

« جرونوبل ، فى ٢٧ برومار عام ٨ (١٧ نوفمبر ١٧٩٩) [1]

الجملة التى تشد الإنتباه فيما سبق هى بالطبع التى تتعلق « بالاسف لعدم مشاركته فى الحملة على مصر » . ونلاحظ أنه كتب « الجيش » ولم يتطرق إلى الحملة العلمية .. وهذا شئ طبيعى بما أنه كان يميل إلى الإنخراط فى الحياة العسكرية ، سبق لنا أن أشرنا إلى ذلك الحلم المصرى .

فى جميع الأحوال فإن بونابارت لم يكشف عن الهدف الحقيقى من الحملة سوى بعد أن رحلت ووصلت إلى مالطة واحتلتها ثم أن الذى أثار اهتمام جاك – شامبوليون هى المغامرة العسكرية التى كانت قد بدأت قبل سنه ونصف السنة من تاريخ كتابة هذه السيرة الذاتية التى نحن بصددها .. ولم تكن مصر فى حد ذاتها هى التى أثارت إهتمامه . والبرهان على ذلك ضمن عدة براهين أخرى ، هذا الخطاب الذى أرسله النقيب أندريه شامبوليون إلى أخ له وهو على متن السفينة « لو جنيرو » فى ٢٢ فلوريار عام ٢ «لازلنا لا نعرف إلى أين المسار . قال لنا الجنرال بونابارت أن لدى عودتنا من هذه الحملة العظيمة الأهمية فإن كل جندى سيحصل على ما يسمح له بشراء ستة أربان على الأقل (حوالى ثمانية فدادين أو ثلاثة هكتارات) أعتقد أن هذه الرحلة ستطول بعض الشئ ، خاصة إذا كنا سنذهب إلى حيث يقولون ... »[2]

لايوجد مايثبت أن جاك – جوزيف قد كتب لابن عمه النقيب أو أننا على الأقل لانعرف فحوى ولاتاريخ الخطاب إن وجد ولكن يمكن أن نقرأ ما يمكن إعتباره نوعا من الرد ذلك الخطاب الذى أرسله بعد ذلك بفترة زمنيه طويلة الجنرال داريكو إلى جاك – جوزيف شامبوليون يبلغه فيه أخبار إبن عمه أندريه :

« ٢٩ بلوفيوز عام ١٠ (١٨ فبراير ١٨٠٢)

من أوجيستان داريكو قائد اللواء ٣٢

إلى المواطن شامبوليون ... النقيب شامبوليون الذى تسألوننى عنه (...) قد رحل على إحدى القطع البحريه وهو فى حالة صحية جيدة* ».

كل ذلك يظهر بالتأكيد قدراً من الإهتمام لدى جاك جوزيف لهذه العملية التى شارك فيها قريب من أقرباءه ... وهى جديرة بأحلام شاب يريد « المشاركه فى رحلة بعيده » ويود إرتداء الزى العسكرى . لكن كل ذلك بعيد تماما عما يذكره أغلب كتاب السير عن « الأمل العميق » الذى كان يختلج فى نفس جاك - جوزيف فى أن يشارك فى الحملة على مصر وعن « رجع الصدى المدوى » الذى كان لهذا الأمل فى «نفس صغيرنا » حتى أن أحد هؤلاء الكتاب قد رأى من واجبه أن يؤكد أن « عندما رفضت حكومه الديركتوار هذا الطلب كانت خيبة الأمل لدى الأخ الأكبر مريرة ولكنها كانت على درجة هائلة من العنف على نفس الصبى جعلت الجميع يتجنبون مجرد ذكر اسم هذا البلد على مسمع منه »[3]

لم يحدث قط أن تقدم الأخ الأكبر بطلب إلى حكومة الديركتوار ، فهى كانت تحافظ على سرية هدف الحملة (لأن انكشاف هذا السر كان سيجعل نابليون يقع فى شراك نلسون) ولم يحدث أى رفض ولا رد فعل عنيف داخل نفس جان - فرنسوا الذى كان فى السابعة .

ولكن يمكن أن نتصور أن أندريه شامبوليون ، النقيب الذى كان ضمن القوات التى أبحرت إلى مصر الذى كان على علم باهتمام قريبيه بهذا البلد - قد عمل على أن ترسل أعداد من صحيفة لو كوريية دو ليجيبت Le Courrier de l'Egypte إلى مكتبة فيجاك ومنها على وجه الخصوص عدد ٢ فروكتيدور عام ٧ » الذى أعلن فيه عن اكتشاف حجر رشيد** .. كما يمكن أن نتصور أن جاك شامبوليون عمل على أن تصل جميع الأعداد إلى جاك - جوزيف الذى كان قد إستقر فى جرنوبل .

ش . أو كاربونال - مؤرخ سيرة جاك - جوزيف - وجد ضمن أوراق هذا الشاب مذكرات أخذها عن مصر فى إحدى هذه المذكرات التى نقلها عن كتاب أطلس تاريخى يذكر أن الرجال ال ٣٦٠,٠٠٠ الذين يعملون لمدة عشرين سنة فى بناء الأهرام استهلكوا بما يوازى ٣٦٦,٠٠٠ إكو*** من الثوم والفجل والبصل [4] ، وذلك يوضح

* هذا المركب كان يحمل العلم اليونانى

** راجع ص ٣٩, ٤٠

*** من عملة الامبراطورية الأولى .

أن إهتمام الابن الأكبر بمصر كان أقرب للناحية التجارية منه للناحية الثقافية .. ولذا لزم التنويه ...

كل ذلك كون حزمة من الإهتمامات وأساساً معرفياً ، ومولد حب ولكنه لايزال بعيدا جداً عن الولع الهائل الذى تملك وجدان أخيه نحو أرض الفراعنة التى كانت لاتزال حتى عام ١٨٠٢ أسطورة من الأساطير .

فى مقال علمى(5) خصصه جان باكيه للأخوين شامبوليون فى جرونوبل أكد أن جاك – جوزيف عندما وصل إلى هذه المدينة خلال صيف ١٧٩٨ كان قد «أصبح شاباً خبيرا باللغات القديمة وبعلم اللغويات وبالتاريخ » . لعلنا نعبر عن بعض التحفظات : فهو كان يبحث عن طريقه عبر اللغة اللاتينية ، أما فيما يتعلق باليونانية فإن تردده فى الموافقة على أن يقوم بتدريسها بعد ذلك بعشر سنوات يثبت أنه لم يكن واثقا من إمتلاكه لناصيتها . من الأفضل أن نقول إذن أن هذا القادم حديثا إلى جرونوبل كان محباً لدراسة اللغات وللعلاقات التى تربطها ببعض ولتاريخها .

أولى سنوات إقامة جاك – جوزيف فى منطقة الإيزار كشفت شخصية ذات ثلاثة أبعاد : الموظف المجد فى مؤسسة شاتيل شامبوليون وريف* ؛ وشخصية المحب للكتب المولع بالبحث عنها والمجازف فى إقتنائها ؛ وشخصية الجامعى تحت التمرين الذى تردد فى مسيرته فى الجامعة من المكتبة إلى كرسى الاستاذيه ومن الرسالة إلى الاكاديمية صاعدا درجة وراء أخرى من السلم التعليمى حتى أصبح من الشخصيات المرموقة فى مجال التعليم والبحث العلمى .

ويصعب من جهة أخرى التمييز بين هذه المجالات الثلاثة من نشاطه ، لأن محب الكتب كان يستخدم عمله كتاجر فى شراء وتبادل الكتب فى سفرياته ، كما أن مكتشف الكتب القديمة كان يجد فى نشاطه هذا مدخلا له إلى الأوساط العلمية . وباختصار ففى خلال خمس أو ست سنوات أصبح الموظف الذى عينه أولاد عمومته تحت التمرين فى مؤسستهم فى صيف ١٧٩٨ أصبح أحدى الشخصيات الفاعلة فى مجمتع «الكوميديا الإنسانية » الجرينوبلوازيه ، تستقبله « أحسن العائلات » وأعرقها إلى أن تصاهر مع إحداها وأخذ يشق طريقه نحو التفوق الجامعى .

---

* نشاطها يشبه مانسميه الآن التصدير والاستيراد .

لم تتوفر سوى مؤشرات قليلة جدا عن نشاط الإبن الأكبر لصاحب مكتبة فيجاك فى مؤسسة « السادة شاتل (الابن الاكبر) وشامبوليون وريف » .

وكانت من الشركات المتواضعة المتخصصة أصلا فى تجارة المنسوجات إلا أنها كانت على اتصال مع مرسيليا وميناء لوهافر وجزيرة المارتينيك [6] وقد توصلنا إلى بعض آثار لسفريات قام بها الموظف الصغير إلى باريس وروان* وليون والهافر وأفينيون . الشئ الواضح تماما هو أنه حصل على رضاء مستخدميه وأنه نجح فى عقد صفقات رابحة وأن دخله تحسن منذ عام ١٨٠٠ ، وعلاوة على كل ذلك فقد كان مقتصدا وقريبا من ماله .

إلا أن حياته كانت تدور فى المقام الأول حول الكتب وهى التى قادته خطوة تلو الأخرى إلى الثقافة والعلم . فهل يعود ذلك إلى تراث عائلى ؟ المؤكد أن جاك - جوزيف كان مولعا بالكتب ، كرس لها حياته كلها إلا أنه لم يمر بتجارب « حامل الخرج » القاسية غير أن الواقع هو أنه تعامل فى تجارتها كما فعل والده وأن حمى إستكشافها وشراءها التى ملكته منذ أن بلغ سن العشرين تزامنت مع أكتسابه براعة فذة فى إستغلالها ماديا .

عندما كتب فى تلك الحقبة من حياته : أنه يتحصل « بعناية كبيرة - وفى أحيان كثيرة بتكاليف عالية - على مؤلفات هؤلاء الكتاب الذين فتحوا أمامنا الطريق ... (...) هوميروس وسترابون وسوفو كليس (...) الذين « لانمل سماعهم يتكلمون » .. فإننا نشعر أنه فى قوله هذا كان بالتأكيد صادقاً . تعطشه إلى المعرفة واكبه شراهة كبيرة لكل ماهو مطبوع وللكتب النادرة: إبن صاحب مكتبة فيجاك كان مريضا بحب الكتاب .

هذا الولع المتقد تولد عنده تلقائيا .. إلا أنه تضاعف عندما تعرف عام ١٨٠٣ على شخص إسمه ياسانت جارييل كان على نفس القدر من الوله ... غير أن هذا الاخير كان يتاجر أصلا فى الكتب .. قدمه له أحدهم قائلا « أقدم لك إبن العم شامبوليون تاجر متعلم وشغوف بالأداب الجميلة .. » [7] ومنذ ذلك الحين بدأت رحلة صيد مشتركة استخدم ناتجها أحيانا كعملة للتبادل .

فى مرة استلم من صديقه صندوقا يحتوى على كتب متباينة فكتب خطابا يقول له فيه « كمبدأ عام فإن كل ماهو غير مفهوم يعتبر ملاءماً لى ومن ذلك العبرى والسيريانى

---

* حيث إصطحب معه أخاه جان فرنسوا فى إحدى السفريات إليها .

والسانسكريتي والتاتارى والصينى والفارسى وعلى وجه الخصوص اللغات القديمة » .. إنها طريقة تفكير تمهد لأعمال كبيرة آتيه ! ثم يستطرد « إبن العم » شامبوليون موجها خطابه لحاربيل :

« أمنى نفسى بسعادة جمة مع الصندوق العبرى - السيريانى - الكالديانى - اليونانى - الاسبانى - الجزمانى - الانجليزى - الشعرى - اللاهوتى - الفلسفى - النقدى - الويستان «* الجاربيلانى (...) هل توجد وسيلة لإضافة شامبوليونى ؟ (...) ماهى التضحيات التى ستفرضونها ؟ وماهى الكلمات ؟ والأفعال ؟ » (8)

إنها لهجة صائد النصوص الذى يعانى من ولع شره مضافا إليها نغمة هزلية ومؤثرة تعكسها « كل ما هو غير مفهوم » : سرعان ماسيصاب جان - فرنسوا بنفس الحمى التى ستتضاعف فى حالته هو بفعل عبقريته المستبدة .

اضطر آكل الكتب متعددة الاشكال واللغات هذا إلى اللجوء إلى آلاف الوسائل التى أتاحتها له براعته التجارية لتجميع ثروته هذه لأن مرتبه لم يكن بالطبع متناسبا أبدا مع هذه النفقات غير أنه لم يكتف بوضع براعته فى خدمة ولعه النبيل هذا بل أخذ يستخدم براعته فى جمع الكتب وثقافته التى استمدها منها ليدفع بنفسه داخل الأوساط المثقفة بمدينة جرونوبل بادءا مرحلة صعود متسارعة طوال خمسة عشر عاما بين الأوساط التعليمية والأدبية والبرجوازية المتنورة لعاصمة مقاطعة الدوفنيه .

أضف إلى ذلك أن الكتاب لم يكن حبه الوحيد : إذ أن علم اللغات وعلم النميات (دراسة وجمع القطع النقدية والميداليات والأوراق المالية .. إلخ) والتاريخ القديم بشكل عام كانت تستهوى هذا العقل الباحث فى كل الاتجاهات : سنراه ينجذب نحو كل ماهو أثار قديمة ، فضوليا لايكل ومطارداً ملهم لم يكتف بأن يسلك الطريق الصاعد متسلقا نحو مختلف الطبقات العليا للمجتمع الجرو نوبلوازى بل عمل أيضا على أن يقيم علاقة أساسية لمستقبله ثم بعد ذلك لمستقبل أخيه مع أوبان - لويس ميلان ، أمين متحف الأثار بالمكتبة الوطنية ، ومؤسس مجلة : المخزن الأنسيكلوبيدى « أفضل دورية ثقافية تنشر فى ذلك الوقت فى فرنسا » **

---

* نسبة إلى البائع السويسرى للصندوق الخرافى : ويستاين

** علماً بأنهما لم تكن تطبع سوى ٤٥٠ نسخة فقط

ويتجرأ جاك – جوزيف هذا القروى المجهول ويوجه رسالة إلى الشخصية التى كانت تعد حينذاك قمة علوم الآثار فى فرنسا ثم يقيم معها علاقات مراسلية تحولت إلى صداقة فعلت الكثير للمستقبل المهنى متعدد الإتجاهات للأخوين . سنعود فيما بعد للحديث عن « مسيو ميلان » عند الحديث عن جان – فرنسوا شامبوليون ... الذى أصبح بعد أخيه تلميذه ثم صديقه وفى جميع الأحوال كان مدينا له بالكثير . ولكن لنسجل هنا قبل أى إستطراد أن هذه الشخصية المثقفة كانت للثنائى الفيجاكى بمثابة المعلم بالمعارف وبأسلوب الحياة المتمدنه . كما أن اختيار جاك جوزيف منذ البداية لهذا الراعى لهما يعتبر « ضربة معلم » بحق .

إلا أن نشاطه المتعدد فى كافة الاتجاهات لم يصرفه عن هدفه الأصلى ألا وهو التدريس إذ أن ميل جاك – جوزيف إلى كل ما هو نادر وما هو موحى بالغرابة وما هو « غير مفهوم » جعل تفكيره إيجابيا وجعله يهتم إهتماماً بالغا بأن يصبح من الشخصيات المرموقة فعمل على تجهيز ولعه بالتنقيب والبحث وإحتياجه لاثبات ذاته بالأليات اللازمة لتجسيد ذلك . سنراه يصبح أمين مكتبة المدينة وهى وظيفة ملاءمه جداً مرحلياً إلى أن يصل إلى الوظيفة النبيلة التى يتحرق شوقا لها وهى التدريس مع كل مايوفره له هذا العمل من سلطان . ومن المفيد فى هذا الصدد أن نقرأ نصا يكشف فيه بصدق واضح أفكاره الحاكمة والتى يستفيد منها ويتحمل اثارها فى بعض الاحيان أخوه وتلميذه جان – فرنسوا هذا النص جاء فى سياق خطاب أرساه إلى العزيز دوم كالبلز كاتم أسراره المفضل ومن خلاله نكتشف أنه مربى فى طور التكوين (9) .

« إن بلدتنا * تعتبر للأسف ضمن البلدان التى لا يعطى فيها التعليم قدره الحقيقى .. فيها تظل المواهب نبتا لا يراعى كما أن الوسائل اللازمة لدعمها تبقى دون إستخدام إن هى وجدت أصلا .. علماً بأن الطبيعة لم تضن على سكانها بنصيبهم من الذكاء والأسباب الموجودة على الدوام تمنع تفتحه . يترتب على ذلك عدم جدوى جهود الذين يطمعون مثلك فى تزويد الفنون بالمعارف والعلوم بمحبيها والمجتمع بمواطنين اكفاء . إلى كل ذلك يرجع السبب وراء هذا النوع من البلاهة التى يرتع فيها مايسمى بالشعب الطيب ... وهذا هو فى نهاية الأمر السبب فى الأفضلية الممنوحة لطبقة متميزة ... وأعنى بذلك طبقة الأغنياء ...

---

* فيجاك

« إن حكومة الجمهورية الفرنسية ومشرعينا أرادوا محاكاة الأقدمين على أساس أنهم كانوا المتفوقين وهم فى ذلك على حق ، إلا أن مدارسنا الإبتدائية لا توازى بأى حال « جيمنازات » روما ولا مدارسنا العليا أكاديمية أثينا . لأنهم عندما خططوا لهذا المشروع لم يراعوا الأوضاع فى فرنسا (..) فالتعليم هنا* مهمل .. لأن القلة فقط هى التى تعطيه مقداره ولأن المبدأ العام غير وارد كما أن الغرور والمصالح الشخصية تتبنى لنفسها مبادئ خاصة . وعليه فإن الغرور المتوطن فى قلوب سكان المدن الكبيرة لا يرى أهمية لوجود مدرسة إبتدائية مركزية .

« يترتب على ذلك أن المدرسين الخصوصيين يوظفون فى المنازل فلا يخضعون لأى تفتيش .. والنتيجة هى إنشاء نوع من التعليم تتراوح نسب الخطأ والعلل فيه أن التخبط متفشى (...) الاثر السئ للمصالح الخاصة يتنامى بسبب صلته الوثيقة بالتجارة . إن عدد التجار كبير ويجد الطفل البالغ من العمر بست سنوات نفسه موجها من أبيه إلى هدف ما وهذا الهدف يصبح الأساس فيما يتلقاه من تعليم . .. وأترك لكم تقدير ما يترتب على ذلك عندما يواجه ميل ما لدى الصبى الصف بإرغامه على المضى فى اتجاه محدد**.

« ملحوظة (...) المدارس الخاصة تكتفى فيما يخص اللغات القديمة باللغة اللاتينية لأن كثيرين يعتبرونها على علاقة باللغة الفرنسية ولا يوجد مدرس للغة اليونانية القديمة . ولا مدرس للغة الانجليزية .. يوجد بعض مدرسين للإيطاليه . مدرس ألمانى واحد ولا أحد للإسبانية وهكذا يبقى أكثر الحقول خصوبة دون فلاحة .»

نجد فيما سبق فكراً واضحاً وحراً وإن لم يأتى بجديد ، متوجه بإصرار ناحية التربية أو على الأقل ناحية نقل المعارف ، كما نلاحظ إهتمامه باللغات سواء الحية منها أو القديمة ، وبالإبقاء على الثقافة الكلاسيكية القديمة ويقينه الراسخ فى أسبقية النشاط الذهنى على النشاط النفعى – كما نسجل أيضا اهتمامه بالمساواة وعداءه المعلن لامتيازات « الأغنياء » ، نحن هنا بصدد مجموعة من المعتقدات والميول التى تجعل من جاك – جوزيف رائداً من رواد التعليم العظام فى نهاية القرن من جول فرى إلى أرنست لافيس .

لو أردنا تخطى التسلسل التاريخى للأحداث سنجد أننا لن نتمكن من تحديد مكانة ابن تاجر كتب فيجاك داخل المجتمع الجرينوبلوازى حيث سيصعد بأخيه أولى

* يقصد مدينة جرونوبل

** هل يستشف من ذلك أن جاك جوزيف كان يشير إلى ما حدث له شخصيا عندما وجهه أبوه إلى هذه التجارة ؟

سلالم المجد دون أن نشير إلى بعض المراحل الأساسية التى عرفها صعوده هو داخل هذا المجتمع .

أولى هذه المراحل تعود إلى الحظ وتتمثل فى تعيين چوزيف فورييه قائداً لشرطة جرونوبل عام ١٨٠٢ وهذا الذى سيكون له دور حاكم فى تاريخ أول شامبوليون : فقد كان فورييه عالم طبيعة مشهور وكان سكرتير عام معهد مصر L'Institut d'Egypte وكان نابليون قد إصطحبه معه إلى ضفاف النيل ثم عينه محافظا لمقاطعة إيزار وبعد ذلك طلب منه كتابه مقدمة كتاب « وصف مصر ».

وعندما أقام جاك – جوزيف علاقة صداقة وطيدة مع هذا العلامة ورجل السلطة – كما فعل مع ميلان – فإنه قد فتح بذلك أبواب مصر أمام أخيه *

بعد شهور قليلة (ديسمبر ١٨٠٣) دخل جاك – جوزيف شامبوليون عضوا فى جمعية الفنون والعلوم » لمدينة جرونوبل التى حلت محل « اكاديمية دوفينيه » الشهيرة (التى قررت الثورة إنشائها قبل ذلك بعشرة أعوام) .. أن يقبل هذا الموظف الصغير فى مجال التجارة ذو الاعوام الخمسة والعشرين والذى لم يحصل على أى درجة جامعية أو أدبية – والذى لم يكن قد أقام فى المدينة إلا خمس سنوات فقط عضوا فى هذا المجتمع العلمى إلى جوار الشخصيات المرموقة فى المدينة – يعطينا فكرة عن دنيامية هذا الشاب وعن السمعة الطيبة التى اكتسبها . مما يعد بمثابة وعد بنجاحات تالية ! .

إلا أن زواجه من زويه بيريا فى الأول من يوليو ١٨٠٧ هو على الارجح الذى أمن مستقبل أكبر البناء شامبوليون بصورة لافتة . ولا يرجع ذلك إلى أن آل بيريا كانوا من الأثرياء الكبار ، فلم تتعد دوطة زوية أثنى عشر جنيها ترنوازيا وهو مبلغ لم يكن ليدير رؤوس شباب العصر الطموحين . غير أن هذه العائلة كانت من العائلات المحترمة . ضمن البورجوازية المرموقة والمتأصلة باقتدار . كان بيير بيريا – حمو چاك – جوزيف رئيس مجلس إدارة نقابة محامى المدينة. كما كان بيريا – سان برى من رجال القانون المشهورين ، فعوضا عن « الثروة » فضل صديقنا – كما قال فى خطاب جارييل أن يتبع « ميوله » العاطفية (فقد تزوجا بعد ستة شهور فقط من لقاءهما الأول !!) استقر دون بريق كبير إستقرارا متعقلا ، إلا أنه كان إجتماعيا ومثقفاً على مستوى راق . **

* انظر الفصل التالى

** قد يستشف من قراءة خطاب أرسله له أخوه الأصغر لتهنئته على قراره أن جاك – جوزيف كان فى بادئ الأمر ينوى الزواج بأخرى زواج منفعة .

نقرأ فى الكتاب الذى أفرده له س – أو كاربونال نصاً من حوليات مقاطعة الإيزار. فى صفحة ١٠ يوليو ١٨٠٧ يشير إلى « حفل زواج » أنشدت خلاله بعض الاشعار من تأليف « شامبوليون الكبير وشامبوليون الأصغر » وتلى ذلك نص من شعر العريس نذكر منه هنا البيتين الأخرين فهما يوضحان فى إيجاز شخصية جاك – جوزيف فى ذلك الوقت . إذ أن البساطة هنا تبين أننا لسنا بصدد شخصية خبيثة :

« يا زويه تأكدى من رقة مشاعرى

ومن ميلى الشديد للعصور القديمة »(10)

لقد أردنا أن نرسم فقط الخطوط العريضة لشخصية أكبر الأخوين شامبوليون . أما مراحل حياته الأخرى فسيجئ سردها مع مختلف مراحل سيرة أخيه ! ولن يمكن بعد ذلك التفريق بينهما .

فقد كان من الواجب أن نبادر بتحديد شخصية هذا العضو الأساسى فى قصتنا الدرامية تحديداً واضحا .. فهو إن لم يكن بطلها الأول فهو على الأقل مخرجها . ولذلك قمنا بوضع بعض العلامات على الطريق وأشحنا بعيداً عن بعض الأساطير التى روج لها من كانوا يسلطون عليه الاضواء (ومن هؤلاء بطبيعة الحال إبنه إيميه* وكان كتابه المصدر المطبوع الأول الذى لجأ إليه المؤرخون) ومن جهة أخرى من كانوا على النقيض من ذلك يدفعون به إلى الظل حتى يبرزوا عظمة أخيه الأصغر .

هكذا كان جاك – جوزيف شامبوليون مراسل ميلان وصديق فورييه الوفى والعضو المنتخب لجماعة الفنون والعلوم ثم بعد ذلك زوج إبن بيير بيريا يخدم طموحه بطريقة منظمة ويثقف نفسه على أيدى جميع من يتيح له ذلك . ثم أخذ يعد فى جرونوبل المأوى الذى سيقيم فيه ويتربع الإبن « المتمرد » الذى فتح له سكان جارة لابوبوسكورى والقس كالملز باب القفص ليفر طائرا من فيجاك .

قد نشارك كاتب سيرة الابن الاكبر لصاحب مكتبة فيجاك ش . أو كاربونال فى الإستهزاء دون قسوة من حسه الزائد عن الحد لكل ما له علاقة بمستقبله المهنى . إلا أن هذه التحركات والبراعة فيها وهذه الخطوات الإلتفافية تذكرنا بالشباب الطموح الذى رسمت شخصياته وشخصيات من هم أصغر منهم مختلف أجزاء « الكوميديا الانسانية» لبلزاك .

---

* شامبوليون وشامبوليون Les deux Champollion جرونوبل ، ١٨٦٧

خطابات چاك – چوزيف شامبوليون فيچاك إلى أخيه الأصغر تتناثر فيها أمثال تشبه تلك التى يضعها بلزاك على لسان الأب هيريرا وهو يعطى دروسه إلى لوسيان فى رواية « الأوهام الضائعة » Les illusions Perdues فهو يكتب له فى أحد خطاباته « يجب أن تعرّف بنفسك فى باريس لكن تنجح خارج باريس .. وأن تكتسب تعاطف بعض الشخصيات الهامة حتى يمكنك أن تتحصن برعايتهم عند اللزوم ... قمة المهارة لبلوغ النجاح فى المجتمع هى فى أن تقوم بعمل الشئ المناسب فى الوقت المناسب ...» (من خطابين مؤرخين فى ٤ يناير و ٨ فبراير ١٨٠٨) .

يجب أن نوضح أولاً أن هذا السلوك يعكس التقاليد التى كانت سائدة فى ذلك الوقت وهو يتناقض مع ذلك التى تلاه وشاع بين الشعراء « الملعونين » من چيرار دى نرڤال إلى لوتر يامون الذين جعلوا من الفشل فى المجتمع المرادف – بل الشرط الواجب - لإزدهار القريحة الخلاقة ... ونوضح ثانياً أنه لولا هذه المناورات – التى هى بمثابة عمليات إرساء الأساس لتضاعفت الصعوبة التى واجهها الأخ الأصغر على طريق النصر .

كان من الواجب فتح الطريق أمام التخمينات الوضاءة التى لاحت له فى العشرينات من القرن ... وتوفير شروط الإنصات له وعقد التحالفات أمام الهجوم المضاد الذى يثيره تلقائياً كل عبقرى خلاق . كان يحتاج إلى مبشر بأعماله وإلى وصى عليه وإلى مدافع عنه مثلما كان بوالو بالنسبة لراسين ... ولذلك فإن قيام چاك – چوزيف بعمل أشياء لم يرض أو لم يعرف كيف يقوم بها أخوه الأصغر هى أفعال تحسب له : لا أن تثير السخرية منه .

توجد بعض نقاط تطلب الإيضاح ... لقد قيل أن الابن الأكبر لصاحب مكتبة فيچاك قد اختار لنفسه لقباً مركباً أضاف فيه إلى اسم عائلته اسم المدينة التى ولد فيها : فيچاك – وأنه فعل ذلك حتى يترك لأخيه الأصغر شرف التمتع وحده باسم العائلة لأنه كان يعرف مسبقا أنه سيصل إلى المجد . وراح البعض يمتدح هذا المثل الرائع فى التضحية الأخوية .

مثلما يحدث دائماً عند التصدى لقصة هذين الأخوين فإنه لايمكن أن ننحى جانباً مثل هذا التفسير النبيل للوقائع . غير أنه من الواجب أن تأخذ أيضا فى الاعتبار بعض التقاليد التى انتشرت بعد الثورة وصعود بورچوازيه جديدة تتطلع بدورها إلى التميز ، ولما كانت لفظة دو « de » التى كانت تسبق أسماء العائلات النبيلة أيام ماقبل الثورة (لتنسب هذه الأسر إلى مكان إقطاعياتها) أصبحت ملعونة بعد الثورة فقد لجأت هذه

البورجوازية إلى وسيلة تميز أخرى مكتفية بها مرحلياً بإضافة أسماء مدن وقرى صغيرة إلى اسم الأسرة مباشرة (مثل روابيه - كولار ولودرو - رولان) واستمر الحال لفترة إلى أن عادت « de » تبزغ من جديد مثلما حدث مع أونوريه « دو » بلزاك وچيرار « دو » نرڤال .

فى مدينة جرونوبل أصبحت هذه الطريقة فى التميز شائعة ، فقد بدأتها الأسرة التى ناسبها چاك - چوزيف فيما بعد : بيريا فقد أضاف إليها عميدها چاك إسم « سان برى » فأصبحت عائلة : « بيريا - سان برى » فزاد الإسم رونقاً !! . ويقول - سن - أو كاربونال : « هذا الادعاء فى إضفاء النبل على أسماء العائلات أصبح شائعاً فى تلك الحقبة الزمنية » إلا أنه يسجل أيضا أن چان فرنسوا « رفض بإصرار » أن يلجأ إلى هذه الحيلة السائدة ولم يتبع أهله هذا المنهج (11) . إذا شاب هذا التسير شئ من السلبية فهو لاينم عن اختلاف فى المواقف بقدر مايعكس إختلافاً فى الشخصية وفى « مشاريع » كل من الشقيقين .

إن هذا التباين فى إطار التكامل الذى نحن بصدد تقدير درجة قوته بين الشخصيتين يجب إرجاعه أيضا إلى الفارق فى السن الذى يفصلهما والذى يكاد يضع كل منهما فى جيل آخر إذ يصل إلى أثنى عشر عامًا . ويكاد يكون هو فارق السن بين أحد الفراعنة وأبنه البكر !! من هنا إكتسب چان - فرنسوا عادة إضافة صفة الأخ الأصغر « كاديه » (Cadet) إلى إسم عائلته عند التوقيع وقد تحولت هذه الصفة عام ١٨٠٥ إلى كلمة « صغير » باللغة العربية Séghir ، وذلك عندما إنغمس تمامًا فى دراسة لغات الشرق .. وسرعان ماتعدى إستخدام هذا اللفظ فى التوقيع على الخطابات المتبادلة بين الأخين ليصبح الأسم الذى يناديه به أعضاء الأسرة والأصدقاء أيضا .

بعد فترة من الزمن لجأ صاحب الاكتشاف إلى توقيع مختلف إذ كان يضيف حرفى ل. چـ. أو لو چون « le jeune » أو « l. j » (أى الأصغر أيضًا أو الأقل سنًا) حتى يذكر بأن هناك شامبوليون آخر له مكانة فى مجال علم الآثار وأن المجد الذى أدركه يجب ألا يظلل مايستحقه الآخر . إن هذا النوع من العلاقات بين الأشقاء يجب أن يضرب به المثل .

النزعة الاستشراقية التى جعلت چان - فرنسوا يختار لفظ « صغير » «séghir» حتى قبل أن يستعرب لدى زيارته لوادى النيل عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩ أخذت أشكالا

مختلفة ومتعددة . فنرى « صغير » يقنع أخاه الأكبر بأن يسمى إبنه البكر « علىّ » فى وقت لم يكن هذا الاسم شائعًا فى الغرب . وعندما رزق هو نفسه بابنته الوحيدة فقد أسماها « زورايد » (تحوير واضح لزهراء) .. وهكذا نرى أن الجو العام السائد لديه كان مايسمى فى ذلك الوقت « استتراك » (من كلمة تركيا(Turquerie)) وهوجو موزار وليس موليير - وهويثير جو الشرق الأسطورى الغامض والذى دخله الشقيقان حاملين سراجهما .

الصورة التى قد يخرج منها المرء من تجميع بعض ملامح چاك - چوزيف شامبوليون - فيچاك مثل التكالب الوظيفى وهواية جمع الكتب النادرة وحب عقد الصفقات وبعض الأحقاد والزهو كل ذلك قد يوحى بأننا بصدد شخصية غير محبوبة ومثقف متعالى ولئيم ومرتشى غير أن الحقيقة هى أن لاشئ فيما عرف عن علاقاته بمعظم معاصريين يسمح بتأييد مثل هذا التصور .

لم يكن چاك - چوزيف بارعًا فقط فى تصرفاته بل كان يتمتع أيضًا « بقبول ساحر » . الصور التى رسمت له إلى أن تقدم فى السن وعلى الخصوص فى سنوات الربع الأول من القرن تظهر أناقة وبشاشة وطيبة وذكاء متقد وهى جميعًا صفات ساعدته فى تحقيق نجاحاته الاجتماعية والفكرية . إن ماقام به فى حياته من زواج ناجح » قبل أن يبلغ الثلاثين بوريثة إحدى أكبر العائلات تأثيراً فى مدينة جرونوبل ، ومن إقامة العديد من الصداقات التى دامت على الرغم من حساسيته المفرطة وطموحه المتأجج وعلى الرغم كذلك من مزاج أخيه الأصغر المشاكس وكذلك اقتناعهما المشترك بأنهما فى جميع الأحوال وفى جميع الأوقات على حق دون الآخرين جميعًا . كل ذلك يشير إلى أن الرجل كان ينزع دائمًا إلى أن ينال الإعجاب وكان يناله .

لو أن چاك - چوزيف شامبوليون قد وضع كل ماسمحت له مقدرته على الإغواء وطاقته على الإغراء وإصراره على التقدم والالتفاف والترقى والتملك لخدمة مجده الشخصى لكنا تحفظنا على شخصية هذا الانتهازى أو المتسلق . لكن الواقع أن هذا النشاط الاجتماعى كان فى أغلب الأحيان يوظف لخدمة الرجل النابغة الذى اكتشفه مبكرًا فى شخص أخيه مما يدفعنا إلى الاعتقاد أن فى ذلك مايرفع عنه ذنوبه بل ويشرفه .

إنه ترابط وتوأمة تذكر بما رسمه بلزاك فيما بعد من شخصيات فى رواياته عن أخوين مرتبطين مثل دافيد سيشار ولوسيان دور روبامبويه فى « الأوهام المفقودة »

وأيضـا مثل الراوى وبطل « لويس لامبـار » وكان أصدقـاؤهما يطلقون عليـهمـا كناية مشتركة هى : « الشاعر وفيثاغورس » .

إننا لاندعى هنـا أننـا نخلط بـين چان – فرانسـوا شامبـوليـون وشـخصيـة لويس لامبـار » وهو النابغـة الكامل والذى صعـقتـه نوبة « وجد مُشل » حـتى لو كـان مكتشـفنا لمفاتيـح اليهـروغليفيـة قـد عرف ولو لفتـرة قصيرة نوبة شبيهة لحظـة توصله لاكتشافه فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ . ومع ذلك فإننا نذكر فيما بعد بعض الآراء التى عـبـر عنهـا بطل رواية بلزاك إلى صـديقـه الذى هو بمثـابة « چاك – چوزيف » بالنسبة له :

« من ذا الذى سيشـرح فلسـفيًا إنتـقال الإحسـاس إلى الفكر والفكر إلى الكلمة والكلمة إلى تعبيرها الهيروغليفى والحروف اليهروغليفية إلى الأبجدية والأبجدية إلى الفصاحة المكتوبة ، جمالها ينبع من سلسلة الصور التى يرتبها المتحدث والتى هى بمثابة هيروغليفيات الفكر . ؟؟ ألم يحدد الرسم فى العصور القديمة الأفكار البشرية على هيئة أشكال حيوانية وحدد بذلك العلامات الأولى التى استخدمها الشرق للتعبير بالكتابة ؟! »(12) .

كـتب هذا النص عـام ١٨٣٢ وهى السنة التى توفى فـيـهـا مكتـشف أسـرار اليهرغليفية بعد اكتشافه بعشر سنوات . وهـو يبدو وكأنه لحديث متبادل بين نجلى صاحب مكتبه فيچاك . وصل إلى سمع هذا المنتصر الآخر الذى كان يعمل – هو – على حل الألغاز الاجتماعية السائدة فى عصره ؟

إن من حقنا أن نعبر عن خيبة أملنا فى الكتاب الذى كتبه إيميه شامبوليون – فيـچـاك عـن أبيه وعمـه بعد فتـرة وجيزة مـن مـوت أبيـه چـاك – چـوزيف «Les Deux Champollion» وهو الوفى الورع لذكرى أبيـه . غيـر أنـه يتعـين أن نستخلص من هذه القائمة غير المرتبة لبعض المستندات والروايـات عنوانها الفرعى على الأقل : « حياتهما وأعمالهما » إذ إنه على الرغم من سطحية الكتاب فالمفرد المتسم به البعد السِّيرى يلقى تأييدنا – فى مقابل صيغة الجمع الملتصقة بأعمالهما فقد كانت متباينة جدًا بالنسبة للرجلين .

الحياتان كانتا معقودتين مثل العمود بعقد المعبد تحمل الأولى الأخرى لتتسامى بها وتدفع بهذا الحمل اللحوح نحو القمم والنور .

بدون چاك – چوزيف لكان من المرجح أن يبـقى الأخ الأصغر باحثا مغموراً ثـم « يموت من الغضب » ومن كبت عبقريته مثل ليون بلوا ... وبدون چان – فرنسوا فإن الأخ الأكبر كان مهددا بأن تسير حياته العملية دون إرتكاب خطأ واحد فى الأكاديميات الفرعية فى مختلف المدن وبل وفى باريس أيضا ، يلبى دعوات على العشاء هنا وهناك ويسرى عن الحضور بثقافته فى صالونات سيدات المجتمع . إن تحالف الشقيقين سمح لهما باجتياز العواصف وبلوغ القمم .

٣ - جرونوبل و « مكان إقامة قاتل »

هنرى برولار وسوء الهضم - « جروليبر » - چاك - چوزيف المعلم - مدرسة الليسيه والطبلة - عالم شرقيات فى الخامسة عشرة من عمره - « چوهانيس و« الوحوش » - الضجة الكبرى - « المصريون يسكنون قلبى ! » - چوزيف فورييه - مراهق يحاضر فى أكاديمية الدوفينيه ...

عندما نزل جان - فرنسوا شامبوليون وهو فى العاشرة من عمره من عربة السفر القادمة من ليون على رصيف إيزار فى السابع (أو الثامن) والعشرين من مارس ١٨٠١ كان هنرى بال « ستندال » قد فر من المدينة منذ خمسة عشر شهرا وكان قد ولد بها قبل ثمانية عشر عامًا وندد بها بطريقة مسرحية فى كتابه « قصة حياة هنرى برولار » : « كل ماهو منحط أو متسطح فى البوراجوازية يذكرنى بجرونوبل وكل مايذكرنى بجرونوبل يثير اشمئزازى ... كلا إن كلمة إشمئزاز تعتبر أنبل مما أشعر به : غثيانى هى الأصح . إن جرونوبل بالنسبة لى هى مثل ذكرى سوء هضم رهيب ... كل ماهو منحط ومتسطح [...] هذه هى جرنوبل بالنسبة لى [1] ... » .

لعنة سيخفف من حدتها كلام مختلف جدا عندما يتحدث ستندال عن الفترة التى تحرر فيها فى شبابه من الإستبداد المثلث الذى سيطر عليه عندما كان يقيم فى شارع « ڤيو - جيزويت » . إستبداد والده وعمته ستيفانى وأستاذه القس ريان .

هذه الجرونوبل التى عرفها چان - فرنسوا شامبوليون فى بداية القرن عند هبوطه فيها لاننظر إليها نحن بعين الصبى بايل (ستاندال) أسير « الأباء اليسوعيين » ولكن بعين المراهق المغلوب على أمره أمام أسلوب تعليم وحياة تلميذ يشبهان تلك الحياة التى عاشها صبى فيچاك الصغير .

نسجل هنا دهشتنا الكبيرة التى يشاركنا فيها كل من عرف نزعة التضامن التى يتسم بها مكان مقاطعة دوفينيه - والتى ستتكر أسبابها عبر قصتنا هذه : نسجل أن مؤلف كتاب « برولار » (ستندال) لم يقابل قط مكتشف لغز الهيروغليفية ، أو أنه لم يذكره أبدًا ضمن أسماء المئات من مواطنيه الذين ذكرهم بقلمه * . وبعد عشرين عامًا

* تحققنا من ذلك مع أستاذ الدراسات الستندالية فيكتور دبل ليتو .

من الاكتشاف الذى تشرف به أحد مواطنيه لم يذكر ستاندال ولو بكلمة واحدة إسم شامبوليون وهو الذى نال من شاتوبريان العديد من صور الثناء . وعلى الرغم من أنه جعل من كراهية جرنوبل دستوراً له فهو لم يخف إعتزازه بسكان الدوفينيه لما أسماه « مزاجهم الخاص » الذى هو « نوع من الإحساس بالذات تتسم بالحيوية والإصرار ورجاحة التفكير ... مثابرة وعمق وذكاء وحس رفيع ... » .

لو أن طريق چان - فرنسوا شامبوليون قد ألتقى وطريق ستاندال فإن هذا الأخير كان سيختار بين تصنيف الشاب القادم من فيچاك بين مواليد « مثلث الموت - بوردو - بايون - ڤالانس : الذى يؤمن سكانه بالسحر ولايحسن أحد منهم القراءة وحديثهم ليس فرنسيا [2] » أو أن يضعه فى مصاف الذين يتسمون « بالعمق » و« الحس الرفيع » فى مقاطعة دوفينيه ، إننا لنراهن على أن كاتبنا الذكى كان سيطرحه ضمن هذه المجموعة الأخيرة كما يجب ألا ننسى أن الروائى (أى ستاندال) كان يصغر چاك - چوزيف بخمس سنوات ويكبر چان - فرنسوا بسبع . إن ذكرياته عن المدينة التى تلامس فيها شبابهم ودراستهم وحبهم الأول كانت دائما متفاوته فالبنسبة لتجارب وأعمال الأخوين كان متقدماً عن الأول ومتأخراً عن الآخر .

فى تلك الأيام المحمومة تقلبت المواقف وتباينت الشخصيات والقيم وعلاقات القوى من شهر لآخر . خلال الأشهر القليلة التى غاب فيها ستاندال عن جرنوبل واستقر فيها شامبوليون الصغير . كان بونابارت قد عاد من مصر ووضع نهاية للثورة كما أقام حكم القناصل ومهد لحكم الوفاق (Concordat) وأكد هيمنته على القارة فى مارنجو . إن كلا من هذه السنوات كانت تأتى بتغييرات أكثر مما تأتى به عقود عادية بأكملها .

فلنعد إلى مطالعة رواية « هنرى برولار » لنتعرف ونستنشق الأجواء التى كانت تسود مدينة جرونوبل عندما شق الأخوان شامبوليون طريقهما فيها نحو المجد فيما عدا بعض الفترات القصيرة التى تغيبا فيها عنها) . نفس الأشخاص عبروا حياة الثلاثة لسبب أو لآخر : من الطبيب هنرى جانيون جد ستاندال الطبيب والذى كان وراء تنمية التعليم فى المدينة ورعاية متحفها إلى شارل رينودون عمدة جرونوبل من ١٨٠٠ إلى ١٨١٥ والذى كان زميلا لشيروبان بايل ووالد أحد أقرب أصدقاء چان - فرنسوا ... ومن القس جاتال الذى قام بتدريس قواعد اللغة للروائى والمستشرق على التوالى أمام الأب دوكرو الراهب المشلوح الذى عين أميناً لمكتبة المدينة والذى كان يعتبره ستاندال من « العباقرة » .

ومن خلفه دوبوا – فونتانال الذى شغل فى نفس الوقت منصب عميد الجامعة الوليدة وأستاذ التاريخ بها وهو الذى فتح الطريق أمام الشقيقين ، إلى أستاذ الرسم چاى الذى كان لا يعرف سوى « تحميس تلاميذه » حسبما قال ستاندال . وفى كلمة نقول أنه فى كنف مجتمع جرنوبلوازى مترابط ومتناغم ترعرع كل من الروائى (على عجل) وبصعوبة بالنسبة لعالم الآثار أى ستاندال وشامبوليون .

فى معرض سردنا سنقرأ إحدى رسائل چان فرنسوا يطلب فيها من أخيه أن يوصى الطبيب جانيون لكى يداوى عينيه العليلتين . كما سنراه تلميذا قادمًا من فيچاك « يثير » المشاكل لأساتذة سلفه بايل مثل المدرس لاكروا ... كما أننا سنلتقى برينوبون – الأب والإبن – فى قلب الصراعات السياسية التى عاشها الرجال الثلاثة . لقد جاءوا من أوساط إجتماعية متباينة وكان مستواهم المادى شديد الاختلاف إلا أنهم كانوا متفقين دون أن يلتقوا – فى كرههم « للآباء اليسوعيين » وفى نفورهم من المتطرفين .

على العموم فإن جرونوبل التى هرب منها ستاندال عام ١٧٩٩ والتى وصلها الصبى القادم من مقاطعة كارسى سعيداً بأنــه حط فى « أثينا مقاطعــة الدوفينيــه » . كانت مدينة مزدهرة ومشهورة عبرت مرحلة الثورة باقتدار وبدون مشاكل كبيرة علمًا بأنها كانت إحدى بؤر هذه الثورة .

ففى العشرين من مايو ١٧٨٨ عقد البرلمان الريفى إجتماعًا فيها على الرغم من قرار ملكى بمنع انعقاده .. وبعد ذلك بإسبوعين قام الشعب بإلقاء الحجارة على قوات الشرطة لإعادة ممثليه إلى اجتماعهم وكان هذا هو « يــوم القرميــد » journée des tuiles » .. ثم بعد ذلك بأسبوع واحد طالب مائة من الشخصيات العامة المجتمعين فى دار العمــديه باختيار ممثلى الدوفينيـــه عن طريق الانتخابات الحرة . وفى قصر فيزيل القريب من المدينة إنتزع أعيان مقاطعة الدوفينيه فى ٢١ يوليو ١٧٨٨ من لويس السادس عشــر ومن وزيــره بريان قــرارا باستدعاء اجتماع البرلمان الفرنسى بطبقاته الثلاثة .

هذه المواقف الثورية النبيلة سمحت لجرونوبل بألا تسقط خلال الأعوام الخمسة التالية فى الأعمال المتطرفة . ولم يزل ستاندال يؤكد أن « مرحلة الإرهاب » مرت هادئة على المدينة حتى أنها لم تطل أباه « اليسوعى » ... ويضيف أن الكياسة فيها تغلبت على أفعال باريس « المجنونة » .. وعلى الرغم من سلوكها العاقل فإن المدينة التى ولد فيها بايل (ستاندال) اتخذت لنفسها سلوكا يميل إلى الأحمر (لون الكفاح) أكثر من الأسود (لون رجال الكنيسة) أى أنها أثرت الحرية على مديح طبقة النبلاء وبقيت على

هذا السلوك لفترة طويلة حتى أن لويس الثامن عشر الذى لم ينس قط « يوم القراميد » ولا المؤمرات التى أدت إلى إعادة الملكية لم يكن يسميها سوى « جروليبر » (استبدل المقطع الثانى من الاسم وهونوبل أى نبيل – ليبر أى «حر») (المترجم) .

هل كان سلوك هذه المدينة يرجع إلى « مزاج أهل مقاطعة دوفينيه الذى يتسم بالإصرار والتفكير » ؟ أم أن أهلها أرادوا أن يخفوا نزعتهم إلى الاستقلال عن باريس المجنونة وليون المناهضة للثورة ؟ . أم هو توازن البرجووازية المزدهرة والمتشوقة للوصول إلى السلطة ولكنها قريبة فى الوقت ذاته أكثر مما ينبغى من طبقة النبلاء ورجال الدين حتى تتمكن من الاعتداء عليهما ؟ أم هو تواصل التبادل الذى حافظ عليه نسيج تعاونى وثقافى يلفظ الإرهاب والرجعية معا ؟

الواقع هو أن جرونوبل كانت خارجة لتوها من المرحلة الثورية عندما هرب منها ستاندال ودخلها شامبوليون . وكانت قامتها قد إرتفعت بسبب ما أقدمت عليه من أعمال جسورة وبسبب تعقلها فى الوقت ذاته وكانت فخورة بأنها تحدت الملك قبل أن تتحداه باريس ذاتها دون أن تلقى بأهل العهد السابق فى مياه الإيزار ولا أن تقيم المجازر لرجال الكنيسة فى الجبل .. فقد كانت المدينة الفرنسية التى يمكنها أن تقدم أكثر من كشف حساب مشرف بعد عشر سنوات من القلاقل : لم يكن هناك أى مدينة أكثر إستعدادا منها لاستقبال الطفل المتفرد ذى الحذاء القذر الهابط من عربة البريد ومعه چاك – چوزيف شامبوليون الذى كان قد سافر إلى ليون للقائه هناك .

ما الذى كان يدور فى رأس الابن الأكبر لصاحب المكتبة عندما قرر إحضار أخاه الأصغر ليعيش معه فى جرونوبل ؟ واضعا إياه تحت سلطته المباشرة ؟ منتزعاً إياه من المحيط العائلى الآمن ؟ وليضعه بعد ذلك فى يد أكثر خبرة من أيد دوم كالمالز الممتازة ؟ الشئ المؤكد أنه رأى أن الوسط التعليمى كان أفضل فى جرونوبل منه فى فيچاك وأنه عندما إكتشف بعض مواهب أخيه المتميزة قرر أن يعطيه كل فرص النجاح .

سبق أن تحدثنا عن التجهيزات الثقافية ... كانت موجودة بالفعل ولكنها كانت مشلولة بفعل المضايقات الإدارية التى مارستها السلطات المختلفة التى توالت على إدارة المدنية . تماماً مثلما كان الحال فى فيچاك المدرسة المركزية أنشئت عام ١٧٩٥ وكان مقرها (منذ ١٧٩٦ حتى ١٨٠٢) فى دير الآباء اليسوعيين بشارع نوف *

* اسم المدرسة أصبح الآن « ليسيه ستاندال » بشارع راول بلانشار .

والدراسة الثانوية بها كانت حرة تماما تشبه التعليم الجامعى فجميع الدروس غير إجبارية والمدرسة لاتمنح أى شهادة عند التخرج . ستاندال إمتدح مع بعض التحفظ هذا الأسلوب الحر ولكنه رأى أنه يفتقر إلى هيكل يسنده : وإذا كان بعض الأساتذة قد تركوا لديه ذكرى حسنة - مثل جاتال و دوبوا - فونتانال - فإن البعض الآخر تعرض لسهام سخريته القاتلة .

هل كان هذا الأسلوب التعليمى مكلفًا جدا بالنسبة لچاك چوزيف أم أنه لم يحظر بثقته ؟ هل قدر أن ضعف أخيه فى مادة الحساب سيعوق مسيرته المدرسية ؟ هل رأى أن الصبى مازال محتاجًا لبعض الصقل قبل أن يختلط مباشرة مع أبناء المجتمع المتحضر ؟ الذى حدث هو أن چاك - چوزيف قرر أن يتولى هو بنفسه تعليم تلميذ دوم كالمالز .

هذا الأسلوب التعليمى نتج عنه بعض الحرج المادى للأخ الكبير . فقد إضطر إلى تخصيص إحدى الحجرتين التى كان يشغلهما بالقرب من محلات أبناء عمومتهما فى الشارع الكبير (جراند رو) وهى التى كان قد جعلها مكتبته الخاصة التى يطالع فيها كتبه ... ترتب على ذلك أن الصبى الذى كان قد أمضى ساعات طوال من عمره داخل مكتبة الأسرة وجد نفسه داخل شرنقة من الكتب ! كانت فى معظمها كتبًا قديمة مكتوبة باللغات الشرقية التى سبق أن استهوته ومالبست أن خلبت لبه إلى أن توفى . فلنحاول أن نتصور هذا الصبى البالغ من العمر عشر سنوات وهو نائم فى مهد من الرموز ... وكم من الأحلام أثارتها فى منامه وكم من أمال إندفعت فى خياله من طياتها ؟!

الوصاية الأخوية فرضت من جهة أخرى على چاك - چوزيف تضحيات كبيرة من وقته خاصة وأنه كان ناجحا فى عمله بالمحل التجارى وأنه كان يواصل تعليمه وينشط داخل المجتمع الجرونوبلوازى ويشبع شغفه باقتناء الكتب . كل هذا لم يمنعه قط من أن يأخذ مهمته التعليمية على محمل الجد الصارم ، وتشهد على ذلك الرسائل المؤثرة التى تبادلها مع العزيز دوم كارمالز ... هذه المخاطبات تلقى من جهة أخرى الضوء على إخلاصه لأخيه كما تبرز فى الوقت ذاته مواهبه ونقاط ضعف چان - فرنسوا .

ومثال ذلك هذا الخطاب المؤرخ ٢٥ يناير ١٨٠٢ أى بعد عشرة شهور من وصول الصبى إلى فيچاك (أى أنه كان قد بلغ الحادية عشرة) الذى كتبه چاك - چوزيف للقس العجوز فى فيچاك :

« عندما كنت أخطط لمشروع إستدعاء أخى ليعيش بجانبى تصورتكم كحائل يعيق تنفيذه .. لأن الأفضال التى تكرمتم بها عليه والعطف الذى أسبغتمونه عليه جعلنى أكاد أحجم عن تنفيذه حتى لا أتسبب فى تعكير مشاعركم .. غير أننى عندما رأيت توصياتكم تلتقى ورغباتى لم أتقاعس عن اللجوء إلى أى وسيلة تسمح بالإسراع فى تحقيق مرادى . لم أخف عن نفسى أبداً صعوبة المهمة التى تحملتها بكونى أصبحت مسئولا عن أخى أمام عائلتى وأمامكم . لكنى تجرأت واثقا من قدراتى .. الزمن وحده هو الذى سيثبت إن كنت وثقت فى ذاتى أكثر مما يجب .

« ما أن وصل إلى جرونوبل إلا وكنت قد أخترت له مدرساً خاصاً * تتلمذ عليه حتى فترة الأجازات – ومنذ ذلك الحين وأنا أباشره شخصيا بالكامل وهو لا يأخذ أى درس غير الدروس التى أعطيها له .

« لقد كنتم على حق تماماً عندما قلتم عنه أنه أحيانا يفيض حماساً وإستعجالاً ، بادياً كما لو أنه يخشى أن يجد لشغفه بالتعليم حدوداً . وأنه فى أحيان أخرى يبدو مثبط الهمة ومرهقاً وساعتها كل شئ يصبح أمامه عائقاً يجب إقتحامه أو صعوبة عليه أن يحلها .

هذا التباين راجع لشخصيته أو ، لأكون أكثر وضوحا ، لطيشه ، مما يجعله غير قادر على العناية بما يعمل .. إنه لايفكر فى إستخدام إمكاناته كما أن السهولة الكبيرة عنده فى إدراك مايشرح له تضر بحاجته لحفظه [...] ولما كان العمل لايكاد يشغل باله فإنى لاأترك له أوقات فراغ طويلة لأنى أود أن أجعل من الاعتناء بالعمل إحدى عاداته . فى أحيان كثيرة لا أجنى ثمرات ما ألقيه عليه من دروس .. ولكن تغيير الشخصية وتقويم العادات لايتم فى يوم واحد [...] إنى أهتم بشئ آخر لايقل أهمية ألا وهو تحسين أسلوبه فى الحديث [...] إذ اجتهد فى أن أمحو من أخى هذه الخطيئة المتأصلة [...] التى هى لهجة بلدتنا التى لاتوجد فى أى بلد يعرف كيف يتحدث باللغة الفرنسية ** .

وعمله المعتاد يشمل ترجمة إلى الفرنسية فى الصباح ومنها فى المساء إلى اللاتينية . ثم مبادئ القواعد الفرنسية .. كتاب إنسيكلوبيديا الأطفال والكتاب

---

* لم نجد له أى أثر .

** راجع تعبير ستندال عن الموضوع نفسه فى الصفحات السابقة .

الثانى من ملحمة الـ Enéide (لفيرچيل) هى الكتابان اللذان يأخذ منهما دروسه .. ثم أضيف على ذلك بعض قصص لافونتان الشعرية [...] أقوم بتصحيح واجباته مــرتين فى اليوم وفى بعض الأحيان أعيدها إليه ليعلق عليها ويشرحها كلمة بكلمة [...] هذه هى ياسيدى الطريقة التى إستخدمها لكى يتحصل حتى على بعض التعليم [...] .

« أما فيما يخصنى فإنى أقسم وقتى بين هذه المجهودات وأعمالى التجارية وأجد أيضا بعضا من الوقت أعمل على حسن استغلاله : إلا أن دراسة اللغة اليونانية تستهلكه .. وقد تخطيت المرحلة الأولية وإنتقيت صفحات من العهد الجديد من الكتاب المقدس فى أولى محاولات الترجمة » * مؤرخ فى (٥ بلوڤيور عام ١٠ من الثورة) .

بعد ستة شهور أرسل المــدرس تلقائيا إلى أستـاذه السابق تقــديراً أوليا: « إن الموافقــة التى تضمنها خطابكم العــزيز ** على الطريقة التى أعطى بها أخى العلاج الوحيد الكفيل بتقويم عيوب طبيعته تساندنى كثيرا فى مسيرتى .. اعترف بأنى عنـــدما ألاحظ أن أحد المدرسين يستخدم أسلوبا مختلفا عن النهج الذى أسلكه يتملكنى الشك ويبدأ داخلى صراع بين مقاصدى وبين خوفى على أخى واهتمامى به [...] يبدو أن أخى يشعر فى بعض الأحيان بقيمة التعليم . فهو كثيرا ما يؤدى واجباته بدرجة من العناية لايمكن أن تتأتى سوى نتيجة حب أكيــد للعلــم . غيــر أن بعض الغيــوم تغطى فى أوقات كثيرة صحــوات النيات الحسنة هذه . أركز عنايتى على تتبع لحظات التراخى هذه فأقــوم حــال حدوثها بتحفيزه بجميع الوسائل الممكنة . فأقــدم له غــذاءاً جديداً فى صورة موضوع بدائى يحرك شهيته للمعرفة : وأنجح أحيانا فى إغرائه بالسباحة فى فضاء الخيال الواسع حتى بر الأمـان . إن أخى يعمل كثيرا وينجــح كثيرا بصورة جيدة . »

تتعدد بعد ذلك تفاصيل خاصة بطريقته التعليمية وطلبات النصـائح ثم يختتم چاك - چوزيف خطابه إلى كالمالز بأن يعبر له عن « امتنان » أخيه وجميع أفراد

---

* يوضح هذا أن چاك - چوزيف دارس اللغة اليونانية كان لايزال فى مراحل دراستها الأولى .

** لم يتم العثور عليه .

الأسرة . ونسجل هنا تقديره للإستمرارية فهو يود وبوضوح ألا يتسبب فى أى شرخ بين أسلوب التعليم الذى ينتهجه مع أخيه وذلك الذى حصل به على علومه الابتدائية فى فيچاك ويود أن يكون بمثابة فترة مرحلية بين تعاليم القس المربى وتلك التى سيتلقاها فى المدرسة .

غير أنه رأى أن مرحلة جديدة يجب أن تضاف إلى الفترة الانتقالية . ففى عام ١٨٠٢ بعد عام تقريباً من التدريس الأخوى كان المدرس يتلقى خلاله دروساً هو الآخر فضّل چاك – چوزيف أن يعهد بأخيه إلى مدرس محترف وفاتح دوم كالمالز فى ذلك .

« أعرف واحداً من هؤلاء ، يضطلع بواجبات مهنته بصورة أفضل من نظرائه جميعا . إن التقدم الذى يحرزه تلاميذه وعلاقات الصداقة التى تربطهم بأستاذهم مدعومةٌ بهيبته واحترامهم له ... كل ذلك يحملنى إلى الاعتقاد بأنه عرف كيف يجعلهم يحبونه ويخشونه فى الوقت ذاته .. أما أقوى الحوافز التى يزرعها فى تلاميذه فهو عامل المنافسة بينهم . إنه متسامح ولكنه عند الضرورة يكون بلا رحمة كما أن حديثه مصاغ ليكون فى مستوى التلاميذ وليس العكس ... »

قصد بحديثه هذا الأب دوسار الذى كان يحظى بسمعة كبيرة فى مدينة جرونوبل . وتتلمذ عليه چان – فرنسوا من نوفمبر ١٨٠٢ حتى إجازة * ١٨٠٤ .. يصف چاك – چوزيف فى خطابه لأستاذه السابق – النظام التربوى الذى كان يتبعه هذا القس وهو نظام لايأتى بأى جديد يبرزه عن الآخرين (حيث أن الكتب التى يقوم عليها هى De Viris وكتب فيرچيل وأفلاطون) ماعدا تجديد واحد يتمثل فى تقسيم دور التلاميذ بنظام أسبقية مبنى على أساس عدد الواجبات التى يقدموها دون أخطاء » .

كانت مصاريف هذه الدراسة مرتفعة ** حسبما قال الأخ الكبير ولذلك فإن « عدداً قليلا من الناس كان فى مقدورهم أو من رغباتهم أن يقدموا على إنفاق مبلغ كهذا » . أما هو الموظف الصغير المفلس فإنه يقدم بالرغم من كل شئ على هذا الإنفاق من أجل مصلحة أخيه .

---

* كانت فترة الأجازة تمتد حينذاك من نهاية أغسطس إلى بداية نوفمبر .

** جاء فى الخطاب ذكر رقم ١٢ دون أن يحدد إن كان ذلك بالفرنكات .

فى خطاب أرخه ٦ أغسطس ١٨٠٣ فى نهاية العام الدراسى الأول كتب دوسار إلى چاك - چوزيف يقول له أنه « سعيد جداً بـ « شامبوليون الأصغر » وهو لذلك لم يسمح له فقط بدراسة اللغة العبرية ولكن بدراسة ثلاث لغات سامية أخرى هى العربية والسيريانية والكالدية (أو الآرامية وهى اللغة التى كان يتكلم بها المسيح) .. يدهشنا هذا « التسامح » وإن كان يلقى الضوء على ميول الصبى الذى كان يبلغ حينذاك الحادية عشرة والنصف وعلى العقلية المتفتحة لأستاذه فى آن معا ، فما أكثر من كانوا سيتذمرون إزاء طلب كهذا متعللين بأنه ضرب عن حب الظهور أو النزوات أو إضاعة للوقت ... إلخ .

كانت مدرسة دوسار تعمل على مايبدو على قدر من التكامل مع المدرسة الحكومية المسماة فى ذلك الوقت « مركزية » وعلى العموم كان فى استطاعة تلاميذ دوسار متباعة دروس المدرسة العامة التى كان يعطيها أساتذة مشهورون مثل الرسام چاى وعلى وجه الخصوص عالم النبات ڤيلار الذى سرعان ما احتضن چان - فرنسوا واصطحبه معه فى الجبال يدرسان بشغف النباتات على الطبيعة . وإذا كان صاحبنا الشاب الصغير قد أكتفى بدوسار لدراسة اللاتينى واللغات الأخرى فقد إضطر إلى متابعة دروس الحساب وهو نقطة ضعفه فى المدرسة المركزية .

سبق أن أشرنا إلى أن الأب دوسار قد أكد على تعطش « شامبوليون الأصغر » لتعلم اللغات الشرقية . وبالنسبة لنا تمثل هذه النقطة بداية المشوار اللغوى الذى سيوصل چان - فرنسوا إلى اللغة القبطية وإلى مصر . إلى اللغة القبطية عن طريق التوراة - التى كان يقرأها فى لغتها الأصلية - وعن طريق المؤلفين اليونانيين مثل هيرودوت وسترابون وبلوتارك . ثم إلى الهيروغليفية عن طريق هورابوللون وكليمان السكندرى وعن طريق اللغة القبطية والمقارنة مع اللغات السامية ...

أن يتحمس صبى عمره اثنا عشر عاماً لدراسة لغات طال دفنها فى طيات الذاكرة الإنسانية وأن يجد فى هذه الدراسة المملة بالنسبة لأى صبى آخر لذة حقيقية وأن يتسلى فى فك شفرة هذه الكتابات وأن يتجول فى يسر داخل القواميس وكتب قواعد اللغات الأكثر صعوبة للفهم ..: لايمكن أن نرى فى ذلك كله سوى ما أطلق عليه فيما بعد علامة من علامات « العبقرية » فى غياب أى تفسير ممكن آخر أو لفظة أكثر دقة .

غير أن الموهبة الخاصة التى حُبى بها چان – فرانسوا شامبوليون لم يكن لها دون أى شك أن تجد طريقها للإزدهار لو لم يجد أمام عينيه المثل الذى يحتذى : أخاه ، هذا المجنون بحب الكتب والذى تحول شيئا فشيئاً إلى مستشرق هاوٍ ... فما أقرب الأشياء إلى طبيعتها ألا يحاكى الصبى الشخص الذى يحبه ويعجَب به ؟ البداية كانت لعبا ومنافسة ومحاكاة .

قبل أن يتمكن من إثبات عبقريته كان على چان – فرنسوا أن يتعلم . ومن نافلة القول أن الأخ أراد أن يؤمن لأخيه الزاد الدراسى الذى لم يلق منه هو – نصف المتعلم – سوى الفتات . ولهذا السبب ائتمن على تعليمه دوسار صاحب المدرسة التى كانت بمثابة المشتل الذى يغذى التعليم العام . وبعد أن تشكل فيها استعد شامبوليون الصغير لخوض مسابقة القبول فى المؤسسة الجديدة المسماة «الليسيه» وذلك فى ربيع ١٨٠٤ .

كان القنصل الأول * قد قرر بالفعل أن يقيم نظامًا جديداً من إختراعه يسمح بتكوين رجال إدارة وضباط يدينون بالولاء للنظام الجديد وهو فى مرحلته الأولى – ليحل محل نظام المدارس المركزية الذى أنشأته الثورة والذى أثبت عدم صلاحيته خاصة وأن التسيب كان متفشيا فى نظامها وفى تعيين المدرسين بها .

كان ذلك زمن العسكرية . فبعد خمس سنوات وفى إحدى المكاتبات الدورية طالب الرئيس الأعلى للجامعة مسيو دى فونتان من رئيس جامعة جرونوبل بأن يطلب من التلاميذ أن يكتبوا فى مادة « الإنشاء » عن : « الأعمال البطولية التى قامت بها جيوشنا تحت إمرة صاحب الجلالة الإمبراطور ... وعن الحب الذى من حقه علينا أن نكنه له » .

بقى هذا الخليط من عبادة الأصنام والحياة العسكرية سائدا حتى عام ١٨٠٩ وهى السنة التى أرسى فيها « نظام الشرطة فى المدارس » تطبيقًا لخطاب دورى متشدد وزعه المسيو دى فونتان ذاته . أما الذين سيتولون المسئولية التعليمية الثانوية لچان – فرنسوا ابتداءً من الناظر الأب چاتال فلم يكونوا قط من حاملى السياط ولاهم كانوا « باش باش شويشية » بل إننا سنلاحظ أن كثيراً من مظاهر الحياة فى هذه المدرسة كان أقرب للأبوية منها للعسكرية . وعلى الرغم من ذلك رفض چان – فرنسوا هذا النظام وسوف نرى الأسباب وراء ذلك .

* لم يشغل بونابارت هذا المنصب سوى فى ديسمبر ١٨٠٤

مهما كان ضعف إحساسه بالسعادة فى إطار ذلك النظام فقد كان صاحبنا المراهق مهتما بالإنخراط فى صفوف الليسيه الجديد الذى كان يعطى مائة وخمسين منحة دراسية للناجحين فى مسابقة القبول به . كان المتحنان هما المفتشين العامين لوفاڤر - چينو وڤيلار وكانا يطرحان الأسئلة بأنفسهما على التلاميذ المتقدمين المزودين بكتب ڤيرچيل وهوراس . شامبوليون الصغير نجح فى إمتحان اللغة اللاتينية ثم أكد هذا النجاح بآخر فريد من نوعه بأن ترجم فقرات من التوراة عن اللغة العبرية . وكان ذلك مثار انتباه أعضاء لجنة الامتحان لدرجة أن الصحافة ذكرته فى صفحاتها . خلاصة القول أن چان - فرنسوا شامبوليون قبل فى الليسيه الإمبريالى لمدينة جرونوبل فى مارس ١٨٠٤ المسمى حالياً « ليسيه ستاندال » وكان الرقم الذى طبع على ملابسه هو (٥٨) . نشرت الصحيفة الإدارية لمحافظة الإيزار أسماء المائة وخمسة ناجحين ومن بينهم « چان - فرنسوا شامبوليون فى الثانية عشرة من فيچاك - تلميذ بمدرسة دوسار »(3) .

من كانوا أساتذته ؟ أكثرهم أهمية بداية بسبب كونه ناظر الليسيه ثم بسبب كونه مدرس « القواعد » وشارك بذلك فى إدخال صاحب اكتشافات الغد إلى عالم اللغويات وهو الأب كلود - مارى جاتال . كان شخصية مثيرة من وجوه عدة ... ذكره ستاندال بخير قلما جادت به قريحته على رجال الكنيسة حتى عندما حاول إخفاء ذلك بستار من السخرية : « كان قساً متأنقاً متظرفاً تجده دائما فى معية السيدات فهو قس حقيقى من قساوسة القرن الثامن عشر » وبعد أن رسم شخصيته فى هذه العبارات ، أطرى صاحب « البرولار » (ستاندال) بأكثر كلمات الثناء شيوعاً ، المثقف والمعلم كلود - مارى جاتال :

هذا الجانب من شخصيته المتمثل فى قول ستاندال « قس من القرن الثامن عشر » تبرزه قصيدة كتبها ناظر ليسيه جرونوبل ليتحدث فيها عن مدبرة منزله واسمها « ڤيكتوار » - (وجد القصيدة إيميه شامبوليون - ڤيچاك » :

أعزها ، علّها تصدقنى

آه !! لو لاقت آمالى قبولها

لكنت العاشق الكتوم فى المتعة

نصرى يداريه حجاب مسمط (4)

كان الناظر أكثر صرامة مع تلاميذه من القس مع مديرة منزله . إذ يقول جان – فرنسوا : « وددت الخروج من المدرسة يوم خميس العهد إلا أن السيد / جاتال خشى أن ينتهز الذين سيخرجون للترويح عن أنفسهم فى ذلك اليوم الفرصة ويبددون الهواء الذى استنشقوه داخل الليسيه ... فرض إعطاءهم تصريح الخروج ... »(5) .

صديق النساء وناظر متبصر – ومع ذلك متحرر كما سنرى كان جاتال فى قول نهائى من تلاميذ كونديياك وأستاذًا فى اللغويات ومؤلفا لقاموس ممتاز للجيب للغة الفرنسية . وجعلت منه دراساته العامة فى هذا المجال أحد رواد الشرقيات .. لابد إذن أنه كان من مصادر إلهام الأخوان شامبوليون .. وفى سياق حديثنا سنتسائل عن التأثير الذى قد يكون له على أعمال جان – فرنسوا .

وننتقل إلى معايير – فانسان شالڤيه المكلف بتدريس مادة التاريخ ونتساءل إن كان من الملائم إعتباره أحد « أساتذة » شامبوليون فقد قال لنا عنه « هنرى برولار » (بطل رواية ستاندال) أن « هذا الشاب الفاسق البائس » قد إختلس مصاريف الدراسة (التى سددها له تلاميذه) هو وأخواته الثلاث اللاتى أمتهن العُهْر واللاتى أصبنه بعدوى مرض السيفيليس الذى قضى على حياته بعد فترة قصيرة »(6) ؟ لم يختلف تقييم جان – فرنسوا عن تقييم برولار له .

الرسام لويس – چوزيف چاى كان أكثر كفاءة ، علماً بأن ستاندال لايعترف له بأى موهبة أخرى سوى موهبة « تحريض الأولاد »(7). وليس فقط الأولاد : فقد كان من الشخصيات الجاكوبينية (أى ثورى جمهورى يطالب بمركزية الحكم) ذات الحمية وكان تأثيره كبيرا على شخصية شامبوليون الصغير خاصة ، وأن هذا الأخير كان حريصا على تنمية قدراته فى فن الرسم والتى كانت خير معين له عندما حان وقت نقل وتفسير الخطوط اليهروغليفية من الآثار المصرية . إلا أن المدرس المفضل لدى چان فرنسوا فى الليسيه كان بكل تأكيد عالم النباتات دومينيك ڤيلار ... والذى كان قد حضر فصول دراسته عندما كان تمليذا بمدرسة دوسار . وقد كان أسف صديقنا المراهق عظيماً عندما إنتقل ڤيلار من مدينة جرونوبل فى نهاية عام ١٨٠٥ عندما عين عميداً لكلية علوم بمدينة ستراسبورج .. ومع ذلك بقيت دروسه ورحلاته التعليمية عبر الطرق الجبلية حيث كانا يتدارسان النباتات سويا محفورة فى ذاكرة الشاب الصغير .

كان چان - فرانسوا تعيساً فى الليسيه . ليس بسبب الحرمان المفاجئ من الحنان والإطار العائلى والحماية التى يوفرها هذا الجو العائلى عادة لكثير من الأولاد ... فهو على مايبدو لم يحتفظ بذكرى حانيه طيبة من حياته لأسرته . أما الألفة الحميمة مع أخيه الأكبر فى مقرهما الضيق فى شارع جران رو - كانت مفعمة بالمودة وثريه لنفسه . من هو الأخ الصغير الذى لم يحلم بأن يعيش هكذا شريكا لأخ أكبر يحظى ببعض الشهرة جلبتها له معارفه ؟ هذا الإنفصال عن أخيه هو الذى أثر فيه كثيرا .

أضف إلى ذلك أن الولد القادم من فيچاك سواء كان « مشاغبا » أم لا - والذى كان قد إحتفظ على الأرجح باللهجة الريفية الخاصة ببلدته مما آثار سخرية أقرانه الجدد كما آثار بونابارت سخرية زملاءه فى بريان . كان ذلك الولد كما سبق ورأينا متحمساً ومندفعاً وعنيداً . ولم يكن أى نوع من الانضباط ليلقى قبوله . كان الانضباط فى الليسيه الإمبراطورى على النقيض من التسيب السابق فى المدرسة المركزية دقيقا حتى لو لم يكن عسكريا بالمعنى الحرفى ، ويلقى الضوء على ذلك هذا النص الذى تضمنه كتيب تم توزيعه على أولياء الأمور فى ١٨٠٦ : « مجموع ساعات العمل اليومية عشر ساعات - الرقابة على الطلبة مستمرة طوال الأربع والعشرين ساعة وما بينها من الدقائق جميعا وهى تتم بالليل والنهار فى الفسح كما فى أوقات الدراسة بل وفى أثناء نوم التلاميذ أيضا : الرقابة لاتتركهم لأنفسهم ولا للحظة واحدة » .

كان الإعلان عن بداية ونهاية الحصص بدق النفير والطبلة . وكانت قوائم التطوع تمرر على الطلبة تحثهم على الإنخراط فى الجيش ليصبحوا « باشويشيه » بترقيتهم بعد ذلك إلى رتبه ملازم ثانى (كما جرى الحال لهنرى بال « ستاندال » ولكن بطريقة أخرى) ... ونذكر هنا أن شامبوليون الصغير لم يوقع على هذه القوائم . غير أننا عثرنا على خطاب يطلب من أخيه رأيه فى إمكانية قيده فى المدرسة العسكرية بفونتانبلو « حيث لايبقى الطالب سوى ثمانية عشر شهرا ثم يصبح ضابطا أو ملازما ثانيا » ... ثم يضيف تلميذنا على الفور مطالبا : « كتاباً !! من فضلك !!» المؤكد هو أن ميوله لمهنة سلاح كانت أقل بكثير من ميل أخيه وخاصة وأنه كان مناهضا للانصياع العسكرى .. وسيثبت چان فرنسوا بطريقتــه أن لا أحد يمكنه أن يحسن تسيير القوات الخاصة بحزم مثل رجل محب للسلام ، إذ كتب يقول :

« وظيفتي داخل الفصل برتبة عريف ؛ أي أني أعلق شارة العقاب للذين يتسببون فى الضوضاء .. ولاتدوم فترة حكمي سوى خمسة عشر يوما . إنتخبت العام الماضى وكنت الثانى فى الترتيب ، أما هذا العام فأنا الأول . وشغلت هذا المنصب أربع مرات العام الماضى وأرجو أن يستمر الحال هذا العام أيضاً .. » .

كان التعليم فى الليسيه الإمبراطورى بجرونوبل فى عام ١٨٠٤ يقوم على مادتين أساسيتين : اللغة اللاتينية والعلوم الرياضية .. وتمتد المرحلة التعليمية لسبع سنوات من السنة السادسة إلى السنة الأولى تنازلياً ثم السنة الختامية . غير أنه كان فى الإمكان الفصل بين الدورتين أى أن الطالب كان يمكن أن يواصل الدراسة على مستويين مختلفين وهكذا دخل شامبوليون الصغير الفصل الرابع فى اللغة اللاتينية ولكنه بقى فى الفصل السادس بالنسبة للرياضة .. وهو سيصعد إلى الفصل الثالث ثم الثانى فى اللاتينية وسيصعد إلى الخامس والرابع فى الرياضة ثم « سيتوقف » فى السنتين الأخيرتين عن مواصلة السير فى هذا المنهج للأسباب الوجيهة التى سنتعرض لها فيما بعد - إلا أنه سيحصل على الرغم من ذلك على « شهادة دراسية وحسن سير وسلوك » فى سبتمبر عام ١٨٠٨ * .

إذا أردنا أن نقيّم أداء التلميذ شامبوليون ثم المراهق شامبوليون وإذا إعتمدنا فقط على التقديرات التى أعطاها له أساتذته فى الفترة من ١٨٠٤ إلى ١٨٠٧ فلاشك أننا سنصاب بخيبة أمل . فقد كان منغمساً بالكامل فى الشرق القديم الذى سيطر عليه (كما كان مولعًا بعلوم النبات) وكان مناهضاً للإنضباط الذى كان يثير سخطه ولذا لم يكن يعطى دروسه وواجباته المدرسية سوى أقل وقت ممكن أى بالقدر الذى يسمح له بأن يحتفظ بترتيب لا يخذله أمام أخيه .. وكان تلميذاً متذبذب المستوى ومهملا لدروسه فى كثير من الأحيان وتشهد على ذلك نتائجه المدرسية نصف الشهرية المحفوظة فى الأرشيف العائلى .

---

* سنرى أن أستاذه لوى لانجلاس سيرفض إعطاءه حتى شهادة إنتظام فى الدراسة عندما كان فى مدرسة اللغات الشرقية .

تقديرات أساتذه الليسيه الإمبراطورى لم تكن على هيئة أرقام ولكن بالحروف : أ = ممتازة ، و ى = ضعيف جدا . وهذه عينات من الكشوف التى إضطر چان – فرنسوا أن يرسلها إلى أخيه :

كشف « بلوڤيوز » عام ١٣ (الموافق ٧ يناير ١٨٠٥)

« صحة عامة ، دين/عادات ، سلوك : أ

شخصية ، نظام ، آداب عامة : هـ

حب العمل ، عناية به ، تقدم : ن

الأيام التى قضاها فى العيادة المدرسية : ٥ لإلتهاب فى الحلق لاعقوبات ولامكافآت » .

كشف الأول من چيرمينال عام ١٣ (الموافق ٢١ مارس ١٨٠٥)

« صحة عامة / عادات ، أمانة ، سلوك : أ

نظام ، عمل : هـ

تقدم : ن

لاعقوبات ولا مكافآت »

كما سنجد كشفا دراسيا مؤرخاً فى سبتمبر ١٨٠٥ حصل فيه چان – فرانسوا على أضعف درجة على الإطلاق فى « حب العمل وإتقانه » ثم نراه يحصل فى أول فبراير ١٨٠٦ على أ فى جميع المواد . ثم فى أبريل ١٨٠٧ نجده قد حصل على ٧ هـ وواحد ن – وفى يونيو من العام نفسه عشية توديعه النهائى لليسيه الإمبراطورى على ٥ أ و ٣ هـ ... خط بيانى على هيئة أسنان المنشار !!

نذكر ضمن أسباب الدهشة التى تثيرها هذه التقديرات تلك التى نالها فى مادة « الدين » و « الصحة العامة » وهى ممتازة . وسنعود فى حديثنا إلى هذه الأخيرة إذ أن صحته ستتسبب له بعد حين فى عذاب كبير أما بالنسبة لمادة الدين فإن أقل مايقال بصددها أن الأبن الأصغر لچاك شامبوليون لم يكن متدينا حتى أن التساؤل قائم حول ما إذا كان قد أدى « تناوله الأول » ولو بدا مسيحياً متحمساً فقد رجع ذلك إلى اهتمامه المتعمق بالتوراة التى كانت المرجع الأول له فى دراساته للعبرية ...

الحقيقة المؤكدة أن هذه الدراسات كانت تضايقه حتى اللغة اللاتينية التى كان أستاذ الصف بها هو مسيو چاميه وكان يقدره لإمتيازه ، سيرسب فيها فى إمتحان قبول الصف الثانى .. إنه لايفكر سوى فى الكتابة وفى دراسة النباتات وفى أن يغرق تمامًا وبسعادة فى دراسة قواعد اللغات الشرقية وكتاب التوراة باللغة العبرية وكتب علوم الآثار . فالتقديرات التى حصل عليها فى الليسيه الإمبراطورى لاتكشف لنا أهم جوانب شخصيته : كل مايهمنا فى تكوين شخصية هذا الشاب موجود فى المرحلة التى تبدأ بانتهاء الدراسة فى الليسيه . ومن حسن الحظ أن سمح له بمواصلة دراسة اللغويات معتبرين إياها نزوات تلميذ أهوج ... واحد منهم فقط وهو أستاذه دوسار ذهب إلى أبعد من ذلك بأن كان يشجعه على السير فى هذا الطريق ...

حياة تلميذنا لم يكن يتعسها داخل ليسيه جرونوبل نظامها العسكرى فقط ، لأن العسكرية كانت هى الجو العام السائد فى ذلك الوقت وكانت تعكس صورة مجتمع وطنى مشبع بالمشاعر المتأججة بالنضال زادت من جذوتها إنتصارات نابليون فى أوسترليتز وڤينا وفريدلاند ، بل كانت تعتمها أيضًا قلة الموارد وضعف موقفه ؛ إذ إن حياته كانت مرتبطة بحرص أخيه فى ما يمن به عليه وبعد إلحاح مستمر من جهته .

ضاعف من تأثير حياة الضنك هذه على چان - فرنسوا أنه كان وسط أبناء برجوازية جرونوبل المزودين بالمصروف الذى يملأ جيوبهم وهو مايملأ صفحات مراسلاته مع چاك - چوزيف . وهو يلاحظ كل يوم أن المنحة الدراسية التى حصل عليها عام ١٨٠٤ لاتغطى كل نفقات التعيينات المدرسية والملابس والهوايات ودروس اللغة الإيطالية والمصروفات النثرية اليومية . كانت أغلب مطالباته تتعلق بالورق الذى كان يستهلك منه چان - فرانسوا الكثير . وكان أخوه الأكبر على مايبدو مقتصدا للغاية فى هذا الموضوع الحيوى ... كان عليه أن يدفع من جيبه ربع مصاريف الطالب الحاصل على المنحة .. وتكررت المطالبات الرسمية كما تشهد على ذلك المذكرة المرسلة إلى چاك - چوزيف فى ٢٥ أبريل ١٨٠٦ : « تلميذ الحكومة الحاصل على ثلاثة أرباع منحة دراسية إبنكم [كذا] چان - فرنسوا يجب أن يسدد ثلاثة أشهر مقدمًا وهو مايوازى ربع المنحة السنوية إعتبارًا من أول أبريل ١٨٠٦ أى ٧٦ جنيهاً تورنوا (٧٦ فرنكا) عن ربع السنة البادئ فى يناير الماضى والربع الذى بدأ فى أبريل الحالى » المنحة الدراسية السنوية الكاملة تبلغ إذن ٦٠٨ فرنكا .

أكثر المشاكل كان يسببها له بند الملابس :

« [...] فيما يتعلق بملابسى فإنك تلومنى باستمرار على حالتها الرثة ولك الحق فى ذلك [...] أصبح ردائى فى حالة قاربت حالة ملابس مهرج السيرك أى أن قطع القماش متباينة الألوان المضافة إليه جعلت منه لباسًا ملفتًا جداً [...] أرسلت سروالى للترزى لكى يضيف إليه زرارين فأعيد إلى فى حالة رهيبة [...] أنا محتاج لبعض القطع [...] سأتقدم بشكوى لضابط المدرسة الذى سيفضل بكل تأكيد أن يرانى أتجول عارياً تماماً على أن يصرف لى أربع .. ميلمات ... »

طلبات الإعانة تشمل جميع المجالات :

« إرسل لى شيئا من المال فعندما تكون فى نزهة مدرسية من المفيد أن يشرب المرء شيئا من اللبن وعلى الأخص عندما يكون متعبا جداً ...

صادف أمس عيد ميلاد مفتش المدرسة . ذهبنا إلى البيت الريفى * وأكلنا هناك وجبة بسيطة : كان على تسديد ١٣ (صول) ، أرجوك أن ترسلها لى حتى أقوم بالوفاء بها [...] كما أرجو أن ترسل لى ٤٠ صول أنا مدين بها للبواب » .

الصعوبة المادية التى يعيش فيها تعطى معنى فريدا لهذا الرد الذى أرسله لخطاب عرض فيه أبوه المساعدة :

« أنا لا أحتاج شيئا وأشكركم على عرضكم . أخى يغطى كافة مصاريفى . أرجو أن تعبروا له على إمتنانى .. وأرجو أن أثبت له أنه لايرعى ناكراً للجميل بأن أحسن إستغلال جميع الفرص التى أدين بها لحبه الأخوى . »

توضيح محدد ومؤثر يشرح طبيعة العلاقات القائمة بين هذا الصبى المفلس ووالده .. لأنه عندما تركه يدخل تحت وصاية أخيه الأكبر فقد أى حق عليه غير أن يكون « الذى يبلغ أخاه بما يكن له أخوه من إمتنان أوبتعبير آخر فهو يقول له : « لقد فات الأوان » . وسنرى فيما بعد – چان فرنسوا يطلب أحيانا المساعدة من أبيه ، ولكن بعد أن يوضح له أنه يفعل ذلك مرغماً .

---

* نزل يتبع المدرسة يرسل إليه التلاميذ فى فترة الصيف عندما يكون الجو صحوا وكان عليهم الإضطلاع بمصاريفهم فيه . .

كانت المراسلات المتبادلة الغنية بالمعلومات بين چان – فرانسوا وچاك – چوزيف غزيرة جداً على الرغم من أن الأخ الكبير كان يزور أخاه الأصغر أو يستقبله مرة كل أسبوع فى المتوسط . غير أن الباحث يجد فيه نقطة ضعف وهى أن الأخ الصغير نادراً ماكان يؤرخ خطاباته . ويتسبب ذلك فى الصعوبة التى نجدها فى تحديد مسار حياة الشاب الصغير من نوفمبر ١٨٠٤ عنـدما قُبِل نهائيا فى الليسيه وأغسطس ١٨٠٧ عندما تركه .

إلا أن من اللافت للنظر أن هذه المراسـلات أصبحت شخصية بصورة مفاجأة خلال السنة الدراسية ١٨٠٦ – ١٨٠٧ ولانجد لهذه الظاهرة سوى شرح واحد : ففى ربيع ١٨٠٧ يبدو أن چاك – چوزيف تأثر من طلبات أخيه الملحة كما توقع أنه سينتقل إلى باريس بعد فترة قصير . فقام بإخراجه من نظام « الداخلية » المدرسى وجعله يقيم معه على الرغم من الصعوبات التى ستسببها له هذه الخطوة خاصة وأنه كان على وشك الإرتباط بزوجته .. ومع ذلك فإن مشكلة عدم تأريخ چان – فرانسوا لخطاباته تبقى دون تفسير .

إذا افترضنا عدم أهميـة الدراسـة المدرسيـة التى فرضت على هذا التلميـذ غيـر العـادى وقبلنـا فرضية أن المهم بالنسبة له كان يحدث خارج حصـص اللاتينية والحساب فيتحـتم علينـا أن نلقى الضـوء على بعض الأحـداث التى جـرت له فى هذه الفتـرة مع العلم بأنه من غير الممكن تأريخهـا جميعـا .. فهـذه الأحـداث وإن كانت بها جوانب رمزية وتعد خارج إطار محاولاته البحثية إلا أنها أثرت دون شك فى شخصيته وتبرز جوانبها الفريدة والخاصة جداً . ومن هذه الأحداث نذكر « الشوشرة الكبرى » التى حـدثت فى الغـالب خـلال صـيف ١٨٠٥ مما دفع مـراقب الليـسـيـه الإمبراطـورى إلى الاستعـانة بالعساكـر ، نذكـر أيضا « أكاديمية جنيات الفـن » التى أسسها چـان – فرنسوا فى الإطار المدرسى وهى مبادرة قام بها فى العام التالى والقطيعـة التى أجبر عليـها فيمـا يخص صداقة قـوية كانت تربطـه بزمـيل له ؛ وكذلك الخطبة العامة التى ألقاها أمام محافظ مقاطعة الإيزار فى نهاية العام الدراسى ١٨٠٥ – ١٨٠٦ على الأرجح .

لايشكل أى من هذه الأحداث أهمية مماثلة لمولد موهبته المصرية . والذى يمكن إرجاعه لعام ١٨٠٥ وهو فى السادسة عشرة من عمره والتى سنعود للحديث المطول عنها فيما بعد ، لكن هذا لايمنعنا من الأهتمام بتلك التجارب والمبادرات التى قد تبدو ثانوية ولكنها كانت علامات أثرت فى حياة شخص يبحث عن وجهته .

ماهى قصة « الشوشرة الكبرى » ؟ ننقل هنا النص الطريف جداً الذى سرد فيه چان - فرنسوا الأحداث لأخيه كما لو كانت تمرد مساجين :

« [...] بالأمس أفسد مفتش الليسيه كل شئ [...] راح يوزع لكماته وضربات عصاه فى جميع الاتجاهات .

فى المساء فى البيت الريفى أخذ كل فرد عصا صغيرة معه وأختبأ الجميع فى الظلام [...] فى طريق العودة إلى الليسيه توقفوا عند القلعة وملئت الجيوب بالحجارة . ثم ذهب الجميع للعشاء وحدثت ضوضاء رهيبة . وإذ خشى المفتش أن تقوم ثورة عليه طلب أن يذهب الجميع للصلاة فى قاعة الدراسة ثم التوجه إلى قاعات النوم . ولما بلغت الساعة التاسعة والنصف ألقيت الحجارة على زجاج قاعات النوم بعد أن أطفئت الأنوار . فتكسر كله . عندما حضر المفتش ألقى خطبة لم ينتج عنها سوى زيادة الإثارة . وبعد أن إنسحب عاد الجميع إلى تكسير الزجاج وأوانى الغرف التى ألقيت على أسوار النوافذ .

لم يعرف المفتش كيف يتصرف ؛ فذهب إلى المعسكر وأحضر العساكر وأدخلهم قاعة النوم وأوقفهم ببنادقهم والسنكى مرفوع مع الأمر « بخوزقة » أول من يتحرك . فثبت الكل ولكن استمر الصراخ بأعلى من ذى قبل . لم تطرف لنا عين طول الليل (8) .

لا أعرف إلى أى مدى ستصل الأمور : إلا أننى لم أشارك فيما حدث ... » « لم أشارك فيما حدث » أبعد شئ قابل للتصديق فى كل ماسبق هو هذه الجملة . إذ أن صيغة المبنى للمجهول المستخدمة لابد وأنها جمعته هو أيضا .. إن بقية حياة چان فرنسوا ستوضح أنه لم يكن يستثيغ موقف الحياد أو وقفة المشاهد . لم يكن من طبيعته أن يترك زملاءه يواجهون وحدهم السناكى والعساكر المتربصين بهم « لخوزقتهم » ... الذى حدث هو أن المفتش قرر أن يسدد التلاميذ ثمن الزجاج المكسور .. وقد تكسر منه الكثير كما رأينا ! الذين لن يسددوا لن يتمكنوا من

الخروج الخميس التالى أول أيام العطلة الصيفية من « معسكر الموت » كما أطلق عليه چان – فرنسوا . ويستطرد المراهق قائلا وهو يمزج حديث العالم بكلمات الخطابة المؤثرة :

« بدأ رجال الإدارة يتطبعون بطباع الشرقيين وهم يعاملون أولياء أمور التلاميذ معاملة البيت العالى لليهود جعلوهم يصلحون على نفقتهم الأماكن التى تضررت من السراى [...] الدفع ، الدفع : أعتقد أنه من الأفضل كتابة هذه الكلمة بحروف من ذهب فوق الباب الرئيسى ... »

وينتهى الخطاب بصرخة الختام : « هل تريد أن تتركنى راكدا فى هذا المقر الجهنمى ؟» ... الذى حدث هو أن چان – فرنسوا لم يطرد من الليسيه . ولعله كان يأمل فى ذلك – وأبقاه أخوه فى « مقره الجهنمى » . من المحتمل أن يؤرخ لبداية توتر العلاقات بين الشاب القادم من فيچاك وإدارة مدرسته الإمبراطورية بتلك الليالى العاصفة التى شاهدها صيف ١٨٠٥ وسيبلغ هذا التوتر ذروته بحادث الصداقة التى قُوِضَت .

كان مشاغباً أحيانا وغير منتظم فى مستوى تعليمه إلا أن چان – فرنسوا لم يكن أبداً « الأبن الضال » أو الشاب الهائج المنطلق داخل المدرسة . بل هو قادر أن يظهر حماساً منقطع النظير مادام المطلوب منه خارج البرنامج الدراسى المفروض عليه .. وفى هذا الصدد بادر بتأسيس « أكاديمية الفنون » فى إطار المدرسة يقول عنها لأخيه مايلى :

« ... إليك ما نود عمله : سيقوم كل فرد منا كلما أتيح له الوقت بكتابة نص يليق بنا سواء كان شعراً أو نثراً ، ستعقد جلساتنا كل خميس فى فترة الفسحة داخل أحد الفصول . وسوف نحصل على موافقة المفتش . سأعرض عليك الخطاب الذى سألقيه عند إفتتاح الأكاديمية . نود ألا نزيد عددنا عن ثمانية وسيصبح لنا أعضاء منتسبون كثيرون جميعهم متقدمون فى السن بل ربما أكبر منك سنا . أرجوك أن تكتب لنا وإن أمكنك هب لنا إحدى دراساتك [...] إحضر كل ذلك معك غداً عندما تأتى لزيارتنا وسأكون لك ممنوناً » .

وبناء على ذلك وصلت الدعوة التالية إلى حوالى عشرين شخصية من شخصيات مدينة جرونوبل وعليها أسم الليسيه :

« من أكاديمية آلهات الفنون إلى السيد ..

نسمح لأنفسنا اليوم بأن نخاطبكم راجين أن تساعدوا أكاديمية آلهات الفنون الوليدة لما عرف عنكم من قدرات ومواهب ولذلك نرجو أن نحظى بنصائحكم . إن جميع آمالنا معقودة عليكم لكى تنجح فى مشروعنا : إننا نعمل على أن نتعلم ونحن نلهو * miscuimus utile dulce ولما كنا مازلنا صغاراً فى السن لنتمكن من الحكم السليم على عملنا فإننا نلجأ إليكم لأن رؤاكم السديدة يمكنها أن تقودنا على طريق الفنون الجميلة المزدهرة . فلتكونوا أبوللو بالنسبة لنا ودلونا على الطريق الصحيح المؤدى للبارناس . إننا نتوجه لكم آملين أن تقبلوا أن تكونوا أحد أعضائنا المنتسبين .

وسندين لكم بكل العرفان

خدامكم المطيعون

الرئيس وأمين الصندوق

توقيع : شامبليون » (9)

أسلوب منمق لا بأس به ... يصعب جداً إيجاد تاريخ لهذه المبادرة الأكاديمية . وقد يكون من الممكن إرجاعها إلى السنة الأولى من قبول صديقنا الشاب فى المدرسة ١٨٠٤ – ١٨٠٥ لأنها السنة التى كانت فيها إنطلاقاته حرة غير مقهورة بالتوتر والقمع والغضب التالية ، لولا أن الثقة بالنفس التى ينم عنها الخطاب وكذلك العلاقات المقامة مع الشخصيات التى وجه إليها تجعلنا نرجح إعادتها إلى سن الخامسة عشرة من عمر « الرئيس – أمين الصندوق » ونعتبرها إحدى العلامات الدالة على النضج المبكر . غير أن الأخطاء الإملائية المؤسفة لشامبليون الصغير تعود بنا إلى نقطة الشك .

يبدو أن أحد الأعمال الذى تقدم بها چان فرنسوا وهو فى الرابعة عشرة إلى زملائه أعضاء « أكاديمية إلهات الفنون » هذه هى القصة القصيرة التى فضل أن يكتبها شعراً والتى تبدو وكما لو أنها سيرة ذاتية معكوسة .. إنها تحكى قصة شخص عجوز اسمه كوناكسا (وهو عنوان القطعة) وزع ثروته كلها على ابنيه وإذ به يجد

* نخلط المفيد بالطريف .

نفسه وحيداً بعد أن نبذه ولداه وأصبح معدمًا .. فينصحه أحد أصدقاءه باللجوء إلى الحيلة بأن يعلن أنه حصل على كنز كبير وأنه سيترك هذا الكنز لأكثرهما حنانًا له ... فأسرع الإثنان بالإلتفاف حوله – وعند وفاة الرجل العجوز فى نهاية الأمر لم يجد ولداه بجوار الجثة سوى :

.... هراوة

ومعها عبارة مكتوبة نصها كالآتى :

هذا السلاح لتأديب الآباء الحمقى

لعلاجهم من غبائهم

الذى يجعلهم يتنازلون عن ممتلكاتهم لأبنائهم .

أقل مايمكن أن يقال عن هذه النهاية أنها لاتعبر قط عن عن العلاقة التى كانت قائمة بين چاك شامبوليون ووالديه ألهم إلا إذا عكسنا الأمور . وهو ماسيتم إثباته بعد مرور عشر سنوات .

حياة چان – فرنسوا إهتزت بما هو أعنف من « شوشرة » وبمعاشرة آلهات الفنون ... وهو حادث سنطلق عليك من باب التبسيط « حادث فانچيهيز » والمتمثل فى قطع علاقة الصداقة المتقدة التى ربطته بأحد زملاءه نزولا على أوامر أساتذته على الرغم من كل الألم واليأس الذى تسبب فيه ذلك .

عندما قبل چان فرنسوا فى الليسيه كان فى الرابعة عشرة مراهقًا مرهف الحس محرومًا من الحنان العائلى أقل مايعانيه هو إبتعاده مؤخراً عن داره ... هذا المراهق ركز عاطفته كلها فى أخيه الأكبر الذى كان بمثابة أب حقيقى والمرشد الفكرى الوحيد . دخول المدرسة فى نوفمبر ١٨٠٤ لم يكن صعباً ... ثم أن قاعة النوم لم يكن قد انتهى تجهيزها بعد ولذلك فإن الإقامة بالمدرسة الداخلية تأخرت شهرين وهى المرحلة التى مرت بها فترات تمرد وأسى . كما أشرنا من قبل .

فى السنة الدراسية التالية كان قد بلغ الخامسة عشرة وهى السنة الخطرة ... هل تعرف على جوهانيس فانچيهيس منذ السنة الأولى ؟ يبدو أن الصداقة لم تأخذ طابع الاشتعال بين المراهقين سوى فى السنة الثانية من حياة الدراسة الداخلية لچان

فرنسوا ١٨٠٥ – ١٨٠٦ فى جميع الأحوال فهو لم يشرك فانچيهيس فى مبادرته الأولى وهى تأسيس « أكاديمية إلهات الفنون » .

وبناء على ذلك يمكن إعادة الأزمة إلى الفترة ما بين ربيع ١٨٠٥ وصيف ١٨٠٦ والتى تعكسها عدة رسائل لچان – فرنسوا والتى تتغير لهجتها ، فلم تعد تعبر عن غضب التلميذ البليد بل عن بكاء المراهق الرومانسى – دون أن يمنع ذلك الجدل والتعبير عن السخط . ومثال ذلك خطاب يمكن إرجاعه إلى أواخر عام ١٨٠٤ بعد عدة أسابيع من دخوله المدرسة جاء فيه :

« أما عن أخطائى فأعتقد أننى لم أخطئ عندما أقول الحقيقة ولي ...... عن ..... آخر » * .

ولكن بعد ذلك تحل الكآبة مكان الغضب :

« أعترف لك أننى فى غير حالتى الطبيعية منذ بعض الوقت . عاد الحزن يتملكنى . وباختصار فإنى لست على سجيتى . إنى أذبل وأشعر بذلك ... وأعتقد أنه إذا لم أجد هنا شخصًا يساعد على مرور الزمن ، صديقًا يرفه عنى ، فإنى لن أعيش طويلاً . أقبلك من كل قلبى . أخوك المطيع » .

هذا « الشخص الذى يساعد على مرور الزمن » – المذكور فى جملة قد لا تكشف عن شئ – هذا الشخص هو چوهانيس فانچيهيس . إننا لانعرف شيئا عنه تقريبا سوى أنه كان – كما كتب عنه چان – فرنسوا لأخيه – صاحب مزاج حزين وغير إجتماعى وهو ماكنت تلومنى أنا أيضا عليه » . وأنه كان مريضا فى السنة التالية خلال العام الدراسى فترك الليسيه لكى تتم معالجته مع عائلته . وقد عقب على ذلك « بايرون » المدرسة بقوله :

« ... هل يمكنك أن تخرجنى من المدرسة ؟ لقد ضغطت على نفسى إلى الآن حتى لا أضايقك إلا أن الأمر أصبح غير محتمل بالنسبة لى . إنى أشعر أننى لست مخلوقًا لأعيش فى زحام مثل الذى نحن به [...] ولعى الأول وهو اللغات الشرقية لا أعمل فيه سوى مرة واحدة كل يوم . إنى لا أطيق زملائى . غير واحد فقط

* ثلاث كلمات غير مقروءة .

عزيز عليّ لكنه مريض . ولايمكنني رؤيته . كنا نساعد بعضنا لكي نتحمل حياتنا البائسة هنا . أما أنا الحزين المنسي فلا أسعد برؤياك سوى مرة واحدة كل أسبوع * أشعر أني لست في صحة جيدة ولا أعرف ما الذي يطبق على وأعتقد أن به خراجًا [...] إذا بقيت هنا فترة طويلة أقسم لك أنني لن أعيش ... » ** .

هذا خطاب مثير من عدة وجوه ... إحدى المشاكل التي يثيرها بداية هو التاريخ وعلى الرغم من أنه ذكر فيه يومًا وشهرا : التاسع من يونيو إلا أننا لانعرف من أي عام . مسيو پيير ڤايان في كتابه الممتاز الذي جمع فيه مقطتفات من مراسلات چان - فرنسوا شامبوليون تحت عنوان « خطابات لأخيه ١٨٠٤ - ١٨١٨ » يحدد هذا العام بأنه ١٨٠٧ ... غير أنه من الأرجح أن يكون ذلك في ١٨٠٦ ؛ أولا لأن مرض ڤانچيهيس سبق بعدة أشهر إجباره على فض العلاقة وهو ماتسبب في الأزمة التي سنتعرض الحديث عنها فيما بعد وثانيا لأن إخراج چان - فرنسوا من الليسيه حدث في بداية ١٨٠٧ كما سنرى .

في جميع الأحوال فإن هذا الخطاب يدخل في إطار تصاعد درامي للأحداث توالت خلاله فترات الحزن الأليم مع التمرد الثائر :

«... إنهم يعذبونني *** منذ فترة طويلة ، إلا أنهم لن يصيبوني أبدًا بمثل ما أصابوني به هذه المرة . إذ لم تكفيهم كل الإهانات (التي تحملتها في صمت) كما لم تكفهم مطاردتهم الشرسة لي وتأويلهم على هواهم لأكثر أفعالي براءة .. فهم يريدون علاوة على كل ذلك أن ينزعوا مني مايواسيني .

كان لي صديق أحببته من كل قلبي وسأحبه إلى الأبد . وكان يبادلني الحب بنفس القدر وكان يعينني على تحمل الالام والقسوة التي كانت تمارس ضدي . كنا دائما معًا ولم يرنا أحد مفترقين وكان مصدر سروري كله وهو الذي كان يساندني حتى الآن ... هاهم ينقلوني من القسم ، عمدًا لكي يضايقوني ولقد نصحوه بالابتعاد عن

---

* الواقع هو أنه كان كثيرا ما يقابل أخاه مرتين في الأسبوع .

** بعد كلمة « أعيش » كتب « طويلا » ثم شطبها .

*** يقصد المدرسين .

مصاحبتى لأنى - حسبما قالوا - أفسده * كما لو أن فى أستطاعتهم أن يفسدوه هم ... فلم يأبه صديقى بنصائحهم ويظل عزائى الدائم ، فما كان من هؤلاء الوحوش بعد أن أثارهم إستمرارنا معًا إلا أن نقلوه من القسم الذى أنا فيه ولن أراه سوى عابرًا ! لقد فقدت عقلى ، إنى غاضب جداً . متى سينتهى عذابى !؟ مهما عملوا حتى لو أنهم قطعونا إربًا فإنهم لن يغيروا قلوبنا : لعل هذا الجانب من شخصيتهم يساعدك على معرفة شخصياتهم ! »

ثم راح چان - فرنسوا يوسع نطاق النقاش :

«... أحد مراقبى الدروس وهو متدين متطرف بكل مافى ذلك التعبير من قوة المعانى وعلاوة على ذلك منافق هو المحرك لهذه العملية . فهو لم يكتفى بأن يغتابنى بل تجرأ على الحديث عنك بأسلوب غير ملاءم (علمت ذلك من مصدر موثوق) . إنه لم يجرؤ على ذلك أمامى لأنى لن أتمكن من التحكم فى نفسى .. إنه يعرفنى جيداً .. » صعب جدًا أن تجابه مضطهديك وأن تبقى وسطهم . إذا كان هناك إنسان واحد غاضب وتعيس فى المدرسة فهو أنا .. إنهم سيفقدونى صوابى ... »

هانحن - كما يقال - أمام حالة رومانسية حادة علما بأنه يجب استخدام كلمة رومانسية بتحفظ عند الحديث عن چان - فرنسوا شامبوليون : لأنه لوكان رومانتيكى بحق لكان إستخدم كلمة « قلب » بدلاً من « صواب » . حتى قبل أن يعرف بايرون أو « رونيه » (لقد قرأ روسو) فها هو وحيد وترك وحيداً وقد تملكه الغضب من عالم يعاديه ويغار منه .

« إنهم لن يغيروا من قلوبنا » ... ماذا يعنى اتهام « الإفساد » الذى وجه لچان - فرنسوا ؟ معروف كم هو شائع هذا النوع من القصص فى المدارس كما أن الغيرة أو التزمت يمكنهما أن يفجرا الفضائح حول صداقة معلنة أكثر من غيرها . لاشئ يجعلنا نعتقد أن شيئا بين الشابين تعدى حدود التعاطف المتبادل الذى آثار بعض ذوى العقليات المريضة . وسيتعرف صاحبنا بعد ذلك بقليل على أصدقاء ستربطهم به صداقات قوية وخاصة أوجوستان تيڤنيه أحد أبناء أسرة من الأسر العريقة فى مدينة جرونوبل والذى سيبقى وفيا له إلى أن مات . لاشئ غير ذلك ولا أكثر من ذلك .

---

* وضع خط تحت الكلمة فى غضب .

سرعان ماسنراه أكثر هدوءاً ، قابلاً للندم - باحثا عن حل وعائد لدراساته العزيزة وستهبط حدة النبرات ويصبح الكلام أكثر وضوحاً :

«... أنا وحدى وسط كتبى باللغة العبرية وهذا لايغضبنى كثيرا . إلا أننى أشعر أن ذلك سيزيد من كرهى للآخرين . كما أن مزاجى الاجتماعى سيزداد قوة على قوة على الرغم من أنى أتصور ماقد يترتب على ذلك كما سبق ولفت نظرى إليه كثيراً . [...] سامحنى يا أخى العزيز إذا كنت تصرفت بطريقة هوجاء وبدون تفكير ، واقبل إعتذارى . لقد فكرت وأرجوك أن تحدد لى كيف أتصرف [...] وأقسم لك أننى لن أحيد عما سترسمه لى من مسار . سوف أهتم وبنشاط بدراسة العبرية واليونانية ... »

ومع ذلك فهو لاينسى المطالبة بالحرية التى كان أخوه يعمل لها من أجله وكان على علم بذلك :

« حاول أن تخرجنى من هنا ، أرجوك ... وإلا سأصبح أكثر الرجال بؤسًا . متأسف ! لا أريد أن أخفى عنك شيئا . لقد فتحت لك قلبى . وقرأت مافيه . إنك تعرف المرض الذى أعانيه - عالجه . وتأكد وإلى الأبد من حب وإمتنان أخيك المطيع والذى يكن لك كل الاحترام ...»

الامتنان ؟؟ كان الشاب يعرف أسباب هذا الامتنان الذى هو مدين له به . إلا أن خطاب جاك - چوزيف المؤرخ ٢٢ سبتمبر ١٨٠٦ أى بعد أكثر من ثلاثة شهور بقليل من صراخه طلبا للنجدة الذى أطلقه فى ٩ يونيو جعله يأمل أن الإجراءات التى يقوم بها أخوه الأكبر فى باريس لكى ينتقل إليها قد أوشكت على النجاح ، وسنعود إلى الحديث عن ذلك بعد أن نكون أعتبرنا فى ذلك نهاية موضوع « فانچيهيس » .

لم يكن چان - فرنسوا سعيدا فى الليسيه ولكنه كان يعمل . وكان أساتذته يقدرون مواهبه لدرجة أنهم أناطوا به مسئولية التعبير عن جودة التعليم الذى تقدمه المدرسة فى خطاب عام ألقاه بمناسبة زيارة قام بها المحافظ لهذه المؤسسة التعليمية فى أغسطس ١٨٠٦ (وذلك بناء على طلب چوزيف فورييه) . لقد رفض الشاب غير المحب للآخرين فى بادئ الأمر الحديث أمام الجمهور وخاصة أمام « فورييه » العظيم وكتب خطابا لأخيه جاء فيه :

« أنى بالفعل غاضب من الشرف الذى يريد السيد المحافظ تكريمه به ، فأنا أعتقد أنه من المستحيل على أن أتغلب على الخجل .. فإذا كنت فى الأصل أرتبك فى حضور أربعة أشخاص فما بالك بما سيحدث أمام ألف . أرجو أن تفعل كل شئ ممكن لكى لايحدث ذاك [...] كما أرجو أن تتأكد أن السبب وراء ذلك ليس عدم معرفتى إنك أدرى بالأمور » .

نعم ! ليس السبب عدم المعرفة .. ومن السهل علينا أن نتصور رد فعل الأخ الأكبر ، هذا الطموح العاقل الذى لن يسمح لمثل هذه الفرص أن تمر دون أن يلفت نظر هذه الشخصية الهامة والتى سيتوقف عليها وإلى حين مستقبلهما المشترك . وبالفعل إضطر چان - فرنسوا إلى الأنصياع لتعليمات أخيه .. حتى أن صحيفة « حوليات الإيزار » نشرت فى عدد ٣١ أغسطس ١٨٠٦ السطور الآتية :

« قام العديد من التلاميذ بدراسات ليست مقررة عليهم فى الليسيه فى أوقات فراغهم . وهكذا رأينا الشاب چان - فرنسوا شامبوليون وهو من التلاميذ الوطنيين يشرح خلال الامتحان العلنى . جزء من سفر التكوين وذلك من النص العبرى وذلك بعد أن أجاب على بعض الأسئلة التى طرحت عليه فى اللغات الشرقية عامة ... وقد عبر السيد المحافظ الذى وزع الشهادات على الناجحين عن رضاءه التام عن التنافس القائم بين هؤلاء الشبان المتحمسين ... » (10) .

التوراه والقرآن واللغة اليونانية والسريانية والأثيوبية والكالدية (أو الآرامية) ... إن مجموعته اللغوية تزداد ثراءاً بصورة ملفتة . ولكن ما الذى سيجعل من اللغة المقدسة المصرية المحور الذى ستدور حياته حوله وسيصنع منها نجمه الهادى ؟ ، من الذى سيزرع فيه هذا الهاتف المتسامى والمسيطر ؟ مازال چاك - چوزيف هو الدليل والمحفز والممول دون منازع . ولكن لعله كان يود أن يرى أخاه يتمسك بالتعددية التى تجعل منه « عالم الآثار القديمة » الأعظم ، رجل الشرق فى مجمله من الناحيتين الجمالية والروحية .

استمر دور الأخ الأكبر حاكما فى هذا المجال . ولكن يجب أن نبحث عن مشجعين آخرين دفعوا شامبوليون الصغير على طريق مغامرته العظمى . فى أول صفوف هؤلاء يقف چوزيف فورييه شامخًا فهو عالم الطبيعة العبقرى الذى جعل منه بونابارت الراعى الأول لعلم المصريات على نفس مستوى ڤيڤان دينون . ولذلك سنتوقف قليلاً أمام هذا الرجل العجيب الذى لولاه لما أصبح شامبوليون هو شامبوليون بل لعله ظل ببساطة عالم لغات مرموقًا أو مدرس تاريخ قديم .

ما هـو الطـريق الـذى سلكـه جـان – باتيست فـورييـة لكى يصـبح وهـو فى الرابعة والثلاثين محـافظـا لمقاطعة الإيزار فى أبريل ١٨٠٢ ؟ لقـد ولـد فى مدينة أوسـار عـام ١٧٦٨ لأب خيـاط . أصبح يتيمـًا عندمـا بلغ الثـامنة واحـتضنه الأباء البنيديكتيون الذين أعدوه فى البداية ليدخل السلك العسكرى ولكنهم بعد فترة أرادوا أن يدخلوه سلك الرهبنة . وبعد أن إرتـدى لباس طالب الرهبنة إندلعت الثورة .. فتخلى عن فـكرة التنسك فى دير « سـان – بنوا – سـور لوار » وكـرس وقـتـه لدراسـة الرياضيات والطبيعة مشتركا فى الوقت ذاته بصورة إيجابية فى الثورة . وقد أوشك على أن يمر برقبته تحت المقصلة عندما إتهم بأنه من المعتدلين وذلك فى عام ١٧٩٤ .. وكـان قـاب قـوسين مـن الخـروج فـى «التطـهـيـر ، بسـبب شـهـرته بأنه من اليعقوبيـن (جاكوبان) فى ١٧٩٥ ... » .

كان أستـاذ التحليل فى المدرسة الهندسية العليا (بوليتكنيك) وبهـذه الصفة إصطحبه بونابارت معه إلى مصر حيث أصبح من أقرب الناس إليه . والسكرتير العام لمعهد القاهرة « الأنستيتو » * ثم أصبح مؤسس مكتبة القاهرة وراعى البعثة العلمية لمصر العليا عام ١٧٩٩ ** ومندوب القائد العام فى « الديوان » العمـومى .. وقد أبلى فى كل ذلك بلاء حسنًا مما حدا بالقنصل الأول أن يعينه محافظا لمقاطعة الإيزير بعد عودته من مصر بوقت قصير . وقد منعه المنصب لفترة من الاستمرار فى أبحاثه العلمية عن انتشار الحرارة والتى كان إسمه قد اقترن بها قبل كل ذلك . وعلاوة على كل ماسبق لم يكتف الإمبراطور بأن حمله مسئولية إحدى أكثر المحافظات حساسية وأقلها سهولة فى المعاملة فى فرنسا كلها بل كلفه فوق كل ذلك بمهمة كتابة المقدمة التاريخية لكتاب « وصف مصر » العظيم . وقد قبل جوزيف فورييه التحدى المثلث الأضلاع ونجح فيه بعد سبع سنوات من وصوله إلى مقاطعة الإيزار وسلم الناشر نص المقدمة والتى ساعد فى تحريرها بجهد ضخم چاك – چوزيف شامبوليون بمعاونة أخيه الأصغر ... وهو ماسنعود للحديث عنه فيما بعد . بعد ذلك بسنتين أنهى كتابه العظيم عن « النظرية الرياضية للحرارة » وهو الذى فتح أمامه أبواب أكاديمية العلوم . بعد مائة وخمسة وستـين عامًا حيا كل من إليا بريجوچين وإيزاباك ساندارز فى كتابهما

* الآن المجمع العلمى المصرى .

** راجع التمهيد ص ٣٧ .

« الحلف الجديد » La Nouvelle Alliance . عمق وحداثة هذا المؤلف والذى يمكن مقارنته بأعمال نيوتن * .

فى بداية القرن التاسع عشر كان چوزيف فورييه يعتبر الوريث الأمثل لقرن التنوير . وكانت شهرته كعالم وكشخصية عامة واسعة جدا . كان أيضا إحدى الشخصيات المرموقة فى الحركة الماسونية وكانت شهرته تجوب أوروبا كلها وكان شديد الاهتمام بكل شئ وعالمًا فذا فى العديد منها . وارتبط بأمجاد بونابارت ولذلك فإن هذا « البورجينيونى » (من مقاطعة بورجونى) ذا الوجه السمح الواضح ، والملامح النبيلة والهيئة المتفتحة والقلب الطيب والمقبل على الحياة والمتحدث اللبق كان يعتبر « شخصية » بكل ماتعنيه هذه الكلمة من معان . كان رأى الأخوين شامبوليون فيه عال جداً ويبدو ذلك واضحًا فى مراسلاتهما التى كانت تمتلئ بالعديد من كلمات السخرية عن الكثير من معاصريهما ولكن فيما يتعلق بچوزيف فورييه فقد أطلقا عليه كناية جميلة هى « كرينزوستوم » .

لدى تكليف بونابارت سكرتير عام « معهد مصر » سابقًا بتحرير المقدمة التاريخية « لوصف مصر » أراد أن يجد له مساعداً فى استطاعته أن يجمع له مراجع لم تكن متوافرة فى جرونوبل وأن يساعده علاوة على ذلك فى كتابة المقدمة .. لم يكن ممكنا ألا يفكر فى ذلك الشاب المثقف النشط الخدوم العالم ببواطن الأمور وعلاوة على كل ذلك له شبكة علاقات جيدة .. وهكذا أصبح چاك - چوزيف شامبوليون فيچاك منذ عام ١٨٠٤ مشاركًا فى هذا المشروع الضخم . حيث لجأ إلى مقدرات أخيه الأصغر التخصصية الذى قدم له عونًا هائلاً متمثلا فى مذكرات شملت عددا من الموضوعات التاريخية والجمالية . ولكن ظل الأخ الأكبر وحده فى الصورة أمام المحافظ .

---

* عن « فورييه » وصلتنا من السيد / چورج شارپاك هذه المذكرة : « ما إصطلح على تسميته الآن « مجاميع فورييه وأصوله » أصبح لها أهمية وشمولية تتعدى بكثير هدفها الأصلى . يوجد العديد من المجالات الأخرى فى علم الطبيعة وفى الهندسة تستخدم بشكل روتينى الأساليب الذى طورها فورييه . إن جميع مسائل تحليل الصور تلجأ إليها مثل تلك التى تثار لدى إستخدام الكشف بأشعة إكس أو الكشف عن الأورام بالموجات فوق الصوتية .

« الأبحاث فى مجال هيكل الجزئيات الكبيرة بواسطة التقنيات البللورية التى هى الأساس فى دراسات بيولوچيا الجزئيات تلجأ بكثرة إلى « تحويلات فورييه » كما أن بعض التقدم الذى طرأ مؤخراً على هذا المجال يرجع إلى أن الحاسبات الإلكترونية أصبحت تقوم بحساب هذه التحويلات بسرعة أكبر بكثير من ذى قبل » .

نشط چاك – چوزيف لدرجة أن چوزيف فوربيه اعتبره من أصدقائه ، وقد ساعد على ذلك ماكان يحظى به شامبوليون الكبير من حسن الطوية ، عشر سنوات كانت تفصل الرجلين سنا والعديد من الاهتمامات كانت تجمعهما فكرا . وفى عام ١٨٠٥ وقعت فى أيدى چاك – چوزيف – بفضل صديقه جامع الكتب جاربيل – مراسلات عالم الرياضيات الألمانى العظيم ليونهارد أولار . فقدمها لفوربيه وقد أتاح له ذلك أن يحرر مداخلة قدمها لأكاديمية جرونوبل فحازت إعجابا كبيرا . أنها سمحت له بتوسيع أفاق أبحاثه ... ولم يكن عالم الطبيعة من الجاحدين !

هكذا تواترت دعوات المحافظ للتاجر عالم الآثار لحضور حفلات الاستقبال التى ينظمها ، والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل كان الأخ الأكبر يصطحب أخاه معه فى هذه الحفلات والإجابة كانت ستسمح بتحديد المهد الحقيقى الذى ولد فيه هاتف الدراسات المصرية القديمة فى قلب مكتشف أسرار الهيروغليفية أى قاعات إستقبال چوزيف فوربيه .

كل المؤشرات تؤيد فكرة اقتياد چاك – چوزيف لأخيه إلى متحف مدينة جرونوبل حيث عرض عليه وشرح له ماهية المومياء التى كانت من أهم التحف المعروضة وكأنه قد أهداها للمدينة القنصل الفرس حـ .. ب مور فهو من مقاطعة الدوفينيه أصلا ومثل فرنسا فى مصر لفترة فى عام ١٧٩٩ . ولكن التقليل من شأن كل ما ساعد على تعريفه بمصر بداية بكتاب ڤيڤان دونون لايمكن أن نحدد المكان الذى « تبلورت » فيه الاتجاهات المصرية لدى چان فرنسوا شامبوليون خارج مقر چوزيف فوربيه العظيم فهو شاهد لامثيل له وعالم أصيل .

إن الإغراء على اعتقاد ذلك جامح لدرجة أن هيرمبنى هارتلوبان قد وقعت فى براثنه : فراحت تصف بدقة مؤثرة حوارا بين المرشد الكبير والطفل النابغة تمامًا كما لو كان اللقاء بين أرسطو والأسكندر ... ولذا فإن الإغراء كان عظيما بأن تؤسس على هذه المحاورات انتقال شعلة المعرفة من الرجل الكبير إلى الشاب الصغير .

غير أن هناك شك أولى : إن مدام هارتلوبان تحدد موعد اللقاء الأول فى خريف ١٨٠٢ .(11) لكن هل يمكن أن نصدق أن هذه الشخصية الكبيرة التى لم يكن قد مضى على حضورها إلى جرونوبل سوى أقل من ستة أشهر وكانت المسئوليات الضخمة والمسئوليات ترهق كاهلها قد وجدت الوقت لاستقبال صبى عمره أحد عشر عامًا مهما كان هذا الولد موهوبا ؟ علاوة على أن أول دليل على تبادل كتابى شخصى

بين چـاك – چـوزيف والمحـافظ هو الخطاب المؤرخ أكـتـوبر ١٨٠٣ .. ولذا لايمكن تصديق أن شامبوليون فيچاك قد تمكن من محاصرة فـوريبه فى تلك الفترة لكى يقدم له أخاه .

كما يوجد مؤشر سلبى آخر وهو عدم وجود أى أثر لهذه اللحظة التاريخية فى مراسلات تلميذ الليسيه . هل يمكن أن نتصور ألا يشير الصبى إلى مقابلته لرجل الحملة المصرية المحاط بهالة من الأعمال الرائعة فى مراسلاته ؟ وهو الذى كان يسرد فيها كل شئ عن ذاته وأعلامه وطموحاته وولعه بالشرق ؟

الواقع هو أن الأمـور أبسط من ذلك وأقل إثارة وتشـويقًـا . فـإذا كـان چان – فرنسوا شامـبوليون قد حظى – بناء على تدخل من أخيه – بشـرف إثبات ذاته أمام «فورييه» خلال الزيارة التى قام بها الليسيه عام ١٨٠٦ وببعض الامتيازات مثل إعفائه من الخدمة العسكرية أو تسهيل عمله فى السلك الجامعى فإن أسطورة حواره المطول مع الأمين العام السابق « لمعهد مصر » تفشل فى إجتياز تجربة مراجعة مراسلات الشقيقين .

كمـا أن هنـاك شـاهـدا أخـر يتمثل فى خطاب أرسله فيـچاك إلى « صـغـير » مؤرخ فى ٤ يوليـو ١٨٠٩ – أى بعد سـبع سنوات من البداية المفترضة للعـلاقـات المتميزة بين عالم الطبيعة الكبير وتلميذ الليسيه الموهوب فى اللغات يحاول فيه الأخ الأكبر إقناع أخيه الموجود حينذاك فى باريس أن يذهب للقاء « فورييه » الذى كان يزورها لفترة :

«... يجب ألا تضايقك هذه الزيارة . إن السـيـد / فورييه رجل ممتاز فـهـو طيب وودود أيضا . وهو مصرى مثلك وهو يحبك لعلمه بميولك المعرفية وأعمالك وفيما بيننا فهو يقدرك أكثر من العديد من أعضـاء « اللجنة » * وإنى على يقين من أنك ستسعد بالتعرف عليه شخصياً ...» .

« التعرف عليه شخصياً » ... « .. هو مصرى مثلك .. » لايوجد حرف واحد فيما سبق لايشـترك فى تدمير الأسطورة . والواضح هو أن فـورييه كـان صـديق چاك – چوزيف صديقه هو وحده . وبما يكون الأخ الصغير قد رافق أخاه إلى مقر المحافظة لحضـور حفل أو للزيارة ولكن چاك – چوزيف رأى عدم تقديمه للرجل الكبير فى تلك الفترة المبكرة .

---

* لجنة مصر ، التى يرأسها چومار .

هيرمينى هارتلوبان عندما أسست مولد علم المصريات على مقابلة شخصية بين جان – فرنسوا شامبوليون وجوزيف فورييه إستجابت لإغراء ميل متأصل لديها – يتكرر كثيرا بوضوح وبطريقة مثيرة للعواطف – أن تظهر شامبوليون فى صورة الطفل المعجزة مثل يسوع وسط العلماء – فى حين أن عبقرية المكتشف قد تكونت على مراحل وبطريقة أكثر عقلانية بواسطة المقارنة والمنافسة مع قدر مماثل من الإلهام .

ومع ذلك يجب أن نقر أن نظرية الطفل العبقرى تؤيدها بعض الأسانيد . يذكر من – أو – كاربونال عدة خطابات وصلت چاك – چوزيف من أصدقاء له مثل مارتان وجاربيل يتحدثون فيه عن الصبى وهو فى الثالثة عشرة من عمره (١٨٠٤) على أنه «عالم آثار المستقبل الكبير » الذى سيحل محل « سكاليجية ... » * .

ألا تتم هذه المقابلة مع فورييه قبل عام ١٨٠٩ لايقلل من أهميتها التاريخية إلا أنها تبقى هامة للغاية بمقدار أهمية العوامل الأخرى المكونة « للإلهام » المصرى الذى هبط على مكتشف الغد وهى : غوصه فى دراسة اللغات الشرقية منذ مرحلة الدراسة لدى الأب دوسار وقراءة كتاب ڤيڤان دونان (الذى نشر عام ١٨٠٢) حيث وجد على وجه الخصوص البردية المشهورة . (لوحة رقم ١٣٨) والتى ستكون فيما بعد إحدى أدوات عمله .

إذا كانت الرعاية التى خص بها فورييه چان – فرنسوا شامبوليون أقل تأثير عليه فى اختيار طريق علم المصريات عن الاعتقاد السائد فإن ذلك لايمنع أن تأثيرها لايقدر بثمن . لقد كان محافظ الإيزار يجذب حوله جميع من كان يُعتد به فى مجال التعليم وفى مجال العلوم المتعلقة بمصر . وهو ما أتاح لچاك –چوزيف فرصة التعرف على شخصيات ذات تأثير على الجامعة مثل چان – باتيست بيو وهو عالم الرياضيات الذى تكاد تبلغ شهرته شهرة مونج وكذلك أنطوان فوركروا عالم الكيمياء مفتش عام التعليم الحكومى والذى سنراه يجدّ فى الدفاع عنهما فيما بعد .

غير أن أكثر الشخصيات تأثيرا ضمن هؤلاء الذين تعرفا عليهم بفضل چوزيف فورييه هو أحد قدماء الحملة على مصر « دوم رافائيل دى موناشيس ». كان هذا الراهب من أصل يونانى وقد عاش لفترة طويلة فى سوريا . ثم أصبح بعد ذلك – إلى جانب فانتور دى بارادى – أحد « المستشرقين الشرقيين » لبونابارت . وأعيد إلى

---

* چوليو سيزارى سكاليچية عالم لغات إيطالى من القرن السادس عشر والذى يعتبر كتابه « الشاعرية » المحاولة الأولى لعقلنة اللغويات .

فرنســا عام ١٨٠٢ بصفته هذه ليصبح أستاذ اللغة العربية فى المدرسة الخاصة للغات الشرقية . كان إلمامه باللغة القبطية كافيا لتوضيح أهميته القصوى لهؤلاء الذين كانوا يحاولون إلقاء الضوء على اللغة المقدسة للمصريين القدماء .

من المرجح أن يكون دوم رافائيل هو السبب وراء إدراك چان - فرانسوا أن اللغة القبطية هى الجسر الذى لاغنى عنه للوصول إلى تفسير الرموز الفرعونية والتى هى بدورها النسخة المتأثرة باللغة اليونانية التى تحدث بها وكتب بها قدماء المصريين . (ويجيئ دوم رافائيل فى هذا المجال بعد أثاناز كيرشار الذى تتلمذ بدوره على يد المثقف « بيرساك ») * . وعلى العموم فإن الشئ المؤكد هو أن الشراهة الاستشراقية لصديقنا الشاب قد إتسعت للغاية مارة بثلاث مراحل حول محور مصرى أولاً ثم قبطى وأخيرا هيروغليفى .

ومنذ ذلك الحين أضفى ميل چان - فرنسوا للهروب صبغة ملحة لدرجة مرضية . فلم يصبح الأمر فقط مسألة إشمئزاز من الليسيه بل أضيف إلى ذلك عطش حاد لاكتشاف هذا المجال الجديد وهو اللغة القبطية ولم تكن جرونوبل تتيح له أية إمكانية معرفتها ، وثائق ولا أشخاصاً يمكن مراجعتهم فيها فيما عدا دوم رافائيل الذى زارها مرتين ولفترات قصيرة جداً عامى ١٨٠٥ و ١٨٠٧ .. لم يبق أمام چان - فرنسوا سوى باريس كحقل معرفى ينهل منه .

كما هو الحال دائماً تقريبًا سنرجع إلى مراسلاته للبحث عن الإشارات التى توضح طريقة تطوره وكيفية إرتقاع حدة رغبته فى المعرفة . وسنجد فى هذه الرسائل إشارة ذكرها عام ١٨٠٥ إلى « قائمة بحكام مصر » ولعل أوضح تعبير عن توجهه المصرى يبدو جليًا فى خطاب موجه إلى أسرته - بيد چاك چوزيف : إذ كتب يقول : « أريد أن أقوم بدراسة متعمقة ومتواصلة عن هذه الأمة العريقة . إن الحماس الذى حركه فى نفسى وصف أثارهم العملاقة والإعجاب التى أثارته عظمتهم وعلومهم سينموان كلما زدت علمًا بها . أعترف وأقر لكم أنه لايوجد شعب من جميع الشعوب التى أفضلها يعادل فى قلبى حبى للمصريين !» .

هذا الخطاب الذى خطه غلام فى الخامسة عشرة يثير الفضول ؛ لأنه مذكور فى جميع كتب من أرخوا لچان - فرنسوا شامبوليون : إيمى شامبوليون - فيچاك

---

* راجع الفصل التاسع .

وهيرمنبى هارتلوبان وليون دولابربيار ومادلهين بوربوان . ولكنه غير مذكور فى أى من الأرشيفات . ومع ذلك فليس المقصود هنا هو التشكيك فى صحته . ولكن التساؤل هو حول الأسلوب الخطابى للرسالة ولعله يعود إلى إضافات من وضع أخيه الأكبر ؟ وربما يعود ذلك أيضا إلى شخصية من كان يخاطبهما أى والديه أو إلى مايتضمنه « تعهده » هذا من مهابة حتى أن المرء يخاله يعلن قبوله دخول الدير والرهبنة .

ولكن يوجد جانب من شخصيته يعبر عن تفرد أصغر الأخين شامبليون ، نجده فى الخطاب الذى بعث به لأخيه وأرفق به الخطاب المتضمن تعهده الذى قطعه على نفسه لوالديه . فقد أضاف ملحوظة فى نهاية خطاب أخيه نصها الآتى : « إذا دفعك فضولك إلى رؤية « الأزينيناد » فسأعطيها لك يوم الأحد .. إنها قصيدة بطولية مثل » الإلياذة والإنييد والهزيادة .. إلخ » .

تحول فى المواقف يثير الدهشة !! ففى اللحظة نفسها التى يقسم فيها علناً على تكريس حياته للعلم مثلما يفعل الآخرون لدى دخولهم سلك الرهبنة ، يعلن چان - فرنسوا لأخيه عن عمل كتبه على طريقة سكارون (كاتب ساخر فرنسى من القرن السابع عشر) وهو عمل ملحمى ابطاله من الحمير على مايبدو - وهو يعبر بشكل مثير للضحك عن معرفته بمصر حيث يؤدى هذا الحيوان منذ الأزل دورا أساسياً كما ذكر هيرودوت . وكذلك أعضاء الحملة الفرنسية على مصر فى ١٧٩٨ ولايوجد شخص أثنى على الحمير بأفضل مما قاله چان فرنسوا ذاته عندما زار مصر عام ١٨٢٨ .

وعلى الرغم من هذه الملحوظة الإضافية فإننا سنعتبر هذا « التعهد » أو المانيفستو العائلى نقطة تحول فى حياة كاشف أسرار الفراعنة ، حدثت بعد بضعة شهور من لقائه بنوم رافائيل .

وحدث بعد ذلك فى صيف ١٨٠٦ عندما سمع عمدة جرونوبل چان فرنسوا وهو يتناقش مع ابنه فى مسائل خاصة بالنباتات وسأله وهو مازال فى الخامسة عشرة من عمره إذا كان يود أن يتخصص فى العلوم الطبيعية ، رد عليه قائلا بجدية أدهشت العمدة : « كلا ياسيدى - أريد أن أنذر حياتى لدراسة مصر القديمة »(12) لم يكن قد تطرق بعد إلى الحديث عن الهيروغليفية .. ولكن يجب أن نلاحظ أن كل مايهمه يؤدى فى النهاية إليها : اللغات المقارنة والتاريخ والجغرافيا وعلى الخصوص دراسة هذين الكاتبين اليونانيين اللذين قاما بجهد كبير فى هذا الاتجاه وهما موراپوللون وكليمان السكندرى .

وفى جميع الأحوال فالشئ الواضح هو أن البحث العظيم الذى كان بصدده مكرسًا له حياته فى صيف ١٨٠٦ تقريباً لم يدفعه إليه انبهاره ببلد غريب ولم تحركه فيه رؤية الروائع التى كشفها چوزيف فورييه . فقد عمل منذ البداية على أن يقوم بحثه على أسلوب علمى . كل شئ أصبح مادة للتشبيه والمراجعة والمقارنة اللغوية .

« اطلعت فى كتاب « آلية اللغات » على المساجلة بين السيدين فالكونيه وفرينيه عن معنى كلمة « دونوم » : الأول يفضل إعطاء معنى مكان معروف وهو مايتوافق بطريقة لابأس بها مع كلمة أوكسيلودونيوم أو كابدناك * . فى حين يقول الآخر تعنى مكانا مأهولا . ولكى أتأكد بحثت فى الأصول العبرية فوجدت أن « دوم » تعنى « مدينة : مثل « المدينة » فى الجزيرة العربية كما أن « ديناس » تعنى مدينة بلغة مقاطعة بريطانى فى عهود الاضمحلال . أما فى اللغة اليونانية فقد وجدت « دينا » ومعناها «جُب» . كما أن فالكونيه يدعى أن « دونوم » تعنى جبل . فى المفاتيح الصينية وجدت «تشان – إى ، وتا – إى وجميعها لاتتفق مع « دونوم » التى تعنى جبل » .

وقد يقول البعض أن فى ذلك جهدا كبيرا ضائعا من أجل إكتشاف أن تركيبة الكلمات اللاتينية لاتقبل المقارنة مع الكلمات الصينية . لكن لاتوجد إكتشافات غير مجدية كما لاتوجد محاولات لاتؤتى بعض الثمار وحتى يدعم تمكنه من موضوعه ولكى يوسع مجال بحثه بدأ فى عام ١٨٠٧ مغامرة جسورة متمثلة فى عمل خريطة وكتابة « قاموس جغرافى للشرق » مع إعطاء إهتمام خاص لوادى النيل . لكن سيتضح أن كلمة « جغرافى » لم تكن سوى طريقة فى التعبير ؛ إذ سنراه يهتم أيضا بذكر الأسر الملكية والطوبوغرافيا وأصول الكلمات وأشكالها وأسماء المواقع الجغرافية وأصلها (onomastique & toponymie) .

كتب إلى أخيه الأكبر يقول :

« أوشكت على الانتهاء من قاموس . هل تكرمت على « بأن تسأل مسيو دى لاسالات ** أن يعطيك المجلد الأول من « المكتبة الشرقية » . أريد قراءة هذا الكتاب لأنه مرجع يجب العودة إليه باستمرار حتى يمكن السير بخطى ثابتة فى متاهة الأسرات الشرقية . وعلى العموم فإن التعود على معرفة الأسماء الشرقية يبدأ هنا فقط كما

---

* قرية صغيرة تقع بالقرب من فيچاك فوق مرتفع . فهل كانت نفس مدينة أوكسيللودونوم الذى قال قيصر أنه فتحها ؟ حاول الأخوان شامبليون الرد على هذا التساؤل عام ١٨١٧ . (راجع الفصل السابع) .

** جنرال متقاعد فى سلاح المدفعية أصبح من المثقفين وعالم فى الموسيقى .

نشحن ذاكرتنا بمعلومات غاية فى الضرورة لشخص كرس حياته للقيام بدراسة خاصة عن الشرقيين » .

إن الذى يثير شغفه العلمى فى هذا العمل هو إعادة إكتشاف الأصول القديمة للأسماء المعربة الآن فى مصر . فهو يتساءل إن هو رفع الحجاب الذى فرضه الفتح وأعاد الأسماء الأصلية إلى الحياة فهل سيجد الكلمات ذاتها التى كان يستخدمها أسياد وادى النيل ثم الأقباط من بعدهم لعلهم يكونون قد إحتفظوا بنفس المعطيات الصوتية دون الاحتفاظ بلغة كتابتها .

إننا نعرف جميع محاولات هذا المراهق صاحب الخمسة عشر عاما الذى كتب خلال أجازة صيف ١٨٠٦ وهو فى ضيافة أحد أولاد عمومته « بحثا مختصرا فى علم النمّيات (دراسة القطع النقدية والميداليات .. إلخ) العبرانية من عشرين صفحة تقريبا » وكذلك تعليقا على « سفر أشعياء » ويترجم سفر الخروج ويدرس الجغرافيين العرب إن الأوردى والبكوى ويلتهم الكتب والقواميس فى غرفته بليسيه جرونوبل .

لعلنا نسبق الأمور بتصور مايدور فى رأسه ... ولكن ماذا عن أخيه الأكبر الذى لم يخطئ فى تقدير هل سيجُب نشاط أخيه مجمل المجال الشرقى أم أنه سيركز مجهوده على مصر ؟ لقد أيقن أن هذا الأخ الذى تولى أمره قد بدأ بالفعل السير فى طريق سيقوده إلى أفاق بعيدة .

فى ١٨٠٦ كتب الأخ الأكبر إلى صديقه ورائده ميلان يسأله عن الطريق الذى يجب تمهيده أمام أخيه الصغير الذى لم تعد إمكانيات مدينة جرونوبل تدخر مايصلح له من غذاء علمى .. فرد عليه مدير « المخزن الإنسيكلوبيدى » أن أمامه إمكانيتين إما دخول الكولاج دوفرانس ليتتلمذ على سيلفاستر دوساسى أو جامعة جوتينجان .

سينتهز جاك – جوزيف أول فرصة لتمكين أخيه من الإقامة فى باريس . فالصداقة التى يكنها له فورييه وأصدقاؤه فى جرونوبل وتلك التى تربطه بميلان فى باريس وإنتخابه عضواً فى أكاديمية العلوم والفنون بجرونوبل ، كل ذلك أعطى ثقلاً لمحاولاته خاصة وأن چان فرنسوا دعى وهو مازال فى الخامسة عشر والنصف من العمر فى ٢٧ مايو ١٨٠٧ ليعرض أمام هذه المؤسسة ذات السمعة الرفيعة « ملاحظاته على قصص العمالقة طبقا لأصول الأسماء العبرية » .

سافر چاك - چوزيف شامبوليون فيچاك إلى باريس فى أغسطس وسيبقى بها حتى سبتمبر ١٨٠٦ ولم تزل تدور فى رأسه توسلات أخيه المكتوبة والتى كررها له شخصيا عند لقائهما عدة مرات بأن يخرجه من هذه « الإقامة الجهنمية » فى الليسيه الإمبراطورى .. وجاءت حادثة « فانچيهيس » لتحرك السلاح داخل الجرح فتعمقه . كان النجاح الذى أدركه فى شرحه للتوراه بالعبرية أمام المحافظ وأبرز المواهب التى تم إكتشافها لدى چان - فرنسوا .. حافز الأخ الكبير ليبدأ حملته .

راح مزوداً بخطاب توصية من چوزيف فورييه للقاء أنطوان فوركروا المدير العام التعليم العام فى شهر سبتمبر وطالبه بإدخال أخيه إحدى المؤسسات التعليمية العليا المتخصصة فى اللغات الشرقية وإن أمكن فى المكتبة الإمبراطورية .

لدينا عن نجاح هذه المهمة .. ولو جزئياً .. شهادتان الأولى من فوركروا إلى فورييه عبارة عن مذكرة مؤرخة ٣ أكتوبر ١٨٠٦ تعرب فيها الشخصية الهامة عن نيتها « إيجاد مكان لهذا الشاب المثير للانتباه يتناسب ومعلوماته » ... والأخرى خطاب من چاك - چوزيف لأخيه مؤرخ فى باريس ، ٢٢ سبتمبر ١٨٠٦ ، ويعد بمثابة وصف شيق للعلاقات التى تربط الشقيقين :

« ... يسعدنى أن أراك مستمرا فى ترجمة سفر « أشعياء » وكذلك « الخروج » ، إن أنت أتقنتهما فلابد وأن تكون مقبولة وستكون مثل هدية تعطيها لى .. إنى أرجو أن تسعدك هديتى التى أحضرها لك بنفس المقدار إلا أننى غير متأكد من أنك قد تجد أحد الجوانب السيئة [...] ولعل أول هذه الجوانب سيكون مؤلمًا لك لوكنت أقل تعقلاً ولو أنك لم تعرف كيف تتحمل المضايقة لفترة أمام موضوع بهذه الأهمية لمستقبلك كله ، ثم تتمتع بعد ذلك بسعادة ممتدة .. وذلك بأن تطيع بل بأن تستمع لنصائح موظف كبير سيفعل الكثير من أجلك : هذه الشخصية الكبيرة هو مسيو فوركروا . أما المضايقة فهى فترة قصيرة من البقاء فى مدرستك أما السعادة فستعطيها لك المكتبة الإمبراطورية . سأقص لك بالتفصيل مايتعلق بك لكن يجب أن تشعر بلزوم أن تعرف كيف تكتب وكيف تتحدث قبل أن تنتهى من تعليمك - كما يتحتم أيضا الإلمام ببعض الرياضيات . لماذا تعرض نفسك للخطر بأن تذهب فى طريقك دون زاد ؟! كن مطمئنا فأنا أقف فى الخطوط الأولى من أجلك وأرجو أن أثبت لك مقدار إهتمامى بك . أملى أن تستجيب لذلك : فهذا هو الطريق الأسلم لاستحقاق كل الحب الذى أكنه لك . » (13).

منذ ذاك الحين لم يعد ممكنا لچان – فرنسوا أن يكتم سعادته . لم ينجح فى أن يتــرك الليسيه إبتداء من ذلك الصيف .. « الجانب السيئ لهديه » چـاك – چــوزيف أو « هــذه المضايقــة » هى وجوب أن يستمــر فى الـدراسة لعــام ثالث تحــت السلطة « السمـحة » للأب جاتال و (القاسية) للسيـد فاجيه . ولكنـه سيجـد هــذه السنة الدراسية منـذ الآن « أقصر » طولا .

منذ ذلك الحين كان قد تحرر من الإقامة الداخلية فى المدرسة . وهذا يفسر عدم وجود خطابات يتحدث فيـها عن اللغة القبطية التى عرفه بها دوم رافائيل – أصبح يعيش فى مجال مختلف : قد تلحظ هنا وهنـاك شيئا من نفاذ الصبر فى خطاباته ولكن الاتجاه السائد هو الأمل :

« ... جعلتنى ألمح إمكانية إخراجى من الليسيه ... وجعلتنى أعتقد أنك تسعى لإدخالى كلية تدرس فيها اليونانية والعبرية والعربية والكالديه والسيريانية [...] إن إنخراطى فى المدرسة الخاصة باللغات الشرقية سيتيح لى أن أقبل فى المكتبة الإمبراطورية * . لن تكون تلك هى أقل ميزة لمكانى هذا . إذ سأتمكن من التفرغ التام لدراسة العربية والسيريانية والعبرية والكالديه والفارسية » .

هل ستتكرر قصة پيريت وجرة اللبن ؟ لم تكن المشاكل كلها قد حلت بعد ولن يحل شيـئا بالكامل أبداً . ولذلك واصل چاك – چوزيف جـهوده .. فـفى مـايو ١٨٠٧ كتب لفوركروا خطاباً يذكره فيه بلقاءهمـا فى سبتمبر ١٨٠٦ وبالمذكرة التى أرسلها مدير التعليم العـام إلى مـحافظ الإيراز مؤكداً فيـها على التـقدم الذى أحـرزه أخـوه فى دراساته ومشيرا إلى التقارير التى قدمها عن أعماله لأساتذته مثل دوساس ولانجلاس – ثم طالب له « بعمل مـا فى المكتبـة الإمـبـراطورية سـواء فى قسم المخطوطات أو فى مكـتب الانتيكات ** حتى يتــاح للشاب فرصة حضـور محـاضــرات المدرسة الخاصة (باللغـات الشـرقية) وللحكومة أن « تشكل مـواطنا نافعـا » . نافعـاً ؟!! بكل تـأكيد . والأكثر من ذلك والأهم أنه مبكر النضج . فى الأول من سبتمبر ١٨٠٧ وهو لم يزل فى

---

* الواقع هو أن العكس هو الصحيح لأن مدرسة اللغات الشرقية تتبع المكتبة وسنرى فيما بعد أنه لايوجد علاقة تلقائية بينهما .

** الذى يرأسه ميلان .

السادسة عشرة وتسعة شهور من العمر سيقدم چان - فرنسوا شامبوليون « بحثه الوصف الجغرافى لمصر قبل غزو قمبيز لها » إلى أكاديمية الفنون والآداب لمدينة جرنوبول .. وقرأ هذا المراهق الصغير أمام هذا الحشد من كل علماء جرونوبل ومقاطعة الدوفينيه وشعرائهما مقدمة بحثه وتعليقه على خريطة لوادى النيل مبين عليها الأسماء التقريبية للنومات (المحافظات) التى رسمها كتبة فرعون .

قد تكون الفرصة التى أتيحت للشاب مدينة بالكثير لحماية فورييه له ولتحركات شامبوليون - فيچاك . إلا أن العرض لاقى نجاحا مدهشاً حتى أن الطبيب هنرى جانيون جد ستاندال المحبوب بادر إزاء هذا النجاح بأن عرض على زملائه قبول تلميذ الليسيه - عضواً منتسباً للأكاديمية .

بعد ستة شهور على أثر التصويت الذى جرى على هذا الاقتراع كتب شارل رينولدون عمدة جرونوبل يعلن للفائز قبوله فى الأكاديمية ومعلقا على ذلك بقوله «بقبولكم عضوا على الرغم من حداثة سنكم اعتمدت الأكاديمية على : ماقمتم به وتعتمد أكثر على ما يمكن أن تؤدونه . وهى تود أن تعتقد أنكم ستثبتون صحة الآمال التى عقدتها عليكم وإذا جاء يوم تكون أعمالكم قد صنعت لكم فيه أسماً ستتذكرون عندئذ أنكم حصلتم منها على أول تشجيع » .

كان رد فعل چان فرنسوا - وكان قد هجر مقاطعة الدوفينيه غاية من الرقة : إذ كتب چاك چوزيف يقول « إن قبولى فى أكاديمية جرونوبل أسعدنى كثيراً .. إن أكثر ما يثير زهوى فى ذلك هو أنى أصبحت أكثر من ذى قبل شقيقك . »

عضو أكاديمية أم تلميذ ؟ اعتباراً من ٣١ أغسطس ١٨٠٧ لم يعد الأخ الأصغر تابعاً للنظام الذى جعله ينفر من المدرسة الكائنة بشارع نوف . ومع ذلك فإن الليسيه المكروه والذى عاش فيه بائسا لم يدعه دون أن يمنحه « شهادة دراسة وحسن سير وسلوك » مثيرة لغيرة أقرانه على الرغم من عدم حصوله على أى جائزة :

« نحن أستاذ الدراسة فى ليسيه جرونوبل ومفتشه

نشهد بأن الشاب چان - فرنسوا شامبوليون - البالغ من العمر ١٦ عاماً المولود فى فيچاك - اللوت - درس فى الليسيه لمدة ثلاث سنوات : السنة الرابعة والثالثة

والثانية فى صف : اللغة اللاتينية والسنة السادسة والخامسة والرابعة فى صف الرياضيات إن اجتهاده فى العمل وطاعته للأوامر* والتقدم الذى أحرزه استحقت المديح .

« حررت فى جرونوبل فى ٥ سبتمبر ١٨٠٧

« المدير : چاثال

« مفتش الدراسة : فاجيه »

قبل أن يسافر لباريس لا لاقتحامها بل من أجل الرموز التى تستحوذ على مفاتيحها سيجد من ينبهه إلى أن الحياة تجرى أيضا خارج الكتب وأن التجارب تحدث على هامش النصوص والسعادة تجئ فيما هو وراء الاكتشافات الفكرية . فى أول أيام عام ١٨٠٧ وهى السنة التى عرفت فيها الإمبراطورية النابوليونية قمة مجدها (وهى الإمبراطورية التى كان ينظر إليها نظرة غير متحمسة بل بشئ من السخرية) لم ينظر إلى عاصمتها من تلك الزاوية وإنما أعتبر باريس جنة الحياة الفكرية التى كانت فى ذلك الوقت . وقد كتب لأخيه عن ذلك رسالة تستدعى نقلها . فهى فى مبالغاتها المراهقة تكشف بعض ملامح شخصيته وهى فى مرحلة فرض ذاتها توضح ليس فقط إمتلاك مصر الكامل لكيانه كله ولكن تبرز أيضا بداية حرية التعبير عن رأيه بالنسبة لأخيه الذى تحكم فى حياته حتى ذلك الوقت والذى سيرى أخاه – وقد تخلص من لفافاته الطفولية – يوجه له بعض التنبيهات .

النص هو عبارة عن قصيدة طويلة من عدة صفحات تصف رؤيا چان – فرنسوا . لأحد الملائكة يقوده بين حضارات الماضى وفيها تحية كلها ولع موجهة لمن يحب :

« شاهدت مصر القديمة ومعابدها المهجورة هى كالمصاغ يزيّن سهولها المحرقة ...

هنا تتحول القصيدة إلى ابتهال :

« ياسيد الكون ، أنت يا إلهى ، أنت يا أبى [...]

إصغ إلىّ واسمع صوتى ! واستجب لى

نال أخى – وأنت العارف – منذ نعومة أظافرى

علىّ حقوق مقدسة تستوجب عرفانى بجميله ،

علمنى أن أسير فى طريق الفضيلة

---

* مبالغة اللغة الرسمية هنا تتخطى كل الحدود المعقولة .

أن أنزع من قلبى خمائر الشر .
البريق الزائف للذهب والثراء الكاذب
لايستطيعان بث السعادة فى مستقبله ،
هى ثروات مسمـومة تجلب إليه التعاسة
وبدلا من جلبها السعادة لقلبه ستدمرها فيه [...]
اجعـل فى قلـبه حباً يسعـده يضفى عليه محاسنه [...]
أوه ! اجعـل من نجاحاتى تحقيقات لآماله
وأن أكـون صالحـاً وأن يلحـظ ذلك !
اجعل منى قادراً أن أثبت له حبى
بأن أتمكن فى النهاية من تخفيف عبء شيخوخته » .

يبدو أن هـذا الدعاء كان يشير إلى مـشروع « زواج ثرى » كان چاك – چوزيف ينوى عقده (« بريق الذهب الزائف ») الأخ الأكبر الـذى تـزوج بعد ذلـك بقليل مـن « زويه بريا » هل كـان ينوى قبلها أن يعقد على أخرى أكثر ثراء ؟ تنبيه الصغير له اللافت للنظر لا من حـيث الأسلوب ولكن من حـيث الجسـارة التى يكشف عنها تجاه أخيه صاحب القدرة الكاملة عليه .

هل كـانت هذه هى طريقتـه فى « قـتل الأب ؟» إن التـرتيل باسم مـصـر وتحـرر الشخصية يتزامنان أو يتقـابلان فى جميع الأحوال فى هذا النص السـاذج والبليغ فى الوقت نفسه .

بعد ستة شـهور امتنع چان – فرنسوا شامبليون من توجيه أى نقد لأخيه : لأن زواج چاك – چوزيف من زويه بيـريا فى الأول من يوليـو ١٨٠٧ قـد سـره للغـاية على مايبـدو . تدل على ذلك قـصيدة كـتبـهـا فى الأول من يناير من السنة التـالية فى هيئة قصيدة مدح عربية فارسية تعتبر فى الواقع أغنية زفاف . والحقيقة يجب أن تقال إن صاحبنا كانت له هذه المرة أسبـاب شخصية تجـعله لايعترض على مشروع چاك – چوزيف : لقد وقع فى حب أخت زويه بيريا .

كانت پولين تكبره بست سنوات ؟ لكن هل يمكن أن تحسب الأمور على هذا النحو فى سن السـادسة عشر ؟ إحتفظ بسره لأشـهر طويلة سـواء بالنسبة لأخيه أو لزوجة أخيه . لم يجرؤ على كشف مكنون قلبه سوى بعد أسـابيع عديدة من سفره إلى باريس دون أن نعرف إن كـان قد تكلم بصـراحة فى ذلك مع پولين وهل نتج عن هذه المشـاعر شئ آخر غير حلم أفلاطونى : كتب لأخيه يقول :

«... قررت أخيرا أن أفتح لك ولزوجك قلبى . سامحنى إن كنت أخفيت عنك ولهذه الفترة الطويلة شيئا هاماً كهذا بالنسبة لسعادتى وهو أحد أسباب التعاسة التى رأيتنى عليها والتى ألمتك . ولم يكن وراء تأخرى فى الإفصاح عن ذلك عدم الثقة – فأنا أعرف أنى سأجد فيك دائما أخاً متفهماً ومشاركاً لمشاعرى ومهتما بسعادتى ... »

تناول چاك جوزيف الأمر كرجل خابر الحياة دون أن يؤدى دور الأخ العنيف . ولم يأخذ على أخيه سوى أنه باح بسره لقريبته سيزارين شابار . إذ أن حبيبها أدعى أنه أراد أن يتوسط له لدى پولين :

« لو أنك تفضلت بالحديث معى قبل ذلك عن هذا السر لكنت تخلصت مبكراً من عبئ ثقيل . ولكنى أشعر أن مثل هذه الاعترافات يمكن أن تحذر أكثر من أن تفسر . إن مشاعرك نحو بولين هى مشاعر طبيعية للغاية . إلا أنه يتعين علىّ أن أقول لك إنك أخطأت عندما راسلت سيزارين فى هذا الشأن ، لمثل هذه المواضيع على الدوام جانب سئ فى نظر غير المشاركين فيها بشكل مباشر [...] لقد غضبت بولين جدا وبالتالى شاركت سيزارين فى السخرية من خطابك ومن مشاعرك [...] يستوجب الأمر بعض الحرص إلى أن نتخلص منها دون ضجة . ستحصل على نصائحى إن أنت طلبتها ولايسعنى إلا أن أكرر نصيحتى لك بأن تكون حريصاً » .

فى المجموع ، يبدو أن الموضوع أخذ بحرص أكثر من أن يكون تسبب فى غضب أحد وأن الأخ وزوجته نظراً إلى حبه هذا نظرة لاتخلو من القبول . أما فيما يتعلق ببولين فلايعرف أحد الآن ماذا كانت مشاعرها على وجه اليقين . هل إستمرت فى «ضحكها» على الخطاب الذى وُجه لسيزارين أم على مشاعر المراهق ؟ لايوجد مستند واحد يعطى ردا صريحا على هذا التساؤل . إلا أننا سنجد فى مراسلات چان – فرنسوا المثالية عدداً من الإشارات الطيبة نحو بولين حتى شهر نوفمبر ١٨٠٨ كما سنرى أن باريس أتاحت لصديقنا الشاب فرصة واحدة على الأقل لكى ينسى ضحكة أول إمرأة أحبها .

فى غضون ذلك وقع فى حياة الشقيقين شامبوليون فى يونيو ١٨٠٧ الحدث الذى يعكر صفو حياة الرجال جميعًا على وجه تقريب : ألا وهو وفاة الأم . أرشيف مدينة فيچاك مازال يحتفظ بشهادة وفاة : « السيدة فرنسوا جاليو ،

زوجة السيد / چاك شامبوليون تاجر كتب عمرها ثلاثة وستون عامًا توفيت فى ١٩ يونيو ١٨٠٧ فى الساعة السادسة مساء تقريبا فى دارها الكائن بجوار الميدان العالى ...* » .

لايوجد مستند واحد آخر – خطابًا كان أو تعليقًا – ليحدثنا عن هذه الوفاة – فيما عدا المواجهات التى دارت فيما بعد بين چاك صاحب المكتبة وأبنائه . ولا كلمة واحدة فيما نعرفه من المراسلات الحية والثرية المتبادلة بين الشقيقين . يُوجد دون أى شك سر للأم فيما يخص چان – فرنسوا على الأقل . كل شئ حول هذا الموضوع ينم عن الفراغ . كان لابد لغياب كهذا أن يكون له تأثير على ولد حساس ومندفع ويصعب إرضاءه مثله . أن يكون چاك – چوزيف قد حل تماماً مكان الأب المهمل أو الهوائى فذلك شئ مؤكد . ولكن من هى السيدة التى حلت مكان الأم غير الحاضرة أصلا والتى لم يترك موتها سوى آثار قليلة للغاية ؟

يوجد درب أمام الباحث ما أن يسلكه ألا ويجده حارة مسدودة . فى ٣١ ديسمبر ١٨١٦ إضطر الأخ الأصغر أن يقيم فى فيچاك فكتب إلى صديقه فى جرونوبل أوجوستان تافنيه يلومه على صمته :

> « لايوجد دعاء لم أرفعه ضدك ولولا أمى الحبيبة والحنونة فى فيچاك ... لما عرفت إلى أى مدى كنت سأدفع غضبى منك . إلا أنها دافعت عنك فاضطررت مثل أى إبن مطيع يحترم أهله أن أضع حدا لمشاريع الانتقام منك تعبيرا عن تقديرى للحماسة التى دافعت بها عنك ... » (14) .

« أمى الحنونة » و« الابن المطيع والمحب » ... تسع سنوات بعد وفاة فرنسواز چاليو ؟ ... وبعد ذلك بعدة سنوات قبيل وفاته مرّ على فيچاك فى محاولة لاستعادة صحته التى تأثرت كثيرا بالسفرإلى مصر تحدث عالمنا المكتشف عن شخص عزيز عليه ينتظره فى مقاطعة كارسى . من كانت هذه الشخصية ؟ سيكون هذه المرة أكثر تحديداً فهو يتحدث عن « مدام أديل » . هل كانت موضوع حب قديم أم هى « الأم الحنون » ؟ يتعثر البحث عن هذه النقطة التى سنعود إليها فيما بعد .

---

* تزوج چاك چوزيف من زويه بيريا بعد ثلاثة عشر يوما : ورؤى عدم تأجيل الزواج .

قبل أن يبتعدا عن بعضهما يصطحبه چاك – چوزيف إلى سوق الكتاب فى بوكار التى تلعب كما رأينا دورا هاما فى تاريخ هذه العائلة . فهل كان السبب فى ذلك أن يقابل چاك شامبوليون بعد موت زوجته (وهو لم يترك فرصة تمر دون أن يذهب إلى هذه السوق) ؟ أم كان ذلك من أجل الانتهاء من موضوع الميراث قبل زواج چاك – چوزيف من زوبيه ؟ كل ذاك جائز والشئ المؤكد هو أن الأخوين قد أمضيا بعض الوقت فى مقاطعة بروڤانس فى نهاية شهر يوليو ١٨٠٧ .

رحلة أخرى قبل الصعود إلى باريس : نظمها چاك – چوزيف لأخيه فى شهر أغسطس فى ڤاليونيه موطن العائلة الأصلى . هذه المرحلة فى مقاطعة وازان التى لم يكن چان – فرنسوا قد زارها أبدًا ، أعجبته وإن كانت مصادر السعادة التى وجدها فيها لم تترك كلها عنده ذكرى طيبة ... فقد كتب بعد ذلك بخمس شهور لأخيه : « أشعر بالألم يزداد علىّ فى الجانب الذى ألمنى فى ڤاليونيه بعد أن شربت من ماء الشلال أو لأنى تجولت كثيرا ذلك الصباح بصحبة مدموازيل أولامب فاڤييه . أبلغها تحياتى وأشياء كثيرة أخرى لها وشقيقها ... » .

حان وقت « الصعود » إلى باريس حيث سيصطحبه چاك – چوزيف ويؤمن له مسكن . ركب الشقيقان العربة العمومية المتجهة لليون ثم تلك المسماة « عربة البوربونيه » الموصلة لباريس بعد أقل من خمسين ساعة .

كان چان فرنسوا مايزال شابا مراهقا عمره ستة عشر عاما وتسعة شهور . قوى البنيان سريع الحركة تعوزه بعض الرشاقة إلا أن مصاحبة الشخصيات القريبة من چاك – چوزيف ثم أفراد عائلة بيريا كانت قد بدأت تهذب هيبته وتحركاته . إلا أن ما لفت نظر جميع من قابلوه حينذاك هو لون بشرته السمراء لدرجة أن يوم زواج أخيه قالت له العروس التى كانت تحبه كثيراً وهى تضحك : أنه كان من الواجب عليه بهذه المناسبة أن يبيض بشرته قبل بدء الاحتفال . (15)

كان الجميع ينادونه حينذاك بـ « صغير » Séghir . ليؤكدوا على صغر سنه من ناحية وعلى ولعه بالشرق من ناحية أخرى . وهو إن كان قد أكد شخصيته بالنسبة لچاك – چوزيف فإن خطاباته استمرت مطبوعة بالحب والامتنان الشديدين حتى وهى تحمل أحيانا آثار خلافات حتمية .

كان الذى يصدم الآخرين أكثر من هيئته الشرقية مزاجه المتأجج الذى زاد حدة مع السن . الطفل المشاغب فى العاشرة أصبح فى السادسة عشر مراهقا تتسبب نداءات قلبه فى إثارة الفضائح ويتسامح أساتذته إزاء تصرفاته الطائشة ويبدو أن زملاءه كانوا يخشونه فيما عدا فانچيهيس وتيفنيه . ولكنه هو نفسه الذى طلب منه تشريف مدرسته عن طريق فصاحته وعلمه عندما زارها المحافظ .

لقد رأيناه يميل للشعر دون أن تكون لعبقريته تأثير فى هذا المجال – سيستمر فى قرض الشعر معترفا بأنه أكثر موهبة فى التقليد عن الشعر الغنائى ... أما أحاسيسه الجياشة فتؤكدها طلاقته فى الحديث (« وهى كسمة من سمات أهل الجنوب ») ستحمله إلى الجدل والهجاء ... وسيصبح خطيباً صعب المراس .

فى السن الذى بلغه هنرى بال (ستاندال) قبله بثمان سنوات وكان يقفز فيه نحو باريس كان هو لايزال الصغير المتهيج الذى يهرب من محبسه فى الدوفينيه ليقتحم أبواب العاصمة .



٤ - بابل أو متاعب باريس

« عاصمة فرنسا القذرة » – مرض حب مصر ... – بولين ... مدام ميكران صاحبة المسكن – إفلاس مزمن – لوكولاچ فدو فرانس ومدرسة اللغات الشرقية – سيلڤاستر دوساسى ، الأستاذ والتلاميذ – چوسار داخدو لجنته – دوم رافائيل والقسيس – الأدباء مصاصو الدمـــاء » – هل يجند فى الجيــش ؟ « كشــفت مـعنى بداية البـردية ... » – إطــلاق النار على علماء الآثار – « لا أحلـم إلا باللغـة القبطية » – باحث « سيكلوتيمى » – لويز أو الوضـع .

« مشارف باريس بدت لى قبيحة لدرجة روعتنى لاتوجد بها جبال ... أشمئزازى منها يزيد مع توالى الأيام [...] خيبـة أملى فى باريس زادت بعد أن إكتشـفت عدم جمالها ... وحل باريس وإنعدام الجبال وكذلك رؤيتى هذا الكم من الناس المشغولين يمرون بسرعة داخل عرباتهم بجانبى : أنا الذى لايعرفه أحد والذى ليس لديه شئ يفعله تسبب لى كل ذلك فى حزن عميق ... » (1) .

مرة أخرى نلجأ إلى ستاندال فهو أفضل مرشد يتيح لنا سبر أغوار شامبوليون ، فقد سبقه على الدرب ذاته قبل سبعة أعوام وهو ابن الدوفينيه بالمولد وسبق إبنها بالتبنى فى الاشمئزاز من « عاصمة فرنسا القذرة » بالقدر نفسه تقريبا .

لن يتمكن صاحبانا القادمان من مناطق جبلية من التأقلم قط مع المستنقع الباريسى وكلمة مستنقع هنا تؤخذ بمعنييها المباشر وغير المباشر ، كانت شخصية كل منهما حادة ومتمردة على تكامل وخبث أهالى مناطق الأراضى المنبسطة باستثناء أهل لومبارديا بالنسبة للأول وأهل وادى النيل للآخر .

وطأت أقدام « صغير » أرض باريس فى ١٣ سبتمبر ١٨٠٧ يقوده فى دهاليزها چاك – چوزيف ... فى عشية ذلك اليوم كان محمد على باشا الكبير قد نجح فى دحر الجيش الإنجليزى بقيادة الأدميرال فريزر فى الأسكندرية وأرغمه على الانسحاب مؤكداً بذلك بعث مصر السياسى الحديث ... ومحمد على سيؤدى دوراً أساسيا فى إكتشافات چان – فرنسوا شامبوليون لأرض الفراعنة .

قبل ذلك بعدة أسابيع كان فرنسوا - رونيه دو شاتوبريان قد عاد لتوه من رحلة إلى الشرق وتحدى نابوليون تحديا لم يسبق له مثيل وذلك فى مقال شهير نشرته صحيفة « المركور دو فرانسى » Mercure de France يستذكر فيه « صمت المذلة » . رحلة شاتوبريان إلى الشرق كانت قد أتاحت له فرص قياس عبقريته الشخصية بمقاييس عبقرية الفراعنة المشيدين للأعمال العظيمة . كان الفيكونت دو شاتوبريان شجاعًا ، ولكنه لم يكن من المتهورين : ولذلك فإن تعبيره الشجاع هذا كان بمثابة مؤشر رائد على بداية إنهيار نظام كان قد بلغ ذروة مجده ... وبذلك فإن شامبوليون الصغير قد افتتح المرحلة الجامعية لبحثه العظيم فى خريف ١٨٠٧ فى الوقت الذى أكدت فيه مصر بتألق مبهر عن بعثها الجديد وهو ماتزامن مع ظهور أولى مؤشرات اهتزاز عصر يدين فيه طبيعته الاستبدادية ونزعته العسكرية المحمومة .

ورغم كل شئ كانت العاصمة الإمبراطورية التى إستقر فيها الشاب مركز العالم كله فى مجالات الفنون والآداب والعلوم : لأسباب عديدة منها السئ والجيد فريادة فن الرسم رفع رايتها داڤيد وبرودون وجرو ومن بعدهم أنجر وسيستمر ذلك لفترة من الزمن .

وكان لويجى شيروبينى * قد ألف فيها أوبرا « ميديه » وڤيڤان دونون يجدد علم المتاحف ويضع فونتان تقنينا للجامعة .

أما لابلاس ومونج وكوڤييه وسيلڤاستر دو ساسى وشابتال وفورييه وبيروتولين ولالاند وچوفرواسانتيلار فكانوا يؤكدون دعائم الزعامة العلمية « للمعهد » L' institut . ولمدرسة الهندسة (المتعددة الفروع التقنية) Polytechnique . ولمتحف التاريخ الطبيعى وللكولاچ دو فرانس . وعلاوة على كل ذلك وعلى الرغم من أن الشرطة الإمبراطورية أرغمت بعضهم على الإقامة خارج أسوارها فإن رجالا ونساءً مثل شاتوبريان وچيومان دو ستال وبنچامان كوستان ودستوت دبو تراسى وبونالد كانوا يؤكدون بكل فخر مركزية باريس للغة الفرنسية وهى اللغة المهيمنة على العصر .

غير أن هيمنة باريس الثقافية فى عام ١٨٠٧ لم تكن أسسها جميعاً جديرة بالاحترام مثل السرقة المنظمة - بل يمكن تسميتها نهبا علميا منظما ** يقوم به المنتصر على كل من إيطاليا وألمانيا ابتداءً من عام ١٧٩٦ ، وقد أدى ذلك إلى أنه جرى

* ابن الموسيقار سيصبح بعد ذلك من أقرب أصدقاء شامبوليون .

** قام مونج بدور كبير فى تلك العملية بعد أن كلفه بونابارت بتنظيم عمليات السطو فى إيطاليا وألمانيا وتولى ڤيڤان دونون العملية من بعده .

«تصريف» ثروات فنية ومستندات تمثل ثروة لاتقدر بثمن نحو العاصمة الفرنسية كانت عبارة عن لوحات فنية وتماثيل وكتب فن ومخطوطات ومراسلات لم تنشر . هكذا أصبح اللوفر والمكتبة الإمبراطورية ولفترة من الزمن * مغارات على بابا راح يرتع فيها علماء البحوث ودارسو الفن مزودين بوسائل عمل لم يسبق لها مثيل ، مما فتح لهم أبواباً على عالم لا نهائى من المتعة الفكرية . بالنسبة لهذه الأوساط ، لاندم ولاوخز ضمير كان يؤرق هناء أحد منهم . غير أن نهابى الكنوز وجدوا من يرأسهم جميعا على أرض مصر : والدليل على ذلك أن حجر رشيد لم يصل أبداً إلى اللوفر ولكن إلى «المتحف البريطانى » البريتيش ميوزيوم فى لندن ...

إذا كان عصر الفتوحات فى إيطاليا ثم فى مصر بمثابة العصر الذهبى لضابط من الفرسان يبحث عن المجد فقد كان أيضا عصرا ذهبيا بالنسبة للباحثين والفنانين الذين جعلوا من باريس مركزاً لأعمالهم . فقد أصبحت بارثينون تشيّد وفتح أبوابه لكل من باحث عن المعرفة حتى لو لم يزينه حجر رشيد .

فإذا كان أصغر أبناء چاك شامبوليون يعتقد أنه بخروجه من فيچاك ودخوله جرونوبل قد فتح لنفسه أبواب أثينا القديمة ماذا يقول لنفسه وهو يصعد من جرونوبل إلى باريس حيث حلت روما محل أسبارطة دون أن تفتقد أرسطو ..

كان الجيش – المسمى فيما بعد بالعظيم – مستهلكاً للرجال بشراهة تفوق بكثير شراهة المقصلة . وكان هذا ما يلح كثيرا على فكر چان – فرنسوا الذى لم يكن يهتم بتاتًا بالذهاب للموت على ضفاف نهر الدنواب والإيبر من أجل رفعة مجد الإمبراطور غير أن قبضة نابوليون قد جعلت من باريس غرفة آلات لا نظير لها يحسن إستخدامها . المهندسون وعلماء الطبيعة وكذلك علماء اللغات والجراحون والمعماريون وفنانون المنمنمات . وإذا كان البعض لايستسيغ طراز « الأمبير » فى الزخرفة والديكور ؛ لأنه خادع للنفس وينم عن حداثة النعمة ، كان شخصًا تسيطر عليه ذكريات الحملة على مصر . مثل چان – فرنسوا شامبوليون لم يكن فى مقدوره ألا يلتفت إلى كل ماكان من هذا الطراز . علاوة على ذلك فإن البلاط والمدينة والأوساط العلمية كانت تمتلئ بقدماء محاربى حملة عام ١٧٩٨ من بيربيه إلى جونو ومن موينج إلى چومار ومن ڤيڤان دونون إلى بوريين : دون أن ننسى تاليران صاحب فكرتها ومحركها . كانت مصر إذن تحوم فى مخيلات باريس ذلك العصر وحتى لو كان ذلك عبر طراز كاريكاتورى لها فإنه

* الكثير من هذه التحف تم استعادته بعد ١٨١٥ .

جعلها مجسدة فيها ومسيطرة عليها . عام ١٨٠٧ يعنى ثمان سنوات بعد عودة بونابارت من مصر وستاً بعد عودة العلماء والفنانين أعضاء « اللجنة » وخمساً بعد نشر كتاب ڤيڤان دونون .

فى منفاه العاطفى الذى طال فى قلب العاصمة تشبع شامبوليون الصغير بذلك الجو العام على الرغم من كل ماكان يقول . فإن مصر التى أدعى أنه لايبحث عنها سوى فى المكتبات والمعاهد كانت تهاجمه من جميع الزوايا . وهكذا أصبحت باريس بالنسبة له ويخبث ممفيس أخرى .

لم يكن « صغير » مسحوراً بأبحاثه لدرجة إهمال ماكان فى إستطاعة باريس أن تهبه لفكر متفتح ومتطلع لمعرفة كل شئ . إلا أن مايسترعى الانتباه هو أن مراسلاته لأخيه الذى لايخفى عنه شيئا توضح إلى أى مدى كان يمتنع عن المشاركة فى « الحفل الإمبراطورى » إلا بقدر . فإذا حدث وأشار فى إحدى رسائله إلى أحد أعمال الأوبرا التى قدمت على شرف الإمبراطور والتى لم يحضرها فهو يوضح من جهة أخرى أنه إذا لم يكن يواظب على الذهاب إلى المسرح فالسبب هو ضيق ذات اليد وأن عليه الذهاب إلى المتحف لأن الجدول الزمنى الذى وضعه لنفسه ويراقب تنفيذه چاك - چوزيف ما لم يترك له مجالاً لذلك .

ولكن دعونا ندقق فى كل ذلك عن قرب .

كيف كان صاحبنا القادم من جرونوبل مقاطعة / كارسى / سيعيش عملية إعادة زرعه فى تربيته الجديدة هذه إذا لم يكن چاك - چوزيف الذى لايكل ولايتعب - قد أمضى معه الأسبوع الثالث من سبتمبر ١٨٠٧ الذى تلا وصولهما إلى باريس بعد عروج قصير على مدينة روان ؟؟ كان چان - فرنسوا سيبلغ السابعة عشرة بعد ثلاث شهور ومازال خجله يشل تحركاته ويزيد من وطأة شعوره بأن ملابسه تجعل منه نموذجًا للتلميذ الريفى الذى يبدو أن أوساخ الطريق مازالت عالقة به . ومن ناحية أخيه كانت قصة حبه لپولين وعدم إفصاحه عن عواطفه ناحيتها حاجزًا سيبقى قائما بينهما لعدة أسابيع . يفترض أن تلك الأيام كانت فترة إنبهار إلا أنه عاشها فى حالة من الاغتراب الموحش . كان يتصور نفسه وهو فى جرونوبل إله النار والحضارة المتمرد على زيوس ليعوض كونه تلميذا متمرداً على قيود المدرسة التى يبغضها .. أما هنا فهو مثل ستاندال لايرى سوى أناس يمرون فى عجلة ولايرونه لأنه لايمثل لهم شيئا . الحزن يتملكه من البداية مثلما كان الحال بالنسبة لمن سبقه .

لم يدع له الوقت فرصة إدراك ذلك فى البداية بالطبع وكان أخوه مايزال بجانبه يعمل بجد على تنظيم أمور أخيه مع حرص فى النواحى المالية وإن وصف بعضهم هذا الحرص بأنه تقتير .. لأن المنحة الدراسية الحكومية التى حصل عليها فى مارس ١٨٠٤ لمجمل المرحلة الثانوية ثم إختصار عامين منها قد أعيد جدولتها لتسمح بتعميق المعارف فى باريس .

كان چاك – چوزيف يأمل أن يحصل بمساعدة چوزيف فورييه وصديقه فوركروا المدير العام للتعليم العام ، على « علاوة » إغتراب تضع فى الاعتبار غلاء المعيشة فى العاصمة . ولكن دون جدوى . كما أنه حاول معتمداً كذلك على الأصدقاء نفسهم أن يجد لأخيه وظيفة « مساعد أمين مكتبة » ولكن مساعيه لم تنجح فى هذا الاتجاه أيضا . ولابد أن فورييه وفوركروا قد لاحظا أن أمناء المكتبات كانوا يفضلون أن يختاروا الموظفين الجدد من بينهم * .

فى ٦ ديسمبر ١٨٠٧ أبلغ الأخ الأصغر أخاه أن المدير العام للتعليم العام أعرب عن « خيبة أمله فى أن التعيين فى وظائف المكتبة الإمبراطورية » ليس من إختصاصه . وكان من المحتم إذن الاعتماد على منحة جرونوبل مضافا إليها الربع يجود به چاك – چوزيف من ماله الخاص .. وهكذا زادت أعباء الوصى بصعود أخيه إلى باريس وهو مايبرر تشدده بالنظر إلى المسئوليات الواقعة على عاتقه هو فى جرونوبل . كان الأخ الأكبر يستخدم حجج الأب جرانديه ولكن فى سلوكه كان مثل الأب جوريو ** .

اعتقد چاك – چوزيف أن فى إمكانه أن يجعل أخاه يقيم مع صديقه ميلان ، ولكنه وجد له غرفة إيجارها ثمانية عشر فرنكا فى الشهر عند سيدة أسمها ميكران الكائنة ٨ شارع إيشال سانتونوريه (اسم الشارع الآن هو الإيشال وهو موازى لشارع البراميد « الأهرام ») . كانت العلاقة بين الساكن وصاحبة المسكن متوترة فى أوقات كثيرة . كما توضح ذلك مراسلاته ، ولكن يجب أن نلاحظ فى هذا الصدد أن چان –

---

* كتب چاك باكيه فى مقال عن « الأخوان شامبوليون فى الوسط الجامعى الجرونوبلوازى» ، مؤكداً أنه وجد فى أرشيف مقاطعة إيزار مستنداً يدل على أن چان فرنسوا قد عين موظفاخارج الكادر فى قطاع المخطوطات الشرقية فى مكتبة باريس على كشف وزارة الداخلية إلا أننا لم نستدل على هذا المستند كما أن چان فرنسوا لم يشر إلى ذلك قط فى مراسالاته .

** بطلا روايتى بلزاك « أوجينى جرانديه » و « الأب جوريو » .(المترجم)

فرنسوا كان يقيم فى حى راق بالنسبة لقروى شاب مفلس فهو على بعد خطوتين من قصر التويلورى .

أما بالنسبة للمأكل ولنوع من الرقابة الشاملة على سلوك وتصرفات چان - فرنسوا فى باريس فقد عهد چاك - چوزيف بمسئولياتها للزوجين فوچا Faujat * (وهما غير عائلة فوچا دوسان فون Faujas de Saint - Fond التى تتشابه أسماؤهم وتختلف أوضاعهم والتى سيتكرر ذكر إسميهما فى مراسلات الأخوين) . الزوج فوچا دى سان فوين Faujas de Saint Fond كان عالم چيولوچيا من مقاطعة دوفينيه تتلمذ على بوفون - وكان ملحقا من جهة بمتحف التاريخ الطبيعى ومن جهة أخرى بوزارة الداخلية بسبب علاقته بصديقه دوكريه - وزير الداخلية - وهو سيؤدى دوراً نشطاً للغاية ومفيداً فى حياة مواطنيه العملية .

أما أل فوچا Faujat فكانوا قوماً بسطاء وكانت حالتهم المالية هى التى أجبرتهم على أن يقدموا لشامبوليون الصغير وجباته . وقد أثنى چان - فرنسوا كثيراً على حسن طويتهم بل وعلى سخاءهم أيضا . غير أن الوجبات عندهم كانت تستهدف فى الواقع إقامة الأود فقط . علماً بأن صحة مدام فوچا كانت ضعيفة ولذا كثيرا ماكان يكتفى بما يطهوه الزوج . وقد إضطر هذا الوضع چان - فرنسوا أن يلجأ إلى مطبخ آخر بعد بضعة شهور : فقد إقترح عليه أخوه أن « يكتفى » بما يقدمه « الأخوة الريفيين » وثمن وجبة العشاء أربعون « سو » وهى وجبة جيدة جداً وثمن الغذاء عشرة « سو ... » إذن تكلفة غذاءه خمسون « سو » فى اليوم ، أى خمسة وسبعون فرنكا فى الشهر » .

« معطياتى التقريبية هى كالآتى : أولا ثلاثة وتسعون فرنكا للغرفة ولطعامى . من تسعة إلى عشرة فرنكات لغسيل الملابس ونثريات أخرى ليصل المجموع إلى مائة وثلاثة فرنكات . حمامان بسعر ستة وثلاثون سولا أى ثلاثة فرنكات وأثنا عشر سول أى مائة وخمسة عشر فرنكا . الباقى تخصص لشراء الشموع والزيت وللخطابات والنزهة فى حدود المعقول . وهو مايجعل المطلوب لايتعدى مائة وثلاثين فرنكاً .. وإن كان الأفضل هو مائة وأربعون فرنكا ، ولكن عندما يحين موعد إقتناء الأحذية و«البوتز» وتفصيل الملابس فسيتعين اللجوء حصافتك لكى لا تخصمها من مرتبى » .

* يقع كثير من المؤرخين فى هذا الخلط . (المترجم) .

« حصافة » چاك – چوزيف ستفعل مايمكن أن يفعل بقدر ماتسمح به ظروفه كعريس جديد غير ثرى ستنتظر زوجته أول أبناءهما فى نوفمبر ١٨٠٧ – وسنرى أن الأخ الأكبر لن يتردد مع ذلك فى التشدد مع أخيه مما سيؤدى إلى حدوث خلافات بينهما سرعان ماتنتهى بالتعبير عن الاعتراف بالجميل وبوعود الأخ الأصغر بأن يكون أكثر حرصًا . تشهد على ذلك رسالة مؤرخه فى ٢٢ ديسمبر ١٨٠٧ عشية إحتفال چان – فرنسوا بعيد ميلاده السابع عشر والتى تلخص جيداً هذا النوع من العلاقة .

« لو أنى علمت بأنى سأتسبب فى أقل إحراج لك لكنت فضلت أن أذهب أدفن نفسى إلى الأبد فى بلدتنا وأساعد أبى * على قدر الإمكان متخليًا إلى الأبد عن الآمال التى يحلم بها قلبى . هل تعتقد أنى أنسى للحظة واحدة مايفعله حبك لى ؟ هل تعتقد أنى دائمًا ما أحفر فى أ عماق قلبى ما تكرمت به على والعناية الأبوية التى شملتنى بها ... ؟ خاصة وأن هذه العناية لن تكون بعد قليل من حقى وأن كائنًا جديداً أقرب إليك منى سيطالبك بها قريبا ... لم يحدث أنى أنفقت أى مبلغ بدون داعٍ ... على الأقل فى نظرى أنا » .

ومع ذلك فإن شامبوليون – فيچاك لا يدع نفسه يتأثر بمثل هذه الكلمات وسرعان ماتصل قائمة أسعار محددة إلى الأخ فى باريس ! « بالنسبة لبند المصاريف فهى كالآتى : السكن ٤٥٠ فرنكا فى العام وقد صرفت بالفعل ٢٠١ فرنك فى شهر واحد . وهو ماسيكلفنى ألفين من الجنيهات فى العام الواحد ! وأنت تعلم جيداً أن عبئًا كهذا سيقضى علىّ تماما وبعد أن أكون قد بعت مكتبتى (وهى تضحية لن أقوم بها سوى لك وحدك) فلن أتمكن من الحياة على هذا المنوال لعام واحد . وأتصور أنه ليس فى نيتك أن تحرمنى من الشئ الوحيد الذى يسعدنى وهو كتبى ** . ولكنك ستدفعنى إلى ذلك لو إنك لم تلجأ إلى الاقتصاد لكى تدعم كل ما أنوى عمله من أجلك . تريد أن تذهب إلى المسرح ؟ سيكون ذلك من الأعمال الضارة لأن أقل وصف لذلك هو أنه إنفاق غير ضرورى عليك إذن الامتناع التام عن كل مالم يدخله العقل فى بند الضروريات » .

---

* كلمات نادراً ما خطها قلمه وهى لذلك ملفتة للنظر . كان أخوه قد أفاد لتوه بأن زوجه تنتظر مولوداً .

** بخط كبير وتحتها خط فى النص الأصلى .

تبًا !! لأن « صغير » دفع أربعة فرنكات فى الشهر ثار چاك – چوزيف مرة أخرى بعد بضعة أيام : « نظف ملابسك بنفسك ، ورتب مبلغًا شهريًا لمنظف أحذية ليتولى تنظيفها لك فهذا أقل تكلفة .. إن بندًا تكلف ثمانية وأربعين فرنكا فى العام لتنظيف الملابس بفرشاة وتلميع الأحذية يعتبر شططا لا لزوم له . لا أريد أن أسمع مثل هذا الكلام بعد ذلك ... » سينصاع « صغير » لهذا الأمر بالطبع .

قد تبدو توبيخات فيچاك نوعًا من البخل الزائد على الرغم من أنه يعد أخاه فى الخطاب ذاته بأن مصالحهما لن تنفصل فى يوم من الأيام « حتى لو جاء عشرون « عليا » * الواحد تلو الآخر أو حتى لوجاءوا جميعا مرة واحدة » . ولكن على الرغم من صغر القيمة الظاهرية للمبالغ التى ذكرها الأخ الأصغر فمن الواجب أن نقدرها فى مع الأخذ فى الاعتبار مقاييس تلك الفترة . فقد لاحظنا أن الغرفة المؤجرة تقع فى حىٍّ سكنى راقٍ » وأن « الأخوة القرويين الذى يتعين عليه أن يكتفى به » هو من المطاعم الجيدة . إن مرتب ألف وأربعمائة فرنك فى العام كان يعادل مرتب موظف حكومى متوسط . الواقع إذن أن صديقنا الشاب كان يشعر بقلة الموارد لأنه لم يكن يدير شئونه جيدا .

سوف نعود إلى الحديث عن تلك المشاكل التى ستترك أثرها على مزاج وصحة الشاب إن لم تؤثر على شخصيته وهو يعيش فى حالة قحط دائم . كان يشعر عندما كان فى الليسيه أنه قريب من ولى أمره .. ولكن هنا فى المدينة الكبيرة فإن القلق النسبى على الأشياء المادية يزيد من وطأة الوحدة .

فى ١٦ أكتوبر أى بعد أكثر من شهر من وصوله كتب إلى چاك – چوزيف هذه السطور الكاشفة :

> « إنى وحيد ! وعلى الرغم من وجودى وسط أشخاص صحبتهم مريحة وأشياء تتسق وذوقى فإنى أشعر وأنا فى هذا الوضع بفراغ رهيب . لاشئ يشغل بالى وأفكارى سوى الدراسة والعمل ... »

« الدراسة والعمل » ؟ كان قد عرف لتوه أن المحاضرات فى الكولاچ دو فرانس لن تبدأ سوى فى نوفمبر وفى « المدرسة الخاصة » فى ديسمبر فهو يعمل ويعيش إذن وحيدًا فيما عدا تلقيه بعض الزيارات . ومن هنا جاءته حالة الحزن التى انتابته .

---

* كان اسم « على » هو الذى إتفق عليه الشقيقان لتسمية الطفل المنتظر .. انظر ماسيأتى ذكره فيما بعد .

فبعد ذلك بثمانية أيام فقط عاودته حالة الحزن :

« أخى العزيز جداً ، لم يصلنى منك سوى خطاب واحد منذ أن تركتنى . فلم تكتب لى من مدينة ليون ولا حتى من جرونوبل [...] إنى فى حالة من الضيق والمزاج السئ لدرجة أنى أبكى مثل طفل صغير [...] إنك تعلم أن الخطابات تخفف كثيرا عن النفس عندما نكون بعيدين عن الأشخاص الذين نحبهم » .

وفى ٢٧ أكتوبر * وبعد أن عاود الحديث بإيجاز عن علاقته ببولين وبعد أن طمأن أخواه على أنه يقوم « بتبييض » بحثه المقدم إلى أكاديمية جرونوبل عن مصر عاد إلى نغمة وحدته الحزينة : « لم أكن قد أبتعدت عنك أبداً وها أنا أعيش وحيداً [...] إن الضيق والغثيان يثقلان علىّ [...] وعلى الأخص عندما أكون وحيداً فى منزلى ىلاً [...] تهاجمنى الأفكار السوداء » .

فى ١٦ نوفمبر تكاد تكون أمام « آلام الشاب فارتار » لو لم تكن « شارلوت » فى هذه الحالة فى طريقها إلى النسيان .. فقد أنهى خطابه إلى أخيه بأن رجاه أن يبلغ بولين « أسفه لما تسببه لها من آلام عظيمة » بعد ذلك ببضعة أيام أفاده أخوه الكبير بشئ من التهكم أن خطابه الأخير إلى سيزارين – وهى كاتمة أسرار حبه لبولين – « قد صودر فى الجمارك التى أديرها أنا ** وتم حرقه » .. وكان الرد هو شكر الصغير للكبير على لجوئه إلى هذه الوسيلة الحاسمة ... لقد تنازل إذن عن عواطفه . وسيتحول حبه لإخت زوييه – امرأة أخيه – إلى صداقة ، وهكذا ستنطفئ جذوة حبه الجارف الأول وهو الذى عرفناه فى ظروف أخرى أكثر جسارة واندفاعاً ...

ولكن فيما عدا ذلك فإن المزج السوداوى يبقى سائداً وملحاً :

« أخى العزيز جداً مرت ثمانية أيام دون أن تصلنى منك أية أخبار ولا أية خطابات من أى كان . إنى أتألم من فكرة أن تكون مريضا أو يكون قد حدث لك مكروه [...] يزداد الضيق فى نفسى يتضاعف من يوم لآخر وأفقد عقلى فى بعض الأوقات خاصة منذ أن توقفت أنت وزوييه والجميع عن مراسلتى ... »

---

* تاريخ تقريبى .
** الإشارة الوحيدة المتاحة لنا عن هذه الوظيفة الهامة أو لعل فيچاك أراد هنا أن يتفاخر أمام أخيه الأصغر .

ولكن هل كان چان – فرنسوا فى باريس لكى ينتظر خطابات من زوبيه أو لكى يقيس أثر الاغتراب على النفس ؟ بل هو هنا ليعمق دراساته للغات الشرقية التى سنقوده بعد مقارنتها ببعضها أو تركيبها مع بعض أو مقابلتها إلى الكشف عن أسرار الكتابة المقدسة التى تعبر بها هذه الحضارة الفرعونية عن نفسها وهى التى تملكت منه تماماً .

فى هذا الإطار كانت هناك أربع مؤسسات وبعض الرجال جعلوا من باريس الواحة التى يحلم بمائها كل عابر للصحراء . هؤلاء الرجال هم على وجه التحديد سليڤاستر دو ساسى وبروسبار أودران ولوى لانجلاس ودوم رافائيل دو موناشيس وأوبان ميلان وسونينى وڤولنى والأب دو تيرسان وچومار ولانكرن وبعض الآخرين ، منهم قس يدعى دو سان روش . أما المؤسسات فهى الكولاچ دو فرانس والمدرسة الخاصة للغات الشرقية والمكتبة الإمبراطورية ولجنة « مصر » .

الكولاچ دو فرانس الذى أسسه قبل ذلك بمائتين وسبعين عاماً الملك فرنسوا الأول تحت اسم « كولاچ اللغات الثلاث » لكى يواجه بها سيطرة أهل الكنيسة المتعلمين والتعاليم الدوجماتية الجامدة التى تقدمها جامعة السوربون وسطوة اللغة اللاتينية السائدة دائما ، ظلت مركزاً للتعدد الثقافى والحرية الفكرية لدرجة أن نابوليون فكر يوما فى أن يغلق أبوابها .

فى عام ١٨٠٧ كان هناك فى مجال « الشرقيات » عدد من الأساتذة ينشرون معارفهم التى لاتكاد تدانيها معارف أخرى فى ذلك العصر : سليڤاستر دو ساسى فى اللغة العربية (بالتبادل وكوسان) واللغة الفارسية . بروسبار أو بران بالنسبة للغة العبرية . لوس لانجلاس * بالنسبة للغات أسيا القريبة والوسطى . كان مقر الكولاچ دى فرانس يقع بالقرب من السوربون فى ميدان كامبريه . أى أنه كان يبعد قليلا عن مقر إقامة چان – فرنسوا بالقرب من اللوڤر . إلا أنه كان يتردد عليه يومياً لكى يستمع إلى تعاليم هؤلاء الأساتذة الثلاثة الذين أحسنوا استقباله فى البداية حتى أو بروسبار أودران كان يكن له عطفا خاصاً .

ولكن بالنسبة للنقطة التى وصل إليها « صغير » فى بحثه فإن مركز دراساته كان فى « المدرسة الخاصة » وهو الأسم الذى كان يطلق فى ذلك الوقت على مدرسة اللغات

---

* سيعاد النظر فى قدراته العلمية بعد ذلك .

الشرقية . تأسست هذه المدرسة فى عام ١٧٩٥ (١٠ جيرمينال عام ٣) بقرار أصدره لاكانال بإيعاز من ڤانتور دو بارادى وهو الذى أصبح بعد ثلاث سنوات من هذا التاريخ أول مترجمى بونابارت فى مصر قبل أن يلقى حتفه خلال حصار عكا - كما أوصى أيضا بإنشاءها ڤولنى الذى كان قد نشر - بعد عودته من زيارة لبلاد المشرق * - دراسة تحت عنوان « حول تبسيط اللغات الشرقية » وقد إحتلت المدرسة مقرًا متاخمًا للمكتبة الوطنية بشارع « نوف - دى - بتى - شان » .

ومثلها مثل الكولاچ دوفرانس فإن المحاضرات التى تلقى بها مجانية وعامة . ولم تكن تعطى أية شهادات علمية فى نهاية العام ولكنها كانت تمنح شهادة بالمواظبة على الحضور . اللغات التى كانت تدرس بها هى العربية والتركية والفارسية . كان يتولى كرسى اللغة العربية الذى أنشأه دو ساسى فى عام ١٨٠٣ دوم رافائيل « موناشيس (الذى سبق أن ألتقينا به) . أما كرسى اللغة التركية فكان يشغله أميدية چوبار الذى كان يعمل مساعدًا لڤانتور دوپارادى فى مصر ثم أخذ مكانه فى تدريس هذه اللغة بعد وفاته . أما لانجلاس فقد كان يجمع تدريس اللغة الفارسية إلى جانب إدارتة للمدرسة . بالمقارنة بما يدرس فى الكولاچ دو فرانس كان التدريس فى المدرسة الشرقية يصبو ألى أن يكون أكثر موضوعية أى أقرب إلى الحياة العملية .

كانت المكتبة الإمبراطورية مصدرًا دائمًا للإبهار بالنسبة لمرتاديها مثل الأخوان شامبوليون . كل مخطوط تم تسجيله فى أى من جامعات القارة الأوروبية كان له نظير فى هذه المكتبة أو على الأقل فى هيئة صورة طبق الأصل له : فى ڤيينا وتوبنجان وبرلين وتورينو وبينا پيزا كل شئ هناك تم جمعه ونسخه ثم أن مدير المكتبة لم يكن من المقرين المستحوذين على كنوزهم .

فى فرع الآثار كان شامبوليون الصغير يراجع المسئول عنه أوبان ميلان وهو بئر من المعرفة لاتنضب . وعلى الرغم من تحفظات چان - فرنسوا على القيمة العلمية البحتة لأستاذه فقد كان يستفاد إلى أقصى حد منه فى تعميق مداركه فى علم النُّمِيَّة (علم دراسة النقود والميداليات ...) وهو العلم الذى أشركه باستمرار فى أبحاثه اللغوية ودراسة المبانى الأثرية .

* راجع المقدمة .

كان ميلان كذلك سعيداً بتلميذه وكتب إلى شامبليون فيچاك يقول : « كثيرا مايحضر السيد أخوك العمل عندى وهو يراجع بعناية مختلف الكتب المتعلقة بمصر . إنه يدرس ويعتنى بعمله بشكل مفيد . كما أن السيدين لانجلاس وساس سعيدان به جدا » .

أما « لجنة مصر » فإنها تختلف عن هاتين المؤسستين فى أنها كانت مؤقته . فقد نبعت من المؤسسة العلمية التى أنشئت فى القاهرة عام ١٧٩٩ وهى تباشر عملية إصدار كتاب « وصف مصر » وهو الهدف الذى حدده بوضوح شديد الچنرال القائد الذى أصبح الآن الإمبراطور المتوج . سوف يصدر أول جزء من هذا العمل الضخم فى عام ١٨٠٩ قبل مقدمته التى كتبها الأمين العام لمعهد القاهرة چوزيف فورييه الذى عين فيما بعد محافظا على مدينة جرونوبل .

أول من عينه على رأس هذه المؤسسة هو نيقولا كونتيه ثم حل مكانه ميشال - أنچ لانكريه * وتلاه عالم الجغرافيا آدم چومار وكان أقرب معاونيه چولدا وفيلار دوتيراج مكتشفا رسم الأبراج الذى يزين أحد سقوف معبد دندره . ولنا أن نتصور إهتمام صديقنا الشاب القادم من جرونوبل بأعمال هذا الفريق حتى لو أثار ذلك إنتقاداته ثم سخريته . ** هذه المؤسسات المختلفة لم تكن تجمع سوى بعض الأساتذة والقليل من الطلبة : ويترتب على ذلك علاقات إنسانية شخصية جدا وعاطفية خاصة بالنسبة لمراهق مرهف الحس مثل چان - فرنسوا . كان « الكولاچ » و « المدرسة الخاصة » و « المكتبة » فى نظره رجالا أصبح هو أحد أصدقائهم قبل أن تكون مؤسسات أو أحد أعداءهم مثلما حدث بالنسبة للانجلاس وچومار *** وكاترومار أو أحد التلاميذ المعجبين ولكن دون طاعة عمياء مثلما كان الحال بالنسبة لسيلفاستر دو ساسى . ولما كانت هذه الشخصيات قد أدت أدوارا نشطة جداً فى تكوين شخصية عالمنا المكتشف فسيتعين دراسة العديد منهم بعناية .

كان إسحق سيلفاستر بارون دو ساسى فى قمة المجد على الرغم من استقلاله الكبير عن السلطة الإمبراطورية ؛ إذ كان يعتبر مع مونچ ولابلاس مثالا للعالم الخالص . وكان ملكا متوجًا على اللغويات الشرقية .. كان معتل الصحة منحنى القامة دميمًا

---

* توفى بعد ذلك بقليل .

** سيأتى توضيح ذلك فيما بعد .

*** سيأتى ذكر ذلك فيما أبعد من ذلك بكثير .

للغاية يقذف مستمعيه بنظرات ملتهبة وهو يتكلم بصوت غامض وكان يعد أستاذا لامثيل له يعرف كيف يخضع معارفه الهائلة لمقتضيات الاتصال بتلاميذه كما لم يكن هناك من يبزه فى إظهار صلات القرابة والتفاعل بين لغات الشرق .

إلا أنه يعد نموذجًا للمثقف والعالم خريج المكاتب : فهو لم يجرؤ على الذهاب إلى أبعد من مدينة جنوا فى شمال إيطاليا ولم يذهب إليها إلا مضطرا لمراجعة أرشيفها . وقد رد على أحد دارسى اللغة العربية الأجانب الذى سأله عن إسم الشيخ الذى تتلمذ عليه قائلا : « ليس فى مقدورى متابعة أى محادثة باللغة العربية !! » ... ومع ذلك فقد كان يعرف كل شئ عن هذه اللغة التى لم يكن فى مقدوره إستخدامها فى التعبير وكان أستاذاً لشامبوليون . (كتب هذا الأخير عنه قائلا « إنه من العلماء وعلاوة على ذلك فهو متواضع ») ثم أصبح أحد أكبر منتقدى مكتشف ألغاز اللغة الهيروغليفية قبل أن يعود مرة ثالثة ليكون أكبر مادحيه * وأعلاهم صوتا .

لانجلاس أيضا لم يكن يهوى السفر وكان مع ذلك أكثر المستشرقين شهرة وعندما طلب منه مرافقة نابليون فى رحلته إلى مصر لم يوافق . كان من الشخصيات المنفرة ومحتقرًا للآخرين أحيانا (كتب عنه چان- فرنسوا لأخيه يقول « عندما أكون معه أكون مثل الآخرين : لا أحد ») وحاول لانجلاس أن يبعد الشاب عن مصر وإن يقنعه بأن يتخصص فى دراسة لغات أسيا ، ولما لم ينجح فى محاولاته أضمر له شعورا من الكره المتزايد لدرجة أنه رفض إعطاءه شهادة مواظبة حضور المحاضرات عام ١٨٠٨ . وسيشكو چان فرنسوا لأخيه من كثرة المنغصات التى تسبب له فيها من كان يسميه « الإنجليزى » وكتب يقول له فى خطاب بتاريخ ١٨ يناير ١٨٠٩ مؤكدًا أن « لانجلاس » يزحف ولم يصل إلى مركزه إلا بأن مرغ نفسه فى الطين » .

وعلى النقيض من ذلك كان تقييم شامبوليون لبروسبار أودران ، فهو لم يجد فيه سوى مايستوجب المديح . وكان أودران علاوة على تملكه للغة العبرية معلمًا فى اللغتين السيريانية والآرامية لدرجة أنه كان يبدو قد تشكل من سفر القضاه ! وسرعان ما إرتبط بچان – فرنسوا خاصة وأن اهتمام هذا الأخر بلغة التوراة كان يتعمق باستمرار بل وذهب به الحال إلى درجة أنه عبر له عن تقديره الفائق بأن سمح له بأن يلقى المحاضرات بدلا منه أين ؟ فى الكولاچ دو فرانس – وهو فى السابعة عشرة من عمره !! .

« أنا أقوى من يحضر محاضراته ومعظمهم من القساوسة ورجال الدين ذوى الأدمغة المتصلبة وكلهم متقدمون فى السن ، قربى من مسيو أودران يزداد كل يوم . فأنا أساعده فى تأليف كتاب فى قواعد اللغة السيريانية ثم فى القواعد المقارنة

---

* راجع الباب ١٩ .

بين اللغتين العربية والعبرية فهما من أصل واحد والاختلاف فى اللهجات فقط ... ».

أكثر أساتذته إخلاصًا له فيما بعد ولعله كان أكثرهم نفعًا له هو دوم رافائيل دو موناشيس والذى تعرف عليه عن طريق أخيه فى جرونوبل . وكما حدث مع القس كالماس كانت صداقتهما بداية العلاقة بينهما بل أن الحب كما قال لأخيه هو الذى جعل دوم رافائيل يهتم به حتى أن هذا الأخير كان يناديه « إبنى » [بالعربية فى النص] وكثيرا ماكان يستقبله فى بيته الكائن ٣ شارع باقيه بحى الماريه .

« إنى أعمل كثيراً مع دوم رافائيل . (من خطاب إلى الأخ الكبير) وأصبحت « أتصرف ، » فى الحديث بالعربية . فأصرف الأفعال وأترجم حوارات ... » وكان يزداد تقديرا لا ستاذه فى اللغة العربية بقدر ماكان هذا الأخير « يسايره فى تخميناته حول الأسماء القديمة للمدن المصرية » . وفوق كل ذلك كان دوم رافائيل قد أبدى إلى تلميذه معروفا هائلا : فقد وجهه نحو التعرف على قسيس قبطى جاء من مصر علم ١٨٠٢ وهو چيها الشيفتيشى راعى كنيسة سان روش . والذى تمكن طالبنا من التخاطب معه باللغة القبطية والتدريب عليها معًا ، فهى اللغة التى بدت لهما المفتاح الذى سيؤدى إلى الأبحاث المتعلقة بالكتابة المصرية القديمة .

وهكذا تحول شامبليون الصغير ، القادم من مقاطعة دوفينيه من جهة الكارسى إلى مستشرق وهو سعيد بذلك . وهو يعلن لأخيه بعد ذلك بستة أشهر أنه فقد كثيرا من وزنه حتى أن خديه قد تقعرا للداخل فزاد أكثر شبها بالعرب خاصة وأنه « أصلا يبدو كالشرقيين » وأنه من كثرة الحديث بالعربية أصبح صوته يخرج من أعماق حنجرته » .

فى خطاب مؤرخ فى بداية شهر ديسمبر روى لأخيه كيف أن شخصا يدعى عيد صاوى التقى به وهو مع دوم رافائيل فظن أنه عربى وحياه بكلمة « سلامات » وكان الأمر سيزداد إختلاطا عليه لولا أن صديقهما المشترك أوضح الأمر فى حينه . وفى إحدى الرسائل لأخيه أختتمها بتحويل إسمه إلى « أسد سعيد المنصور » (كذا) . وعندما أعلن له أخوه فى بداية شهر ديسمبر ١٨٠٧ أن « زوبيه » ستنجب له « أثريًا صغيرًا » وطلب منه أن يقترح له إسمًا « عربيا على الأقل » رد عليه چان فرنسوا : «علىّ ، الحبيب» .. مما سيثير الأقاويل فى أروقة الكنائس * .

---

* المشكلة ستطرح نفسها بالطبع عندما – حان تعميد الطفل وتسميته . وقد أوضح چان – فرنسوا بحماس أن هناك قديسًا إسمه « على » عاش فى القرن السادس – فصدقوه !!

كما أن صديقنا تعرف على أحد العلماء الكبار وهو الأب تيرسان وكان منزله فى أبروشيه « أبّى أوبوا » بمثابة متحف أتروسكى - فينيقى - مصرى ، وزاد إرتباطه به عندما كشف القس تيرسان عن أكثر التحف أهمية لچان - فرنسوا المتمثلة فى نسخة لحجر رشيد قام القس نفسه بعملها عن الأصل فى البريتيش ميوزيوم (المتحف البريطانى) وقد توطدت العلاقة بينهما إلى حد أنه أعار صديقنا الشاب بعضاً من تحفه النادرة مثل كتاب العهد الجديد باللغة القبطية ومصحفاً باللغة العربية . ونرى إسمه مذكورا فى العديد من المرات فى مراسلات الأخوين وكذلك إسم أحد المثقفين الدارسين للغة السلتية (القادم من الدوفينيه أيضا) وهو دو كامبرى وقد تسبب موت هذا الأخير فى نهاية ١٨٠٧ الذى كان قد أصبح من أصدقائه المقربين فى حزن عميق تملكه .

على الرغم من خجوله الطبيعى فإن أصغر أبناء تاجر كتب فيچاك - مثله مثل جميع المغروريين المحبطين - تمكن من السيطرة على فوراته العنيفة مثلما يفعل أخوه الأكبر.

فهو يعلن له فى خطاباته « أن سلوكه لايشوبه أى غبار حتى الآن موضحاً : «إذا جاء بعض الأصدقاء لزيارتهم فهم يحتفون عن أى اقتراح يعرفون مسبقاً أننى سأرفضه » ولكنه يقبل اقتراحات أخرى إذا علم أنها تتفق ورغبات چاك - چوزيف . مثل دعوة إوبان ميلان الذى يدرس له مادة « الميتولوچيا القديمة » لحضور اجتماعات يوم « الأربعاء » الذى يعقدها إسبوعيا فى منزله . وعلى الرغم من شعوره بأن ملابسه غير لائقة فإن مراهقنا كان يحضر هذه الندوات وما كتبه لأخيه فى وصفها يكشف عن حسه المبكر لفن الهجاء :

« أذهب أيام الأربعاء عند مسيو ميلان لأشارك فى سهراته [...] الحضور كثير ويوجد بينهم من خمسة إلى ستة أمراء ألمان وأسبان وفرنسيين إلخ ... بعض من الدوقة ... إلخ والكثير من الرؤس « المتوجة » بالإثارة . نجلس ونقرأ ثم يبدأ حديث حول نقطة علمية أو عن التاريخ القديم أو عن الفنون الجميلة . يدافع كل واحد عن وجهة نظر ويستمر الجدال حتى الحادية عشر مساء وربما بعد ذلك ... ترتيب الأحداث كالتالى : الدخول فى الساعة الثامنة ويعلن عن إسم من وصل ، تقدم التحية ثم نذهب إلى صاحب البيت لتبادل بعض الكلمات معه . بعد ذلك ننضم إلى الحضور أو نقرأ ماظهر من كتب جديدة . فى الحادية عشرة والنصف يقدم الشاى أو البانش ... إلخ .. وألاحظ أن معظم علمائنا يحسنون تناول الشراب

مثلما يحسنون الكلام . عندما تصل الساعة إلى النصف بعد منتصف الليل أو فى الواحدة يحل لنا الإنسحاب [...] إن مايثير الضحك وهو مايثبت فى الوقت ذاته أن العلم يسّوى بيننا نحن معشر الرجال هو أنك ترى من خمس إلى ست إمراء وبعض السفراء والدوقة إلخ ... لاتنم وجوههم عن مقامهم وهم جالسين فى ركن من الصالون حيث يتثاءب أصحاب السعادة على راحتهم . أمير فورتز بورج * الشاب يشارك فى الكلام وهو يفعل ذلك بتحفظ جم وبفكر صائب . وهو صاحب السمو الوحيد الذى يعد مقبولا . أما بالنسبة للآخرين المحملين بالأوسمة والأوشحة ... فهم ينتظرون الشاى ويحتسونه ثم يهرعون خارجين ... »

إذا كان « صغير » قد تجرأ ودخل هذا « العالم » الدائر فى ذلك العلم وأكثر المعارف تجرداً فهو يزداد جرأة ويذهب لزيارة أكثر حاملى مفاتيح مصر شهرة مثل ڤولنى وسونينى وچومار وهم الذين وطئت أقدامهم أرضها لأسباب مختلفة .

كان قد تعرف على ڤولنى فى جرونوبل قبل ذلك بعامين وكان قد أصبح كونتاً وعضو مجلس شيوخ الإمبراطورية دون أن يفقد استقلالية الرأى والسلوك .. وكان « صغير » يعجب بوقار الرجل واستقامته ودقة تفكيره .. ومع ذلك فقد كان يضايقه منه طريقته غير الشاعرية تماماً والعلمية البحتة فى تصوره لمصر إذ هو يكثر من ذكر الملاحظات عنها المدعمة بالأرقام دون أن يأبه بأساطيرها وآلهتها . وكذلك كان الحال بالنسبة لسونينى دو مانونكور عالم الطبيعة الذى كان يصف له مصر وصفا دقيقا ولكنه فى رأيه كان يفتقد الخيال والقدسية . ومع ذلك وعلى الرغم من قلة الحيوية التى كان يفتقدها فى الشخصيتين فكانا كرجال معرفة حقة يثيران إعجابه .. ولم يكن من الممكن أن يسقط من حساباته أيًا من المعطيات التى ستسمح له بتنظيم عمليته فى كشف الأسرار .

وبنفس القدر من التسامح طبق المبادئ ذاتها على المعلومات والأفكار التى إستقاها من چومار الذى أصبح أهم شخصية فيما يتعلق بكتاب « وصف مصر » . فى بداية الأمر استقبله هذا العالم الجليل فى الجغرافيا بنفس القدر من الترحيب الذى عبر له عنه كل من فورييه وڤولنى رسانينى . وعلى

* الشقيق الأصغر لإمبراطور النمسا .

الرغم من أن « صغير » قد إضطر أن ينتظر أشهرا عديدة قبل أن يستقبله السكرتير العام فقد أقام معه علاقات عمل هادئة . إلا أنه ما أن تعرف على مقدار طموحات الشاب إلا وأصبح چومار غير راض عنه وعامله منذ ذلك الوقت بقسوة * إذ كان يرى فيه حدثاً غراً يدعى – دون أن يكون قد وطأ أرض مصر – أنه يعرف أكثر مما يعرفه قدامى محاربى ١٧٩٨ .

سيفضل چان – فرنسوا التعامل مع مساعدى الجغرافى من الشباب ڤيلار دوتيراچ وچولوا وهما المكلفان مع لانكريه ** بكتابه معظم المقالات الخاصة بمصر القديمة فى كتاب « وصف مصر » وكانوا يعاملونه بود حتى لو إختلفت أراؤهم معه . مايدعو إلى الاستغراب من جهة أخرى هو عدم وجود أى مستند عن علاقة « صغير » بڤيڤان دونون . إن مانعرفه هو أن الشاب قد قرأ كتاب الرائد إذ أننا نجد إشاراته مبعثرة هنا وهناك فى مراسلاته إلى « دونون المحترم وخفيف الظل » *** .

أما بون – چوزيف داسييه السكرتير الدائم لأكاديمية الآداب فهو الذي لن يألو جهداً حتى يتعرف الكافة على عبقرية المكتشف وقد عرفه عن طريق أخيه الأكبر منذ وصوله إلى باريس . العلاقات بينهما ستبقى غير محدودة لفترة طويلة لأن إهتمامات العالم العجوز لم تكن لها علاقة مباشرة بالموضوعات التى تخصص فيها الشاب . إلا أنه أعلن عن تعاطفه معه منذ البداية إلى أن أصبح هذا التعاطف عملاً إيجابيا بعد ذلك .

لم يكن شامبوليون الأصغر يكتفى بعلاقاته مع الأساتذة وأصحاب الفكر ، فقد كان وهو فى السابعة عشرة يزامل أيضا أقرانه مع ملاحظة أنه لن يتعرف فى باريس على صديق يمكن مقارنته بمن صادقهم فى فيچاك أو جرونوبل . ويقر معظم كتاب سيرته أنه لم يقم علاقة صداقة سوى مع المجدِّين فى عملهم المنكبين على الأبحاث المشابهة لأبحاثه والأفضل من كانت أبحاثه تتلاقى وأعماله هو .

وقد يكون من التزيد أن نصف علاقاته الودية مع بوناڤونتور دو روكفور بأنه صداقة وإن كان يصفها هو نفسه أحيانا بأنها « غوتية » (مثل الكاتدرائيات) بمعنى أنها مرسومة وجادة للغاية . خاص وأن أبحاث دوكفور الموسيقية كانت تذهب فى اتجاه

---

* غير أن ذلك لم يمنعه من أن يطلب من الشاب باستمرار أن ينقل تحياته إلى أخيه الأكبر .

** معه ... وبعده ، لأنه توفى فى بداية عام ١٨٠٨

*** سنرى فيمل بعد الأهمية التى أعطاها باحثنا إلى « البردية رقم ١٣٨ » التى نشرها دونون .

يلتقى وأبحاثه هو فى الثقافة القبطية .. وهذا الوصف ينطبق أيضا على علاقته بالمكتبى چوچون الذى أرسلته العناية الإلهية له ليبعثه فى مجال الكتب وكان يجمع فى بيته بشارع دوباك أبناء الدوفينيه المغتربين (أو المنفيين ؟) فى باريس .. ويبدو أن چان - فرنسوا كان يواظب على حضور هذه اللقاءات . أما علاقاته بچان - چاك دوبوا الرسام والمثال فقد كانت عروتها أوثق وهو الذى سيكون معينه فى نقل الكتابات المصرية الموجودة فى متحف ڤيللترى وقد وصف الشاب القادم من جرونوبل علاقاتهما بكلمات كلها حرارة إذ كتب يقول : « كنا نثرثر حول الآثار ونتبادل الملحوظات وكنا نجد دائما شيئا جاداً نتكلم عنه أو نتعلمه من بعض .. » ووصف فى خطاب لأخيه مؤرخ ١٨٠٩ لقاءه بدوبوا أنه من أسعد الأحداث التى جرت له بالنسبة لحياته العملية كباحث .

هل كانوا أصدقاء أم مجرد أقران عمل كل هؤلاء الشباب الذين كان يلقاهم فى الكولاچ أو فى المدرسة الخاصة ، ويتبادل واياهم الاكتشافات أو خطا جديداً فى أبحاثهم يقتفون أثره ؟ لقد كان يشير إليهم فى معظم الأحيان بكنية عن تخصصهم وليس بما يميز شخصيتهم * . فكان يلقب ليونار دو شيزى « الهندى » إذ كان متخصصاً فى السانكرتيه وأبال دور ريمورا « بالصينى » وهو الذى أصبح أول أستاذ يدرس لغة « الماندران » فى الكولاچ دو فرانس ، أما چان سان - مارتان فهو « الأرمنى » . هذا الأخير يمثل حالة خاصة ، فقد كانت علاقته بسان مارتان علاقة صداقة قوية جداً وكانت الرسائل المتبادلة بينهما غزيرة جدا إلى أن فرق بينهما الطموح وخاصة الطموح السياسى . ومع ذلك ففى عام ١٨١١ لم يتردد چان - فرنسوا فى اللجوء إلى سان - مارتان (فهو لم يشك فى وفاءه على الرغم من أى شئ) طالباً منه خدمة « لايمكن أن تنسى » فقد كانت تتعلق بعلاقة عاطفية ** .

وماذا عن دارس اللغة اليونانية چان لوترون ؟ فقد أصبح مع مرور الزمن من أفصح المدافعين عن چان - فرنسوا شامبوليون عندما ثارت أعنف المجادلات التى أثارها إكتشاف عام ١٨٢٢ على الرغم من أنه كان فى البداية ضمن منتقديه . ومن ناحيته أيضا كان يطلق عليه باستهزاء لقب « البستانى صاحب الجذور اليونانية » وذلك بين أعوام ١٨٠٧ و ١٨٠٩ وكان من بين زملائه أقل من يلقاهم .

---

* وكانوا يلقبونه من ناحيتهم « بالمصرى » .

** سيأتى ذكرها فيما بعد ص .

باختصار كانت حياة مخصصة كلها للدراسة والبحث لتنفيذ طلبات جاك - جوزيف تلك التى قضاها جان - فرنسوا خلال السنة الأولى من فترة إقامته بباريس وذلك حتى خريف عام ١٨٠٨ ، يشهد على ذلك برنامج العمل الأمثل له والذى أفاد به أخاه فى ٢٧ ديسمبر ١٨٠٧ . وقد يعتقد البعض أنه مثالى أكثر من اللازم ليكون صادقا فيه ولكن لايوجد سبب واحد يجعل المرء يشك فيه خاصة وأن الرسائل اللاحقة توضح أن الأخ الأصغر لم يكن يمنع نفسه من الإفصاح عن الحقيقة لساكن جرونوبل حتى لو كانت غير سارة :

« يوم الاثنين الساعة الثامنة والربع أتوجه إلى الكولاچ دو فرانس لأصله فى التاسعة . أنت تعلم بالطبع أن الطريق طويل إلى هناك فهو يطل على ميدان كاميرى بجوار مبنى البانتيون . فى التاسعة أتابع محاضرة اللغة الفارسية للأستاذ دوساسى * حتى العاشرة ولما كانت محاضرة العبرية والسريانية والكالدية تلقى فى منتصف النهار فإنى أسرع إلى مسيو أودران الذى إقترح أن أبقى عنده أيام الأثنين والأربعاء والجمعة من العاشرة حتى الظهر . فهو يظل فى الكولاچ دو فرانس .. نمضى هاتين الساعتين فى الحديث عن اللغات الشرقية وفى ترجمة نصوص من اللغات العبرية والسريانية والكالديه والعربية . وتخصص دائما نصف ساعة للعمل فى كتابه عن « قواعد اللغتين الكالدية والسريانية » . ننزل من عنده عند الظهر ليلقى محاضرته عن العبرية .. وهو يطلق على اسم « بطريرك الفصل » لأنى الأقوى فى هذه المادة [...] بعد أن أخرج من هذه المحاضرة فى الواحدة أقوم باختراق كل باريس وأذهب إلى المدرسة الخاصة لأتابع فى الثانية محاضرة مسيو لانجلاس الذى يخصنى برعاية خاصة .. إننا نشارك فى الحديث فى السهرات ** يوم الثلاثاء أذهب إلى محاضرة مسيو دوساسى فى الواحدة فى المدرسة الخاصة . يوم الأربعاء أذهب إلى الكولاچ دو فرانس فى التاسعة وفى العاشرة أصعد عند مسيو أودران وفى الثانية عشرة أحضر محاضرته وفى الواحدة أذهب إلى المدرسة الخاصة (ساعتان) من أجل حضور درس مسيو لانجلاس وفى الخامسة مساء

---

* كان سيلڤاستر دو ساسى يدرس هذه اللغة أيضا أما بالنسبة للعربية فقد كان يتناوب تدريسها مع مسيو كوسان .

** هذه الملحوظة تدعو إلى الحرص عندما نتعامل مع الأحكام التى سيطلقها الطالب فيما بعد عن أستاذه .

أتابع محاضرة دوم رافائيل الذى يجعلنا نترجم قصص لافونتان الشعرية إلى العربية .

الخميس فى الواحدة محاضرة مسيو دوساسى . الجمعة أذهب مثلما أفعل يوم الأثنين إلى الكولاج دو فرانس وإلى مسيو أودران ومسيو دوساسى السبت عند مسيو لانجلاس فى الثانية ... » ويختتم كلامه بقوله : « لقد حميت من كثرة المجهود ولذلك سأذهب لأستحم لاتزود ببعض من الطاقة تمكننى من متابعة محاضراتى » .

ولما كنا على علم بأن چان – فرنسوا يضع لمساته الأخيرة على كتابه عن « جغرافية مصر » وينسخ بعض النصوص لأحدهم أو لآخر ويواصل أبحاثه فى الموسيقى الكالدية أو السريانية لصالح الجنرال دو لاسالات (وهو من المثقفين الجرنوبلوازيين الذين كان يبالغ فى الإلحاح عليه ولكن كان « زميله فى أكاديمية جرونوبل ») .. ويواصل دراسته فى علم النمية ويكتب بعض المقالات لصحيفة « المخزن الأنسيكلوبيدى » التى يصدرها ميلان ويقوم بزيارات متعددة إلى كنيسة سان روش – لأسباب لا علاقة لها بالتقوى بل لكى يزيد من إمتلاكه للغة القبطية مع القس الشفتيشى ويجرى ذات اليمين وذات اليسار ليؤدى الطلبات التى يكلفه بها أخوه .. لذلك يمكن أن نقول أن إبن صاحب مكتبة فيچاك كان شاباً مشغولا .

كيف لايسخن وهو باستمرار يجرى وينسخ ويبحث ويكتب ويقرأ ثم يجرى طول الوقت ؟ كان چاك – چوزيف واعيًا بذلك كله لدرجة أنه نصحه فى يناير ١٨٠٨ أن يعتنى بصحته : « تذكر الدواء الذى وصفه لك مسيو جانيون فى الخريف الماضى . يجب أن تشرب بعض المشروبات المنعشة [...] مثل « الأورچا » [...] إشرب منه عدة مرات فى اليوم ولكن بعد الوجبات بفترات طويلة . لاتستحم لأن الاستحمام مضر لك فى الشتاء ... » .

رد چان – فرنسوا جاء كالتالى : « سأتناول الأدوية التى كتبها لى مسيو جانيون – إنى أشعر بسخونة وتنتابنى آلام الرأس والمشروبات المنعشة تفيدنى كثيرا » مع ذلك فعند حلول شهر يونيو أرسل يحيطهم فى جرونوبل بأنه قد أهمل شرب « الأورچا » لأن الجو ليس حاراً ثم إن هذا المشروب « غالى السعر جدا » .

والسؤال الآن هو كيف كانت هيئة هذا المراهق المستقيم الذى ذهبت عن ذاكرته صورة پولين ومع ذلك لم تحل مكانها عاطفة جديدة تملأ عليه أحلامه وتحرك نهاره ؟ لما كنا لم نستدل على نص يصفه فيه طرف ثالث فإننا نكتفى بهذا الوصف الذاتى السريع الطريف المؤرخ ٤ فبراير ١٨٠٨ والذى يكشف عن نوع من التصالح مع الذات :

« أشكرك كما أشكر زوبه على تمنياتكما لى بالهناء [...] أما بالنسبة لصحتى فإن الصداع لم يعد متكرر الحدوث كما كان إلا أننى أشعر بألم فى جانبى الأيمن يضايقنى كثيرا فى التنفس . سأستمر فى المنعشات التى أفادت عينى كثيرا فأصبحتا متوازيتين الآن تماماً * . وعلى الرغم من أن لون بشرتى مازال يميل إلى « العربية » إلا إنه أصبح أكثر بياضا . زاد طولى كثيرا وأصبحت بذلتى « ألفراك » البنية التى كانت طويلة بعض الشئ تناسبنى تماماً الآن .. »

إن بذلته الفراك المناسبة تماماً لاتلخص الحالة التى كان عليها وضعه المالى ، سنراه بعد قليل غاضبا للغاية من باريس والباريسيين ، ولم تساعده الضائقة المالية التى يتخبط فيها على إزاحة السحب التى تجمعت أمام نظرته لهذه المدينة حيث المظهر له أهميته القصوى خاصة فى هذا الزمن التى تتوالى فيه الأمجاد البراقه ويتباهى فيه محدثو النعمة .

وإذا كانت رسائل چان - فرنسوا قد إمتلأت إعتباراً من صيف ١٨٠٨ بإشارات إلى أبحاثه وإكتشافاته العلمية وإلى ماينشره منافسوه أو من سبقوه فإن رسائله الأولى التى سبقت تلك الفترة كانت تكثر فيها الشكاوى وعلامات الأسى والطلبات والملحوظات المرة عن قلة موارده والحالة المريرة التى يتخبط فيها « فقيرا مثل الشعراء » .

ونذكر هنا بعض الأمثلة المنتقاه عشوائيا لهذه الشكاوى التى كان يطلقها الواحدة تلو الأخرى مثل المدفع الرشاش على أخيه چاك - چوزيف شامبوليون - فيچاك « أبى على » :

* سبق أن أشرنا إلى عدم التوازى الذى لوحظ فى نظرة الشاب .

« .. لايوجد معى سول واحد . كل مايمكننى عمله هو تنظيف ملابسى وأدفع ثمن نقل الرسائل التى تصلنى * ... » « إن مدام ميكـ ران تعـذبنى وهى تستلم إيجار الغرفـة »
« مدام ميكران لاتكف عن ملاحقتى يوميًا من أجل إيجار الغرفة وليس فى إمكان مسيو فرچا أن يعطينى مـالاً لأنه لايمتلك [...] مايكفى لمأكلى أرجوك أن ترسل لى مالاً فور إستلام خطابى ... »

« حالتى ميئوس منها . لا أجد معى سولا واحدا . إرسل لى فوراً مرتب الشهر القادم حتى لا أكون مضطرا إلىٰ تحمل آلاف المضايقات التى تثيرها لى مدام ميكران بسبب إيجار الغرفة ... »

« استحلفك أن ترسل بعض النقود لدفع إيجار الشهور الأربعة المستحقة لمدام ميكران »

ثم يضيف ساخرا « بدأت ألاحظ أنى أصبحت باريسيا بالفعل بسبب الطريقة (اللبقة ؟) التى تخلصت بها منها فى المرات المائة ألف التى جاءت تطالبنى فيها بأن أمرر لها الثمانية عشر فرنكا . أصبحت أخشى الحجز والقضايا والحبس إلخ إنى يائس وليس معى سولا واحد .. »

كان چان – فرنسوا مستعداً للاكتفاء « بالتعيين » العادى الذى يتغذى عليه من « الأخوة الريفيين » ولكنه لم يكن ليقبل بأن يظهر فى مختلف الأوساط فى هيئة الفلاح القادم من مقاطعة كارسى لباريس أو الجلف الواصل من الدوفينيه . وهو يسأل شقيقه بعد ذلك ببضعه أشهر :

« مـن تريدنى أن أصـادق ؟ إذا أردت أن تسكـن فى باريس وتعـيش مع الباريسيين فعـليك أن تتصـرف مثلهم . وإنمـا لا أعنى بـذلك وجـوب الصرف على العروض الفنيـة وحفـلات الرقـص ومـا إلى ذلك : إنمـا أقـصـد أن يـكون ملبسك ملائمـا وهو مـالم يتوافـر لدى . إنك لاتذهب فى المجتمـع وأنت ترتـدى جـوارب سـميكـة مـن القطـن ترتفـع حتى الركبـة وصيـديـريا أسـود ونفـس البدلـة القديمـة الريفية . ولهـذا السبب فـإنى لا أرى أحـداً ولا أقـدر

---

* كان يوجد فى ذلك الوقت نظامـان لإيصـال الرسائل : « البريد الكبير » وكان يعمل بنظام النقل بعد دفع المستحق » والآخر داخلى فى باريس فقط ويعمل بنظام « حمل الرسائل المدفوع » .

أن أرى أحــدا . [...] وهـــا أنا أصبحت ضـمن فئــة اللا ... سرواليين * دون أن أكــون من معتنقى مبادءهم ولا أهدافـهـم [...] الحقيقة هى أن هيئتى فظـه بما أرتديه مـن ملابس واسعـة وأطـول مما ينبغى وتفصيلها كريه . وإنى أعترف لك أن هذا هو السبب الذى يجعلنى لا أرى مخلوقا ... »

أمـام هـذه الحدة فـى العرض لم يكن أمام چاك – چـوزيف سوى أن يستجـيب إلا أنه لـم يتلـق ســوى تقريع جديد محرر بوقاحة تنبئ عن كثير من الأحداث :

« وصلنى طــرد الملابس . الإنجليـزية (نوع من البدل) جـميلة للغاية والسراويل أجمل . الصديرى يبـاع بثلاثين سولا فى الشوارع وكان فى مقــدورك أن تــوفر ثلاثة فرنكات وعشرة سول قيمـة المشال . ولن أقول شيئا عن جواربك الحريرية السوداء فـهى مقبولة إذا أرتدتيـها فى المساء للذهاب عـند مسيـو ميــلان حيث لاينظــر أحــد إلى السيقــان أو إذا أرتديتها نهــارا للذهاب إلى ملجــأ العميان إلا لو إحتجتها أنـت لترقيـع ماتبقـى لك مــن ملابــس . أعــترف فــى النهــاية أنـك لن ترتديهما أنــت ! وأقـول لك أنى قمـت بتفصيل ســروالا جميلا من نوع مـحل مـارثان وسـوف يرسل لك الحســاب الســداد . عندمـا أجـد اللبــاس اللائــق والحذاء المقبول سأقوم بتأدية جميع المهام التى كلفتنى بها مهمــا كانت إذ سيكــون فى إمكانى أن أظهر فى المجتمع .. بل إنى مستعد ساعتها أن أرى الإمبراطـور ذاته إذا كان فى ذلك مايرضيك » .

ما هو السبب وراء هذه الوقاحة المفاجأة خاصة أنها موجهة إلى الشخص الذى يكن له كل مـودة ؟ ذلك لأن هذا الأخ الذى يدين له بالكثـيـر يطلب منه فـى المقـابل أن يكون ممثله أو سفيره لدى الشخصيات العامة الباريسية وأساتذة الجامعة والسلطات الأكاديمية : إن چاك – چوزيف رجل طموح دائم البحث ليس فقط عن كتاب أو مستند ولكن أيضا عن وظيفة أو لقب أو خدمة أو منحة لنفسه ولأخيه الأصغر هذا الأخير كان على إستعداد أن يؤدى دور المرسال لا دور الجلف ...

---

* اللا – سرواليون Les Sans - culotes كلمة أطلقت على الثوار من الطبقات الدنيا فى المجتمع الفرنسى فى فترة المؤتمر التأسيسى بعيد الثورة الفرنسية (المترجم) .

الحقيقة هى أن باريس لم يكن لها عليه التأثير الذى قد يؤدى بآخرين إلى التشتيت سواء كانت عواقبه سعيدة أو تعيسة . إن أقل مايمكن قوله أن الحب من أول نظرة لم يقع بين المدينة الكبيرة والمراهق . وقبل أن يصل به الحال إلى أن يصف باريس « ببابل » فهذه هى بعض السهام التى أطلقها عليها :

«... شعرت بألم قوى فى جانبى . إن جو باريس يقوضنى وأبصق مثل المسعور وها أنا أفقد قوتى . إن هذا البلد كريه إلى أقصى حد إذ أن قدميك تبقيان فيه مبللتان باستمرار . أنهار من الطمى * (دون مبالغة) تجرى فى شوارعه ولذلك فإنى أشعر بملل يقتلنى . والترفيه عن نفسى أذهب للتريض الله أعلم كيف . وانتاب طول الوقت (هذا هو الواقع وهذه هى إرادة الله) .

هناك ماهو أفضل :

« أشعر باحتقار يختلط به الكره نحو عاصمة فرنسا القذرة ماذا يمكن أن أفعل وسط هؤلاء الأدباء مصاصى الدماء ؟ وفى هذه الأوكار المثيرة للغثيان حيث يكفى الانحياز لحزب لكى تكون صاحب رأى وتصل إلى المناصب العليا ؟ وكلما أعملت تفكيرى زاد تعلقى بجبالنا . إنك تجد فيها الحساد بل الأعداء أيضا ، هذا صحيح ، إلا أن الرأى المستنير يلقى فيها حقه على الأقل . أما فى باريس فلايوجد رأى سوى رأى الأحزاب . وفيها تعد أحمق إذا سقط الحزب أو « نيوتن » ذاته إذا إنتصر . لاتوجد نقطة وسط لأن لا مكان للحياد حيث يحكم على الأشخاص من لون لباسهم : كفى حديثًا عن هذه القذورات ... إنى مقتنع بما لى من فهم . لأخلاقى أن العاصمة لاتناسبنى . لو أنى ولدت فى الهند لكنت أصبحت بالتأكيد من الدراويش المتأملين . فأنا أكره الحركة ولا أود أن أجد نفسى سوى فى حلقة من المعارف ضيقة للغاية » .

وعندما يقترح عليه أخوه أن يطلب من لوى لانجلاس أن يوجهه نحو عمل رسالة بحثية أو أى مكتوب آخر يرد عليه المراهق بحدة :

---

* الخط فى النص الأصلى .

« حتى إذا ألفت أجمل المؤلفات وأعظمها ثقافة فإني لن أجد قارئا واحدًا لي في شوارع باريس بسبب عظمة إنتشار التذوق العلمي بها !! إن هذا مثبط للهمم لأقصى حد [...] يالها من مهنة صعبة ... مهنة المؤلف ! » .

وهكذا كره چان – فرنسوا شامبوليون الجو الثقافي العام في باريس كما كره المؤامرات التي تصيب مقاهيها وصالوناتها بحمى المؤمرات . كما كره أيضا الأكاديميات والجامعة الواقعة – مثل كل شئ آخر – تحت الديكتاتورية الإمبراطورية . ماذا يمكن أن يكون مصيره وسط هذا الخضم المتلاطم ؟ ولما كان چاك – چوزيف يحاول باستمرار أن يجد له عملا في المكتبة الوطنية أو في التدريس كتب له في ٥ فبراير ١٨٠٨ رسالة يذكر له فيها ماقاله له سونيني :

« هذا هو ما أعرفه عن الجامعة الإمبرطورية . لقد قرأوا المشروع ست عشرة مرة أمام الإمبراطور الذي كرر باستمرار أن هذا المشروع محتاج لأن ينضج [...] ولايوجد مايدل على أنه يريد إنشاء كرسي لغة عبرية [...] فقد راودته كثيرا فكرة إلغاء الكولاج دو فرانس [...] إن مهنة العلوم تمر بمرحلة قاسية للغاية وهي لاتؤدي لشئ الآن . لاشئ يعمل الآن سوى الحرب ... »

هذه الملاحظات المريرة أدت إلى أن أستخلص منها شامبوليون أسوأ الاحتمالات المستقبلية حيث تظهر فيها آثار شخصيته المتذبذبة المزاج :

«... لم يعد لي أمل كبير في مستقبلي . أفضل مايمكن عمله هو أن تبحث لي في البداية عن وظيفة مناسبة في أي مكان تراه . ولايعتبر هذا من المستحيلات بالنظر إلى الوسطات التي تساندني . وفي هذه الحالة ومن هذا الملاذ ستأتي الوظائف بعد ذلك . في المكتبة الإمبراطورية لايوجد سوى مركز واحد هو مركز الأمين [...] إذ لا أعتقد أنك تريد أن تراني في دور موزع الكتب . [...] فكر فيما أقول . الكولاج دو فرانس لا أمل من ورائها ... »

ظل هـذا التشاؤم بل هذه الانهزامية مسيطرة عليه لعدة شهور . فكـتب يوم ٣١ مارس :

« إن كراسى التاريخ والعربية والعبرية غير موجودة أصلا . هناك أشياء أخرى تشغل الجميع !! [...] بعد شهرين فقط من وجودى هنا أدركت أن دراستى للغات الشرقية لن تفيدنى فى شئ [...] ثم .. هل أنا معتاد على التدريس * ؟ هل قمت بالدراسات المطلوبة لهذه المهنة المملة وغير المجدية ؟» .

واستعد چان فرنسوا بعد ذلك بعدة أسابيع لقبول العمل فى وظيفة « فى المؤسسات العلمية مثل المتاحف أو مكاتب الآثار أو التاريخ الطبيعى أو المكتبة » غير أنه بقى على مرارته وإحباطه ، ويقر بأنه لايخدع نفسه بالأوهام :

« لكى تحكـم على المدرسة الخاصة أو المكتبة الإمبراطورية إلخ ... يجب أن تكون مثلى فى الموقع . يجب أن ترى الأشخاص والأشياء وأن تحيا معهم ووسطها وتدرسها ، وأعتقد أنى بعد عشرة شهور قاتلة قضيتها هنا يمكننى أن أصدر الحكم بكل وضوح . »

فى ٢١ مارس ١٨٠٨ وصل به اليأس إلى قمته :

« ... كل يوم يمر يزيدنى إقتناعًا بأن أسوأ إختيار هو سلك العلوم . إن البندقية تلقى احترامًا أكثر من قيثارة أبولون . وعازف نفير فى سلاح الخيالة يجنى فوائد أكثر من أى فنان أو عالم [...] وهكذا ترى أننا مضطرين ** إلى اختيار مهنة جديدة تأكد أنى سأبذل فيها جهدًا أكثر مما أبذله فى دراسة اللغات الشرقية » .

هل فى ذلك مايمكن أن يكون وداعًا للعلم والبحث ؟ وداعا لمصر ؟ چاك – چوزيف يعرف شقيقه وانطلاقاته وإحباطاته . فهو لم يتأثر ويجيبه بهدوء ببعض النصائح المرتبة: « لايمكن أن تدرس الشرق إلا بعد معرفة جميع لغاته التى يمكن إرجاعها إلى لغة واحدة [...] لذلك يجب ترتيب ماهو متماثل بينها . » بارع هو هذا الفيچاك !! فلأنه يعرف تمامًا أن أخاه يعمل على هذا المنوال ويفكر بهذه الطريقة فقد قدم له هذه «النصيحة» أى أنه يود أن يقول له : استمر فأنت على الدرب الصحيح .

---

* كان فى السابعة عشر من عمره .

** لاحظ صيغة الجمع التى تميز به علاقتهما .

١٨٠٨ كان العام الذى تبلور فيه مخطط فرض الحصار القارى المخيف على فرنسا وأخذ منحنى خطرا بعد الثورة الشعبية الإسبانية . وهو أيضا العام الذى تجسدت فيه الشرعية الملكية الإمبراطورية بالأعداد للزواج النمساوى . وهو أخيرا العام الذى إقتنع فيه الإمبراطور فى نهاية الأمر بما أوصى به مستشاروه بتجميع مختلف فروع التدريس تحت سلطة موحدة .

أولى تلك العمليات أدت إلى أن التعبئة الشاملة للتجنيد للشباب إبتداءًا من سن السابعة عشرة وظل التهديد بتجنيد چان - فرنسوا مسلطًا عليه لعدة شهور : فهو قد بلغ السن فى ٢٣ ديسمبر ١٨٠٧ وبالتالى فهو ضمن من سيطلبون للتجنيد .. وتعتبر رسائله لأخيه عن هذا القلق الذى يعمل چاك - چوزيف على تبديده بأن قام بعدة إتصالات ملحة بفوربيه المحافظ الكريم الذى قام بدوره بالاتصال بصديقه فوركروا مدير التعليم . كان هذا الإنذار الأول و نجح فى التخلص الأول من الورطة .

إلا أن شره النظام الإمبريالى لهضم الرجال لاينتهى : إذ عادت نغمة التعبئة تتردد من جديد بعدة بضعة شهور . وهنا إنفتح طريق يسمح بالتفادى عن التجنيد وهو دخول مدرسة « الأيكول نورمال » (وهى مدرسة عليا لإعداد مدرسين التعليم الثانوى) (المترجم) يعفى تلاميذها من دخول الخدمة العسكرية . ولكن چان - فرنسوا يرفض تماما أن ينحنى أمام هذه القاعدة « الاعتقالية » حسب ماقاله فهى لن تسمح له لسنين طويلة قادمة بزيارة مصر والعمل على الطبيعة هناك ولم يأبه فى ذلك بكل مافعله أخوه لحثه على الدخول فى هذا السلك .

فى نهاية صيف ١٨٠٨ تكرر الحال من جديد وتجددت مناشدته لچاك - چوزيف الذى رد عليه دون أى تأثر فى ١٨ سبتمبر « ... لاتقلق من التجنيد [...] ولاتقم بأى إجراء [...] واعتمد علىّ فيما أقوم به للتفادى من هذه الأزمة [...] لقد تخطيت أنا هذه المشكلة ستتخطاها أنت أيضا ... » لقد كان فيچاك على يقين من أن أماله فى چوزيف فوربيه قائمة على أساس صلب لأنه يمثل بالنسبة له عاملا لاغناء عنه فى تحرير مقدمة كتاب وصف مصر . وجه محافظ مقاطعة إيزار التماسًا للإمبراطور « لصالح العلوم » وهو ماسمح للشاب أن يتفادى من الرحيل لفتح سيحومنا وسومو - سيبرا .

ومع ذلك فقد إستلزم الأمر أن يمر صاحبنا بتجربة « القرعة » (التى تحدد من سيجند ومن سيعفى من قائمة المطلوبين) وذلك فى ١٩ مارس ١٨٠٩ فى فيچاك وقد مثله أبوه هناك . وجاء فى الشهادة الموقعة من عمدة بلدته (2) أن « السيد /

شامبوليون چان – فرنسوا » قد سحب رقم ١٦٥ « الذى لم يستدع للخدمة العسكرية » . بهذه الطريقة أمكن الحفاظ على الشكليات .

فى ذلك الوقت ظهر على سطح الأحداث سبب لقلق جديد وهو التجنيد فى السلك القنصلى فى بلاد الشرق . فى ١٣ مارس ١٨٠٨ كتب « صغير » لأخيه الأكبر :

« تم تسفير بعض البعثات مؤخرا إلى المغرب والبربر ومراكش وضموا إليها طلبة المدرسة الخاصة * فأجبروهم على السفر [...] (إن هؤلاء الموظفين) يعاملون معاملة غير لائقة البتة ويشعرون بأنهم باستمرار تحت تهديد سيف أحد الأتراك ... أحكم أنت بنفسك إذا كان العاملون المستشرقون المقيمون فى تركيا الأوربية معرضون للأخطار إلى هذه الدرجة فإنهم سيكونون بل أنهم بالفعل أقل حظًا وهم وسط المغاربة وفى مدن القرصنة فى تونس والجزائر ومراكش [...] لا أشعر أنى مستغن عن الحياة ** لدرجة تدفعنى إلى أن أغامر بها فلا أرى بلادى وأهلى مرة أخرى وذلك من أجل بعض من دخان المجد .. حتى إذا كان هناك مجد فى أن تقيم داخل أربعة جدران داخل قصر قديم بلقب قنصل ... ترتعد أوصالى عند سماع أقل حركة . »

لوحة فنية على الطريقة التركية ... ؟ ما الذى يجعله يذهب إلى هذا المنفى ؟ ثم جاء لوى لانجلاس بعد ذلك يجس نبض صاحبنا الخائف من « البربريات » فيسأله إذا كان « يميل إلى السفر » ويرى نفسه « سعيداً فى المشاركة فى العمل فى إحدى المفوضيات فى بلاد فارس أو فى الهند مثلا ... » (علما بأن لانجلاس هذا كان قد رفض قبل ذلك بعشرة أعوام أن يصاحب نابليون إلى مصر عندما طلب منه ذلك) .

رد چان – فرنسوا بسرعة « أنه ليس بالقوة التى تسمح له بذلك » واستمر الأستاذ على إصراره مع شئ من المديح ولو لمرة واحدة قائلاً « بعد شهرين أو ثلاثة ... » إهتزت معنويات صاحبنا بدرجة أنه اقترح على أخيه ألا تطأ قدماه بعد ذلك المدرسة الخاصة التى يهيمن عليها تمامًا هذا الشيطان لانجلاس ، على أن يكتفى بمحاضرات الكولاچ دو فرانس ودروس دوم رافائيل ... خلاصة القول هو أنه من الممكن أن تحب الشرق وتكره العاملين فى مجاله .

---

* اللغات الشرقية .

** السطر موضوع فى النص الأصلى .

إلا أن باحثنا الكاره للغربة مستعد لقبول إستثناء واحد :

كتب يقول لأخيه :

« هناك أسباب وجيهة جعلت حماسى للسفر إلى الشرق يفتر بعض الشئ ، إلا أن هذا لاينسحب على مصر فعلى الرغم من أن حالتها أكثر أسى من حقول القسطنطينية وطراوده (كذا) وبرسيبوليس إلا أن لها فى نظرى من إغراءات قوية لدرجة تجعلنى أتحدى الصعاب .. إنها مصر !! »

هل يجب أن نؤرخ لدخول چان - فرنسوا الصريح طريق البحث العلمى فى المصريات ابتداءًا من تاريخ قبوله هذه المخاطرة المحتملة التى يشملها إعلان المبادئ هذا أم أننا نؤرخ لذلك من تاريخ الخطاب الذى أرسله لوالديه فى يناير ١٨٠٦ ؟ على العموم فهو الآن فى السابعة عشرة من عمره واضح الفكر ويعرف مايريده .

إذا كان مجال رؤيته قد تحدد أبعاده فإن نطاق عمله مازال مليئاً بالألغام . إذ توالت حالات الطوارئ كما توالت خيبات الأمل الواحدة وراء الأخرى . أو هكذا إعتبر إعادة التشكيل الضخم فى كوادر نظام يدير وجهه عن أصوله الجمهورية طالبًا الحصول على الاحترام الذى يضفيه عليه الحكم الملكى . ففى مجال التعليم العالى إختار العاهل الجديد بصفته « المعلم الأكبر » الماركيز « فونتان » مفضلا أياه على أنطوان فوركروا وهو من اليعقوبيين التائبين إلا أن رائحه المتمردين (السان كولوت) تفوح منه * .

مثل هذا القرار بدا أنه فى غير مصلحة الأخوين شامبليون .. ولم يكن ذلك يرجع إلى أنهما أفصحا عن ميول جمهورية وإنما كان ذلك لأن فوركروا كان لايخفى حمايته لهما مثلما فعل فورييه . ما الذى يمكن إنتظاره من فونتان النبيل ؟ الواقع هو أن هذا النبيل لم يكن أقل عناية بصديقينا الجرونوبلوازيين من سلفه . وكان يوجد ضمن معاونيه المقربين واحد من مقاطعة دوفينيه . وسنرى عن قريب آثار هذه الطيبة عليهما .

كلا ! لا الفقر ولا الحزن ولا التجنيد ولا احتمال العمل القنصلى ولامناورات لانجلاس ولاتحفظات چومار ولا خروج دو فوركروا على المعاش ولا التهديد اللاحق بطرد دوفونتان - ولا حتى غرامياته بعد ذلك بقليل ولاشئ من هذا كله كان فى

---

* كان عضوا فى الجمعية التأسيسية (الكونفانسيون) وحل فيها محل مارا بعد موت الملك .

استطاعته أن يبعد شامبليون الصغير عن هدفه السامى . فهو بممارسته لعلم اللغويات المقارن وبدراسته للمخطوطات وبتعامله مع الجزئيات وإعادة ترتيبها وبتشكيل نماذج المعابد الأثرية وبأحاديثه مع من زاروا وادى النيل أصبح أكثر جسارة وسار فى طريق الاكتشاف الذى سيكون كما كتب له چاك - چوزيف « أحد أهم إكتشافات العصر الحديث » .

أولى مراحل العملية الكبرى هى الانتصار المتمثل فى التمكن التام من مختلف لغات الشرق الكبرى وعلى وجه الخصوص تلك التى كانت أو لاتزال تستخدم فى وادى النيل . وتأسيساً على هذه القواعد اللغوية وعلى المقارنات وعلى القياس والتناقضات والاختلاف بينها سيتمكن من البدء فى دراسة العلامات التى تغطى البرديات وأسطح المسلات دراسة منظمة . ولكن مع الأخذ فى الاعتبار الأولوية التى يوليها لعلم اللغويات فهو لايكل فى جمع مختلف المعطيات الخاصة بمصر وجغرافيتها وثقافتها وفنونها .. وتمكن بهذه الطريقة من إعادة تحرير وتعميق العمل الذى تقدم به فى أبريل ١٨٠٧ إلى أكاديمية جرونوبل ليصبح : « مصر فى عصر الفراعنة قبل فترة قمبيز » .

قبل عدة شهور - وانتظاراً لمرحلة الدراسة المنظمة لحجر رشيد الذى وضع الأب دويترسان نسخة منه تحت تصرفه - ظل يعمل بإصرار على البرديات المكتوبة بالخط المتصل المصرى . فى ١٥ أغسطس ١٨٠٨ كتب رسالة لأخيه تبدو كما لو أنها إفتتاحية أوبرا :

« لقد خطوت خطوة كبيرة نوعًا فى هذه الدراسة :

١ - بالقياس تمكنت من إثبات أن جميع هذه البرديات تتبع نظامًا تحريريا واحدًا بالنسبة للخط المكتوبة به .

٢ - أن لدى مايثبت أن جميع هذه الحروف بما فيها الموجودة على حجر رشيد متشابهة .

٣ - إكتشفت معنى بداية البردية المنقولة فى كتاب دونون - وهى اللوحة ١٣٨ [...] والتى تعنى باللغة القبطية بالنص : « قول : أرقد فى سلام يامصرى وتوصل إلى غايتك النهائية وتخلص من ظلمات القبر والموت » .

وهكذا فإن الأمور كما ترى تبدو مبشرة وإذا إستمر الحال على ماهو عليه فإنى

(سأوجه) ركلة قوية إلى كاترومار ومدعى المعرفة بالمصريات الذين يملأون متاحفنا ومعهدنا » .

لم يكن فيجاك يحب إنفجارات أخيه الجدلية إلا أنه كان فى غاية السعادة أمام هذه الاكتشافات لدرجة أنه امتنع أن يخلط مدائحه باللوم « إذا تمكنت من إثبات افتراضاتك [...] فسنجد فى انتظارك شهرة واسعة وبصحبتها فوائد جمة [...] بمايكفى لكى يجعلك تقرر الاستمرار فى أبحاث هى غاية الأهمية [...] إن مشروعك يتطلب المثابرة [...] أن أشهر مثقفى أوروبا سيشعر بالزهو بمثل هذا الاكتشاف ولذا يتحتم عليك الارتباط بهذا المشروع دون رجعة . دع كل شئ عدا ذلك [...] إنى أطالبك (لوسمحت لى) بأن تفيدنى باستمرار بتطورات هذا البحث . ومن ناحيتى وبمساعدة أبجدية أوكربلاد * سأتابع (بحثك) على البردية ١٣٨ فى كتاب دونون وسأسارع بإفادتك بما أصل إليه من نتائج » .

لم يتردد چاك - چوزيف العاقل فى أن يضيف أن الباحث يجب أن يأخذ فى الحسبان « كل ماكتبه » أوكربلاد عن حجر رشيد وكذلك ماكتبه پاهلين بالإضافة إلى أعمال واربورتون ثم يضيف مايلى وهو ماوجد فيه چان - فرنسوا بعضا من السم : « كف عن الهزيان فى مواضيع أخرى - إلا إذا كنت تريد أن تتسلى ... »

لم يكن تشجيع أخيه له قد وصله حتى كتب له فى ٣٠ أغسطس يفيده بأنه خطا خطوة جديدة إلى الأمام متعلقة بالبردية ١٣٨ من كتاب ڤيڤان دونون :

> « للوهلة الأولى اعتقدت أنه من المستحيل أن أفك رموز هذا المخطوط لأنى كنت أعتقد أن المجموعات التى تتكرر كثيراً بها توازى عددها من الحروف . وسرعان ما أدركت أن المصريين لابد وأنهم ساروا فى ذلك على نفس خطى الشرقيين الآخرين . وعلى ذلك نحيت المجاميع جانبًا ورحت أجمع الخطوط الأكثر بساطة . ومع ذلك فإن بعضهم قد قاوم حتى الآن إصرار عينى الكاشفة والمدققة جداً .. على إننى سأتغلب عليها فى النهاية .. »

ثم يشير إلى أنه يستخدم أيضا أبجدية أوكربلاد (الذى سيتعامل مع أبحاثه بعد ذلك بتحفظ) ويقارن بينها وبين رموز حجر رشيد ويعلن لچاك - چوزيف أنه تمكن

---

* عالم سويدى . راجع الفصل ٩ .

بهذه الطريقة من عزل ٢٥ حرفًا « وهو بالضبط العدد ذاته الذى حدده بلوتارك » .. ثم يشير إلى أن هيرودوت قال أن « المصريين يكتبون ويحسبون من اليمين إلى اليسار » . ويختتم چان فرنسوا قائلا : « أرفع لك خطوتى الأولى » وضوح فكرى جميل ! هل نسى فى غمرة ذلك أن « يركل » إتيان كاترومار وآخرين ؟ سنراه بعد ذلك فى خضم معارك ضارية . إلا أن وضوح رؤيته العلمية تبقى مؤثرة للغاية . فهو يقيم التقدم الذى يحرزه بأنه هام بالمقارنة بما توصل إليه أسلافه ومنافسوه إلا أنه لايخدع نفسه بتاتا فيما يتعلق بفرصه المستقبلية لحل الطلسم .

فى بداية سبتمبر ١٨٠٨ لخص لفيچاك الموقف بهذه السطور التى جاءت ردا على تحذير الأخ الكبير له من ميله « للهزيان » :

« أولا : المسلات . لم أدع يوما أنى أقوم بدراسة المسلات بوجه خاص [...] إن السيد الفارس زويجا * الذى كتب مجلدًا ضخمًا جدًا (بحجم الفرخ الكامل) عن هذا الموضوع اعترف لشخص من معارفى أنه لم يخط خطوة واحدة إلى الأمام بهذه الدراسة على الرغم من أبحاثه الهائلة . ومن السهل أن تقتنع بذلك إذ يكفى أن تقرأ الكتاب .

ثانيا : البردية . نحن هنا أيضًا بصدد نقط غامضة مثيرة للارتباك لقد قرأت سطرًا ونصف وقمت بعمل أبجدية على أساس أثر معروف للكافة . واكتشفت معنى واضحا يتوافق مع المناسبة ومكتوبا بأسلوب مناسب .. ومع ذلك فإنى لم أتقدم قط إلى الأمام .. لايمكننى أن أتقدم لأبعد من ذاك فالمجاميع تعرقل مسارى . لقد درستها وفكرت فيها أيامًا بأكملها ولم أفهم شيئًا . الحقيقة – دون فخر – هى أنى ذهبت فى هذا الموضوع أبعد مما ذهب إليه جميع الأثريين السابقين مادمت قادرًا على إثبات أن جميع البرديات (المكتوبة بالخط المتصل) تتبع أبجدية قريبة للغاية من بعضها وهو مالم يفطن إليه أحد حتى الآن ... »

لا أحد ؟ يفطن ؟ إن هذا الشاب المتهور يتسرع فى أحكامه ويمر فجأة من التواضع إلى خليط من الثقة الزائدة بالنفس والانهزامية . وهو فى السابعة عشر من

*عالم سويدى . راجع المقدمة والفصل ٩ .

عمره يقر بأنه « لم يفهم شيئا بعد » ثم يبت فى كل شئ ويبدى نحو أساتذته نوعا من الاحتقار فى صورة ومضات تنبؤية ولكنها بالطبع غير لائقة :

«... ومن جهة أخرى فأنا عليم بأمور هذا القرن وبعلماء هذه الأيام ! وإذا حدث لشقائى أن تقدمت فى اكتشافى فإنى سأجد كل علماء الحاضر والمستقبل واقفين فوق جسدى يمطروه بالنقد والحذف ووداعًا للراحة * إنى أعتقد على العموم إن الدراسة العليا للآثار القديمة التى أكرس لها وقتى غير قادرة على التوصل إلى نتائج يمكن تقديمها للجمهور الذى هو فى الوقت الحاضر جمهور غبى . ذلك لأن أقل هذه النتائج ستصدم الأفكار المسبقة فلايمكن أن يتفق معها سوى عدد قليل جدا من الشخصيات المتنورة ... »

وكما لو أنه أراد أن يزيد من تحديه « لعلماء هذا الزمان » تحول مكتشفنا فجأة عن الطريق المفتوح أمامه وترك نفسه لسيطرة مايمكن تسميته « حمى دراسة الآثار الإترورية (حضارة إيطالية قديمة) أو بالأحرى « إتروريه . فنيقية » ولعل ذلك حدث بتأثير من الأب دوترسان الذى كان يفتخر ببعض من المعرفة فى هذا المجال وكتب لأخيه جاك – چوزيف فى بداية شهر سبتمبر :

« الإتروريون يشغلونى فى هذه الأونة : اللغة والأوسمة والأحجار المنحوتة والآثار والتوابيت كل شئ أصبح محفورًا فى رأسى . لماذا ؟ لأن الإتروريين قدموا من مصر . مثل هذه الخلاصة ستجعل كل مثقفيك الغارقين فى كل ما هو يونانى ولاتينى يقفزوا إلى أعلى ! ومع ذلك فلدى الدليل القوى جدا على ذلك ... »

« الدليل » كان عبارة عن « حفر بارز على بازلت أسود أرسل إلى الكاردينال بورچيا وعلى الجانب الآخر من الحجر وجدت بعض الكتابات الإتروريه » .

نفذ صبر جاك – چوزيف بعد أن رأى أخاه الذى كان قد أحسن التعامل مع مسألة الخط المتصل المصرى – ينحرف فجأة فى اتجاه هذا الدرب الإتروري . هل هو غير قادر على أن يقوم بمجهود متصل ومجهد ؟ وهذه الطريقة الناقدة للسلطات المعترف بها وللرواد ! فأرسل له خطابين متتالين يعبر له فيهما عن سخطه وخيبة أمله .

---

* حديثه هنا بمثابة نبوءة حقيقية .

لماذا تضع نفسك فى موقف معارض « لحقائق معترف بها من عالم « العلماء ؟ » ولماذا هذا الموقف الخاص بالأتروريين . وقد مضى « ألف عام عرف خلالها أن الأتروريين نصفهم مصرى » ؟ . وهو مايتضح حسب قول الأخ الأكبر بوضوح وبالمستندات من كتاب « إتروريا ريجاليس » لدمستار .. أليس من الأفضل « أن نحسن الرأى بكل ماتم عمله » بدلا من نترك أنفسنا « لتأثير بعض التفاهات والنكات »

أخطر من ذلك كان الهجوم الذى شنه فيچاك على نقطة حساسة مركزية : « لقد استسلمت لليأس إزاء دراسة البرديات .. لقد قرأت سطرًا ونصف ثم توقفت عند تلك النقطة ... لم أعد أعرفك أين ذهب ذوقك المصرى ؟ لقد سبق أن قلت لك أنه ينقصك الاستمرارية فى العمل [...] هل كتب على أن أقوم بواجباتك ؟ شاركتك العمل ثم تتركنى هكذا ... »

عاد چاك – چوزيف بعد عشرة أيام إلى الهجوم بحدة متزايدة : « ادرس شيئا واحدًا بدلا من الهذيان فى كافة اتجاهات العالم ومن المرور على موضوع ما مرور الكرام [...] وبدلاً من الاعتقاد أنك ترى أفضل من جميع الآخرين وأن تختلق لنفسك نظمًا خيالية لا أساس لها سوى بعض الآراء المتحذلقة حول جذور الكلمات وبعض التشبيهات القياسية الذكية ... »

هل هو يهذى ؟ إن الذى يصفه چاك – چوزيف بالفرس الجامح الذى يطالب بزاد مضاعف ثلاث مرات لم يرض بمثل هذه الضربات حتى لو كانت كانت من سوط « أخيه العزيز جدا » ! فكانت هذه الرفسة :

> « لو أن رأسى رأس صغير يختلق نظمًا خيالية لا أساس لها سوى بعض التفاهات فلماذا تريد أن تطبع جغرافيتى المصرية ؟ وهى المليئة بمثل هذه المواضيع ؟ حتى لو قلت عنى أننى مجنون فلن يمنعنى ذلك من دراسة التاريخ القديم بوساطة اللغات ومن حب أصول الكلمات ، والأكثر من ذلك – ويا للكفر الأسود – لن يمنعنى من احترام لغة مقاطعة بروتانيى السفلى احتراما عميقا» .

ويعاود فى خطاب ٢٩ سبتمبر :

« ... أتظن أنك ستـرهبنى بعـالمك من المتـعلمين . ولكن هل تعلم مـا هو هـذا العـالم المتعلم ؟ هذا العـالم المتعلم مثل عـالم السيـاسة يسير مـغمض العينين وراء قـائد يستـحق أو لايستـحق أن يقود ، قـائد يؤمنون بآرائه جميعاً لأنها صـادرة منه [...] إلى أن يظهر قـائد آخر أقوى منه أو أكثر حذقاً أو براعةً فينقلب عليه ومعه النظام القـائم ليـقـيم آخـر بدلا منه .. ألم يكن الاعـتـقـاد السـائد لزمن طويل أن الأرض مسطحة ؟ ... وكان معشر المتعلمين فى ذلك الوقت يؤمنون بأنها مسطحة . »

– ابتـداء من ذلك الحين سيـأخذ رفض شـامبوليون الصـغير للأوضـاع القائمـة أبعاداً أكثر نشاطاً وسيتضـخم ويفرقع فى جميع الاتجاهات . ويصيب أخاه بالهلع وهو يراه يستهدف أسـاتذته وكبار الشخصيات فى المجتمع وأعضـاء الأكاديمية وكبار رجال الدين وجميع من حملوا ألواح الناموس وراحوا يؤكدون عبر القرون أن الأرض لا يمكن أن تكون مستديرة ما دام الڤاتيكان أفتى بذلك . ثم يفتح النار متطاولاً :

« المصـريون ، هـذا الشـعب البـسيط من زراع البصـل* كـانت أفكارهـم أكثـر عظـمـة وأقرب لله من صـاحب القـداسـة البابا تبعنا، ممثل يسـوع مـسيـحنا على الأرض . أمين ..»

أهـداف هــذه السـخرية المحطمة للأوضـاع التقليدية القـائمة كانت متـوافرة . بعـض هـذه الأهــداف كــانت مكـشـوفـة وتتـعـرض له بسـذاجـة دون أيـة دفـاعـات تقريبا مثل ألكسـاندر لونوار الذى نشر كتابه « الشرح الجديد للحروف الهيروغليفية » La Nouvelle Explication des Hiérogliphes فى عـام ١٨٠٨ ** الآخـرون لم يقفوا مكتوفى الأيدى مثل إتيان كاترومار الذى نشر فى نفس الفترة كتابه « أبحاث نقدية وتاريخية فى لغة وآداب مصـر » وهو كتاب أبعاده مختلفة تماماً . أما مجموعة مؤلفى كتاب « وصف مصر » ولن يظهر المجلد الأول منه سوى فى العام الثانى (وكان چـان فرنسوا يتـابع أعمالهم عن قرب) فقدإحتفظ لهم – هـم أيضا – « بنصيبهم » من الهجوم .

* البصل هو الغذاء الرئيسى فى دلتا النيل .

** راجع المقدمة

لم يكن چان – فرنسوا شامبوليون فى الواقع قديساً علمانيا كما عمل على تصويره مريدوه من كتاب سيرته بل هو مجادل عنيف لدرجة التسميم أحيانا مثل الحية فى لدغها وهو مناظر عنيد ومتعصب ؛ هو خلط من فارس جاسكونى مثل فرسان قديم الزمان المحاربين بالسيوف الذين خرجوا مثله من منطقة فيچاك ومتحرر عنيد من مقاطعة دوفينيه مثل ستاندال . قلة قليلة من الناس تلقى القبول فى عينه وأمام قلمه . وأقلهم قبولاً عنده هم أولئك الذين تجرءوا قبله فى السير على درب محاولة الاكتشاف العظيم للغز الهيروغليفى .

إن الملاحظات التى سنقرأها تثير الاندهاش الشديد بل والمضاعف لا بسبب نضجها المبكر فقط بل لوقاحتها أيضا . إذ يجب ألا ننسى أننا بصدد مراهق فى السابعة عشرة من عمره ثم فى الثامنة عشرة . وهو لا يزال طالباً وعلاوة عى ذلك كله فهو يحاكم أساتذة مبجلين (من أخيه على الأقل) وعلماء مشهورين .. حدة نبرته لن تهدأ مع تقدمه فى السن . ولكن سن السابعة عشرة هو سن رامبو عندما تحدث عن شعراء عصره المشهورين ...

صحيح من جهة أخرى أنه استثنى تلقائيا « ميلان » هذا الرجل الخير الذى ساعده كثيرا هو وأخاه فى مقال نشره فى مجلة معلقا على التفسير الذى قدمه ميلان للأبراج السماوية المرسوم فى معبد دندره . وصحيح أيضا أنه كان يود لو هدم تماماً كتاب « الشرح الجديد للهيروغليفيات » للونوار وكان يعتبره مثيرا للسخرية . فقد كتب « صغير » لأخيه : « إنه فرخ أوزة ولكنه فى آخر الأمر ولد ممتاز » ثم يضيف قائلاً إنه سحب مقالا له من المطبعة كان يتكلم فيه بصراحة لأنه « فرخ الأوزة » تعامل مع صديقى دوبوا بطريقة يحمد عليها » ثم لأن هذا النقد كان سيصنع له أعداء لأن علاقات لونوار هذا « مع الإمبراطورة كانت جيدة للغاية » – هكذا ! تخرج لنا على السطح أولى علامات الانتهازية والتنازلات عند هذا المحارب المغوار .....

لكن هذا المزيج من التسامح والحيطة نحو مستقبله لم يشفع لإتيان كاترومار (وكنايته « بوليكارب ») لديه فكان كما سبق ورأينا يحلم بأن « يركله » . وكتب چان فرنسوا يقول لأخيه أنه « لا يخشاه البتة » فيما شرع فيه من « عملية اقتحام البرديات » لأنه رجل حقود وليس أنانى » . فهل كان هذا الشاب الذى ادعى أنه « عليم بعالم العلماء » يعتقد بالفعل أن ذلك الباحث يختلف فى هذا عن أغلبية أقرانه من العلماء ؟ على الرغم من كونه « حقود وأنانى » فإن نشر « بوليكارب » لكتابه « أبحاث

نقدية وتاريخية فى اللغة المصرية » عام ١٨٠٩ اعتبر حدثاً هاماً وصُفِق له بحرارة واعتبر كذلك من المرشد سيلڤاستر دوساسى .

وقد زاد هذا من غيظ چان – فرنسوا : هل سيسبقه هذا « الحقود » (أجمع الكل على نعته بهذه الصفة) فى أبحاثه .. فى ربيع ١٨٠٩ عاد « صغير » إلى العمل فى « قواعد اللغة القبطية » الذى كان قد شرع فى تحريرها . وراح يملأ الصفحات كتابة حول النص الديموطيقى المنحوت على حجر رشيد والذى حصل على نسخة منه من الأب يترسان . فقد أقنع نفسه وحاول إقناع أخيه بأن العمل الحقيقى لم يبدأ بعد وأن « بوليكارب » مثله مثل جميع من سبقوه لم يقتحم بعد قلعة أسرار البرديات . فهو إذن ينحى جانباً وبشراسة كبيرة جميع المحاولات السابقة .

الجزء الأول من كتاب وصف مصر الذى سينشر فوربيه مقدمته فى العام التالى ظهر فى يونيو ١٨٠٩ . فهل أتى هذا الجزء المنشور بجديد حول الموضوع الهام ؟ يعترف صغير على مضض فى خطاب بتاريخ ١٣ يونيو أن المؤلف جاء فى صورة « مجموعة عظيمة » تضم « رسومات جميلة » وهى إذ تنقل بدقة المخطوطات والبصمات يمكن اعتبارها « أساسا صلباً للأبحاث الأركيولوجية » . أما فيما يتعلق بمحاولات فك ألغاز الهيروغليفية التى قام بها أعضاء لجنة مصر التى يرأسها چومار فيعتبرها چان – فرنسوا « تفسيرات كماء المخللات (الطرشى) ... » طاخ !!

ماذا يقول عن الرواد فى مجال فك الشفرة ؟ ما أن يبدأ الحديث حول الموضوع إلا ويفتح النار من جميع الاتجاهات فى حرب إبادة :

« كل ما قاله عن المسلات كيرشار وچابولنسكى وڤاربورثون الخ . .. لايجدى إلا فى إثبات أن أحداً لم يفهم شيئا ولن يفهموا شيئا أبداً [...] »

وماذا عما قيل عن أن الدانماركى زويجا أصبح على الدرب ؟ الرد : « السيد الفارس زويجا قام بتجميع كمية هائلة من المواد الأولية ليبنى بها مبنى ضخم [...] إلا أنه لم يضع لبنة واحدة فوق أخرى ».

والسويدى ... آ كرىالد ؟ الرد : « لقد اعترف بنفسه للأب تيرسان والذى أقر لى شخصيا بذلك أنه على الرغم من أبجديته واكتشافاته الجميلة لا يمكنه قراءة ثلاث كلمات على التوالى فى نص مصرى . »

مهما كانت درجة قسوته على من سبقوه وعلى منافسيه فإن چان – فرنسوا

شامبوليون كان يعترف فى ذلك العام ١٨٠٩ أنه لا يزال يبحث عن طريقه وأنه يواجه صعابا حتى فى تحديد أسس بحثه ذاتها. وذلك فيما يتعلق بما أسماه ببساطة « الخط المكتوب » . ولذلك فهو يعمل بجد ليتمكن تماماً من اللغة القبطية . فهو على يقين أنه يقف هنا على أرض صلبة يمكن أن يشيد فوقها وهو مطمئن .

سبق وذكرنا محاوراته المستمرة منذ نهاية عام ١٨٠٧ فى كنيسة سان روش الكائنه بالقرب من مسكنه مع القس شيفتيش ، وكنيته « باسا » . وكانت هذه العلاقة بالنسبة له كنزا لايفنى . إلا أنه اكتشف أيضاً فى المكتبة الإمبراطورية مخطوطا باللغة القبطية ظهرت فيه أسماء المدن المصرية مكتوبة بطريقة تؤكد افتراضاته ، وأيده فى ذلك دوم رافائيل .

أخذ باحثنا الشاب وفى يده نسخة العهد الجديد باللغة القبطية التى أعارها له الأب تيرسان ينقل بطريقة منظمة المخطوطات القبطية الموجودة فى المكتبة الوطنية ، هكذا اندفع فى طريقه.

خلال صيف ١٨٠٨ شرع فى دراسة قواعد « اللهجة الطيباوية – الصعيدية » المستخدمة فى جنوبى مصر حيث تعيش أغلبية الأقباط .

وسنجده فى مارس وابريل من عام ١٨٠٩ وقد تفرغ تماماً لدراسة وممارسة اللغة القبطية :

« إنى متفرغ تماماً للغة القبطية [..] أود أن تكون درايتى بهذه اللغة كالفرنسية تماما لأن عملى الضخم عن البرديات المصرية سيقوم على أساسها [...] لغتى القبطية تتحسن باستمرار وأجد فى ممارستها سعادة كبيرة حقا إذ يمكنك أن تتخيل أن سعادة الحديث بلغة أمينوفيس ورمسيس وتحتمس ، لايمكن أن تكون صغيرة . [...] أما عن اللغة القبطية فأنا لا أفعل شيئا آخر أنا لا أحلم إلا بالقبطى . ولا أفعل غير هذا . لا أحلم إلا بالقبطى ، المصرى [...] لقد ألفت (١) قواعد لغة طيبة – صعيدية (الوحيدة فى العالم) (٢) كتاب عن لهجة ممفيس (٣) مقارنة بين اللهجتين (٤) نقلت قواعد اللغة الصعيدية إلى اللغة العربية من النص القبطى (٥) نسخت النصوص (٦) ألفت الحرف أ من قاموس صعيدى (لا يوجد قاموس أصلا) (٧) انتهيت من سبعة حروف من قاموس للهجة المفيسية مبنيا على جذور الكلمات . [...]

أصبحت قبطياً لدرجة أنى أسليّ نفسى بترجمة كل ما يخطر على بالى إلى اللغة القبطية ؟ وأتحدث مع نفسى بالقبطى (شرط ألا يسمعنى أحد) وهذه هى الطريقة الوحيدة التى ستدخل لغتى المصرية الخالصة داخل رأسى . بعد ذلك سأقتحم البرديات وبفضل قيمتى البطولية أمل أن أتى عليها . لقد خطوت خطوة كبيرة . إنى أعتبر شخصيا اللغة القبطية أكثر اللغات كمالاً وأكثر اللغات المعروفة عقلانية ... »

الملاحظ أنه لايتحدث عن الهيروغليفية وأنما عن البرديات . فهل يرجع ذلك إلى أنه كان يعتقد أن اللغة المقدسة فى مصر القديمة كانت تستخدم فى هذا الشكل أساساً ؟ لقد لاحظ هو مع ذلك أنها فى صورتها المستخدمة فى المعابد تستحق الدراسة أيضا .

ففى ٢٨ يوليو ١٨٠٨ أى قبل عدة أشهر اكتشف مع صديقه دوبوا النحات الممتاز الذى درس فى إيطاليا « فى حديقة الكونت دو شوازول الجزء الأعلى من مسلة من الجرانيت ونحتها وهى الوحيدة التى رأيتها محملة بهيروغليفيات دقيقة وجميلة بهذا الشكل » . صب الصديقان وجهاً من المسلة . يعلن چان فرنسوا لأخيه بعد ذلك بأسبوعين أنه سوف يبعث إليه ببعض القطع الجميلة التى صبها له دوبوا : رأس مصرية وبارولييف من طيبه وكذلك « تمثال مصري صغير جميل للغاية » قال أنه أخذه من الكساندر لونوار و « لوحة صغيرة هيروغليفية منقولة من مسلة شوازول » .

وهكذا ظهر له بعد جديد يتميز به هذا العالم الذى اعتزم سبر أغواره قبل أى شئ آخر وهو بعده الجمالى . ولا يعنى ذلك أنه لم يكن قد لمس منذ البداية جمال الفن المصرى فقد فضله على جميع الفنون الأخرى ولكن لكونه هو نفسه رساما فقد تمكّن مع دوبوا من كشف الجوانب الخاصة بالرسم والشكل والتعبير فى الكتابات التعبيرية للكهنة المصريين .

فقد ظهر له بوضوح تام أن هذه الكتابة لم تكن تستهدف فقط وظيفتها الاتصالية إنها تحمل أشياء أخرى كثيرة متمثلة فى رسالة مقدسة تؤدى الجماليات فيها دورها بصفتها قربانا مرفوعا إلى الآلهة . تكْمن هنا إحدى اشراقات شامبوليون الذهنية التى هى إحدى الطرق التى سيسلكها للوصول إلى اكتشافه ألا وهو الوعى بالجانب الجمالى وبمعانى الجمال التى تتمتع بها هذه الكتابة .

لنلاحظ هنا أن انغماسه الكامل داخل الثقافة المصرية اضطره إلى مراجعة فاصلة للأفكار التى كان يعتنقها بالنسبة للثقافة العبرية . فلسنين طويلة ومنذ أن بدأ

دراسة الكتاب المقدس فى مدرسة الأب دوسار جعل منه مركزا لجميع أبحاثه فى الأمور الشرقية فأصبح بالنسبة له الجزء المشترك لثقافات الشرق التى لا تتعدى كونها روافد لهذا النهر الكبير .

ها هو فجأة يزيح اليهود إلى دور هامشى شاجباً « اليهود الجهلة ، المؤمنين بالخرافات الذين يدعون أن الأب الطيب إبراهيم والكهنة اليهود قد علموا قواعد الحساب الأربعة والفنون جميعا للمصريين . » . وستجد قلمه قد كتب كلاماً قاسياً نحو هذه « الجماعة البائسة » و « الملك الصغير سليمان » الذين يدعون أنه فى إستطاعتهم أن ينافسوا فى تاريخ البشرية حضارة أهل النيل ... مناهض لليهود مثل مناهضة ڤولتير لهم وهو سيعمل على التقليل من حدتها فيما بعد وهى لا تنتسب بأى شكل مع مناهضة السامية الحديثة .

كان ربيع ١٨٠٩ بالنسبة لچان - فرنسوا شامبوليون ربيع الآمال المضطربة ، كانت أبحاثه بالفعل لاتعود عليه سوى بخليط من الإشارات المواتية وخيبة الأمل . لكنه ربما توصل إلى استعادة الروابط المتناغمه مع أخيه وكانت قد مرت بأزمة كما رأينا خلال الخريف ؛ كما أنه بدأ يعيش وذلك لأول مرة منذ وصوله إلى باريس مغامرة عاطفية سنعود إلى الحديث عنها . يبدو أن هذه التجربة قد حركت فيه جذوة - كاد تردده على الأوساط الباريسية الجامعية والسياسية - أن يطفئها .

فيما يتعلق بأعماله فى الأبحاث المصرية القديمة أصبح الأمر أشبه بالاستحمام على الطريقة الاسكتلندية ، فقد توالى عليه بخصوصها الساخن والبارد حسبما جاء فى رسائله لأخيه . ففى أحد أسابيع شهر أبريل كان الأمل هو السائد :

« البرديات أراها أمامى طول الوقت . إنه أكليل من الغار جميل إذا حصلت عليه : أمل أن يكون من نصيبى ! »

الأسبوع التالى تملكه الغيظ :

« وجدت معنى واضحاً ، متماشياً مع الظروف وأسلوبه مناسب .. ومع ذلك لم أحقق أى تقدم ! ليس فى إمكانى الذهاب أبعد من ذلك . . مجاميع باكملها تعطل مسيرتى . قمت بدراستها وأمعنت فيها التفكير دون جدوى ... لم أفهم منها شيئا ! »

فى الأسبوع الثالث : الأمل هو السائد :

« بتشجيعك لى على المضى فى أبحاثى على البرديات تحضنى على المثابرة فى التمسك بالنتائج التى توصلت إليها وهى إنى على علم بما أريد . سأصل إلى هدفى النهائى . »

الأسبوع الرابع . فى بداية شهر يونيو ، ظهر التخوف على السطح :

« سأقوم بتجربة طريقتك لقراءة حجر رشيد . أخشى كثيرا أن تكون مجهوداتنا بلا طائل ، لأن قواميسنا القبطية تضم عددا من الكلمات محدودة المعنى لدرجة تحد الأمل فى التوصل إلى ترجمة كاملة لكل الجمل اليونانية إلى كلمات محددة مصرية (قديمة) ومع ذلك فالمركب سائرة ! »

وفى ١٧ يونيو ، نجد هذه الخلاصة الحزينة المؤقتة :

« المحاولة التى قمت بها على النص المصرى لم تأتى بأية نتيجة .. أسماء الأعلام التى قرأتها مثلما قرأها أو كرباك (علما بأننا غير متفقين فى طريقة الفصل بين الحروف البسيطة) لا تتطابق مع النص اليونانى – وعليه فإن الخط التى طلب منى السير عليه لم يؤد لشئ ، فهو قائم على أساس التطابق الكامل بين النصين اليونانى والمصرى ...... » .

والمركب تسير !!.... الإحباطات كانت كثيرة ، علما بأن « صغير » لما يكن قد تخطى بعد دراسة الخط المتصل إلا أنه كان قد تخطى الأزمة التى عملت فى نهاية صيف ١٨٠٨ على تسميم علاقته بجاك جوزيف خاصة وأن يقظة هذا الأخير كانت أحيانا تأخذ أشكالا تثير السخط . الطلبات والتنبيهات والإنذارات والمهمات والاتهامات والمعاتبات والتساؤلات والتأنيبات والمحاضرات فى الاقتصاد فى الانفاق والاستدعاءات والاحتجاجات والتوبيخات التى كانت تنهال من مدينة جرونوبل على المترجل فى شوارع باريس أخذت شيئا فشيئا شكل الإزعاج المنظم . جاك جوزيف كانت له صفات حميدة عظيمة ولن نكل من تكرار أن لولا وقوفه بجانبه لكانت عبقرية جان فرنسوا السيكلوتيمية (المتذبذبة بين حالات النشاط العظيم والإحباط العميق) (المترجم) قد غاصت فى أعماق القلق والحزن ، ومع ذلك فلقد كان حقا هذا الجاك – جوزيف إنسانا مزعجاً إذا أردنا الكلام عنه بصراحة هذا الجاك – جوزيف . وها هو الدليل .

فقد قرر الأخ الأكبر أن يتقدم لشغل وظيفة مفتش بالأكاديمية التعليمية لمدينة

جرونوبل . فأمر « صغير » فى نهاية مارس ١٨٠٨ بأن يستخدم « جميع الوسائل التى تجعله ينجح فى مسعاه [..] اثبت إلى جانب الينابيع التى ستندفع منها سعادة كبيرة لى وللأسرة كلها [...] إمزج بين الوسائل والتمس الحصول على تسهيلات وحرك الأشخاص الذين يستطيعون مساعدتى على بلوغ هدفى » .

جميل ! ولكن بعد ذلك تبدأ المدفعية الثقيلة ! الطلقة الأولى فى شكل زوج من الأمثلة العامة المشبعة بالجو العام السائد فى ذلك العهد ، عهد تاليران وفوشيه : « المكيدة حويطة ، يجب أن نكون أكثر حيطة » و « فى إمكانك أن تفعل بشخص كل ما تريد إن عرفت من أى جانب تأخذه » (إلا أن شامبوليون - فيچاك لم يوضح ماهو هذا الجانب) لابد لنا أن نختتم هذه الدروس فى الحياة من الأخ الكبير إلى الأصغر بهذا المبدأ الذى تلى ما سبق ببضعة أسابيع : « إن المبدأ يعلو دائماً على المكيدة ولكنها إذا فرضت علينا فلنكد .» .

فى ٢٨ أغسطس : « . أمامنا بعض المنافسين ، إذا لم نكن يقظين فإن « فاجو » هو الذى سينال (الوظيفة) [...] اكتب لى [..] اذهب واستعلم من المنبع الأصلى ونبه الجميع » ثم فى ٢٤ سبتمبر « .. سأجد نفسى مضطراً إلى أن أكتب إليك أخبار باريس من جرونوبل .. [...] لايمكن أن أعتمد عليك فى مهام كهذه [..] هذه هى نتيجة أن تعيش منعزلاً أو وسط أشخاص تنعكس عليهم التفاهات التى يسمعونها أو يتنصتون على أبواب الذين يعرفون [..] عادتك السيئة التى ترغمنى على استنباط كل شئ أصبحت غير محتملة [...] يجب أن تستوفى هذه الطلبات وأن تقول لى بشكل نهائى إذا كان فى إمكانى أن أطلب منك القيام بهذه المهام [...] لأن الماضى لا يسمح لى بالاعتماد على تعاونك ولا حتى على حماسك » .

وإذا ما بلغنا ٦ أكتوبر نكون قد وصلنا إلى مرحلة الابتزاز المالى : « فلان مسرور ... وغلان غير مسرور ... إنكما * إن تحصلا على نقودى وإذا لم أرسل أى نقود كل شهر فعليكما الانتظار ! عندما لا يفكر المرء إلا فى نفسه فهو يجعل الآخرين يفكرون فى أنفسهم . وهو ما سأفعله [..] خطابك تضمن العديد من النفقات غير الضرورية [...] بيرة وقهوة وركوب عربات والخروج إلى الريف [...] هل يمكن أن تقول لى مع من هذه القهوة وهذه البيرة ... » .

---

* جان فرنسوا وصاحب الدار مسيو فوچا .

مهما كان وفاؤه لأخيه وراعيه و « مدير أعماله » العلمى فإن چان - فرنسوا لم يتمكن من أن يكتم غيظه الذى تسبب فيه عند أخيه وأيضا ميله إلى معاملته معاملة الساعى أو حتى المشتبه فيه :

فى ٢٩ سبتمبر :

« إنك تشكو كثيرا من إهمالى إلا إنى أريد أن أراك مكانى . أنت الذى تعانقه زويه [وتدلله] پولين وتهندمه مدام بريزون أى أن المنزل بكل من فيه يحتضنه أود أن أراك فى [..] وسط أوحال باريس تهرول من طرفها إلى الطرف المقابل . فى النهاية (هنا يتضخم الخط كما لو كان يعبر عن إنحناءة التحية) سأقوم بتنفيذ طلباتك مهما كانت ».

« مهما كانت » لها معان كثيرة . لأن المشاوير التى يقوم بها من أجل أخيه تستحق كل معنى لها . فهو يركض من المكتبة الإمبراطورية التى كانت كائنة - بالقرب من المقر الحالى للمكتبة الوطنية بشارع ريشوليو إلى الكولاچ دو فرانس مارا بالشوارع المزدحمة جداً المحيطة باللوفر وتخترقه ثم كوبرى « البونوف » كل ذلك كان يشغل جزءاً كبيرا من أيام الطالب .

بعد ذلك وبعد أن يؤدى عمله كان عليه أن يجرى من حديقة النباتات إلى شارع « الباك » الحالى ومن حى « الماريه » حيث يقيم دوم رافائيل إلى مكتبة مازارين . كم فرسخ فى اليوم يقطعها وقد أصبح متسخاً ويتصبب عرقاً لدرجة التشبع وهو يلهث فيسخن » كما تعود أن يقول ؛ إنها مهنة صعبة للغاية أن يكون المرء قائما بأعمال چاك - چوزيف شامبوليون شامبوليون - فيچاك ! ساع أم حمّال ؟ من المؤكد أن الأخ الصغير لم يسرق حماية أخيه ولا مساعدته له ...

وها هى صرخة التمرد تنطلق فى ١٠ أكتوبر ١٨٠٨ من الشاب وكان قد غاص تماماً فى عملية فك شفرة حديث الآلهة فأصبح غير قادر على تحمل معادلة ساعى التلغراف غير الواعى :

« عزيزى *

هل أنت حقاً الذى كتب الخطاب الذى استلمته ؟ [...] إذا لم أنفذ حرفيا أوامرك

---

* التخاطب المعتاد كما نعرف هو : « أخى العزيز جداً » .

مقابل النقود التى ترسلها لى فذلك لأنى أعتقد أن لدى أسباب تجهلها أنت لكى أتصرف بشكل مختلف . فيما عدا الاحترام الذى أكنه لكل ما هو صادر من بابكم العالى [..] كان من المفروض أن تعلم منذ زمن بعيد كم يكد مسيو فوچا لكى يتمكن من إعاشة عائلته وهو يعمل من الصباح إلى المساء كالعبيد [..] إنك تعلم تماما أنه طلب منك [..] تسديد الإيجار مقدماً كل شهر [..] كثيرا ماكنت تجعله ينتظر حتى ٢٥ من الشهر قبل أن تسدد له الشهر السابق [..] يبدو أنك تجد من واجبك أن تجعلنا ننتظر ومع ذلك فأنت تختم دائماً خطاباتك بالمواعظ . لعلك تعرف أنه من القسوة بمكان أن تجد أشخاصاً تعساء (من كثرة كرمك عليهم) بأن يذكروك تكراراً بوضعهم المؤلم [..] حاول أن ترسل الشهريات مقدما لأننى أنذرك بأنى أفضل أن أتسول خبزى أو أن أقيم فى آخر كوخ فى شارع سان مارسو على أن أرى الألم (الذى أسببه) لأشخاص أدين لهم بمكرمات عديدة .

اسمح لى أن أقول لك أيضا أنك تبحث عن مصلحتك أكثر مما يجب لأنك تشعر أن كل شئ ضاع إذا ما لاحظت أن أحداً أعطانى بعض النقود أو أصطحبنى أحدهم إلى الريف ليرفه عنى أو إذا أنا أكرمت أشخاصا يستحقون ذلك [...] إنك بتصرفك هذا تبدو كما لو أنك تلومنى على كل ما قمت به من أجلى . لقد أديت لى الكثير وسوف أتذكر ذلك ما حييت وإنى لك لممتن كما يتحتم علىّ أن أكون . ولكنى لا أريدك أن تتحرج بأى شكل من أجلى : إنك لست مدينا لى بشئ وأنا مدين لك بكل شئ ! .. ».

هذا الشاب ذو الدم الحامى لدرجة أن يثور بهذا الشكل على من يحب هل كان من ناحية أخرى عرضة لفكرة واحدة ملحة تعذبه وتجعله حبيس أبحاثه ورموزه بالكامل ؟ هل هو رجل الحب الواحد والرغبة الواحدة والأمل الواحد ؟ كلا ! فى خريف ١٨٠٨ وفى نفس اللحظة التى تعقدت فيها داخل رأسه معطيات المسألة الكبرى – كما رأينا – دون أن تظهر له حلولها والتى مرت فيها علاقته بأخيه بأزمة حادة نراه يقع فى الغرام مثله مثل العديد من الأولاد فى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة . يبدو أنه قابل ثانى امرأة أحبها فى حياته خلال فترة الإجازة ، وكان يمضيها فى باريس وهو مشغول جدا كما رأينا ولكن دون أن تقيده واجباته الجامعية .

إننا لانكاد نعرف أى شئ عن لويز ديشان. * سوى أنها زوجه أحد الموظفين وكان يكبرها بكثير وكان يعمل فى وزارة الحرب . وكان چان فرنسوا يتردد على هذه الوزارة بسبب علاقته بصديقه فوچاس الذى كان يعمل هناك . من المحتمل على كل حال أنه كان يقابل بعض زملائه أيضا ويدعى لزيارتهم فى بيوتهم . كل ما نعرفه مما نستشفه من مراسلاته مع چاك – چوزيف أن صديقنا الشاب قد وقع غرام بهذه السيدة التى ملكت قلبه لمدة عامين – أول المؤشرات ظهرت فى خريف ١٨٠٨ ** وفى ١٨١١ فى جرونوبل قام چان – فرنسوا بمحاولة فى اتجاهها – وكان ولعه لها قد وصل إلى حد أن العاشق راودته فكرة التضحية بطموحاته الجامعية أو على الأقل بأبحاثه .

هل لأن چاك – چوزيف قد بدأ يشتم رائحة مغامرة « باريسيه » كانت ستجرف أخاه بعيداً فاختار أن يفقد وجود قائم لأعماله في باريس وراح يغريه باحتمال تعيينه فى وظيفة أستاذ للتاريخ فى جامعة جرونوبل ؟ احتمال ولكن لايمكن الجزم به ؟ فى نهاية شهر مارس ١٨٠٨ وفى إطار وصفه لما ستكون عليه الجامعة الإمبراطورية أن اقترح چاك – چوزيف على أخيه أن يعود إلى بيته ليكمل حياته الجامعية مضيفا : « حيث يكون المرء سعيداً ، هذا هو الوطن » !! لقد نبتت الفكرة وبدأت تختمر قبل ظهور لويز فى حياة الشاب الصغير . لكن كان على فيجاك أن يضع في حساباته أى إيحاءة بالموافقة من چان – فرنسوا على فكرة تدريس التاريخ فى أى مكان لكي يحاول أن يجذب أخاه ناحيته لينتزعه من « هذا الغرام الاثم » وذلك لدى تأزم الموقف . جاء رد چان – فرنسوا حاداً ويكاد لايخفى السبب الذى يربطه بباريس :

> يبدو لى أننا قمنا بإجراء سئ بمحاولة إيجاد وظيفة لى – فما هو الذى يمكننى أن أؤديه فى الجامعة ؟ ماهو كرسى التاريخ هذا ، على فرض أن هناك بالفعل كرسيا له ؟ هل يتعين على أن أبقى – كما تفرض ذلك اللوائح – عشر سنوات عبداً للحكومة لا أتحكم فى شخص ولا فيما تريد أن تُقدم عليه يدي ؟ إن ذلك يعد ضربا من الرهبنة وأنا لست على استعداد لترويض حبى لحريتى ولا أن أضمن أيضا بقاء قلبى صامتا . فما أصدق هذا المثل الشرقى : « قد تستطيع أن تسيطر على الرياح أن تنتزع السلاح من يد رستم بأسهل من أن تسيطر على قلب المحب ، كما أنك لايمكن أن تنتزع من الوجد العنف طالما أن الحب هو المبدأ . [...] [توجد هنا صفحة بأكملها ناقصة .

---

* باقى اسمها ممحو من الخطاب الوحيد المحفوظ والذى جاء ذكرها فيه .

** حتى ٣٠ أغسطس ١٨٠٨ كان لايزال يلح فى طلب أخبار پولين . ثم يتوقف تماما عن ذلك فى أكتوبر ....

فهل كان هذا صدفة ؟ .. وينتهى عرض جاك - فرنسوا بهذه الكلمات فجأة] ...
حتى من الاستشراق أو الأفكار المثيرة جنسياً ».

مثيرة جنسياً.. لعله ذهب فى تلميحاته أبعد مما يمكن أن تتحمله أعصاب ساكنى منزل جرونوبل . فى ٢٢ أكتوبر وبعد أن اشتكى من أن أخبار زويه لم تصله أضاف فى ارتباك واضح :

« بدأت أشعر الآن أن خطابى قد تسبب فى مضايقتها هى وپولين إلا أنى أقسم لك أن ذلك حدث لعدم اختيارى تعبيرات متزنة . لقد تحدثت بصراحة وإنى نادم بعض الشئ للألم الذى سببه ذلك لكم » .

بعد بضعة أيام أخذ يتوسل لأخيه أن يسمح له بأن تكون ملابسه أقل إثارة للسخرية وأقل ريفية وذلك بأسلوب مؤثر يكشف عن وجود اهتمامات جديدة : « لا تنسى موضوع الملابس . إنه الأهم الآن ! » .

غير أن هذا التحفظ لا يدوم طويلاً وتنفجر العواطف من جديد فى ٢٨ نوفمبر :

« سبق أن قلت لى آلاف المرات أنك لا تريد لى سوى السعادة [...] وهو ما يجعلنى أفاتحك فى موضوع له أهمية بالغة وتتوقف عليه سعادتى الحالية والمستقبلية . لعلك ستندهش مما أرمى إليه ولكنى أريد - قبل أن أعترف لك بما يحدث فى قلبى وبما عزمت على القيام به - أن أحصل على وعد منك بأن يبقى ذلك [...] بيننا فقط وألا تعلم به زويه أو أحد آخر فى العالم [...] آمل ألا تعترض على أعز آمال أخيك على الإطلاق .»

وتتصاعد النبرات مع مرور الشهور . إزاء حث جاك - جوزيف له بأن « يتشكك » فى طبيعة عواطفه يجئ رد الأخ الصغير مدافعاً عن حقوق « الشِعْر » ويختتم كلامه بشئ من الحدة : « إذا كان قلبى قد ترك نفسه يقع فى الأسر فهو سيجد الطريقة التى يشفى بها أو أن القدر هو الذى سيواسيه ».

عودة إلى بايرون ؟ « القدر » و « المكتوب » هما مرجعه سواء كان الحديث عن غرامياته أو عن مغامراته العلمية :

« أجد نفسى مدفوعاً من عقلى دون ميولى ومن قلبى دون أى مقاومة ممكنة فى دروب وعرة تنتشر عليها الحواجز الحادة التى تتوالى فى طريقى دون أن يكون لها آخر . هذا هو قدرى وعلىّ أن أتقبله مهما كان الثمن » .

ومع ذلك فإن « قضية لويز » لم تحفظ بعد . من غير المعروف إذا كان چان فرنسوا قد قطع علاقاته بالسيدة الشابة فى سبتمبر ١٨٠٩ أم لا . من المؤكد أنه أخذ يحاول بعد ذلك بسنة ونصف – وكان قد أقام فى جرونوبل – أن يبعث إليها برسالة . لقد سبق وأشرنا إلى « خدمة » لاتنسى كان قد طلبها من زميله چان سان مارتان . ففى ٥ مايو ١٨١١ وصلت لهذا الصديق الملقب « الأرمنى » هذه الرسالة * من جرونوبل :

« موضوعنا اليوم لا علاقة له باللغة القبطية أو الفارسية بل أحدثك اليوم عن لحب . ستوضح لك الرسالة المرفقة بعض الشئ ما أرمى إليه [..] حاول أن تكتشف مقرها وأن تسلمها الخطاب فى يدها شخصياً ولابد أنك تعرف السلبيات التى قد تحدث لو أنه وقع فى يد السيد د ...

أترك لصداقتك لى عناء إيجاد الوسيلة الحذرة للنجاح فى هذه المهمة . [..] أرسل أحد الأشخاص إلى مسيو دوبيللو [..] يسأل عن عنوان مسيو دسك ... ، المسئول بوزارة الحرب [...] وساعتها ستعرف مقرها . إذا كانت الخادمة چوليان لا تزال تعمل هناك تحدث معها . فهى فى صفنا وستعلم أين تجد العزيزة ... ولا تسلم الرسالة إلا إذا تيقنت تماماً أنها ستتسلمها دون ما خطر [..] فى أسوأ الظروف إذهب لمقابلة مدام فوچاس ، فندق دولار وشفوكو شارع السين [..] كل ذلك يجب أن يبقى سراً بينى وبينك .. » .

لا نعلم شيئا عن بقية القصة ، هل سامحت لويز جان – فرنسوا لسفره فى أكتوبر ١٨٠٩ هل أحبته بالفعل ؟ ليس من المتاح مراجعة مراسلتهما . الواقع أنها ترملت بعد سنتين وتزوجت من آخر .(3)

* تفضل بتقديم هذا المستند لنا السيد / چانو كيتيل ، وهو جامعى من إماره لوكسمبرج وهو يخصص بحثه فى رسالة الدكتوراة لدراسة مخطوطات شامبوليون الصغير .

لم تكن إشارة چاك - جوزيف إلى التدريس فى كلية جرونوبل مناورة فقط من الوصى الذى يريد أن يبعد الموصى عليه بسرعة عن مغامرة حب لا أمل فيها إذ أن الشاب قد نجح وهو ما زال فى الثامنة عشرة من عمره فى أن يلفت إليه الأنظار والتعاطف لدرجة أن مسيو دو فونتان الرئيس الأعلى للجامعة الإمبراطورية ألح فى شهر يوليو ١٨٠٩ إلى إمكانية تعيينه مساعد مدرس للتاريخ القديم فى جامعة جرونوبل . كان عمره ثمانية عشر عاماً ونصف العام حينذاك فلزم التنويه . حدثت فى ذلك الوقت بعض الصراعات داخل إدارة التعليم العام ، وانتشرت شائعات عن احتمال أن يكون دى فونتان من المغضوب عليهم فتعطل تعيين الشاب لشهرين أو ثلاثة . وقد تزامن تعيينه مع تعيين مزدوج لچاك جوزيف فى وظيفتين فى وقت واحد : أميناً لمكتبة المدينة وهو ما كان يحلم به لعدة سنوات وأستاذاً للحضارة اليونانية فى الجامعة وكان قبل ذلك أمينا عاماً لأكاديمية جرونوبل ومديرا لحوليات مقاطعة الإيزار : كان أكبر الأخوين شامبوليون يجمع المراكز الهامة بين يديه .

وهكذا أصبحت الرياح مواتية لسفينة أبنى صاحب مكتبة فيچاك . فبينما كان الكبير يفرض نفسه على مفترق طرق العلوم والصحافة والقمم الجامعية كان چان - فرنسوا وكنيته « صغير » أو « أسد سعيد المنصور » أو « المصرى » مطلوباً ليقوم بتدريس طلبة الدوفينيه وهو فى السن الذى يحاول فيها البعض الحصول على درجة الليسانس .

حظ سئ للوين .. وكرباج للأمام يا سائق المركبة !! .

٥ - أستاذ فى سن العشرين

جامعة وليدة - بدون عقد ... جرونوبل مدينة نموذجية - تصور خاص للتاريخ - چان - فرنسوا صحفى - مساعدو فورييه - قضية الأبراج السماوية - شخصية « بازاچية » فى المحافظة - تخدير ساس - الحرب على كاترومار ! - « أساس المنظومة الهيروغليفية ..... » .

« تباً ! - زأر الإمبراطور - من الأفضل غزو إنجلترا عن القيام بكل هذه الجلبة .. » فى ١٤ فبراير ١٨٠٨ بينما كان مستشارو الأمير يلحون على سرعة تنفيذ مشروع إقامة الجامعة الإمبراطورية صرخ فيهم نابوليون بهذه الجملة المتشددة وقد نقلها چان - فرنسوا إلى چاك - چوزيف نقلا عن نص مكتوب حصل عليه من سونينى .

لم ييأس فوركروا ولا سلفه فونتان .. ولما لم يتمكن الإمبراطور من النزول على شواطئ دوفر فقد أكتفى بهذا الانتصار السلمى أى إنشاء جامعة موحدة على المستوى الوطنى . تم إعتماد المشروع الذى إضطر فوركروا أن يُعَدِّله ثمانية وعشرين مرة بناءً على الرغبات السامية قبل أن يسلمه لنابوليون فى ٩ نوفمبر ١٨٠٩ بعد أسابيع قليلة من عودة چان - فرنسوا شامبوليون إلى مدينة جرونوبل .

اندرج الشاب فى صلب هذه المنظومة الوليدة معيداً بذلك علاقاته بالمدينة التى بلور فيها موهبته وأكتشف الطريق المؤدى إلى مصر بعد أن سلك عدة منحنيات فريدة الشأن ولكن مدفوعا فى اجتيازه بولعه الذى ملك عليه وجدانه . لم يعد إلى جرونوبل عودة الأبن الضال ملفوظا من « عاصمة فرنسا القذرة » أو كما أطلق فيما بعد عليها إسم « بابل » أو كان فى حالة يأس سببتها له تجاربه المرة بها . ولكنه عاد رجلاً أثبت ذاته بما يكفى من إنجازات معترفاً بها أدت إلى حصوله على مركز فى التعليم العالى وهو ما زال فى الثامنة عشرة ...

قبل ذلك بستة أشهر كتب يقول لأخيه : « لا أتوقع الكثير نتيجة لما قد تسفر عنه دراساتى . هل يمكن أن تجد لى طريقا أخر يتفق قليلا وميولى الشخصية ؟ » كما

سنكتشف أنه شك تماماً فى ذاته حتى أنه تصور يوما أن يصبح موثقاً للعقود . أما الآن فيمكن أن نرى خط مستقبله واضحا أمامه . فقد أصبح – على الحلوة والمرة – من المثقفين * .

رضخ رئيس الجامعة فونتان ، لضغوط چاك – چوزيف وعين چان – فرنسوا مساعد أستاذ للتاريخ القديم . بل وذهب إلى أبعد من ذلك بأن جعل التعيين بأثر رجعى إعتباراً من ٢٠ يوليو ١٨٠٩

ومع ذلك يجب ألا تعد العودة هذه إلى الدوفينيه نصراً مبيناً . فإذا كان أصغر الشقيقين شامبوليون سعيدا بكل تأكيد ، برؤية أقربائه أخيه وزوجته وابنهما « على » وپولين وأسرتها آل بيريا وكذلك أوجوستان تيڤونى ، فإن إحساساً بالفشل المزدوج كان يعتصره .

فقد اضطر إلى ترك لويز وهو فى قمة التعلق بها وإذا كنا لم نعثر على دليل يوضح الجو الذى تم فيه إنفصالهما عن بعض إلا أنه فى إستطاعتنا أن نتصور مدى التمزق العاطفى الذى حدث له من جراء ذلك . إن مراسلاته الباريسية خلال ١٨٠٩ وكذلك بعض ما قام به من محاولات من جرونوبل خلال الأشهر التالية تشير إلى أن أستاذنا الذى نضج مبكراً كان من وجهة النظر العاطفية رجلا كليماً .

ومما زاد من كلمه أن طموحه الفكرى العظيم فى أن يعثر على رد لأبى الهول وهو ما ملك عليه عقله لمدة ثلاث سنوات ، لم يسفر سوى عن بعض التقريبيات الهشة . وقد يتساءل البعض كيف يتجرأ مراهق على الاعتقاد بأن فى إمكانه أن ينتصر خلال بضع عشرات من الأشهر فيما تعثرت فيه لسنين طويلة عقول عالية القدر مثل زويجا وساسى وأكربولد ؟

من المؤكد لدينا وبصوة نهائية أن أصغر الشقيقين شامبوليون لم يدخل فى إعتباره أى عامل من عوامل الأجيال أو الرهبة الناجمة عن صغر السن أو عقدة الإحساس بالنقص التى قد تترتب عن ذلك .

لم تكن إجتهاداته بأى حال من الأحوال صادرة عن طفل ناضج قبل الميعاد وقح تزداد ثقته الكاذبة بنفسه بمقدار صغر سنه : فهو إذا عبر عن تبجيل شكلى نحو دو ساسى ** فهو يفعل ذلك بصفته زميلا مدققاً ومناضلا أى نداً لند ومنافساً . يمكن فى

* هل هى مفارقة فى اختيار الكلمة ؟ سندع القارئ يقرر بنفسه .

** ليس التبجيل مرادفا حرفيا للإحترام

هذا المجال اعتبار أن اكتشاف حجر رشيد فى يوليو ١٧٩٩ هو العام الأول فى التقويم العلمى لمحاولات فك طلاسم الكتابة المقدسة : ومن هنا جاء واقع أن جميع الباحثين كانوا من معاصريه مع هامش فارق زمنى لا يتعدى ثلاثة أو أربعة أعوام .

كانت الأشهر التى مضت قد سمحت له أن يعبر عن تصوراته الحدسية وأن يقوم ببعض المقارنات التجريبية . وسبق أن ذكرنا بعض هتافات النصر الصادرة منه وكذلك بعض تعبيرات التهكم المتعالى على أوكرباالد وزويجا وكاتروماير . إلا أنها جميعا كانت متداخلة كما رأينا من قبل مع إعتراف بالعجز وأنات الألم : ومن هنا جاءت القيمة السامية لتشجيع الأخ الأكبر الذى كان موجودا باستمرار ليزكى جذوة الشجاعة فيه عندما يحل به اليأس فيطفأها بسبب تكوينه النفسى المتذبذب بين النشوة والإحباط وبسبب التعقيد الرهيب الذى تتميز به المشكلة المطلوب حلها .

لابد وأن هذا العاشق المجروح وهذا الباحث المستاء قد وجد فى هذه النقلة الجامعية الكاسحة إلى أعلى مواساة تعويضية . سنراه يقبل بشجاعة التحدى الراجع لقلة خبرته . غير أن التدريس وقد برع فيه لم يكن هو ميله الحقيقى ولا هدفه . لقد ذكرنا بعض المراسلات التى أوضحت الأمور تماماً حول هذا الموضوع والتى ذهب فيها إلى ذكر صفة « الجبْنْ » عند الحديث عن مهنة التدريس * لدرجة أنه قال إنه يبحث عن عمل أسمى وأكثر ربحية .

على الرغم من كل شئ فها هو على إعتاب الاحتفال بعامه التاسع عشر مزود بمسئولية محترمة ورفيعة المستوى ستتيح له أن يعبر من خلال تاريخ الشرق القديم عن شئ من عبقريته فى اللغات . هكذا وجدت سهراته ولياليه التى أمضاها فى البحث والدراسة فى مدرسة دوسار وليسيه شارع نوف وتلك التى قضاها فى شارع إيشال سانتونوريه وفى المكتبة الإمبراطورية متنفساً لتعبر فيها عن جدواها بصورة علنية .

وعلاوة على ذلك لا يغيب عن الذهن أنه من حقه وقد تولى كرسيه التعليمى فى هذه السن الصغيرة أن يستثمر تجربة نالها وهو فى سن أصغر عندما لجأ إليه بروسيار أو دران وهو ما زال مراهقا فى السابعة عشر من عمره ليحل محله فى بعض الأحيان فى الكولاج دو فرانس لتدريس اللغة العبرية أمام حضور من « القساوسة ذوى الرؤس الجامدة » ؟

---

* علما بانه سيمارسها بتفان بأشكال مختلفة .

لقد تغيرت جرونوبل منذ أن وطأتها لأول مرة أقدام الطفل إبن فيچاك الصغيرة تحميها قباقيب الفلاحين وذلك عندما كان كليبر يحكم مصر وكان الملازم هنرى بايل (ستاندال) يستكشف مفاتن مدينة ميلانون وفتياتها . كانت جرونوبل حينذاك مدينة متوسطة (يقطنها ٢٠,٠٠٠ فى عام ١٨٠٠ و ٢٣,٠٠٠ فرد فى عام ١٨١٥) ومازالت قابعة فيما بين الأسوار التى شيدها آل كريكى فى القرن السابع عشر وهما زوج إبنة النبيل دوليديجيار وحفيده إلا أن شهرتها كحارسة لجبال الألب وكبرى مدنها كانت فائقة . فى الوقت الذى إستقرت فيها الجامعة الإمبراطورية كانت تحتوى على مجموعة من المؤسسات الثقافية المتميزة فى ذلك الوقت والتى يرعاها ويشجعها محبون للفن والثقافة من ذوى الفكر المتعمق . كانت المدينة تحت إمرة رجل التنوير المحافظ چوزيف فورييه يعاونه عمدة ذو شعبية ونشاط كبيرين هو شارل رونولدون .

فى نهاية عام ١٨٠٩ وإذ كان چان - فرنسوا شامبوليون يستعد لأن يبدأ حياته الجامعية مدرساً بها كانت جرونوبل تعد إحدى المدن النموذجية للإمبراطورية الفرنسية . إلا أن الرأى العام وقد تأثر بالفصاحة الخطابية الليبرالية المتمثلة قبل ذلك بعشرين عاماً فى بارناف ومونييه وفيريو ، لم ينضم طواعية تحت اللواء الامبراطورى .

كانت ذكرى الملكية لا تزال حية تعبر عن نفسها بصور مختلفة : أحد ممثليها كان شيروبان بال والد ستاندال . وكان هذا « الچيزويتى » (أو اليسوعى) هذا « المتطرف » عضوا فى المجلس المحلى يعمل مساعداً للعمدة .

وكانت العقوبية الجاكوبينية نشطة فى المدينة وكان بعض « المثقفين » المحليين المشهورين مثل عالم الرياضيات جرو وأمين المكتبة دوكرو وتاجر الكتب فالكون يتبعون هذا التيار الفكرى . وتحت قيادة المحافظ المشهور كانت البورجوازية المحلية (سواء كانت بورجوازية مهنية أو مالية) قد توافقت مع نظام يحفظ الأمن والنظام ويقوم بتفيذ أعمال ضخمة ويشجع الأعمال التجارية والصناعية .

لم تكن جرونوبل من وجهة النظر الثقافية على مستوى أكس ولاستراسبورج ولابيزا . إلا أن مدرسة الليسيه التى ضمت بين طلابها الأوائل شامبوليون الصغير كان يديرها فوركروا وكانت تعتبر من أفضل مدارس فرنسا . أما الجامعة التى تم إفتتاحها مؤخرا فقد ضمت لها عمودها الفقرى مدرسة القانون ذات السمعة الممتازة التى

أنشأت عام ١٨٠٥ وكانت قد ورثت تراثاً قديماً من الإمتياز ورفع لواءها نواب البرلمان دوفيزيل عام ١٧٨٨ . وقد كان أول من عين رئيسا لها رجل قانون هو شارل بال . أكاديمية الدوفينيه التى حلتها حكومة الكونفونسيون الثورية والتي بعثت من جديد تحت مسمى الليسيه أصبحت « جمعية العلوم والفنون » عام ١٨٠٢ وإستمرت على نشاطها تحت الإمبراطورية .

ثم أضيفت مكتبة * ومتحف أنشئ بمبادرة من الدكتور جانيون جد ستاندال وعلى يد « چى » الذى علم شامبوليون .. كل ذلك جعل من جرونوبل عام ١٨١٠ مدينة ثقافية تواقة إلى التعبير عن نفسها ، ثرية بتقاليدها وحديثة بمالها من هياكل تسمح بأن تتفتح فيها صفوة من المثقفين والتجار والإداريين . يحركهم جميعا بعض الشخصيات المرموقة وتلهمهم حرية فكر رائعة ويزكيهم موقع فريد ويساندهم فوق كل شئ هذا المزاج الدوفينيه المتميز الذى سبق وألمحنا لبعض بعض أبعاده النشطة والعميقة .

الشخصيات العامة ؟ بخلاف چوزيف فورييه وشارل رينولدون وهنرى چانيون يجب ألا نقلص من الدور الذى تؤديه البرچوازيه الكبيرة التى دعمتها الثورة فرفعت من قدرها . على رأس هذه المجموعة يبرز السنيور دوفيزيل وكلود بيرييه المكنى « بيرييه ميلورد » تأكيداً لعظمة وطموح مؤسس الأسرة الصناعية العظمى والتى سيقودها إبنه كازيمير ليصبح هو تحت حكم ملكية يوليو رئيسا للحكومة ، والأخوة دول وكاميل تيسار الثرى الليبرالى .

إلا أن جرونوبل كانت أيضا « مدينة برلمانية » . كتب ستاندال عن خاله المحامى صديق النساء أن « الجميع فى جرونوبل كان يعيش على المنازعات ويطلق النكات على المنازعات حول .. الصغائر والممتلكات » . ومثلها كان الحال فى مدينة أخرى يسودها رجال القانون وهى فيچاك . سنجد مناسبة الحديث عن أسرة بيريا هذا العالم المشبع بالقانون والذى يتحرك فيه چاك – چوزيف ببراعة وسهولة .

تقول الأساطير أن ثراء جرونوبل قام على صناعة القفاز وكان أحد رواد هذه الصناعة هو كلود بلان الذى سيصبح فيما بعد حما چان – فرنسوا شامبوليون .

---

* أثرتها مجموعة كتب دير « الجراند – شاتروز » .

والواقع هو أن صعود المدينة قام على تجارة الجملة أكثر مما تأثر بنشاط تصنيعى وكانت تمارسها مجموعة من التجار الريفيين الذين استوطنوها حديثا.(1)

علاوة على ما تقدم فلا التجارة ولا حتى الصناعة كانت لهما اليد الطولى على كبرى مدن الدوفينيه . ولكن كانت السيطرة فى يد طبقة من النبلاء راحت تحرك المجتمع وهى تنتظر الساعة التى تستعيد فيها السلطة السياسية . عائلات أدريه ومارسيو وبارال وبينا ومونمور* أبقت المدينة داخل مناخ عام من النبل الڤولتيرى الذى كانت تفتخر به فى سالف الأزمان صالونات فوبور سان چيرمان والذى سجلته رواية « العلاقات الخطرة ** » بالنسبة لمدينة جرونوبل ورواية « وكر الأفاعى *** » بالنسبة لبوردو فيما بين هذه الاريستوقراطية الباحثة عن الإنتقام وعالم التجارة الباحث عن التقدير المعترف به تتحرك طبقة من المثقفين الميسورين القادمين من الطبقة الثالثة القديمة ، هم أبناء عصر التنوير وورثو الثورة وهم يعلنون بفخر عن بنوتهم لهؤلاء الدوفينيين العظام مثل كونديياك وما بلى وڤوكانسون وبارناڤ ومونييه ودوڤيريو . ويمثل هؤلاء ويكمل أعمالهم رونولدون (وهوچاكوبى ثورى) وچانيون (وهو ميال أكثر للملكية) محامون ومعلمون وأطباء وفنانون ورجال دين كانوا جميعا يتعايشون مع السلطة الإمبراطورية مع شئ من التذمر طالما أنها موضوعة فى يد چوزيف فوربيه وأنها تحافظ على مكاسب الأيام العظيمة لعامى ١٧٨٨ و ١٧٨٩ وأنها تؤسس الجامعة وأنها تسمح بوجود نوع من النشاط الثقافى بدلا من حرية التعبير .

فى مركز طبقة الإنتيليچينسيا الجرونوبلوازية تقف مؤسسة تعرفنا عليها من قبل هى جمعية العلوم والفنون - سابقا ثم لاحقا كان إسمها وسيصبح الأكاديمية الدوفينيه . كان ضمن أهم من مثلها : چان جاسوار دوبوا فونتانال أستاذ الأدب الذى علم ستاندال وكان نجمه قد لمع فجأة قبل ذلك بخمسين عاماً بسبب الفضيحة التى أثارتها مسرحيته « إيريسى أو الراهبة » وهى راهبة فيها شبه كبير من راهبة ديدرو

---

* يقول ستاندال أن مدام دو مونمور كانت النموذج لشخصية الماركيز دومورتوى فى رواية الأحمر والأسود .

** لمؤلفها شاردلوداى لاكلو (المترجم) .

*** لمؤلفها فرنسوا مورياك (المترجم) .

وكانت سيرتها قد خرجت مخضبة من الأحداث * . كان كاتبا متوسطا ولكن ذو شخصية ممتازة . تبرز أحياناً من مراسلاته بعض الإعترافات المؤثرة (« أنا شظية من شظايا الجرة المكسورة ») وبعض الأبيات المثيرة للشجن .

« إنى فعلا مجنون أهوج طائش

وإذ حل الشتاء وشاب رأسى

زدت جنونا وطيشا ... »

الداهية الداعر القس جاتال المدير السابق لليسيه والذى سنراه مشتركا فى المناقشات التى ستدور حول إدعاءات وجهت للشقيقين كان يمكنه وضع توقيعه تحت هذه الأبيات ، سنعود إلى الكلام عن ذلك .

ممثل آخرلهذه الأكاديمية كان الجنرال چوبار دولاسالات الذى ترك الجيش وسلاح المدفعية ليكرس مجهوده فى علوم الموسيقى دون أن يفقد شيئا من قوة شكيمته ** فقد كان يمكنه هز العالم كله من أجل مفتاح صول . ولعل أهمهم جميعا بيريا - سان پرى . أخو زوجه چاك - چوزيف ، رجل قانون ومشرع ورجل إقتصاد وهو أفضل من يمثل تجسيداً حيا لكلية الحقوق التى هى مفخرة « مدينة المنازعات » . شخصية غريبة هذاالسان - پرى : الرواية التى ألفها فى خمسة أجزاء تحت عنوان الحب والفلسفة وأراد أن يجعل منها صورة حية للمجتمع الجرونوبلوازى لم تتخط زمانها... على الرغم من أراءه الليبراليه فإن هذا العالم والمستشار فى القانون رفض أن يتخلى عن غطاء الرأس التقليدى لرجال القضاء والذى كان يميزهم خلال العهد

---

* منعتها الرقابة بعد أخراجها على المسرح فى ليون عام ١٧٦٨ وتسببت فى أن عددا من تجار الكتب البؤساء (ليس من بينهم چاك شامبوليون) الذين كان فى حوزتهم نسخ منها قبض عليهم وحكم عليهم بالأشغال الشاقة ! وكان من نتيجة ذلك أنه سمح بعرضها على خشبة المسرح الوطنى الفرنسى فى بداية الثورة .

** جميع مؤلفى سيره والمؤلفين أطلقوا عليه « إسم الجنرال العجوز » كان بالفعل قد أحيل إلى التقاعد ولكن لم يكن قد تعدى سن السابعة والأربعين .

الملكى القديم . وعندما فرض لبس البنطالون نفسه فى فرنسا وهو المستورد من انجلترا فى عام ١٨١٥ أصر على إرتداء السراويل الضيقة والجوارب الحريرية والأحذية ذات الشرائط والساعات ذات الدبوس إلى أن أصبح أحد ثلاثة باريسيين فقط فى هذا الزى عام ١٨٤٥ حسبما كان يقال ..

ونجد أيضا آل بيريا المرتبطين جدا بالأخوين شامبوليون برباط الزوجية والعاطفة والتوافق والمصلحة : زويه وبولين أختا بيريا – سان برى إحداهما زوجةچاك – چوزيف والأخرى كانت حب چان – فرنسوا الأول وهوج أخوهما كان صديقا للأخوين .

وهكذا أعاد الشقيقان إرتباطهما بمقاطعة الدوفينيه التى كانت موطن أجدادهما وفتحا لنفسيهما أبواب مجتمع ثرى ومتفتح الفكر فى ذات الوقت ، يرحب بالمواهب وفخورا بشهرته التى إكتسبها بأنه « أثينا الدوفينيه » .

فى نهاية العام ١٨٠٩ كان چاك – چوزيف عندما إستقبل أخاه فى حالة تفتح كامل إجتماعيا وفكريا وأسريا بل وسياسيا أيضا وسط هذه المدينة الثرية . وكان قد أصبح بعد أقل من عشرة شهور من إقامته فيها أحد مواطنيها المعروفين أى شخصية عامة .

خمسة تواريخ تحدد معالم مسار هذا الطموح الجسور من عام ١٧٩٨ حتى ١٨٠٩ الذى بدأ موظفا صغيرا فى أحد المتاجر الصغيرة حتى أصبح مديراً للجامعة والساعد الأيمن للمحافظ وزوج أخت عمدة المستقبل للمدينة : هوج بيريا . سبق أن رأينا چوزيف فوربيه يشيد فى عام ١٨٠٣ « بذوقه المتنور تجاه الآثار » وحمله مسئولية المحافظة على المخطوطات القديمة » الخاصة بالمدينة . بعد ذلك بشهرين إنتخب شامبوليون – فيچاك عضوا فى جمعية العلوم والفنون لمدينة جرونوبل وأصبح بعد ذلك بقليل أمينها العام . فى الأول من يوليو ١٨٠٧ تزوج من زويه أبنة وأخت أصحاب النقود آل بيريا . فى ١٨٠٨ أصبح الأخ الأكبر أمين مساعد مكتبة المدينة وأخيرا فى ١٨٠٩ تم تعيينه أستاذا للآداب اليونانية بالجامعة ومؤديا فى نفس الوقت دورا رئيسيا بها كأمينها العام.

هل كان رجلا سعيداً ؟ إنه بالفعل كذلك فى زواجه . لقد أنجبت له زوجته إبناً نجح أخوه فى إقناعه أن يسميه « على » ... وإبنة أسمها أميلى ولدت فى يوليو ١٨٠٩ . وكانت الدوطة التى جلبتها له زويه بزواجه منها عبارة عن أجمل دار فى قرية ڤيف الواقعة على بعد سبعة عشر كيلو متر من جرونوبل على مشارف جبال بالدون وكانت

يوما من ممتلكات الفيلسوف كونديياك وأخيه الأب ما يلى . وكان چاك چوزيف وزويه يقيمان فيها كثيرا وكانا يستقبلان فيها چان - فرنسوا أحيانا كثيرة أيضا . إلا أن فيچاك لم يبلغ الحالة الميسورة التى كان يصبو إليها . لكن نفوذه على جمعية الفنون والعلوم وفى الوسط المحيط بالمحافظ وأيضا فى الجامعة (واصفا نفسه بأنه يد/ رئيس الجامعة المهيمنة) كل ذلك ضمن له سيطرة لا تضاهى على الحياة الثقافية لعاصمة الدوفينيه .

لم يكن شامبوليون فيچاك محايداً ، لقد كان بتعبيرنا الحديث « مثقفا ملتزماً » موقعه السياسى فى تصور الجمهور - حتى بدون وعى كامل بعد هو أنه يسارى أو على الأقل عضو فى التيار العلمانى الليبرالى . كان يؤكد لأخيه فى العديد من المراسلات بينهما خلال صيف ١٨٠٩ « أن مدينة جرونوبل منقسمة بين الأب دولاكوست وبينى بمن يشغل وظيفة المفتش [...] عند تصادم الأراء فالحقيقة هى أن كل من يرتدى الزى الدينى يرفضنى [...] وستنصرنى السماء على هؤلاء الرعاع [...] يقال إن الحزب الكاثوليكى الرسولى الرومانى قد سقط .. » وإذ بالأمر قد انتهى « بسقوط » چاك - جوزيف وليس الأب فإن جرونوبل قدرت أنها هزيمة مؤقتة لحزب الليبراليين .

وإذا كانت هذه المكانة قد تلقت ضربات صعبة للغاية إعتباراً من يونيو ١٨١٥ إلا أن مكانة الأخ شامبوليون الكبير كانت قوية ومتينة فى عام ١٨٠٥ من هذه المكانة استفاد چان - فرنسوا . لقد ترك چاك - جوزيف عام ١٨٠٧ وهو لا يزال خجولا من طموحاته . وإذ هو يجده الأن بعد عامين شابا * من الأعيان واثقا من نفسه . ألم ينجح ضمن نجاحات أخرى فى المناورة التى أدت إلى أن يتولى هو وأخوه وحلفاؤهما كلية الآداب ؟

أستاذ اليونانية فى الجامعة : لقد كان اللقب متمشيا ويليق بعالم الأثار الهاوى . ولكن هل كان فى مقدوره أن يتعامل مع المسئوليات التى تواكب اللقب ؟ لم تكن هذه الأسئلة تؤرق بالهم فى تلك الحقبة من الزمن . بعد أن أسس نابوليون الجامعة الامبراطورية وإذا تحققت الإرادة السامية كيف لا تجد المؤسسة القائمة ما يلزمها من العاملين ؟ صالحون أم غير مؤهلين هذا لا يهم ما دامت الشرعية السامية قد خلعت عليهم ...

---

* فى الحادية والثلاثين من عمره .

كان هذا فى الزمن الذى شغل كرسى اليونانية فى الكولاج دوفرانس شخص يدعى جيل . وكان إذا أراد أن يلقى محاضرة فى اليونانية طلب أن يترجم له أحدهم توسيدايرس إلى اللاتينية . على حين كان چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك على الأقل فى جرونوبل على دراية بالعديد من المعلومات وكان على كياسة محببة .. من كثرة ما تصفح من كتب قديمة وما حرك من أحجار لابد وأنه على علم باليونانية أفضل بقليل من زميله فى الكولاج دوفرانس ...

بدأت الشكوك تتسلل إلى نفس چاك - چوزيف مهما بلغ طموحه من آفاق وعلى الرغم من ثقته فى إمكانية ابتلاع كل معرفة متاحة فى العالم أو قد يكون ما شعر به نوعاً من خيبة الأمل . لأن ما كان يطلبه هو وظيفة مفتش بالأكاديميه وليس وظيفة تعليمية . وهو المركز الذى عبأ له وأنهك وعاتب وشغل به بال أخيه چان - فرنسوا وسمح له الشهور الأخيرة فى باريس من ربيع ١٨٠٨ حتى صيف ١٨٠٩ إلى درجة إثارة نوع من تمرد الأخ الصغير كما رأينا .

غير أن مؤلف « رسالة إلى مسيو فوربيه حول المخطوط اليونانى فى دندره » ومحرر مداخله إلى جمعية العلوم والفنون حول النص اليونانى المنقوش على حجر رشيد كان على أقل تقدير عالماً وجديراً بالاحترام فى المخطوطات الحجرية باللغة اليونانية . وهى المادة التى كان فى إمكانه توصيلها إلى ثلاثة أو أربعة من شباب جرونوبل وضعوا تحت مسئوليته . وكان يتولى تدريسهم عندما لا تشغله الوظيفة الأكثر أهمية وبريقا وهى الإشراف على حسن سير الجامعة أو مسئولياته الأخرى * التى جعلت منه مثلما كان حال فيجارو فى أشبليه « ساعى المدينة » ..

وسنتوقف هنا ضمن مواهبه المتعددة التى وظفها كثيرا ليفتح الطريق أمام عبقرية أخيه عند براعته فى المناورات وهى الموهبة التى كانت سترفعه إلى مستويات سياسية عليا لو كان دخل بها هذا العالم بدلا من عالم الثقافة . ويشهد على قيمة هذه العبقرية الدور الذى أداه فى تنظيم الجهاز الجامعى لمدينة جرونوبل فيما بين عامى ١٨٠٨ و ١٨٠٩ .

اعتمدت اللعبة التى أداها فيچاك وهو= يحرك فوربيه ، على أن يدفع العجوز دوبوا - فونتانال إلى الأمام والذى كان علاوة على ذلك حما شارل رونودون عمدة المدينة -

---

* أمين عام الجامعة ، وأمين مكتبة وصحفى فى حوليات مقاطعة إيزار ومستشار المحافظ ومثقف متعدد المعارف والإداري وعضو لجنة الإنتخابات .

كل ذلك من أجل أن يجد فى ظل هذه الشخصية وظائف لأخيه وله أيضا . وهو عندما كان يدفعفورييه إلى أن يقترح على فونتان تعيين مؤلف لا ڤيستال (وقد كان مرض النقرس قد جعله فى حالة إعاقة كاملة) فى وظائف أمين مكتبة وأستاذ للتاريخ وعميدا للجامعة فإنه لم يكن يقدم خدماته لأصدقائه الأقوياء آل رينولدون فقط بل كان يفتح لنفسه أبواباً واسعة سيمر منها هو وأخوه .

منصب العميد ؟ المتألق جاك - جوزيف - السكرتير - هو الذى كان سيتولى فى الواقع مسئولياته . وماذا عن تدريس التاريخ ؟ غياب الرجل العجوز سيعوضه الطفل المعجزة الواصل لتوه من باريس . والمكتبة ؟ كان العجوز المريض سعيداً للغاية لرؤية فيچاك يمارس فيها مهارته كمحب للكتب بكل حيوية . وهكذا نجح هذا العصامى الذى إضطر إلى التوقف عن التحصيل المدرسى وهو فى الخامسة عشر دون أن يتحصل على أى شهادة وقد بلغ الآن الثلاثين عام والنصف العام فى الحصول على كرسى أستاذية فى التعليم العالى كما حصل أيضا على آخر لأخيه * الذى لم يكن قد وصل بعد إلى عامه التاسع عشر ...

بل أفضل من ذلك توصل فيچاك إلى أن يتحصل على « اللقب المطلوب لشغل هذه الوظيفة لأنه يمارس بالفعل مهام الوظيفة » (2) . وما أن مرت بالفعل بضعة شهور إلا وكان قد صدر مرسوم إمبراطورى مؤكدا أن « وظائف أستاذ جامعة يقابلها درجة دكتور » ولذلك فهو يمنح « السيد شامبليون - فيچاك دبلوم دكتوراه فى الآداب ** »... قلب عجيب للأثر الذى أصبح سبباً !! وهو ما كان قطعا سيسعد السوفسطائيين اليونانيين القدماء الذين سيتولى تدريس فلسفتهم لشباب مقاطعة دوفينيه !!

وبصفته حامل دكتوراه فى الآداب حل شامبليون - فيچاك مكان العميد المعتل وأعلن فى احتفال عام فى ٢٦ مايو ١٨١٠ ظهرا فى حضور رئيس الجامعة بال ومفتش الأكاديمية لاكوست (الذى تغلب عليه !!) بداية المحاضرات فى شهر نوفمبر من العام نفسه وفى اليوم المحدد الخامس من نوفمبر عام ١٨١٠ وقف مرة أخرى

---

* لم تكن مرتبات الوظيفة تتعدى ما يحصل عليه من كانوا فى عمره : ٧٥٠ فرنكا فى العام وهو نصف ما كان يتقاضاه فى باريس فى حين كان زملاؤه الأكبر سناً يتقاضون ثلاثة آلاف . الواقع أن دوبوا فونتانال قرر أن يجود بنصف مرتبه لنائبه وهو ما جعل دخل چان - فرنسوا يقفز إلى ألفين ومائتين وخمسين فرنكا فى العام . ولكن عندما توفى الرجل العجوز وأصبح هو الأستاذ وجد نفسه بمرتب ٧٥٠ فرنكا فقط .

** سيحصل چان فرنسوا بعد ذلك بقليل على الميزة ذاتها .

الأستاذ الشاب للغة اليونانية إبن مدينة فيچاك ليلقى فى صالون الدور الأول من قصر النبلاء جداً مارسيو وأمام جميع شخصيات جرونوبل العامة خطبة دوبوا – فونتانال المتضمنة برنامج العمل . والذى لم يتمكن من إلقائها بنفسه فى هذه المناسبة العظيمة وهذا اليوم المشهود فقد بقى معاقاً متواريا داخل قصره القريب فى إيشيرول ولم يتمكن أحد من إقناعه بالخروج .

هكذا دخل چان – فرنسوا شامبوليون من باب واسع – فتحه له على مصراعيه أخوه الأكبر النشط – عالم الجامعة وسط جو عام كله بريق . ومع ذلك فقد عبر وهو يخطو أولى خطواته فيه ويتحد بسافر عن عدم إتفاقه مع هذا الأخ الذى كان يتوجه فى هذه اللحظة ذاتها – أو عبر بالأحرى عن عدم موافقته على التفكير الرسمى – الذى عرضه بصفته نائبا عن دوبوا – فونتانال وبإسمه .

فهل شارك شامبوليون – بنفسه فى كتابة خطبة العميد الإفتتاحية * ؟ أم أنه إكتفى بقراءة نص حرره الشاعر العجوز ؟ وهل ردد هذا الأخير ما جاء أصلاً فى التوجيهات الرسمية ؟ المهم هو أن الأقوال التى وردت على لسان الأخوين خلال بضع أيام فقط حول مهمة المؤرخ التعليميه وهدفه جاءت متناقضة تماما . فلنستمع إلى چاك – چوزيف :

« الهدف المزدوج للتعليم هو تنشأة الرجال والمواطنين [..] يجب على الأفراد أن يشاركوا فى المجهود العام البعض بما له من مناقب والبعض الآخر بماله والكثرة بما لها من معرفة وموهبة والجميع بانصياعهم وتفانيهم وولائهم . ولكل تلك الأسباب تولت جميع الحكومات المتنورة التعليم العام (3) ... » .

وفيما يتعلق بتعليم التاريخ أوصت « خطبة العميد » باللجوء إلى النقد وهو يحمل أمامه مشعل الفلسفة ولا نعنى هنا تلك التى يطلق عليها هذا الإسم بعد تحريرها وإنما الفلسفة الكريمة المعتدلة التى تعلم الناس التراحم والحب ... » (4)

لم يكن من الممكن تأسيس الجامعة الجرونوبلوازية الوليدة على أسس أكثر محافظة أو أقل ثورية وأكثر عملية أو أقل معرفة بالأنسيكلوبيديا والتنوير ... إن ما جاء

---

* لاحظ ش . ا كاربونال أن النص الذى أتيحت له فرصة الإطلاع عليه ليس بخط فيچاك ولا هو بخط مدام رونولدون إبنة دوبوا – فونتانال وسكرتيرته . وعلى الرغم من ذلك فهو يميل إلى الاعتقاد بأن چاك – چوزيف هو الذى ألفه .

على لسان فيجاك هذا « الليبرالى » وعدو « الرداء الكهانوتى » هو أمر صادر من الدولة الإمبراطورية إلى مدرسيها بتكوين ثم إنتقاء خدم مطيعين لاستخدامها الشخصى .

لابد وأن الأخ الأكبر حرص على حضور المحاضرة الأولى لأخيه . فهل قدر أن ما استمع إليه كان بمثابة تحد أو إهانة أم على العكس من ذلك تعبير عميق عن أفكاره هو والتى إضطر إلى التمويه عليها تحت ستار النص الرسمى الذى إضطر إلى إلقائه بصفته الرسمية ؟ لابد وأنه شعر ببعض القلق من أخيه الأصغر وهو يعبر فيما يتعلق بمادة التاريخ عن أفكار غير مطابقة للمبادئ التسلطية السائدة .

كان موضوع الدرس الأول لچان - فرنسوا شامبوليون هو « فى التاريخ عموما وأسسه ، التتابع الزمنى والجغرافيا المقارنه » . من البداية قام هذا الأستاذ ذو التسعة عشر ربيعا بشجب :

« الميل الطبيعى لفكر الإنسان لأن يحكم على الأحداث بنتائجها يجعله يمتدح عملا خاطئا توج بالنجاح (...) هذه الطريقة فى الحكم على الوقائع هى إحدى العواقب المنطقية لذلك التساهل الإجرامى الناتج عن إهمال المبادئ والذى يجد العدل حيثما يرى إنتصاراً . هذا الاستسلام الخانع قائم منذ الأزل وفى كل مكان ..[5] »

هل هذا الكلام مأخوذ عن مدام دو ستال أو عن بنچامان كونستان ، وهما : من أصحاب الأيديولوچيات المحرمة من الحكم الإمبراطورى ؟ لايمكن أن تجابه بحزم أكبر « التساهل الإجرامى » فى عدم مناقشة غزو إسبانيا أو اعتقال الحبر الأعظم طالما أن انتصار الأمير قد توجهما .

هذه الكلمات ألقيت فى إطار الجامعة الامبراطورية هذه المؤسسة التعليمية التى أقيمت لخدمة الأوتوقراطية « المستنيرة » أى هذا المعمل المطلوب منه تفريخ موظفين متسلطين ! ها نحن أمام شاب يجازف بألا يذهب بعيدا فى مستقبله التعليمى لولا إعتماده على العناية المضمونة لأخيه « خادم الجامعة » .

خصص چان - فرنسوا ما يقرب من ثمانية عشر شهرا للتحضير لمحاضراته المقسمة إلى مائة درس : العناوين التى أعطاها لكل منها تنم عن حجم طموحاته : « عن التاريخ وأسسه » ، « عن العصور القديمة للعالم وأصل الإنسان » ، « تأملات ناقدة فى المؤرخين من جميع الأزمنة وكافة الأنحاء » « ما تبقى لنا من وسائل لكتابة التاريخ » .

لم يكن الأستاذ الشاب يكتفي بالدفاع العلني عن حرية الفكر ضد الإستبداد بل كان يؤكد على نقد الأسس وعلى اللجوء إلى الأسلوب التجريبي وعلى البحث في « الأسباب والنتائج الحقيقية » وكان ينصح كذلك بمراجعة ذكريات الشخصيات الفاعلة والشاهدة مثل : تيمورلنك وجوانثيل وتوران ...

كان لهذه المحاضرات صدى واسع . اثنان من المفتشين العامين جاءا للإستماع إليه (هل كان ذلك بناءاً على وشاية بجرأته في الحديث أم كإجراء روتيني بسيط للتعرف على إمكانيات هذا الطفل المعجزة ؟) المهم أنهما خرجا وهما « يعبران عن أنهما « يضعان فيه آمالا عريضة[6] » ، مثلما فعل زميله في المدرسة الخاصة للغات الشرقية أبال دو ريموزا ، أو الصيني ، الذي كان يمرّ بجرونوبل . لم يكن الأستاذ الشاب يتمتع فقط بالشجاعة وسمو الرؤى وتعدد المعارف وجزاء هائل ناتج عن « مقارناته » (بين مختلف الحضارات والموضوعات) بل كان يعرف أيضا كيف يحْيِي دروسه ويحرك أجواءها . وكان المجهود الذي يقوم به للتغلب على خجله الطبيعي يضع في أقواله من الحماس ما يجعلها تبدو مشتعلة وهاجه فتلفت أنظار العدد القليل من تلاميذه المسجلين في محاضراته * . ذلك لأن كل ما كانت تضمه الجامعة الوليدة – ويقى الحال هكذا لمدة طويلة – لم يتعد اثنين وعشرين طالبا مسجلين وثلاثين « مستمعاً » .

هذه النظرة الواسعة الدائرية على الكرة الأرضية عبر القرون كانت بمثابة تمرين جيد لباحث في أعرق تاريخ للبشرية يؤمن بأن الحضارة المصرية القديمة مادامت محورية وأصلية فإنها مرتبطة بجميع الحضارات الأخرى وبأن كل من هذه الأخريات تعود بالتالي إلى القالب الأصلي . إلا أن الباحث كان على يقين من أنه لايمكن من يجعل الخلاصة تعلو على العمل التحليلي كما أنه يعرف أن أفضل منابع العلوم التاريخية واللغوية هي النصوص والأرشيفات والمخطوطات والكتب .

من هنا جاء اهتمام الشقيقين الكبير بوظائفهما كأميني مكتبات . حتى عام ١٨١٢ لم يكن الأخ الأكبر رسميا سوى مساعد دوبوا – فونتانال والأخ الأصغر سوى مساعد المساعد .إلا أن هذه الألقاب المتواضعة لاتعطي فكره صادقه عن السلطة التي تمنحها لهما هذه الوظيفة المحورية . ويوجد تقرير وجد في أرشيف مقاطعة إيزار كتبه مراقب سئ النية هو العمدة « اليميني المتطرف » بينا (الذي سيخلف رونولدون في ١٨١٥) هذا التقرير يكشف أهمية الوظيفتين :

---

* كان يلقيها كل أربعاء وخميس في العاشرة والنصف . أحيانا كان كل الحضور تلميذين .

« إن أمين المكتبة لما له من تأثير على العقول وعلى أفكار العديد من الشباب هو فى الواقع بمثابة أستاذ عام ويترتب على ذلك ضرورة عدم شغل أماكن كهذه سوى لرجال تتوافر فيهم كافة الضمانات المطلوبة »(7)

لم يكن هناك جماهير غفيرة تتسابق لدخول المقر الفسيح المتاح لليسيه الذى درس فيه چان – فرنسوا من ١٨٠٤ حتى ١٨٠٧ بل أن مجموع المترددين عليه لم يتعد ستين فرداً منتظماً من الطلبة ورجال القانون والدين . الحقيقة أن إبنى تاجر كتب فيچاك لم يكونا مهتمين بتلقين المبادئ الليبرالية لهؤلاء الزوار بقدر ما كانا مهتمين بإثراء مقتنيات المكتبة بالنسبة للأخ الأكبر وبالإستغلال المنظم لمستودع المطبوعات والمخطوطات والقطع الأثرية بالنسبة للآخر .

كانت المكتبة ثرية بما تحتويه . أقتنى مؤسسوها لدى نشأتها من مبادرة من الدكتور چانيون ٣٤,٠٠٠ مجلداً هبة من المطران چان دى كوليه . وأضيف إليها قسم للقطع الأثرية تتقدمها كما تعرف مومياء مصرية ومتحف للتاريخ الطبيعى ثم جرى توسيعها بمبنى تم شراؤه من البارون ديزادريه . وأصبح المدخل الرئيسى بعد ذلك من هذا المبنى .

چاك – جوزيف أضاف إلى ماسبق – وذلك يحسب له – ثلاثة آلاف عنوان آخر عهد إليه فهى ١٢٠٠ كانت بتبرع من الأب چاتنال علاوة على ٣٠٠ مخطوط ومطبوع أصلى من بداية عصر الطباعة وردت من دير الجراند شارتروز (كان چان – فرنسوا وصديقه ميلان قد راجعوهم قبل ذلك).

سنرى فيما بعد * لدى عودة الملكية أن إدارة الأخويين شامبوليون ستتعرض لإتهامات قاسية مما أدى إلى الإطاحة بهما . إلا أن الشئ المؤكد هو أن مكتبة جرونوبل كانت مركزا مفضلاً لأعمال وأفكار وأبحاث مكتشف ألغاز الهيروغليفية وكانت مهد محاولاته الفكرية فيما بين ١٨٠٩ و ١٨٢١ .

أستاذ وأمين مكتبة ؟ چان – فرنسوا كان صحفيا أيضا . فى بداية عام ١٨٠٨ نجح فى إزاحة شخص إسمه أوجوست باردال (وظيفته الأصلية كانت مفتش المنح) وكان المحرر الرئيسى لجريدة « حوليات منطقة الإيزار » والتى كانت تعكس فى الواقع رأى السلطات وتنشر المعلومات الرسمية . وكان چاك – چوزيف يتعاون مع هذه

* الفصل ٧

المطبوعة ببعض المقالات تعكس نشاط جمعية العلوم والفنون منذ ثلاث أو أربع سنوات . توجد في مراسلات الشقيقين إشارات إلى تلك العملية والتي تمت كصفقة مالية : إذ تم تعويض باردال لقاء تنحيه عن هذا المكان بضع مئات من الفرنكات . ولا يعرف إذا كانفورييه ذاته هو الذي دفعها . إلا أن الشئ المؤكد هو أن المحافظ كان يود أن يسند المكان لشخص مؤثوق فيه ومن نوعية ممتازة .

حاول فيجاك أن ينفخ في هذه النشرة التابعة للمحافظة شيئا من الحياة فطلب من نسيبه بيريا - سان برى أن يكتب له بعض المقالات كما كلف بالطبع جان - فرنسوا أن يمده بمقالات تقريرية عن الكتب والمقالات التي تنشر عن الشرق والعصور القديمة * .

وعلى الرغم من أن إدارتها كانت تحت سيطرة شخص متساهل مثل چوزيف فورييه إلا أن قبضة الإمبراطورية الحديدية كانت تقمع دون هوادة أية محاولات من هذا القبيل وكان للمواطنين الحق في الحقيقة الرسمية فقط بعد تعقيمها وضمان مطابقتها للتزمت والتدين القائمين .

يوضح ذلك حدثان مزدوجان ساهما في تكدير العلاقات بين آل شامبوليون وچوزيف فورييه : في شهر مارس ١٨٠٩ نشرت « الحوليات » مقالاً لا يحترم الصيام جاء فيه أن هذا الفرض الديني له على الأقل ميزة أن « يتيح للبهائم أن تتكاثر » وأن « اللحم سيصبح أرخص سعراً وأجود إذا أحترم الكافة هذا الفرض وصاموا » و « إذا أكل الفلاحون اللحم كل يوم فلن يكون هناك لحم يكفى الامبراطورية المتنامية » .. كلام يشبه ما كان يقوله ديدرو (أبو الانسيكلوبيديا) مما أثار إستنكار القراء المتدينين وأحرج المحافظ جداً .

وإزدادت الأمور تأزماً عندما نشرت « الجوليات » مقالا ساخرا ضد « التطرف الديني » و « التعصب » بمناسبة قيام « أحد الورثة بحرق إحدى أكثر المكتبات ثراءً في مقاطعة الإيزار » لأنه مقتنع « إنك إذا أردت أن تعيش حياة مسيحية يجب ألا يكون لك فكر أو شعور أو منافسة أو تعليم [..] ولكي يرضى عنك الله يجب ألا تعرف من الكلام سوى الصلاة مع التسبيح [..] وأن تخنق فكرك في المياه المقدسة وأن تنتظر في

---

* نشر جان - فرنسوا فيما بين ١٨٠٨ و ١٨١١ خمس مقالات في الحوليات بعضها بتوقيع .C.S عن الأهرام والشعر الفارسي ومكتبة الإسكندرية وعن المباني الأثرية من أصل عربي .

ثبات كامل وغبى وتأمل متخلف ، أثار العناية الإلهية ، .. إلا أن التعليق ذهب إلى أبعد مما ينبغى » « ونتيجة لما سبق فإن هذا الشخص أخذ مثلا من الشعوب التى كانت فى الماضى يحرقن كل عام شخصا يهوديا لأنه جاء من جنس ملعون كما كانوا يقولون – وراح يحرق كل ليلة وهو يهضم عشاءه من خمسة وعشرين إلى ثلاثين كتاباً [..] كلما اكتشف كاتباً وثنياً أو فيلسوفا [..] إن ما تم هو جريمة لا تغتفر واهانة للعصر الذى نعيش فيه ... ».

المدهش هو أن العديد من عائلات الإقليم إعتقدت أنها مستهدفة !! مما إضطر چاك – چوزيف إلى أن ينشر مذكرة إعتذار وبقى صامتا بعد ذلك إلا أن فورييه وإن كان فيلسوفا – فهو قبل كل شئ محافظ الإقليم أى أنه عدو للإضطرابات – فلم يسامحه .

ومنذ ذلك الحين خضعت الحوليات لنظام صارم وصفه إيميه ابن شامبوليون – فيچاك ببراءة خالصة (8) ، وهو ما يذكرنا « بحرية الصحافة » كما يراها فيجارو :

« الأخبار والقضايا التى كان يمكن لهذه الصحيفة أن تنشرها لم تكن كثيرة ، ولحسن الحظ كان الجزء الرسمى والقرارات الحكومية تشغل منها الجزء الأكبر أما الأخبار الخارجية فكانت مأخوذة فى العادة من صحيفة « لومونيتور أو نيفراسال » . ومع ذلك كان من الممكن أن يدور الحديث دون حرج عن المخطوطات القديمة الموجودة للإقليم وعن الكتابات اللاتينية مثل تلك التى تنقش على المبانى المشيدة على شرف الإمبراطور . وكذلك عن كتب الأصول اللاتينية واليونانية وعن الروايات الحديثة وعن الأحداث التى تجرى فى الممالك المجاورة (...) كما أن الفلك كان من الموضوعات المسموح بالخوض فيها » .

كلها مبادئ مدهشة مع أن احترامها لن يمنع الشقيقين شامبوليون من أن تطالهم يد الرقيب وأن يغضب عليهم فى نهاية الأمر . ففى غضون ذلك مرت غيوم على علاقاتهما مع چوزيف فورييه المتساهل والقوى جداً فى نفس الوقت .

لقد رأينا كيف أن المحافظ قد رعى چاك – چوزيف شامبوليون وإصطفاه بعيد إقامته فى جرونوبل وكلفه منذ ١٨٠٣ بأن يتولى شئون الآثار المحلية وقام بتعريفه على أقرانه فى مصر مثل دوم رافائيل أو على زملاءه أعضاء « الانستيتو » مثل بيو وفوركروا .

اعتباراً من ١٨٠٧ أصبح أكبر الأخوين شامبوليون ما يمكن تسميته الآن بملحق ثقافى للمحافظة – تكلفه بمهام تتطلب الثقة . وقد وصلت الصداقة بينه وبين فوربيه لدرجة أن هذا الأخير كان يدعوه كثيرا إلى قصر بوروجار ذى الموقع الجميل حيث كان المحافظ يضع – كما كان يقول – « نهرا بين العالم وبينى » *

أهم تلك المهام كانت المساهمة بتحرير المقدمة التاريخية « لوصف مصر » التى كلفه بها أقرانه فى « معهد (لانستيتو) القاهرة » بصفته أمينه العام وذلك فى عام ١٨٠٢ حتى قبل سفره إلى جرونوبل . وعندما إستقر به المقام فى محافظة الإيزار (علما بأنه كان يأمل ألا يبقى فيها سوى فترة قصيرة) تبعته إلى هناك جميع المستندات التى كان قد إستطاع جمعها – وأنشأ بذلك فى الدوفينيه ما يمكن تسميته « بملحق » للجنة مصر . هذه اللجنة كانت تشغل مكانا بجوار اللوڤر وتحت إدارة لانكريه ومن بعده چومار وهدفها نشر الكتاب الضخم .

بإختصار كان الأخوان مرتبطين إرتباطا وثيقا بتحرير مقدمة چوزيف فوربيه . مراسلاتهما مليئتان باشارات إلى تقدم العمل – مستندات ، ملحوظات ، مراجع وتواريخ . ولكن ليس من المؤكد أن المحافظ قد أتى معه بنموذج لحجر رشيد . والواقع أن فيچاك قد طلب من ميلان توفير هذا المستند حتى يتسنى له ترجمة النص اليونانى وكتابه « دراسة نص حجر رشيد » وذلك فى عام ١٨٠٤

لم يتوقف قط تبادل الرسائل والمخاطبات بين « القيادة العامة » الباريسية والفرع الجرونوبلوازى للدراسات المصرية وسبق أن أشرنا إلى أن چان – فرنسوا خلال إقامته فى باريس – كان يقوم باستمرار بمهمة نقل المستندات والمعلومات التى كان يوفرها چومار عن طيب خاطر . وبعد أن عاد « صغير » إلى جرونوبل قام چاك – چوزيف بالتردد على باريس وكان يلقى ترحيبا من أعضاء اللجنة أكثر من أخيه – لأن هذا الأخير لم يكن يحتفظ لنفسه بأراءه وخاصة أنه لا يعير أهمية أكبرى للأشخاص بذاتهم ولكن لتفسيراتهم للحضارة المصرية القديمة .

حصلنا على إثباتات عديدة على الجهود التى بذلها الشقيقان فى خدمة المشروع الكبير المنوط به فوربيه . مثال ذلك هذان الخطابان . الخطاب الأول موجه من چاك – چوزيف إلى الأخ الأصغر والثانى من چان – فرنسوا إلى الأكبر :

« جرونوبل فى ٨ أغسطس ١٨٠٨ »

---

* يقصد نهر الدراك .

عندما تقابل مسيو چومار [..] أخبره أن مسيو فورييه متوعك وأن المقال التمهيدى يتقدم العمل فيه كل يوم وأن مسيو فورييه يحتاج إلى ثلاثة أشهر للإنتهاء منه وأخيرا أنه يشعر باليأس الكامل وإنى أعتقد أن من الأفضل أن يكتب له مسيو چومار كثيرا فى مرحلة الولادة الصعبة هذه لأن ما يمر به مسيو فورييه هو بالفعل كذلك وإنى أخشى أن يمرض بالفعل لهذا السبب ... » (9).

رد « صغير » جاء كالتالى :

« باريس ، فى ٩ أكتوبر ١٨٠٩

أمضيت طوال يوم الخيمس [..] وجهاً لوجه مع مسيو فورييه . تلا على « بحثه الفلكى » * . وهو يقدم له بدراسة عن الأوضاع فى مصر تحت حكم الفراعنة ويقع فى ٨٣ صفحة ** رفعت له قبعتى عدة مرات (مثلما كان يفعل بيرون) للتعبير عن إعجابى بالأفكار التى تعلمها منا إلا أنه عرف كيف يستغلها بتفكيره العادى . إلا أننى جعلته يعيد تصحيح من عشرة إلى إثنتى عشرة فقرة تفوح منها رائحة المدرسة القديمة . فقام بتعديلها بانصياع مثالى . وأنى أقدر له ذلك تقديرا لانهائى . إذ يثبت ذلك أننا نتمتع ببعض الأفكار المضيئة . (10)

ثقة بالنفس رائعة ومثيرة للنشوة ! كيف يمكن للمراهق ذى المزاج المتقلب أن يستعيد ثقته بنفسه بطريقة أفضل من أن يتقمص دور المعلم والمصحح لفورييه المشهور ، زميل بونابارت ، مستكشف روائع ممفيس وطيبة باسم «الأفكار المضيئة » التى إكتسبها هو وأخوه ! قد تكون هذه السويعات التى أمضاها فى أكتوبر ١٨٠٩ مع كاتب مقدمة كتاب « وصف مصر » فى أثناء زيارة له لباريس التاريخ الفاصل للمرحلة الثانية للمشروع الكبير الذى بدأه عام ١٨٠٦ وهو فى الخامسة عشرة من عمره وكانت بعض الإحباطات وحالات الفشل قد أوقفته أحيانا .. أن يكون قد ساعد فورييه على الخروج من آلام « عملية الولادة الصعبة » ومن « مبادئ المدرسة القديمة » لا يمكن أن يكون إلا مصدرا للفخار ..

كان على فورييه أن يواجه رقيبا أكثر صعوبة وهو نابليون نفسه والذى كان يولى هذا النص اهتماماً فائقاً بسبب ارتباطه الوثيق بمجده الشخصى . كشف لنا فيچاك

* راجع فيما بعد قضية « رسم الأبراج السماوية » .
** يقصد المقدمة .

فى كتابه «فورييه ونابليون : مصر والأيام المائة » * أن الإمبراطور طالب بعدد كبير من التعديلات وأغلبها يتعلق بكل ما كان يمكن أن يجرح الكنيسة الكاثوليكية التى وضعها تحت حمايته بسبب تعبير متحمس أكثر مما ينبغى « بالفلسفة الفرعونية » .

أخيرا فى ٤ فبراير ١٨١٠ بعد أن تمكن من تخطى حالات القرف والضعف أعلنفورييه إلى وزير الداخلية مونتاليفيه أنه « يسلم المطبعة الامبراطورية الصفحات الأخيرة من المقال الإفتتاحى لكتاب « وصف مصر »** . ثم ينتهز الفرصة ليعبر عن « عدم رضائه عن بعض الشكاوى التى وجهت ضد شخص حكم على نفسه بارادته أن يقوم بعمل صعب ومستمر دام أشهر عديدة .» (أشر مونتاليفيه على الخطاب بما يلى « إعداد رد عاطفى ... ») .

هل تعنى الخدمات المستمرة التى قدمها فيچاك وصغير لجوزيف فورييه فى تحرير النص المشهور أن « المقدمة التاريخية » من صنعهما وليس بقلمه هو ؟ أكد بعضهم ذلك لكن الصفحات التى خصصها چاك - جوزيف لهذه المهمة فى كتابه «فورييه ونابليون » تنفى هذا الأدعاء: « رأيت الجملة الأولى لهذه المقدمة وهى تخط على الورق ورأيت أيضا سطور النهاية ... ما أن وضع خطة كتب (فورييه) كل جزء على حدة[..] قامت هذه الخطة على تناسق حسابى [..] ستة أقسام تحتوى على ستة وثلاثين مقالا (..) لاتوجد فى النص الأدبى لفورييه جملة واحدة غير مدروسة فى كل كلمة منها .. »

لايمكن أن يكون المرء أكثر وضوحا فى إرجاع أبوة النص إلى الموقع عليه أكثر من ذلك ، خاصة وأن شامبوليون - فيچاك كان يكتب هذه السطور فى زمن لم يكن فيه من مريدى المحافظ - عالم الطبيعة ، وكان قد أصبح مشهورا هو ذاته وكانت علاقتهما قد خرجت من العديد من العواصف ومهما كان عرفانه بجميل راعيه فإن چاك - جوزيف قد وازن جيدا أبعاد فضل فورييه عليه فى الوقت الذى كتب فيه هذا النص بما يمنعه من أن يعبر له أمام التاريخ عن فضل لايستحقه .

---

* راجع الفصل ٦

** كان الجزء الأول قد نشر بالفعل عام ١٨٠٩

جاءت فى خطاب چان – فرنسوا المؤرخ ٩ أكتوبر ١٨٠٩ إشارة إلى « البحث الفلكى » . يتعين علينا أن نتوقف عندها . لم يكن موضوع الساعة حينذاك هو صدور « الوصف » فهو ليس من الأسباب التى تثير المنازعات بل كان الجدل المثار ذو الأبعاد العديدة بسببه « البرج السماوى » أو « الزودياك » فهو الذى أثار حفيظة من أسماهم آل شامبوليون « الچيزويت » « المتعصبين للنصوص » أو « مطفئ الشعلات » وهو ما أثار انتباه الإمبراطور « التقى » عندما قرأ له فورييه مقدمته .

كان قد تم إكتشاف « ست آثار فلكية » فى مصر ومنهم « رسم الأبراج السماوية » المشهور فى دندره . وكان الذى اكتشفه هو دوسيه والذى درسه جولوا وڤيلار دوتيراچ والذى نقله رسماً ڤيڤان دونون . هذا الاكتشاف جعل العديد من المتخصصين وخاصة دوپوى صاحب كتاب « أصل الأديان » والعظيم ڤولنى يعتقدون أن الحضارة المصرية تعود إلى خمسة عشر ألف سنة قبل الميلاد . وجاء ذلك متناقضاً مع التسلسل التاريخى المعتمد من الكنيسة الكاثوليكية الذى كان يرجع تاريخ خلق العالم إلى أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح .

لم يؤيد جوزيف فورييه هذه النظريات الأكثر تقدما فى هذا الاتجاه لا فى مقدمته ولا فى بحثه الفلكى . والتى كان يشكك فيها الفلكى المشهور لالاند ذاته وكان ملحداً مناضلاً وكان يود لو تمكن من وجهة النظر الفلسفية أن يسخرمن تعاليم روما كان فورييه يعتقد أن الحضارة المصرية تعود إلى خمسة وعشرين قرنا قبل الميلاد ومن هنا جاء قول بونابارت : « أربعون قرنا .... » .

ومع ذلك فإن الرأى العام كان قد سجل عليفورييه أنه باسم العلم قد ناقض بجسارة التأريخ الكنسى .فورييه كان عضوا بارزا فى الماسونية وقد أدى ذلك إلى إثارة المحافظين فى جرونوبل وغيرها . لقد كانوا على استعداد لقبول فكرة عضوية محافظ مقاطعتهم فى الجمعية التأسيسية الحقيرة » (الكونڤونسيون) كنائب مناوب ولكن أن يشكك فى تعاليم الكنيسة !.... *

لنجدة فورييه أسرع اثنان من زملائه فى جمعية العلوم والفنون ، هما الأب چاتال (وقد رأينا أنه إنسان متفتح الفكر) والچنرال دولاسالت (السيف) الجنرال بعد الماء المقدس (القس) . أوضح الأول أن الملاحظات التى أبداها عالم الرياضيات المشهور بناء على « آثار طيبة وممفيس » جعلته يصل إلى « استنتاجات » تناقض « ظاهريا وليس واقعيا، الرأى العليم الذى أفتى به بوسويه » يعد الرجوع إلى هذا الأخير دعماً أساسياً ** .

---

* سنرى فى الفصل ١٠ أن إكتشافات – چان – فرنسوا شامبوليون ستؤيد بطريقة غير متوقعة نظريات الكنيسة .

** بوسرت Bosset رجل دين وكاتب وخطيب فرنسى من القرن ١٧ [المترجم] .

أما الجنرال دولاسالات فكان أكثر حصافة ، فقد قال : إذا كان هناك فرق أحد عشر ألف سنة بين تقدير « البرج » « غير القابلة للنقض » والمبادئ « المعتمدة عالميا » للكتب المقدسة مما أدى إلى « تناقض » فيتعين علينا أن نعمل على التوفيق بين النظريتين . كيف ؟ إذا أخذنا فى الاعتبار أنه جاء فى رسالة بطرس الرسول أن « فى نظر المولى يوماً واحداً يساوى ألف عام وأن ألف عام تساوى يوماً واحداً .. » ثم يخرج المؤرخ الموسيقى والضابط السابق بهذا الاستنتاج المدهش : « نرى إذن من هذا النص أن الستة الأيام التى سبقت خلق الله للإنسان كانت من أيام المولى ويجب حسابها على أنها ستة آلاف عام . وتأسيسا على ذلك فإن [..] رسوم الأبراج السماوية التى عرفنا بها المواطن فورييه وهو يحاول أن يعطينا فكرة صحيحة عن الفترة التى خلق الله فيها العالم لابد وأنها أدخلت فى حساباتها الستة آلاف عاماً المذكورة والتى تزيد عن الحسابات العادية [...] أما عن الخمسة آلاف عام الباقية فليس فى إمكاننا أن نخطو خطوة أخرى أكثر من ذلك [...] نرجو من القارئ أن يلاحظ أننا نقبل دون أى إعتراض أن الأيام بها أربع وعشرون ساعة وهو ما يعتبر أصعب فى تفسيره من [الأيام التى هى ألف عام] مع العلم بأن أعمال الخالق لا يمكن كشف أسرارها ».

ليس من المعروف ما إذا كان جوزيف فورييه قد تذوق أم لا حسن الدفاع عنه هذا من زميله أما المؤكد هو أن هيبته كمحافظ لم تهتز ، فقد ظل يدير أمور عاصمة الدوفينيه لمدة خمسة أعوام أخرى مع العلم بأنه كان ينتظر أن يكون المقابل « لعمله المتصل والصعب » فى كتابه المقدمة ليس المكافأة الضخمة التى أراد نابليون أن يمنحها له ورفضها هو ، ولكن أن يعين فى مجلس الدولة وهو ما كان يرغب فيه بشدة .

مدهش هذا الفورييه ! ... فلنتصور كيف كان يوم من أيامه . لقد كان مسئولا عن إدارة منطقة من أكثر مناطق الإمبراطورية توترا لأسباب تاريخية واستراتيجية ، وهو فى نفس الوقت يشرف على تنفيذ أعمال ضخمة لتجفيف مستنقعات بورجوان ، يفصل باستمرار فى كل موضوع تشريعى فى مرحلة إنتقالية صعبة ، وهو معمق أبحاثه العلمية التى أدت إلى ظهور نظريته فى إنتشار الحرارة ، ثم بعد ذلك كله يضع اللمسات النهائية على مقدمته العظيمة ويرد على أحد أعداءه بخصوص تفسيره للأبراج المصرية ، ويملى عشرين برقية لعامل تلغراف لايصل مداه إذا كان الجو صحوا إلى أبعد من مدينة ليون . ثم يسرع إلى قصر بوروجار ليراجع ما به من مستندات تاريخية وأخيرا عند حلول المساء يشرف على سهرة من السهرات التى كان ينظمها فى صالونات دار دوكيد يجيار المطلة على حدائق المدينة (حيث كان يتربص شخص بدين

عائد من ميلانو إسمه هنرى بابل) والتى تجعل من مقر إقامته إجتماعاً لإحدى الأكاديميات .. هذا إذا لم يفضل عن ذلك حضور إجتماع جمعية العلوم والفنون بصفته عضوا بها .

وكان يجد أيضا الوقت ضمن أشياء أخرى لأن يكتب فى ١٧ فبراير ١٨١٢ خطابا لفونتان يفيده أن وفاة دوبوا - فونتانال جعلت كرسى التاريخ فى الجامعة شاغرا وأن لا أحد يمكنه أن يكون أكثر كفاءة من جان - فرنسوا شامبوليون ليشغله بعد أن « أثبت كفاءته بمعارفه النادرة » و« باكتشافاته فى مجال علم الآثار ».

كان الشقيقان شامبوليون - إعتبارا من ١٨١٠ من المواظبين على حضور سهرات دار دوليديجيار مع الكونت دارجو والماركى دو بوشاج والكونت دولوميو (شقيق عالم المعادن) وأوجوستان بيريه ودوتيسيار ودو بلانتا ودوبيريا - سان برى ....

« مذكرات »فورييه التى أشار إليها إيميه شامبوليون - فيجاك فى كتابه « يوميات دوفينيه » ترسم صورة لأجواء هذا البلاط الريفى لدار دوليديجيبار الذى يؤدى فيه - دارس اللاهوت السابق (فورييه) ليس دور الملك الشمس (لويس الرابع عشر) ولكن دورميدبسيس « ميدبسيس أو مادام دوديفان .. فهو يكره « حفلات الموسيقى التنافسية » وكان يقوم مثل نابليون فى فونتانبلو بتجارب فى علم الطبيعة ويطلق المناطيد ويقوم بتنظيم « تابلوهات حية » . كان يطرد الفنانين المتجولين وغيرهم من « المشعوذين » ولكنه يستسيغ العروض المسرحية مثل « العازب العجوز »* و« المكفهر الطيب » وكذلك حفلات الباليه التى كانت تؤديها عائلة شاليونى الشهيرة .

جاك - جوزيف وجان - فرنسوا شامبوليون كانا : الأول منظم الحفلات والأخر مقدمها ومحييها . إذ أن جميع الشهادات متفقة فى أن أستاذ التاريخ الجامعى كان يقوم بمجهود كله خفة وبريق وكوميديا يفتتن لها جوزيف فورييه .. من غير المعروف إذا كان أصغر عضو فى جهاز التدريس الفرنسى كله قد عرض فى هذا الأطار مسرحية « سكولاستومانى » والتى كان يهاجم فيها دون رحمة نظاما تعليميا يحتقر أى فكر نقدى وقائما على عبودية التراث السلطوى .. على الأرجح أن فورييه - مهما كان رأيه فى ذلك - لم يكن فى إمكانه أن يرعى مثل هذه الإنتقادات . ولكن من ناحية أخرى كان « صغير » يعرض فى هذه الحفلات تقليده للتراجيديات الكلاسيكية والتى عثر عليها ونشرها ليون دولابربيار . لم نقاوم الرغبة فى عرض مقتطفات منها إذ أنها توضح حيوية هذا المؤرخ ذى العشرين عاماً .

* تغافل عن وجود أى تشابه مع وضعه الشخصى .

مثال ذلك مسرحية « باچازية » * وقد عرضها بمناسبة ماردى جرا ** وفيها يفسح عالم الإستشراق المجال للكاتب الساخر ويحكى كيف حضر الوزير أكومات ليحيط - روكسان - محظية السلطان المفضلة علماً بوفاة سيدهما المشترك :

كان إلى الأمام سائراً ، والحرس تابعاً

ولما كان الجو ساخنا ، كان جلالته شاربا

لا النبيذ لأن ديننا كما أنت عارفة

منه طهّر مطابخنا (وهو فى ذلك بصير

وعلينا خشى من شذاه الخطير)

ولكن شرابه كان بريئا ولذيذا

بالسكر والبهار والقرفة والبرتقال

والليمون والمسك خليط للنشاط فعال ،

فجأة صوت السلطان فى المكان علا

حوله إندفع من القوم من سما

كان كالثور بعزم خاترا ، حتى الخصّ ذهل

مما سمع ، فالصوت الرهيب جلجل .

روكسان

آه ! يا إلهى ! ماذا حدث للمسكين المبجل ؟

أكوامات

التواء خطير فى العنق !

روكسان

فقط ؟

---

* أو « بايزيد » مسرحية لراسين كتبها عام ١٦٧٢ وتدور أحداثها فى سراى تركى فى العصر العثمانى . (المترجم) .

** الثلاثاء المرفع الذى يسبق شهر الصوم عند المسيحيين (المترجم) .

أكومات

كان فى ذلك الكفاية بما أنه به توفى !...

روكسان

أوف! ...

أكومات

لإنقاذه وهذه كانت الظروف

سحب السلطان من داخل عربته

دون جدوى ! إذ أن رأسه من ساعته

وقبل نهاية اليوم كانت نحو كتفه إستدارت

ولاشئ أوقف من عظيم الألم الشدة

وهرولت الذقن ناحية الرقبة تتقدم

والعيون مبهورة بهذا المنعطف تتفرس

فرأت أمامها مالم تره أبدا

رقبته قصمت والموضوع حسم !

هذا ما علمته من أخر مرسال أقسم

روكسان

ياويلى ! ليس هناك إذن شك فى شقائى

إنه بالفعل مات ، هذا أكيد

أكومات

من قال لك ؟

روكسان

قلبى

ومعه ألف نذير ؛ صراخ بومة

سكين أمامى فوق شوكة اعترضا

إمارات حبى فى ساعة نحس يوم جمعة سافر

وسط الوليمة أوقع خادم سارح

الملح على المفرش الليلة البارحة

فى الشارع كلب طوال الليل كان نابحا

فأقلق نومى وكنت لذلك نائمة

ووضع الخبز معكوسا ...

أكومات

لاشك إذن عندنا

التركى الأعظم لم يعد بيننا(11)

هل القرن الثامن عشر والتصرفات الغريبة التى سادت « حكم الديريكتوار » والمغامرة النابوليونية والرومانسية الباذغة كل من رفض أن يشارك فى الهوجة الإمبراطورية دون أن يرتبط فى الوقت ذاته بالثورية اليعقوبية (الجاكوبية) ولا بتقنين الأوضاع الجديدة الزاحفة لجأ إلى السخرية مثل بينچامان كونتسان وهنرى بال (ستاندال) . چان – فرنسوا شامبوليون فضل أن يضحك من ذلك الزمن بدلا من أن يبكى مرغماً .

لعله احتفظ بدموعه للبكاء على أول امرأة أحبها پولين بيريا التى توفيت (بمرض السل) فى يوليو١٨١٣ وهى فى التاسعة والعشرين . منذ أن عرف لويز قبل ذلك بخمس أوست سنوات كانت عواطفه نحوها لصديقة . البورترية الخاص بها والذى لا تزال الأسرة محتفظة به فى « ڤيف » يقدم لنا وجها « جميلا » وإن كانت خطوطه غير منتظمة وتعبير ينم عن مرح طبيعى سلس . كل ما عرف عن الشابة المتوفاة وهو قليل : عن ضحكها وتحفظها الطبيعى ، وعن مسحة الحزن التى إجتاحتها بعد إنسحاب « صغير » هو فى صالح صورتها الجميلة .. نراهن على أن وفاتها أثرت فى چان – فرنسوا وكلفته أكثر من الدموع العابرة .

هل أضافت ذكرياته عن لويز ديشان بعد أن هجرها فى أكتوبر ١٨٠٩ إلى تعتيم حياة چان – فرنسوا ؟ لم تعرف علاقة نسائية فى تلك المرحلة من حياة هذا الشاب اللامع والمحبوب . وإذا حدث وأقرض الشعر الركيك فى صالون فورييه على حساب إحدى السيدات المسماه لويز وقد وصفها بأنها سمحة ومتواضعة فإنه لم يكن يقصد

بالتأكيد لويز الباريسيه وهو بالقطع لم يكن ليذكرها فى وسط كهذا . ولعله أيضا قد طوى هذه الصفحة القديمة مما سمح له بالحديث عن سميتها . يقول ابن أخيه وهو دائماً متحفظ فى حديثه – فى كتابه « حوليات دفينيه » : « إن الخطاب الذى أرسله لصديقه سان مارتا لتسليمه عام ١٨١١ كان « وداعا » كله حنان ومواساة رقيقة (12) » إلا أن لهجة الخطاب المرفق تدفع إلى الشك فى أن قطع العلاقة تم بطريقة سلسة .

مع ذلك يوجد دليل أو مؤشر على أن لويز ديشان كانت تحتل مكاناً أليماً فى حياته وهذا الدليل جاء فى سياق خطاب أرسله صديقه جوچون تاجر الكتب الدوفينى المقيم فى باريس إلى چاك – جوزيف فى ٧ يوليو ١٨١٣ يقول فيه إن « صغير » يجب أن يسافر إلى باريس لأن هذه الرحلة « ستكون قطعا مفيدة له » . ثم يضيف : « إن السبب الذى أبقاه بعيدا قد زال . الشخصية التى تعرفها تزوجت منذ أكثر من سبعة أشهر * .. » كان الجرح إذن ما زال حياً حتى أن چان – فرنسوا كان يمتنع عن الذهاب إلى العاصمة حتى لايخاطر بلقاء لويز .. زواج السيدة قطع الطريق على خطر الوقوع مجدداً فى علاقة حب جارفة .

كان باختصار يعيش فى جرونوبل حياة أستاذ جامعة إقليمية ، محموماً باعداد وتنظيم دروسه التاريخية الطموحة . كان يتردد كثيرا على منزل أخيه فى ڤيف حيث كانت أسرة چاك – چوزيف تستقبله بكل ترحاب وحنان . هناك فى غرفته الصغيرة بالدور الثانى حيث ما زالت أثار أبحاثه محفورة فى خشب السقف وفى غرفة المكتب الصغيرة حيث كانت تتراكم أوراقه وكتبه كما كان الحال فى شقته الصغيرة جداً الواقعة فوق دار كتب جرونوبل . . فى هذه الأماكن كان چان – فرنسوا شامبوليون يطرح أسئلته عن العلامات الهيروغليفية .

فى ٢٨ مارس ١٨١٠ وصل إلى چاك – چوزيف شامبوليون – فيچاك خطاب من سيلڤاستر دو ساسى فحواه كانت من النوع الذى يمكن أن يهدم جميع أمال أخيه بل وهدف حياته كلها إذ كتب هذا الرجل العظيم يقول :

« ولازلت محتفظا بالأثر الطيب الذى تركه لى أخوك وإنى أهيب به ألا يترك الآداب الشرقية أبداً . غير أنى لا أعتقد أنه يجب أن يبقى متعلقاً بحل شفرة نص

* كانت لويز قد ترملت فى ١٨١١

حجر رشيد . إن النجاح فى مثل هذه الأبحاث كثيرا ما يتوقف على صدفة سعيدة لا على عمل شاق يجعل الإنسان يأخذ أحلامه أحيانا أنها واقع ... »(13)

تحذير قاس كان من الممكن أن يجهز على حياة الكثيرين . لعل الشقيقين شامبوليون فسرا هذا التشاؤم بما حدث من خيبات أمل متكررة للمستشرق الكبير . إذ أنه حاول كثيرا مع النص ولأشهر طويلة فى عام ١٨٠٢ دون أن يصل إلى أى نتيجة .. مثلما حدث مع غريمه السويدى دافيد أوكربالد تقريبا . لأن أوكر بالد قد نجح – حيث فشل تماماً من سبق من الرواد – فى أن يقترح على الأقل أبجدية ما وأن يتعرف على تشابه يجمع بين مختلف الخطوط المصرية القديمة . أمام كل ذلك ماذا كانت فرص الرجل الشاب فى فيف ؟

إن « السيكلوتيميين » (الذين يعانون من تناوب النشوة والإحباط) يتميزون بأن التحدى يعيد لهم النشاط . ففى حين يدفع حثهم على العمل إلى الانكماش فإن كلمات مثل تلك التى وجهها له أستاذه كانت كفيلة بأن تلهب « صغير » ، هذا الذى إعترف لأخيه فى يوم من الأيام بأنه ينوى ترك المجال الفكرى وليتفرغ لأى عمل يدر عليه مالا أكثر – ها هو شعلة متقدة مقبلة على العمل .

بعد أقل من ثلاثة أسابيع من تحذير دو ساسى له وصله خطاب من صديقه سان – مارتان يسأله عن أبحاثه فى حجر رشيد . اعترف فى رده أن إعداد محاضراته قد عطلته بعض الشئ إلا أنه أضاف : « ... على الرغم من أن ماكتبه مسيو دو ساسى فى هذا الصدد لأخى ليس من النوع الذى يشجعنى [..] إلا أننى أمل أن أعود للعمل بنشاط فى هذا الموضوع ... »

عدة عوامل توافرت حينذاك لصالح المشروع . يجب أولا ألا نهمل أهمية الجو العائلى والمحلى المحيط . فالعودة إلى جاك – جوزيف أعادت له الشجاعة . الأسباب التي أثرت سلبيا على علاقاتهما مثل شطحات تلميذ الليسية ونفقاته كطالب شحّ يد الأخ الأكبر وطلباته الملحة – كل ذلك إختفى . أصبحا متلازمين فى عمل واحد يجابهان الأعداء نفسهم ، طموحاتهما واحدة . يتبادلان المعلومات والآراء : موهبة دراسة الأصول لدى الأول تقوم بتغذية العبقرية الخلاقة لدى الآخر .

كانت المكتبة – معقلهم ، وكان ملحقاً بها قسم للآثار . كان هذا القسم بمثابة صالة التمرين الذى ينشط فيها الرياضى نفسه استعداداً لخوض مبارياته . منذ ١٨١٠ كان قد إنتهى من الكتالوج ذى الأحدى عشرة ورقة يصف فيه القطع العشرة

المعروضة . أهم قطعتين كانتا عبارة عن تابوتين (أحدهما يحتوى على المومياء الخاصة به) أهداهما للمكتبة مسيو دو مور عشية قيام الثورة وكان يعمل قنصلا عاما فى القاهرة . من المحتويات أيضا جزء من تمثال من الجرانيت الأسود بعض قطع أوشبتى بعض تماثيل من البرونز ووعائان كانوب (سنعود للحديث عنهما) . كان هذا الكنز « الصغير » موضوعا تحت إشراف المستكشف فى عام ١٨١٠ .[14]

من المؤكد لنا أن چوزيف فورييه لم يكن لديه ما يمنحه لهذا المتحف الصغير بعد عشر سنوات أمضاها فى جرونوبل التي ربطها إسمه وأسماء أخرى بمصر .... ولكن لابد وأن الأخوين شامبوليون قد عبرا عن أسفهما لأن چان - مارى دوبوا - أيميه وهو دوفينى أخر من الحملة على مصر فضل أن يحتفظ بمجموعته فى ميلان وهى إحدى ضواحى جرونوبل .

فى مجتمع جرونوبل لم يكن فورييه وفيچاك وحدهما يشجعان « صغير » إذ كان للأب جانتال دور ملهم أيضا . وهو الذى كان مديره فى الليسيه قبل بضعة أعوام وأستاذه فى مادة القواعد وقد إلتقيا عند المحافظ وفى جميع الأماكن التى يجدى فيها تبادل للأفكار .

كان الأب جاتال عالم لغويات . فى شهر مايو ١٨٠١ قدم إلى جمعية العلوم والفنون بحثا يعبر فيه عن اعتقاده أن الحروف الأبجدية « بدأت تظهر على الأرجح فى مصر » وإن دراسة الحروف الهيروغليفية تظهرها « متشابكة مع رموز مختصرة ومع علامات نوعية » ولابد وأن المصريين قد قادهم تفكيرهم إلى « إحلال علامات ترمز إلى أصوات فقط محل العلامات التى ترمز إلى أشياء » . لابد وأن شامبوليون « صغير » قد تأثر إيجابيا بهذه الأراء العميقة .[15]

توفى كلود جاتال عام ١٨١٢ بعد نشر أول نص من تأليف جان - فرنسوا شامبوليون وهو « مصر تحت حكم الفراعنة » ... لم يعثر على أثر للرسائل التي تبادلها مع تلميذه القديم : ولكن لايوجد مجال لأن نشكك فى أنه أدى دوراً فيما قام به المستكشف .

حتى لو لم يعيده المحيطون به إلى موضوع اهتمامه الأول ، فإن الأبحاث التى قادها غيره كانت كافية لأن تحمس چان - فرنسوا فهو لم يكن يتحمل فكرة أن أحداً غيره يمكن أن يحصل على أغصان الغار ... فهى له وحده وهو الذى يستحقها . وهكذا المحب إذا بدأ الملل يتسلل إلى قلبه كانت الغيرة كفيلة بإشعال نار حبه من جديد .

فى ذلك العام ١٨١٠ كثر الحديث بل لم يكن هناك غيره – عن نشر كتاب إتيان كاترومار الذى إستغرق تأليفه سنوات عديدة « دراسات جغرافية وتاريخية عن مصر » فإذا كان چان – فرانسوا شامبوليون لا يتحمل ولا يقبل أن يغامر أحدهم فيطأ أراضيه فإن هذا الرفض يتضاعف إذا كان المتعدى هو هذا « البوليكارب » الخبيث والمتعنت فهو يحتقره إلى أبعد حد ، وزاد حنقه عندما إمتدح دوساسى كتاب غريمه على الفور وكان دوساسى صديق كاترومار وزميله فى المعهد ويربطهما علاقة عائلية .. ما العمل فى هذه الحالة ؟ لاشئ غير إستعادة المبادرة وإفهام الوسيط العلمى أنه « المصرى » وليس أحد غيره وهو الذى يفتح الطريق وينيره ! هيا يجب رفع اللواء ...

فى ٧ أغسطس ١٨١٠ – سيبلغ العشرين بعد أربع شهور – قرأ شامبوليون الصغير ، حتا مطولا أمام أكاديمية الدوفينيه (ثلاثون صفحة من القطع الكبير مكتوبة باليد) م ضوعه « كتابة المصريين » * حدد فيه الموقف الذى وصلت إليه أبحاثه كما لو أنه أراد ن يسجل موقفه بالنسبة لمنافسيه مع علمه التام بأن نتائجه ما زالت عائمة ومؤقتة .

تحديد مواقف أو بيان رسمى .. إنه مستند أخاذ مدهش فيه يرفع چان – فرنسوا شامبوليون من جسارته المعتادة ، يوجه نقده لكليمان السكندرى وللأب أثانار كيرشار والمطران واربورتون على نفس الدرجة من الحدة الفظة فى خليط من الأفكار الحدسية العميقة والأخطاء البينة وذلك بأسلوب حيّ ولهجة نضالية .. من المؤكد أن مراقبيه إستشعروا وتنبؤا له بمستقبل واعد .

فى ذلك اليوم السابع من أغسطس ١٨١٠ بسمعه أعضاء أكاديمية جرنوبل يؤكد أن الهيروغليفيات حروف كتابية وليست كما أدعى البعض ** أعمال نمطية زخرفية . ولكن يجب إعتبارها الشكل الأخير الذى اتخذته مختلف الكتابات المصرية ، سبقتها الكتابة المتصلة أو ديموطيقية التى هى « الأساس الأصلى لهذه المنظومة » . مضيفا : « كيف يمكن أن تكون هذه الأخيرة – كما يدعى البعض فى تكرار – تبسيطا للهيروغليفية ؟ إن فى ذلك سير فى اتجاه معاكس للتفكير البشرى » .. !!

تأسيساً على هذا التأكيد (المشكوك فيه) الخاص بسير التفكير من السهل نحو المركب ، قدم « صغير » عدة إفتراضات جديرة بالاهتمام . أن الخط الديموطيقى

---

* على صفحة الغلاف كان العنوان الكامل هو « الكتابات القديمة للمصريين » ، مكتبة جرونوبل مستند ، AF no 6

** منهم الأب رونلو .

الأصلى والذى كان يستخدمه المصريون فى أعمالهم اليومية يتكون من خمسة وعشرين حرفا ، وإذا كان الخط المتصل (الديموطيقى) أبجدى فإن الهيروغليفيات تضم أكثر من ثمانمائة شكل ولا يمكن أن تكون كذلك بل هى أحادية المقطع . كما أن هذه الرموز أو الأشكال لابد أنها تعبر عن أصوات . ولولا ذلك لما كان فى استطاعتهم أن « ينقلوا » إلى الأسلاف أسماء الملوك المصريين والأمم الأجنبية والقبائل .. » كما أن « الهيروغليفيات لم تكن رسما للأفكار » ولكن توجد كتابة رابعة - ذات طبيعة « رمزية » مكونة من رموز وأشكال وهى فى المعابد المصرية توضع فوق الهيروغليفيات » وقد أدى الخلط بين هذه الأخيرة مع الرموز إلى أن أصحاب المؤلفات الحديثة قد « تراكمت منظوماتهم فوق بعضها دون أن يخطوا خطوة هامة واحدة نحو فهم هذه الكتابة المقدسة » .

فهل قام هو بهذه الخطوة الهامة إلى الأمام ؟ إننا نراه يخطو إلى الأم م لكن سرعان ما يرجع للخلف .. نراه يؤكد أن الهيروغليفيات لم تكن حكراً على الكهنة وإن بعض العامة كانوا يستخدمونها أيضا وهذا مشكوك فى صحته . لكنه يخرج من هذا التأكيد غير المؤكد بفكرة مثمرة وهى أن ما دامت المنظومة أحادية المقطع فمن الممكن أن يتحلل على شكل أبجدية .

« جميع المقاطع الأحادية فى اللغة المصرية كان لها مدلول محدد » ثم يعرض بعد ذلك أن المزج بين العلامة المقطعية » المعبرة عن اليد (هو) أما العلامة المشيرة للوجه (إىْ) تقرأ « يعبد » . هذه التركيبة الدقيقة من مقاطع أحادية مصورة تشكل « على ما يبدو المنظومة الهيروغليفية المصرية » ثم يخلص إلى ما يلى :

> « يترتب على ماسبق عن الكتابات المصرية الأربع أن واحدة كانت تستخدم فى الشئون اليومية العادية وفى التجارة ، والثانية الهيروجراماتيكية ، كانت تستخدم فى الكتابات الدينية (..) وتعرفها الطبقة المتعلمة من الشعب وكذلك الهيروغليفية التى كانت تستخدم فقط فى الكتابة على المعابد والصروح الأخرى . الكتابة المقدسة الحقيقية والتي لم يكن يفهما سوى الكهنة كانت هى الرمزية وكانوا لا يكشفون مبادئها إلا للخاصة والطبقات الأولى فى الدولة . ولم يكن السبب وراء ذلك هو خداع الشعب أو لاستعباده [..] ولكن للحفاظ على سرية حقائق عليا ليست فى متناوله [...] بفضل هذا النظام العاقل بأن أنشات ديانه للشعب وأخرى للمتنورين [..] أن حكومة مصر لم تضطر يوماً إلى قمع المجددين وأن هذه الأرض الشهيرة لم تتلون أبداً بدماء التعصب » ..

فلسفة غربية نابعة من شاب أشيع عنه أنه (يعقوبى) (ثورى متطرف) ! ماذا إذن عن هذه « الأفكار المضيئه » المحجوزه للصفوة المستنيره .. وماذا عن شجب « المجددين » .. غير أن أهمية كلامه لا تكمن فى الشطط الأيديولوجى إنما فى التقدم الذى أحرزه كعالم لغويات فى مجال أبحاثه « أنتقدت بالطبع عودته إلى فكرة « الرمزية » والتي أسقطها معظم الباحثين ! هذه الهفوة وكذلك الخطأ المتعلق بالتسلسل التاريخى لمختلف الكتابات المصرية (من « البسيط » إلى المركب) لايمكن أن يغطيا على إبداعية فكرته الخاصة بالمعنى الصوتى والتصورى للهيروغليفيات : فمن حدسه هذا خرجت الحقيقة .

نعم أخطأ ولكن حقق أيضا تقدما وتنشيطا لمشروعه وطرح تساؤلات طريفة . لم يترك أحد من الجمهور الذى لمستمع « للمصرى » تقريراً عن الحدث . من المتوقع أنهم تأثروا بحماس الشاب ، وتحت تأثير فيجاك وضعوا ثقتهم فى نجاح أصغر أعضاء الأكاديمية الدوفينية سنا الذى سيحتفل بعد أربعة أشهر بعيد ميلاده العشرين .

چان – أنطوان سان مارتان المكنى « بالأرمنى » كان أقرب زملاء دراسة جان – فرانسوا الباريسيين إليه . وسبق أن رأيناه يرجوه أن يؤدى له دور ساعى بريد الحب لتوصيل رسالته للويز ديشان ويفصح له عن آماله بعد أن أصبح أستاذا فى حل شفرة مخطوط حجر رشيد . مشاغل سان – مارتان المهنية ومن بعدها مشاغله السياسية ستفرقهما قبل أن يتصادما بعنف . ولكن فى هذه الأونة التى نحن بصددها كان « الأرمنى » هو صديق المراسلة الذى يبوح له « صغير » بأسراره وهو ما أتاح إمكانية متابعة مراحل عمله بدقة وتطوره الفكرى .

الحوار بين هذين العالمين فى اللغويات يتوه كثيرا فى منعطفات لا تنتهى وفى منحنيات « قضية بوليكارب » التى سبق أن أشرنا إليها ويجب أن نعود إليها هنا ! إتيان كاترومار – تلميذ دوساسى – كان متعمقاً فى اللغة القبطية كان قد نشر فى عام ١٨٠٨ * بحثا فى « لغة وآداب مصر» * ثم أعلن عن قرب ظهور « دراسة جغرافية وتاريخية عن مصر ** وكان ذلك متزامنا مع إعداد چان – فرانسوا شامبوليون لكتابة

* كان يكبر چان – فرنسوا بثمانى سنوات .

** نشر فى ١٨١١

« مصر فى عهد الفراعنة » وهو البحث الذى كان قد عرض فكرته العامة أمام « جمعية العلوم والفنون بجرونوبل » عشية سفره إلى باريس فى خريف ١٨٠٧ . وكان واضحاً أن الكتابيين سيدخلان فى منافسة ستزداد حدة بقدر ما كان المؤلفان * ينفران من بعضهما لتصل إلى درجة الصراع المعلن .

حاول الشقيقان شامبوليون أن يسبقا كاترومار بأن ينشرا « مقدمة » كتاب « مصر فى عهد الفراعنة » على حدة . إلا أن « بوليكارب » كسب الجولة فقد ظهر كتابه فى يناير ١٨١١ أما مقدمة أستاذنا الشاب فى جرونوبل فقد طبعت فى أكتوبر ١٨١٠ إلا أنها لم توزع على الجمهور سوى فى الأول من مارس ١٨١١ . وقد عرضه ذلك إلى خطر إتهامه بسرقة أفكار غريمه فى مجمل إكتشافاته عن أسماء المدن المصرية بإعادتها إلى تسميتها القبطية أى المسموعة لأنها هى الأسماء الفرعونية – وكان هذا بالضبط مايقوله كاترومار .

استقبل جان – فرنسوا فى البداية الأمور ببساطة وكتب فى ٢٠ فبراير ١٨١١ إلى سان مارتان يقول له أن نشر كتاب « بوليكارب » تسبب له فى « خوف أكثر مما تسبب من ضرر » لأن غريمه لم يقدم سوى أسماء ١٠٤ مدينة فى حين ينشر هو ١٧٤ إسما ثم أنه شعر براحة نفسيه بعد قراءة تعليق سان مارتان المادح لكتابه الذى أرسل له منه نسخة مطبعة لم تصحح . علاوة على أن « المقدمة »* حازت تأييد جومار ولم يكن هذا بقليل نظرا لأهميته المزدوجة بصفته أحد قدامى الحملة المصرية فى ١٧٩٨ ولكونه أيضا عالم جغرافيا وكان تأييده يحول دون تعرضه لذلك وكتب يقول لجاك – جوزيف فى ١ يونيو ١٨١١ أنه « فوجئ مفاجأة سعيدة » لما وجده فى هذا العمل « من أفكار تتطابق تماما مع ما كتبته » وهى ستساعد « فى تكملة وصف مصر » (16) .

أما أبال دو ريموزا ، دارس اللغة الصينية فقد كتب فى ١٢ فبراير ١٨١٢ إلى شامبوليون فيجاك أن أخاه الأصغر قد وضع نفسه مرة واحدة « فى مصاف العلماء المشهورين » وأنه لن يجنى من هذا العالم سوى الأذى لأنه على حق .

« على حق » ؟ الأمور ستسوء فعلا :سيلفاستر دوساسى الذى أرسله له صغير « المقدمة » وهو يشير إلى ماتدين به أبحاثه لتعاليم أستاذه فى الكولاج دو فرانس ، أشاد علنا بكتاب كاترومار : إذن الأستاذ العلامة لم يكن مقتنعاً « بخبرته المصرية » وعليه فإنه سيثبت له « أنه يعرف اللغة القبطية كما يعرفها بوليكارب الذى لم يدرسها

* نفور جان – فرنسوا لبوليكارب هو المعروف لنا . أما نفور كاترومار فنستنتجه من كرهه للبشرية جمعاء – فبالأولى منافسيه .

إلا سطحيا » . وكتب صغير فى أحد خطاباته أن الصحف « لم تعامل منافسه بنفس إيجابية دوساسى » مختتماً خطابه بقوله « إن العدو الميت رائحته طيبة » ياه !!

بعد ثلاثة شهور تفاقمت الأمور . سيلفاستر دوساسى بعد أن أرسل له خطاباً رقيقا يشكره فيه على الكتاب ، نشر فى « المخزن الإنسيلكوبيدى » تقريرا كله تحفظات عليه غضب جان - فرنسوا :

« مقاله س . دو س . فاجأتنى ولكنها لم ترهبنى . كنت أتوقع عملا من هذا النوع ولكن لم أكن انتظر منه أن يذكرنى باستمرار بكتاب بوليكارب وبأن من الصعب أن يشتهر كتابى وسط بريق أمجاد صديقه » .

وكان ذلك إعلاناً للحرب : ضغط جان - فرانسوا على سان - مارتان ليعلن عن رأيه الايجابى فى « المقدمة » وحثه على أن « يشهر كل طاقاته ضد بوليكارب » فهو غالبا سيرث « إستبداد » دوساسى فى الكولاج دو فرانس ... ثم أقنع أخاه بأن يشن الهجوم المضاد باسمه وقام أخوه بالتنفيذ . إذ إستلم دوساسى بعد عدة أسابيع خطاب عتاب مطولا فنّد فيه « مذكرته الكريمة » بـدقه قـاسيه جدا فـهو يـذكر أن أخاه لن « يستعيد » بأى جديد من كتاب مسيو « ك » لسبب بسيط هو أن كتاب أخيه قدم عام ١٨٠٧ إلى أكـاديميه جرونـوبل وأرسـل فى حـينه إلـيه شخصيا - أى اساسى - كـما أرسل إلى لانجلاس وجـومار وفورييه . كمـا يؤكد جاك - جوزيف أن أخاه لكى يبرهن على « حرصه وحياده » و « عن رغبته فى عدم الدخـول فى صـراع * بأنه لن يكشف علنا » الأخطاء التى وقع فيها مسيو « ك » . ويختتم جاك - جوزيف كلامه حادا مهدداً وهو أمرغير عادى بالنسبة لشخصية لها هذا القدر ثم يقول « إن الظلم قد يجهز على حماس أخيه بعد أن جمع مادة ثرية لدرجة « تجعله أفضل بكثير من أى شخص آخر » فى مجال فك شفرة الهيروغليفية (17) .

وبعد بضعة شهور ، سيحمل جان - فرانسوا نفسه السلاح فى خطاب لسان - مارتان . إذ يعلن أن « لواء الحرب قدرفع » وأن « الوضيع كاترومار يرى صولجان الشرق يهتز بين يديه » وينهى كلامه قائلا : « إن بروتوس مثلك وكاسيوس صغير مثلى لهما أكثرمما ينبغى [..] ضد قيصر بهذا الحجم التافه [..] دع كتابى « مصر » يظهر وسيكون نقطة خلاف ممتازة نلقى بها وسط أعدائنا .. ».

إذا نحن توقفنا طويلا عند هذه القضية التافهة عن منافسة حول من سبق من بين

---

* هنا السخرية تخطت الحدود .

مثقفين ، فذلك لأنها تكشف مرة أخرى عن مشاكسته العنيفة المتعصبة وعن حماسه فى الحديث ونزعته إلى الانتقام وهو ما جعل الشقيقين شامبوليون فرقة قوماندوز أسقطت بالمظلات وسط البرابرة - فما أن يظهرمناقض له إلا وسحبت سيوفها وإرتدت الدروع وخربوا علاقاته .... هكذا كان حال مشروع فك الشفرة موسوماً بصك الجدل المتعصب وسيستمر الحال كذلك فى مجال الدراسات المصرية القديمة حتى بعد رحيل العالمين . إذ إن عالم الإيجيبتولوجيا ينوء بما يدور حوله من صراعات الحساسيات الوطنية والمنافع الشخصية والتحزب الشللى ولو أن ذلك كله يحدث لمصلحة مجد الآلهة .

حرب « الجال » المصغرة هذه ضد « قيصر الصغير » لم تشتت فكر جان - فرنسوا شامبوليون فتجعله ينسى الموضوع الرئيسى وهو صراعه الشخصى مع الكتابة المقدسة . وإذ سأله سان - مارتان عن موقفه منها رد عليه فى ١٥ أكتوبر ١٨١٢ بما يلى :

« لم أحرر بعد مؤلفى عن قواعد اللغة المصرية إلا أن خطة العمل فيه إكتملت (..) إنى قمت بتحليل اللغة القبطية أو المصرية لدرجة أنى على إستعداد لتدريس قواعدها لأى فرد فى يوم واحد (..) سأبدأ بأن أثبت أن الكلمة المكونة من مقطعين هى فى الأصل مكونة من كلمتين أخريين . إن هذا التحليل الكامل للغة المصرية يعطينى دون أى شك * فتاح أصل المنظومة الهيروغليفية وسوف أثبت ذلك (..) ولكن هُس ! »

هُسْ ؟ بعد خمسة أشهر أصبح باحثنا أكثر ثرثرة وأفشى لمراسله إحدى أكثر اكتشافاته أهمية منذ أن شرع فى دخول مغامرته .

« ..... يوجد فى الهيروغليفية نوعان من الرموز .

(١) ست رموز أبجدية [..] من حجر رشيد

(٢) عدد [..] محدد من محاكيات لأشياء فى الطبيعة .. »

لقد توصل بذلك إلى ثلاثة عناصر من الحل : أولا إن المنظومة الهيروغليفية بمختلف أشكالها موحدة (أى أنه إستبعد فكرة أن الديموطيقة سبقت الخطوط الأخرى) ، ثم أنها تتضمن حروفاً أبجدية (توصل إلى ستة منها) بالاضافة إلى رموز تصويرية ،

* أقل ما يقال عن هذه الكلمات إنها زادت عن الحد : أو أنها سابقة لأوانها فهو لن يقيمها إلا بعد عشر سنوات كاملة .

وأخيراً أن لها قيمة (فونيتقية) (منظومة سمعية) . هل يعد ذلك خطوة هائلة إلى الأمام ؟ هى فى جميع الأحوال خطوة بالفعل .

إلا أن مطاردة الحقيقة لم تتم فى ميدان اللغويات فقط فهو يبحث أيضا فى مجالى الطقوس الدينية والمعتقدات . متحف المكتبة الصغير كان يحتوى على وعائين كانوبيين من الألبستر الجزء الأعلى لأحدها عبارة عن رأس قرد والآخر رأس ابن أوى وكان قد إصطلح على اعتبارهما رموزا للماء أصل الحياة عند المصريين القدماء . هل هذه هى الحقيقة ؟ للتأكد من ذلك قام چان - فرنسوا فى نوفمبر ١٨١٢ بإجراء تجربة هى الأولى من نوعها عليهما . إذ وضعهما فى ماء يغلى أذاب البلسان التحنيطى الذى يغلفهما وهو ما كشف عن شئ ملفوف فى قطعة قماش صدرت منه « رائحة حيوانية » .. هل هو كبد أم مخ أم مخيخ أم قلب إنسان ؟ لقد إكتشفها .. الإناء الكانوبى يستخدم فى طقوس التحنيط .

أفضل من ذلك قوله لسان مارتان إن هذه الطقوس هي جزء من عملية محاسبة الأرواح وأن الرءوس التى تعلو الأوانى الكانوبية - لسيدة أو إبن آوى أو صقر أو قرد - ترمز لصفات إلهية مثل الرحمة والعدل وروح الحياة وروح الموت . « توصلت إلى المنظومة الشاملة له المادية والفكرية للتحنيط » صرخة نصر جديدة وخطوة أخرى إلى الأمام .

فى خريف ١٨١٣ عبر له سان - مارتان عن دهشته ؛ لأن الباحث يشكك فى الجانب « القدسى » أى المخصص للكهنة دون سواهم للهيروغليفيات - وهو ماسبق أن أكده فى بحثه المقدم لأكاديمية جرونوبل فى ٧ أغسطس ١٨١٠ - إلا أنه هنأه على إكتشافه « وأن الكتابة المذكورة تعبر عن أصوات الكلام المنطوق » رد عليه أستاذ جرونوبل :

> « ما زلت أدرس نص حجر رشيد والنتائج لا تتابع بالسرعة التى أود [..] الهيروغليفية ؟ هذا هو السؤال العظيم . لدى أفكار كثيرة إلا أنى لا أجروء على تصديقها إلا بعد أن أتوصل إلى شئ من النجاح [..] أرجو أن تكون مسرورا من تحفظى فى هذا المجال [..] لايمكن أن يحذر المرء نفسه من نفسه بما يكفى [..] لقد توصلت إلى نتيجة فى غاية الأهمية . هو أقتناعى بأن شكلا هيروغليفيا واحدا - أى معزولا - لايمثل أى معنى ولكنهاموزعة فى مجموعات بدأت أميز بينها فى سهولة [..] المنظومة الهيروغليفية مثلها مثل مثل اللغة المصرية . مقطعية بالكامل ... »

معرفته باللغة القبطية كانت مفيدة له جدا . إلا أنها هنا ولو لمرة واحدة تسببت فى

تضليله وسنرى كيف كان ذلك .

فى نهاية أكتوبر ١٨١٤ ظهر له أخيرا كتاب « مصر تحت حكم الفراعنة » فى جزءين الذى هو فى الواقع كتاب عن جغرافيا مصر فى العصر القبطى . وقد عبر لسان مارتان فى خطاب له عن « سروره وإرتياحه » لأنه « أنجب طفلين بدينين قد يكون لهما بعض العيوب ولكنهما يعطيان على الأقل بعض الآمال » . و « سيجنى المرء بعض ثمار عمله » - حتى لو كانت هذه الثمار محاطة ببعض الأشواك . اعتبارا من ٤ مايو ١٨١٤ كان نابوليون منفيا فى جزيرة إلبا ولويس الثامن عشر فى مقر التويلورى - فى حين كانت جرونوبل - ولأول مرة فى تاريخها الحديث - قد عانت من آلام الاحتلال الأجنبى للقوات المتحالفة النمساوية الساردية . أقل ما يمكن أن يقال هنا هو أن عودة آل بوربون إلى عرش فرنسا لم تكن من ناحية المبدأ لتروق للشقيقين شامبوليون فبالنسبة للشقيق الأكبر فعلى الرغم من بعض الأخطاء التى ارتكبها مؤخرا فإن حياته العملية بأكملها بدت مرتبطة برجال وبمؤسسات الامبراطورية أما بالنسبة للآخر فلأنه جمهورى من قمة رأسه لأخمص قدمه .

ومع ذلك فإننا نلاحظ أن أزمة النظام الامبراطورى ثم إنهيارها لم تثر قلق لهذا أو ذاك فلا يوجد فى مراسلاتهما سوى آثار قليلة نسبياً عن هذه الأحداث الرهيبة : كل شئ يشير إلى أنهما عاشا الكارثة الوطنية أو الشخصية على أنها عقاب على الأخطاء التى إرتكبها النظام الامبراطورى وعلى تجاوزاته .

من جهة أخرى نجد توقيعهما أسفل خطاب لجهاز الأكاديميه لمدينة جرونوبل نشر فى ٢٧ أبريل ١٨١٤ يؤكد أن فيه تشيعهما لنظام آل بوربون الجديد ويعلنان عن أنهما « يعبران عن عظيم تمنياتهما لسليل فرنسوا الأول النبيل الذى سيحافظ على ازدهار العلوم والفنون كما أنهما يحيطان بكل الحب صاحب الجلالة حفيد الملك الطيب هنرى الذى سيعيد إلى الأمة السلام والسعادة » .

لم تكن الفترة من ١٧ إلى ٢٠ أكتوبر عندما قام « السيد » الكونت دارتوا شقيق الملك ورمز عودة « المتطرفين » بزيارة لجرونوبل سوى سلسلة من الاحتفالات ولا نجد أى أثر لإستنكار الأخويين ، أما فورييه فقد وقع على التعليمات الآتية لمعاونيه : « ... ثلاث ساعات قبل مرور الأمير [..] يجب أن تكون الحشود ضخمة جداً

[..] لاشك أن رجال الدين سيتدافعون للإعراب عن تحياتهم [..] يجب أن تطلبوا منهم أن يساندوا آراءنا وأن يتجمعوا بملابس الاحتفالات على شكل مسيرات فى المكان والموعد المحددين [..] ستعدون اللافتات مكتوب عليها الشعارات مزينة بزهور الزنبق * (..) الأعلام التى سيحملها السكان سيكون لها أفضل تأثير . سيحملها رؤساء المؤسسات أو الشباب . يجب أن تعلو الهتافات من كل جانب . ويجب أن نسمع هذه الهتافات « يحيا موميو » و« يحيا الملك » و« يحيا الدوق دانجولام » « تحيا مادام » و« يحيا آل بوربون » .

هل كان هذا التأييد مفاجئاً ؟

بالنسبة لچاك – چوزيف كانت الأمور بسيطة بعض الشئ : كان مغضوباً عليه منذ بضعة أشهر أو على الأقل فى حالة عدم وفاق مع السلطات الأمبراطورية بعد وفاة دوبوا فونتانال فى ١٨١٢ أصبح هو عميد كلية الآداب وكبير أمناء ومدير المكتبة إلا أنه قد فشل أيضاً فى أن يعين مفتش عام التعليم مثيراً فى هذا الصدد تكتلاً مناهضاً له . وقد كشف ذلك عن أن نجاح الشقيقين أثار أحقاداً حادة وعلى الأخص غيرة سكرتير فورييه وإسمه لوباسكييه . والأسوأ من ذلك أنه كان قد خسر فى ١٨١٢ مركزه المحبب والذى كان يتمسك به جداً وهو رئيس تحرير « حوليات الإيزار » .

لماذا ؟ لأنه سمح بنشر بعض الأخبار دون أن يعرضها على الرقابة تؤكد الخسائر الفادحة فى الرجال التى تتسبب فيها الحملات الحربية الامبراطورية وخاصة فى أسبانيا – كما لو أن هذا التأكيد لم يكن معروفا للكافة . فصدر مرسوم من المحافظ (فى غيبة فورييه بالمناسبة) يفيده بأنه حرم من وظيفته ؛ لأنه نشر « معلومات ضارة »[18] ، وقد أكد المحافظ بعد ذلك بنفسه على القرار فى تقرير قاس رفعه للوزير .

لم يفقد فيچاك بذلك وظيفة هى من أهم عوامل سلطته فقط .. بل لعله كان قد خسر أيضا راعيا له وصديقا وعلى أية حال كانت علاقاته بالمحافظ قد تدهورت قبل إقصائه عن منصبه فى عام ١٨١٢ . هل نبحث عن أسباب هذا التحول فى نوع من التنافس الأدبى ؟ مهما كانت طيبة الرجل الذى كان أمينا عاماً لمعهد مصر فهو لم يكن ليقبل بسهولة أن تكون مقدمته العظيمة مدينة بهذه الدرجة لشابين مقربين جدا منه تعاونا معه فى العمل فلعلهما يعلنان فى يوم من الأيام أبوتهما له بأكمله أوعلى الأقل

* شعار أسره البوربون (المترجم) .

نسب العوامل المجددة فيه لهما. إذ ليس من السهل أن تسامح أحداً على ما قدمه لك من خدمات بشكل معلن ولامع أكثر من اللازم .

فى أيدينا شهادة عن هذه الأزمة وما إنفعال چاك - جوزيف إزاءها متمثلا فى خطاب حرره فى بداية ١٨٢٣ موجه لفوريبه وهو ينضح بالضغينه ولهجته حادة جداً .

« أحد أساتذه الأكاديمية [..] يردد منذ ستة شهور أنكم أوصدتم بابكم أمامى [..] وأن شعوركم نحوى قد تغير [..] اعترف إن الاشاعة [..] جعلتنى أكثر خبرة فى علاقاتى معكم [..] لقد تمت الوشاية بأحد أفراد أسرتى * فى باريس عن أفعال لم تحدث وهى غير صحيحة بالمرة بقدر ما هى خطيرة [..] فى زمن أخر كنتم عبرتم لى عن عظيم كرمكم بأن تفاتحونى بشئ عنها . [..] إلا أننى لم أحظى بمثل هذا التعبير عن ثقتكم بى .. » .

ويختتم فيچاك بلهجة كلها مرارة وتهديدية : « وبناء على ذلك فإنى على يقين ، ياسيدى ، أنكم لن ترفضوا لى (أ) استعادة الصحيفة اعتباراً من ١٥ أغسطس ؛ (ب) أن تعيدوا لى مجلدى ** كتاب شقيقى والذين كانا مرسلين لباريس [..] إنى فى انتظار شرف الحصول على ردكم بفارغ الصبر [19] » .

هل حاول فوريبه أن يسئ لسمعة شريكيه المجتهدين الجرونوبلوازين » هذا ما أوحاه لهما سان - مارتان . وأيده هيرمينى هارتلوبان[20] . العودة السريعة للعلاقات الطيبة بين المحافظ وفيچاك وعلى الأخص فى فترة المائة - يوم *** ، ثم الوصف الإطرائى الذى قدمه الأخير عن المحافظ بعد ذلك بعشرين عاماً يوحى بأن فوريبه كان يعمل على ألا يعرف أحد فى باريس دور الشقيقين شامبوليون فى تأليفه لكتابه وإن عملية تشويه سمعتهما لم تذهب إلى أبعد من ذلك .

رأينا كيف أن ساسى ولانجلاس لايحتاجان لأى تحذير من علو شأن الشقيقين فكريا وإجتماعياً . الموقف الذى سيتخذه سان مارتان فيما بعد يلقى بالشك حول صدق تحذيراته : فهل كان يستعد لأن يدير لهما ظهره قبل أن يتحول إلى العداء العنيف وإلى المضايقات المستمرة لهما ؟

---

* هل كان المقصود هو : جاك شامبوليون ؟

** « المقدمة » التى نشرت فى ١٨١١

*** التى أمضاها نابليون فى فرنسا بعد هروبه من منفاه فى جزيرة ألبا مارس (١٨١٥) وهزيمته ثم العودة إلى منفاه البعيد فى جزيرة سانتيلان فى ٢٢ يونيو ١٨٠٥ (المترجم) .

إذا كان للشقيق الأكبر أن يتعلل بمشاكله الأخيرة مع السلطات ليصور نفسه ضحية لنابليون معللا بذلك مشايعته لأسرة البوربون فإن الأخ الأصغر لم يخف قط ميوله الجمهورية وكان معروفا بعدائه المعلن لرجال الكهنوت والمتطرفين فإن دوافعه كانت ومنذ سنين طويلة تحركها مناهضه متنامية نحو النظام الإمبراطورى .

اعتبارا من ١٨١٢ تمتلئ خطاباته بنقد حاد لمغامرات نابليون العسكرية سواء فى أسبانيا أو فى روسيا . وكان ينقل باستمرار لأخيه الإشاعات المتشائمة للغاية والسلبية جدا بالنسبة للآلة الحربية الامبراطورية ومثال ذلك كتب چان – فرنسوا فى خطاب غير مؤرخ ويمكن إرجاعه بالنظر لما ذكر فيه إلى أوائل ١٨١٣ أن الامبراطور نابليون وهو فى طريقه لإيطاليا وظهر « وقد أبيض شعره خلال الحملة العسكرية الأخيرة » .. بعد ذلك ببضعة أشهر تحدث عن لقاء بين الامبراطور وبعض الشخصيات من « مدينتنا الطيبة » أعلن نابليون خلاله أنه سوف يوقع قريباً على إتفاقية ڤيينا وتعليق چان . فرنسوا « إما أن الإمبراطور مجنون أو أن الاشاعه كاذبة . وهذا المقطع الأخير من إفتراضى يبدو لى الأكثر صدقاً » [21] .

ثم بعد ثلاثة شهور نقل صغير لأخيه إشاعة تؤكد « أن الروس وحلفائهم نجحوا فى عبور نهر الراين فى ثلاث نقاط مختلفة أما فى نابولى فان الملك مورا فى حالة يأس وفى البيمونتى الشعب مناهض لنا تماما . الويل للمهزومين ! » بعد بضعة أسابيع أخرى ، علم الأستاذ الشاب لمادة التاريخ بجامعة جرونوبل أن « الحكومة تتوقع أن يتم غزو الإمبراطورية وأنها تفعل كل ما فى وسعها لتجعل الشعوب تثور » .. ولكنهم « اعتقدوا أنهم إذا هزموا الفكر العام سيكونوا أمنين [..] فقضوا عليه وسيصبحوا قريباً ضحايا جريمتهم » .

اختصار تاريخى جميل يعطينا شرحا مسبقا لسلوك چان – فرنسوا شامبوليون أثناء عهد « عودة الملكية الأولى » .

هذا الجمهورى لم ينضم أبداً للعهد الامبراطورى بشكل حقيقى . فقد خشى وهو لا يزال مراهقا بل أنه خاف لدرجة الهلع من أن – يجند فى « الجيش الكبير » (جيش نابليون) . وهو كمواطن يكره التسلط وكمؤرخ يشجب روح المغامرة البونابارتيه : ماهو الحكم الذى يمكن أن يقاوم المد المعاكس إذا هو امتد من قادش (أسبانيا) إلى موسكو ؟ وكانسان يمقت سلسلة نزيف الدم التى تؤدى منذ خمسة عشر عاماً ببلاده وأوروبا كلها إلى حالة من الانهاك الكامل وهو ينضم فى ١٨١٤ إلى العدد الهائل من الفرنسيين الذين لم يكن لهم سوى هتاف واحد « كفى » وهو لذلك يحى السلام فى ٣١ مايو وهو يشعر « بسعادة رهيبة » .

عدة أسباب دفعته إذن إلى عدم استقبال النظام الجديد بموقف عدائى خاصة وأنه يؤكد على دستوريته وعلى أنه سيحتفظ « بمكاسب الأمة » ، ولكنّ هذا لايعنى عدم تعلقه بالجمهورية . وهذا هو السبب الذى سيؤدى به تصرفات غامضة جدا - فهو أما يصبح انتهازيا كأخيه وفى أحيان أخرى يدفعه إلى أن يعلن ولاءه بنفعيه ساخره مثل تاليران .

وبالفعل ما أن وصل آل بوربون إلى قصر التويلورى إلا وكان فيچاك يهرول إلى باريس : وهدفه أن يجنب كلّيته الجامعية مصيرِ المؤسسات الامبراطورية الأخرى وأن يحافظ على سمعته الشخصية ولعله أيضا يستعيد صفته الصحفية .

على مستوى وزير الداخلية مونتيسكيو فقد طالبه چاك - چوزيف بأن تتولى « حكومة وصاية » تصحيح « ظلم الحكومة السابقة » . كان فونتان لايزال محتفظا بمنصبه (وفورييه أيضا) وإستعاد لقبه الرنان « ماركى » وقد طمأنه على مستقبل جامعة جرونوبل ورشحه لأن ينتخب عضوا منتسبا لأكاديمية الأداب وجعله ينال وسام الزنبقة . مما أثار سخرية أخيه والذى لقبه رفيق أو لبس مضيفاً « تتذكر أنهم هلكوا جميعا» ثم حذره أيضا من الأوهام التى يغرقه فيها أصدقاؤه الباريسيون . إنه يستشعر فى « رعب مخيف » إعلان عودة ذوى الأردية « السوداء » (المتعصبين للكنيسة) مما سيدفع « العلمانيين المساكين إلى إعلان توبتهم » ومثال ذلك ما كتبه لأخيه فى ٣٠ يونيو ١٨١٤ فى بيتين من الشعر .

« لأنى أعرف إلا عيبهم وتخايلاتهم المقدسة فيا صديقى أخشى الرداء الأسود ولاشيئا آخر..

ويضيف موضحاً « تأكد أن الأمال الطيبة التى يعطونها لك ليست سوى الهدوء التام الذى يسبق عادة العاصفة ... »

ثم يضيف فى مرارة :

« إن الباريسيين هم باستمرار أسوأ أوغاد أوروبا . إنهم كالكلاب مستعدون دائما لتحية أول جيفه تصادفهم [..] إنهم يسعون إلى إنقاذ أنفسهم ، هذا كل ما فى الأمر [..] [ثم كتب فى ١٥ يونيو ١٨١٤] : لا مهما حاولت أن تطمأننى على حالة الجامعة فأنا أنظر إليك على أنك مؤقت فقط . إن رجال الدين وقد أصبحوا فى كامل سلطانهم لن يتركوا من بين أنيابهم فريسة ظلوا يفترسونها بأعينهم لمدة عشرين عاما (..) أما أنا فمصيرى واضح مثل ديوچين سأسعى لشراء برميل ..»

إنضواء جاك جوزيف تحت لواء النظام الجديد أثار سخطه :

« .. لقد أسأت التصرف جداً . لايوجد سبب واحد يدفع لأن تفعل ذلك .. إنى لم أعد أعرفك أنت الذى يتعالى بكل تعقل فوق الرذيلة والغرور والإدعاء [..] إننا لسنا على إتفاق فى ذلك وإنى أتوقع بكل أسى أن الحال سيظل هكذا بالنسبة لأمور أخرى كثيرة إننا لا نتشابه كثيرا فيما يتعلق بالأراء ياصديقى ، وبما أنى تربيت على يديك وبجانبك ولكنى أيضا مختلف عنك من الأساس ولعل ذلك راجع إلى الطبيعة .. وعلى الرغم من أن دوافعنا كانت تأتينا فى أحيان كثيرة فى اتجاهات عكسية فإنى أرجو ألا ينتج عن ذلك أبداً نقاش أو غضب ... »[22] .

تشدد محمود ولكنه وقتى فبعد أيام قليلة سنرى صديقنا جان - فرنسوا « تحول تماما ودخل مذهب « الواقعية » :

« تقرب بقدر ما تتمكن من مسيو دو شوازول* .. ولاتنسى أن أى كونت أودوق يحتاج « لزراع يمنى » وأنهم لايفعلون عادة شيئا بأيديهم لأن رجلا من الطبقة الثالثة يرتفع إلى حيث هم ويتسلل تحت عباءاتهم ويحركهم طبقا لهواه وذلك فيه ما يرضى الجمهور [..] يمكنك أن تكون هذا الرجل ملهم مسيودو شوازول صانع كل شئ الذى يحتاجه الكبار دائما . الزمن موات [..] ستجد نفسك على خشبة مسرح تليق بك . إن دماغك يمكنها أن تقود سفينة وزير، إنها موهبتك وأنت لن تتنفس بحرية وبسهولة سوى فى هذه الارتفاعات . وعندما لا تهب الفرصة نفسها يجب إغتصابها [..] يجب أن تعلم أنك إذا أردت أن تركب عربة الوزير فيجب أن تبيت فى قصره[23] . » .

هل عرفنا « صغير » أم أننا كنا نعتقد ذلك فقط ؟ هذه السطور الغريبة تظهر لنا أن « كاسيوس الصغير » تحول إلى ماكيافيل ، إلى موسكا إلى أب هيريرا ، إلى فوشيه ! أنت محيِّر يا جان فرنسوا ، مختلف ومتعدد جدا ، وتعيش ليومك جدا ، تنفعل بسهولة وتلقائى جدا ولكنك تتحول بسهولة مفاجأة : إنك خليط من الفارس المغوار والفلاح الدوفينى القلق على إدخال محصوله إلى المخازن وعلى جز صوف خرافه ...

كانت عودة الملكية الأولى موسم الحيرة السياسية فى حياة شامبوليون الصغير إلى جانب فترة ظهور الانتهاز - التى لمحناها مرتين أو ثلاثا فى شخصيته « الشرقية »

* دوق دو شوازول - جوفار من مرتادى صالونات جرونوبل ، رشحته الاشاعات ليكون أحد وزراء المستقبل .

ذات الدم الحامى والرأس المتحير كما كان هناك أيضا موسم تحول عاطفى سيكون له أثرعميق فى حياته كلها . كان يحاول نسيان لويز ديشان . وكانت بولين بيريا قد توفيت كما علمنا فى يوليو ١٨١٣ . ولم تمر بضعة شهور قبل أن يتقدم لخطبة روز بلان المسماه روزين وهى إبنة أحد أعيان المدينة وعلى صلة قرابه بعائلة بيريا : وهو يعمل فى صناعة القفازات وهو ما يعنى الكثير فى مدينة جرونوبل .

إلا أن طلب العريس ظل دون رد لفترة طويلة فهو لا يلقى قبول صاحب مصنع القفازات . يعطى يد ابنته إلى مدرس عمره ثلاثه وعشرون عاماً لا يكسب سوى ٧٥٠ فرنكا فى الشهر !! وعلاوة على ذلك فإن سمعة الشاب ليست جيدة فى الأوقات الحالية .. إذ يقال أنه يصادق الأب جريجوار . هذا اليعقوبى (جاكوبى ثورى) عضو سابق فى الجمعية التأسيسية ومحامى تحرير اليهود والمستعمرات بل إن البعض يؤكد أن چان – فرنسوا ضالع فى محاوله هجوم بالقنابل فى أثناء الزيارة التى قام بها دوق دانجولام أخو الملك لجرونوبل .

ولم يكن نشر كتابه « مصر فى عصر الفراعنة » حتى لو أهداه إلى الملك لويس الثامن عشر فى شهر أغسطس ١٨١٤ – ليغير من رأى صاحب المصانع : لا هذا النشر ولا هذا الاهداء قد ظهر على صفحات « حوليات جرونوبل » التى أصبحت الآن فى يد أعداء آل شامبوليون .. أما الطامة الكبرى فهى أن چاك – جوزيف الواعى الفاهم الوصى الذى لا يخطئ لايساعده فى مشروع زواجه بآنسة يراها تستحق أن تشارك أخاه مستقبله العظيم .

المستقبل العظيم ؟ چان – فرنسوا يرى أن جيبه خال ومرتبه الشهرى بسيط والمجتمع العلمى متخوف للغاية منه وأن نجاحاته فى مشروع فك الشفرة ليست بالوضوح الذى يدعيه فى حين أن دكتور يانج المشهور جدا (سيكون له دور رئيسى فى بقية قصتنا) يعلن فى لندن أنه يتقدم نحو فهم الكتابة الديموطقية * . وأن وضعه فى جرونوبل أصبح مهددا بوصول أعدائه اليمينين المتطرفين و « الجيزويت » إلى السلطة وهو فى النهاية يتألم بسبب إزدراء كلود بلان له . فهل أصبح على شفا اليأس ؟

* انظر على وجه الخصوص فصل ١٠

كلا ! إذا كان كتابه « مصر » لم يلق بالفعل تأييد دوساسى إلا أن صديقنا عالم اللغويات لايزال يحتفظ بأعصابه هادئة .

« قرأت متلهفا ملاحظات أستاذى الكبير على الجزء الأول من كتابى ، وإنه لمن دواعى سرورى ودهشتى أن أرى أن المفتش الأعظم لم يجد سوى أربع قشات ليحرقنى بها حيا » . بل وسنرى چان - فرنسوا ولو لمرة واحدة رحب الصدر . فعندما قال عالم اللغويات الألمانى هامر عن كتابه فى « المخزن الانسيكلوبيلى » « إن مسيو شامبوليون قد سبق بكثير السادة دو ساسى وكاترومار » أرسل « صغير » خطاباً لسان مارتان يقول له فيه إن ما فعله هامر هو « حجر الدب » ويخلص إلى : « لعل هذا يفسر القسوة التى كتب بها أستاذى العظيم خطابه الأخير . هذا هو حال الدنيا ! » .

إذن لم تكن بداية كتاب « مصر فى عهد الفراعنة » سيئه فى الوسط العلمى .

إلا أن أحداث الفصل الثانى من المسرحية لن تجرى بين علماء اللغة : ستصبح قصتنا معاصرة للغاية ....

٦ - الغول وزهور الزنبق

« نابوليون وصل إلى فريجوس ! » الامبراطور فى فندق لى تروا دوفان - عهد .. « له نصف إسمى » - سأنشر قواعدك للغة القبطية .. - چان - فرنسوا مؤيد بوناپارتى حديث - أول حوار مع يانج - واترلو - « انقذ نفسك أولا » - الكازينو ... - القاموس والنثاب - نخب الجمهورية - بؤرة للوشايات - « أريد أن أكون مسجل عقود ! » - الأخوان شامبوليون ، رجال خطرون ..... - مطرودون ! - هيا خروجاً ، إلى فيچاك .

بنهاية شهر فبراير ١٨١٥ إنتشرت فى البلاد همهمة ثقيلة مناهضة لنظام آل بوربون العائد للسلطة . والتذمر يصبح أكثر حدة وصخبه أعلى فى منطقة - تقاوم على الدوام أى أستبداد مثلما هو الحال فى الدوفينيه . استلم عدد من شخصيات جرنوبل المرموقة عن طريق البريد رسالة جاء فيها أن الشعب الفرنسى « سوف يستعيد حريته فى الأول من مارس ١٨١٥ فى الخامسة صباحاً ».

لم يتلق الشقيقان صورا من هذه الرسالة مما يوحى بأنهما لم يكونا أو بالأحرى لم يعودا معتبرين من البونابارتين . إلا أنهما أحيطا علما بالرسالة ولذلك أمضيا الأيام الأخيرة من فبراير فى توتر كبير .. لكن ما هذا الذى يحدث ، مرّ الأول من مارس دون أن يحدث ما يؤكد ما جرى إعلانه للبعض وجاء الأحد ٥ مارس ....

يحكى چاك فيچاك فيقول : « فى الصباح الباكر جدا من ذلك اليوم أيقظنى شخص من أقرب المقربين لى من داخل دار جاك - فوربيه لينقل إلى نبأ نزول نابوليون على شاطئ مقاطعة بروڤانس وأفاد بأن الذى نقل له هذا الكلام وصله من الخادم الشخصى للمحافظ . وأن هذا الأخير قرأ بنفسه البرقيات التى وصلت إلى سيده حول الموضوع من المحافظات المجاورة وجدها فى جيوب سترته وهو يقوم

بتنظيفها . أسرعت إلى بيت أخي لأخبره بأن أحداث التاريخ ستتم أمام أعيننا وأننا سنلمس بأيدينا ما سيخط على صفحاته ويظل فيها إلى الأبد ... * ».

عشية ذلك اليوم سلم أحد سعاة البريد بالفعل المحافظ برقية من زميله محافظ منطقة « الفار » مؤرخة من فريجوس فى ٢ مارس تفيد « بنزول بونابارت إلى شاطئ خليج جوان وأنه متوجه إلى جرونوبل » قام فوربيه على أثر ذلك بتوزيع اعلانات ألصقها فى أنحاء المدينة يحث فيها المواطنين على إحترام « حكومة صاحب الجلالة » وعلى « الحفاظ على الممتلكات » والتعبير عن « إستيائهم العام » ثم أرسل تقرير إلى باريس مؤكداً أن السكان « فى غاية الغضب » وأن « لا أحد يناصر بونابارت » .

لم يكن هذا هو رأى فيجاك ففى رأيه « أن النبأ استقبل بارتياح عام [..] واعتبر الغزو الامبراطورى ** عملية إنقاذ جديدة ... » على الأقل فى جرونوبل . لأنه كان قد جرى إعداد المدينة لكى تكون رأس جسر لإعادة البونابارتية للسلطة : إذ قام أحد التجار الشبان وإسمه دومولان بزيارة قبل فترة قصيرة إلى جزيرة إلبا كما أن الطبيب الجراح لفرقة الحرس وهو من مواليد جرونوبل – دكتور إيجرى كان قد غادر الجزيرة فى نهاية فبراير ليقيم اعتباراً من ٥ مارس فى ضواحى مسقط رأسه *** .

فى الأول من مارس أصدر نابليون من فريجوس إعلانا يؤكد فيه أنه سيمضى فى طريق الثورة وأنه راعى حقوق الانسان والأمة . وصل مدينة دينى يوم ٤ وجاب فى ٥ وإلى مدينة لأمور فى مقاطعة دوفينيه ليلة ٦ ، ليواجه يوم ٧ « لافريه » وفرقته الخامسة وكانت أول تشكيل عسكرى أرسل لإيقافه ولكنه أعلن إنضمامه تحت لواء نابليون بعد بضع كلمات أضحت شهيرة . وحدث الشئ نفسه بالنسبة للواءين ١١ و ٧ بقيادة لابيدوايار ، وكانا منتشرين للدفاع عن جرونوبل ... وهنا نترك الكلام لشامبوليون فيجاك :

---

* السطور التالية مستوحاه إلى حد بعيد مما جاء فى كتاب جـ ـجـ . شامبوليون – فيجاك فى كتابه «فوربيه ونابليون والأيام المائة »

** لاحظ غرابة التعبير .

*** ترتب على ذلك أنه طورد دون هوادة بعد هزيمة واترلو

« رأيت من شرفة متحف المدينة مرور الكتيبة وعلى رأسها عقيدها .. وبعد أن إصطفت كلها فى الشارع بدأ هتاف « يعيش الإمبراطور» يتصاعد .. جرى الجنود بالخطوة السريعة ، ارتفع العلم ذو الألوان الثلاثة * وأصبحت الكتيبة تحت لواء الامبراطور [..]

« ومع اقتراب هبوط الظلام ، أصبح وصول الامبراطور مؤكدا [..] وكان المحافظ والجنرال قد إستنفذا جميع الوسائل وكل سلطاتهما منذ الظهيرة . لم يكن العلم الأبيض مرفوعاً سوى فى قلوب بعض الأوفياء له وكانوا قد تفرقوا بإراداتهم . كان يكفى أن يطلق رجل واحد كله تصميم طلقة رصاص واحدة على العلم ذى الألوان الثلاثة ، ولكن هذا الرجل لم يوجد ** .

« حوالى التاسعة ، تقدم الإمبراطور وهو على جواده وحده تقريباً وبشخصه نحو الباب الموصد ودق عليه بعلبة الدخان التى فى يده وهو يقول بصوت مرتفع : « إفتحوا .. هيا ! افتحوا .. إنهم لايفتحون ! .. » وعلى الفور إنهار الباب تحت الضربات التى توالت من الداخل والخارج ؛ وبعدها ذهب نابليون محمولا بأمواج من الحماس الشعبى إلى فندق « لى تروا دوفان » الذى يديره دليل سابقٌ فى الحرس القنصلى *** وكان محل إقامته معداً مسبقاً . ورأيته يمر عن قرب فى الميدان ، تغطى معطفه الرمادى زيه العسكرى . لم يتوقف هتاف « يحيا الأمبراطور » سوى لفترات قصيرة وهتف أحد رجال القضاء الواقفين إلى جانبى « يحيا الإمبراطور مع الحرية ! - فأجابه الامبراطور على الفور نعم ! وهو يدير رأسه ناحيتنا ، نعم ! تحيا الحرية ! » كنا واقفين على يمينه .

« نزل الإمبراطور فى « فندق لى تروا دوفان » مع الجنرالات بارتران دروويه وكامبرون ، واحتل الدور الأول المطل على شارع مونتورج وعلى حديقة المدينة وهو قصر بسيط للغاية وأثاثه قديم وأكثر بساطة .. » أما فورييه فقد غادر جرونوبل ، قبيل دخول الإمبراطور بلحظات تتقاذفه تعهداته والنداءات التى لاحقته وعدم ميله للاستبداد وإعجابه فى نفس الوقت بالانسان الفذ الذى أعطاه الكثير .

---

* علم الثورة الفرنسية أزرق ، أبيض ، أحمر أيضا أما علم الملكية البوربونية فهو أبيض وبه زهرة الزنبق [المترجم] .

** عن هذه الأحداث كتب الجنرال قائد الجيش الملكى فى جبال الألب إلى جانب دوق وانجولام : « العجيب هو أن نبيلاً واحدا من نبلاء الدوفينيه لم ينضم إلينا » .

*** ثم الامبراطورى بعد أن أصبح بونابارت القنصل نابليون الامبراطور [المترجم] .

« ويقول فيچاك : « خرج فورييه من جرونوبل لخدمة الملك إلا أنه لم ينسَ مع ذلك ما يدين به للإمبراطور . ودفعهما إلهام سليم إلى أن يفترقا ، وأن يؤدى كل منهما التزاماته الفردية – وفى الوقت الذى كان يستعد للسفر على عجل كان فورييه يعيد ترتيب دار المحافظة طبقا لذوق الامبراطور إذ كان يعرفه جيدا – فقد كان يتصور أن المسافر البطل سيقيم فيها * .» .

إلا أن الحماس لم يفتر حول فندق « لى تروا دوفان » بل أخذ يتضاعف وكلما سمحت له الفرصة فى الفترات التى تفصل بين توقيعه على المراسيم التى تثبت أنه يحكم الإمبراطورية كان يخرج لتحية الجماهير المحتشدة التى جاءت تقدم له « شظايا باب المدينة الذى اقتحمه بعلبة دخانه... » عودة إلى الأساطير !!

نعود إلى نص چاك – چوزيف شامبوليون فيجاك :

« فى اليوم التالى ٨ مارس ذهبت مع بعض أفراد عائلتى إلى شرفة حديقة المدينة لنرى نابليون عندما يطل من إحدى النوافذ المطلة على الحديقة ولدى عودتى إلى المنزل .. فى حوالى التاسعة – علمت أن ضابطا من المدفعية حضر مرتين موفداً من الأمبراطور ليطلب منى الذهاب لمقابلته شخصياً » .

هرول فيچاك إلى دار البلدية ليأخذ رأى شارل رونولدون صديقه الذى إنضم منذ البداية للقادم الجديد . وهناك أعلمه العمدة أن نابليون طلب منه « أحداً يساعده فى إدارة مكتبه وكتاباته » فاقترح اسمه – وأضاف « وعندما كتب نابليون إسمه قال : إنه فأل حسن . يشترك أسمانا فى مقطع كامل » ** فأسرع إلى حيث كان مطلوباً « تم إعلامه بوصولى ودخلت على الفور . وكانت غرفة الانتظار مكتظة بمن فيها .. »

هنا يسمو أسلوب « عميد كلية الآداب » ليصل إلى مستوى كاتب التاريخ . ولذا وجب نقل ماكتب بالنص :

* اتجه المحافظ إلى مدينة ليون حيث أرسل نابليون إليه مندوبين . لماذا ؟ وإذا بالهارب يعين فى ١٠ مارس محافظا لمنطقة نهر الرون .. لم يكن فورييه يريد هذه الترقية .. وهو أقل ما يمكن أن يقال عن ذلك : فهو لم يفكر سوى فى الوصول إلى باريس ليعود إلى أبحاثه العلمية وهو ما سيفعله بعد قليل . وسرعان ما علم أن فيجاك قد توسط له لدى الأمبراطور فى ٩ مارس (انظر سيأتى ذكره لاحقاً) ولذلك كتب له فى ١٨ مارس خطاب شكر وعرفان يعرب له فيه عن أمله فى أن يرد له جميله يوماً فى ظروف مختلفة . وبذلك انتهى الخلاف الذى حدث بينهما فى ١٨١٣ وطواه النسيان .

** شامبوليون ونابوليون .

« [...] منضدة للكتابة بجوار المدفأة ؛ فى مواجهتها وضعت أريكه كان يجلس عليها الامبراطور ولكن فى اتجاه إمتداد الأريكة مواجها الباب وظهره للشباك . ممدا ساقه اليسرى على مقعده وقدمه اليمنى على الأرض . قام وتوجه نحوى وقال لى بصوته المتلون والأخاذ وتميزه بعض المقاطع ذات اللهجة الأجنبية : « أنا سعيد برؤيتك ! قيل لى عنك أنك من الشخصيات المحترمة فى هذه المدينة وذات المبادئ المعتدلة . وهذه نوعية الرجال الذين أود أن أحيط نفسى بهم فى المستقبل .يجب أن نشرح للشعب الأسباب التى أدت إلى عودتى . لولاى لعرفتم ثورة جمهورية . إن آل بوربون لم يعرفوا فرنسا وإنى مقتنع تماماً اليوم أن قدرها لايمكن أن يتحقق سوى على يد حكومة ليبرالية .. » .

« ولما كنت غيرمطلع على أصول إتيكيت القصور وغير متأثر بضعف جلال المكان الذى كنت أحدث فيه الإمبراطور الذى لم أكن عرفته قط ، قطعت حديثه ورأيت نفسى مندفعا بهذه الكلمات القاسية « إذا كانت هذه هى الشروط يامولانا فإن فرنسا ستكون عند قدميك » لفظة « إيه ... » ممتدة خرجت من وجه المكفهر ومن فم غاضب لم تنفتح شفتاه سوى من جانبه الأيمن على الفور حذرتني من كسرى لقواعد هذا الإتيكيت ، إلا أننى لم أتراجع لأقتناعى على الفور بأن تكرارى لهذه الكلمات سيجعل منى رجلا غير مهذب ولكنه ليس متغطرساً . فرددت جملتى بقوة بعد أن غلفتها مع ذلك بهذه الحيطة الخطابية التى لم تكن جديدة على الأطلاق إذ قلت « لقد سمحت لنفسى أن أقول لجلالتكم ... » دون أن أرفع منها الكلمة المتناهية فى قلة الأدب « شروط » . هزة رأس واكبت كلمة « نعم » قالها بحدة [..] وإستعاد العائد حديثه قائلا : « أريد رجالا جددا وطنيين ومخلصين . إنظر إلى أين آل بى إنتقالى من محنة لأخرى من موسكو إلى فونتانبلو . كان فى إمكانى الاستمرار فى الحرب على نهر اللوار ولكنى لم أرغب فى حرب أهلية . إنى أنسحبت من أجل فرنسا والأن أنظر إلى مافعلوه بها . حقوقى ليست سوى حقوق الشعب . يجب أن نقول ذلك للشعب ويجب أن تكرروا له أنى لا أريد إقطاعيات ولا عبيد وأننا سنحافظ على السلام . يجب أن ننسى أننا كنا أسياد أمم أخرى [..] سنعيد النظر فى الدساتير من أجل سعادة الشعب . كل ما فعله بعض الأفراد أو قالوه أو كتبوه منذ سقوط باريس سأتجاهله إلى الأبد* أود أن تكون فترة ولاية ابنى هادئة . لقد عمقت التفكير فى السنوات الماضية سنفعل كل شئ من أجل

* جاءت هذه الجملة بنصها فى إعلانه الصادر من جولف - جوان فى الأول من مارس

السلام . اسـتعد صحيفة المقاطعة وانشر على الكافة وأعلمهم بما قلته لك .. هيا . وعد قريباً لأراك » .

ما أن رقى لمنصب ناشر أخبار الإمبراطورية إلا وكان فيجاك قد قفز إلى مكتبه ثم عاد إلى ضيف فندق لى تروا دوفان وقدم له مقالته المتضمنة سرداً للحديث وللأحداث التى جرت بسرعان مـا تم « التصـديق » عليـها للنشـر . يتضـح من المقال أن نابليون جرونويل يؤمن أن « قدر فرنسـا لا يمكن أن يتحقق سوى على يد حكومة ليبرالية وأن الفرنسيين ولدوا لكى يحافظوا على الحريات العامة وليؤكدوا على مبادئ التسـاوى فى الحقوق والواجبات » وأن نابليون بعد أن إستعلم « باهتمـام شديد عن حـالة الأريـاف » قـال « جـئـت لكى أبـدد إلى الأبـد ذكـرياتـهم عن النظام الاقطاعى والإقطاعـيـات والعبودية .. وإنى لا أجلب لهم سوى الخير » .

بعد ذلك بقليل جاء أعضاء الأجهزة المختلفة فى المقاطعة ليقدموا لصـاحب الجلالة « فروض الطاعة والإجلال » وصف فيجاك نصه كالتالى :

« جاء وقوفى بين أسـاتذة الجامعة بصفتى عـمـيداً لكلية الآداب مرتديا مـعطفى الحريرى ذا اللون البرتقالى : سخر الإمبراطور من هذا الزى بشكل علنى وسألنى عمن قرر لنا رداءاً كهذا . لم أتردد فى القول بأنها الجامعة طبقا لأوامره وهى متضمنة فى قرار إمبراطورى وذكرت له تاريخه المرسوم ... » .

بعد مـا أصبح چاك – جوزيف بسرعة « أحد مـعتـادى التردد على هذه الحـجرة الفندقية التى جعل منها المسـافر قـاعة عرشه » وجد الفرصة لكى يفاتحه فى الموضوع الذى يهمه للغاية : مصر .

« ...... لفت هذا الاسم نظره بشكل واضح وأحيـا الحديث . وتكلـم عنهـا بسـعـادة بالغة . أجبتـه دون أن أقاطعه بأن هذا الموضـوع يملأ تفكيرى – راح يتذكر روائع هذا البلد وأصبحت وتيرة حديثه أسرع من المعتـاد . كانت هناك أحيانا بعض الأخطاء فى ذكرياته [..] سمحت لنفسى أن أعبر باشارة بسيطة الغاية عن شكى فى بعض ما قال [...] إلا أن هذا لم يعجبه فقال لى بشئ من الحدة وهو يضغط بيده على ياقة ردائى : « لماذا لا تقرأ هيرودوت ! » .

ثم وصل الحديث إلى كتاب « وصف مصر» . ويشـعر الإمبراطور بالفخر العظيم ؛ لأنه راعى هذا الكتاب ويطلب نسـخة من الأجزاء الأولى وأضطر فيـچاك أن يعترف له

بأن « مكتبة جرونوبل » التى يديرها » لم تر داع لأن تقتنى نسخة من الكتاب * .
واستمر الحديث بينهما :

« ..... إما أن وضعه بعد أن خطا الخطوة الأولى فى حملته الخرافية ** لم يكن يشغله كثيرا وإما أنه كان واثقا منه . فقد إنتقل بنفسه إلى الحديث عن مؤلفات أخرى نشرت بأمر منه قبل سترابون وألماچلت وأوكليدس والقاموس الصينى : « كان العمل فى هذه الكتب قد بدأ قبل مائه عام ، وجعلته ينفذ بمرسوم فى ثلاث سنوات » . ثم ذكر نابليون أسماء عدد من العلماء ولحسن الحظ كنت مطلعاً على ما يجرى فى باريس التى أعرفها فكان فى مقدرتى الرد على أسئلته المتعددة ..... »

كيف لا يستغل چاك - جوزيف بعد أن رقى إلى مقام حافظ السر أو المقرب القوى وبعد أن وجده متفتحا فكرياً - هذا الوضع دون أن يخدم قضية أخيه ؟ وبالفعل قدم أخاه إلى الإمبراطور :

« ... إستمع الامبراطور باهتمام للعرض الذى قدمه لأعماله التى أدرك على الفور أهميتها وكان القاموس القبطى هو أكثر ما جذب إهتمامه : « إحضر كل هذا معك إلى باريس - وسنقوم بطبعه . إن ذلك سيكون أسهل بكثير من القاموس الصينى » .

نابليون يستمع لشامبوليون يحدثه عن مصر لم يلهم الحدث أياً من الرسامين الكبار : البارون جرو ولا برودون ولا چيريكو » وذلك لسوء حظنا . ولكن يمكن أن نراهن على أن بعضا من التأثير الكبير الذى وقع فيه الأخ الأكبر قد إنتقل إلى چان - فرنسوا . فمهما بلغ تمسكه بالجمهورية فلابد وأن « صغير » قد تأثر بالأراء الديموقراطية التى نادى بها سجين جزيرة إلبا الهارب وبالنبرة التى طبعت خطبه وبالوصف المثالى الذى نقله له أخوه :

« بعد العرض*** عاد الامبراطور مترجلا تحيط به الجماهير المتدفقة . وأثناء سيره وسط الطريق صرخ بائع للفحم كان يقف على إحدى علامات الطريق موجها كلامه للإمبراطور الذى كان يمر أمامه « هل أنت بالفعل إمبراطورنا ؟ - نعم يا صديقى - أنا الأمبراطور - إذن هات كفك ! » فمد الإمبراطور يده وصافح يد بائع الفحم وسط تصفيق الجماهير الحاد » .

---

* بأمر خاص من وزير الداخلية الجديد كارنو أرسلت نسخة منه بعد قليل لجرونوبل

** حملة ١٨١٥ وليست حملة ١٧٩٨

*** فى ٩ مارس .

فى التاسع من الشهر قبيل الظهر عاد المسافر إلى طريقه فى اتجاه ليون . وقبل أن يتحرك قال لفيچاك : « أعرف أنك لن تسافر معنا . ولكن إلحق بنا فى باريس وسيكون ذلك يوم عيد ميلاد إبنى » الدعوة كانت رقيقة لدرجة أن عميد كلية آداب جرونوبل اعتبرها أمرا فترك أسرته وسافر وراء سيده الجديد . وسيبقى إلى جانب العائد للحياة لمدة ثلاثة أشهر عضوا فى مجموعة المحيطين به من العقول المفكرة التى راحت تحت رعاية لوسيان بونابارت وبمباركه من بنجامان كونستان تخترع « الإمبراطورية الليبرالية » .

وهو بذلك قد أعطى امتداداً براقا وباريسياً مطبوعا بإسم شامبوليون للفقرة الدوفينيه من مسلسل الأحداث الذى أصبح أسطورة فقد كتب أحد مؤرخى المدينة يقول : « إن دخول نابليون إلى جرونوبل تعدى بكثير من عاشوا الحدث الذى تحول على الفور إلى إسطورة ... قبل الوصول إلى باريس كان إنضمام جرونوبل حاسما .. »[1]

لم يكن فى الإمكان ربط العشيرة الشامبوليونية بمغامرة المائة يوم بعلنية أكبر ولكن مهما كانت درجة براعته هل كان فيچاك مندفعا دون روية فيما فعل ؟ من يقرأ وصفه الرائع للأحداث لا يمكن أن يوجه له أى اللوم . القادم إلى المدينة كان لا يقاوم وحديثه جذاب ... وسط حياة أديرت بكل هذه الحيطة تبدو عملية ربيع ١٨١٥ المتهورة كما لو أنها حفل صاخب تسوده التلقائية الصبيانية .

لم تكن مائة يوم چاك – جوزيف شامبوليون – فيچاك بالصورة الوردية لقصص الجنيات التى نقلها لنا ابنه .[2] من يقرأ هذا المؤرخ المقدس لذكرى أبيه يعتقد أن عميد كلية آداب جرونوبل أصبح بالنسبة للإمبراطور العائد إلى السلطة ومثل يوسف الأب أو على الأقل بوريين آخر * .

كلا . لم يحدث ! إلا أن هذا الرجل الطموح عاش طوال هذه الأشهر الثلاثة كما كان يحلم أى إلى جانب شخصية خرافية مشاركاً فى بعض اللحظات الهامة فى التاريخ الوطنى وأيضا فى هذه الحياة الأكاديمية التى ظلت لسنوات طويلة تداعب أكثر أماله بريقاً .

وقد وجد الوقت بعد أن سافر إلى باريس ليضع نفسه فى خدمة هذا الامبراطور الذى سحره فى بضع ساعات قليلة أن يتقدم فى ١٩ مايو ببحث قرأه فى أكاديمية الآداب التى كانت إنتخبته عضوا منتسباً لها فى العام السابق . وكانت الدراسة عن

---

* سكرتير بونابارت السابق الذى نقل ولائه للبوربون .

تقويمات الشعوب القديمة وهو يبرز فيها أوجه الشبه المكتشفة بين التقويمات اليونانية والرومانية وكذلك التماثل بين كتاب الفلك لبطليموس (الألما جنست) والتقويم الجولياني .

حسناً . ولكن المثقف فيه ينسحب أمام خادم الأمير في ١٩ أبريل بعد وصوله بأيام قليلة . نراه وقد دعى إلى حضور « بداية نهار الإمبراطور » - وهو ما يحيط به أقاربه بفرحة صادقة . وقد طلب الإمبراطور رأيه عن حالة الرأى العام في الدوفينيه وفي إختيار محافظ جديد لايزار . فهل أصبح مستشار الملك ؟ كلا ! سيصبح أقل من ذلك : سكرتير اللجنة الدوفينيه التي تم تشكيلها حول لوسيان بونابارت * نائب الإيزار وعقل النظام الجديد المفكر وصديقه سابق . أحد رؤوس الليبرالية الجرونوبلوازية .

في ٣١ مايو اتسع الدور الذي يؤديه فيجاك ليشمل فرنسا كلها . فقد كان سكرتير الجلسة التي رأسها كامبا سيراس . والتي جمعت كل هيئات الأمة المنتخبة من أجل مراجعة عملية الاقتراع الخاصة بمراجعة الدستور وقد أوضح هذا الاقتراع أن أغلبية الفرنسيين قد وافقت على « القانون الإضافي » الذي عرض عليهم . كانت الأغلبية كبيرة ولكنها لم تكن إجماعاً كما أرادها الليبراليون الجدد . كما أن الكثيرين إمتنعوا عن التصويت . وقد تلا نابليون بنفسه هذه الأرقام في إجتماع عام في الشان دوميه عشية سفره لواترلو .

وقد كان لچاك - چوزيف لقاء أخير مع الإمبراطور الغارب ، وقد وصفه فيه وصفا حيا يجدر أن يكون بين صفحات « مذكرات من اللحد » (لشاتوبريان) : « نظرته الأخاذة كانت تدخل إلى أعماقك لتغوص في أغوار نفسك لتعرضها عارية أمام عينيه .. كان المرء يشعر بأنه يعصره دون مقاومة منه . ولكن دون أن ينزعج منه لأنه كان يستمع بدوره . كما أن جدية كلامه الفائقة وإلحاحها لم تكن تجرد الحديث معه من طيبة طبيعية . كان حديثه عن الأشياء الصغيرة لكل الناس وعن الأمور الكبيرة بأسلوبه هو فقط ».

ومع ذلك تمكن شامبوليون - فيجاك من تبادل أطراف حديث سريع أخير مع من كان لا يزال السيد وذلك لدى استقباله لمجموعة ممثلي وفود محافظات الأرياف . وقد تقدم إليه بطلبين الأول بإنشاء كلية للطب في جرونوبل كان الحديث قد جرى حولها

---

* شقيق الإمبراطور (١٧٧٥ - ١٨٤٠) [المترجم] .

خلال إقامته فى المدينة فى شهر مارس وجاء الرد إيجابيا ثم أعاد فيچاك تذكير نابليون بوعده بأن تسلم نسخة من وصف مصر إلى مكتبة المدينة التى لم يكن أميناها قد سرقاها * .

ويؤكد الأخ الأكبر أنه حصل على وسام الليجيون دونور دون أن يطلبه وذلك بعد شهور قليلة من حصوله على وسام الزنبقة (الملكى) والذى انتقده أخوه عليه . مثل هذا الدأب على جمع الأوسمة لم يتسبب فقط فى سخرية أخيه من ميوعة مواقفه الإيديولوجية فى تلك الأزمنة المضطربة وإنما سخر منه أيضا آخرون . وقد دافع فيچاك عن نفسه فى مذكرة - ١٨٤٥ .

وإذ حان الوقت الذى أقيمّ فيه المنافع التى خرجت بها من فضولى (كذا) فإنى أجد أن ماجنيته هو :

(١) وسام الليچيون دونور الذى حملته شهرين أو ثلاثة .

(٢) شطب وظائفى كأستاذ وعميد لكلية آداب جرونوبل .

(٣) إنهاء عملى كمدير مكتبة مدينة جرونوبل .

(٤) ثمانية عشر شهرا من النفى إلى جنوب فرنسا (3).

أما چان - فرنسوا فقد إحتفظ من ناحيته بفكر أكثر هدوءا أو على الأقل بحيطة أكبر . فلم يحظ سوى بلقاء واحد مع « الشهاب الفذ » ولكنه كان لقاءً طيبا على كل حال والأهم أنه كان مفيداً جداً . فقد إهتم نابليون بقاموس اللغة القبطية . وإذا كان البعض يقول إنها كانت تمثيلية من جانب الساحر العظيم فإن الرد هو أن ليس فى إمكان كل إنسان أن ينجح فى إيهام الآخرين !! ثم إن التصريحات العلنية التى أدلى بها الإمبراطور وكذلك ما نقله چاك - چوزيف إلى أقاربه من أحاديث شخصية معه أثرت بالآمال التى أثارتها على چان - فرنسوا الجمهورى . أما نابليون الآخر المستبد زوج إبنه القيصر فرانز صانع العروش فقد اختفى .. وأما الذى مر بجرونوبل فهو « الجاكوبينى » الذى صال وجال فى عام ٣(من تقويم الثورة) صديق أوجوستان روبسبير والجنرال النحيف الذى أخمد الثورة المضادة فى باريس بعد ذلك بعام (ڤلاڤل ڤانديمير) .

وقد كتب صغير فى ٢٢ أبريل لأخيه - الذى أفاده بمقابلة نابليون له - هذه الكلمات التى كانت تعبر عن شئ من الأمل ولكنها تعبر عن بعض المخاوف ؟ « .. أنتظر بشغف نتيجة لقائك بالرجل الطيب الشجاع لاڤيولات ** : إنى أنتظر منه الكثير

---

* كان چومار قبل عامين قد إشتكى لبفيچاك من رفض الإمبراطور توزيع هذه الأجزاء بسخاء .

** إحدى الكنايات المحببة له والمتعاطفة معه وهى كثيرة التى أطلقها العامة على نابليون .

[..] وإذا كنت مخطئا . فإن الفلسفة موجودة لكى تواسينا ..... ».

إذا كان « الفيلسوف » لا يخفى شكوكه فيما يخصه شخصيا فإنه أى چان - فرنسوا أكثر جسارة فيما يخص أخاه ففى ٢٨ أبريل ثم فى ٢٩ مايو يدفعه إلى أن يكون أكثر جرأة فى تناوله « لأعماله » : « إن ترددك فى القرارات لن يكون فى صالح أغراضك [...] إما أن اتخرج من الميدان وعلى رأسك تاج وإما تترك صفوف المناضلين .. » . ثم ينقل له مؤيدا ما قاله المحافظ ديديه - الذى جاء بعد فورييه والذى يجد چاك - چوزيف شخصاً « غير حاسم » فى الوقت الذى انفتح أمامه « مستقبلاً باهراً » إنه محق جدا فى ذلك : « يبدو أنك لم تذهب إلى باريس إلا لكى تقرأ بحثا أمام الانستيتو ... لن تجد أبداً فرصة مواتية أكثر من هذه [..] السمان يعرفونك . فاغتنم الفرصة . إذا عدت لكى تدفن نفسك فى المدينة الصغيرة فإن الإمبراطور الذى يراك أحيانا منذ أربعة شهور يقول لك « أعرفك جيداً . أنت » سيسألنا العام القادم بجفاء : « من أنت ؟ »

فعلا ! صديقنا چان - فرنسوا كان أيضا واقعيا » : كان الأستاذ شامبوليون وهو فى الرابعة والعشرين يتمتع بحضور طبيعى أكده التدريس الذى أضفى عليه هيبة فكرية مؤكدة . خلال فترة المائة يوم سيكون أحد قادة الحركة الليبرالية الجرونوبلوازية معبراً بتلقائية لا تخلو من خطر عن زواج كاثوليكى على الحلوة والمرة بين فكر ٤ أغسطس * و١٨ برومار ** وسيؤدى هذا الدور بنجاح رفع من بريقه سفر أخيه الأكبر فقد حمله هذا الأخير حمل ومسئولية الصحيفة التى وضعها الهارب من البا على كاهل عميد كلية الآداب .

هذا الجزء يقدم لنا نموذجاً مثالياً للفرق بين رؤية المعاصرين ورؤية المراقبين الذين يبعدهم الوقت عن الأحداث . بعد قرن ونصف من الحدث فإن إرتباط رجل مثل چان - فرنسوا شامبوليون - « صغير » بنابوليون يبدو غير مفهوم . فبقدر ما يبدو مقبولا إنضواء الأخ الأكبر الإنتهازى الطيب والطموح المجد الرجل الاجتماعى ذى الحيوية الطبيعية وقد إنقاد تحت تأثير الإتصال المباشر وطيبة الرجل العظيم الذى شده إلى حاشيته بقدر ما يبدو إرتباط الأخ الأصغر محيراً .

---

* ليلة الرابع من أغسطس ١٧٨٩ التى ألغت فيها الجمعية التأسيسية الثورية جمع إمتيازات الإقطاع (المترجم)

** ١٨ برومار - اليوم الذى أجبر فيه بونابارت العائد من مصر أعضاء الديركتوار الحاكم على الاستقالة والذى حل محله عصر « القناصل » الثلاثة وعلى رأسهم بونابارت ذاته . قبل أن يصبح إمبراطورا (المترجم) .

كيف لايرى حينذاك – إلا لو كانت الموسيقى العسكرية قد سدت أذانه والحب البونابارتى قد أعمى عينيه .. أن أوروبا المتضامنة منذ ثلاثة أعوام ضد الغول ستطبق عليه من جميع الجوانب أكثر مما فعلت فى ١٨١٤ ؟ هل لأن التحالف لم يعد برأسه لا الكسندر* ولا فرانسوا الثانى ** اللذان تأثرا قليلا بسحر المنتصر فى معارك أوسترلينز وڤاجرام ؟ ولكن التحالف الآن أصبح فى يد ولينجتن وبلوشار ذوى الفك الحديدى ؟

چان – فرنسوا الذى حلل بذكاء خلال مراسلاته ، خطابا بعد خطاب ، حال التفكك التى وصلت إليها الإمبراطورية وكذلك سقوط المنتصر والذى كان ينظر بعين المؤرخ إلى هذا الأفول ، يقدم نفسه على الرغم من كل ذلك فى الأحداث أولا بصفته صحفياً يدير « حوليات الإيزار » التى ظلت لثلاثة شهور صوت البونابارتية الجديدة فى الدوفينيه ؟ ثم كمناضل سياسى مرموق فى المجتمع الفيدرالى » الذى حاول أن يحى هذا التيار الليبرالى والإمبراطورى المشترك . ثم وأخيرا كجامعى محاولا الإبقاء على كلية الآداب التى هجرها عميدها لأن هذه الإمبراطورية المتسلطة (والتى كانت الأقرب إلى فكره الأمبراطورية الليبرالية) كانت ملعونة من المتعصبين للكنيسة فإنه سيحارب من أجلها جرونوبل التى إختارها نابليون لتكون العلامة الأولى فى طريق عودته كانت مهد وعاصمة « الإمبراطورية الجديدة » التى لم تدم طويلا . ولكن يجب ألا نعتقد أن هذه المدينة الليبرالية فى معدنها قد إنضمت للنظام الجديد مرة واحدة .. عودة الملكية الأولى لم تحظ بالقبول . عودة ظهور المهزوم فى ١٨١٤ كان لها بريق .. فمن ذا الذى يمكن أن يقاوم « سحر العجائب » غير أن أهل الدوفينيه لم يكونوا يوماً من القوم الذين يؤمنون بالأشباح ... ليس كلهم ... أضف إلى ذلك أن الملكية كان لها فيها – كما سبق أن أشرنا – عملاء نشيطون .

فى الواقع كانت الأيام المائة الجرونوبلوازية حربا صغيرة بين حزبين يتصارعان فى ميدان مكشوف دون أقنعة : الملكيون الذين يحاربون فى العلن وباصرار بالقدر نفسه الذى يناضل به أطراف النظام البونابارتى والجمهورى .

أما « البوربونيون » ، كما كان يسميهم شاتوبريان – فقد كان على رأسهم الماركيز دوبينا – عمدة المدينة القادم – والماركيز بلانيللى دو لا ڤالات – الذى سبقه لفترة قصيرة ثم تلاه . والأشقاء سيلڤى والسادة دو بوشاچ ودو بالسيز ودوشاليون (جميعها أسماء نجدها ـ عند ستاندال وقد يعلق عليها بأوصاف غير كريمة) أما « الليبراليون » فقد تجمعوا – أو تصارعوا – حول شارل رونولدون والكونت دو بارال

---

* إسكندر الأول إمبراطور روسيا (١٨٠١ – ١٨٢٥) [المترجم] .

** امبراطور النمسا ثم رئيس الكونفدرالية الجرمانية فى ١٨١٥[المترجم] .

« ... أعلن أهل جرونوبل أنهم حماة أسرة بونابارت ، لقد منحوا أحد أعضاء الاسرة مكانا كنائب فى البرلمان يتقاضى ١٨ فرنكا فى اليوم . هذا التعيين مقبول بشكل عام لأن الأمير دى كانينو* شخصية قوية ويعرف كيف يقف فى وجه أخيه الذى هو عنيد بعض الشىء** مثل سلفية قيصر والإسكندر» .

إذا كان الملكيون يضمون الصفوف فى هذا العداء المؤقت – لو أن الأورليانيين كانوا يناضلون وحدهم – فإن منافسيهم كانوا منقسمين على أنفسهم جداً . كان البونابارتيون يجدون أن الامبراطور أصبح تحت تأثير «الديموقراطيين» والمعتدلون كانوا غير مرتاحين لذلك ، يسمعون أنه إذا أضطر فسيبطش بأصحاب الألقاب «السابقيين» والجاكوبيون (الثوريون) كانوا يفقدون صبرهم بسبب مماطلته فى ا ضى على طريق العودة للحكم الشعبى . وهم يلاحظون – وقد زادت المرارة فى أنفسـ م – أن الهارب من جزيرة ألبا لم يتخل عن رداء المستبد الذى ظل يرتدية ولم يتركه وهو فى المنفى وفى طريقة عودته كالنسر من مدينة لأخرى ، وإذا كان هو «الثورة على حصان» كما كان يقول فذلك يرجع إلى المطية أو الظروف ولايرجع إلى تطور داخله – إنه لايحيط نفسه إلا بالاعيان وهم يخونونه مثل فوشيه ، تعليق شامبوليون – «صغير» :

«الجاكوبيون ثائرون ضد رجل ساعدوه لكى يتخلصوا من «صاحب الكرش»*** وبطانته وهم يصرخون ضد مايسمونه الفضيحة وعدم الصدق بالنسبة للدستور الذى يؤجل إعلانه إلى مالانهاية» .

«إلى مالانهاية» كلمة مبالغ فيها جدا ! فبعد ستة أسابيع من عودته إلى مقر التويلورى كان «القانون الإضافى لدساتير الإمبراطورية» الذى جرى إعداده تحت رعاية بانجامان كونستان ولوسيان بونابارت ليفتح الطريق أمام نظام الليبرالى قد عرض على بضع مئات الآلات من الفرنسيين الناخبين للحصول على موافقتهم عليه – إلا أن هذا النص (الذى كان يعكس بصورة مقبولة فكر أنصار الجمعية التأسيسية (الثورية عام ١٧٩٠) لم يحظ باعجاب ليبرالىّ الدوفينيه .

---

* أو لوسيان بونابارت ، وكان جان فرنسوا يطلق عليه اسم «أمير الكلب الصغير» وهو ترجمة حرفية لكلمة كانينو بالإيطالية .

** «بعض الشىء» ؟ بمعنى كثيرا جداً .

*** لويس الثامن عشر .

«كان يجب وضع دستور جديد لأن فى فرنسا يعد ذلك وسيلة لإلهاء الجماهير التى تخدعها مثل هذه الأمور الغامضة تحب أن تراها تظهر من جديد .. ولو من أجل أن تضحك عليها فقط [...] كارنو* الذى لايضحك أبدا - هو الوحيد الذى عالج هذا الأمر بجدية ...» .

لم يكتف جان - فرنسوا بالسخرية ؛ إذ أعرب عن بعض تحفظاته على المشروع .

«إنه لايعجبنا كما ينبغى ولكن مادمنا مضطرين للانضمام للإمبراطور فإننا نوقع عن طيب خاطر مع بعض التحفظات مثل : نعم ، مع التعديل عندما يحين الوقت الملائم [...] الأصوات الهجومية كانت عديدة لدرجة أن محافظة جرونوبل اتخذت قراراً بمنعها . سينتج عن ذلك أن العديد من الناس الذين أرادوا التصويت بهم سيصوتون بلا أو سيمتنعون عن التصويت» .

وهو ما حدث بالفعل حتى فى هذه المدينة المشهورة برجال القانون وبحب سكانها التقاضى - أو ربما لهذا السبب - حيث زاد عدد الممتنعين على الذين صوتوا بنعم .

ومع ذلك يجب مساندة العدو الأول المعلن لأوروبا العروش والكنائس «غول كورسيكا» الذى تحالف ضده لورد كاستلريه وميترنيخ . فى صحيفته - كما فى الجامعة - كان صغير ينادى بتعبئة الجهود ويكد من أجل إقامة «الفيدرالية» التى عملت فى الدوفينية والمناطق الأخرى من أجل إعطاء هيكل تنظيمى لمختلف الإتجاهات الليبرالية . فى جرونوبل ركز المجهود على منطقتى الإيزار والدروم .

وكانت الفيدرالية تنظيما معتدلاً جداً لا علاقة له «بالنوادى» الثورية القديمة . كان يرأسها عمدة المدينة يعاونه كبار الموظفين وأساتذة الجامعة والأطباء ومسجلو العقود والمحامون أى الطبقة الثالثة .. وهو ما يعد وضعا جرونوبلوازياً خالصاً أى أن الوضع كان مطمئناً جداً ..

فى الأول من يونيو ١٨١٥ ناشدت الفيدرالية الدوفينية وقد اجتمعت الجماهير فى دار البلدية تحت رئاسة بيرياسان برى بهذا النداء : «إن الوطن فى خطر : إن البطل الذى أختاره الشعب الفرنسى لرئاسته (يعترض) على المشروعات الطموحة التى تداعب

* وزير الداخلية

افكار الملوك الذين تجرأوا على التخطيط لتجزئة بلادنا الجميلة فرنسا .. يجب علينا نحن أن نجهض هذه المشروعات ..» .. وكتب جان فرانسوا لأخيه :

«إننا معشر الدوفينيين تتحرك ببطء ولكن إذا ما بدأنا العمل فإن الأمور تسير على مايرام فإذا كانت الفيدرالية قد قامت [...] فإن ذلك يرجع إلى ماقمت به وعلى الرغم من صراخ طافئى الأنوار* [...] إنهم مايزالون يرفعون رؤوسهم ؛ أخشى أن نجد أنفسنا مضطرين لجزّها فى نهاية الأمر» .

«طافئو الأنوار» هم «ذوو غطاء الرأى الأسود» ، هم «المتعصبون للكنيسة» هم «الجيزويت» ولكن ماذا كان يعنى «بجزّها» ؟ هل كان يعنى اللجوء إلى موس الجييوتين كما تعود الأب دوشان أن يقول ؟ نميل إلى الاعتقاد بأن جان - فرنسوا كان يستعين بفن البلاغة وهو لم يكن إذن دمويا ومتطرفاً فى مجال اللغويات فقط ..

وها هو صديقنا عالم اللغة وقد تحول إلى كاميل ديمولان** على صفحات الصحيفة التى يديرها «نداءات إلى الشعب» كلها حماس وتضخم من أهمية الاحتفال الذى جرى فى باريس فى ساحة «لوشان دومى» والتى أريد لها أن تكون نسخة أخرى من الاحتفالات الضخمة التى جرت فى ١٤ يوليو ١٧٩٠ - فلنستمع إليه إنه لجسور!

«الجمهور الضخم من المرتعدين إرتعب من عملاء متولى شئون «جان»*** الذين يصولون ويجولون بحرية رافعى الرأس ومنطلقى اللسان .. السلطات لاقيمة لها ولاتفعل شيئا ولاتريد أن تفعل شيئا [...] الجزوة مشتعلة فى الصحيفة فقط . إنى أكذب ، أكذب ، أكذب...»

كتب اندريه جيد بعد ذلك بقرن «إن الإيمان يعوض الصدق..» وهذا يسمى الآن «بروباجندا» (الدعاية) غير أن جان - فرنسوا لا يكتفى بالكذب من أجل الوطن بل إنه

* يطلق جان فرانسوا هذه الكناية الشائعة على رجال الدين .

** صحفى وكاتب وثورى فرنسي قام بدور هام فى الثورة الفرنسية مناديا إلى اللجوء إلى السلاح عشيه اندلاع الثورة (١٢ يوليو) اعدم بالمقصلة (١٧٦٠-١٧٩٤) (المترجم) .

*** جان Gand حاليا مدينة بلجيكية بالقرب من فرنسا الشمالية الشرقية وصغير يقصد بمتولى شئون جان - الملك لويس الثامن عشر - الذى لجأ إلى هذه المدينة بعد وصول نابليون قادماً من جزيرة البا (المترجم) .

يلجأ إلى كافة الإمكانات المتاحة ويضع طاقاته كلها فى أمور واقعية وقام بمالا يفعله المثقفون عادة بأن إهتم بتغذية الفقراء ! «قدمت مدرسة الليسيه هدية وطنية إلى نابوليون . أربعمائة فرنك خرجت من جيوبهم الصغيرة ، إنهم تصرفوا كآلهة صغار» .

إنه لايكف عن العمل من عشر إلى أثنتى عشرة ساعة فى اليوم متوترا ، مشتعلا ، مرهقاً . هل تعدى بذلك المعقول ؟ فقد وصل هذا النداء من صديق مجهول : «عزيزى العميد ، «صغير» فى المنزل يعمل بكل قواه من أجل «الفيدرالية» . كنت أود ألا يأخذ ذلك وقته كله لأن أعماله أهم» .

ميوله البونابارتيه وصلت إلى قمتها فى اليوم ذاته الذى أنهار فيه نصف الاله . غير أن أهل جرونوبل لن يعلموا بالخبر سوى بعد أسبوع كامل ففى ١٨ يونيو ١٨١٥ ظهر ا. قال الذى تورط فيه بكل جسارة الذى قارن فيه بين الشرعية الوراثية لآل بوربون وشرعية الامبراطور «النابعة من الشعب» الذى أعطاها من قبل إلى هوج كابية قبل أن يسحبها من أحفاده . ويترتب على ذلك كما يقول صغير «أن نابوليون هو أميرنا الشرعى الوحيد».

سيتعلم المؤرخ شامبوليون على حسابه الخاص أن الشرعية لا تنتج بالضرورة من الانتخاب الشعبى ولكن كثيرا ما تخرج من نتائج الحروب . وفى حالتنا هذه كانت سلطة تعيين الملوك فى يد واينجتون يساعده بلوشار . لو ان جروشى* فعل مثل ديسيه فى مارنجو لكان مقال الثامن عشر من يونيو شارك بقدر كبير فى رفع شامبوليون إلى المجد . الا أن الأمور لم تكن كذلك وهو ما سيتسبب له فى بعض المشاكل** .

مهما كانت درجة انغماس الأخ الأصغر فى التاريخ الحديث فيجب الا نتصور أنه قد تحول تماماً عما كان قد أصبح هدف حياته كلها : فك طلاسم كتابة المصريين المقدسة . العجيب فى الأمر أن في تلك الأونة التى اشتدت فيها العواصف بين الأمتين الإنجليزية والفرنسية عشيه معركة واترلو والتى بدا فيها أن الحصار الخانق قد اكتمل تماماً على فرنسا ، بدأت أول علاقة مباشرة بين باحث جرونوبل وصاحب الاسم الذى

* جروشى – كان يقود لواء الفرسان الاحتياطى فى معركة واترلو ولم ينجح فى منع التقاء الجيوش الإنجليزية والروسية فى معركة واترلو التى أنهت حياة نابوليون السياسية والحربية فى ١٨١٥ فى حين نجح ديسيه فى موقف مشابه فى معركة مارنجو ١٨٠٠ الذى انتصر فيها بونابارت العائد من مصر (المترجم)

** كان هذا المقال هو أكثر ما أخذ عليه بعد ذلك بشهور .

سيظل يقلقة لما يقرب من خمسة عشر عاماً ، وسيكون أشهر منافسيه ، وظل كثيرون ولمدة طويلة يعتقدون أنه سبقه تماماً على طريق حل الشفرة : توماس يانج .

فى ١٠ نوفمبر أرسل أستاذ التاريخ الشاب بجامعة جرونوبل الجزئين المكونيين لكتابة «مصر فى عصر الفراعنة» إلى رئيس الجمعية الملكية فى لندن ومرفقا بهما خطاب يعبر عن الاحترام الشديد ومؤكدا على أن لعمله جانباً فى مجالى الجغرافيا وكتابة أسماء المدن . وانتهز الفرصة ليعلن عن قرب صدور جزء تال يتعرض لكتابة المصريين القدماء .

وأشار جان فرنسوا من جهة أخرى لزملائه البريطانيين أنه فى عمله على حجر رشيد لايعتمد سوى على نسختين (واحدة منهما صنعت فى لندن) وأنهما غير متطابقتين مما يضر بأبحاثه وإذا تم صب نسخ من قالب أثر رشيد الجميل» لتوضع تحت تصرف جميع مكتبات أوروبا الكبرى فإن ذلك سيعتبر «هدية لمحبى الآداب [...] جديرة بالجدية والكرم الذين تتسم بهما الجمعية الملكية»[4] .

لم يتلق رئيس الجمعية المكلية فى لندن خطاب جان - فرنسوا إنما سكرتيرها العام توماس يانج ورد عليه فى ١٥ مارس ١٨١٥ بعد أسبوع من مرور «غول كورسيكا» بمدينة جرونوبل . لاننتظر بالطبع أن تتضمن مراسلات علامة إنجليزى أثرا لحدث تافه كهذا . ولايمكن أيضا أن نقول أن رده على غريمة الشاب كان مشجعا .

لاتوجد إشارة إلى «النسخ» المطلوبة لمكتبات أوروبا من الحجر الذى اكتشفه الملازم بوشار . إذ يكتفى يانج فى هذا الصدد أن يؤكد أن «الذين يؤذون الاعتناء بدراسة هذا النص سيجدون أن النسختين صحيحتان بالقدر الذى يسمح بالتأكد من معانى معظم الكلمات» لايوجد فى هذا الخطاب من يونج جملة واحدة تخلو من سهم مصوب إلى مراسله (هؤلاء الذين يودون الاعتناء بهذا النص سيجدون أن النسختين صحيحتان بالقدر الذى يسمح بالتأكد من معانى معظم الكلمات..»

أما بقية خطاب العالم الإنجليزى فهى متعمقة جداً فى الجدل الذى سيدور حول الاكتشاف مما يجعلنا نحيل قراءته إلى مكانها فى تطور الأحداث*.

فى ٢٠ يونيو عندما كان جاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك فى حفل عشاء دعا

* راجع فصل ١٠ .

إليه لوسيان بونابارت – أمير كانينو – في مسرح الباليه – روايال أن علم بنتيجة معركة واترلو وقرب وصول الملك المهزوم إلي قصر التويلوري . أما خطاب مندوب جرونوبل في الشان ب و . ى – إلى أخيه فقد احتاج أربعة أيام أخرى لكي يصله .

في ٢٠ يونيو لم يكن جان – فرنسوا قد عرف بعد بالكارثة عندما حرر خطاباً لجاك – جوزيف بعد أن حصل على وسام الليجيون دونور (جوقة الشرف) : «سيدى الفارس . أهنئكم على ما حصلتم عليه من معانى التكريم الإمبراطورى . أشارككم السعادة والابتهاج اللذين يغمرانكم بكل تأكيد .... » لابد أن قراءة هذه الجمل في نهاية شهر يونيو كان لها تأثير السخرية المرة ..

بعد الكارثة لم ينطو صديقنا أستاذ التاريخ ذو الأربعة والعشرين عاماً في الحزن والمرارة بل إنه يواجه الأمر بصلابة ورباطة جأش يوجبان الاحترام خاصة لدى شخص يعاني من تبدل حالات النشوة والإحباط مثله . لنقرأ ماكتبه لجاك – جوزيف في حينه :

«القاعدة الوحيدة التي يجب أن تتبعها هي أن تنقذ نفسك أولاً . أما فيما يتعلق بي ، فلي الله يفعل ما يشاء . عندما عبرت عن رأي فكان ذلك لأني أمنت بصحته ولازلت أعتقد ذلك [...] إذا لامك أحد على جاكوبينيه صحيفتك . أجب بشجاعة أني المسئول مادامت هذه هي الحقيقة . إذا احتاجوا لضحية فإني لها . ليس لدى زوجة أو ابن : كل واجبي ينحصر في شخصي وهذا ليس بالشيء الكثير ، أني أشعر أن ذلك سيؤثر فيك كثيرا . ولكن لايهم ، استخدمني كقطعة من الإسفنج . المهم هو أن تخرج سليما معافى من الأزمة» .

الأزمة ؟ بل أكثر من ذلك بكثير . قل عاصفة أصح !! اليوم ونحن نقرأ مستندات العصر نندهش لأن انهيار نابليون – هذا الزلزال العنيف – تولدت عنه حالة من التردد . هز وقوع المارد الأرض كلها ولكن في أي اتجاه ؟ ومصلحة من ؟

تشهد الرسائل التي بعث بها جان – فرنسوا لأخيه في بداية شهر يوليو على هذا التردد . فهو يتحدث فيها عن تتويج «نابوليون الثاني» ألم يتنازل الإمبراطور عن العرش لصالح الإمبراطورة ؟ والذى حدث هو أنه بدلا من أن يجد نفسه في دور المتنبئ راح الأستاذ شامبليون يصف حالة الهلع التي احتاجت «طافئي الأنوار» .

وجرى الحديث أيضا عن تتويج دوق دورليان . في البداية قلة هي التي كانت تنادي بعودة آل بوربون لأنه بدا أن إنهيارهم الفوري والتعيس قد أنهى مصيرهم تماماً في مارس ١٨١٥ . إلا أن لندن كانت تفضل هذا الحل . وكما سنرى فيما يختص بنابوليون فإن ويلنجتون وكاسترلياه يقودون العمليات .

إلا أن بعض المواطنين الفرنسيين كانوا غير مستعدين لتسهيل المهمة لهم تشهد على ذلك هذه السطور المأخوذة من خطاب جان - فرنسوا إلى جاك جوزيف الذى كان قد أخبره بالكارثة . الخطاب مؤرخ الأحد ٢٥ يونيو :

«خطابك الصغير [...] أدهشنا إلا أنه لم يفت في عضضنا . لقد حان وقت تحديد مصير فرنسا . إنها لن تضعف ولن تتشكك فيما تختاره بين الخزى والشرف وبين الحرية والعبودية للاجنبي . لا تخشى علينا من أى شيء - الهدوء يسود مدينتنا . إذا تحرك أصحاب النية السيئة - سيعاقبون ..» .

لدى اقتراب الجيش النمساوى - الساردى بقيادة الكونت بوبنا في فجر ٦ يوليو من أبواب جرونوبل فإن عاصمة الدوفينية ستظل فخور لفترة طويلة لأنها كانت آخر من قاوم في فرنسا كلها . يسرد جان فرنسوا ما حدث لأخية في خطاب مؤثر مؤرخ ٦ يوليو الساعة ١١ .

«قصف المدافع توقف الآن فقط . تقدم النمساويون في طابورين للهجوم على مدينتنا جرونوبل ، الأول من ناحية باب تريكلواتر والآخر من باب دوبون [...] تتقدمهم الموسيقى . تقدم هؤلاء السادة بخطى قصيرة كما لو أنهم في حفل زفاف . يبدو أن «طافئي الأنوار» كانوا قد شجعوهم على التقدم وأنهم لن يلقوا مقاومة فأساءوا التقدير ببشاعة . إذ ما أن أصبحوا أمام الأسوار إلا وكانت المدافع الفرنسية وبنادق مجندينا [تنهال عليهم] فانسحبوا إلى الضواحي حيث استقبلتهم طلقات المدافع فطردوا منها . بدأت المعركة في السادسة وانتهت في العاشرة والنصف وكانت حامية للغاية . أرسل النمساويون مفاوضا من جانبهم [...] أعلن عن وقف إطلاق النار لمدة أربعة أيام [...] زوجتك زويه التى كانت قد وضعت منذ امس أخذت الأمور بشجاعة المحاربين [...] لم أشرب في حياتي مثل هذه الراتافيا* الجيدة ..»[5] .

* مشروب كحولي يستورد من جزر الباسيفيكى (المترجم) .

لايوجد ما يطبع هذا النص بالبطولة فهو بدأ بالحديث عن حفل زفاف وانتهى بشرب الكحوليات . لايحاول جان – فرنسوا أن يخدع أحدا . أهم بطولاته انحصرت فى «طمأنة السيدات» . غيره كثيرون يجعلوهن يفقدن صوابهن فى مثل هذه الظروف .

باختصار استسلام جرونوبل تم في ١٠ يوليو : قلعة الدوفينية أصبحت فى أيدى الغزاة ابتداء من المواطنين الذين أغضبوا المتطرفين وكذلك حلفاؤهم «طافئو الأنوار» .

احتاجت بلورة الحل البوربونى عدة أسابيع ليكتمل . ولم يتم رفع علمهم الأبيض على مبانى جرونوبل سوى فى ٢٠ يوليو بعد شهر كامل من واترلو . حانت ساعة الانتقام الكبير . وزاد من عنفها درجة خوف المتطرفين وأن المدينة كانت أكثر المدن بونابارتية أو ليبرالية .

لايمكن أن نتحدث عن الجو العام الذى ساد هذه الأشهر من صيف ١٨١٥ بأحسن مما فعل أوجان دو فوجيه : «التشدد الذى ساد الملكية الثانية تناقض مع الاعتدال الذي ساد الأولى [...] كان من المتوقع أن تنطلق نار الانتقام الأولى فى ١٨١٤ عندما كان على ضحايا الثورة أن ينتقموا لفترات نفى طويلة أو لاعتداءات قاسية أو لأسر كاملة تم التضحية بها على المقصلة [...] غير أن الضراء التى تحملوها بنبل لم تقلل من قدرتهم [...] لقد حدث بعض الشطط فى السلوك ولكن لم تحدث عمليات انتقام منظم [...] في عام ١٨١٥ كان المطلوب هو الانتقام من وضع مثير السخرية ومن هروب مزرى تصرف الجميع أثناءه دون تحكم [...] الآلام الكبيرة سامحت . الكرامة المجروحة كانت فى منتهى القسوة»[6] .

تنطبق هذه الملحوظات على جرونوبل أفضل من غيرها . وكما كتب عنها جيزو* في «ذكرياته» كانت جرونوبل مهد المائة يوم » ، ورأى البعض أنه من الضرورى ضرب البونابارتيه بقسوه فى المكان ذاته الذي انفجرت فيه أولا.»

ضرب «الإرهاب الأبيض» عاصمة الدوفينية ضربا مباشرا وإن لم يأخذ الشكل الدموى الذى كان عليه فى كل من مرسيليا ونيم وأفينيون . إلا أن الانتقام أخذ فيها أشكالا قانونية وإدارية وثقافية على درجة كبيرة من الانحطاط البشع على يد شخص اسمه راندون سان مارسال . عينه الكونت دو ريفسكى ، ياور إمبراطور النمسا وقائد

* كان حينذاك موظفا فى وزارة العدل .

قوات الاحتلال ، مفتشا عاماً للشرطة وقد فعل راندون ما يكفى لأن يجعله يهرب بعد ستة أشهر فارا من العقاب الذى طالبت به الجماهير الغاضبة وقد تم تهريبه لتفادى أزمة بين باريس وفيينا .

العمليات الانتقامية الحقيقية - غير تلك التى قام بها موظف متطرف وبلا ضمير - جاءت على يد جمعية سرية اسمها «كازينو» يرأسها الماركسى دوشاليون - متطرف مشهور منذ فترة طويلة وقائد «الحرس الوطنى راكب الخيل» وكانت هذه الجمعية هى التى تنظم وتنفذ العمليات الأنتقامية . إذا كان الكازينو هو الوكر الذى حيكت فيه أسوء الضربات فإن شاليون وقتلته المأجورين وجدوا لهم منافسين بل وغرماء فى مقر الشرطة والمنطقة العسكرية ودار العمودية : وقد أطلق على هؤلاء جميعاً لقب «جاكوبيو الملكية» .

لم يسرع جاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك فى العودة إلى مدينته حيث انضواؤه تحت العلم المثلث الألوان بعد إعلان ولائه الملحوظ لعلم آل بوربون ذى الزنابق كان سيجلب له مشاكل فيها أكثر مما سيجلبه له فى باريس . تمركزت إذن على جان - فرنسوا كما كان يريد بالفعل - كل الأحقاد . وكان عليه أن يحارب على أربع جبهات .

جبهة الصحافة أولا : لم يتردد السادة الجدد فى أن يفرضوا خروج «صغير» من «حوليات الإيزار» الصحيفة التى الذى جعل منه بؤرة لليبرالية . كتب الصحفى المناضل لأخية خطابا بدا فيه أنه يأخذ الأمور من جانبها الطيب :

«أشعر بارتياح يا صديقى العزيز لأنك لاحظت دون غضب اسما غير اسمك أسفل بعض المقالات . لم يكن مقبولا أن تنفث الساخن والبارد فى نفس الوقت . إن ذلك لايليق بك ولابى واعترف لك أن الشجاعة لم تكن لتواتينى لكى أحرر الصحيفة بصورة جيدة تتفق والجو العام السائد . لعل فجرا جميلا يشرق مرة أخرى» .

سيكون أكثر عنفا ومؤثرا جدا فيما يختص بالجامعة وسيعبر عن ثورته الغاضبة بلغة المؤرخ .

«من الخطر دائماً أن تفتح باب حديقتك للعدو . سينتهى به الأمر دائما بأن يغزو مطبخك . تكفى تجربة خمسة عشرة قرنا لتأكيد ذلك » .

ولكن أقسى التجارب وطأه عليه ستكون بصفته باحثا أكثر من كونه صحفيا أو مربيا . مشكلة الأخرى كانت حينذاك هى مصير قاموس اللغة القبطية الذى وعده بطبعة فى أقرب فرصة نابليون الذى كانت تحيط بشخصة هالة من نور متجدد فى جرونوبل يوم ٨ مارس .

الواقع هو أن مخطوطه قدم لأكاديمية الآداب فى ١٨ مايو . الواقع أن جان - فرنسوا لم يغرق نفسه فى بحار من الأمل لأن اللجنة المكلفة بإعطاء أمر الطبع كانت مشكلة من دوساسى ولانجلاس وكوسان . وكانت علاقاته بالأول والثانى قد ساءت جداً كما رأينا - علاوة على ذلك فإن لانجلاس وكاترومار اللدود قدما مشروعاً منافساً .. وعلى الرغم من الظروف السياسية المواتية إذ كان نابوليون لايزال فى التويلورى - فإن الآفاق لم تكن مشرقة :

«ها هو قاموسى ألقى به إلى جماعة الذئاب المفترسة وبين براثن منتقدىّ المعروفين . يجب أن يكون عملى ممتازا لكى لايقولوا عنه أنه مكروه . وعلى العموم فإنى مستسلم مقدماً . علمنى كتابى الأول* حقيقتين كبيرتين . الأولى أنه يجب أن تسير بخطى ثابتة على الرغم من الصراخ النابع من الغيرة والكرامة المجروحة . والأخرى وهى الأكثر مواساة للنفس هى أنك تصل دائماً للهدف بالنية الطيبة والاقتناع التام أنه لايوجد ما تعاتب نفسك عليه وسط عمليات الاضطهاد التى تنتظرك مع كل خطوة تخطوها».

أخذ «خبراء» الأكاديمية قرارهم فى ١٧ يوليو بعد شهر من هزيمة واترلو عندما كان المتطرفون - وكان ساسى واحدا منهم - قد تمكنوا من جميع مفاتيح السلطة . فيجاك الذى كان لايزال فى باريس علم لتوه بالرفض وأفاد أخاه بالنبأ . اعتبره جان - فرنسوا صفعة على وجهه : إن العمل لايرقى لأن «يطبع على حساب الحكومة» .

كان وعد نابوليون فى هذه الظروف ضاراً لعملية نشر الكتاب .. كنا قد لاحظنا أن آمال جان - فرنسوا لم تخدعه فى هذا الصدد ، غير أنه لم يكن ضحية بداية ظلم سياسى فقط وإنما الحكم عليه كعالم كان من محرر التقرير (وهو ساسى) لأنه أكد في تقديمه للعمل أن «الهيروغليفيات ليست سوى علامات محتملة للغة الكلام وليست علامات فكرية [...] وهذا التأكيد يبدو متهورا جدا . بالنظر للبراهين المتوفرة من العصور القديمة كلها ...»

---

* كتاب «مصر فى عصر الفراعنة»

تحول هذا المأخذ على شامبوليون – كما تقول مدام هارتلوبان الذي كان يبدو في حينه مبررا – إلى تقريظ من أعلى درجة للطالب المعاقب [...] الذى تجرأ وأكد أن للهيروغليفيات [...] مدلولات سمعية[7] » .

رد فعل شامبوليون «صغير» كان في منتهى العنف فى خطاب أسرع بارساله لأخيه فى ٢١ يوليو ١٨١٥ . لهذا النص أهمية كبرى – إذ أنه يحتوى على كل شيء : الإساءات الشخصية وصراع الحداثه والمخاوف السياسية والآفاق المستقبلية . ولايجد الشاب فى كل اتجاه سوى أسباب للمرارة سواء كان ذلك فى اتجاه إنتصار المتطرفين وأصحاب الزى الأسود أو من ناحية احتلال القوات الاجنبية للمدينة أو بالنسبة لرفض طبع كتابه واخيراً فيما يتعلق بالنقطة التى فاض بها كأسه وهى انتخاب كاترو مار فى الانستتيو . كل ذلك يبرر نشرنا لمقتطفات مطولة من هذا الخطاب الذى هو كشف حساب رجل فى الخامسة والعشرين .

الموضوع الأول : رفض طبع قاموس اللغة القبطية على حساب الحكومة :

«التقرير الذى كتبه «الجيزويتى* » جاء كما توقعته : سم زعاف تحت السكر . فلأنه غير قادر على مهاجمة الموضوع فى صلبه فقد تحول إلى الشكل . إنه كالدودة استعصى عليها قضم الورقه أو قطعها راحت تغطيها بريالتها [...] خبث تقرير هذا الجيزويتى واضح جدا أمامى . إنه سيد الموقف الآن ..»

الموضوع الثانى : ما العمل فى القاموس المرفوض من الجانب الرسمى ؟ عندما نقل له جاك – جوزيف العرض الذى تلقاه من مسيو / جرينى الذى يقترح على الشقيقين أن يقوما «بالطبع» ويتولي هو «الباقى» أى التوزيع جاء رد أخيه الصغير عنيفاً :

«أرجو ألا تكون من الجنون بحيث تورطنى – بناء على قوله – فى مصاريف تتعدى بكثير إمكاناتى وإمكانات أسرتك مجتمعة فى الأوقات التى نحن فيها وسط ثورات عنيفة تمزق «وستستمر تمزق» وطننا المنكوب . يجب ألا تفكر سوى فى الحياة الجسدية [...] لقد انتهى عصر الأمجاد الأدبية»

---

* كثيراً ماسيستخدم شامبوليون هذه الكنية لأستاذه السابق متهما بذلك إياه بالأراء الرجعية ووسائله غير الصريحة والملتوية

الموضوع الثالث : إنتخاب كاترومار فى أكاديمية الآداب وما يعنيه :

« .. لقد قبل الانستيتو فى عضويته أعدى أعدائى وأنت تعلم مثلى تماما كم أن نجاح بوليكارب هذا رهيب فى ضرره لأعمالى . أعتقد أنه من غير المفيد أن نستمر فى صراع سينتهى بنا إلى أن نسقط فيه صرعى أجلا أو عاجلاً . روح التحزب تسود فى فرنسا بأكثر مما كانت عليه فى أى وقت مضى . إن لون القبعة سيحدد درجة جودة الرأس الذى تغطية . كل شىء إنتهى تماماً من هذه الناحية .

الموضوع الرابع مستقبل الشقيقين فى جرونوبل :

«إنك اعتمدت على أوهام [...] عندما علمت بوصول الغريب إلى جرونوبل . لماذا اعتقدت أن الصحيفة كانت مازالت لك أهل تعتقد أن هذه النوعية من الرجال سوف تنسى الطريقة التى أعيدت بها إليك* [....] إن العصابة الجهنمية المسيطرة على جرونوبل أعادتها إلى المتآمرين الذين كانوا انتزعوها منك ..»

إلا أن هذا الجان – فرنسوا الذى يحذر أخاه عن حق من «الأوهام» سيعيش هو نفسه فى أخرى ، وأن كانت غير خطيرة :

«مادمت تعرف المحافظ الجديد** فلا يزال هناك أمل فى أن تستعيده . أقول الأمل ولا أقول من المؤكد لأن المحافظ سيحاط عند وصوله بشخصيات [...] ستلبسك أفضل رداء [...] لاتغفر لك أبدا مقابلاتك*** ولاوسامك**** هذا الوسام سيصبح حبلا حول رقبتك [...] إذا حضر المحافظ إدخل فى زمرة اتباعه وإحضر معه واجعله يعيدك إلى منصبك [...] وإن كنت أشك فى النجاح [...] ولازلت أدعوك أن تغسل يديك على حسابى أنا ...»

ماأعجبها من شخصية .. هذا الاستاذ الشاب ذو الرأس الساخنة ! واضح الرؤيا دائما (تقريبا) شهم إلى أقصى حد – وإن كان ميالاً إلى أن يكون عرضة للإحساس بالاضطهاد على طريقة روسو . ولبعض من التعصب العلمى وكذلك لشىء من الحماس

---

* بواسطة نابوليون .

** مسيو دو مونليفو – الياور السابق للإمبراطورة جوزيفين والذى تحول إلى حزب المتطرفين وأصبح . على عكس ماكانا يأملان – من ألد أعدائهما .

*** مع نابوليون .

**** الليجيون دونور (جوقه الشرف) .

الجاكوبينى بمثل ستاندال . هل كان به شيء من السذاجة ؟ بالتأكيد ! حقود ؟ بالتأكيد ! بل ومع شيء من العنف ... ولكن ما كل هذا الحماس وطلاقة التعبير والألمعية ! وتحت زبد أهل الجنوب تجد عمق أهل الجبال المرتفعة ..

لم يهزم بعد على الرغم من كل شيء صديقنا «المصرى» ! كان العدو يحتل مدينته و«السود» حاملوا اللواء الابيض يطاردونه والعمده الجديد بلانيللى دو لاقالات يأمره بأن يغلق المكتبة التى هو أمينها فى غياب أخيه وكليه الآداب مهدده بالوفاة – اليست اختراعا من اختراعات «الغول» الشيطانى ؟ الإشاعات كلها تعلن قرب سقوطه . و«طافئو الانوار» يطردونه من «حوليات الإيزار» بعد أن جعل منها الناطق بلسان البونابارتية الليبرالية الجديدة فى المنطقة ، إلا أنه لايعترف بالهزيمة فلم يترك الميكروفون الذى هو الحوليات دون أن يلقى تحديا سافرا للمتطرفين فى صورة «نخب إلى الجمهورية» الذى سيؤدى إلى نفيه :

شارب صادق والكأس فى يده
يحتسى المدام نخب ابن ديونيزوس
والحبيب يختم نشيده
فى صحة حبيبته
مثله أنا أيضا لى غرامى
ومادام يجب بالسر أن أبوح
فإنى اشرب ودائما سأشرب
نخب الجمهورية إلى الأبد(8)

لم تكن قريحته الشعرية على مستوى حماسه الوطنى والانكى من ذلك أن قسمه لم يكن كما ادعى أبديا لارجعة فيه .. غير أن الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار هنا ليس معرفة ما إذا كان شامبوليون ينافس بيرانچية* أو إذا كان ولاؤه الجمهورى من معدن أكثر صلابة من قاتلى الملوك السابقين الذين أعلنوا ولاءهم بعد ذلك للتاج الملكى ،

* مؤلف أغانى ومطرب فرنسى إشتهر بأغانيه الوطنية (١٧٨٠ – ١٨٥٧) .

الأهم من ذلك هو الجانب الفدائي في شخصيته : ففى الوقت الذى تظهر فيه بوادر الإرهاب الأبيض نراه يرتدى غطاء الرأس الكاشف عن ميوله نحو الجمهورية .

وهو لايكتفى بالتحديات العلنية . فقد بدأت المنشورات توزع فى صالونات جرونوبل وسرعان ما توجهت الأنظار إليه على أنه محررها : فهى تهاجم «مطفئى الأنوار» و«ذوى القبعات السوداء» . مثل ذلك ما جاء فى أحد هذه المنشورات وهو على هيئة محاكاة ساخرة لسفر الرؤيا يظهر فيها نابوليون فى صورة الحيوان المخيف القادم من البحر .. فصاحة صديقنا الجاسكونى (والدوفينى أيضا) تنطلق دون رابط فى هذا النص لدرجة أغضبت المحافظ الجديد الكونت دومونليفو – وهو الذى كان جاك – جوزيف يعتقد أنه يعرفه بالقدر الذى يسمح له بأن يحتويه – فقد نسى المحافظ أن أكثر المتطرفين تشدداً هم الملكيون السابقون الذين أصبحوا خدما لآل بونابارت .

فى ٢٨ يوليو ١٨١٥ وضع جان – فرنسوا شامبوليون تحت مراقبة مباشرة . ويجدر أن ننقل هنا النص الصادر عن مفتش الشرطة راندون سان مارسيل الذى سبق أن تكلمنا عنه :

«آخذين فى الاعتبار روح التمرد التى تحرك بعض الأفراد ، يضاعف من جرمهم أنهم فى ضلالهم هذا سيئو النية ، ومن خطورتهم أن إستتارتهم* ومكانتهم فى المجتمع تجعل المثل الذى يعطونه بسلوكهم وبالتعبير عن أرائهم يضاعف من الأضرار التى يتسببون فيها – نظرا لكل ذلك قررنا ما يلى : يوضع تحت الرقابة الفورية السيد شامبوليون – فيجاك الأصغر ، الاستاذ بكلية جرونوبل [...] إلا إذا عدل من سلوكه [...] أن تحدد له أى محل إقامة آخر» .

حركه الكماشه تشتد حوله ، إذ إن حرية حركته هى التى استهدفت** . وصفه للمناخ العام السائد فى جرونوبل يبدو غير مبالغ فيه إذ كتب عن ذلك لأخيه يقول :

> «الكاربنوريون*** لهم اليد العليا فى المدينة . من المؤكد أنهم مكلفون أو كلفوا أنفسهم بأعمال الشرطة العليا ، الاعتقالات تتم يوميا . البداية كانت فى الطبقات الدنيا وستنتهى بمش يرتدون الملابس الفرنسية . الجميع يرتابون فى أقرب الناس إليهم . الوشاية هى سيدة الموقف» .

---

* يعاقب لاستنارته !! موقف متناسق!

** نفس المعاملة كانت من نصيب جاك – جوزيف فى باريس

*** أعضاء تنظيم الكازينو – انظر ماجاء من قبل

من الطريف أن نقارن هنا بين هذا التقرير الحي للأحداث من شاهد عليها – إن لم يكن ضحية لها – وبين ماكتبه شامبوليون – فيجاك في كتابه " فورييه ونابليون" . الأسلوب هنا يصبح أكثر سلاسة والنغمة أكثر اعتناءً . بعد التأكد من تطابق الأحداث مع الواقع وبعد أن عاد لينضوى تحت لواء الملكية فإن الأخ الكبير يردد ماقاله أخوه :

" إنها لبركة آسنة من الوشايات يطلقها ويديرها قس متزوج وإثنان أو ثلاثة من الماراتين* أهل ٩٣ ، وهم محترفو الأجرام تناسبهم جميع العمليات الإرهابية سواء كانت بيضاء أو حمراء ويتولون بسبب تكوين شخصيتهم جميع الأعمال القذرة التى تخدم طبقة غير طبقتهم مثلما يفعل الخدم فى المسرحيات الكوميدية بأن يكذبوا لصالح سيدهم(9)» .

" ماراتييون " محترفون أو متطرفون خلص ، المهم هو أن أعداء الشابوليونين الذين انتزعوا منهم صحيفتهم راحوا الآن يهاجمون قلعتيهما الأخريين : الكلية والمكتبة .

فى ١٩ نوفمبر كتب جان فرنسوا لأخيه :" لاشك أن كلية الآداب ستلغى بأكملها .[...] لم يحصل بعد أى شئ بصورة رسمية (ولكن) هذا لن يتأخر** وفى جميع الأحوال فإن بيلون وانا وأنت وبيريا سان برى*** سنكون من المطرودين . لقد إنتهينا .."

فلنرى ما سيستخلصه هذا الشاب " المنتهى " من هذه التجربة السيئة من نتائج غير متوقعة منه فى صورة " خطة لحياة جديدة مدينة وأسرية » يرسلها إلى أخيه طالبا منه أن يقرأها « بتمعن » :

« ... أو أن أدخل فى سلك « موثقي العقود » فى جرونوبل ستقول لى أنك تريد أن تتحول من أسقف إلى نجار وبماذا ستفيد العمة الأسقفية إذا لم تأت بالخبز . علما بأن الدقيق موجود فى المطحن لم يعد هذا وقت المستويات ، وبالمناسبة فإنى أعرف العديد من موثقى العقود أكثر احتراما وتجيلا من كتبية أساتذة (...) أما فيما يتعلق بى فأنا مصمم على ترك مهنة التعليم العمومى .. »

ولا يخشى «صغير» أن يخوض فى الحديث عن النواحى الأكثر حساسية فى

---

* نسبة إلى جان – بول مارا J.P. Marat ، ضحية (عشيقته) شارلوت كورديه وهو يعتبر رمزاً للأرهاب (المترجم) .

** تحقق ذلك فى ١٨ يناير١٨١٦

*** عديل جاك – جوزيف – وقد كان نائب رئيس الفيدرالية " (الليبرالية) خلال فترة المائة يوم

المشروع .. لاحظ نبرة الحديث :

« النقطة الرئيسية هى شراء المكتب ... كثير من موثقى العقود لم يحصلوا على مكاتبهم سوى بالزواج ... بالنسبة لى فإن علاقاتى بالحب جيدة لدرجة أنه مستعد ليمد لى يد المعونة فى هذا الشأن . بابا بلان مقتنع تماما بأنى ساتزوج إبنته .. روزين وأنا متمسكان جدا بذلك . أن مسيو بلان يكرر بالاستمرار أن هذا العالم ليس فيه سوى حالتين : أن تكون صانع قفاز أو مسجل عقود ... »

هكذا وبعد أن وضع النقاط على الحروف ينهى جان فرنسوا كلامه :

« إن وضعى كموثق عقود يعطينى مايلى :

١ – ضمان موقف صلب ومريح .

٢ – ألا أجد نفسى بعد قليل من الآن (...) عالة على أسرتى .

٣ – أن أتمم مشروع زواج أتمسك به من الناحية العاطفية من ناحية الشرف .

٤ – أن أجد نفسى بعد فترة قصيرة بمنأى عن الثورات .

٥ – وأخيرا هذا هو الوضع الذى (...) يسمح لى بالتخاطب مع جنيات الشعر والفن والأدب دون أن يسئ التعامل مع الأدب إلى التعامل مع النقود . أى سأحصل على الورد دون الأشواك .

ينتج عن كل ما سبق أنه بالنسبة لى خارج توثيق العقود

لانجاه لي مشاركة ممتازة منه فى رسم صورة له !!

ومع ذلك فإن جاك – جوزيف يحصل بعد قليل على آراء مختلفة من أخيه :

« «مازالت الإشاعات تتردد عن المكتبة . إذ يدعون أننا لانوجد بها أثناء النهار أماليلا فإن إجتماعات خطيرة تعقد فيها وهو ما يتنافي مع التفكير السليم ، يقال أننا تركنا المكان لأحد السعاة فى هذه الأوقات الحرجة . لأن عندما يأتى إليه بعض الضباط النمساويين يقول لهم أنطوان إن أمين المكتبة خرج وأخذ معه المفاتيح الخ إلخ ..

أما فيما يدعونه عن اجتماعات فلست أدرى من أين جاءوا بهذه الإشاعة غير المعقولة ، لكن الذى أعلمه هو أن الطرقة الخاصة بسان برى والطرقة الخاصة براندون يحتلهما كل ليلة ومنذ ثمانية أيام شرطيان لكل منهما ، وأن عملاء للشرطة يحومون حول المكتبة . عندما أدخل المبنى كل ذلك يختفى لا أدرى أين . إلا أن الشىء المسلى

فى ذلك وهو أيضا مضحك أنى أسمعهم يهمهمون بعد أن أكون أوضحت الأمور بعد وصولى مبكراً وبهدوء تام . لم يتكلموا أبداً معى ؛ لأنهم يودون أن يقبضوا على المتآمرين وهم فى حالة تلبس».

«عملاء الشرطة» .. حتى لو كان جان - فرنسوا يستخدم أسلوب المناضلين السياسيين فى الكتابة فهو لا يبالغ فى الواقع كثيرا . لأن الواقع يفترض أن مهد اعادة البونابارتية إلى السلطة . أى مدينة جرونوبل استحقت معاملة متشددة . بوجه خاص . عملية القمع أدارها رباعى لايرحم : المحافظ الكونت دومونليفو وقد سبق أن رأيناه وهو يعمل ، القائد العسكرى الجنرال دوناديو* ، قائد قوات الشرطة ؛ الكونت دوباستار والعمدة الماركيز دوبينا** جميعهم من مجموعة الكازينو ومن مؤيدى «ذوى الرداء الأسود» ومن مناصرى الكونت دارتوا . كان وجود هذا الأخير يطمئن أصحاب أكثر الأراء تطرفا بعد ما قام به من أعمال عاصفة فى ربيع ١٨١٥ .

عاد جاك - جوزيف شامبوليون إلى جرونوبل فى نهاية العام وقد اتخذ لنفسه سلوكا هادئا للغاية يتناسب والظروف ويتفق مع ما يقال عنه هذه الأيام أنه «سار بجانب الحائط» .

كتب يقول عن هذه الفترة بعد ثلاثين عاما فى كتابة «فورييه ونابوليون» : «أما أنا فقد قبلت بالكامل وببساطة النتائج المترتبة على ما قمت به وإقتصرت تماماً على عملى كأستاذ وكأمين مكتبة وهى مهام كنت أشعر أنها سيموت اهتمامى بها أو أنى سأضطر إلى أن أختنق أنا فيها وكان مصدر هذا الشعور نابع من العديد من الإعراض» ليس هو الذى يشرب مثل أخيه المجنون «فى نخب الجمهورية» إنه ينتظر انسحاب حمى الانتقام من مدها .

إنه شخص باريع . ولكنه أيضا رجل عواطف وهو ما سيتسبب له فى أذى كبير جداً . إذ جاء إليه شخص إسمه «مسيو رافييه تاجر من كلارمون فيران» يريد أن يذهب إلى مقاطعة سافوا ليستشفى بمائها ، ولكن ليس لديه جواز سفر لذلك . واضح جداً أن هذا الشخص من المغضوب عليهم وهو يحاول الهرب إلى الخارج . ولم يطل

---

* وصفه الكونت موليه فى مذكراته بأنه «حقير» بمعنى الكلمة .

** يقول عنه ستاندال إذ كان زميله فى المدرسة المركزية (ليكول سنترال) : «متطرف يقوم بأى عمل وهو يتناسى نظافة اليد ..متطرف خطير .. جيزويتى بمعنى الكلمة» .

المقام بالضيف قبل أن يتعرف فيجاك على شخصيته الحقيقية : إنه الجنرال درويه دارلون أحد أخر جنرالات الجيش العظيم الذين اعتمد عليهم نابوليون فى واترلو .

هل تشاور الشقيقان ؟ واقع ما حدث هو أنه «مسيو راقيه» اختبأ طوال فصل الشتاء قبل أن يخرجوه من المدينة فى عربة عامة لنقل الأفراد ثم إصطحبوه حتى مدينة شامبيرى وكانت هذه المدينة حينذاك أجنبية وتتبع السافوا . ومن هناك اتجه إلى ميونيخ حيث كان يقيم الأمير أوجان دو بوهارينه(10) .

على الرغم من أن هروب درويه دارلون لم يكتشف من الشرطة إلا بعد فترة طويلة* فإن «ملف شامبوليون» كان ثقيلا كما تقول مادلين يوريوان : «لم يكن اللوم الواقع عليهما راجعا إلى تهافتهما على استقبال «سارق العروش» بقدر ما كان بسبب عدم إعلانهما عن توبتهما الصادقة»(11) وفى ٢٢ فبراير ١٨١٦ يندد الكونت دوباستار مفتش الشرطة الملكى» لدى ديكاز وزير الشرطة بالأعمال التى يقوم بها «رجال خطرون مثل شامبوليون»** ويروبى وبواسونيه الذين لعبوا دورا رئيسيا خلال المائة يوم وسرقة السلطة (كما أنهم) يزيدون من شعلة التمرد الضار فى صفوف الشعب (بواسطة) الأكاذيب الضارة التى يروجونها [...] كانوا على رأس «الفيدراليين» وكل من هو شرير يركز نظره عليهم .. » ومع ذلك يقر باستار أنهم «أفراد غاية فى الذكاء إذ أن سلوكهم الظاهرى لاينم عن أى شىء خطير يلامون عليه [...] لكنهم يلتقون [..] فى اجتماعات تضر بمصالح الحكومة»(12) .

لكن بعد عشرة أيام فإن ديكاز الذي كان يعتقد فى تعقل وحتى تلك اللحظة أن «الأقوال التى تبودلت» منها الكثير الذى «يكتفى بتسجيله» ومنها «القليل فقط الذى يستدعى ملاحقة أصحابه بسببه» انتهى إلى وجوب إبعاد «الأفراد المذكورين» عن مقاطعة الإيزار . ينتهز باستار الفرصة المتاحة وفى ١٩ مارس أرسل مدير الشرطة بالمذكرة الآتية :

«جرونوبل فى ١٩ مارس ١٨١٦ يعتقد السيد المحافظ أنه فى الوقت الذى عادت تنتشر فيه الإشاعات الكاذبة التى إن صدقها الشعب فإنها لابد وأن تزكى تطلعات إجرامية – أنه من المفيد اتخاذ إجراءات نشطة ضد هؤلاء الرجال الذين لايقدسون

* كما سيأتى ذكره بعد ذلك بقليل .

** المستهدف هنا على ما يبدو هو جان – فرنسوا .

شيئا [...] منذ فترة طويلة والرأي العام يشير إلى الأخوين شامبليون* على أنهما من أعداء الحكومة ويزيد من خطورتهما أنهما يجمعان بين المرائية الشديدة والمهارة العظيمة والفكر والمعرفة [...] .

كونت دوياستار

لم يتم تنفيذ أمر الإستبعاد سوى بعد عدة شكاوى واحتجاجات والتماسات .. وفى خطاب للمحافظ بعد سفر الشقيقين إلى «منفاهما» على الرغم من أنه كان قد ترك جاك – جوزيف يعتقد أن القرارسيلغى .. كتب إلى ديكاز يبرر القرار بل يؤكد عليه ويطالب بتنفيذه .

«الأخوان شامبوليون ينويان التوجه إليكم بالتماس ضد إبعادهما . بالنسبة لى فإنى أرى أن ذلك ضرورى في الوقت الحاضر وسيكون له أثر طيب للغاية على الأمن فى المدينة ..» يوجد لدينا الدليل على أن ذلك التدخل هو الذى حسم الأمر وهو عبارة عن خطاب من صديق قديم من فيجاك ، اسمه دوجيه وكان قد عين فى وزارة الخارجية وقام بعدة وساطات لصالحهما فى الأوساط السياسية والمثقفة فى العاصمة ونجح فى خلق اتجاه عام لصالحهما . ولكن ليس لدى الجميع ...» .

إذ كتب دوجيه إلى جاك – جوزيف يقول له «لولا الخطاب الشؤم لقائد الشرطة فإن قرار إبعادكما كان سيلغى إن ذلك يعتبر قمة فى عدم الولاء . لقد بدا لى البعض متعاطفا مع موقفكما . مسيو سيلفاستر دوساسى** الراهب السابق لن أنقل لكما هنا ما قاله . إنه شخص حقير – يجب أن يترك هكذا يفسد فى مكانه حتى يأخذ الرأى العام المستنير منه الموقف المناسب . وداعاً ياصديقى وخذا معكما زاداً كبيرا من الصبر وقبول الأمر الواقع . إنكما فى أشد الحاجة إلى ذلك لتحمل شرور الناس بكل شجاعة»(13) .

فى خطابه «الشؤم» أشار مونليفو إلى أن الشقيقين شامبوليون يبديان «أسفا شديداً لأنهما سيذهبان إلي محافظة تكره حتى اسم بونابارت» .. الواقع أن المدن التى ذكرت فى بادئ الأمر للمنفيين كانت : دينى وڤالانس وأكس ؛ محافظتا بروفانس والألب الجنوبية كانتا مشهورتين بميولهما الملكية ، وهذا هو السبب الذى جعل نابوليون يحرص لدى عودته أن يذهب فوراً إلى الدوفينيه .

* ها هما مجتمعان فجأة فى الاتهام .

** لم يحدد دوجيه كيف أن هذا «الراهب» اساء إلى زميله وتلميذه السابق ولكن من الواضح أنه رفض التدخل لصالحهما .

«السادة شامبوليون» لما لم ينجحا فى الغاء قرار إبعادهما ، سعيا ونجحا فى الحصول على وجهة أخرى وكانت فيجاك مسقط رأسهما حيث مازال يعيش والدهما وشقيقاتهما الثلاث وبعض الأصدقاء وحيث لايعكر المناخ السياسى أى تعصب . لم ينس جاك - جوزيف أنه عاش فيها دون أية مضايقات ولكن دون - عمل - فترات الإرهاب (الثورة) وتيرميدور ..

إلا أنه هو الذى شعر بوطأة عملية طردهما المشترك بأكثر مما شعر بها أخوه . وهو إذا كان قد نجح فى أن يصطحب معه إبنه «على» فهو ترك زوجته وطفليه الأخرين . وهو فراق أقسى عليه من قسوة فراق جان فرنسوا من روزين التى كان لازال يأمل فى أن يأخذها زوجة له - ومن أقرب أصدقائه إلى قلبه أو جوستان تيفونيه .

لابد وأن فوق ذلك كله بالنسبة لجاك - جوزيف شعوره بالظلم من أن يعامل مثلما يعامل أخوه - نتذكر أن جان - فرنسوا توسل إلى جاك - جوزيف لكى يلقى عليه هو كل المسئوليات السياسية الخاصة بالأيام المائة وخاصة «جاكوبينيه» الصحيفة . كان ذلك كرماً منه وكان أيضا موقفا واقعياً .

إذا تفحصنا سلوك الشقيقين خلال الأشهر الممتدة من ربيع ١٨١٤ إلى ١٨١٦ سنلاحظ لدى الأخ الأكبر تحولات عديدة فى مواقفه من خدمة ملك ثم الآخر (والعكس أيضا) وميلاً قويا إلى أن يقف دائما إلى جانب السلطة القائمة من علم مثلث الألوان إلى علم أبيض ، من وسام الزنبقة إلى وسام جوقه الشرف أى ما يسمى بلغة العامة : الإنتهازية . هذا الرجل المحبوب والذكى النشط جعل فى انتها زيته كثيرا من الرقة وقليلا من سوء النية وهو موقف يندر جداً أن توقع عليه الحاكم أى عقاب وأقل منها الشرطة ، فهما - سواء هذه أو تلك - تعرف جيدا هذه الترددات الأيديولوجية وتعتبر بالنسبة لهم شيئا مألوفا .

أما سلوك جان - فرنسوا فهو مختلف جداً . فحتى بعد إنضمامه لرجل المائة يوم لايكف عن الإعلان عن «ليبرالية» أساءت إليه . وهو يعمل بناءً على ذلك فى توجيه «نداءات إلى الشعب» و«ينشر نخبه في صحة الجمهورية» وفى كافة كتاباته السياسية . وفى نشاطته العلنية داخل نادى «الوحدة*» وداخل الفيدرالية . طوال تلك الفترة

* هذا النادى «المناهض للكازينو» كان جمعية سرية ليبرالية فى ١٨١٦ المحامى جوزيف رى يساعده الفنان الرسام سيمون تربول وجان - فرنسوا شامبوليون ثم إنضم إليهم بيرانجية دولادورم وفيليكس ريال . ستتكلم فيما بعد عن المساندات التى أرسلتها باريس لهم .

المضطربة التى كان مصير البلد يتحدد فيها بين الألوان الثلاثة أزرق وأبيض وأحمر وتحت شعارات النحل (نابوليون) الزنبقة (آل بوربون) أو البنفسج (الجاكوبية) على مقامات جاكوبيه كبيرة أو كنسية صغيرة فإن جاك – جوزيف كان من الاعيان وجان – فرنسوا رجلا حزبياً . لماذا إذن يعامل هذا مثل ذاك ؟ كان لهما شركاء : بيريا سان يرى وبواسونيه وبولون وهى أسماء شاركت فى «نادى الوحدة» أو فى الفيدرالية ولم يمسوا بعد أن عبروا في الخفاء عن شيء من التوبة وهو ما كان الأخ يرفضه لولا أن «صغير» نصحه بغير ذلك .

هل لأنه أثار غيرة العديد من الناس هل لأن نجاحه كان أسرع مما ينبغى ، على العموم كان بروز جان – فرنسوا أوضح وألمع من ألا تطول الفضيحة التالية لهذا العمل البارز أخاه أيضا . هو الذى أراد أن يتحمل وحده كل شيء لكى ينقذ أخاه من إنتقام المتطرفين جر معه أخاه الطيب إلى حيث المغضوب عليهم .

وبناء على ذلك يجب أن نعتبر أن جاك – جوزيف هنا كان ضحية حماس جان – فرنسوا الوطنى . إن ما يؤخذ عليه يبدو تافها للغاية ويمكن إرجاعه على الأكثر إلى التقلبات التى نسج منها رداء الحياة فى فرنسا فى زمن رأينا فيه قاتلا للملوك يصبح وزير الملك وملكيا يصبح كاتم أسرار «الغول» فى جزيرة سانت إيلان .

كان من الممكن بالطبع أن يؤخذ على جاك – جوزيف خرق خطير للقانون للدور الذي أداه فى هروب درويه دارلون . ولكن هذا التحدى للسلطة لم يكن له أى دور فى إبعاده ونفيه : فهو يقول فيما كتب إنه على الرغم من أن كل ذلك قد جرى على بعد أربع خطوات من مقر المحافظة فإن «مسيو دو مونليڤو محافظ إيزار الجديد والجنرال دوناديو القائد العسكرى للمقاطعة لم يدركا أن الكونت دارلون قد مر لفترة قصيرة بجرونوبل (حسب ما جاء فى تقريرهما) إلا بعد أن كان الجنرال قد أمضى فترة طويلة فى موينخ»[14] .

وكما يحدث فى كثير من الأحيان فإن شامبوليون – فيجاك لم يعاقب على «الجريمة» التى اقترفها بالفعل ولكن للتى ارتكبها مثله العديد ممن عاقبوه ألا وهى التكيف مع الظروف ..

ها هما الشقيقان مضطران لترك جرونوبل فى ٢١ مارس ١٨١٦ ويصحبتهما الطفل «على» فى طريقهما للمنزل القديم فى حارة لابودوسكورى . وكان الأمر الصادر لهما يحتم عليهما ألا يقضيا أكثر من خمسه عشر يوما ليقطعا المائة وخمسين فرسخاً التى تفصل بين جرونوبل ومسقط رأسهما وأن يقدما أنفسهما إلى محافظ مقاطعة اللوت خلال الخمسة أيام التالية لوصولهما هناك .

قبل ذلك بيومين أرسل المحافظ مونليفو مذكرة سرية لزميله فى كاهور وسلم الشقيقين جوازيهما . وتستحق النصوص الثلاثة أن نذكرها لأنها تعتبر بمثابة صور جسدية وسياسية للرجلين – كما كان يراهما بدقة عملاء الملكية :

«السيدان شامبوليون لفتا الأنظار بحماسهما فى اعتناق قضية بونابارت وفى المجهودات التى قاما بها لمساندته . الأخ الأكبر كان عميدا لكلية الآداب وأمينا لمكتبة المدينة . وكان قد طلب من بونابارت لدى مروره فى هذه المدينة وحصل منه على رياسة تحرير صحيفة «لوجورنال دوليزار» وهو بذلك أول من نشر مستندات الاستيلاء على السلطة – ومن هنا تبعه إلى باريس حيث عاد منها وقد نال وسام جوقة الشرف . إنه لماح وذكى وحسن الكلام مثقف جدا وشكله وسيم . جميع هذه الصفات تصبح ضارة للغاية عند إساءة استخدامها .

«الآخر مثقف جدا مثله وهو أيضا استاذ بالاكاديمية ويهتم كثيرا بالآداب الشرقية وكان خلال فترة السلطة سكرتير لجنة الفيدرالية – شكله ليس على نفس درجة ملاحة الأول إلا أنه أكثر حيوية مما قد يجعله عند التحرك أكثر خطرا .

أما الجوازات أرقام ٢٠٤ و ٢٠٥ فهى تطلب من السلطات «أن تسمح بالمرور على الطريق المؤدى من جرونوبل إلى فيجاك مرورا بليون وأوربلاك [...] لمسيو شامبوليون – فيجاك (چاك – جوزيف) أمين مكتبة* يرافقة إبنه البالغ من العمر ستة اعوام ونصف . موطنه فيجاك – ومقيم فى جرونوبل السن ٣٦عاماً الطول : ١,٦٧ مترا الشعر : كستنائى غامق ، الجبهة : متوسطه ، لون العينين : بنى ، الأنف : رفيع الفم : متوسط اللحية : بنى الذقن : مستدير الوجه : مستطيل لون البشرة : فاتح : علامات مميزة : لايوجد

---

* ألغيت جميع القاب الرجلين الجامعية .

و«لمسيو شامبوليون الصغير (جان – فرنسوا) أمين مكتبة مساعد السن : ٢٥ عاما : الطول ١,٧٠ متر . الشعر : أسود ، الجبهة : عريضة ، لون العينين : أسود ، الأنف : مفلطح* الوجه : مستدير تماماً ، لون البشرة : أسمر ، علامات مميزة : بعض الآثار البسيطة للجدرى

عمل فى جرونوبل فى ١٨ مارس ١٨١٦

ثمن الجواز : فرنكان

أفضل خلاصة لهذه المرحلة نأخذها من جان – فرنسوا نفسه من خطاب أرسله بعد عشره أعوام إلى المرأة التى أحبها فعلاً آنجيلكا باللى** :

«فى ١٨١٤ و ١٨١٥ تأثيرى على الشباب الدوفيينين الذين يحبون الحرية والذين كان معظهم زملائى وتلامذتى جعلنى شخصا بارزا فى تلك الأيام المضطربة هزيمة الحزب الليبرالى سلمتنى مكتوف الأيدى إلى الحزب المنتصر وهو فى قمة عنفه» .

---

* لم يذكر ذلك أى مصدر آخر .

** راجع الفصل ١٤



٧ - منفى وسط ذويه

عبر الإرهاب الأبيض - «السيدان شامبوليون فى أجازة» مؤامرة ديديه - جان - فرنسوا والرقباء - «ماما الحبيبة التى فى فيجاك» - روزين وهيلويز - الدجاجة الجميلة والديوك - أو كسيللو دونوم - مدرسة «لانكستريه» - «سعة صدر السلطات» - والد «فى مستوى أدنى من الوحوش» - القواعد اللغوية المصرية - ستكون جرونوبل ...

ألقى باستار ومونليفو الشقيقين شامبوليون ومعهما الطفل «على» على طرق مازال يخيم عليها شبح الإرهاب الأبيض* وهى المؤدية إلى مقاطعة كارسى . كانت فرنسا حينذاك - وجنوبها على الأخص - تعيش مرحلة ما أطلق عليه اسم «مجلس النواب التائة**» والمحاكم الاستثنائية و«الجاكوبيين» البيض والانتقام العظيم «لطافئى الأنوار» .

مدينة نيم عرفت من جديد لعدة شهور الحروب الأهلية الدينية بين كاثوليك وبروتستانت فقام بعض مثيرى الشغب من الكاثوليك باسم الملك بمطاردة البروتستانت مفترضين أنهم (يدينون بالولاء للمغتصب) . والمرحلة من تولوز إلى مونبلييه كان «الجنزاريون» نسبه إلى لون علم الكونت دارتوا الأخضر الذى كانوا يحملونه - يعتزمون إقامة «المملكة الأوكسيتانية» المؤيدة للمتطرفين - بدعوى أنهم بذلك يسرعون فى التخلص من المركزية الجاكوبية . أفينيون وأوزاس كانتا واقعتين تحت رحمة مجموعة من الرعاع بقيادة «بلطجى» يدعى بوانتو يعيثون فيها عنفاً وفساداً : حتى أن المارشال درون أعدم دون أية محاكمة وألقيت رفاته في نهر الرون كما أغتيل الجنرال رامال ثم قطع جسده إربا وهو على فراش الموت على يد قتله مخمورين .

يبدو أن هذا هو السبب الذى جعل المحافظ مونليفو يأمر بأن يسلك المنفيون طريق الجبل عبر الماسيف سنترال إلى ليون وأوربياك الأقل عنفا متحاشياً أسوأ الظروف أى أن يقعوا فى أيدى عصابات من ذلك النوع .

---

* لون العلم الملكى (المترجم)

** وهو الذى انتخب فى أغسطس ١٨١٥ . كان ٨٠٪ من نوابه من الحزب المتطرف «Vetras» والذي أطلق عليه هذا الاسم هو الملك لويس الثامن عشر المناهض له بسبب تعارضه مع مزاجه وتفكيره الكارة لأى شكل من أشكال التطرف فقام بحله فى سبتمبر ١٨١٦ .

أعطى جان – فرنسوا سرداً غريبا للغاية عن هذه الرحلة ضمن خطاب وجهه إلى أوجوستان تيفنيه – يجب عند قراءته إضافة السخرية المستترة فيه حتى يتضح التهكم الذى يغلفه المديح الموجه إلى السلطة تضليلا منه للرقباء .

«عبرت في رحلتي محافظات الرون ولوار العليا والپوى دو – دوم والكوراز والكانتال واللوت . جميعها يقطنها سكان على درجة من العمش تمنعهم من رؤية لماذا يتحتم عليهم حب مليكنا الطيب [..] هؤلاء المتوترون كانوا يريدون أن يتمتعوا على الفور بالخير الوفير والوئام أيضا . وهذا غير ممكن الآن وعليهم أن ينتظروا أن يحتل خدام مولانا الطيبون ومحبو المبادىء السامية جميع المراكز وأن يحمّلوا بجميع الامتيازات ..»

تكمل هذه السطور الساخرة سطوراً أخرى مشفرة لابد وأنها «دوخت» السادة موظفى «المكتب الأسود» .. ولكن فيما عدا هذه العبثيات البسيطة فإن سلوك جاك – جوزيف وأخيه الأصغر كان سلوك المواطنين المنتظمين . استغرقت الرحلة الخطرة إلى موطن الرأس الفترة المقررة لها . فقد أمضيا أسبوعين ليقطعا المائة وخمسين فرسخا التى تفصل جرونوبل وفيجاك مع الأخذ فى الاعتبار الالتفافات التى أضطروا أن يسلكوها فوصلوا إلى هدفهم في ٢ إبريل ١٨١٦ .

ما وجداه هناك هل كان سجناً أم مأوى ؟ هل كانا فى رحلة ابتعاد تسمح بتقييم الأمور ؟ هل سيواجهان مسئولين من نوعية الرباعى المتعصب الذي عانيا منه فى الإيزار : مونليفو وباستار ودوناديو وپينا ؟ هل سيجابهان فى اللوت عصابة سوداء أخرى «كازينو» أخر وهما نجلا تاجر الكتب الجاكوبى ؟

قط ! تشير المستندات الرسمية المتعلقة بهذه المرحلة الفريدة والتى يمكن مراجعتها كما تشير مراسلات «المنفيين» أن سلطات اللوت التى سلما لها بدأت بشىء من الريبة والتخوف – إذ لابد وأن يكونا من المشاغبين الخطرين جداً ما داما يعاملان على هذه الصورة – ولكن سرعان ما أبدت نحوهما تفهما ذكياً واستبدلت بالمضايقات والإزعاجات التى تعرضا لها على يد سلطات جرونوبل الجديدة مودة حقيقية جديرة باهل جاسكونيا* .

---

* الجاسكونيون مشهورون بأنهم يميلون للمباهاة والمغامرة ولكنهم أيضا يتصرفون بذكاء وبراعة . وأصبحت الصفة جاسكونى تطلق على شخصية لها هذه الصفات .

أصبح مصير آل شامبوليون بين شخصيتين : الكونت دولوزى مارنيزيا – محافظ اللوت والبارون دو كامبانني – مساعده في فيجاك . لانعلم الكثير عنهما إلا أن ما نعرفه يشير إلى أنهما تصرفا كأناس محترمين يهمهم السلام الاجتماعى ولايبحثون عن عمليات إنتقامية . ويكفى قراءة تقاريرهما للتأكد من ذلك :

فى ٣٠ مارس ١٨١٦ عندما إستلم المحافظ لوزى مارينزيا رسالة من باستار يطلب منه فيها أن يضع هذين الشخصين تحت رقابة [...] قانونية» فإنه كتب إلى مساعده فى فيجاك يطلب منه إفادته عن جميع التفاصيل المتعلقة بهذين المنفيين ويسأله إذا كانت هناك خطورة في أن يدخل القادمان فى علاقات «مع بعض الرؤوس السيئة فى المدينة» ولكنه يضيف فى الوقت ذاته مذكراً أنه إذا كان من الواجب الحفاظ على «الأمن العام بوسائل تتسم بالعقل وبعد النظر» فإنه من الواجب أيضا «المساس بأقل قدر ممكن بحقوق المواطنين» و «الابتعاد عن أى إجراء متشدد لا لزوم له»

يقول مساعد المحافظ كامبانى في رده «أن هذين الشخصين هما نجلا تاجر كتب صغير أصله من جرونوبل» وأن «الأخ الأكبر قد حصل على مركز مرموق لنفسه وآخر لأخيه بعد أن تزوج هناك زواجاً جيداً» ولما كان الأثنان غريبين تماما بالنسبة لسكان فيجاك بعد غيابهما الطويل عن أعينهم فإن إقامتهما فى هذه المدينة لا تمثل «أى خطر».

ويستطرد مسيو دو كامبانى قائلا «بدأ لى السيدان شامبوليون فى غاية التأثر من الاجراء الذى أتخذ حيالهما [...] قد ترون أن تلبى رغبتهما الملحة ألا يعلم العامة أى شىء عن سبب وجودهما فى فيجاك لقد أشاعا أنهما هنا فى إجازة [..] إنهما يتعهدان بالبقاء الدائم وسط عائلتهما وألا يقابلا سوى الأشخاص المعروفين بولائهم للقضية العادلة [..] يبدو طلبهما مقبولا بالنسبة لى [..] من جهتى سأعمل على عدم استخدام الوسائل التى قد تجرح شعورهما..»

قام مساعد المحافظ بالطبع وبصفته ممثلا جيدا للسلطة العامة بمصادرة جوازيهما غير أن هذه المذكرة تعطى فكرة عما ستكون عليه علاقاته بجاك – جوزيف وجان – فرنسوا. إذ ستتطور من حالتها الطيبة هذه إلى نوع عن الصداقة وخاصة مع الأخ الأكبر ولعلنا نستشعر تدخله فى تحرير المذكرة السابقة وخاصة فيما يتعلق «بالقضية العادلة» و«عدم جرح شعورهما» . ليس واضحا إذا كان «صغير» قد عمل بقوه على نسيان أنه ضحية إنتقام المتطرفين . لكنه التزم برغبة أخيه ، صديق رجال السلطة ورجل الأوسمة والأصول وغير الميال للعب دور الشهيد ..

لذلك فإن السلطة التى خلطت عن خطأ فى جمعها الرجل شبه الرسمى بالثائر ، عادت – وهى تمارس على يد رجال عاقلين مثل لوزيه – مارنيزيا وكامباني إلى التمييز بين الذى لاينتظر سوى العودة إلى رضا «العصر» عنه والذى لايجد غضاضة فى وضعه كضحية بطش السلطة المكروهة .

الواقع أن مواقف الشقيقين ستتباين بعد قليل فيما يتعلق بالإطار الذى يمضيان فيه مدة «نفيهما» لم يتوقف جاك – جوزيف عن الإحساس بأنه منبوذ ومهان فى موطنه على حين لم يلبث أن اكتشف شيئا من السحر فى هذه المناطق النائية . لقد سبق وأن اكتشفنا أن جاك – جوزيف من فئران المدينة وأن جان – فرنسوا فأر حقول ..

بشائر الخير النسبى التى بدأت معها فترة الإقامة الإجبارية فى فيجاك كادت أن تتحول إلى فال شؤم بالنسبة للشقيقين بسبب حدث أثار اضطرابا كبيرا في جرونوبل والدوفينية كله بعد وصولهما إلى الكارسى بفترة قصيرة : هذا الحدث هو ما عرف «بمؤامرة ديدييه» .

فى ٤ مايو ١٨١٦ قامت أربع مجموعات مشكلة كل واحدة منها من مائة فرد تقريبا بعضهم من الجنود المسرحين والبعض الآخر من الفلاحين السكارى قدموا من جريزيفودان والوازان من طريق فيزيل وايبانس – قاموا بالهجوم على جرونوبل وحاولوا الاستيلاء على المدينة وكان على رأسهم وقام بتجنيدهم جان – بول ديدييه المدير السابق لمدرسة حقوق جرونوبل وكانت آراؤه السياسية تتردد بين الليبرالية والثورة المضادة والأهم من ذلك أنه كان رجل أعمال ديونه كثيرة للغاية ومستعد للقيام بأى عمل ينقذه من الإفلاس . كاد إهمال وعدم بصيرة الجنرال دوناديو أن يتسببا فى أن تتغلب عليه هذه المغامرة الغبية .

لصالح من كان يعمل ديدييه وعصاباته ؟ نابوليون الثانى ؟ إنتشرت الإشاعات تؤكد أن المتآمرين كانوا على يقين من أن ابن الإمبراطور (ملك روما)* أو الإمبراطورة كان فى انتظارهم فى المدينة ، أو لعل الأمير أوجان دو بوهاريه** كان معسكراً فى

* كان فى الخامسة فقط فى ذلك الوقت فقد ولد فى ١٨١١ [المترجم] .

** ابن زوجه الإمبراطور الأولى جوزيفين – عينه نابوليون نائباً لابنه نابوليون الثانى ملك روما [المترجم]

الجبال .. ترددت إشاعات أخرى تقول إن دوق دورليان الذى أصبح فيما بعد الملك لوى – فيليب – أو الأمير دورانج هما اللذان كان يعمل لحسابهما ديدييه .

بالنسبة لآخرين كانت عملية استفزازية من تدبير فوشيه (وزير الداخلية فى عصر نابوليون) .

كان من الطبيعى أن يؤكد البعض أن الأوساط الليبرالية والبونابارتية فى جرونوبل كانت ضليعة في العملية إلا أن شارل رونودون إبن العمدة السابق الذى كان على رأس هذا التيار السياسى وصديق جان فرنسوا شامبوليون الحميم تمكن من أن يثبت أنه قد رفض المشاركة فى هذه المغامرة كما أنه منع أصدقاءه من التورط فيها . علاوة على أن سمعة ديدييه في الأوساط الليبرالية الجرونوبلوزية كان مشكوكا فيها جدا وأنه جند الرجال من المدن المجاورة فيزيل ولامور وايبانس ومن الأرياف .

جاء القمع دمويا : أعدم ثمانية عشر متآمرا (من بينهم ولد فى الخامسة عشرة) رميا بالرصاص فى ساحة المدينة قبل أن يتم القبض على ديدييه الذى فر إلى سافوا وترحيله ومحاكمته محاكمة سريعة وقطع رقبته على الجيبوتين فى ميدان جرونات في العاشر من يونيو وأدى هذا القمع إلى الدفع بالمدينة فى أحضان المعارضة المريرة لاسرة بوربون . إذا كانت جرونوبل تفتخر بأنها عبرت مرحلة الثورة دون إراقه دماء ابتداءً من الاجتمعات التى مهدت لها فى ڤيزيل (١٧٨٨) فى المائة يوم . فأعتبرت هذا القمع الدموى «إهانة» لها(1) .

على الرغم من نفيهما من جرونوبل منذ ستة أسابيع عندما إندلعت العملية فقد كان للشقيقين أصدقاء كثيرين من أعداء النظام حتى يشكك في ضلوعهم بطريقة أو أخرى مع المتآمرين أضف إلى ذلك أن ديدييه كانت له علاقات عمل مع بيريا – سان برى أخى زوجه فيجاك . وكان هذا يكفى لكى تتوجه شكوك الرباعى الرهيب فى قمعه نحوهما .

غير أن مونليفو ذاته اضطر إلى أن يصرف النظر عن أى ملاحقة لهما وكتب إلى وزير الشرطة :

«على الرغم من أن ميول الشقيقين شامبوليون تدفع بسهولة إلى الاعتقاد بأنهما لم يكونا بعيدين عن القلاقل الأخيرة فى جرونوبل إلا أنه لايتوفر لدى ولاخطاب واحد

ولأى محرر من السيد شامبوليون الكبير له علاقة بالموضوع ؛ يوجد خطاب واحد من الأخ الأصغر كتب باسلوب غامض قد يدفع إلى بعض الشكوك إلا أنها شكوك واهية وهى أيضا صعبة التفسير بقدر ما يسهل نفيها» .

خطاب من «صغير» ؟ لم يكن الكونت دومونليفو يجهل شيئا بالطبع عن مراسلات جان - فرنسوا مع أصدقائه فى جرونوبل فهو كان يدقق فيها تدقيقا بواسطة موظفية .

ولما كان جان فرنسوا على علم تام بهذه الوسائل التفتيشيه فقد إنتهزها فرصة لكى يفصح عن رايه للرقباء . مثال ذلك فى هذا الخطاب المؤرخ ٢٥ إبراهيم ١٨١٦ بعد ثلاثة أسابيع من وصوله إلى كارسى* ، المرسل إلى صديقه أوجوستان تيفونى :

«يجب عدم تفسير صمتى على حساب قلبى . لولا الشرطة الموقرة التي تعتقد أن من واجبها أن تراقب مراسلاتى لكتبت لك أكثر مما أفعل الآن . وعلى الرغم من أن خطاباتى لاتحتوى على شيء يمكن أن يثير حفيظة أكثر الفنانين حساسية [...] ولايعلم هؤلاء السادة أن لدى الأصدقاء آلاف الأشياء التى يودون تبادلها ويعتقدون أن أى مراسلة مستمرة تعنى «خطة» أو «مؤامرة**» لا أعرف [...] إذا كانت عيونهم عيون صقر أو حتى دجاجة*** ويمكنها أن تقرأ مضمون هذه الرسالة عبر ورقها فإن من دواعى سرورى أن يجدوا هنا تعبيرى الصادق عن عمق إزدرائى ولى الشرف أن أكون - المطيع جدا والمتواضع جدا [لم يكتب قلمه شيئا بعد اكون] .

بعد بضعة شهور أى فى نهاية ١٨١٦ فضل شامبوليون ، بدلاً من تحويل خطاباته إلى تحد دائم للرقباء ، أن يجعلها تمر فى سرية عن طريق محام اسمه ماتر لوبينى من مدينة ڤيلفرانش .. دو روروارج . على بعد أربعين كيلو متر من فيجاك الذى أصبح «صندوق بريد» لحلال الألغاز الذى أصبحت كتابته مشفرة ...

هل حدث قبيل سفر الشقيقين شامبوليون أو منذ سفرهما أن طُلب منهما أن يعلنا «خضوعهما» ليتفاديان أمر النفى ؟ كتب محافظ الإيزار فى إحدى رسائلة لوزير الشرطة أن «إبعاد» الشقيقين «كان له تأثير عظيم على مؤيديهم» وأن «اثنين من كبار المتعاطفين معهما - جاء اليعلنا خضوعهما ومعهما المحامى بواسونية - خشية أن يلقون المصير ذاته» .

---

* قبل عملية ديدييه ببضعة أيام

** السطر موضوع فى النص الأصلى تحت الكلمتين

*** فى النص الفرنسى Becasse أو فرخة الأرض وأسمها الشعبى هو Solte أو غبية (المترجم) .

وقد علم «صغير» بذلك فضحك كثيرا على ذلك وكتب خطابا آخر لتافينة :

«إن الاعتدال الذي عبر عنه بواسونيه* منذ ٩٢ وفى الفيدرالية عام ١٨١٥ يستحق هذه الخدمة بدلاً من الروح الثورية والتعطش للدماء والعنف المتطرف التى هى أراء صديقك ، مناضل الثورة القديم الجاكوبيين في جرونوبل كما يعلم الجميع .

على الرغم من أن النظام الذى فرض على صديقينا المنفيين قد أصبح انسانيا جداً بفضل مسيو دو كامبانى فإن عميد كلية آداب جرونوبل السابق كان يتحمل وضعه «ليس سجيناً ولكن...» بشكل سيء للغاية جعله يقوم بعدة محاولات فى كافة الاتجاهات ليخرج من هذا الوضع .

أعد ابنه إيميه فى كتابه «الشقيقان شامبوليون» قائمة (ص١٦١) بالخطابات التى أرسلها جاك - جوزيف إلى الحكومة (٢٣ مارس و ٤ إبريل و ١٦ سبتمبر) وإلى محافظ الإيزار لكى يرفع عنه العزل . كما أنه يذكر المخاطبات التى أرسلها محافظ اللوت لنفس الغرض إلى وزير الداخلية (لينيه) والشرطة (يوكان) وكان قد تأثر مع الوقت بالأسباب التى يقدمها شامبوليون - فيجاك . وكان صديقه الوفى دوجيه يساند كل ذلك فى مكاتب الوزراء .

تجمعت هذه الأسباب فى خطاب وجد وسط أوراق الأسرة وهو موجه لأحد الأشخاص المذكورين :

« .. السيدان شامبوليون لايزالان من الشباب وهما يكرسان وقتهما كله للدراسات الجادة [..] يكادان لايختلطان بأحد** إذ كان يجعلان من إختصارهما عن العالم تعوّد ضرورى [...] هل لانهما إنتزعا من عاداتهما هدفهما بصورة مؤقتة - لبضعه أيام*** بسبب أحداث لايصدقها عقل ، أصبحا فجأة رئيسا حزب كان موجوداً قبل أن يولدا وعلى الرغم من بعدهما التام عن الفضائع الرهيبة فهل يمكن أن يحرضا على ترك النظام وعدم احترام الأشخاص والممتلكات؟»

---

* كان المحامى بواسونيه منذ أكثر من عشرين عاماً أحد زعماء التيار الجمهورى فى محافظة الايزار الاكثر نضالا .

** شامبوليون فيجاك الألمعى يتعامل هنا مع الحقيقة على هواه ..

*** مائه يوم على العموم ...

كله حرير هذا الجاك - جوزيف ، يلتف ويتمايل ...

باختصار فإن المدرسين الشقيقين وإن كانا يعاملان باعتدال من سلطات محافظة اللوت ، معاملة تحولت مع الوقت إلى تعاطف ، فقد استمرا على هذا الحال مهمشين لعدة شهور وكان أن استخدما كل موهبة لديهما وكل سحرهما (بالإضافة إلى التعاطف الذى أحيطابه وخاصة فى الوسط العائلى) لكى تتبدد الرقابة عليهما وتتبخر المخاوف منهما وأن تعود الأمور إلى طبيعتها .

من المعتقد أيضا أنه لم يتجمدا فى موقف من اليأس طويل الأمد بل إنهما بدءا يؤمنان بقرب الرجوع السريع إلى رضاء السلطات عنهما بعد أقل من ستة شهور من إقامتهما فى مدينة مسقط رأسهما . فى ٢٠ سبتمبر ١٨١٦ كتب جان فرنسوا إلى تيفوينه .

«يبدو أن حل الملك للجمعية الوطنية ينبىء بحدوث تغيير سعيد فى توجه الأحداث . سيحصل المتطرفون على كل شىء وصاحبك قد يكون على حق . فهو يعتمد اعتماداً كبيرًا على الروح الدستورية الحقيقية إلى تحرك الوزارة* ، التى ستسرع برفع الظلم وتصحيح الأخطاء التى ارتكبت باسمها [...] يبدوا أن الوزير الذي حل مكان فوربيه سيأخذ توجها آخر ، فهو إذ يرى أن قضية المتطرفين أصبحت خاسرة يتوقف عن إنتهاج عن سياسة التساهل الزائد التى كان يعاملهم بها ....]»

ويكمل صغير خطابه بما نقل إيه من أن مونليفو لايعارض عودة الشقيقين إلي جرونوبل إذا كانت عودتهما لن يكون لها تأثير كبير على الرأي العام فى وضعه الحالى .. أن «تمتعهم بكل هذا التأثير فى جرونوبل كان نقمة عليهما وكذلك كل هذا العدد من الناس المتمسكين بهم» ومع ذلك فإذا «طلب رأية فإنه سيكتب تقريراً يؤيد فيه بالتأكيد طلبهم..»

الأسرة ... !! عندما عادا فى أبريل إلى منزل حارة لابود وسكورى حيث أمضيا السنوات الأولى من حياتهما : الأول حتى السابعة عندما وضع فى رعاية «لاكاتينو» والآخر حتى سفرة إلى جرونوبل وهو فى العاشرة ، لم يجد جاك - جوزيف وجان - فرنسوا سوى والدهما وأختيهما . كانت الأم قد توفيت منذ عشر سنوات تقريبا . يترونى تزوجت من أحد الحرفيين من المنطقة - أما يتريز التى تدير المكتبة أو بالأحرى ما تبقى منها ومارى التى ترعى المنزل .

---

* وزارة ريسوليد - دوكاز

تيريز كانت فى الثانية والأربعين وتعنست وستبقى هكذا ومارى وكنيتها «ميون» وهى فى الرابعة والثلاثين : هى أيضا لن تتزوج ولعل كان ذلك بسبب أن ليس لها مهرا* أو «ضطة» . إنها المفضلة لدى جان - فرنسوا الذي يصغرها بخمس سنوات وقد وجدت فى «على» ما يعوضها عنه . لاشك أن الجو العاطفى الذى كان سائداً قديماً عاد إلى الظهور فوراً بين «صغير» وأختيه إذ كانتا تدللانه جداً لأنه طفل المعجزة حلتا فى كثير من الأحيان مكان والدتهما فى العناية به لذا بعد أسبوع من وصوله كتب جان - فرنسوا يقول لتيفونيه :

«وجدت أسرتى متشوقة لرؤيتى من جديد بالقدر الذى كنت أتمناه . سعادتى كانت ستكون مكتملة تماماً لولا أنى تركت أشياء كثيرة ورائى هناك [...] أنا دو بنى حتى النخاع بدت لى فيجاك كبلد جديد ..»

لكن هناك الوالد .... جاك شامبليون تاجر الكتب المتجول الدوفينى فتوة سوق بوكار المرح . زوج السيدة العليلة جان - فرنسواز جاليو التى سمحت له ضطها بشراء الدكان ، رجل الشرطة فى ١٧٩٣ ، الرجل الذي يودع أحد أولاده فى حضانة سيدة غريبة عن الأسرة ويدع الآخر يترك المنزل وهو في العاشرة إلى مدينة بعيدة - هذا الرجل لم يعد - وقد بلغ الثانية والسبعين - سوى صورة كاريكاتورية لما كان عليه وهو كاريكاتور زاعق ومثير للمشاكل .

إنه يعاقر الخمر بكثرة . هل يعود ذلك إلى أنه يريد مواساة نفسه عما آلت إليه المكتبة ؟ أم أن العكس هو الصحيح وأن مكتبته بدأت تنهار بسبب سكره ؟ بعض المؤرخين المتعاطفين يقولون إنه «ترك نفسه يسير وراء أصدقاء السوء» ، حسنا . الواقع هو أن الرجل الذى قابله الشقيقان لدى عودتهما كان منهارا جسدياً وساحباً أسرته وراءه فى طريق الإفلاس التام .

هل فاجأهما هذا الوضع ؟ سبق أن أتيحت لنا فرصه الحديث عن العلاقة الغريبة بين المكتبى وإبنيه . أى أب آخر كان سيذهب لتحيتهما فى لحظات مجدهما عند إفتتاح جامعة جرونوبل أو عندما رقى الابن الأكبر إلى مركز عميد الكلية . فبالنسبة لرجل كانت حياته كلها مكرسة للكتب والتجارة فيها ، كم هو منعش ومفرح أن يرى إبنيه الأول وهو بعد فى الثلاثين والآخر فى الثامنة عشر وهما يرتديان زى الاستاذية الجامعى :

* فى معظم بلاد الغرب العروس هى التى تأتى بالمهر . (المترجم)

خصوصا أن بائع الكتب الجوال السابق لم يكن قد فقد ميله للسفريات إذ كان لايزال يواظب على السفر كل عام فى شهر يوليو إلى بوكار ليتزود بالكتب . فإذا هو لم يحضر للقاء ولديه عند وصولهما لقمة النجاح فى موطن رأسه فى الدوفينيه فلابد أن سبب ذلك إما كان عائداً إلى قرار بوليس يمنعه من الحضور (ولكن الأوامر كانت فى تلك الحقبة تتغير باستمرار حسب الظروف السياسية ثورة ، بونابارت ، آل بوربون ...) أو إلى أن مستقبل إبنيه كان يهمه بقدر اهتمامه بالقنينة المحبة وسيدات اللوت صاحبات السمعة السيئة .

الواقع هو أن العلاقات بين الأستاذين والعجوز سائت جداً ولم يكن جان - فرنسوا يناديه سوى بـ«الريس» - وهو تعبير لاينم أبداً عن حب ابن لأبيه .. وقد يكون هذا هو السبب الذى ترجع له حالة الاكتئاب العميق التى انتابت الأخ الأكبر لعدة شهور والأخ الأصغر لعدة أسابيع من اقامتهما فى فيجاك .

علاوة على ذلك فهناك أسباب أخرى كانت تجعل الشقيقين يعتبان على والدهما ، غير الإفراط في شرب الخمر وما يسببه ذلك من آثار على الشخصية كانت هناك أسباب أخرى أهمها أنهم كانوا مفلسين تماماً وليس معنى ذلك أنهما كانا يضعان أمالهما (بالنسبة لجان - فرنسوا على الأقل) فى الميراث ، ولكن مستقبل شقيقتيهما العوانس هو الذى أصبح فجأة فى مهب الريح بسبب فسق الوالد العجوز - خلفية كيئبة لحياة ضاعفت الظروف السياسية المتقلبة من وطأتها الثقيلة أصلا .

فلنحاول تصور هذه الحياة التى تجمع ستة أفراد (منهم «على» الصغير) داخل المنزل بحارة لابود وسكورى الذى لاتعرف الشمس طريقه ولا حتى الدور فوق الأرضى منه حيث تقيم العائلة ، ونتصور أيضا الحالة المزرية التى وصل إليها المكان بسبب مالية الوالد ولنتصور أيضا حالة المكتبة التى تبعد عن المنزل ببضعة عشرات من الأمتار فى الساحة القريبة والتى هرب منها زبائنها بسبب الرجل السكير . كانت تريز بالطبع تحسن استقبالهم .. ولكن هل كان جاك يقوم باللازم نحو امداد المكتبة بالكتب ؟

كم كان الوضع الجديد يعتبر سقوطا رهيبا بعد ما عرفاه من حفاوة بهما فى المجتمع الجرونوبلوازى : الليلة عنه فوريه ثم عند بيرييه أو اسره رونولدون ، أو عند ال مارسيو أو تيسار . كم كان وضعهما الان مريرا ! عبر جاك - جوزيف عن ذلك كثيرا في خطاباته لزوجته والتى ينتهى أحدها بهذه الكلمات اليائسة «... لا تجدى هنا بعد

جهد جهيد أربعة أو خمسة أفراد يمكن تبادل حديث عاقل معهم [...] الدقائق هنا تمر كالأيام والأيام كالشهور والشهور كالقرون ..»

نفس النغمة تجدها فى البداية لدى جان - فرنسوا . إكتشفنا خطاباً وجهه لتيڤونى مؤرخاً في الأول من مايو يوضح ذلك تماماً : «.. أمضى وقتى هنا بحزن شديد .. أتثائب وأسب طوال النهار [...] لا أعرف متى سأتمكن من رؤية جبالنا الجميلة مرة أخرى ، لم أتصورها فى حياتى جميلة بهذا الشكل ..»

ماذا ؟ لا أصدقاء ؟ هل بقوا جميعاً فى جرونوبل أو فى باريس مثل دوجيه ؟ لنستمع إلى هذا الغندور الخارج من إحدى روايات ستندال .

«... شباب مدينتنا - مثلما هو الحال فى كل البلاد الخصبة التى لاتوجد بها صناعات محلية - لايهتمون سوى بالخيل واللعب ويمايسمى* الجنس اللطيف [...] لايوجد مجتمع - إن هولاء الشياطين من أصحاب الآراء السياسية يفككون أوصال الصالونات تماما ..»

هذا من كان يكتبه طوال الشهور الأولى من إقامته في اللوت وفى نهاية الربيع . إلا أن النغمة ستتغير . ومع الأخذ فى الاعتبار الجو العائلى الثقيل على نفسه سنجد شامبوليون الصغير يتفتح كالزهرة فى مسقط رأسه - هذه المدينة الصغيرة - بعد أن مسه الجو النقى بحيويته وبعد أن أضفى وجود شخص كريم بجانبه إشراقة لنفسه ، نراه يفكر فى روزين (ولعلها زادت سحرا مع البعد) ويستعيد دوره الحيوى كمنشط للحركة الفكرية ومحط أنظار الصالونات وهو الدور الذي كان يؤديه طوال السنوات الثلاث أو الأربع التى قضاها قبل الآن فى محيط جوزيف فورييه .

وجود كريم ؟ سبق أن ذكرنا بعض مقتطفات من خطاب أرسله إلى صديقه العزيز أو جوستان تيفونيه يتكلم له فيه «صغير» عن «ماما الجميلة والحبيبة في فيجاك» .

لم يكن هذا تلميحاً عابراً منه إذ يضيف «صغير» «انه كابن مطيع «يحترمها» قد قَبِل مبررات هذه «الأم» خاصة وأن تدخلها كان يستوجب تقديرا أكبر لأن دفاعها كان «لصالح رجل يتسلى كما تعلم بالقيام بأعمال تضايقها وهى فى ثبات عميق» . وفى نهاية الخطاب وبعد أن أوضح له كيفية إرسال خطاباته عن طريق مدينة فيلفرانش يقول

---

* تحفظ مرحلى جداً .

جان – فرنسوا لتوڤينية : «هذه فكرة أخرى من أفكار ماما . أنظر كم هى طيبة وكم نحن مدينون لها» .

بعد ذلك بعدة أشهر فى ٦ مايو ١٨١٦ نقرأ ما يلى من خطاب مرسل لتيڤنيه أيضا : «إن سفر أخى هزنى جداً : كما أن هذه الأم الطبيعية والعظيمة التى كلمتك عنها عدة مرات سافرت هي أيضا إلى الريف . أنا إذن وحيد ..»

من هى هذه «الوالدة الكريمة» التى يكن لها هذه البنوة العاطفية ؟ بعد وفاة جان – فرانسواز بعشر سنوات والتى كان يضايقها وهى نائمة هل هى إحدى شقيقاته ؟ نشك جداً فى ذلك هل هى إحدى المرضعات القاطنة فى حارة لابودوسكورى / إن الدفاع عن صديق مذنب يدفع إلى الاعتقاد بأنها إمرأة متعلمة هل هى إحدى الجارات ؟ تتعدد الإفتراضات ..

هناك افتراض أخر سنرى فيما بعد* عند الحديث عن الأزمة المالية التى ستواجهها الأسرة والتى سيتعامل معها بشجاعة صديقنا المكتشف . إنه حصل على مساعدة سخية جداً من «الأصدقاء الحقيقيين» آل جانسيون . ومن جانبه يذكر صاحب كتاب «الشقيقان شامبليون» أن هذين الزوجين ذوى النفوذ الكبير والثروة الضخمة (الزوج سيصبح عمدة فيجاك** فيما بعد) قد أحسنا إستقبال المنفيين . كانت مدام جانسيون (إسمها قبل الزواج كان مارى دو فلوران) فى السادسة والأربعين فهل هى هذه الأم التى تكرر كلام جان فرنسوا عنها*** .

سنكتشف مع استمرار مطالعتنا لمراسلات المكتشف وجود سيدة إسمها آديل سيقول عنها لأخيه أن تعلقه بها يوازى تعلقه به . وهو ما يؤكد درجة من الإرتباط ليست هينة كما يؤكد بحثه عن الأم وهو بمثابة إحدى العلامات المميزة والمؤثرة فى حياة هذا الرجل ذى الأحاسيس المحبطة .

هذا الرجل الذى لم يذكر ولا مرة واحدة عبر مراسلاته المليئة بالحياة والعواطف أمه المذكورة فى شهادة ميلاده التى لم يرها قط منذ أن تركها وهو فى العاشرة ، نراه الان بعد أن تخطى الخامسة والعشرين وفى فى خضم أعتى العواصف السياسية

---

* انظر ص 300

** من عام ١٨١٧ حتى ١٨٢٥

*** حصلنا على هذه الإشارة الكريمه من مدام سيمون فواساك .

واقعا تحت الحاح مستمر لموضوع الأم . الواقع أن حياة جان – فرنسوا هذا الإنسان العاطفى والإنفعالى والذى سبب له حرمانه من الأم آلاما مؤكده . هذه الحياة قد تغيرت بسبب هذه «الأم الموجودة فى فيجاك» .

بعد أن انتزعه هذا الظهور العاطفى فى حياته من الحزن ، وجد جان – فرنسوا الوقت اللازم للتفكير فى الأنسة التى كان قد طلب يدها . وكان الأب بلان غير ميال كما رأينا لأن يلبى له هذا الطلب كما أن نفى العريس لم يكن من الأمور التى كانت تجعله يغير رأيه : مدرس مفلس وثورى مندفع وفوق كل ذلك منبوذ ! كل ذلك ما كان ليقنع عاقلا ..

مع ذلك الشاب لم يستسلم . كتب لصديقه جيمس بوزى « .. كلمتنى عن روايتى . لا أعرف إذا كان الأب ب . قد سحب كلمته [...] إن هذا لايؤثر فىّ كثيرا لأنه متقلب المزاج [...] كما أن للقمر أوجه متعدده كذلك الحال بالنسبة لحمايا القادم» حما المستقبل ؟ بعد ؟ هكذا هم الشباب ! طبعا !! إذا كنت فى طريقك إلى اكتشاف اللغة القدسية لأقدم شعب فى التاريخ فإنك لا تأبه كثيراً بالتقلبات المزاجية لصاحب مصنع صغير .

وحتى يحين زمن الجد فلنفكر فى فى روزين ونتكلم عن روزين مع تيفونيه بالطبع فى ٢٥ أبريل ١٨١٦

«وصلنى الآن خطابك يا عزيزى الصغير ووصلنى فى اليوم ذاته واحد من (روزينتى) أن القدر الذى بليت به أصبح أكثر إحتمالا مادمت أحصل على مواساة الحب والصداقة»

الأمر إذن لم يعد نفخة عاطفية قصيرة فقط . وبعد عام كامل يعبر لصديقه ذاته فى إحدى رسائله أنه يهنىء نفسه لما يلقاه من «حب كهذا من جانب صديقة حقيقية حنونة» ...

بالنسبة للمنفىّ فإن الحب والصداقة لايتعارضان بل يتفاعلان كما يوضح ذلك هذا الطلب الملح الذى أرسله لا وجستان :

« .. إنى أوصيك بإلحاح أن ترى أحد الأفراد كلما أمكن ذلك : إنها تحب صحبتك وأن ما يسعدنى أن أجدها تتفق معى فى ذلك ؟ حاول أن ترفه عنها قدر الإمكان

وإمنعها من أن تترك نفسها للأفكار السوداء التى تراودها كثيرا وتولها ألماً عظيما .
اخترع لها روايات* لو رأيت أن فى ذلك ما يريحها »...

مهما كانت رغبته فى أن يضمن الترفيه عن روزين فإن «صغير» لايعبر عن هذا التفكير الليبرالى المشهور عنه فى مجالات كثيرة أخرى عندما يتعلق الأمر بقراءات الفتاة . فهو لايقبل تلبية «نزوة» هاتين الفتاتين** المتمثلة فى طلبهما قراءة كتاب «لانوفال إيلووين***» عندما نقل تيفونيه رغبة الفتاتين فى أن يشترى لهما رواية روسو ، رد جان – فرنسوا ، نعم جان – فرنسوا شامبوليون !! «إن أقل ما يقال عن هذا الموضوع هو أنه غير ضرورى» ..

ويضيف صاحبنا المكتشف مؤكداً أنه إذا كانت من الممكن لإبنة العم أن تقرأ مثل هذه الرواية «لأنها باردة بطبيعتها» فإن روزين «لها عقل نشط يمتلىء بسهولة بأوهام لامعة ولها أحاسيس شاعريه قد تجد متعة زائدة عند قراءة هذه الصفحات المتوهجة من أدب روسو بما يؤذى شخصيتها [...] قد أتمكن بعد ثلاثين عاما من إعلامهم برأي [...] حتى ذلك الحين يمكنهما أن تتخيلا أنهما قرأتا الرواية وستكون النتيجة واحدة ...» .

هذه الكلمات الأخيرة عندما يكتبها رجل مثقف حر تصبح مثيرة للحيرة .. وكلمات أخرى عن «متعة زائدة» فهى تفوح منها رائحة التزمت الدينى النابع من «أصحاب الرداء الأسود» لدرجة تزكم الأنوف . بوسويه ذاته لم يكن يندد بغير ذلك لتائباته لأنهن قرأن «مسرحيات السيد راسين» . «صغير» فى دور القس أخذ الإعتراف ؟ لعلنا نواسى أنفسنا بأن نتخيل أن روزين عصت حبيبها البعيد – إلا إذا كان تيفوينه ذاته هو ...

«إحتفظ فيجاك بتراث التعليم المرح – كما يقول إيميه شامبوليون – فيجاك – وكانت صالونات عائلات ديليون وجانسيون وبراديرول وتوليبه**** .. إجتماعاتها حية وتبحث دائما عن الترفيه الجيد» . سرعان ما اكتشف الاستاذان اثناء «إجازتهما» أنه على الرغم من المظاهر الخشنة بعض الشيء ، فإن المدينة الصغيرة كانت بها ثروات

* حول «قصة » أنه فى «إجازة» فى فيجاك – على سبيل المثال .

** روزين وإبنه عمها .

*** «جولى أو لانوفال بلووين» رواية لجان – جاك روسو عنوانها الفرعى يدل أكثر على مضمونه «خطابات متبادلة بين عشيقين يقطنان مدينة صغيرة على سفح جبال الألب» (المترجم)

**** عائلة جدة الشقيقين شامبوليون .

محببة لهما : جمال المكان أولا وسحر التنزه على صفاف نهر اللوت وفي الشوارع العتيقة للمدينة القديمة التي ترجع إلي القرون الوسطي المغطاة بحجر بازالتي صغير وبسحر قاعة السوق وساحة السوق الواسعة وبقصر النقود المسمى قصر سوالي . وبالميدانين العالي والمنخفض وميدان العقل (لاريزون) .. فهل كان الإنتقال من شارع لاجران رو بجرونوبل إلى شارع الكابوسان فى فيجاك بمثابة الوقوع من عل بعد أن أصبح البارون دو كامباني يتعامل معهما كصديق أكثر من نائب المحافظ وبعد أن أصبحت الرسائل تمر عبر ڤيلفرانش ... هل مازالا يشعران بأنهما محبوسين في قفص ؟

جاك - جوزيف ، نعم - جان فرنسوا لا. مراسلات الأخ الأكبر لم تكن سوى مناشدة مطولة من أجل العودة إلي الحرية . أما رسائل الأخ الأصغر فهي تأ. لات في نزوات السحر الغريب الذي يغلف الاغتراب وعن المزايا المقارنة بين مقاطعتي ا وفينيه والكارسي وعن النساء هنا وهناك وإذا إتفقنا على أن البعد عن روزين لايمزق وجدانه بل إنه يسمح له بتجميل علاقته بها عن بعد وهي فى الواقع علاقة عقلانية أكثر منها علاقة قلوب ، وأن دخول هذه «الأم الفيجاكية» في حياته فتح له أفاقاً لم يكن قد عرفها من قبل من العطف ، فإن كل ذلك يجعلنا نتجرأ فنقول أن هذا الجان - فرنسوا وهو فى سن الخامسة والعشرين كان سعيداً ، في فيچاك على الرغم من سلوك وثورات أبيه .

سعادة متواضعة ، منكمشه ، محدودة ؟ سعادة برجوازي ريفي سعيد باللذات الصغيرة التي يجلبها الهواء النقي والغذاء الشهي ؟ هذا هو الواقع ، لم يكن هذا هو شامبوليون المواقف السامية .. إذ لايمكن أن نجد هنا عصر خوفو ولا أسرته الثامنة عشر ، ولكننا نسجل أن هذا الرجل العبقري والذي سيموت مبكرا عاش هذه الإستراحة فى مسقط رأسه بشيء من الرضا بدرجة سمحت له بأن يتخلص من حمى الاستكشاف لفترة طويلة ليهدأ قليلاً ، وأنه أنتظر سته عشر شهرا كاملا من الإقامة وسط مسرات منطقة الكارسي المتواضعة قبل أن يطلب من صديقه تيڤونيه أن يرسل له معدات وأدواته كباحث .. «هدنة» تثير الدهشة تشبه كما لو أن المارد أنتيه* الذي وطأ الأرض فى مسقط رأسه قد أسكت عبقريته المأساوية وأكتفى بممارسة الحياة ..

* مارد من الميثولوجيا اليونانيه إبن بوسييدون وجاليا إلاها البحر والأرض . وكان كلما اراد أن يشحن نفسه بالقوة وضع رجله على الأرض التى كان قد ولدبها ، خنقه هيراقليس بأن جعله معلقاً بين السماء والإرض [المترجم] .

حياة الجسد ، حياة محببة لديه – أفضل ما قاله عنها جاء فى خطابات كتبها جان – فرنسوا لصديقه جان فيسيه* فى فيجاك (بعد أن عاد إلى الدوفينيه) من نهاية ١٨١٧ حتى خريف ١٨١٨ ، فى هذه الخطابات تظهر الثمانية عشر شهرا التى قضاها فى منفاه فى صورة تلونها حياة إجتماعية باسمه للغاية . هل يعتبر ذلك من باب التجميل الذى يسببه الحنين إلى الوطن ؟ ولكن ليكون هناك إحساس بالحنين لوطن ما يجب أن يستثيره الجو مثلا أو الاقامة أو بعض الأشخاص ..

«جرونوبل في ١٧ ديسمبر ١٨١٧

ما هو رأيك فى شخصى ، يا جان قلبى في الساعة الواحدة التى هى الآن ؟ [...] ذكراك تشارك جميع الأفكار السعيدة اللذيذة والمحببة التي جلبتها معى من فيجاك [...] أجد أن جرونوبل من عدة نواحى تبعد مائة ألف فرسخ من فيجاك {...} تعرف طبعاً أن الميزان يميل بصورة طبيعية فى صالح موطن الرأس**

... إنك بجانبى أكثر مما تتخيل وأنا أقطع الطرق من شارع دى كاپوسان وميدان دولاريزون . بل لايمكن أن أكون فى ضوء القمر إلا وأراك تحرك يديك في الميدان العالى (بلاس –هوت) أو تنفعل بشدة مع خيالك العاطفى والكوميدى جداً . صدق أو لا تصدق إنى أتحسر فى أوقات كثيرة على تلك الساعات التى كان يضيعها أهالي بورجوازية فيجاك فى النوم مثل بقية الناس والتى كنا نستغلها معا فى مرح بأن نلقى بالحجارة أو بأن نطفىء فانوساً أو أن نتبع خطى أحد الأفراد أو أن نغنى أغنية إيطالية عاطفية على الرغم من مفتش الشرطة فوسار أو بأن نخرف ...

.. كلمنى قليلا عن اللعوب اللذيذة الحساسة المبهجة التى تسببت فى كل هذه الضجة وحطمت كل هذه القلوب . هل لازلت تستمع إلى صوت ضحكاتها الحلوة والعذبة ؟ لو أنى تقت يوما أن يكون لى وزيل جميل وعرف ديك فقد كان ذلك هو اليوم ، على الرغم من كثرة منافسى فإن ذلك لايهم وأمام الشدائد كن شجاعاً . كنت سأصبح مثل غيرى .

وفى إبريل ١٨١٨

«ذهبت الفرخة الجميلة تقرق على ضفاف الجارون . لابد وأن ديوك فيجاك فى نشاز

---

* إبن مسجل عقود قرية ليفيردون المجاورة وقد أصبح فيما بعد محافظ الرهونات .

** كثيرا ما سيقول عكس ذلك لأهالى جرونوبل .

وهم يغنون الآن فى غيابها ، وإذا كانت الفرخة في فيجاك منذ أن عاد الرئيس صاحب الزى الإنجليزى فلابد أنه ذهب من فوره يفرد ذيله أمامها .. هناك أشخاص يعتقدون أنهم سيعودون إلى الشباب إن هم غيروا بروكتهم . يالها من بشرية !! يجب أن يفهم فى النهاية أنه لايكفى أن يكون له عرف ولكن ما بعد ذلك هو المهم ليكون ديكا وخصوصا أن يكون ديكا جيدا . إنهم قليلون فى سننا وكم هو عددهم فى سنه ؟!» .

فى سبتمبر ١٨١٨

«...شبان فيجاك ليسوا دمثى الخلق على الرغم من إنهم لايفعلون شيئا تقريبا . إن معظهم لايريد في مجال الحب سوي الذبح والأكل دون أن يفطنوا إلى أهم الجوانب عذوبة وتشويقا فى هذا الأمر . أنى لا أطالبهم قط بأن يغرقوا فى عواطفهم فمن غير المتاح لجميع الناس أن تكون لهم عواطف وأقل من ذلك هم الذين يمكنهم إثارتها . ولكن ما أنصحهم به هو أن يبحثوا عن صحبة النساء وأن يحبوا قله منهن وأن يحترموهن جميعا وإن يعملوا على إسعاد أو قاتهن دون أن يطلبوا منهن تضحيات لايمكن ولا يجب أن يعطيها سوى القلب .. إن هم إراد أن يخرجوا من الحالة الهمجية التى يعيش فيها أو كان يعيش فيها معظمهم دون حتى أن يدرى».

تتردد فى هذه السطور أصداء روائيي وفلاسفة العصر ، وهو شيء مضحك إن صديقنا جان فرنسوا كان ذا قلب دافيء وأسنان نهاشه وقلم حى - وخاصة عندما كان يقلد بسخرية كتابات الآخرين . لقد سبق أن لاحظنا ذلك وسنلاحظه فيما بعد . مايلفت النظر من ناحية أخرى فى هذه المراسلات بين اللوت والايزار هو الاشارة المستمرة إلى الأضرار التى يتسبب فيها الجانب المتميز لرجال الدين والرقابة المتدينة و«طافئى الأنوار» كثيرا ما كان يرسمهم بقلمه الرشيق فى صورة كوز مخروطى الشكل مقلوب بحيث كان مكتشف الهيروغليفيات يستمتع باستخدام الكتابة بالصور ..

«المنبوذ» لم يتغير حتى بعد أن عادت له حقوقه ووظائفه . أفكاره ستطور وميوله الجمهورية ستتوام مع الإمتيازات التى سيحصل عليها من الملوك . وعداواته لأهل الكنيسة ستقل حدة لدى تعامله من رجال دين مرموقين -وحتى مع البابا نفسه إلا أنه سيبقى إلى النهاية عدوا «لطافيء الأنوار» والرقباء والوشاة الواشاة . كما أنه سيبقى واعيا بالا يتبرأ أبداً من أصوله المتواضعة . وقد كتب يوما عن صديق تزوج من أنسة من النبلاء :

«العامة مثلك ومثلى لم يعودوا يحتملون التكلف وادعاءات من يسمون أنفسهم نبلاء . إننا إذا رضينا بأن نزعن لسخرة فهى فقط تلك التى يفرضها الحب لأن هذا الأمير سيظل دائما يتحكم فينا كمستبد شرعى . ولن تكون أنت ولا أنا الذين سينقضون سيادته المستحقة . وعلى العموم فإن الحب مولانا وسيدنا له جانب جيد جداً : أنه لايعير اهتماما بالمخطوطات القديمة .

(الأستاذ وعالم الآثار هو الذى يتكلم ..)

«والحب مولانا وسيدنا» – ها هو جان – فرنسوا كله شباب وطلاقة لسان محتفى به وسط أبناء وبنات فيجاك يبدو أسعد المنبوذين . سنجده عند سيدة إسمها مدام سارت وذلك فى فبراير ١٨١٧ يقيم محكمة للكياسة ويتهم فيها رواية آتالا* «بالسخف» والشهداء «باللزوجة» ويعلن أن «إمبراطورية – سينار فى خطر» ويصدر بناءً على ذلك قرارا بالتعبئة العامة» في حضور مجلس للتجنيد تكون الرغبة فى إثارة الاعجاب هى التى توجهه ، وذلك بسبب غياب الفكر» ..

يبدو أن الكياسة تكشف أحيانا عن أكثر من الرغبة فى البريق داخل المجتمع . سيدة أسمها أديل كانتالوب آثارت فيه أكثر من الرغبة في كتابة الشعر . وهو خلال إحدى جلسات محاكمات لعبة الصالونات قد حكم على «ماد موازيل أديل» بألا «تزداد جمالا» (مع أن ذلك من المستحيلات) ولكن عليها أن تحتفظ بالمزايا التى حبتها بها الطبيعة فإن ذلك يدفع إلى الاعتقاد بأن هذا القول قد يكون نوعاً من الاعتراف . هناك عدة مؤشرات على وجود من كانت تسمي «أديل» فى هذه الفترة من حياته .. ولكن قد تكون أديلا أخرى . توجد بين أيدينا قصيدة هجاء (!) ضد مدام آديل حـ . وهى على ما يبدو موجهة لسيدة أخرى .

أما هذه القصيدة الغزلية القصيرة فهى على العكس ، نوع من الهزل ألفها جان – فرنسوا على شرف إحدى بنات فيجاك :

«إلى الآنسة هيبى برو

« بقيت بقربنا لبعض من الوقت

فإذا بكل شيء لرؤياك ينعم بالهناء

---

* رواية لشاتوبريان (المترجم)

وعواجيزنا للشباب تعود قلوبهم تدق

كم يخسر الغافلون عن رؤية محياك ! »

حسنا ! كنا نعرف منذ فترة طويلة أن جان – فرنسوا شامبوليون لم يكن رونسار . إلا أننا كنا نود لو أنه تمكن من محاكاة الشعراء الحقيقيين . كما أننا ذكرنا أيضا أنه يكون أفضل من ذلك فى الهجاء !

أثناء وجوده فى فيجاك كتب شامبوليون الصغير بعض الكتيبات السياسة مثل «الدستور حوار بين الملك المسيحى – جدا والتركي الأعظم» و«نزول بيرتران إلى الجحيم» وتحت عنوان «أوريست فى الجحيم» كتب هجاءًا مسرحياً ينتقد فيه ضباط ذلك العصر[2] » .

تقول هيرمينى هارتلوبان التى نشرت بعض مقتطفات منها أنه كتب على عجل بعض الدراسات : «الرجال كما هم» ينم عن تشاؤم بدائى «العناية الإلهية والقدر والحظ» يعالج فيها الأخير بأفضل من سابقيه وحرية الإختيار وهو مديح مختصر لقوة الإرادة لم يكن رونسار ولاكانت بل كان عليه أن يصبح شامبوليون .

انتهت مرحلة اللهو . وقبل أن يعود إلى قاموسه وكتابه فى قواعد اللغة القبطية (فقد أتاح له رفض اللجنة لها في يوليو ١٨١٥ الوقت لكى يثريه ويصححه) وإلى مشروعه الكبير فى فك أسرار اللغز الهيروغليفى وجد جان – فرنسوا نفسه مدعوا إلى مهمة ذات ثلاثة أوجه : مساعدة أخيه فى تفنيد الإفتراءات التى إستهدفت أمين مكتبة جرونوبل (أى هو نفسه) والمشاركة فى الإبحاث فى الآثار المحلية التى يقوم بها جاك – جوزيف وأن يدفع إلى الأمام فى مقاطعة اللوت بالتعليم المشترك وهو فكرة جديدة من اختراع أخيه الذكى والمتحرك جاك – جوزيف .

الإشاعات سرت فى جرونوبل («إذا أردت أن تعدم كلبك...*) لم تتعلق بخطر الشقيقين على «الهدوء العام» ولكنها طالت شرف الأخ الأكبر إذ أن الإتهامات التى بدأت توجه له بصورة غير مباشرة ثم أكدتها عدة رسائل تحمل معان غامض تحولت مع الوقت إلى اتهامات صريحة كتبها أوجوست دوكوان خلفه فى إدارة المكتبه بأنه باع أو تبادل كتباً مسجلة فى قوائم المكتبة – مخطوطات وغيرها – مع صديق جارييل** .

---

* مثل فرنسى بقيته هى «شبه عنه أن مصاب بالجرب (المترجم) .

** راجع الفصل الثانى .

لم يتهمه أحد مباشرة بأنه قام بهذه العمليات لمصلحته الخاصة ولكنه تأثر بميوله الخاصة وتصرف دون الرجوع إلى مجلس إدارة المكتبة .

وجد شارل – أوليفيه كاربونال رسائل من جاربيل خاصة بأوراق المفكر السويسرى ونشتاين لاتدع مجالاً للشك فى وجود تبادلات (هل كانت مفاوضات أم عمليات بيع وشراء) وهويعتبر أنها «تدين» المكتبى[3] . كلمة الإدانه هنا تعتبر قاسية . كان جاك – جوزيف إنساناً نشطاً يداخل بين مسئولياته المختلفة . وبين أعماله ومبادراته . ولذلك فإنه من غير المستبعد أن يكون ولعه بالكتب قد أثر بالسلب فى قراراته لدرجة جعلته يخلط بين عملياته الشخصية وتلك المتعلقة بوظائفة . ولايذهب أحد إلى أبعد من ذلك . لم يصدر ضده أى قرار إدانة . فى وقت كان العميد السابق يعامل فيه بفظاظه – ولكنه عزل من مناصبه . وقد شعر باهانة كبيرة كانت لها بالطبع آثارها على أخيه الأصغر .

تظاهر جان – فرنسوا بأنه لايرى فى هذه العملية سوى مؤامرة من بعض الطموحين الحسودين وكتب إلى أوجوستان تيفونيه فى ١١ مايو ١٨١٦ يقول :

«ماذا تقولون فى جرونوبل عن الكواسر الجائعة التى تتصارع على وظيفة المكتبة ؟ إن هؤلاء السادة يفقدون عقولهم خاصة عند إصابتهم **«بحمى البحث عن وظيفة»***
[...] لكى تتمكن من الصعود يجب عليك الزحف على بطنك هذا هو المثل السائد هذه الإيام [...] دوكوان الكبير الذى يؤهله الرأى العام لكى يخلفنا بعد حين [...] يعمل ويكد ليثبت مقدماً ولاحقا [...] ما سبق أن كررته لك وهو أن أدنأ البشر وأكثر الأوغاد إثارة للإشمئزاز هم من يطلق عليهم اسم الادباء ....» .

هل لتحويل الأنظار بعيداً عنه أن قام جاك – جوزيف إبتداءاً من يونيو ١٨١٦ بمساعدة اخيه بمشروعه الجديد ؟ لقد خصص شهوراً طويلة من وقته للتنقيب عن الآثار فى موقع أوكسيلودونوم . هو آخر معاقل الغال التى وقع فى يد قيصر الذى وصف بنفسه الحدث فى الكتاب الثامن من «التعليقات» . كان من الواضح أن الموقع يقع فى منطقة كارسى . ولكن أين ؟ في كاهور ؟ فى فيراك فى لوزاش ؟ أم فى كابدوناك هذه القرية المطلة على فيجاك .

---

* التأكيد فى النص الأصلى

إذا كان «المنقبان» قد شرعا فى عمليتهما فذلك لايرجع فقط إلى محاولة نسيان مكتبتهما العزيزة ولكن جاء تنفيذا لطلب ملح من المحافظ الكونت دولوزيه – مارنيزيا المولع بالآثار القديمة ودراستها والذي أراد بهذه الطريقة أن يسجل أنه ليس من الذين لايعرفون ويقدرون زميلا مشهوراً مثل شامبوليون فيجاك صديق ميلان ومراسل مجلس «المخزن الإنسيكلوبيدى» والعضو المنتسب لأكاديمية الآداب .

مستندا إلى النصوص اللاتينية التى فى يده كشف العميد السابق بجامعة جرونوبل بالقرب من كابدوناك Capdenac بقايا أوان رومانية . وبما أمكنه من إستدلاله منها تعرف على مختلف البيانات الطوبوغرافية التى جاءت فى وصف المنتصرين للمكان . ومنها برزخ يصل بين «القلعة » والهضبة المجاورة ونهر صغير ونقطة مياه وهو ما يشرح السبب الذي جعل المقاومة تطول . ويقول جاك – جوزيف في كتابه* الدليل أقيم . على حد قوله أن كابديناك بنيت بالفعل على موقع أوكسيلودونوم . وبذلك نجح فى تأكيد شعبيته وسط أهل فيجاك .

وجاء فى تعقيب جان ليترون على هذا المؤلف أنه «لايعرف سوى عدد قليل من العلماء تمكنوا – فى مجال الجغرافيا القديمة – من معالجة (مسائلها) بمثل هذه الحصافة وحلها بمثل هذه الثقة » .

كيف اشترك الشقيقان فى الحملة من أجل التعليم التعاونى المسمي «بالمدرسة اللانكاستريه» كانا –كلاهما– معلمين ذوى موهبة فذة** ، الأول كان مربياً لأخيه وهو فى الثانية والعشرين والآخر أستاذا جامعيا في التاسعة عشرة. مربيا بالإضافة إلى أن المستوى العلمى المتقدم الذي وصلا إليه كان بأن علما أنفسهما بأنفسهما وكان ذلك كافيا لكيلا يقدسا أسلوب الأستاذية التقليدى . كل ما هو متعلق بنقل المعرفة كان يدخل في نطاق إهتمامهما : وكما كان أخوه معلمه الأول – بين كالمالز ودوسار – أخذ جان – فرنسوا على عاتقه تعليم «على» إبن أخيه ولساعات طوال منذ أن بلغ السن الذى يمكنه فيه أن يتعلم .

---

* الأبحاث الجديدة عن المدينة الغالية أوكسيللو دونوم التى حاصرها يوليوس قيصر (نشر فى باريس عام ١٨٢٠ وحاز على جائز الاسنتيتو l'Institut»

** نسبة إلى منشئها فى إنجلترا جوزيف لانكاستر .

فى باريس خلال المائة يوم إنشغل جاك - جوزيف بين مشاغل أخرى عديدة إلى المشاركة فى أعمال «لجنة إصلاح التعليم الابتدائى» التى شكلها كارنو وزير الداخلية حينئاك . أنيط هذا الجهاز بعد ذلك بأدم جومار . المسئول الأول عن كتاب وصف مصر . وكانت علاقته بفيجاك وثيقة جدا وكان قد إكتشف خلال إقامته فى لندن التعليم «اللانكستيرى» والمتمثل فى أن تجعل الأولاد الأكثر تقدماً يعلمون زملائهم بوسطة أدوات ملائمة .

كان بعض أعضاء الطبقة الأرستوقراطية المستنبرين أمثال البارون دووجيراندو والكونت دو لاستيرى ومسيو دو لابورد هم الذين اقترحوا فى الأول من مارس ١٨١٥ (يوم نزول نابوليون على شاطىء خليج - جوان) إنشاء جميعة للتعليم الأولى . وما أن عين كارنو وزيرالداخلية إلا وأخذ الفكره لحسابه . صدر فى ١٧ إبريل مرسوم بانشاء «لجنة التعليم التعاونى» والتي تولاها جومار فيما بعد مع وجيراند ولاستيرى ولابورد وچـ ح ب ساى . أول الدروس بدأ فى ١٣ يونيو ١٨١٥ بالمقر الكائن فى ٦ شارع جان - دو - بوفيه - ثم وقعت واترلو بعد ذلك بأيام الا أن ذلك لم يؤثر على المؤسسة الجديدة .

بعد ذلك بأربعة شهور تقريبا فى ٨ أكتوبر ١٨١٥ كتب جومار لجاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك . الذي كان مشاركا فى الأعمال الأولى للجنة والذى انحسب بعد ذلك بهدوء إلى جرونوبل - يدعوه للمساهمة فى المشروع إينما كان محل اقامته وكانت هذه هى الفترة التى كان الأمل يراود فيها الشقيقين فى تفادى ضربات «طافىء الأنوار» . بعد ذلك فى عام ١٨١٦ عندما أعطيت دفعة جديدة للتعليم التعاونى - على الرغم من معارضة المتطرفيين علي يد روابيه - كولار وزير التعليم العام عهد إلى المحافظين بمهمة تشجيع المبادرات الخاصة بذلك فى محافظاتهم . وكان منهم لوزيه - مارنيزيا فى اللوت .

ولما لم تكفى حفريات أوكسيللودونوم فى شغل أيام جاك - جوزيف - وجان - فرنسوا بالكامل فقد انطلقا فى الوقت ذاته فى محاولة إدخال طريقة التعليم الحديث فى مقاطعة كارسى وبما أنهما كانا مهمشين فقد كان ذلك أفضل وضع لهما للدخول فى هذا المجال الهامشى .

الشيء الغريب هو أن الطريقة اللانكاسترية دخلت فرنسا فى الوقت الذى كان فيه منشؤها فى صراع مع سلطات بلاده مما إضطره أن ينفى نفسه إلى كندا عام ١٨١٨ حيث توفى بعد عشرين عاماً مفلساً ومنسياً . غير أن أفكاره استمرت فى طريقها بعد

أن كانت أخذت مشعل مبادرات مماثلة فى نفس هذا الاتجاه قبل ذلك بثلاثين عاماً قام بها جوزيف هيربو فى باريس .

يوجد مستند يشهد على الحماس الذى إستجاب به أهل فيجاك تشجيع باريس لهم فى هذا الموضوع . فى ٦ إبريل ١٨١٧ كتب مساعد المحافظ البارون دو كامبانى إلى المحافظ لوزيه مارنيزيا يفيده أن «جميع المجهودات تبذل فى فيجاك من أجل تنمية طريقة تعليم لانكاستر وذلك بفضل بعض السكان الذي تبرعوا من أجل مصلحة الطبقة الأقل يسرا» . إلا أن مشاركة خاصة من وزارة الداخلية (من ٨ إلى ٩٠٠٠ فرنك) ستساعد على تخطي بعض المقاومة الراجعة إلى بعض الاعتبارت الخاصة ..»

لم يأتى ذكر الشقيقين شامبوليون خاصة وأن جاك – جوزيف كان قد غادر فيجاك قبل بضعة أسابيع ، ولكن لايمكن أن نشك فى أن الانطلاقة التى اتخذها التعليم التعاونى فى مدينة كارسى الصغيرة والتى كان بها عدد من الفصول يفوق عددها في عاصمة المحافظة كاهور يرجع إلى الدينامية المستنيرة لنجلىّ صاحب مكتبه الميدان الأسفل .

سفر جاك – جوزيف لباريس أوقف إندفاع المشروع إلى الأمام على الرغم من أن جان – فرنسوا وقد أصبح وحده فى الميدان – جعل مدرسة التعليم التعاونى تستمر فى عملها باخلاص أشاد به الجميع .

فى ٣٠ أبريل ١٨١٧ كتب يقول لأخيه أنه نجح فى أن ينتزع من الوزير «٦٠٠ فرنكا للمدرسة الانكاسترية» كما أنه حصل على وعد بأربعمائه فرنكا لعام ١٨١٨ وتبعيين متخصص فى هذا النوع من التعليم .

وفى ٥ يونيو كتب لجاك – جوزيف :

«نحن في انتظار المدرب لطريقة لانكاستر وسنجعله يبدأ فوراً . وأنا أفكر فى حضور محاضراته »

ثم فى ٣ يوليو :

«لم يبدأ المدرب بعد دروسه الأولية ولا حتى ألف باء : الدكك غير جاهزه إلا أنه يأمل فى أن يبدأ فى ١٥ الحالى . لقد استلم الصندوق الخاص بالأقلام والألواح والطباشير . المحافظ شاسه مهتم إهتماما بالغا بانتشار الطريقة .

ومدرسة فيجاك يحتفى بها فى جميع المحافظات المجاورة . وقد سارع محافظ التارن بمراسلة زميله في اللوت يقول له أنه يفكر فى إرسال متدرب إلى فيجاك

(سيقيم فى المدرسة العامة) ليتعلم الطريقة وينقلها إلى ضفاف التارن . بل يتردد أيضا أن الأميرون سوف تقرر (مع مرور القرون) ذلك أيضا . لاداعى بالطبع أن أقول أن كل رؤساء المؤسسة* فى المدينة يعارضون بكل قوتهم لانكاستر ، مؤكدين – وعلى الأخص الراهب – أن الطريقة سيئة للغاية . وهم ليسوا وحدهم .... »

وأخيرا في ١١ أغسطس : «المدرسة للانكاسترية بها الان ٤٠ تلميذاً» ، وقد عثرنا على عدة اعترافات بالتقدير من الذين اكملوا المشوار وقد اعترفوا بريادة الشقيقين فى إدخال هذه الطريقة التعليمية فى كارسى وسنكتشف بعد قليل أن مشاركة المكتشف فى هذا النوع من التعليم قد إكتملت فى الدوفنية وترعرعت .

كان جان فرنسوا قد عمل لعدة شهور وبدقة تثيرا الإعجاب فى تأليف كتاب للقواعد سهل ومزين باللوح في نفس الوقت** وكانت يقول الأحد أصدقائه فى جرونوبل في نوفمبر ١٨١٦ أنه جرب مع إبن اخيه «على» طريقه جديدة يمكن تطبيقها على أولاد أخرين . لاشك أن هذه الطريقة فى نقل المعرفة دون الاعتماد علي هيكل الأستاذية والتى تسوى بين التلاميذ والتى تعتمد على الوسائل التوضيحية – هى التى استفاد منها على يديه عددا كبيرا» من أبناء جرونوبل مثل أبناء أسر تيسار ومونبيه وبيران ورومان وأخرين حسبما قال إيميه أحد من أبناء أخيه .

وصل الأخ الأكبر فى نهاية الأمر إلى هدفه بعد تسعة شهور من المحاولات والإجراءات والتظلمات والدفوع . وهو إذا كان مغتاباً ومحسوداً في جرونوبل ففى باريس كان يتمتع بشبكة من الأصدقاء وأشخاص مدينين له بخدمات وزملاء أثبتوا تضامنهم معه في محنته . أقدم أصدقائه الوفى دوجيه أدى الدور الأساسى للمطيباتى إذ كان يلقى ترحيبا متعاطفا ومتفتحاً إينما ذهب .

فى كل مكان ؟ كلا ... لقد سبق أن ذكرنا تعليقاته المستاءه من موقف الباورن

---

* المؤسسة الدينية ... بالطبع .

** نسخه من الكتاب سلمت لمدام أديل لازالت محفوظة حتى الآن .

دوسـاسى – المتطرف وسط المتطرفين الذى صـده دون أى حيـاء حين جـاء يطلب منه خدمه لصالح زميل كان من تلاميذه . تعليق «صغير» :

«أما «الرابين*» فلا تخفض من قيمة نفسك وتذهب لمقابلته إنه رجل يعرف أوضـاعنا وإذا كـان لديه شىء من المروءة لكان ضـحى بكل الأفكار الصـغيـرة ليـجعل هذه الأوضاع أقل قسوة . إلا أنه لم يحاول . إنه طرطوف لو كان يساوى لكرهته . إنى لا أنكر مـاله مـن موهبـة وعلم رفيـع . إلا إنه بدون روح وهو بذلك ليس رجـلاً وإنما هو كتاب متحرك» .

جاء سلوك الصديق السابق جان سان – مارتان بالمثل مخيباً للآمال إذ تحول إلى الحزب «الأسود» وتعامل معهما معاملة معتنقى الدين الجدد بطريقة جافه للغاية ، فى حين تعامل رجل مثل لوى لانجلاس وكاتروماار دوكانسى (الذين كانا متشددين للغاية فى السابق مع جان – فرنسوا) باهتمام ورعاية .

خلافا للمساعدات التى حصل عليها الشقيقان القادمان من فيجاك من حلفاء قدماء لهما مثل ميلان ودابيه وفوريه** بل وجومار أيضا*** ومن علماء تعاطفوا معهما مؤخراً مثل أراجو وكوفييه . فقد إستفادا من تطور عام للأراء التى اتجهت من الإرهاب الأبيض نحو الليبرالية الحذره التى سيجسدها دوكاز .

هذا الأخير هو الذى وقع وهو مـازال وزيراً للشرطة قبل أن يرأس الوزارة على القرار المؤرخ فى ٢ نوفمبر ١٨١٦ الذى يسمح «للسيد شامبوليون الكبير [...] أن يعود إلى جرونوبل للإقامة بها تحت مراقبة مفتش الشرطة العام [...] أما بالنسبة للسيد شامبوليون الصغير فإنى أترك لمحافظ الإيزار حرية إعادته إذا لم يجد ضررا من وراء ذلك .

لابد وأن هذا «الضرر» كان موجودا بما أن جان – فرنسوا استمر لفترة طويلة

---

* دأب جان فرانسوا على إطلاق كنية «الجيزويت» أو «الرابين» أى رجل الدين اليهودى على البارون سيلفاستر دو ساى (المترجم) .

** فوربيه تصالح مع الشقيقين شامپوليون بعد المرحلة التى تلت «المائة يوم» أى بعد عودة نابوليون إلى المنفى .

*** سيختلف مع الشقيقين بعد ذلك بعشرة أعوام .

لايتمتع بسعة صدر السلطات وقد كتب لصديقه تيڤونيه :

«يا له من رقى ساحر ذلك الذى عاملنى به الكونت دو مونليڤو [...] لو أنه تصرف بعكس ما فعل وأرجعنا معاً كانت حقوقه علىّ من إمتنان وعرفان بالجميل أثقلت كاهلى : يوجد من الناس نوع لاتريد أن تدين له بشيء» .

فى ١٤ يناير ١٨١٧ أرسل إلى محافظ اللوت «قرار المجلس الملكى» الذى ينص على أن «السيد جان - فرنسوا شامبوليون قد أعفى من الرقابة التى كانت مفروضة عليه فى فيجاك» .. إلا أن «الرباعى الجهنمى» الجرونوبلوازى أستمر فى عناده إلى أن وصلت إلى لوزيه - مارنيزيا (محافظ اللوت) وكان لايكف عن الدفاع عن الشقيقين شامبوليون من كاهور ولكنه كان يصدم بإستمرار بعناد زميله فى الايزار ، مذكرة تذكر مرة أخرى «وان الرقابة التى كانت مفروضة على السيدين شامبوليون فى مدينة فيجاك قد رفعت بطريقة مطلقة وهما أحرار تماما يذهبو إلى حيث يريدون» المذكرة مؤرخة فى ١٢ مارس* ١٨١٧ .

هذه المرة وجد «كازينو» جرونوبل نفسه يتلقى الإستنكار والتوبيخ . القرار الجديد يشمل الشقيقين ولايفرض عليهما ضرورة الإقامة فى جرونوبل ليوضعا تحت رقابة باستار وبينا وهو ما كان يريد جاك - جوزيف أن يتحاشاه بأى شكل بعد ما لقاه من تصرفات تثير الاشمئزاز من السلطات ومن زملاءه في مقاطعة الدوفينيه . وقد كان مصمما على قطع علاقاته بالمدينة التى نجح فيها نجاحاً مبهرا فى الفترة من الثورة (برومار) حتى واترلو (هزيمة بابوليون) .

عندما غادر جاك - جوزيف مدينة فيجاك فى بداية إبريل ١٨١٧ إتجه إلى باريس حيث حصل هناك على جواز سفر . ولم يمنحه إياه البارون دوكامبانى دون أن يرسل إلى دوشاسيمو الذي حل محل لوزيه - مارنيزيا محافظ اللوت مذكرة يقول فيها أن «شامبوليون الأصغر سيبقى بعض الوقت فى فيجاك حيث يقيم مع والده» ثم يضيف مساعد المحافظ «الشقيقان شامبوليون طوال فترة إقامتهما فى فيجاك كان سلوكهما لا غبار عليه [...] إنهما يتمتعان هنا بالتقدير والاحترام بفضل مواهبهما وعلمهما .

* القريب أن التاريخ الموضوع فى المذكرة هو ١٨١٥ إلا أن كافة المستندات الموجوده بالملف تشير إلى أن التاريخ الصحيح هو ١٨١٧ .

فضل جان فرنسوا أن يمد إقامته فى فيجاك لأسباب مختلفة . كانت معاملة أسياد جرونوبل الجدد أسوأ من ألا تجعله يشارك أخاه إزدارئة لما أسماه « أثينا الدوفينيه » وإن كان بدرجة أقل ولفترة أقصر حيث عرفا أولى ساعات مجدهما . إن باريس لاتمثل أى إغراء بالنسبة له : مازالت ذاكرته تحتفظ بصورة كلها مرارة « لعاصمة فرنسا القذرة » وللمؤامرات التى تحاك على ساحتها . إنه يحب بالفعل المدينة المتواضعة التى ولد فيها والتى عاش فيها عاما هادئاً . ثم إنه لايريد أن يتخلف عن مسئولياته فى التعليم التعاونى . وكانت الشئون العائلية على درجة من السوء تستدعى أن يتولاها أحد . ولما كان جاك – جوزيف غير قادر على أن يبقى ساكنا لحظة واحدة ، ثم أنه يرفض أن يبقى لفترة أطول فقد قرر وضع وزر هذا الواجب كله على أكتاف « **صغير** » .

« الرئيس يقوم بضجة جهنمية !» هذا ماكان يفضى جان – فرنسوا به لأقرباءه بعد أن كان يضيق بتصرفات نوبات هياج والده . وكانوا جميعا . على علم بتجاوزات « العجوز غير المحترم » ؛ كانت فيجاك قد تعودت على صراخ هؤلاء السكارى الذين يجوبون شوارعها فى المساء بين شارع دى كابو سان وميدان لا ريزون ... الأب كارامازوف !

ياليت الأمر قد اقتصر على الضجة الليلية ! استدان الرجل ثمانية ألف فرنك . ولما لم تعد المكتبة تدر دخلا يذكر وكان زملاؤه فى السكر من المقرضين رجال أعمال لايرحمون أخذ يبيع ممتلكاته الواحدة تلو الأخرى : الكرمة * ثم الحديقة والأثاث وإذا استمرت الامور هكذا فإنها ستطول أيضا الدكان ومن بعده المنزل أيضا وإذا لم يفعل أحد شيئا فإن أختى جان فرانسوا تيريز ومارى سيكون مصيرهما إلى الملجأ .. لخص جان – فرانسوا الموقف لأخيه فى خطاب بتاريخ ١٣ مايو ١٨١٧ بعد أسابيع قليلة من سفره المتسرع :

« ... كُنتُ متعجلا وصول أخبارك بقلق شديد على أمل أن تحدد لى فى خطابك الخط الذى يجب اتباعه حتى نتفادى رؤيه المحضرين وهم يغزون المنزل . وقد حدث بسبب الرجل الذى جعلته السماء للأسف أباً لنا وبسببك أنت أيضا بقدر قليل ..

---

* التى كان قد اشتراها أبان الثورة الفرنسية ضمن « الممتلكات الوطنية » .

... لقد قدر لى أنــا الــذى لايفقه شيئا فى الأعمال أن أتحمل كل خيبة الأمل وقرفها . لم أجد طريقة أخرى لمنع بيع الأثاث سوى أن أتعهد بدفع ٣٠٠ فرنك فى البداية يوم الأحد القادم ثم كل شهر حتى استيفاء الدين . مخططى هو أن أسحب حوالة بستمائه فرنك على أوجوستان * كان قد عرضها على عند سفرى . لم أعش فى حياتى أياما أفظع من اليومين المــاضيين . أحملك جزءاً منها لأنك سافرت دون أن تحل هذه المشكلة وكان أسرع هذه الحلول هو الحجر ** على « الرئيس » . الذى سلك سلوكا شنيعا معى خلال ما حدث ... مدام جانسيون عادت تلح علىّ وكدت أن أقع فى خلاف معها ومع زوجها لأننى رفضت قبول المبلغ الذى عرضاه بطريقة كلها رقة عندما علما بنبأ الكارثة .. يالهما من صديقين حقيقيين . كنت تخالهما يطلبان منى خدمة فى حين أنهما لايمكن أن يقدما لى خدمه أكثر نفعا لنا من تلك . »

فى ١٧ مايو كتب جان فرنسوا إلى أوجوستان تيفونيه :

« ها أنا أجد نفسى يا عزيزى الصغير ، مضطراً الآن لقبول ما سبق أن رفضته (..) يوم سفرى إلى المنفى . ها أنا أجد نفسى – جزئيا بسبب أخى الذى تركنى وسط مشاكل عائلية معقدة فى حيرة ملحة . (...) أعطيت حوالة بمبلغ ٧٠١ فرنك تسحب من موسيو بريزون دوليون *** وأرسلت إليه حوالة بنفس المبلغ مسحوبة عليك (...) وبذلك ياصغيرى تكون أنت الذى سيتحمل نفقات الحرب ... »

الديون الأكثر إلحاحا تم تسديدها . « أخيرا وجدت المــال اللازم لتفادى الأحداث المؤلة التى أعدها لنا الرئيس ... » وابتعد خطر توقيع الحجز علينا . لم يصدق الرجل العجوز نفسه : « فم الرئيس يقطر عسلا ولبناً ... » هذا ما سجله جان فرنسوا . ولكن لم تمتد سعادته طويلا إذ ما أن طالبه ابنه بأن يبذل جهداً من جانبه لسداد الدين الخاص بصديقه ديلكو أكبر الدائنين إلا وتظاهر أنه لايسمع شيئا . وقد وصلت درجة سخط «صغيرو» من « أنانية ودناءة » العجوز أن كتب فى ٢٦ مايو ١٨١٧ « طالما أنه يأكل فهو لايهتم بشئ . إن ذلك يدفعنى فى مرات عديدة إلى غضب شديد لا أعرف ما سأفعله له . رجل من هذه النوعية يعتبر أدنا من الوحوش ...) هذا هو أبوه .. وليست له أم ! .

---

* تيفونيه .

** إجراء قانونى بإعلان شخص غير مؤهل القيام بزى عمل تجارى أو تبادلى .. .

*** على صلة قرابة بعائلة بيريا .

فى النهاية كانت الخسائر خطيرة لدرجة لاتسمح لجان فرنسوا أن يحلها بواسطة سلفة بسيطة . إنه لن يتمكن من الحفاظ على مصالح أختيه فى المنزل والمكتبة دون أن يتنازل عن حقه فى الميراث * ويقول ببساطة : « لن يبق لهما مع ذلك شئ يذكر .»

وماذا عن مصر ؟ هل نسيها وهو على ضفاف اللوت بين قصائد الغزل والحجوزات ؟ كلا . وهو إذا كان قد بقى لشهور طويلة دون أن يعمل فى المشروع الأصلى الكبير : فك الشفرة - وإذا كانت مستنداته قد بقت فى جرونوبل فهو لم يتوقف عن العمل فى قاموس وقواعد اللغة القبطية . وكان قد حمل معه المخطوطين الكبيرين فى سنة الهجرة ** ، ١٨١٦ ، ومهما كان مجروحاً من رفض وانتقادات ساسى فى أغسطس ١٨١٥ فهو من الذكاء لدرجة تجعله يأخذ فى الاعتبار الاعتراضات والملحوظات التى سجلها عليه « الربين » فى جبنه . كتب لأوجستان تيفونيه ما يلى :

« أستمر فى أعمالى الأدبية بحماس قوى . قواعد اللغة المصرية *** أنتهيت منه تقريبا والقاموس الكبير أخذ أبعادا تليق فى حالتها الراهنة بالذى يؤلفه . كل يوم يزداد الكتاب تخانة ومؤلفه يسير فى الاتجاه العكسى .. »

« سيصل عدد صفحات هذا القاموس إلى الألف ويتعداها عن قريب وهو ينوى أن يعود « بمولوده » هنا إلى جرونوبل على هيئة أربع أجزاء من حجم الكوارتو .

فيما يتعلق بمشروع لغز الهيروغليفية نفسه سنجده متحفظا ومشدودا فترة طويلة كما لو أن البعد عن جرونوبل منفياً منها كان بمثابة حكم بالابتعاد عن الدراسات المصرية القديمة . هل أصيب بنوع من العمى عنها أو التحريم عن دراستها وهو بعيد عن المدينة التى أقام فيها من ١٨٠٧ بأبحاثه ونشر فيها أولى نصوصه المتعلقة بوادى النيل ؟

بعد بضعه أسابيع من سفر أخيه وصل من لندن عدد من مجلة مانثلى ريفيو Monthly Review منشور بها عرض لكتاب « **مصر فى عهد الفراعنة** » وهو الكتاب الذى نشر قبل ثلاثة أعوام فى باريس . خلافاً لما فعله دو ساسى كان الناقد الانجليزى مؤيداً له لدرجة دفعت «صغير» أن يقول على الفور لجاك جوزيف :

---

* جاك - جوزيف سيتخذ نفس القرار .

** هجرة Hegire فى النص الأصلى (المترجم)

*** تعنى هنا قواعد القبطية التى تحدث مع نابوليون عنها وليس الكتاب الذى ظهر سبق وفاته والذى هو أحد أعماله الرئيسية

« ... قرأت مـقالى على الفور . إنه يضيف لمجدى بالقدر الذى كنت أن أتمناه . قدم كاتب المقال ساسى كما لو أنه يساندنى وكما لو كنت تلميذه الذى يشرفه جداً . لابد وأن هذا سيعجبه . هذا أفضل ! الانجليشمان لايؤاخذنى سوى على شئ واحد وهو أنى أهملت استـخدام المستندات التى أوردتها لنا الكتب المقدسـة التى هى مصادر التاريخ الحقيقية حسب قوله . ويضيف أن أراء عن هذه الكتب تبدو أنها رأى مسبقه لإنسان غير مؤمن أكثر منها عدم إنحياز منصف لفيلسوف . طبقا لهذا التقرير فإنى سأموت دون توبة خالصة . إن الأراء التوراتيه لكاتب المقال تكفى لكى أشمئز من كل الأشياء اليهودية الممكنة . إنه يؤكد بثقة تثير الإعجاب أن سيزوسترلى ليس سوى Josue (...) كل ذلك أثبت لى ماكنت اعتقده منذ فترت طويلة وهو أن الألــان أيضا الإنجليز لـم يخرجوا بعد فيما يتعلق بالمعرفة الحقة من مرحلة الحضانة ... »

سنرى أن هذه « الحضانة » ستكون خصبة ... الشئ الحقيقى هو ان الحوار بين الباحث الفرنسى ومناظريه البريطانيين إن هو قام على الأسس التى حددها مراسل المانتلى ريفيو لم يكن من الممكن أن يستمر ولكنه توماس يانج لن يلبث أن يثبت له أنه توجد فى لندن أدوات عمل أخرى غير التوراة .

يبدو أن المديح الواصل من لندن آثار لدى «صغيره» نوعا من فك العقدة . ثم إن الهدوء فى فيجاك بعد حل المشاكل العائلية المؤلمة كان يساعد على العمل الذى يتطلب دقة متناهية . لـماذا إذن لا يحضر مراجعه مهما كانت صعوبة النقل ؟ فهى ليست على كل حال مسلة ولاحتى حجر من البزالت الأسود اكتشفه الملازم بوشار بالقرب من مصب النيل .

فى ١٨ يوليو ١٨١٧ كان قد اتخذ قرار البقاء شهرين أو ثلاثة أخرين فى كارسى فلجأ مرة أخرى إلى خدمات عزيزة أوجوستان :

« .. لابد وأنك سحبت أوراقى من مكتبى ، أقصد من **مكتبى السابق** * وهى موجودة الآن لديك (...) المطلوب أن تختار منها :

(١) صورة بالحفر لكتابات مصرية ويونانية ، كبيرة وطويلة وملصوقة على قماش • . أنها **نص حجر رشيد** * .

(٢) نفس النص الهيروغليفى ملصوق **على كارتون** •

(٣) رزمة أوراق معنونة **أبجدية مصرية** • .

---

* التأكيد فى النص الأصلى .

(٤) دفتر معنون كتابات مصرية بخطوط ديموطيقية أو شعبية .

(٥) (...) نسخة مكبرة لنص رشيد . كل سطر مرقم - يوجد بها ٣٢ سطرا وتحت كل سطر توجد كلمات بالفرنسية واليونانية .

(٦) أخيرا مجلد كوارتو (...) اسمه «مخطوط رشيد » مؤلفه م . اميلهون (...) يوجد كلام يونانى * ...

طالب من تيڤونيه إن يجمع كل هذه المستندات فى « طرد مشدود الوثاق » ويوجهه لمسيو جارى مدير بريد فيجاك . الطريف أنه لم ينس أن يقترح على صديقه أن يضم داخل الطرد «مسرحياته التراجيدية » فهو لايهمل سهراته المكرسة « للتعليم المرح » لدى مساعد المحافظ ومدام سارت أو عند مدام جانسيون .

وهكذا سمحت الأشهر الثلاثة الأخيرة من النفى فى كارس لجان - فرنسوا أن يتحاور من جديد مع ألهة النيل . تزامن مع وصول المستندات المطلوبة من تيفونيه فى الأول من أغسطس زيارة قام بها له طبيب من الكانتال الدكتور رولهاك وهو واضع كتاب اسمه « منظومة ايتمولوجية عامة » يدعى فيه أنه اكتشف مفتاح يسمح بحل شفرة الحروف الهيروغليفية لم يأخذه «صغير» على محمل الجد . إلا أننا نعرف أن لاشئ ينشط عبقريته الخلاقة بقدر المحاولات المنافسة له : مع أنه ليس جدير بالثقه فإن الطبيب القادم من أورياك سيلعب دوره فى إثارة نخوة الباحث . مع عودة الطموحات العلمية داهمه إحساس بالانعزال فى فيجاك باريس ؟ إنه لايفكر فيها سوى فيما يخص جاك - جوزيف الذى أخذ يظهر فيها من جديد . راودته فكرة لبعض الوقت : السفر إلى روما المليئة بالعديد من الآثار والمخطوطات المصرية . مونسينيور دو بوسيه رجل الدين المثقف والليبرالى صاحب كتاب فينولون الذى أعجب به ستاندال كان قد رقى إلى رتبة كاردينال وكان يستعد للسفر إلى المقر البابوى فهل يمكن أن يقوم بدور سكرتير المونسينيور الذى كان فى علاقة مراسلة مستمرة ووثيقة مع أخيه طوال ثلاث سنوات ؟ .. عبر عن رغبته فى القيام بالرحلة « على حساب أمنا الطيبة الكنيسة .. » إلا أن المشروع لم ينجح .

لابد إذن من جرونوبل . لقد تغير الجو السياسى العام فيها بعد سنتين حتى قبل أن يبعدا عنها . كان مونتليڤو وباستار قد بدءا ينعطفان فى اتجاه ليبرالى أخذ يتطور ، وهو ما يكشف عن التعليمات التى كانت تصلهما وعن الشعور الشعبى العام . هل تردد

* هذا هو النص « المعتمد » للنص اليونانى لحجر رشيد .

جان – فرنسوا في العودة لكي لايضع نفسه تحت رحمتهما بسبب ما لاقاه منهما من مضايقات ؟

جاء تعيينه محافظ جديد اسمه شوبان دارنوفيل المشهور بليبراليته فى نهاية سبتمبر ١٨١٧ لتبدد جميع شكوكه حول هذه النقطة .

إلى جرونوبل نعم ولكن لعمل ماذا ؟ لم يبق جاك – جوزيف ساكناً منذ وصوله إلى باريس . تردد الحديث حول إنشاء كلية للفلسفة فى جرونوبل لإعادة كلية الآداب التى حلت فى ١٨١٦ فى شكل أخرى . كان من المفروض أن توضع الكلية الجديدة تحت رعايه الأب الدمث دوسورد الذى عين خلفاً ليال على رأس الجامعة وأن تتضمن قسما للتاريخ كان سيؤول كرسيه بالطبع إلى جان – فرنسوا. لكن كان « طافئو الأنوار » متيقظين وتوقف المشروع . واكتفى المنفى المعفى عنه بما وجده فى الدوفينيه وهو وظيفة مدرس فى المدرسة الملكية ودور المسئول عن مدرسة تعليم تعاونى على النمط الذى أنشأ عليه مدرسة فيجاك والتى ستبقى فى النهاية أهم إنجاز له خلال هذه الفترة .

فى جو مفعم بالسعادة أخذ شامبوليون الصغير يعد حقيبته وصندوق كتبه . وسافر فى ٨ أكتوبر إلى جرونوبل ويصحبته «على» الصغير تلميذه وأبن أخيه الذى كان قد بلغ الثامنة وارتبط به جداً . ذهب ليلقى زوجة أخيه زويه المرحبة به دائما بحرارة وهذه الروزين التى سيطرت على أحلامه خلال فترة أدائه لدور « الولد الشقى » لمقاطعة كارسى التى دامت ثمانية عشر شهرا .

اقترب جان – فرنسوا من عامه الثامن والعشرين . طعام اللوت الشهير – من ملبسات وفواجرا وشرية الجاريور إلخ ... – لم يفده إطلاقا فقد نقص وزنه والهواء النقى ذاته لم يجد فى أن يبعد عنه حالات الاختناق التى تنتابه ولا أزمات السعال الطويلة ولا الارتفاع المفاجئ فى درجة حرارته ، وكثيرا ما كان يضطر إلى أن يبقى ممددا إلا أن مزاجه أصبح أكثر مرونة . وإذا كان لايزال على موقفه من عدم إعطاء الجنس البشرى إعتبارا كثيرا (وخاصة الأدباء) فقد اكتشف فى فيجاك أصدقاء حقيقين مثل أسرة جانسون وأسرة جيرى وجان فيبيه . كما أنه لم يترك هذه « الأم المحبوبة والطيبة » بغير ألم .

لم ينمى شامبوليون الأصغر متاعه الايجيبتولوجى فى مدينة فيجاك فقد عاش فيها فترة من الاجترار الهادئ . ولكن بعد المطبات الهوائية العنيفة التى خاضها فى ١٨١٥ وقبل المحن الكبيرة والانتصارات الخطيرة التى ستعرفها العشرينات ، مرحلة مثمرة لاتوجد عبقرية لاتتوج توهجها لحظة سعادة .

٨ - روبيسبيير جرونوبل

استقبل كالمنتصر - شوبان دارنوقيل ، الليبرالى - دوناديوو « المضللون » - هل هم ماسونيون ؟ - جاك جوزيف ومسيوداسية . - التعليم التعاونى فى مواجهة « طافئ الأنوار » - عودة إلى الهيروغليفية - جلسة تاريخية فى أكاديمية الدوفينيه - روزين أو الزواج المريك - «الاتحاد» « وأصحاب الرداء الأسود » - فضيحة جريجوار - « يحيا الملك - يحيا الدستور » - البارون دوساز الرهيب . - استيلاء عالم آثار على الباستيي ... - غير مذنب ! - « كأس المراره الجرونوبلوازى انتهى بالنسبة لى .. »

ياله من شخص غريب الأطوار هذا السيباستيان فالكيه دو بلانتا ، نجل أحد أعيان جرونوبل . بهرته الثورة ، تطوع فى الجيش وهو فى العشرين وأصبح عقيداً وهو بعد فى الخامسة والعشرين وجنرالا فى الثلاثين ، على الرغم من أنه كان صديقا للويس شقيق القنصل الأول إلا أنه فضل أن ينفى نفسه بعد إعلان قيام الإمبراطورية ومع ذلك نجح فى أن يجعل نابوليون يعينه مفتشا لأكاديمية جرونوبل (وهو المركز الذى كان يصبو إلى شغله بشدة جاك - جوزيف شامبوليون*) ثم يناصر قضية أسرة البوربون منذ ١٨١٣ ويؤلف فى ١٨١٤ قصيدة على شرف الكونت دارتوا عنوانها **قصيدة غنائية للزنابق ضد غول كورسيكا** ويرأس محكمة جرونوبل الخاصة التى أرسلت ديدييه إلى المقصلة .

معجب متحمس للفيلسوف «كانت» وتلميذ للمربى السويسرى العظيم بستالوتزى، أنهى حياته هو فى علاقه حميمة مع (الفليسوف) چان دوبيران ... شخصيته نجحت فى أن تثير حيرة أهل زمانها بتجاوازاتها على الرغم من كثرة ما حدث فيها من شطط . وصف فى : **تاريخ حياة الدوفينيه** Biographie du Dauphiné بهذه السطور : « رجل وسيم جدا ذو فكر متعدد الجوانب أمضى حياته فى الثرثرة وفى تسويد الورق بالكتابة السطحية فى كافة المواضيع » .

إن اعتناقاته لمبادئ غير مبادئه ثم العودة عنها والتغيرات المفاجئة لأفكاره فى مختلف الاتجاهات وكذلك خطبه وحملاته ، سلطت الأضواء بشدة على پلانتا العجيب . إن حياته تلخص فى الواقع الجو الروائى الذى اتسمت به بداية ذلك القرن فى الدوفينيه

* وشغله فى البداية الأب لاكوست مرشح مناصرى الكنسية .

– أى خليط من ستاندال ولاكلـو . فى ينـاير ١٨١٧ كـتب جان فـرنسـوا – وهو مازال « منفيا » فى فيجاك ولكنه كان متيقنا أنه سيرى جرونوبل وسكانها بعد فترة قصيرة – خطاباً إلى تيڤونيه تجعل المرء يحب الواصف والموصوف :

« ... إننى لسعيد بأن أرى عزيزنا الطيب پلانتا فى صفوف الدستوريين ضد المتطرفين ، وكان الأجدر به ألا يتركهم حفاظا على شرفه ومن أجل راحتنا . إن قلب هذا الرجل يخدعه باستمرار [...] لذلك فإنى لا أفهم لماذا أنا ميال له [...] أحب أن أراه وهو يدعم المبادئ الليبرالية فإن القضية تستحق هذه الفصاحة ..

ثم يضيف «صغير» هذه الملحوظه التى تكشف الكثير عن « قلبه » ذاته وهو الذى خدعه أحيانا :*

«هنا ينتصر أصدقاء الدستور وإذا وجد عيب فهو فقط أنهم يهاجمون المتطرفين بأكثر مما ينبغى .

كنت أود كـثـيـرا أن أرى الذين كـانوا ينادون بالاعـتـدال فى ١٨١٥ و ١٨١٦ يتـصـرفون بأكـثـر من ذلك فى ١٨١٧ . لكن هذا هو حـال البـشـر يغـالون دائمـا فى استخدام السلاح الذى كانوا يخشونه قبل أن يصبح فى حوزتهم » .

كان المتوهج سيباستيان فالكيه دوق دو بلانتا المنتمى لهذه النوعية (المتطرفة / الليبرالية) الذى وقف فى ٢٠ أكتوبر ١٨١٧ خلال اجتماع لأكاديمية الدوفينيه يطالب زملائه بأن يجيبوا فوراً على ثلاثة أسئلة هى :

(١) هل يمكن تنوير الشعب ؟

(٢) هل من المفيد تنوير الشعب ؟

(٣) هل من حقه الحصول على التعليم الأولى ؟

كان من جراء هذه الدعوة أن الردود جاءت حماسية وتنزع إلى تعبئة المثقفين الدوفينيين فى موجة «تقدمية» شاركت فيها أيضا الاريستوقراطية الليبرالية المعاصرة – مثل الدوق دود وراى ، والدوق دولاروشفوكو والفيكونت دو موغورانس وكان هذا الأخير مهتما جداً بالتعليم الشعبى وهو بالمناسبة سيؤدى دوراً هاماً فيما بعد فى حياة جان – فرنسوا العملية .

---

* فى فيجاك .

كان «صغير» يعرف وهو فى العربة التى تحمله وبجواره الصغير « على » من ضفاف الرون إلى ضفاف الإيزار أنه سيلقى مدينة تم عزل العديد من متطرفيها مواقفهم السياسية تماثل موقف بلانتا . ولكن هل كان يتصور أن الأكاديمية العلمية التى تواضعت لتستمع إليه وهو لايزال مراهقا متنورا ، كانت تعد له هذا الاستقبال الاحتفائى الذى هو بمثابة قسماً يؤدى من أجل الثورة التعليمية ؟ هل كان يأمل بعد أن طرد منها على يد حكومة ريشوليو - فى استقبال حماسى فى نفس المدينة وتحت حكم الوزارة ذاتها .

فى ٢١ أكتوبر أى بعد سويعات من الخطبة الحماسية التى ألقاها سيباستيان بلانتا ، خطيب التعليم الجماعى ، استقبل أصغر الشقيقين شامبوليون وهو يهبط من العربة التى أقلته - استقبال الأبطال المنتصرين . إذ وجد نفسه كما كتب لأخيه « أحتضن ويحتفى بى من أشخاص لا أعرفهم البتة ... » الثورى الخطير فى ١٨١٦ رجل « النخب فى صحة الجمهورية » عدو « الكازينو » استقبل استقبال الابن الضال العائد الذى لم يكن التيه من اختياره ولكنه تحمل بجلد عذاب النفى .

تجمع حوله أعز أصدقائه : أوجوستان تيفونيه . وشارك رونولدون وهوج بلان وأسرة بيريا وأسرة بيريبه وأسرة نبسار والجنرال دولا سالات وساڤوا دو رولان وسابى وفرانسيه دو نانت والطبيب بيلون ... ياه !! إن « الحزب » الليبرالى استعاد حيويته منذ الوقت الذى كان يضطر فيه إلى الاختباء من القبضة الحديدية لمونليڤو وباستار ودوناديو وبينا . الأول والثانى نقلا إلى مناصب أخرى وكان الثالث على وشك الإبعاد أما الرابع فقد أوشكت فترة حكمه أن تنتهى .

غير أن الحزب « الأسود » لم يكن مستسلماً . إنه يحافظ فقط على ذخيرته هنا وفى باريس أيضا - وإذا كان نجم دوبيتا هو الذى يلمع الآن فإن بلانيللى دولا ڤالات فى انتظار أن يحل محله وإلى جواره يقف قوم مثل سيلڤى ودو بوشاج وشامبوابون . الإرهاب الأبيض توقف ، نعم ولكن قواته تقف فى صفوف الاحتياطى (للملكية ..) بل إنها تقف متأهبة .

لا يهم ؟ إن جرونوبل الذى دخلها جون فرنسوا فى هذا الشهر العاشر من عام ١٨١٧ دخولا لافتا مدينة مفتوحة . لايقف أحد على قمتها .. كل شخص فيها يمكنه إسماع صوته أو عرض أفكاره .. ولولا غياب شامبوليون - فيجاك النشط الذى ذهب يشق لنفسه طريقاً فى باريس لاعتقدنا أننا عدنا إلى الأعوام ١٨١٠ - ١٨١٥ زمن فورييه الطبيب والعزيز العجوز دوبوا - فونتانال .

يرجع هذا الانفراج فى الأساس إلى رجل واحد هو فرانسوا - شوبان دارنوفيل الذى اختاره كل من الملك ودوكاز ليحل مكان التعس المحافظ مونليڤو . أصله من نورماندى وهو من سلك القضاء وتولى مناصب رفيعة فى باريس « معتدل فى تفكيره ، مجتهد جداً فى عمله » [1].

لم يأت هذا التعيين من ضربة حظ ، ففى نهاية ١٨١٦ رأت السلطة - أو بالأحرى رئيس الوزراء دوكاز - أن عدم شعبيتها تزداد بسبب التشدد القمعى الذى يمارسه أشخاص مثل باستار ودوناديو ولذلك أرسلت إلى الإدارة العليا الخطاب الدورى التالى : « صاحب الجلالة لويس الثامن عشر يرى أن جهود الإدارة يجب أن تبذل نحو تقريب الأفكار وربطها بالحكومة » [2].

فى نفس الوقت أرسل المارشال مارمون ، دوق دوراجوز فى منطقة تضم الإيزار والدورم والرون محمل بلقب نائب الملك وكان معروفا بأنه خدم البوربون خدمة عظيمة عندما ترك الأمبراطور فى أخر مارس ١٨١٤ ، إلا أنه احتفظ بشئ من الشعبية لدى الشعب البسيط . وكانت المهمة التى كلف بها «هى إعادة السلام بهذه المناطق ومعه الهدوء والثقة » وقد أعلن مارمون فى إحدى جلسات الأكاديمية الدلفينية إعادة بعض الضباط الحالين إلى الاستيداع بنصف مرتب وكذلك العفو السياسى عن بعض الأفراد .

كانت مهمة شوبان دارنوفيل إذن هى نزع أسلحة العصابتيين أى الليبراليون العائدون لمواقفهم والمتطرفون الجامحون . لم ينجح فى مرحلة أولى سوى - كما يؤكد إيميه شامبوليون - فيجاك - « الوصول إلى نتيجه مؤسفة » وهو أنه « جعل الملكيين المتحمسين يفقدون صبرهم » [3]. أكثرهم حماسة كان دون شك الجنرال - كونت دودوناديو الذى يصف أصدقاء المحافظ الجديد بأنهم رعاع .

وكانت المصائب قد انهالت عليه وجعلته فى ثورة دائمة : فعلاوة على فقدان أصدقائه أعضاء « الكازينو » لسطوتهم حدثت له كارثة شخصية : فأثناء المحاولة الانقلابية التى قام بها ديديه فى مايو ١٨١٦ لجأ أحد قادة الانقلاب إلى منزله فى الوقت الذى كان هو يطارد أفراد المؤامرة فما كان من زوجته الكونتيسة إلا أن أوت المتمرد وأنقذته ! : وتقول الإشاعات أن هذا المتمرد لم يكن سوى أوجان دو بوهارنيه ذاته .... الوغد : وانتشرت القصة فى جميع أركان المدنية . وترتب على ذلك أن حدث ما يلى ونرويه على لسان جان - فرانسوا كما نقله لجاك - جوزيف :

« قام الجنرال دوناديو بفضيحة جديدة خلال حفل ساهر مقام فى دار المحافظة : إذ أنه رأى زوجته الجنرالة تلعب الورق على مائدة السيد المحافظ عند وصوله . فانتابته ثورة غضب وأخذ زوجته من زراعها وأعادها إلى منزلها وهى أقرب إلى الموت من الحياة فما كان من مسيو دارنوفيل إلا أن استمر بكل هدوء فى اللعب معبرا عن احتقاره لهذه الإهانة الهمجية .. إذا استمرت الأمور على هذا الحال فإننا سنشهد مبارزة بالسيوف عن قريب . »

صفحة من صفحات رواية « **الأحمر والأسود** » .. مثلما جاء أيضا فى هذه القصة التى يرويها الأب دو سورد الرئيس الليبرالى الجديد للأكاديمية فى خطاب للمحافظ :

« .. رأيت الجنرال يتوجه نحوى راكبا حصانه ويصحبه عدد من الضباط فأسرعت بوضع يدى على قبعتى لتحيته وإذ به بدلاً من رد التحية يقول لضباطه [..] بصوت عال :

« إذا فى الطريق صادفت وغداً صح عالياً : إنه صديق شوبان » (4)

هل تعدى دوناديو الحدود ؟ يتردد فى باريس أن نجمه آفل . من جان - فرانسوا إلى أخيه :

« يزداد الجنرال الجليل سعيرا من يوم لآخر . إن مقته للمحافظ وصل لدرجة أنه لم يتبق سوى خطوة واحدة قبل أن نرى المتطرفين يعملون تقتيلا فى الليبراليين . إذا حدث شر وسقط المحافظ فإنى أرى أن أى أمل فى السلام والهدوء سيكون مستحيلا . إننا نقف جميعا على الأشواك . »

وصل نبأ إزاحة دوناديو عن منصبه فى نهايه الأمر إلى جرونوبل فهو لم يكتفى بدفعه سكان جرونوبل إلى فقدان حلمهم بل ضلع فى باريس فيما أسمى « بالمؤامرة على سطح الماء * » مع شاتوبريان :

« ... كنا فى انتظار التخلص منه خلال الليل . إلا أن المسعور رأى أنه من واجبه أن يجعلهم يدفعون ثمن تجرأهم عليه وأن يكون خروجه بضجه . فعلى الرغم من سوء الجو الشديد فقد أمر بجمع الحامية العسكرية بأكملها فى ساحة السلاح [...] كان المتطرفون قد قاموا طوال الليل بلصق الإعلانات التى تحض على الثورة إلا أن

* التى استهدفت فى منتهى البساطة خطف الملك .

ذلك لم يكن له أى أثر. منذ أن غادر الرجل العظيم الجميع يضحك ويغنى دون خوف من إثارة شكوك الشرطة . لقد كنا عاقلين « فقد نصحنى المحافظ بذلك وكلفنى بأن أقول ذلك للآخرين . » .

« أن أقول ذلك للآخرين»... ! جان - فرنسوا مكلف بمهمة - أو حتى « بمهمات » من محافظ الإيزار ؟ قبل ثلاثة أشهر من عودته من « المنفى » هاهو المواطن السيئ ، الجاكوبى وقد رقى إلى مستوى الرجل الموثوق فيه من ممثل آل بوربون فى جرونوبل . لقد توطدت بينهما علاقة من نفس نوع العلاقة التى كانت تربط فورييه بشامبوليون - فيجاك قبل ذلك بعشرة أعوام مع فرق بسيط هو أن صاحب السلطة الجديد لايمكنه أن يؤثر على العالم الشاب بنفس مقدار التأثيرالذى كان لعالم الطبيعة المشهور على أخيه.

إيقاف دوناديو عن العمل فى أكتوبر ١٨١٨ وكذلك دوبينا - وإحلال المعتدلين الجنرال لودرو ديزيسار وروابيه - دولوسن محلهم - دعم موقف شوبان دارنوفيل - وبالتالى موقف « صغير » ولكنه لم يهدئ النفوس . جوقة « الكازينو » بقت على موقفها التحفز . خاصة بعد أن حصلت على مناصرة « خطيب الحروب الصليبية » الأب دو روزان الذى كان على رأس « جمعية الإرساليات » ولم يكن بعيدا عن الاعتقاد بأن وجوده فى الدوفينيه « **فى محاربه الكفار** » سنراه قريباً وهو يتحول إلى العمل .

« طافئو الأنوار » بدءوا يتحركون . وقف فى مواجهتم حزب الذين يعتبرون أنفسهم دعاة الاستنارة وأحد روادهم هو جان - فرانسوا .

هل كان على صلة بالحركة الماسونية الحرة ؟ إن موضوع علاقة الشقيقين شامبوليون بالحركة غامض جداً . ولكن من ذا الذى لايعلم أن هذه الحركة كانت - من الأب تيراسون حتى فورييه - على علاقة بكل من يمكن تسميتهم بما قبل علم المصريات (عصر ما قبل الإيجيبتولوجيا) ؟ كل شئ كان يشير إلى ارتباط الرجال المهتمين بالأبحاث الاستشراقية بالماسونية - كل شئ من أسرار الوزيس إلى اسطورة إيزيس وأوزيريس والبحث عن « النور » الشرقى ، والطقوس المعقدة المتعلقة بالدخول فى تيار الاستنارة الأوروبية من خلال فون بورن وموزار .

علاوة على ذلك فإن معظم الأصدقاء الجرونوبلوازيين للشقيقين من جوزيف فورييه ، عضو بارز فى محفل « القلوب الأمنيه » إلى شارك رونودون وابنه ، ومن هوج بيريا إلى أوجوستان تيفونيه ومن بيلون إلى فروسار إن معظم أصدقائهم ومؤيديهم وزملاء الشقيقين شامبوليون كانوا أعضاء فى الحركة الماسونية الحرة .

كل شئ كان يؤدى بهما إلى الماسونية ليس فقط للأسباب الأيديولوجية والعلمية التى ذكرناها ولكن لأن هذا الانضمام كان يلتقى وميول جاك - جوزيف الطموح وجان - فرنسوا الليبرالى . أى أين يمكن أن تجعل لك أصدقاء أقوياء ؟ وأن تقيم أفضل التحالفات ضد « طافئى الأنوار » و « المتعصبين للكنيسة » و « المتطرفين » .

إلا أن الإثباتات الدالة على انضمام أى منهما غير متوفرة وبقدر سهولة إثبات ارتباط هنرى بايل بالماسونية بقدر استحالة إيجاد مؤشر واحد فيما يتعلق بجاك - جوزيف أو جان - فرانسوا . ومع ذلك كم كان التفاخر بانتساب « رجل الأنوار » - بين كل الرجال - ضحيه القمع ومن خلال أسرار الطقوس الغامضة والمثيرة للخيال للانتساب للماسونية مرغوباً فيه من الشقيقين .

فى مذكرة أرسلها السيد / أ . بيهان إلى جان يويوت - ونشكرهما هنا هما الاثنين - والأول هو من الخبراء فى هذا المجال - يستبعد تماماً أن يكون الشقيقان قد انضما إلى الحركة الماسونية فى جرونوبل . لايذكر مسيو بير بارال شامبوليون فى مقاله : « قرن من الماسونية الجرونوبلوازية (١٧٥٠ - ١٨٥٠) » المنشور فى **كراسات التاريخ** Les Cahiers d'histoire والتى تنشرها جامعة كلارمون - فيران .[5] كان لابد أن يلفت نظره اسم شامبوليون ... مع العلم بأنه « محفل أصدقاء التسامح » تأسس فى جرونوبل فى ١٨٢٢ وهو ينتمى إلى مذهب ميسراييم . ولكنه لم يدم طويلاً وانحصر فى بعض الأعضاء المقبولين . إن تجنيد رجل كشامبوليون فى جرونوبل أو باريس أو فى غيرهما كان لابد أن يذكر بل وأن يشاد به أيضا .

فى ١٦ إبريل ١٨١٧ وصل جاك - جوزيف شامبوليون فيجاك إلى باريس وبدأ تسلقه الصبور لأسوار القلعة - العاصمة التى القوه من فوقها غداة هزيمة واترلو . لن نهمل أبداً محاولات الأخ الأكبر لأنها تدخل فى إطار الأفاق - بل أنها ترسم الأفاق ذاتها - التى ستجرى فيها مجهودات جان - فرنسوا - النهائية من أجل إيجاد حل الشفرة .

التحالفات والانفراجات والمؤامرات والهجومات المضادة وأعمال التقويض وفك الحصار ... لقد كانت هذه السنوات الخمسة من حياة شامبوليون - فيجاك (١٨١٧ - ١٨٢٢) الباريسية مثل سنوات الدعوة بالموعظات التى قضاها يوحنا المعمدان على ضفاف نهر الأردن للإعلان عن قرب قدوم المسيح . مع فارق بسيط وهو أن العميد السابق لكلية آداب جرونوبل لم يحظ بسعفات الاستشهاد ولكنه سيحصل على الفشل

ثلاث مرات وبالتالى الفشل النهائى فى الحصول على عضوية الأكاديمى فرانسيز وكان من أسباب الفشل الرئيسية فى المرتين الأخيرتين بسبب الغيرة التى أثارتها اكتشافات أخيه الأصغر .

إذا نحن اعتبرنا بداية الحملة الباريسية لجاك - جوزيف بمثابة هجوم أولى من أجل إعداد أوروبا العلمية لكى تحسن إستقبال عبقرية أخيه فأنها فى الواقع تتلخص فى انتصار ضخم وهو العلاقة الحميمة على المستويين المهنى والعاطفى التى أقامها المثقف القادم من فيجاك مع بون - جوزيف واسييه السكرتير الدائم للانستيتو قسم التاريخ والأداب القديمة* لم تكن هذه العلاقة « حب من أول نظرة » بين داسييه والمنفى إلى كارسى : فعندما قدمهما ميلان لبعض كان الرجلان يعرفان بعضهما منذ أكثر من عشر سنوات كما أن شامبوليون الكبير عضو منتسب للأنستيتو . إلا أنها كانت عملية استمالة متبادلة بين الرجلين .

لقد اتيح لنا أن نتعرف على إمكانات الشقيق الأكبر فى استثارة إعجاب وتعاطف الأخرين . وكان صديقه الجديد - داسيه - المشهور والمبجل يتمتع بنفس هذه الميزة . كان قد نشر قبل أربعين عاماً ترجمة ممتازة لكتاب **سيروبيديا** لجزينوفون (محاولة سيحاول تكرارها كل من كانت له رغبة دراسة اليونانية) وبعد ذلك لم يفعل شيئا . هذا العجوز الدمث الأخلاق الذى عبر الثورة والإمبراطورية دون أن يخطئ أو يخون ، كان يكتفى بالإعجاب بزملاءه الشباب ومساندتهم فى أبحاثهم وبالإشادة بهم بعد وفاتهم - من عقد إلى عقد - أصبح خالدا حقيقيا ** مع مرور الزمن أصبح المنظم لجنازات أعلام العلوم الفرنسية .

« مسيو دوساسى ترجم [...] مسيو لانجلاس كتب مذكرات مسيو كاترومار بعض الجمل المفيدة ، مسيو داسييه يتلاعب بالكلمات ...» بعض مما كتبه جان - فرنسوا إلى أخيه فيما بعد . هذا المتلاعب بالكلمات سيفعل الكثير لصالح المكتشف مع الأخذ فى الاعتبار أن التعاطف الواثق الذى يكنه لفيجاك كان قد بين الأمور بوضوح للرجل العجوز.

بفضل ما يتمتع به من الحضور الاجتماعى الخلاق الذى هو مزيج مقنن من الوصولية وتقديم الخدمات والعاطفة والذى يجعل منه أحد مخترعى مانسميه اليوم العلاقات العامة - « وضع جاك - جوزيف يده » على بون - جوزيف . مع إضافة تجديد شخصى جداً لاسهاماته العلمية. «هذا السكرتير الخاص » كان يكتب أهم ما جاء فى خطب المديح الأكاديمى» التى كانت تثير أو تحافظ على سمعة السكرتير الدائم : أثبت سن . أو . كاربونال بمراجعة أسلوب الكتابة نصاً وراء الأخر ، أن مشاركة الرجل

---

* الذى سيصبح أكاديمية المخطوطات والأداب .

** كل من يقبل فى الأكاديمية يسمى « خالد » [المترجم] .

العـجـوز لم تكن تتـعـدى مع مـضـى الوقت سـوى بعض « التـعـديلات الخطابيـة » وتصحيحات للنسخ (6)...

كما كان داسييه يعتمد عـلى جـاك - جوزيف فـى تنفيذ مشروع « عصره » الكبير وهو الجرد الكامل « للآثار » فى فرنسا وهو المشروع الذى حاول أن يقنع به بابوليون قبل عشر سنوات .

لكن إذا كان اجتهاد الأخ الأكبر شامبوليون قد أعطى لاستاذه العجوز خصوبة خلاقة جديدة فإن ذلك قد أثار فى نفس الوقت الريبة والأحكام المسبقة . تأثير سحر شامبوليون لم يكن فاعلاً على الجميع : لقد أثار نجاحه السريع أكثر من اللازم وتلوناته السياسية المختلفة (على الرغم من أن أحداً فى ذلك الوقت لم يكن لديه دروس يعطيها للآخر فى هذا المجال) ووضع يده بالحيلة على قبطان الباخرة الأكاديمية - أثار زوابع كثيرة مثل تلك التى أثارهما الامتياز الذى منحه الملك لدوكاز .

عندما رشح عميد كلية آداب جرنوبل السابق نفسه لأكاديمية المخطوطات فى بداية أبريل * ١٨١٨ سانده داسييه بالطبع كما أيده ليونار دو سونيرى الذى كان زميلا لأخيه فى الكولاج دو فرانس ، غير أن جان - فرسوا لم يخفى من موقعه فى جرونوبل مخاوفه : « ها أنت الآن بين أيدى السادة أصحاب الكراسى . أرجو من الله ألا يعاملوك مثلما فعلوا مع الرفيق فورييه ** أعتقد أنهم قادرون على ... » (٧ أبريل ١٨١٨) .

وضوح رؤيا نابع من الحب الحقيقى : جاك - جوزيف انهزم بواسطة الجهة المكونة من الحسودين وطافئى الأنوار وأفضل مثل لهم هو راءول روشات . هذا الدارس المغمور للغه اليونانية هاجمه بول لدى كوربيه - المعروف بأنه من الكتاب السياسيين أكثر منه لغوى والذى خسر فى انتخابات الأكاديمية هو أيضا ، هاجمه على طريقته :

« ... مسيو راءول روشات هذا المدافع الأنيق عن الكنيسة *** كان فى إمكانه أن يتعلم كأى فرد بأن يذهب إلى المدرسة إلا أنه رأى أن ذلك لن يفيده بشئ ففضل أن يمثل عن أن يتعلم . حصل على عشرة وظائف كعالم ولم يتمكن من ممارسة واحدة منها علماً بأنه حصل عليها ولم يعمل على أن يستحقها (7) » .

---

* النص الفرنسى ١٨١٧ - ولكن واضح جدا أنه خطأ مطبعى [المترجم] .

** الذى قد فشل مؤخرا فى الحصول على موافقتهم .

*** معروف من الوسط العلمى بأنه ممثل الكنيسة بينهم .

باختصار ، رفض ترشيح جاك - جوزيف * وألمه ذلك جدا . كما آلم ذلك بون - جوزيف أيضا . هذه الإهانة الموجهة لشخص من محاسيبه زادت من ترابطهما . وهو ما سيؤدى دورا رئيسيا ليس فى اكتشافات جان - فرنسوا بقدر ما ستؤديه فى الاعتراف بعبقريته . كما أن هذا الامتحان الأكاديمى ألقى الضوء الكاشف للعداوات والصداقات . فهو إذ غامر بالدخول فى ميدان مكشوف فقد تمكن فيجاك من رصد من أين تأتى الطلقات وفى أى موقع تقف الحلفاء . كانت إذن معركة كاشفة . فيما عدا داسييه إذن ، لم يكن افريق شامبليون أن ينتظر أن يأتيه العون من السادة أصحاب الكراسى ....

بينما كان الأخ الأكبر يتلقى الضربات السيئة بعد أن دخل الأتون الباريسى وهو يسعى لتوسيع رقعة سلطاته وعدد تحالفاته - كان الأخ الأصغر يدعم مواضعه فى جرونوبل . إحدى مظاهر التعبير عن الاحترام بل عن « السلطة » التى حازها المنبوذ القادم من فيجاك بعد عودته إلى جرونوبل بستة أشهر هو تكليفه بمهمة دبلوماسية فى ربيع ١٨١٨ . كان المطلوب هو تجميع واختيار المستندات المتعلقة بالأراضى التى تردها فرنسا إلى ملك سارديننيا والبييمونت . وهكذا وبعد أن تحول إلى مستشار دبلوماسى كتب فى ٧ أبريل ١٨١٨ إلى جاك - جوزيف :

« وصلنى الآن قرار تعيينى كوميسيرا للبحث عن مستندات الملكية والمستندات المتعلقة بماركيزيه سالوس وبكارمانيول ** اللتين يطالب بهما ملك سارديننيا . والتى قد تكون موجودة فى مجلس المحاسبات [..] لايريدون إعطاء صاحب الجلالة الساردية سوى ما هو لازم ولاشئ أكثر من ذلك [...] سوف اجعل زميلى يدفع ثمناً غالياً لما يريده *** [...] إذا كنت تعرف أى مواطن سارديني فى باريس أسأله عما يريد عمله بكونتية سالوسى وماهى العلاقة بين جرونوبل وهذا البلد**** ..»

وكتب إلى جان فيسييه فى ١٥ أبريل

* كما سيرفض ترشيحه مرتين بعد ذلك فى ١٨٢٠ و ١٨٢٤ .

** موضوع طريف بالنسبة لشخص جمهورى النزعة فى خدمة أسرة بوربون .

*** الكونت كوستا ، من جنوا ، والذى سيصبح صديقا له وسيعرض عليه شغل كرسى التاريخ بجامعه شوريث وهو ما سيرفضه بعد تردد .

**** مقاطعة سافوا أعيدت إلى بلاط تورينو عام ١٨١٤

« أمضى نصف أيامى فى تحريك أوراق قديمة فى أرشيف البرلمان بحثا عن عقود قديمة لها علاقة بتاريخ الدوفينيه . باقى الوقت أمضيه فى مقابلة أصدقائى ولايبقى لى سوى نصف ساعة من الوقت لأقوم بقلة قليلة من الغزل لصاحبة الحق فى ذلك . »

« نصف أيامه ..» النصف الباقى لايبقى فيه باطلا . ديبلوماسى بالصدفة عالم لغويات بالمهنة . ولكن جان – فرنسوا كان قبل كل شئ مربياً خلال هذه الشهور وذلك على ثلاث جبهات :

أولاً : بصفته معلم أبن جاك – جوزيف وهو يريد بذلك سداد الدين القديم الذى عليه .

ثانياً : بصفته مدرس مادة التاريخ فى المدرسة الملكية

ثالثاً : وأخيرا وعلى وجه الخصوص بصفته مديراً للتعليم التعاونى فى مقاطعة الدوفينيه وهو ما كان قد كرس له وقته فى مقاطع اللوت .

عندما وصف تلك الأيام لصديقه فى فيجاك جان فيسيه اعتبر أكثر هذه المشغوليات صعوبة ، « تعليم » أبن أخيه على . « فهو شتت الفكر كالمعتاد . أعلمه اللغة اللاتينيه وهى عملية ليست هينه . إذا وجدت صعوبه بل صعوبة كبيرة جدا فى هضم المبادئ الأوليه لأى مادة فإنك ستجد صعوبة جمة فى جعل آخر يقضمها . ولكن من واجبى أن أمر بهذه التجربة . إن الطبيعة تنادى وإنى استجيب .. »

فى خطاب لأخيه فى نفس العام ٧ أبريل – كتب جان – فرنسوا مشيرا إلى ما يدرسه لعلى وكان حينذاك فى التاسعة : « لاتينى ، فرنسى ، قليل من الجغرافيا . قل لى إذا كانت هذه الخطة تروق لك .. » عودة لعلاقة الشقيقين خمسه عشر عاما إلى الوراء ..

بالنسبة للتعليم الكلاسيكى كان أمله أن يعود إليه من الباب الواسع فقد أعطاه كل من المحافظ ورئيس الجامعة الأب دو سورى « هشيم جامعى نبيل » ، الأمل فى أنه سيسترد كرسيه لمادة التاريخ . غير أن الكلية المسماة بكلية « الفلسفة » ، لم تعد إلى الوجود (لأن الكلمة لم تعجب آل بوربون) وكان على جان – فرنسوا أن يكتفى بتدريس مادة التاريخ فى المدرسة الملكية مقابل مرتب ضئيل ١,٨٠٠ فرنكا فى العام .

كانت مهمته الأساسية التعليمة فى الواقع هى إدارة المدرسة المسماة بمونفلورى باسم المكان الذى احتلته مدرسة التعليم التعاونى قبل أن تنقل مع بداية العام الدراسى ١٨١٨ إلى دير قديم بالقرب من جرونويل وكان اسم المدرسة فى البداية المدرسة اللاتينية .

يمكن أن نتصور عدد الطلبات الملحة التى انهالت عليه فور عودته وكان ذلك غداة نداء دويلانتا من أجل التعليم الشعبى - والذى أصبح الهدف الأسمى لمعركتهم وهى المعركة التى سيكون هو قائدها العام . وذلك بمناشدة شوبان دارنوڤيل النشطة وبتأييد الأب دو سورد . علاوة على بعض كبار النبلاء الليبراليين ومنهم الكونت دو لاستيرى والكونت دو لابورد الذين عبروا عن تحمسهم للمشروع .. وكان التمويل متوفرا .. كيف إذن التخلص من المسئولية ؟

خاصة وأن طافئى الأنوار أخذوا يوزعون الحرمان من الكنيسة . ولما كان من الصعب عليهم أن يعلنوا عن مناهضتهم للتعليم الشعبى فإنهم كانوا ينددون بطريقة « مستوردة من الخارج » وتم فرضها خلال « يوم الاغتصاب » على يد « كارنو قاتل الملوك . وعن ذلك كتب صغير لأخية « يطوف مبعوثوهم من محل لآخر . يقولون أن الماسونيين هم الذين أخترعوا هذه الطريقة ... وبذلك يكون من التقوى كفريق الإعلانات الدالة على قرب موعد افتتاح المدرسة التعاونية .

يالها من قضية يدافع عنها الأب دو روزان . فهو يعلن أن المناولة المقدسة الأولى سترفض للأولاد الذين سيذهبون إلى هذه المدرسة وتحول إلى حامى حمى العفاف كما جاء فى هذه السطور التى كتبها جان - فرنسوا لأخيه : « قبل أيام قليلة هدد مسيو دو روزان بأنه سيأمر بضرب والقتل بالسونكى المتلصصين الذى يقفون عند أبواب الكنيسة لمشاهدة السيدات وهن خارجات . الكنيسة محاطة بالفعل بجنود مسلحين إنها مهزلة حقيقية . »

لم يكن صديقنا عالم اللغويات فى حاجة إلى أكثر من ذلك ليندفع إلى ساحة الصراع . بدأ تسجيل أسماء التلاميذ مع بداية العام ١٨١٨ . وجاء النجاح باهراً . وفى ١٥ إبريل كتب «صغير» لصديقه جان ڤيسييه يقول : « أدير مدرسة للتعليم التعاونى أقمتها فى مدينتنا على الرغم من صياح طافئى الأنوار* الذى لم يمنع أن عدد الأولاد المسجلين بلغ اليوم ثلاثمائة وأن المدرس الذى عينته ممتاز »

المسئولون المباشرون للمدرسة مونفلورى كانوا ثلاثة من أصدقاء جان - فرنسوا : الشقيقان فروسار ودوران وقد جمعوا المدارس التى كانوا يديرونها . أما هو فكان يكتفى بالتدريس وكان يرسم جداول تعليمية ملونة الغرض منها جعل التعليم محبباً لدى

* أشار إليهم فى الخطاب بثلاثة أقماع وهو الرسم الدال على معدة إطفاء الشموع . وهو يكرر ذلك باستمرار .

الأطفال يجذبهم له سحر الصور الملونة . أشرك معه فى هذه العملية صديقه المثال تريول الذى أسس معه ومع جوزيف رى الجمعيه الليبرالية السرية المسماه «الاتحاد» . فى بعض الأحوال كان ذوو الرداء الأسود يعرفون كيف يدعمون التعليم الشعبى : إذ أنه عندما افتتح مدرسة فى فيف بالقرب من منزل الأسرة دهش جان - فرنسوا بحصوله على تأييد قسيس الكنيسة وكذلك تأييد زميل له من قرية مجاورة . طافئو الأنوار ليسوا جميعها فى جانب واحد ... ومع ذلك فإن قرارات العزل الكنسى الصادرة من الحزب الأسود أخذت تتضاعف بالنسبة لهم . واعتبرت مدرسة مونفلوري وكرا حقيقيا للجاكوبيين مما جعل مسئولو المدرسة الملكية يهددون بأنهم سيعزلون جان فرنسوا من التدريس فيها . ما الذى كان يمكنه أن يحفذه أكثر من ذلك ويربطه بصورة أوثق بهذا « الدير» التعاونى الذى تنتشر فيه الأنوار بدلا من رائحة البخور ؟

إنه كان يريد أن يكون مربياً وهو يتمتع بالموهبة لذلك . ولكن هل كان مربيا حقاً حتى النخاع ؟

لقد سمعناه يتأفف بعض الشئ بخصوص «على». أما بخصوص مونفلوري فنحن نقرأ : « لم تعد هناك سعادة فى التعامل مع الأولاد أكثر من التعامل مع الرجال » .

بعد قليل يعيد جان - فرنسوا شامبوليون اكتشاف غذاء قلبه وروحه ، سنجد مراسلاته امتلات وفاضت فجأة بإشارات وأشكال مرسومة كما لو أن النيل غمرها هى مصر فوقه كالشمس محلقة مسيطرة ساحرة بل مبهرة لدرجة تحجب الرؤية تماما ! مصر ....

هذه السنة ١٨١٨ التى تقع بين الانسحاب إلى فيجاك وعواصف ١٨٢٠ السياسية تعتبر إحدى أكثر الفصول إشراقا فى حياة المكتشف . فقد ظل لمدة ثلاث أو أربع سنوات أسير السياسة (أو التاريخ) التى استحوذت على فكره تماما . ثم تلاها التعليم .. هاهو يسترد أنفاسه الآن دون أن يستغنى عن أى منهما وراح يديم النظر فى اللغز ليحله .

كما يحدث فى كثير من الأحيان معه فإن التعبير يبدأ بالثورة وبالغضب : فى خطاب بتاريخ ٧ أبريل ١٨١٨ إلى جاك - جوزيف يعبر عن « غضبه » لأنه لم يتلقى « صورة مشفوفة من النص الهيروغليفى لحجر رشيد » مضيفا بمرارة : « إن هذا يكبلنى تماما ، يداى وقدماى ... » قدماه؟ ممكن ولكن الباقى لا : ويشهد على ذلك بيان الانتصار - الجزئى - الصادر ضمن خطابه لشامبوليون فيجاك الذى كان قد نقل له الاهتمام الذى قال فورييه أنه يوليه لأعماله . هذا الخطاب مهم جدا وأساسى :

« أسعدني جداً أن يـكون مسيو فورييه مهتما بدراساتي الهيروغليفية . أعتقد أن ذلك يسترعى الاهتمام [...] سأتمكن فى نهاية الأمر من وضع الكلمة الفرنسية المقابلة لكل رسم هيروغليفى مستخدماً الصورة الزنكوغرافية التى وفرتها اللجنة* [...] أعرف الآن أين يبدأ وأين ينتهى النص الهيروغليفى بالنسبة للخط المكتوب أو اليونانى المقابل له . وسوف أثبت أن الثلثين على الأقل ناقصان ... »

يذهب مكتشف لغز الهيروغليفية المتحمس فجأة إلى أبعد من تقريره عما قام به حتى الآن إذ أنه يقدم رؤية شاملة للعمل الضخم وإعادة نـظـر أخــرى فيما فعل إنها « دراسة فى الأسلوب» ** الخاص به » :

« لا يوجد فى عملى شعوذة ولا أسرار . كل شئ يأتى نتيجة للمقارنات وليس طبقا لنظام مسبق . لقد اكتشفت أدوات التعريف والفرد وجمعه وبعض حروف العطف إلا أن كل ذلك لايكفى لتحديد النظام الذى تقوم عليه هذه الكتابة ، أن نتائج عملى قلبت رأساً على عقب جميع أفكارى التى كنت كونتها عن الهيروغليفيات حتى الآن .أعتقد إنه يجب العودة إلى ما قاله كليمان السكندرى *** ، فيما عدا بعض التعديلات الطفيفة . إلا أنى لايمـكن أن أصل إلى النهاية دون صورة اللجنة المشفوفة .

لم ننتهى بعد من هذا الخطاب الكاشف إذ يجب أن نذكر أيضا هذا الاعتراف – الذى هو أيضا بيان بأهدافه موجه لأخيه واستاذه حيث نكتشف بوضوح طبيعة الرجل التى هى مزيج غامض من الرومانسية (قبل ظهور التيار الرومانى ذاته) ومن جسارة الفرسان ومن الزهو مع وضوح الفكر وصفاء النفس التى يتسم بها أهل الجنوب ليس ذلك فقط بل يكشف أيضا « سياسته » العلمية وما يسميه « منظومته الأخلاقيه والدينيه » ****

كان أخوه قد ذكر له احتمال نشر كتابه عن قواعد اللغة القبطية الذى أثار اهتمام نابليون لدى مروره بجرونوبل فى بداية الأيام المائه (كان الأخ الأكبر يشعر أن بإمكانه تحريك الجبال لولا الأكاديميات ..) وجاء رد «صغير» كالآتى :

---

* لجنة مصر الموضوعه تحت مسئولية جومار وهى التى تتولى نشر وصف مصر منذ ١٨٠٩ ولم يكن جان – فرنسوا يكف عن انتقاد ما تنقله من هيروغليفيات مما سيؤدى فى النهاية إلى خصام جومار معه .

** عنوان الكتاب الذى ألفه رينيه ديكارت فى ١٦٣٧ والذى يعتبر منعطفا هاما فى تاريخ الفلسفة [المترجم]

*** راجع الفصل ١٠

**** التى تستعير من الروحانيات البوذية بعض أفكارها كما يتضح من بعض الإشارات المتناثره فى مراسلاته .

« أعتقد ياصديقى العزيز أن ليس هذا وقت التفكير فى ذلك ولا هو الموضوع الملح . وعلى العموم فليس لدينا المال لذلك . ولا أرى داعيا للإستدانه* فى هذه الأوقات العصيبة التى نعيشها . يجب أن نركز تفكيرنا فى مستقبلنا الجسدى أما المجد فسيأتى عندما يريد [...] أما الشهرة فإنى أسخر منها بكل عواطفى . ليست هذه نكتة بل هو التسلسل الطبيعى لنظامى الأخلاقى والدينى . أنه يرنو إلى الراحة النفسية ويؤدى إليها دائما . [...] على الرغم أنى لم أعرف حتى الأن لاراحة الجسد ولا الفكر ولاحتى راحة القلب . يعتبر هذا الأخير الجانب الضعيف وللأسف بالنسبة لى فيبدو أنه هو الذى يقود وجودى كله ** هذا هو قدرى ...

إذا كانت لدى إمكانات نشر شئ فسيكون ذلك دون أدنى شك هو عملى المتعلق بالهيروغليفية . فذلك فيه بعض الإثارة ولعله يحرك فضول عالم الآداب الذى يبدو لى فى ثبات عميق . أما ما أراه الأن من تحركات فإنها تبدو لى على الرغم من حيويتها شبيهة بتحركات من يسير أثناء نومه على الرغم من أن عينيه مفتوحتان .. »

نجـد كل شئ فى هذه السطور . هل يجب أن ننظر إلى هذا الخطاب على أنه وصيته بعد أن بلغ ثلثى عمره كله - جان فرنسوا كان فى الثامنة والعشرين عندما كتب الخطاب ولم يبقى أمامه سوى أربعة عشره سنة ... ففيه نجد وضوح الرؤيا . والحزن والاسلوب المتحمس وهذا التواضع الشكلى الذى هو قمة التعبير عن الزهو وهو ما جعله يصف عمله « بالإثارة » علماً بأنه يلتهم كيانه كله ويتسامى به ؟

أرفق بهذا الخطاب ورقه ضمنها مائة من الأشكال الهيروغليفية ومعها تراجمها بالفرنسية تقريبية مثل الصحراء - المملكة - المعبد - التمثال - الألهه ... مهما كان هذا المستند غير كامل - إذ يجب أن ننتظر أربع سنوات أخرى من المجهود المستمر ووصول بعض القطع الأساسية التى وصلته من مصر قبل أن تنتشر الأنور - فهو يعتبر - هذا المستند - مسودة إكتشافه النهائى . ثم أنه يضيف عموديا فى الهامش ملحوظه أساسية بالنسبة للخطاب والورقة المرفقة : « لا داعى لأن أوصيك باستخدام الورقة المرفقة بحيطة كبيرة فالمتلصصين ليسوا نادرين . إن هذا السطر يكفى لإعطاء المفتاح لكل الباقى ، يمكنك مع ذلك أن تريها لفوربيه [8]. »

---

* هو المدقق هذه المرة .

** سيتزوج جان - فرنسوا بعد ذلك بستة أشهر .

لقد أصبح «صغير» داخل المعبد – فى قـاعته الخارجية نعم ولكنه فى الداخل بالفعل ... وها هو الآن مغطى بالتراب المقدس وسط النخبة المختارة – لكن سيكون عليه قبل الصعود الأخير ودفع الباب المغلق النهائى أن يمر عبر تقلبات عديدة عرفها القرن . إلا أنه كان يعلم فى هذا الربيع من عام ١٨١٨ أن الاشارات الدالة على الطريق قد وضعت ليسلكه حتى النهاية وأن « الراحة » التى يصبو إليها لن يعرفها غداً وأن القدر قد مسه بمخالبه المصنوعة من حجر . هل يمكن أن يسبقه أحد ؟ الإشارة كانت واضحة .

فى الرابع والعشرين من يوليو ١٨١٨ عقدت جمعية العلوم والفنون فى جرونوبل اجتماعاً برئاسة سافوا دو رولان . «شامبوليون الصغير » الذى كان انتخب عضوا مقيما فى ١٨١٠ لم يكن قد حضر الجلسات منذ خمس سنوات إلا أنه أعلن فى ذلك اليوم أن لديه مداخلة هامة ومع ذلك فإن الحضور لم يكونوا بكثرة : ستة أكاديميين فقط ومنهم الجنرال العزيز دولاسالات .. « القله السعيدة » كما يقول ستاندال* لقد إستمعوا إلى بعض الإكتشافات . لم يصل لنا من صداها لنا سوى النذر القليل ولكنها نقلت مع شئ من التفصيل ضمن الخطاب المرسل لجاك جوزيف فى ١٨ أبريل .

لم يكشف لنا أرشيف الإكاديمية الجرونويلوازية الكثير عن هذا الموضوع . إذ يذكر به أنه جرى الإستماع لتقرير نابع من اللجنة الزراعيه فى بوردو حول زراعة البطاطس بالإضافة إلى أربع مداخلات : أثنتان من بيرياسان يرى – عن « مقطوعات من تاريخ القانون الرومانى » و « ثلاث خطابات لم يسبق نشرها لڤولتير » ومداخلة من « مسيو كوستا ، كوميسير ملك ساردينيا » (نظير جان فرانسوا فى الحوار الدائر حول مركزية دوسلاوس) ومداخلة من « مسيو شامبوليون الصغير » عنوانها « شرح لجزء من نص حجر رشيد . هل أثارت هذه المداخلة أى ضجه ؟ كتب محرر محضر الجلسة بتسطيح مثالى ما يلى :

« قرأ السيد شامبوليون الصغير أجزاء من شرح لحجر رشيد المشهور . بل إنه أوضح شرحه على صورة رسم عليها رسوما هيروغليفية من السطر الأول والأخير من النص » وبعد أكثر من قرن من هذا التاريخ كان تعليق الكومندان جوستار على هذه الجلسة التاريخية أكثر حيوية :

« شامبوليون هو بلاشك مؤسس الإيجيبتولوجيا (علم المصريات القديمة) . الحركة العلمية التى تلت إكتشافاته [...] بدأت فى فرنسا فى جرونوبل وأتجرأ فأقول فى الأكاديمية الدوفينية فى ٢٤ يوليو ١٨١٨ . من حق جمعيتنا إذا أن تفتخر ..» (9)

* "Happy Few" بالإنجليزية فى النص [المترجم]

مبالغات ؟ بالطبع هى كذلك لأن جان – فرنسوا عام ١٨١٨ كان لايزال بعيداً عن هدفه . إن « هذا الميلاد » الذى ذكره الكوماندان جوستار لم يكن سوى الإرهاصات الأولى لعملية الولادة ولم يكن الميلاد قد تم فعلا . فلو أنه توقف عنه هذا الحد المذكور فى خطاب شهر إبريل وفى عرضه الذى قدمه فى يوليو ١٨١٨ لكان بدى البروفيسور جان – فرنسوا شامبوليون كأحد الرواد العبقريين مثله مثل كيرشار وزوريجا ويانج وأكربالد . فى مرحلته الجرونوبلوازيه كان شامبوليون قد لحق بهذه المجموعة وكان عليه بعد ذلك إن يتقدم عليها .

يجب فى جميع الأحوال أن نسجل هنا أن هذا المعلم الشاب المقيم فى محافظة بعيدة عنه باريس الذى لم يؤلف سوى كتاب واحد هو « **مصر فى عصر الفراعنة** » وهو كتاب أوضح فيه أنه محاولة لرسم صورة فقط للحياة المصرية الفرعونية ، كان على الرغم من ذلك واحداً من مجموعة دارسى مصر القديمة الذين يشار إليهم على أنهم الأساتذة الكبار فى مادتهم . و «**صغير**» هو الذى توجه إليه قنصل انجلترا فى الاسكندرية هنرى سولت بخطاب توصية بالرحالة الفرنسى كايو (والذى سنلقاه فيما بعد) لأنه « بفضل إكتشافاته الأخيره فى هذا البلد قد شرف نفسه ووطنه » . سولت سيكون له دور مفيد ومثير للإضطرابات أيضا فى بقية القصة إذ أنه أحد الرجال الذيم كانوا بيدهم مفاتيحها .

كان جان فرنسوا إذن ينظر إليه على أنه أحد الذين تطلب منهم الضمانات والذين بواسطتهم تحصل على الشهرة ... هل عومل نيوتن هكذا قبل التفاحة أو جوتنبرج قبل مطبعته ؟

كان قلب صديقنا الشاب كما قال لنا هو « نقطة ضعفه » لقد كان مثل يلانتا المجنون يخطئ دائما من هذه الناحية . لقد أحب شان – مارتان الذى أصبح من أعدائه . كما أحب فورييه ثم كاد أن يفقد صداقته . وأحب بولين التى هزأت به فى البداية ولويز التى تزوجت من آخر . وماذا عن أوجوستان ؟ « ماما الجميلة » فى فيجاك ؟ نعم هنا قلبه لم يخدعه . ولكن ماذا عن روزين ؟ يعتقد أنه يحبها – وهى التى كان يرمز لها بحرف ر فى خطاباته لتيڤونيه .. هل كان فى إعداده للإقتران بها نوعا من حب التغلب على مقاومة شخص غبى ؟ إن كلود بلان لايريد مصاهرته ؟ إن فى ذلك سببا وجيها لكى يكون ألماڤيڤا ضد هذا البارتولو . إستمر تاجر القفازات فى مراوغته طوال خمس سنوات وهو باق على إصراره . وطوال هذه السنوات الخمس كانت روزين

تراسله وتؤكد له بالقدر الذى كان مسموحا لبنت مثلها أن تفعله عن تعلقها به . فكيف لايتأثر هو بذلك فى الوقت الذى صده فيه العديد من الناس ونفى وحورب وحسد وكره ؟

لم يكن لرفض عم يلان له من تأثير سوى أن يزيده عنادا . لكن رفض جاك - جوزيف كان من الممكن أن يثنيه عن مشروعه . لكن أخيه الأكبر ، أستاذه والوصى عليه لم يعرف فى أوقات كثيرة كيف يجد من أندفاعات قلب المراهق بطريقة متوازية . ولكن هذه المرة كان بإمكان حججه أن تكون فاعلة . هل روزين هى الزوجة التى يرغب أحد العلماء فى الاقتران بها ؟ ما الذى تعرفه ؟ هل تتمتع بحسن التمييز المطلوب ؟

بقية القصد تجعلنا نميل إلى تأكيد رأى الأخ الأكبر . إلا أننا نسجل ونحن نحاول أن نضع الأمور فى إطار ١٨١٨ أن ما نعرفه عن زويه بيريا وأبنة خالها روزية بلان لا يدعمان نظرية جاك - جوزيف . إن خطابات الأولى تعكس ضحالة التعليم (وهى تنادى زوجها باسم الاسرة شامبوليون كما تفعل النساء البورجوازيات فى مسرحيات (لابيش ..) غيرأن ذلك لايقلل البتة من ذكاء أكيد فى فهمها للناس وأمور الحياة . هل هى أكثر ثقافة من روزين التى كانت تلح فى طلب قراءة رواية هيلويز الجديدة ؟ كلا بل إن المرارة التى كان يكنها الأخ الأكبر لروزين قد يكون سببها أنها كانت أكثر علما من زويه .

ومع ذلك فكم هى واهية الحجج التى يسوقها «صغير» للرد على تلك التى تجعل فيجاك يضغط عليه بها لكى يعدل عن هذا الزواج منها وأن يلحق به فى باريس :

« أنا معروف فى جرونوبل ، كما أن لى بها أصدقاء وسمعة طيبة : مكانتى فيها مستقرة وليس بها ما يدفعنى إلى الشكوى . وسأقوم هنا بأفضل من باريس بالأعمال التى خططت لها [..] كنت أفضل ألا أكون ولدت من الأصل مادام من الصعب على أن أرضى فى نفس الوقت كل الأشخاص الذين أحبهم كثيرا . إبق لى على صداقتك كلها ! لعل أقل الأوقات استحقاقا لها هى التى أشعر فيها لأى درجة هى ضرورية بالنسبة لى وكم سيكون قاسيا على أن أراها بدأت تهون ... »

باختصار ... فبعد أن أطاح « جان - فرنسوا » بتحفظات حماه وفضل عدم الاستماع إلى تحذيرات « مرشده الروحى » تزوج بروز (وكنايتها روزين) بلان فى ٣ ديسمبر ١٨١٨ فى كاتدرائية جرونوبل - الذى لم يتمكن الأب دورزان من منع دخولها على هذا الشاب (خاصة وأن عديله هوج كان فوق ذلك كله عضوا فى الحركة الماسونيه) .

قبل أسبوع من هذا التاريخ جرى أمام مسجل عقود جرونويل التوقيع على عقد زواج السيد / جان – فرنسوا شامبوليون « الضابط بالجامعة الملكية وأستاذ التاريخ بالمدرسة الملكية بنظام الدوطه على « الآنسه بلان » التى تقدم له بخلاف جهاز محترم للعروس ضوطة بنظام المقدم على الميراث » – مقدارها ثلاثون ألف فرنكا – وهو مبلغ كبير جداً بالنسبة لذلك الزمان * .

ولكن كيف لاندهش إزاء تغيب على الأقل بين الشهود– ليس فقط جاك – جوزيف ** وجميع أعضاء الأسرة فى فيجاك ولكن أيضا جميع أصدقاء الأستاذ الشاب فيما عدا هوج بيريا وبريزون.موضوع آخر مثير للدهشة وهو بقاء الزوجين دون أطفال لمدة سته أعوام تقريبا – وأن الأب سينتظر مدة شهرين قبل أن يحضر لرؤية طفلته زورابيد وكان ذلك خلال توقفه فى جرونويل وهو قادم من باريس فى طريقه إلى تورينو .

– بنفس قدر عدم سعادته كإبن لم يكن جان – فرنسوا زوجا سعيداً هذا القلب المتأجج لدرجة شرهة والتى كانت كل خطاباته أكثر دفئاً وإلحاحاً وإنفتاحاً من مراسليه لم يعرف مع زوجته (بقدر ما توفره لنا الشواهد) سوى تبادل عاقل ومعتدل فى العلاقات وفى الأمور المنزلية . أن تكون روزين قد أحبته واعجبت به فليس فى ذلك شك ولكن أهم ما يميز خطابات روزين بالنسبة للباحث فى سيرته هو وجودها أصلا ضمن المراسلات الضخمة لشامبوليون الصغير .

جاء الوصف الأكثر بلاغة لقصة هذا الزواج التعيس ضمن خطاب له موجه لصديقته الإيطالية أنجيليكا پاللى*** :

« فى بحثى عن السعادة يايزليمر**** أخطأت مثل كثيرين مثلى [...] لقد عشت حياتى كلها وأقمتها على أساس أن اعتقادى الراسخ أن الإنسانية التى سأرتبط بها لن يمكنها أبداً أن تملأ قلبى . غير أنى إضطررت إلى ذلك ربما بسبب مراعاتى الزائده جداً للأصول ... عندما كنت لا أزال صغيرا جدا فى السن وجعلتنى العلاقات العائليه أقابل أنابيس***** مرات عديدة . كانت تتمتع وهى فى السادسة عشرة بكل المزايا الخارجية وبعقلية مثقفة وانفتحت على العالم بالبساطة وعدم الثقة بالنفس الناتجة بالطبع عن تربية تلقتها فى مؤسسة تكاد تكون رهبانية، أثار إهتمامى الشديد بها عدم خبرتها وسذاجة تصرفاتها وكما أنى أصبحت محور إهتمام أنابيس فتعلقت بى بالقدر الذى أتيح لها ...»

---

* على الرغم من أن المبلغ لم يسدد بالكامل من قبل إلجا فإن ذلك يمثل دخلا مقداره أربعة آلاف فرنك ... أى بحبوحة لابأس بها .

** فى حين أن زويه كانت حاضرة ووقعت .

*** راجع الفصل ١٤

**** كناية أعطاها لانجيليكا پاللى .

***** كناية عن روزين .

اعتقدت أنابيس وقد سحرتها أشكال وتحركات المجتمع أن السعادة تكمن فى أن تبدو سعيدة وظنت أنها ستجدها فى إرضاءها لذاتها ونجاحاتها فى الصالونات وهو ما يتحول إلى غرور . هذا هو المــأزق الذى تقع فيه معظم نسائنا الفرنسيات ولم تشذ أنابيس عنه فى ذلك . فرأت العالم من خلال نظرة مختلفة عنى وبحثت عن الهناء خارج المشاعر الصادقة وداخل إطار من أشخاص لم يعرفوه قط . كانت متعلقة بى ولكن على طريقتها ، وعلى الرغم من فتور عواطفى الواضح فإن ذلك لم يمنعها من أن تظهر على العلن لم هى تفضلنى . لقد فعلت كل ما يمكن دون جدوى لكى أشعرها بعدم توافق شخصيتنا .

الظروف السياسية عامى ١٨١٤ و ١٨١٥ حدثت فى هذه الأونة وساهمت فيها مضطراً بقدر كبير نشط [...] خسرت كافة وظائفى . ثم اعتدى على حريتى بعد ذلك بقليل واضطرت إلى الحياة فى المنفى لمدة تسعة عشر شهرا وعلى بعد ١٢٠ فرسخا من مدينة اعتقدوا أن فى وجودى بها خطرا عليها .

كنت أمل أن الغياب سيغير أفكار ونوايا أنابيس نحوى وأنها ستتخلى عن مشروع زواج لم يكن هناك ما يفرضه ولم يكن يبشر بسعادة أى من الطرفين . كنت مضطهداً فى ذلك الوقت : فوجدت فى تعاستى سبباً نبيل لإصرارها [...] على العلاقة وذلك على عكس رغبة أسرتها [...] كانت أنابيس تعيسة بسببى . هل كان من حقى أن أتردد . خط الواجب كان محدداً أمامى . رباط لاينفصم جمعنا [...] تعلقت أكثر بالدراسه [التى أعطت] معنى لوجودى ... »

هل كان ذلك من أجل تقيتم الصورة لكى يثير أعجاب منافسة لزوجته ؛ جائز ولكن الوصف مقنع .

تزوج ، نعم ... « أستقر » لا ... إذا كان الاستقرار هو الوصف الذى يطلق على مواطن ذى سلوك قويم يتبع نظاما سليماً يتفق مع وضعه كأستاذ – برجوازى . إذ يمكن أن تصبح من الأعيان وتبقى ثائراً ... وبالفعل إستمر المواطن شامبوليون يشد إهتمام ويثير قلق السادة أعضاء « الكازينو » والجمعية الدينية Congrégation والمخبرين الذين نشرتهم المحافظة فى جميع أنحاء مدينة جان بول ديدبية وجوزيف رأى وهنرى بال* ... وبدلاً من أن يهدأ زاده اليسر المادى ميلا لمشاكة السلطة القائمة .

علاوة على ذلك بدأت صحته تتدهور، فقد زاد تكرار نوبات الدوار والدوخة الغثيان التى تنتابه منذ أكثر من عشر سنوات . أين هو هذا « النوم العميق الفلاحى » الذى كان له حتى الآن أفضل دفاع ضد المرض . كانوا يعالجونه بواسطة العلقات . ثمان ثم عشرون ثم ثلاثون . كان ذلك يرهقه جداً ولكن قدرته على التصارع مع المرض بقت متوهجة :

* الذى سيمضى عدة أسابيع فى جرونوبل بمناسبة وفاة أبيه خلال صيف ١٨١٩ .

« ها أنا معافى منذ يومين . الدم الذى كان يتراكم بخبث فى رأسى قمعته أربعون علقة بعنف . لقد تم ترويضه كما سيتم قطع الرعاع الفرنسيين الذين وصل بهم التبجح أنهم يرفضون أن تقص رؤسهم على يد الأريستوقراطيين الطيبين »

طالما أن الأمور فى يد المحافظ المختار شوبان دارنوفيل فإن صاحب « نخب إلى الجمهورية » فى ١٨١٥ يقف ساكنا تقريبا . ولكن بقى « الاتحاد » ملتفاً حوله هو وجوزيف رأى والمثال تريول أحد مراكز الليبرالية الدوفيينية يقطن كان أحد الأماكن التى يأوى إليها المتمرد ذو الأفكار السيئة . ومن المعتقد أنه هو الذى ألف « ترنيمه » رتلها مدندنا بمناسبه مظاهرة دينيه نظمتها إرسالية فرنسا التى يديرها الأب روندان مع « المتطرفين » . وقد لاحظ الليبراليون أصدقاء شامبوليون وجود بعض « الثوبين » المتطرفين من أيام الثورة فى الركب الدينى بعد إستمالتهم واستغلال سذاجتهم إلى الصفوف المقابلة :

جاكوبيون فى ثلاثة وتسعين
تحولوا عن مبادئهم برشاقه
فهم اليوم فى حمية الجمر
حاملين صليب الإرساليه
وبالرغم من مظهرهم التقى وسط الجمهور اللئيم
داندى ، داندون
الطاقيه الحمراء تحت السوداء
داندى – داندون [...]
حضرت الفيكونتيسة التى
فطمتها عن العصا* لمدة شهر كامل
حنان الزوجيه بمناسبة الإرساليه المقدسة
ووقف ضابط بجانبها
لإضافة المرح إلى المسرحية

* إشارة إلى ما كان يشاع عن أن الجنرال دوناديو كان يضرب زوجته .

داندی – داندون
وازوجها تقول
داندی – داندون (10) .

هاجم «صغير» عديداً من الناس : أهل السيف والكنيسة وكذلك الساسه الذين غيروا مواقفهم والرجال المخدوعين و« طافئى الأنوار » وأهل المجتمع أليس فى ذلك أستنفار لأعداء ؟ فيتكاتفون للفتك به بأى ثمن ، ولقد أغضب ذلك كثيرا جاك – جوزيف الذى لابد وأنه أخذ يتساءل متى سيعود تلميذ الليسيه المشاغب فى عام ١٨٠٥ إلى رشده ؟ ولماذا يصر على أن يزامل خلاصة ما فى جرونوبل من عقليات سيئة ؟

ولكن « صغير» لم يعد صغيراً . لقد كان أصلاً وهو فى الخامسة عشرة غير قابل للإنقياد وهو اليوم يحتد فى رد فعله : « إنك تسامحنى على الأذى التى سببته لك وأنا أسامحك على ما لاأسامح عنه أحداً : وهو الظلم [...] إنى أتحدى أن يذكر أحد بيتاً أكون قد دخلته منذ زواجى فيما عدا المحافظة ! »

حسن ! ولكن لم تعد المحافظة فى ذلك الوقت ضمانة بورجوازية حتى إن الجنرال دوناديو قد بلغ به الحد أنه كان يصف جميع الذين يرتادونها « بالأوغاد » وعلى الرغم من ذلك إستمر المحافظ شويان دارنوڤيل متمسكاً بمواقفه فلم يحسن أن يظهر فى العلن بصحبة من كان يطلق عليه لقب « روبسبير جرونوبل» أى شامبوليون الصغير بل أكان لايأبه بأن يوصف هو ذاته بأنه جاكوبى عندما إصطحب معه الأستاذ الشاب فى لوج الأوبرا الخاص به .

للأسف وقعت ثلاثة أحداث متتالية فصمت الثنائى شويان – شامبوليون ، وأعادت إلى الأذهان ذاكرة مرحلة الإرهاب الأبيض الذى أجتاح الدوفينيه عام ١٨١٥ . فقد حل دوسان محل مونليڤو وبامفيل – لاكروا محل دوناديو أو المركيز دوبلا نيلى دولاڤالات محل بننا ، إذا كان « الكازينو » قد بدأ يصدأفان عجلة « الروليت » فيه كانت لازالت دائرة وتوزع أضرارها .

فى البداية هذه انتخاب الجمعية الوطنية الجديدة التوازن الهش القائم منذ سنتين فى جرونوبل بين المتطرفين والليبراليين . سبق لنا أن أشرنا إلى أن لويس الثامن عشر كان قد حل فى عام ١٨١٦«البرلمان المفقود» خاصة أنه قد كره تطرفه منذ البداية وكانت جولة الانتخابات الجديده ستجرى فى سبتمر ١٨١٩ ... فما هو ياترى الدور

السيئ الـذى تعـده « جروليبر » (جرونوبل الليبرالية) هذه المره لأسرة بوربون ؟

لم يكن سيئا فقط بل شنيعاً ! إذ إقترح جوزيف راى – صديق جان – فرنسوا وزعيم جمعية « الاتحاد » ترشيح الأب جريجوار المشهور وهو الأسقف السابق الدرستورى وأحد أشهر شخصيات الثورة (ولكنه لم يكن ضمن من قتلوا الملك) وكان أيضا من معارف الشقيقين شامبوليون ... محرر اليهود ومحرر المستعمرين . مع هذا لم يحضر حتى إلى جرنوبل للقيام بالدعاية الانتخابية ولكن كان لإسمه وحده ما يكفى من إشعاع لكن ينجح وبمساندة من المتطرفين الذين كانوا متلهفين على توجيه صفعة لحاشية الملك المعتدله : أنظر إلى أين تؤدى الانتخابات الحرة !!

علقت صحيفة « **لوجورنال دى دبيا** » على ذلك بقولها « فضيحه فرنسا ! عار الإيزار » .. وألغيت نتيجة الانتخابات : وكانت النتيجة أن الذى انتخب هو أحد زعماء الليبرالية الدوفينيه كامى تيسار – الذى كتب عنه ستاندال أنه لم يسامح نفسه قط لأنه حقق الثراء من صناعة مشروب الراتافيا .. هذا النوع من الأحداث لايخرج منه محافظ سليما ! إضطر شويان دارنوفيل المسكين إلى أن يحزم حقائبه . وإذ هو يستعد للرحيل جاء نبأ مصرع الدوق دوبيرى وكان هو الذى سيرث العرش ، مطعوناً بخنجر فى ١٣ فبراير ١٨٢٠ وهو خارج من دار الأوبرا على يد عامل إسمه لوڤال . رؤى حينذاك أن يد الجوكوبيين وراء الجريمة ! ونجح المتطرفون بأن ينتزعوا من الملك قرار عزل صديقه العزيز ديكاز ووجد الجرونوبلوازيون البارون الأشهر دوساز يهبط فى دار المحافظة .. وهلل لذلك السادة أعضاء « الكازينو » ولكن هل كانوا على حق ؟ على الرغم من كون **«صغير»** حزينا لإقصاء شويان فإنه تأثر فى بادئ الأمر إيجابيا بهيبة وحضور الرجل وبديناميته ثم فضل أن يتحفظ فى إبداء رأيه .

ثم جاء الفصل الثالث للتراجيديا التى ستحول مدينه جرونوبل السعيدة التى وصل إليها جان – فرنسوا فى أكتوبر ١٨١٨ إلى ميدان متاورات « لطافئ الأنوار » المقروحين . فى مايو ١٨٢٠ زار جرونوبل – العاصمة الأولى للمائه يوم – ولى العهد الجديد الدوق دانجولام ابن الكاونت دارتوا . ومشهور عنه عدم تعاطفه مع المتطرفين . لم تأل باريس جهداً إذن لتتمكن من إستمالة قلعة المعارضة : الدوفينية : فهل سينجح هذا الأمير الطيب فى إزاله نقمة ناخبى الأب جريجوار ؟ الزيارة كانت نكبة ! فى الثامن من مايو – قرب العصر – استقبل دانجولام بهتاف مزدوج « يحيا الملك ! يحيا الدستور* » لم تكن هذه الأزدواجيه لتزعج الضيف الجليل ولكنها أثارث سخط « نوى

* بمعنى الضمانات الليبرالية التى وعدت بها الأسرة البدربونية لدى عودتها من المنفى .

الرداء الأخضر » من حاشيته وكلهم من مؤيدى أراء والده . وصف ماحدث : من جان - فرنسوا لجاك - جوزيف :

« هذان الهتافان اللذان كان يجب أن ينطلقا من نفس الحنجرة أصبحا متنافسين وظهرا كما لو أنه مقدر لهما أن يطيلا أمد الأحقاد والتحديات . إرتكبت حمقات من جميع الجهات ولم يظهر الاعتدال على أى جهة . ألقى بعض أفراد الشرطة بأوامر خاطئة دون شك بالقبض على أشخاص يهتفون : « يحيا الدستور !!» ثم أدت بعض أعمال العنف والغباء المفرط لياوران الأمير الذين أعلنوا وسط الجماهير أن هتاف « يحيا الدستور » هتاف إنقلابى . أدى كل ذلك إلى إحماء رؤوس بعض الشباب المتحمس . وبذلك لم يكن من الممكن أن تمتد إقامة الأمير بيننا وقيل أنه غير راض تماماً عن جرونوبل وهاهى مدينتنا المسكينه تواجه الشكوك والافتراءات . لا يوجد حديث سوى عن الاعتقالات والخراب القادم قريبا . فلنعتمد على حكمة الملك ولننظر إلى المستقبل بثقة . لاشئ غير ذلك ومع ذلك فهو كثير* . »

« حكمة الملك » ؟ الحكمة هنا هى حكمة المحافظ المسئول عن التعبير عنها والقيام بتنفيذها . وفى هذا الصدد أدى سلوك دوساز بعد ذلك إلى تبديد الأمال التى وضعها فيه شامبوليون - الذى كتب إلى أخيه يقول عنه بأنه « باع نفسه للمتطرفين وأصبح أداة سلبية لدرجة الغباء بين أيديهم » .

« بغباء » ؟ هنا مكمن خطأ تقدير أستاذ التاريخ . لأن دوساز ليس بغبى على الإطلاق بل إنه أحد أفضل الرجال الذين تقدموا الصفوف على يد « أعيان فرنسا » وهى إن لم تقدم أمثال ميرابو ودانتون وهوش فهى أبرزت أشخاصا مثل ديكاز ولوس .

وإذا كان البارون مشهورا جداً فهو ليس بأقل من ذلك عن ذلك تطرفاً فقد وجد هذا الرجل فى التوتر القائم فرصة للتخلص من بعض الليبراليين المعينين فى جرونوبل على يد وزارة ديكاز مثل العمدة روايه دولوش والجنرال لودرو ديزيسار الذى تجرأ على الاشتراك مع جان - فرنسوا شامبوليون فى تحرير كتيب صغير يحذر السلطات العامة من مغبة التطرف القمعى و « الاستحواذ على السلطة » .

---

* كثير بالنسبة للرقيب - على مايبدو ....

نشر هذا النص الغريب فى باريس لدى كوريار فى ١٧ مايو ١٨٣٠ مع خمسة أو ستة أخرين تحت عنوان جماعى « احذر » إنه يشبه الريبورتاج الصحفى القصير ويقع فى أربع صفحات يصف تجاوزات « حزب طـافئى الأنوار » – المدنيين الذين يهتفون « يحيا الملك ! وتبا لكل الباقى والعسكـريين الـذى يستلـون سيوفهم وهم يصـرخون : « إقطع رقبة هذا المتحرر » أو « أول من يهتف سأقطعه أرباً ! »

التعقيب الذى ينتهى إليه نص الكتيب وهو بدون توقيع ولكنه بليغ . يقول : «إن مكتسبات الثورة (إذ لايمكن أن ننفى أنها جاءت بكثير منها يمكن أن ينفى ذلك إلا من لانظر له) تكلفنا الكثير حسبما يقال ويعتبر ذلك سبب أخر لكى نزداد تمسكا بها بكل قوة * »

« مكاسب الثورة » ... هكذا !! كتابة ذلك فى ١٨٢٠ كان كفيلا بأن يعود على المرء بالمشاكل :

أسابيع قليلة كانت كافية ليحصل دوساز على إقالة روابيه – دولوش وعلى إبعاد لودرو ديزيسار – ليحل محلهما : فى العمدية أحد رجال الكونت دارتوا فى مقاطعة الدوفينيه الماركى بلانيللى دولاڤالات وفى الحامية العسكرية الجنرال الصاخب لامفيل – لاكروا وإذا كان هذا الأخير أقل ضرواة وبداءة من دوناديو فهو لم يكن أقل منه تطرفاً فى عدائه لأى شكل من أشكال الليبرالية . لكن ما حدث هو أن نار الثورة كانت تتأجج تحت السطح فى مختلف أنحاء أوروبا الغربية فى ذلك الوقت وفى حين كان نابوليون يصارع الموت فى سانت هلبين (توفى فى ٥ مايو ١٨٢١) إنتشرت موجة بونابرتية مستوحاة من اسطورة المـائة يوم أكثر من حقائق «الزواج النمساوى» من بروكسل إلى تورينو ومن فرانكفورت إلى باريس .

تجمعت الأسباب : من ضباط بنصف مرتب يحركهم حنين جارف للإمبراطورية أو سبب أكثر بساطة وهو التخفيض القاسى فى عدد القوات المسلحة الذى قرره فى ١٨٢٠ وزير الحرب لاتور – موبوريه إلى جمعيات سرية من نوع « الاتحاد » الذى جر جوزيف راى جان فرنسوا شامبوليون إليه وإلى شباب داعبت أفكاره مقدمات الرومانتكية الوليدة وهمشتة السياسة المناهضة للتضخم المالى الذى إتبعها لوس

---

* يبدو أن جـ . ف . شامبليون لم يحرر سوى ريبورتاج زيارة الأمير .

وبوفيللال وأصحاب الأملاك الوطنيه ، الذين بدأت تهددهم مطالب الاقطاعيين السابقين . جميع تلك الأسباب تجمعت لتكون تياراً عاتياً متعدد الأطراف إجتاح فرنسا وعبر أيضا جبال الألب . وهى الفترة التى أنتشر فيها التيار الكاربونارى * فى فرنسا - قادماً من إيطاليا - وسرعان ما انضم إلى عضويته عشرات الآلاف .

كيف إذن نندهش لأن الملكية العائدة إلى السلطة قد إختارت شخصية في وزن البارون دوساز ليحكم قبضته على القلعة التى هى جرونوبل الواقعة على أبواب البيمونت الايطالى والتى تنشط بداخلها أفكار التيار الكاربونارى » . دوساز كان فى موقف الكونت موسكا (بطل رواية) ستاندال لاشارتروز دوبارم) الذى كلفه ارنست رانوش الرابع بقمع التيارات الثورية التى يقودها أمثال فابريس ** وجميع الليبراليين المهووسين ؟ لقد كان فى إمكان ستاندال أن يجعل أحداث روايته تجرى فى مسقط رأسه : ففى ١٨٢١ كانت جميع شخصيات الرواية موجودة بها حتى لو كان هناك فرق فى شخصين جان - فرنسوا القوية وشخصية ديل دونجو الصغير وكيف لانجد لدى بارون جرونوبل (دوساز) السحر التاسع من شخصية الكونت دوبارم) .

هاهو إذن دوساز فى موقعه وقد عكست « مذكراته » وسواس واحد كان يلح عليه وهى قصم ظهر الثورة المتأججة فيما وراء جبال الألب والتى كان من المحتم أن تعبرها أن أجلا أو عاجلا إذ كتب يقول :

« عندما طلب منى إدارة مقاطعة الإيزار - عهد إلى أيضا برقابة بوليسية واسعة جداً على المقاطعات المتاخمه للبيمونت وعلى نفس هذا البلد وأيضا على السافوا وعلى جنيف فقمت بزرع مخبرين سريين على الحدود فى تورينو وفى شامبيرى وجنوا وأحيانا متقطعة فى ميلانو وجنيف . مراسلات هؤلاء العملاء أفادت بوجود مشاريع غامضة [...] وكل ما كان يدور حولى وتحت نظرى كان يؤكد شكوكهم ...»

بينما كان ينشر شباكه التى سيقع فيها الثوريون من المناطق المحيطة كان دوساز يشجع « طافئ الأنوار » على الإنتقام من الحزب الليبرالى الذى ينتمى إليه الشقيقان شامبوليون .

فى نهاية يوليو ١٨٢١ علم جان فرنسوا أنه وأخاه قد طردا من المكتبة (وكانا قد أستعاداها العام السابق) لأسباب سياسية كما هو واضح : فطلب على الفور مقابلة المحافظ . ويلقى وصف مقابلته هذه مع البارون المرعب الضوء على شخصية وعلى نوعية العلاقات التى كانت له مع السلطة .

* جمعية سياسية سريه نشأت فى إيطاليا لمناصرة الأفكار الليبرالية فى أوائل القرن التاسع عشر وإنتشر فى فرنسا فى تلك الفترة (من ١٨٢٠ حتى ١٨٣٠)

** بطل رواية ستندال [المترجم]

وجد شامبوليون أمامه رجلا « محرجاً [...] من خلال أدبه الجم » وهو يوضح له أنه يريد أن يبقى « محايدا » فى هذا الموضوع المتعلق بالمكتبة . كيف ؟ هل يمكن أن يكون الرء محايداً بين العدل والظلم ؟ ويضيف الضيف أن مثل هذا الصمت « سيطلق العنان للإفتراء وتشويه السمعة » بل يكون رفضاً بينا للعدل يصيب أثنين من الأبرياء »

أبرياء ؟؟ بدأ المحافظ يتململ مذكراً « بالأراء السيئة » التى عبر عنها الشقيقان شامبوليون فى العديد من المناسبات . وعلى الفور يعبر جان - فرنسوا عن غضبه : « إذا كانت تحت يدكم أعمالا غير قانونية قمنا بها فأحيلونا إلى القضاء المختص !» هنا وجد دواساز نفسه فى مأزق فأفصح عما يعرفه : إن مراسلات الشقيقين هى التى تغضبه . هنا يقفز جان فرانسوا من فوق مقعده ويطالب بالأدلة وهنا يقع المحافظ فى خطأ غبى - وذلك على الرغم من ذكائه المعهود - فأخرج من درجه ملفا يضم - حسب قوله - نصوصا تعكس ميول فيجاك المؤسفة عندئذ ينظر جان - فرنسوا إلى محدثه باحتقار قائلا :

> « من هو الإنسان الحقير الذى سمح لنفسه أن يعتدى على حرمة مراسلات خاصة ؟ منذ متى تعامل المراسلات العائلية كآلة للاتهام ؟ هل تجرؤون على تقديم مثل هذه الأدلة ضدنا إلى القضاء ؟»

أمام هذا النقد الشديد لم يجد البارون دوساز سوى ليبرر موقفه إلى أن يقول ببساطة أن الحكومات مضطرة لأن تتصرف بهذه الطريقة وأن الحقيقة هى أن هذا النوع من الإجراءات لم يبدأ بعد عودة الملكية إنما هو إجراء قديم لم يلغ بعدها ... منذ ذلك اليوم فإن البارون النيل سيضمر للرجل الذى أهانه بهذا الأسلوب وإضطره إلى أن يكشف وسائله ، كرها عميقا له مايبرره . ومن بعد سيكون الصراع بين الرجلين دون هوادة * .

فى نهاية فبراير ١٨٢٠ ألقى المحافظ القبض على عميل من ساردينيا « كان لا يجالس سوى أكثر الرجال خطورة فى جرونوبل » : وجدمعه مشروع مؤامرة أعدت فى تورينو ولها تفريعات فى جرونوبل وليون . اسرع دوساز بتحذير بلاط بيمونت - وساردينيا - إلا أن صاحب الجلاله ملك بيمونت وساردينيا أفاده بأنه « واثق من حب شعوبه له » . غير أن الخطاب الملكى وصل إلى محافظة جرونوبل عندما كان « فيكتور أيمانويل » قد إضطر إلى التنازل عن العرش (من كثرة عواطف شعبه) ولجأ إلى فرنسا .. كيف لا يجد البارون المتشدد فيما حدث سبباً يزيده تشككاً » ؟

---

* يقول ايمية فيجاك - شامبوليون فى الشقيقان شامبوليون أن عمه فى حمية النقاش نعت البارون بأنه « روبسبيير » وكان هذا قمه السباب حينذاك . غير أنه لا يوجد ما يؤكد هذا الكلام .

عندما تحولت شكوكه إلى يقين قرر دوساز أن يفتح مراسلات مواطنيه فوجد فيها البراهين التى كانت تنقصه حتى الآن : وفيها أن الكتيبة العاشرة كانت ضالعة فى المؤامرة . وعندما استدعى الضباط للتحقيق إتهم المحافظ العديد منهم بأنهم إشتركوا فى إجتماع تآمرى . أجابوا بأنهم إجتمعوا فعلا عند مسيو رونولدون ليشربوا كأساً من الخمر » . فقفز دوساز من مقعده حسب قوله هو شخصيا : « غير صحيح ! لم تشربوا خمرا بل أن كوب ماء واحداً لم يشرب » خلال الاجتماع .

شربوا أم لم يشربوا ، المهم هو أن محور هذه المناقشات كان شارل رونولدون ابن عمدة المدينة فى العصر الأمبراطورى وهو أحد شخصيات الحزب الليبرالى والصديق الحميم لجان - فرنسوا شامبوليون . كانت القصة منذ بدايتها تمس عن قرب البروفيسور الشاب ، كما أن الرسائل التى فتحها المحافظ الرهيب كانت بها دلالات كاشفة لهذا الموضوع : فقد تردد فى خطابات «صغير» اسم « شارل » الذى أصبح محور القلاقل كما يوضحه بقية ما جاء فى سرد البارون :

« فى العشرين من مارس قبيل الساعة الثامنة أسرع نحوى أحد المخبرين قائلا أن تجمهراً كبيرا يتبعه وهو يتجه إلى مبنى المحافظة . وبالفعل غزت عدة مئات من الأفراد الحديقة وتعرفت فى وسطهم على بعض جنود الكتيبة العاشرة [...] حشد كبير منهم وصل إلى مكتبى [...] فتحت الباب ثم قفلته على الفور بعد أن دخل مندوبان منهم كان فى يدى مسدساً وضعته على صدر السيد / رونولدون وكنت أعرف أنه قائد المؤامرة [...] قلت له أنى سأرديه قتيلا إن هو تحرك [...] وأنه سيعرف نفس المصير لو مرت خمس دقائق دون أن تكون دارى قد أخليت تماماً من المتظاهرين » .

« [...] رجانى رونولدون أن احتفظ بهدوئى مؤكدا أن أحداً لايكن له أى ضغينه وأن هدف هذه الحركة الوحيد هو إحلال العلم المثلث الألوان محل العلم الأبيض كما حدث فى باريس بعد أن تنازل لويس الثامن عشر عن العرش للدوق دورليان . [...] أجبته أن كل ما جاء فى تأكيدة هذا غير صحيح وكررت عليه تهديدى بأن يجلى عن المقر وأن يصرف الجميع وإلا فإنى سأنفذ تهديدى [...] بدالى رونولدون متردداً .

« [...] أطلقت سراحه .

« خرجت من المحافظة [...] لدى وصولى إلى ساحة السلاح أحاط بى مائه من الشباب يحملون العلم الثلاثى الألوان وهم يهتفون : « يسقط المحافظ » « يسقط الفنديانى * » « يسقط الشوان* » كنت أقف وحدى مرتديا زى المحافظ حملت السيف فى يدى وهددت باستخدامه ضد من يقترب منى إلى أن وصلت إلى فسقيه فى وسط

---

* اسم أطلق على الثوريين الملكين المناهضين للثورة الفرنسية فى غرب فرنسا وكان على رأسهم من يدعى «شوان » وانسحب الاسم على الثوار أيضا [المترجم]

الساحة فاسندت ظهرى إليها وصددت المهاجمين بما يكفى من وقت لوصول جنود قادمين من موقع قريب لنجدتى [...]

« الجنرال دو لاكروا * [...] قرر تفريق التجمهر ، ولكنه فعل ذلك بتراخ وصلت درجته إلى حد أنه لم يلق القبض على أحد ولم يصادر علم ثلاثى واحد من الأعلام التى التفوا حولها . لقد اعتقد أنه فعل أكثر مما ينبغى لأنه ضرب بمسطح سيفه المدعو رونولدون الذى وجده واقفا وحده وقد رد عليه هذا الأخير بعدة ضربات من عصاه[...].

« أجبرتنى مشاركة مدرسة القانون فى الإنتفاضة إلى أن أصدر قراراً باغلاقها مؤقتا كما أمرت باعادة الطلبة إلى بلادهم [...] [...] إن ميول سكان جرونويل المناهضة للملكية بدأت تتسلل إلى نفوس الشباب دون أدنى مقاومه لهذا التأثير الضار [...] ألقيت القبض خلال الإضطرابات على بعض القادة إلا أن روندلدون والعديد من الضباط بنصف مرتب تمكنوا من الهروب ...»

لم ترد كلمة واحدة فى هذه المغامرة الغريبة عن جان – فرنسوا شامبوليون ** ولاعن « القادة » الآخرين الليبراليين : بلاننا الذى لابد وإنه شعر أنه فى هذا الجو مثل السمك فى الماء ، تريول ، أوجوستان تيفونيه ، فليكس ريال والآخرين علما بأننا نعرف أن صديقنا عالم المصريات كان مشتركا إشتراكا فاعلاً فى هذه العملية .

يقول إيميه شامبوليون – فيجاك على الرغم من حذره التام لدى الحديث عن أراء عمه وسلوكه السياسى خوفاً من أن يظهره كانسان مثير للشغب – « شارك شامبوليون الأصغر فى هذا التمرد بعد أن إستدرج فيه رغما عنه بسبب صداقته لرونولدون وتيفونيه وباتيست فروسار الخ ...» (11)

ومع ذلك فإن صاحب كتاب **الشقيقان شامبوليون** فضل أن ينقل هذه الملحوظه الشيقة عن جان فرنسوا : « كان شامبوليون الصغير يقول فى ذلك الوقت بعد أن قبل بشئ من الفلسفة الموقف الذى وضعته فيه الظروف « ربما يجبئ يوم يظهر فيه الإستيلاء على قلعه جرونويل دون إراقه دماء على يد عالم أثار فى سجل أعمالى الأدبيه فى زمن غريب »(12)

---

* أو پامفيل لاكروا .

** دوساز سيلزم دائما الصمت حياله .

ماذا يعنى « إستيلاء على قلعة » ؟ فى كتالوج معرض شامبوليون الذى نظمته مدينه جرونوبل عام ١٩٨٦ تحت رعاية جميع المؤسسات العلمية فى المدينة مثل المكتبة والأرشيف والمتحف والليسية والذى كتبه المؤرخ جـ . و . دوربماز نقرأ ما يلى : « فى ٢٠ مارس ١٨٢١ [...] إشترك جان – فرانسوا شامبوليون مع تيفونيه وروندولدون فى محاولة إنقلابية إختلط فيها الجمهوريون والبونابارتيون وأنصار دوق دورليان . هاجم شامبوليون واستولى على حصن راتو .... (13) » .

وتضيف هيرمينى هارتلويان فى كتابها عن سيرة شامبوليون هذه التفاصيل الإضافية : « سلك فى سكون تام عدد كبير من المؤيدين للحركة تحت قيادة شامبوليون وتيفونيه الطريق الملتوى المؤدى إلى الحصن ثم تم التغلب على الحرس وإقتحام بعض الأبواب وتجنيد بعض أفراد إحدى سرايا الكتيبة العاشرة للمهمة . حاول فقط بعض من حاملى الرماح كانوا يعملون فى الاسطبلات أن يقاوموا . ولكنهم حوصروا داخلها وأغلقت عليهم الأبواب والنوافذ فحيدوا تماما . بعد دقائق قصيره إمتدت يد شجاعه – وهى يد شامبوليون – وأنزلت العلم الأبيض ورفعت الألوان الثلاثة على قمه حصن رابو وهكذا رفرف علم الحرية وأصبح مرئياً من بعيد جداً وحياه آلاف الأشخاص بالهتاف» . (14)

ياه !... الحراس « حيدوا » وحاملو الرماح حبسوا ! علم الملكية أنزل والعلم ثلاثى الألوان رفع ! ما يكفى للذهاب بصاحبنا إلى مناطق بعيدة ... ألم يمض على قضية ديدييه سوى خمس سنوات ودوساز يجمع فى يده أدلة على التآمر مع الخارج أكثر مما جمعه بالانتا رئيس المحكمة الاستئنائية . كما لم يكن الجو السياسى بعد عام من إغتيال دوق دوبيرى وبعد أن ترك مونليفو وبينا مكانهما لدوساز وبيلا نيللى أكثر تأييداً « للجاكوبين » ولأصدقاء المغتصب مما كان عليه الحال فى ١٨١٦ .

لاشك أن شامبوليون الصغير قد جابه خطرا عظيما بعد أن ثبت إشتراكه فى محاوله إنقلابية . كان البارون – المحافظ والجنرال بامفيل متعطشين للإنتقام خاصة وأنهما اساءا التقدير مثل سلفيهما وصاروا أضحوكه أمام الناس فطالبا بضرورة تنفيذ عقوبة مثالية على روندلدون وأصدقاءه . فهل يعنى ذلك المثول أمام محكمه عسكريه ؟ الملك كان رحب الصدر وأرسل على عجل إلى جرونوبل المارشال فيكتور دوق دوبللون لتهدئة النفوس وتأييد الشجعان وإجراء التحقيقات وإقامة العدالة .

المارشال الدوق شخصيه غريبة أخرى . فهو مثال للجندى الذى وصل إلى رتبته بالصدفة . أصله من مدينة ڤالانس عازف موسيقى متجول وتتطوع فى الجيش تحت اسم ڤيكتور . كعازف ترومبيت لفرقة المتطوعين فى العام الثانى من التقويم الثورى .. وكان اسمه الحقيقى هو كلود بيران . الكسندر دوما كتب عنه مرة فى أحد مؤلفاته أنه .

شارك حياة « الآنسة موجيه » ؟ الواقع أن نابوليون جعله فى ١٨٠٧ ماريشال فرنسا وفى ١٨٠٨ جعل من هذا الشجاع المقدام قصير القامة الجعجاع ودوقاً لدوبللون (دون أن يكلفه بقيادة ذات بال) . بعد إنضوائه تحت لواء آل بوربون بمنتهى البساطة كلفوه ببعض المهام المتواضعة . ومنها هذه المهمة على سبيل المثال .

عند وصوله إلى جرونوبل نما إلى علم عازف الترومبيت أن أحد أعيان المدينة وهو جنرال على المعاش كان قد ألف عددا من المارشات العسكرية لتعزفها فرقة لوائه الموسيقيه ولم يكن هذا الجنرال المتقاعد سوى صديقنا القديم جويار دو لاسالات الذى كثيراً ما رأيناه يجند الشقيقين شامبوليون ليساعداه فى أبحاثه الموسيقية المستمرة ، ذهب المارشال فيكتور بنفسه عند رئيسه السابق لزيارته – مما كان له بالغ الأثر فى نفوس سكان جرونوبل فحوروا اسمه من باللون إلى بوسولاى* .

أول من أفادته هذه الزيارة كان جان – فرنسوا شامبوليون الذى صدر قرار بالقبض عليه . ومن كان أقدر على الحديث عنه بأحسن الكلام ومن موقع العارف بالأمور إلى الزائر صاحب السلطة سوى الجنرال الطيب دولاسالات ؟ فهو مديون له بالعديد من الخدمات وهو زميله فى الأكاديمية الدوفينية وأفكاره السياسية قريبة جداً منه ؟ باختصار جاء القرار بأن عالم اللغويات حامل العلم المثلث الألوان لن يمثل أمام القضاء الاستثنائى ولكن أمام محكمة أقل خطورة من المحكمة الخاصة التى تكلمنا عنها فى السابق .

عاد جاك – جوزيف على عجل من باريس لمؤازرة أخيه أمام محامى الإدعاء الذين جندهم المحافظ ... مذكرة الدفاع عن جان فرنسوا – الواضح أنها بقلم اخيه الأكبر – من المحفوظات التى رجعنا إليها وكان ذلك بالنسبة لنا بمثابة فك شفرة هيروغليفيات فيجاك بدلا من خط صغير « المكتوب » وعلى العموم فأن هذه المسودة تستحق فك شفرتها « قرأت ببالغ الأسى – ولعل غيرى يقولون لبالغ الحزن [...] الخطبة التى ألقاها ضدى [...] السيد المفتش تريجيزو فى ٢٤ أبريل حول بعض الإعاءات المقدمة ضدى .. » وبعد هذه البداية المبنيه على البراءة المجروحة ذهب الشقيقان بعيداً فى الهجوم المضاد .

مهمة النيابة العامة هى إعطاء البيانات أى جمع الحقائق وعرضها فى حياد [..] وفى غياب ... [النص هنا غير مقروء]

« ما حدث فى جرنوبل فى ٢٠ مارس ١٨٢١ كان موضوع تحريات مكثفة جداً وجميع أجهزة الشرطة قدمت [غير مقروء] : لم يرتفع صوت واحد ضدى [...] لايوجد

* باللون بالفرنسية Belle Lune أى القمر الجميل وبوسولاى هى Beau Soleil أو الشمس الجميلة [المترجم]

شهادة واحدة يمكن تقديمها باعتبار أنها قائمة على أسس ذات بال [...] يعتقد السيد البارون دوساز أن فى إمكانه أن يتهمنى بأنى ظهرت وسط جماعة من المتمردين [...] السيد المحافظ كان موجودا شخصيا فى المكان مع القوة المسلحة .[...] لقد ألقيت الدروس من الثامنة إلى العاشرة يوم الثلاثاء ٢٠ مارس . كما فعلت نفس الشئ الأربعاء ٢١ ، الخميس ٢٢ تناولت الغذاء فى المدينة مع بعض الأساتذة وهم سيشهدون بذلك . أما الجمعه ٢٣ إذ كنت مريضا .. [غير مقروؤ] « ... إن سمعتى هى ملك لأسرتى ولأصدقائى و [لوالدى أو لوطنى ؟] وللتعليم الذى أتشرف بالانتساب إليه منذ أثنى عشر عاماً ، ولعلى أقول أيضا للتاريخ الأدبى الفرنسى من خلال الأعمال التى نشرتها والتى أعدها للنشر . يجب على إذن ألا أترك نفسى تتأثر سلبا بالظلم ...»

الجملة الأخيرة لنبلها تساوى أكثر من الباقى كله الذى يقوم على القول المشهور : لاتعترف أبداً ! » كما أننا نسجل هنا هذا الدفاع الغريب : أنا وسط المتمردين ؟ المحافظ نفسه كان موجودا وسطهم أيضا !

باختصار : كان دفاعهم هو أنه غير مذنب والتنديد بالحكمة وهو لايخلو من الجسارة : فقد رأينا عندما نقلنا عن مصادر مؤيدة لقضية شامبوليون أنه إشترك فى تمرد يصعب وصفه بأنه كان « مسلحاً » ولكنه تمرد أخذ بالفعل شكلا من أشكال الانتفاضة الشعبية مهدداً لممثل السلطة الأول فى المنطقة فى جسده ومستميلاً بعض أفراد القوات المسلحة ومعلنا بأعلى صوت وقوفة إلى جانب تغيير طبيعة النظام سواء كان ذلك لصالح مناصرى دوق دورليان أو بونابات .

غير مذنب ؟! كان موقفا تكتيكيا لايعكس الحقيقة . إن ما تلى ذلك من الإفراج عنه هو شهادة لصالح هذه الحكومة الملكية ، فهى نفس الحكومة التى إقتصت من الشقيقين لانضمامهما لحركة المائه يوم ولكنها أعفت عن هذا المربى الذى نزل إلى الشوارع إلى جانب جنود متمردين وتحدى دون تحفظ الوضع القائم . ويتضح أنه توجد حالات يكون من الأفضل أن تكون فيها معلماً مكللا بالشهرة يمكنه بذلك أن يخدم أمجاد النظام على أن تكون صانع مفاتيح أو عامل بناء ، هذا هو وضع جان - فرنسوا شامبوليون فى مارس ١٨٢١ .

كان ثمن ذلك بالتأكيد أنه اكتسب كنيه « روبيسبير جرونوبل » وهى تسمية كان سيسعد لو أمكن الإستغناء عنها فى وقت كانت الرياح تهب كالعاصفة - من محافظة جيرنوبل إلى أكاديمية المخطوطات والآداب - فى إتجاه الثورة المضادة ، وبالفعل ما أن مرت ستة شهور إلا وتشكلت الحكومة برياسة ڤيللال التى أتت بالمتطرفين إلى مركز

السلطة . وهكذا كان البارون دوساز – فى الدوفينيه – يستمرئ إنتصاره ويرى هيبته تزداد جلالاً بسبب وضوح الرؤيا التى أثبتها عندما توقع حدوث قلاقل شهر مارس ١٨٢١ والصلابة التى واجه بها .

روبيسپيير ؟ لجأ جان فرنسوا ذاته إلى هذه المرجعية فى خطاب حرره أثناء وجوده فى مقاطعة كارسى : كان يشكر فيه بعض سكان جرونوبل عبر صديقه تيڤونى لخدمة أدوها له ثم يضيف : لعل فى ذلك إلقاء الشكوك حول إنسان يود لو لم يعرف عنه أنه أدى خدمة « لروبيسپيير مثلى » ...

مهما كانت أوجه الشبه قليلة جداً بين أصغر الشقيقين شامبوليون وصاحب قوانين « شهر بريريال » إبان الثورة إلا أنه كان – كما نقول فى أيامنا الحالية – « يساريا جداً » يجب ألا ننسى أن الجمعية السرية المسماة « الاتحاد » وكان هو أحد مؤسسيها كان هدفها الأول ليس أقل من « تشكيل أركان قيادة حركة ثورية للمستقبل [15] » . وهذه الجمعية هى التى أثارت « فضيحة » إنتخاب جريجوار الثورى وعضوا الجمعية التأسيسة للثورة الفرنسية – فى انتخابات مقاطعة الإيزار . وبهذه المناسبة فإن محرك « المؤامرة الأخيرة وصاحب فكرتها – جوزيف راى – حكم عليه غيابياً بالاعدام وإضطر إلى أن يلجأ سياسيا إلى أنجلترا .

فى ١٨١٥ دفع جان – فرنسوا ثمن « النخب فى صحة الجمهورية » بان نفى .. وفى ١٨٢١ لأنه « عبر من القول إلى الفعل » فإن حالته كانت أخطر بكثير . لأن النخب أصبح عملا وأى عمل ! الإحلال العلنى للعلم المثلث الألوان محل الرمز الزنبقى الملكى بمناسبة ما أشيع عن وفاة الملك ... أى أنه قاتل رمزى للملك ... ومن هنا حصل على كنية « روبيسپيير » التى ظلت تطن فى أذنيه فترة طويلة ..

لم يتمكن البارون دوساز من جره أمام قضاة المحكمة العسكرية . إلا أنه سيجعل من حياته جحيماً بما له من وسائل تستحيل معها إقامة شامبوليون فى الدوفينيه فقد سحبت منه وظيفة التدريس فى المدرسة الملكية ، أما مدرسة مونفلورى فقد أغلقت أبوابها فى العام التالى . ومن جهة أخرى كان قد صدر قرار يعده بإنشاء كرسى للتاريخ فى الجامعة ، هذا القرار ألغى .

هنا أرسل «صغير» لأخيه صرخة النجدة ! وجاك – جوزيف الذى كان يمضى بضعة أسابيع من خريف كل عام (ما عدا خلال فتره القضية) فى منزله فى ڤيف إلا أنه كان يرفض الانغماس فى « حمى » جرونوبل – لبى هذه المرة النداء وعاد إلى هناك

فى يونيو ١٨٢١ بعد أسابيع قليلة من وفاة بونابارت فى سانت هيلين . وكانت مناسبة لكى يعاتب أخاه الصغير : هل كان ذلك سيحدث لوأنه إصطحبه إلى باريس ليكون بجوار مسيو داسييه بدلا من أن يتزوج هذه الزيجة التى لا تليق به ويعود إلى جرونوبل ؟

كان لدى جان - فرنسوا ما هو أفضل من الدفاع عن حياته الخاصة إذ فضل إطلاع مرشده العزيز على أخر أعماله فى مجال الخط الديموطيكى وفى رسم سبعمائة شكل هيروغليفى وهيراطيكى على ألواح معدة للطبع الليتوغرافى . لقد كان فى حالة إعياء كامل من الإنفعالات النفسية والعمل ... هل كان يعرض على أخيه نتائج أعماله ليبرر إقامته فى جرونوبل أم كطالب تأشيرة سفر إلى باريس ؟ الإجابة هى لانعرف . إلا أن الشئ الواضح ولابد أن جاك - جوزيف ردده له هو أن الوقت قد حان لكى يستخلص النتائج المترتبة على التدهور الرهيب الذى طرأ على موقفه فى جرونوبل المتزامن مع التقدم الهائل الذى حققه فى أبحاثه العلمية . كل شئ كان يتفق ويساعد على إتخاذ قرار الخروج » (أو الصعود) إلى باريس .

فى ٨ يوليو كتب إلى جاك - جوزيف من فيف :

« شربت أخر قطرة فى كأس المرارة الجرونوبلوازى . لا يوجد ظلم واحد يمكنه أن يطولنى الأن وليس لدى شئ ما أخسره هنا [...] قرر المجلس (الأكاديمى ؟) فى ٢٣ يونيو أنه توجد أسباب تستدعى المضى فى القضية وأن الوقائع المنسوبة إلى من إختصاص القضاء العادى [...] كانت هذه هى الضربة الأخيرة التى يمكنهم توجيهها إلى [...] العالم كله يصرخ لى : غادر ، سافر ، رفه عن نفسك [...] سأسافر* .

لم تكن الإجراءات القانونية ضده قد توقفت إذن وكان على صغير أن يواجه « المحاكم العاديه » . كيف والظروف هكذا تمكن من مغادرة جرونوبل والإيزار كلها ومن الهروب من البارون المرعب ؟ كل شئ يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا المحافظ المتشدد فضل أن يغمض عينيه - فهو فطين كذلك - ليتخلص من مشكلة حية وليحرم جرونوبل من مثير محتمل للشغب وليهدى باريس مكتشفاً عبقرياً . مجموع هذه الملحوظات أو

* كتب لاخيه فى خطاب أخر : « أفضل أن يرسلونى إلى سيبيريا عن أن أمضى شهرين أخرين فى هذه المدينة التعسة ! » .

الإفتراضات هى بمثابة دفاع عن الإدارة خلال مرحلة عودة الملكية . تجعلنا نقرر أنها - فيما عدا قلة من المتطرفين - كانت تميل جداً إلى النسيان .. سافر فى ١١ يوليو بصحبة صديقه دوفليار - إذا أنه كان أضعف من السفر وحده - تاركا روزين لتتصرف فى الشئون الجارية » وبعد إستراحة دامت ثلاثة أيام فى ليون وصول جان فرنسوا إلى باريس فى ٢٠ يوليو ١٨٢١ .

جان فرنسوا عمره الآن ثلاثون عاماً أمعن البحث فى رموز مجهولة . كان معلما - ألقى بنفسه فى أكثر المعارك السياسية ضراوة وغامر بحريته بل بحياته من أجل أفكاره . أحب سيدتين وتزوج من الثالثة . سلح نفسه بالاداة العلمية والأسلوب وجمع المواد وعقد التحالفات وأثار العداوات من أجل هدفه الأساسى .

منهك قبل الأوان ، ينخر المرض داخله ولعله الدرن . تلاحقه الاختناقات والغشيان والدوار ، سيستمر فى نضاله وهو عاكف بوجهه الأسمر بلون قراصنة البحر الأحمر على لوحه المليئة بالصور والرموز والعصافير وأوراق اللوتس والكتبة الجالسين القرفصاء . والصقور وأوراق النخيل ... كل ذلك حمله معه وهو محموم بالمرض فى العربة التى ستوصله إلى باريس .

كان جان - فرنسوا . هو اليوم شامبوليون . يستعد ليكون المكتشف . كم هو بعيد الآن « روبيسبيير ! »...

٩ - أوديب : من قرن لآخر ...

« نقش مقدس على الحجر » - اللغز المعلن - العصور الثلاثه « لإعاده - المعرفة » كيرشار العظيم - الدور الذى قام به لايبنتز - واربورتون وماليين - جينى وصينيون - الأب بارسليمى الذكى جدا - نيبوهر المقدام - تحية إلى زوويجا - أثنان من الأبطال وحجر - تلقائية نبيل سويدى - تحت أعين الأخوة هامبولدت ...

« ختم موضوع على شفاة الصحراء » .. الصورة الأدبية لشاتوبريان وإن كانت تبدو عرجاء إلا أنها توضح بأفضل الكلمات « الصمت الأبدى » الذى ختم به قرار الإمبراطور تيودوز بتحريم إستخدام الكتابة المقدسة للحضارة النيلية . ومثلما فعل الأب سيكار فى هيرمويولبس عام ١٦٥٠ حدث أيضا لفاسلاب ويوكوك ونوردن وساڤارى وڤولنى وهم أعظم العلماء المرافقين لبونابارت عندما وقفوا يشاهدون بعيون مبهورة حوائط المعابد والمسلات التى نقشت عليها صور لكتبة وهم يقدمون للملوك « لانعرف ماذا ... » .

نظام الكتابة كان مشفراً - وإن لم يكن كذلك فى البداية ؛ إذ إن الكتابات المبسطة - الهيراطيقة والديموطيقية - تثبت أن الكهنة / الكتبة لم يعملوا على أن تبقى كتاباتهم سرا للعامة - ولكنها أصبحت مشفرة منذ الفترة التى أصبح فيها إحتمال وقوع المبادئ التى تقوم عليها السيطرة المتأصلة فى الزمان على الكون إحتمالاً قائماً فتضيع هذه السيطرة تحت هجمات الفرس والمدونيين والرومان .

فعلى سبيل المثال ،إذا حدث أن حرم أحد غزاة إيطاليا أو فرنسا إستخدام اللغة الوطنية فى الكتابة فإن استمرارية هذه الكتابة ستكون مؤكدة من خلال ألف وسيلة . أما فى مصر فى نهاية القرن الرابع الميلادى فإن صدور الأمر الإمبراطورى عام ٣٨٤ جعل فهم الكتابة الهيروغليفيه غير ممكن بعد وفاة أخر كهنة أمون .

منذ بداية القرن الخامس لم تعد « الحفريات المقدسة على الحجر » - وهى الترجمة الكاملة لكلمة « هيروغليف » - وهى التى أعطت أقدم إمبراطورية فى التاريخ بناؤها الفكرى والروحى سوى لغز مطروح على علماء اللغويات فى جميع بلاد العالم بما فى ذلك مصر ذاتها . اليونانيون والرومان المعاصرون لأخر أجيال الكهنه الكتبة راحوا هم أيضا يتلعثمون ويتحسسون الطريق دون جدوى بعد أن أصبحوا غير قادرين على نقل مبادئ هذه الكتابه ووسائل حلها بطريقة سليمة .

إذا نحن فى الواقع بحثنا عن بداية محاولات فك الشفرة فسنضطر إلى الرجوع فى القرن الأول إلى شيريمون وهيرماپيون لكى نحصل على مراجع ذات بال . إذ بينما كانت الحروف الهيروغليفية تحفر على الجدران القائمة على ضفاف نهر النيل من سايبيس إلى فيله كان العلماء اليونانيون أو البيزنطيون يعتبرون أنهم يتعاملون مع القضية وهم يعكفون على حل شفرة العلمات التى إخترعها الآله تحوت - والتى جعلت منه الثقافة اليونانيه إلاهها هيرمس .

ما يمكن تسميته جزافاً بالبحث الإيجيبتوجرافى ينقسم إلى ثلاثة مراحل تاريخية : مرحلة « أصحاب التخمينات الجزافية » ثم مرحلة جامعى الرموز وأخيراً مرحلة الباحثين فى حجر رشيد .

كل شئ بدأ فى القرون الأولى من التقويم الميلادى بتدخل « أشباه العارفين بالامور » تدخلا مشوها ومتناقضا وهم ما أطلقنا عليهم اسم « الجزافيين » من - أباء الكنيسه « العلامة » والرهبان والرحالة والمؤرخين . فمن الإسكندرية إلى بيزانطه أخذوا يجمعون ولعدة قرون (وهم يعتقدون أنهم يفهمونها) المعلومات والنصوص والإفتراضات بل وأحيانا أجزاء بسيطة من نصوص مكتوبة بلغتين . سرعان ما سيصبحون هم أنفسهم موضع بحث بدلا من أن يكونوا باحثين . ومن خلال هذا المنظار المشوش بسبب الأقوال المنقولة والتقريبيات والتراث بدأت بعد ذلك باثنى عشر أو خمس عشر قرنا أعمال علماء اللغويات .

مرحلة البحث الحقيقى بدأت حول عام ١٦٤٠ على يد أثاناز كيرشار ونحن نتساءل هل فتح هذا الأب اليسوعى القادم من مقاطعة هيس الألمانية سبلا أمام البحث أم أنه طمسها .

الشئ المؤكد هو أنه جزع شجرة المعرفة التى ضربت جذورها فى أرض تقريبيات عصر النهضة والذى يعتبر كيرشار وريثها المباشر . من هذا الجزع سيتفرع العديد من أهل عصر التنوير ، أهمهم فى هذا المجال جابلونسكى ، واربورتون ، بارتيليمى ، جينى و زويجا كل فرد من هؤلاء شارك باكتشاف أو بطرح مشروع بحث مثمر أو حتى بخطأ ساعد على الفهم . المرحلة الثالثة نشأت مع إكتشاف حجر رشيد. إذ قبل الرجوع إلى هذا النص الأشهر المكتوب بلغتين مختلفتين * كان محكوم على أعظم المفكرين أن يلعبوا لعبة « حذر فذر » . ومع بداية القرن التاسع عشر أعطى اكتشاف هذا اللوح

* لغتان وثلاثة كتابات .

الذى هو بمثابة « الواح العهد » دفعة هائلة لعمليات فك الشفرة الحقيقية وبعد أن إستعصى على عالمين من كبار الباحثين على الأقل سمح هذا الحجر للدكتور توماس يانج أن يستولى على حصون المقدمة لهذه القلعة المنيعة ، التى هى بمثابة جزر الكاريبى بالنسبة لمكتشف أمريكا . وأخيرا جاء جان - فرنسوا شامبوليون ليجعل من هذه اللعبة الإلهية علماً .

إذا كانت الأحجار العتيقة ترفض أن تتكلم فإن الوسطاء كانوا منذ البداية يعرضون أنفسهم للباحث أو للزائر . بالنسبة للباحث عن الحل فى المرحلة الأوروبية القديمة كان الوسطاء ذوو الشهادة الغامضة والعلم المشكوك فيه هم - من بين أخرين - شيريمون وهيرمابيون وهورابوللون وكليمان السكندرى . أول هؤلاء بقى مجهولا لفترة طويلة جداً ولم يكشف عن مساهمته سوى راهب بيزنطى إسمه تزيتزيزاس بقى فى طى النسيان حتى منتصف القرن التاسع عشر . وهو الوحيد من بين هؤلاء الشهود الذين لم يحسنوا الانصات الذى أشار بشئ من وضوح الرؤيا * إلى أن الأصوات والصور تتداخل فى الكتابة الهيروغليفية .

المساهمة التى أتى بها الثانى - وهى مذكوره فى كتاب «التاريخ» لأميان مارسولان - كان يمكن أن تكون ذات قيمة حيث أنه جاء بترجمة تقريبية بلغتين لنص يزين مسلة أقامها رمسيس الثانى فى هيليوبوليس وتم إهداؤها إلى القيصر أغسطس فى القرن الأول . إلا أن هذا المستند الذى يعتبر من أجداد حجر رشيد لم يجد من يستغله من الباحثين . أما هور ابوللون وكليمان السكندرى فقد قدما للعصور التاليه** لهما وصفا للمنظومه الهيروغليفية أدخل الباحثين إلى مجاهل التيه . تقوم الطريقة البحثية للأول على ضرب أمثلة لاحصر لها يحاول أن يثبت بها الصفة الرمزية والمجسدة للأفكار التى تعبر عنها هذه الكتابة . وقد كان لخياله الخصب تأثيرا ترفيهيا حقيقيا لعلماء اللغات . فهو على سبيل المثال يؤكد أن كله « يفتح » تكتب بصورة الأرنب ؛ لأن هذا الحيوان تبقى عيونه دائما مفتوحة والرقم خمسة تمثله النجمة ؛ لأن النجمه لها دائما خمسة أضلاع .

إلا أن العلم المعاصر يميل إلى إعطاء هذا التلاعب بالكلمات حقه بسبب بعض أرائه ذات القيمة .

أما كليمان السكندرى وهو أحد أساقفة الكنيسة وأحد أبائها أيضاً ، فقد كان أكثر طموحا إذ عمل على إقامة نظام متكامل يميز فى الهيروغليفيات بين عدة طرق

---

* راجع هنرى سوتاس - مقدمة الطبعة الجديدة « للخطاب إلى السيد داسيه ١٩٢٢ ص ٣١ .
** الأول فى مؤلفاته « هيروغليفيكا » والأخر فى « الستروماتا»

للتعبير : الأول مباشر عن طريق المحاكاة ، والثانى رمزى عن طريق المماثلة بين الأشياء والثالث رمزى أيضا ولكن عن طريق التورية والألغاز . هكذا ضمن الأسقف السكندرى لنفسه أنه وضع بصمته أمام التاريخ على الطرح الذى ظل سائداً فى التاريخ القديم ، وهو القائل بأن الرموز الهيروغليفية هـى نوع مـن الكتـابة يعـبر الرمز الواحد فيها عن فكرة وأنها كتابة رمزية * .

هذا التصور « المتسامي بمصر » من خلال كتابتها ، وهو التصور الذى زاده الأفلاطونيون الجدد أبناء عصر النهضة الإيطالى «مثالية» حسبما يقول فى كتبه إريك إيفرسان . هذا التصور ظل ملقياً بثقله على البحوث فى الشأن المصرى حتى نهاية القرن الثامن عشر لدرجـة أن كـل مجهود وكل عبقرية الباحثين من زويجا إلى يانج ومن أكربولد إلى شامبوليـون سيتركز تحديدا فى البحث عن الصوت الكامن وراء الفكرة ** ...

عالم اللغويات الكبير هنرى سوتاس [1] يرى فى الخطأ التوجيهى الذى إرتكبه القدماء « حكماً مسبقاً طبيعياً للغاية » ؛ إذ كيف يمكن أن نتصور مقدماً أن هذه الرموز ذات الأشكال عظيمة الايحاء يمكن أن تكون مجردة من قيمة الفكرة وأن يبلغ بها الحال أن ترمز لأصوات فقط مثلما هو الحال بالنسبة لحروفنا التى تشكلت بالصدفة ؟

فى تلخيص نقول إن الباحثين المعاصرين دخلوا مهنة البحث مسلحين بهذه البوصله التى تشير إلى الشمال فى اتجاه .

ولايمكن أن نقر بأن رائدهم أثاناز كيرشار قد نجح فى أن ينأى بنفسه من هذه الأحكام المسبقة التى أصيب بعدواها عن طريق الأقدمين العظماء بل أنه زادالطين بلة فى بعض النقاط . وإذا ظلت شهرته كبيرة فلا يعود ذلك إلى أنه كان « أخر البوليماتيين » أى علماء عصر النهضة الذين درسوا وخاضوا فى جميع العلوم والفنون تقريباً – فحسب ، وإنما لأنه شارك مشاركة مهمة فى البحث الهيروغليفى أيضا . فهو الذى وضع مبدأ أن اللغة القبطية هى اللغة التى كان يتحدث بها قدماء المصريين بعد صياغتها فى حروف تشبه الحروف اليونانية وهى تعتبر بذلك الصدى الصوتى للهيروغليفية ....

فى محاضرته الأولى فى الكولاج دو فرانس ، ندد جان – فرانسوا شامبوليون بعنف بالجيزويتى كيرشار ليس لأنه ساهم فى تضليل من سبقوه فحسب ، ولكن لأنه وعلى الأرجح كان ينتمى إلى نظام كنسى يمقته « روبسبيير جبرونوبل » أيضا .

---

* الاشارة الوحيدة لقيمتها الصوتية ترجع كما رأينا إلى شيريمون .
** وسنجد ترديداً لهذا الخطأ الأساسى حتى فى الصفحة الأولى من «خطاب إلى مسيو / داسييه » فى طبعته الأولى .

إذ يقول « الجزويتى كيرشار [...] ضلل معاصريه عندما نشر [...] ما يدعى أنها ترجمات للأساطير الهيروغليفية المنحوتة على مسلات روما وهى ترجمات كان لا يصدقها هو ذاته . فقد وصلت جرأتة إلى أنه كان يدعم ترجماته بنصوص منقولة عن كتاب لم يكن لهم وجود أصلا * [...] لاالعلم ولا الآثار ولا التاريخ كان فى إمكانه أن يجنى ثمرة واحدة من أعمال كيرشار [...] المليئة بالرمز شديد الغموض والأكثر إثارة للسخرية ! » (2)

وحتى عندما يجد نفسه مضطراً لأن يعترف لكيرشار بحقه فى أنه « ساهم فى نشر دراسة اللغة القبطية » فإن شامبوليون ينجح فى الإستهزاء به مرة أخرى فى هذه النقطة ، وذلك بأن يؤكد « أنه حتى فى هذا المجال لم يتمكن أبونا القس من التخلص من شعوذته المعتادة إذ سمح لنفسه بادخال العديد من الكلمات فى قاموس اللغة على أنها كلمات قبطية لسبب واحد هو أنه كان يحتاج لها لدعم شروحه الخيالية » . (3)

مشعوذ ؟ عالم موسوعى ؟ رائد ؟ إن اثاناز كيرشار كان من الشخصيات العامة فهو من أبطال عهد يمكن تسميته « ما بعد عصر النهضة » . ولد - كما تقول كاتبة سيرته جوسلين جودوين - « إما متأخرا أكثر من اللازم أو متقدماً بأكثر من اللازم » فهو لم يكن فى أهمية كيبلار (الذى كلف كيرشار بأن يخلفه فى ڤيينا) ولا نيوتين .

تزين غلاف الأعمال الكاملة للأب أثاناز صورة له كتبت تحتها هذه العبارة الضخمة : « الرسام والشاعر يصرخان دون جدوى : هاهو ! إن وجهه وإسمه معروفان فى جميع أرجاء الكرة الأرضية » . ولد فى مدينة فولدا مقاطعة هاس فى ١٦٠٢ قام بتدرس كل شئ تقريبا (من الرياضيات إلى الموسيقى مروراً بالفلسفة والفلك) وفى كل مكان تقريبا فى مايانس وڤورزبورج وهايلنجستادت هرب من جيوش جوستاف - أدولف ليجد نفسه وقد بلغ الثلاثين من العمر فى مدنية أڤينيون حيث وجهه العالم المشهور نيقولابيراسك إلى دراسة اللغة القبطية من أجل البحث الهيروغليفى .

الجزء الهام من بحوثه فى اللغويات أجراه فى المدرسة المركزية للجيزويت فى روما ، التى كانت تنتشر فيها المسلات شامخة على قعداتها أو مهملة هى وفى جميع الأحوال تعرض نفسها لأبحاثه ... وهنا فى عاصمة البابوية نشر كتابه المشهور : « أوديب المصرى OEdipus AEgyptiacus . غير أن فك الرموز لم يكن سوى أحد الموضوعات العديدة التى إهتم بها هذا « المشعوذ » المتعدد المعرفة فى دراساته . فهو رجل عمل على أن ينزل داخل فوهة بركان الڤيزوف لكى يشاهد عن قرب ثورة بركانية .. كما أنه درس أسباب مرض الطاعون . وكان يراسل ليبنيتز وقام بتدريس

---

* هذا ما كان فى مقدور جوزيف شامبوليون أن يعرفه عام ١٨٣١ وهو لم يكن متاحاً لكيرشار فى ١٦٤٧

المنظور إلى الرسام نيقولا بوسان ، وشارك مع وليام جاسكونى فى إعداد المنظار الفلكى ورمم بيده كنيسة يسوع فى روما وأسس أول متحف فى التاريخ والذى أطلق عليه ببساطة شديدة اسم « **كيرشار نوم** ...»

هل هذا هو كل ما قام به ؟ بالطبع لا ... فهو مؤلف **موسورجيا أو نيفرساليس « الموسوعة الموسيقية العالمية »** وبذلك يكون هذا الأب اليسوعى كيرشار أول عالم فى الموسيقى (بعد بواس ؟) فى التاريخ والمنظر العبقرى لعبور الأسلوب البوليفونى إلى المرحلة الباروك . كما أنه صاحب مؤلف دراسى عن السمعيات ينتهى بهذه العبارة : « الصوت هو القرد [المقلد] للضوء » ولعل شامبوليون قد وجد فى هذه الكلمات مادة للتفكير . ولكن هل هى عبارة صحيحة ؟ خطأ بالتأكيد ... ومع ذلك أليست إحدى « اللاحقيقيات » التى تنبسق منها شموع الحقيقة ؟ ولايمكن أن نختم حديثنا عن العالم المتعدد المعرفة أثاناز قبل أن نذكر أنه كان حسبما يؤكد البعض مخترع « الفانوس السحرى » وبالتأكيد مخترع أصل « مكبر الصوت» ، وقد أطلق عليه اسم « النفير الستنتروفونى » وكان يستخدمه فى كنيسه منتوريلا ليستدعى رعاياها فى دائرة قطرها خمسه كيلومترات (4) .

وبناء على ذلك كيف يمكننا ألا نشارك جان فرنسوا احتقاره * لهذا الرائد المفعم بالحيوية والميال للتهويل والخارج عن الصف والغارق فى التهيؤات الذى يرى فى الهيرغليفيا رقصة هائله تقوم بها أشكال عجيبة ذات معان سرية أو عالم خاص لايدخله ولايستخدمه سوى قله قليلة من الدارسين .

لقد كان بالتأكيد عالم لغويات غريب الشأن هذا الذى وقف أمام خرطوش يحتوى على اسم الفرعون العظيم تحوتمس الثالث الذى يقرأه علماء المصريات: « الأشكال المعمرة التى يتخذها الالة رع » وقرأه هو : « القلعة السماوية لكوكب الأرض تحميه من جميع الأهوال المعونة الإلهية لأوزيريس الجن الأجاتى الرطب ... » كان أبونا هذا يتمتع بخيال خصب جداً إذ كتب هذا النص « إن الأثار الطيبة لأوزيريس الإلهى يجب أن تجلب عن طريق الطقوس المقدسة وسلسلة الجنيات حتى يمكن الحصول على خيرات النيل » على أنه ترجمة لمجموعة من الرسومات ترجمها العلماء الذين خلفوه فى كلمة « أيزيس » .

ومع ذلك يعتبر الأب اليسوعى أثاناز كيرشار أحد أفراد مجموعة الآباء المؤسيس [للإيجيبتولوجيا] لا لأنه أكد بتوجيه من بيكولا بارساك كما رأينا من قبل –

---

* عبر عنه منذ نهاية القرن السابع عشر قس يسوعى أخر وهو الأب مينا ستربيه والانجليزى ولكنز ومؤخرا الراهب دريوتون الذى ندد بهذه « الغرائب المتصوفة » فى حين أن كتاب معاصرين محترمين مثل إبريل إيفرسان وعادلين داڤيد لهم اراء مختلفة حول هذا الموقف السلبى .

على الدور المحورى للغة القبطية : (« الصوت .... القرد المحاكى للضوء) فحسب وإنما لأنه كان يبحث أيضا بكل جوارحه Weltanschaung مصرية ، تعبر عنه الهيروغليفيات (5) يجب أن نضع محاولته إيجاد طريقة للكتابة توحد فيها جميع لغات العالم (على مستوى الكتابة فقط) ضمن مشاريعه ذات الصبغة الكونية - وكانت الهيروغليفية ستلعب دوراً أساسيا لهذا النظام - أن يقوم أحد قساوسة القرن السابع عشر اليسوعيين المعاصر لبوسيويه - بكل هذا العناء وبكل هذه الاستثارة لإقناع العالم الكاثوليكى بأن يتفهم الوثنين عنده « الأصنام » (الأموات منهم بطبيعة الحال) بدلاً من إقصائهم ولعنهم ، هو تعبير عن عظمة فريدة من نوعها كما هو الحال أيضا بالنسبة لحميته فى البحث عن مبدأ ديانة كونية فى الثيوجونيا (مبحث أصل الآلهه وتحررهم) المختبأة فى داخل الكتابة المشفرة لمصر القديمة .

كلها مشاريع نبيلة جديرة بأن تجذب إهتمام جان فرنسوا شامبوليون إلا أن عالم اللغويات فى داخله إعترض على أن هذا العالم المتعدد الثقافات والذى سلح نفسه بمعرفة اللغة القبطية لم يقم أى علاقة بين اللغة التى فيها مفتاح اللغز وبين الكتابة المطلوب حل طلاسمها .

ليست أقل أمجاد الأب أثاناز أنه كان مراسلاً للفيلسوف لايبنيز ولفترة ما مصدرا لوحى أفكاره إن اسم هذا الرحل العظيم ليس مرتبطاً بجذور السياسة الفرنسية فى مصر* فحسب بل كان أيضا مشاركا فى المغامرة الكبرى للدراسات الهيروغليفية - فقد أعلن لايبنيتز لفترة أنه من تلاميذ كيرشار مؤكدا أنه « سيعرف الخلود » لأنه إعتبر أبحاث الأب اليسوعى فى الكتابة الكونية أحد المثل العليا للتفكير الموسوعى الذى يفصح عنه كتابه De arte Combinatoria وإذا كان لايبنيتز عاد بعد عام ١٦٧٠ لايرى فى « إختراعات هذا القس » سوى ألعاباً فكرية صغيرة وطريفة أكثر من كونها مفيدة . إلا أن اهتمامه استمر مركزا على تاريخ الكتابات وعلى الهيروغليفيات واضعا إياها مقابل الحروف الصينية التى بدت له أقل « شعبية » أو « رمزيه » ويغلب عليها الجانب « الفلسفى » أو « الثقافى » .

يصعب وضع لايبنيتز (الفيلسوف عالم الرياضيات) فى زمرة مكتشفى حل اللغز إلا أن فكرته العميقة التى قاومت الزمن عن مختلف أنواع الكتابة أوضحت فى العصر الكلاسيكى أن الهيروغليفيات بالنسبة لأحد أكبر المفكرين فى تاريخ العالم الغربى لايمكن إعتبارها سوى أنها مرادفة « للرموز» التى تعمل على « رسم الأشياء » .

---

* راجع التمهيد ص 24

إذا عدنا إلى موضوع الكتابه « الفلسفية » أو الكونية التى تستخدم الأفكار بدلا من الأصوات وهو الذى أدى إلى خلط الأمور بالنسبة لباحثى الهيروغليفيات التاليين سنجد أن أحد المشاركين الأساسيين فى ذلك هو المونسنيور ويلنز أسقف تشستر الذى أخذ عنه لايبنيتز بعض الأسانيد ، فهو فى كتابه « بحث فى الوصول إلى لغة فلسفية » ١٦٨٨ (Essay towards a philosophical language) يعتبر الهيروغليفيات منظومة من الصور البدائية جديرة بأن يستخدمها شعب بدائى - هذا كان رأيه فى المصريين والمكسيكيين - وطورتها بعد ذلك الشعوب إلى فكرة « المفهوم » واستخدام الأبحديات .(6)

ثم جاء قرن التنوير حيث تتجمع كافة معطيات الحل التى يمكن تجميعها قبل اكتشاف حجر رشيد .

كان بول - إرنست جابلونسكى وهو ابن باحث لاهوتى من مدينة دانتزج صديقاً ومراسلا للايبنتز - وجه البحث الهيروغليفى ناحية اللغويات التطبيقية ودراسة الأديان يقوم كتابه Pantheon AEgyptiorum **عالم الآلهة المصرى** (١٧٤٠) على دراسة منظمة للغة القبطية والآلهة النيلية . والسؤال المطروح كان : هل تسمح قراءة اسمى إيزيس وأوزيريس بواسطة معجم قبطى بإيجاد مفتاح الحل ؟

أهمل جان - فرنسوا شامبوليون هذا الباحث الألمانى لفترة طويلة ، بل أنه سخر فى خطاب لأخيه مكتوب عام ١٨٠٩ من محررى كتاب «**وصف مصر**» الذين « يعزفون على طريقة جابلونسكى » . بعد عشرين عاما فى محاضرته الأولى فى الكولاج دو فرانس إسترجع نفسه وأفكاره المسبقة عنه واعترف بما لمؤلف كتاب « البانتيون » من « ثقافة واسعة » إلا أنه أكد على أنه لم تكن لديه الوسائل التى تسمح « بترجمة أسماء الألهه المصرية بواسطة اللغة القبطية » وذلك لأن « العناصر الصوتية المكونة لأسماء العلم الأصلية للآلهة المصرية فى النصوص الهيروغليفية لاصلة لها بالكتابة الإملائية التى أضفاها عليها جابلونسكى ولايمكن أن تستجيب لترجماته » (7).

جابلونسكى وقع هو الآخر ضحية للإيديوجرافية * ولتحجيم الكتابة المقدسة المصرية فى إطار اعتبارها رموزاً و« رسومات للأشياء » . كم من عقود مرت قبل أن تلغى « القراءة » المثالية التى اعتمدها كلمان السكندرى ؟ شامبوليون بصفته مؤرخ لتاريخ الكتابة حيا المجهود الذى بذله جابلونسكى بعد أن أكد بالطبع على فشله النهائى وكانت الدراسات الإيجيبتولوجية المعاصرة له قد تناسته . فى حين أن الذين تناسهما هو فى محاضراته كانا قد عرفا فى عصرهما وفيما بعد أيضا أمجاداً مستحقة وهما واربورتون وبارتيلمى .

* الرمز يشير إلى فكرة

يصعب فهم السبب الذى جعل صاحب «**خطاب إلى مسيو داسييه** » وهو بصدد تقديم كشف حساب أبحاث من سبقوه – يسقط هذين الباحثين علما بأن شهرتهما لابد وأنهـا الحت عليه فى شبـابه ، إذ أن الكتـاب الذى ألفـه واربورتون بعنوان «بحث فى هيروغليفيات المصريين» والذى حقق نجاحاً هائلا فور نشره فى فرنسا كان متوفرا فى مكتبة جاك شامبوليون * فى فيجاك . كما أن كتاب الأب بارتيليمى «رحلة الشاب انشاريس» الذى نشر فى ١٧٨٧ لابد وأنه سحر لب تلميذ مدرسة لبسيه جرونوبل مثله مثل جميـع زمـلائه المراهقين على الرغم من أن موضوع الكتاب هو اليونان وليست مصر . باختصار تجاهل شامبوليون ذكر الاثنين ضمن الرواد الذين أشاد بهم بعد أن وصل إلى الشهرة والمجد .. إلا أن ذلك لايمنعنا من الإشارة إلى ما قدماه وهو ما يقره جميع المتخصصين المعاصرين ..

انتهى مطاف هاربورتون بأن أصبح أسقفا ومن ألد أعداء ڤولتير ، إلا أن هذا لم يمنعه من أن يؤلف أكثر الكتب « فلسفة » فيما يتعلق بالجدل الدائر حينذاك حول الهيروغليفيات ، وجاء تقدير الأنسي؛لوبيدبين له على هذا الأساس .إذ لم يكن فى الإمكان الإبتعاد عن رمزية كيرشار بأفضل من ذلك فى وضوح الرؤيا ومحاولة إيجاد تفسير عقلى وتاريخى لمنظومة الكتابة المصرية ولا بأجرا من ذلك .

ومع ذلك يجب ألا نخطئ فى تقدير الشخص ذاته . كان واربورتون ينادى فى كتابه الأصلى " The divine Legation of Moses " من أجل تجديد الدراسات التوراتية وهو ما قاده إلى إبراز مشاركات مصر الهائلة فى تاريخ البشرية . ثم جاء مترجمه إلى الفرنسية ليونار دو ماليان فتخطى دوره كمترجم وأعد بجسارة الكتاب بأن أعاد تبويبه حول مركز واحد وهو الذى برر عنوانه ومعناه (**بحث فى الهيروغليفيا المصرية**) وجعل منه فصلا محوريا من تاريخ و« مستقبل » الكتابة . [8] مؤلف واربورتون ومالبان حينه نشرة مجهولة التوقيع ومنشورة فى ١٧٤٥ فى باريس **على أنه من « الروائع » إذ يكفيه أنه أثبت أن « الكتابة الهيروغليفية مهدت للاختراع العظيم للأبجدية ».

وضع مؤلفا كتاب «بحث فى الهيروغليفية» حديثهما فى إطار جميل من التطور المستمر للتقدم الفكرى : قدما التحية بشئ من التحفظ لهورابوللون وكليمان السكندرى منتقدين أى فكرة عن « قوة سرية » أو طقوس خفية » وساخرين بقوة من كيرشار المسكين ثم وصفا عملية العبور من الرسم لكتاب الأفكار ومن الرمز إلى الشئ المشروح ومن الشئ الممثل إلى الخط المتصل . بل إن الأسقف الانجليزى يذهب إلى الإشارة إلى العبور من كتابة الأفكار إلى كتابة الأصوات وهو بصدد الحديث عن الرموز

* راجع الفصل ١

** محفوظ ضمن أوراق جاك جوزيف شامبوليون – فيجاك .

الهيروغليفية . وهو يعتبر أن الأبجدية العبرية خرجت من الكتابة الجديدة وهى بدورها مرتبطة إرتباطا لاينفصم عن اللغة المنطوقة . على هذا الأساس تكون الكتابات « شيئا كلياً ومتنوعاً » مر من « حالة الرسم إلى حالة الحرف » (9) وتفرض الحالة المصرية نفسها على الجميع بوضوح لايقبل المقارنة .

الحيثيات التى ساقها واربورتون ومالبان تعتبر قمة فى العقلانية وهى بالمناسبة تتحدث عن « كتابة للأصوات [...] مرتبطة بالمنطوق * مجهود تسطيحى ؟ جائز ، ولكن كما يقول واضعو (10) Who is who in Egyptology بعد زمن طويل : « إنه الكتاب الوحيد قبل مرحلة شامبوليون الذى أشار إلى الأسلوب الصحيح » ... أسلوب العمل من أجل حل الشفرة بالطبع ومع ذلك فلم يحاول واربورتون دخول المضمار ولعل ذلك هو السبب الذى جعل جان - فرنسوا شامبوليون يفضل ذكره بعد قرن كامل تقريباً ضمن سجل عظماء الباحثين فى سر الهيروغليفيات . فى حين أن مادلين دافيد تتكلم عن « خطوة حاسمة » وتعلق بهذه الكلمات على ما قدمه الأسقف الانجليكانى :

« الطريق مهد ومع ذلك بقى كل شئ على حاله منتظرا الإستكشاف والاكتشاف [...] لمع بريق أمل حل الشفرة بعد أن درس الهيروغليفيات المصرية وقارن أشكالها المتتابعة مع الأخذ فى الاعتبار المشاكل اللغويستيه التى استبعدها واربورتون » (11) .

فى خط موازٍ للبحث عن فك الشفرة سواء بواسطة المقارنات أو التداخلات اللغوية أو حتى بوصف عملية التطور التلقائية لوسائل التعبير ، تطورت محاولة فضفاضة لشرح المنظومة المصرية بالمقارنة أو بالمقابلة مع اللغة الصينية ... وهى اللغة التى اعتبرها لايبنيتز كما رأينا من قبل أكثر « فلسفية » من لغة وادى النيل .

ترتبط بهذه المقارنات الجسورة أسماء نيقولا فيريه الذى اعتبره شامبوليون فيجاك « معلماً فى النقد وسعة الثقافة » وإتيان فورمون الذى استغل بذكاء جواراته مع شخص يدعى أركاديوس هوانج . وهو شاب صينى أحضره معهم قساوسه فرنسيون إلى فرساى أصل شخصية أوزبك التى صورها ديدرو فى رويته « **المراسلات الفارسية** » وأخيرا اسم الكونت دوجيتى .

ماذا عن مشاكل الأسبقية ؟ يؤكد فريريه على أسبقية حضارة وادى النيل على الرغم من أنه يقول أحيانا أن « المصريين يشبهون الصينيين » . غير أن هذا ليس

---

* سيستوحى دوبروس منها بعد عشرين عاما كتابه « دراسة التكوين الآلى للغات » (١٧٦٥)

موضوع النقاش لأن الإشكالية تتلخص فى طبيعة وقيمة المنظومتين . تقوم الكتابة المصرية فى رأى فريريه على « علاقة مصورة » منحيا تماما وجود رموز صوتية وهى تعبير رمزى أو مصور فى حين أن الصينية تقوم – فى شكلها الجزافى – على أساس « علاقة مؤسسية » وهى تعتبر لذلك فى تصوره ذات قيمة أعلى .

أخذ الكونت دوجينى الأمر بصورة مختلفة . فهو يعلن فى البداية أن الصينيين مستعمرون مصريون (وخزعبلات أخرى) ثم راح بطريقة أكثر جدية يحاول المقارنه بين مجموعات من الرسوم الهيروغليفية وجذور الكتابة الصينية . ويخلص إلى القول الجسور بأن المصريين هم الذين أعطوا منظومتهم الكتابية إلى الصينيين . لم تخلو تهيؤاته هذه من بعض الرؤا الثاقبة : فهو يشير إلى أن طرق الكتابة المصرية الثلاثه تكون وحدة واحدة . ويضيف دوجينى أيضا أن هذه الرموز* لاتوجد بها حروف متحركة . ولوأن علماء اللغويات قد أخذوه على محمل الجد لكانوا وفروا على أنفسهم بعض الأخطاء التالية لهم – وهو ما أفاد شامبوليون .

شاركت إذن الدراسات الصينية الوليدة أستاذيها الأول أبل دو ريموزا زميل جان – فرنسوا شامبوليون السابق فى الكولاج دو فرانس فى تقدم الدراسات المصرية . إلا أن هنرى سوتاس يرى أن هذا التداخل « أضر بأكثر مما أفاد لأنه ذهب إلى أبعد مما ينبغى ، حتى من شامبوليون ذاته » .

متى سنتوقف عن تجميع شخصيات هى بمثابة أبطال روايات ضلت طريقها فى هذه الملحمة اللغوية ؟! لدينا واحد أخر : الأب جان – جاك بارتيليمى . المولود فى كاسيس . وعلى الرغم من أنه كان مرتديا اللباس الغامق على الدوام فهو لم يدخل أبداً فى السلك الكنسى أو الرهبانى . ومع ذلك فقد كان واعظاً حتى باللغة العربية . وكان يتحدث عشر لغات شرقية وكان أعظم دارس للنقود والميداليات فى عصره . نشر عام ١٧٥٤ **غراميات شابيتيه وبوليدور** إلا أن المجد الذى مسه كان بسبب نشره كتابه الأشهر بعد ذلك بثلاثين عاماً بعنوان **رحله الشاب أناشارزس إلى اليونان فى منتصف القرن الرابع تقريبا مثل العصر السوقى** .

صاحب كتاب حظى بشعبية هائلة وقس علمانى جداً ولكنه أيضا وبالتأكيد عالم بالمعنى الحقيقى ، عمل قبل ذلك بسنوات طويلة وبجد فى فك شفرة الإبجديه البالميرنية

* فى بحث قدمه عام ١٧٦٦

والفينيقية . ثم بدأ يحقق فى اللغز المصرى وذلك بدراسة قطعة من القماش : خرج من هذا البحث بتقرير قدمه **لمجموعه الآثار القديمة المصرية والإتروسكية واليونانية والرومانية** للكونت دو كايلوس بلور لأول مرة (فى ١٧٦٢) . إحدى الأفكار الأكثر تحديداً فى تاريخ الابحاث فى المصريات والأكثر أصالة منذ أن ربط كيرشار بين اللغه القبطية واللغة الفرعونية موحداً بينهما . إذ قال : « الهيروغليفيات المنقوشة على الاثار المصرية تتجمع فى أشكال بيضاوية [...] لكى ترمز على الأرجح لأسماء الملوك أو الآلهة * » .

بيضاويات أم خراطيش – كما نسميها الآن – الاكتشاف كان حاسما ، إذ تمكن من فصل مجموعة من العلامات . هذه المجموعات من المفروض أنها مرتبطة بأسماء ملكية أو دينيه هى فى الأساس محدودة العدد ... أخذ البحث بذلك يتحدد ويتركز وسنرى فيما بعد أنه عن طريق أسماء الملوك الأجانب مثل بطليموس وكليوباتره ثم الملوك الوطنيين مثل رمسيس وتحوتمس وصل أخرالباحثين – شامبوليون ويانج إلى الهدف .

لم يتوقف الواعظ العلامة فى بحوثه وإكتشافاته عند توضيح دور الأشكال « البيضاوية » بل إنه وضع هذا المبدأ الأساسى الذى تمخض عنه الكثير وذلك بأن أكد أن مفتاح الشفرة لن يأتى عبر دراسة المؤلفين اليونانيين واللاتين وإنما من « دراسة الأثار التى ستتكلم بوضوح » . ما أراد بارتيليمى عمله وهو دارس أثار محترف هو إعادة دراسة النصوص إلى إطارها الأركيولوجى .

لم يخف صاحب « الرحلة » أنه مدينه لواربورتون ويؤكد على براعة وأصالة وصفه لتطور الكتابة من مرحلة لأخرى من الصورة إلى الحروف . وصل الطريق الصحيح عندما قابل بين « الهيروغليفيات كرموز تمثل الأفكار » و « الحروف التى ليست سوى رموز تمثل الأصوات » فهو يتقدم على الدرب القويم عندما يقول « عند إختراع الكتابة الحالية استخدمت الهيروغليفيات المعروفة كعناصر مكونة للأبجدية الحديثة » (12) . معنى ذلك أنه أشار إلى الوحدة الأصيلة التى تجمع بين مختلف الكتابات المصرية . شعاع ضوء جديد .

ثم يقول الأب بارتيليمى فى وداعه : « أعددت حجراً من أجل البناء (13) ويمكننا أن نطبق عليه ماقاله هو عن زميله لاكروز « تمر لحظات يشعر فيها المرء بالفخر عندما يعتقد أنه وضع يده على حقائق فاتت على بقية البشر ... »

* هذه الفكرة جاءت أيضا على لسان جينى ولكن بعد ست سنوات .

« يعتقد المرء أنه وضع يده ؟ » لاياسيدى القس أنك وضعت يدك بالفعل ... جان لوكلان يلخص مشاركة هذا البروفانسالى صاحب الزى الأسود فى عملية البحث الكبرى فى « أربع مداخلات هامة : تطابق القبطية والمصريه القديمة * والعلاقة المحتملة بين هذه الأخيرة واللغات السامية ، العلاقة بين الأشكال الهيروغليفية وأشكال اللغة المكتوبة المرسلة وقيمة « البيضاويات » [الخراطيش] التى تحيط بالأسماء الملكية . » ياله من فن ؟

فى ختام كتابها عن الأبحاث الخاصة بالهيروغليفيات والكتابات الأخرى والتى أشرنا اليه عدة مرات تؤكد مادلين داڤيد على أنها تنوى « إثبات أن أعمال شامبليون نبعت – باسلوبها فى البحث – من حركة حل الشفرة التى إفتتحها بارتيليمى ... » الواقع أن هذا البحث يضفى لمعانا خاصا وهاجاً على الصورة والأعمال الكثيرة – والمتعددة – التى قام بها هذا المواطن الكاسيسى وذاك دون التقليل من أهمية ما قام به من سبقوه ومن جاءوا بعده .

الآثار هى التى ستتكلم !! بيد وأن هذا النداء الذى أطلقه جان – جاك بارتيليمى وهو الذى بحث من ناحيته فى قطع من القماش وليس على أحجار محفوره – وصل إلى أذان المتكشف الألمانى الكبير وعالم اللغويات كارستين نيبور والذى ترجع شهرته أصلاً إلى فك شفرة الكتابة المخروطيه ** ولكن لم يكن كتابه عن رحلاته إلى الشرق هو الكتاب الوحيد الذى قرأة بونابارت قبل حملته على مصر . بل كان أحد مراحل البحث فى الهيروغليفية .

---

* ولعل كيرشار يطالب عن بعد بابوة هذه الفكرة .

** النصوص التى رفعها كارستان نيبور عام ١٧٧٨ فى بيرسيبوليس كانت السبب فى فك شفرة الكتابات المخروطية كتب بياتريس أندريه .. ليكمان (فى كتالوج معرض مولد الكتابه بمعرض الجران باليه – ٧ مايو –٩ إبريل ١٩٨٢) حوالى عام ١٨٠٠ اتضح تماماً أن الكتابة المخروطيه تحتوى على أسرار الحضارة الميزوبوتامية القديمة . والكتابات بثلاث لغات التى نحتها فى الحجر الملوك الفرس الأشمينين العظام فى بيرسيبوليس وبيهيستون هى التى سمحت بحل الشفرة . كان النص الواحد مكتوباً بثلاث لغات جميعها بحروف مخروطيه ولكنها مختلفه : الفارسى القديم والعلامى والأكادى (البابلى) وهى اللغات الثلاث المستخدمه فى الامبراطورية الفارسيه تمكن حـ . فـ . جروتفاند دو نيوتجان والقس الايرلاندى هتكس من قراءة الأولى منذ عام ١٨٠٢ لان عدد حروفها محدود ستة وثلاثين حرفا ولقربها من اللغة الفارسية . فك شفرة الكتابات المخروطية توالى بعد ذلك على مراحل خلال القرن التاسع عشر . الحفريات التى قام بها الفرنسى فى ميزوبوتوتاميا السفلى عام ١٨٠٠ هى التى أكدت وجود كتابة مخروطية أخرى نابعة من رسومات بدائية ترمز للأفكار وكانت تغطى لغة حضارة لمواها النسيان هى حضارة سومر وهكذا فإن الكتابه السومرية تعتبر أقدم الكتابات التى وصلت إلينا وتسبق بذلك (بقرنين أو ثلاثة) الكتابة الهيروغليفية .

عاش نيبوهر فى القاهرة فى ١٧٦٢ واهتم بدراسة الحفريات المقدسة وعلق عليها قائلا إنها تشبه « الكتابة الابجديه » ثم أوضح أن هناك فروقا بين « رموز كبيرة وأخرى صغيرة » وأشار إلى أن الكبيرة فقط هى التى تعتبر « رموز حقيقية » أما الصغرى فهى تؤدى دور « الحروف الأبجدية » ولها قيمة صوتية . كما لاحظ بوضوح أن عدد الهيروغليفيات أصغر بكثير مما تعبر عنه ولايمكن أن تكون هناك علامة لكل كلمة أو كل فكرة . وكانت هذه الملحوظة عميقة جدا . إستعارها شامبوليون بعد ذلك بنصف قرن من الرحالة الألمانى بعد أن قرأ مؤلفه (حول عام ١٨٠٦) وهى بذلك تعتبر مراحل من مراحلة عملية حل الشفرة .

العالم الدانماركى يوچين زويجا لم يكن عارفا بآثار مصر مثلما كان كارستان نيبوهر ولكنه كان قارئا لكتب بارتيليمى مثله . عنوان كتابه الرئيسى هو De usu et origine obeliscorum (١٧٩٧) وهو يوضح أن البحث مع زويجا خرج من مرحلة البحوث الفكرية إلى مرحلة دراسة الأشياء إذ أن هذا الباحث تناول بالدراسة أهم الأثار المصرية القديمة الممثلة لحضارة وادى النيل .

ولم يكن ذلك من أجل حل شفرة الكتابة وإنما لنقلها على الورق بطريقة منظمة . وكان هذا عملاً أثاريا حقيقيا .

ولد زويجا فى منطقة الشويلزيج عام ١٧٥٥ وتتلمذ على المؤرخ الألمانى كريستيان هاين . قامت أبحاثه فى بادئ الأمر على مجموعة الأثار الموجودة فى متحف بورجيا فى فيللترى – حيث تعلم أيضا دوبوا صديق شامبوليون . ثم عندما أقام فى روما وكان متخصصا جيدا فى اللغة القبطية خطر له أن يركز أبحاثه فى المسلات وكان ما خلص إليه فى بادئ الأمر هورفضه الحاسم للنظريات الرمزية على طريقة كيرشار ولم يكن هذا بجديد . غير أنه توصل إلى ملاحظتين قويتين للغاية الأولى أن هذه الكتابة أبعد ما تكون مخصصة لقلة من العلماء والكهنة العارفين بأسرار الديانة ولا للطقوس الدينية ولكنها كانت « مستخدمة من الطبقة المتنورة من الأمة المصرية » [14] ، وكانت تستخدم فى تحرير النصوص سواء الدنيوية منها أو المقدسة . والملحوظة الأخرى وهى أفضل من الأولى : أن هذه المنظومة الكتابية لابد وأنها تحتوى على عناصر صوتية * .

بهذا يكون يورجن زويجا قد خطا الخطوة الرابعة الهامة فى البحث الهيروغليفى وهى التى تلى الإدراك بتطابق اللغتين القبطية والمصرية القديمة (كيرشار) ثم وحدانية

* وهى الحقيقة التى سبق وأن شعر بوجودها كل من واربورتون ثم نيبوهر .

جميع الكتابات الهيروغليفية وأخيرا تحديد أماكن الاسماء الملكية فى الخراطيش (بارتيليمى) ويعتبر إذن حلقة هامة فى سلسلة الباحثين وأخر مرحلة من مراحل التطور التى سبقت إكتشاف حجر رشيد .

وعلى الرغم من أن مساهمة زويجا قد جددت بعمق معطيات البحث وأن كتابه ظهر عام ١٧٩٧ أى قبل سفر بونابارت إلى مصر بعام كامل فإن تحية جان فرنسوا شامبوليون له فى عام ١٨٣١ فى خطابه التلخيصى جاءت على النحو التالى :

« أراد (من سبقوه) معالجة المشكلة بالمواجهة أى بشرح النصوص مسبقا قبل التعريف على أكثر عناصرها بساطة [...] لقد اعتنى زويجا بعمل كشف كامل ودقيق لجميع العلامات الهيروغليفية الموجودة على المسلات والمبانى المصرية القديمة » .

وهكذ تمكن العالم الدانمركى قبل أن تضع المنية حداً « لأعماله المفيدة » من تمهيد الطريق أمام من جاءوا بعده ليس كعالم وثائقى فحسب وإنما كرائد فى المجال الحيوى الذى هو إدراك القيمة الصوتية للهيروغليفيات .

سبق أن عرضنا الظروف الفريدة التى صاحبت اكتشاف الحجر المسمى بحجر رشيد فى يوليو ١٧٩٩ والسرعة الفائقة التى أدرك بها مكتشفوه أهميته العلمية ثم إستيلاء الانجليز المنتصرين عليه بعد أن أرسل اللورد الچين العالم ويليام هاميلتون إلى الاسكندرية لجرد وإستعادة الكنوز التى جمعها الغزاة بعد هزيمتهم وعلى رأس هذه الكنوز بالطبع الحجر البازالتى الضخم المنقوش باللغتين . وكانت شهرته قد عمت جميع الأوساط .

قبل أن يحتل مكانه فى مدخل القسم المصرى من المتحف البريطانى بمدة طويلة أخذت منه عدة صور طبق الأصل وعرفت طريقها إلى باريس فى ١٧٩٩فقد قام حـ . - حـ . مارسيل بعمل نسخة ليتوغرافية منه بينما طبق عليه نيقولا كونتى طريقة الطبع بالحفر - الناعم . وأخيراً صب عليه أ . راينو- دوليل ڤالبين (كانت تسمى حينذاك : كبريت) وفى العام التالى قدم الجنرال دوجا وهو من أوائل القادة الذين ابحروا من مصر بعد هروب بونابارت طبعتين من نصوص الحجر الذى اكتشفه بلير بوشار (15) إلى «الأنستيتو» : النص - بالمناسبة - ناقص حيث أن الصيغة الهيروغليفية منه مبتورة (بها ٢٦ سطرا فقط من ٤٠ تقريبا) والديموطقى ينقصة ثلث النص واليونانى تنقصه ٦ سطور من مجموع الأربعة وخمسين سطرا الأصلية .

تشير مادلين دافيد إلى أن حجر رشيد لم يكن ليتسبب بذاته فى حل شفرة اللغة الهيروغليفية وإنما يعتبر « اكتشاف حاسم فى هذا الصدد بمعنى أنه أثبت منذ البدايه العلاقة بين الكتابة الديموطيقية والهيروغليفية من جهة والرباط اللصيق فى العلاقة بين هذه النصين والترجمة اليونانية له من جهة أخرى » (16) .

سمحت الترجمة التى أجريت على الفور للنص اليونانى بملاحظة أن النظريات القائلة بان الحروف المقدسة كانت مخصصة للتعبير الرمزى عن أسرار مكنونة لفسلفة سرية وأو علوم لاتنشر ستنهار فور التأكد من أن الجزء الأسفل من النص هو ترجمة للنصين الهيروغليفى والمرسل اللذين يعلوانه وهو ما كانت الظواهر كلها تشير اليه . سرعان ما اتضح أن النص لايتعدى كونه قرارا صادرا من الهيئة اللاهونية لمدينة ممفيس نحو تقديم التحية الواجبة للفرعون البطلسى بطليموس ايفانوس (١٩٢ق.م) شى من قبيل ما أصدره المحافظ جوزيف فوريه من أجل تنظيم استقبال حافل للكونت دار توا فى جرونوبل * .

فى الوقت الذى كان فيه العامة يمرون مشدوهين أمام الكتلة البازاليتة السوداء التى انتزعت بفضل نيلسون من أيدى خلفاء بونابرت كان علماء القارة يعكفون على الدراسة والعمل ضمن جهة كانت اللجنة المصرية التى يشرف عليها كونتى ثم لانكريه الذى كان أول من علق الإكتشاف ثم جومار – قد بدأت تحرير الكتاب الصرح « **وصف مصر** » . ومن جهة أخرى أخذ بعض علماء اللغات يدرسون صوراً طبق الأصل من نصوص رشيد التى وصلت من القاهرة لمحاولة فك شفرتها . فقد أعتبر الحصول عن نص واحد بلغتين وهو الأول منذ زمن هيرمابيون ** ، سببا يسمح بالإنتصار السريع للباحثين .

غير أن الإله تحوت – أمير الرموز – لم يكن يرفرف على باريس وظلت فخاخة مدفونة فى رمال متحركة . أما فى جرونوبل فكان ولد فى الحادية عشره ينام وسط الكتب التى تفرش غرفة صغيرة وضعه فيها أخوه الأكبر كما كانت تغطيها مخطوطات وكراسات بلغات أجنبية تحتوى على علوم الشرق العتيق صاحب الاف السنين وفى وجميع الأنحاء كانت كتيبة من الباحثين تتقدم لمحاولة الرد على أسئلة أبو الهول .

يتقدم الكتيبة بطلان : أولهما الحرفى الأصيل الرجل الذى ظل يجسد الدراسات اللغوية الشرقية طوال العشرين عاما الماضية والذى كان يعرف من اللغة العربية

---

* راجع فصل ٧

** الذى تمكن رويجا منذ البداية التعرف على أهمية .

(المكتوبة) والفارسية أكثر من أى فرد أخر فى أوروبا وهو سيلفاستر دوساسى . والأخر هو المثل الأعلى للهاوى المثقف – بكل ما فى هذا الكلمة من معنى سامى – النبيل السويدى ، الصديق المقرب من الملك جوستاف الرابع الذى ترك كل وظائفة الرسمية ليقيم فى روما حتى يتفرغ لولعه المسيطر » للتعرف على جميع مكونات وجميع عصور عالم البحر المتوسط وهو : جوهان دافين أوكربالد .

كان اسمه الحقيقى إسحق سيلفستر وهو ابن موثق للعقود مقيم فى باريس يحمل هذا الأسم ثم أطلق على نفسه اسم دوساسى قبل أن يحصل من نابوليون ، على الرغم من أنه كان يبغضه وكان يناهضة ولكن بحرص – على لقب بارون ، وكان وهو فى العاشرة من عمره يترجم ويكتب بسلاسة باللغتين اللاتينية واليونانية ثم تمكن تماماً من اللغات العبرية والفارسية والعربية وعلى أغلب لغات الشرق . عمل فترة موظفا فى دار النقود ثم تخصص عندما أقترب من سن الثلاثين فى تاريخ العرب ثم فك شفرة النصوص المحفورة فى سيبوليس التى رفعها نيبوهر .

عندما قامت الثورة الفرنسية كان ساسى وهو فى الثانية والثلاثين أحد أساطين الاستشراق الأوروبى – ثم زادت شهرته بعد ما نشر كتابين عن النظام الدينى عند الدروز وفى قواعد اللغة العربية ، وكان أحد مؤسسى المدرسه المختصصه للغات الشرقية عام ١٧٩٥ قبل أن يدخل الانستيتو والكولاج دو فرانس حيث تولى فيه كرسى الدراسات الفارسية ، وتتلمذ عليه جان – فرنسوا شامبوليون إعتباراً من ١٨٠٧ .

لو أن أنه تم استفتاء العلماء عام ١٨٠٢ فيمن يختارونه لأداء دور أوديب المكلف بحل لغز رشيد لاجمع الكل على إختيار سليفاستر دوساسى ! كان فى قمة صحته وهو فى السادسة والأربعين ، ذائع السيط بفضل دراساته عن نصوص برسيبوليس وقد تسلح بنظام خاص لامثيل له فى المقارنة بين النصوص المختلفة للغات يشغل باله بالتواضع الزائد والثقة الزائدة بالنفس ولذلك فقد بدا كانه هو أفضل المرشحين لتبديد ظلام الأسرار الهيروغليفية .

فلنستمع إلى شامبوليون وهو فى أخر أيامه يفتتح سلسلة محاضراته فى الكولاج دوفرانس حيث لحق بأستاذه المسن عندما كان فى الثلاثين من عمره :

« اعتبارا من ١٨٠٢ قام عالم مبجل بدين له بالكثيرون هنا فى فرنسا لما وصلت اليه الأداب الشرقية من إزدهار وإنتشار فى باقى أوروبا بفضل انتاجه المهم وهو

الاستاذ البارون سيلفاستر دو ساسى – بعد أن حصل على صورة طبق الأصل من حجر رشيد – بدراسة النص الديموطيقى بالمقارنه بالنص اليونانى ونشر ملخصا لابحاثه فى خطاب موجه لمسيو شابتال وزير الداخلية فى ذلك الوقت . يتضمن هذا النص المكتوب الأسس الأولى لفك شفرة النص الأوسط * وذلك بأن حدد مجموعة حروف تمثل أسماء العلم : بطليموس ، أرسينويه – أسكندر ، أسكندرية ، المذكورة فى عدة أماكن من النص اليونانى (17) » .

كانت العواصف التى هبت على علاقاتهما – والتى سنتعرض لها فيما بعد– قد هدأت بما يسمح له بان يعبر عن عرفان مستحق بالجميل للعالم الذى شارك بأفضل ما يمكن – بعد جاك جوزيف وبأسلوب أخر بعد فورييه – فى تكوينه الفكري وتشكيل اسلوب عمله وسمح له أيضا بتوضيح النجاح المحدد الذى بلغه صاحب «**الرساله الى مسيو شاريتال**».

إنه فى الحقيقة يجمل من دوره بأن أغفل ذكر الخطأ فى التوجيه الذى ارتكبه وتسبب فى فشله وهو أعتقاده بأن النص الديموطيقى هو نص ابجدى خالص وقد أدى به ذلك إلى ان يقوم بعمليات تقربية أغلبها خاطىء بين هذا الإشارات والنص اليونانى . ولذلك فإن حديث شامبوليون فى هذا المجال عن دور الاسس الأولى لفك الشفرة » حتى لو أنسحب ذلك فقط على النص الأوسط يعتبر نوعاً من المديح الأكاديمى ينكر جميل بارتيليمى وزويجا وأخرين إلا أن العالم العلمى يشبه البندول الذى يتأرجح بأستمرار حسبما تفرضه الظروف – ظروف علاقات القوى والحفلات العامة .

ستتاح لنا الفرصة – كما اتيحت لنا من قبل – أن نذكر مراحل عديدة من المبارزة التى ألقى فيها المعلم (« الجيزويت » أو « الرابين » كما كتب عنه «**صغير**» لاخيه جاك جوزيف) بكثير من السم وقليل من العسل بل أنه وصل به الحال إلى حثه المشهور له ** وهو مازال مراهقا فى جرونوبل على الابتعاد عن البحث الهيروغليفى .

لقد فضل جان فرانسوا قبل وفاته بعدة شهور أن ينتقى ويبرز ضمن كل ما أخذه عن استاذه دى ساسى الأفضال دون الصفعات .

جوهان داڤيد أوكر بلاد لم يحظ سوى بتقدير شامبوليون . قليل من رجال هذا العالم الذى يعج بالرموز كما تعج لوحة من لوحات أوتشيللو بالسهام والسيوف – عبروا نحو الاخرين (ومنهم شامبوليون) عن نزاهة متواصلة بهذه الدرجة ورشاقة سلوكية بهذا الصفاء . لقد أضفى الأمين عام السابق لأركان حرب ملك السويد على مجال

* الديموطيقى .
** راجع فصل ٥ ص 221

الدراسات المصرية وهو لازال فى المهد أسلوباً وسلوكيات لو أنها حافظت عليها لكانت هى الرابحة. بل لعل تناسى تلك السلوكيات بعد ١٨٢٢ قد إختصر حياه باحثنا صاحب الأكتشاف * .

فلنترك الكلمة من جديد للبروفيسور شامبوليون :

« سلك السيد أوكربلاد المستشرق السويدى صاحب الثقافة الغزيرة التنوع والمعرفة المتعمقة جداً باللغة القطبيه نفس الطريق الذى سلكه دوساسى بأن قارن بين النصين :

نشر** تحليلا لأسماء العلم المذكورة فى النص المكتوب بالحروف الديموطيقيه وأستخلص فى نفس الوقت من هذا التحليل أبجدية مصرية مختصره للديموطيقية أو الكتابة الشعبية . بدا هذا النجاح الأول كما لو أنه يؤكد الأمال التى تولدت عن حجر رشيد . لكن اذا كان أوكربلاد محظوظا فى تحليله لأسماء العلم اليونانية فهو لم يتوصل الى أى نتيجة عندما حاول أن يطبق مجموعة العلامات التى توصل الي مدلولاها فى النص المكتوب لهذه الاسماء اليونانية على بقية أجزاء النص الديموطيقى».

وجد شامبوليون – حسبما قال فى محاضرة عام ١٨٣١ – سببين وراء إخفاق السويدى : الأول عندما لم يقدر أن المصريين القدماء كانوا يسقطون عدداً كبيرا من الحروف المتحركة كما يفعل العرب والعبريون ؛ والأخر أنه لم يتخيل أن الكثير من العلاقات المستخدمة فى هذا النص كانت « من مجموعة العلاقات ذات القيمة الرمزية » غير أن كاشف أسرار الهيروغليفية لايتوقف عند هذه السلبيات وانما يتخطاها بأن يخلص إلى أنه بفضل أعمال أوكبرلاد بعد مجهودات دوساسى ثبت أن « الكتابة الشعبية للمصريين القدماء عبرت عن أسماء العلم الأجنبية بواسطة علامات ذات قيمة أبجدية بالمعنى الحقيقى » . فكرة « أساسية » ، هذا ما يؤكده هنرى سوتاس فى المقدمة التى كتبها للطبعة الجديدة « **للخطاب إلى مسيو داسييه** » .

« الأبجدية المختصرة » الديموطيقية التى وضعها جوهان داڤيد أوكربلاد كانت تضم سته عشر حرفا استخرجهم من الأسماء الأول للملوك المذكورين وهم اسكندر وبطليموس *** وبيرينيس ثم تعرف العلامة السويدى على أسماء أخرى منها كليوباترا وديوچين وانطياكوس وأنتيجونا وذلك على برديات مختلفة . وفى يناير ١٨١٥ أعلن أنه

---

* وهو ما أشار إليه عالم المصريات الأنجليزى الكبير ويلكمسون عام ١٨٣٢ .

** فى خطاب وجهه أيضا لسيلڤاستر دو ساسى .

*** كشف أوكربلاد أنه امكن من التعرف فى البداية على بطليموس . أما دوساسى فقد بدا باسكندر .

قام بترجمة السطور الخمسة الأولى الى اللغة القبطية حيث تعرف على الكلمات : شهر ، صغير ، رجل ، سنة ، انتصار ، شمس ، بل وايضا صوت (18) .

هل كانت الطريقة تعتمد على التخمين وأكتشاف الترديدات أكثر من الإعتماد على الدراسة المنظمة حسب خطة موضوعة ؟ بكل تأكيد ! غير أن ذلك يعتبر فى النهاية أحدى الوسائل التجريبية فى البحث عن الحل . والواقع أن أوكربلاد لم يتخطى قط (إذا أمكن القول) حل شفرة الأسماء اليونانية الأصل . وبناء على ذلك فقد أيقن بعد خمسة عشر عاما من العمل أنه لن يتمكن من احراز أى تقدم واستسلم تاركاً الى زميله توماس يانج أفضل اكتشافاته التالية لعام ١٨٠٢ فقد كان يراه أقدر منه على الوصول بالأمور الى غايتها قبل أن ينسحب من السباق (ويموت وهو فى الخامسة والخمسين) . عبر النبيل السويدى للشباب جان فرنسوا شامبوليون عن تقديره وتضامنه الأخوي . ويمكن الرجوع فى ذلك الى المراسلات المتبادلة * بين الأستاذ الجرونوبلوازى الشاب وأشهر منافس (فى ذلك الوقت) لسيلفاستر دوساسي . وهى تتضمن خمس رسائل فقط أثنتان من أوكربلاد وثلاثه من شامبوليون . اللهجة فيها تتسم بالقوة والسرعة والأدب . وهى خالية من أدبيات الصالونات وتركز على تبادل المعلومات والجدل حول نقاط علمية . علاقة رجال أحرار يحترمون أنفسهم .

فى ٢٦ فبراير ١٨١٢ كتب دافيدا أوكربلاد من روما الى جان فرنسوا ليشكره على إهدائه كتاب « **مقدمة لمصر إبان حكم الفراعنة** » ** وهو يعبر عن « تأثره لهذه اللفتة الكريمة » و « اعتزازه بأن يتمكن من تبادل المراسلات الأدبية بينهما » علما بأنه لايهتم منذ فترة طويلة « الا قليلا بالأدب القبطى » .

فيما يخص « **المقدمة** » فهو يرى « أنها مليئة بالملاحظات الممتازة » وتجعل المرء « يطوق إلى مطالعة الكتاب الذى تقدم له » هل توجد شبهة تهكم فى السؤال الذى يطرحه عن «الاسهامات (التى يمكن أن تقدمها) الكتب القبطية لصاحب المقدمة ؟ يلى ذلك اعتراضات حادة خاصة بالعلاقة التى يقيمها شامبوليون بين منطقة الفيوم واللهجة « الباشمورية » ومع ذلك يؤكد أوكربلاد أنه ليس « متعنتا » بل مستعد لان يقنعه زميله الشاب بغير ذلك » . أما بالنسبة للأبجدية المصرية فعالم اللغويات السويدى يقول عنها بأسلوب يجمع بين أثارة الأفكار والتواضع المؤثر : « ... يبدو لى أنكم ستتفقون معى حول مدلولات الحروف الساكنة لأن الحروف المتحركة يمكن أن نصنع بها كل ما زيد*** وبالمناسبة فان خطابى إلى مسيو دوساسى يتضمن أخطاء عديدة

---

* جمعها وتفضل باطلاعنا عليها السيد جـ كيتيل وقد ذكر اسمه مرات عديدة هنا .

** راجع فصل ٥

*** كأن نسقطها على سبيل المثال .

لأنى حررتها فى عجالة حتى قبل أن تصلنى نسخة صحيحة من النص . لقد تمكنت منذ ذلك الحين من تحديد دلائل عدد كبير من الكلمات ولما لم أتمكن من فهم عدد كبير من مجاميع الحروف فانى غير متعجل من نشر تحليلى لهذا الأثر - وفهو على العموم لايثير إهتمام سوى عدد قليل جدا من الأشخاص ...» .

النهاية هنا تثير الأعجاب وتجعل المرء يأسف لأن جوهان داڤيد أوكربلاد لم يراع توقعات الأجيال التالية ولاحتى هذا « العدد القليل جداً من الأشخاص » بما فيهم مراسله ... وكان هذا الأخير حساساً للغاية ولم يظهر فى رده أى نهم سوقى للمعرفة ولكن كان جان فرنسوا سعيدا بأن يرى شخصية على هذا القدر من الشهرة متقدمة فى إبحاثها وهو عالم اللغويات الذى يصادق زويجا ويتخاطب على قدم المساواة مع دوساسى والذى يعيش فى روما بعد أن زار الشرق - تخاطبه بهذه اللهجة التى تنم عن التقدير والاحترام . من المؤكد أن ذلك أثار فيه الكثير من الأعتزاز بذاته .

غير أن رده الذى جاء بعد إنتظار ثلاثة شهور لم يكن على المستوى المنتظر فهو يتناول فيه خلافه مع كاتورمار * مؤكداً أن «من مبادئة أن يتفادى الصراعات الأدبية» وهو ما يؤكد جانبا فى شخصيته يبعد كثيرا المبادىء عن السلوك .

فى ٢٠ يناير ١٨١٥ ** يرسل الأستاذ الجرونوبلوازى الشاب جزئى كتابه « **مصر فى عهد الفراعنه** » ويرفق بهما خطاباً يتناول فيه مرة أخرى و « بتعنت » (وهى الكلمة التى استخدمها فى خطاب) مسائل أسماء المدن المصرية القديمة . نهاية الخطاب مفقودة وكذلك للأسف رد جوهان داڤيد أوكربلاد . هل تضايق السويدى من إصرار مراسله الشاب على الدفاع عن أراءه ؟

إن ما ينم عنه هذا التبادل فى نهاية الأمر هو الإحترام الذى أبداه جان - فرانسوا نحو الرجل الذى توصل بالتخمين على أسم بطليموس على حجر رشيد . كذلك الإهتمام الذى أبداه أوكربلاد تجاه أعمال هذا الريفى المجهول ذى العشرين عاماً . هل يعتبر هذا تمريراً للشعلة من يد للأخرى ؟ كلا . لان النبيل السويدى الذى توفى عام ١٨١٩ كان يعتبر أن الدكتور توماس يانج هو الأقدر على حل اللغز *** .

لم تكن المعركة قد أنتهت لعدم وجود متعاركين . فانسحاب سيلڤاستر دوساسى من الساحة بعد نشر « **رسالة الى مسيو شابتال** » وإنسحاب أوكربلاد نحو ١٨١٥ لم يفت من عضد الجميع ، بل على العكس ....

---

* راجع فصل ٥

** هذا التاريخ يقترحه مسيو كيبال وهو ماتؤيده جميع الشواهد .

*** انظر الفصل التالى .

في الوقت الذي تحرر فيه جان فرنسوا شامبوليون من العواصف السياسية التي دامت من ١٨١٥ حتى ١٨١٨ ومن آثار « نفيه » إلى فيجاك والتهديدات التي نجمت عن مغامرة « استيلائه على الباستيل » عام ١٨٢١ . ذهب ليقيم في باريس ليقف في مواجهة أبي الهول - في ذلك الوقت كان هناك ما يقرب من عشرة من الباحثين من مختلف التخصصات يلح على أفكارهم لغز الهيروغليفية .

في عام ١٨٠٤ نشر باحث مجهول دراسة في : **تحليل للنص الهيروغليفي لحجر رشيد** ولم يعبه سوى شئ واحد : فهو يقدم ترجمة لأربعة عشر سطرا من النص المقدس (أي ما يربو على ثلث الفصل الأصلي) بواسطة الأربعة وخمسين سطرا للنص اليوناني المبتور ربعه ... « إن هذا العمل لا يمكنه أن يصمد أمام أبسط امتحان له » هذا ما أكده شامبوليون عام ١٨٣١ .

نشر الكونت بيلس حـ . بالين عام ١٨١٢ **« في دراسة الهيروغليفيات »** يحاول فيه تجميع لغة رمزية مبنية على تاريخ الأديان . وهو يقول « إن الحدث الهيروغليفي يعبر عن نظام الأشياء » وليس له أي دلالة صوتية . وبذلك نكون قد عدنا فجأة إلى كليمان السكندري وهو رابوللون وكيرشار ... من وجهة النظر اللغوية كانت هذه المحاولة ضعيفة في استدلالتها لكي تؤخذ بعين الاعتبار : ولم يفت جان - فرنسوا أن يسخر من غريمه وهو يراسل أخاه .

هل يستوجب البحث أن نذكر أعمال الأب جوهان سيفران حتى لانكون قد أهملنا أي عنصر من عناصر السلسلة : قدم في ١٨١٣ ما أسماه « فرضية » أكثر من كونها حلاً ترجمة لثلاثين علامة من المخطوط الهيراطيقي ؟ أقل ما يمكن أن يقال عن هذه المشاركة هي أنها لا تلفت قط نظر مؤرخي البحث العظيم . ولكننا سنراها تثير اهتمام توماس يانج .

اسم يتردد مراراً هو اسم الأخوين هومبولدت : الكساندر وفيلهالم ، على الرغم من أن هذين العالمين لم يشاركا مباشرة وبصفة شخصية في المسألة المصرية . أول الشقيقين قارن في كتابه **« مناظر من سلسة الكوريليارا »** وهو يتكلم فيه عن « معابد السكان الأصليين في أمريكا » بين « اللوحات » التي رسمها الفنانون المكسيكيون وهيروغلفيات وادي النيل وهو بذلك شارك بالمقابلة في إضعاف نظرية الأفكار المكتوبة . أما الأخير فقد وضع سلطته العلمية الكبيرة كعالم لغويات في خدمة أفكار شامبوليون وقد شارك بعد عام ١٨٢٢ في أن يحصل على حقه العادل والمستحق . ومن هنا تأتي الصداقة التي جمعت بين الرجال الثلاثة .

لم يبتعد عن الساحة جميع المستشرقين الفرنسيين الذين درسوا فى حينه فى المدرسة الخاصة وفى الكولاج دو فرانس على يد ساسى ولانجلاس وأودران * بل شاركوا جميعا بطريقة أو أخرى فى المشروع الكبير : كاتروماr ، سان مارتان ، لوترون وريموزا .

كما ظل القدماء مثل الكسندر لونوار على إصراره لا يستسلم ثلاثون عاما بعد محاولاته الأولى ** محاولين إلقاء الضوء الكاشف على اللغز ... ومثل علماء اللغويات الكبار مثل فولنى والهواة الجسورين مثل ربيو الذى إدعى فى ١٨١٦ أنه اكتشف الحقيقة - وجومار الذى اعتقد أنه على الرغم من كونه عالم جغرافيا فإن ماضيه كمساح لوادى النيل إلى جوار الجنرال بونابرت وسلطته التى اكتسبها بصفته المسئول عن « **وصف مصر** » يعطيانه حقاً مشروعا غير منقوص فى الكشف عن كل ما يتعلق بمصر . ثم ماذا نقول عن فورييه ؟ لكن هل من المعقول أن نكون كتبنا المقدمة التاريخية **للوصف** دون أن نشعر بحقنا فى أن نلقى الضوء على المناطق المظلمة ... ؟

سبق أن أشرنا إلى الانتقادات التى وجهها جان - فرنسوا شامبليون **لوصف مصر** وأنه ذهب إلى حد وصفها بأنها « ماء مغلى » فقد وجد على وجه الخصوص أن ما نقل من العلامات الهيروغليفية كان يتسم بتقريبية مشينة : إن بعض إنتقاداته كانت من العنف لدرجة تكاد تقترب من الظلم إذا تذكرنا فى الظروف المادية وأولها المناوشات العسكرية التى عمل فى كنفها لانركيه وجولدا وفيلار ودوتارتر وروديوتيه ومارسال ...

فى محاضرته الأولى فى الكولاج دوفرانس وهو فى شتاء عمره سيعبر كاشف اللغز عن عدل أكبر إذ حيا الموهبة الفزة التى تمتع بها منافسوه . كما حيا ماقاله عنه هؤلاء المنافسون الذين قاموا برفع النقوش فى صيف ١٨٠٠ بين دفعتين من إطلاق النار تحت حماية دوسيه اوبليار وهم فى ردائهم العسكرى فى درجة حرارة خمسين مئوية فى الظل الذى تتردد الآثار فى إلقائه عليهم ودون أن تكون فى حوزتهم الأدوات الدقيقة العلمية المطلوبة .

ويؤكد شامبليون فى ١٨٣١ - بعد أن ذكر الظروف التى أحاطت بفورييه ورفاقه وهم يقومون بأبحاثهم : « إن هذا العمل العظيم يؤكد - لدى دراسته فى إطار الإهتمام

* راجع فصل ٣

** راجع المقدمة .

الحق بتقدم المعارف التاريخية – على أن أكثر المعلومات قيمة كانت تختبئ داخل هذه المخطوطات الهيروغليفية التى تزينت بها دون استثناء جميع الآثار المصرية ... »

ثم تحدث جان – فرنسوا شامبوليون وهو لا يزال يقطر دماً من بعض الجروح عن « الرحالة الانجليز ولعلهم كانوا فى حماسهم الزائد مدفوعين بروح من المنافسة الوطنية أكثر من اهتمامهم المفروض بالعلم » حاولوا أن يقللوا من قيمة العمل العظيم . ثم أضاف ليبدو أفضل من منتقديه موضحاً أن « الأبحاث المفيدة التي قام بها الدكتور يانج ستضمن لانجلترا مشاركة نبيلة فى تقدم الدراسات المصرية ... »

وهو يكون بذلك قد عاد إلى لب الموضوع .

١٠ - الرائد ذو الوردة

كتلة من البازالت فى المتحف البريطانى - توماس يانج « الظاهرة » - كما لو كنا نتلاعب ... - ترجمة « فرضية » - ولنجتون عالم اللغويات - هدوء شامبوليون - مقال فى **الانسيكلوبيديا بريتانيكا** *- بطليموس ! - مباراة فرنسا - انجلترا ؟ - « ... إنه إذن من الرواد » - الحدس والأسلوب .*

يستحيل أن تدخل المتحف البريطانى دون أن يشدك على الفور هذا المغناطيس المسمى حجر رشيد. منذ أن تدلف من بوابة الصالة الفسيحة للغاية التى خصصها مسئولو المتاحف الإنجليز للآثار المصرية تستقبلك كتلة البزالت * الأسود - ١ متر و ٢٠سم فى ٩٠ سم و٣٢ سم سمك تقريبا - وهى مائلة قليلاً داخل حزام حديدى وتحاصره باستمرار أفواج تبدو كما لو أنها قدمت بذات الحمى التى استولت على الملازم بوشار ومعاونيه عندما استخرجوا هذه التحفة من أساسات قلعة رشيد القديمة فى إحدى ليالى يوليو ١٧٩٩ . مكان للذكرى ، حجر فلسفى منضدة الساحر .

فى بياض فى نصاعة الطباشير تبرز النصوص الثلاثة كالمعجزة وسط الكتلة السوداء . تبدو كما لو أنها صُنِعَتْ بالأمس فقط .

الذى لا يشاهد كثيرا هو النص الصغير الأكثر حداثة المنقوش فى خلفية القاعدة : « **تم الاستيلاء عليه فى مصر بواسطة الجيش البريطانى، ١٨٠١** . Captured in Egypt by The British Army, / 18 01 . فهو بالفعل غنيمة حرب استولى عليها الفريق تورنر الذى نفذ تعليمات وليام هاميلتون وصادرها من فوق سفينة فرنسية ونقلها عام ١٨٠٢ من الاسكندرية إلى بوسموث قبل أن توضع فى المتحف المشهور . وكتب فى تقريره : « غنيمة مجيدة للسلاح البريطانى [...] لم تنتزع من أيدى شعب أعزل ** ولكن أخذت بشرف وطبقا لقوانين الحرب . »

---

* بعض علماء المصريات تساءلوا مؤخرا عن طبيعة هذا الحجر .. إلا أننا سنتمسك بالتسمية الكلاسيكية ونعتبرها مؤكدة .

** ضمنيا : كما فعل الفرنسيون .

قوانين الحرب ؟ قد نرجع إلى تلك المقولة أحياناً خلال سردنا لوقائع هذه « المباراة بين فرنسا وإنجلترا » التى ستشهد مواجهة لاهوادة فيها بين الوردة * والديك ** متناسين أن فى القرن السابق لم يتردد واربورثون (الإنجليزى) ومالبان (الفرنسى) فى خلط معرفتهما ووحدا قلميهما فى بحثيهما عن كأس المجد فى وادى النيل .

لنختلط إذن بجموع زوار « البريتيش ميوزيوم » . هل نندهش أم نتضايق لدى سماعنا لكلام المرشد السياحى وهو بدلاً من أن يشير إلى أعمال الباحثين الأوائل لمعهد مصر [انستيتودى كار] يبرز أمجاد نلسون التى لولاها [والحمد الله ! : Thanks god] لما أمكن نقل الحجر من المركب الفرنسى إلى سفن صاحب الجلالة ؟ نندهش ؟ لا !! نبتسم ؟ نعم !

إلا أن الألواح والصور التى تزين الحوائط المحيطة - الأرقام والشروح والتعليقات التاريخية والصور الشخصية - تستحق منا اهتماماً أكبر ؛ إذ يتضح منها أنه إذا كان شعب لندن الطيب - لندن وغيرها أيضا - لم يعد يجهل شيئا من معانى النصوص المشهورة فإن ذلك يرجع إلى عبقرية عالم بريطانى اسمه توماس يانج استكملتها المجهودات التى تستحق التقدير - وإن كانت ظلت خاطئة لفترة طويلة - والتى قام بها جامعى فرنسى مجد اسمه شامبوليون .

تزين الحائط المجاور صورتان لوجهين : إلى اليسار . فى مكان بارز . صورة الدكتور يانج كلها جلال ومعروضة بعظمة أكبر بفضل إخراج لورانس لها . ؟ ثم إلى اليمين - بشكل فرعى وبريشة ليون كوانيه المسطحة لكل شيء صورة جان - فرنسوا شامبوليون الذى يبدو فى حزن تعبيرات وجهه كما لو كان موصوماً بالعلاقة المشينة التى تميز سارق أعمال غيره . علماً بأن كل من كان خارج دائرة المتحف البريطانى يعلم أنه هو الأب الشرعى لاكتشاف سر الهيروغليفية .

ولكى تكون الأمور أكثر وضوحاً فإن مكتبة المتحف تبيع للزوار كتيبا أنيقا عنوانه حجر رشيد The Roseta Stone تزينه صورة توماس يانج المذكورة على صفحة كاملة ونفس صورة شامبوليون منشورة بتحرج على نصف صفحة . يصف الكتيب

* رمز لإنجلترا (المترجم) .
** رمز لفرنسا (المترجم) .

اكتشافات العالم البريطانى التى استغلها أستاذ جرونوبل بدأب بأسلوب يصعب معه فهم لماذا وكيف توج هذا الأخير بلقب مؤسس علم المصريات فى نهاية الكتيب . إلا إذا كان مدلول كلمة « مؤسس » هنا هو العامل الفنى الذى يحفر الأرض بالمجراف تحت إشراف المهندس العبقرى .

ولكن إذا عدت إلى باريس وليطمئن قلبك فتحت قاموس لاروس الصغير Le Petit Larousse Illustre ستجد ما يلى تحت اسم **يانج، توماس** : « عالم فيزياء إنجليزى . اكتشف التداخلات المضيئة » ولا شىء غير ذلك . يكفى أن تعبر المانش ليكون يانج هناك هو المكتشف الحقيقى لأسرار الهيروغليفية - هو هنا « عالم فيزياء انجليزى » .

سنرى كيف أن العلم البريطانى المعاصر سيتفادى مثل هذه المعارك وأن كتاب Who's Who in Egyptology لوران داوسون وإيريك أبهيل [1] - ضمن أخرين يكتب عن يانج أن اكتشافاته « لا يمكن مقارانتها باكتشافات شامبوليون » الذى يتم تقديمه بكل وضوح على أنه أبو علم المصريات .

ليس مؤكداً أن مدرسة المصريات الفرنسية - فيما عدا استثناء واحد - هو سوناس فى « مقدمة ١٨٢٢ **لخطاب إلى مسيو داسييه** » - تحيىّ بنفس الدرجة من العدل توماس يانج الرائد . ولذلك فسنعمل قدر جهدنا على ألا نغفل أياً من الأضواء التى سلطها هذا العبقرى على اللغز المصرى . فهو يعتبر « كيرشار » حقيقى للعصر الحديث الذى كان بالنسبة لعلم الضوء ما كان جوزيف فورييه بالنسبة للحرارة .

ولد توماس يانج فى يونيو ١٧٧٣ فى ميلفرتون ، سومرست من عائلة من الكويكرز تعلم القراءة وهو فى الثانية من العمر . ولما بلغ السابعة تعلم اللاتينية واليونانية والرياضيات . وما أن وصل إلى الثانية عشرة إلا وكان يتكلم العبرية والفارسية وبرع فى استخدام معدات البصريات . وفى الرابعة عشرة كان قد تمكن من اللغات العربية والفرنسية والإيطالية والاسبانية وتلتها السيريانية والكالدية .

وليظن المرء أنه يسمع صدى لتاريخ حياة جان - فرنسوا شامبوليون مع فارق واحد هو أن شاب مقاطعة سومرست كان أكثر إنفتاحا على العلوم الوضعية أكثر من شاب مقاطعة كارسى ...

قادته دراساته الطبية وهو فى العشرين من عمره إلى مستشفى سينت بارتولوميو فى لندن حيث بدأ ظهوره يبرز فى تمكنه من مادة الاوفتالمولوجى (الرمد) – حتى أنه ألقى فى تلك الفترة المتقدمة محاضرة مجددة أمام الجمعية الملكية Royal Society عن خصائص العدسة البللورية . ثم واصل دراساته وأبحاثه فى إدنبره وابتعد عن أخلاقيات وأسلوب حياة الكويكرز وأثبت أنه رجل مجتمع مثالى ويعزف على آلة الفلوت ويؤدى الأدوار الترفيهية فى المجتمع – حتى أن بعضهم يقول أنه أصبح راقصاً محنكا على الحبال ... وبذلك يكون الأول من نوعه فى مجموعتنا الغريبة من حلالى شفرة الهيروغليفية !

وها هو يصل إلى جوتنجن حيث مسه شيطان علم اللغويات ؛ إذ اكتشف أعمال الأب جوهان سيفران * الذى كان يعكف على دراسة الكتابة الهيراطيقية مدعيا أنه اكتشف أبجدية تضم ٣٠ علامة ، ورد عليه توماس يانج مؤكدا فى نقاش عام أن تلبية متطلبات الصوت والتعبير الإنسانى تقتضى وجود ما لا يقل عن ٤٧ حرفا .

ثم نجده مرة أخرى بعد وقت قصير فى كيمبريدج حيث كناه أساتذته وزملائه « بالظاهرة » . وهناك تعرف على وليام جيل (الذى سيؤدى دوراً فى الصراع الايجبيتولوجى الكبير فى العشرينات من القرن إلى جوار شامبوليون) وبدأ السلسلة الطويله والعظيمة من تجاربه على الضوء . وسرعان ما أصبح سكرتير الجمعية الملكية للعلوم ثم عضوا فى كلية الأطباء البشريين الشهيرة College of Physicians ممارساً فى الوقت ذاته مهنة الطب والأبحاث عن العلاقة بين الصوت والضوء . مهتماً بإدخال الغاز إلى لندن وتقنيقيات بناء السفن ومديراً لمجلة Nautical Almanac المناخ البحرى ومستشاراً للأدميرالية البريطانية فى المجال الفلكى ...

عندما توقف عن ممارسة الطب فى عام ١٨١٤ كان ذلك لكى يعمل فى مجال ... التأمينات ! الشركة التى طالبت تعاونه معها كانت تبحث عن حاسب جيد لكى تفتتح خط نشاط جديد لها . وهو ما يجعلنا نعتقد أن هذا الرجل المتعدد المواهب اختار هذا الطريق لكى يتمكن من الاستمرار فى تحويل أبحاثه عن آليات عمل العين وبناء القرنية والتكيف والاستجماتيزم مما جعله مؤسس علم الفيزيولوجيا البصرية .

دون أن يهمل دراساته الخاصة بالعين والضوء والألوان ، وفى نفس تلك الفترة اندفع مشاركا فى المغامرة المصرية الكبرى . إذ بدأ كل شىء بالنسبة له فى أحد أيام

* راجع الفصل السابق ص 363 .

شهر يونيو عام ١٨١٤ عندما أحضر له أحد أصدقائه سير راوز بروتون الذى كان يعرف اهتمامه باللغات القديمة بردية ديموطيقية ليشغل بها أوقات فراغه التى يقضيها فى الريف . أليس فى ذلك مادة لترفيه هذا العقل الشامل الذى يثير كل شيء فضوله ؟

الشك لا يدخل قط قلب الدكتور يانج وحيث يفشل عالم لغويات كبير مثل ساسى أو علماء اللغة القبطية المشهورون مثل أوكربلاد أو كترومار .. ينطلق هو . وهاهو يقبل على فك ألغاز ليس بردية بروتون فحسب وإنما أيضا النص الأوسط لحجر رشيد .. وهو لا يسميه « ديموطيق » ولكن « أنكوريالى » .

وهو عندما يدخل المغامرة - بفكرة أن يلهو فقط كما يقول - كانت شهرته كعالم معروف ومحترم مؤكدة - وكان ثريا بالقدر الذى يسمح له بالتوقف عن ممارسة الطب . وله أصدقاء عديدون وعلاقات فى لندن وعبر أوروبا . ثم إن حجر رشيد فى متناول يده إذ كان يكفيه أن يدفع باب المتحف البريطانى للوصول إليه . وسرعان ما يتصل بالرجل الذى قيل له عنه أنه يفوقه فى اللغة القبطية أكثر من أى فرد آخر فى العالم ألا وهو أوكربلاد والذى قيل عنه أيضا أنه يئس وابتعد عن المشروع العظيم .

وعلى الفور يضع العالم السويدى تحت تصرف القادم الجديد جميع الاكتشافات التى توصل إليها وعلى وجه الخصوص أبجديته الديموطيقية المشهورة المشتملة على ستة عشر حرفا والتى كانت تعتبر فى زمانها قمة الاكتشافات فى مجال علم المصريات . لم يمض وقت طويل قبل أن يكتشف أن منظومة أوكربلاد غير فاعلة البته . غير أن ما قدمه له أوكربلاد * فى بداياته جعله يتساوى خلال بضعة شهور مع أكثر الباحثين علماً .

دخول توماس يانج الحلبة كان كاسحاً : ففى خلال ثلاثة شهور تمكن من اللحاق بجميع من سبقوه بل وتخطيهم أيضا . ففى الثالث من أكتوبر عام ١٨١٤ أرسل إلى سيلفاستر دوساسى وبعد ذلك بقليل إلى مجلة **أركيولوجيا** Archeologia « **ترجمة تقريبية للنص الدنكوريالى** ** » (الديموطيقى) توصل إليها بفضل منظومة عبقرية للتقريب والتبويب السطرى والمقارنات المادية للعلامات المختلفة ، بل تجرأ أيضا وأخذ يطبق نفس المنظومة على النص الهيروغليفى - حتى أنه أعلن عن قرب حل لغز النص الهيروغليفى « الذى مازال سليماً » .

---

* سينفى دائماً أى أهمية له .

** أعيد نشره فى العام التالى بالتوقيع السرى الغريب أ ب جـ د فى مجلة Museum Criticum التى تصدر فى كيمبريدج .

كيف تمكن هذا الطبيب العبقرى – ولكن دون أى تأهيل فى اللغويات – علما بأنه يتكلم عشرة لغات شرقية قديمة ولكنه غير ضليع فى اللغة القبطية التى تعتبر طريق الدخول الأساسى إلى فك الشفرة – كيف أمكنه أن يحقق التقدم بهذه السرعة فى ساحة يجوبها كم ضخم من المتخصصين أفضل منه تسليحا لخوض تلك المغامرة على ماييدو ؟ لنقرأ هـذه الملحوظات التى أفضى بهـا عـالم اللغويات النمساوى دويلهوفار :

« لم يكن فى مقدوره إلا أن يقارن مقارنة مادية بحتة بين النصوص ... إن مـا قاده فى استنباطه هو حدسه الحسابى . إلى أن حصل بفضل مقارناته وتكيفاته الرياضية على نتائج مثيرة فعلا للدهشة إذا أخذنا فى الاعتبار عدم كفاية الوسائل المستخدمة . »

بالطبع لم تكن ترجمته بعد وباعترافه هو سوى « إفتراضية » * إلا أن تمكنه من التعـرف السليم على بعض المجموعات منذ أن كتب **رسالته إلى ساسى** ومقاله فى **الأركيولوجيكا** أى بعد ثلاثة وأربعة أشهر فقط لشىء مذهل . وهو ما يؤكد عليه هنرى سوتاس : « منذ نوفمبر ١٨١٤ توصل يانج بقفزة واحدة إلى النقطة التى لن يتخطاها أبدا » . (2)

هل سهل مـا توصل إليه كل من ساسى وعلى الأخص أوكربلاد من التعرف على بعض الكلمات من عمليات التبديل والتوفيق التى سمحت ليانج من القيام بهذه القفزة الضخمة إلى الأمام ؟ لن يعترف العالم الانجليزى بذلك أبداً ولا بالقدر القليل . وهو يقول فى التعليق الذى قـدم بـه « **لرسالته إلى ساسى** » فى أكـتوبر ١٨١٤ موضحاً :

« أعتقد أنه بامكانى أن أعتبر ترجمتى مستقلة تماماً عن الأبحاث الذكية لأركربلاد »

وعندما يكتب السويدى فى إحدى رسائله : « إذا صدق مسيو دوساسى القول فإنكم استخدمتم أبجديتى بكاملها تقريبا وكذلك قراءاتى ... » فيرد توماس يانج على الفور :

« لا يمكننى أن أدعكم تقولون أن استـخدامى لمعظم قرائتكم المتضمنة فى خطابكم الأول يرجع إلى موافقتى على مـا توصلتم إليه من نتائج ، ولكنها ترجع إلى أبحاث مستقلة قمت أنا بها . الواقع هو أن الثلاثة أسماء التى يسهل جدا التعرف عليها اكتشفها مسيو دوساسى أما الستة عشرة والثمانى عشرة كلمة الأخرى المذكورة فى خطابكم كانت أيضا الأكثر وضوحا للعين : ومن الطبيعى أنها اتضحت أمامى كما أنها اتضحت أمامكم حتى لو لم أسمع قط عن خطابكم . »

---

* اعتراف مرحلى فقط كما سترى ...

ولكن إذا كان حدس الطبيب الانجليزى أفضل من روحه الرياضية – حسبما يقول سوتاس – فإنه من الظلم البين أن نفعل ما فعله سيربيتر لوباج – لونوف * ونصف محاولات التهديف الأولى ليانج بأنها « غير جديرة بالاهتمام Worthlessness حتى لو أن هذه المحاولات لم تتحول إلى هدف داخل الشباك ...

كيف يمكننا تلخيص هذه المجموعة الأولى من النتائج ؟ فى ثلاثة أو أربع نقاط . أولاها تتعلق ببداية القراءة ... فبفضل تخريج ذكى جدا لبعض السطور فى النصين المصريين تمكن الطبيب الانجليزى من التعرف علي بعض المجاميع . النقطة الثانية تتعلق بالمدلول الصوتى المحتمل للحروف الهيروغليفية : وهو ما يضع تحته طبيب الضوء الأسطر بذكاء (حتى لو أنه تراجع عن ذلك بعد أربعة أعوام) النقطة الثالثة تتعلق بتنقيح ما سبق أن تصوره العديد من الباحثين ** وهو أن الكتابة المرسلة (الديوطيقية) هى من مشتقات الهيروغليفية . أما « الاكتشاف » الرابع الذى قام به فى خريف ١٨١٤ حسبما يقول الباحث نفسه – وهو أن « البيضويات » أو « الخراطيش » تشير إلى أسماء الآلهة والملوك . فقد سبق ورأينا كيف أن بارتيليمى وجينى وزويجا قد وضعوا أسس هذا المبدأ ولكن دون أن يستخلصوا النتائج المترتبة على ذلك مثلما فعل توماس يانج ببراعته الفكرية وخصوبته العقلية .

تأثر سيلفاستر دوساسى بالبحث الذى وصله من لندن للدرجة التى جعلت منه منذ ذلك الحين المدافع عن الباحث الانجليزى وأن يعتبره لمدة سبع أو ثمانى سنوات المكتشف الأكثر احتمالا للغز ، مفضلاً إياه على طلبته القدماء فى مدرسة اللغات الشرقية ومنهم شامبوليون . هل كان رد فعله الأول رد فعل عالم ؟ إن عالم اللغويات بداخله كان يدفعه إلى اعتبار يانج هاويا خطيرا . ولكن هذه الشخصية المرموقة فى التجمع العلمى رأى فى سكرتير الجمعية الملكية فى لندن زميلاً مساويا له فى القدر .

ثم يجب ألا يغيب عننا أن ساسى كان شخصية تحركها معتقدات سياسية قوية . وفى الجدل الكبير المشتعل فى ذلك الوقت بين « الغول » و « زهرة الزنبق » كان يعتبر الانجليز بطبيعة الحال أفضل حماة لآل بوربون ... وأستاذ جرونوبل الصغير من زبانية بونابارت .

سيواصل توماس يانج أبحاثه فى اللغويات لمدة ثلاثة سنوات متصلة بين كتابة

---

* انظر فيما بعد فى ذات الفصل .

** منهم شامبوليون .

مقال عن عصب العين وإلقاء محاضرة عن التداخلات المضيئة ومشاركة فى نقاش عن الملاحة كما واصل تبادل الرسائل مع ساسى وأوكربلاد والشقيقين هومبولدت ومواطنيه نيبى جال وبانكس : إنه يتحسس طريقه هو أيضا كعالم حق ويصحح أخطاؤه ثم يعود من جديد وهكذا .. أعلن فى خطاب لساسى مؤرخ فى ٣ أغسطس ١٨١٥ أن الحروف الديموطيقية ليست كلها حروفا أبجدية إذ أن بعضا منها لها مدلول رمزى ... وهو إذا كان يتحسس طريقه فإن ذلك كان فى منطقة قريبة من النور .

كانت تلك هى المرحلة التى يرجع إليها كما رأينا من قبل أولى تبادل الرسائل بينه وبين جان – فرنسوا شامبوليون * بمناسبة إهداء شامبوليون كتابه **مصر فى عهد الفراعنة** للجمعية الملكية (سكرتيرها فى ذلك الوقت كان توماس يانج) . وكان هذا التبادل معبرا جداً ، إذ أن الانجليزى كان يتكلم من عليائه كرجل واثق من عمله ونتائجه القريبة ويريد أن يعترف الآخرين بنجاحاته وتفوقه .

كتب توماس يانج لمنافسه الفرنسى يقول له أنه أرسل لساسى منذ ستة شهور « ترجمة ظرفية مع شرح للأسطر الأخيرة المكتوبة بالهيروغليفية » . وهو لم يكن يشك فى أن المعلم الفرنسى الكبير قد أحاط تلميذه علماً بكشف له هذا القدر من الأهمية .. ثم فى جملة تالية يسحب كلمة « ظرفية » : ويقول ببساطة « ترجمة الكتابة المصرية لحجر رشيد » ثم يضيف الدكتور يانج مزايداً : « بعد التعرف على معانى العديد من الحروف الهيروغليفية . وجدت بعضها واضحة جداً فى نصنا ** المصرى : فهى بالتالى ليست سوى حروف أبجدية ... » لا يمكن إذن أن نؤكد بأكثر من ذلك الجلال المتعالى على الأسبقية والتفوق . إذ لا يصح أن نقول لهذا الشاب الذى يؤكد أن لديه ادعاءات تنافسية أنه وصل متأخراً وأننا اكتشفنا مفتاح اللغز بالفعل هكذا وقبل أن يقضى ولينجتون على كل آمال « الأمبراطورية الجديدة » بثلاثة شهور . كان يانج يحاول بذلك أن يقضى تماماً على أى آمال أو حتى تخيلات قد تراود شاب جرونوبل .

ومع ذلك فلم يبد على جان – فرنسوا أى تأثر سلبى فى رده فى ٩ مايو ولا حتى أى اندهاش . بل يرد بكل برود أن ساسى لم يطلعه على « النتائج التى توصل إليها (مراسله) بعد المجهودات العلمية المتعلقة بحجر رشيد » (أى أنها طريقة مهذبة للقول : إذا كان فيها شىء جديد فإن استاذاً مثل ساسى لم يكن ليحجبها عنى ..)

* راجع الفصل ٧ .

** لاحظ صيغة الجمع هنا (بالنسبة لحجر رشيد بالطبع) .

ويختتم خطابه بأن يستعير من يانج تنازلاً وقورا فيقول : « لا أتمكن من إبداء رأى إلا بعد أن أطلع على بحثكم الهام » . لم يخش أن يقلب الأوضاع ووضع نفسه فى مكان الحكم ...

سيحصل جاك - جوزيف على هذا التعليق الواثق : « يريد الدكتور يانج أن يؤدى دور أبى الهول إلا أن روح عائلة يوسى ليست بداخله . إنه يعتقد أنه يفهمنى وهو لا يفهمنى » . أول تقارع بالسلاح سيبقى لفترة طويلة معلقاً . بعد ذلك .

الشيء الغريب اللافت هو أن الحرب الدائرة سمحت عام ١٨١٥ بتبادل هذه الرسائل التى تحتوى على لب الجدل العظيم فى حين أن السلام الذى حل بين لندن وباريس بعد تنازل نابوليون عن العرش لثانى مرة قد رفع من كافة الحواجز المادية أمام تبادل المراسلات لم يساعد على التواصل المكتوب بينهما . وسيبقى الحال هكذا لمدة سبع سنوات ، الصمت الكامل إلى أن تسمع صرخة الباحث الفرنسى : «**وجدتها يوريكا** . »

هل نقر - خلافا لما يؤكده يانج - أن جان - فرنسوا لم يحصل من ساسى على الخطاب الذى وجهه الطبيب البريطانى للمستشرق الفرنسى الكبير فى ٣ أكتوبر ١٨١٤ والذى يحتوى على أهم تأويلاته ؟ أو أنه لم يعط لنفسه الوقت لقراءة هذا المستند الذى كان يمكن أن يغير مجرى حياته بأن يقضى على طموحاته ؟ هذا ما تؤكده مدام هارتلوبان ، ولا يوجد دليل واحد يؤكد العكس .

الواقع هو أن لا شيء فى مراسلات « **صغير** » التالية يجعل المرء يعتقد أنه أحس بنار القذيفة وهى تمر بجانبه - وهى القذائف التى ستقضى بعد أسابيع قليلة على الحرس الامبراطورى .... هو - الذى واجه بكل التحدى المتصلب كاترومار وجومار نجده هنا يتصرف ببرود يحسده عليه مناظره . إلا أننا نعرف بفضل خطاب سبق ذكره حول مقال للدكتور يانج *يخص **المقدمة** - أنه لم يكن ينظر باعتبار لعلم (اللغة أو التاريخ) البريطانى إذ كان يرى أنه يصلح فقط فى التعليق على التوراة

---

* وجدت فى أوراق شامبوليون المعنونة « شامبوليون فى الليسيه » المقال الذى نشره يانج فى **المجلة الشهرية** Monthly review حول الكتاب الأول لشامبوليون وكذلك على نسخه كتبها بخط يده (وكان ذلك فى تبويب غريب داخل الملف) جاء المقال إيجابيا فيما عدا تحفظ شامبوليون الخاص بالمصادر اليهودية . أغرب ما جاء فى المقال هو جملة يعبر فيها العالم الإنجليزى عن أسفه لأن الفرنسيين سيطروا على مصر لأن « المناخ التدميرى الذى يسود هذا البلد كان يمكن أن يقضى على شباب زائد عن الحاجة وأصبح مصدر اضطراب لجيرانه الأوروبيين » !!

واستخراج ابتهالات للمولى العلى القدير .وهو الخطأ الذى سيضطر إلى الإقرار به بعد قليل ...

وعلى العموم فإن ما قرأه جان – فرانسوا هو مقال نشر عام ١٨١٧ فى مجلة Museum Criticum التى تصدر فى كيمبريدج بقلم توماس يانج ومع ذلك فإن ذلك لم يثنيه عن شكه .

« ما أعرفه عن **اكتشافات** الدكتور يانج (خطاب ٢٧ أغسطس ١٨١٧ إلى أخيه) التى جاءت فى الخطاب * الذى كتبه عن حجر رشيد يطمئننى من ناحيته . لقد كتب لى أوكربلاد أيضا أنه انسحب واستسلم أما الربين ** فهو لا يستحق الذكر [...] أمامى الوقت الكافى لكل أعمالى عـن حجر رشيد . ومـع ذلك فإذا أتاحت لى مجلة Museum Criticum التى أنتظرها يوميا – فرص الكلام عن أعمالى فلن أدعها تفوتنى [...] فى انتظار ذلك فإننى مستمر فى « القواميس » .

توماس يانج الإنسان . يكفى أن ننظر إلى البورتريه الذى رسمه له لورانس وهما فى قمة مجدهما هما الاثنين لنقتنع بقوة اشعاع شخصيته وهيبته بل وأيضا – لأن الشواهد العديدة تؤكد ذلك – سعادته . لقد عبر توماس يانج الحياة على سحابة من الضوء ، من نجاح إلى انتصار . يبدو كما لو أنه لا يجد فى أى من اكتشافاته سوى مفتاح للاكتشاف التالى . متعدد المواهب ومعبود الكثيرين ، عظيم الهيئة كالأمير – تعود على أن يتقدم الصفوف بصفة دائمة لدرجة أنه لم يتقبل إلا أن يكون هو المنتصر منذ البداية وعلى طول الخط وإلى الأبد فى مجال اقتحمه باهمال – كما لو كان يلهو – بعد هذا الكم الضخم من علماء اللغة .

لاشىء كان يؤهل يانج ليكون الشخص الذى يحل شفرة الهيروغليفيات سوى عبقريته فى النجاح .. وربما أيضا أنه رجل نور بجميع أشكاله ومنها التنوير . كان محبا للفخامة . ودودا شغوفا بمعرفة كل شىء وأى شىء مهيئا للرقص والموسيقى ، مرحاً فى المجتمع . لقد ولد لينتصر فى كل شىء . كيف يمكن لرجل مثل هذا أن يتكيف مع وضع لا يعترف له فيه بأنه المنتصر الأوحد ؟

قال عنه صديقه وكاتب سيرته أنه « لم يكن يتحمل أى مبالغة .. [..] وكان أكثر الرجال كرماً وانفتاحا على الآخرين متحرراً تماماً من أى أشكال الحسد أو الغيرة » .

---

* لم يعثر عليه .

** س . دو ساسى .

مهما بلغ إعجابنا بهذا النوع من الإنجليز العظماء من عصر بيت ونوكس ونلسون فإن بقية القصة ستثبت أنه غير مستعد فى لحظات سعادته المتكررة أن يعترف بأفضال الآخرين أو أن يقبل أن يرى أحداً يتقدمه أو يسبقه سواء كان أوكربلاد أوتيخسن * أو مواطنه بانكس وأيضا شامبوليون جميعهم سيجدونه ينازعهم بشراسة مدققة فى أى أسبقية لهم على اكتشافاته هو . **جئت ورأيت وانتصرت .**

فى مواجهة هذا الميروكوسيو القادم من مقاطعة سومرست المتألق الصاعق والرشيق مثل سهم زينون الإلهى يبدو جان فرنسوا ثقيل الحركة مثل فلاحى الكارسى أو راعى غنم من جبالها . إنه يكد فى عمله منذ ستة أعوام يكوم نقوده العلمية قطعة قطعة حجرا وراء حجر ويملأ زلعه بالرموز ... صبر طويل .عبقرية الآخر تتكون من الحدس والتقدم المفاجىء والاختراقات الصاعقة ... ولكن القائد العظيم ليس هو الذى يدخل موسكو فى الصيف وإنما الذى يحكمها فى الشتاء .

هل ترجع قمة اكتشافات الباحث اللندنى إلى ١٨١٨ ؟ يعتقد هنرى سوتاس كما سبق أن أشرنا أن اختراقه الكبير فى عام ١٨١٤ لم يدعمه بعد ذلك أى اكتشاف ذى معنى . غير أن المقال الطويل **مصر** الذى نشره فى **الانسيكلوبيديا بريتانيكا** طبعة ١٨١٨ يبقى فى نظر الأجيال التالية أهم مشاركة له فى كشف اللغز ** . ولذلك فإن اهتمامنا سيتركز عليه .

إننا أمام نص طويل يملأ عشرين صفحة من **الإنسيكلوبيديا** تليه أربع صفحات من الرسومات والصور . بعد عرض عن الميثولوجيا والتاريخ . والمؤسسات وتواريخ مصر القديمة هناك خمس صفحات مخصصة « لتحليل مخطوطات رشيد الثلاثة » . يبدأ بذكر الظروف التى اكتشفت فيها كتلة البازلت المعروضة فى المتحف البريطانى ثم يشير إلى أن سيلفاستر دوساسى كان أول من درسها بجدية .

ثم يقوم يانج كرجل العلوم الدقيقة باحصاء عدد المجموعات المعزولة فى النصوص الثلاثة ثم يحاول المقارنة بينها عددا بعدد من نص لآخر . أخذاً فى الاعتبار أن الخراطيش تشير إلى أسماء الملوك والآلهة . فهو يشير إلى أن كلمة **ملك** مذكورة ثلاثين مرة فى النص اليونانى وأن مجموعة من الرموز مذكورة ٣٧ مرة فى الديموطيقى . وأن **بطليموس** ذكر ١١ مرة باليونانية وأن مجموعة محاطة بخرطوشة تظهر أربع مرات فى

---

* أحد الذين عملوا على حل شفرة « المخروطيات » والذى عمل أيضا فى مجال الهيروغليفيات .

** العديد من مؤرخى اكتشاف سر الهيروغليفيات يؤرخون هذا المقال فى ١٨١٩ إلا أننا نتمسك بالتاريخ الذى تذكره الإنسيكلوبيديا ذاتها بعد مائة وخمسين عاما . الواقع أنه حرر فى ١٨١٨ ونشر فى ١٨١٩

النص المقدس ... كشف اسم **بطليموس** الذى يوجه له إهتمامه فى البداية هل كان سهلاً باستخدام هذا الأسلوب ؟ بعد ذلك بخمس سنوات كتب شامبوليون فى كتابه « **المختصر** » **Precis** :

« أى شخص يقوم بدراسة مطولة للنص الديموطيقى فى حجر رشيد لا يمكن أن يشك بعد أول مراجعة للنص الهيروغليفى أن الخرطوش يحتوى على اسم بطليموس ... » [ولكنه يضيف] : « إن الاكتشاف الحقيقى هو أن تقرأ حقيقة من النص الهيروغليفى أى أن تحدد المدلول الخاص بكل حرف من مكوناته وبطريقة يمكن أن تطبق فيها هذه المداليل كلما ظهرت فيها هذه الحروف » [3] .

هذا هو ما أشار به دوساسى ليانج منذ يناير ١٨١٦ ؛ إذ قال له : « أعتقد بالفعل أنه بالإمكان أن تحدد فى حالات عديدة كما فعلتم المكان الذى تحتله هذه الكلمة أو تلك من النص اليونانى فى النص المصرى الابجدى [ديموطيقى] كما يمكن أن نفعله بالنسبة لنص هيروغليفى خالص ولكن أن تحدد بعد ذلك مدلول الحروف التى تتكون منها الكلمة وتقديمه فى كافة الحالات الأخرى : **فهذا هو المحك** .»

السبب فى أن يانج لم يصل سوى لقراءة غير مكتملة يرجع أصلا إلى إنه لم يدخل فى حساباته بعض الاكتشافات التى توصل إليها غريمه الفرنسى الشاب ألا وهى – على سبيل المثال – أن الحروف المتحركة تسقط كثيرا فى الكتابة المصرية المقدسة . ولكن بصورة أقل لما يحدث فى العبرية أو العربية .

عرض توماس يانج فى مقاله هو عبارة عن تسجيل لسلسلة من رص للمعلومات وصفها البعض بأنها حسابية والآخر بأنها ميكانيكية . إلا أن حلال الشفرات المحترف هنرى سوتاس * يذكر بأن هذه هى الطريقة الطبيعية فى العمل فى هذا المجال . وأن هذه الطريقة التى يستخدمها لاعب الـ Puzzle ومركب لعب الميكانو كانت تسمح له بالذهاب بعيدا ... المعتقد اليوم أن من الـ ٢٢٠ كلمة التى يدعى أنه اكتشفها نصفها كان بصورة تقريبية .

تكشف قراءة مقال **الانسيكلوبيديا** المطول أن يانج جرب التقريب والمقارنة يحرك قطعة شطرنج هنا وأخرى هناك ، يجرى تداخلات وتكوينات ، يتحسس ويجس ويخمن ويؤول دون أن يقيم نظاماً ولا حتى بروتوكولا للاكتشاف .. إنه قام بتبويب الحروف التى تعرف عليها فى أربع فئات : الآلهة – الملوك – الأفراد – الحيوانات . يسرف فى عرض

---

* مشفر سابق فى إدارة الشفرة بوزارة الخارجية .

الاقتراحات ومحاولات الشرح ، أما كلمات **إله وإلهة** فهى مميزة بوجه خاص ، وكذلك بطليموس وبيرينيس . الأول بهامش خطأ بسيط والآخر بصورة يشوبها شيء من المجازفة .

إن « قراءته » لاسم بطليموس الذى تعرف عليه فى خرطوش سبق أن حدده ساسى وأوكربلاد تنم عن ابتكارية فذة . هناك ثمانى علامات مرتبة داخل الخرطوش : مربع قرأه حرف ب ، هلال وكان بالنسبة له ت ، شكل عقدة - استبعده على أنه لا يعنى شيئا ، أسد ممدد ، مشبك للشعر قرأه « أوله » شعر قرأه « يا » ، عودان من القصب منتصبان حرف « ى » وشكل عمودى حدده بأنه « وى » المجموع يصبح « بيتوليمايووس » ... برافو : علما بأن الترجمة السليمة التى قام بها شامبوليون هى بتوليس .

يلاحظ سوتاس أنه « أدخل فى تركيب اسم بطليموس عناصر متنافرة أبجدية (ب . ت . أ) مقطعية (ما - و س) ثلاثية (أوله) ورمز لادلالة له (الحبل المعقود) وبالتالى فبعد أن بدأ بداية سعيدة توقف فى منتصف الطريق [...] هذه الطريقة التى تحتوى على أسلوب نقدى لم تسمح له بالذهاب إلى نقطة أبعد [...] فكره يتمتع بدرجة عالية جدا من إمكانية الحدس [...] ينطلق من فكرة مسبقة يتضح أنها سليمة ولكنه لم يعتنى بالتدقيق ... » (4) .

يبدو أن عالم المصريات النمساوى دويلهوفار قد قيم هذه العملية المبهرة وغير الدقيقة فى آن واحد تقييما عادلا إذ يقول : إذا كان يانج قد بدأ بالفعل فك شفرة الهيروغليفيات مع بعض التحفظ على بعض التخمينات السليمة فإنه لم يخط بالخطوة الضرورية ليعبر العتبة التى فتح بابها . » عندما يلتقى باسم إله الأموات أنوبيس فهو لا يتعرف عليه و (بالاستيعاب) يطلق عليه « سيربيريوس ، حامى الجحيم اليونانى .. » . أخطر من ذلك : « من المثير للدهشة أن اسما لإله آخر - وهو بتاح لم يستوقفه على الرغم من أنه تكرر عدة مرات فى حجر رشيد وأظهره النص اليونانى وعلى الرغم أيضا من أن يانج قد اكتشف القيمة الصوتية للحرفين الأولين ب ، ت داخل خرطوش بطليموس . »

الشرح الظرفى الذى يقدمه دويلهوفار لهذا النوع من الكبح أو توقف العبقرية التخمينية عند الطبيب العظيم هو :

« إن هذه الدراسـات * كانت بالنسبة له وطبقاً لقوله هو « سعادة تجلبها بعض ساعات من أوقات الفراغ » ولكنها سعادة راحت تبتعد شيئا فشيئا كلما زادت معرفته بالمصريين القدماء . كان يأمل فى أن يكتشف كنوزا من العلوم الطبيعية المصرية التى الهمت فيثاغورس حسبما يقول . ولكن كلما تقدم فى فهمه للنصوص كلما اتضح له أنها لا تتحدث سوى عن الآلهة والفراعنة والأموات وخاصة الأموات وهى أبداً لا تتكلم عن الفلك أو التاريخ .» (5)

هل وضع إذن توماس يانج (أو وجد) نهاية لأبحاثه لأنه لم يتمكن من اكتشاف مواد تكفى لأن تجعلها أبحاثا علمية ؟ الفكرة جديدة .. إلا أنها قد لا تستهدف إلا جانبا واحداً من المسألة . لأنه لو كان ذلك صحيحا فلماذا عمل يانج بكل هذا الاصرار على جعل المجتمع العلمى الأوروبى يقر ما هو منافى للحقيقة الجلية ولأبسط مبادئ العدل أنه ليس أول من اكتشف الحل وليس هذا فحسب بل أن إكتشافاته كانت شاملة وخاصة به وحده أيضا ؟

سنعود للحديث ** عن الصراعات الرهيبة والقضايا التى رفعها العالم الكبير وأصدقاؤه لإثبات أبوته للاكتشاف . حتى ذلك الحين يتحتم علينا أن نشير – مع شبه اجماع من الباحثين المعاصرين – إلى أن السبب فى أن توماس يانج لم يتمكن من أن يثبت أمام التاريخ إدعاؤه بأنه هو المكتشف ، لا يعود إلى خيبة أمله لعدم وجود معطيات علمية كافية فى عالم المصريات وإنما لأن الأسلحة اللغوية والأدوات التى لا غنى عنها لكل باحث فيها لم تكن فى حوزته .

ففى موضوع يتعلق باللغويات كانت العقبة الكؤود التى اعترضت طريق الدكتور يانج هذا الطبيب العبقرى والمفكر العالمى هى أنه لم يكن عالماً لغويا *** عندما وصفه مسيوسوتاس بأن « فكره حدسى لأقصى درجة » فهو لم يهجوه ، بل إن مايدعو للدهشة فيما يتعلق بالجدل العظيم الذى دار بين الطبيب الانجليزى والمؤرخ – عالم اللغويات الفرنسى أن هذا الأخير هو الذى استخدم الفكر العلمى الدقيق فى حين لجأ الأول إلى تفكير العلوم الانسانية .

ظهر فى عام ١٨٢٧ مقال فى المجلة الجادة المشهورة **ادنبره ريفيو** Edinburgh Review بقلم شخص يدعى جيمس براون يقول فيه إن ما افتقده

* فى اللغويات المصرية القديمة .

** فى فصل ١٢ .

*** ويضيف لنا جان فليب لوار : أنه لم يكن يعرف اللغة القبطية .

شامبوليون بالمقارنة بيانج هو « أن يتنفس الضباب الكثيف الذى يغلف لندن بدلاً من جو باريس الأكثر خفة ؟ وكان عليه أن يحارب عدم التصديق أو الشك وكذلك الاعتراضات الباردة والمدققة التى يبديها مثقفونا بدلاً من إثارة إعجاب الأوساط اللامعة التى تبدى أكثر من نصف إقتناعها بمجرد سماعها بأى اكتشاف له بريق ... » (6)

باستثناء الاعتبارات المناخية (التى يصعب التشكيك فيها بالفعل) يبدو أن السيد براون قلب وضع الجمل : فى أى المدينتين ساد عدم التصديق والشكوك والاعتراضات والتدقيقات ؟ السيد يانج الشخصية اللامعة ونصف الاله المعجز وإن كان يضطر إلى أن يتحسس طريقه وسط « ضباب لندن الكثيف » فإن النور الذى يشع منه كان كافيا لكى يجذب إليه إنتباه الفراشات . إذ أنه فى حالتنا هذه ولو مرة واحدة اثيرت الاعتراضات والتشكيك المنظم وعدم التصديق على ضفاف السين لدى الفرنسيين الهوائيين محبى التفاخر والشوفينيين ...

قبل أن نعود إلى جان – فرنسوا شامبوليون وهو منكب فى إصرار على حجر رشيد أو بالأحرى على النسخة التى فى يده يجدر بنا أن نذكر هنا جانبين من جوانب النقاش .

يجب ألا يدخل فى روعنا أن ما دار بين العالم اللندنى الشهير والاستاذ الفرنسى الشاب الذى يصغره بسبعة عشر عاماً كان بمثابة مباراة فى الكرة بين انجلترا وفرنسا ، بين الديك والوردة – يناصر كل فريق مشجعون متحمسون على جانبى بحر المانش . ظل توماس يانج يتمتع فى باريس بمؤيدين متحمسين له ولقضيته ليس بسبب أمجاده وسحره الشخصى (ونجاحاته الأولية الكاسحة) كما رأينا فحسب ، وإنما أيضا بسبب الغيرة التى أثارها الشقيقان شامبوليون وكان ذلك أكثر من بعض إدعاءات الدكتور يانج وبكل قسوة عالم مصريات إنجليزى .

فى فرنسا كان سيلفاستر دوساسى هو أول من جسد فى شخصه هذا الولع الهيروغليفى الإنجليزى مستخدماً أكثر الخيانات انحطاطا ضد باحث جرونوبل إذ كتب ليانج فى ٢٠ يوليو ١٨١٥ * :

---

* بعد عدة أسابيع من أول تبادل للخطابات بين يانج وشامبوليون (راجع فصل ٦)

« إذا كان لى أن أنصحكم بشىء فهو ألا تحيطوا السيد شامبوليون بكثير من اكتشافاتكم . إذ يمكن له أن يدعى فيما بعد أنه كان الأسبق . إنه يعمل جاهدا فى عدة مواضع من كتابه * على الإيهام بأنه اكتشف كلمات كثيرة من نص رشيد . إنى أخشى أن يكون ذلك نوعاً من الدجل بل إنى أضيف أن لدى أسباباً كثيرة تجعلنى أعتقد ذلك [...] لو أن السادة أوكربلاد وكاتروما ر وشامبوليون قد حققوا بالفعل تقدماً حقيقيا فى قراءة النص المصرى لأسرعوا بإحاطة الجمهور علماً بها وأن غير ذلك يكون مثيرا للدهشة ويعتبر تواضعاً نادرا بالفعل أشك فى أن أياً منهم قادر عليه . » (7)

كانت هذه تسديدة من السموم غير متقنة . أولاً لأن فيما يتعلق بالسويدى دون الفرنسيين الآخرين – فإن التواضع كان كما سبق وأشرنا – علامة مميزة لشخصيته . وثانيا لأن العالم الحق – وكان ساسى فى موقف يجعله يتيقن من ذلك جيداً – لا يكشف سوى عن معطيات أكيدة ومؤكدة إذ يوجد هامش بين « التقدم الحقيقى » والاكتشاف المثبت علميا كان باحث جرونوبل يرفض تخطيه فى ذلك الوقت .

سيعترف البارون فيما بعد بخطئه وسيتوقف عن محاربته عندما يتقدم شامبوليون بإثباتاته . كما أنه سيحييه بعد وفاته بما يعتبر تعويضا له . غير أن « الحزب البريطانى » سيختار لرياسته إدم جومار . وهو الذى استمر لسنين طويلة يزود « مصرى » جرونوبل بالمستندات التى فى حوزته بصفته مسئولا عن كتاب **وصف مصر** ثم قطع صلاته به ولم يتوقف عن الإعلان عن إيمانه باسبقية توماس يانج فى الكشف وعن تحفيزه المستمر له لكى ينتصر . أى شىء أفضل من أن ينجح هذا الشاب الذى لم « يذهب أبدا » إلى مصر » **

مسألة أخرى متعلقة بالجدل بين توماس يانج وجان – فرنسوا شامبوليون هى المتعلقة باستخدام الأخير لاكتشافات الأول وعلى الأخص المقال المطول المعنون **مصر فى الانسيكلوبيديا بريتانيكا** المنشور قبل أربع سنوات من إطلاق شامبوليون لصرخته « **وجدتها** » .

سبق أن رأينا أن السؤال الذى يطرح نفسه فيما يتعلق « بالترجمة الظرفية للنص الانكوريالى » (الديموطيقى) التى أرسلها يانج لساسى عام ١٨١٤ . لم يهتم

* مصر فى عهد الفراعنة .

** ولايانج بالمناسبة .

المتخصصون طويلاً بمعرفة إن كان شامبوليون اطلع عليها أم لا .. فلم يعر المكتشف اهتماماً كبيرا بذلك على مايبدو فهو يتكلم عنها بإهمال لا اصطناع فيه .

أما فيما يختص بمقال عام ١٨١٨ الذى اعتبره علماء انجلترا لفترة طويلة الأساس الحقيقى لعلم المصريات الحديث عوضاً عن « **رسالة إلى مسيو داسييه** » فالنقاش لا يزال مفتوحاً . فمدام هارتلوبان التى لا يمكن أن نشك فى أنها أرادت أن تسىء إلى شامبوليون تعتقد أنه من المؤكد أن المكتشف قد إطلع عليه بعد فترة قصيرة من نشره وإضافة إلى مجموعة مستنداته « دون أن يعيره أهمية تذكر » (8) .

يوجد آخرون يتشككون فى إمكانية حصول الباحث الفرنسى على نسخة من مقال **الانسيكلوبيديا** ، وبالتالى أن « يسرق » العالم البريطانى . منهم على سبيل المثال لوباج – رونوف الذى نفذ صبره من إدعاءات جون لايتثى كاتب سيرة يانج الذى يصر على إثبات أن الفرنسى إكتفى « باستعارة » اكتشافاته من الطبيب اللندنى –فهو يؤكد أن ذلك يعتبر « اتهاماً دنيئاً » .. ذلك لأن المقال المذكور لم يكن إلا فى يد عدد قليل من الأشخاص ؛ ففى عام ١٨٢١ أى بعد ثلاثة أعوام من نشره اشتكى سير وليام جال من أنه لم ينجح فى الحصول عليه فى لندن ... وكذلك فى عام ١٨٢٤ كتب عالم اليونانيات الكبير جان لوترون إلى يانج يطلب منه نسخة لأن النص غير موجود فى باريس (9) .

نعتقد أنه بامكاننا أن نشير هنا – لوضع حد لهذا الجدل – إلى التوضيح الذى ضمنه جـ . ف . شامبوليون عرضه أمام أكاديمية النصوص فى ٢٢ أغسطس ١٨٢٢ حين قال : « لقد تعرفت على آخر أعمال السيد الدكتور يانج بعد وصولى إلى باريس بقليل فى سبتمبر ١٨٢١ . (10) » .. أى قبل « **رسالة إلى مسيو داسييه** بعام كامل ...

جدال غير مجد ... لأنه من الواضح أن مهما كانت الومضات الفكرية ليانج جديدة وجسورة وعبقرية والتى توصل إليها بالمقارنة ثم التعريف بطريقة تدريجية فسمحت له بأن يتقدم نحو النور إلا أن شامبوليون كان يسلك طرقاً أخرى ... خلف الفارس المقدام الذى انطلق من المواقع المتقدمة راكضاً حيثما « توحى له به قريحته » ، سار شامبوليون فى تؤدة بطريقة منظمة وعلمية من إثبات إلى إثبات مؤسساً بواسطة أسلوبه منظومة تفسيرية .

قبل أن نعرض لقضية الشعوذة التى سترفع بعد قليل ضد شامبوليون * نرى مناسباً أن نذكر هنا تقديرين متناقضين لأعمال توماس يانج : الأول يمتدحه وهو لعالم المصريات الفرنسى هنرى سوتاس الذى يفتخر بأنه « دفع بالحياد إلى آخر الحدود » فى صدق على ما يبدو . والآخر لزميل له بريطانى سير بيتر لوباج - رونوف - عمل على تغيير الرأى العام البريطانى المتحيز ضد شامبوليون بسبب مادحى يانج المتحيزين وقد وضع فى مجهوده هذا قدرا من العنف لا يخلو من الظلم نحو مواطنه اللامع .

مثله مثل الفارس الذى يقفز بفرسه بمنتهى القوة فيقع إلى الجانب الآخر . قفز لوباج - رونوف إلى أبعد من هدفه حتى أنه إفتقر إلى العدل نحو توماس يانج - ولأنه أراد أ، يعيد الحق إلى جان - فرنسوا شامبوليون - وسنرى كيف أن المنحدر الذى كان ء يه أن يصعده كان قاسيا ! ! - فقد وصل إلى حد أنه رفض أن يعدل بالنسبة للطبيب عالم الأنوار الذى تحول إلى عالم لغة ** .

كتب عالم اللغة الفرنسية هنرى سوتاس بعده بربع قرن ما يلى :

« ... الافتراضات التى توصل إليها يانج بالتعرف على المكان الذى توجد فيه بعض كلمات النص اليونانى فى النص الهيروغليفى ثبتت صحتها جزئيا . ولما كان النص مليئا ببعض العلامات المعبرة عن أفكار واضحة جداً ومتكررة فان التحليل بواسطة المقارنة أصبح ممكناً بالتحكم فى المتكررات . وعلى الرغم من العديد من الفراغات فان يانج تمكن من ملئها ببراعة .

من بين الـ ٢٢٠ علامة أو مجموعة هيروغليفية التى تقدم بشرح لها عام ١٨١٩ توجد مائة تقريبا معظمها مأخوذة من نص رشيد وتم التعرف عليها بنجاح حقيقى [...] والمدهش أن يانج قد نجح بسرعة ودقة فى تحديد مكان الرجوع إلى أول السطر فى النص الديموطيقى وفى النص اليونانى [...] إن النتائج التى توصل إليها يانج تثير بعض الاعجاب [...] لقد اتهم بأنه كان يعمل بطريقة « حسابية » علماً بأن بداية أى عملية لحل الشفرة يجب أن تتم بهذه الصورة . إذ أن سلسلة من عمليات القياس والإحصاء تظهر أو لا تظهر فكرة حدسية . تتم مواجهتها بعد ذلك بالوقائع التى يؤكد أو تنفى . لقد تمكن يانج دون أى خطأ تقريبا من عبور المرحلتين الأولى والثانية إلا أنه لم يتمكن من تخطى الثالثة . فهو إذن من الرواد بحق » (11) .

---

* انظر فصل ١٢

** راجع فصل ١٢

لماذا لا نعطى الآن الكلمة لشامبوليون ونحن على وشك أن نلتقى به من جديد وهو فى عمله - إذ أنه لم يكن أقل الناس عدلا تجاه يانج ؟

« أعترف بأنه كان أول من نشر بعض المبادئ الصحيحة عن الكتابات المصرية القديمة . وأنه الأول أيضا الذى حدد بعض الفروق الصحيحة التى تخص الطبيعة العامة لهذه الكتابات وذلك بأنه حدد مداليل العديد من مجموعات الحروف بواسطة مقارنة مادية بين النصوص . كما إنى أقر أيضاً أنه نشر قبلى أفكاره عن إمكانية وجود بعض علامات صوتية تكون قد استخدمت لكتابة أسماء العلم الأجنبية فى مصر بالهيروغليفية. وأعترف أخيراً أن مسيو يانج كان الأول أيضا - ولكن دون نجاح كامل - الذى حاول أن يعطى مدلولا صوتيا للهيروغليفيات المكونة للاسمين بطليموس وبيرينيس . »

تحية جميلة من المكتشف للرائد الذى أصر بغرابة على وصف شامبوليون بانه نائبه ووريثه الفرق بينهما كان الذى يفصل بين الهاوى العبقرى والمحترف (الذى لايقل عنه عبقرية ...) والفرق أيضا يعود إلى مايميز الإكتشافات الصغيرة عن الإكتشافات الكبيرة والإلهام عن العقل ، والذكاء الفطرى من العلم ، والظرف والمصادفة عن الدليل ، والحدس عن النظام المنهجى .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١١ - " تمكنت من الموضوع ! "

هارب ؟ - « لم تعد روما داخل روما » - إما الآن أو أبدا ! - الشروط الثلاثة لفك الشفرة - قائمة بثلاثمائة رمز - إشراقة احتفالية - « إبرة كليوباترة » - مستندات هويو - أوريكا ! وجدتها ! - أمام الأكاديمية - صمت غريب - من البانتيون إلى المختصر - مسيو لوبلاكاس والملك ...

« أن تجعل صمت التاريخ يتكلم ... »

ميشليه .

فى الواحد والعشرين من يوليو ١٨٢١ نزل من المركبة العمومية القادمة من ليون بشارع الكوك - هيرون فى باريس رجل أسمر البشرة قصير ممتلئ شعره أسود منحنى الظهر قليلا محمل بحقائب ثقيلة . عمره ثلاثون عاما ولكن يبدو أكبر سناً . يبدو قلقا أن يكون هناك من يتعقبه . هل هو منفى ، أم ثائر من الكاربوناريين هارب ؟

الشهور الأخيرة التى قضاها جان - فرنسوا شامبوليون فى جرونوبل أرهقته . هرب بالكاد من قضية أمام المحكمة العليا قبل أن يمثل أمام زملائه ليحكموا عليه ويعزلوه . وتحت تهديد ملاحقات جنائية جديدة سافر . لم يكن هروبا إنما هو شئ يشبه ذلك . كنية « روبيسبير » فى ذلك الوقت لم تكن مديحاً ولا هى مطمئنة .

عندما طرد من الدوفينيه قبل ذلك بخمس سنوات واضطر للإقامة فى فيجاك كانت تلك الهجرة الأولى أقل إثارة للقلق والمرارة . كان حينذاك بصحبة جاك - جوزيف و « على » . ولحق بأسرته ومنزله والمدينة مسقط رأسه والريف الذى عاش فيه طفولته والمناظر المحببة إلى قلبه . أما الآن فهو شبه هارب ، ملعون . مرهق ومضطر إلى العيش فى باريس التى يكرهها فى هذه « العاصمة القذرة لفرنسا » المليئة بادباء يزدريهم ورجال سلطة يحتقرهم .

كان نابليون قد توفى فى جزيرة سانت هيلين قبل ثلاثة شهور . وكان الخبر لايزال طازجا - فهو لم يصل إلا فى نهاية شهر يونيو إلى جرونوبل - وقد أثر فى رجل مثله - شجب المستبد بجسارة ومقت فيه الغازى ولكنه وحّد قدر فرنسا لعدة شهور فى

شخص هذا البطل العائد من المنفى . ثم كيف لا يشرك مع وطنه الروحى – مصر صاحب مغامرة عام ١٧٩٨ الكبرى ومؤسس « معهد القاهرة Institut du Caire » مع الأب لافيوليت * إنهار فصل من فصول حياته . مثله مثل العديد من شباب ذلك الزمن .. مثل ستاندال وموسيه هو فى حداد .

الحزن العميق المنحوت فى الوجه الغريب لهذا المسافر له أسباب أخرى أيضا . اليست عودته إلى باريس مظهرا من مظاهر الفشل ؟ لقد اعتقد أنه سيدبر حياته فى جرونوبل بأن يدرس فيها ويؤسس فيها الجمعيات ويتزوج فيها ويقيم فيها أعمق الصداقات ويحصل من أهلها على أصوات التأييد والإعجاب والإهتمام من أكاديميتها التى استقبلته وهو بعد فى السادسة عشرة ... إن جرونوبل كانت المدينة المختارة .. وها هو قد لفظ منها .

ألم يفشل فى حياته منذن الآن ؟ لقد خسر عمله وهو الآن فقير ولم يسدد له حماه دوطه روزين وقد مضى على زواجه ثلاث سنوات كما أن زوجته لم تنجب بعد . إنه يصل إلى باريس بعد أن فصل من التعليم العالى وانتهت آماله فى التعليم التعاونى وليس فى ذهنه سوى مشروع واحد غير معقول وهو كشف الأسرار القديمة منذ الاف السنين لحضارة لم ير من آثارها سوى بعض الأحجار وبعض قطع قليلة جدا وصغيرة من القماش العتيق الممزق .

خمسة أقدام وثلاث بوصات هذا هو الطول الذى قدره أحد الأطباء لطول قامته عندما التقيا فى ذلك الوقت . أى أقل بقليل من مائة وسبعين سنتيمترا التى قدرها رجل شرطة جرونوبل المنبوذ عام ١٨١٦ . هل يرجع ذلك للارهاق ولأن بداية إصابته بداء الدرن قد قوست ظهره ؟ يقول الطبيب جانان أن له « رأسا ضخما بعض الشئ بالنسبة لجسمه . شعره أسود كثيف ورفيع جداً . عيناه لونهما بنى غامق ووجهه – يميل للاصفرار يلاحظ أيضا فى بياض العين وهو ما يجعله عربى المظهر ... » **

فى كتابه « **ذكريات فترة عودة الملكية** » صورت الماركيزة دومابيه بهذه السطور القليلة شامبوليون وقد دخل مغامراً « المجتمع الراقى » بعد بضعة أشهر من وصوله إلى باريس أبان نجاحاته الأولى :

---

* كناية لنابليون [المترجم]

** وصف أرسله عام ١٨٢٣ أى بعد أشهر قليلة من وفاة شامبوليون الدكتور هيوبار – فرانسوا جانان – عالم الفراسة الدماغية وتلميذ جال – وعلى علاقة شبه عائلية بجان فرنسوا – إلى جمعية الفراسة .

« رأيت منذ بضعة أيام عند مدام دو موسكالم ، السيد شامبوليون وهو أول من اكتشف معانى الهيروغليفيات والذى تمكن من ترجمة بعضها ولا يزال هذا الاكتشاف الجميل فى مرحلة الطفولة إلا أنه بامكان مسيو شامبوليون أن يوسع أفق اكتشافه لأنه ليس متقدما فى السن وهو مُجد فى عمله ولا يكل . إنه دمث ومتواضع لا يعبر عن نفسه بسهولة ولا يعرف كيف يدعم بريق أعماله .. الهجوم عليه شديد كما يهاجم كل الذين يستكشفون كرواد أحد منابع الشهرة اللامعة والمفيدة ... » (1) .

أما وصفه المعنوى فيما وراء هذه اللمسات التأثيرية فهو بنفسه الذى رسمه قبل ذلك التاريخ بثلاثة أعوام فى خطاب مؤرخ ١٢ نوفمبر ١٨١٨ أرسله من جرونوبل إلى أخيه الذى كان يستحثه لكى يلحق به فى باريس :

« لم أفكر قط فى أن أقيم بصفة دائمة فى هذا المسرح الكبير [الذى هو باريس] . إنى أفضل أن أكون الأول فى قريتى على أن أكون الثانى فى روما [...] إن العاصمة لاتناسبنى [..] سأحقق هنا وربما أفضل من باريس الأعمال التى خططت لها . أما أنت فقد ولدت لتدير الأعمال ولتحريك وتوظيف الأشياء الكبرى [...] وتعرف العالم بمقدار معرفة شخصين معا [..] أما أنا فإن كنت ولدت فى الهند لكنت أصبحت من الدراويش المتأملين . إنى أكره الحركة ولا أحب أن أكون سوى داخل دائرة محدودة [...] ترى أنت الايجابيات فى الحياة أما أنا كفيلسوف شرقى مؤصل فلا أرى فيها سوى المظاهر . [...] أضع فى إطار واقعى ماتعتبره أنت تطرفاً . أن أقيم فى باريس يعتبر بالنسبة لى مجهوداً يفوق طاقتى [...] مثل أغسطس * أقول ! « روما ليست داخل روما ، إنها موجودة بالكامل حيث أكون أنا ... »

خليط لذيذ من الفخر والإنطواء على الذات . خليط معهود فى الواقع إذ أن هذا يفسر ذلك . إذا كانت باريس فى جرونوبل فإن ذلك يرجع فى ذات الوقت إلى التفاهة العدوانية « للقطيع » الأدبى الباريسى وإلى أهمية شخصية المتوحد .

إننا لا نردد بما فيه الكفاية كيف أن هذا الشخص شديد الحساسية الذى هو جان – فرنسوا كان هشا للغاية ووحيدا . إنه الرجل بلا أم والرجل الذى يزدرى أباه والرجل الذى لم يقترن بزوجته إلا لاهتمامه بالشرف والذى ظلت حالات حبه جميعاً دون وصال . كما أنه يلاحظ أن كل شئ تقريبا يفصله عن أقرب صديق له وهو أخوه ما عدا

---

* لقد وضع كورناى هذه الجملة الشهيرة لا على لسان أغسطس وإنما على لسان سرندريوس (الفصل الثالث ، منظرا) .

المغامرة العلمية العظمى فهى التى تجمعهما معاً . لعل هذا يكفى لوصف الحالة الفكرية التى كان فيها هذا المتأمل المطارد هناك والمراقب هنا لدى وصوله إلى باريس مفتتحاً معركته فيها ...

ما هو المأوى الذى سيتوجه إليه فى هذه الليلة من شهر يوليو ١٨٢١ هذا الرجل القمحى اللون الذى ألقى به وسط الأدغال الباريسية ؟ لقد وجد له جاك - جوزيف مكاناً ملائماً للإقامة فوق مسكنه هو ٢٨ ش مازارين على بعد عشرات الأمتار من الأنستيتو * . السين وحده يفصله عن مقر لجنة مصر . كما أن الكولاج دوفرانس قريب والمكتبة الملكية أبعد بقليل . ولكن كنزه هو فهو بداخله وهو يحمله معه . وإذا كان هناك ما ينقصه فإن جاك - جوزيف يملكه فى الانستيتو المجاور - أو يرسله له ببساطة . يمكنه أن يضع مكتبه وكتبه والصناديق المحتوية على مستنداته ولوحه ورسوماته تحت سقف الدور الثالث الذى كان فيما سبق أتيليه الرسام هوراس فارنيه . هذا هو أفضل جانب للأمور .

الأفضل حقا ؟ كلا ! لأن لعل ماكان يدفع مسافرنا القلق إلى تفاؤل أكبر هو أن أخاه الأكبر كان قد توصل بالفعل إلى احتلال مكانة مرموقة فى باريس فى قلب عالمها العلمى . نعم ! لم يكن جاك - جوزيف رئيس جامعة ولا عضو أكاديمية ولا أمين متحف ولا أستاذا فى السوربون ولكنه كما رأينا من قبل الذراع الأيمن - إن لم يكن الأنا الأخر لصاحب المقام الرفيع والمشهور جداً مسيو داسييه ، السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والآداب ، الحكم فى مجال الثقافة والمتحكم فى شهرة المشهورين وسرعان ما سيصبح جاك - جوزيف محافظ المخطوطات الأصلية للمكتبة الملكية وهو المركز الذى ظل يعمل لسنين طويلة من أجل الوصول إليه والذى زاد من قوة قبضته على عالم الأبحاث .

نعم كان شامبوليون - فيجاك يواجه غضب وزير الداخلية القوى جدا مسيو دوكوربيار وعلي وجه الخصوص وزير الأديان مونسينيور دوفرانسينوس أسقف هيرموبوليس رائد حزب « طافئ الأنوار » بطل التزمت وقاهر الحداثة . ولكن كان له خلفاء فى كل مكان أقوياء ونشطاء حتى تخوم السلطة .

صحيح أن الأخ الأصغر لم يكن فى وظيفة لها مستقبل لأنه وقع تحت سيطرة شيطان بحث علمى سامى . إلا أن مثل هذه الايجابيات كانت تنشط أماله فى حالة لو

---

* مازال المنزل قائما ويحمل لوحة تشيد بشامبوليون واكتشافه .

تبـقى له شئ منهـا ... كل شئ هنا أصـبح تحت أمـره . المسـتندات ، الاتصـالات ، المناقشات ، تبادل الآراء كل شئ ماعدا أصل حجر رشيد ... كما أن داسييه يستقبله متى أراد بمشاعر أبوية وقد تصالح مع فورييه وعاد إلى لقاء زملائه القدامى فى الكولاج دو فرانس مثل ريموزا وشيزى ولترون ولبعض الوقت مع سان - مارتان مع احتفاظه بعلاقات مهنية طيبة مع جومار وحتى لو أصر على اعتبار نفسه منبوذا فقد أصبح فى الواقع فى قلب الساحة عند مدخل المعبد .

ومع ذلك تكشف أولى رسائله عن قلق مؤلم . إذا كانت باريس الامبراطورية أصلا لم تكن تعجبه فما بالك بها وقد أصبحت بوربونيه ؟! وعندما لحقت به روزين فقد عمل ذلك على أن يدرك كيف أن هذه الجرونوبلوازية الصغيرة غير متأقلمة مع مستقبله الذى ينفتح أمامه على الرغم من كل شئ . كانت خجولة غير متوائمة متوترة باستمرار أكثر ريفية منه وأثبتت صدق توقعات جاك - جوزيف وبدلا من أن تدعم إنطلاقة فى المغامرة التى بدأها فهى تعرقله .

القضية الكبرى التى كانت تشغل باريس عندما وطئت قدماه شوارعها فى يوليو ١٨٢١ لم تكن هى فك شـفرة اللغـة الهيـروغليفـيـة والتى ظل مـجـال اهـتمـام بعض المتخصصين - مثل يانج وأصدقائه فى لندن ومصر وفى باريس المحيطين بساسى وجومار * . وإنما القضية الكبرى كانت مرة أخرى هى عمر الزودياك - أو رسم الأبراج السماوية والرسم المصرى القديم .

لم ننس الصراعات التى فجرها فى بداية القرن وخاصة فى جرونوبل والجدل حول قدم سقف قاعة مظلمة صغيرة فى معبد دندرة والذى أتقن رسمها فيلار وجولوا فى كتاب **وصف مصر** كما رسمها أيضا فى خط مواز لهما فيفان دونون .. المشكلة المطروحة لم تكن أقل من تحديد تاريخ خلق العالم . كانت التوراة وعلى أساسها الكنائس المسيحية - تحدد تاريخ هذا الحدث العظيم بأربعة آلاف عام قبل المسيح . غير أن بعض العلماء الذين درسوا هذه القطعة الفلكية أرجعوا تاريخها إلى خمسة عشر ألف عام قبل الميلاد . وكانت الفضيحة ! لقد تهدد الايمان أو على الأقل سلطة روما والمجامع المقدسة !! ولما كان شامبوليون من أنصار التاريخ القصير المبنى على دراسة متأنية للمعطيات الأثرية واللغوية فقد جاء موقفه - أراد أم لا - مناصراً للحزب الرومانى ..

---

* أما أوكربلاد الذى كان قد أعلن أنه عرض عن الاستمرار فى أبحاثه فقد توفى قبل ثلاث سنوات .

هذا الجدل الذى فتر لبعض الوقت عاد ليشتعل من جديد بسبب قرب وصول هذا الرسم نفسه إلى باريس بعد أن نقله إلى فرنسا شخص يدعى سولنيه الذى عمل لفترة محافظاً فى عهد الأمبراطورية . أثار هذا الحجر الملعون كما وصفه أحد خطباء كاتدرائية نوتردام – المنتظر وصوله عام ١٨٢٢ – أثار مرة أخرى المناقشات الحامية وجر إليها الباحث القادم من جرونوبل .

ولم يكن ذلك يرجع إلى أن شامبوليون كان يعلق أهمية أثرية عظمى على هذه القطعة التى كان يعرف أنها تعود إلى عصور متأخرة وأنها محملة بالرموز أكثر من المعلومات العلمية . ولكن كيف يدع مثل كل هذه التخريفات والخزعبلات تقال وتنشر ؟ غريزة الفارس المحارب التى بداخله حفزته وجعلته يكتب بحثاً من أربع وثمانين صفحة ثم « خطابا إلى مسيوبيو» ليوقف تخريفات أنصار « التاريخ الطويل » مثل جومار . الذى عاد – بالمناسبة – فخفض التاريخ وجعله اثنى عشر ألف عاماً بدلا من خمسة عشر ألفا .. ثم بعد ذلك بقليل سيتمكن بعد أن فك شفرة الهيروغليفيات من اثبات صحة افتراضاته * .

ما يهمنا فى هذه القضية ليس قيمة هذه النظرية أو تلك بقدر ما يهمنا التوتر الذى تسببت فيه بين جان – فرنسوا شامبوليون ومجموعة « المخضرمين » بدءاً بجومار . كان المسئول الأول عن **وصف مصر** قد بدأ يضيق ذرعا منذ بعض الوقت بالانتقادات الحادة غير المنصفة أحيانا التى وجهها – هنا وهناك – الشاب شامبوليون إلى الصور الأركيولوجية المنشورة فى الكتاب الكبير فاعتبر نفسه مهانا – كما شعر سان مارتان المدافع عن وجهة النظر ذاتها – وأن أطروحة شامبوليون الموثقة التى انتصرت فى الجدال قد جعلته مادة للسخرية . وكان أن ألقى العداء الذى خرج إلى العلن منذ ذلك الحين بثقله الكبير فى سلسلة المناقشات التى ستلى ذلك فى إطار مايمكن تسميته « قضية شامبوليون » .

كانت معركة هامشية من أجل نجاح غالى التكاليف ، أما المعركة المهمة فى الحقيقة والتى سيكون الرهان فيها هو حياة جان – فرنسوا شامبوليون ذاتها والتى ستدور رحاها خلال الأشهر التالية فهى معركة حل شفرة اللغة الهيروغليفية . أصبح من الضرورى جدا بالنسبة له أن يصل إلى هدفه وبسرعة . إذ أن الحل السريع للغز هو الذى سيسمح له – مستلهماً فى ذلك الاستراتيجية النابوليونية – بكسر طوق

* إذ تمكن شامبوليون من قراءة كلمة أوتوكراتور على الزودياك بعد ذلك ببضعة شهور فلم يصعب عليه أن يثبت أنه يرجع إلى العصر الرومانى .

الحصار الذى يهدده وإرباك « الحسابات » التى تواجهه .

أدرك – وهو قابع فى مقر إقامته أسفل سقف منزل شارع مازارين حيث كان بامكانه سماع الأصوات الصادرة من الأكاديمية المجاورة . أدرك أنه قد ذهب بعيداً فى التحدى وأنه قذف بقفازه إلى مستويات عليا ، أبعد وأعلى من أن يكتفى الآن بالأعمال العادية مثلما يفعل أى مدرس تاريخ أو لغويات محترم * يتحتم عليه هذه المرة فى شحذ كامل لكافة طاقاته أن يحل المعضلة .

يجب علينا ألا نهمل هذا الجانب من الأمور فبينما كان يانج يرفه عن نفسه مدعياً عدم المبالاة بالتعامل مع الرموز الهيروغليفية فيما بين تجربتين من تجاربه فى علم البصريات ، وبينما كان أمثال ساسى وجومار وكاترومار يراجعون البرديات بعد إحدى المحاضرات أو بعد زيارة للسيد الوزير أو بعد حفل عشاء كان هو – جان فرنسوا منكباً على ملفاته وعلى قوائم أسرات وعواميد رموزه مثل الجندى المحاصر الذى سيموت جوعاً إن هو لم يجد طريقا للهروب من الحصار . هذا الشامبوليون فيما بين عامى ٢١ و ٢٥ نراه رافعا سيفه وظهره إلى الحائط . فى حالة ميئوس منها ؟ بل فى مواجهة التحدى على كل حال ... لم يكن الموقف شبيها بذلك الأخر الذى صرخ فى وجه العاصمة : « باريس !! الصراع يخصنا أنا وأنت الآن !! » وإنما كانت الأمور أكثر مأساوية فهو التوتر الرهيب بين أوديب والكائن المخيف الذى يلوح له بتهديدات قاتلة .

هل كان اللغز لا يزال حقيقة على ختمه الكامل لم يمس بعد نشر المقال المطول الذى نشره يانج فى **الانسيكلوبيديا بريتانيكا** ؟ فلنستمع إلى ما يقوله جان – سان مارتان . تلميذ دوساسى ذو المقام الرفيع أمام أكاديمية المخطوطات والآداب فى ٨ فبراير ١٨٢٢ :

« ... إذا نظرنا إلى ماتبقى لنا من المصريين [...] فإننا نتأسى عندما نتذكر أن هذا الشعب الذى اتخذ كل هذه الاحتياطات لكى ينقل إلى الأجيال التالية ذكرى ديانته وقوانينه وعلومه وتاريخه لم يترك لنا سوى أثار بكماء مغطاة بكتابات مازالت غير مفهومة ويبدو أنها ستكون لفترات طويلة سببا فى أن يعرف العلماء معنى اليأس .. إلا إذا وهبنا الحظ .. الذى نريده أكثر مما نأمله – فجأة كتلة ضوء هائلة تسمح لنا بالسير بخطى ثابتة على دروب ظلت مجهولة حتى الآن » .

يأس العلماء ... لقد كان سان – مارتان يبالغ فيما يختص بيانج وبصورة مختلفة

---

* وهو مركز لم يعرض عليه أحد على كل حال .

بشامبوليون ... إلا أن الكلام يشهد على درجة الشك الذى ظل يخيم على المحيطين بساسى - قاضى المعارف - وذلك بعد أكثر من ثلاث سنوات من تاريخ نشر اكتشافات الطبيب الانجليزى .

بعد ذلك التاريخ بأربعين عاماً كتب إيمانويل دو روجيه خليفة شامبوليون الثانى على كرسى المصريات فى الكولاج دو فرانس بشئ من الجسارة : « يمكن أن نؤكد بكل شجاعة أن جميع أختام الكتابة الغامضة كانت مازالت سليمة لم تفتح عندما مد جان فرانسوا شامبوليون يده ليكسرها . » إذا نحن تصورنا حركة يد الشاب وهى تمتد فى عام ١٨١٠ ، نعم !! إنما إذا حدث ذلك فى ١٨٢١ حيث نقف الآن فليس ذلك صحيحاً تماماً . سبق أن أوضحنا الجانب الظرفى والتأويلى والمتقطع لاكتشافات يانج .. إلا أنها كانت موجودة فعلا ... أما ماكان شامبوليون والعلم ذاته يبحثان عنه فقد كان **منظومة متكاملة** لحل الشفرة .

حدد هنرى سوتاس فى مقدمته **لرسالة إلى مسيو داسييه** (2) عام ١٩٢٢ الشروط الرئيسية لأى محاولة لفك الشفرة . يجب حسبما يقول هذا المحترف المخضرم : أ) أن تكون ملماً بشكل أو بآخر بمضمون النص ، ب) أن تتكون لديك فكرة عن منظومة الكتابة المستخدمة ، جـ) أن يكون فى حوزتك عنصر واحد مضمون يسمح بالإنطلاق .

بالنسبة للنقطة الأولى والثالثة كان لدى حلال الشفرة معطيات أساسية جيدة : مضمون نص رشيد كان معروفا أولا فى ترجمته اليونانية . وثانيا عن طريق الحل الجزئى لشفرة النص الديموطيقى التى قام بها ساسى واوكربلاد وعلى وجه الخصوص يانج . أما بالنسبة لنقطة الانطلاق فهى كما نعرف - تحديد اسم بطليموس (الذى يمكن إرجاعه إلى يانج) داخل أربعة من الخراطيش المحفورة على حجر رشيد .

كان بالطبع الجزء الثانى من المشكلة هو الذى يوقف بل وأحيانا يقود بعض الباحثين إلى اليأس وهو المتعلق بطبيعة النظام الذى تقوم عليه الكتابة التى يستخدمها كهنة آمون . هل هى رسومات تعبر عن أفكار أو أشياء (ايديوجرام) أو إشارات رمزية ؟ هل هى كتابة أبجدية أو مقطعية مزدوجة ؟ هل نكشف بها رموزا * لا تمثل شيئا أو ليست لها معان بالمعنى المعروف أى لها فقط مدلول تقفيطى بل زخرفى ؟

---

* مثلما فعل يانج .

رأينا وسنرى أيضا أن شامبولويون سيسير فيما يتعلق بجميع هذه النقاط الأساسية أو بمعظمها – على غير هـدى يناقض نفسه ثم يغامر ويعود إلى ما ساقه ، لا يخشى قط كباحث أصيل أن يلغى كل شئ ليبدأ من جديد . قناص وراء الحقيقة ، متواضع وسط كبريائه العظيم ، طيع ووثاب ، متعصب ونادم ، مهرطق ، ينتكس ويعترف ...

إذا كان جان – فرنسوا شامبوليون هو الذى سار من خطأ إلى حقيقة ومن طريق خطأ إلى آخر يؤدى إلى النور إلى أن نجح فيما فشل فيه آخرون أو اقتربوا من الحقيقة دون أن يدركوها فذلك لأن أحداً قبله لم يكن يمتلك الثلاث خصائص التى لا غنى عنها لحل اللغز : كان لغويا ومؤرخاً وفناناً . إذا وضعنا فى الاعتبار طبيعة الكتابة المقدسة وعلاقتها باللغة القبطية وتشابهها ببعض اللغات الشرقية الأخرى ، وإذا وضعنا أيضا فى الاعتبار دورها فى العصور القديمة جداً وقبل كل شىء الثلاثين أسرة والثلاث أمبراطوريات التى يتكون منها تاريخ مصر الفرعونية ؟ وإذا وضعنا أخيرا فى الاعتبار جمال هذه الحروف والعناية التى حفرها بها الكهنة والكتبة فلابد أننا سنجد أن ما يحرك الباحث هو إعجاب وتدقيق جمالى لانهائيان فى تعامله مع الهيروغليفيات التى هى نحوت من أجل الآلهة والملوك والأهم من ذلك أنه كان قادراً – لأنه رسام ممتاز – على نقلها رسماً .

رأينا شامبليون يناضل بكل قوته منذ طفولته الأولى يخزن اللغات ويقارن بينها ويقارن بين كتابة وأخرى من العبرية إلى العربية ، من الفارسية إلى السريانية ومن الكالدانية إلى الأثيوبية وعلى وجه الخصوص القبطية بل بلغ به الأمر أن استخدم أبحاثه فى مجال اللغة الصينية فى بحثه هذا .

كما أننا رأينا مدرس التاريخ الشاب فى جرونوبل يكدس ويقارن (بمساعدة أخيه صاحب كتاب **حوليات اللاچيد** * بين التواريخ والأزمنة وبين اسماء الأسرات والميثولوجيات المقارنة : إن المرء لا يتعامل لسنوات طويلة مع مراجع الاسكندر وكليوباترا وقمبيز وقيصر دون أن يعطى ذلك لنظره وأذنه وحواسه المشدودة حدةً وعبقرية خاصة .

كما أننا رأينا فى النهاية العناية والاعجاب الذى كان يفحص بها ويدقق ويطلب

---

* ملوك – معروفون أكثر بتسمية البطالة . وهم سلالة لاجوس زميل الاسكندر . (المترجم)

من صديقه دوبوا رسم قطع هذه المجموعة الأثرية وتلك وكيف كان يجرد الكنوز التى ضمها متحف مكتبة جرونوبل الصغير . فى حالة غياب مثل هذا الحس الجمالى هل كان يمكنه أن يكتشف النور ؟

يجب أن نضيف إلى كل هذه الايجابيات بعض مصادر القوة الأخرى التى حدثت بالمصادفة وعوضته عن بعض السلبيات التى أخرت حتى ذلك الحين باحث فيجاك وجرونوبل وهى ندرة المستندات وعدم دقة الصور أو الرسومات المنقولة عن الأصول ؟ ففى ذات اللحظة التى بدأ فيها شامبليون ما يمكن أن نسميه إنطلاقته الحاسمة كانت تخرج من مصر روائع باعداد تفوق تلك التى خرجت منها فى عصر الرومان أو إبان حملة بونابارت .

مجموعة من « جامعى التحف » اذكياء وجسورون : قنصل فرنسا دروڤيتى وقنصل انجلترا سولت ومواطنه بانكس وبعض الرحالة الأقل أنانية مثل عالم التاريخ الطبيعى الفرنسى من مدينة نانت : كايو أو المهندس المعمارى جان - نيقولا هويو (الذى سيكون دوره حاسما فى قصتنا) كل هؤلاء راحو ينزعون قطعة قطعة أجزاءاً من المشهد الثقافى المصرى الرائع : لوح وتماثيل وتوابيت - ثم بعد قليل مسلات كلها ذهبت عن طريق البحر تثرى مجاميع المتاحف الأوروبية الكبيرة من تورينو إلى لندن ومن فلورانسا إلى باريس .

كانت قرصنة مخجلة . ولكنها أيضا عملية تجميع مستندات مفيدة . إذ بدون هذه السرقات المنظمة التى أثرت الرجال المعينين من حكوماتهم الأروبية لحماية رعاياها لا لينهبوا البلد وتراثه لكان جان - فرنسوا انتظر فترة أطول بكثير ليحل اللغز . ألم يكن حجر رشيد ذاته الذي هو المفتاح - ثمرة سرقة مزدوجة - إذ وجد القناص الفرنسى من يصيده .

ابتداء من عام ١٨١٦ أفادت دون شك الموجة الثانية من « مجموعات التحف » التى أدارها دروفيتى وسولت ونفذها بلزونى « جبار مدينة بادوفا الإيطالية » الذى كان فى إمكانه تحريك قارات باكملها والتى لم تقاومه سوى الأهرامات - هذه الموجة الثانية أفادت دون شك أهداف الباحث : إذ لولا المسلة الصغيرة التى انتزعها بانكس من فيلة ولولا بردية كازاتى التى اشتراها بلاط فرنسا ولولا الرسومات التى رفعها هيو ، لتأخرت مصر دون أى شك فى « التطق » .

قد نتأسى إذا تمكنا من التمييز بين الإكتشاف العلمي للشرق وبين غزوه المادي والعدوان العسكري عليه وتقطيعه إربا وسرقة تراثه . هذا غير ممكن .. وعلى الرغم من الجهود التي تمكن شامبوليون من بذلها فيما بعد وهو أرض مصر من أجل ابقاء التحف في مكانها * الذي شيدت عليه قبل ذلك بأربعين قرنا ومهما كان أوجوست مارييت هذا المحافظ الحقيقي مفيداً بعد ذلك إلا أننا يجب أن نقر أن مصر لم تبح باسرارها بالتعذيب ...

هل نؤرخ لبداية المرحلة النهائية لحل شفرة الهيروغليفيات بالنسبة لجان - فرنسوا شامبوليون بتاريخ إقامته في باريس في ٣١ يوليو ١٨٢١ ؟ أم بشهر مايو السابق عندما طبع في جرونوبل كتيبا من سبع صفحات وست لوح يتضمن المبادئ الأساسية لدراسته عن الكتابة الهيراطيقية - التي هي تبسيط نبيل الكتابة المقدسة : أم نؤرخ لها بالمحاضرة التي ألقاها عن نفس الموضوع في شهر أغسطس ١٨٢١ أمام أكاديمية المخطوطات والآداب تلبية لدعوة من أخيه ومن مسيو داسييه .

كل ذلك لا يهم . إنما المهم هو أنه في صيف هذا العام ١٨٢١ - أي قبل سنة من صرخة « وجدتها » ! - قدم « أول تجميع للنتائج النهائية الأكثر خصوبة » [3] . فقد أثبت بعد دراسة متأنية ودقيقة **لكتاب الأموات** والعصور المنقولة في **وصف مصر** وهو يقارن علامة بعلامة وصورة بصورة إن الكتابة الهيراطيقية « ليست سوى تبسيط للمنظومة الهيروغليفية » وأنها لا تختلف عنها سوى بشكل العلامات « ويجب النظر إليها على أنها اختزال للهيروغليفية » . عن الكشف المقارن الذي أعده في هذا الصدد والمتضمن ٣٠٠ علامة كتب هنري سوتاس بعد ذلك بمائة عام يقول : « إنه لشئ مدهش اليوم ألا نجد في هذا الكشف سوى هذا العدد القليل جدا من الأخطاء » [4]

هكذا يكون المبدأ الأساسي لوحدة - أو على الأقل لصلة القرابة القوية بين - طرق الكتابة المصرية الثلاثة - قد تحدد في أغسطس ١٨٢١ ولكن إذا كان هذا الاكتشاف قد غدا أحد الأسس التي سيقيم فوقه شامبوليون عمله فإن تطبيقه على نص رشيد بدا غير فعال لفترة طويلة إذ يقول المتخصصون أن نقاط الالتقاء بين شكلين لذات النص بنفس اللغة قليلة للغاية . ويرجع ذلك مثلا إلى تبديل مكان أحد المنطوقات أو تعديل في الشكل الإملائي . وفي هذا الصدد يلاحظ هنري سوتاس على سبيل المثال

* علما بأنه أحضر بعضاً منها إلى باريس .

أن اسم الإله العظيم بتاح يكتب ابجدياً فى الهيروغليفية ولكن بغير ذلك فى الديموطيقية ... وهكذا اتضح أن نقاط التشابه التى اكتشفها يانج بان طابق بين النصين تناقضت باستمرار مما تسبب فى حيرة الباحثين الذى كانوا يتحسسون طريقهم بتلك الطريقة .

التوصل إلى المبدأ الهام حول وحدة الكتابة المصرية لم يجنب جان - فرنسوا شامبوليون من مغبة الوقوع فى الاخطاء وفى فقدان الطريق الصحيح المتعلق بالجانب الجوهرى لهذا الأسلوب فى التعبير . إذ ظلت نظريته مشوشة لمدة عام آخر ولم تمكنه من الوصول إلى ماسيصبح مشاركته الفذة ألا وهو التحليل الداخلى - الطيفى - للكلمات أو لمجموعات الرموز .

منذ أن قام بخطوته الحاسمة فى ربيع ١٨١٨ والتى ضمنها فى خطابه المؤرخ ١٩ إبريل إلى جاك - جوزيف (« لا يوجد فى عملى شعوذة ولا سرية ») مرفقا بها قائمة هامة لتأويل الرموز * - وهو لم يتوقف عن التأرجح والتردد فيذهب من تطرف لآخر فيما يتعلق بطبيعة المنظومة الهيروغليفية ذاتهـا وهل هى ايديولوجية أم صوتية ؟

إذا كان قد تجرأ فى محاضرته أمام أكاديمية جرونوبل فى أغسطس ١٨١٠ أن يعلن بكل الثقة وأكثر مما فعل نيبور أو زويجا قبل يانج أن الكتابة المقدسة صوتية (لفظية) فى طبيعتها فقد تراجع منذ ذلك الحين وتاه لفترة طويلة متجها ناحية التأويل الايديوجرافى أو حتى الرمزى . وهو يعترف فى خطاب ١٩ أبريل ١٨١٨ لأخيه إنه عاد إلى أفكار كليمان السكندرى أى - فى الأساس - إلى الايديوجرافية وها هو بعد شهر واحد يضع بعض « الرتوش » على وجهة النظر هذه : « سأقول لك باختصار أن ترتيب العلامات الهيروغليفية يتبع ترتيب كلمات جملة من اللغة المنظومة . » إلا أنه يؤكد « إن الهيروغليفيات لا تعبر عن أصوات بذاتها » . وإذ به يتوغل فى منطقة ضبابية فيضيف تأكيدين سينقضهما فيما بعد على أنهما غير صحيحين وهو أن الكتابة الديموطيقية سبقت الهيروغليفية وأنها أبجدية بحتة .

بعد ذلك بثلاث سنوات قبيل مغادرته جرونوبل ألقى محاضرة أمام أكاديمية الدوفينيه موصومة بالفكر الإيديوجرافى فهو يؤكد فيها أن العلامات الهيروغليفية هى « رموز لأشياء » وليست أصواتا . ونراه فى نفس المرحلة يتوه فى دروب غريبة فينزلق ناحية الرمزية ونحو طرق تأويلية شديدة الغرابة إذ بلغ به الشطط إلى حد كتابة أن

* راجع فصل ٨ ص 320

كلمة بطليموس أتت **بوليموس** (« حرب » باليونانية) لأن الخرطوش المتضمن اسم الملك به شكل جميل لأسد وبالتالى فلابد أنه يعبر عن القدرة القتالية ...

لكن سرعان ما سيعود إلى التدقيق العلمى .. وهى المرحلة التى أخذ يتمرن فيها باستمرار على نقل طرق الكتابة الثلاثة من واحدة إلى أخرى . إلى أن تمكن – طبقا لما تقوله كاتبة سيرته مدام هارتلوبان ومن بعدها علماء المصريات لوياج – رونوف ونافيل ودويلهوفر – من « عمل ما لم ينجح أحد فيه قبله وهو ترجمة نص ديموطيقى رمزا رمزا إلى الهيراطيقية ثم ينقله بعد ذلك إلى الهيروغليفية [5] لكن هذه الحرفية الخارقة لم تجد قبولا لدى هنرى سوتاس إذ يجد أن هذا يعتبر من قبيل « الأسطورة الطريفة وليست حقيقة »

يبقى أن نخلص إلى أن فى بداية صيف عام ١٨٢١ كان **« صغير »** يكدس الأسلحة والذخائر إلا أنه فى المحاضرة التى ألقاها فى أغسطس لايزال مشبعا بالتفسيرات الإيديوجرافية ومع ذلك فإن جعبته كانت قد أصبحت حينذاك واسعة وغنية ومتنوعة ومراجعه غدت تزداد ثراءا بسرعة جعلته يشعر بقرب بلوغه الهدف . وأصبح كل ما يكتبه الآن يتم عن ثقة بالنفس منتشية .

وفى نهاية عام ١٨٢١ التى عصفت بها زوابع عديدة إبتداءاً من أيام جرونوبل العنيفة حتى سفره قلقاً للإقامة فى باريس (الذى كان بمثابة « الهروب إلى مصر » بالنسبة له) ستهبط على الباحث أحد الالهامات التى ستضعه على الطريق الصحيح . إذ أنه سيقر – بعد أن أكد على وحدة المنظومة الكتابية المصرية – الاستحالة المادية أن تكون الهيروغليفيات مجرد إيديوجرامات بسيطة .

ففى يوم عيد ميلاده الثلاثين فى ٢٣ ديسمبر ١٨٢١ جاءته فكرة – كيف أنها لم تخطر على بال من سبقوه * وعليه هو شخصياً ؟ – أن يجرد عدد الرموز الهيروغليفية فى حجر رشيد وكذلك الرموز الديموطيقية وعدد الكلمات اليونانية جرداً دقيقاً . فأصابه الذهول عندما وجد فى مقابل ٤٨٦ كلمة يونانية ١٤١٩ هيروغليفية [6] كيف يمكن أن يكونوا إذن إيديوجرافات يعبر كل منهم عن فكره أو اسم أو شئ ؟ ... ثم ذهب فى حساباته إلى أبعد من ذلك محللاً المجاميع الهيروغليفية فوجدها تنكمش فى ١٨٠ رمزا وبالتالى يوجد فارق دائم بين العلامات والكلمات والمعانى .

---

* ومع ذلك رأينا كيف أن نيبوهر قد سجل مثل هذه الملحوظة قبل نصف قرن .

الخلاصة التى فرضت نفسها هى أن هذه الكتابة لا يمكن أن تكون رمزية أو إيديوجرافية فقط ولا أبجدية بمعنى الكلمة ولكنها يجب أن تكون صوتية أو على الأقل تتضمن عديداً من الرموز من ذلك النوع . وهكذا قام جان - فرنسوا شامبليون باستخدامه الطريقة الحسابية البحتة ، وهى فى متناول أى دارس لكتب الأقدمين ، بخطوة حاسمة أخرى بعد الأولى المتمثلة فى إثبات صلة القرابة التى تجمع الكتابات الثلاثة وهذه الخطوة الجديدة هى التعرف على الجانب الصوتى الجزئى للهيروغليفيات * فإذا أضفنا إلى يقينه بأن المنظومة الهيروغليفية - واحدة ونصف صوتية وأبجدية بشكل جزئى - تختزل استخدام الحروف المتحركة فيمكننا أن نعتبره قد جمع جزءاً كبيرا من معدات المشروع الكبير .

يجب بطبيعة الحال تطبيق المبادئ التى تستهدف الوصول إلى إقامة المنظومة - على النصوص المطلوب حلها إنطلاقاً من نقطة البداية التى أتاحها لتعرفه على اسم بطليموس الذى يدعى يانج أبوته عن حق . سبق أن ذكرنا جملة شامبوليون التى أكد بها أن أى شخص قام بدراسة جدية للنص الديموطيقى لايمكن أن يشك فى أن الخرطوش يحتوى على اسم بطليموس ، إلا أن المشكلة الحقيقية تكمن فى العثور على نسيج هذا الاسم وتحليله وهو الاسم الذى تعرف عليه الطبيب الانجليزى ولكنه لم يفك شفرته بصورة سليمة .

سبق أن رأينا أن الدكتور يانج جمع فى تفسيره لكتابه اسم الفرعون اللاجيدى (البطلمى) الحروف المتحركة والساكنة . والرموز الأبجدية والمقطعية والثنائية المقاطع وبعض الرموز الأخرى « التى لا تعنى شيئاً » : وكل ذلك مجتمعا يقرأ **بتوليمايوس**

فى انتظار إمكانية توضيح النقطة الغامضة المتعلقة بالحروف « التى لا تعنى شيئاً » قام العالم الفرنسى بتصحيح ترجمة زميله الانجليزى على مراحل فلم يحتفظ سوي بالحروف ب ت ل م س . وهو بذلك يعترف بموهبة سلفه فى التخمين ويبين حدود فنه . وكان على شامبوليون أن يوسع من نطاق تطبيق طريقته حتى تأخذ شكلها العقلى ولكى تتسع .

فى يناير ١٨٢٢ وصلت إلى جان ليترون عالم اللغة اليونانية الكبير وزميل شامبوليون السابق وأفضل من حلل النص اليونانى لحجر رشيد صورة ليتوجرافية

---

* التى سبق أن إفترضها تييومر وأكدها زويجا ثم هو نفسه عام ١٨١٠ ومع بعض التحفظات يانج عام ١٨١٨.

لسلة صغيرة مقامة فى جزيرة فيلة ومخصصة لكليوباترا . كان هذا الأثر (الذى سمى « إبرة كليوباترة » بسبب صغر حجمه) قد أثار منافسات قوية بين قراصنة الآثار المصرية القديمة إلى أن نقلت فى عام ١٨٢١ إلى كنجستون هول فى مقر إقامة وليام بانكس صديق الدكتور يانج والذى كان يتشكك كثيرا فى منافسه الفرنسي .

كانت لهذه الصورة الليتوجرافية أهمية عظمى . فهى وإن كانت مكتوبة جزئيا فقط بلغتين لأن النصوص المنقوشة على قاعدتها لا تترجم الكتابات المصرية مثلما كان الحال فى حجر رشيد (الكتابات الأولى * تنقل مناشدة موجهة من كهنة إيزيس إلى بطليموس الثامن إيفرجيت المكنى « السجين » وإلى زوجته وأخته كليوباترا [7] أما الكتابة الأخرى فهى بروتوكلات ملكية) [8] اسم كليوباترا موجود بها بوضوح وقد علم عليه وليام بانكس بالقلم وهو الذى قام بنسخ المستند الذى تسلمه ليترون ومنه إلى يد شامبوليون . تقول مدام هارتلوبان :

« شعر حلال الشفرة برعشة كهربية إيجابية لدى مشاهدته للمستند إذ وجد فى الخرطوش الملكى الثانى اسم كليوباترا مكتوبا تماما كما كتبه هو عندما كان ينقل النص الديموطيقى إلى هيئته الأصلية » [9]

يجب قبل أن نتحول إلى لب الأمور أن نشير هنا إلى أحد الإنتقادات الأكثر ترديداً فى حق جان - فرنسوا من غرمائه الانجليز :

إدعى كل من بانكس ويانج - وكلاهما ضد الآخر - أسبقيته فى التعرف على اسم كليوباترا ويوضح الأول أنه علم بذلك على النسخة المرسلة إلى باريس . حدث هذا بالتأكيد !! ولكن ماذا فعل كلا الباحثان الانجليزيان بهذا العنصر العظيم من معطيات البحث ؟ لقد بقى الأصل فى حوزتهما لشهور دون أى فعل أكثر من تحديد مكان الخرطوش حامل اسم الملكة .

أما جان - فرنسوا فهو لم يكتشف ماسة فحسب . لأن ما نعرفه من النتائج التى توصل إليها يسمح لنا بالاعتقاد بأنه لم يكن فى حاجة البتة لمنافسيه الانجليز لكى يتعرف ثم يفك الشفرة ويحلل اسم الملكة وهو الذى سبق أن عاينه فى النسخة الديموطيقية فى البردية المسماه بردية كازاتى .

---

* نقلها من الأصل وهو فى مكانه الأصلى الرحالة النانتى كايو عام ١٨١٦.

بمقارنة الخرطوشين لبطليموس وكليوباترا التقى مرة جديدة فى الاثنين بهذا الاسد الممدد والذى كان مدلوله فى الحالتين هو حرف ل . سبق أن أشرنا إلى الفكرة التى تلح عليه منذ طفولته والتى نتجت عن رؤيته لشكل الأسد المحفور فى واجهة مدفأة منزل الأسرة - وكذلك العلاقة التى أقامها بين اسم الحيوان وأسمه هو . فكتب لأخيه يقول بسعادة : « هذان الأسدان سيساعدان الأسد لكى ينتصر ! »

هل سنكون جديرين بالتصديق إذا أوضحنا هنا أننا بسطنا هنا هذه العمليات ؟ لا أحد يوضح تعقيد المسار الفكرى لشامبوليون بأفضل مما فعل هنرى سوتاس :

« [...] تعرض وضوح رؤيته منذ البداية للامتحان لأن حرف التاء (ط) يختلف فى بطليموس وكليوباترا . لن نعبر بما فيه الكفاية عن إعجابنا بالوسائل الفنية والواثقة التى استخدمها الباحث لحل الحالات المختلفة [...] أليس ما يميز حلال الشفرة الجيد هو أن يتصرف فيما يخص بطريقة العمل مثلما يفعل بروتيه * ؟ إذا قارنا بين شرح المعطيات المزدوجة ك ، س والتبادل بين ر ، ل (نلاحظ) أن الشرح الأول نابع من المقارنة بين ذات الخراطيش بأشكالها المختلفة ، أما الثانية فهى نابعة من المواجهة بين المخطوطات الجنائزية بالخط المرسل وكان لا يزال غير مفهوم والثالثة من «معرفة اللهجات القبطية ...» (10)

بالمرة نقول أن حلال الشفرة / بروتيه حقق اكتشافا جديداً ومهماً . فحكاية حرف ت المختلف فى بطليموس عنه فى كليوباترا كشف له أن الكتبة المصريين كان فى إمكانهم الاختيار بين هيروغليفيات مختلفة لتدوين نفس الصوت .. وهو ما يعقد المسألة ... دون أن يتسلل إليه اليأس أشار إلى هذه الأشكال التوأم والمتناقضة باسم الـ « هوموفون » .. وهكذا انفتح الطريق من جديد .

وعندئذ أصيب بحالة من النهم سيطرت عليه . أخذ يكتشف . من خرطوش لآخر جميع أسماء الملوك الذى خمن جان - باتيست بارتيليمى ببراعة أنها توضع فى هذه الأطر البيضاوية المجيدة . وها هى أسماء اسكندر وقيصر تيربوس وجيرمانيكوس دومينيسيان وتراجان تندفع من وسط المخطوطات كما كانت تفعل فى زمن مضى من كتب الأب دوسار - ثم يكتشف كلمة **أوتوكراتور** - وهو لقب امبراطورى يرتبط باسم قيصر وهو الذى سيسمح له بضمهن على التوالى إدعاءات يانج الذى قرأه **أرسينويه** ومؤيدى التاريخ المطول لرسم الأبراج الذى جعلهم يقرون بوجود اللقب الامبراطورى

---

* بروتيه أحد آلهة الميثولوجيا اليونانية منحه أبوه بوسييدون إله البحار ملكة النبوة وقراءة المستقبل وكذلك الظهور فى أى شكل يريد (المترجم) .

الرومانى على معبد دندره فوجدوا أنفسهم فى موقف صعب حتى يؤرخوا له باثنى عشر قرنا قبل الميلاد * .

كان هذا الاختراق داخل التاريخ الجريكو رومانى وهو يروى بالهيروغليفية مثيراً لدرجة أنه شده نحو خلاصة خاطئة . وهى أن الكهنة المصريين لم يكونوا يستخدمون الهيروغليفيات الصوتية سوى عند كتابة أسماء الملوك الأجانب . وسنرى أن هذا الخطأ سيصبح نقطة انطلاقة فى كتابه « **رسالة إلى مسيو داسييه** » وسيسيطر على فكره لبضعة شهور وأنه لن يتخلص منه سوى على مضض شديد .

بوجه عام كونت له مقارناته بين مضامين خرطوش كليوباترا وبطليموس رأسمال أساسى مكون من أثنى عشر رمزا : ب ت ل م س ك ن ر ا أىْ أىِ أو ** تم تحديد مكانهم والتعرف عليهم ووضع مداليلهم الحقيقية ومعانيهم . بقي بعض الحروف الغريبة التى أعطاها يانج وهو يقرأ فى إرتباك اسم بطليموس – « القيمة لاشئ » ...

وجد الإجابة على هذه المشكلة المحيرة فى يوليو ١٨٢٢ بمناسبة الجدل الدائر حول الزودياك مع جومار وبيو . إذ لاحظ وهو يرقب المجرات التى تزين الأثر الفلكى الصغير المأخوذ من معبد دندره كما يقول دوبلهونار « أن خلف بعض أسماء النجوم المكتوبة بالهيروغليفية برسم نجمة صغيرة . نجمة صغيرة خلف اسم النجمة ؟ وفجأة سطع النور . فيقر بوجود ما أسماه بالحروف determinaif وهى رموز صامتة تضاف إلى نهاية الكلمة لكى تميز بدقة أكبر مجاميع تكتب بنفس الإملاء ولكنها مختلفة صوتيا . إن هذه الرموز تعتبر عاملا أصيلاً فى المنظومة الكتابية المصرية فى مجملها . »

إذ نجد على سبيل المثال فى العديد من الخراطيش وخاصة خرطوش كليوباترا رسماً لبيضة مائلة : وهو رمز للمؤنث . وكذلك بالنسبة للنباتات إذ يشار إليها بساق نبات مثلثه يعلوها تويج زهرة والحركة يشار لها بالبرجل الذى يأخذ شكل ساقى رجل يمشى .

هذا الـ « determinatif » يمكن نعطيه لشامبوليون ذاته ! فهو يسير بخطى عملاقة نحو الهدف . كل أسبوع يكتشف جديداً .. إلا أن مايدهشنا فى هذه المرحلة هو صمته .. ذلك لأن هذا السباق الرهيب لا يكشف عنه للجمهور سوى نقطة نقطة وفى

---

* راجع ص 390.

** واضح طبعا أنه ليس نظاماً بدون حروف متحركة .

أكثر الأشكال حرصاً . لقد تعرض لكثير جدا من الضربات حتى الآن ومزاجه الجاسكونى تسبب له فى مشاكل كثيرة مما يدفعه إلى عدم كشف بطارياته قبل أن يكون على ثقة كاملة بنفسه .

المقال الذى نشره فى يوليو ١٨٢٢ فى **المجلة الإنسيكلوبيدية** بخصوص مسلة فيله والتى تسببت فى اغضاب وليام بانكس – لفت كلماته بالكثير من الحيطة وهو لا يعرض فيه سوى سلسلة من الافتراضات . وعندما نعرف ماذا كان حينذاك فى يده ونقارنه بما أخرجه إلى العلن فإننا نقول لأنفسنا أنه لفترة ما تغلب « المزاج الدوفينى » الذى تكلم عنه ستاندال قد كمم داخله النزعة الفرسانية المتهورة .

ولكن ها قد حان موعد مقابلة عظيمة سيضطر فيها أن يرفع القناع ويكشف عن لب القضية . فى ٢٢ أغسطس ١٨٢٢ دعى من أكاديمية المخطوطات والآداب إلى تقديم أعماله عن الكتابة الديموطيقية – وهى الكتابة الوسطى فى حجر رشيد والذى يسميها يانج « أنسكوريال » . هذه المحاضرة لم تنشر علما بأنها أدت كما سنرى دورا هاماً فى حياة شامبوليون الصغير المهنية . لعله أعتقد أنها تتضمن تقريبيات أو أخطاء كثيرة بحيث لم يسمح بنشرها . وعلى العموم فقد كتب لأخيه :

> « الهيراطيقى * فقط هو الذى فى وضع الكمال ، ولن يكون أبدا أفضل مما هو عليه اليوم بعد عشر سنوات . إلا أننى أفكر فى إعادة بناء كل الديموطيقى بشكل أكثر تطورا وعمقاً أنتظر رأيك »

وهو بالفعل سيراجع عددا هاماً من النتائج التى عرضها فى محاضرة ٢٢ أغسطس ١٨٢٢

> « الكتابة الديموطيقية مثل الكتابة الهيروغليفية وأيضا مثل الكتابة الهيراطيقية كانت أيديوجرافية بطبيعتها . إن الرموز البسيطة التى تكونها مأخوذة دون أى تعديل من المنظومة الهيراطيقية، هذه الرموز البسيطة لدى مرورها إلى الكتابة الديموطيقية كانت فى كثير من الأحيان تتداخل طبقا لقواعد خاصة بهذا النوع من الكتابة وهو ما يميزها فى الأساس عن الأوليين » .

هل كان أقل ما فى محاضرة جان – فرنسوا شامبوليون جودة هو التأكيد على الجانب الإيديوجرافى لهذه الكتابات – وموضوعها كان عن الكتابة الديموطيقية ** مما جعل الحضور يستقبلونه بحفاوة كبيرة على الرغم من أن هذا

---

* بمعنى دراسته هو عنه .

** كان هذا ملخصاً فقط : أما الكتيب المكتوب فهو يتضمن ما يقرب من مائتى صفحة .

الحضور كان فى الأصل متحفزا ضده حتى أن بعض النظرات كادت تخترق جسده . وما أن عبر فى نهاية المحاضرة عن وعده بأن يعود بعد فترة وجيزة إلى مستمعيه الذين دعاهم مسيو داسييه ليعرض عليهم حصادا أجد وأغزر حتى دهش للغاية بأن رأى الجمهور غير الودى تجاهه من حيث المبدأ يعبر له عن تأييده الحار .

ساسى ذاته ، ساسى بوجه الخصوص وقف ثم تقدم نحوه وأخذ يديه بين يديه وانهال عليه بالمديح السخى . وعلى الفور اقترح نشر نص المحاضرة على حساب الدولة هل وضع هذا حداً للحرب ؟

كانت فى جميع الأحوال بداية هدنة ستتضح لتصبح سلاماً فى البداية ثم حلفاً فى النهاية . كان هذا الحدث مؤثرا للغاية فى حياة الباحث المهنية لأن عداوه سيلفاستر دوساسى لم تجرح أحساسه المرهف فحسب منذ عشرة أعوام ولكنها كانت تؤثر سلباً عليه على المستوى العلمى وتحد من حركته وتثير ضده الحزب « الانجليزى » . تبدد الغيوم هذا فى صيف ١٨٢٢ سيسهم فى التفتح القريب لجان - فرانسوا شامبوليون .

رأينا كيف أن هذا المديح لم يغشى وضوح رؤية الباحث ... إذا كان « الجيزويت » يصفق له بكل هذه الحرارة ألا يرجع ذلك إلى أن المحاضر فى حديثه عن الكتابة الديموطيقية بدا وكأنه يغير فكره عن التفسير الفونيتيكى الصوتى للمنظومة المصرية ويعود إلى فكرة الإيديوجرافية التى يتمسك بها ساسى ؟

سنقرأ فيما بعد فى « ملخص » شامبوليون :

« بقيت باصرار على هذا النهج الخاطىء إلى أن أجبرنى وضوح الحقائق إلى الإقرار بالمدلول الصوتى لمجموعات كثيرة من الهيروغليفيات الموجودة فى المخطوطات التى تغطى الآثار المصرية فى كافة العصور » .

فى بداية سبتمبر ١٨٢٢ كان شامبوليبون الصغير قابعاً فى المخزن / المكتب بالدور الثالث فى شارع مازارين وهو فى حالة نشوة ومحموم مثل أحد ملاحى كرستوفوس كولومباس وهو يقترب من شواطئ الهند ، وراح يجمع العشر أو الأثنى عشرة معطيات أساسية التى جعلته يجمع اشعة الضوء ويركزها بإصرار وعناد لكى يحقق الاختراق النهائى الحاسم .

أن تكون اللغة القبطية هى لغة تخاطب الآلهة أنفسهم وكذلك الملوك والكهنة الذين بدأت كتاباتهم تتكشف له - فهذا ما نعرفه منذ زمن كيرشار . ولكنه - أى جان

فرنسوا – قد تعلم الكلام « باللغة المصرية » كما يتكلم لغته الأم . وأصبحت عادية بالنسبة له لدرجة أنه كان يتكلم بها وحده ولذاته لإسعاد نفسه . كان هذا من الإيجابيات الرئيسية كما سنرى .

وهو إذا كان يتكلم القبطية مثل أحد الكهنة المسيحيين فى وادى النيل فهو يتدرب منذ سنين طويلة على نقل نص من طريقة كتابة إلى أخرى فى الثلاث كتابات الفرعونية. إن حرفيته فى هذا المجال حتى لو لم تصل إلى الدرجة التى يحلو لمدام هارتلوبان أن تمتدحها فهى فى جميع الأحوال لا مثيل لها . سهولة حركة اليد تساوى حركة الكلام .

إنه اكتشف أو هضم الخمس أو الست مبادئ أساسية التى ستسمح له بالسيطرة وترتيب وتنظيم إكتشافاته المقبلة . أولا أن الطرق الثلاث للكتابة ومنها اثنتان مستخدمتان فى حجر رشيد تكون منظومة وحيدة ومتماسكة علما بأن الكتابة الهيراطيقية والديموطيقية لا تختلفان بتاتاً سوى فى الشكل الهيروغليفى الأصلى .

ثم أن الهيروغليفيات لها قيم صوتية وايديوجرافية وأن الأصالة العظيمة لهذه المنظومة تكمن بالذات فى هذه الثنائية المشتركة وتظهر فى كل لحظة فى العملية التعبيرية وتتطلب من الذى يفك شفرتها مجهوداً مستمراً من التركيز والتجميع بين الصور والأصوات إذ أنها متداخلة على الدوام .

وأخيراً أن أسماء العلم من أصل أجنبى (يونانى وروماني بوجه خاص) تكتب بشكل هيروغليفى بحروف أبجدية أو أبجدية ومقطعية فى آن واحد أو رمزية – وذلك يجعل هذه المنظومة طبيعية للغاية ولكنها معقدة أيضا للغاية .

وقد اكتشف أيضا أن الكثير من العلامات يمكنها أن تأخذ نفس الدلالات من نص لآخر فى حين أن علامات أخرى ليست لها سوى وظيفة صامتة تهدف إلى الإشارة إلى التفريق أو تحديد الطبيعة أو الوظيفة أو جنس الشخص أو الشئ الموضوع فى الاعتبار وهو يعرف فى نهاية الأمر أن الحروف المتحركة لا تؤدى فى هذه الكتابة سوى دوراً بسيطا يقترب من العدم مثلما هو الحال فى العربية أو العبرية .

تأسيساً على هذه المعطيات العامة التى هى ثمار حوالى خمسة عشر عاماً من الدراسة * بدأ عملية فك الشفرة المنظمة معتمداً على الإثنى عشر رمزا التى كشفت

* ١٨٠٧ - ١٨٢٢

عنها خراطيش العاهلين البطلسيين . ما أن كشف وطبق المبدأ المحرك للمنظومة بمعنى التداخل الوثيق والدينامى للمصور والمسموع يمكن حينئذ القول إن لم يكن شامبوليون قد إكتشف عمليا لغز الهيروغليفيات [11] لأنه سيعبر من اكتشاف إلى اكتشاف تالى فعلى الأقل أنه مهد الطريق نحو الحل الشامل .

هنا يكمن الفرق الجوهرى بين الباحث القادم من جرونوبل وطبيب لندن اللامع . هذا الأخير يتحرك مثل الصاعقة من علياء سحابته المضيئة يلقى هنا وهناك بسهمه ويقذف ببرقه فوق هذه البقعة أو تلك ذاهبا من حدث إلى صدفة ، من كشف صغير إلى فكرة تقريبية معطيا للحدس براءات الأوسمة . أما الأخر فهو يجمع الأسلحة من على الأرض ويجمع ترسانته ويسير من معرفة إلى اكتشاف – ينسحب من نقطة ما ويجمع حينذاك قواه بعد توقف يعيد فيه النظر ولا يكتفى أبداً باللف حول العائق بل يهاجمه ويحدده ويسويه بالأرض . يذهب من المعرفة إلى العلم بواسطة المنهج .. وذلك لا ينفى الإلهام أو ضربات الحظ .

يوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ صحا جان – فرنسوا شامبوليون من نومه مبكرا . كل يوم يمر أصبح له قيمة من الآن فصاعدا . فيأتى له بحصاد جديد من المستندات والمقارنات . إذ منذ الاستقبال الحار من الأكاديمية للمحاضرة المحاضرة التى ألقاها عن الديمقوطيقية أصبح مثل المغناطيس . كل شئ يتركز فى اتجاهه ويذهب نحوه وبداخله وصولا للنجاح . بعد أن كان منبوذا محاصرا وقد وصل تقريبا للحظة اليأس قبل أربعة عشر شهرا ها هو الآن وقد هب الريح فى شراعه أو كما يقول العربى الذى بداخله فقد حلت عليه « البركة .»

أصوات الصباح الأولى المتصاعدة من شارع مازارين الهادئ لم تكن لتشتت أفكار الباحث القابع فى مخزنه بالدور الثالث . جاك – جوزيف خرج إلى الإنستيتو المجاور حيث يهيمن على المكتبة . الصباح سيكون خيراً لباحثنا : فقد استلم لتوه صورا طبق الأصل من رسومات محفورة نقلها جان – نيقولا هوبيو [12] أثناء إقامته فى مصر والنوبة (١٨١٨ – ١٨١٩ ؟) وهو أستاذ للعمارة فى مدرسة الفنون الجميلة وعضو فى الانستيتو * ومشهور بأناقة رسومه وبدقة ملحوظاته . وكانت الرسالة التى

* كان المسئول عن بناء قوس النصر بميدان ليتوال فى باريس ، وكان شامبوليون ينوى أن ينشر معه كتابا مشتركا عن مصر .. إلا أن الفكرة لم ترى النور .

وصلت شامبوليون عبارة عن خراطيش منقولة من « باروليافى » من معبد أبو سمبل وهو مايعتبر خبرا مباركا بالنسبة للباحث الجائع .

أخذ يدقق فى أول مستند من رسومات هيو . برز وسطه خرطوش يرمز بالطبع إلى اسم ملك . أخذ جان - فرنسوا يفرك عينيه . إذ أن المجموعة التى أمامه تتكون أولا من اسطوانة تشبه الشمس لونها طوبى أحمر ثم شئ مثل حرف له ثلاثة أرجل تعلوه سنبلة لها ثلاثة فروع * وأخيراً علامة مزدوجة على شكل مشنقة مستديرة (مثل تلك التى تكمل خرطوشه بطليموس وقيمتها هى حرف س) هذه المجموعة لاتمثل ولاترمز لأى ملك بطلسى أو رومانى : إذ أن جان - فرنسوا قد اكتشفهم جميعا . يجب البحث فى اتجاه آخر . فكرة سابقة ؟ محتمل .

لم يصعب عليه إعطاء مدلول س أو س مشدوده للعلامة المزدوجة التى على اليمين (تقرأ الهيروغليفيات كما يعرف سواء من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين) ولكن ما هذه الأسطوانة الشمسية التى على اليسار ولونها طوبى أحمر ؟ هل هو شمس : بالقبطية الشمس إسمها **رع** .. فى هذه الحالة إذا كان الرمز المزدوج الختامى ينطق **س** أو **سيس** وإذا كان الأول هو **رع** فيكفى أن يكون الحرف الوسيط المثلث الأرجل له قيمة الـ م حتى يكون هو ... ؟ جان - فرنسوا - راح يكتم أنفاسه .. - أمام خرطوش أكثر الفراعنة شهرة ومجداً : رمسيس ولعله أعظمهم على الاطلاق رمسيس الثانى ... كيف لا يفقدا هدوءه ! هنا أمام عينيه يحتوى هذا الخرطوش علي اسم ملك وادى النيل العظيم ؟ بل أكثر من ذلك ثبت له أن نظريته التى كان يعتقد أنها لا تنطبق سوى على أسماء الملوك الأجانب فى العصور المتأخرة يمكن تطبيقها على أقدم العصور ، أزمنة الأسرات العظيمة لمصر العتيقة ؟ هو الذى كان يحاول أن يخترق الزمن من طريق جانبى ثانوى وجد نفسه مدفوعاً فجأة إلى الساحة الرئيسية أمام بوابة الزمن الضخمة يعبر فى قفزة واحدة القرون الغامضة وليجد نفسه وسط الضوء الكامل . هل هذا معقول ؟ رمسيس ! ...

كيف يتأكد من أن ما يراه ليس حدس تخمينى أو خلط بين رغباته وواقعه العلمى ؟ فمسك بورقة ثانية من مستندات هويو . ها هو خرطوش آخر يضم مجموعة رموز أخرى غير معروفة حتى الآن . مختلف هو الآخر عن الاسماء المتأخرة التى تعود عليها . وراح يتأمله فى عجلة محمومة . إلى اليسار طائر ايبيس . ثم نفس الإشارة

* هذا القرع يصفه علماء المصريات بأنه ثلاثة نيول لثعلب منك معقودة .

ذات السيقان المثلثة والواقفة . والذى سبق أن سجلها فى الخرطوش الذى أرجعه لرمسيس وأعطاها دلالة حرف م – وفى النهاية هذا الشكل الشبيه بالمشنقة أو عامود إنارة الذى يقرأ س فى الخراطيش الخاصة بالملوك اليونانيين والرومانيين وإفتراضيا فى خرطوش رمسيس الأخير .

أليس الإيبيس هو الإله تحوت العالم ، صافى الذهن مخترع الهيروغليفية ذاته !! . وإذا كانت قراءة هذا الرمز هى **تحوت** بالفعل والرمز الثانى قيمته م والأخير **س** أو **إس** فيكون الاسم هو تحتمس – لعله الثالث المجيد والفاتح . هائل ! نجحت أول مضاهاه والمعجزة تؤكد معجزة أخرى .. ماكان فيه مخاطرة فى القراءة المنفصلة لرمسيس أو تحتمس نقص إلى أقل درجة ممكنة إذا ما أجرينا مقارنة بين مجموعتى الافتراضات فالأولى تساعد الأخرى وتعضد بعضهما ها هو بعد خطوتين متتاليتين سريعتين قد دلف إلى قربى إثنين من أمجد الفراعنة .

يجب ألا ننسى هـذا الخطاب الذى حرره فى ٢١ أبريل ١٨٠٩ إلى جـاك – جوزيف :

« لغتى القبطية مستمرة على نهجها السلس وأجد بالفعل سعادة عظيمة فى ذلك فأنت تدرى ولا شك أن السعادة لايمكن أن تكون صغيرة عندما أتكلم لغة أعز أعزائى امينوفيس الثالث وسيتوزيس ورمسيس وتحتمس ... * »

وها هو الآن لا يكتفى يستمرئ نطق أسمائهم كما لو كانت قطعا من الحلوى فحسب بل إنه يتعرف عليهم بعد ثلاثة عشر عاماً ويقرأهم أيضا !! لا يمكن أن يكون على الأرض إنسان أكثر سعادة من جان – فرنسوا فى صباح ذلك اليوم ١٤ سبتمبر ١٨٢٢

كريستوفر كولومبس كان يأمل فى الوصول إلى شواطئ الهند وإذ به يكتشف جزر الهند الغربية ولن يتمكن من تحديد مكانها بدقة أو حتى تسميتها .. وشامبوليون كان يجتهد لحل شفرة اللغة الهابطة نوعياً لآخر عصر الأسرات فى وادى النيل باعتبارها جسراً نحو معرفة الفترات التاريخية العظمى فانعطف ليجد نفسه فجأة عند قمة الحضارة المصرية . مهما كان تصويبه عاليا ومهما كانت جسارته طموحة فهو لم يحلم قط بالوصول إلى كشف مبهر ومباشر وكامل على هذا المستوى . إنه بالفعل أمام نظام ليس مزدوج بل ثلاثى إذ أن الهيروغليفيات تعنى فى ذات الوقت وبالتناوب أصواتا

* انظر ص 182

وأفكاراً وهذه الأخيرة تتمثل فى معنى حقيقى أو مجازى . رع **وتحوت** ، شمس وطائر إيبيس تشاهد فى حين أن م و س هما حروف أبجدية ، تسمعان . وعلاوة على ذلك فإن المجموعة المكونة من م س فلها معنى وهو : « ولدته » . المنظومة أصبحت الآن كاملة تماماً .

يعيش جان فرانسوا منذ أربع أو خمس ساعات حالة شديدة من الانفعال والقلق تصعب السيطرة عليها . فقد أجبر نفسه باصرار على التجربة والمقارنة إلى المراجعة فى المستندات التى حصل عليها من هويو للتحكم والسيطرة على الانفجار النورانى العنيف .. لم يعد يتمالك نفسه . كيف لا يحيط علما الشخص الذى شاركه آلامه وصاحبه أو أرشد خطاه بالخبر العظيم ؟

قبيل منتصف النهار اندفع حلال الشفرة (أخيرا يستحق بالفعل اللقب !) وفى يده مجموعة أوراق على السلم إلى شارع مازارين وبخطي سريعة وصل إلى مكتبة الأنستيتو / المعهد . ودفع الباب إلى مكتب جاك - جوزيف وهو يصرخ : « تمكنت من الحل » ثم - حسبما تقول الأسطورة التى يسردها ابن أخيه ريميه ومن كثرة ما تتردد أصبحت تتمتع بقوة القانون التاريخى - إنهار فى حالة من « الإغماء الصرعى » *

أن تكون هذه الأغمائة قد استمرت لعدة ساعات أو لعدة أيام (؟) - أسطورة أخرى - المهم هو أن تبييض مسودة الملحوظات العظيمة التى قام به جان - فرنسوا شامبوليون فى ذلك الصباح قام به بقدر كبير أخوه الأكبر . تابع جاك - جوزيف أبحاث أخيه خطوة خطوة وسطر سطر . وإذا كانت هذه المرحلة الأخيرة تكتسى أهمية أكبر بل قد تكون من نوعية مختلفة إلا أنها كانت مألوفة له . وطبقا لما يذكره ابنه ريميه فإن المسودة الأولى لما سيطلق عليه اسم **خطاب إلى مسيو داسييه** والمحرر فيما بين ١٤ و ٢٢ والمؤرخة ٢٥ وتليت أمام الأكاديمية يوم ٢٧ كانت بقلم جاك - جوزيف .

ولكن حذارى ! فبسبب الحيطة المتناهية بل وأكثر من ذلك بسبب الدقة العلمية

---

* توجد عدة تفسيرات لهذا المرض الغريب . منها أنها « كوما المرض السكرى » وعندما استشار المؤلف الدكتور لوبيتكى استبعد هذا الفرض . لأنها إذا كانت على الشكل الموصوف وفى تلك الظروف فلا يمكن أن يخرج جان - فرنسوا منها حياً . وفى رأى هذا المتخصص المرموق قد تكون الحالة من حالات الناركوليبيا الخدار (حالة مرضية تتميز بنوبات نوم عميق قصيرة ومفاجئة تتواكب مع فقدان العضلات لقوتها) إلا أن هذه النوبات لا تدوم أكثر من عشرين إلى ثلاثين دقيقة ... ولذلك فهو يرى أن مصدر هذه الحالة يرجع على الأرجح إلى سبب نفسى عصبى أكثر منه متعلق بالأوعية الدموية . إلا أن أى تشخيص لا يمكن أن يكون سهلا بالنظر إلى عدم الدقة الأسطورى الذى يتسم به هذا الحدث .

لحلال الشفرة فإن المحاضرة المشهورة التى استمع إليها كل من سكرتيرها الدائم وأقرانه لا تعكس بشكل مباشر ما حدث من معجزة صبيحة ١٤ سبتمبر ويكفى أن نقرأ نص موضوع **الخطاب إلى مسيو داسييه عن الأبجدية الهيروغليفية الصوتية التى استخدمها المصريون لتحرير ألقاب وأسماء وكنيات الملوك اليونانيين والرومان على آثارهم** فنلاحظ أن العلاقة ضعيفة للغاية بين « يوريكا » (وجدتها) ! فى ١٤ سبتمبر وما سيتم إبلاغه للمجتمع العلمى بعد ذلك بثلاثة عشر يوم . ويجب الانتظار نهاية نص **الخطاب** قبل أن نقرأ أن الكتابة الصوتية لم يخترعها الكهنة المصريون لكتابة أسماء الملوك اليونانيون والرومان ولكنها أخترعت « فى فترة متأخرة للغاية » . لا إشارة واحدة إلى رمسيس أو تحتمس ...

يثير الدهشة هذا الجانب من عبقرية هذا الجنوبى المتحمس والمبالغ والمتهو ، والذى يستطيع مع ذلك أن يحتفظ لنفسه بالجانب الأساسى من اكتشافه الذى هزه ، زاً كما هز مجال المعلومات الذى تجول فيه لفترة طويلة . فهل يمكن أن نتصور بورتن مثلا أول من يعود بعد اكتشافه منابع النيل ويكتفى بأن يعلن أنه وصل إلى الشلال السادس .

لم يتمكن أحد من إيجاد شرح مقنع لتحفظ حلال اللغز .. ذكر بعضهم الدقة العلمية كسبب .. إنه بالفعل سبب وجيه إذ أن بضعة ساعات من المقارنات بل وبضعة أيام فيما بين ١٤ و ٢٢ سبتمبر قد تبدو غير كافية لهذا الزوج من علماء اللغة . وكان سيل المستندات (والآثار ...) قد بلغ درجة جعلت جان - فرنسوا محقا فى أن يعطى نفسه فترة زمنية للتفكير . ولكن يجب أن يكون المرء واثقا للغاية من نفسه (فى هذه الحالة نكون بصدد غرور أكثر من كوننا أمام حالة . حذر ؟) لكى يحتفظ بهذا الكشف تحت إبطه .

نرى فى هذا الإخفاء المغرور والمتعقل نوعاً من التحية لهذا الشرق المحجب وإلى هذا السر الذى ظل محفوظا لكل هذه الفترة الطويلة ولهذا **الكتمان** * (كذا) والذى أجاد ماسينيون فى الحديث عنه . كما هو تحية لسر هؤلاء الأموات الذين دفنوا رفات الملوك - الألهة تحت أضخم تراكم من الأحجار تمكن الرجال من تشييده وختم مقابر الفراعنة إلى الأبد ... إن السر الذى احتفظ به من مسه الالهام فأصبح المكتشف هو رمز عظيم من المشاركة مع العالم الذى أفشى سره .

باختصار نقول إن الشقيقين شامبوليون : واحد يملى والآخر يدون - ولعله أيضا

---

* بالعربية فى النص الأصلى [المترجم] ويشرحه المؤلف على الهامش : بأنه حق الإخفاء الذى يلجأ إليه المؤمنون وخاصة الشيعة فى علاقاتهم بالسنة من أجل سلامة مجتمعهم .

يشارك بأسلوبه الشخصى فى أناقة النص المكتوبة به الرسالة أخذا يعدان على عجل المحاضرة – ولو أنها كانت محدودة الحجم سواء للاسباب التى ذكرناها للتو ولأن الأكاديمية لا يمكنها أن تمنح للباحث الشاب سوى ساعة واحدة فهى مع ذلك ستكون بمثابة بيان رسمى بميلاد علم جديد : إذ حل علم الايجبتولوجيا محل ما كان يسمى بالاجيتبوجرافيا .

احتاج إعداد النص وطبع بضعة عشرات من النسخ لتوزيعها على الحضور المتوقع وإرسال دعوات لبعض شخصيات أجنبية (مثل يانج وهومبولدت) عدة أيام . وكان يجب أيضا اختيار الاشخاص الذين توجه لهم الرسالة . كانت الرسالة ستوجه فى البداية إلى « سيو البارون سيلفاستر دوساسى رئيس الأكاديمية » . إلا أن جان – فرنسوا هو الذى قرر أنها ستوجه لا إلى المعلم الذى أيد آرائه فى مرحلة متأخرة للغاية .. وإنما إلى « الرئيس العزيز » داسييه الذى لم يضن عليه بالرعاية قط .

وجاء يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ دون فى السجل المكتوب باليد للأكاديمية الملكية للمخطوطات والأداب أن بعد مشاركات عديدة من السادة : دو ديموزا وجومار وسيلفاستر دوساسى دعى مسيو شامبوليون الصغير إلى قراءة بحث على الهيروغليفيات الصوتية [13] ...

الجو كان ممطرا والصالة مزدحمة . قرأ مكتشف السر الذى كان سيحتفل بعيد ميلاده الثانى والثلاثين بعد ثلاثة شهور . الصفحات الثمان التى اختصر فيها كتابه مؤقتا والتى نشرت بنصها فى طبعة أكتوبر من **صحيفة العلماء** Journal de Savants نتصوره وجلاً مأخوذاً فهو الذى وصفته الماركيز دوسابيه بأنه غير قادر على « التعبير عن نفسه بسهولة » ولا على « دعم بريق أعماله » . ولكن وباعتراف جميع الشهود كانت المحاضرة مثيرة للغاية .

احتفى داسييه وساسى وريموزا وهومبولدت بالشاب ولكن ماذا عن يانج ؟ كان الطبيب الانجليزى جالسا إلى جوار المحاضر وأخذ موقفاً طيبا بل أنه لم يبخل عليه فى بادئ الأمر بتهانيه * هل هى ثورة ؟ عصر جديد ! إنه لم ير الاشياء على هذه الصورة بل على أنها تكملة لأعماله هو قام بها شاب موهوب . كتب إلى وليام هاميلتون – الذى انتزع حجر رشيد من الفرنسيين – : « حتى لو أنه استعار مفتاحا إنجليزياً فإن

---

* سنرى فى الفصل التالى ماذا كانت آراءه الخفية .

المزلاج كان صدءاً لدرجة مخيفة لا يستطيع أى ذراع عادى مهما كانت قوته من إدارته فيه [...] إن حياتى تبدو كما لو أنها طالت بالحصول علي مساعد أصغر سناً .. » بعد ذلك ستتغير اللهجة والأغنية ذاتها أيضا . أما فى الوقت الحالى « فالسعادة المحلقة (اليوفوريا) » هى السائدة .

بعد بضعة أيام أمكن لجان - فرنسوا أن يكتب خطاباً لأخ زوجته أندريه بلان .

« هذا الاكتشاف الذى أعلمت به الانستيتو فى ٢٧ سبتمبر أثار الدهشة وفرض على الجميع حتى أولئك الذين وقفوا بعيداً عنه لأسباب حزبية أن يصفقوا ويؤيدوا . [..] وبعد ذلك بيومين أعلنت الصحف عن الموضوع والشئ الذى أدهشنى وليس بالقليل أن (العلم الأبيض) Drapeau Blanc * كان من أول من تحدثوا عن المحاضرة ... » (14)

كتب لاموتيور أونيفرسال Le Moniteur Universel عرضا فى أول أكتوبر . جاء فيه ! « يتضح من الدراسة الأخيرة للأكاديمية أن بعض الهيروغليفيات تكتسى مدلولا صوتيا . واكتشف مسيو شامبوليون الصغير أبجديتها نقلا عن الآثار نفسها . الرموز التى جمعها توازى الحروف الساكنة والمتحركة للأبجدية اليونانية . عند تطبيقها على الكتابات الهيروغليفية التى تزين الآثار المصرية تمكن من التعرف بسهولة فى معظمها على اسماء الإسكندر الأعظم وبطليموس وكليوباترا وبيرنيس . »

ملاحظة من السيد لوكلان (15) : « عرض الموضوع فى المقال واضح لدرجة أنه يمكن التعرف على العلامة المميزة لآل شامبوليون عليه بشكل بين » . إلا أننا سنسمح لأنفسنا أن نعترض على هذا المعلق العلامة أن صاحب المقال أعطى على الرغم من ذلك إلى « آل يانج » سياط ليضربوا أنفسهم بها بما أن جميع الاسماء المذكورة على أنها اكتشفت من الباحث الفرنسى يدعى غرماؤه الانجليز بأنها اكتشافاتهم هم . إننا نعرف اليوم القيمة الحقيقية للحجج المتبادلة . ولكن فى أكتوبر ١٨٢٢ اكتست هذه التفاصيل شكلا مستفزا بعض الشئ .

نشرت **رسالة إلى مسيو داسيبيه** فى نصها الكامل منذ نهاية شهر أكتوبر على يد فيرمان ديدو « صاحب مطبعة الملك والإنستيتو » وصاحب مكتبة بشارع جاكوب - على هيئة كتيب يحتوى على ٤٤ صفحة وأربع لوحات مزينة بصور عديدة .

إن قراءة هذا النص المشهور جيداً والذى يكاد يكون مهملا فى آن واحد تثير

* من الصحف (اليمنية) المتطرفة

الدهشة أحيانا. فمنذ السطر التاسع للصفحة الأولي نقرأ أن الكتابات المرسلة المصرية هى كتابات « **إيديوجرافية** » * مثل الهيروغليفيات ذاتها أى أنها « تصف **أفكارا** ولا تصف **أصوات اللغة** » التصحيح لن يذكر سوى فى الطبعة الثانية إذ صحح المؤلف نفسه بأن قال « نصف **الأفكار** تارة **وأصوات** اللغة تارة أخرى » وفى صفحة ٣ يأتى ذكر « هيروغليفيات تتمتع بامكانية **التعبيرعن أصوات** الكلمات مستثنية بذلك الطبيعة العامة لرموز هذه الكتابة » . إن الذى يجعل هذه المرجعية إلى « الطبيعة العامة .. لهذه الكتابة » مثيرة للدهشة هو أن « **رسالة إلى مسيو داسييه** » تظل فى تاريخ العلوم المرجع الرسمى للطبيعة المزدوجة - الصوتية والإيديوجرافية - للكتابة المقدسة لقدماء المصريين ...

« لا يمكن اعتبار الكتابة الصوتية للمصريين منظومة ثابتة لا تتغير مثلما هو الحال بالنسبة لأبجديتنا . لقد تعود المصريون علي التعبير المباشر لأفكارهم ، والتعبير بالأصوات لم يكن سوى وسيلة ثانوية فى كتاباتهم الإيديوجرافية - ثم عندما ظهرت لهم فرص متكررة لاستخدام التعبير بالأصوات فقد عملوا على زيادة نطاقات استخدامها إلا أنهم لم يستغنوا قط عنها على الرغم من ذلك فى كتاباتهم الايديوجرافية المعتمدة من الديانة ومن الاستخدام المستمر لها لعدد كبير من القرون . »

وبعد أن قدم التحية لاسلافه ساسى وأوكربلاد ويانج قام جان - فرنسوا شامبوليون بوصف عمليات فك الشفرة التى لجأ إليها بالنسبة لبطليموس وكليوباترا والاسكندر وبيرينس والأباطرة الرومانيين . وخلال السرد أخذ يذكر المبادئ التى أقام عليها منهجه والتى ستعطيه قيمته العلمية :

« ... من أجل التعبير عن الأصوات والمنطوقات ولكى يشكلوا بذلك كتابة صوتية أخذ المصريون هيروغليفيات تمثل أشياءاً مادية وتعبر عن أفكار تبدأ أسماؤها أو الكلمات الدالة عليها فى لغة الكلام بالحرف المتحرك أو الساكن الذى يراد تصويره »

* التأكيد موجود فى النص الأصلى .

ثم أخذ يعدد الكلمات القبطية **لابوى** (أسد) ويمثلها أسد ممدد له قيمة حرف ل ، ــه . (إناء من الألبستر) حرف ن **توت** اليد : حرف ت ؟ ر و ، الفم ، حرف إلخ .

ولكن إلى أى حد يمكنه أن يمسك عن البوح بالسر الذى يكاد يخنقه وهو تطبيق الهيروغليفيات الصوتية ليس على الاسماء الأجنبية المتأخرة فحسب وإنما على أسماء ملوك الأسر التى حكمت خلال مراحل الذروة التى بلغتها الامبراطورية الجديدة ؟ وهو الكشف الذي سقط عليه كالصاعقة فى ١٤ سبتمبر مثلما حدث لذلك الرسول وهو فى الطريق إلى دمشق وهل سيحتفظ به لنفسه حتى النهاية ؟ كلا . ولكن سيقذف به فى شكل افتراضى وظرفى إلى معشر العلماء ليشغلهم به :

> « إنى على يقين من أن نفس العلامات الهيروغليفية – الصوتية المستخدمة للتعبير عن أصوات أسماء العلم اليونانية والرومانية تستخدم كذلك فى النصوص الإيديوجرافية المنحوتة قبل وصول اليونانيون إلى مصر بفترة طويلة جداً وكانت لها فى ذلك الوقت وفى بعض الحالات ، ذات القيمة التعبيرية للصوت واللفظ التى فى الخراطيش المحفورة فى عصر اليونان والرومان . [...] إن تطور هذا الواقع الثمين والحاكم يخص ما قمت به من عمل حول الكتابة الهيروغليفية الخالصة . ولا يمكننى أن أوضحه فى هذه الرسالة دون أن أدخل فى تفاصيل مطولة للغاية .
>
> ولذلك فإنى أعتقد ياسيدى أن الكتابة الصوتية كانت موجودة فى مصر منذ زمن قديم جداً وأنها كانت أولاً جانباً ضروريا للكتابة الايديوجرافية ...»

يقول « إنى على يقين ... » ثم يمتنع عن تقديم البراهين . فهو لازال يحتفظ بها لنفسه . ولكن لا أحد من المستمعين المعنيين الذين تزاحموا فى تلك الليلة داخل قاعة محاضرات الأنستيتو فاته أن يعدد الافتراضات وأن يؤكد الاحساس الذى تولد لديه من أن هذا الشاب لن يتوقف عن هذا الحد . بأن « عمله فى مجال الكتابة الهيروغليفية البحتة » لا زال يخفى العديد من المفاجآت ...

أكثر الأمور لا معقولية هو أن نعتبر هذه الأيام من سبتمبر ١٨٢٢ نهاية بل إن المرء قد يرى أنها فى الواقع نقطة إنطلاق . فمن ١٤ سبتمبر إلى ٢٧ منه لا يقدم جان – فرنسوا شامبوليون كشف حسابه . بل راح يجمع أسلحته وهو فى وقفته أمام الأنستيتو بدا كمالو أنه فى استعراض مثل الذى تقوم به الجيوش قبل انطلاقها إلى ساحة معركة صعبة . فلنقرأ ما يقوله هـ سوتاس : « لقد وجد نفسه بذلك وقد وضع

تحت يده ترسانة لامثيل لها من الوسائل ... سلسلة من الأحداث هي التى أخرت اكتشاف عام ١٨٢٢ منها : عدم كفاية المصادر والحالة السيئة للمواد الأساسية وعدم دقة الكتب المنشورة وتأخر وصول المنسوجات فى حين أن غيره من الباحثين كانت الأصول فى حوزتهم . »

لم يتوقف شامبوليون بعد ذلك عن المضى قدماً وكما يقول كاتب تمهيد **رسالة إلى مسيوداسييه** أن هذا الكتيب لم يكن سوى « مقدمة عمله الضخم » أى **ملخص المنظومة الهيروغليفية** * والذى سيتقدم به المكتشف إلى المطبعة بعد خمسة عشر شهرا . والرسالة ستدخل جزءاً من الطبعة الثانية **للملخص** التى نشرت عام ١٨٢٨

تـ مع الطبعة الأولى المعطيات العلمية التى أرسلها المكتشف طوال عام ١٨٢٣ إلى أكاديمية المخطوطات والآداب . وسنرى بعد ذلك ** كيف أن المفاجاة التى فجرها جان - فرنسوا فى ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ لم تجعل جميع معارضيه يعدلون مواقفهم منه بل على العكس من ذلك تماماً ما حدث لبعضهم . فبفضل داسييه وأيضا ساسى الآن . عاد الأنستيتو يفتح له أبوابه إلا أن كل خطوة سيخطوها سواء فى مجال الأبحاث أو فى مجال النشر سيواجه فيها بالعديد من العقبات .

يعتبر **الملخص** توسعا وتعميقا ضخما لمسيرة شامبوليون . ففضلا عن السرد التاريخى الذى يقدمه لأبحاثه – ولما أتى به أسلافه ومنهم يانج فهو يؤكد هنا بشكل أكثر وضوحاً على دور « الرموز الهيروغليفية الصوتية » كما أنه يعبر فيه عن أكثر التعريفات عمقاً وإيجازاً لأسلوب التعبير الهيروغليفى ! « **إنها منظومة معقدة وهى كتابة تصويرية ورمزية وصوتية فى آن واحد وفى ذات النص وذات الجملة بل أكاد أقول فى ذات الكلمة** » . يحتاج الأمر العديد من الأعمال المطولة والدقيقة جداً للوصول مثلما فعل باسكال وإينشتاين إلى هذا النوع من الصياغة المختصرة الدقيقة .

ومع ذلك فإن جان – فرانسوا شامبوليون لم يكن يعتقد أنه وصل إلى نهاية أبحاثه . بل على النقيض من ذلك فإن ما يتضح من دراسة هذه المرحلة من حياته وهى

* « رسالة إلى مسيو داسييه » ستصبح جزءاً من **الملخص** أدخل عليها بعض التعديلات .

** أنظر فصل ١٢

التى تبدأ من نشر **الرسالة** إلى نشر **الملخص** وتوزيع « **البانتيون** » قبل سفره إلى إيطاليا هو عمق وكثرة العمل الذى يؤديه ونشاطه المحموم كباحث أيضا ثم كجامع ومستغل لاكتشافاته . إنه كالأعمى الذى استرد بصره وراح يجرى كالمجنون من منظر إلى متحف ومن وجوه النساء إلى مناظر غروب الشمس . إنى أرى ، إنى أقرأ . إنى تحررت من الخطأ !!

إذا كان كتاب **ملخص المنظومة الهيروغليفية لقدماء المصريين** قد ظهر فى الأسواق فى يناير ١٨٢٤ على حساب الدولة فإن ذلك يرجع جزئياً إلى تدخل شخصية غير متوقع ظهورها فى هذا الدور كملاك حارس لحلال الشفرة والتى لن يتوقف تدخلها تدخلاً غاية فى النفع لشامبوليون طوال العشر سنوات المتبقية له فى الحياة .

من ذا الذى كان سيختار - إذا طلب منه أن يحدد من بين عظماء رجال عهد البربون الجديد . الشخصية المرموقة وذات الفكر المحرر من الأفكار المسبقة لطبقته لدرجة إنتشال « روبسبيار جرونوبل » من براثن أمثال موتليفو وهوساز ، ويفتح له جميع أبواب البلاط الملكى والمجتمع - كان سيتجرأ ويختار : الدوق دوبلاكاس ؟ إذ لم يكن هناك أكثر تطرفاً فى تفكيره المحافظ من هذا الأثير لدى لويس الثامن عشر ولا أفضل تمثيلا لمن كان جان - فرنسوا يسميهم « طافئى الأنوار » .

هو بييار - لويس - كازيمير دو بلاكاس دولبى ، نبيل من الأرياف سليل أسرة عريقة مشهورة جداً وقليلة الثروة فى آن واحد وقد تعرف وصادق وهو فى المنفى فى فيرونا الكونت دوبرفونس الذى أصبح فيما بعد لويس الثامن عشر . كان قد قضى فترات من عمره فى سان بيترسبورج وهارتوال وحارب فى فاندى وأصبح فى عام ١٨١٤ وزير البلاط الملكى أى أقرب معاونى الملك . وقد منعته الشهرة التى اكتسبها بأنه من أكثر الناس تطرفاً - وذلك بناء على طلب الحلفاء - من أن يتولى رياسة الوزارة . وفيما عدا جيرمان دوستال التى امتدحت عقليته فإن الجميع كانوا يعتبرونه

متعاليا وبدون ثقل ، كما أن شاتوبريان الذى شارك هذا الرأى قد رماه ببعض من سهامه !

« إن سيد دوبلاكاس يتمتع بالشجاعة والشرف [...] إنه من سلالة عريقة . وهو ابن أسرة فقيرة ولكنها عريقة معروفة فى مجالس الشعر والسلاح . التزمت الذى يميز حركاته وثقته الكاملة فى ذاته وتمسكه بدقة الاتيكيت يحفظ لأسياده نبالة عادة ماتتبدد فى الشدائد [...] خبير على دراية فى بعض مجالات الآثار القديمة ومن هواة الفنون ولكن دون خيال وفاسق : [...] هدوء أعصابه هو من سمات رجل الدولة لو لم يكن هذا الهدوء سوى وثوقه فى عبقريته [...] إن المرء يشعر أن النبل العظيم الذى بداخله قد أجهض ... (16) »

الواقع أن الدوق دوبلاكاس كان محباً لدراسة الآثار . وقبل أن تتيح له مكانته كسفير فى نابولى فرصة تجميع آثار يونانية ورومانية وإتروسكية فى مجموعة ممتازة كان يعطى اهتماماً بالغاً للأبحاث الخاصة بالشرق – ولإقامة متحفه الخاص ... لم يتمكن من حضور الجلسة الأكاديمية المنعقدة فى ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ إلا أن صديقه الدوق دودوفيل (شخصية ليبرالية سنلقاها فيما بعد) أعطاه عنها تقريرا حماسياً وهو ما دفع الدوق النبيل إلى العمل على لقاء هذا الجاكوبى الشاب الذى كان مصيره مطبوعا بخاتم العبقرية الذى جعل عوالم بكاملها تفيق من سباتها .. مما يجعلنا نعتقد أن « طافئ الأنوار » هذا احتفظ فى داخله بقبس ...

فى يناير ١٨٢٣ فى اللوفر وبمناسبة عرض الآثار التى أحضرها من مصر القنصل دوفان تعرف كازيمير دو بلاكاس علي كاشف أسرار الهيروغليفية .. لابد وأن هذا الأخير قد بغت عندما إضطر أن يعترف أنه وجد فى هذا الذى يمثل قمة الاستبداد فى التيار المحافظ أحد المعجبين به ثم راعيا له ثم بعد وقت قصير صديقا له . بعد عدة أسابيع من هذا اللقاء سلم بلاكاس لجان – فرانسوا هدية من الملك عبارة عن صندوق من ذهب عليه الحروف الأولى من اسم الملك ونحتت عليه هذه العبارة ! « **من الملك لويس الثامن عشر إلى مسيو شامبوليون الصغير بمناسبة اكتشافه أبجدية الهيروغليفيات** » .

كان الدوق يريد أن يوضح للعالم الشاب باسم الملك أن أعماله أصبحت منذ ذلك الحين موضوعة تحت حماية النظام الملكى « لكى يحميه من أى تشكيك لاحق سيصدر من منافسين تأخروا فى الوصول إلى ما وصل إليه » (17) .

تحول مذهل فى المواقف : أصبح « روبسبير جرونوبل » المعجب « بالأب لافيوليت » (نابوليون) . ضحية مونتليفو ودوناديو ودوساز ، منتقد « الحرب الصليبية الاسبانية » ... أصبح تحت الحماية المباشرة « لصاحب الكرش » وذلك بفضل الرجل الموثوق فيه من حزب « السود » ، من الفاتيكان ! ولكن سنرى أن صديقنا عالم اللغويات القادم من الدوفينيه سيسير مشوارا طويلا فى هذا المجال ...

مقابلة مع الملك ؟ تعهد بلاكاس لجان - فرنسوا - الذى لم يتردد أبداً - فى أن يدبر له ذلك فى أول مناسبة وهو ما وفره نشر **الملخص** فى نهاية شهر مارس ١٨٢٤ . استقبل الملك المريض بالنقرس الكتاب وصاحبه الذى سعد لذلك جدا - استقبالا طيبا . إلا أن الملك لم يشر قط كم كان بلاكاس يتعشم إلى رحلة لإيطاليا على حساب الدولة . وهى الرحلة التى ظل الباحث يحلم بها لفترة طويلة ولكنه سيضطر الانتظار لشهرين اخرين قبل أن يقوم بها .

كان جان - فرنسوا قد بدأ قبل ذلك مشروعاً أكثر جسارة من الرحلة وكان ينتظر أن يعود عليه ولو لمرة واحدة ببعض العوائد المادية . إذ أن على المرء أن يعيش وعلى الرغم من الشهرة التى اكتسبها خلال بضعة أسابيع إلا إنه لم يكن لديه أى دخل ثابت . ولذلك فقد غامر بالدخول فى حقل قد لا تكون له فيه دراية سابقة كعالم لغة وهو مجال « **عالم الالهة المصرى** » Le Panthéon Egyptien

فى خطاب كتبه لحميه « العم » كلود بلان - الذى كانت صحته فى تدهور سريع وهو ماكان ليدفع به إلى الوفاء بدوقه روزين لها ولزوجها التى وعدهما بها فى عام ١٨١٨ - أعطى كاشف لغز الهيروغليفيات فى ٢٤ يوليو ١٨٢٣ الأسباب المالية وراء مشروعه الجديد :

« لابد وأنكم تلقيتم [...] المنشور والإعلان من كتاب جديد سأقوم بنشره من مالى الخاص تحت عنوان **البانتيون المصرى** . وسيكون فى طبعة فاخرة وسيبلغ ثمن المجلد العادى ٣٠٠ فرنكا وأنى أقوم بهذا المشروع دون أن أخشى الخسارة لأن فى الزمن الذى نحن فيه الكتب الغالية الثمن هى وحدها التى تشترى وتباع دون عناء .

ثم أنى لا أعّرض نفسى لأى مجازفة مادام الكتاب سيظهر فى السوق على فترات شهرا بعد شهر وإذا حدث أن عرضت نفسى لأى خسارة فسأكون صاحب قرار إيقاف النشر . [..] لدى بالفعل عدد من المشترين مقدمًا لكى أغطى مصاريف أول نشرة ولعلكم قد علمتم بالفعل من صحيفة لومونيتور أن الملك ذاته قد اشترى مقدمًا ثلاثة نسخ [..] وأنى على يقين من أنى لدى الوصول إلى النشرة الثالثة أو الرابعة سأكون قد حصلت على ربح كبير ...)

وبعد أن « قدم بضاعته » إلى حميه بأسلوب مختلف عن الذى حرر به « **رسالة إلى مسيو داسييه** » واصل جان فرانسوا خطابه بأن أعلن إلى مسيو بلان أن الملك قد أمر كذلك بطبع « كتاب آخر » (هو « الملخص » بالطبع) دون مقابل وأنه « طبع أكثر من نصفه » وأنه سيضمن له « مكاسب كبيرة نوعًا ما » .... ثم يحاول جان فرانسوا تبرير حالته المادية المتردية لوالد زوجته وحالة الشظف التى تعانى منها أسرته « بالحرب المستنزفة للطاقات والمؤسفة من جميع الوجوه سواء بالنسبة للملوك أو بالنسبة للشعوب » والتى بدأتها الحكومة فى أسبانيا بناءًا على توصيات وزير للخارجية اسمه شاتوبريان الذى يريد أن يعجل بإعادة حكم البوربون المستبد فيما وراء جبل البرانس. »

ويخلص هذا التقرير عن الحالة العامة للأسرة بنظرة متفائلة . لقد كان روح البنت العبقرى وهو فى مواجهة « حماه العزيز » مثل زوج الابنة فى مسرحية للمؤلف المسرحى الكوميدى لابيش :

« لقد كدحت ويمكننى أن أفخر بأنى كونت لنفسى شهرة كبيرة بالقدر الذى يجعلنى لا أخشى من الفشل إذا حدث وعرض على مركزًا يعود ببعض النفع على [..] إن المستقبل مفتوح أمامى ولن يمر وقت طويل قبل أن أجنى ثمار أعمالى كلها [..] وعلىّ أن أتسلح بالشجاعة والإعتدال فى كل شئ .. »

يا لهذا الشاب و« اعتداله فى كل شئ » ! ... ولولا فورة الغضب ضد الحرب التى يقوم بها مسيو دوشاتوبريان (وهى عملية لم تكن لتغضب رجلا محافظًا مثل (مسيو بلان ..) فإننا أمام زوج إبنة يستحق التقدير ، ومع شئ من الحظ سيتمكن من أن يدر لنفسه دخلا مناسبًا .

كفانا تهكمًا ! فى يونيو ١٨٢٣ أعلن الناشر تاديرو بالفعل عن نشره على دفعات لكتاب عن « البانتيون المصرى » : مجموعة من الشخصيات الأسطورية فى مصر القديمة . مأخوذة عن الآثار ، النصوص كتبها شامبوليون الصغير والرسومات لـ جـ حـ دوبوا هل كانت هذه عملية ترفيهية تهدف إلى الكسب فى الأساس ؟ إحتوى هذا العرض لعلم اللاهوت المصرى القديم سواء على المستوى الفنى أو العلمى : صعوبات جمة رصدها جان يويوت فى مقال نشر فى نشرة الجمعية الفرنسية للآثار القديمة فى أكتوبر ١٩٨٢:

« من وجهة النظر النقدية كان المطلوب هو تزيين بعض الأشكال غير الملونة « موثوق فيها من الناحية العقائدية » بالرسومات » :

فهل كانت تسمح معارف حّلال الشفرة الهيروغليفية وموهبة صديقه دوبوا * بحل هذه المشكلة ؟ من وجهة النظر العلمية كانت المصادر الموجودة تحت يد شامبوليون نادرة فحاول أن يكملها باستخدام رسومات بصورة طبق الأصل ملونة أحضرها من مصر بلزوتى ولورد بالمور ، وبعض القطع التى استعارها من مجموعات الأب دوتيرسان ، صديقة القديم فى لابّى – أو – بوا – أو من محافظ متحف ليون – ليون أرتو – الذى كان معجبًا به اعجابًا بلا حدود .

تسبب نشر ملازم **البانتيون** من يوليو ١٨٢٣ إلى سبتمبر ١٨٣١ له فى هّم مستمر وضاغط وفى إرهاق دائم وكان مغامرة علمية جعلته يعرض نفسه لإنتقادات حادة من المتخصصين البريطانين الذين وجدوا فى عمله هذا عيبا فى الدرع الذى يمكنهم النيل منه من خلاله وليجعلوه يدفع ثمن إنتصاراته ولكنه كان فى الوقت ذاته مصدرا لاكتشافات رائعة .

وصف جان يويوت شامبوليون « وهو يقوم بوضع صورة معقدة – بطريقة غير دقيقة – أخذها من الأكوام المتراكمة من غير نظام للحوارات الهيرميتكية – والتى تعتبر أن هناك نصف إله غير مخلوق يظهر فى صورة إله يخلق نفسه له وصفات الجنسين » ثم يصل إلى هذه الخلاصة التى قالها أخوه على لسانه أخوه بعد بضعة سنوات من وفاته فى مقال ظهر فى مجموعة الكون L'Univers : (18)

* الذى إلتقينا به من قبل فى ١٨٠٨ وهو يشارك جان فرانسوا فى صب قوالب الرسومات المحفورة – والذى ظل أحد أقرب أصدقاءه .

« ديانة الفراعنة كانت موحدة للاله توحيداً خالصًا ، يعبر عن ذاته خارجيا بواسطة تعددية رمزية ، بمعنى أن الاله واحد صفاته جميعًا وملكاته كان يشخصها ممثلون نشطون أو ألهة مطيعة » (هذه النظرية سيأخذها عنه ويعمقها بشكل خاص أول التلاميذ الفرنسيين لحلال الشفرة وهو إيمانويل دو روچية) .

حتى قبل أن يحظى جان – فرانسوا شامبوليون بلقاء الملك صادف لحظة إنتصار مثل تلك التى يسعد بها أعظم المكتشفين ويروا فيها أنهم وصلوا لقمة المجد أو أنهم بلغوا الهدف أو اختتموا حياة عملية ناجحة :

ففى ٢٦ أبريل ١٨٢٣ عقدت الجمعية الأسيوية أولى اجتماعاتها السنوية برياسة لويس – فليب دوق دورليان . يحيط به نائبا الرئيس الشهيران الكساندر فون هومبولدت وفرانسوا رينية دوشاتوبريان وأعظم مثقفى ذلك العصر : داسييه ، ساسى وريجوزا .

كانت كلمة الرئيس التى ألقاها لتحية صاحب الكشف بمثابة اعلان عن دخوله طبقة النبلاء ... ولما كانت هذه التحية قد أتته من عائلة أورليان الفرع الأصغر للبوربون فإنه ضمن بذلك الحصول على رعاية لن تكون حكرًا على الفرع الحاكم فقط :

« إن الاكتشاف الوضاء للأبجدية الهيروغليفية تشرف ليس العالم الذى توصل إليه فحسب وإنما الأمه بأسرها * ولها أن تفخر لأن أحد الفرنسيين قد تمكن من أختراق هذه الأسرار التى لم يكشف عنها الأقدمون أبدًا سوى لقلة من المريديين المضمونين وكشف شفرة هذه الرموز التى كانت جميع الشعوب الحديثة قد يأست من إكتشاف معناها » (19) .

وجبهتة مزينة بكل هذا الغار ذهب جان – فرانسوا شامبوليون للقاء الجمهور الودود حين ظهر له شخص ضخم الجثة على وجهه إبتسامة الصديق : المارشال سوتية وزير الحربية الذى كلفه نابوليون فى عام ١٨١٥ بحماية جبال الآلب فى مواجهة القوى المسلحة النمساوية الساردينية – والذى ذهب الشاب شامبوليون للقائه بصفته هذه فى شامبيرى لحفذه على الصمود : وهى النصيحة التى لم يتبعها سوشية سوى بتكاسل . قال المارشال لعالم اللغويات « الزمن تغير جداً . إلا أنى أمل أن تكون قد تصالحت مع الأوضاع الجديدة .. »

---

* استخدام كلمة الأمة لررنيين ثورى وهى علامة من علامات أسرة أورليان وستستخدم من جديد بعد ثمانى سنوات .

وإذ إرتبك الشاب بأن يسمع ذلك من إحدى صنائع نابوليون فقد فضل أن يظل صامتًا ، صمت كسر حدته على الفور مسيو دو شاتوبريان - قصير القامة تتدلى على جبهته بعض من خصل شعره وهو لايزال فى حماسه بسبب حرب أسبانيا التى قدمها إلى الملكية لكى تكون على قدم المساواة مع الإمبراطورية والتى إعتبرها شامبوليون على نفس القدر من الجنون عن التى سبقتها :

« إن الذى يرى الشمس طالعة أمامه لا يمكن أن يبكى على الليل الذى يتلاشى » : هذا ماقاله الفيكونت دوشاتوبريان .

- ومع ذلك يا اكسلانس * بصفتى مصرى قديم فإن نصفى يبقى دائما ورائى .

- إنك تتكلم بالهيروغليفية . .

- أود أن أقول أن طالما قلبى ينبض فى صدرى وموجود جانب الشمس التى أحبيها بإمتنان ، فإنى سأظل أتأمل نجوم الليل تتلألأ وهى التى أضائت لى الطريق ، كل منها بنور خاص بها » (20) .

إن رجلنا الريفى لواثق من نفسه فى تحد وهو يواجه العظماء : لقد إنتهى زمان الاتحاد والفيدرالية ولكن لم ينتهى زمن الوفاء - حتى لو أن الوفاء الذى أصبح يربطه بمصر التى كشفت له عن سرها قد ألقى بظله على إرتباطاته القديمة .

فى الأول من مارس ١٨٢٤ أعلنت له روزين من جرونوبل أنه رزق بإبنة . سيطلق عليها أسمًا لا يمكن أن يكون سوى شرقيا : زواربيد ** . إلا أنه لن يتعجل كثيراً الذهاب لتقبيل الأم والتعرف على الطفلة . وسينتظر فرصة السفر إلى إيطاليا فى نهاية شهر أبريل ليدبر الوقت اللازم ويتوقف فى جرونوبل لهذا الفاصل العائلى وهو فى طريق السفر .

كان استقبال المدينة التى خرج منها هاربا عام ١٨٢١ هو استقبال الفاتحين ... « الزيارات كانت « تقتله » من الصباح حتى المساء » . إبنته ؟

* كان شاتوبريان قد ترك لتوه مركزه كسفير فى لندن ...

** تحريف اسم « زهراء » (المترجم) .

« صاحبتنا » الصغيرة بدينة وكلها دهون وهى تؤدى دورها على أكمل وجه تأكل وتصرخ وتأكل . وتنام وتصرخ من جديد وبنفس المقدار . يّدعون أنها تشبهنى . لقد تعرفت فيها بالفعل على لون بشرتى وأهدابى أما بالنسبة للباقى فلتكن مشيئة الله ».

خمسة أسابيع قضاها فى إحتفالات عائلية كانت كافية لاسعاده . فى ٤ يونيو غادر إلى إيطاليا وهو مقتنع أن « الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو » .

لقد أعد أسلحته إعدادا جيدًا . الجوهر هو الكشف ، أما إنارة مصر فلا زالت تحت الإعداد . الجانب اللغوى داخل جان فرانسوا شامبوليون لم يقم بالفتح سوى لخدمة الفنان والمؤرخ .

١٢ - القضية

أصدقاء وأعداء - التحالفات الأربعة - جومار وكاترومار - المسكين دكتور يانج .... دفاع سيرييتر - عناد سير الفريد - تحكيم Whos'who ضراوة الترتار - حكمة جان كايار - المتعنتون

لا يمكن أن تكتشف أمريكا دون سابق إنذار ولا أن يوجد جاليليو دون قضاة ولا أن توقظ خمسة عشر قرنا من سباتها دون أت تجعل النائميين يتأوهون . أن الضربات الإفتتاحية الثلاثة المتمثلة فى الرسالة إلى مسيو داسييه و « البانتيون » و « الملخص » مع الإضطرابات التى أثارتها داخل عالم العلماء ورجال الدين أيضا وكذلك الإحباطات التى تسببت فيها عند الرواد والمنافسيين وزملاء المكتشف كان لابد أن يتسبب كل ذلك فى ضجة كبرى .

أى مكتشف لابد وأن يسير فترة على دربه دون حماية إذ يكفى أن تحرز تقدمًا خارقًا لكى تصبح هدفًا للجميع . وما بالك إذا كان هذا المكتشف ذا شخصية حادة الطباع وعنيفة فى الإنتقاد وعمره الصغير يزيد من غضب الشيوخ الذين فشلوا فيما نجح هو فيه .

وهكذا فإن فارسنا الجاسكونى صنع لنفسه خلال ثمانية عشر شهراً - من سبتمبر ١٨٢٢ حتى مارس ١٨٢٤ - من الأعداء أكثر مما تمكن دارتانيان من دحرهم وظهره إلى الحائط والسيف فى يده مشهراً .

نعم كان عدد المناصرين له ولقضيته يتضاعف حول المجموعة الأساسية المكونة من جاك - جوزيف وداسييه والدوق دو بلاكاس وفيروساك مدير صحيفة النشرة العالمية Le Bulletin Universel والتى التف حولها أيضا فورييه وأراجو وكوفييه وبيو ولابلاس ثم ولاسباب أخرى شاتوبريان علاوة على انضمامات أخرى لها أهميتها ولكنها لم تتم كما سنرى دون تردد وبعض التحفظات بل وبعض الندم وهى الثلاث شخصيات التى لايجادلها أحد فى مرجعيتها فى مجال اللغات وهم سيلفاستر دو ساسى وجان ليترون وڤيلها لم فون هامبولدت . ويجب أن نضيف أن « روبسپيير جرونوبل » كان يدعمه عدد من كبار النبلاء بخلاف الدوق دو بلاكاس مثل الدوق دودوڤيل .

أما المتشككون ومهاجمو « الدجال » فلم يكونوا أقل نشاطًا وذلك إنطلاقًا من قطبين : باريس ولندن إذ يجب أن ننوه بعدم صحة ما يدعيه العديد من المؤرخين أن نضال « المصرى » من أجل تقنين إكتشافه إتخذ طابعًا وطنيا . إذ أن أعداءه كانوا على نفس درجة النشاط سواء فى فرنسا أو انجلترا وجرى التشكيك فيه بنفس المقدار (أو أكثر) سواء فى باريس أو لندن أو تورينو أو برلين .

إن الجدال حول الإكتشاف لم يكن فى جوهره حول علم بلد بذاته صحيح أن « حزبًا انجليزيًا » أخذ يتحرك وكان توماس يانج هو محركه وشهيده . إلا ان العديد من علماء الآثار البريطانين ومنهم وليام جال وهنرى سولت ثم جون ويلكنسون انفصلوا عنه لينضموا إلى حزب « المصرى » . صحيح أيضا أن العديد من اللغويين الألمان مثل كلابروث وهاز كانوا من أنشط المناهضين لجان - فرانسوا . غير أن الكسندر وڤيلها لم هامبولدت سرعان ما ترأسا جوقة المدافعين عنه إلى جوار أخرين من الباحثين الإيطاليين والنمساويين والهولنديين .

فى باريس استمرت الإنقسامات لفترة طويلة بين مختلف المدارس وإذا حاولنا أن نرتب دعاة الحرب المقدسة ضد صاحب « **الملخص** » بناءًا على درجة ضراوتهم فى مهاجمته فبإمكاننا أن نذكر جومار وكلابروث وكاترومار وبانكس أو بانكس وسان - مارثان أو جوليانون وراؤول - روشات أو سان كوينتينو ولانسى : ومن باب تبسيط الأمور نقول أن خلال اللغز كان يحارب أربع تحالفات : الحزب « الانجليزى » و« حزب القساوسة » ثم المجموعتين التى أطلق على الأولى « التلاميذ القدماء » والأخرى « قدماء المحاربين » .

فلنبدأ من جديد سرد الوقائع بهذه المجموعة الأخيرة التى كان يرأسها أدم جومار .

بالنسبة للمسئول الأول عن كتاب « **وصف مصر** » - الذى لا يمكن أن ننكر المشاركة الهائلة التى قدمها فى مجال التعريف بوادى النيل - فإن أى فرد يدعى أنه يعرف عن مصر أكثر من الذين وطأوا أرضها بأقدامهم فيما بين ١٧٩٨ ، ١٨٠٢ فهو بالنسبة له ملعون على الرغم من أن كثيرا من زملائه الذين من حقهم أن يدعوا مرجعيتهم بالنسبة « للمشاهدة العينية » مثل ڤيڤان دونان * وفورييه . سامحوا « المصرى » لجسارته بل وشجعوه فى أبحاثه . أما جومار فلم يغفر . فمنذ اللحظة

---

* توفى عام ١٨٢٥

التى أدرك فيها أن الشاب القادم من جرونوبل عقد العزم على المضى قدمًا فى أبحاثه ليتخطى المخزون (الهائل) من المعلومات التى وفرها « وصف مصر » قرر أن يهدم سمعة هذا السفيق .

هذا التمسك المرير بذكرى الماضى الذى طغى على بعض « قدماء مصر » حمل لواءه ودعمه أيضا العديد من العلماء ، سنجمعهم تحت تسمية « قدماء الكولاج دو فرانس » ريموزا سان مارتان ، ليترون ، شيزى وكاترمار الذين زاملوا جان - فرانسوا عامى ١٨٠٨ ، ١٨٠٩ وكانت أعمالهم تثير الأعجاب بالفعل ، غير أن أمجاد « المصرى » وضجيجها تسبب فى خسوفها . لماذا هو ؟ لماذا تركزت الشهرة حول أعماله هو ؟ ومن وجهة نظر دارسى الحضارة اليونانية لماذا يغطى إحقاق حقوق مصر فى عظمة حضارتها على تفوق الحضارة اليونانية المعترف به حتى الآن ؟

تمكن عالم فى حجم ليترون فى نهاية الأمر - بعد تردد ومناورات (أثرت جداً على نفسية جان - فرانسوا الذى أطلق عليه غاضباً كنية « ذو الشعر الاصفر ») - أن يتحكم فى هذا الحقد المزدوج . ولكن يبقى البعض الآخر - الأقل منه أهمية - على غيه على وجه الخصوص جان سان - مارتان ، « الأرمنى » والذى كان من أقرب أصدقاء « المصرى » فى باريس .. بعد أن حاول أن يجعل ساسى وفورين يناهضان شامبوليون ، خصص « الأرمنى » آخر سنى حياته لازعاج جان فرانسوا لدرجة أنه شرع فى تأليف كتاب عن تاريخ مصر وهو ما لا يدخل فى مجال تخصصه وذلك فقط لكى يضايقه . أما إتيان كاترومار فنحن نعرف أنه لم ينته أبداً من تصفية حساباته مع شامبوليون منذ ظهور أعمالهما فى نفس الوقت عام ١٨١٤ * ولم يذهب أحد قط أبعد من « بوليكارب » فى نفى اكتشاف ١٨٢٢ نفياً قاطعاً .

أما الفريق الثالث من المهاجمين فهم - مثلما هو الحال دائما كلما كان الأمر متعلقا بشامپلوليون - « طافئو الأنوار » . يقف فى الخطوط الأمامية لهذا الجيش الصليبى شخصيتان : مونسينيور دو فريسينوس ورائول - روشات . وكانت هذه الشخصية الدينية المرموقة - إذ كان وزيرا للأديان - تخشى بصورة مرضية ملحة عليها أن تمس آخر التطورات التى طرأت على علم المصريات من قريب أو بعيد « التواريخ » الواردة فى التوراة لدرجة أنه لم يأخذ فى إعتباره المواقف المؤيدة لنظريات الكنيسة التى إتخذها صاحب رسالة إلى « مسيو داسييه » وعلى وجه الخصوص عام ١٨٢١ . الواقع هو أن فريسينوس كان « متطرفاً » أكثر من كونه « صاحب رداء اسود » وكان الذى يرعبه هو « روبسبير جرونوبل » وناشر «التعليم التعاونى» الذى أضر

---

* راجع فصل ٥

باحتكار « التعليم الدينى » أكثر من خوفه من الباحث ذاته كباحث وهو لم يتوقف عن النظر إلى « الدوفينى الشيطانى » نظرة شك تتفق ونظرة وزير الداخلية - كوربيار - له .

محرك هذه المجموعة هو رجل التجمع الدينى فى الوسط العلمى : راءول روشات دارس الحضارة اليونانية المنتخب فى الأكاديمية والذى هزأ به بول لوى كوربية كما سبق أن أشرنا * وكان جان فرانسوا لا يكل من السخرية منه وكان يصفه بأنه « سلطان البوسفور » . وإذا كان تمكنه من مادة المصريات أقل بكثير من سيطرته على مادته هو - حيث كانت عظمة ليترون تمحوه تماما - فإن ذلك لم ينتج عنه سوى مضاعفة كراهية راؤول - روشات تجاه شامبوليون (وإن كان قد تمكن من السيطرة عليها قبل عام من وفاة هذا الأخير) .

هل ينسب إلى هذا الحزب كتيب ظهر دون توقيع فى باريس عام ١٨٢٤ غداة ظهور « **الملخص** » ينفى أى قيمة علمية لأعمال شامبوليون الصغير ؟ الرجوع إلى بعض الطموحات الأكاديمية قد توجه البحث ولكنها لا تكفى لتحديد المسئوليات . إن النص يعبر عن نفسه :

« يوجد حلال للشفرات يعمل فى وزارة العلاقات الخارجية كان على علم بالحروف التى حددها يانج ويعرف أيضا أن أسماء الملوك التى ذكرها المؤلفون الكلاسيكيون توجد داخل « الخراطيش » وهو بذلك يكون قد توصل إلى نفس النتيجة دون أن يصرخ بكل قواه ليطالب بمكان فى أكاديمية المخطوطات [1] »

غير أن طلقات المدافع الرشاشة الأكثر كثافة والأكثر دقة هى التى أطلقت من عام ١٨٢٢ حتى ١٨٣٢ من لندن وعلى وجه الدقة من الشلة المحيطة بتوماس باينج .

ما كان يحرك هؤلاء المناضلين من كتاب المنشورات بالتأكيد هو التمرد ضد الظلم والإحباط اللذين منى بهما الرائد اللامع (يانج) إلى أن أصبحوا من المشهرين على يد جون ليتسن . إلا أننا سنلاحظ أن الجدل بين مؤيدى وأعداء شامبوليون استمر مفتوحا فيما وراء المانش وبين البريطانيين المقيمين على ضفاف نهر النيل .

تركنا يانج وهو فى حالة من عدم التوازن بسبب ما سمعه لدى قراءة « **رسالة إلى مسيوداسييه** » . وكان مجاملا لشامبوليون بعد أن تأثر بالحفاوة الحارة التى قابلته بها الإنتيلجينسيا الباريسية . غير أن رد فعله الدقيق كشف عنه مقال غير موقع

---

* راجع فصل ٧.

صدرفى لندن عام ١٨٢٣ فى المجلة الفصلية Quarterly Review ثم أعيد نشرة بتوقيعه هذه المرة فى نفس العام فى كتاب عنوانه :

« دراسة حول بعض الإكتشافات الخاصة بالأداب الهيروغليفية والأثار المصرية ومعها الأبجدية الأصلية من وضع المؤلف والتى طورها مسيو شامبوليون* »

يوضح توماس يانج أنه لم يذهب إلى باريس لحضور الجلسة الشهيرة لأكاديمية المخطوطات وأنما كضيف على بعض الأصدقاء فى رحلة سياحية وأنه استغل ذلك ليشرف بوجوده تظاهرتين علميتين تقعان فى دائرة تخصصاته : إحداهما فى أكاديمية العلوم التى دعيت للإجتماع للإستماع إلى محاضرة يلقيها أحد أشهر أعضائها فى مادة طبيعة الضوء وهو العالم فرينال والأخرى فى أكاديمية المخطوطات لحضور جلسة تقرأ فيها رسالة إلى مسيو داسييه .

من هذه التجربة المزدوجة يخرج بملحوظة لاذعه فى حق جان - فرانسوا شامبوليون : فبينما يعترف عالم الطبيعة الفرنسى « فرينال » بأسبقية الأبحاث التى قام بها العالم البريطانى فإن عالم لغويات جرونوبل أمتنع (عن الاعتراف بأسبقية يانج فى اكتشافاته الهيروفليفية) - حسبما يقول يانج ** . وهو لم يشر هنا إلى حقيقة واضحة وهى أن تفوقه فى مجال التداخلات الضوئية كان أكبر بمراحل عن ذلك الذى يمكن أن يدعيه فى المجال اللغوى . ثم يضيف الدكتور يانج :

« .. لا يمكن أن أتهم مسيو شامبوليون بأى نية مخلة بالشرف ولا أريد أن أتنازل عن صداقته .. » ثم يشير إلى تبادل الرسائل بينهما عام ١٨١٤ ثم يضيف « .. هل قام باكتشافاته قبل أن يقرأ أعمالى ؟ لست فى وضع يسمح لى بأن أؤكد ذلك [..] إلا أننى لا أقبل إدعاء مسيو شامبوليون أن منظومته يمكن تطبيقها على العصور القديمة جدا .. »

« لم نتحرك من مكاننا بقدر أنملة نحو معرفة حرف واحد من هذه الحروف المقدسة [..] لأن كتابة الأسماء الأجنبية بالهيروغليفية هى من تأليف اليونانيين » .

وبعد أن أعتقد أنه بذلك قد ألغى تماماً أى أهمية لإكتشاف غريمه الذى يسمح بفهم النصوص المصرية مهما كانت الفترة الزمنية التى ترجع لها ، عاد الدكتور

---

* An account of some recent discoveries in hieroglyphical literature and Egypt antiquities including the author's original alphabet as extended by Mr. Champollion .

** فى الصفحة الثانية من الرسالة توجد تحية إلى ت يانج وربما لم يقرأ شامبوليون هذا الجزء فى الجلسة .

يانج ليدعى أسبقية اكتشافه للأبجدية الهيروغليفية : ألم يتمكن بالفعل من أن يكون أول الذين تعرضوا على « تسعة حروف مصرية » على حين لم يضف الفرنسى سوى « ثلاثة أو أربعة حروف أخرى » ؟

وهنا تصدر الخلاصة : « إنى أؤكد أولويتى فى كل هذه الأبحاث . ولايمكن أن أمنع نفسى من الإعتقاد بأن (مسيو شامبوليون) سيصل فى النهاية إلى أن يقر بأن الأفضل لشرفه وسمعته أن يعترف بمطالب الأخرين العادلة .. » (2) .

رد فعل جان – فرانسوا على المقال غير الموقع فى المجلة الفصلية Quarterly Review كان حادا . تجاهل أن المقال لا يمكن أن يكون سوى بقلم يانج وطالب بأن توضع الأمور فى نصابها . الرد الأول الذى جاءه من يانج تفادى الجدل :

« إن كاتب المقال عن كتابكم قد أساء تحليل ما إنتقده كما فعل بالنسبة لما قمت بدراسته قبل بضعة سنوات . وعلى العموم فإنى أرجع إلى كتابى فيما يتعلق بأبجديتى أما فيما يختص بكتابكم فلا شأن لى به . وقد أعتنيت بأن أميز بين ما يخصنى وذلك بأن ذكرت الأماكن التى نشرت فيها . وإنى لا انكر أنكم ربما توصلتم إلى نفس النتائج دون أن تكونوا على علم بنتائجى ، غير أن نشر الكتاب بعد بضعة شهور كشف كل شئ . »

إن الهجوم يأتى من العالم البريطانى من لندن . إذ أن المقال الذى نشرته الكوارترلى رفيو والذى تحدث عنه مع جان – فرانسوا كما لو كان بقلم طرف ثالث ظهر فى الكتاب بتوقيعه مع بعض التعديلات الطفيفة فى التفاصيل ! وكان لهذا الاعتراف ما يثير الدهشة إذ كان توماس يانج قد أعلن لتوه تخليه عن الاستمرار فى المشروع : إذ أعلن فى خطاب له مؤرخ فى ١٣ سبتمبر ١٨٢٣ عن قراره عدم اكتشاف حلول للهيروغليفية بعد الآن « إن شامبوليون يقوم بجهد يكفى لكى لا يفوته شئ هام بعد الأن ولذلك فأنى اعتبر دراساتى المصرية منتهية » (3) .

لابد وأن نشر كتاب شامبوليون « الملخص » بعد ذلك ستة شهور قد دفعه إلى التمسك بقرار الانسحاب من إكتشافات يوضح شامبوليون فى كتابه بدقة متناهية ما جاء به كل منهما بما لايدع أى مجال لمطالبة علنية أيا كانت بعد ذلك . وعلى الرغم من ذلك ظل توماس يانج على اعتقاده بأنه ضحية ظلم بين ورهيب . واستمر يدفع أو يغذى انتقاداته بواسطة حملة رسائل مستخدمًا تعليلا غريبًا للوصول إلى هدفه . فكتب على سبيل المثال إلى سان كوينشيز محافظ متحف تورينو يقول له :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« بامكان مسيو شامبوليون أن يؤرخ لمنظومته بحصوله على اسم كليوباترا * وذلك من مسيو بانكس إلا أن هذا الرحاله العظيم قد حصل على المعلومات التى أوصلته إلى التعرف على هذا الاسم وبناءا على اعترافه هو شخصياً من خطاب أرسلته للسيد / بانكس فى مصر » .

وأخيراً فى خطاب إلى الكونت بوللون مؤرخ فى ٢٠ ديسمبر ١٨٢٦ ينفث الرائد الانجليزى كل مرارته قائلا :

"Champollion received the name of Cleopatra as ascertained in Egypt by Mr. Banks from my letters, it is hence that himsell dates the origin of his System : Ergo OPERA illius mea sunt . And I willingly add, of this new Achilles

FORTEMQUE IN FORTIA MISI ! "** :

إذا كان الباحث الرائد قد عدل عن الاستمرار فى أبحاثه الشخصية فإن « حزبه » لم يتنازل عن الاستمرار فى نضالة ضد شامبوليون طوال القرن كله بل وبعد ذلك أيضاً . سير وليام بانكس فى مصر وانطونى نيبى وروبرت بورتون فى لندن كانا على رأس مناصرى عالم الطبيعة الانجليزى ضد عالم اللغات الفرنسى ومع ذلك فقد ارتفع صوت إنجليزى قادم من مصر ليؤكد صحة إكتشاف صاحب « **رسالة إلى مسيو داسييه** » :

هنرى سولت كان فى الأصل رساماً مغرماً بالشرق والإستشراق ويتمتع بموهبة حقيقية . سافر إلى إفريقيا عام ١٨٠٢ وبعد أن أقام لفترة طويلة فى الحبشة عين قنصلا لانجلترا فى مصر عام ١٨١٦ بعد أن تعرف على بلزونى الشهير المسمى « بالمارد » محرك المعابد . جمع مجموعة آثار هائلة الحجم ، تنافس مجموعة دروڤيتى الذى سنلقاه فيما بعد .

إلا أن هذا الفنان الرسام – الدبلوماسى – جامع التحف كان قد حاول هو الآخر حل شفرة الهيروغليفيات . وبينما كان يعتقد أنه قد اقترب من هدفه جرى نشر إكتشافات يانج وبانكس وشامبوليون . بعد ذلك بعامين ظهر له فى لندن « **بحث حول دكتور يانج ومنظومة مسيو شامبوليون فى الهيروغليفيات** [4] » وعلى الرغم من

* سبق أن رأينا أن ذلك غير صحيح .

** « شامبوليون حصل على اسم كليوباترا كما تأكد مستر بانكس فى مصر من رسائلى له . وهو يؤرخ لمنظومته اعتبارا من هذا التاريخ وبذلك يكون عمله هو عملى أنا وانى أضيف فيما يتعلق بهذا الأشيل (أكيليوس) الجديد : وقد بعثت الجسور إلى الجسارة » (من ليجيبة حول حجر رشيد . ص ١٠٢)

العنوان والتذكير بكل احترام بالدور الريادى الذى أداه مواطنه الأشهر هو تحية مدوية لحلاّل الشفرة الجرونوبلوازى .

« فى البداية كنت متحيزاً ضد المنظومة الصوتية التى بدت لى مبهمة مبنية على افتراضات (ص ٣) بعد أن قمت بدراسة جادة توصلت إلى تقييم أدق لقيمتها . إذ تمكنت من إثبات جميع النقاط التى تقدم بها مسيو شامبوليون بناءًا على رسوماتى الشخصية [..] وفى إمكانى أن أضيف بريقًا لهذا الاكتشاف [..] كلما إجتهدت فى العمل كلما لاحظت صلابة هذه الأبجدية الصوتية وصحة الاستنتاجات التى توصل إليها مسيو شامبوليون ص (١٧) [..] من المؤكد إذن أن الهيروغليفيات الصوتية كانت مستخدمة منذ المراحل الأولى للملكية المصرية [..] ولا أتردد فى أن أقول بأن أى فرد مزود بمعرفة متعمقة للغة القبطية يمكنه قبل فترة لا تطول من قراءة كل هذه المخطوطات » . (ص ٧٥) .

ينتهى كتاب هنرى سولت بملحوظة كتبها فى اسكندرية فى ٧ أغسطس ١٨٢٤.

« كدت أعدل عن نشر هذا الكتيب بعد أن اطلعت على آخر كتب شامبوليون الإبن (كذا) .. وصلتنى فى الثالث من أغسطس نسخ من « **ملخص** » مسيو شامبوليون عن طريق مسيو أناستازى ، وعلى الرغم من أن الكتاب نشر فى عام ١٨٢٤ فربما يكون قد وضع قائمة الأسماء قبل ذلك . وبذلك فإن مما يثلج صدره مثل صدرى أن أفكاره قد أكدتها مصادفة غريبة ، إذ يلتقى شخصان تفصل بينهما مسافة شديدة البعد على الكرة الأرضية وبدون أى إتصال بينهما فى التوصل عن طريق الاستنتاجات ذاتها إلى ذات الخلاصات حول موضوع على هذه الدرجة من التعقيد [...] وهو على ما يبدو يؤكد صلابة الأسس التى أقمنا عليها عملنا . إن أبجدية الصوتية تأكدت الآن بصورة قاطعة ، وهو ما طمأننى على سلامة التفكير فى المضى قدما فى نشر هذا البحث » .

لم يكن هنرى سولت الانجليزى الوحيد الذى تمكن من التعرف منذ البداية على الأهمية العظيمة لما أتى به شامبوليون . فى نابولى حيث كان يعيش معظم الوقت التقى به سير وليام جال المتخصص فى الحضارة الرومانية وخاصة حضارة پومپى عام ١٨٢٥ . وإذا كان هذا العالم الانجليزى من أصدقاء توماس يانج فقد كان متحفظا بعض الشئ تجاهه . ولكن سرعان ما راجع نفسه وإرتبط بعلاقات صداقة مع جان فرانسوا ولم يتوقف عن التدخل لصالحه لدى مواطنيه .

خطاباته ليانج تتحدث عن نفسها ففى أحدها كتب يقول له أنه يحاول إقناع « هذا

الشاب الممتاز » (Fine child) الذى هو جان - فرانسوا أن يعترف بسلفة « كحماه » (Father - in - Law) وفى خطاب أخر يدافع عن مؤلف « **الملخص** » قائلا :

« أود أن يعرف الجميع أن شامبوليون لم يخف أبدًا إكتشافاته الجديدة بل إنه أطلعنى شخصيا على كميات هائلة من أشياء لم تنشر قط لدرجة إنى لو أردت لكان فى إمكانى أن أدعى أنى تفوقت على المخترع ، فى حوزتى حجر رشيد كله إبتداءً من السطر الخامس . قسمها هو كلمة كلمة ومن تحتها مقابلا بالقبطية . ولقد نصحته بما يكفى لدرجة أنى أمل أنه سينشر ما يعرفه الآن وهو لايقارن فى شئ بما سبق له نشره » (5) .

لم تنجح وساطة سير وليام فى شئ ولكنه لا يمكننا أن نعزو ذلك إلى جان - فرانسوا الذى كتب فى ١٢ سبتمبر ١٨٢٧ إلى عالم الآثار سليم النية فى نابولى :

« تعلمون أنى على أتم أستعداد لكى أعطى يانج كامل حقه بالعدل ولست أنا الذى يحرك قط مثل هذه المواضيع القديمة [..] إنى لا أفكر فيها أبدًا وإنى على استعداد إلى عودة مراسلة مسيو يانج الذى بادر بايقاف علاقات المراسلة معى كما إنى على استعداد لإعادة علاقات الصداقة القديمة التى تربطنا . ولقد خطوت الخطوة الأولى بأن كتبت له بالامس لأعرض عليه خدماتى فى باريس وإمداده بنسخ كلكية مرسومة للآثار التى قد تهمه . وبالتالى فهو الوحيد الآن الذى يمكنه أن يجعلنا نلتقى من جديد كما كنا فى السابق وإنكم ستشهدون لصالحى لو أن الأمور لم تسر على النهج الذى أمله بكل صدق ومن كل قلبى » .

الخطاب للدكتور / يانج الذى يشير إليه جان فرانسوا مؤرخ فى ١١ سبتمبر وقد ضم إلى « **أعمال** » يانج ولكن البحث فيها عن رد للدكتور يانج لا يجدى ...

سيقول البعض أن سعة الصدر من شيم المنتصر وليس المهزوم وأن عالم الطبيعة اللندنى كان يشعر حين ذاك بأن حقه مهضوم أو أنه أهين أو أنه وقع فى طى النسيان . قبل ستة أشهر من رحلته إلى مصر رأى المكتشف الفرنسى معظم المثقفين الأوربيين يحيون تفوق أعماله . فبعد ساسى وليترون الذين وصفاه بالمشعوذ فى مرحلة سابقة و حتى عام ١٨٢٢ ثم استسلما وانضويا تحت لواءه ، إنضم اليه أيضا كل من الكسندر وڤليهالم فون هامبولدت اللذين ظلا لفترة طويلة أوفياء ليانج . وتشهد على ذلك هذه الرسالة التى كتبها الثانى - وهو عالم اللغويات وكان فى قمة مجده ، تنقلها عن مادام هارتلوبان :

« توصلت بعد دراسة مطولة لأعمال شامبوليون إلى إقتناع كامل أن هذا الإكتشاف الممتاز يرجع له هو وحده . لا أحد يمكنه أن ينازعه حق الريادة فى أنه أكد وأثبت أن الجزء الأكبر من الكتابة الهيروغليفية أبجدي . وإذا كان بعضهم قد توصل إلى كشف بعض الرموز الصوتية فإن من الواضح جداً أنهم لم يكونوا ليتوصلوا إلى حل شفرة عدد هام من أسماء العلم . فقد نهجوا فى الأصل طرقاً غير سليمة بل أنهم فيما يبدو أهملوا دراسة الهيروغليفيات بالتأنى المطلوب مكتفين أكثر مما ينبغى بدراسة مخطوطات حجر رشيد » (6) .

رد فعل الدكتور يانج وكذلك جومار كان سلبيًا ولكن مفهومًا . إلا أن المرء لا يسعه سوى أن يأسف لأن الإثنين قد عبرا عن ذلك بدون أى تحفظ وبدون رجعة .

لم يكفى تدخل هنرى سولت قنصل صاحب الجلالة ولاصداقة وليام جال للباحث الفرنسى فى تأكيد موقف « شامبليون الابن » الايجابى ولا فى التوصل إلى توزيع عادل لما يستحقه كل من الغريمين من إشادة . أخذ الجدل يتفاقم ويزداد حدة دون أى اعتبار لوفاة كلا الطرفين فى وقت يكاد يتزامن لدرجة أن وصل الحال حتى بعد عشرين عامًا إلى مايشبه محاكمة أحد السحرة فى القرون الوسطى .

ليس من العدل أن نتهم عالم الضوء بأنه المسئول عن الاتهامات التى وجهها إلى جان - فرانسوا شامبوليون بالقرصنة والسرقة جون لايتسن عندما نشر وقدم عام ١٨٥٢ الجزء الثالث من مقتطفات من أعمال توماس يانج Miscellaneus Works of Thomas Young أنه شئ عادى أن يدفع الرجال العظام ثمن تطرف مؤيديهم ومريديهم ثم أن لم يكن شامبوليون أيضا فى منأى من حجر الدب .

ولكن بعد أن أسرف بانكس وبورتون ويانج أيضا وجون لاتسن وأخرين فى تماديهم أضطر أستاذ مدرسة المصريات الانجليزى ذاته إلى الوقوف فى نهاية القرن لكى يدافع عن صاحب الاكتشاف ضد الحملة التى شنت ضده فى بريطانيا العظمى . سيريتر لوباج - رونوف ولد فى جزيرة جارنوزى ولا يمكنه أن ينفى عن نفسه بعض من الجذور الفرنسية والتى يعكسها اسم أسرته . غير أنه ليس من العدل أن نرجع دفاعه إلى أى رد فعل لديه من هذا النوع .

فى الثانى من يونيو ١٨٩٦ قام رئيس الجمعية التوراتية لعلوم الآثار فى لندن Biblical Society for Archaeology of London (7) سير بيتر بوضع حد للحملات المتكررة التى يثيرها إعتراف المجتمع العلمى الدولى بشامبوليون مؤسسا لعلم المصريات .. بعد أن عبر عن دهشته لأن عدداً من مواطنيه

مازال يصر على عدائه للعالم الفرنسى « مثلما يفعل الرقيب بوزفوز الذى تلح عليه فكرة فساد مستر بيكويك » . يعبر لوباج – رونوف عن أسفه لأن لايتش وأمثاله وصل بهم الحال إلى معاملة شامبوليون على أنه سارق يستحق الرثاء » وإلى التأكيد أن أعماله ليست سوى نهبًا لأعمال يانج . وذلك كنتيجة « للدجل السفيق الذى ندد به كل من ساسى وليترون » ثم يضيف :

« صلة منهج شامبوليون بابحاث دكتور يانج واهية لدرجة أن حتى كلمة استعارة لا معنى لها هنا . أن مؤلفاته أخذت شكل الإثبات بالرياضيات [..] أما عمل الدكتور توماس يانج فتعريفه ليس بحل شفرة وإنما على أنه سلسلة من الاستكشافات الحدسية إن أسباب نجاحه أو فشله واضحة للغاية فقد كان يعمل بطريقة ميكانيكية مثل التلميذ الذى يترجم من اللاتينية : Arma virumque بـ الأسلحة والإنسان إذ يقرأ Arma : الأسلحة وكلمة Virum رجل وحرف que يقرأه حرف واو « بسبب غياب المنهج وليس ليانج أية فكرة عـن المنظومة الصوتية (فونيتكية) وهو على العموم لم يدعى ذلك [..] فيما يتعلق بالهيروغليفيات على الأقل [..] وبما أن بطليموس كان إسم الملك الوحيد المذكور علي حجر رشيد فلم تكن هناك أى صعوبة فى التعرف عليه كما ذكر ذلك شامبوليون [..] كل شىء (عند يانج) كان إفتراضًا وحدسًا وحذرًا فيما يختص بالكتابة الهيروغليفية . لقد تعود الحديث عن اكتشافات شامبوليون على أنها إمتداد لإكتشافاتة هو [..] إن هذا إتهام مشين .

« إن اكتشافات عام ١٨٢٢ تلتها اكتشافات أعظم . الأبجدية الصوتية كانت مفتاح (حل الشفرة) ليس فقط بالنسبة للأسماء اليونانية والرومانية وإنما لأسماء كل العصور [..] لم يكن فى إمكان شامبوليون أن يتعلم شيئا من يانج أو من أى فرد أخر . من خلاله هو وحده ومن خلال منهجه تمكن عالم المصريات أن ينطلق ليحتل المكانة التى يحتلها الآن » .

رأينا كيف أن هنرى سوتاس كتب فى مقدمه لطبعة الاحتفال السنوى « **لرسالة إلى مسيوداسييه** » أن سير بيتر لوباج – رونوف تطرف فى التعبير عن استيائه فكان قاسيًا أكثر مما ينبغى على يانج لدرجة أنه نفى أن يكون له أي فضل فى الاكتشافات التى وصفها شامبوليون نفسه أنها « هامة » وذلك فى « ملخصه » الصادر عام ١٨٢٤ وفى محاضرته الافتتاحية فى الكولاج دو فرانس عام ١٨٣١ ... صحيح أن يانج لم يتوقف فقط عند التعرف على اسمى بطليموس وبيرنيس وأن المجموعات التى أمكن التعرف عليها كانت عديدة وتعد بالعشرات ولكن النقطة الحاسمة فيما قاله لوباج – رونوف هى التى تتعلق بالجانب « الحدسى » و « الفرضى » والميكانيكى لجميع خطوات مواطنه .

أن التوضيح الذى جاء على لسان سير بيتر لوباج - رونوف أمام جمعية علم الآثار فى بلمزبورى ومهما بلغ من علنية ومهما بلغ صاحبه من أهمية وشهرة فهو لم يكن كافيا لوضع حد للجدل الدائر . إذا بعد سبعة عشر عاما حرر أحد نظرائه كتيباً بعنوان « **حجر رشيد** » * The Rashead Stone (1913) عادت فيه العلاقة بين شامبوليون ويانج إلى الإطار الذى وضعها فيه يانج لنمر كالكرام على الأخطاء أو التقريبيات التى تمتلئ بها القصة التى يسردها العالم مستر بادج عن اكتشاف حجر رشيد ونقله إلى لندن - فهو يتكلم على صفحات بأكملها عن « نابوليون » وذلك قبل عدة سنوات من تتويج بونابارت ويؤكد أن نسخا من النصوص المنقوشة على الحجر وزعت على « جميع جامعات أوربا » - وسبق أن رأينا أن شامبوليون كان يشتكى من عدم حصوله على نسخه واحدة منها - ثم أن يقلب الرموز الموجودة داخل خرطوش بطليموس كما هو محفور فى حجر رشيد بدلا من الذى يزين مسلة كليوباترا التى اكتشفها بانكس فى فيله (لأن ذلك يخدم براهينه لأن يانج إرتكب أهم أخطائة لدى ترجمته العديد من رموز خرطوش رشيد) .

ولكن فلنترك المكان لسير الفرد واليس بادج نفسه :

« .. فى عام ١٨٢٢ قائمة الحروف الأبجدية المصرية التى وضعها يانج صححها وأكملها ** حـ . ف - شامبوليون الذى تمكن فيما بين هذا التاريخ وسنة وفاته من حل شفرة أشكال هيروغليفية لأسماء وألقاب العديد من الاباطرة الرومانيين *** ووضع قائمة للهيروغليفيات ووضع منظومة للقواعد ولحل الشفرة التى هى الأساس الذى أقام عليه علماء المصريات أبحاثهم وأعمالهم بعد ذلك .

أف .. قالها فى النهاية !! ولكن يبقى فى ضمير القارئ وكذلك زائر البريتيش ميوزيوم حيث يقدمون يانج عام ١٩٨٧ وحتى الآن على أنه هو أول المكتشفين ولا يزال هو الرجل العبقرى الذى إخترق الحواجز واكتشف المبدأ الجوهرى للجانب الصوتى للكتابة المقدسة وبدأ بالفعل حل الشفرة إلى أن جاد أحد التلاميذ المجدين وتمكن من « استكمال » أعماله بفضل تقنيته فى المقارنة الجيدة .. بعد ما يقرب من قرن من محاضرة ٢٧ سبتمبر ١٨٢٢ لا يعتبر هذا تعبيراً عن تفتح فكرى : ولكن تغير الحال بعد ذلك وأعادت المدرسة الانجليزية تقييمها لعلم المصريات بصورة جوهرية ومتعلقة .

* الكتاب الذى يباع الآن فى البريتيش ميوزيوم بقلم كارول أندروز (١٩٨١)

** هو نفس التفسير « اليانجى » للتلميذ أو « المعاون »

*** سبق أن رأينا لأى درجة يجافى هذا العرض الواقع .

أفضل دليل على ذلك نجده فى المقالات المخصصة ليانج ثم شامبوليون فى الطبعة الثانية ؟؟؟ من Who is Who in Egyptology الصادرة عام ١٩٧٢ بقلم وارن دواسون وإيريك أبهيل . يصف عالما المصريات البريطانية مواطنهم بأنه « رائد » كانت « اكتشافاته على الرغم من جزئيتها أبعد ماتكون عن التفاهة وإن كانت لا تقارن باكتشافات شامبوليون فى حين أن صاحب « رسالة إلى مسيوداسييه » قدم بوضوح تام على أنه : « الأب المؤسس لعلم المصريات » .

المدهش فى الرفض المستمر للمدرسة الانجليزية لقبول الواقع هو أنها لم تعر اهتمامًا كبيرا لرأى أشهر علمائها جون جاردنر ويلكنسون الذى أقام فى مصر منذ ١٨٢٠ وكان بانكس ويانج قد حذراه من شامبوليون حتى أنه رفض مقابلته وكان يتكلم عنه دائما بسخرية . ثم إذبه عنداه وفاة أبى علم المصريات تقدم له تحية لا مثيل لها * .

مهما بلغت درجة الضراوة التى إتسمت بها الهجمات التى إنطلقت عبر بحر المانش فإنها لم تكن المصدر الذى خرج منه أعنف هجوم وأكثره تركيزا ضد شامبوليون .

العنف كله خرج من باريس وكان « التارتار » هو أشد المدعين العموميين شراسة .

ولد هنريس يوليوس كلايروث فى برلين عام ١٧٨٣ قبل جان - فرانسوا بسبع سنوات كان يقال أنه من أصل قوقازى ومن هنا جاءت كلمة « الترتار » وكان عضواً فى أكاديمية سان بيترسبرج ومتمكن من العديد من اللغات الأسيوية مثل السنكرتة والصينية واليابانية وأقام فى باريس منذ عام ١٨١٥ فارضًا وجوده كأستاذ فى الدراسات الشرقية وكانت له علاقات طيبة مع شامبوليون . ومع ذلك فهو لم ينتظر وفاة المكتشف للتعبير عن تحفظاته . ولكنه نشر فى ١٥ سبتمبر ١٨٣٢ بعد ستة شهور من وفاة « المصرى » - ولسوء حظ كليروث قبل بضعة شهور من نشر كتاب « القواعد » ، كتابه دراسة نقدية فى أعمال المغفور له شامبوليون فى الهيروغليفيات (8) وتسبق العنوان حكمة من بلين باللاتينية Nitor Verius Quam splendor (ابحث عن الحقيقة قبل الفخامة) .

مع قراءة الجملة الأولى تضح الأمور فى أعين القارئ لأن الناقد عندما يستهل كتابة بالقول أنه لا يهدف « أبدًا إلى التقليل من شأن ما يستحقه أحد » فمن المؤكد أنه يدخل الحلبة والخنجر فى يده .

* أنظر فصل ١٩ ص 635 , 636

كتب كلابروث « منذ عشر سنوات والحديث المتحمس يدور حول اكتشاف الأبجدية الصوتية التى قام به المغفور له مسيو شامبوليون إلا أن عدداً قليلا من الناس هم الذين يعرفون بدقة ماهية هذا الاكتشاف أو ما أتى به بالضبط . إن الدكتور يانج هو دون أى جدال ممكن صاحب الريادة فى هذا الكشف وكان ذلك عام ١٨١٨ عندما تعرف على الدلالات الأبجدية لمعظم الرموز الهيروغليفية التى يتكون منها إسما بطليموس وبرينيس [..] وإذا كان من الواجب أن ننظر إلى تحديد قيمة الحروف السبعة على أنها الأساس الذى أقام عليه مسيو شامبوليون أبجديتة الصوتية فإن فطنة العالم الانجليزى لم تتخطى هذه الصدفة السعيدة وترك إلى منافسة الفرنسى جنى ثمار المجد الذى يستحقة إكتشاف مبنى على الفكر وقابل للإثبات » .

إن مثل هذا التفكير غير المنطقى يثير الدهشة : إذ كيف يكتب عام ١٨٣٢ أن يانج هو « دون أى جدال صاحب الريادة فى الكشف » ويؤكد أن تحديد مدلول بعض الحروف هو « الأساس الذى قامت عليه الأبجدية الصوتية » ثم يتقهقر فجأة ويسلم سلاحة الشاب القادم من جرونوبل بأن يعترف بأن ما حدث بالنسبة ليانج هو بمثابة « صدفة سعيدة » (ويا له من إعتراف بالفضل هزيل إذا جاء على لسان عالم مثله ..)

وأن « المجد المستحق لاكتشاف مبنى على الفكر وقابل للإثبات » (وهو الوحيد الذى يمكن للعلم أن يقبل به) يعود لشامبوليون . تناقضات كثيرة فى حديث لجامعى من برلين !

ثم يواصل كلابروث بحثه بأن يؤكد على طول فترة الدراسات والمجهودات التى قام بها الباحث الفرنسى . كما لو كان يريد الإيحاء بأن العمل طوال خمسة عشر عاماً فى الموضوع قبل إدراك النجاح ينم عن عدم الذكاء ... وبعد ذلك يقوم بتبديل تاريخ النص الذى ينقده ويجعله صادر فى عام ١٨٢١ أى قبل عام من تاريخه الصحيح . ويقول أن شامبوليون قد أكد عام ١٨٢١ أن الهيروغليفيات « رموز لأشياء وليست « الأصوات » وإن هذا الخطأ الكبير الذى وقع فيه المصرى والذى قام بتصحيحه بنفسه بعد ذلك وهو الخطأ الذى أثبتت منظومته اللاحقة كلها عكسه ... إن إبراز هذه النقطة بعد إثنى عشر عاماً تعنى أن مكتشفاً من المكتشفين لم يكتشف شيئا لأنه كان يتحسس طريقه قبل إكتشافه بساعة واحدة .

ثم يتحول كلابروث إلى تحليل «**البانتيون** » و « **الملخص** » ليزيد من خطورة إتهاماته : « يجب أن نشعر بالأسف نحو شامبوليون لانه ترك مسيرته المنهجية التى

نهجها فى عمله الأول [...] إذا أن الصدق الذى يتسم به هذا النص إعتراف به كل المحايدين . كم كنا أحرى بمسيو شامبوليون ألا يترك أبداً هذا المنهج فى أبحاثه التالية .. » وهكذا فإن الإتهام الذى يوجهه كلاپروث لشامبوليون المتوفى هو عدم الأمانة الفكرية . أن يختلف فى الرأى حول الإيديوجرافية والفونيتيكية وحول الأدوار الخاصة التى أداها كل من يانج وشامبوليون كان من صميم حقوقه الشخصية . ولكنه أن ينتظر وفاه المكتشف ولا ينتظر نشر « كتاب القواعد » الذى نشر بعد الوفاة وهو الكتاب الذى توقعت أوربا العلمية كلها أنه سيكون الوصية العلمية التى تركها صاحب « رسالة إلى **مسيوداسييه** » لكى يطلق هذه الدفعة من الإفتراءات والاتهامات كل ذلك يعطى فكرة عن ماهية شخصية كلايروث . الذى زاد من بشاعته وهو يكتب مايلى : (9)

« إذا كان من الواجب اعتبار الهيروغليفيات رموزاً لأصوات فإن حل الشفرة يصبح سهلا [..] إن الأمل الذى نجم عن هذا الافتراض قد أثر كثيرا على الاتجاه الذى سلكه مسيو شامبوليون فى أعماله الأخيرة . والإمكانية التى لاحت له بأن يقرأ أخيراً (!) الهيروغليفيات لو إتضح أنها بالفعل رموز صوتية قد شاركت دون شك بقدر ليس بالقليل على إقتناعه بأنها بالفعل كذلك ! »

طريقة تفكير مذهله ! : فلأن أن القيمة الصوتية للمنظومة الهيروغلفية كانت أكثر « سهولة » لأن هذا ما يناسبه – أن اكتشف شامبوليون هذه القيمة . لماذا إذن لا يؤكد بالدليل والحجة أن جاليليو أكتشف أن الأرض مستديرة لأن إثبات ذلك كان جلياً أو أن كولومبوس اكتشف أمريكا لكى يريح بحارته المرهقين .

لم يكتفى كلايروث بذلك بل ذهب إلى القول « لاشئ يسمح أو يبرر [..] ذلك الافتراض (أى القيمة الصوتية للهيروغليفيات) وإذا سايرنا المكتشف « فإنه لا يوجد شئ لا يمكن أن نجده فى مخطوط [..] تدشين معبد ، مدح أميرة ، [..] قصة فتوحات سيزوستريس » وإن باحثا جيداً إذا أعطى مؤشرا عاديا على أن ما يبحث عنه فى خراطيش الآثار المصرية هو أسماء ملوك مصر المختلفين الذين جاء ذكرهم فى كتب الأقدمين وهى مكتوبة بحروف أبجدية بعد قليل من الحروف المتحركة . لتوصل إلى نفس النتائج التى توصل إليها مسيو شامبوليون » .

يعنى ذلك أنه بعد أن أتهم الفرنسى فى نزاهته الفكرية راح كلايروث ينعته بالغباء لأنه إحتاج لوقت طويل لحل شفرة كتابات « لم يكن من الصعب اكتشاف معناها » وأنه بعد أن أثبت عدم بصيرته فإن مشعوذ جرونوبل « قد إخترع بنفسه بعض الكلمات

وأنشأ بنفسه اللغة » التي كان مطلوبا منه فك شفرتها . لدرجة أنه لكي « نثبت سطحية الافتراضات الموجودة في أعمال شامبوليون » « فلعلنا نحتاج لعدد من الصفحات يوازي ما ملاءه هذا العالم في أبحاثه »

في النهاية وبعد أن كلّ من الطرق على صدفة فارغة التي هي أعمال هذا الرجل الذي لم يفعل شيئا سوى أنه اكتشف ما كان في متناول أي فرد وأنه فعل ذلك باللجوء إلى الفن و « الافتراضات التي لا أساس لها » إكتفى كلابروث بأن يخلص إلى أن حل شفرة الهيروغليفيات بمعنى الكلمة ليست في متناول « الفكر الناقد الإنساني » إنما « الحدس الإلهي فقط هو الذي بامكانه إحداث هذه المعجزة » وهو بذلك قد منح جان - فرانسوا شامبوليون أكاليل غار لم يحلم يوماً بالحصول عليها . الحدس الإلهي ...

إن أكثر ما يصدم المرء من كلابروث هو التوقيت الذي أصدر فيه منشوره . فلو أنه كتب ما كتب عام ١٨٢٣ أو حتى ١٨٢٥ غداة نشر « **الرسالة** » أو « **الملخص** » لكان ذلك مقبولا منه . إنما هو فعل ذلك في فترة زمنية كان جان - فرانسوا شامبوليون قد أحضر فيها سواء من إيطاليا أو من مصر على وجه الخصوص كما سنرى جميع الإثباتات التي تؤكد صلاحية منظومته في القراءة ، وهو ما سيؤكده بعد ذلك جميع (تقريبا) علماء المصريات . ولهذا السبب رأينا إبراز هذه المحاولة اليائسة للنفي . لا لكونها حدثا علميا وإنما كعملية غوص في تاريخ الانفعالات الإنسانية .

لم يغلق ملف القضية المثارة ضد شامبوليون قط ، سواء فيما يتعلق باسبقية الكشف أو حتى بالجانب الجوهري الفاعل في منهجه . فيما يختص بالنقطة الأولى سنذكر الملحوظة المستنيرة والثاقبة جداً التي جاءت على لسان عالم المصريات البلجيكي جان كايار !

« من النادر التوصل إلى إكتشاف كبير دون أن يكون هناك من يدعي وله في ذلك بعض من الحق - في الإدعاء بأنه تمكن من الوصول إليه من قبل . فيقال مثلا أن اكتشاف مسيو ومدام كوري للراديوم أصلها البعيد ملحوظة لمسيو باكرال عن أملاح اليوران . علما بأنه لا توجد علاقة مثل القائمة بين محاولات يانج واكتشاف شامبوليون [..] ولن نكرر بما فيه الكفاية أن يانج لم ينجح قبل شامبوليون في قراءة ليس سطرين من مخطوطة هيروغليفية ولكن ولا أي جزء من جملة واحدة . أنه لم يفعل سوى التخمين بنسبة نجاح أكبر مما نجده في محاولات سابقة » (10)

أما فيما يتعلق بالنقطة الأخرى - هل توصل شامبوليون - سواء قبل أو بعد أخرين فى تقديم منهج سليم لفك شفرة الهيروغليفية ؟ فسيظهر كل خمسة عشر أو عشرين عاما شخص ينفى ذلك . وهكذا نشرت صحيفة لوفيجارو منذ فترة مقالا بقلم متخصص فى « أسرار المصريات » يشك فى أى قيمة علمية لصاحب « **رسالةإلى مسيوداسيية** » . وإذ نذكر هذه الخزعبلات فذلك لأننا نذكر بأن كتابة أية سيرة لا تجد لها نهاية أبدًا كما أن أى رأى يمكنه أن يجد منبرًا ليعبر فيه عن نفسه .

فهل نختار إعطاء الكلمة النهائية لجان - فرانسوا شامبوليون : لا يوجد شئ أسمه « كلمة نهائية » فى المادة العلمية . إلا أن « المصرى » كتب هذه الكلمات البسيطة التى يمكن أن نختم بها كلامنا فى هذا الموضوع :

« أنى لن أطالب بشئ . سأترك إلى الذين يعرفون الموضوع التفريق بالعدل بين ما قمت به وبين ما فعله الأخرون وأن يقولوا ماذا كان عليه وضع الدراسات المصرية عندما التقتها والنقطة التى أوصلتها إليها (11) »



١٣ - الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو

قصة حب - ثلاث قوادين - دور جومار - استقبال البيمونتيين الحار - « إنه لشئ مذهل » - الخطابات المرسلة للدوق دو بلاكاس - الفن المؤسس .. « سباضى » - مجموعة سولت - أكاديمى نعم « من وراء جبال الآلب » لا - بايستوم ومصر - قبعة الكاردينال ؟ - مسلة من الورق المقوى .

يوجد بين جان فرانسوا وإيطاليا ما يجب تسميته قصة حب . ليس لأن المرأة التى أحبها أكثر من أى أمرأة أخرى كانت تقرض الشعر بحماس من نار ى أحد موانى مقاطعــة توسكاني فحسب وإنما لأنــه صــاحب كتاب «**البانتيون** » أقا ، مثلما فعل هنرى بايل (ستاندال) الذى يكبره سنا وهو أيضا من مواطنية - عــلاقــات مفعمة بالعواطف الجياشة مع أهل البلاد الواقعة وراء جبال الآلب سواء كانوا سادة صغار أو سيدات عظام ، وزراء أو حوذية ، ثوار أو ملكيين ، مرشدين أو متسكعين مجرمين أو بحارة ، متصوفين أو ملحدين ، رجال علم أو قانون ، مخادعات أو سيدات مخادع ، رجال بنوك أو شحاذين ، شعراء أو عتالين علماء فى اليونانية أو فى النباتات ..

كانت علاقة عل درجة من العاطفية والإلهام جعلته يتذوق هناك ما كان يكرهه هنا إبتداء من رجال الكنيسة . حتى ليخال المرء أنه ما أن عبر قمة جبل مونت - سينيس إلا وكان « **سواد** » ، رجال الكنيسة قد خفت حدته فى عينيه وقد أصبح أكثر مرحاً . سنراه يصادق الأباء والمونسنييورى بل والكرادلة أيضاً - حتى البابا نفسه أقام معه تحالفاً طريفاً .

لا تهم هنا مسألة أصول أجداده وهل كان أصل اسم اجداده هو سكياميليونى أو كامبوليونى أو كان أبوه التاجر المتجول يتسكع طويلاً عند منطقة الحدود الفاصلة بين الدوفينيه والسافوا والبيمونت : كل ذلك لاقيمة له بالنظر إلي العلاقات التى نسجتها الحياة والبحث والعلم والفن والصداقة والحب بين المكتشف وما كان يطلق عليه فى ذلك الوقت البلاد الإيطالية .

مثل ستاندل الذى جعل أجمل رواياته تحدث فى دير لايقع فى جرونوبل ولكن فى بارما وأن يضفى على شخصية وزى شرطة أحد الطغاة كل هذا السحر ، فقط لأنه إيطالى (وفى حالة حب) ، فإن شامبوليون يجد فى رجال الدين ألف صفة جميلة وكذلك لدى الدبلوماسيين ورجال البنوك طالما هم بيمونتيون أوتوسكانيون أو من رعايا

ملك الصقليتين . سنرى طبعاً السخرية تظهر على السطح من وقت لآخر فيما كتب عن مواعيد وسائل النقل أو لامبالاة رجال المكتبات أو بعض مجرمى كلابريا . إلا أن اللهجة التى كتب بها خطاباته من وراء جبال الألب كانت مفعمة بالحنان ولدى عودته النهائية إلى فرنسا فى نهاية ١٨٢٦ سيكتب من بولونيا يقول إنه سيكون « ناكراً للجميل لو أنه لم يكن إيطالى القلب » .

عندما يصفه عالم المصريات البيمونتى سيلفو كورتو بأنه « أبن أشهر من أبناء فرنسا » ولكن أيضاً من أبناء إيطاليا » فإن ذلك لا يعتبر عملية سرقة ميراث . لم يقض المكتشف سوى ثمانية عشر شهراً خرج وراء جبال الألب . غير أن الغنيمة الفكرية والعاطفية التى خرج بها من هناك لها ثقل ضخم فى حياته وفى أعماله ، وسنسمعه يردد كثيراً حتى ١٨٢٤ أن الطريق إلى ممفيس وطيبة يمر من تورينو . المرحلة الأولى من غزوته – أى أكتشاف الشفرة – قامت على حجر رشيد المرحلة الثانية – أى كشف الحجاب – جرت فى إطار متحف أكاديمية تورينو – إنتظاراً للمرحلة الثالثة – أى الغوص – فهى التى ستجرى على ضفاف النيل .

إذا كان قد أقدم على هذه الرحلة فى البداية قبل أن تطأ أقدامه أرض مصر المقدسة – من تورينو إلى روما من أجل اكتشاف البراهين الملموسة على تفوق الفن الفرعونى وإذا كان قد توصل لذلك بما يتخطى أماله جميعاً – فهو لم يبحث عن أخفاء إعجابه بمجموعة الآثار الرومانية وكذلك وليس بدرجة أقل آثار يومپيى وبايستوم . بالنظر إلى هذه الروائع زاد إنتقاده لباريس بأكثر مما فعل من قبل ، هذه المدينة التى تسودها حياة الصالونات والعبث وتعم فيها الغيرة والتى لم تعرف كيف تجمع الكنوز التى يتحتم عليه أن يذهب إلى تورينو لإكتشافها ... إنه يحب « حياة » نابولى و « عظمة » روما و « حرية » فلورنسا . إنه يحب إيطاليا .

ولكن أكثر الغراميات طهارة تنتظر « الوسيط » وقد قام رجال بهذه المهمة التى طالما يتم التنديد بها وهم لودڤيكو كوستا وبيرناردينو دروڤيتى ولويس – كازيميرد وبلاكابس الاسم الأخير سبق أن عرفناه جيداً . أما الأخران فبصورة أقل .

لعلنا لم ننسى المهمة التى أنيطت بأصغر الأخوين شامبوليون لدى عـودته مـن « منفاه » فى فيجاك عام ١٨١٨ وهى دراسة أرشيف مقاطعة الدوفينيه والأوراق التى قد تؤكد صحة مطالبات بعض العائلات الإيطالية . وإنه قام بأبحاثة وهو على إتصال

بممثل لملك بييمونت وساردينيا . رأس عائلة سافويا . هذا النظير هو الفارس لودوفيكو كوستا . والعمل المشترك تولدت عنه علاقة صداقة حقيقية بينهما .

لدى عودته إلى تورينو ، إقترح كوستا على حكومته تعيين أستاذ جرونوبل فى مركز دبلوماسى فى بلاد الشرق أو فى وظيفة تعليمية فى البيمونت . وكان ذلك قبل عدة سنوات من بلوغ جان فرانسوا الشهرة . على الرغم أن الاقتراح قد رفض فإن مسئولى تورينو كانوا يركزون نظرهم على هذا المثقف الدوفيتى الذى تربطه بأحد نبلاءهم الشبان الأكثر موهبة علاقة صداقة وهو علاوة على ذلك محب لإيطاليا بشكل واضح . وأصبح كوستا بذلك همزة الوصل الحية بين شامبوليون وتورينو .

قبل ذلك بربع قرن ومن نفس هذا البيمونت خرج برناردينو دروفيتى محامى بارنابيا الذى أعجب بالثورة الفرنسية ثم وقع فى سحر الجنرال بونابارت هذا النيزك الذى هبط من فوق جبال الألب عام ١٧٩٦ لكى يخضع أوروبا الأمراء وكبار رجال الدين . وقد خرج جيش بييمونتى لينضم إلى جيشه بعد موقعتى أركول وريڤولى وكان المحامى القادقام من بارنانيا أحد مستنفرى هذا الجيش إلى جوار الجنرال كوللى وأظهر شجاعة وبساله في مانتوا . وعندما قرر المنتصر فى أركول الإتجاه إلى الشرق إختار دروفيتى الذى أصبح برتبة نقيب أن يتبعه إلى هناك .

هل أصبح ياورا لمورا ؟ أن اسمه لايظهر فى تقارير الحملة إلا أننا نقرأ إسمه فى أحد النصوص يقول أنه شارك فى معركة مارنجو . وبما أن المعركة دارت فى ١٤ يونيو ١٨٠٠أى فى الغزوة التى كان الجيش موضوعاً تحت قيادة كليبار ولا يزال على أرض مصر فلابد وأن دروفيتى كان مرتبطاً بأحد المقربين لبونابارت (مثل ملك نابولى القادم) حتى يتمكن من الأبحار عام ١٧٩٩ على المويرون (المركب والذى هرب عليه بوناپارت) ..إلا إذا كان ذكر اسمه فى تقارير معركة مارينجو كان بدافع من حب المؤرخين البيمونتين له .

ما حدث هو أن بفضل القنصل الأول (بونابارت) أصبح دروفيتى عام ١٨٠٣ * فى مصر قنصلاً لفرنسا فى إسكندرية فى الوقت الذى كان فيه ماتيو دوليسبس ينهى مهمته هناك . وكان دروفيتى قد بدأ مهمته مساعداً له . لا يمكن أن نعرف ما الذى كان

* بعض المصادر الأخرى تقول ١٨٠٢

سيفعله دروفيتى لو أنه بقى على أرض وطنه خلال الريسورجيمنتو * . إن مواهبه التى إستخدمها فى مصر تكشف فى جميع الأحوال عن شخصية غير عادية ولو أن ضميره لم يكن دائما على نفس مستوى جسارته وخياله ولكن سيظل اسمه مرتبطًا إلى الأبد ببناء الدولة المصرية على يد محمد على والذى كان له أحد المعاونين الأجانب الأكثر استمرارية وكفائة . ومرتبطا أيضا بمولد علم المصريات الذى خدمه - بخير أو بشر ناهبًا للآثار فى جشع وبعبقرية (لا مثيل لها) .

مهما كان تقييمنا لهذا المغامر الذى جعل - مثلما فعل زميله البريطانى هنرى سولت - من السرقة المنظمة الفرع الأكبر لعلم المصريات فإنه الرجل الذى خصص له فرانسوا - دوشا توبريان هذه السطور من كتابه « رحلة ... » من باريس إلى القدس :

« طلبت إيصالى إلى مسيو دوروفيتى ** قنصل فرنسا فى اسكندرية . تكلمت حتى الآن عن قناصلنا فى الشام يفر بما يفرضه علّى واجب الاعتراف بالجميل لما قدموه لى . هنا سأذهب إلى أبعد من ذلك وأقول أننى أقمت مع مسيو دروفيتى علاقة أصبحت صداقة بمعنى الكلمة مسيو دروفيتى وهو رجل عسكرى متميز ولد فى إيطاليا الجميلة إستقبلنى بالبساطة التى تميز الرجل العسكرى وبالحرارة التى تنشأ داخل الأشخاص الذين يعيشون فى محيط مشمس سعيد . لا أدرى أن كان هذا النص سيقع بين يديه فى الصحراء التى يقيم فيها الآن . وإن كنت أود ذلك حتى يعرف أن الزمن لا يضعف أبدًا أحاسيسى نحوه وأنى لم أنس قط التأثر الذى عبر لى عنه وهو يودعنى على الشاطئ : تأثر نبيل للغاية عندما مسح بيد معاقة فى خدمة بلده دمعة عبرت عن هذا التأثر . لا أملك رصيدًا ولا حماة ولا ثروة . ولكن إذا حدث وكان لدى كل ذلك فلم أكن لاستخدمها وبكل سعادة سوى لصالح مسيو دروفيتى » (1) ..

بهذه « اليد التى تشوهت وهى تخدم بلدها » قاد حملات أقل فى عسكريتها عن زمن أبى قير » . لأن الحملات التى قادها ومعه ضابط فرنسى يدعى بوتان والمستكشف النانتى كايو بطول نهر النيل وحتى الشلال الأول ثم فى واحتى الدخلة وسيوه تحولت بسرعة إلى أهداف أثريه وهى لم تكن نزيهة .

فى حين لجأ زميله الانجليزى سولت إلى معاونة جان باتستا بلزونى « عملاق بادوفا » لينتزع من وادى الملوك ثرواته ، لجأ دروفيتى إلى خدمات المثال إبن مدينة مارسيليا جان جاك ريفو الباحث عن الآثار الذكى الذى قام بتقطيع معبد الكرنك

* « النهضة » بالإيطالية وتطلق على الحركة الفكرية والسياسية التى أدت إلى توحيد إيطاليا فى القرن التاسع عشر (المترجم)

** المقر السابق لكليبار - وكان دروفيتى يربى فيها الحمام والسمان .

بمنهج منظم من ١٨١١ حتى ١٨٢٧ . الملاحظ فى هذا الصدد أن قنصلى القوتين الأكثر تأثيرا فى مصر كان مثالا يحتذيه ممثلو أو مبعوثو النمسا وبروسيا والسويد أسيربى وميتوتولى وإنستازى . كانت هذه هى العادات المتبعة فى ذلك الوقت : إذا نحن نذكر ذلك فهذا لايعنى أننا نؤيده .

نقول باختصار أن فى عام ١٨١٦ أصبح برناردينو وردوفيتى على قمة مجموعة عظيمة من التماثيل والألواح والباروليف والأدوات الجنائزية والبرديات ومعظمها مأخوذة من مقابر طيبة وتعود إلى الإمبراطورية الحديثة . ولما كان صنيعة بونابارت فقد أصبح مغضوبا عليه من بلاط فرنسا الذى تعلل بأصوله الأجنبيه وعين مكانه بيافوان .

أصبح دروفيتى بدون دخل ثابت إلى أن أعيد إلى مركزه فى عام ١٨٢١ - فحاول بيع مجموعة الآثار التى جمعها بأن توجه فى بادئ الأمر إلى مواطنيه فى البيمونت الإيطالى ولكنهم رأوا أنهم لا يمكلون المبلغ المطلوب . ونفس الشئ حدث بالنسبة للسلطات الفرنسية ولو أن السبب الرفض لم يكن ثمن الصفقة ولكن شخصية البائع السياسية وربما أيضا للمخاطر مثل الذى تسبب فيها الزودياك التى قد تتسبب فيها أى آثار تعود إلى العهود القديمة فى مواجهة تعاليم الكنيسة .

عاد دروفيتى إلى أهل بلد فى البيمونت بعرضه بعد أن سنحت فرص لذلك عندما سافر الكونت كارلوفيدوا إلى مصر والنوبة عام ١٨٢٠ وهو من الرحاله المشهورين وتمكن من رؤية روائع مجموعة القنصل السابق فى الاسكندرية . وعند عودته إلى تورينو ضغط على أصدقائه ذوى النفوذ بروسيبيرو بالبو وشيزارى دى سالوتزو لكى يقنعا ملك بيموتى للحصول على المجموعة الأثرية .

فى نفس الوقت كانت المفاوضات قد بدأت من جديد بين دون بيرناردينو دروفيتى (الذى أعيد إلى منصبة وألقابه كقنصل لفرنسا) وباريس . وإعتبارا من شهر سبتمبر ١٨٢٢ فأصبح شامبوليون الذى تحوط به هالة أكتشافه أحد أشد المؤيدين لشراء مجموعة دروفيتى . وكان هذا الأخير يلح على سرعة استقبال المكتشف فى مصر وعلى مشاركته له فى « أبحاثه » .

فى ١٥ يناير ١٨٢٤ علم صاحب « **رسالة إلى مسيو داسييه** » أن بلاط تورينو اشترى فى نهاية المطاف مجموعة دروفيتى وعلى الرغم من أن ذلك كان من المفروض أن يكون فى إتجاه ميوله الإيطالية إلا أنه تلقى الخبر كما لو كان هزيمة شخصية له . إذ أن الرفض الذى قوبلت به طلبات صديقه بلاكاس الملحة كان بمثابة إيقاف لإنطلاق سلطته الوليدة .. جومار هو الذى أقنع كورييار بأن يتحدى إرادة صديق الملك الأثير .

إذ كان يعلم وهو المسئول عن « **وصف مصر** » أن وصول المجموعة إلى باريس سيكون بمثابة تتويج لاكتشاف سبتمبر ١٨٢٢ : وهذا بالتحديد ما كان يخشاه جومار لو كان حلم حياته هو أن يدير بنفسه متحف باريس المصرى اليس هذا هو التطور الطبيعى لحياته العملية أو حقة المكتسب ؟ « كشف » « مقابل » « وصف » : سيستمر هذا الجدال فى تسميم جو سنوات المراهقة لحياة علم المصريات .

مهما بدأ تصرف جومار مدمراً فى نظر المؤرخ فى القرن العشرين وهو يميل إلى رؤية كل شئ من خلال نظرة شامبوليون له إلا أن من الصعب إدانته دون تروى . فقد كان جومار صاحب مشروع إقامة متحف وإقتناء مجموعة أثرية .

منذ عام ١٨١٩ أرسل إلى وزير الداخلية خطابا يتحدث فيه عن مشروع إقامة « قاعة للآثار المصرية فى متحف اللوفر » تضم إلى آثار « تسترد من لندن » وإلى نسخة من « حجر رشيد المشهور » و « مجموعة دروفيتى » .. وهى أجمل ما عرف عنه الآثار المصرية » .

عالم الجغرافية الذى شارك فى الحملة على مصر كان قد تلقى خطاباً من برناردينو دروفيتى يمتدح فيه الروائع التى جلبها من مصر العليا بمساعدة ريفو ويعبر فيه عن أمله « أن تكون فرنسا التى يحبها بكل جوارحه منذ عشرين عاما كوطنه » هى التى تحصل على مجموعته لوضعها فى متحف باريس .

لأن جان - فرانسوا شامبوليون كان على وشك أن يسلبه سلطانه فى المجال المصرى عندما أصبح أسمه ومجده كمكتشف مرتبطين باقتناء مجموعة دروفيتى أصبح أدم جومار مناهضا للعملية وتوصل إلى إقناع رئيس الوزاره كورييار والملك بعدم الإلتفات لها .

من رفض باريس إلى رفض آخر . وصل دروفيتى إلى مرحلة اليأس واكتفى بتسليم روائعه إلى بلاط تورينو الملكى اليسوا هم مواطنوه ؟ وكانت عاصمة البيمونت - ساردينا مدينة جميلة ويتكاثر فيها الرجال الموهوبون - وإذا نجح فى إقناع شامبوليون بالمجئ إلى مصر فإنه لن يعدم الوسيلة التى تسمح بإيجاد روائع أخرى له .

قرر جان فرانسوا أن يقبل الخسارة بصدر رحب ومادامت المجموعة لن تأتى إليه فسيذهب هو إليها . كان هدفه فى جميع الأحوال هدفًا علميًا . مهما كان موقفة المالى مترديًا فإن الشئ الجوهرى بالنسبة له لم يكن الحصول على وظيفة مدير متحف ولا حتى إثراء ممتلكات باريس الثقافية وإنما كان تعميق إكتشافة والتأكيد على تمكنه

الكامل من كتابة ستؤدى قرائتها إلى رفع الحجاب عن أم الحضرات جميعًا . فإذا كانت مجموعة دروڤيتى فى تورينو . فالى هناك إذن السفر . وكان قد بلغه أن صديقه لودوفيكو كوستا أصبح وكيلا للوزارة فما أن بلغه نبأ قرب إقامة مجموعة دروفيتى العاصمة البيمونتية حتى أمسك بالقلم وكتب له الزميل عام ١٨١٨ رساله جاء فيها :

« .. كنت أنتظر فى باريس مجمعة دروفيتى للآثار المصرية التى هى متحف متكامل كانوا يمنوننا باحضاره إلى فرنسا . علمت اليوم أن صاحب الجلاله ملك سردينا إقتناها ولن يكون العلم قد فقدها إذن مادمت أصبحت من ممتلكات عاهل عمل أجداده الكثير لصالح الآداب وبلد خدم علماؤه العلم خدمات جليلة [..] تنشر فى باريس ولندن وفيينا وفى بروسيا وروسيا أنباء كل ما يصل من آثار مصرية . وسيصبح الكتالوج المفضل لمجموعة دروڤيتى حيث يوصف ويشرح كل شئ شرحا وافيا حتى لا يحتاج العلماء مشاهدته بذاته - سيصبح كتابا ودليلا هاما للغاية بالنسبة لهم . المخطوطات فى البرديات هى أيضا ذات أهمية كبرى [..] فهل تعتقدون أن حكومتكم ستقرر عمل هذا الفهرس وهذا التبويب بصورة تخدم الآداب ؟ ، فى هذه الحالة سأكون على استعداد للذهاب إلي تورينو للإقامة فيها لبضعة شهور (..) ولما كنت أمضيت حياتى كلها أدرس الآثار المصرية ولما كانت لى فى هذا الصدد أعمال رأت أوربا العلمية أنها ذات أهمية فإنى على يقين من أننى أفضل الاشخاص استعداد لتبويب وتنظيم المجموعة الهامة التى إقتناها مليككم فى فهرس (2) »

لا يمكن أن يكون المرء أكثر وضوحًا وبيانًا : ولكن لايكفى أن تكون شامبوليون وأن تتقدم بنفسك لكى توجه لك الدعوة . فكان على الفارس كوستا وعلى الكونت بالبو - وعلى الرغم من قوة تأثيرهم فى تورينو - ومهما كانت رغبتهم شديدة الاستقبال الباحث الفرنسى فيها فقد كان عليهما للوصول إلى غرضهم تخطى الكثير من العوائق وعلى رأسها إرتياب الملك المحافظ كارلو - فليتشى إرتيابًا مفهومًا جدًا من « الچاكونى الجرونوبلوازى » .

هل كان ملك بيمونت - ساردينيا رجعيًا بالدرجة القاتمة التى وصف بها * ؟ على الرغم من أنه هو الذى اشترى هذه المجموعة المحملة بالأخطار العظمى التى جعلت المتدينين فى باريس يرتعدون خوفًا منها ، وكان يحضر بانتظام جلسات الأكاديمية

* كان يطلق عليه أحيانا لقب ملك سردينيا وأحيانا أخرى ملك بيمونت سردينيا وكان متزوجا أخت ملك فرنسا القادم لوى - فيليب .

البيمونتية . (قال بعضهم أنه كان يهدف بذلك حسن السيطرة على مداولتها ..) فى حين يؤكد البعض الآخر أنه لم يتخذ « الخط المتطرف » سوى لإرضاء ملوك الحلف المقدس حيث أن أمنه كان مرتبطًا بهم . أما الواقع فهو إذا كان قد سمح لبالبو وكوستا بدعوة جان - فرانسوا شامبوليون إلى تورينو لعمل فهرس المجموعة الشهيرة فقد حرص أيضا على إبعاد هذا الزائر الفريد من نوعه عنه وعلى الرغم من توصيات بلاكاس (أى لويس الثامن عشر) فهو لم يترك البلاط يشارك قط فى الإستقبال الحار الذى استقبلت تورينو به المكتشف .

ولا يمكن فى الحقيقة فهم أى شئ عن إقامة شامبوليون فى إيطاليا إذا لم نضعها فى إطارها السياسى والثقافى . كان جان - فرانسوا لا يزال يترك وراءه كلما سار فى باريس إحساسًا بعدم الإرتياح له . إذ مازال حزب المتدينين وقبيلة المتطرفين يكرهونه ولكنه أصبح الآن محميًا بأمجاده - التى لم تشفع لالجاليليو ولا لكولمبس لدى القضاة ولم تحميهما من العار - ولكنها تمكنت من إحتواء حقد الجبناء . ثم هو الآن من أصدقاء صفىّ الملك .

كان تدخله فى قضية الأبراج السماوية قد أضعف بعض الشئ من كره « طافئ الأنوار » له إلا أنه زاد من حدة توتر حزت جومار ضده . وهكذا فقد فى أعين كثير من الناس قنصوته الحمراء (أى ثوريته) دون أن يحظى على الرغم من ذلك بتأثير معشر العلماء كله .

أكاديمية المخطوطات كانت تبعده عنها مؤكدة بذلك أن العبقرية يجب أن تتحلى أيضا بالصبر .

فيما وراء جبال الآلب كانت الأمور فيما يتعلق به أبسط : كان رمزًا للتنوير . إستقبله الليبراليون كمخلص استعوض عن أسلحة بونابارت بالمعرفة لمواجهة الأظلام. استقبل المكتشف استقبال المحرر من القيود ومن هنا جاءت الريبة التى سيطرت على بلاط تورينو وهى توازى فى أهميتها حسن استقبال الأرستقراطية المتنورة له وعلى رأسها باليو وسالوتزو وأمثالهما .

الشئ المدهش هو أن جان - فرانسوا شامبوليون لم يكن يمثل فى نظر قطاع كبير من رجال أكهنوت الذى هو أكثر رجعية من مثيله الفرنسى ، المناضل المناهض لرجال الكنيسة كما كان بالفعل - وإنما كان ينظر إليه على أنه المدافع عن التسلسل التاريخى التوراتى .

- وسنرى آثار ذلك الطريقة فيما بعد - المهم هو أن حفاوة الليبراليين به لم تضره من وجهة نظر أصحاب الرداء الأسود . هكذا فإن العالم فيما وراء الآلب كان

يفعل مثله عندما تتعلق الأمور بإيطاليا أى أن الرموز التى تظهر حوله كانت تتوجه باستمرار لصالحه فهو ليبرالى فى نظر الليبراليين ومدافع عن العقيدة فى نظر رجال الدين .

إلا أن العوائق ظهرت أولا فى باريس . وخاصة تلك المتعلقة بتمويل الرحلة . وكان الدوق دو بلاكاس قد جعلها شاغله الخاص إلا أنه أراد أن يكون الملك هو منظمها المعلن وأن يكون سفر شامبوليون محملا على ميزانية المدنيته . ولكن صديق الملك واجه معارضة شديدة جعلته يفيد الملك أنه فى حالة رفض الحكومة فإنه سيتولى شخصياً مصاريف الرحلة من حسابه الخاص . لما لها من أهمية علمية . هنا تفتحت سرة الدنانير الملكية قليلا .. !) أن الدوق النبيل رأى أن قيمة التمويل ضعيفة ثم أنها جاءت متأخرة .

فكتب فى ٣ مايو ١٨٢٤ إلى شامبوليون « هـذا العائق البسيط لن يؤخر تنفيذ مشاريعنا [..] البارون دور وتشيلد سيضع تحت تصرفكم المبلغ الذى ترونه ضروريا لكم . ويمكنكم المغادرة متى أردتم وسينتظر رجال الأدب فى شوق معرفة نتائج أبحاثكم الجديدة »

علمنا من رسالة أخرى بخط بلاكاس أن المبلغ الذى وضع تحت تصرف الرحالة لدى السادة دوروتشيلد هو ثلاثة آلاف فرنكا . وأن راعى الفنون لم يرض أن يترك الباحث يغادر البلاد دون أن يسلمة خطابات اعتماد لتورينو مع جوازات سفره . كان الدوق يريد أن يؤكد بدقة متناهية رعايته التى سيتضح أنها لا تقدر بثمن .

فى ٢٥ مايو ١٨٢٤ وصل جان – فرانسوا إلى جرونوبل حيث تعرف كما سبق أن أشرنا على إبنته . فى ٤ يونيو وصل شامبيرى وها هو يوم ٧ يونيو فى تورينو وهو لا يزال متعبا من رحلته ولكنه سعيد . كتب لجاك – جوزيف !

« تورينو فى ٨ يونيو ١٨٢٤ وصلت صباح أمس ياصديقى العزيز فى حالة صحية جيدة جدا إلى هذه العاصمة التى هى دون شك أكثر عواصم أوربا تنظيما فى مبانيها * الطريق من سان ميشيل إلى سوز [..] رائع ولكنه يمر بجوار هوات مرعبة [..] يجب أن يكون للمرء رؤيا آلية ومعتاداً على النظر من أعلى إلى أسفل حتى لايشعر بقلق حاد عند النزول من الجبل .. »

* كلام يؤكد ماهو مؤكد إذ أن تورينو لم تكن فقط « مبنية بنظام » فقط ولكنها كانت رائعة ولاتزال .

استقبل وزير الداخلية « صغير » فى اليوم التالى مباشرة وهو الكونت روجيه دوشولين الذى سلمه التصاريح اللازمة للقيام بابحاثة فى الدروفيتيانا - وهو الاسم الذى أطلق هنا على المجموعة الأثرية والتى وصلت بالقطع الضخمة منها مؤخرا من جنوا محملة على عربات مدافع . ووضعت فى قصر جميل وضع رسوماته فى القرن السابع عشر جوارينو جواينى لكى يكون مدرسة للجيزويت ثم تحول بعد ذلك إلى أكاديمة العلوم . صالات رحبة وممرات واسعة وأسقف عالية وحدائق عظيمة : إنها إطار جميل للجمال .

إذا كنا لا نملك وصفاً بقلم جان فرانسوا عن حادثة : « وجدتها ! » فى ١٤ سبتمبر١٨٢٢ وكل ما لدينا هو بعض ماردده جاك - جوزيف ونقلناه هنا - فإننا نملك وصفًا لإكتشافه السعيد للفن المصرى فى تورينو فى ٩ يونيو ١٨٢٤ . كانت لحظة محملة بالأحاسيس والمعانى أيضا وبنفس القدر ويجب علينا أن نذكر هنا باسهاب ما واقاله عنها لأخيه :

« ... منذ يوم ٩ دخلت المتحف المصرى واعتباراً من هذا اليوم وانا أمضى فيه معظم وقتى .. وانك متشوق جداً دون شك لمعرفة الأخبار . سأقول لك جملة يتتردد هنا : إنه Questo e cosa stupenda * لم اكن أتوقع ثراءاً مثل ذلك . وجدت الساحة مزينة بتماثيل ضخمة من الجرانيت الوردى والبازالت الأخضر . مجموعه إرتفاعها ثمانية أقدام تمثل أمون - رع وإلى جواره الملك حورس إبن امينوفيس الثانى من الأسرة الثامنة عشرة منحوته نحتًا رائعًا . لم أرى شيئا بهذا الجمال أبداً . فى الداخل يوجد تماثيل ضخمه جداً أيضا : تمثال رائع ضخم لمفرا - تحتمس فى حاله رائعة كما لو أنها خرجت لتوها من أتيليه النحات ؟ تمثال من قطعة واحدة إرتفاعه سته أقدام يمثل رمسيس الكبير جالسًا على عرشه بين أمون - رع ونيث ، عمل رائع ؟ تمثال ضخم لموريس من البازالت الأخضر تنفيذه مدهش ، وتمثال واقف لامينوفيس الثانى وتمثال لبتاح من نفس عصر الأمير . ثم مجموعة من الحجر الجيرى للملك امنحوتب وزوجته الملكة اتارى . تمثال للملك رمسيس العظيم أكبر من الحجم الطبيعى . مصنعة مثل الكاميو من البازالت الأخضر ** .. رائع [..] ولا يعبر ذلك سوى عن جزء من المجموعة : لايزال علينا أن نفتح مائتين وثلاثمائة صندوقا أو لفة . ثم فرد سبعة وأربعين مخطوطا فقط والمجموعة تضم مائة وواحد وسبعين [...] إن هذه المجموعة تتخطى أى مديح ممكن . الصديق دوبوا *** سيفتح عينيه للغاية وسيسعد سعادة لا نهائية إن هو رأى الرؤس الجميلة والعظيمة لهذه التماثيل المصنعة بالاسلوب القديم : سأحاول أن أحضر معى نسخًا من الجبس لها ... »

---

* أنه شئ مذهل

** يرى الزائر هذا التمثال اليوم كالبازالت الأسود .

*** صديق شامبوليون ومعاونه فى كتاب « البانتيون »

عن هذه الصدمة التى فاجأته فى ٩ يونيو ١٨٢٤ سيتكلم جان - فرانسوا بأسلوب أكثر إتزانا وخاصة فى أول خطاب له إلى الدوق دوبلاكاس * إلا أن هذه الصدمة الأولى لها طعم لا يبارى فى صدقها وجمالها إنها النظرة الأولى للمحب أو للمعلم . إذ لا ننسى أنه لم يكن يعرف شيئا تقريبا عن الفن المصرى - سوى بعض القطع المتناثرة والبعيدة عن إطارها مجمعة بطريقة أو بأخرى فى مكتبة جرونوبل أو فى المكتب الملكى للآثار أو فى مجموعة دوفان أو تادونا وعند الدوق شوازوال - جوفيية .

فى الثامن من يونيو ١٨٢٤ استقبل أيضا كضيف شرف من وفد يمثل الأكاديمية الملكية البيمونتيه حيث يجتمع من سيصبحون أفضل زملاءه فى البحوث : الأب كوستانزو جازيرا وهو مستشرف والأب أميديو بيرون دارس لغوى يونانى و الأب إيمناتزيو باروكى . مكتبى - وعالم الفلك الكبير جيوفانى بلانا . ولكن أيضا الفارس دى سان كوينتينو الذى كان قد عين لتوه محافظًا للمتحف والذى سيتصارع معه فى مجالات دخلت الأساطير . كان الفارس من دارسى القرون الوسطى المشهورين ولم يكن يتحمل دون مرارة وإنفعال تدخلات هذا الأجنبى الخبير فى مجال محدد لا يمكنه أن ينافسه فيه ولكنه يجمعهما فرضًا ولذلك فإنه سيبذل كل جهده لكى يدمر قدراته العلمية - وسيحاربة مع بعض الحق وبشئ من النجاح فى مجال علم المتاحف التطبيقى لم ينضم سان كوينتيو على الفور إلى معسكر المناهضين لمنهج المكتشف . ولكننا سنراه يعترض بسرعة على المسائل المادية .

فى خطاب شكر أرسله إلى وزير الداخلية الذى يدين له « بحرية الدخول إلى هذا المنجم الثرى » يوصى شامبوليون بسرعة ترميم التماثيل التى تهشمت بعض أطرافها والتى « إعتنى مسيو دروڤيتى بتجميع أجزائها المختلفة » من يمكن أن يعترض على ذلك ؟ غير أنه يقترح أيضًا معالجة البرديات طبقًا للتقنية المعتمدة من مكتب الآثار فى باريس حيث لا تلصق على حرير مثلما يحدث هنا وأنما تثبت على ورق كارتون وهو ما يسمح بحفظها مبوبة وتغلف فى كتاب من حجم الفوليو . فى هذه النقطة قوبل بالنقد ولأسباب صحيحة .

لما اعترض سان كوينتنو على هذه الطريقة الممنوع إستخدامها حاليا ليحل محلها القماش الخفيف من الحرير نجح فى أن يسجل نقطة ضد عالم المصريات . ثم سجل ضده نقط أخرى عندما إعترض على استخدام تقنية النسخ بالبصمة الرطبة التى

(*) راجع فيما بعد الصفحات من 453 إلى 456

محلها القماش الخفيف من الحرير نجح فى أن يسجل نقطة ضد عالم المصريات . ثم سجل ضده نقط أخرى عندما إعترض على استخدام تقنية النسخ بالبصمة الرطبة التى طالب بها شامبليون لما لذلك من خطورة على ألوان الآثار . ولكن ليته كان من الحنكة بأن يأخذ باقتراحات الضيف للكونت روجيه فيما يتعلق بالرتيب العام للمتحف .

« لا يمكن بأى شكل من الأشكال أن يكون رأى سعادتكم بالنسبة للتحف أن يصبح المتحف الملكى المصرى مثل متاحف كثيرة أخرى مزدحماً تتراكم فيه القطع دون ما ترتيب وتوضع فيه دون علاقة بين الواحدة والأخريات . أن الآثار المصرية تتكيف أفضل من غيرها بين الآثار الرومانية واليونانية مع تبويب منهجى وعلمى فى ذات الوقت تحمل كل قطعة على الدوام لوحة مكتوباً عليها بوضوح لا ريب فيه الهدف منها ومن استخدامها . ولا شئ أسهل ولا أصلح من إتباع هذه الإرشادات ومن ترتيب هذه القطع حيث آثار دينية أو تاريخية أو جنائزية .

[..] بمثل هذا الترتيب سنقدم إلى أوربا العلمية لأول مرة سلسلة منهجية من الآثار تعطى بذلك وعلى التوالى فكرة صحيحة ودقيقة عن الديانة والطقوس والعادات وتاريخ هذه الأمه ذاته والتى تدين لها الشعوب التى تزدهر هذه الأيام بأولى عناصر علومها وفنونها وكذلك بأولى مبادئ وضعها الاجتماعى * » .

إلا أن شامبوليون لم يكن ليكتفى بوضع مبادئ صيانة الآثار و سواء كلفته حكومة تورينو أو لم تكلفه بمهمة وضع قائمة رسمية للدروفيتنيا فهو قد بدأ هو إعداد وتقييم ووصف القطع بطريقة منظمة . وكان ما فعله بمثابة « ريبورتاج واقعى » : إذ أن الخطابات التى يرسلها مرتين فى الأسبوع لأخيه كان الهدف من ورائها أن تنشر وقد ظهرت بالفعل ومعظمها منشورة فى Bulletin Férussac

إلا أن طموحه كان يرمى لأبعد من ذلك : اعتماداً على انطباعاته الأولية ومستخدماً إياها كمواد أولية أعد لنشر سلسلة من أربع أو خمس رسائل إلى الدوق دويلاكاس فى هيئة كتاب كتعبير عن الاعتراف بالجميل إزاء الشخص الذى يدين له « بالتمتع بكل هذه الثروات المصرية » وكاعلان جمالى من أجل تأكيد ريادة الفن الفرعونى .

منذ بداية شهر يوليو وكان قد استقر هادئا عند صديقه كوستا وإن كانت حرارة الجو تضايقه بعض الشئ وطنين الأذن المؤلم سيطر عليه ، شرع فى كتابة أول رسالة إلى بلاكاس المخصصة للتماثيل الملكية وتهدف إلى « إعادة بناء الأسرة الثانية عشرة ، أعظمها جميعاً » على حد تأكيده :

« .. أهدف من وراء وصف هذه التماثيل أن أستفيد من كل ما تتيحه من وسائل

* هذا هو المنهج الذى طبقة هو على اللوفر بعد ثلاث سنوات

لإعادة تكوين هذه الأسرة بالكامل وساثبت توافق الآثار مع قائمة أبيدوس وكذلك التناسق مع مانيتون * والقائمة الملكية [..] أن مجموعة تورينو هى فى الواقع أجمل تعليق على قائمة أبيدوس إذ تشتمل على آثار أربعة عشر ملكًا متتاليا من الأسرة الثامنة عشرة . أن هذه الآثار المعاصرة ستكفى دون شك لوضع حد لأكثر الشكوك صلابه وستجعل التاريخ الوضعى يتراجع بنفس المقدار .. »

عالم لغويات « **رسالة إلى مسيو داسييه** » تحول إذن إلى مؤرخ بأن عاد إلى منابع أول العلوم التى قام بتدريسها فى جرونوبل وهو ما زال فى سن المراهقة ؟ نعم ولا .. نعم لان إهتماماته التاريخية أمام التماثيل الملكية والمخطوطات واضحة : ستراه فى المتحف أمام البرديات المهلهلة مثل لارى أمام مجازر الإمبراطورية . إلا أن المؤرخ سيكون فى الوقت ذاته وباستمرار دارسًا للجمال وإلهًا بل ومناضلا : مثال ذلك :

« اجتهدت فى خطابى الأول إلى الدوق فى تقرير وجهة النظر الحقيقية التى يجب أن ينظر بها إلى الفن المصرى أولا ثم فى المستقبل إلى الآثار بذاتها وذلك بناءًا على الواقع الملموس .

إن هذه الرسالة التى قد لا تعجب الونكلمانيين ** الأكثر تشددا لها هدف ثانوى هو إعادة مناقشة موضوع الفن المصرى الذى حكم عليه بتسرع شديد وبدون حيازة المستندات المؤيدة له والتى أراها أمام عينى بمثل هذا العدد الضخم .. »

منذ الرابع من أغسطس بدأ يرسل أول عشرين صفحة من الرسالة الأولى إلى أخيه بعد أن كلفه بنشرها عند دار ديدو طالبا منه أن يدعمها بترتيب زمنى للأسرة الثامنة عشرة . وبدا المشروع مواتيًا خاصة بعد أن عرض عليه ناشر إيطالى نشرها فى تورينو فى حين شرع كوستانزا جاتزيرا - القس المستشرق (وهو فى الواقع مستشرق أكثر منه قسا *** الذى كان يقدره أعظم تقدير فى نشر بحث توضيحى « لمنظومة مسيو شامبوليون مطبقة على المخطوطات الهيروغليفية فى متحف تورينو ».

ظهرت أولى « الرسائل إلى الدوق دوبلاكاس دولبس حول المتحف الملكى المصرى فى « **تورينو** » فى نهاية أغسطس لدى فيرمان ديدو ٢٤ شارع جاكوب تسبقها مقدمة قصيرة كتبها شامبوليون - فيجاك ويتبعها الترتيب التاريخى بقلمه

*أول مؤرخ أو مرتب للأسرات المصرية .

** المعجبين بعالم الجمال الألمانى الكبير وينكلمان (المترجم) .

*** علما بأنه بدأ حياته العملية فى أحد أديرة الكابو سينين .

أيضا . وبناءاً على توصية من المـؤلف أرسلت نسخـة إلى الملك لويس الثامن عشر (الذى سيموت بعد شهر واحد) وأخرى إلى « الصديق يانج * » وكان النجاح الذى ادركته الرسالة عظيماً .

كان فى تصور المؤلف أن تكون هذه الرسالة بمثابة مقدمة لمخاطبات مطولة إذ كان سيعى هذا الإعلان المبدئى عن قيمة ومعنى الفن الفرعونى العديد من التقارير من نفس النوع عن مختلف مظاهر الحضارة المصرية . غير أن الإلتزامات التى كان على المؤلف الوفاء بها وكذلك إضطراره لضمان تسليم الإصدارات الدورية « **للبانتيون** » فى مواعيدها لم يسمح له سوى بنشر رسالتين فقط (أغسطس وديسمبر ١٨٢٦) ومع ذلك فإن هاتين الرسالتين تعتبران « دفاعا وتوضيحا » لفن قدماء المصريين موجها بشجاعة ضد الهيمنة اليونانية وموصولا بذكاء بمنظومة الكتاب التى ربط جان - فرانسوا شامبوليون اسمه بها إلى الأبد .

تبدأ أول رسالة إلى الدوق دوبلاكاس بتحية مزدوجة للملك الذى شرفه المؤلف « بحمايتة المتنورة » وإلى المرسلة إليه فهو العليم بفنون اليونان وروما وتمكن من إدراك عظمة « الشعب العظيم الذى سبقهما .. بأن استقبل فى مكتبه بعضا من المنتجات النادرة لمصر الجادة والغزيرة العلم »

ثم بعد أن أدى التحية الواجبة للعظماء ورفع علم الريادة المصرية أعلن جان - فرانسوا شامبوليون متفاخرا أن « فرنسا كانت أول من دخل هذا الأرشيف الموقر » ثم صفى بعض الحسابات بأن ذكر « أن لسوء الحظ اختطفت من عاصمتنا مجموعة أثرية كان من المفروض أن تكون لها بمثابة زينة أبدية .. » لولا أن « سخاء صاحب الجلالة ملك سردينا احتفظ بها فى تورينو » ليجعل منها « وديعة مشتركة لأوربا كلها » بفضل « حسن إستقباله » للزوار ،

بعد ذلك تبدأ مرافعة عظيمة - هى فى الوقت ذاته عريض إتهام ضد جوهان وينكلمان المُسَبِّح للفن الاغريقى والمنظر لتفوقه المطلق بقدر ما تغذى عبقرية المكتشف المتناقضات وتعظم من شأنها المجادلات .. زاد من حدة هذا الجدل أن قبل ذلك بعام أى فى ٢٤ أبريل ١٨٢٣ ألقى راءول روشات خطاباً أمام الاكاديمية تحت عنوان « بعض الاعتبارات عن فنون مصر القديمة » جمع فيه كل ما قاله مؤيدو الحضارة اليونانية المتحمسين الرافضين لأى حضارة غيرها من التلاميذ التافهين لعالم

* نحن الآن قبل العواصف التى هبت عامى ١٨٢٦ - ١٨٢٧ (راجع فصل ١٠ ، ١٢) .

الجماليات الألماني « كل ما يأتينا من مصر [..] لا يعكس من وجهة نظر الفن سوى ترديد أمام أعيننا نفس الإله وذات الملك ونفس الرجل الذى ليس هو على الرغم من ذلك لا إله ولا ملك ولا رجل » (بمعنى « الفن دون فن » كما قال أراجو)

وهكذا وجدت بلاغة شامبوليون هدفا مزدوجا لتعبر عن نفسها ضدهما : العظيم وينكلمان والهايف روشات :

« إن تاريخ الفن فى مصر لا ينفصم عن تاريخ ملوكها . إن ذات الآثار تشهد فى نفس الوقت لصالح الأول وللآخرين [...] لم أدرك أن تاريخ الفن المصرى لم يكتب بعد إلا عندما وجدت نفسى فى المتحف الملكى بتورينو وسط هذا الكم الكبير من الأنقاض المختلفة لحضارة عتيقة . فى هذا المكان كل شئ يدل على أننا تسرعنا كثيرا فى الحكم على طرقها وعلى تحديد وسائلها وهو الأهم – على توضيح مداها .. [..] إن النظرية التى أسسها ونكلمان والتى تدرس فى أيامنا هذه بناءًا على ما للمعلم من سلطة لم تؤسس سوى على مشاهدة مجموعة صغيرة للغاية من الآثار تجمعت بالصدفة دون إختيار أو تحيز فى متاحف إيطاليا . ثم قيمت فضائلها بتسرع دون معرفة موضوعها ولا الفترات الزمنية التى تعود إليها ولا الهدف الأصلى منها .

[..] تثبت مجموعة التماثيل فى مجموعة دروڤيتى على وجه الخصوص وعلى عكس ما يظنه الرأى العام أن الفنانين المصريين لم يجبروا قط على المحاكاة الجبرية لعدد صغير من الأنماط البدائية بأن يعطوا لهذه الشخصيات التى تمثلها أعمالهم سواء كانوا آلهة أو بشرا عاديين هذا المظهر التقليدى الذى لا يتغير أبداً والذى نتج عن الفحص غير المتعمق له إذ أنه إفترض وجود مثل هذا الاجبار .

[..] لو أننا تحررنا من أى حكم مسبق منحاز تماماً للفن الإغريقى ووضعنا مبادئ ونكلمان فى محك غير منحاز لرؤوس هذه التماثيل [..] لدهشنا من التنوع اللا نهائى للوجوه [..] سواء بالنسبة للقطع الإجمالى أو بالنسبة لأشكال التفاصيل [..] معظم هذه الرؤوس تجمع فيما بينهما نوعًا من التماثل فيما يتعلق بالوضع العام للخطوط يضفى عليها نوعًا من الشبه الأسرى وهو ما نجده فى أعمال أى شعب آخر نقارن بينها [..] فى مصر كما فى أى مكان آخر يحاول الفنانون محاكاة الأشكال التى تقع باستمرا تحت أعينهم ولذلك فإن تماثيلهم تعكس الخطوط المميزة للجنس المصرى [..] ويترتب على ذلك أن إتخذت أحكام منافية للعقل والعدل كلما جرى الحكم على الفن المصرى إذ أن مراجع التقدير أو المقارنة كانت للفن الأغريقى أى لشعب غريب تماماً عن مصر .

[..] نسى الجميع أن المصريين عملوا على محاكاة الطبيعة التى تعرضها عليهم بلادهم فى حين أن الإغريق عملوا ونجحوا فى تجميلها وتغييرهما طبقا لمثل أعلى نجحت عبقريتهم فى اختراعه [..] للعديد من الرؤوس البشرية فى مجموعة دروڤينى أسلوب فخيم ملئ بالتعبير والصدق إنك لاتلاحظ على أى منها هذا الخط الكونتورى الخطأ أو هذا الوجه الشبيه بالصينى الذى اعتقد وينكلمان أنه الجانب المميز للتماثيل الحقيقية [3] يبقى أن نشرح كيف حدث [..] أن هذه الرؤوس الجميلة المصنوعة بدقة ورقة وضعت بشكل عام فوق أجساد نفذت تنفيذاً ركيكا وبإهمال كبير [..] يبدو لى أن ذلك ليس سوى نتيجة طبيعية للمبدأ الجوهرى الذى عليه الفن المصرى إذ يبدو أن هذا الفن – كما سبق أن أشرت فى مجال آخر [4] – لم يهدف فى الأساس إلى نسخ أشكال الطبيعية نسخاً يدوم . بل أنه عمل فقط على تدوين الأفكار أكثر من تصوير الأشياء »

وهنا يصل جان – فرانسوا إلى النقط الجوهرية التى هى رؤيا عبقرية :

إن النحت والتصوير لم يكونا أبداً فى مصر سوى أفرع حقيقية من فروع الكتابة والمحاكاة كان عليها ألا تتخطى نقطة ما فقط . التمثال لم يكن فى الواقع سوى رمزاً عاديا . أى حرفا كتابيا . وبناءاً على ذلك فعندما ينجح الفنان فى التعبير بعناية وصدق عن الجزء الأساسى والمحدد للرمز أى رأس التمثال – وذلك بأن يعبر بصدق عن خطوط الشخصية البشرية الذى يريد أن يذكر فكرتها أو بأن يحاكى بقوة وصدق رأس حيوان يشير إلى هذا الإله أو ذاك – فكان يعتبر أنه بلغ هدفه .. »

ثم يمضى المكتشف فى عرض الأفكار التى أثارتها مشاهدته الأولية لمجموعة دورڤينى والتى أدت بدورها إلى « نظرية فى الفن المصرى قائمة أخيراً على وقائع المشاهدة الواضحة » وبالتالى إلى حكم أكثر عدلا « للجهود المثابرة لشعب كان أول من دخل عالم الفن بأن بنى الأسس الأولى التى شيدت فوقها الحضارة الإنسانية فى الوقت الذى كانت أرض اليونان وربما مازالت تغطيها غابات بكر ولم تعبرها من وقت لآخر سوى شرازم من المتوحشين .. »

ويخلص فى النهاية إلى القول :

« .. لن تجمع الآثار المصرية منذ الآن على إنها أشياء غريبة فقط [..] إن بقايا وجود شعب عظيم ستتبوأ أخيرا المكانة اللائقة بها لتكون أول حلقة فى سلسلة الآثار التاريخية . » الخطاب الأخر لم ينشر سوى بعد عامين ويعبر فيه شامبوليون بفطرية جميلة تجاه أحد خلفاء الفرنج الذين يمثلون نظريا النبالة الفرنسية .

« إنه أصبح أسهل لنا اليوم بناءًا على قوة المستندات الرسمية والأوراق المعاصرة لهم أن نثبت وجود الفراعنة موريس وامينوفيس أو رمسيس ميامون من أثبات وجود أغلب ملوكنا الفرنجة من الجنس الأول » .

إن « جاكوبى » جرونوبل لم يتخلى بالكامل عن مواقفه مهما كانت أرائة الجمالية مستحدثة ومؤلفته بين الكتابة والابداع الفنى والديانة فى مصر القديمة مبدعة ، إلا أن المؤرخ شامبوليون لم ينسى أبداً أن العلوم الفرعونية التى قام بتدريسها تمد جذورها فى المستندات المكتوبة . صيف ١٨٢٤ هو فترة عرسه مع التماثيل العظيمة للملوك الآلهة وكان بمثابة نشوة عالية مطولة أسفرت عنها كما لاحظنا رؤية خلاقة لديه . الخريف سيكرسه للبحث وتجميع البرديات الكثيرة أو ماتبقى منها فى الدروقتينا وإلى ترجمتها .

منذ بداية شهر سبتمبر وجاك – جوزيف شامبوليون – فيجاك يتلقى أسبوعيا بيانا هو فى ذات الوقت نشيد نصر وصرخة إستغاثة :

« مستمر أنا فى دراسة المخطوطات المصرية التى يتضمنها المتحف .

عثرت حتى الآن على ثلاثة أو أربعة احتفالات جنائزية بعضها بالهيروغليفية والبعض الآخر بالهيراطيقية : كثير منها مكتوب بأسلوب رائع . غير أن من المؤسف أن ١٧٥ من هذه المخطوطات ليست سوى نسخ من نفس النص ومع ذلك فإنى أواسى نفسى بأن أتذكر أن كل هذه الطبعات من نص واحد ستوفر لى لدى المقارنة بينها على كمية كبيرة من التفريعات وسأتوصل فى النهاية إلى تكوين قائمة ثرية بالمتجانسات اللفظية .. لقد توصلت بالفعل إلى استخراج أربع أو خمسة مدلولات صوتية جديدة وبهذه الطريقة سأتوصل شيئا فشيئا إلى استكمال مجموعة الحروف الصوتية .

[..] مذكراتى التى أدونها من أجل القواعد الهيروغليفية تزداد سمكا وأخذت أبعاداً محترمة . لست أسفا سوى على شئ واحد هو اكتشافى أن نصف البرديات على الأقل فى حالة تحلل لا تسمح لى بلمسها . يبدو أن الفترة التى أمضتها داخل الصناديق لمدة ثلاث أو أربع سنوات فى ليفورن قد أثر عليها تاثيرا سلبيا للغاية . ثلثها على الأقل تحول إلى طمباق أسبانى .

(..) إليك أيضا موضوعا جديداً مثيرا للفرحة والألم . واصلت وانتهيت من فرد المخطوطات المصريه الموجودة فى المتحف مع التركيز على اللفائف الاكثر صلاحية والأفضل صيانة : فلم أجد سوى أجزاءاً شبه كاملة لشعائر جنائزية تارة لرجل وتارة أخرى لامرأة . لدرجة أن هذه الأساطير الدينية أصبحت تفيض من عينى . قررت منذ ثلاثه أيام أن أتفحص بعناية ما أطلقت عليه اسم « كوم السماد »

أى حوالى عشرين لفافة من البرديات التى سطحت ثم ثنيت مرتين أو ثلاثة مرات ولفت فى قطع من القماش وأغلبها فى حالة يرثى لها وهو ما جعلنى أقرر أن أضعها جانبا على أنها من المخطوطات صعبة التداول (..) ما أمكننى إنقاذه من الغرق يجعلنى أسف إلى الأبد من ضياع مستندات لعلها تكون فى غاية الأهمية بشكل لا يقبل التعويض على الرغم من أن التجار كان بإمكانهم بشىء من العناية والذكاء من المحافظة عليها سليمة تماما لبضعة قرون قادمة »

إلا أن النص البالغ الأهمية فى هذا الإطار هو الخطاب الذى أرسله لأخيه فى ٦ نوفمبر ١٨٢٤ . ولو طلب منا إختيار خمسة أو سته نصوص بقلم چان فرانسوا فقط للابقاء عليها لكان هذا النص منها . التعبير فيها ينم عن نوع من الرومانسية التاريخية التى تذكرنا بشاتوبريان وميشليه ولكن مع شىء مما هو موجود لدى مؤلف الساحرة LA SORCIERE أى أنه قائم على نظام علمى يفرض على الأخرين إحترامه :

« بعدما إنتهيت من فرد البرديات التاريخية التى سبق أن حدثتك عنها أن علمت بالصدفة بوجود بعض بقايا من مخطوطات مصرية فى المخازن ولكنهم أفادونى أن الإطلاع عليها لن يفيد . ولكنى صممت على رؤيتها وتم الإتفاق على وضعها فوق منضدة حيث أتمكن من مراجعتها فى اليوم التالى .

(...) عند دخولى إلى هذه الحجرة والتى أطلقت عليها منذ تلك اللحظة « كولومباريوم التاريخ » تملكنى إحساس ببرودة الموت إذ رأيت منضدة طولها عشرة أقدام تعلوها طبقة من فتات البردى إرتفاعها نحو نصف قدم على الأقل Quis Talia Fando Temperet a Lacrymis* ولكى أسيطر ولو قليلا على أحزانى تصورت أنى لا أرى سوى بقايا اربعمائه أو خمسمائه مخطوطاً جنائزيًا ، وتشجعت فألقيت نظرة على أطول الأجزاء وأقلها تشويها . وإذ بالجرح يزداد إتساعاً وينفجر دماً من قسوة التعرف على [...] النص الذى فى يدى وهو يرجع إلى السنة الرابعة والعشرين من حكم الفرعون أمينوفيس – ممنون . ومنذ تلك اللحظة إتخذت قرارى بأن أراجع قطعة قطعة - كبيرة كانت أو صغيرة - من هذا الهشيم الذى يغطى منضدة البؤس هذه . بدأت المهمة كما يفعل فلاحونا عندما يقومون بتنقية ثمرات اللوز فى أمسيات الخريف ولكن فى

* « كيف يمكن ، عند سرد مثل هذه الأشياء ، أن يحبس المرء دموعه »
ملحمة « الإنييد » .. كتاب ٢ فصل ١ ، ٦ – ٨)

حركات أكثر بطئاً وفى أجواء أقل مرحاً . أهم أدواتى التى لجأت إليها فى عملى كانت هى سن القلم النسخ (الكالك) وكانت تأخذ كل قطعة من المنضدة لتضعها فى يدى ثم بعد مراجعتها بكل دقة من الأمام والخلف كانت تقع فى صندوق الموت .. [..] يستحيل وصف المشاعر التى تملكتنى وأنا أراجع بقايا رفات التاريخ هذه ! إن أكثر الخيال برودة سيرعد لمثل هذا المشهد . كيف تمنع عنك ولو قليل من الإنفعال وأنت تحرك بيدك رفات قرون من التاريخ ؟ واندفعت فى تأملات فلسفية .. لا يوجد فصل واحد عن أرسطو أو أفلاطون فى بلاغة هذا الكوم من البردى . إن منضدتى تقول أكثر مما قالت منضدة سيباس : لقد رأيت وهى تنساب من بين يدى أسماء سنين فقد التاريخ ذكراها وكذلك أسماء آلهة إختفت مذابحها منذ خمسة عشر قرنًا .

كما أنى حملت فى كفى - وأنا أكاد أتنفس خشية أن أهدرها بزفيرى كالدقيق - تلك القطعة الصغيرة من ورق البردى التى كانت المرجع الأخير لذكرى أحد الملوك لعله كان وهو حى يشعر بضآلة قصر الكرنك بالنسبة له !

[..] رأيت فى هذه البقايا الهشة والمفتتة لعالم ذهب إلى أبد ، ما أشاهده . فى عالم اليوم : ان ما يفصل بين التسامى بشئ ومنه خطوة واحدة ... وأن الزمن يسطح كل شئ ويذهب دون تفرقة بكل ما هو عظيم وما هو صغير بكل ما هو هام وما هو تافه وبكل ما هو حزين وما هو مرح ! إلى جوار نص يصف أحد أعمال فترة حكم رمسيس العظيم أجد أخر خاص بطقس دينى يشيد بأعمال رمسيس - ميامون أو بأعمال عاهل أخر - وقعت فى يدى قطعة من كاريكاتور مصرى برسم قطة تحرس البط وفى يدها عصا ، وأخر يظهر فيه شخص يعزف على ناى مزدوج وإلى جانب اسم ولقب المحارب موريس رسم لفأر مسلح فى معركة يطلق خلالها سهامه على محارب من قواته أو لقط ممتطيًا عربة حربية .. هنا أيضا أرى قطعة من طقس جنائزى استغل ظهرها لتحرير عقد بيع وهناك بقايا رسم ملون فاجر لدرجة شنيعة هزّ إيمانى بتعقل وسمو الذوق المصرى *

* تجدر هنا الإشارة إلى شئ غريب للغاية وهو أن عالمين إيطاليين مرموقين جداً هما سيلفيو كورتو ومدام إددا برشيانى - كثيرا ما نرجع إليهما أضافا إلى هذه الجملة ما يلى : « .. إلا إذا اعتبرنا أن هذه الرسومات قد صودرت فى وقتها من السلطات القضائية » . وعندما راجعنا النص الأصلى للخطاب لاحظنا خلو النص منه . فهل يوجد نص تورينى لهذا الخطاب ؟

سيعود جان – فرانسوا فى هذا الخطاب البديع – ٦ نوفمبر ١٨٢٤ – إلى الغوص مرة أخرى فى أعماق الدهر – ومعه سيستعيد أسلوبه الجدلى عند النهاية .

« .. إلا أن أهم بردية وهى التى سأندم عليها إلى الأبد لأنها تبددت تمامًا وكانت كنزا حقيقيا بالنسبة للتاريخ فهى التى كانت تتضمن كشفا بتواريخ الملوك . وكانت بمثابة « قانون ملكى حقيقى » مكتوبة بالخط الهيراطيقى وكانت تضم أربعة أضعاف ما تضمنته قائمة أبيدوس من أسرات فرعونية وهى كاملة . وجمعت من هذا المخطوط الثمين وسط الركام حوالى عشرين قطعة من بوصة أو بوصتين تحتوى على أسماء مطموسة جزئيًا لسبع وسبعين فرعونا . والمدهش فى كل ذلك هو أن لا أحد من السبع وسبعين اسما يشبه هؤلاء المذكورين فى قائمة أبيدوس وإنى مقتنع تماما أنها تعود إلى الأسرات السابقة لها . كما يبدو لى أيضا من المؤكد أن هذا القانون التاريخى مواكب لكافة المخطوطات الأخرى التى جمعتها هنا أى أنها ليست تالية على الأسرة التاسعة عشرة * .

[..] وإليك أيضا أهم هذه الاكتشافات ذات الأهمية العظمى والتى تثير الأسى والسعادة فى ذات الوقت – والتى تجعلنا نرى (وهذا هو جانبها المعزى) : فى إمكاننا أن نتوصل إلى كل مانرجوه من نتائج من أبحاث تجرى بأسلوب منظم فى حالة لو أن حكومتنا قررت أن تصرف بعضًا من المال للحصول على آثار مصرية . غير أننى أشك فى هذا وذلك لأنه من المشرف ومن الأفضل أن نفعله »

إنه درس فى علم الجمال وفى التاريخ وفى علوم اللغة .

سيمضى جان – فرانسوا على هذه الدروب الثلاثة فى طريقه المؤدى إلى حل شفرة الهيروغليفيات بأن إستعان بوجهات النظر التى تتيحها له . وسط هذا الكم الكبير من ركام المستندات المتهالكة أخذت قرون الزمن تخرج من أكفانها ... وفى الخامس عشر من نوفمبر يعلن هذا الفلاح لأخيه الأكبر أنه « إنتهى من فرز ثمرات اللوز » .

وفى الثالث والعشرين من نوفمبر يصدر بلاغًا بالانتصار ويرسله لجاك – جوزيف .

– « وصلتنى لفافة لم أكن أنتظرها من مصر ولا أعرف مرسلها فقذفت بى إلى أبحاث لم أنتهى منها بعد وإن كنت أنتظر الحصول منها على نتائج جيدة . أى على معرفة تامة وكاملة لمنظومة الترقيم وتسجيل الزمن فى

* تظهر فى نص الرسالة نشرتها مدام بوريوان (ص ١٨٨) هذه الجملة : « إن ما يمكن إستخلاصه من هذه الحقيقة الهامة هو أن ٢٠٠ ملكا مصريا سبقوا هذا التاريخ »

الكتابات المصرية الثلاثة ويمكننى أن أعلن لك أن تلك النقاط هى بالكامل بين يدى . ولم يبق سوى جمعها .. وهى موجودة مرة أخرى وسط كوم من ركام البرديات والذى يجمع المواد جميعا . لا يوجد الآن نص واحد سواء هيروغليفى أو هيراطيقى أو ديموطيقى يمكنه أن يتسبب لى فى حرج : وإنى أكتشفهم بكل سعادة : العام الشهر واليوم » .

ها هو التلميذ شامبوليون يحرز التقدم .. ولكن مهما كان هذا التلميذ القديم للأب دوسار نجيبا فهو لا ينسى أن يحدث ضجة . فلنسمعه وهو يتكلم عن رجال السلطة :

« .. خطاب وصلنى من فلورنسا أفادنى بوصول جمرك ليڤوريه طرد ضخم يضم برديات مصرية يمتلكها مسيو سولت * ويبدو أن هذه المخطوطات معروضة للبيع . وسيرسلون لى عن قريب مذكرة إجمالية بما تتضمنه . غير أننى لن أحصل عليها سوى لكى تثير أعصابى لأنى على يقين من أنهم لن يفعلوا شيئا بخصوص باريس ** من أجل الحصول على أهم هذه البرديات . وددت لو أن أصحاب السلطة كبار وصغارا جاءوا ليمضوا يوما أو يومين فى متحف تورينو ليسمعوا النعوت التمجيدية لهم التى يطلقها زوار المجموعة من الفرنسيين . لم أجد واحداً لم يعرب عن أسفة لضياع هذه الآثار على فرنسا بسبب العقول الميكروسكوبية لعظمائنا السياسيين أنه حفل موسيقى مستمر من الدعاء عليهم وإنى بدورى أقوم بواجبى المقدس فى توجيهه إلى العنوان الصحيح *** ..)

أذا كان شعورة يزداد بأنه « إيطالى بالقلب » فكان ذلك يرجع أن ما يصل إليه من أبناء باريس لم يكن بالنسبة له سوى خيبة أمل . كل يوم كان يمر عليه وهو فى الدروفيتينا كان يزيد من حنقه على الذين رفضوا أن ترى هذه الكنوز متحف اللوفر وسيعد له المحيط العلمى في باريس الذى يكرهه - ماعدا داسييه - إصابة جديدة .

بعد وفاة شخص إسمه برناردى شغر مركز فى أكاديمية المحفوظات والآداب : شامبوليون - فيجاك - الذى فشل قبل ذلك مرة - كان يتحرق شوقا لأن يقبل فى الاكاديمية . ولكن تحالف قام يناهضه . ولكى يسد الطريق أمامه إقترح بعضهم عضوية جان - فرانسوا للمنصب الا أن هذا الأخير شعر بالإهانة وكتب إلى أخيه الأكبر : لا أريد كرسيهم إلاإذا كان فى إمكانى أن أجلس إلى جوارك » ثم نراه يمتطى جواده مرة أخرى ويهاجم :

* قنصل إنجلترا فى إسكندرية . وهو أيضا عالم مصريات مقتدر وهو تلميذ لشامبوليون ومنافس له .

** سنرى أن جان فرانسوا كان ولو لمرة واحدة متشائما أكثر مما يجب وأن الحكومة الفرنسية ستقدم فى النهاية على شراء هذه البردية ضمن مجموعة سولت باكملها .

*** وزير الداخلية : كوربنار

« وإنى على العموم مقتنع أنهم لا يريدونك ولا يريدونى كذلك وأنهم يفضلون حشو الأكاديمية بعدة دستات من « قارعى الرؤوس العنيدة » على حد قول شيخنا * على أن يفتحوا الباب أمام أشخاص لديهم شجاعة تكوين آرائهم الخاصة . فإذا كان فى هذا يريحهم ، فليكن [..] وإذا فشلت فإننا سنسعد بمعرفة من هم أعدائنا . ويكون علينا بعد ذلك أن نتصرف تجاه كل فرد بما يستحقه . لم يعد هناك أى حرج فى مواجهة أى شخص وسوف نلعن جميع المتآمرين وكل المؤامرات .

العقدة كلها تتلخص فى ذلك [...] لم تكن فى حاجة أن تسألنى لمعرفة ما أفكر فيه وما أريده . ركز إذن على الهدف وبكل وضوح ولا تقدم أى نوع من التنازلات – لايوجد حل وسط. In medio stat virus non virtus ** .

بعد مرور أسبوعين كل شئ أتضح وفشل شامبوليون – فيجاك فى الحصول على العضوية وفى ١٣ ديسمبر ١٨٢٤ انفث چان – فرانسوا عن غضبه :

« علمت من الجورنال دى دبيا الذى وصل يوم الجمعة يا صديقى العزيز نتيجة الصراع وآليات اللعبة . ليترون *** يمكنه أن يعتمد على عرفانى بجميله وسينال جزائه فى الوقت والمكان المناسبين لم تذكر لى إن كان خطابى قد سلم للأرمنى **** فى جميع الأحوال فإن أسمه قد محى من القائمة .

[..] ترى إذن كيف أننى أوافق قلبا وقالبًا على ما خلص إليه معلمنا المبجل *

---

* داسييه

** فى الوسط يوجد الإثم لا الفضيلة . !

*** أهم شخصية اشتركت فى عملية الاقتراع ولذلك فإن جان – فرانسوا يعزى إليه فشل أخيه .

**** أى سان مارتان الذى كتب له « صغيرى » يطلب منه مساعدة أخيه إلا أن هذا الآخير عدل عن تسليمها بسبب وضوح موقفه المناهض له .

وأنى فى غاية التأثر للمضايقات الجديدة التى لابد وأن هذه القضية برمتها سببتها له . أفضل شئ فعلته هو أنك قررت العدول فى المستقبل عن أن أتسبب له مضايقات كهذه وأن تحرجه - إن أمكن القول - مع أوغاد يدينون له بكل ما فى حوزتهم . لقد أعلنت الاكاديمية طلاقها البائن منا وسنعرف كيف نواسى أنفسنا بما نقش على ضريح بيرون *

[..] أما جومار الذى تسبب مكره الحقير فى إفساد العملية كلها فهو رجل ميت . إنه لم يرنى بعد اذا استخدمنا طريقته فى التعبير - سوى فى هيئة أوزيريس الرحيم ذى رأس الأيبيس أو الحمل إنى اعد له ظهوراً معتنى به على هيئة تمساح وسبع البحر وسنرى حينذاك كيف سيكون حاله فى هذه الظروف الالهية . ومهما حاول ساعتها أن يحتجب وأن يحيط نفسه بالحجاب المقدس للأسرار فسأمزق الغطاء لأجعل المؤمنين يشاهدون كيف أن الكاهن الأعظم ليس سوى أحد الغرباء على أرض مصر من رعاة غنم وهيكسوس ** الذى وضع على رأسه بسلطته هو وحده - البشنت *** ويدعى التحكم فى المناطق العليا والسفلى » .

اليس هذا هو صديقنا چان فرانسوا الذى نلقاه من جديد فى صورته التى نعرفها أو الدوفينى « المعفرت » الجاسكونى المتشوق لاستلال سيفه ، والمراهق إلى الأبد الذى يعشق أن يكون غاضباً وهو دائم الحماس لتراث قديم من التزمت العلمى . سينال هو نفسه نصيبه من أثاره ولكنه الآن يتعبد بجسده وروحه لمصره العزيزة . فى ٣ ديسمبر ١٨٢٤ كتب وهو لايزال يرتعش من الغضب لم حدث لأخيه - إلى صديقة دوبوا . رسام كتابه « **البانتيون المصرى** » : -

« ... حصلت أخيرا على الموافقة على تجميع قطع تمثال سيزوستريس الذى حدثتك عنه فى رسالتى الأولى . لا ينقص منه شيء وعندما أتأمل جمال وكمال هذا الوجه الضخم الرائع فإنى أندم على أنى لم أحدثك بما يكفى فى رسالتى عن روعة الفن المصرى . إن هذا التمثال كان سيسحركم وكنتم ستقولون معى دون شك :

---

* « هنا يرقد بيرون الذى لم يكن شيئا ولا حتى عضو الاكاديمية »

** الهيكسوس أو الرعاة غزاة مصر الملعونون .

*** غطاء الرأس الملكى .

كل يوم أراها من ستة شهور كاملة مرت .

وأخالنى دائما أراها لأول مرة *

أنا باختصار أعشق هذا التمثال وسأصل إلى باريس وفى حوزتى نسخة مصبوبة من الجص للنصف الأعلى منه وسترون ساعتها إذا كان ولعى به له ما يبرره . إن الرأس إلهى الجمال ، الساقين والقدمين رائعة والجسد مرن - إنى أسميه أبولون البلڤدير المصرى ».

كانت هذه الجملة سببًا فى السخرية منه . إذ أنه اختار رائعة من روائع الفن الاغريقى كمثل أعلى ! أفليس فى ذلك أعتراف بصحة وجهة نظر وينكلمان ؟ يجب ألا ننسى أنه يتحدث إلى مجتمع جبل على تمجيد كل ما هو يونانى فأصبحت كل مراجعه يونانية . فأن يقال عن نابوليون على سبيل المثال أنه القيصر الفرنسى لا يعنى أنه أقل شأنا من سلفة . إن المرجع هنا يعتبر من أساليب التعبير وليس إعتراف بالولاية ، وليس من الكلام المرسل وليست لترتيب الأوليات وواضح من سياق حديث شامبوليون أنه أراد أن يوضح أننا بصدد سلم قيم مختلف .

« فى تورينو كما فى باريس الأوغاد كثيرون . هنا كما هو الحال عندنا الغباء يتحكم والشر ينتشر » إحتاج مكتشفنا ثمانية أشهر كاملة ليكتشف أن البيمونت ليس الجنة ، إلا أنه يضيف متحدثا عن « الأوغاد » « هنا على الأقل فإنهم يقتصون منهم .»

« الوغد » هنا حسبما يقول « صغير » ليس جومار ولا كاترومار وإنما هو الفارس جوليو كورديرو دى سان كوينتينو مدير المتحف الملكى المصرى . لم تكن الصفات الحميدة تنقص هذا الرجل إذ كان مؤرخا جيدا وكان يتمتع بصفات محافظ المتحف الجيد ونجح لحسن الحظ فى إعلاء أرائه أحيانا على أراء شامبوليون .. ولكن كيف لا يتضايق هذا الموظف الكبير من التفوق الفكرى الذى يبديه الأجنبى فى المجال المصرى ومن الامتيازات التى يتمتع بها ؟ ولذلك كان الجو مشحونًا بالتوتر . وتكررت الأحداث التى لم ترجع كلها إلى غيرة سان كويتينو . وإذا كان « محافظ المتحف » قد أخطأ فإن ذلك يرجع إلى أنه لجأ إلى «سرقة أعمال غيره » ** ثم عندما أكتشف أمره وغطاه الخزى قرر أن ينضم إلى شلة « طافئ الأنوار» فى مواجهة المكتشف « عدو الدين » .لم

---

* مسرحية بيرينس لراسين الفصل الثانى المشهد الثانى (إلا أن تيتوس يقول « خمس سنوات كاملة ») .

** نشرفى كتاب باسمة بعض الاكتشافات التى قام بها جيف شامبوليون متعلقة بالنظام الترقيمى المصرى (أنظر فيما بعد . ص . ص .

تكن جميع حلقات هذه الحرب الصغيرة مشرفة بالنسبة لچان فرانسوا . وإذا كنا نذكر ذلك هنا ، فليس لأننا نريد أن نعيد ذكرياتها - التى غطت عليها المكاسب التى حصل عليها شامبوليون من البيميونتين - وإنما لكيلا نكون قد حجبنا جانب من سمات شخصية المكتشف فقد كان مزاجه ينزع إلى الصراعات أكثر مما كانت تحتمله الظروف .

مثال ذلك هذا الخطاب الذى وجهه فى ١٨ ديسمبر ١٨٢٤ إلى الكونت روجية دو شاليه فبعد أن ضمن حمايته له وراح يكيل الاتهامات ضد « المسيو دوسان كانتان » مثل التلميذ الذى سرقوا منه لعبته متمادياً فى استغلال هذه الحماية . فبعد أن أمتدح نفسه لانه أنقذ العديد من البرديات التى كانت فتات لا شكل لها ولولاه « كانت ضاعت إلى الأبد » عبر عن دهشته مع شئ من النفاق ، إذاء « تباعد » المدير . ثم يضيف دون أن يتردد فى اللجوء إلى نوع من الابتزاز :

« إذا منعت من ممارسة التسهيلات التى رأيتم ياصاحب السعادة منحى إياها فإنى سأكون مضطراً إلى إيقاف نشر رسائلى إلى مسيوبو بلاكاس التى كانت ستجعل الناس يقدرون عظمة المتحف الملكى ، فهى تلقى الضوء على مختلف أنواع الثروات التى يضمها . سأترك ساعتها هذا الأمر بين يدى السيد المدير أو أى شخص آخر سيرى أنه فى إمكانه أن يفعل ما أفعله أو أفضل مما أفعله أنا . ولكن سيكون من الصعب علىّ أن أرى حكومة صاحب الجلالة السردى وقد اقتنت هذا الكم من الآثار الثمينة بكل هذا السخاء دون أن تحصل لنفسها على المجد الذى تستحقه ودون أن يجنى العلم مايتوقعه من معارف تكشف عنها هذه المجموعة من الآثار المرتبة والمعروضة بشكل مناسب . ستغفرون يامونسينيور هذه الصراحة الزائدة عن الحد التى دفعتنى إلى أن أتكلم لأنه كلام صادر من شخص كرس حياته كلها للدراسات المصرية وقد يستشعر أكثر من أى فرد أخر الاهمية العظمى التى تتمثل فى الاشياء التى يضمها متحف صاحب الجلالة ... »

لاشيء مما قاله يشوبه الخطأ ولكن ليس كل ما قاله أيضا سليمًا تمامًا ويجب عليه ألا يندهش من « التباعد » المتزايد للمدير عنه لأن الرجل الذى عومل بهذه الطريقة لا يمكنه أن يبقى صافى النفس .

وينطبق ذلك أيضا على البلاط الملكى إذ سيعبر شامبوليون عن دهشته لابعاده

عنه وهو الذى نجح فى تخطى تحفظات آل بوربون ، وسيعامله ملوك روما ونابولى وفلورنسا كصديق لهم . لأنه إذا كان يريد أن يحظى برضاء الملك لم يكن من اللائق أن يرسل له ولا حتى بطريقة غير مباشرة « التماساً من الفرعون أو سيمانديياس » مكتوب بلهجة السعيد بسفاقته .

لأن سان كوتينتيز قرر إبعاد تمثال ضخم للفرعون سيتى الثانى (أطلق عليه الرحالة اليونانيون اسم أوزيمانديياس) ووضعه فى فناء المتحف كتب شامبوليون هذا المنشور الذى يسخر فيه من مدير المتحف الذى عينه الملك (ومن الملك نفسه ...) ووزع فى شوارع تورينو . إذا كان تصرفه هذا قد حدث فى ظل حكم ملك رواية ستا ندال إرنست رانوتشى الرابع وليس كارلو - فيليشى الأول لكان أقتيد مطروداً إلى الحدود ... ما قاله أوزيمانديياس هو :

« .. .. .. جاءوا بى يا مولاى وسط اهانات يكيلونها لكرامتى ليصلوا بها إلى الحضيض فبدلا من إصطحابى إلى قصر فخم تركونى فى عشة فراخ معرضاً فى وحدتى التامه إلى كافة الصعوبات خاصة الأن ، إذ تصل درجة حرارة هذا البلد إلى مستويات مؤلمة ، لم أعاين مثلها أبداً . وهذا بالذات هو ما يجعلنى استغيث بعدالتكم ورحمتكم يا صاحب الجلالة فبدلاً من تعريضى لاهانات الطقس إمنحونى هنداماً أصفر مطرزاً بالأخضر مثلما أعطيتم لبعض زملائى بل وأيضاً لبعض القطط وحيوانات أخرى لم تكن تتوقع قط الحصول على مثل هذه النعم * . لقد غطونى بكل فظاظة بتلال من القش ، وإنى أغتنم فرصة اللحظة المتبقية لى - إذ أن هذا الغطاء المضحك وصل حتى ذقنى - لافتح فمى وأتقدم بشكواى بأعلى صوت من هذه الأهانه .

ماذا !! فرعون الذى غزا باكتريان على رأس سبعمائة ألف محارب والذى شيد أعظم مبانى طيبة لن يكون الأن سوى ملك من قش أو إذا كان لا بد أن تقال فالكلمة هى : ملك محشو بالقش ؟ لا يا مولاى إن جلالتكم لن تسمح بذلك أبداً . بعد أن عرفتم الأن المحنة التى أمر بها وإنى ألتمس من جلالتكم العدل . أنا ملك ويجب أن أعامل كملك وهذه الجملة تلخص ما أنتظره . كما أنى أطالب كتعويض ضرورى أن من أخترع هذا الزى المخجل الذى أتحفت به يجب أن يحشى بالقش لكى يرسل على الفور إلى متحف التاريخ الطبيعى - هذا هو العدل . »

متاعب ثانوية بالمقارنة بهذا الكم من الصداقات التى عقدها مع اعضاء المجتمع

* كان أهل تورينو يسخرون من بعض « الملابس » الذى رأى سان كوينتينو ! اتحاف بعض التماثيل بها .

البيمونتى من التعاطفين معه سواء فى الأوساط العلمية مثل جيوفانى بلانا عالم الفلك والأب جازيرا وآلان بيرون والكونت فيدوا وأخرين – والأوساط الأرسطوقراطية الليبرالية وعلى رأسها الأمير دوسافوا – كارينيان والكونت والكونتيسة سكلوبيس والكونت بروسبيرو بالبو وأبنه شيزارى وعائلة سالوتزو * بدءاً بالكونتسة ديودانا « سافو البيمونت » . تذكر هنا ما قاله فى هذه الصدد لأخيه « يقف فى صفى السلطة التنفيذية ورعاية الوزير والأكاديمية والرأى العام ... »

فى خطاب آخر كتبه شامبليون بعد ذلك بعام إلى صديقه دوفليار الذى كان ينوى اللحاق به فى إيطاليا – وكان يقطن ليفورن حينذاك رسم بورتريهات سريعة وطريفة لبعض أصدقائه التورينيين « ... إتصل بالأب جاتزيرا الذى هو أب بالاسم فقط وهو من أصدقائى { ... } وإذا أردت أن تأخذ لك مرشدا يكون من المهرجين فاتصل من طرفى بمسيو لوى كوستا وزير الدولة : إنه من الشخصيات المحبة للحياة ، وستكون سعيداً معه ... »

لم يرى شامبليون فى هؤلاء المناصرين له أنهم « مشجعين » مجهولين يستخدمهم لأغراضه الشخصية أو العلمية فحسب بل إنه كان يكن لهم تقديرا عظيماً ، وهو ينقل عن الأخرين أنهم قالوا عن جاتزيرا أنه « ياوره » فى حين أنه يردد له العديد من تعبيرات التقدير كما أنه يصف بالبو بأنه « رجل سامى الأخلاق » . هل كان فى مقدوره أن يحكم على الموهبة الشاعرية لديوداتادى سالوتزو ** إنه يتكلم عنها باعجاب خال تماماً من الرياء الاجتماعى ... ولكن بشيء من التفرد إذ أنه أكثر الناس تأثراً بتقدير الأرسطوقراطيين له وهو المؤيد للجمهورية . مستوى العلاقة بين طبقة النبلاء البيمونتيين والضيف لعبت فيه السياسة دورا حيوياً . كانت هذه الاريستوقراطية كمثيلتها فى باريس حيث نشط آل دودفيل ولارو شفوكو من أجل تنمية التعليم العام وحرية الرأى ، ترفض سياسة الملك المحافظة وتتحرك بدافع المشاعر الملتهبة التى سبقت فترة النهضة الإيطالية « Risorgimento » قد رأت فى شامبليون بونابارتا مسالماً حاملاً لمشاعل منيرة ولكنها ليست حارقة . كانوا ينظرون إليه فى تورينو ، أنه المحرر – وإذا وجد أحد يشك فى ذلك فما عليه إلا أن ينظر إلى الجهة التى تأتى منها الحركات المناهضة له ...

* تنطق سالوس فى الناحية الأخرى من بلاد الألب . وهى الأسرة التى اهتم شامبليون وكوستا بأمورها فى جرونوبل عام ١٨١٨ .

** أرملة الكونت دوريفال كتبت على وجه الخصوص « قصيدة فلسفية » عنوانها ابياتزيا تجرى أحداثها فى الاسكندرية داخل معبد لإيزيس .

ليس مــعنى ذلك أن « **صغير** » خصص وقتـه كله لخوض مـعارك حـول فنون ترتيب المتـاحف و لصراعـات القوى وأصـول الاتيكيت أو إنه لعب دور البـائع المتـجول الذى يروج لمبادىء الثورة فى الأوساط البونابارتية المتطرفة أو بين الكاربوناريين الجدد . ظل وسيظل چان – فرانسوا شامبوليون عالم مصريات خالصًا « مكرسًا طـاقته كلـها لمهمته على المستويات الثلاثة : اللغوية والتاريخية والجمالية » .

كتب سيلفيو كورتو يقول إنه اندفع فى هذه المهمة بنشاط هائل وبصرف النظر عما يمكن تسميته « ببيانه عن سيادة » الفن المصرى وهو ما يميز أول رسائله إلى الدوق دوبلا كاس وعن غوصه فى أعماق ألاف السنين من التاريخ التى أخرجها «كوم» البرديات فقد دعم منجزاته التى تضمنها كتابه « **المختصر** » الصادر فى فبراير ١٨٢٤ وذلك فى مجالين : من وجة النظر اللغوية أوضحت الرسالة التى كتبها فى ١٢ فبراير ١٨٢٥ إلى ڤيلهالم ڤون هومبولدت الذى كان يعتبر حينذاك صاحب الكلمة العليا فى مجال علم اللغة فى أوروبا ، أنه قد عمق ، العلم الذى أسسه عن الصوتيات المترادفة ، وهى إحدى المعطيات الجوهرية فى الكتابة الهيروغليفيه ، ومن وجهة النظر التاريخية فإن إكتشافاته المتعلقة بمنظومة الأرقام المصرية قد صححت كثيرا من المعلومات الواردة فى « **وصف مصر** » – وهو مالن يغفروه له أبدًا !

كشفت رسالته إلى هومبولدت كم كان أكتشاف ١٨٢٢ يحتاج إلى تعميق ومراجعة فهو إذ يكتب إلى أحد العلماء – الذين تأخذ مراسلتهم على الفور بعدًا وصدى الحدث العام ، لا يخفى شامبوليون أيًا من شكوكه ولا أيًا من الاخطاء التى إرتبكها ولا أى حيرة انتابته . نادرًا ماعبر فكره العلمى ، أى التشكك الدائم فى نفسه ، بهذا الاسلوب الصادق وبهذه الدرجة المؤثرة . إن العبقرية لا تفعل ما تريد وأنما ما تقدر عليه . إنه يتلعثم ويتراجع ثم يندفع من جديد ثم يخلص فى النهاية كما يفعل دائما بالاسلوب الذى يميز شامبوليون وهو خليط من تواضع الباحث وحدة نبرة المجادل .

« ... وددت لو فاض سرورى بأن أتمكن من تبديد كافة شكوكم وأن أقرر بثقة حسم كافة الصعوبات . غير أن علمى بالهيروغليفية لم يصل إلى هذا المستوى بعد لعله تقدم فقط بما يسمح بلمحة على المسافة الشاسعة التى سيتعين عليه أن يعبرها دون ما عائق فى دهاليز الكتابة المقدسة . أرى الطريق الذى يجب السير فيه وأعرف الوسائل التى يجب الأخذ بها للتقدم بخطى واثقة على هذا الدرب الجديد جدًا والثرى جدًا . إلا أننى لا أعرف إن كان عناء رجل واحد وحياته كلها تكفى لأداء مثل

هذه المهمة الضخمة * . مهما حدث سأستمر فى أبحاثى وإنى أجرى وراء الآثار الأصلية وهى المرشد الوحيد الذى يمكننا أن نتبعه دون أن نخاطر بشىء يعطلنا ، كما حدث لى بالفعل طوال عشر سنوات بسبب النسخ غير الدقيقة المنشورة فى الكتاب الضخم للجنة المصرية ... »

يعتبر أهم نصر حققه شامبليون فى المجال التاريخى فى تورينو على الأرجح هو فهمه للمنظومة الرقمية التى كشفت عنها برديات الدروفيتيانا فقد أعلن فى يناير ١٨٢٥ منتصراً إلى جاك – چوزيف أنه ألقى الضوء على :

« (١) أسماء الشهور بالديموطيقية والهيراطيقية – (٢) الأرقام الهيراطيقية المخصصة لعد الأشياء والسنين على وجه الخصوص (٣) الأرقام المقابلة فى الديموطيقية (٤) الأرقام الهيراطيقية لتحديد رقم لأيام الشهور . (٥) الأرقام الديموطيقية المقابلة . هذه هى نتيجة عملى منذ شهر . حيث كنت مضطرا أن أقوم بعملية ترقيم حقيقية لكى أضمن المدلول الصادق لكل هذه الحروف ولكى أتبع خطوة بخطوة وأراجع حسابات أحد الكتبة واسمه تحوتموزيس .عثرت على الجزء الأكبر من دفاتر وارداته منذ اليوم الحادى عشر من شهر باوبى حتى الثالث عشر من شهر بهارموتى من العام ١٢ من عصر رمسيس الخامس من الأسرة التاسعة عشر » .

ثم أوضح أن كافة النتائج التى توصل إليها عرضها على الفلكى العظيم جيوڤانى بلانا فى تورينو فأكد صحتها وهو ما جعله يعبر عن سعادته الجمة :

« ... نجحت فى حل مشكلة عويصة بأن تمكنت دون أى مجال للشك من تحديد المدلول الدقيق لهذه المجموعة من الرموز التى كان يجب التعرف عليها أولا ثم أخراجها على انها أرقام . لم يكن فى استطاعة الأشكال الهيروغليفية أن ترشدنى لشئ ، لأن إعتباراً من الرقم ٥ لا يوجد تماثل بين النظامين ، فكان يجب أن أحذر أن هؤلاء المصريين أصحاب الفكر المتعنت قد عن لهم على سبيل المثال أن يكتبوا اليوم الرابع عشر من الشهر بالأرقام ١٠ ، ٢ و ٢ ، والخامس عشر ١٠ ، ٣ ، ٢ إنى أشكر الله بأن أرسم على صدرى علامة الصليب لما ألهم به قريحتى عندما أدرس إتفاقيات التعاقد . فأجد أولى كلماتها تتضمن عدداً هائلا من الأرقام

---

* عالم المصريات الايطالى سيرجيو دونادونى كتب Civilta egiziana (ص ٧) « أن مجهوده كان أكثر من بشرى » .

المتراكمة - رقم العام وعدد الشهر واليوم فى الشهر - كل ذلك متراكماً . علماً بأنه يتبع منظومتين مختلفتين للترقيم ، وكان يتعين على أن أفرق بينهما .. »

ملحوظة أخيرة فى الخطاب إلى جاك - چوريف : « لاتجعل أى ضبع من أى نوع أسود أو أشقر أو أصفر أو أخضر يطلع على ذلك .. »

ومع ذلـك فإنه أطلع هو ذاته توماس يانج على ذلـك ، فهو لم يكن يعتبره - أو ربما لم يكن يعتبره بعد - من الضباع .. »

توجت « حملة البيمونت » هذه التى اتسمت - حسب قول چان فرانسوا ذاته - بما اتسمت به فيما مضى الحملات الفرنسية من ضراوة - بانتخاب الزائر عضوا مراسلا لأكاديمية تورينو للعلوم . وصاحب هذا الانتخاب تعليق لم يصدر من قبل قط - يوضح الاساس التى قام عليه قرار الناخبين « ... عشية سفر مسيو شامبوليون من هذه العاصمة - تعبر الجمعية عن تقديرها العميق للأعمال العلمية للمتلقى . وعلى الفور يكتب « المتلقى » لأخيه ليقول له أن أكاديمية تورينو ضمتهما معًا . وإذا كان بعض المنتخبين (يقصد ليترون وريمورا) قد صوت لهم هذا أو ذاك ، فبالنسبة لنا كان الجميع يريدنا وتم إختيارنا بالاجماع »

وعليه كتب چان فرانسوا رسالة شكر إلى السكرتير الدائم تسللت إليها بعض المشاغبات اللاذعة : « .. يزداد تقديرى لهذا اللقب الرفيع بمقدار معرفتى بأنى مدين به لكرم معظم أعضاء هذه الهيئة العلمية وهو الكرم الذى استمر » معظم الأعضاء يغمرنى به .

هل قلنا تتويج ؟ كلا إذ أن البيمونتيين سيدفعون ولعهم الشامبليونى إلى أبعد من ذلك ، فعشية سفره إلى روما (الذى عجل به وصول الدوق دو بلاكاس إليها « مثل طلقة الرصاص » بعد أن عين سفيرا فى نابولى والذى حضه إلى لقاءه هناك فى أقرب وقت بعد إقامة قصيرة فى المدينة الأميرية) عرض عليه ما قد يغير من حياته كلها . فلتعرف على هذا العرض منه شخصيا :

« ٢٨ فبراير ١٨٢٥

... وأنا أهم بالسفر قدم إلى عرض على درجة عالية من الخطورة جعلنى لا أبت فيه

بشيء قبل أن أراجعه معك مسبقًا ومع « المعلم » راجيا أن يكون فى استطاعته إعطاء رأيه فى هذه الظروف . تنوى حكومة صاحب الجلاله ملك ساردينيا إرسال قائم بالأعمال الدبلوماسية إلى مصر . وقيل لى أن الوزير يعرض علّى القيام بهذه الرحلة لحساب صاحب الجلالة .

وبما أنه من العدل فى – حالة قبولى – أن أفكر فى مستقبلى فإنهم يضمنون لى لدى عودتى إلى تورينو بعض المكاسب وذلك بأن يضمنونى بأفضل الشروط المادية الممكنة إلى الهيئة التعليمية . ولكن الموضوع الأساسى هو أن أصبح إيطالى الجنسية – إنهم فى عجلة من أمرهم ويريدون حتى تعليق سفرى إلى روما . إلا أننى مصر على السفر وساكون بذلك أكثر تحرراً فى ردودى التى أترك تحريرها لكياستك . فكر فى الأمر إذن واستشر وحدد لى الخط الذى أتبعه ... »

يستحق رد شامبليون – فيجاك أن يذكر هنا هو أيضًا إذ يستعرض فيه الاخ والأب الروحى ومدير الأعمال كافة الوسائل الشوفينية مازجا إياها بنصائح لمن يريد الارتقاء فى مهنته :

« .. العمل مع الأجنبى تفوح منه رائحة المغامرة . وهو ما لا يصلح سوى لمن كان غير كفء فى بلاده . الذهاب إلى مصر بحثًا عن الأحجار هو عمل يصلح له من كان مثل كايو * وغيره من الذين يتمتعون بأقدام صلبة .. ومعدة قوية . أما عملك أنت فهو الاستكشاف الصامت داخل مكتبك لنتائج استكشافات هؤلاء الرواد ** أما المنافع المستقبلية فهى تافهة ومن الأفضل أن نقضى عمرنا وسط أصدقاء نا على أن نقضيه وسط أجانب يشعرون دائما ولو بقدر قليل من الغيرة [...] من الأفضل أن تكون الأول فى بلدك عن أن تكون الأول عند الاخرين .

---

*عالم الطبيعة النانتى (من مدينة نانت) المقدام .

** ستقضى تمامًا ثمانية عشرة شهرا من حياة شامبليون على هذا التصور الغريب لمهنة عالم المصريات !

« يوجد على العموم شئ عظيم فى كل ذلك وهو أن تنقل للدوق * ما يجرى وتظهر له أنك ميال لذلك . إن ذلك سيحفزه على أن يرغم أفاكى باريس ، ويمكنه الإسراع بعمل شيء فى باريس ذاتها . دعهم إذن يرسلون لك العرض مكتوباً وسنتمكن ساعتها فقط من تحرير الرد بالصورة الفنية المطلوبة . إن عروض تورينو هى التى ستحدد مصير المعركة وأكثر ما يرضى الأفاقين هو أن تقبلها وسيجدون أن ذلك هو نصر لهم ونجاح لكل المساعى التى يقومون بها فلنمتنع عن إرضائهم » .

ياه !! لبراعة الرجل الذى يعرف كيف يصنع العسل مما لا يبدو سوى أنه خل ... وعلى الأفاقين أن يحسنوا التصرف ... ولكن إذا كان بونابارت قد رد بنفس الطريقة على العرض الذى قدمه له تاليران (الأفاق الآخر) لظل حجر رشيد مدفونا فى الرمال ... باختصار !! لم يتحول جان - فرانسوا إلى الجنسية الإيطالية سوى بالقلب فقط » وسيمضى حياته » وسط من أسماهم فيجاك « أصدقاء » وهو ما يعتبر نظرة متفائلة بعض الشيء للأمور ...

تشاو تورينو !! قلة من المدن ستستقبله بمثل هذه الحفاوة . سعد فيها بصداقات مثل تلك التى عقدها مع كوستا وجاتزيرا وبيرون وبلانا وبالبووسكلوبيس وسالوتزو وفيها عمق من طريقته فى حل الشفرة - وخلال إقامته فيها أيضا أكتشف نظام الأرقام المصري . كما أخرج عدداً من القرون والاسرات من غياهب النسيان وهو فى تورينو وفيها أخيراً وعلى وجه الخصوص أكتشف القمم التى بلغها بجمال فن النحت المصرى مما جعله يقع فى حب أحد التماثيل . وهكذا ستبقى تورينو وهى إحدى محطات الطريق إلى ممفيس إحدى أهم عواصم العالم فى حياته .

وتشهد على ذلك وبكل وضوح وبريق لوحة ضخمة مثبتة خلف تمثال رمسيس الذى كان يفضله على جميع التماثيل الأخرى وهو الموضوع فى أجمل القاعات المخصصة لفن النحت . تحمل اللوحة هذا النص اللاتينى .

HONORI ET MEMORIAE / IOANNIS FRANCISCI CHAMPOLION QUI ARCANAE AEGYPTIORUM SCRIPTURAE / RECONDITAM DOCTRINAM PRIMUS APERUIT / MONUMENTA AEGYPTIA REGIS VICTORICI EMMA-NUELIS LIBERALITATE CONQUISITA / INHIS AEDIBUS DOCTAE INVISIT .

* دو بلاكاس

SCRIPTIS ILUSTRARIT / MODERATORES REI LITTERARIAE STATIM AC DE MORTE CELEBERRIMI VIRI NUNTIATUM EST / MENSE MARTIO ANNO MDCCCXXXII *

البيمونت لا يمثل إيطاليا كلها . فبعد ثمانية شهور من تاريخ وصوله عاوده تشوقه للتعرف على روما وفلورنسا ونابولى . كل شىء كان يحثه على الرحيل . دعوات الدوق دوبلاكاس الذى وصل إلى مقر عمله فى نابولى وأحلامه القديمة حول مدينة روما وربما أيضا شىء من خيبة الأمل من أنه لم يتمكن من الحصول على حرية التصرف الكامل فى متحف تورينو التى كان ينشدها : كتب لأخيه فى ٨ يناير ١٨٢٣ :

« ... نحن إذ نترك للحكومة السارية تفعل ما تشاء بمجموعة دروفيتى فتضعها فى مخزن بدلا من أن تجعل منها متحفًا وسنبذل قصارى جهدنا لكى نستغنى عن الحكومات الحالية والسابقة والقادمة . كل ذلك يضعف معنوياتى وكثيرا ما أشعر بالندم لأننى لم أتعلم أى حرفة بدلا من خدمة العذارى التسع ** القلق بدأ يتغلب علىّ وحالات الحزن أصبحت تكرر زيارتها لى . »

قلق وحزن .... وهو يتذكر فى أماكن أخرى حالات من الكسل والبلادة التى تتملكه أحيانا كما كانت تداهمه بكثرة حالات الصداع ونوبات السعال التى كانت تهز بدنه فى الشتاء البيمونتى فلعلها كانت تعلن عن إصابته بداء الصدر الذى سينهشه بعد ذلك . وعلى الرغم من ذلك فقد أحتفظ بشجاعة المبادرة فى العمل وركوب عربة السفريات متجها إلى ميلانو ثم بولونيا وروما .

وصل مدينة الباباوات فى الساعة السادسة من الحادى والعشرين من مارس ١٨٢٥ . ومكث فى العربة يهتز داخلها طوال ثلاثة أيام لم ينم فى سرير لفترة ثلاثة ليالى متصلة . إنه منهك تمامًا وقدماه متورمتان فهل سيحرم نفسه من البقاء ساعة واحدة فى روما ؟ فما أن وصل إلى فندقه فى شارع / فيا كوندوتى إلا وأنطلق ناحية الروائع الموعودة .. ويحيط بالطبع جاك - جوزيف بكل شىء :

---

* « فى ذكرى وعلى شرف ج. ف شامبوليون الذى كان أول من إكتشف الفن المقدس للكتابة السرية للمصريين . درس كما يفعل العلماء المخطوطات التى خلفها المصريون وجمعت داخل هذا القصر بكرم من الملك فيكتور - ايمانويل وشرف بكتاباته أعلام الأدب - إلى أن وصل نبأ وفاة هذا الرجل ذائع السيط فى شهر مارس ١٨٣٢ »

** جنيات الفنون والمعرفة والآداب بالطبع (المترجم) .

« ... توجهت على الفور إلى (كنيسة) القديس بطرس وحيث أن شهيتى كانت فى ذروة النهم فكان على أن أبدأ بالقطع الكبيرة . يستحيل تمامًا وصف انطباعى عند وصولى إلى ساحة هذه الكنيسة ... إننا لتعساء فى فرنسا . إن أثارنا تثير الشفقة بالمقارنه بعظمة مبانى روما ، من ساحة القديس بطرس أسرعت إلى ساحة نافونا حيث قمت بتحية المسلة الثالثة (پامفيل) إذ كنت قد رأيت قبلها وأنا أدلف إليها من بوابة الشعب المسلة الفلامينية ومسلة بساميدتيشوس فى مونتى – شيتوريو { ... } وقفت مبهورا أمام الكوليزيوم وعبرت ساحته وسط الحجاج قليلى العدد ووسط جمع من الرهبان ...

عندما عدت أدراجى تسلقت أنا السليل الحقيقى لشعوب الجال سلم الكابيتول . لم يصدر عن الأوز أى صراخ ووجدت نفسى على القمة أمام تمثال مارك أورال على جواده – وشدنى تمثال لروما فى ساحة المتحف الكابيتولى فوجدته محاطًا بعملاقين مصريين يمثلان بطليموس الفيلاديلفى وزوجته أرسينويه ولدى نزولى سلّم الكابيتول الضخم قمت بتحية الأسدين المصريين العظميين .

... ثم سرت على قدمى حتى سان – جان دو لاتران يشدنى إلى هذه الساحة أكبر وأقدم مسلات روما وهى مسلة موريس . الهيروغليفيات التى عليها منفذة بطريقة لا يمكن تصديقها ثم توجهت إلى الكوليزيوم مرة أخرى وشاهدته بنفس درجة الانبهار كما توقفت مرة أخرى عند محطة كامبو فاتشينو حيث شاهدت أقواس النصر الثلاثة والمعابد ثم تسلقت الطريق إلى الكابيتول من جديد وعدت إلى الفندق { ... } هذا هو أول أيامى فى روما لن أنساه مدى الحياة ... »

ياله من رحالة طيب ووسيم ! قال يومًا إن الحياه الحقة هى الحماس إننا نحب هذا الرجل الاسمر ذا الشعر الأسود بلون الابانوس وهو يلهث ويعرق ويجرى فى شوارع هذه المدينة المشهورة مثلما يفعل الراهب الحاج غير عابىء بتورم قدميه ولا بالسعال ولا الكيلو مترات التى يتعيين عليه أن يقطعها ، يدقق فى المسلات ويتحدى أسود الكابيتول . هنا يكمن سره أى فى هذا النشاط الذى لا ينضب فيدفعه إلى الأمام بل وسوف يصرعه بعد بضعة سنوات وهو ينشد الحصول على بضعة سنوات أخرى من العمر ليلقى بمزيد من الضوء ...

لم يفعل هذه المرة سوى المرور بمدينة البابوات لأن هدفه هو نابولى . حيث ينتظره بلاكاس المتشوق لأن يضــع كل قوته وما يتمتع به من مقدرة شخصية عند

قدميه . جاء وصفه لنابولى أنها « أول مدينة حية يقابلها منذ عبوره جبال الألب حيث تمر الأيام دون أن نبددها سواءبالنسبة للعلم أو للإنسان » ثم يقوم بزيارة معبد سيرابيس فى پوتزونى وفى بومپاى – قدس أقداس إيزيس . ثم بعد أسبوع من وصوله يصحبه بلاكاس عند الملك والملكة – عن إهتمامهما الشديد بأعماله إنه سعيد وسيكشف فى پايستوم « أجمل وأروع ما فى إيطاليا » ولكنه سيذهب إلى أبعد من ذلك وهو يقول لأخيه :

« ... الخط قديم ، خالص النقاء أى أنه جميل بحق . شعرت أن ما هو أمام عينى هو معمار جميل واستحال علىّ لأكثر من ثلاث ساعات أن أحيد بنظرى عن هذه المعابد مع أنها صارمة فى بساطتها وخالية تمامًا من أية تزويقات { ... } على مسافة ما وخصوصًا عندما أراهم قد برزوا بلونهم الأصفر الذهبى من الخلفية الأزورية للسماء والبحر ، خلتنى أرنو إلى معابد مصرية : وعلى وجه الخصوص معبد نبتون أضخمهم جميعا إذ تشع الأصول المصرية من العمارة الاغريقية التى تتبعها جميع أجزاء المبنى بايستدم ليس سوى تيجان الأعمدة المصرية فى حالة منحطة بعض الشىء وتلك التى تتشكل منها الزوايا فى فى قدس الأقداس . هم بالتاكيد مصريون »

هل أكتشف هنا فى باسيتوم ما يثبت صحة نظريته التى يجابه بها نظرية وينكلمان ويؤكد فيها أن الفن المصرى هو بالفعل أبو الفن الاغريقى ، الواقع أنه لم ينتظر هذه الرحلة إلى كامبينا ليدلل على هذا الرأى كما سبق أن قرأنا : بل إن ذلك هو الدليل الجوهرى الذى بنيت عليه « **الرسائل إلى الدوق دوبلاكاس** » إذ كتب إلى جاتزيرا منذ البداية يقول : « أنغسمت من جديد فى النقاء الذى تذوق به العمارة الاغريقية التى هى الأبنة الجميلة والفاتنة للعمارة المصرية ..»

قال عن رأس ثور إغريقى : « إنه دليل ضمن ألف دليل على أن الطقوس الدينية الاغريقية ليست سوى فرع هابط من المصريات . لابد أن ليترون سيعبر عن إمتعاضه أزاء ذلك لأنه فى رأىّ غير متقبل لفكرة أن الاغريق الاعزاء كانوا من المقلدين لغيرهم .»

الاستفزاز هنا واضح ... ولكن ماذا ستكون العبقرية دون إستفزاز ؟ والحماس أيضًا ؟ ماذا سيكون عبقرى جاسكونى متحمس إذا لم يتخطى أصول التخاطب والافكار الموروثة وإذا لم يفجر الجو الثقافى القائم فى زمانه ؟ أبدًا لم يكتفى مؤسس علم المصريات بإدارة شئونه وإستغلال ممتلكاته الخاصة فقط . بل سيذهب ناشرًا

الحرب الثقافية فيما وراء حدود تخصصه كما فعلت الثورة خارج حدود الوطن . إنه يزرع العواصف لأن المكتشف ثورى فى جوهره .

هاهو فى روما من جديد . هل يعتبر نهر التيبر من روافد النيل ؟ إن مصر موجودة فى كل مكان هنا – وهو يقص ذلك على أخيه بحماسة المنتصر « يجرى من مسلة إلى أخرى » من مسله البانتيون إلى مسلة مينارف وفى سان – جان دولاتران .. « أم المسلات جميعا وأقدمها التى ترجع إلى الملك موريس – تحتمس مع الإضافات الجانبية لحفيده تحتمس الرابع { فى حين } تعود مسلة البانتيون إلى عهد رمسيس الأعظم ..» الذى « يعيد للتاريخ » أمه الملكة توبيًا – هذه الرحلة إلى المسلات (وعددها ثمانية عشرة فى روما) جعلته يغطى بتهكماته « كيرشار المسكين » لأن ما نسخه منها قبل ذلك بقرنين من الزمان « شوّه النصوص المقدسة » : شامبليون لم يرحم قط من سبقوه . الشيء الغريب هو أن هذا المجادل الكبير كان ساذجًا فى أحيان كثيرة . ففى محاولته وصف السيرك الرومانى الذى يصعب وصفه حيث يتقابل رجال الدين والدبلوماسية والحرس حامل الحراب والأساقفة رجال الإدارة الفاتيكانية والنبلاء ، المتآمرون وسيدات القصور ورجال علم حقيقيون ومدعون – وسط هذا كله نراه يتباهى بالحفاوة التى لاقاه بها ثلاثة من رجال الكهنوت ذوى المناصب العليا وهم مونسينيور أنجلو ماى محافظ مكتبة الفاتيكان من العلماء ومكتشف البلابست أو الرقائق الممنوحة ومونسينور تيستا سكرتير البابا » وحامل سره والأب كانيسييرى مدير اللبروباجاندا إلا أنه أهمل قبل هؤلاء الأب لانسى – المستعرب – دارس الخط الكوفى والذى أصبح فيما بعد أكثر أعدائه ضراوة فى هذا الجانب من جبال الألب . ومثال أخر على ذلك هو أنه يمدح وليام جورج الذى أصبح من أصدقائه . نراه يضم إلى إسمه إسم أنطونى نيبى – وهو عالم مصريات بريطانى أخر وهو « يانجى » أكثر من يانج نفسه . مونسينور ماى هو الذى سيفتح عينيه على « الخلفية » الحقيقية لإبتسامات نيبى [5] والحلف الذى عقده مع لانسى وكلابروث وسان كوينتينو « للإجهاز على تايفون » *

الواقع أن مدير متحف تورينو قد تمادى إلى أبعد ما يمكن فى عملية الانتقام الذى دبرها ضد من إنقذ متحفه . فى خطاب أرسله الأب كوستانزو جاتزيرا إلى شامبوليون – فيجاك [6] وصف السرقة التى إرتكبها سان – كوينتيون لأعمال شامبوليون :

---

* قاتل أوزيريس .

« قرأ سيوبو سان كوينتيو أمام الاكاديمية (البيمونتية) بحثًا عن الأرقام جاء فيه ضمن أمور أخرى أنه يهنيء نفسه لأنه تمكن { ... } من أكتشاف ما لم يكتشفه أحد فى العالم حتى الأن – وهو منظومة الأرقام المصرية وهكذا نكون غير مدينين بكل شيء لسكان الجانب الأخر من جبال الألب * بفضل أكتشافه العظيم .

« من كان وسط هؤلاء الاكاديميين على علم بأكتشافات أخيكم ويغباء زميلهم الذى لا يعرف قرائه كلمة واحدة من الكتابة الهيراطيقية أو الديموطيقية إبتسموا لقلة حيائه . (...) ومجرد النظر إلى قائمة أرقامه كان يكفى لإثبات ذلك لأى شخص له دراية ولو قليلة للغايه بالدارسات المصرية . إذ تجد الأرقام الديموطيقية مختلطه بالهيراطيقية وفيما عدا الأولى التى يمكن للجميع التعرف عليها فإن الأخرى كانت خطأ وكذلك . فى الإثباتات التى أراد إتيانها وفى طريقة تطبيقها . ولكنه لم يكن غبيا فقط بل كان سيئا أيضا ولأقصى درجة ، إقرأ بحثه وإرتعد بل إضحك على نيته المبيتة إذ أراد أن يلمح أن الدراسات المصريه تهدم الأسس التى يقوم عليها الدين وتنسف سلطة التوراه إلخ ... يصعب تصديق تراكم هذا الكم من الغباء والأخطاء والتناقضات واللامعنى فى مثل هذا العدد القليل من الصفحات إلا أن هدف الاساءة للغير كانت واضحة وكان عرضه سيعتبر مثيراً للسخرية فقط لو لم يكن مذرياً لأقصى درجة ** » .

« اعتداء على الاسس التى يقوم عليها الدين » يبدو أن رئيس الكنيسة الكاثوليكية لم يكن ينظر إلى مشروع شامبوليون بهذه الطريقة . ففى ١٥ يونيو ١٨٢٥ استقبل الحبر الأعظم المكتشف حيث أصطحبه إليه مونسينيور تيستا . كان البابا ليون الثانى عشر إنساناً فريداً وصفه شاتوبريان *** على النحو التالى : « طويل القامة – صافى الفكر وحزين ، يرتدى جلباب أبيض بسيط (دون) أى فخفخة يجلس أمام مكتب متواضع { .. } إنه لايكاد يأكل ، ويعيش مع قطته **** علي شيء من البولانتا { .. } ولعله كان يضع – مثلما كان يفعل البابا بنوا الخامس عشر – صندوق كفنه تحت سريره ... » (7)

الأكثر غرابة من ذلك كان العرض الذى إقترحه ليون الثانى عشر وهو يستقبل

---

* يعنى الفرنسيين .

** بعد هذا الإيضاح لم يمضى وقت طويل قبل أن يستنكر فيجاك بكل قوة « مسيود وسان كانتان » فى مقال عنيف جداً فى نشره فيروساك »

*** سفير فرنسا فى روما عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩

**** سيتناها شاتوبريان ذاته فيما بعد .

المكتشف « عدو الدين » هذا . إذ بعد حديث مطول وحى للغاية عبر فيه عن أعظم إهتمامة باعمال صاحب كتاب «البانتيون » أعلن له البابا أنه قدم « خدمة جميلة وعظيمة وطيبة للديانة باكتشافاته » ومنحه ببساطة شديدة قبعة الكاردينال * وقد أدهش ذلك صديقنا عالم المصريات الجاكوبى لدرجة أنه لم يجد سوى إعتراض واحد يقدمه للبابا : وهو وجود إمرأتين فى حياته ** »

بعد أن منعته النساء من أن يصبح كاردينالا فان جان - فرانسوا ظل مدينا لرئيس الكنيسة الكاثوليكية بترقية أخرى فى مجال علمانى للغاية - وثوريا بطريقة ما - وهو وسام جوقة الشرف . إذ بعد أن تم صده فى موضوع القبعة أعلم ليون الثانى عشر الـ ملطات فى باريس أنه سيسعد لو أنه رأى ضيفه وقد قلد الوسام وهو ما حدث على الفور ... بل أفضل من ذلك أن شامبوليون كاد أن يحصل فى ختام إقامته فى روما على قبعة السفير . كان يحتفى به فى كل مكان ويأخذ الجميع رأيه . وإذا كان العالم بارون فون بونزان - ممثل بروسيا - يقف منه موقفًا متحفظًا - فإن جميع سفراء النمسا وروسيا والبورتغال ونابولى كانوا يريدون أن يدعوه على موائدهم أو إلى إلقاء محاضرة .. تحول الأمر إلى ما يشبه الوباء سريع الانتشار والعنف . أما البارون دو نوشال الدبلوماسى اللوزيتانى والذى وصفه شاتوبريان بأنه « نمأم » ، عصبى ، أخضر اللون مثل قرد من البرازيل وأصفر فى لون برتقالة من لشبونه » فقد كان أكثر الجميع حماسة ولكنه ليس للدرجة التى تجلب عليه التعنيف الذى وجهه المكتشف لزميله الدبلوماسى ممثل سان رييترسبورح البرنس جاجارين .

إذ عندما علم هذا الدبلوماسى الروسى حالة الشظف التى يعانى منها چان فرانسوا رأى - ما نراه نحن اليوم شيئا عاديًا - أن يعرض عليه ألف فرنك أتعاب مقابل كل محاضرة من المحاضرات الست عن علم المصريات التى كان سيلقيها لدى البارون دو فونشال . كان رد فعل المكتشف مثل رد فعل شاب غر عرضت عليه كونتيسه مقابلا ماديا لمداعباته :

« لا بد وأنى أما غير مفهوم تمامًا أو أن الحكم على غير سليم البتة حتى أن البعض راودته فكرة - أن يعرض على - كما حدث بالفعل - مرتبا كما لوكنت أقدم نوعًا من

---

* التى يمكن أن تمنح للعلمانيين من ناحية المبدأ .

** روزين ونورابيد بالطبع .

العروض . إنى لا أعرف إن كانت تلك الإتفاقات تدخل ضمن العادات والتقاليد الايطالية ، إلا أن مثقفى فرنسا وهم فى حمية ميلهم لنشر القليل من المعرفة التى لديهم لم يفكروا قط فى بيعها » .

يتضح من ذلك أن العادات قد تبدلت تماماً إذ أن « المثقفين الفرنسيين » قد توقفوا منذ فترة طويلة عن الاحساس بالاهانة إزاء إعتبار أن ما يقدمونه « من معرفة قليلة لديهم » « نوعاً من العروض » التى يأخذون عنها أجراً حتى لوكان « القليل من المعرفة » التى لديهم أقل مما كان لدى شامبوليون .

ولم يترك المكتشف مدينة الباباوات دون أن يسمح لنفسه القيام بإحدى المبادرات التى تضفى على شخصيته المندفعة لمسة من التفرد الإجتماعى الصالونى والذى سبق أن لاحظناه عندما كان يحاول جذب أنظار سيدات المجتمع فى فيجاك وفى د سالونات جوزيف فورييه فى جرونويل .. لماذا نضحك على تلك التصرفات ؟ ألم يكن توماس يانج ذاته من الراقصيين على الحبال ..

فى ١٩ يونيو ١٨٢٥ أحتفل بتتويج شارل العاشر ، وعلى الرغم من أن المصاريف الباهظة التى تكلفها هذا الاحتفال قد أثارت حفيظته كما سنرى .. وأن تتويج أحد آل بوربون حامى حمى المتطرفين لم يكن مبدئياً من الأشياء التى تلقى أعجابه إلا أن عالم المصريات المتشرد رأى أن يعرض على الدوق دومونمورانسى - لافال سفير فرنسا فى روما إقامة فى حدائق فيلا مدتشى « مسلة إرتفاعها ما بين خمسة وأربعين وخمسين قدماً محملة بأربعة نصوص طويلة باليهيروغليفية ملونة وتتعلق بتتويج الملك . الهيروغليفيات - (چان فرانسوا هو الذى يتكلم) ستكون بارزة ولكن فى شفافيه وسيكون لذلك أثر عظيم حسبما يقول المعماريون وصانعو الزينات . لا يوجد حديث آخر فى الصالونات سوى عن هذه المسلة وإنى أتشوق لرؤية أكبر أبنائى هذا وهو مضاء » .

ما حدث بعد ذلك هو أن عناصر الطبيعة كانت أقل ملكية من عالمنا اللغوى فأطاحت بالعمل الفنى الفذ قبل مغادرة الفنان لروما بساعات قليلة وقد تأثر طلبة المدرسة الفرنسية فى روما بحماسه المعدى فأعادو بناء المسلة الورقية وأعادوا دهانها وجعلوها محطاً لانظار المدينة يوم ١٩ يونيو : هكذا أصبح صاحب « نخب فى صحة الجمهورية » فى ١٨١٥ فى نظر أهل روما المداح - الغائب ولكن المنتصر - لتتويج الأمير الذى تحداه قبل ذلك بعشر سنوات فى جرنوبل بما ترتب على ذلك من مخاطر وأثار .

كانت إقامة چان فرانسوا شامبوليون فى روما بالنسبة له فصل الغموض المحير جداً .

لا بسبب هذا التغيير المفاجيء بالنسبة للشرعية الأكثر تعرضا للنقض فى المجال العلمى أو المجال الأيديولوجى وإنما بسبب علاقته بالمؤسسة الكاثوليكية دراساته الأولى المتعلقة بالترتيب الزمنى القديم عادت عليه بعرفان المدافعيين عن العقيده .

« ها أنا قد أصبحت قديسًا فى نظر المتدينين من أباء الكنيسة الكاثوليكية [جاء ذلك فى خطاب أرسله إلى أوجوستان تيفونية – صديقه الماسونى] – مللت من رائحة القدسيه التى يستشعرها المتدينون فى شخصى كما لوكنت لا أعمل لهدف أخر منذ خمسة عشر عامًا أمضيتها فى محاولة الكشف عن أبجديتى – سوى لتمجيد الله (...) غير أننى سأقوم بعمل حركة غير كريمة فى أتجاههم فى أحد الأيام بأن أطور التداعيات والنتائج المباشرة لإكتشافى .

سيضحك جيدًا من سيضحك أخرًا .. »

أنه يضحك ولكن فى غير سعادة . لأنه يدين برحلة إيطاليا هذه كما نعرف لكازيمير لويس دو بلاكاس وفى هو متدين وإن كان معجبًا بالحضارات « الوثنية » .

كان شامبوليون قد قضى قبل ذلك بخمس سنوات على الاساطير التى تسبب فيها رسم أبراج معبد دندرة ، بعد اثبت أن الخمسة عشر أو عشرين ألف عام الذى إعتقد « بيو » وبعض الأخرين أنهم استنتجوها منه ، لم تكن لها أى علاقه بهذا الأثر الراجع للعصر الرومانى . ومع ذلك فقد أكتشف من خلال تعمقه فى دراسة العام الفرعونى ، عصورًا للبشرية تتعدى بكثير التواريخ الواردة فى التاريخ التوراتى . لقد جعل منه رسم الابراج أحد المدافعيين عن العقيدة الكاثوليكية . إلا أن الاكتشافات التى توصل إليها خلال رحلته الإيطالية وعلى وجه الخصوص منذ قرائته لبردية تورينو الملكية ستجعله يأخذ صورة أحد الأفاقين مثل جيوردانو برونو . لم يكن يهمه فى الواقع إثارة الفاتيكان ضده ولكن كان من الصعب عليه للغاية أن يسىء إلى بلاكاس الطيب * ...

بشىء من التعاسة غادر روما متجهًا إلى فلورنسا حيث كانت مجموعة نيتزولى فى إنتظاره والتي اشتراها الدوق الاعظم ورأى أن يعهد إليه بمهمة ترتيبها . أول ما شد انتباهه فى عاصمة توسكانيا كان « جوها العام الاقطاعى » ولكن يسرع فيضيف « إن الحرية تسكن هذه الأبراج » ويوضح لجاتزيرا فى مرسالته له أنه « عندما وطأت قدماه أرض توسكانيا شعرت رئتاه أنه يتنفس هواء حرًا » بل كان فيما كتب لجاك – جوريف أكثر وضوحًا : « فلورنسا هى المدينة الوحيدة فى إيطاليا التى تتمتع بحرية حقيقية وصادقة . إنها فى الواقع البلد الوحيد الذى تحكمه حكومة ... وهذا فى حد ذاته شىء هام ... »

خيبت مجموعة أثار نيتزولى أماله بعض الشىء على الرغم من أنها احتوت على بعض الألواح الجنائزيه . ولكنه تعرف هناك على بعض الشخصيات المفيدة . منها الدكتور ريتشى صديق هيو ، والذى أحضر معه من مصر – بعد أن مكث بها فترة

* ستزيد رحلته إلى مصر من مثل هذا القلق (أنظر فصل ١٧) .

طويلة – مجموعة طبية من الخراطيش * ، كما تعرف أيضا علي بعض علماء الآثار مثل انجيرامى المتخصص فى تاريخ الاتروسك وميجليارينى والأب زانونى . كما أنه استقبل بأفضل ما يمكت مـن الـدوق الأعظـم ليوپولد وهـو الـذى سيكون لـه دور هـام فى مشاريعه المستقبلية .

لماذا قرر إذن التوجه إلى ليفورن ؟ يقول أن ذلك يرجع إلى :

« .. أنه كان مشدودا إليها برائحة مجموعة مصرية وصلت منذ فترة وكانت تغلفها هالة من الغموض نجحت فى إزالته . أصحابها الحاليون – وهم من أصحاب البنوك السادة سانتونى – لم يكونوا يريدون أن يكشفوا عنها لأحد .. إلا أن النطق باسمى كان كافيًا لكى يفتح كل شيء أمامى . إذ اعتقدوا أن مصريا مثلى له اليد الطولى على الجميع ، وبناءًا عليه فإن كل ما كان فى ليفورن أخرج من صناديقه ، وشاهدت مجموعة آثار مصرية رائعة ومنتقاه بعناية . بعض المومياوات وأعمال برونزية رائعة محلاة بأسلاك من الذهب والفضه الكثير منها إرتفاعه قدمان ومشغولة بطريقة تثير الاعجاب . توجد بها كذلك تماثيل صغيرة من الذهب الخالص تنفيذها جاء بأروع ما يمكن تصوره ، وكمية ضخمة من أدوات العمل وطبلة ضخمة كاملة وآلة هارب وأخيرا أجمل البرديات الجنائزية التى شاهدتها فى حياتى . كما تضم المجموعة ايضا حوالى عشرين بردية أغريقية متباينة الأطوال وبعض الأشياء الغريبة . جميع هذه الكنوز لن تثير دهشتك إذا ما علمت أن هذه المجموعة ليست سوى مجموعة مسيو سولت قنصل إنجلترا فى مصر إلا أن هذا يعتبر من الاسرار ومن المفروض ألا أعرفه أنا شخصيا . هذه المجموعة وهى أجمل من مجموعة دروفيتى (فيما عدا التماثيل الضخمة التى تنقص هنا) معروضة للبيع ويمكن أن تحظى بها الحكومة مقابل ٢٥٠,٠٠٠ فرنك وهذه تعتبر صفقة من ذهب سيكون من المضحك ومن المخجل أيضا أن تضيع . »

ها هو قد إنطلق فى إحدى هذه المعارك التي يعشق إثارتها كمحارب لا يكل . ألم يكن من الأفضل له أن يركز فكره فى أعماله العملية ، مدعما أياها ببعض الإسشارات والأقتراحات يقدمها للسلطة ؟ أبداً !! إذ يتحتم عليه أن يشارك فى الصدام وإن ما « يستنشقه » لم يكن فقط « رائحة مجموعة آثار » وإنما رائحة المعركة .

---

* وهو الذى سيكون بعد عامين أحد رفاعه رحلته إلى مصر .

وَىٌّ !؟ لقد حرم جومار باريس من مجموعة ؟ إذن سنلقى بين أقدامه باخرى بحماس تزيد من تأججه الاشاعه السارية الأن بأن إدارة أول متحف مصرى للآثار فى باريس سيناط بها إليه هو أى جان فرانسوا ! ألسيت هذه هى الفرصة لأن « نستقر نهائيا » وبطريقة ملائمة ونقطع فى ذات الوقت الطريق على جومار الذى لا يحتمل ؟ لم يكن إذن زائر ليفورن عالم مصريات فى حالة نشوة طاغية إنما هو أيضا من البدو الرحل الذى يبحث عن مكان ينتمى إليه كما أنه أحد أعضاء العالم الباريسى المغلق على أصحابه . مجموعة سولت بهرته تماماً إلا أن الولع الايجيبولوجى ترك المجال أولاً أمام حمى الإحساس الوطنى : كتب إلى فيجاك :

« أكرر أن الثمن بخس ويهم الشرف الفرنسى الا يترك ثمرة مجهودات مضنية لأحد « من الجودام » * تتسرب من أيدينا وهو لا يريد بدافع من الاحساس الوطنى أن يذكر إسمه لأنه متشوق إيضا إلى وضع يده على أموال الفروجز ** .

إذن وبكل وضوح فإن فكرة رياسته لمتحف مصرى فى اللوفر تروق له أكثر فأكثر خاصة وأن عملية ليڤورن أصبحت مرتبط بتعيينه : لأن حيازة مجموعة ضخمة تضم قطعًا كثيرة مطلوب التعرف عليها وترتيبها تبرر وحدها تفضيله على جومار هذا الخاسر الأبدى .. وهو يذكر أخاه بأن « تشجيعا مدويا يسرى فى أوربا كلها لتأييده » وأن أسمه يملأ الصحف الايطالية وقد جاء فيها ذكر وصول أكبر القطع الخاصة بمجموعة سولت إلى ميناء ليفورن.ومن الممكن إذا ما عقدت الصفقة أن تتوجه على الفور إلى فرنسا . إن صديقنا الفيجاكى يصر ويضغط بل ويلهث ، يالها من حمى :

لدى عودته إلى تورينو بعد ذلك بثلاثة أسابيع ظل قلقًا لعدم وصول الرد . لذلك تراه « وقد فقد سيطرته على نفسه » يكيل التهم للنظام الملكى .

« إنها صفقه ضاعت إلى الأبد وكلمة أقتصاد لها وقع طيب عندما تصدر من أفواه قوم يلقون بالملايين عندما يتعلق الامر بإحدى العمليات الغبية أو بإرضاء غرور ما .

---

* منذ أطلقت هذه التسمية على الانجليز فى عصر جان دارك وهى لاحقه بالانجليز لدى الفرنسيين (راجع زواج فيجارو) .

** الضفادع الفرنسية .

[واضحة وهى لإحتفالات التتويج المكلفة] [....] هذه هى الأمور التى تدفع أكثر الرجال أصراراً وهو يعمل بحسن نية و بصدق طوية أن يرمى بادواته ويترك الساحة [....] ورسائل الإخوة سانتونى تلاحقنى وليس لى من رد عليها . أسرع بإرسال رفض نهائى وساقوم بدورى بإحاطة المختصين علماً به حتى لا أفكر فى ذلك بعد الآن إذ أنى سامرض من شدة الشعور بالمضايقة ومن خجلى من حكومتى التى تجد أن مجموعة آثار رائعة مكلفة للغاية علما بأن ثمنها هو ٢٥٠,٠٠٠ فرنك فى الوقت الذى تنفق فيه الحكومة الأنجليزية ٢٣٥,٠٠٠ فرنك لكى تنقل أثرا مصريا واحدا هو مسلة الاسكندرية . وسيظل هؤلاء الناس يتحدثون عن حب العلوم والمجد والريادة الوطنية ! ثم إننى لا أعول كثيرا على وظيفة المتحف لأن ذلك يعتبر منطقيا باكثر مما ينبغى .... »

يمر شهر أخر ويظل الوزير صامتا وعليه ينفجر المكتشف فى ٢٧ أكتوبر :

« هاهى صفقة ضائعة أو على الأقل هى فى مهب الريح لقد أديت دورا ضعيفا للغاية فى نظر آل سانتونى لأنهم عندما ضغطوا على لكى أشرح موقفى كتبت لهم فى ردى أنى ساصل إلى ليفورن فى نهاية هذا الشهر . أرى انى ساضطر ان أكتب لهم ألا يعتمدوا على حدوث أى شئ وقد حررتهم من أى التزام مؤقت ، بل إنى لن أشعر بأى غضب لوحدث خلال فترة المماطلات الباريسية أن عقد الدوق الأعظم أو أى بلاط أخر الصفقة تحت أعيننا . إننا نستحق ذلك وأتضرع إلى الله أن يحدث ذلك . »

حان الوقت لكى نختتم هذه المرحلة الإيطالية مهما كانت مثمرة للغاية ومثيره جداً . عبر جان فرانسو جبال الألب فى السادس من نوفمبر فى رحلة صعبة عبر الثلوج . وصل إلى جرونوبل فى التاسع منه حيث « فاجأ زوجته بحضوره . »

« كأى زوج صالح عائد من الخارج » أشاعت إبنتة زورييد فى نفسه البهجة . وكتب لجاتزيرا :

« لو لم يكن لى شرف أن أكون والدها لقلت لك أنها أجمل أطفال الدوفينيه ولحسن حظ الجنس النسائى انها لاتكاد تشبهنى . فقط عيناها السوداين احتفظا بكل البريق الذى كانت بعض السيدات تتكرمن على فى شبابى بان تكتشفنه فى عينى اليمنى * وكان ذلك يشعرنى بشئ من الفخر »

هل إنتهت إيطاليا؟ فينيتو إيطاليا ؟ . كلا ! . وكلا ! . ففى أوائل شهر يناير

* سبق أن ذكرنا علة الحول التى كان يشكو منها والتى لا يظهرها راسمو صورتة .

١٨٢٥ سافر فيجاك على عجل إلى باريس لكى يفُشل مؤامرة كان سيخرج منها جومار منتصراً ومديراً للمتحف المصرى . من باريس أحاط فيچاك أخاه بأن الدوق دو دودو ڤيل . . وزير البلاط الملكى كان وعلى وشك أن ينتزع من الملك قرار مزدوجا بشراء مجموعة ليڤورن وبتعيين جان فرانسوا فى اللوڤر، فيعلن هذا الأخير أنه على استعداد لأن يسافر على الفور إذا ما تسلم ورقة رسمية تحدد له مهمته وسيقفز نحو الألب على الرغم من بلوغ الشتاء ذروته مما يجعل « مونت سينيس رائعا » ولكن بما أنه يتشكك فى « مقدراته » فى الأعمال التجارية فهو يطالب بالتعليمات الأكثر تفصيلا وشمولا لجميع الإحتمالات الممكنه ثم يقول محددا وبذكاء :

« .... مادامت ميزانية ١٨٢٦ فى طور الاعداد فان الوقت الأن مناسب لاتخاذ قرار بانشاء الوظيفه المطلوبة فى المتحف * كم سيكون . رائعا بالنسبة لى عندما أصل إلى ليڤورن وأنا أمام المجموعة أن اعتبر نفسى عقيداً على رأس كتيبته » .

إلا أنه لا يمنع نفسه من الإضافة :

« إن فشل مذكرات جومار شئ طريف [.....] إنى مقتنع بانه بصراخه يخفى أنه عدل بنفسه عن نشر أوراقه لتاكده من تفاهتها إلا أنه أراد أن يضفى على نفسه بريق الضحية .. لكى يبرر هذا الالغاء من ناحيته » .

طيب القلب جدا صديقنا المشاغب هذا ...

هنا يستلم كوستانزو جاتزيرا مايشبة بلاغ النصر على الطريقة البونابارتية :

« الملك – بناءاً على تقريرى الذى قدمه له وزير البلاط – قرر الموافقة النهائية على حيازة مجموعة ليڤورن – وبالتالى تكون الصفقة قد تمت ولا يوجد إذن شك فى انكم سترونى مرة أخرى فى تورينو حيث أنوى دخولها دخول المنتصر » .

إنه لا يقدر على الصبر أيتها الآلهة العظيمة على العودة إلى ليڤورن للقاء كتيبته التى يرى أنه سيصبح على رأسها . جملة قالها تلخص الحالة التى كان عليها عشية حملته الثانية على إيطاليا والتى ستؤثر فى مجال العاطفة فى حياتة تأثيرا عميقا للغاية : « إنى أشبه السمكه الحية وهى وسط المقلى وأنا فى هذه الحالة من الترقب » .

---

* كمدير أو محافظ

١٤- أنچيليكا - عرّافة توسكانا

يوم يحدد مسار حياة ... «خشية ان يكون آثير ... » - أسميك زلير - « بل أكثر من إعجاب » سليمان وكاتارينا و كورين ؟ - بريام واليونانية - إنى مغازل حذق - » فى إنه لمن القسوة أن .... » - سهم الأوريوس - جبهة « افاقين باريس » - نصر مزدوج - إيبوليتو روسيلينى والدوق الكبير ومصر .

يوم ٢ إبريل ١٨٢٦ كان بالنسبة لشامبوليون وطبقا لتعبيره هو « يوم من تلك الأيام التى تحدد مسار حياة باكملها » . أنه يوم لقاءه مع المراة التى يبدو وأنها أكثر من أحب فى حياته - بدون أن تبادله هى ذلك .

حب أجدب لم يكتمل ، ولذلك ظل يخفق أبداً . حب من العقل ، حزين ؛ فصيح بسبب تمنعها ، ، نوّاج فى جوهره ؛ هو نسيج من العتاب من ناحية ، يؤججه الانتصار وتطرق معدنه تحدياتها . هى مزيج من لعوب ، نظراتها من نار ، « وعالمة *» ناعمة الأيدى ، أى آنها بالنسبة له نقمة من النعَم .

حب الصدفة الخطأ الذى ترك لنا مراسلات جميلة [1] لانعرف منها بالطبع سوى جانب واحد وهى خطابات الحبيب المحبط ... بورتريه ذاتى مرسوم بخط وراء الأخر - للمكتشف وهو يبحث عن الحب وهو على أبواب مرحلة الكهولة المبكرة التى ستقوده بعد قليل إلى الموت .

فى ذلك اليوم انعقدت إذن الأكاديمية الليڤورنية التى ضمت إليها بالانتخاب قبل شهر واحد جان فرانسوا كعضو منتسب وهو يحضر جلساتها لأول مرة . خطبة الأستقبال قرأها سكرتير الجلسة . وإذ همّ المتلقى بالرد على خطبة الترحيب به إندفعت واقفة أمام مجلسه امرأة شابة نظراتها شرار وحركاتها آمرة وصوتها محمل بالعواطف وأنشدت هذه الأبيات المؤثرة .

« مزقت ستار الأسرار

التى حجبت على ضفة النيل

---

* كذا فى النص الفرنسى (المترجم)

أنوار المعرفة الحية

وكان فى ظلماته مثيل

للذى يخفى أصل منبعه ...

.... من الالحاد ومن ثراها

ومن هذه المعابد التى على الأرض تناثرت

والتى إلى الآن ظلت على صمتها

هاهو صوت يعلو ويرتفع

ليفشى كافة الأسرار

لم تكن لغة مصر وحدها

التى احتوتها الظلمات

إذ هاهوالاتروسك الغريب يناديك ..

أصبح جان فرانسوا الآن فى الخامسة والثلاثين نعرفه جياش الشعور ولكنة أيضا وللغرابة وحيد ، ولا يعود ذلك إلى أن الأصدقاء نادرون .. فبالإضافة لصداقة أخيه جاك – جوزيف الموجهة والغيورة – والوفاء الذى يكنه له تيڤونيه وأرتو وأخو زوجته أندريه بلان وبخلاف رعاية داسييه وبلاكاس فان التعطش للحنان الذى ينهشه لم يتوقف طوال سنى بحثه الطويلة .. ومنذ أن إنتهت علاقته بلويز قبل ذلك بخمسة عشر عاماً وقع فى حب بعض النساء – أو واحدة على الأقل فى فيجاك – فى هذا المجال يعتبر زواجه فشلا : سنرى قريبا جداً ماكتبه عنه . إنه فى حالة إحتياج ملح لجرعة من العواطف

إنه إنسان متحمس ومتأجج العواطف، دمه ساخن منفعل ، هذا « الاعرابى » القادم من كارسى ، هذا الأسمر ، هذا المورى المغربى . مع العلم بأن تكوينه الشخصى مناسب لحالات الحب الجارف فان هذا الرجل الذي يلتهمه حب الجمال ترهقه الرغبة وتؤثر في معنوياته المؤامرات . وهذا الذى غامر بل ذهب بحياته العملية إلى الأعماق ليبقى وفيا لمعتقداته السياسية وهو الذى عبر الحياة العامة مثلما عبر اليهود البحر الأحمر سائرا بين تهديدين ، فهو ثورى بالشخصية وجاكوبى بالقلب بقى طول حياته ذلك الشاب الذى صرخ فى وجه الأعيان وهو يرتدى رداء جامعة جرونوبل الوليدة الأصفر ، أن دور المؤرخ ليس الترتيل بمآثر المنتصر علما بأنة لم يكن قد مضى عام واحد على إنتصار نابليون فى ڤاجرام .

ها هو يستمع في دهشة بالغة للمناشدة الشعرية له من تلك السيدة ذات العيون البراقة وصوتها صوت عرافة معبد دلفى بأن يكرس إهتمامة الآن – بعد أن أفشى أسرار النيل وهزم الالغاز المصرية ، على القضية الاتروسكية – أى أنها تطالبه فى ذات الوقت بتنمية الأبحاث حول الأسرار الدانية له هنا فى إيطاليا وبالدفاع عن قضية الوحدة الإيطالية : ها هى اتروسكا تناديك . ولانها من أصل يونانى . عن تحرير بلدها ... كانت جلسة أكاديمية شديدة الغرابة كفيلة بهز مشاعر أكثر من شخص واحد محصن ضد الأنفعالات القوية ، بجميع أشكالها بافضل مما هو الحال بالنسبة لشامبوليون .

كتب بعد ذلك بخمسة أيام لجاك جوزيف (الذى قطب جبينه وهو يقرأ هذه الجمل) :

« دخلت أكاديمية ليڤورن فى الثانى من ابريل – وهو يوم الجلسات العلنية – وإنتهت الجلسة بخطبة تمجيد على شرفى ألقتها سيدة شابة يونانية السينيورا انجيليكا باللى – إبنة أحد كبار تجار ليڤورن اشتهرت بخطبها الإرتجالية – إذ القت بشاعرية من نار قصيدة على شرفى ولمجدى .... وإنى أتركك تخمن إذا كانت الكاهنة الشابة الرائعة الجمال قد إستحقت درجة المائة من مائة في أعين بطلها . إنها عضو فى الأكاديمية ؛ ان ذلك ليعد سابقة لعلها تحث مسيو داسييه على فتح أبواب الفصل الثالث * أمام ثلاث أو أربع عضوات من هذا الجنس(الناعم) لا بد وأنهن سيعطون بعض الرونق لهذه الهيئة الجادة فى تزمت وهو أقل ما يمكن أن يقال » .

إن السخرية من « الجنس » توضح درجة إنفعاله . ولكن القول واضح فيما يتعلق « بالكاهنة » التى هى « رائعة الجمال » على الرغم من أن التعبير يبدو باهتا بالنسبة للموصوفة إذ كانت من الملهمات الاتى يتفوهن بتنبؤات الألهة .. نسجل هنا حقيقة حتى لا نعود اليها مرة أخرى – وهى أن هذه « المرتجلة المشهورة » كانت تعتنى جداً باندفاعاتها الارتجالية ، إذ أن نص قصيدتها « المرتجلة » اكتشف ** محرراً بخط يدها فى أرشيف أسرتها ولكن من الممكن أيضا أن يكون أحدهم قد حفظه وسجله على الورق بعد ذلك بثلاثة أسابيع . لم يذكر « الجنس » فى الخطاب الذى أرسله لصديقه الأب جاتزيرا . هناك عين ترنو ، والنظرة أخذت طريقها إلى أعماقه . لقد رأها مرة أخرى ، اضطرب من قوة تأثيرها فحاول أن يقاوم :

* الفصل الثالث هو قسم « المخطوطات والآداب » فى الانستيتو institut

** اكتشفته مدام إبريشيانى

« ..... كان حفل الاحتفاء بى شاملاً و خلال جلسة عامة للأكاديمية الليڤورينه ... تفضلت على سيدة شابة جميلة جداً تقرض الشعر وهى من أكبر العائلات اليونانية فى ليڤورن بارتجال قصيدة على شرفى واستدعتنى من خبرتى بمصر ومعرفتى بها لألقى الضوء على الآثار الاتروسكية . لعلك تتصور مدى تأثرى بتلك التحية وهى تصلنى من مثل هذه الشفاه الجميلة . إنها أرق مكافأة حصلت عليها مقابل إعتنائى بالتراث المصرى لمدة خمسه عشر عاماً .

السنيورا انچيليكا باللى مثقفه جداًورقيقة للغاية ولابد أنك سمعت عنها إلا إذا كنتم من البرابره * أما أنا فإنى اشكر الاله أمون – رع لانه عرفنى عليها وانه جعلنى أحظى برضاها إلا انى لا أنسى أن المومياوات لها حقوقها على الرغم من صمتها ، ولذلك فانى أبقى معها اطول الفترات الممكنة ولا أرى الكاهنة الجميلة سوى نادراً خوفاً من أن «أثير» تتدخل فيتحول تعبيرى عن عرفانى بالجميل إلى شئ أخر...»

« أثير» هى حاتحور التى هى الهة الحب متجسدة فى صورة بقرة ..... إنه إذن داخل الفخ . وفى حالة من الحماس جعلته يهدد جاتزيرا – البيمونتى بأن يعتبره بربريا إن هو لم يعرف انچيليكا التوسكانيه ..إنهم هكذا معشر العشاق لا يطيقون أن يكون الذى يعجبون به » مجهولا . يستطيع ما أمكنه أن يباعد من لقاءاته « بالكاهنة الجميلة » وأن يضع المومياوات بينها وبينه . إلا أن انچيليكا – هبة أمون – رع السخى – قد دخلت حياته عن طريق نوع من المديح يخصص عادة للأموات .

انچيليكا باللى عمرها ثمانية وعشرون عاماً . عائلتها ذات الأصول اليونانية أقامت منذ قرن كامل فى ليڤورن وهو الميناء التوسكانى القريب جداً من مدينة بيزا والذى نما كثيرا منذ نهاية القرن السابق بمبادرة من بونابارت . الميناء القديم الذى عززه آل ميدتشى فى القرن السادس عشر والذى يضفى القصر البحرى ، المطل عليه المبنى بالطوب الأحمر ، شيئامن الجمال على هذه الضاحية البحرية لبيزا ولوقا ، كان حينذاك فى كامل إزدهاره : عائلة باللى عائله ثرية ومقيمة فى قصر إحدى أقدم عائلات المدينة وهى عائله بارتولومى ** والذى يعتبر صالونها أحد مراكزها الثقافية ومن قال ثقافة فى إيطاليا فى ذلك الوقت قال سياسة . كانت انچيليكا فى تلك الحقبة الزمنية تعتبر مايشبه لمتحدث الرسمى للحركة للوطنية الإيطالية مثل ديوداتا دى سالوتزو فى تورينو . ولما كانت عضوا فى أكاديمية ليڤورن فكثيرا ما كانت تقف فوق مقعدها وتلقى بالنداءات والمدائح والأدانات والقصائد الحماسية سواء عن الاتروريا أو توسكانيا ، عن إيطاليا أو اليونان ، عن الحرية أو الوحدة وسوف

---

* البيمونتيون من وجهة النظر التوسكانية

** انچيليكا ستتزوج فيما بعد چان – باولوبارتولومى

ترتبط بعد ذلك بماتزيني : كانت كاهنة فتره ماقبل البعث الإيطالي وكانت قصائدها « المرتجلة » توقد حماس « إيطاليا الفتاة » وقد جعلت بطلها هو هذا البايرون الذى ألهمتها وفاته قصيدة كلها حرارة مثلما هو الحال بالنسبة لترجماتها لشيكسبير ومن بعده فيكتور هو جو .

هل عرفت هذه الأديبة المجد بفضل أنوثتها الطاغية ؟ لاشى يؤكد ذلك فمن حق أى انسان أن يفضل شاعر أخر على لامارتين أو ماتزوني . إلا أن هذين الأديبين الكبيرين منحا رعايتهما (ولو لفتره قصيرة) لانچيليكا باللى - الثانى وصفها بانها منتقاه من السماء ، وسافو العصر الحديث . أما الأول فقد رد على قصيدة لها ارتجلتها أمامه عندما كان سكرتيراً دبلوماسيا فى سفارة فرنسا فى فلورنسا عن « الآم سافو » بهذه الأبيات : « عندما استمع .. الأبيات تصفين فيها

زفرات سافو الحنونة والامها

ياأنستى الشابة وصاحبة المعرفة

ابكى وأقول لماذا لم تحظ الأغريقية الجميلة

بثقافتك أنت وشاعرك »

قد يقول أحدهم لاحاجه لأن يكون المرء شاعراً كلامارتين ليعبر عن نفسه بمثل هذه الأشعار السطحية . ولكن صاحب « التأملات » كان يتمتع فى ذلك الوقت بشهرة هائلة وعندما ذكرت انچيليكا لشامبوليون اعجاب لامارتين باعمالها فقد صفق لها لانها نجحت فى الحصول على تقديرلامارتين علما بأنه كان يمقت شخصيته .

لم يقع رجلنا العظيم فى حب بنت تافهة بل كانت بطلة فصيحة وطموحة ، ملكة متوجة على بلاط كامل ، تناشد أوروبا أن تحمى اليونان من مذابح الأتراك وأن تسمح لإيطاليا بأن تصنع نفسها كما كان تاليران يقول وتكتب مسرحيات تراچيدية تدمى القلوب قبل قلب شامبوليون أيضا .

ويقال أنها فسخت خطوبتها فى إحدى المرات بسبب رقصة طلبها خطيبها من غريمة لها .

ياليت جان فرانسوا وقع فى حب بائعة زهور بنفسج فى ميدان سان كارلو . لان انچيليكا ستريه - كما يقال - النجوم ظهراً . لا يعرف أحد كم مرة التقيا ولا لأى فترات ولا حتى - ماهى طبيعة هذه اللقاءات . يعتقد أنه لم يحدث بينهما سوى

تبادل للكلمات لان مراسلاتهماخالية من أى أشارة لأى شئ أخر – ولكن من المعروف أن العائلات تأخذ على عاتقها « الاعتناء » بتنقية المراسلات من أى شئ غير « متلائم » من ناحية عائلة شامبليون كان الشرف هو المصان . المسئول الأول عن اكتشاف هذه المراسلات أحادية الجانب هو استورية بلليجريني – الذى أكد أن المكتشف لم يتعد قط حدود الواجب والشرف .

تبقى من هذه الصفحة من الحياة العاطفية لصاحب «البانيتون » شهادة جميلة عليها ، متمثلة فى الثلاثين خطابا * الذى أرسلها جان فرانسوا من ١٩ سبتمبر ١٨٢٦ إلى ٢٧ ديسمبر ١٨٢٩ تاريخ عودته من مصر – إلى انجيليكا . نشرتهم وقدمت لهم بعناية وذكاء عالمة المصريات الإيطالية إدا بريشياني من جامعة بيزا** وهى ليست بيانات إنتصار العاشق بل هى تكاد تكون وصفا لحب معلق وهى تعتبر على أكثر تقدير احدى أفضل المراياالعاكسة لروح وقلب ومزاج مؤسس علم المصريات . هى نصوص مؤثرة دائما بل مفجعة فى أوقات كثيرة وجميلة للغاية أحيانا ، تتردد فيها أصداء رومانسية قبل ظهور التيار الرومانتيكى لما جاء فى هيلويز الجديدة « لجان – جاك روسو » وهى معاصرة لرواية أدولف «لبانچامان كونستان » وإذا كان شامبوليون ككاتب مراسلات تعوزه الرشاقه فى كثير من الأحيان إلا انه يتمتع بطلاقة التعبير وباللمسات المعبرة ويعرف كيف يسمو أحيانا إلى مستوى الأسلوب المتميز .

الخطابات موجهة إلى « زلير » وأطلق على نفسه إسم « زيد » . لقد عهدنا فيه كثيرا اللجوء إلى الأسماء الشرقية فهو يوقع باسم « صغير » ويعمل على أن يكون الإسم الذى يطلقة أخوه على مولوده الأول هو «على» . كما أنه يسمى على مولودته الوحيدة «زورابيد» . المدهش هو أن انچيليكا أيضا إنساقت معه فى اللعبة علما بانها تؤكد كثيرا على جانبها اليونانى وهى كانت بالتالى مناهضة لكل ما يمكن أن يذكرها بتركيا . ولكنها وافقت على مسايرته واستمرت المراسلات بينهما سرية وكان كلا الطرفين يرسل خطاباته إلى عنوان طرف ثالث : بالنسبة لجان فرانسوا كانت الخطابات ترسل لعنايةصديقين له الأول هو چـ – چـ دوبوا (سبق لنا معرفته) والأخر هو أنه لوت (سنتعرف عليه فيما بعد) وبالنسبة للطرف الأخر أى انچيليكا فقد كانت الخطابات ترسل لعناية لورينزو كاليجارى ولورينزو ڤيولى .

---

* نشر منها تسعة وعشرون

** « رسائل إلى زيلمير » الأسيانيك ، باريس ١٩٧٨

أول خطابات « زيد » مؤرخ ١٧ سبتمبر ١٨٢٦ وهو يعطى فكرة واضحة عن اللهجة السائدة فى المراسلات وفيها يكشف تماما عن ذاته الدامية منذ البداية .

« اصرارى على العودة إلى ليڤورن * نبع فقط من الأمل الجميل الذى راودنى بأن أتذوق متعة رؤيتك وسماع صوتك بضعة ايام ولكن فضلت أن أعدل عن ذلك بعد أن وضح أن لقائى المفروض على زيلمير و وجودى سيسبب لها آلاما ومضايقات ، يتحتم على إذن أن أوفر عليها التعرض لذلك [.......] أسرعت إذن بالرحيل [....] ردود الفعل القليلة وقصر فترات لقاءاتنا التى لا يمكن أن تطول لظروف مفروضة علينا لم تسمح « لزيد » بأن يكشف لك على مكنونات قلبه .. »

لنتوقف لحظة عند الجملة الأولى : هل إختيار چان فرانسوا التوقف فى ليڤورن يرجع « فقط » لانه يريد رؤية « الكاهنه » ؟ من نابولى حيث كان يقيم إلى وطنه عن طريق البحر كان التوقف فى روما ممنوعا بسبب تفشى وباءالطاعون ولذلك فان التوقف فى ليڤورن كان هو الحل الأمثل ولكن يجب أن نقر أن إختيار هذا الطريق يدين كثيرا إلى التشوق لرؤيه انچيليكا مره أخرى .

إن ما يثير الدهشة فى النص التالى هو أنه رفض أن يتكلم عن الظروف الغريبة جداً التى واكبت رحلته وهى الكفيلة باثارة خيال محبوبتة الشاعرة . شاتوبريان مثلا – لم يكن ليغفل عن سرد ما حدث له وسط العاصفة التى صادفتة وهو مبحرا وسط اللاسيوم إلى بولين أو ناتالى وهى العاصفة التى دفعت مركبا باسرع من السهم وسط امواج زاجرة مثل الحيوانات المفترسة . كان مشهدا جميلا بقدر ماكان مرعبا » ولكن بدلا من انچيليكا التى كانت ستتأثر لها فان چان فرانسوا خص أخاه برواية ما حدث له فى هذه الساعات المثيرة للقلق . كما أنه خصه هو إيضا بوصف أحداث جرت أثناء أحد توقفاته فى رحلته وهى كانت ستسعد بالتاكيد كاهنة الاتروسك .

« تحولت الرياح الشديدة – لصالحنا ومعها ظهر بعض الضوء أنار لنا الدنيا فوجدنا أنفسنا بين جزيزة إلبا وبيومبينو [...] فأعلن الربان أننا مضطرون إلى العروج على أى ميناء صغير [....] ولحسن حظى كانت مدينه پولونيا عند مدى

* عاد إليها قبل يومين وأمضى بها أربعة أيام فقط – يبدو أن زيارتة لم تلقى ترحيبا .

البصر وطالبت وحصلت على قرار بتفضيل هذه المدينة الاتروسكية الهامة وإضطرنا للمكوث بميناء بويولونيا المهجورة لمدة يومين حتى مرت العاصفة . ولكن كان من أسباب سعادتى أن أسير فوق شاطئ مغطى ببقايا مبان أتروسكية ومقابر قديمة تؤخذ منها يوفياأوانى وأشياء أخرى تعود إلى القرون الإيطالية القديمة .

تسلقت الجبل الذى تقع على قمته المدينة الاتروسكية القديمة ... وأخيراً بعد أن عاد البحر إلى حالة تسمح بالخوض فيه ، إحتجنا لثمانية عشر ساعة من الأبحار حتى وصلنا إلى ليفورن . وعلمنا لدى وصولنا أن مركبين من روما أغار عليهما الجزائريون عند مونت أرجانتال وأخذا منهما الفدية وذلك عشية مرورنا على المكان المذكور وأن العاصفة هى التى أبقت عليهم فى عرض البحر ولولا ذلك لكنت تعاملت مسبقا مع أفريقيا » .

هل رأى أحد محباً يتحرق شوقا لفتح قلبه لسيدة لدرجة أن ينسى التأثير عليها بهذه الروايات عن القراصنة والبحارة والتى كان بامكان الكسندر دوما أن يكتب عنها أكثر من كتاب ؟ ولكن ربما أنه قص عليها ذلك خلال الزيارة التى لم يلق فيها الترحيب ؟ .

لعل مشاعرى فاجأتك ... فهى لا تتوافق لامع وضعى الشخصى ولا مع وضعك * وكل شى يامرنا باحترام هذه الأوضاع ولكن هل تنتظر خفقات القلب حتى تأتيها الأوامر من العقل ؟ انها تجرنا جراً . ولكنها إذا كانت نقية فهى تجد من داخلها على الفور القوة التى تحتفظ بها داخل الحدود التى يخطها الشرف والواجب بل والظروف الإجتماعية أيضا، هذا هو الشعور الذى أوحيت به إلى ..... »

نرى إذن أن الموضوع كان شيئا أخر غير الصداقة مثل هذه الاحتجاجات وهذه الاحتياطات لم يكن لها أن تتخذ بين « أصدقاء » ولم يكن هناك سبب للكاهنة أن « تندهش » أو أن ترى أن شرفها معرض للخطر لو أن « الصداقة » هى التى تربطها برجل غطيم .

بقية هذه الرسالة تعرضنا لها من قبل عند الحديث عن روزين شامبوليون فعندما صرح بحبه لانچيليكا رأى چان فرانسوا من واجبه أن يكشف لها عن فشل زواجه . ثم بعد أن تكلم عن ذلك رأى أن يخطو خطوة جريئة أخرى :

---

* كانت مخطوبة لشخص يبدأ إسمه بحرف م وفسخت الخطوبة بعد وقت قصير .

« فى اليوم الذى رأيتك فيه لأول مره شدنى إليك إحساس غريب لم أعهده من قبل ... ثم عندما تفضلتى بالكلام عن أعمالى غمرنى أقوى شعور عرفته فى حياتى . أنت يازلير التى جعلتينى فخورا بما تدين لى به العلوم ، ومنك أيضا حصلت على أكثر المكافات إطرائا لى على الليالى التى سهرتها ... سأكتم فى نفسى كل ما شعر به قلبى منذ ذلك اليوم لأنى إذا بحت به ربما أسأت إليك . أنى لا أسير وراء أوهام ، كل شئ يقف ضدى و أقل شئ يفصل بيننا [.......] وإذ أودع زلير فانى أرجوها أن تتذكر من وقت لأخر أن رجلا فى الوجود بعيدا عنها يكن لها أكثر من الأعجاب » .

تكشف لنا رسالة عالم المصريات الثانية تاريخ وظروف اللقاء الوحيد المعلن والعلنى جدا مع الشاعرة منذ الجلسة الأكاديمية فى الثانى من إبريل ... ففى ١٦ يونيو التالى دعاه صديقه الشاب روسيللينى إلى مدينة بيزا بمناسبة عيد القديس رانييرى راعى المدينة وهناك التقى بها خلال حفلات اللومينارا وهى إحتفالية تقام كل ثلاث سنوات وتجذب جماهير غفيرة للغاية على ضفاف نهر الأرنو وعلى رأسها الدوق الأعظم لتوسكانا بل والبابا نفسه فى ذلك العام ، وكانت مناسبة للبابا ليون الثانى عشر لكى يعبر له علانية عن رعايته له . ولكن هل شعر چان فرانسوا حتى بوجوده ... إن انچيليكا كانت هناك ...

ذكراها كانت قوية لدرجة أنه تكلم عنها ثلاث مرات فى رسائله ففى ٢٦ سبتمبر ١٨٢٦ .

« فى يوم عيد بيزا الذى ترك فى نفسى ذكريات بلغت درجة من السعادة تجعلها منذ ذلك الوقت بالنسبة لى ذكرى مقدسة . فمنذ تلك اللحظه عرفت أن قلبى ترك نفسه ينصاع دون وعى منه لتيار جرفه دون أن يكون فى ذلك ما يؤذى مشاعرك ، بما أن لا شئ فى هذا الميل جاء نتيجة لحسابات مسبقة أو لاستخفاف مذنب فهو بذلك يكون جديرا بك لسبب واحد فقط لانه يشعر فى حبه لك بكل ما تستحقينه من حب واحترام فى ذات الوقت »

يبدو أنه بعد خمسة عشر يوميا وهو فى البندقية قد فضل الحب على الاحترام :.

« أن قلبي يتمرد . كدت وأنا فى بيزا أن أصرخ [....] لم أعد أعيش فى هذه الحياة منذ أن تركتك ..... » .

أخيراً فى يونيو ١٨٢٧ أى عشية الاحتفال بذكرى هذا اللقاء العظيم :

« تحرمين عليّ الكلام عن ذلك – ليكن . ولكنى حرٌ فى التفكير فيه (....) هذه الذكرى السنوية ستبقى دائما عزيزة على نفسى ..... »

فى إمكاننا أن نجد إثباَت جديداً على أن ذكرى انچيليكا تلح باصرار عليه وذلك فى فقرة وردت فى خطاب كتبه من البندقية أيضاء إلى صديقة ابوليتو روسيلليني بخصوص أحد المتخصصين فى الحضارة الاتروسكية . البروفسور أوريولى :

« قل له أن يزوج مصر إلي أتروريا أن الاثنين يتوافقان مع بعضهما كنت أشك دائما فى أن كليهما تآمرا معاً واعتقد اننا سنتمكن قريبا من أكتشاف مراسلتهما السرية كلها . خطاب حب بالهيروغليفية يجيب على أخر بالاتروسكية سيكون شيئا مؤثراً لغاية » .

إذا ذكرنا درجة الحماس التى طالبت بها انچيليكا منه أن يكشف اسرار الإتروسك فيمكن أن نقيس على ذلك كم كانت فكرة الزواج المصرى الاتروسكى هذه مثيرة بالنسبة له .

ثلاثون رسالة خلال ثلاثين شهرا. لا يمكن أن نذكر كل شئ على الرغم من أن كل شئ تقريبا يساعدنى فى ذلك على فك شفرة حلال الشفرة . وله صبيانى ، حساسية مفرطة ، شخصية مناضلة ، حكيم حكمة فيلسوف الجمال ، فخور بما قام بتأسيسه ، غزير الكلام مثل أهل الجنوب ، خجول كأهل الريف ، يؤمن بالله بدون تعلق بالطقوس الدينية ، غيور غيرة المحبين إنه بورتريه لرجل مثقف فى فترة الريزنورجيمنتو (البعث الإيطالى القرن التاسع عشر) .

كلاسيكى الذوق ، رومانتيكى المزاج ، زوج خاب أمله ، أب حنون ، ومعلم جيد ثورى لأنه معجب بالماضى ، ديموقراطى دون وهم متمسك بذكريات الجمهورية وبما أكثر من ذلك أهمية أى بذكريات التسامح . هو أذن خليط غريب من المراهقة المتأخرة والنضج الحزين ، فى الصباح هو فى سن فابريس (بطل رواية الأبيض والأسود لستاندال) وفى المساءالكونت موسكا ....

خلفية هذه المراسلات تكونها أربعة موضوعات رئيسية : الموضوع الأول والمسيطر هو البوح بالحب وهو ملتهب لدرجة لايمكن أن تجعل أى زوج « مهما كانت سذاجته أن يصدق من يسميه » صداقة » . الموضوع الثانى هو رد الاتهامات الموجهة ضده والأحتجاجات علي شخصية جنية الإتروسك وعدم التوافق فى المشاعر بين رجل عاشق وإمرأة بدون عواطف ولكنها تستمرئ الاطراءلأن أحد اهم الشخصيات التى تتنازعها أوروبا كلها قد وقع فى غرامها . والخلفية الثالثة تتلخص فى كلمة واحدة : التربية أى تلك التي يقوم بها العاشق الذى حرم من أى وسيلة أخرى نحو السيدة التى كانت الأولى فى الأعلان عن نفسها بالاعجاب به . وأخيرا فان أخر مواضيع هذه الخلفية فهو الاعترافات الخاصة جداً مثل ذلك الخاص بزواجة الخالى من مشاعر الحب .

اعترافات ؟ بعد اعترافاتة المقلقة فى بيزا وتلك التى أفلتت منه خلال زيارته القصيرة لليڤورن فى سبتمبر ١٨٢٦ هاك إعتراف ثالث يعود إلى شهر أكتوبر أقربه عند عودته الثانية إلى فرنسا ومن شامبيرى بالتحديد:

« ....بما أنه لم يكن من حظى أن أكون كل شئ بالنسبة لك فانى أود أن أكون على الأقل أول صديق لقلبك . هل أنا أطلب بذلك الكثير منك ، أنت التى هى كل شئ بالنسبة لى (......) تعلمت كيف اسيطر على التعبير عن مشاعرى . قلبى هو المسيطر ولايمكن لى أن أكبله بسلاسل »

فى الأول من مارس ١٨٢٧ كتب من باريس وذلك بعد عرض علمى مطول سنعود إليه فيما بعد :

« تأكدى ياصديقتى أننى ملكك باكثر مما يمكن أن أقوله لماذا لاتتاح لى فرصة أن أثبت ذلك كما يود قلبى أن أفعل . أنى لا أريد شيئا أخر من العالم الذى خدعنى باقسى ما يمكن حتى الأن ، سوى أن إقتناعك بانى إلى الأبد صديقك الوفى بكل المعانى التى يمكن لقلبك وقلبى أن يمنحاها لهذه الكلمة فتهدأ بالتدريج الأحزان التى تنهشك وتنسين ما فقدتيه وتعيد تصالحك مع الحياة التى عصفت بها أيامك الأولى بتلك الاعاصير الرهيبة . أود أن أكون الرباط الذى يشدك إلى الوجود . أما بالنسبة لى فلا أريد شيئا إلا إذا وجدت داخلك هذه العاطفة الحية التى جعلها القدر أولى احتياجات روحى . الوداع ..... » .

ثم بعد بضعة أيام ومن باريس أيضا نراه وقد سما إلى مستويات تشبه الإجلال

« ...أحبك بصدق عظيم لا يسمح لى أن أشعر بالغيرة من تعلق كل من يعرفك بك ومن كل من يقدرونك . إنى أقدر تماما الشقاء الذى يسببه لك وضعك لدرجة أنى اود بحق أن تجدى حولك أشخاصا يمكنهم أن يملئوا قلبك كله .. حتى لو ادى ذلك إلى أنك لاتفكرين فى شخص سوى على أنى رؤية عابرة تمر للحظة على مخيلتك فى أوقات الألم ...... »

وفى الثاني من أبريل يرسل الى سيدة ليڤورن بمايشبه أغنية حب :

« .... مر اليوم عام كامل على لقائنا الأول فى نفس هذه اللحظة التي أعيشها . هل كان بإمكاني أن اتنبأ وأنا أحضر احدى جلسات الاكاديمية أى إحدى هذه الاجتماعات التى عرف عنهابحق وسط العامة أنها من أكثر الاجتماعات مدعاة للضجر العلنى ، أنى سالتقى فيها انسانة ستحتل كل هذا المكان داخل قلبى فى المستقبل ؟ نعم سبق أن كلمونى عنك ولكن بشكل عابر جداً على الرغم من أنه يستحيل علىّ الآن أن أصدق أن يكون اسمك قد ذكر أمامى دون أن يثير ذلك اهتمامى ومشاعرى ، الا أن عزيزة القلب التى يطلق عليها الأقدمون اسم الشيطان الطيب انتفضت من ثباتها الطويل فشدتنى إليك منذ تلك اللحظة . تعلق نظرى بك إلى الأبد كنت أقرأ فى محياك كل ماكنت أود وجودة . فى الوقت ذاتة كان الشيطان يكون رأيه عن حساسيتك وشخصيتك وعن الامكانات النشطة لنفسك المحبة . هل من حظى أنا أن تخميناته كانت فى محلها ؟ إنه لا شك شيطانك أنت (لن أقرر إن كان طيبا أم شريرا) الذى دفعك إلى الحديث عن هيروغليفياتى ..

عشية ذلك اليوم لم أكن أتعلق بائ شئ فى هذا العالم الكئيب . كانت أحلامى فى السعادة مدفونة في أعماق قلبى ترزح تحت أثقال التجارب المخدوعة التى عرفها شبابى كله [....] وكانت فى سبيلها إلى [...] الزوال التام [....] لم أكن أرى شيئا حولى (....) لم أكن أعيش بل أنى لا أسمى حياه العادة التى أكتسبتها فى التركيز بكل ما أوتيت من امكانات على دراسة واحدة فضلتها لانها كانت تستهوينى تماما وتجعلنى أنسى وجودى ذاته . عرفتك فتغير كل شئ » .

هاهو مندفع عاشقنا عالم اللغويات! إلا أن السعادة لن تطول إذ أن من أحب لم يستجب له.. لم يكن فى الأمكان أن نطلع على خطابات انجليكا. إلان ماينقلة عنها جان

فرانسوا لكى يحسن الرد عليها - وعلى الرغم من إقتضابه - فهو يكشف عن خبثها الغريب . فلكى « تبرئ» نفسها من «لا -حبها » له - أو لكى تبتعد عن حب كله مخاطر - فان الشاعرة تفننت فى أن تطلق على الرجل العظيم سهاما وتلميحات تختلط فيها الشكوك والغيرة وتحقير اللعوب للمحب ثقيل الحركة . غيرة الإنسانة الطموحة من الذى سبقها على سلالم المجد وهى قليل من سيليمان * وشئ من كاترينامن نمرة (شيكسبير) وقليل من جيرمان دوستال ** .

عدة اشارات ذكرها جان فرانسوا توحى بأن انجيليكا كانت محاطة باسرة كثيرة المشاحنات تحركها الغيرة وتريد أن تراها زوجة لأحد أفراد أسرة بارولومى أو أى شخصية أخرى من الأسر الكبيرة حتى تؤمن تتويج عشيرة باللى داخل المجتمع التوسكانى . الجميع يراقبها ويجبرها ويمدحها ويحذرها أو يتحداها : أسرة من أسر المسرحيات الكوميدية بالفعل . فجأة يظهر فى هذه المسرحية الجديرة بمسرحيات جوتزى - عالم مستهلك يتكلم الإيطالية دون طلاقة ويدا كرشه يتكون ويكبر ؛ فصاحته زائدة بعض الشئ ربما لتغطى على خجله مع شئ من التحذلق ... وعلاوة على ذلك فهو متزوج . لاشئ يمكن إنتظارة منه سوى بعض مظاهر المجد لسهرات أيام الجمعه والكثير من الحرج لصاحبة السعادة ، ومع ذلك وعلى الرغم من مضايقات القبيلة فان الراجاتزا (الأنسه) دفعت الأمور قليلا إلى الأمام لا شيء أكثر من نقرات بالمنقار أو جروح بالأظافر أو لدغات حيات أو طفرة من طفرات اللاقا إغريقية . أمام هذا الجبروت لا داعى للاندهاش إذا كان شامبوليون الصغير اعتبر نفسه فى بعض الأوقات الملك بريام ذاته . إنه يتفادى الضربات ثم يأنّ ثم يرد ويحتج ويهاجم هجوماً عكسيا . يستكين أحيانا ثم يندفع من جديد بكل طاقته وإن لم يتمكن من ترويض النمرة فهو يلقنها المبادئ تارة ويؤنبها تاره أخرى وهو فى كل ذلك مؤثر جداً وغير حذق أيضا كما بيتهون وهو يدافع عن نفسه وهو بين أيدى جوليتا . ولكن يجب أن نذكر بعض اللمسات من هذا الصراع الثنائى الذى لا نستمع منه سوى لصوت السوليست : « باريس » فى ١٠ نوفمبر ١٨٢٦ .

---

* بطلة مسرحية موليير « عدو البشر » شابة لعوب ونمامة وذكية ..... [المترجم]

** أدبية فرنسية (١٧٦٦-١٨١٧) [المترجم]

« مكتوب منذ الأزل فى كتاب المصير أنى لن أحصل أبداً على رسالة منك لا تبدأبعتاب ولا تحتوى على عرض لسلسلة من الشكوك ولا تنتهى بهجاء .... إذا كان الأمر هكذا فما علىّ سوى الإمتثال ، ولن احتمل (حتى لا أضع شخصيتك السيئة أمام المحكمة) سوى بأن أمسك القلم واكتب لك . لكى تخاطبينى تلجئين الى فكرك الصالونى ولا تفعلى سوى تكملة ثرثرة إجتماعية يكون الأخر هو ضحيتها ..... ومن سوء الحظ أن يكون هذا الأخر باستمرار هو أنا . وذلك فى الوقت الذى تتكرمين فيه بمنحى شئ من وقتك . إن ذلك عمل خاطئ . يجب على أن أغضب وأن أستعين بكل بلاغتى لكنى أجعلك تخشين على نفسك من ذاتك وذلك بأن ارسم لوحة مرعبة للتحدى الشكاك الذى ينهش صدرك ويمنعك حتى عن إكتشاف أصدقاءك حيث هم بالفعل .

بدلا من الشكوى ساطلب منك الغفران ضاما يدى متضرعا راكعا وطالبا الرأفة [....] ومادام كبرياء مغازلتى قد ارتضى أن يتذلل على هذه الصورة ومادمت أشعر أن وضعى هكذا يناسبنى فانى انتهز الفرصة لاعتراف الإعتراف الشامل التى تطالبيننى به وتصرين عليه . نعم ياقسّ اعترافى : نعم إنى مغازل حذق (.....) من كثرة ماقمت به من تزلف وملاطفة ذكية لكل روسائى ، منذ أن بدأت حياتى سواء السياسية أو الأدبية ، نجحت فى أن أدعهم ينتزعون منى خمس مرات مختلف الوظائف التى أنيطت بى . السنة السوء كانت تقول جينذاك أنى كنت أتكلم بصوت أعلى من المسموح به ، ويعيبنى أسو العيوب وهو أنى لا أخفى أبداً ما أفكر فيه عن الأشخاص أو الأشياء .....»

أن يصل بها الحال أن تصفة بانه مغازل حذق يدل على أن الكاهنة لم تعوزها وسائل التصنع : إلا ان هذا لم يكن سوى البداية ، فبعد ذلك بشهر ..

« انتظرت وصول أخبارك على أحر من جمر إلى أن وصلت رسالتك المؤرخة ٢٢ نوفمبر لأعاقب بمنتهى القسوة لأنى شكوت من صمتك .

لن أقول لك كل الالم الذى سببته لى لأنك لن تصدقينى . إنك تشككين فى كل ما أفكر فيه ، كل ما أكتب يساء تأويله . جنية مؤذية تقف بيننا تتحكم فينا وتقدمنى لخيلتك فى صورة غير حقيقية . وتستخدم كلامنا كاله لتعذيب

الآخر (...) ومن ناحية أخرى لايمكنني أن أضع عليك اللوم لانك لاتعرفينني فلم تريني سوى للحظات . وعبر العديد من العوائق والتحفظات ! ألوذ فقط بحق لايمكن أن تنقضية وهو ألا أحاكم دون أن يسمع دفاعي . بعدها سأمتثل للحكم الذى ستُصْدرينه . إذا كنت تحكمين بهذه السرعة على من يحبوك فاني أشفق على من لايهمك أمرهم .»

بعد سبع أو ثمان شهور نجده قد روض تماما ولايتجرأ على الرد سوى بهجمات مضاضة غير مأمونة العواقب

باريس في ١٨ أغسطس ١٨٢٧

أخذت عن الطبيعة شخصية مكروهه جداً [....] لاأعرف بأى لهجة أتحدث بها إليك ، بل أني اعتقد أنى لن أرضيك سوى بان أكتب لك بعض الكلمات الوقحه .....»

ثم يلى ذلك فورة من الحزن :

« التسامح يعتبر من أشكال التعاطف مع المسنين ولذلك فلن أضحك ولن أغضب من الوريقات الثلاثة أو الأربعة التى تتكون منها رسالتك . تحلى بفضائلى وضاعفى عددها . يتضمن خطابك إفتراضا لن أخذه معك بالمعنى « البارد » الذى تحمليني أياه . إذا كنت بالفعل تعتقدين ما تقولين الم تخشى قط أن تتسببى فى الأساءة إلى ...؟ »

وسنذكر أيضا هذه الفقرة من إحدى الرسائل الأخيره التى تنم عن شئ من سوء الطباع : « ..... تبدأ رسالتك الأخيرة مرة أخرى بأحد السهام المسمومة التى أصبحت من الأمور التى تعودت عليها بسبب معاشرتك لأوساط مناهضة لك وهى تخرج من قلمك بصورة طبيعية للغاية . تقولين أنك ربما تشعرين ببعض الأسف لوعلمت أن صمتك أحزنني ؛ كيف ستصفين هذه الجملة لو حدث وتجرأت أنا بكل أسف وكتبتها لك ؟ .....»

كفانا من هذه الشكاوى وكما يقول چورچ واندان ، من الأفضل دائماالا نتعامل مع إمرأه شريرة .. ولكن إذا كانت الإساءة قد حدثت وانها تتمتع بشخصية حادة الطباع فإن أفضل ما يمكن عمله فى مثل هذه الظروف هو أن تزين الأمر بافضل ما أوتيت خاصة إذا كنت قد نشرت **« رسالة إلى مسيو داسيية »** أو تكون ألفت صونانا إلى كروتزر . وها هو چان فرانسوا لايأنف من تأدية دور المربى تجاه انچيليكا . لنذكر

هنا أولا هذا التعريف المحدد لشخصية السياسية كما كتبه للكاهنة سريعه الأنفعال :

« إنى أتمرد ويعتبر هذا من مخلفات حياتى السياسية ولكن إطمئنى فمهما بلغت بى الميول التى لازمتنى طويلا نحو التمرد فلن أتامر أبدا وبالذات ضدك أنت . إنى أشاركك الرأى تماما فيما يتعلق بمن يزرع الشوك .... قبل ثمان سنوات من الآن كانت الأحلام لاتزال تراودنى فى إحداث تغيير إجتماعى نحو الأفضل ودون ماحدود وكنت أعتقد أن من الواجب حمل السلاح فى الأماكن التى يمكن لثقافة بطيئة ومنظمة تنظيماجيداً أن تحول وحدها النباتات السامة إلى نباتات صالحة (....) وهذا هو السبب الذى دفعنى إلى أن أكرس ذاتى بالكامل لدراساتى وهذا يعتبر موضوعاً واسعاً وكبيراً لدرجة أنه يمكن استيعاب قوى فكرية باكثر مما حبتنى بها الطبيعة .. وهذا يعتبر على العموم أسلوب أخر من أساليب القيام بالثورات بقدر ما يمكن أن أكون قد احتفظت به من مثل هذه الميول القاسة » .

على الرغم من أنه أفاق من أحلامه الثورية فان صديقنا عالم المصريات بقى جمهوريا فى أعماقه . فها هو ينهرها – وهى الشاعرة – بعد ما قرألها مسرحية تراجيدية من ستة فصول (لماذا الخروج من العرف المكتسب) حيث إكتشف مذهولاً أنها حولت الجمهوريين إلى « بانديتى » أى « مجرمين » ياللضلال ! «إن تشويه الناس على هذه الصوره شئ فظيع، ثائر تائب ولكنة بقى جمهوريا فى أعماقه وفيلسوفى إتصح إنه « فيلسوف جيد » . الجانب التالى من شخصيته جدير بروسو أو ديدرو فهو إذ يصف لصديقته حادة الطباع الزيارة التى قامت بها لباريس « فرقه صغيره من البدائيين الأمريكيين من قبيلة الأوزاج » أحضرهم أحد البحارة لمتحف اللوفر « شبه عرايا » وسط المارة المذهوليين ، يردف قائلا :

« إحدى النساء الأوزاج إسمها ميهانجا . خطوط وجهها كانت جميلة على الرغم من بسمة بدائية إختلطت بطريقة فريدة بالوجه الجاد والهادئ فى نفس الوقت ... لم يحصل منها كل العالم المحيط بها على نظرة واحدة . بقت ميهانجا محاصرة داخل ذاتها ثم وقفت فجأة بعد أن تجولت بنظرة سريعة حول القاعة ومرت عبر الجمهرة التى تحيطها وإتجهت فى تؤدة نحو أحد الأعمدة فى أخر القاعة وجلست تتظلل بها ووجهها إلى الحائط . هناك وبعد أن عقدت ذراعيها فوق ركبتيها ، طاطأت رأسها وأغلقت عينيها وشرعت تغنى بصوت غير مرتفع أغنية بطيئة الوتيرة وحزينة حزنا يمزق القلوب ، كنت قد تبعتها إلاأنى مكثت بعيدا عنها بعض الشئ . لم تفعل السيدات الجميلات مثلى فأحاطتن بالمرأة الحزينة من جديد التى ظلت على تركيزها

الشديد فى ذكرياتها وظلت تغنى لمدة نصف الساعة دون أن تأبه بالفضوليين الأغبياء الذين لا يراعون الامها بل وجدوا تسلية عابرة حيث يجب أن يجدوا فقط الرحمة والتأسى والتراحم . كانت تلك البائسة تفكر دون شك فى بلادها وفى أحبابها الذين تركتهم فى حين كانت باريسياتنا الجميلات تتضاحكن .... أسألك بالله مَن من هؤلاء ميهانجا أم السيدات التى يجب أن يطلق عليهن صفه البدائية ..» .

« إنه متشائم صديقنا المصرى » . نحو أى أفق مظلم للعالم قادته تجاربه ودراساته وفك الطلاسم التى جعلته يغوص وسط كل هذه القرون من الزمان ؟ نتوقف مرة أخرى عند هذا التعبير الموجه للكاهنة :

« أتشوق لرؤيتك وقد أنهيت دراساتك التاريخية . إنها قرائات مؤذية بالنسبة لك ، مهما كانت المرحلة الزمنية – قديمة كانت أو حديثة – التى تنظرين من خلالها إلى النوع البشرى فستكتشفين دائما أنه لا يساوى شيئا ولن استثنى من ذلك سوى المصريين عن حب * والإغريق عن مجاملة . أغريقيوك كانوا يتقاتلون للتسلية (...) أما مصريونى فلعلهم إكتفوا فقط بالمظاهر الخارجية للحكمة والأنسانية [...] فذلك يكفى لأنه يعود إلى نفس النتيجة وفى رأى أن الهة التاريخ يجب أن تصور وفى يدها شعلة وفى الأخرى خنجر تلوح به فوق نهر من الدماء ...! »

ثم يختم خطابه بهذا الأعتراف للعرافة التى سبق أن كشفت عدة مرات عن إلحادها النشط :

« يجب أن أحدثك عن أسرتى وكنت فى جميع الأحوال عازما على ذلك حتى لو لم تطلبين ذلك . فى اللحظة التى أكتب لك فيها من مكتبى فان إبنتى الصغيرة تقاطعنى فى كل لحظة باسئلتها التى توجهها لى من قرب النافذة حيث هى جالسة تحاول ترتيب رقعة شطرنج تلعب بها . دون أن تتصور أن بمثل هذه الأسلحة نجحت أنت فى هزيمة أبيها من جدارة المرة الوحيدة التى تجرأ فيها أن يعلن عليك حرباً صريحه. إبنتى (الوحيده وستبقى كذلك علي ماأعتقد) عمرها الأن ثلاث سنوات. لها مثلك إسم عربى : زورايد . إنها دمثة الطباع وطيبة وسابذل كل جهدى لكى تبقى كذلك

* الحب – إذن – هو للمصريين فقط وليس انجيليكا التى يتعين عليها أن تكتفى بالمجاملة فقط .

دائما . أحضرت لها خادمة من جنيف حتى أظل المسئول الوحيد عن تنشئتها الدينية.
ستظل مسيحية ولكن دون خزعبلات .... »

هل قال لها كل شئ .. لم يبق لديه سوى إلقاء كلمات الوداع التى ستصل إلى إنچيليكا وقد أصبحت تتباعد أو تتعالى عشية سفره وعودته من مصر . من هى المرأه التى كان بامكانها ألاتتاثر بنداءآت أوديب وهو فى طريقه لمواجهة أبى الهول ... وبنداءت هذا البحار العائد محملا بالتاريخ والمخاطر والمعجزات ؟

فى ١٠ يوليو قبل سفره بثلاثه أسابيع كتب لها من باريس

« ساكتب لك مرة أخرى من طولون وسأكون شاكرا لو وصلتنى منك كلمة صغيرة على عنوان مسيو لوت * وهل ستتركينى أرحل دون ذلك ....»

ومع ذلك فهو يرسل لها هذه السطور فى الأول من أغسطس :

« طولون » من فوق « الإيجلى » وهو يفتح شراعه .

انتظرت كلمة منك دون جدوى ربما تكونى قد كتبت ولم تصلنى رسالتك لضيق الوقت . أود أن يكون ذلك هو ما حدث . ومن القسوة على نفسى بمكان أن أعتقد أنى أضعت كل أمل فى علاقتك بى فى اللحظة التى لا أجد فيها وأنا أغادر أرض الوطن سوى ملاذا واحد وهو إعتقادى بأنى سابقى حيا باستمرار فى قلوب كل من أحببتهم واتركهم الآن ورائى وددت لو قلت لك وداعاً ، ومن المؤلم جدا بالنسبة لى أن أغادر أوروبا تاركا بيننا غيوما تعكر صفو الثقة التى يأمل قلبى أن يجدها فى قلبك . ساكتب لك من مصر وإذا أردت أن تردى على خطاباتى . فليكن ذلك على العنوان التالى . إلى مسيو دروڤثيتى قنصل فرنسا العام فى مصر (يسلم إلى مسيو لوت

سيسعدنى الحصول على ذكرى من يدك . الوداع »

الكلمة الختامية ستكون لخطاب كتبه للكاهنة الصامتة بعد أن وضع قدمه مرة أخرى على الأرض الأوروبية « من فوق اللازارات من طولون ٢٧ ديسمبر ١٨٢٩

* أحد رسامى رحلته الى مصر (راجع الفصل ١٦ ، ١٧)

المركب الذى عاد بى من مصر بعد ١٩ يوماً وصل إلى رصيف طولون مساء الخامس من الشهر . بقيت على أملى حتى اليوم أن يأتوا لى من اليابسة بخطابات منك إلا أنى أجد لزاما على أن أتخلى عن أملى فى أن أكون اكثر سعادة فى أوروبا عما كنت عليه فى أفريقيا حيث لم يصلنى منك خلال ١٩ شهرا سوى تعبير واحد عن الذكرى. كيف أفسر هذا الصمت ، لايمكن معرفه الاسباب سوى منك أنت فقط .

ولم يبق لى سوى أن أكرر هنا الكلمات الحزينة التى أنهيت بها جميع خطاباتى لك من مصر : إنى أنتظر » .

ظل هذا الإنتظار قائما إلى أن إنتهى بوفاة البطل . كان ايبوليتو روسيلليني رفيق رحلته فى مصر والذى أصبح بذلك أقرب أصدقائة وحافظ أسراره بالطبع لانه كان أيضا من بيزا وبالتالي من جيران الكاهنة - كان يعرف ذلك جيدا وهو لذلك لم يدع فرصة واحدة تمر دون أن يثير موضوع الغراميات التوسكانية . فى ٢٢ فبراير ١٨٣٠ كتب من بيزا إلى شامبوليون « فى ليڤورن إلتقيت بالحاكم الطبيب* وبجميع أصدقائه فى منزله . الجميع يهنئونك « ويريدون رؤياك . الأوكس* * مازال علي حاله نحوك : أسرت لى فى أذنى أنها تبعث لك بمشاعر عديدة كما تؤكد لك إهتمامها بكل نجاحاتك ...»

وفى خطاب أخر من بيزا مؤرخ فى ٢٨ إبريل ١٨٣٠ أشار روسيلليني أيضا إلى زلير . وإذا كان يحث شامبوليون على أن يمضى من ست إلى ثمان شهور فى توسكانا أضاف قائلا :

« سترى من جديد اللومينارا فى كل بهائها » ويضع خطا تحت هذا الكلمات وهو متاكد أنها ستثير لدى صديقه ذكريات عزيزة جدا عليه .

وأخيرا فى ٢٤ أكتوبر١٨٣١ وبعد أن أقام فى باريس لفترة سمحت له بالاعداد مع شامبوليون لنشر أعمال رحلتهما كتب روسيلليني إلى صديقه وكان يقيم جينذاك فى فيجاك خطابا قصيرا ختمه بهذه الكلمات : « الأوكسيس وبلبلها المسكين موجودان الأن فى فو . *** يقال أنها جعلت منه حشرة ...»

أوكس أوكسيس أو أوكسور هى جميعا مأخوذة عن كلمه أوكسر اللاتينية أو زوجة. تلاعب بالألفاظ بين علماء المصريات . وقد عرفا فى مدينة طيبة حيث عاشا فى معبدا الأقصر أكثر مشاعر السعادة عمقا أما فيما يختص بحالة الحشرة التى وضعت

---

* باولو جارزونى - فنتورى : محافظ ليڤورن من ١٨٢٨ حتى ١٨٣٥

** كل شئ يشير إلى أن المقصود بهذا الاسم هنا هو انجيليكا

*** عدة حروف غير واضحة فى الميكروفيلم ولعل الاسم هو : كورفو

الأوكس فيها « بُلْبلُهاً » فان تلاعب الالفاظ هنا غير واضح لنا .. إلا إنه يشهد على قسوة شخصية انجيلكيا . فلم يكن المكتشف إذن فريستها الوحيدة .

عندما كان يسميها أوريوس فكان فى ذلك إشارة إلى الثعبان ذى العيون البراقة الذى كان يخرج وهو يصفر فوق جبين فرعون . من يقترب منه .. وقد أقترب منه صديقنا وتحدى ولُدِغ ، وعرف قدر نفسه ...

إذا بريشيانى تحدثت عن « عدم مبالاة » الأنسة باللى ألا أننا يمكن أن نتخيلها غاية فى الحرارة ومتسلطة وقاسية وأحاسيسها العنيفة كلها منطوية إلى الداخل . هل كانت تغير لان موهبتها الخلاقة لم تكتمل أو كانت متقطعة ؟ أم أن غضبها عنيفا لأنها فى تسلطها كانت تواجه جلال العبقرية ؟

من المؤكد أن الجرح ظل يدمى طويلا فى صدر العلاّمة . ولكن من الممكن أن تكون مغامرة توسكانا أثمرت داخله ما تلخصه هذه السطور المرسلة فى ٢٠ نوفبر ١٨٢٦ إلى ايبوليتو روسيللينى (2) :

« ياالسعادة التوسكانيين ! كم من مرة كررتها خلال فترة أشهر العسل التى أمضيتها معهم وها أنا أكررها مرة أخرى اليوم بقدر كبير من السعادة لأنها صرخة تحية تعبر فى الوقت ذاتة عن الأسف وعن شعور بالعرفان .نعم ياصديقى العزيز إنى تعودت أن أرجع كثيرا بالذاكرة إلى أيام السعادة التى عشتها فى ليڤورن وفلورنسا »

عندما يتحدث جان فرانسوا عن « شهور العسل » التى أتيح له أن يحياها فى توسكانا – قبل أن يعود إلى روما ونابولى والبندقية – فهو لا يفكر فقط فى انجيليكا التى إمتزج عسلها بمرها . فاذا كانت غرامياته الليڤورينية قد غاصت فى بحر من المرارة فان صاحب الرسالة إلى مسيو داسييه قد عمق تفكيره فى ذات الوقت كما قام بتحقيق أحد المشروعين اللذين شغلا باله وهما مشروع إقامة متحف مصرى فى باريس يعهد به إليه ومشروع سفره المرتقب لوادى النيل .

عرفنا من قبل أنه سافر إلى ليڤورن باحثا عن مجموعة سولت كالعقيد الذى يبحث عن كتيبته كما فعل قبل ثلاثين أو أربعين عاما نواى أو توزاى – أكسيس . وهما فى العشرين من عمرها . وعلي أرصفة ميناء ليڤورن المليئة بالنشاط وبالتحديد في مخازن الميديسيو الواقعة إلى جوار الرصيف الذى تقف عليه من فترة لأخري مركب البريد المتجهة الى جزيزة كورسيكا ، أمضى الاسابيع الأولى من إقامته التوسكانية مبهورا

ومشغولا بفتح الصناديق ثم باعادة تسميرها يزيل الأتربة من فوق الأقنعة والأوشيبتى، يفك شفرتها ويصنفها ويحفظها .

وكتب فى ٢٧ مارس إلى الأب جاتزيرا صديقه فى تورينو :

« بعد أن ألقى بى فجاة وسط كم هائل من الآثار أتيح لى فقط أن القى عليها نظرة سريعة العام الماضى .. فمن الصعب على جداً ألا أبقى معها من الصباح حتي المساء لأتعرف عليها وأسجلها فى الجرد ولأنسخ تلك التى تهمنى قبل أن أعيدها داخل الصناديق لكى أعهد بها مرة أخرى إلى المادة الخائنة * (...) من الثامنة صباحاً إلى السادسة مساء أبقى داخل المخزن الذى يضم المجموعة الغالية .

ويسعدنى أن أفيدكم أن الأمور بدأت تتضح .

وضعت فى الصناديق بالفعل ما هو مصنوع من البرونز وعددها ما يقرب من ثلاثمائة : اما تماثيل أو تماثيل صغيرة أو أشكال أو حيوانات أو آنية من كافة الأنواع [...] إنها أجمل المصنوعات البرونزية المصرية المكتشفة (...) تمكنت من مشاهدة التابوت المشهور بكل روية : إنه بالفعل لرمسيس ميامور وهو قطعة واحدة من الجرانيت الوردي طوله عشرة أقدام على الأقل وأرتفاعه خمسة ونصف . إنه كتلة ضخمة مغطاة من الداخل والخارج بصور اسطورية من أغرب ما يكون وكمية هائلة من الهيروغليفيات الشارحه لها .

يعتبر هذا التابوت أكبر التوابيت الموجودة فى أوروبا »

فيما يتعلق بكشف الجرد الذى انهمك فيه بهذا الحب الجم اشار علية جاك جوزيف أن يكتفى بذكر الأشياء فى ماديتها حتى لايسرق منه منافسوه الكرام – كما حدث من قبل – عمله فى التعليق على مكونات المجموعة . وكان رد المكتشف فوريا :

« ...... سالتزم بما أشرت به إلى فهو يبدو لى مبنيا على أسس سليمة ومبدئية إنهم أفاكون ويجب ألانضع فى أيديهم السكين لكى يقطعوا به أرجلنا إذا ماترائى لهم ذلك ....»

كان « الأفاكون » نشيطين فعلا فى باريس . فقد نشرت صحيفة تسمى لوسبيكتاتور مقالا فى الأول من ابريل شديد الخسة ، قيل أن كاتبه هو راءول روشات

* يقصد البحر إذ كان فى إنتظار مركب طولون التى كانت ستنقل المجموعة إلى ميناء الهافر .

« يعتب الأجانب عتابا خطيرا على اثنين من أهم علما ئنا وهما الشقيقان شامبوليون إذ يقولون أن الأخ الأكبر نسب إلى نفسه شرف حل شفرة الهيروغليفية وهو شرف يستحقة الدكتور يانج الإنجليزى أما الأصغر فيقال أنه سرق من ميسو چوليو دى سان كوينينو محافظ المتحف المصرى لملك ساردينيا شرف اكتشاف أن المصريين كان لهم نظاما للأعداد يشبه كثيرا نظامنا . يجب على السيدين شامبوليون أن يدافعا عن أنفسهما » .

المؤامرة الكبرى – « الإفعوان ذو المائه رأس الذى يصفر فى زحفه » كما يقول جان فرانسوا – لم يكف عن أعماله ولن يكف . فبينما هو يخرج الآثار من صناديقها ثم يعيدها بعد أن يرتبها ويرقمها على أرصفة ميناء ليڤورن ، كان الكونت فوربان مدير المتاحف الوطنية في باريس ينشط لكى يسحب المجموعة من بين يديه ويمنع تعيينه محافظا للمتحف الذى فى دور التكوين فى حين كان جومار يتحرك مستميتا فى جميع الأتجاهات لكى يتولى هو المنصب – بصفتة صاحب الأقدمية ورائد علم المصريات .

ولكن سوستان دولا رو شفوكو ياور الملك لشئون الفنون الجميلة وهو إبن الدوق دو دودوڤيل وهو أحد حماة شامبليون المعلنين بت فى الأمر ولو الى حين وأكد أن چان فرانسوا سيكون المسئول عن إنزال مجموعة سولت كما كان مسئولا عن إبحارها .

ولما كانت ضمانتان أفضل من ضمانة واحدة كتب صغير فى ٢٧ إبريل إلى بلاكاس الذى لاغنى عنه ولا تعوزه الحيلة وكان لا يزال سفيراً فى نابولى :

« ... كل يوم يمر يزدنى إقتناعا أن هذه المجموعة من الآثار الجملية كان يجب أن تؤول إلى فرنسا لتملأ الصالات المصرية العارية باكثر مما يجب فى المتحف الملكى فى باريس (...) سيكون في استطاعة الجميع أن يقتنع بما أقوله بعد بضعة شهور (...) إلا إذا تقرر ترك الصناديق مقفلة فى مخازن اللوڤر وهى الصناديق التى سأشحنها إلى فرنسا حال وصول المركب الذى كلف بذلك إلى هنا . من واجبى أن أشكر سعادتكم لما تفضلتم به من توصية وزير البلاط الملكى بتكليفى بوظيفة محافظ المتحف المصرى القادم » .

الحماية المزدوجة للدوقين دو دو دوڤيل ودو بلاكاس لم تذهبه هباءا . فبينما هو يراقب شحن ألهة مصر على ظهر سفينه الشحن « لا دورانس » ويستعد للتعامل معاملة الأتراك إلى المور فيما يتعلق بالمناورات الخسيسة التى يقوم بها السفلة ...» كان

أصدقاء شامبوليون الأقوياء يتحركون في باريس . في ١٧ مايو ١٨٢٦ أعلن فيجاك بكل هدوء إلى أخيه الأصغر « الخاتمة النهائيه لجميع المحن » ، فقد وقع الملك على قرار تعيين جان فرانسوا محافظا للقسم المصرى والشرقى للمتحف الملكى فى اللوفر كما عين الكونت دو كلاراك مسئولا عن القسم الأغريقى – الرومانى تحت الأدارة الشاملة للكونت دو فوربان كما تحدد فيما يلى :

« كل عام ستلقى فى متحف أثار اللوفر وخلال الفصل الربيعى محاضرات عامة وبدون مقابل عن الآثار المصرية حيث تشرح نظامي الكتابة التي استخدمها المصريون (....) سيتولى هذه المحاضرات السيد شامبوليون الصغير محافظ الآثار المصرية . كما أنه سيطبق بقدر ما هو مستطاع * نظرياتة على أثار المتحف .....»

وجاء خطاب من الڤيكونت دولارو شفوكو إلى جـ – ف شامبوليون ليرفع من قيمة إنتصار صاحب « الرساله ... إلي مسيو داسييه » إلى العنان .

« كان يجب أن يعود إلى العالم المتعمق والذكى الذى فتح لنا هذا المنهل الثمين من المعارف مهمة نشرها على أوسع نطاق بين عالم العلماء ... وبالتالى فقد قرر جلالته أن تكلفوا أنتم بمهمة هذه المحاضرات وقد تفضل جلالته بمنحكم مقابل هذا وبصفتكم محافظا للقسم الثاني للآثار مرتبا سنويا مقداره خمسة آلاف فرنك تتمتعون به إبتداءاً من تاريخ القرار الملكى ... لن أترك هذه الرسالة تغادر مكتبى ياسيدى دون أن أعبر لكم عن سعادتى الجمة بالعلاقات الجديدة التي سأقيمها مع عالم على هذا القدر من التميز » .

« حمداً لأمون رع ولك أيضا !! » لم يكن فى الامكان أن يتلقى جان فرانسوا نبأ إنتصاره دون أن يقدم القرابين إلى إله الشمس وإلى الأخ النشيط الذى عبر « نار جهنم » من أجله . وهاهو قد هدأ تماما ولم يعد يطالب بأن يسلم له جومار أو روشات وهما موثقى اليدين والرجلين بل راح يعرض السلام على الجميع :

« ... لابد وأنك نقلت كلمات سلمية ألى الساده دوفوربان وكلاراك لأن ذلك يعتبر أول ما ينبغى عمله فى عالمنا هذا وسأكون سعيداً لو عشت بسلام مع هذين السيدين . سيتوقف عليهما حسن التعامل بيننا لأنى على استعداد لعمل كل ما فى إمكانى للوصول إلى ذلك » .

* بما يوحى بشىء من الغرابه بأن منهج المكتشف لم يكن مؤكداً ......

ألا أن حسن الطالع لم يوقف إنطلاقاته الكلامية . فلنستمع إليه وهو يلخص قضية المتحف في خطاب وجهه إلى جاتزيرا :

« المسرحية قسمت إلى خمس فصول :

١) العرض يبدأ ببلاغ رسمى مطابق للقواعد الرسمية (...) مقدم من أصدقائى الطيبين علية القوم فى جرونوبل * (..)

٢) الفصل الثانى : مونولوج لروشات أمام الاكاديمية مناهض لشراء متحف سولت (...) الكورس كله حيث يؤدى جومار دور السوبرانو .

٣) الإهتمام يزداد (...) اعتراضات الوزير الذى يؤكد أن العملية ستتم على الرغم من المعارضين ، تصل مذكرة بدون توقيع موجهه إلى الدوق دو دودوفيل وإلى الفيكونت سوستان يرد فيها أن أعمالى لا تعنى شيئا وأن كل الصحف الاجنبية تسخر من منظومتى الهيروغليفية وتذكر يوميا ما تتضمنه من غباوات وجهالات لاعدلها ولاحصر .

٤) جومار يتقدم لياخذ المكان مدعيا بالحق الإلاهى . يكتشف أنه صاحب المذكرة ** يعاتبه الوزيرعلى هذه المؤامرة الدنيئه ويرفض أن يوقع على بيان بالنفى (....)

٥) على خشبة المسرح مجلس الوزراء ينعقد وينجح محافظ باريس فى اقناعه بان يؤيد جومار .... مناقشه حامية ... الدوق العظيم والفيكونت *** بلباقة مضاعفه مرتين يواجهان كل المؤامرات الموجهه ضدى ويوضحان حقوقى كلها (...)

المشهد الأخير يوقع الملك على قرار تعيينى : هتافات عامة

الرقصه الأخيرة وموسيقى النهاية يرقص على أنغامها روشات وجومار على لحن حزين مشهور فى الخلفية .... »

السعادة لاتجئ منفردة أبدا . فى ٢٤ يونيو بعد أسبوع من الأحتفال الغرامى فى بيزا أى بعد خمسة أسابيع من التوقيع الملكى على قرار جلوسه على كرسى المجد دخلت « لادورانى » ميناء ليڤورن وفى العاشر من يونيو يكتب چان - فرانسوا لأخيه :

---

* حيث عاد الحديث يتردد عن « روبسبير جرونوبل »

** سبق أعيزت إلى راؤول روشات وهو الاصح غالباً

*** دو دو ڤيل ولا روشفوكو

« ... المجموعة كلها شحنت على ظهر « لادورانـى » وملأت أحشائها تماما وعلى الرغم من أن الحمولة ثقيلة للغاية . أكد القومندان أن مولاك وهو شاب طيب وبحار بمعنى الكلمة ويكل ما فيها من قوة أن كل شئ سيصل إلى الهافر دون مشاكل ؟ »

بعد شهر واحد اللوفر سيجد بدوره أحشائه وقد امتلأت عن أخرها بالروائع التى جمعت فى الأسكندريه وتم التفاوض عليها فى ليڤورن وبيعت فى باريس من صاحب السعادة هنرى سولت جامع التحف الخبير المقدام . ولم يكن ذلك بالنسبة لشامبوليون سوى إتمام جزئى للمهمة ، لان صاحب الكشف العظيم لم يكن يقبل أن يكتفى – لافى تورينو ولا فى باريس بمخزن للتحف . إن ما يحتاجه هو المتحف المصرى فى إطار مصرى وليس أغريقى رومانى – الا أن هذه قصة أخرى * .

أن تكون « قضية المتحف » قد حلت وهو فى طريق عودتة إلى فرنسا وأن تكون مرتبطة إرتباطا وثيقا بمشروعه الكبير بزيارة مصر فيكفى لتدليل على ذلك خطاب أرسله إلى صديقه جاتزيرا فى ١٤ أكتوبر :

« متحفى ينادينى باعلى صوت للعودة إلى باريس . العمل ينتظرنى وتماثيلى الضخمة والموميات موجودة فى ساحة اللوفر أو فى المخازن ويجب أن أكون هناك لأمنع وقوع أخطاء فى زخرفة الصالات (.....) الجميع فى باريس سعيد باقتناء مجموعة ليوڤورن ولا يوجد حديث ولاأحلام لاتدور حول المتحف المصرى وانا على يقين الأن بانى ساقوم بعمل جميل للغاية سيستغرق منى ذلك عاما ساختتمه بكل وقار برحلة إلى مصر . وضعت خطتى بالاشتراك مع الدوق العظيم الذى هو العمود الفقرى للدراسات المصرية »

ولد ابيوليتو روسيللينى فى بيزا فى أغسطس ١٨٠٠ بعد أسابيع من معركة مارنجو . حين كان شامبوليون يستعد لمغادرة فيجاك إلى جرونوبل كان الأبن الأكبر لتاجر متواضع ولكنه حريص على أن يربيه تربية النبلاء وبعد دراسات فى فلورنسا وبولونيا تحول إلى دراسة اللغات الشرقية بتأثير من الكاردينال ماتزو فاننى المشهور بتمكنه من العديد من اللغات ونجح فى دراسته لدرجة أنه كلف بتدريسها فى جامعة بيزا وهو فى الخامسة والعشرين .

فى هذه الفترة – أغسطس ١٨٢٥ – قدمه الدوق العظيم ليوبولد إلى شامبوليون ضيف فلورنسا حيث كان يفتش ويرتب مجموعة اثار نيتزونى ، إلا أن أسمه لايظهر فى مراسلات عالم المصريات إلى أخيه سوى في ٧ ابريل ١٨٢٦:

* راجع الفصل التالى .

« الدكتور روسيلليني وهو شاب مثقف جداً وكله حماس ، أسرع بالحضور إلى هنا قادما من فلورنسا حيث عرف بوصولي إلى ليڤورن من الجران – دوق . إنه يمضى هنا أربعة أيام كل أسبوع بصورة منتظمة بجوار أستاذه العزيز ويعود إلى بيزا ليلقى دروسه فى الجامعة ، له قلب ممتاز ورأس عامرة بالمعارف وهو يأمل فى المجئ إلى باريس لاستكمال معارفه فى اللغات الشرقية والدراسات المصرية ، الملخص الذى إستخلصته من منظومتى محرر بشكل جيد ، إذا كانت إيطاليا محتاجة لمثل هذا العمل لكى تفهم شيئا منه . الكسل المعهود يمنعهم من قراءة عمل ضخم لأن ذلك بالنسبة لهم صعب للغاية » .

الجملة الأخيرة تعتبر إحدى التعبيرات غير اللائقة التى يندر خروجها من قلم چان فرانسوافى حق الإيطاليين على الإطلاق وهى تبدو أقل لياقة بقدر ما كان أول المعجبين به من البيميونتيين أو من التوسكانيين . وها هو إيپوليتو روسيلليني بعد جاتزيرا – قد نشر الكتاب الذى يشير اليه هنا وكان عنوانه بالايطالية « نظام مسيو شامبوليون الهيروغليفى موضوع فى متناول « إدراك الجميع » عنوان لا ينقصه التواضع ولعله جعل شامبوليون يأسف لأن الباريسيين جميعا لم يصابوا « بالكسل المعهود » .

هكذا بدأت الصداقة . وإذا لم تكن الأكثر حرارة فقد كانت الأكثر ثماراً بالنسبة للمكتشف .لا نعرف أن كانت عواطفه نحو الشاب ايپوليتو كانت فى حرارة تلك التى ربطته باوجوستان تيڤونيه ولكن المؤكد هو أن اعتبارا من هذا الشهر إبريل ١٨٢٦ حول ولاء وذكاء استاذ بيزا الشاب مسار حياته تماما . وسيؤديان دورا جوهريا فى تنفيذ أكبر مشاريعه على الأطلاق وهى رحلته إلى مصر فى ١٨٢٨ – ١٨٢٩ وبقدر ما كان حبه لانچيليكا أجدبا كانت صداقته لاپيوليتو روسيلليني مثمرة فى مجالى العلم والحياة الشخصية . لن ترجم سخرية المكتشف المعهودة شريكه ولن تستثنيه ولكن شيئا لن يهز تآلفا قام فى الأساس على الأحترام والتقدير وتوافق الأفكار . جميع رسائل شامبوليون سواء الواردة من إيطاليا أو من مصر تشهد على ذلك .

أما بالنسبة لروسيلليني فلدينا نص جوهرى هو تحية وتقدير نشرها عام ١٨٣٢ فى ذكرى المكتشف حيث يتحدث عن « الروابط الأخوية الحميمة والأثيرة » التى ربطته بشامبوليون لأكثر من أربع سنوات علما بأن الأثنين – وكانت عشر سنوات تفصل بينهما سناً – لم يرفعا قط الكلفة فى التخاطب بينهما وأن التوسكانى راعى بكل ما أوتى من حسٍ مرهف ومن لباقة أن يعامل صديقه الأكبر سنا كمعلم وكان سلوكه هو

سلوك-أفضل التلاميذ نحو مؤسس العلم الجديد .

أثار تطور أحداث الرحلة المصرية ، أو بالاحرى تداعيات الرحلة بعض التوتر فى العلاقة . ولكن أبداً لم يرجع سبب ذلك لهما . إننا نعرف چاك جوزيف بالقدر الكافى لكى نتصور المضايقة التى شعر بها عندما لاحظ درجة التقارب العلمى بل والعاطفى أيضا القائمة بين المكتشف وزميله ولذلك فان سبب المبادرات التى قام بها كما سنرى – لكى يفصل بين أعمال الصديقين أو حتى لكى يجعلهما يتصارعان – هو الغيرة الأخوية أكثر من كونها ردود فعل وطنية – وسنعود إلى الحديث عن ذلك فيما بعد .

بالفعل بدا أسم روسيلليني يتردد أكثر فاكثر فى رسائل چان فرانسوا مرتبطا فى كثير من الأحيان باسم الدوق الأعظم عاهل توسكانيا وكان شامبوليون يقدر تذوقه لعلم الآثار حق قدره وكذلك سياسته الليبرالية التى يمارس بها السلطة . فى يونير ١٨٢٦ كتب شامبوليون بالهيروغليفية نصا على شرف ملك فلورانسا ليوضع فى المتحف الجران – دوتى .

كتب تحت الخرطوش الذى يحتوى إسمه « GALLERIA GRANDUCALE عاهل شديد الكرم » يمكن أن نتصور أن هذا العمل الذكى من جانب الأستاذ الزائر إفْتُتن به عاهل توسكانيا ودفعه إلى أن يمنح روسيلليني – محسوب عالم المصريات – جميع الأجازات التى يطلبها هذا الأخير لاستكمال التعاون الذي بدأ بهذه الصورة الممتازة .

بينما هو يغادر ليڤورن إلى روما ونابولي وبولونيا والبندقية وميلانو فى يوليو ١٨٢٦ كتب چان فرانسوا لچاك جوزيف يفيده بان أولى محطاته ستكون بيزا حيث سيحل ضيفا على عائلة ابيوليتو روسيلليني وأن هذا الأخير سيصطحبه طوال رحلته الايطالية الثانية قبل أن يلحق به فى باريس فى شهر نوفمبر . وفى ٥ أكتوبر كتب إلى الجران – دوق ليشكره على « كرمه الزائد » وعلى الأسلوب الإطرائى » الذى استقبله به علماء توسكانيا ويضيف شامبوليون مادحاً « الرفيق الدمث » الذى لازمه بفضل صاحب الجلالة وعاونه فى روما ونابولي وليڤورن :

« سمح لى ذلك أن ألمس حب الاستاذ الشاب للدراسات المتعمقة وتفانيه الكامل للعلوم واتيح لى أيضا أن أقدر فضائله الكريمة . المتميزة أفضل تقدير (..) علم الآثار المصرية حقق فى شخصه إنتصاراً مثمرا ولعله من المفيد أن يتمكن من مواصلة الدراسات التى تذوق منها سحرها الجذاب (..) أن إقامته فى باريس

لبضعة شهور ستكمل ما سمح كرم جلالتكم الأمبراطورية أن يبدأ . وسيجد مسيو روسيلليني في أساتذتنا في الأداب الشرقية رجالا على استعداد تام لأن يفتحوا أمامه كل الكنوز الأدبية التي تعتز بها عاصمتنا » .

في رده المؤرخ ٩ أكتوبر ١٨٢٦ يعرب ليوپولد الثاني عن « تأثره » إزاء هذا الكرم الحنون بل أقول أيضاء الأبوى نحو الاستاذ الشاب الذي تاثر لذلك لدرجة البكاء ..» وإذا يعبر عن اعترافه بالفائدة التي عادت على توسكانيا من أعمال « المكتشف الذي ينشر الاستنارة فيها بهذا القدر العظيم فهو يضيف إنه يسمح لمسيو روسيلليني بالتغيب عن الجامعة ليذهب إلى باريس حيث سيتيح له تعمقه في اللغات القديمة « القاء الضوء علي الأزمنة المجهولة ووضع الحقيقة البسيطة مكان هذا الكم الضخم من الأخطاء والإفتراضات الغبية » .

هكذا نرى أن بلاط فلورنسا كان أقل تشككا في « الحقيقة البسيطة » من بلاط فرنسا وكيف لا يتأثر شامبوليون بحق من مثل هذا الكلام ؟

لابد وأن التوسكانيين كانوا طيبين يستحقون مليكا على هذه الدرجة من حب الاستنارة .

لم يعد لحماس چان فرانسوا نحو التوسكانيين - ملكا أو استاذا - أي حدود فكتب بعد أربعة شهور إلى ليوپولد الثاني أن بعد نظره الكريم « أسرع من مجئ اللحظة التي ستتصل فيها الدراسات [المصرية] الى هدفها النبيل . أن موضوع هذه الدراسات على درجة من الأتساع والفخامة بحيث أنى أشعر في ذات الوقت باستحالة عمل كل شئ بذاتي فقط وباحتياجي لمعاون في مثل ما عليه مسيو روسيلليني بحق من تفان نحو العلوم » .

نضجت فكرة المشروع الضخم بالقيام بحملة علمية أوروبية إلى مصر بينه وبين روسيلليني . في هذا المناخ الفكرى ساهم التعاطف الذي كان يبديه عاهل فلورنسا نحو شامبوليون في أن زادت ثقته في المشروع الذي أخذ يتبلور في يونيو في ليڤورن لحظة وصول مجموعه سولت إلى الميناء . فكتب چان فرانسوا لاخيه عن « متحفه » :

« يجب أن ينتهي كل شئ في شهر سبتمبر ١٨٢٧ لكي أنفذ مشروعا سارسي أولى أحجار أساسه خلال لقائي القادم في نابولي او روما مع الدوق دو بلاكاس . لعلك أدركت أن الموضوع هو مصر . هناك فقط يمكنني الانتهاء من كل شئ . لعلك ستقتنع مثلي بضرورة هذه الرحلة عندما أشرح لك لدى عودتي من إيطاليا جميع

الفوائد التى ستعود من هذا المشروع سواء بالنسبة للعلوم أو بالنسبة لسمعتى الشخصية . على حكمك إلى ذلك الحين .وسنتحدث فى الموضوع بعد شهرين ....»

زاد المشروع تبلورا خلال محادثاته مع الدوق دو بلاكاس . الا أن سفير شارل العاشر كان يدرك صعوبة أن يحصل من باريس على تمويل المشروع الذى كان يريده أن يتم بأى ثمن . أما شامبوليون فكان على يقين من أنه يتمتع سواء فى تورينو أو فلورنسا بحلفاء أقوياء . كان عليه أن يركز كل مجهوده على التذرع بمشاركتهم لكى يحصل على تأييد البلاط الفرنسى .

كان قد تعرف فى نابولى وصادق عالم مصريات إنجليزى هو سير وليام چال سوف يساعده كثيرا ، كما أنه استقبل فى فلورنسا شخصية فريدة تسمى كاڤيليا وكان يدعى وأن بامكانه « كشف أسرار ممفيس » خلال حفريات تتم على ضوء القمر .... إلا أن هذا الشخص غريب الأطور أرسله إليه هنرى سولت ذاته - القنصل الإنجليزى صاحب المجموعة الذى كان يضغط عليه باستمرار لكى يلحق به فى مصر . وفى توسكانيا أيضا تلقى تشجيعا من العديد من دارسى الآثار الهواة مثل اليساندرو ريتشى والكونت مونتالڤى ياور ليوپولد الثانى ومن تورينو جائه التعضيد من الكونت كارلو ڤيدوا الذى سبق أن تعرف على وادى النيل .

فحيثما ذهب منذ ذلك الحين أو ما أن قابل فرداً مثقفا أو صادف نظرة صديقة الا وعرج الحديث فوراً على الرحلة العظيمة وعلى جانبها « الأوروبى » . وعندما تعرف فى نابولى على المهندس المعمارى أنطوان بيبانت طالباه - شامبوليون وروسيللينى - بمصاحبتهما فى رحلتهما إلى مصر .....

كتب إلى چاك جوزيف فى ٩ سبتمبر أن « الدوق دو بلاكاس سيصل بعد عدة أسابيع إلى باريس وسنبدا على الفور تنفيذ عملية مصر . حتى ذلك الحين مهد الطريق حول ضرورة هذه الرحلة ....» تركه روسيللينى فى ميلانو ولكن بعد أن حدد معه المواعيد المؤكدة للدراسة فى باريس ومن أجل الرحلة الإفريقية العظيمة . ثم بعد شهر وإذ هو يستعد لعبور حدود إيطاليا العزيزة على نفسه التى لن يراها أبداً بعد ذلك كتب إلى اكثر مؤيديه ولائا فى هذه الناحية من جبال الألب كوستانز وچاتزيرا :

« هل أنت من الذين يمكنهم أصطحابى إلى طيبة فى حالة حصولك على المال اللازم من حكومتك ؟ ساكتب عن قريب رسالة لكوستا أوضح له الخطة الكاملة الخاصة بحمله علمية أوروبية تم إرساء أسسها القوية بمعرفة شخصيات لها تاثير قوى فى

مختلف الدوائر الملكية . يمكنكما أنتما معاً البحث فيما يمكن لبلاط بلدكما أن يفعله فى هذا الصدد . فهل يمكن أن يتخلف عن هذا المشروع وهو الذي يملك أحد أهم المتاحف المصرية ؟ لا أعتقد ذلك . هل ستتركانى أعبر مصر دون أن تشاركانى سعادتى والأكتشافات الهائله التى يجب أن تتم هناك ؟ لا أعتقد ذلك أيضا .....»

ولكن روسيلليني سيفرض نفسه منذ ذلك الحين كشريك أساسى فى الفريق الذى سيقوم بهذه الرحلة الكبرى . يجب ملاحظة الدقة التى سيتعامل بها شامبوليون والاعتناء بتنظيم مجيئة إلى فرنسا لكى يتأكد من مختلف مراحل سفره واتصالاته وخطابات اعتماده من ميلانو إلى تورينو ومن أكس إلى ليون تماما مثلما يفعل ڤيجاك مع «صغير» .

بلغت درجة إهتمامه هذه درجة أنها بدأت تضايق أصدقاء المكتشف السابقين مثل جاك – چوزيف وجاتزيرا وبيرون الذين بدأوا يرفضون المكانة التى بدأ ياخذها ذلك الذى بدا كما لوانه ولى عهد «المصرى» . ألم يضم بترقيته إلى مرتبة « الشريك » – مثلما يقول الدكتور يانج ؟

سيقول جاتزيرا إلى شامبوليون فى إحدى رسائله أنه يجد الشاب « أقل تواضعاً بكثير من معلمه » . ملحوظة غريبة تدفع إلى الأعتقاد بوجود نوع من الغيرة – العلمية أو العاطفية – أو بين بيميونتى وتوسكانى هي التى دفعته إلى كتابة ذلك .

لم يتأثر صاحب الكشف من ذلك وإذا حدث أنه عنف الشاب وخاصة بسبب سلوكه الأحمق مع النساء فيجب أن تقرا رسائله التى كتبها فى تلك الفترة وخاصة تلك التى أرسلها إلى عاهل توسكانيا الدوق الأعظم فى ٣ مارس ١٨٢٧ والتى يصف فيها التقدم الذى يحرزه فى دراساته مع دوساسى وداسييه وهو شخصيا « الطالب الشاب المتحمس ايبوليتو روسيلليني » .. والتى يؤكد فيها « احتياجه لمعاون متفان فى حب العلم مثلما هو الحال بالنسبة لمسيو روسيلليني » ...لكى نتعرف على أهمية التحالف بينهما . ظل عالم المثقفين الباريسين يثير غضب عالم الآثار المصرية ففى المقابل ظل تلميذه القادم من بيزا يجسد فى عينيه إيطاليا العزيزة جداً على قلبه . وفيما يختص برحلته العظمى التى أخذت تملأ كل أحلامه فما أفضل أن يكون زميله فيها رجل شاب فى أتم صحة وعافية ؟

وهكذا أصبح الشاب التوسكانى الذى أثبت على الفور أنه بعد جاتزيرا – وجاك چوزيف بالطبع – أكثر مؤيديه حماسة وإصراراً – العامل المساعد لسرعة تبلور الهدف

الأسمى . وأصبح التناقض الغريب فى التقريب بين أحداث الزمن وتواصل القرون فى أن يبقى صاحب الكشف بعيداً عن أرض مصر علمًا بأن أربعة أعوام كاملة كانت قد مرت على تحريره « الرسالة إلى سيوداسيبه » هذا التناقض أوشك على أن يزول . فقد بدأ أعضاء الرحلة مراجعة الخرائط التى« ستكشف لهم الطريق إلى ممفيس وإلى طيبة مروراً من تورينو وليڤورن وفلورنسا ليصب فى النهاية فى وادى النيل ،

فى إيطاليا أحب إمرأة لم تحبه . إلا أنه غنم بصداقة بعض رجالاتها (ونسائها) . ظل أحدهم وهو ابيوليتو روسيلليني مرتبطا بمصيره أكثر من أى رفيق أخر فى حياته فيما عدا أخوه وأوجوستان تيڤونى .

هل هو إذن مستعد لفرد القلاع ؟

كلا إذ قبل أن يكتشف مصر يتعين عليه أن يكشف اسرارها للآخرين .



١٥ - أمين متحف ذو نعال من ريح

الاندفاع حيث يوجد الذهب - شارل العاشر ونابوليون - معركة بسبب مسمار - مذاج مسيو فوربان - المتحف والتاريخ - من باسالاكوا إلى دروفيتى .... المغامرون يبحثون عن مركب - هزم فى الأكاديمية ! ... إلى الشرق المعقد .....

فى بداية القرن الثامن عشر لم تكن توجد مجموعة آثار متحفية مصرية حقيقية . فى كتابه « ايزيس أو البحث عن مصر المدفونة » يوضح بيير مونتى أن « مكتب الملك لم يكن يضم حتى ذلك الوقت سوى ست عشرة قطعة مصرية * وأن باقى المجموعات الأوروبية لم تكن أكثر حظاً » .

بدأت فكرة المتحف تظهر إبان الثورة وفكرة المجموعة المخصصة لمصر مع الحملة على مصر . وكان أعضاء اللجنة والانستيتو (أو معهد مصر) قد جمعوا أحجاراً منحوتة وأدوات جنائزية ومومياوات كان من المفروض أن تشكل مع حجر رشيد نواة هذا المتحف لولا أن ظروف الحرب انتزعت منهم هذه الأشياء لصالح المتحف البريطانى كما شاهدنا من قبل .

وبدلا من الأشياء الملموسة ، منحت فرنسا نفسها متحفا خياليا عظيما هو « كتاب وصف مصر» والذى واكب ظهوره - كما يلاحظ سيلفيو كورتو فى كتابه « تاريخ متحف تورينو » - تكوين معظم المجموعات المصرية داخل كبرى المتاحف الاوروبية .

ومن عام ١٨١٠ حتي ١٨٣٠ أصبحت مصر مسرحا لصراع شرس بين « جامعي التحف » الذين إندفعوا نحو الآثار مثلما فعل الباحثون عن الذهب بعد ذلك نحو مناجم كلونդايك (فى كندا) . هؤلاء الرجال الذين سيعطون أسمائهم إلى المجموعات التى سينقضون عليها كالجوارح ، كانوا من المغامرين من نوع خاص : علماء أثار بالصدفة ، يدفعهم الأمل فى الكسب المادي . والعديد منهم سيجمع ثروات هائلة . إلا أن الولع الذى يحركهم كان مصدره أيضًا حب المغامرة والاكتشاف وتذوق الفن بل إرضاء رغباتهم فى أمداد العلم بالأدوات التى يحتاجها كشف سر حضارة ظلت غامضة حتى بعد كشف ١٨٢٢ .

---

* انظر التمهيد ص 25 ، ملحوظة ميشيل دو فاشتار

وهكذا إندفعوا فى عمليات نهب لاهوادة فيها للثروات التاريخية التى لم يكن يفكر أحد بعد فى الحفاظ عليها . معظم هؤلاء الجامعين للتحف كانوا قناصل معينين من بلادهم فى مصر يحركهم فى أغلب الأحيان ملوكهم الذين كانوا يبحثون عن المجد أو عن الهيبة . كما كانوا يتمتعون برعاية محمد على * الباشا ذى السلطات المطلقة والذى كان يريد إقامة علاقات صداقة مع القوى الغربية بان صرح بهذة السرقات .

سبق أن تكلمنا عن الدور الذى لعبة دروڤيتى قنصل فرنسا وسولت قنصل إنجلترا ولكن الجنرال ميتوتولى المكلف بمهمة من ملك بروسيا أيضا وكذلك نيتزولى ثم أسيربى اللذان تتابعا على رياسة قنصلية النمسا وانا ستازى قنصل السويد والنرويج كانوا ينقبون هم أيضا بكل حرية وكانوا فى نفس الوقت يقطعون الطريق على التجار وهواة الأثار الذين لا يتمتعون بنفس المزايا .

فى فرنسا كان علم المصريات الوليد يتمتع برعاية تثير الدهشة . فاسرة بوربون الحاكمة التي كانت لاتميل كثيرا إلى الاخذ بفلسفة التنوير لم تتوقف قط عن التعبير عن رعايتها الكاملة للأبحاث الخاصة بحضارة وادى النيل ، ذلك على الأقل من خلال نبلاء كبار يتمتعون بالرعاية المستمرة مثل بلاكاس ودودوڤيل ولاروشفوكو – دون أن يمنعهم ذلك من السماح لأفراد مثل كوربيار أو فوربان أو كلاراك بان يشنوا حرب عصابات ضد هؤلاء لأسباب لم تكن كلها تستهدف الأقتصاد فى النفقات .

الشخصية الرمز – بل والضامن أيضا – لهذا الإفتتان كان دون شك الملك شارل العاشر . أن يتمكن ملك ذو ثقافة محدودة جداً وذكاء قليل وفى نفس الوقت مرتبط رمزياً بجزب « طافئي الأنوار» و « الرداء الأسوء » ورجال الدين عموما ومن اعطاء كل هذه الضمانات على إهتمامه بحركة علمية وجمالية تهدد التعاليم الكنيسة كما تراها حركة الاصلاح المضاد السائدة حينذاك وتهدد أيضا رؤيا للعالم قائمة على سيطرة الأسر الحاكمة في الغرب كل ذلك يعتبر من ألغاز عهده ولا تجد ردا يفسر هذا السلوك سوى إهتمامه الذى سيبحده فى مذكرة كتبها سوستان دولا روشفوكو وعبر فيها عن ذلك بذكاء – كما سنرى فيما بعد – « بالشرف » الأدبى لفرنسا وهو ذات الإهتمام التى جعل الملك الذى الغى من قبل قانون نانت ** يحمى مؤلف طرطوف *** ربما

---

* معظم المؤلفين الأوروبيين يعطونة لقب نائب الملك ، ونحن نفضل علية لقب محمد على باشا مصر فهو لم يكن الحاكم ولكن مندوب السلطان محمود فى من القسطنطينية - استنبول)

** Edit de Nantes قرار اتخذه الملك هنرى الرابع فى فرنسا يحمى البروتستانت عام ١٥٩٨ والغاه الملك لويس الرابع عشر (١٦٨٥) مما تسبب فى فظائع ضد البروتستانت وهدم معابدهم هجرة حوالى ٢٠٠,٠٠٠ بروتستانتى إلى المانيا وسويسرا (المترجم)

*** موليير [المترجم]

كان الأصح هو « الشرف الأدبى للملكية » ! هل كان من المقبول أن يبقى الأعتقاد السائد هو أن مصر كانت آخر ممالك نابوليون ؟ لافرنسا ولاأوروبا كلها حولت نظرها عن مصر منذ وفاة صاحب إنتصار الأهرامات ومخترع حجر رشيد وراعى كتاب « وصف مصر » وڤيڤان دونون والشقيقين شامبوليون فى جزيرة سانت ايليين ، وكان سحر مصر لايزال عالقا فى الأذهان ويرجع إلى نابوليون بونابارت فى كثير من الأحيان

أما المجتمع العلمى الذى ظل يحتقر « الغنائم المصرية » لفترة طويلة ويقلل من قيمتها الحزب الإغريقى ويؤيده فى ذلك كل من فشل فى حل معضلة الهيروغليفية واسرارها وهؤلاء الذين كانوا يخشون من النتائج « الفلسفية » التى قد تترتب على مثل هذا الحل للشفرة ، كل هؤلاء قرروا فى نهاية الأمر أن يؤيد وا إكتشاف عام ١٨٢٢. دون أن يمنعهم ذلك من الأستماع إلي منتقديه .

راح الجدل ينتشر فيغذى الأهتمام بالعلم الجديد الذى انتشر بين رأى عام تثيره فى ذات الوقت الاسرار و الأجواء الشرقية الغامضة والمشاحنات الجدلية في وقت كان كل ما يخص السياسة موضوعاً تحت السيطرة ولم يكن الجدل يقوم بين صحيفة ونشرة أوبين مجلة وإنسيكلو بيديا بل كان يجرى بين لندن وباريس وبين فلورنسا وبرلين ، وبين روما وتورينو . نضيف إلى ذلك قصص الرحلات والصراعات بين مؤيدى رجال الدين ومؤيدى التفكير الحر بين الفلاسفة ورجال الدعوة الدينية حول صحة الزودياك (الأبراج السماوية المرسومة فى سقف معبد دندره) وحقيقة الإكتشافات العلمية وجمال القطع التى جلبت من مصر بالطبع بالتاكيد كان على الملك .... إن أراد أن يصبو إلى المجد أن يساير التيار . باختصار عندما عاد چان فرانسوا شامبوليون من إيطاليا تحوط رأسه هالة النجاح الذى أحرزه بخصوص حيازة مجموعة سولت ويعززه تعيين مديرا للآثار المصريه فى اللوڤر والذى يسمى عن حق متحف شارل العاشر وهو فى غاية الحماس لرحلته العظمى إلى مصر - كان يحق له حينذاك أن يشعر أخيرا أنه نبى فى وطنه . ألم يمنحه حماس الإيطاليين التتو يج الذى ظل التمنع الفرنسى يرفضه له منذ خمس سنوات ؟

ومع ذلك غادر « صغير » جرونوبل متجها إلى « قذورات بابل » تراوده بعض المخاوف فى نهاية أكتوبر ١٨٢٦ وذلك لعدة أسباب : فبعد أن عبر حبال الألب وفى قلبه

حنين إلى مافات ، شعر بالهناء فى الدوفيينه على الرغم من المضايقات التى صادفته بسبب أزمة نقرس فى قدمة اليمنى والتى أرجع سببها تارة الى تيارات الهواء التى تعبر مكاتب فلورنسا بكل قوة ، وتارة أخرى لهواء « جبالنا » الرطب ، وقد شكا ذلك لزلير : « لا أحد فى الأسرة أصيب بهذا الداء الذى يخص الشيوخ والذى كان فيما سبق يختص بزيارة كبار النبلاء وها هو اليوم ينقض على رجال الفكر : لابد أن يكون ذلك من نتائج الثورة ! ... » .

فى ڤيف حقق اكتشافاً جديداً : هى ابنته . كانت زورابيد قد بلغت ثلاثين شهرا من عمرها وكانت طفلة ساحرة وكتب إلى زلير يقول لها :

« .... تأكدى أنى سأترك زورابيد تتمتع بكل سعادة الطفولة . إنه سن سعيد وقصير لدرجة أنه يصبح من البربرية أن نقطر عليها بما يمنحه لها من امتيازات » .

إلا أنه سيوقف مراسلاته مع انچيليكا أثناء إقامته فى ڤيف .

هل بسبب معاملة الليڤورنية له قد أصبح أكثر تسامحا مع روزين ... ؟

.. ويقول لچاك – جوزيف الذى إشتكى من إحدى رسائل زوجة أخيه إن « القلب عند زوجته أفضل من القلم » .

وهو إذا كان حزينا لدى وصوله إلى باريس فإن ذلك كان يرجع دون شك إلى أنه إضطر إلى ترك إبنته وظلال ڤيف القريبة إلى قلبه وأصدقاء جرونوبل الذين أثبتوا ولا ئهم له بصورة براقة .

وإيضا لأن النقرس لازمه طوال الرحلة إلى باريس .. ولكن الأهم هو أن المهمة التى كلف بها وهى إنشاء المتحف المصرى ستجعله فى وضع يضطر فيه إلي مواجهة « العصابة » التى ظل يضخم من حقدها عليه وأيضا من سلطاتها من جديد .

ولكن إذا كان قد وجد فى ايطاليا مريدين يناسبون قلبه ، فأن له فى باريس أصدقاء وحلفاء وحزب قوى من الأوفياء ومن المدافعين عنه ومن يحمون شخصه . هل توجد ضمانة أقوى من ضمانة وزير البلاط الملكى الدوق دو دودوفيل ؟ وما هى الحماية الأنشط من حماية الڤيكونت سوسنان دولا روشفوكو ياور الملك للفنون الجميلة ؟ ومن هو الأب الروحى الاكثر حنانا نحوه من مسيو داسييه ؟ ومن هو الحليف الأفضل من مسيو دوفيرو ساك مدير صحيفة « لو بولتان او نيڤرسال » الذى كان ينشر مرافعاته ودفاعاته ومرافعات چاك – يجوزيف ؟ كل هؤلاء ومعهم أيضا بلا كاس ولا ولى العهدالدوق دانچولام .

لقد ذكرنا كثيرا المضايقات التى إستهدفت صاحب الإكتشاف لدرجه أننانسينا صلابة و وفاء وحماس مؤيديه الذين أحاطوا به مثل الحرس الإمبراطورى . ولكن يبدو أن بسبب ما يمكن تسميته خللاً فى الفكر واحساس بالإضطهاد أخذ يرى الأخرين دون سواهم وخاصة جومار و روشات وكاترومار كلابروث وسيفارت وحوليا نوف وبانكس وسان كوينتينو ولا نسى .

كان يتصور أن مهمته العظمى الرسمية الأولى وهى إنشاء القسم الثانى « للتماثيل والاثار القديمة » لمتحف شارل العاشر الذى يكمله إلقاء المحاضرات عن « علم الأثار المصرية » لابد وأنها ستثير حوله المؤمرات والعوائق . لدرجة أنه عندما تولى وظيفته فى اللوڤر تحت رياسة الكونت دو فوربان مدير عام متاحف فرنسا إلى جانب الكونت دوكلاراك مدير القسم الأول فى المتحف المخصص للاثار الاغريقية الرومانية . كتب إلى روسيللينى فى ٢٠ نوفمبر ١٨٢٦ رساله تشبه طلب النجدة :

« لك أن تتصور رجلا محبا للراحة والهدوء وجد نفسه فجأة * ملقى بسبب الواجب وسط مؤامرات وترتيبات موجهة ضد شخصه ودراساته . أصبحت حياتى صراعاً . إنى مضطر إلى إنتزاع كل شىء لأن أحداً من بين الذين يجب عليهم مساندتى غير مستعد لأن يفعل ذلك . إن وصولى إلى المتحف يضايق الجميع وكل زملائى يتآمرون ضدى لأنى بدلا من إعتبار مركزى وسيلة للراحة رأيت أن أهتم بالقسم الذى أديره وذلك سيكشف للكافة أنهم لا يهتمون بأقسامهم . هذه هى عقدة المشكلة . احتاج لمعركة للحصول على مسمار.»

« الجميع يتآمر » ضده ؟ يمكن لنا أن نتصور أن وصول هذا العبقرى البركانى الشخصية وسط الجو العام الهادئ والمريح الذى كان يميز عالم متاحف ذلك العصر والذى كان ينتمى إلى ثقافة الصالونات أكثر من إنتمائه لعالم العلوم ، كان لابد بالفعل إن يتسبب فى العديد من المصادمات وأن يقلق راحة العديد من الناس» .

(عالم الصالونات هذا يمثله أصدق تمثيل العزيز ڤيڤان دونون)

وهو إن « أقلق » أحداً فأن أكثرهم قلقا كان چامور . لوميسير الحكومة داخل «لجنة مصر » وهو أنضم منذ بداية عودة الملكية إلى أسرة البوربون وكلف على الفور بمهمة إحضار نسخ من القطع التى وقعت في أيدى الإنجليز فى عام ١٨٠٢ ووضعت فى البريتش ميوزيوم وتزامن ذلك مع فترة عودة نابوليون « المائه يوم» . وهناك نبتت

* لا « محب للراحة » ولا هذه « الفجاه» تتفقان مع الواقع الصحيح .

فى ذهنه فكرة تكوين « مجموعة آثار » ورأيناه قد قام باتصالات فى هذا الشأن مع دروڤيتى .

يتضح إذن أن چومار كان أول من حاول أن يبلور الفكرة إذا لم يكن هو صاحبها وندرك بذلك بصورة أفضل الأسباب التى أثارت حقده على صاحب الكشف .. بعد « الرسالة الى مسيو داسييه » كان يجب عليه أن ينحنى أمام تفوقه العلمى ولكن يمكن أن نقدر أنه لم يتمكن من التسامح معه لأنه صادر منه المتحف الذى كان هو صاحب فكرته وذلك ماتؤيده فيه بعض الأدلة . وجاء فى ملحوظة لأحدى رسائله التى كتبها فى ٢٢ مارس ١٨٢٦ ما يمكن أن نطلق عليه صرخة من أعماق القلب إذ قال « الم يكن فى إمكانه أن يحصل علي كرسى الأستاذية دون أن يستولى على ممتلكات الأخريين ؟ »

ومن هنا كان السبب وراء ملاحقاته المستمرة دون هوادة لشامبوليون وبعد أن نال هذا الأخير ما أراد ، وجد نفسه فى مجابهة داخل القلعة – مع أنداد لم تكن الرحمة من سماتهم . وعلي الرغم من معرفتنا المسبقة بالحساسية المفرطه لشامبوليون إلاأنه يتعيين علينا أن نقر أن حياته داخل اللوفر مرت ببعض التجارب المؤلمة .

أقل ما يمكن أن يقال هو أن السعادة لم تكن الشعور السائد فى نفوس الرجلين الذين سيتعاون معهما . ونتذكر أن قبل سته شهور غداة تعيينة كان قد كتب إلى چاك چوزيف أنه يأمل أن يسود السلام والتفاهم بين فوربان وكلاراك . إلا أنه لن يحصل على السلام الكلى وأقل من ذلك على التفاهم . لن تتفق أبداً نظرة الرجال الثلاثة فى أى مجال من المجالات . ولذلك فاذا كانت تربية فوربان الراقية وكذلك الضغوط التى تعرض لها من لاروشفوكو قد هيئت مناخاً من التعاون والمقبول إلا أن المجادلات لم تتوقف قط بينهما . لم يكن السبب وراء ذلك أن فوربان كان فى تفاهة شخصية مثل راءول روشات أو فى حقد چومار – بل إنه كان ذا شخصية نبيلة وصفها معاصروه بالاجماع بانها « مكتملة » .

مسقط رأس فوربان كان فى لاروك – دانتيرون فى مقاطعة منابع الرون . والده كان يسمى بالاماد (فقد حياته تحت المقصله فى مدينة ليون) وكان بهى الطلعة وفنان مصور غزير الانتاج ومتحدث لبق وكاتب سلس الأسلوب تميز بالشجاعة فى ساحة القتال مما أتاح له أن يصبح باروناً من بارونات إمبراطورية نابوليون . ظل من عشاق شقيقة هذا الأخير بولين – وهذا يعتبر رقما قياسيا بالنسبة لبرنسيسة من

آل بورجيزى هذا الرجل السعيد كانت موهبته أن يكون سعيدا حتى أنه عبر دون أيه عوائق الحدود بين مرحلتى الأمبراطورية وعودة الملكية وحل فى عام ١٨١٦ محل فيفان دونون كمدير عام لمتاحف فرنسا .

علاقاته بچان فرانسوا شامبوليون بدأت بداية حسنه في إيطاليا حيث ذهب مدير المتاحف للقاء معاونه اللامع . وإنحاز فوربان بكل تقدير لفكرة حيازة مجموعه سولت . والتى كانت تعنى فى ذلك الوقت ترقية عالم المصريات إلى جانبه ، إلا أن العديد من الأشياء كانت تفصلهما فلم يدم التفاهم بينهما طويلا .

لم يكن الكونت فوربان يحتمل أن يسمع محاضرات تلقى عليه عن مصر التى زارها عام ١٨١٨ من رجل لم يذهب إليها قط .

وعلى الرغم من كونه أقل حساسية حول هذا الموضوع من چومار إلا أنه كان يتدرج باقدميته في هذا المجال بان كان يتفاخر بسرد لرحلتة كان بالفعل منمقا ، وببضعة لوحات تصويرية إدعى أبوته لها علما بأنه لم يكن هو الذى رسم الوجوه التى تظهر فيها . إذ كان يترك تنفيذ ذلك إلى متخصصين على قدر كبير من الشهرة مثل ڤارنية أو چيرار . « عبيد » فخورين بانهم من تابعى مثل هذا النبيل العظيم .....

كما أن فوربان يتفاخر من جهة أخري في المواجهة مع شامبوليون أنه من رواد المتاحف المصرية إذ أنه كان اشترى في مدينه إكس عشية سفره إلى مصر العديد من القطع الاثرية التى كانت تضمها مجموعة سالبية – ومنها بارولييف لكهنة إلاله بتاح – ثم وهبها إلى اللوفر . وابان شراء مجموعة دوران التى كانت تضم ألفى قطعة أثرية صغيرة والتى شكلت أصل مجموعة اللوفر ، قبل شراء مجموعة ليڤورن ، كان قد إقترح إنشاء متحف للمصريات يوضع تحت إسم شارل العاشر وكتب يندد برفض الحكومة شراء مجموعة دروڤيتي قائلا « إن الأفكار الضيقة للاقتصاد فى الأنفاق تعتبر بمثابة وفاة الحقيقة فيما يتعلق بالثروة الوطنية » (1) وكان شامبوليون بالطبع متفقا معه فى تلك النقطة .

ولكن كان هناك عدم توافق جوهرى بينهما فى رؤاهما الجمالية . فى إحدى الروايات التى نشرها بعد ذلك بفتره قصيرة تحت عنوان «لورد باريمور » جعل فوربان أحد ابطال الرواية يقول أن معبد بايستوم ثقيل الظل وقليل التناغم فى خطوطه . فاذا تذكرنا أن هذالمبنى كان يمثل بالنسبة لشامبوليون أسمى تحية قدمها الأغريق للفن المصرى – أمكننا أن نقيس عمق التناقضات التي كانت تفصل بين الرجلين .

علاوة على ذلك كان فوربان غيورا على سلطاته ويرى أنه وحده الذى يجب أن يختار معاونيه من موظفى الدار . ولذلك كان أول صراع بين الرجلين بسبب قرار إتخذه شامبوليون بتعيين صديقه چان – چوزيف دوبوا فى وظيفة رسام . حاول فوربان الأعتراض على ذلك فراجع صاحب الكشف لاروشفوكو فى ذلك فحصل على تأييده فى طلبه . ومن هنا كان رد الفعل الحاد لمدير المتاحف وكان نزير شؤم لماتلى ذلك . فكتب للاروشفوكو :

« ... اضطررت لأن أرفع لكم الجوانب السيئة لهذا التعيين الذى لامثيل له فى الإدارة والذى يهددها بان تتنامى دون جدوى وفى تضاعف اليات العمل التى ستهدم وحدة المسار إنى أستجيب اليوم لخطابكم الذى تطالبونى فيه بان إقترح عليكم الموافقة على تعيين مسيو دوبوا كرسام للأثار المصرية فقط ليتولى تحت رقابة مسيو شامبوليون الأعمال التحضيرية وترقيم وترتيب الأثار المذكورة ......» .

« هذا النوع من اللدغات لن يتوقف أبدا لدرجة أن چان فرانسوا عبر لأصدقائه عن خشيته من أن يعتبره فوربان وكلاراك « لعنة مصرية جديدة » ومن أن يكل الوزير بسبب كل تلك المؤامرات الخسيسة على الرغم من حسن رعاية له – غير أن بقية ردود فعله حول عمله كمدير متحف مبتدئ لم تكن كلها على هذه الدرجة من التشاؤم فلنستمع إليه وهو يفضى بما فى نفسه لصديقه الأب جاتزيرا فى نوفمبر ١٨٢٦ :

« عندى قاعة عظيمة فى الدور الأرضى أخصصها للقطع الضخمة وأربع قاعات فى الدور الأول فى القصر . ها أنا إذن وسط النقاشين والمهندسين والبنائين والأمور تسير بصعوبة ولكن لابد أنك تصورت أنى الأقى (بعض العداوات) من قبل بعض الأشخاص الذين يسمحون لأنفسهم بعدم قبول أصرار كل من الدوق دو ودوڤيل والفيكونت دو لا روشفوكو على مساندتى ويعترضون وسيعترضون على الدوام بان يقيموا ألف عائق صغير فى طريق عملى الذى سيسير وسيكون ما يجب عليه أن يكون . إنى أناضل كل يوم قدر طاقتى .. ولكن النجاح حليفى مادام الدوق الممتاز دوبلاكاس موجودا فى باريس وأخذ بين يدية إدارة شئونى ... فليحفظه لنا أمون رع العظيم » .

ولكن هاهو بعد ستة شهور يعود إلى شكاويه وكتب إلى سوستان دولا روشفوكو فى ٢١ يونيو ١٨٢٧ يشكو من أن المتاح له فقط بجوار الساحة المربعة الداخلية هما قاعتان صغيرتان وممر وشئ يشبه القبو (...) أرضية من الطوب الأحمر ...) ثم إنه صارع حتى يتفادى أن يكون طراز ديكور « قاعاته » أفريقى رومانى – كما حارب – للأسف – لكى يفرض أسلوبه فى لصق البرديات على ورق مقوى وهو ما منعه سان

كوينيتى من تحقيقه فى البيمون . ولذلك كتب يقول « حشرات باريس تحسد الحشرات الدوديه فى تورينو التى تلتهم بهدوء برديات دروڤيتى » .

مدير القسم المصرى لن يتفادى أيا من هذه الفرص التى يصطدم فيها بزملائه أو بالبيروقراطية الوزارية وشارك فى كافة تفاصيل الديكور وترتيب التحف ، وتكشف إحدى المذكرات التى كتبها صاحب الكشف ونشرها بيير كوينام [2] « الدقة المتناهية التى تعامل بها فى ترتيب التحف داخل القاعات المختلفة وفى فرد البرديات العظيمة ...(...) على كافة مسطحات الحوائط ... ووضع الڤيترينات التى ستسمح باستقبال الأدوات الجنائزية . ومهما كانت ثقته فى چان - چوزيف دوبوا فكان هو الذى يتخذ كافة القرارات وبالتالى كان هو الذى يتلقى كافة الضربات .

ولكن الخلاف الحقيقى بين چان - فرانسوا ومديره العام كلاراك كان على مستوى أبعد من ذلك بكثير أى أنه كان صراعاً بين رؤيتين متباينتين فيما يجب أن يكون عليه أى متحف . إذا كان المتحف قد أنشئ فى فترة الجمعية التأسيسية (لاكونڤانسيون) لأهداف فنية بحتة ، فان شامبوليون كان يرى أن الأوان قد حان لكى يتحول من مجال التذوق إلى مجال العلم أو بصورة أشمل إلى التعليم . فكان صاحب الكشف يرى أن القطع التى يعرضها المتحف يجب أن تقدم بطريقة تصبح بها مستنداً تاريخيا .

وكانت هذه الفكرة على العموم موجودة ضمنيا فى النصوص التى كلفته بمهمته . والمدهش حقا أن المرسوم الملكى الصادر فى ١٥ مايو ١٨٢٦ الذى إتخذ من أجل «ضمان نجاح الأبحاث التاريخية التى صنعت فى جميع العصور أمجاد فرنسا » عينه فى ذات الوقت محافظا ومعلما وأن الشرح العلنى للنصوص الفرعونية بواسطة صاحب الكشف كان مرتبطا بعرض القطع الأثرية المقدمة للزوار من المتحف الذى كان فى ذلك الوقت فى مرحلة التكوين . المشروع إكتسى من الأصل معنى علميا بحتاً .

هل يمكن أن نرجع مثل هذا التفكير العميق إلى سوستان دولاروشفوكو فى كتابه « الملكية في أفولها » Au Soir de la monarchie وصفة بارتيية دو سوڤينى بانة رجل « متآمر عصبى المزاج » كان وثيق الأرتباط بشامبوليون ويعتبر من أصدقاء المتطرفين . إلا أنه كان شديد الأعجاب بوالد الدوق دو دودوڤيل ولعل ذلك تسبب فى أن ليبرالية هذا الأخير قد طبعتة هو أيضا وإذا كان ذهنه قد تفتق على إنشاء « صندوق للتعويض » يسمح له بخنق الصحافة وهو الصندوق التى كانت تصب فيه دخول المسارح والعاب القمار وكان مكلفا بشراء أسهم الصحف المناهضة عن طريق أطراف

ثالثة ... إذ كان يرفع إلى الملك شارل العاشر مذكرات تحذره من الأخطار التى كانت تهدد الملكية بسبب قصر نظر الوزراء وتحلل الأخلاق ومؤامرات الليبراليين .. إلا أن هذا الرجعى كان يعبر عن تعاطفه الدائم مع الفنانين وأهل المسرح كما أقام علاقات صداقة مع چورچ صاند وساند شامبوليون على الرغم من أنه لم يذكره بكلمة واحدة فى مذكراته .

قد يرجع موقفه هذا إلى تقديره لوالده أوإلى عداوتة الكونت دو فوربان والذى كان يحاربة بكل الوسائل ، المهم هوأن هذا النبيل الجليل ظل على تحالفه الشجاع مع صاحب الكشف « الجاكوبى » ، ويبقى أيضا أن شارل العاشر قد اعتمد أيضا هذا التصور (الفلسفى) جدا لدور المتاحف . ثم إذا كان متحف شارل العاشر قد تحول إلي معمل للابحاث التاريخية البعيدة تماما عن تعاليم الديانة الكاثوليكية وإلى الطقوس التى وضعها اسلافه الملوك الكابيسيون فان ذلك لايتفق ولا يتناسق مع القرارات التى سيتخذها بعد ذلك بثلاث سنوات والتى ربطت إسمه بالقوانين « المشبوهة » . هذا صحيح ولكنه ليس أول الأسباب التي تدعو للدهشة فى سرد تاريخ حياة شامبوليون .

فى إحدى المذكرات التى وجدها ونشرها لحسن الحظ بيتر كونيام فى المقال الذى سبق ذكره يعرض صاحب الكشف بنفسه وبدقة أكبر هذه النظرية للمتحف المدرسة وللدور التعليمى والتاريخى للمجموعات التى يتولى مسئوليتها ويعبر عن فكر ديناميكى أكثر من كونه « محافظا » :

«... تتشكل مجموعات الآثار المصرية (...) بصورة عامة لهدف واحد هو إلقاء الضوء على تاريخ الفن وطرق النحت والتصوير المستخدمة في مختلف العصور ولدى الأمم المختلفة (..) إلا أن أهمية هذه الآثار المصرية وتسلسلها فى أعداد كبيرة والتى أثرت متحف شارل العاشر بفضل سخائه الملكى ، كانت محتاجة لأن تتوافق مع بعضها على مستويات مختلفة مادام المطلوب منها هو أن تكون إحدى المصادر ، ومن البراهين الداله على تاريخ الأمه المصرية كله . فكان من الواجب ومن الضرورى جداً التعريف فى نفس الوقت على كُنْهُ كل أثر وعلى الهدف المحدد من وراءه ثم تحدد المعرفه الدقيقة للغاية لكل من هذين الموضوعين المكان والترتيب الذى يجب عليه أن يشغله . وكان من الواجب فى النهاية ترتيبهم بطريقة أكثر ما تكون كمالا ، توضح تسلسل الآلهة وملوك مصر منذ العصور البدائية حتى الرومانية ، وترتيب الأدوات الخاصة بحياة المصريين العامة والخاصة بطريقة منهجية .

كانت هذه الرؤية الثورية لدور المتحف هى التى جعلت شامبوليون فى صراع مع فوربان وكلاراك أكثر بكثير من الأختلاف فى الشخصيات أو الصراعات حول السلطة .

لابد أن هاتين الشخصيتين ذات الميول السياسية المحافظة (كتقليد عائلى) كانتا تعتقدان أن الملك وبلاكاس وبودوفيل لاروشفوكو على درجة كبيرة من السذاجة حتى يوافقوا هذا« الفيلسوف » فى أرائه التى لم تكن تهدف سوى لان تجعل من التاريخ علما للمجتمعات الأنسانية ...... : .

بل كان صاحب الكشف من الجسارة بأن إستخدم الكلمة الخطيرة فى تخاطبه مع صديقه الأب جاتزيرا المتحرر جداً (بالمعنى الذى كان يستخدم فى عصر الملكية الأولى) إذ كتب يقول له « لابد أنك توقعت منى أن أنقذ خطة التبويب التى لم يسمحوا لى بتنفيذها فى تورينو ، إنها بالفعل أنسكلوبيديا مصرية ....» .

لم تكن سذاجة من الدوق دورليان الذى كان من أشد المعجبين بشامبوليون وكان لايترك فرصة تمر دون أن يطلق سهامه على أولاد عمومته من الفرع الأكبر للأسرة الملكية – عندما وصفه وهو يبتسم بانه « محافظ متحف » ومورخ أكثر مما ينبغى ... »

الإنسيكلوبيديا – ثم رابين الملك – فيليب مساواة .. ها هو يعود إلى شياطينه الأعزاء .

الاستيلاء على التحف – كما نقول الاستيلاء على الباستيل – على يد شامبوليون تم عن طريق شراء مجموعة من الآثار ، وبالتالى كانت ديناميته هى السبب الذى جاء به إلى هذا المركز وفى هذا المكان ولم يكن فى إمكانه سوى أن يظهر ذلك ليس فقط عن طريق التعبير الثورى فى المفاهيم التى كانت تقوم عليها علاقة القطع المعروضه فى المتحف مع الجمهور المدعو لزيارة اللوفر ، ولكن أيضا عن طريق الإثراء المستمر « لمتحفه » .

لا ننسى بالطبع المعركة التى خاضها ضد شراء القصر الملكي الفرنسى لمجموعة چيوسيبى باسالاكوا – تاجر الخيول السابق الذى تحول الى تجارة التحف الأثرية – وهى الصفقة التى كان يؤيدها چومار (وهذا مايشرح جزئيا ذلك) . إلا أن چان – فرانسوا كا يحذر باريس من الثمن المبالغ فيه الذى يطلبه جامع التحف الإيطالى – أربعمائة ألف فرنك – والذى كان كفيلا بالأجهاز الكامل على الميزانية فى الوقت الذى يقترح هو فيه شراء مجموعة سولت التي كانت قيمتها أكبر بكثير من الأخرى . وفاز هو ثم إفتتح عصره فى اللوفر باستقبال مجموعة ليڤورن التى سافر من أجلها چاك – چوزيف إلى ميناء لوهافر للاشراف على إنزالها من المركب فى ١٨ أكتوبر .

ثم بعد أن اطمأن على حصوله على رصيد لامثيل له فى النوعية أخذ محافظ

المتحف الجديد ينظر نظرة مختلفة للعرض الذى يتقدم به باسالاكوا. كانت قطع الآثار المعروضة قد شدت إليها الجمهور كما لفتت نظرمنافسا قويا هو ملك بروسيا الذى أوفد هو مبولدت إلى باريس للتفاوض».

كان ذلك كافيا لاستثارة صاحبنا الذى كتب لجاتزيرا :

« ... مطالب (باسالاكوا) إنخفضت بمقدار الثلثين منذ أن وصلت قطعى الضخمة من ليقورن . ستتشكل لجنة من أجل الحصول على هذه المجموعة ، وإذا وافق البائع على قبول من ستين إلى ثمانيين ألف فرنك التى يمكن أن ندفعها له فان هذه المجموعة ستنمى متحفى وتثريه ....) .

أنظر كيف يتكلم الأن .. قطعى الضخمة من ليقورن » « متحفى » ... ها هو المكتشف الخجول الذى بدا لمدام مابيه « غير قادر على مساندة إكتشافاته » قد تحول إلى رئيس ومجادل صلد يتعامل كند مع كبار رجال المعهد (الأنستيتو) .. وأصبح صوته قويا مدويا عندما يتعلق الأمر بشراء مايسميه زميله كلاراك ساخرا « غنائم مصر » .إلا أن سلطات چان فرانسوا الجديدة لم تكن كافية لضمان نجاح الصفقة .

كانت مجموعة باسالاكوا معروضة فى ممر ڤيڤيان فى عام ١٨٢٦ وكثر الحديث حولها . إلا أن صاحبها إضطر لتخفيض الثمن الفلكى الذى حدده لها ولما لم يتمكن من إيجاد مشتر لها فى فرنسا واعتبر نفسه محظوظا جداً ببيعها لملك بروسيا بمبلغ مائه الف فرنك ، علاوة على وظيفة محافظ الجاليرى المصريه بمتحف برلين .

لم يمنع ذلك أن يحقق شامبوليون كمدير المتحف بعض النجاحات الطيبة . فى سبتمبر ١٨٢٧ كتب إلى جاتزيرا هذا البيان بالانتصار .

« ... اشتريت مارد روما شقيق ماروك المحنط * كما قمت بمشتروات هامة أخرى وتلقيت الهدية الرائعة من المجوهرات الأثرية من الذهب الخالص التي قدمها باشا مصر هدية لملك فرنسا . وجدت ضمنها الختم الملكى لكليوباترا – كوكس من

* راجع فصل ١٣ النكتة حول الفرعون أوزيماندياس

الذهب الخالص ويزن خمس أوقيات عليه صورة هذه المرأة المسترجلة بالحجم الكبير محفورة للداخل . كما تمت مؤخرا صفقة أهم بكثير وهى شراء مجموعة دروڤيتى الجديدة والتى وصلت إلى باريس كما تعلم دون شك والتى تضم مجوهرات مصرية على درجة لاتصدق من الفخامة عقود وخواتم وأساور وحلقان من الذهب المرصع بالمينا . إنها بالفعل تعرية كاملة لاحد الفراعنة وبخلاف التماثيل تضم هذه المجموعة خمسين بردية مصرية وإغريقية وخمسمائة جعران وأوانى وثمان لوحات جنائزية إلخ إلخ ... أصبحنا كما ترى أكثر جمالا وأكثرثراءا منكم انتم الذين كان بامكانهم أن يكونوا الأوائل ولم يرضوا بذلك * »

تم شراء مجموعة دروڤيتى الثانية بمبلغ مائه وثمانين ألف فرنك ۱۸۰,۰۰۰ وتعتبر صفقه عظيمه فى حد ذاتها . ولكن كان لها ردود فعل سيئه نوعا ما على المستقبل الأنى للمحافظ . إن شامبليون الذى نراه يتحرك فى كل إتجاه داخل قاعات متحف شارل العاشر دون كلل على الرغم من أزمات النقرس التي تعذبه مستبدا دون تسامح مع كلاراك ومتحديا فوربان كان على الرغم من ذلك يعيش فى مكان آخر ، كان بفكره قد سافر بالفعل إلى مصر .

رأيناه منذ الشهور الأخيرة لرحلته فى إيطاليا يحث أصدقائة الأوفياء – وعلى الأخص روسيللينى وجاتزيرا – على الأستعداد للرحلة الكبرى .

ويلتمس من صديقه ملك توسكانيا المساعدة وكذلك وهو الأهم مساعدة بلاكاس مبعوث المعونه الألهية ... ثم أصبح المشروع فجأة موضوع الساعة وبصورة دراماتيكية بسبب الانباء الواردة من مصر لان برناردينو دروڤيتى – وكان قد تفاهم من جديد مع السلطات التى إعادت له لقبة ** قنصلا عاما لفرنسا فى إسكندرية – أعلمه أن إقامته فى مصر يجب ألا تتاخر لأن باشا مصر محمد على بدأ – بالرغم من تحذيراته – فى هدم المعابد ليستخدم أنقاضها وأماكنها لبناء معامل السكر اللازمة لتنمية البلد إقتصاديا *** بقدر ماكانت الانباء القادمة من الشرق مقلقة له وكانت

---

*دروڤيتى عرض هذه المجموعة أولا على ملك بيمونت سارديتيا إلا أنه رفضها كما فعل لويس الثامن عشر مع المجموعة الأولى .

** السؤال المعلق هو هل ترك أصلا مهام منصبة لالكسندر بياڤان الذى عين بصفه مرحليه وهو من الأكفاء واسير سابق فى أيدى الاتراك ثم قنصلا فى عكا ومنها إلى بالتيمور فى امريكا ؟!

*** إستانف دروڤيتى حملته ٦ يناير ١٨٢٦ وكتب لچاك – چوزيف : « علمت أن أخاكم عازم على زيارة الوادى المقدس الذى يمكن اعتباره من الأن من الناحية العلمية من إختصاصه هو، ولذلك فانى أبادر بعرض كافة خدماتى عليه واضع نفس بالكامل تحت تصرفة لانى مقتنع بالنتائج النفسية التى ستترتب على هذه الرحلة ولاشى يثلج صدرى أكثر من أجلها بالنسبة لة أمنه وسهلة سعيده .

بمثابة حافزا له بقدر ما ألهبت خياله الصور المنسوخة والروايات التي أسهب في سردها المكتشف الجسور لمنطقة بروه عالم الطبيعة والتعدين فريديريك كايو والذى نسخ بدقة اللوحه الفلكية لمعبد أبيدوس كما أنها استكملت معارف محافظ متحف اللوفر. هل يمكن بعد ذلك كله مسايره أخيه فيما كان ينصحه به فى مرحلة سابقة بان يترك مصر لهؤلاء المندفعين ولكنهم مكفوفون فى حين أن بامكانه هو أن يرى وأن يقرأ ؟

ظل ذكر المشروع العظيم لعدة شهور يتناثر فى مراسلات چان فرانسوا . كتب فى ٣ مارس ١٨٢٦ لعاهل فلورانسا :

« سأكرس جهودى كلها (للمتحف) حتى شهر نوفمبر . آمل أن أتمكن فى هذا التاريخ من تحقيق أمل حياتى كلها بزيارة مصر أرض العجائب ومهد الحضارة وبالبحث فى آثارها على ذكريات التاريخ البشرى الأولى وعلى أسماء رجال عظماء طواها النسيان منذ ثلاثة آلاف عاماً وعلى مذاهب دينية قديمة لعلها تكون أكثر نقاءا مما يعتقد .....»

كما كتب للكوستانزو جاتزيرا بعد بضعه أسابيع فى ٢٤ مارس رسالة يظهر من خلالها نفاذ صبره أكثر من ذى قبل :

« أضع اللمسات الأخيرة على مذكرتى الخاصة بهذا المشروع الضخم . ساقدمها للملك وساعرف بعد شهر من الآن ما الذى يمكن أن أنتظره من الحكومة لتنفيذ مشروع تهتم به فروع عديدة من العلوم التاريخية . استعد إذن للسفر إبتداء من شهر يوليو (..) لازلت أعتمد عليك لتشاركنى مشقات ومباهج ومجد هذه الرحلة (..) خطتى مبنية على أساس أن جميع مصاريفك ستكون مدفوعة وستحصل لدى عودتك على مبلغ خمسة آلاف فرنكا لكى تشرب أعشابا مغلية ولتستريح من العناء الذي فات »

قبل أن يحاول إقناع الملك بمشروعه الأدبى أرسل مسودة مبدئية له إلى الفيكونت دولا روشفوكو موضحاً أن هذا المشروع المحفوف بالمخاطرلا يمكن ارجائه بسبب الاخطار التى قد يترتب عليها عدم وجود « مايمكن الحصول عليه اليوم من السفر الى هذه الارض ...بعد بضعة سنوات »»..فى ذلك اشارة واضحة الى مانبهه اليه دروڤيتى.لم يلب الفيكونت سوستان دولار وشفوكو لأول مرة إحدى رغبات صاحب الكشف ، اذ انه لفت نظر شامبوليون الى انه كلفه منذ اقل من عام واحد بمسئوليات تتطلب منه ولشهور طويلة قادمة ان يبقى فى باريس على الاقل حتى موعد افتتاح

متحف شارل العاشرالمقترح له يوم ٤ نوفمبر يوم عيد ميلاد الملك . امام هذا التنبيه لواجباته رد چان فرانسوا قائلا أن رسالة مدير الفنون الجميلة وصلته وانه مستعد للانتظار حتى موعد الافتتاح على الاقل . ولكننا نخطئ لو اعتقدنا ان هذا «الدوفينى الشقى» سيقبل ان ينصاع تماما لما يملى عليه . واذ به يكتب على الفور لملك فرنسا وعاهل توسكانيا الدوق- الاعظم دون أن يخشى إغضاب لاروشفوكو . كتب فى ٢ يوليو الى شارل العاشر :

«أوروبا العلوم كلها تتوجه بآمالها شطر هذه المنطقة الكلاسيكيه كما يتعلق رجاؤها كله بجلالتكم .

لويس -العظيم * كان قد طلب من لايبنيتز رأيه فى هذا البلد المشهور ويعود لجلالتكم تحقيق المشاريع السلمية لجده الخالد وسيزداد بريق ملككم بجميع الانتصارات الأدبية الجديدة التى ستتم تحت رعايتكم المعظمة .

ان ماتفضلت به جلالتكم من أجل العلوم التاريخية من مقتنيات لاتنمحى ذكراها والتى أثرت المتاحف الملكية ستكتمل بما سيجود به كرمكم من عمل جديد أسمح لنفسى بأن أتقدم بطلبه .

وإذ أنذر نفسى لهذا المشروع العلمى الضخم فإنى لا أنظر سوى لما سيضيفه يامولاى من مجد لاسمكم » .

وبعد شهر وأحد توجه ناحية ليوبولد الثانى :

« سمحت لنفسى أن أعتمد على تعاون نشط من لجنة توسكانيا لاستكشاف الآثار التاريخية التى مازالت موجودة فى مصر . إن الخطاب الذى تفضل صاحب الجلالة الأمبراطورية والملكية بتشريفى ، قد أرضي أمالى كلها بما أعلنه من إعتماد الخطة التى تضمن الحصول على النتائج العلمية العامة بهذا المشروع . لعلها أكثر الرحلات العلمية روعة ضمن جميع الرحلات التى ابتغت تقدم الدراسات الأساسية والتى يتحتم على هذا القرن أن يقوم بها . أنه من المؤكد على الأقل أن جميع العقليات المستنيره فى أوروبا تصفق لهذا المشروع بتعاطفها الكامل معه وأنها تشاطرنى

* يقصد لويس الرابع عشر ١٦٣٨ - ١٧١٥ - الملقب بالملك - الشمس وصل الى عرش فرنسا وهو فى الخامسة (المترجم)

المشاعر العميقة المعبره عن إمتناني إزاء القرار الكريم الذى تفضلت باتخاذه جلالتكم الإمبراطورية والملكية ...»

تعين على مدير المتحف ذى الحذاء الطائر أن يدعم طلباته وتعبيراته بالعرفان بالجميل باعتبارات أخرى أكثر واقعية وهو ما أسر دوبوفيل ، الراعى المتنور القادر على تحذيره من الأخطار التى قد تواجهه فهو يوضح له أولا أن مالية الملك يمكنها أن تتحمل شراء مجموعتي باسالاكوا ثم دروفيتى (رقم ٢) ثم وراء ذلك مباشرة مصاريف « الرحلة الأدبية أو الثقافية » ،ثم أن أعمال إعداد المتحف وتنميقه لن تتم قبل نهاية عام ١٨٢٧، وأخيرا فان الموقف السياسى والدبلوماسى فى شرق البحر المتوسط العلاقات فيه مهدده بين فرنسا وباشا الأسكندرية مما يمثل تهديداً على المدى القريب أكبر من أن تتحمله رحلة سلمية . سنرى فيما بعد أن رؤية الدوق النبيل لم تكن قصيرة ....

فرضت بذلك مهلة سنة كاملة على أعضاء الحملة البحرية .عمل چان فرانسوا على التعامل مع الشدة بصدر رحب واختار أن يؤدى دور التلميذ النجيب بالنسبة لعاهل توسكانيا الدوق الأعظم ليوپولد الثاني : « سننتهز مسيو روسيللينى وأنا – هذه المهله للاستعداد للرحلة) بداية متعمقة للاثار الموجودة فى المتحف الملكى بباريس [..] بذلك نكون حصلنا على وسائل جديدة تساعدنا فى إتمام مهمتنا .

وبالفعل جمع الرجلان المراجع الأكثر أكتمالا عن مصر . فبخلاف « وصف مصر» ضموا إلى مجموعتهم أعمال القدماء هيرودوت وليودور وسترابون وبلوكارك ومن المحدثين ڤولنى وسوفنيى .وڤيقان دونون وجو .. إلا أن إهتماماتهم خلال هذه الأشهر المحمومة بالقلق لم تتركز قط فى الإعداد للرحلة العظيمة ...

ففى فبراير ١٨٢٧ تقدم چان فرانسوا شامبليون ولأول مرة بترشيح نفسه لأكاديمية المخطوطات والأداب وهو ما يعتبر عدم تناسق غريب في المواقف إذ كان يعرف تماما أن السلطة في العالم الاكاديمى وأدواتها التنفيذية سيقومون بكل ما هو ممكن لأزاحته عن طريقهم .. أن وزير الداخلية كوربيلر كان في عام ١٨٢٣ قد فرض على الأكاديمية أن تخفض عدد أعضائها من أربعين إلى ثلاثين عضوا ليتفادى تسلل ليبراليين مثله داخل صفوفها كما أنه لايمكن أن يكون قد غابت عن ذاكرته الاحداث المؤلمة التي حدثت في ديسمبر ١٨٢٤ عندما رفض ترشيح أخيه الكبير لثالث مرة

والثورة العارمة التى إنتابته حينذاك ليس فقط بسبب الأهانه (والظلم فى رأيه) التى لحقت بچاك چوزيف ولكن أيضا بسبب الصوتين الذين صوت له هو بها ... إذ أنه كان مستعداً أن يقبل أن الذى تفوق عليه – المدعو هاز – السكسونى عالم الإغريقيات ولكن مالم يكن قادرا على تحمله هو أن يعتقد أنه دخل في منافسة مع أخيه وطالب أخاه فى إصرار أن ينشر بيانا يكذب فيه ذلك بصوره قاطعة ، وظل مقتنعا أن الصوتين اللذين حصل عليها لم يكونا لصديقين يريدان له خيرا وأنما كانا لأعداء يستهدفون الوقيعة بينهما .

سواء كان ذلك نوعاً من الماكيافيلية أو كان الحجر الذى ألقاه الدب ، فان الحدث آلمه كثيرا ووعد أخاه حينذاك أن الطلاق بينهما والأكاديمية كان بائنا والى الأبد » ، ومن شدة التأثر لفشله وافق فيچاك أخاه على هذا الرأى : ولكن هاهو الأن بعد أقل من ثلاثة أعوام ترك « صغير » داسييه العظيم يقنعه بان يجلس فى المقعد الخالى لأنه لايمكن ترك شخص يدعى شارل أوج بوكوڤيل يجلس فيه فهو كان يعمل معاون طبيب خلال الحملة فى مصر ثم أسره القراصنة فى رحلة العودة وحبس فى القسطنتينية واصبح بعد ذلك قنصلا فى باترا عام ١٨١٥ ولم يعد من كل تلك المغامرات الطريفة سوى ببعض الروايات المملة .

هل كان يعتقد أن المسألة ستمر بسهولة ؟ كلا !! لأن الرحاله العائد تفوق بجدارة فى ١٦ فبراير ١٨٢٧ على من لم يرحل بعد إلى الإسكندرية . وحصل على ١٦ صوتا مقابل ٧ أصوات لشامبوليون . هذا هو الثمن الذى يدفعه من يغامر فى مثل هذه الأمور ويمكن أن نتخيل الشعور بالخزى الذى لحق ببون – چوزيف داسييه الذى اعتقد وهوفي السابعة والثمانين من عمره قضى منها أربعين عاماً في الأكاديمية ، أن شابا عبقرياً يمكن هزيمة عسكرى شاب غير قابل للغرق . كما يمكن أن نتخيل الغضب الذى ألم بالشقيقين الذين أقسما ألا يدخلا الخية مرة أخرى » ثم تناسيا ذلك بعد فترة وجيزة .

كان للمهلة التى فرضتها الظروف مختلفه بالنسبة لايپوليتو روسيللينى إذ أنه تزوج من زينوبيا شيروبينى إبنة الموسيقار التوسكانى المشهور صاحب أوبرا ميديا – والذى كان يتربع على عرش العالم الموسيقى فى باريس . مراسلات چان فرانسوا مليئه بالنكات الساخرة من صديقه الشاب وغرامياته إذ أنه لايكاد يستبعد أنه يرتكب نفس الخطا الذى أرتكبه هو مع روزيين قبل ذلك بعشرة أعوام . وكتب لانچيليكا يقول أنه « زواج غبى » . لو أن الرحلة إلى مصر تمت فى ١٨٢٧ لربما نسى ايپوليتو زينوبيا

إذا كان يتحمس بسرعة وهو يشبه الشاعر موسيه لدرجة أنه لم يعرف كيف يداعب الحب فقط « هل سيرتكب الجنون الأعظم بان يتزوج قبل السفر؟ » . هذا ما كتبه چان فرانسوا لكاهنته ... ثم حدث التأخير الذى فرض على علماء المصريات مماسمح لمدام سيثروبينى بتزويج ابنتها لهذا الشاب الذى كان يروق لها بقدر ماكان لايعجب زوجها المايسترو . تم الزواج فى ٣٠ أكتوبر بكنيسة سان فانسان دوبول وشهد عليه چان فرانسوا شامبوليون والموسيقار الشهير چواكينو روسينى .

بعد خمسة أسابيع من حفل الزواج إضطر چان فرانسوا إلى ارتداء بدلته الرسمية وربطة عنقه الحريرية لان صاحب الجلالة الملك شارل العاشر سيشرفه بافتتاح المتحف الذى أطلق عليه اسم ثانى اشقاء الملك لويس السادس عشر . لم يكن فى الأمكان الإحتفال بذلك فى عيد القديس شارل بسبب تأخر الأنتهاء من أعمال أعداد القاعات المصرية الأربعة وكان المسئول الأول عن هذا التأخير هو الرسام المصور « أنجر » ، الذى لم يكن قد وصل إلى الشهرة العالمية التى حازها بعد ذلك ، وكان يرفض عرض لوحته المشهورة الآن « تتويج هوميروس » بمناسبة الافتتاح ،لأنه كان يرى أنها لم تكتمل بعد .

لم يحضر العاهل الفرنسى إفتتاح المتحف التى قررت باريس فى نهاية الأمر تخصيصه لمصر سوى فى ١٥ ديسمبر ١٨٢٧ ومن كان يمكن أن يتصور قبل عشر سنوات فقط أن هذا الملك كان يمكن فى يوم من الأيام مشاركة « روبسيير جرونوبل » فى أى شئ كان .

« القاعات الفسيحة كانت مرتبة بشكل رائع والمجموعات مرتبة ووصفها منشور بمنهجية ،الملك زار بالفعل إذن متحفاً يثير الأعجاب ومزود بما يمكن أن يبتغى من روائع الفنون جميعاً حيث لم يكن هناك سوى جدران جرداء تقدم للناظرين[3] »

المهمة إنتهت وأوصلها شامبوليون إلى مداها بأن أنشأ المتحف الذى كلف به قبل ثمانية عشر شهراً . ولكن ماذا عن المحاضرات التى كان من المفروض أن يلقيها خلال « الفصل الجميل » متزامنة مع إنشاء المتحف ؟ كان رد صاحب رسالة إلى «مسيو داسييه» لطارحى السؤال عليه بوضوح إنه لايمكن أن يدرس علم المصريات – علما بأنه هو الذى وضع أسسه – إلا بعد أن يزور أرض الفراعنة : فقد نجحت سخرية جومار وفوربان منه فى هذه النقطة من النيل من طول أناته .

كان من الممكن أن يعترض الدوق دودودوفيل والفيكونت سوستان قائلين أن الدروس التى يعطيها يومياً فى « متحفه » لايبوليتو روسيللينى والرسام الشاب نيستور لوتر

المرشح للرحلة معه تثبت أن أستاذيته بلغت مرحلة الكمال . إلا أنهما فى النهاية نزلوا على رأيه . وأعتمدت فكرة القيام بالرحلة قبل نهاية العام ولكن كم من العقبات كان عليه أن يتخطاها وكم من مؤامرات كان عليه أن يحل عقدتها ومشاركات يعتمدها وعروض يفاضل بينها .

أغرب هذه العروض تقدم بها من أسمتهم مدام هارتلوبان (فى عام ١٩٠٦) « بعض الرأسماليين » (4) - ورد ذلك فى مذكرة مأخوذة من مراسلات شامبوليون ونشرت بمعرفتها - إذ تقدم ناشر فرنسى كبير (لعله فيرمان ديدو ؟) وأثنان من أصحاب البنوك من جرونوبل (لعلهما من عائلة بورجى) يعرضون تمويل رحلة صاحب الكشف « بشرط أن يضع المشروع إسمهم في مكان بارز » ... من المدهش أن يسبق هؤلاء عصرهم ويتشبهوا برعاة الأعمال الأعلامية المعاصرين .

كان رد فعل جان فرانسوا فى صورة لابد أنها ستدهش أى ممول لحملة علمية معاصرة : إذ رفض العرض « مضحياً من - أجل الأصول التى يجب أن تحترم - - بفوائد متعددة الجوانب لأن الشكل النفعى التجارى لمثل هذه العملية لاتتناسب وقدسية أرض الألهة وفنون مصر القديمة » .

كانت الأمور تسير بحلوها ومرها فى طريقها فى باريس كما فى مصر . دروڤيتى الذى حضر إلي باريس بمناسبة عرض مجموعته الثانية فى متحف شارل العاشر كان يلح علي شامبوليون لكى يسرع بالقيام برحلته لأن التدمير الذى يلحقه محمد على بالاثار يتلاحق ، كما أنه من الأفضل أن يسبق سفره وقوع أزمة دولية كانت تتفاقم فى الشرق دون إنتظار غلق أبواب مصر لفترة طويلة . إلا أن طريقة تفكير هذا القنصل - تاجر الأثار كانت ملتوية لدرجة تجعلنا نتسائل ما الذى كان يعنية إصراره هذا وما الذى يدارية ؟ أين كانت توجد مصلحته ؟ هل فى السيطرة التى لابد وأن تدخل شامبوليون المتحمس للغاية للحفاظ على الثروات المصرية سيفرضها على سرقاته ؟ أم أملا فى الحصول على الضمان الذى لابد وأن وجود مؤسس علم المصريات شيغطى على تحركاته المريبة ؟

كارلو بيد يمونيني - قنصل بيمونت - ساردينيا فى الإسكندرية - كان قد ذهب لمقابلة چان - فرانسوا فى تورينو قبل ثلاثة أعوام - وهوزوج إبنة دورڤيتى وعلي الرغم من ذلك فهو الذى كشف لشامپوليون عن معنى تحركاته : « طالما أن هنرى سولت * على قيد الحياة فإن دروڤيتى يريد أن يستخدمك لكى يهزمه ويشل حركاته . ولكن بعد وفاتة فإنه سيسقط القناع . حينئذ يجب أن تأخذ حذرك منه ! »

الذى حدث هو أن سولت توفى بالفعل بعد ذلك بعدة أسابيع أى فى ٢٧

* صاحب المجموعة ومن المعروف أنه كان مريضا .

أكتوبر ١٨٢٧ * وحدث بالفعل ما توقعه ، إذ ما أن أختفى منافسه إلا وأصبح دروفيتى أقل إلحاحاً وكما توقع بيديمونتى فقد قلب ظهر المجن وأخذ ينشط لدى أقل الشخصيات تحمساً لرحلة شامپليون مثل فوريان وجومار حتى لايدرج أى بند الحفريات فى ميزانية عالم المصريات . بل أننا سنراه عشية إبحار شامبوليون وروسيلليني إلي مصر يحاول تعطيلهما لأسباب بعضها وجيه والبعض الآخر أقل وجاهة ، ومن أهم هذه الأسباب تدهور العلاقات بين فرنسا وباشا مصر بسبب القلاقل التى أجتاحت شرق البحر المتوسط بسبب الثورة اليونانية على السلطان العثمانى ، وكانت القوى الغربية ومن بينها فرنسا تساند اليونانيين ضد الأستانة وكان محمد على تابعاً وحليفاً للسلطان . وعندما دمرت الأساطيل الأوروبية أساطيل القوى الإسلامية فى ناڤارين في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ فان سفن محمد على هى التى غرقت . فهل كان يعتبر هذا الموعد هو المناسب للاهتمام بالاثار المصرية ؟ وماهو الإستقبال الذى يمكن لمبعوث ملك فرنسا أن يأمل فى الحصول عليه عند ضفاف النيل ؟ وهوالذى كان حبه لانچيليكا پاللى يشعل من مناصرته للقضية اليونانية التى كان يشاركه فيها جينذاك بالطبع جميع الليبراليين

بداية الرد علي هذا السؤال ورد فى بيان وجهه محمد على إلى الأوروبيين المقيمين فى مصر في نهاية ديسمبر ١٨٢٧ : إذ أكد فيه الباشا أنه عازم على حماية (الفرنجة) وأنه متمسك بتقاليد حسن الضيافة الإسلامية . ولكن لم يكن من المؤكد أنه يستطيع التحكم فى كل التيارات المحمومة التى كانت تسرى حينذاك فى الشرق كله .

هل كان چان فرانسوا يشعر عشية سفره ببعض المخاوف من ناحية اسرته أو كان يتخوف على حالته الصحية ؟ لايمكن أن نقول أن مصير روزين وزورابيد قد حال حتى الآن دون أن يعيش حياته بالصورة التى يبغيها .. صحيح أن اهتمامه بابنته كان قد بدأ يزداد فهو كان دائما محبا للأطفال طالما أن فى إستطاعته أن يمارس عليهم عبقريته التربوية الفذة . إلا أنه كان مطمئنا تماما من هذه الناحية لأن زوجته وإبنته كانا فى أيد أمينة . إذ جمع أخوه الجميع فى شقة فى المنزل الواقع في ١٩ شارع مازارين ، مجاور جداً للذى اكتشف فيه الأسرار الهيروغليفيه في ١٤ سبتمبر ١٨٢٢، وكانت زوجة أخيه التى كان يحبها ويحترمها بشدة تتفاهم مع روزين أفضل من چاك - چوزيف وكانت علاقات هذا الأخير معها باقية على حدتها ومع ذلك كانت دار شامبوليون في حالة من الوئام .

---

* أنظر الفصل الثانى

الواقع أنها كانت أفضل بكثير من حاله الرحالة الصحية . إذ كان النقرس مستمراً في تعذيب قدمه اليمنى وكان يعرف أنه سيضطر للسير من مقبرة لأخرى ومن معبد لآخر وكان السعال لايفارقه تنتابه في أحيان كثيرة حالات الأختناق .. وما أن يقل من نشاطاته إلا وتظهر عليه علامات البدانة ، وهذا الچان - فرانسوا ذو السبعة والثلاثين عاماً لم يكن - مثلما نقول اليوم - رياضيا في قمة حالاته بل هو رجل إستهلكته المعارك وعدم الأعتناء بصحته والإرهاق الفكرى وخيبة الأمل العاطفية ... ينهش جسده مرض لم يكن الأطباء قد كشفوا أصابته به بعد وبالتالى لم يعالج منه وهو مرض السكرى .

أما في باريس فان نجم چان فرانسوا كان يزداد بريقا بقدر ماكان تطور الحياة العامة يسير في الأتجاه الذى يتفق وأماله . فقد سقطت الوزارة التي يرأسوا فيلار كوربييار (هذا الكوربييار الذى ظل يناهض مقاصد شامبوليون والذى وصفه شاتوبريان بأنه « الطاغيه الميلو دراماتيكى المناهض للأدب » .. وحلت محلها وزارة ليبرالية يراسها مارتينياك . « إن فرنسا تسير أخيراً في خط متزن جدير بها » هذا ماكتبه في أحدى رسائله إلى زيلمير . والواقع أن هذا التغيير في المسار السياسى قد خدم أهداف الرحالة .

إذ لو أن كوربييار قد بقى في منصبه فمن المشكوك فيه أن يكون الملك قد قبل - لدى زيارته للقاعات المصرية في متحف اللوفر في نهاية ابريل ١٨٢٣- أن يعطي في السر موافقته على أن يدرس مارتينياك مشروع الرحلة وأن يعمل هذا الأخير في بضعة ساعات على أن يدرس المذكرة « حول مشروع رحلة أدبية الى مصر » ويوافق عليها في خطوطها العامة - وهى المذكرة التى حررها معا الشقيقان شامبوليون وايبوليتو روسيللينى في نهاية عام ١٨٢٧ والى كانت قد رفعت إلى الملك بعد ذلك بقليل دون أن تكون محل أى دراسة جادة .

مذكرة ١٨٢٧ تعتبر عرضا ممتازا للأسباب : وهى وإن كانت متكلفة في أسلوبها بسبب تعدد المشاركين في تحريرها ولم يكن حماس المكتشف وحده الذى ألهمها - إلا أنها مزودة بكافة الأفكار الرئيسية حول الفن المصرى والتجديد الشامل الذى أدخله على المعارف - التى كانت سائدة منذ حملة ١٧٩٨- الكشف عن أسرار الكتابة المقدسة . يجب أن نذكر هنا بعض المقتطفات منها فهى تلقى الضوء على الفكر الذى قاد كلا من شامپوليون وروسيللينى وهما يقومان برحلتهما :

« إن النظريات الشائعة عن الفن المصرى ودرجة التقدم التي وصل إليها بالفعل هذا الشعب سواء في مجال النحت أو التصوير هي نظريات خاطئة في جوهرها (...) أن أوروبا المتعلمة تعلم بوجود هذه التراكمات من الثروات التاريخية ورغبتها

الجامحة هي الاستيلاء عليها ولذلك فهي تطالب بان تسرع إحدى الحكومات المستنيره بأن تبعث إلى مصر بأفراد وهبوا حياتهم للعلم وأعدوا أنفسهم إعداداً مناسبا لكي يجمعوا المستندات القيمة التي لاتحصى ولاتعد التي سجلتها العظمة المصرية القديمة على المباني طالما أنها لازالت قائمة والتي تغطي كتاباتها الفخيمة ضفتي نهر النيل (..) (أنها تعرف) أيضا أن البربرية التي لازالت تتنامى تقوم بالتدمير المنظم لهذه الشواهد الجديرة بالاحترام على حضارة عتيقة (..) وهي آثار لا يوجد شي في الوجود يمكنه تعويض خسارتها ، إن رحلة أدبية إلى مصر تعتبر الأن أكثر الرحلات المجدية التي يمكن القيام بها في هذه الآونة (...) متزودة بالمعارف التي اكتشفت مؤخرا عن كتابات مصر القديمة ، فإن أي رحلة تتم الآن فوق هذه الأرض العريقة ستسفر دون شك عن نتائج علمية لايمكن أن يكون مداها قد دار بمخيلة أحد ، حتى في الوقت الذي كانت فيه مصر واقعة تحت سيطرة جيش فرنسي تدرس بعناية بواسطة مجموعة كبيرة من العلماء كان لهم باع ضخم في العلوم الفيزيقية والطبيعية والرياضية ، إلا أنهم كانوا مفتقدين الأداة الجوهرية التي لاغنى عنها للاستغلال الأمثل لهذا المنجم البالغ الثراء بمستنداته التاريخية والتي وضعتة في متناول يدهم انتصارات اسلحتهم » ...

أدت هذه الأعتبارات إلى أن يقدم أصحاب المذكرة « كشفا مفصلا بالأعمال التي يجب أن تنفذ وبالهمام التي يتعين عليهم تاديتها » . وبخلاف «الرفع» بالرسم للعديد من الأماكن المتنوعة على طول ضفاف النيل – إقترح علماء المصريات أيضا أن يقوموا «بحفريات » توضع ثمارها بعد نقلها في متحف اللوفر الملكي ... أو في مكتب الأثار التابع للمكتبة الوطنية وأن يقوموا بشراء بعض التحف المثيرة للاهتمام تضم إلى المجاميع الملكية ».. وتجئ الخلاصة مدوية « هذا هو الهدف وهذه هي الخطة وهذه هي اسباب الرحلة إلى مصر ولاينتظر مسيو شامبوليون سوى أوامر الملك لكي يقوم بها ».

هذا هو المستند الذي الحقه جاك – چوزيف بطبعته هو (الصادرة عام ١٨٣٣) لمراسلات صاحب الكشف ولكن توجد صيغة أخرى بالايطالية للمشروع الذي شارك في إقامته – كما سبق أن رأينا – ابيوليتو روسيلليني . وقد ورد في هذا النص الذي أرسل في يوليو ١٨٢٧ إلى عاهل توسكانيا الدوق الأعظم ليوپولد – والذي سبق أن أعلن قبل ملك فرنسا موافقته أو على الأقل مساندته للمشروع كما اكد مشاركته المالية فيه فاحتفظ بذلك ببعض من الحقوق عليه – أن باريس لن تكون مختصة وحدها بالنسخ والحفريات والمشتريات . « ... هذه الحفريات ستتم حيثما يرى مسيو شامبوليون والبروفسيور روسيلليني كل على حساب حكومته . كما أن أياً منهما يرى

أن أثرا من الآثار له أهمية كبرى عليه أن يمد الأخر بنسخة منه وستتم دراسته فيما بينهما » .

الصيغه الفرنسية – الوسطية التى قدمها شامبوليون – فيجاك تعتبر من أول الدلائل على الجدل القائم بين باريس وفلورنسا التى لم تظهر أثاره خلال الرحلة وانما بعد وفاة صاحب الكشف – كما سنرى فيها بعد – الذى ظل على علاقة تتسم بالثقة والصداقه مع روسيلليني ، إذ كان يكن له تعاطفا واضحا .كاد هذا التنافس منذ البداية أن يفشل المشروع . أقل ما يقال فى هذا الصدد أن الملك شارل العاشر لم يكن يحبذ قط هذا الاقتسام للمبادرات والمسئوليات والهيبة : فهل كان من اللائق أن يتقاسم «الملك المسيحى جداً * سليل لويس الرابع عشر – مناصفة مع « صاحب سمومكى » حتى لو كان عاهلا لاكثر العواصم نبلاً فى العالم ؟ هل إحتاج بونابارت أن يشارك مبادرقحملته مع أى من كان ؟

احتاج الأمر تدخل بلاكاس – وإن كان تاثيره قد قل فى تلك الفترة – ودودوڤيل ودولاروشفوكو وأخيرا مارتينياك ، لكى يوافق الملك فى النهاية على هذه المشاركة التى كانت تتمتع فى نظر رئيس وزرائه بفائدتين : الأولى هى استمالة إحدى الممالك الأوروبية التى زاد تغلغل النفوذ النمساوى فيها باكثر مما يتفق وماتراه باريس والأخرى هى تخفيف وطأة مصاريف المشروع بمقدار النصف (٩٠,٠٠ فرنك) على المالية الملكية .

بقى إيجاد حلول لثلاثة مسائل وهى : تشكيل البعثة « الأدبية الفرنسية – التوسكانية » ووسائل الأنتقال من طولون إلى الأسكندرية وموعد الإبحار .

سبق أن رأينا أن چان فرانسوا شامبوليون كان يود أن يصطحب معه – غير روسيلليني – بعضا من أعز أصدقائة مثل الأب كوستاتزو جاتزيرا وكذلك أكثر علماء المصريات الأنجليز تعبيراً عن تقديرهم له سير وليام چاك ولكن لم يتمكن أى منهما من مواجهة أخطار الرحلة . الأول لاسباب صحية والأخير لأسباب مالية .

بقى الأمر محصوراً بين توسكانيين وفرنسيين . ضمت « اللجنتان الثقافيتان » سبع أفراد لكل منهما . الفرنسية برئاسة چان – فرانسوا شامبوليون جمعت

* أحد الألقاب التى كان يختص بها ملوك فرنسا (المترجم)

شارل لونورمان * مفتش الفنون الجميلة (ممثلا للاروشفوكو أى السلطة الملكية) وأنطوان بيبان ، مهندس معمارى كان قد إلتقى به في إيطاليا والرسامين المصورين الكسندر دوشان لوهو وبارتان ** وهم من تلاميذ الفنان المشهور البارون جرو ، وأخيراً نستور لوت ، موظف جمارك شاب محبا للمصريات ومستمعا لمحاضرات ميولون فى متحف اللوفر والذى اتضح أنه رسام جيد .

أحاط بايبوليتو روسيلليني ، رئيس اللجنة التوسكانية ، عمه جايتانو وهو مهندس معمارى وأخو زوجته ، سالفادور شيروبينى - رسام *** واليساندرو ريتشي ، طبيب وسبق له أن قام مع بانكس ثم مع لينان بعدة رحلات إلى مصر ، وچيو سيبى راضى عالم طبيعة فلورانسى أشهر - والرسام انچيليلى ، وأحد مساعدى البروفيسور راضى يدعى جالاسترى .

نصر الأتفاق الذى وقع عشية القيام بالرحلة فيما نص على ما يلى

البـد الأول : يتولى مسيو شامپوليون الادارة العامة للرحلة .

البند الثاني : يتولى مسيو إيبوليتو روسيلليني مسئولية المساعد للمدير العام وجميع التفاصيل التنفيذية .

البند الثالث : عين مسيو لونارمان مفتشاً عاماً .

كان هناك إذن تسلسل فى القيادة مبنى على السن وعلى الكفائة وعلى العلاقات القائمة من الأصل بين رئيس « الحملة » . قال روبيرهارى في مداخلة له في ندوة خصصت لروسيلليني عام ١٩٨٢ فى بيزا ، أن هذه العلاقه حددت على هذه الصورة ، وعاشها التوسكاني بهذا الشكل لأنه « قبلها وفهمها هكذا » . كلا ! أن فارق العشر سنوات في السن بين الرجلين وكذلك العبقرية الخلاقة التى كانت تحرك أكبرهما سنا لم تكن تتضمن علاقات متساوية بينهما بالكامل . وإننا إذ نوضح ذلك يجب علينا أن نضيف أنه على الرغم من بعض الأقاويل سيئه النية فان علاقاتهما كانت تتسم بالولاء المثالى وسوف نبرز كل الشواهد على ذلك عبر سردنا لمختلف المراحل والتجارب التي حدثت حتى وفاة صاحب الكشف . وسيلة المواصلات التى طالب بها رئيس البعثه كانت الركب « ليجليه » الذى وفرته لهم الحكومة الملكية الفرنسية ووضعتها تحت تصرف أفراد الحملة الثقافية، وقد أثبت هذا المركب أنه على مستوى المشروع وأوصلهم إلى هدفهم بسلام . أما عن موعد الإبحار فان شامبوليون حدده بنهاية شهر

* أبن أخ مدام ريكامييه وكان يحظى برعاية شامبوليون الذى يذكره كثيرا وأكثر منه زوجته . أصبح إبنه فرانسوا عالم آثار مشهور هو الاخر .

** أبن مؤسسى صحيفة « لوچورنال دى ديبا » رسمه الرسام انجر الذى اصبح ناشرا لأعماله

*** الذى كان يعتبر نفسة عضوا بالمجموعة الفرنسية وكان يتصرف على هذا الأساس .

يوليو ١٨٢٨ مقداراً أن اللجنة لن تجابه تجربة درجات الحرارة المخيفة - فى مصر العليا والنوبه سوى فى فصل الشتاء : ركب إذن عربة البريد المتجهة إلى طولون فى ١٦ يوليو فى نهاية فترة بعد الظهيرة وتوقف لدى صديقه أرتو فى ليون حيث زوده أصدقاء من جرونوبل « براتافيا » من منطقة الدوفينيه ليشربها تحت شمس أفريقيا . ثم أمضى يومين فى مدينة إكس عاين خلالهما مجموعة ساليبه ، وخاصة بردية كانت تضمها المجموعة وكان يعطيها أهمية كبرى . ولدى مروره على مدينة أفينيون تمكن من عناق أوجوستان تيفونى أعز أصدقائه إلى قلبه وأكثرهم ولاءا والذى حضر للقائه بهذه المناسبة الهامة .

فى ٢٤ يوليو وصل إلى طولون حيث لحق به رفاقه الفرنسيون والتوسكانيون الذين كادوا أن يحتجزوا على الحدود حيث سرت شائعة إنتشار الطاعون في منطقة بروفانس الفرنسية وكل من كان يعبر جبال الألب كان يكشف عليه جيداً؛ وفي جميع الاحوال يمر بتجربة الخل ... فى ميناء طولون أخذ جان فرانسوا عدة حمامات . كتب لأخيه يقول عنها أنها أفادته «فائدة لانهائية » وجائت اتصالاته الأولية مع طاقم البحارة ممتازة وعلى الأخص من القبطان كازما دومانوار . ولم يبق عليهم سوى الأبحار .

هل هذا شئ مؤكد ؟

لقد كتب على هذه الرحلة أن تبقى حتى النهاية موسومة بكل ما هو غير مؤكد وله طابع إشكالى ... فلأسباب غير الصحة العامة كادت الرحلة تنتهى قبل أن تبدأ فى طولون ، ولولا ذكاء شامبوليون فيچاك الواقعي ، لبقى الرحالة وأصدقائة حيث هم فى الميناء ليواصلوا حلمهم المصرى لفترة مطولة ... قبل ذلك التاريخ بثلاثة شهور كان برنارد ينو دروفيتى قد أرسل إلى چان فرانسوا شامبوليون وابيوليتو روسيلليني خطابا مدمرا للهدف ؛ الواضح من الهدف من وراء هذا الخطاب هو تأجيل المشروع إلى أجل غير مسمى : كتب يقول « يعم مصر ، مثلها مثل جميع أنحاء الأمبرطورية العثمانية شعور مناهض للأوروبيين الذى قد يشكل فى بعض الأحوال سببا لإثارة حركات وأعمال شغب تهدد سلامتهم الشخصية . سواء بالنسبة للمقيمين بصفة دائمة أو الذين يتصادف سفرهم هناك . وإذا كان الأمر يتعلق فقط بارادة محمد على بايقاف ردود الفعل الغاضبة لما كان من الصعب الحصول على ماكلفتمونى بطلبه منه * « إلا أنه مجابه هو نفسه بهذا الغضب بسبب مبادئه وشعوره بالميل للاوروبيين ولم يتمكن من إعطائى كلمة ضمان طلبتها منه من أجلكم ورفاقكم .

* كتب شامبوليون فى الأول من فبراير رسالة يطلب فيها من دروفيتى الحصول على فرمانات من الباشا تسمح له بزيارة مصر .

وراح يعبر عن أمله فى أن « يتغير الموقف السياسى للقوى الكبرى إزاء تركيا» بما يسمح في المستقبل للرحالة أن يبدأوا رحلتهم دون ما انتظار لأى إشعار أخر » ، ثم ختم دروڤيتى رسالتة قائلا : « أرجو أن تتأكدوا أنى اسف أشد الأسف لأنى غير قادر على منحكم (رداً) يتفق ورغباتكم يتفق بدوره مع رغبة كل أصدقاء العلوم وهو ما تضطلعون به بكل هذا النجاح المرموق » .

هذا الإعتراض على قيام الرحلة لم يصل إلى باريس سوى بعد مغادرة چان فرانسوا إلى طولون ووقع فى يد فيچاك الذى اطلع عليه ... ومثلما هو الحال دائما مع دروڤيتى كان عليه أن يحلل الموقف تحليلا دقيقا لمعرفة خلفياته ... هل كان القنصل - التاجر قلقا بالفعل ؟ هل أراد أن يرفع من قيمة الدور الذى يؤديه ؟ هل كان يحاول الانتقام من تصدى شامپوليون وبلاط فرنسا أيضا له ؟ هل كان يفضل الإنتظار حتى يكوّن مـ ـموعة أثار ثالثة لكى يسيل لعاب ضيوفه لها ؟ بعد أن طرح فيچاك الحويط كافة هذه الأسئلة أختار أن يبقى الخطاب فى جيبه لمدة أسبوع كامل قبل أن يوجهه إلي ميناء الإبحار وقد تأكد تماما أنه سيصل متأخراً إلى جان فرانسوا .

بعد شهر كامل فى الاسكندرية وبعد أن علم چان فرانسوا من دروڤيتى بمحتوى خطابه المؤرخ ٣ مايو كتب يقول لأخية الأكبر : « .. أعترف بانى لو قرأت الرسالة فى باريس لما كنت سافرت . ولحسن الحظ أنها لم تصل فى موعدها والمؤكد أن يد أمون هى التى أبعدتها ... » لقد تشكل الإله امون فى صور شتى منذ خمسين قرنا - فهل كانت هيئه أمون / فيچاك هى الأخيرة ؟

فيما عدا رياح شديدة هبت لبضعة ساعات إنفعل لها الشاب نيستور لوت ، كانت الرحلة هادئة وتظللها السعادة وتتخللها الدراسات المستمرة . أصر القبطان دومانوار الذى أقام علاقات صداقة مع شامبوليون ، على أن يترك له قمرته الخاصة حيث انضم إليه فيها معه ، يناموِن فوق مراتب علي الأرض مباشرة كل من روسيلليني وراضى و« الأب بيبانت » المهندس المعمارى الذى كان يتجول شبه عار لايهتم بمظهره وكان مصدر سخرية دائمة من « القيادة العامة » ! هذا هو التعبير الذي أطلقه المسافرون على أنفسهم بعد أن قرروا تلقيب شامبوليون « بالچنرال » وعلى الرغم من كونه من مناهضى العمل العسكرى فانه لم يعترض .

كان چان فرانسوا يذهب ويجئ على سطح السفينة ثم يصعد إلى كابينة المراقبة ويستنشق الهواء البحرى وينهل من أشعة الشمس ويعد النجوم التي تزين « أجمل سماء في العالم » ويعطى دروس لغة عربية لرفاقه ودروس فى قراءة الحروف الهيروغليفية .. كتب عن ذلك كله شارل لونارمان فى مذكراته الشيقة :

« .... روح الوئام الكامل ظلت سائدة علي ظهر السفينة : وسط الركاب كان شامبوليون رجلا لا يتغير مزاجه ولا للحظة واحدة . رائق الفكر على الدوام ولا يكل أبدا فى الاستجابة لكل ما أحتاجه منه .. أتحدث أكثر مع روسيللينى (...) أنه دمث الطباع جداً ومتفاهم جدا ، مرح ومثقف للغاية . بيبانت هو المستهدف دائما في التنكيت عليه وهو يؤدى دوره هذا ببراعة معقولة . شيروبينى شاب ذو طبيعة ممتازة وهو باريسى الجوهر . الدكتور ريتشى الذى عاش فى مصر لمدة عشر سنوات مثير جدا للإعجاب (..) أعمل كثيرا . وها أنا أقرأ العربية بشئ من السهولة (..) أخذ درسا فى الهيروغليفية كل يوم ...»

غير أن الأشاعة المستمرة حول إنتشار الطاعون في مقاطعة بروفانس منعت لرحالة البحريين من النزول فى أجريجانتى . فى جمرك الميناء واجهوهم بأمر صادر من باليرمو يمنع توقف أى مركب قادم من الموانى الجنوبية لفرنسا . « إن طولون ميناء شمالى » هذا ما إدعاه شامبوليون فاجابه الضابط الصقلى : « أنى أعرف ذلك ولكن لاتوجد لدى أوامر تخص هذه الموانى » .

باختصار .. منعهم طاعون لم يحدث أصلا من زيارة معابد المجموعة الأغريقية الرائعة الموجودة في أجريجانتى التي لابد وانها كانت ستلهم قريحته ببعض التأملات . ولكن كان عليه أن يلتقى بمعابد مصر ......



١٦ - ماء النيل

حلم يواجة التحدى - موسى فى أرض مبعاده - « كام حنون » « تعاطف دروڤيتى - « غمزات عيون » الباشا - مسالة فرمانات « الچنرال » وقواته - مولد النبى فى القاهرة - دروس بنى حسن - « مجنون » في الكرنك - إننا أقزام ..... أبو سمبل حيث يسيطر الخوف على « الخيال » - الخطاب الآخر إلى مسيو داسييه : « أن ابجديتنا سليمة ! » .

أن تضع الخيال فى حالة تحدى وتُعَرض فكرة ما - كرست لها حياة بأكملها - إلى إمتحان النار الكاشفة ، هذه هى التجربة الأكثر قسوة التي يمكن لبشر أن يفرضها على نفسه . لم يقل لنا « متصوف » واحد كيف جابه تجربة مواجهته لوجه الإله . أما شامپوليون فقد عاش بما يكفى لكى يشهد على ماحدث في مواجهته لأرض وأحجار ورجال وألهة وادى النيل ، وقد لخص رد فعله في كلمة واحدة جعل منها القاعدة التي تقوم عليها حياته كلها :الحماس .

لكى نلخص مخاطر مشروعه الذى نفذه عام ١٨٢٨ يجب علينا أن نتصور ماهى الصورة التى رسمها الخيال لمصر لدى شامبوليون - المكتشف : الروايات التى قصها عليه أخوه الأكبر - قرائات دونون - دروس دوساسى القاسية - مبادئ اللغة القبطية مع شيفتيشى - الأبحاث الجغرافية والصراع الشخصى الطويل خلال عشرين عاما - مع الحروف المقدسة - البريق اللامع الذى أضاء كالصاعقة يوم ١٤سبتمبر ١٨٢٢ - الاكتشاف الجمالى في متحف تورينو - .. وها هى اللحظة التي تجمعت فيها كل هذه الأحلام والتصورات لكى تتصادم فجأة مع الحقيقة الواقعة التى لاترحم .

يوميات الرحلة الى مصر ومراسلات چان فرانسوا تؤكدها باستمرار روايات رفاقه فى الرحلة : روسيلليني ولونورمان ونستور ولوت تعكس حالة نفسية وعاطفية يصفها المتصوفون بالسعادة . وسط هذه الحياة شديدة الحيوية ، التى عصفت بها كمية ضخمة من المؤمرات والغيرة وتعذيب الذات ، تلمع هذه الشهور السبعة عشر فى مصر بكامل بريقها من الإعجاب الجمالى والتعاطف الإنسانى والتضامن المهني والعلمى . شامپوليون على أرض مصر هو موسى في أرض الميعاد ، ملك ، فحل وسعيد .

لم تكتمل سعادته مرة واحدة . من الأسكندرية - التى كان يقول عنها مثل الرومان أنها عند مصر Ad AEgyptum - ثم القاهرة ومن سليبس إلى بنى حسن ومن

البدرشين إلى سقارة ومن الجيزه إلى دندره ، تصاعد الحماس فيصل إلى ذروته ليصبح – فى الكرنك – تجلياً يتجدد فى أبو سمبل .

إن الحماس المتأجج والرؤا الواضحة لدرجة الشفافية جعلت صاحب الكشف يبدو كما لو أنه يلبى ندائنا الصعود إلى السماء . إنه يشبه في حالته تلك هؤلاء القديسين الذين صورهم الرسام الجريكو فى لوحاته مغلفين بالسحب التى تصعد بهم في اتجاه نور الله مع فارق واحد هو أن نظراته هو كانت بعيدة عن أى تتشنج بل إنها كانت مثبتة باستمرار على جدران المقابر وعلى أعمدة المعابد ، دائمة البحث عن معلومة وعن مراجعة أو عن رمز جديد وعلامة مختلفة أو لفظ صوتى غير منتظر .

خطاب إلى فيچاك حرر بعد النزول إلى شاطى الأسكندرية :

« وصلت إلى أرض مصر فى ١٨ أغسطس ١٨٢٨ هذه الأرض الذى ظللت أحلم بها لكل هذه السنين الطويلة عاملتنى حتى الأن كأم حنون ويبدو تماما أنى ساحتفظ وأنا في رعايتها على الصحة الجيدة التى أتيت بها إليها . تمكنت من شرب ماء بارد كما أريد – وهذه الماء هى ماء النيل .... »

قبل الظهر بقليل يوم ١٨ أغسطس ١٨٢٨ تمكن المسافرون على « الإيجلى» من التعرف بواسطة المنظار المقرب على عمود السوارى (بومپيى) الذى يتوسط الأسكندرية والذى بدى لهم « مهيباً » الميناء القديم – الغربى – بدا رائعا فى عيون شامبوليون . وسط هذا التشابك الهائل من السفن – منها الحربية سواء إنجليزية أو فرنسية – المكلفة بالحصار والسفن التركية والمصرية التى نجت من كارثة نافارين يكتشف چان فرانسوا « مشهداً فريداً يكفى لتحديد طبيعة هذا الزمان ... « لأنه المصرى » كما سنرى فيما بعد سيبقى دائما مصريا بالكامل ويشرك مصير مصر الحية ببعث الإمبراطوريات التى أختفت .

بعدأن قادهم العاملون فى قنصليتى فرنسا وتوسكانيا إلى اليابسة أركبوهم الحمير. ويكتشف صاحبنا المكتشف على الفور بحسه وبعينيه المحبتين صفات هذا الحيوان التي ليس لها مثيل من الرقة والسحر والشجاعة ..... رجل يرى حمير وادى النيل بهذه النظرة ويصفهم بانهم « أصحاب الشعر المائل إلى الأحمرار والملمس الحريرى » كان بالفعل جديرا بان يقرأ مصر ككتاب مفتوح :

« وهكذا كان دخولنا الهجومى على محل إقامة البطالة القديم . غير أنه لم يتمكن من أخفاء ارتباكه أمام المشهد الذى أمامه : هل يمكن إعطاء اسم شوارع على

فوضى من المنازل المنخفضة للغاية معظمها من الطين وبها منتجات نادرة وهى غير منتظمة في خط واحد (..) إن المظهر الذى كان عليه السكان الذين كانوا يملأون الشوارع على الرغم من الليل كان ينم عن شئ غريب بالنسبة للقادم من إوروبا لدرجة أنه من المستحيل أن أعبر عن الشعور بالدهشة بل الذهول الذى سيطر علينا. كان هذا الخليط من المصريين ذوى اللون الأسمر النحاسى والبرابرة ذوى البشرة الأغمق والبدو ذوى اللون المائل إلى السواد يزيد من حدته لباسهم الأبيض ، ومن الزنوج الاحباش كانوا جميعا يسرعون ويتلامسون ليتفادوا راكبى الخيل أو الحمير فى هذه الشوارع الضيقة ، وكذلك الطوابير الطويلة من الأبل الحزينة والبطيئة والمربوطة فى أذيال بعضها – كان كل ذلك غريب فى حدته لدرجة أنى شعرت بأنى أمام مشهد من مشاهد الأوبرا .»

نعم .. إنه بالفعل مستدرج إلى كوميديا فريدة من نوعها سواء كانت جادة أو هزلية ومخرجها هو برناردينو دروفيتى . أستقبله بالطبع القنصل وبصحبته كوزماو دومانوار وشارل لونورمان « بكل ترحاب » ، إلا أنه أسرع بافادته أنه كتب له فى شهر مايو خطابا يعترض فيه على الرحلة ولكنه أقر « بأنى مادمت وصلت فكان عليه أن يستقبلنى » وأن الباشا* سيعطينى كافة التسهيلات المطلوبة خاصة وأن الاتفاق الذى وقع فى السادس من يوليو بين الحلفاء الأوروبيين والخاص بجلاء القوات المصرية من المورة قد خفف من التوتر في العلاقات بين القوى المسلحة وأوروبا . وفى النهاية كان دروفيتى حريصا على أن يؤكد أهتمامه بزواره كما وضع تحت تصرف شامبوليون الشقة الخاصة بالقنصلية والتى كان يقيم فيها كلبير فيما مضى وكانت مريحة للغاية .

لم يمض على چان فرانسوا وقت طويل لكى يستشرق . خطاب لأخيه :

أتحمل الحرارة بافضل مايكون : يبدو أني ولدت فى هذا البلد . ويجد الفرنجة ** أنى شديد الشبه بالاقباط . شاربى أسود اللون على أفضل مايكون أصبح طوله محترماً ويعمل من جهته أيضاء على التاكيد على ملامحى الشرقية . وبالمناسبة فقد اكتسبت بالفعل العادات المحلية وأشرب العديد من فناجين القهوة وأدخن ثلاثه شيشات فى اليوم . مذاق الطباق لذيذ وأخلط كل سحبة نفس برشفة من القهوة .. ذات الطعم اللذيذ وتجد فيها ماتشربه وتاكله فى ذات الوقت ... ثم نوم الأيلولة بعد الغذاء لساعتين حتى أربع ساعات .... »

---

* محمد على بالطبع

** يقصد الأوروبيين

كتب إيبوليتو روسيلليني فى خطاب متزامن مع هذا الخطاب وموجه لجاك – جوزيف أيضا يعبر فيه عن سعادته البالغة بالمظهر الباعث على الإحترام الذى يبدو عليه « صغير » « شواربه والشيشة التي يدخنها مثلما يفعل عجوز تركى » .. ونفس هذه الملحوظات نجدها ضمن ماكتبه لوت ولونورمان . إن أسمر البشرة القادم من مدينة فيچاك يبدو كما لو أنه فى داره هنا في الشرق كما لو كان قد عاد إلى أرض الوطن ..

كان يشعر أنه مدلل للغاية يعتنى به القنصل أشد العناية .. إلا أن صحة هذا الأخير تقلقة إذ أن حمى « الدنج » * تنهش صحته الجسدية والحزن صحته النفسية : كان دروڤيتى مثيرا للشفقة ويتحتم إعادته للوطن كما قال « صغير» لچاك – چوزيف سيصبح بعد عدة شهور « رجلا ميتاً » . لكن جميع أمراض الحمى والقلق التى فى العالم لن تجعل القنصل أقل خبثا :وسيعطى جان فرانسوا بعد أيام قليلة أهمية أكبر لمكر مضيفه على مرضه الجسدى أو كآبته النفسية . المكر الحقيقى يعبر عن نفسه أولاً بحسن المعاملة . فبعد أن استقبل جان فرانسوا « بكل حنان » حصل له على موعد للقاء الباشا . وبعد أقل من أسبوع من رسو « الا يجلى » فى الميناء قاده مع القبطان ولونورمان إلى الديوان . ووصف اللقاء الذى كتبه جان فرانسوا لا يخلو من الحيوية . إلا أننا سنختار أن نسرد هنا ماكتبه شارل لونورمان لأنه مدهش :

« ... بعد أن عبرنا قاعة إنتظار مزدحمة بالحراس وجدنا أنفسنا داخل قاعة فسيحة بها أكثر من عشرين نافذة وفى زاوية منها جلس عجوز صغير الحجم تعبيرات وجهه جادة مثل رئيس المحكمة الملكية لولا أنه كان يغطى رأسه بدلا من القلنسوة المربعة – بعمامة من قماش الموسلين الأبيض وبدلا من الرداء الأحمر بمعطف لونه أزرق فاتح . وكان طول النرجيلة التى يدخنها حوالى عشرة أقدام مرصعة كلها بالماس وحجر آخر كريم . وكانت هذه هى قطعة الأثاث القيمة الوحيدة فى المكان . (...) ما أن دخلنا إلا وصرف العديد من موظفيه الوزراء الذين كانوا يعملون معه بايمائة واحدة وأشار لنا بيده لكى نجلس . ثم بدأ الحديث مع مسيو دروفيتى الذى تحدث باسمنا وترجمان القنصلية الذى كان ينقل إلى الفرنسية مايقول الباشا بالتركية [...] سأل إذا كنا سنبدأ بالذهاب إلى قمم الفراعنة (هكذا يسمى الأتراك الأهرامات) وفيما كان الرجل يشبعنا بابتسامة رقيقة لم تغادر شفتيه ، كناتراه يطلق علينا من وقت لآخر نظرات كنظرات الأسد تشتُّم منها على بعد فرسخ كامل رائحة سفاح المماليك .

---

* حمى شائعة فى أفريقيا الشمالية خبيثة للغاية كاد أن يموت بها الجنرال ديجول بعد تلك الفترة بمائة وأثنى عشر عاما .

« علاوة على ذلك فلا شيء أدهشنى أكثر من وجه هذا الرجل الطيب . كنت حفرت فى مخيلتى صورة الشخص المرسوم فى لوحه « هوراس » * الإسكيتش (الرسم السريع) الذى رسمه مسيودوفوربان خلال رحلته . وكم كانت دهشتى كبيرة إذ قابلت بدلا من هذه الرأس الأثرية وهذا الأنف المعقوف وهذا الوجه الأمثل الذى أظهره مديرنا الرومانطيقى ، رجلا قصير القامة ذا أنف مستدير وعينين جميلتين ولحية عجوز وقور وحركات سريعة متلوية مثل حركات ماركيز من نابولى . كل ذلك كان مختلطا بحركات أخرى مفاجأة وأوضاع متغطرسة لم تسمح لنا بنسيان أنه زميل « جزار » ** .

نعيد الكلمة من جديد إلى شامبوليون . بعد أن أعلم سيد مصر بأنه عازم على أن يندفع جنوبا حتى الشلال الثانى أى النوبة ، التمس منه الحصول على فرمانات الاعتماد التى يستحيل القيام بالرحلة بدونها : « حصلت عليها فوراً وكذلك على شويشين من شواشية الباشا ليظلا فى صحبتنا حتى نحترم من الجميع وفى كل شيء » وهو بذلك يبدو ساذجاً بعض الشيء إذ يخلط بين حسن إستقبال المضيف وقرار المتسلط ... مهما كانت نياته حسنة – إذ إستقبل فى اليوم التالى روسيللينى وبقية الوفد التوسكانى وطلب منهم إعتبار « مصر كما لو كانت بلدهم » ...فإن محمد على رجل سياسة قبل كل شيء : وهو لذلك لم يرحب بالأنباء التى أفادت بقرب إنزال قوات فرنسية فى المورة التى جلا عنها مؤاخراً بضمان من القوى الأوربية . وبدا ذلك كما لو أنه أخلى الساحة من أجل تسهيل إحتلال فرنسا لهذه الجزيرة وبذلك يكون قد خان مليكه وحليفه سلطان القسطنطينية ... وهو ما يسمى « عملية إحراج »

وسبق أن رأينا بعض الروم *** يفقدون رؤسهم لأسباب أقل خطورة من ذلك يقول شامبوليون أنه لاحظ أن الشعب « عبر عن تأييده التام وأكثر من أى وقت مضى للفرنجه وخاصة الفرنساويين **** « الذين يحظون بحب خاص فى القلوب (..) وذلك لأن الضباط العثمانين المحيطين بمحمد على يسيئون معاملة الشعب ويستبدون به ... » إحمْ !! نجد هنا نفس النظريات التى نجمت عنها الحملة على مصر فى ١٧٩٨ وكان ثمن ذلك أن القاهرة ثارت مرتين ضد بونابارت وأغتيل كليبر ... ولذلك فإن جان

---

* لفارنيه VERNET

** جزار باشا « الجزار» الذى نكل بالسوريين .

***كانت هذه التسمية تطلق فى الماضى على الاتراك .

****الفرنجة FRANCS تطلق على الأوربيين عموما أما الفرنسيون FRANÇAIS فهم الفرنساويون

فرانسوا يقول نادماً « إن عصر الأبطال قد ولى . »

سواء كان الشعور العام هو حب الفرنسيين أم لا فإن دروفيتي الذى أحس بخطورة الرحالة الجمة على مصالحه الخاصة إستغل مضايقات الباشا وحولها ضد الزوار الجدد .. وسرعان ما أدرك شامبوليون الهدف من وراء تلك المناورات وكتب فى العاشر من سبتمبر إلى أخيه يوضح أن تحذيرات القنصل مثل تلك إلى أرسلها فى ٣ مايو لا تقوم سوى على « حسابات مصالحه الخاص »لأن التجار جميعا « إهتزوا » عندما علموا أن الزوار الجدد لم يحضروا للزيارة فقط وإنما للتنقيب عن الآثار وكان ذلك وراء « التجمع المناهض الذى تشكل ضد تسليمى فرماناتى الخاصة بالتنقيب » .

فجأة كل ما كان يبدو سهلا للغايه فى ٢٢ أغسطس أصبح معقداً فى سبتمبر . أفادهم الباشا بأن التصريح بالتنقيب يظل حكراً على أصدقائه دروفيتى وأناستازى النشط جداً والشره جداً وهو قنصل السويد : ووجد شامبوليون من ينصحه بعدم التفكير نهائيا فى التنقيب ... كان رد فعله فى منتهى العنف . و كانت هذه المذكرة التى سلمها لقنصلية فرنسا العامة موجهة لمحمد على :

« لما كنت قد حضرت إلى مصر فى مهمة للتنقيب لصالح متاحف الملك أرى لزاماً على أن أعلم وزراء الملك بالأسباب التى تمنعنى من تنفيذ هذا الجزء من التعليمات التى أنيطت . أن منع حصولى على هذه الفرمانات ينبع من مؤامرة هدفها تجارى .. ولما كان حضورى إلى هنا قدتم بإسم الملك مبعوثا منه ومن حكومته بأن يحجب عنى رخصة منحت لأشخاص مثل بيلزونى ، باسالاكوا، لايورد ، ريفو الخ .. تعتبر إهانة للصفة المخلوعة علىّ ، وإذا كان الباشا ووزيره حريصين على السمعة التى يتمتعان بها فى أوروبا وهى أنهما من حماة العلوم والفنون ، فإن إعطائى فرمان التنقيب يعتبر الفرصة الوحيدة لتشجيع وحماية العلوم لأن جميع الفرمانات المماثلة لم تشجع ولم تساعد حتى الآن سوى مصالح شخصية وصفقات تجارية فى الوقت الذى لا تبتغى فيه عملياتى التنقيبيه سوى أهدافا مختلفة تماما ... »

ياااه!! فى مواجهة مستبد شرقى لايمكن اعتبار ذلك تقاعساً .. اذ جاء تصرفه سليماً تماما ، كما أن – حسب قوله – ..« الرأى العام السكندرى» (؟) أيده لدرجة أنه حصل على الفرمانات وهذه المهمة دون منازع . أما دروفيتى واناستازى – هذا الأخير عن طيب خاطر أكثر من الأول – فقد تنازلا عن حقهم فى التنقيب « فى الأماكن المحمية » . نهاية الفصل الثانى .

سحر مدينة الأسكندرية – التى يراها « ليبية » أكثر مما ينبغى بالنسبة له – تبدد بسرعة ولم يعد عمود « پومباى » يشد أنتباهه – ومن زيارة « لإبر كليوباترا » مسلتين من الجرانيت الأحمر ترجعان فى الواقع إلى تحتمس الثالث أهديت إحداها إلى ملك فرنسا « الذى يجب أن يرسل من يأخذها » . من هذه الزيارة يذكر شامبوليون على وجه الخصوص ظهور أحد الشحاذين المكفوفين فجأة أمامه قائلا له : بالفرنسية « صباح الخير يامواطن ، أعطنى شيئا أنا لم أفطر بعد ... » أمام المفاجأة التى تسببت فيها هذه الكلمات الجمهورية أخذت من جيبى بعض النقود الفرنسية إلا أن الآخر صاح قائلا إن هذه النقود لا تصرف هنا ياصديقى .. وعلى الفور طلبت قرشا تركيا وأعطيته للمواطن الأعمى » .

فى ١٣ سبتمبر إستقبله الباشا الذى ضاعف من إهتمامه بحسن الأستقبال واعلمه بانه يمنحه « حماية مفتوحة » وأهتم بان يشرح الأسباب وراء العناية به : بما أن الأمراء المسيحيين يعاملون رعاياه بكل عناية فإن من واجبه أن يفعل « حسب قوله » نفس الشئ » . ثم وجه محمد على الحديث فى إتجاه قراءة الهيروغليفيات وطلب الحصول على ترجمة مسلات الأسكندرية ووعده الزائر بان يفعل ذلك على الفور . باختصار خرج چان فرانسوا من عند الباشا وقد حصل على هذا الوعد . حيثما ذهب وجد « التحية والترحيب » .

حان وقت الاتجاه جنوبا إلى القاهرة وصعيد مصر . چان فرانسوا « الچنرال » نظم الحملة ووزع المسئوليات والوظائف على الفرنسين والتوسكانيين « كما لو كانت حكومة مصغرة تتحرك بجداول زمنية » . كلف الدكتور رتيشى بالصحة والتموين ، دوشان بالسلاح وبيبان بالتنقيب ولوت بالمالية وشيروبينى بالامتعة .. النظام كان دقيقا ، نظام الأكل محدداً ومواعيد الاستيقاظ أيضا لن تطلق طلقة نار واحدة دون إنذار مسبق ، ورديات الحراسة ستكون بالدور .. لم يبق الكثير حتى يعتقد « صغير » أنه أصبح بونابارت * .

(*) لعل من المناسب أن نذكر هنا أعمار أعضاء الحملة وهم كسابقيهم عام ١٧٩٨ كانوا صغار السن جداً :شامبوليون ٣٧ عاما ، لونورمان ٢٦ لوت ٢٤ ، لوهوه برتان ٢٦ سالدور شيروبينى ٢٣ والكسندر روشان ٢٤ – إيبوليتوروسيلينى ٢٨ عاماً ، جايتانور وسيالينى ٣٢ ايجيد الليلى ٢٥ الساندروريتشى بين ٤٥ ، ٥٠ عاماً وجيوسيبى راضى هو العميد ٥٧ عاماً

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

« سيحملنا على النيل مركبان شراعيان (خطاب لچاك - چوزيف) أولهما هو أكبر « معاش » فى البلد وسبق أن ركبه صاحب السمو محمد على . أسميته إيزيس . الآخر ذهبية * « أسمها أتير سنجر تحت رعاية ألهتين من أكثر الآلهه مرحا فى عالم الآلهة المصرية ...... »

ركب شامبوليون المعش بصحبة آل روسيلليني الأثنين ومع لونورمان وشيروبينى وبيبانت ولوت انچيلللى ، فى حين سافر على متن الذهبية كل من دوشان وبيرتان ولوهو (أما البروفيسور راضى ومساعده جالاسترى فقد تركاهم لبضعة أسابيع « لصيد الفراشات في الصحراء الليبية ») تبعهم خمسة من الخدم منهم الطباخ وخادم الچنرال » . المدعو سليمان « عربى بهى الطلعة » سيؤدى له خدمات جليلة . الأشرعة فى ١٤ سيتمبر . للوصول الى النيل عبروا ترعة المحمودية التي حفرها محمد علي عبر الصحراء . وصف مارأه على ضفتيها بأنه « البؤس بعينه » » ولكن لم يمض وقت طويل حتى وصل الأسطول إلى الفرع الكانوبى للنيل حيث إنتشرت أعواد البوص وشجر الجميز والتمر هندى وبدا المكان يعمل سحره عليهم .

مرت « إيزيس » أمام بلدة دسوق حيث توفى قبل شهور قليلة القنصل هنرى سولت صاحب المجموعة الأثرية التي غيرت حياة صاحب الكشف . في الصباح الباكر من يوم ١٦ وجد المعاش راسيا علي ضفاف بلدة صا الحجر إلى جوار آثار سايس المدينة الأغريقية التى يقال أن أفلطون درس بها فى شبابه ولاحظ شامبوليون أن جبانتها كانت ذات أبعاد « عملاقة » . جمع من أرضها « قطعة جميلة من الفخار المغطى بالمينا تمثل الإلهة نيث كبيرة الهه سايس » .

« عند استيقاذنا صباح ١٩ رأينا أخيرا الأهرامات وكان في إمكاننا تقدير كتلتها من حيث كنا علماً بانها كانت تبعد عنا بثمانى فراسخ . عند قمة الدلتا [بطن البقرة] عند النقطة التى ينقسم فيها النهر في ذراعين - رشيد ودمياط - المنظر فيها بديع والنهر متسع بشكل يثير الدهشة . عند الغرب تقف الأهرامات وسط شجر النخيل .. يتقابل العديد من السفن والمراكب في جميع الاتجاهات ..... خلفية اللوحة يحتلها جبل المقطم الذى تتوجه قلعة القاهرة ..... »

---

* هذا الاسم يطلق الآن على نوع من المنازل العائمة فى النيل - وكان فى ذلك الوقت يطلق على المركب ذات الصاريين

هاهى إمبابة ساحة المعركة المسماة ..... « معركة الأهرام » . وميناء بولاق حيث لاحظ « الچنرال » وهو يرسو أن نزعته الوطنية قد ارتفعت حدتها لدى سماعه كلمة « فرنساوى » وهي تقال بنوع من السرور ... دخلوا القاهرة في اليوم العشرين من الشهر وفي توقيت جيد إذ كان يوم المولد النبوى .. ووجد سائحنا فى هذه المناسبة مايرضيه ، مندهشا ومبهورا « بمظاهر الجنون الدينى » حيث يختلط «الموسيقيون وبنات الهوى » وبهذا الخليط من الألعاب الدنيوية والطقوس الدينية والتى حولت ساحة الأزبكية المغمور نصفها بالمياه والتى أختار بونابارت أن يسكن فيها ، إلى مسرح ضخم للغاية « كان مشهداً غريبا للغاية لن أنساه أبدا » هكذا ختم ابن مدينة فيچاك رسالته .

بهرته المدينة الكبيرة ووصفه لها فى خطاب لأخيه مؤرخ ٢٧ سبتمبر يكشف عن عظمة الإحساس الجمالى عند هذه العقلية الفذة التي لم تقبع سجينة داخل عالم الآلهة والمقابر المشهورة :

« قيل عن القاهرة كلام سئ كثير : أما أنا فأجد نفسى سعيداً فيها بشوارعها ذات العرض الذى يتراوح بين ثمان وعشرة أقدام والتى ظلت محل نقد كثير لأنها تبدو لى محسوبة بدقة تامة لكى تتفادى الحرارة الشديدة للغاية . ولو انها غير مرصوفة بالأحجار إلا أنها نظيفة لدرجة تثير الإعجاب ووددت لو أن باريس لا تكون أكثر قذارة حتى فى الأيام التي تنظف فيها التنظيف الكبير (...) القاهرة مدينة ضخمة للغاية . معظم منازلها مبنية بالحجر أبوابها المشغولة بحفر علي الخشب طبقا للمنط العربى تسترعى انتباهك فى كل خطوة .

(بها) عدد كبير من الجوامع جميعها أكثر جمالاً من بعضها البعض مغطاة بخطوط أرابيسك رفيعة الذوق ومزينة بمآذن بديعة لثرائها وجمالها [..] القاهرة من مدن ألف ليلة وليلة لولا أن البربرية التركية قد دمرت أو تركت جزءا كبيرا من المنتجات البديعة الفنون والثقافة العربية يدمر . أديت أولى صلواتى في مسجد ابن طولون وهو من مبانى القرن التاسع وهو نموذج للرشاقة والعظمة ولا أقدر على وضع حد لإعجابى به وعلى الرغم من أنه نصف متهدم إلا أنه لايزال أجمل الآثار العربية الموجودة في مصر .

العلاقات التى أقامها هو ورفاقه مع أهل البلد كانت ممتازة منذ البداية وفيماعدا كلمة « رعاع » فإنه يمكن أن يكون هو صاحب هذه السطور التى خطها شارل لونورمان :

« إننا بشكل عام كنا نتصور أهل هذا البلد من بعيد على أنهم من الوحوش ، علماً بأننا إذا قارننا بين المتشردين فى الجانين فإن الشحاذين هنا أفضل من سكان مدننا الكبيرة . الشئ المؤكد هو أن الفرنجة الذين يقطنون هذا البلد منذ فترات طويلة يشيرون إلى الرقة المتناهية التى تميز سلوك السكان العرب على طول أرض مصر .... »

قام شامپوليون بألف اكتشاف منها حديقة ملاهى الباشا حيث فاتته مشاهدة فرس النهر حيا « إذا أن الحيوان المسكين كان قد مات لتوه بضربة شمس بعد أن نام الأيلولة دون أن يأخذ الاحتياطات اللازمة » . كما أكتشف مجموعة من الانجليز لورد بروديه وبورتون والميچور فليكس ، هم جميعا من دراسى الهيروغليفيات فى إصرار وتصميم . كانوا يعاولمونه بعناية كما لو أن شيخ طريقة » . كما تعرف على لينان دو بالفون وهو مهندس متزوج من حبشية والذى منحه الباشا لخدماته الجليلة لقب بك . كما تعرف أيضا على سيدات مصريات .

« نظمت حفلة لشباب (البعثة) بعد وصولنا بيومين إلى القاهرة وأحضرت لهم ستة عوالم (أو بنات عالمات وهن عالمات جدا) ظللن يرقصن ويغنين من الساعة السادسة مساءاً حتى الثانية صباحا فى جو يسوده الخير والشرف » .

دعونا نمر على الخير والشرف مر الكرام وعلي العموم فلو أنه ظل عفيفا فإن ذلك لم يرجع لأسباب صحية . فلنستمع اليه :

« صحتى مازالت ممتازة وأفضل مما كانت عليه فى أوروبا مادمت كتبت لك هذه الصفحات السبعة مرة واحدة دون توقف وهو ومالم يكن من الممكن أن أفعله فى باريس دون أن أصاب بتقلصات فى المخيخ . الحقيقة أنى رجل جديد تماما . حلقت رأسى وأغطيها بعمة ضخمة . أرتدى لباسا تركيا كاملا . ويزين وجهى * شارب جميل كما يوجد خنجر كبير معلق على جانبى . هذا الزى دافئ للغاية وهو ما

* اللحية ستأتى فيما بعد وهى التى نعجب لها فى لوحة انجيللى والصور التى رسمت فى المرحلة الثانية من الحملة.

يناسب تماما الحياة فى مصر إذ أن العرق يتصبب منك داخله بغزارة تسعدك . هو شعور يزيدك سعادة بنفس غزارة العرق المتصبب منك . غير أن العرب يقسمون على أن الجميع هنا يظن أنى من المواطنين ، وبعد شهر من الآن سأضيف الكلام بلغة أهل البلد على خداع المظهر إذ أنى أقوم بتنقيح لغتى العربية ولكثرة استخدامى لها فلن يعتبرنى أحد بعد قليل من المبتدئين .. » .

إنه رجل سعيد هذا الذى بدأ يتعامل مع « مصره هو » ، بعد أن استحسن جداً تلك التى صاغها وأعاد صياغتها العرب والمماليك وبونابارت ومحمد على . بعد أسبوعين من الإقامة فى عاصمة الطولونيين أبحرت البعثة الفرنسية التوسكانية فى الأول من أكتوبر؛ هذه المرة فى اتجاه ممفيس الرائعة وفى المخطط زيارة سقارة والجيزة . هل يجب أن نتحدث هنا عن خيبه أمل ؟ إذا كانت محاجر طرة المنحوتة فى سلسلة الجبال العربية قد أظهرت للرحالة نصوصاً ديموطيقية مهمة جدا فإن الحال التي وجدوا عليها سقارة (قبل أن يزيح عنها مارييت الرمال وينقب فيها عن الآثار) ملأت قلوبهم بالأسى : فيما عدا الهرم المدرج وبعض المقابر التي كانت في حالة جيدة مثل مقبرة مينوفرى فقد بدت لهم هضبة المومياوات «تافهة جدا بالنسبة للدراسات » .

« ... عندما وصلنا إلى قمة الهضبة تمكننا من تكوين فكرة عن التدمير الذى ألحق عبر القرون بمقابر الممفيسيين . تخيل هضبة هائلة تتخللها الأهرامات وتنهض فى كل مكان منها تلال صغيرة جداً من الرمال المغطاة ببقايا أوانى مخازن قديمة وقمطات من القماش الخاص بالمومياوت وعظام مكسورة وجماجم مصرية أبيضت من تأثير طل الصحراء وغير ذلك من الأشياء المكسورة كالفتات ......» .

إلا أنهم تمكنوا - فيما بين البدرشين وميت رهينة - من الإعراب عن الإعجاب بتمثال رمسيس الثانى * الضخم الممدد « داخل » الرمال والذى إكتشفه كافيليا (من مدينة جنوا الإيطالية) وهو من رواد علم المصريات وكان منقباً جسوراً وحذقاً . وعبر صاحب الكشف عن تأثره العميق ...

« ... بأول أضخم تمثال من النحت المصرى وضعته صدف الرحلة أمام عينى . تمددت أمام هذا الوجه الضخم ولكنه فى نفس الوقت متناسق تناسقاً سعيداً لدرجة أن تعبيراته لا توجد بها سوى الطيبة والدماثه وتسللت إلى نفسى كل عظمة هذا التمثال البطولى .. وابتسمت مشفقاً على ذكرى وجهات النظر التافهة والمسطحة التى كونتها العقول الجبارة عندنا عن الفن ولا تزال تنادى بها عن المصريين عن هذا النحت الضخم وهو يشكل الجانب المحورى من معمارهم .... » .

" يرى شامبوليون إن هذا التمثال الضخم هو توأم « سيزوستريس تورينو » والذى قال عنه قبل ثلاث سنوات أنه « وقع فى غرامه » : ولا يوجد أى شك فى أنه يوجد فى تورينو وممفيس : بورتريهان لأعظم الفراعنه ** » ويضيف متحدثا لفيجاك أنه لو حصل على الأموال التى تسمح بالتنقيب « على الواسع فى ممفيس فسيتمكن فى أقل من ثلاثة شهور من « تعمير » اللوفر بتماثيل مدهشة « حرك هذا الطلب - يقول « صغير » فى ختام خطابه - وأجعل الجميع يصرخون بأعلى صوتهم لكى يحزم المتكاسلون أمرهم » هذه الكلمة بلاغية أكثر مما ينبغى وكان الأصدق أن يقول المخربون .

ها هو الأن فى طريقه إلى الجيزه - وكان الفيضان قد حول الصحراء إلى أرخبيل مما عقد مسار الرحلة واستوجب ذلك عدة ساعات قضوها على ظهر الحمير للوصول إلى مجموعة الأثار الأكثر شهرة على مستوى العالم :

« وصلنا منهكين نحن والحمير حيث تظللنا بعدة أشجار من الجميز على بعد مسافة صغيرة من تمثال أبى الهول الضخم . وبعد إستراحة قصيرة أنعشتنا ، أسرعت نحو الاثر الضخم الذى لا يزال يعطى فكرة واضحة عن النمط النحتى الجميل الذى

---

* وهو يقوم الأن وسط الميدان التى تطل عليه محطة القاهرة للقطارات .

** رأينا أن جاك فانديه وجان كابار شككا فى أن يكون تمثال تورينو يمثل رمسيس الثانى وهما يميلان إلى الاعتقاد بأنه لستى الأول.

شُيد به وذلك على الرغم من كل التشـوهـات الـتى وقـعت لـه . غـيـر أن ملحـوظة دينون * عن التـراخي أو بالاحـرى الـ Morbidezza الكابة التى تنم عنها الشـفـة السـفلى هى ملحـوظة دقـيـقـة جـداً وددت لو تمكنت من إزاحـة الرمـال التى تغطى مـخطوط تحـتـمس الرابع المنحـوت على الصـدر إلا أن العـرب الذين أقـبلوا علينا مسرعين حولنا من المرتفعات المحيطة بالأهرامات قالوا أن تنفيذ هذا المشروع يحتاج لأربعين فرداً لمدة ثمانية أيام .... » .

لماذا إكتفى صاحب الكشف بهذا التعليق المختصر على أكثر اثار مصر غموضاً ؟ لذا يتعـين الرجـوع إلـى لوت لننقـل عنـه تعليقـاتـه لزملائه الشبان فى ظل أبى الهول : « كان أبو الهول رمـزاً للحكمـة والقوة مـتحدتين وهـى من الصـفات الخاصـة بالأله الذى يمنحـها للفراعنة بدوره . رأس الحيوان ذو الوجه البشرى تصـور الإله أى الملك المقلد هنا وهو أحد ملوك ممفيس ... » .

جان – فرانسوا شامبليون أمام الأهرام .. كما لو أراد أن يوفر علينا أى خطب أدبيـة طنـانة اعتـرف ببسـاطة شديدة أن أمله خاب أو بالأحرى أنه شعر « بالإهانة » لأن « تأثيـر هذا الاثر الهـائل فى الضـخامـة يقل كلمـا إقـتربت منه » ، وأنه يجب « أن تلمسه بيدك لكى تدرك فى النهاية ضخامة الكتلة » .

ببساطه تليق بالشـخصية – سيجئ يوم يؤكد فيه أن « أيام ممفيس » كانت من أكثر أيام الرحلة تثقيفاً بالنسبة له [1] إلا أن لايومياته ولارسائله عكست هذا التعليق . فـهـذه الزيارة إذا رجـعنا إلى هـذين المرجـعين ** كانت المرحلة الضـعيفـة فى الحوار الاسطورى بين صـاحب الرؤية و« مصره » . قراءة ما سيكتبه عن طيبة ستكون كافية للتأكد من ذلك .

لا نعرف لماذا توقف مخطوط يومياته عند هذا التاريخ : ١٠ اكتوبر ليعود متقطعاً بعد ثلاثة شـهور . إلا أن مراسـلاته التى ظل جـاك – جـوزيف يتلقاها بانتظام تعكس أحداث الحملة في مراحلها المختلفة كما تعكس حالة النشوة المتسامية والمتعاظمة التي يعيشها صاحب الكشف منذ اللحظة – ١٨ اكتوبر – التى رفع فيها هلب مراكبه مبحراً نحو مصر العليا وبعد أن فقد أحد أعضـاء البعثة : فبعـد راضى « صائد الفراشات » (الذى سيلحق بهم فى مصر العليا) ومساعده جلاستري – جاء دور أنطوان بيبان الذى راح يفقد إتزانه مع مرور الوقت .

---

* راجع المقدمة ص ٣٢ .

** نقرأ فى رسالة لفيجاك مؤرخة من الأهرام فى ٨ أكتوبر « لا يوجد سوى القليل نؤدية هنا »

و- كما قال « الجنرال » « لم يكن مفيداً فى أى شئ غير أنه نشر الفوضى بيننا [.....] وهرب من الحملة » .

إلى الجنوب .. إلى طيبة المجيدة إلى السعادة . الساعات الأولى لرحلة البحارة النهرية لم تسمو لمستوى أمالهم . المنيا ، سوعاده ، زوية الميتين . للوصول إلى الجنة كان يجب إنتظار الوصول إلى بنى حسن ، وتوقع جان - فرانسو ألا يمكث فيها سوى بضعة ساعات : وإذ به يبقى فى هذا الموقع الذى أهمله « **وصف مصر** » ما يقرب من أسبوعين . وبالفعل أكتشف فيه الرحالة اكتشافين جوهريين : أولهما الرسم التصويرى الشعبى وثانيهما المعمار الضورى (الأغريقى) الأول .

كانت الرسوم الحائطية (فريسك) التى تزين كهوف بنى حسن تعتبر مطموسة إلا أن جان - فرانسوا لاحظ أنه « إذا مررنا عليها بسفنجة مرطبة لإزالة طبقة التراب » التى تغطيها ظهرت على الفور « أغرب مجموعة من الرسومات التصويرية التى يمكن أن يتخيلها بشر ، جميعها متعلقة بالحياة المدنية والحرف وهو - هذا هو الجديد فى الأمر - بالحياة العسكرية .... أنه حصاد ضخم ! ولكنه أقل ضخامة فى رأيه من رسومات مقبرة أحد النبلاء إسمة نيوتيب التى على درجة من « الرقة والجمال تجعلها أجمل ما رأيت إلى الأن فى مصر » .

فى نفس الكهف حقق جان - فرانسوا كشفاً أذهله ! هو عبارة عن لوحة أمر بنسخها بدقة متناهية تصور أسرى طوال القامة « بيض البشرة وأنفهم معقوف . إنهم بلاشك من الإغريق وفى الغالب من الأيونيين ويعتبر ذلك الدليل القاطع الذى لا يقبل الشك » فى رأية على العلاقات المتقدمة للفن فى مصر واليونان على التوالى . إنها بالفعل قضية قديمة لم تحسم !!

إلا أن اكثر ما سيعلق بذاكرته من هذا البحث المطول فى بنى حسن لعله إكتشافه ممر ضخم منحوت فى الصخر ويتكون من « أعمدة تشبه لدرجة كبيرة جدا للوهلة الأولى الأعمدة الدورية الاغريقية فى صقلية وإيطاليا [....] وهى مزينة بخطوط طولية وقواعدها مستديرة ... » قفز من مكانه وهو يؤكد : أين يمكن إيجاد دليل أفضل من ذلك على أسبقية وأبوية المعمار المصرى « على الفن الإغريقى » ؟

« رأينا فيها جميعا النمط الحقيقى للنمط الدورى الإغريقى القديم وإنى أؤكد دون أخشى أن أؤكد رأىّ كما فعل جومار بالنسبة للنمط الكورينثى والأيونى على أثار من زمن الرومان . لأن هذين الكهفين وهى أجملها جميعاً يحملان تاريخهما وهما من

عصر أوزورتاش الملك الثانى من الأسرة الثالثة والعشرين (تانيت) وبالتالى فهى ترجع للقرن التاسع قبل الميلاد .... » .

إنه يتهلل – « الجنرال » – عندما يراجع ملفات الرسومات التى يقدمها له كل ليلة لوت ودوشان وأنجيليللى وشيروبينى : ليس فقط لأنها جميلة بل هى أجمل مما كان يحلم بها ولأنها أيضا دفاع مستفيض عن نظرياته ونحن نعرف كم هو يحب أن يكون على حق وأن يجد الفرصة لكى يهزأ من چومار ورواؤول روشات أكثر وأكثر !

خلاصة مؤقتة مرسلة إلى فيجاك : « أتجرأ فأقول أن بهذه الثروات وحدها تكون رحلتى إلى مصر قد أصبحت أكثر ثراءاً وأكثر إنتاجاً من جميع أوراق اللجنة * فيما عدا المعمار – والذى أعتنى بدراسته فى الأماكن التى لم يزرها أو يعرفها أحد . » .

فى ٢٨ نوفمبر بعد ثلاثة أسابيع من الإبحار جنوباً قام جان – فرانسوا بمراجعة ماتم . حتى قبل أن يشاهد أياً من روائع العمارة المصرية – والتى لن يجدها سوى إبتداءاً من أبيدوس فإن ماغنمه عن نواحى الحياة المصرية الخاصة والعامة والدينية والعسكرية تخطى كل ما كان يتمناه .

وفيما يتعلق بعلم الحيوان فقد جنى بالفعل ما يسعد صديقيه كوفييه وسانت هيلار ؛ إنه يدين لولائهما له بذلك على الأقل !!

إلا أنه مر أمام أنتيفرية وأشمونيين وفى حلقه غصةّ وقلبه مغموم لأنه لم يبق فيها أى من الآثار التى وصفها فورييه وجماعته قبل ذلك بثلاثين عاماً : لم يفلت شئ من ضراوة « ويزيجوت » مصر الذين دمروا كل شئ بتصريح من حكومتهم من أجل إنتاج شئ من الجير ... ومع ذلك فهل كان يشعر هو ذاته بالبرائه التامة بعدما أعترف بأنه إشترى رأساً لتمثال من تماثيل رمسيس الثانى بقرش صاغ واحد (ويحدد أن ذلك يساوى ٧ سو بالعملة الفرنسية) ؟ ومهما حاول أن يتبرأ من ذلك مدعيا أن ترجمانه وليس هو الذى قام بالصفقة التى اعتبر القيام بها شيئاً « مخلاً » فهو على الرغم من ذلك قد إحتفظ برمسيسه الذى دفع فيه سبع « سوهات » فقط .

وعندئذ تظهر داخل القصة شخصية لا بد وأنها كانت ستسعد فلوبار لوقابلها وهو الذى سيبحر على النيل بعد ذلك بعشرين عاما وسيجرى حينذاك بعض اللقاءات المثيرة. كان أسمه محمد بك وكان مأمور طهطا ، أحد مراكز مصر الوسطى .. الخطاب الذى أرسلته هذه الشخصية الهامة يدعو فيها جان – فرانسوا للترفيه عن نفسه فى منزله جديرة أن ننقلها هنا ولو جزئياً :

---

* لجنه مصر التى يرأسها چومار .

« هو الله

« يا أعز الأصدقاء ، يا أعز الخلان صديقنا العزيز . المبجل الجنرال النبيل المحترم حفظه الله .. بعد تقديم وافر التحية المصحوبة بتشوقنا الشديد [لرؤياكم] فإن المراد بهذا المكتوب هو ما يلى :

١ – أن اتعرف على شخصكم المجيد .

٢ – أن أفيد سعادتكم إنه فى تاريخه [تاريخ الخطاب] سنجلس سويا نلتقى ونزيد من تعارفنا ... »(2)

وكان الحفل على مستوى هذه المقدمة . ولما كان الرجل فيلسوفاً – حسبما قال « صغير » فإن هذا البك لم يرفض طوال السهرة شرب كأس من النبيذ أو النهل من البراندى . استمر الغناء والرقص حتى الصباح. رفع الجميع كؤوسهم تحية لملك فرنسا ولباشا مصر ثم غنى رفاق « الجنرال » الأغنية الشعبية « ملبروغ ذهب للحرب » Malbrough s' en va-t-en guerre ونشيد المارسيليز وقد طرب المأمور كثيراً لهاتين الأغنيتين لدرجة أنه أمر الموسيقيين بحفظ اللحنين . وتمتع الجميع بالتهام « أوزى صغير محشى » .. يامصر ياعزيزة !!

ومع ذلك فهو وإن كان يشعر أنه فى أتم صحة بدنية فإن « صغير » لم يستطع أن يخفى شيئاً من الحزن : فى ٢٤ نوفمبر أى بعد أربعة شهور من مغادرته طولون يقول لجاك – جوزيف أنه لم يستلم بعد خطابا واحدا من ذويه أو من أى أحد آخر . وهو لذلك يسجل أنه « لمصر بالكامل – وهى كل شيئ بالنسبة لى وأطلب منها أن تواسينى مادمت لا استلم شيئاً من أوروبا » . أى لا من باريس ولا من ليفورن . إنه لا يتهم أحداً ويقول لنفسه أنه متأكد من أن الجميع يفكر فيه ويكتب له كثيرا .

ولكن الواقع هو أن لاشئ يصل إليه * . ولو أنه إطمأن على صحة ذويه ، لأصبح أسعد الرجال . لأنه « فى نهاية الأمر موجود وسط مصر العتيقة وأن أسمى روائعها على بعد خطوات من مركبى .. »

أسمى ؟! هى روائعها على كل حال . فقبل ذلك ببضعة أيام أى فى ١٦ نوفمبر توقفوا عند معبد دندره الذى أثارت أسطورته خياله لفترة طويلة . الوصف الجميل

---

* سيكتشف جان فرانسوا بعدذلك ببضعة أيام أن دروفيتى إحتفظ برسائله . وكان يدخل فى إختصاصه بصفته ممثلاً لفرنسا أن يستلم ويراجع مراسلات مواطنيه . إلا أن الدبلوماسى جامع التحف تمادى فى التدقيق فى عمله : إذ على الجانب الآخر كان التوسكانيون يستلمون رسائلهم بإنتظام .

الذى كتبه فيفان دونون فى كتابه « رحلة إلى مصر » عام ١٨٠٢ والتعليقات الشفهية التى سردها العديد من الرجال أمام أصغر الشقيقين شامبوليون بعد ذلك بعدة سنوات وكذلك الجدل الكثير الذى ثار حول موضوع الزودياك – خريطة الابراج السماوية – وسرقته من المعبد – وكان قد ندد به بشدة ، كل ذلك مجتمعاً جعل من هذا التوقف أحدى اكثر المراحل إثارة فى الرحلة ... خاصة وأن الرحالة وصلوها ليلاً ، ومهما كان القمر ساطعاً ومكتملاً فإن اكتشاف المعبد كان صعباً . ولكن فجأة :

« ظهرت لنا المعابد [.....] لن أحاول وصف الأثر الذى تركته فى نفوسنا واجهة المعبد الكبير . من الممكن قياس هذا الشعور ولكن إعطاء فكرة عنه هو المستحيل ذاته ... إنها الرقة والعظمة مجتمعتين فى أعلى درجاتهما . بقينا داخل المعبد ساعتين فى حالة تجلى نرقص داخل قاعاته وفى يدنا سراجنا الضعيف محاولين قراءة المخطوطات الخارجيه على ضوء القمر . فى صباح اليوم التالى [...] اكتشفت أن ما أمام عينى هو قمة فى روعة العمارة مغطى بنحت تفصيلى من أردأ الأنماط .. أرجو ألا أغضب لجنة مصر فإن النحت البارز فى دندره كريه لأنه من فترة الأنحطاط .

كان النحت قد بدأ يتحلل [فى هذه الفترة] فى حين كانت العمارة أقل تأثراً بالتغييرات لأنها مصرية فبقت جديرة بإله مصر وبإعجاب القرون جميعاً ... » .

شامبوليون الرحالة يتساوى فى القيمة مع شامبوليون الذى فى يده عدسة مكبرة بمعنى أنه مهما كانت عظمته كعالم لغويات فإن المؤرخ وعالم الجمال فيه ليس بأقل عظمة . أن النظرة الواقعية والتمكن من المبادئ التى تقوم عليها مختلف فروع المعرفة والعلاقة التى يقيمها باستمرار بين التطورات التاريخية والإبداع الفنى وتجمع هذا الكم من المواهب يضمن لهذا المسافر الملهم السيادة والسيطرة . بهذا التفكير عاشت مجموعة مغامرى عام ١٨٢٨ حوله . روايات روسيلليني وأيضا لونورمان وكذلك لون وشيروبيني جميعها تؤكد ذلك .. ها هو مستعد لملاقاة طيبة ...

كتب يقول إن « طيبة – وهذا الاسم كان أصلاً كبيرا جدا فى فكرى – أصبح هائلاً منذ أن درست أطلال العاصمة القديمة ، الأخت الكبرى لجميع مدن العالم .. » وكذلك سجل أيبوليتو روسيلليي فى يوميات رحلته أن يوم وصوله إلى طيبة « كان الأكثر خلودا وتعلقاً بذاكرتنا طوال حياتنا كلها » . وكتب إلى زملائه فى جامعة بيزا أن هذه الأيام القليلة لا تكفى لاكتشاف « كل الروائع التى تشكلها بقايا العاصمة الخالدة

جداً لضفاف النيل » . وفى طيبة سيحتفل شامبوليون بزواجه الأبدى مع محبوبته : مصر . دون أن يحيد للحظة واحدة عن وضوح الرؤية وصفاء الذهن الكاملين .

« ظللت أركض من رائعة إلى أخرى طوال أربعة أيام كاملة » .. إختار أن يبدأ زيارته بالضفة الشرقية للنيل . زار فى اليوم الأول تمثالى ممنون « ومقبرة أوزيماندياس المزعومة » ولم يصعب عليه أن يكتشف أنه الرامسيوم (وكان المصريون يسمونه حينذاك الرهامسيون) نسبة إلى التمثال العملاق الرائع الممدد على الأرض لرمسيس الثانى . وفى اليوم التالى كان فى مدينة حابو وفى اليوم الذى يليه – أى كان يسير على وتيرة السياح – فى وادى الملوك وحيث وقف مبهوراً أمام قصر « منحوت بازميل فى الجبل » . هنا أرتكب أحد أطرف أخطائه قاطبة . فبعد أن خرج من المعبد المشهور المسمى اليوم الدير البحرى ، كتب يقول :

> « .... سجلت فى عجالة حقائق ذات أهمية قصوى بالنسبة للتاريخ ! اذ رأيت مقبرة أحد الملوك وقد طرقت نقوشها من أولها إلى أخرها ، فيما عدا الاجزاء التى نحتت فيها صور الملكة والدته وزوجته فقد حوفظ عليها بكل احترام وكذلك الاساطير الخاصة بهما . لا شك أنها مقبرة أحد الملوك الذى أدين بعد وفاته » .

« اليوم وبعد قرن ونصف فإن أى زائر من حاملى آلات التصوير يعرف أنه ليس « ملكاً مدانا » وإنما ملكة فرعون : الشهيرة حتشبسوت وأن المخرب الذى طرق وجه الملكة التى غزت بلاد بونت سلمياً هو تحتمس الثالث العظيم ... لا يكفى أن يكون المرء عبقرياً ليمتلك الحقيقة ولكن يجب أن يأتى فى موعده .

فلنتذكر هذا التاريخ ٢٣ نوفمبر ١٨٢٨ ففيه عبر جان – فرانسوا شامبوليون النيل إلى الضفة الشرقية ليزور الجزء الشرقى من طيبه . فى معبد الأقصر توقف طويلا أمام المسلتين المنحوتتين فى قطعة واحدة من الجرانيت الوردى « باتقان رائع » . هل جالت ساعتها بخاطره فكرة أن يرسل أحداهما إلى باريس ؟ لم يسجل ذلك على الفور فى مذكراته .. ولكن عندما وصل إلى الكرنك جائه الإلهام الحاسم أكثر حدة من الهام ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ وايضاً من ذلك الذى تملكه قبل ذلك بثلاث سنوات لدى دخوله إلى متحف تورينو :

> « .... ذهبت أخيراً إلى قصر ، بل قل ، إلى مدينة الآثار ، إلى الكرنك . وهناك ظهرت لى العظمة الفرعونية فى أتم صورها أى أعظم ماتصوره ونفذه البشر على الإطلاق . كل ما رأيته فى طيبه وكل ما أعجبت به بحماس على الضفة الشرقية بدا

لى بانس وهزيل . أمام الأفكار العظيمة الأبعاد التى تصورت وأبدعت ما كان يحيط بى هنا . سأمتنع تماماً عن وصف أى شئ وذلك لأحد السببين الآتيين : إما أن تعبيراتى لن تعكس سوى جزء من الألف مما يجب أن يقال فى الحديث عن تلك الاشياء وإما سيقال عنى – أنا حاولت أن أرسم ولو خطوطاً عامة لها – أنى مهووس بل – فلنقلها بوضوح – إنى مجنون .

لسنا فى أوروبا سوى أقزام ولا يوجد شعب قديم أو حديث تخيل العمارة بالقياس إلى هذه العظمة ولاهذا الاتساع ولا هذا التسامى مثلما فعل المصريون القدماء . لقد تصوروا البشر فى أحجام تصل إلى مائة قدم فى الإرتفاع أما مالدينا نحن فلا يتعدى خمس أقدام وثمان بوصات . أن الخيال فى أوروبا الذى ينطلق إلى أعلى بكثير من بواباتنا يتوقف فجاة ليسقط عاجزاً عن المائة والأربعين عموداً داخل القاعة الكبرى . فى الكرنك (الهيبوستيل) » .

لم يكن ليرضى مؤسس علم المصريات – مهما وصل به الالهام ومهما أصبح هو ملهماً – أن يكتفى بهذه الاشعار الغنائية إذ سرعان ما يتحكم العالم فى شاعر التاريخ ، فيكمل بسرعة هذه المذكرات بملحوظات خاصة بالتسلسل التاريخى ، فتأسيساً على « الوجوه » العديدة للفراعنة التى يراهم هنا أعلن أن تواريخ الأسر الثامنة عشر والتاسعة عشر والعشرين وبما فى ذلك « لوحة أبيدوس » يجب أن تراجع من جديد » وإذ به يصبح كالمجنون . فسحر الجمال امتزج بحماس الاكتشافات وكتب يقول لجاك جوزيف بقلم يحركه الحماس « أرسل لك ما يكفى فقط لكى لا تموت من الجوع . ! سأضطر إلى أن أمضى وقتى كله فى الكتابة لو إضطررت أن أنقل لك بالتفصيل جميع إكتشافاتى ... » .

إنه يتهلل ويبحث ويجّد ، إنه فى كامل السعادة . وتصبح لذلك رسالته كرسائل العاشق السعيد . المناخ يناسبه . أهل النيل سحروه – حتى لوكانوا أتراكا يعوقون تحركاته . وأخذ يصفى أحواله داخل « قصره فى القرنه » (قصر الطيبة اليابس) حيث يتردد عليه العديد من الأغاوات والمأمير والزوار وطالبى الخدمات ومقدمى الذبائح متبادلاً معهم الهدايا والأحاديث باللغة العربية الدارجة التى زاد تمكناً من ناصيتها بمرور الأيام ، كما كانت تغزوه الخرفان والدجاج التى يحضرونها إلى « القيادة العامة الفرنسية التوسكانية » . كان مثل روسيه قبل ذلك بثلاثين عاماً فى هذا المكان «السلطان العادل» إلا أن عدله هو كان منزوع السلاح ووجد ليبقى .

كيف يمكن انتزاع نفسه من طيبة التى لم يتمكن سوى من أن « يلمسها » كما كان مقرراً فى مخطط الرحلة ؟ يتحتم عليه ذلك ! ولكن بشئ من الصبر ! وبعد العودة إلى هذه الأرض الكلاسيكية ليدرسها « خطوه خطوة » سيتمكن من الكتابة بمعرفة وثيقة بالأشياء » ومن تقديم « نتائج كاملة النضج » أما الآن فهيا بنا إذن نتجه إلى الشلالات .

أثار معبد هيرمونتيش حيرته بسبب عدم التأكد من تاريخ بنائه : وصفه أنه شئ يشبه المهد الأسطورى أقامته كليوباترا الأخيرة والأكثر شهرة من أجل إبنها قيصرون أبن يوليوس قيصر . لم يكن قد اخترع بعد كلمة ماميزى التى فرضها هو فيما بعد ليدل على المكان الذى تقيم فيه الملكات – الألهات قبل وبعد فترة الولادة والتى يمكن التعرف بسهولة عنه داخل * المعبد ولكنه هو أمام عالم الرسوم المنحوته البارزة من العصور المتأخرة ، فهى لم تبهره مثلما حدث فى طيبه . وسيتكرر ذلك أيضا فى مويس ** واسنا وادفو .. لا يوجد أحد طبع بفكرة « العصر المتدنى » مثل شامبوليون .

ولكن فيله ؟ ماذا عنه ؟ كان النقرس يعذبه لدى زيارته له . وحمله إلى المعبد أربعة رجال ولم يقل لنا عنه شيئا هذه المرة سوى أن « كل شئ فيه حديث » وأن النحت الذى فيه « بربرى » وذلك على الرغم من أن أول مراسلات وصلته من أوروبا إستلمها داخله: رسالتان من أخيه وواحدة من زوجته إلا أن الحدث لم يثر لديه سوى تعليق حزين : « وإن الأخرين موجودون حيث يريد الله . ولكنه شئ والسلام ! ... وسأكتفى به » كيف يمكنه أن يشير بأقل حذر من ذلك إلى جاك – جوزيف – ومن خلاله إلى روزين أن ما كان ينتظره اكثر كان ما يجب أن يصله من ليفورن *** ؟

رحلة الذهاب ، أى صعود النيل لم تنته دون أحداث . وهو حدث كثر التعليق عليه وقدمه البعض على أنه كان بمثابة طلاق بين التوسكانيين والفرنسيين – وهذا غير

* قدس الأقداس فى المعابد الاغريقية الرومانية يوضع داخله تمثال صاحب المعبد (المترجم) .

** تسمى كوم أمبو الآن .

*** إننا نعرف (لأنه كتب لها ذلك بعد عودته) أنه أرسل عدة خطابات لا نجيليكا من مصر : إلا أننا لم نرها .

صحيح . بعد ذلك اليوم – ٣١ ديسمبر ١٨٢٨ كما كان الحال قبله أعطى روسيلليني وشامبوليون مثلاً نادراً عن التضامن الحق وعن التعاون الصادق بين الاشقاء وتشهد على ذلك مراسلاتهما وكذلك كلمة المديح المؤثرة التى ألقاها (إبن بيزه بعد وفاة ملهمه ومعلمه) . ولكن هذا لا يمنع أن ما حدث عبر الساعات الآخيرة من عام ١٨٢٨ كاد يثير ازمة بين اللجنتين .

إذا كانت « لوحة أوزورتاسن * » قد سميت « لوحة النزاع » [3] والتى انتزعت من هيكل إيزيس فى بوهين بالقرب من وادى حلفا فذلك لأنها أعطيت للفرنسيين فى بادئ الأمر باتفاق الجانبين ولكنها استردت بعد ذلك لحساب التوسكانيين على يد الدكتور الساندرو ريتشي دون علم شامبوليون (ولا روسيلليني ..) « هل كانت حركة خداع فلوراتينيه » ؟ الطريقة الى تمت بها العملية فى الخفاء ودون علم الآخرين صدمت زملاء جان – فرانسوا الفرنسيين أما هو فلم يكترث لذلك كثيراً .

كان للدكتور ريتشي بعض الحق فى تحديد من يأخذ اللوحة لأنه هو الذى كان قد اكتشفها خلال رحلة سابقة له فى مصر . بل أنه قام بنسخها .

ومن جهة أخرى حدث أثناء تقسيم « الغنائم » ذاته بين توسكانيين وفرنسيين أن طلب شامبوليون وحصل علي لوحة لرمسيس الأول إنتزعت من نفس الهيكل . وبالرجوع إلى القواعد الموضوعة والتى احترمت حتى ذلك الوقت من المجموعتين فإن أعطاء إحدى القطعتين الهامتين للإيطاليين لم يكن فيه ما يصدم أحداً .

وانتهى الحدث بسرعة . ولم يأخذ الأمر حجم « النزاع » سوى بعد وفاة جان – فرانسوا عندما بدا كما لوأن أخاه الأكبر يتفنن فى تسميم العلاقات الفرنسية التوكسانية سواء فيما يتعلق بما نشر أو بتحديد ملكية الثروات التى جمعت من مصر .

للإبحار بين الشلالين بين سيان ** ووادى حلفا كان عليهم تغيير المراكب لأن الأولى كانت أكثر اتساعاً مما لايسمح به ضيق مسار المركب فى النهر وتعرجه . الاسطول الجديد تكون من دهبية أصغر حجما ولكنها مسلحة بمدفع (!) حقيقى وبين ست مراكب صغيرة أخرة تحمل الحراس الذين عينهم الباشا لحماية الرحالة : لأن سلامتهم فى النوبة لم تكن مضمونه تماماً ...

---

* تم التعرف بعد ذلك على أنها لسيزوستريس .

** أسوان .

ديبود ، كلابشة ، دكه ، السبوع ، عمارة * .... قدموا تحياتهم لهذه الاطلال الدالة على الاستعمار الفرعوني لبلد وصل حد الفقر فيه إلى أن كاشف الدر - عاصمة النوبة - أخبر جان - فرانسوا أنه لا يجد شيئا يقدمه له على العشاء وهو لذلك يدعو نفسه عنده ! لما كنا على علم بمقدار الكرم والأبهة التى يتسم بها حسن الضيافة فى هذه البلاد يمكننا قياس « فخامة وإمكانات » هذه المنطقة كما فعل الرحالة فى تعليق اتسم بالمراره أرسله لأخيه .

تأثره للفقر المدقع الذى يعانيه هذا الشعب جعله يحتفل بعيد ميلاده الثامن والثلاثين فى شئ من الحزن لولا أنه « عوض ذلك » بأن زار فى ٢٣ ديسمبر ١٨٢٨ معبد در المنحوت فى الصخر حيث تمكن من التعرف على أسماء وألقاب سبع أبناء وثمانى بنات لرمسيس الثانى الذى أنشأ هذا المعبد .

فى صباح ٢٦ ديسمبر ظهر لهم فجأة على سطح الماء المعبد - الجبل - المزدوج فى أبو سمبل ** : معبد نفرتارى *** المخصص لحاتحور ومعبد زوجها رمسيس العظيم الذى لم يجد من يكرسه له أفضل منه ذاته هو ! مثلما حدث لأسلافه بوركاردت ودروفيتى وبلزونى وكيو وجو وكذلك للعديدين الذين جاءوا بعده ، أخذ جان - فرانسوا شامبوليون العجب بل ذهل وتأثر بشدة أمام هذه الروائع بالغة الفخامة التى « تساوى وحدها الرحلة إلى النوبة » ولو كانت « فى طيبه ذاتها » لأثارت الإعجاب أيضا وهى ناتج مجهود « يرعب الخيال » . إنه إفتتان أوصلته إلى ذروته التماثيل الأربعة العملاقة التى يبلغ أرتفاعها ستون قدماً والتى حققت للمعبد مجداً عالمياً وهى « صورة» حية لرمسيس . « إنه عمل يستحق كل الإعجاب » .

اتضح أن زيارة المعبد العظيم المنحوت فى الجبل عملية وعرة ، لأن « الرمال والنوبيين الذين كانوا يدفعونها (نحوه) » سدت المدخل لكى يأخذوا أجراً مقابل نزحها . كان عليه أن يدلف للداخل وهو ممدد على بطنه من الفتحة الصغيرة التى حفرت فى الرمال مقابل فدية .. ثم بدأت التجربة القاسية التى وصفها لأخيه بهذه الكلمات :

« .. ظننت أنى تقدمت نحو فوهة أحد الأفران [...] فى جو بلغت درجة حرارته ٥٢ْ مئوية : زرنا هذه الحفرة الأثرية المدهشة روسيلينى وريتشى وأنا وواحد من أعرابينا وكل منا يحمل شمعة فى يده .. » .

---

* أسماء تكاد تكون عادية الآن بعد حملة اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة تحت إدارة كرسيتيان ديروش - نوبلوكور .

** كان يسمى ابسامبول فى ذلك الوقت .

*** كان شامبوليون يسميها نفرى - آرى .

وبعد أن وصف التماثيل الرمسيسية الضخمة الثمانية والرسومات المحفورة الرائعة التى تصف المعارك ، والقاعات الستة عشرة والتماثيل الأربعة فى قدس الأقداس خرجوا من الأتون بعد ساعتين ونصف ولكن فى أى حالة ؟

« ... أرتديت صديريين من القطن وبرنس من الصوف ومعطفى الضخم الذى وضعوه على كتفى لحظة عودتى إلى الضوء : وهناك جلست إلى جوار أحد التماثيل العملاقة الخارجة .. والذى حجبت عنى بطن ساقه الهائلة الضخامة ريح الشمال ، استرحت لمدة نصف ساعة حتى تمضى مرحلة العرق الشديد ، عدت بعد ذلك إلى مركبى حيث ظللت أعرق لساعة أو ساعتين . أثبتت هذه الزيارة التجريبية أنه بالإمكان البقاء لساعتين ونصف أو ثلاث ساعات داخل المعبد دون أى ضيق فى التنفس ولكن مع وهن بسيطة فى السيقان والمفاصل ، واستخلصت من ذلك أن لدى عودتنا سنتمكن من نسخ الرسومات التاريخية المحفورة على أن يقوم بالعمل فريق من أربع أفراد (حتى لا نستهلك الهواء) لمدة ساعتين صباحاً ومثلهما مساء ، أنها ستكون حملة مرهقة » .

فى نفس هذا المكان بعد عشرين عاماً كتب جوستاف فلوبار فى مذكراته :

« منظر الشمس إذا نظرت إليها من باب مدخل المعبد الكبير يعطيك إحساساً بأنك تنظر إليها من خلال شباك صيفى فى بدروم .. تطلق الخفافيش صرخة قصيرة حادة ، تذكرت المزارع النورمانديه فى الصيف عندما يكون الجميع فى الحقول عندما تقترب الساعة من الثالثة بعد الظهر .. » .

ثم بعد بضعة أيام بالقرب من وادى – حلفا سمعه مكسيم دوكشان يصرخ قائلاً « وجدتها !! سأسميها إما بوفارى ! » ..

فى الأول من يناير ١٨٢٩ وبعد أن ودع « الجنرال » شارل لونورمان الذى كان قد أعرب له عن نيته بأنه سيكتفى برحلة الذهاب فقط ثم يعود إلى فرنسا – زرع علمه عند نقطة النهاية المحددة للرحلة عند الشلال الثانى وهو عبارة عن « حاجز من حجر الجرانيت نجح النيل فى هزيمته وتخطيه ؛ ولكننى لن أذهب إلى أبعد منه » .

وهو يعكس إتجاه الرحلة لكى ينهى مرحلة المشاهد السريعة التأثيريه ويبدأ مرحلة الدراسة العلمية ، أرسل بالبيان الأول بالنصر إلى فيجاك . وهو إذ يؤكد له أن « عمله الحقيقى يبدأ اليوم » مع العلم بأنه نفذ بالفعل « أكثر من ستمائه رسم » . يقول

أنــه « يكاد يكون فى حـالة رعب إزاء » الذى بقى عليه أن يؤديه . ولكنه يعـتـقـد إنه سينهى مهمته فى غضون ثمانية شهور ، « شـهر للنوبه ، وستة أو سبعة شـهور لطيبه حتى منتصف أغسطس » يليها نزول سريع على النيل مع التوقف فى دندره وأبيدوس لأن « الباقى موجود بالفعل داخل الحوافظ » .

وعلى هذا الأساس فإنه يقدر موعد الإبحار إلى أوروبا فى أول أكتوبر .

فى ليلة ٣١ ديسمبر إلى الأول من يناير ١٨٢٩ وهو فى وادى حلفا وصف لجاك - جوزيف لقائه الأول مع عمالقة الجبل ، وأضاف (فى ملحوظة) أنه سيكتب لزوجته من أبو سامبول بعد أسبوع ... أما أول أيام العام فقد كرسه للكتابة أولاً إلى شخصين : صديقه تيفونيه وعزيزه مسيو داسييه .

كتب يقول للأول :

« ..أرجو لك عاما سعيداً [...] وكذلك لجميع أصدقائنا الطيبين الذين ستقبلهم بالنيابه عنى .. على الرغم من المسافات فإنى لا أنسى من أحبهم « فمهما أكون فى أعماق النوبة وملتحياً مثل أحد الرهبان الكابوسيين وأرتدى زى عرب الصحراء ولا أعرف ما هى القبعة أو السروال ، مهما كنت آكل الارز بأصابعى وأدخن النرجيلة ثلاث مرات يوميا وأشرب ماء النيل بكميات كبيرة فإن كل ذلك لم يتعد بشرتى ولا زلت فى أعمـاقى دوفينى « معفرت » .

ها أنا قد وصلت إلى أخر مدى رحلتى إذ أن الشلال الثانى أوقف أسطولى [..] كان بودى أن أذهب إلى أبعد من ذلك لولا أن للضرورة أحكام ولولا أن قافلتى التى تضم ثمانية وعشرين فما (دون أن أضع فى الحساب فم المدفع) تواجه الموت جوعاً فى أعماق هذه النوبة التعيسة فإنى منذ البداية قد حددت هنا (حداً لرحلتى) . وها أنا أهبط مع النيل حاصداً كل ما سأجده من الهيروغليفيات فى طريقى .. » .

ولكن الرسالة الجوهرية التى صدرت منه فى ذلك اليوم كان متلقيها هو جان بون - جوزيف داسييه : من المؤكد أن من جميع الرسائل الموجهة إلى مسيو داسييه فإن رسالة سبتمبر ١٨٢٢ هى التى تسترعى إنتباه الأجيال التالية ، إلا أننا نكاد نولى إهتماماً مماثلاً للتى كتبها على ظهر دهبية « الجنرال » الراسية بجانب الشط الرملى فى وادى حلفا فى الصباح الباكر الأول لعام ١٨٢٩ . إن ما كتبه عام ١٨٢٢ كان المقدمة أما نص ١٨٢٩ فهو خلاصة النهاية . فلنحكم بأنفسنا :

« وادى حلفا فى ١ يناير ١٨٢٩»

« ..أشعر بالفخر الآن ، بعد أن سرت مع مجرى النيل من مصبه حتى الشلال الثانى ، لأنه يحق لى أن أعلن لكم أنه لا يوجد ما يستوجب أى تعديل فى خطابنا عن الأبجدية الهيروغليفيه . إن أبجديتنا سليمة : وهى تطبق بنجاح تام أولاً على الآثار المصرية فى عهد الرومان واللاجيد (البطالسة) وأيضاً - وهو ما يثير إهتماماً أكثر من ذلك بكثير - على ما خط على جميع المعابد وسرايات ومقابر الأزمنة الفرعونية . كل شئ يضفى الشرعية إذن على التشجيع الذى تفضلتم به علىّ فى أعمالى الهيروغليفية فى وقت لم يكن فيه أحد على الأطلاق مستعداً لمنحها أية فرصة » .

ها أنا ذا عند أقصى نقطه من رحلتى نحو الجنوب [..] سأدير إذن مقدمة سفينتى فى إتجاه مصر لاهبط النيل وأنا أدرس بتعمق الآثار التى على الضفتين [..] حسبما رأيت وبالقياس الفكرة العامة التى كونتها فى رحلة الصعود فإن الحصاد سيكون من أكثر ما يكون ثراءاً ووفرة » .

سأكون فى طيبة فى منتصف فبراير تقريباً لأنى مضطر إلى تكريس خمسة عشر يوما لمعبد أبسمبول العظيم فهو إحدى روائع النوبة [..] أما معابد أرمبوس (كوم أمبو) وإدفو وإسنه التى أشادت بها كثيراً « لجنة مصر » على حساب معابد طيبة - التى لم يشعر بها هؤلاء السادة ، فهى ستستوقفنى بعض الوقت فقط [..] لا يمكننى أن أنهل سوى من المنابع الأصيلة [..] ملفاتى عدت ثرية جداً : أنى أشعر مقدماً بالسعادة لأنى سأضع أمام أعينكم مصر القديمة كلها على التوالى : الديانة والتاريخ والفنون والصناعات والعادات والتقاليد [..] رسوماتى [..] لا تشبه فى شئ رسومات صديقنا جومار لأنها تنقل الأسلوب الحقيقى للأصول بأمانة متناهية ، وسيتمكن روشات من أن يرى بنفسه أن كل المصريين لم يفعلوا - كما يحسن الإدعاء - سوى إله واحد وملك واحد ورجل واحد وهو لم يكن رجلاً ولا ملكاً ولا إلهاً .. إن طيبة كلها - وهو أقل مايقال - هى احتجاج هائل على هذه الجملة .. » .

هل يوجد نص أخر يكشف أكثر وبأفضل من هذا عن بطلنا ؟ كل شامبوليون موجود هنا : إعتزازه بنفسه فى حساسيته ، وكرمه فى بساطته ، وإنفتاح فكره للتضامن ، وحبه للنضال دون كلل ضد كل من يرفض من أقرانه فكرة تفوق المكتشف وأسبقية الحضارة المصرية على الحضارات الأخرى .

نجد فى هذا النص العظيم – نود أن نقول هذا النص المهيب والذى لا يخلو فى ذات الوقت من الفخامة – بأعجاب ممزوج بابتسامة ساخرة بسبب طريقته هذه فى إشراك من يحبهم فى عمله (« خطابنا » و« أبجديتنا ») مدفوع بكرمه بمزاجه الشخصى المسيطر ولكن أيضا تمسكه المتعالى بحقوقه المكتسبة وكرامته (« أشعر بالفخر » و« يحق لى أن .. »

شامبوليون – نعم – الرجل ذو الاسد بل الرجل ذو الأسدين ، المسيطر ، الشمسى ، « جنرال النيل » هذا الذى أسماه مأمور طهطا « كنز الأصدقاء – حفظه الله » ، جان – فرانسوا الملهم ، الذى وصل إلى « عواميد هرقل » من حقه أن يتأمل هذه القرون التى ينقذها وهذه العوالم التى يقرأها – بالفعل – مثل كتاب مفتوح .

١٧ - مصر كتاب مفتوح

زجاجة طافيا - « الجنرال » داخل الأتون - من أبوسمبل إلى فيله - « الأقصر التى نيست ! » - مليماً واحداً للتنقيب - « حفلة أكل » فى مقبرة - السماء والجحيم اللوح التصويرية الهوميرية فى الرامسيوم - « صوت الاجداد . » - مصر تدعو الشفقة ... محمد على وإبراهيم - سلف ماربيت - فوق سطح الأسترولاب .

« ... رحلنا جميعاً الساعة التاسعة صباحاً بعد أن أنزلنا أشرعتنا من صواريها لأنه لم يكن علينا سوى السير مع التيار . فمنذ هذه اللحظة ! أستدرنا فى اتجاه الشمال وشعرت بسرور بالغ للسير فى هذا الاتجاه الذى كان يقرب فى كل لحظة المسافة التى تفصلنى عن طيبه وعن باريس أيضا .. » .

غنى المجدفون لحن الرحيل ووجه « الجنرال » منظاره شطر الأحجار الظاهرة على سطح الماء فى الشلال الثانى . بدأ ايجليلى يخط الخطوط العريضة لأحد رسوماته . أنهمك نستور لوت فى كتابة مذكراته ، راجع شيروبينى الحسابات ورتب البروفسور راضى فى المركب الثالثة نباتاته وأحجاره النادرة التى ألقى بها نوبى متحمس فى النيل بعد بضعة أيام لأنها فى تقديره كانت ثقيلة للغاية ! هكذا بدأت رحلة العودة فى الأول من يناير ١٨٢٩ وهم على ثقة من أنهم سيغنمون الذهب الذى لمحوا فعلاً بريقه : لم يبق عليهم سوى الحصاد من خلال الرحلة العلمية الحقيقية للرحلة .

لم يكن جان فرانسوا شامبوليون فى حالة من النشوة تجعله ينسى الجانب الاحتفالى لهذا اليوم : فالأول من يناير يحتفى به تحت أى سماء . مع هبوط الظلام رست المراكب بالقرب من ساقية . « الناعورة » التى يجرها زوج من الجاموس التى ترمز صورة دورانهما - فى لونهما الأسود - إلى المشهد الريفى المصرى . وبدأ الحفل :

« كان الطعام لذيذاً بالنسبة لعشاء نوبى : وتفوق طاهينا على نفسه وأضفت زجاجاتان من نبيذ سان - جورج علماً بأن الحرارة الاستوائية قد اثرت سلبياً عليها

بالفعل – على الوليمة جواً من الأحتفال يتناسب تماماً مع مناسبة أول أيام السنة . بعد العشاء تم توزيع البقشيش على الخدم . ثم تناول جميع أعضاء البعثة القهوة على ظهر الذهبية – الادميرالية . ثم شربنا زجاجة راتافيا من جرونوبل بالكامل فى نخب نجاح الحملة »..

« لـم يكن علينا سوى السير مع التيار » كان « جنرالنا » متفائلاً بعض الشئ الآن . الهواء البحرى الذى كان يهب ، على مراحل ، كثيراً ما كذب هذا التوقع . ولم يكن المجدفون وحدهم الذى اشتكوا من هذا الوضع ، ففى اليوم التالى إنطلق الريح الشمالى (كذا) فى غضب وعلت أمواج النيل كما يحدث فى خليج الأسد عند هبوب ريح الم~رال حتى أن جان – فرانسوا الذى كان يفتخر بأن معدته « بحرية » جداً عندما غادر ، ولون – راح يتألم من دوار البحر .. كانت ليلة صعبة للغاية . وإنتظر الرحالة ظهور صباح يوم ٣ يناير لكى تنكشف أمام أعينهم الصورة الرائعة للنيل الغاضب وهو يهاجم الشلال الرملى لأبو سنبل .

رسا الأسطول الصغير عند أقدام التماثيل الجبارة – التى سارت مألوفة لديهم ... – لمعبد نفرتارى التى بدت كما لوأنها تتقدم فى اتجاه النيل لكى تستحم فيه على بعد عشرات الأمتار من « الصور » الضخمة لوجه رمسيس الجالس فى مواجهة الشـمس . يا إلهى ! كم هو جميل هذا المشهد : سيكتب جان – فرانسوا لأخيه بعد عدة أيام :

« إنى لآسف على أنى لا أملك بضعة صناديق الدنيا المسحورة لكى أنقلهم وسط ميدان لويس الخامس عشر * لكى أسحق بضربة واحدة كل من ينتقد الفـن المصـرى . كل شئ ضخم هنا دون أن نستثنى الأعمال التى بدأناها» .

للاسف ! كانت ركبة جان – فرانسوا اليمنى تعذبه من جديد وكـان قـد نسـى « معدات النقرس » فى طيبة .. وقد حرمه ذلك من قيادة عملية « الغوص » الأولى داخل المعبد الكبير مـن حـيث أحـضـر « شـباب » الحمـلة دوشان وبيرتان ولوت بمساعدة « بربرى » من فيلة على درجة مدهشة من الذكاء اسمه عبد الوهاب – وكان قدسبقهم روسيللينى وريتشى وانجيليللى – بعد بضـعة ساعات – نسـخا مرسومة جديرة بالنحتيات الحائطية الرائعة للقاعة الكبيرة ذات التماثيل الثمانية الضخمة . وكان عليه أن ينتظر ثلاثة أيام طوال أن يهدأ النقرس قبل أن يحاول بدوره المغامرة بالنزول فى غلاية العجائب :

---

* حيث توجد المسلة اليوم .

« سرت مسنوداً من محمد ومن القواس أحمد - في الطريق الوعر الذي يفصلني من دهبيتي حتى مدخل المعبد الكبير . استرحت لبضعة دقائق ، حتى يتوقف تصبب العرق ، عند أقدام التمثال الضخم الذي على اليسار : وبعد ذلك خلعت ملابسي كلها تقريبا عدا كالسوني وقميصي وجواربي الصوف ونزلت إلى الأتون الذي تفاجؤك دائماً حرارته القوية للغاية في اللحظات الأولى ، ولكن بعد أن يبدأ العرق يتصبب وينساب من جميع الأعضاء تشعر براحة أكبر وحينذاك بدأت استكشافاتي . بعد أن راجعت وصححت - مستخدما مقياس مدرج في كثير من الأحيان - الكتابات المنحوته التي على اليمين والتي نسخها روسيلليني . ثم بدأت رفع المخطوطات التي على اليسار مبتدئاً بالمخطوط الضخم الذي يعلن فيه لرمسيس أن الأعداء يهاجمون خطوطه وأن عربة المعركة قد أعدت .

[..] بعد أن خرجت من المعبد في الرابعة والربع ، حرصت أن أفرط في زيادة الغطاء بمعنى أني حملت جسدي بقميص وصديريين من الصوف الناعم (الفلانيل) وروبدانجوت مزدوج الازره وبرنس ومعطف واسع من القطن بالإضافة إلى حزام عربي فوق الروبدانجوت وبنطولنات جيدة من القطن تحت كل ذلك . وهكذا قطعت المسافة من المعبد حتى المركب دون أن أشعر بأي شئ من الريح البحري الشديد جداً والمثلج الذي كان يعصف في ذلك الوقت .. بقيت ممدداً فوق سريري لمدة ساعتين . أتصبب عرقاً مباركاً وهو ما سيخلصني مثلما أرجو لبعض الوقت من ألام النقرس .. »

استراحة . وبعدها مباراة في الشطرنج الذي أخذ ميله له يزداد باستمرار . ولكن ها هو أحد النوبيين في غاية الجمال وعلى رأسه غطاء فرعوني وتصدر عنه روائح قوية جداً ويحمل في يده قيثارة جديرة بالأجداد . أنه شاعر ربابة أخذ يؤدي أغنية عربية تروي حملات إبراهيم باشا العسكرية وعبور أسطوله الجسور الشلال الثاني . وفجأة يغير المنشد من نغمته ويبدأ في مديح رئيس الحملة :

جـــئت من بلاد الروم

أنت يا جنرالنا الكبيـر

مـوفـداً من ملك عظيم

رسوت تحت جبل أبو سمبل

مرتديا معطفا من سمور

وعلى رأسك شال من كشمير

ياجنرالنا العظيم .

فى ١٣ يناير جعلهم ينزلونه عدة مرات داخل المعبد الكبير وكان يعتبره « لايزال بكراً » لشدة خيبة أمله فى أعمال بلزوني وجو بعد مراجعتها وكرس جلّ وقته لنسخ لوحة نقش عليها مرسوم من بتاح لتحية رمسيس الثانى . فى كل مرة كان يخرج فيها من فرنه كان يشعر بأنه أفضل مماكان قبل دخوله ، ولكن كان ريح الشمال العنيف يحق به لدى خروجه لدرجة أنه كان يثير آلاماً فى « العينين والاسنان » فلا يصل إلى ذهبيته إلا وهو يترنح مع كل خطوة يخطوها . كم هو هش جنرالنا هذا فى جسده المتألم والذى كان يدفع بالألم كل ثمن نصر يحققه !!

ومع ذلك فإن ما ان يشعر به هو كان السعادة الحقة .... إنه فخر حقيقى ذلك الذى يشع من هذا الخطاب المرسل لأخيه فى ١٢ يناير ١٨٢٨ :

> « أود أن أصحب كل الذين يرفضون الايمان بالرشاقة التى يتسم بها النحت المرسوم هنا فيضفى على فن العمارة ثراءاً على ثراء . أضمن أنهم فى أقل من ربع الساعة سيكونون قد تخلصوا من أفكارهم المسبقة مع عرقهم المتصبب منهم وأن جميع ما انطبع فى فكرهم دون تفكير سيخرج من جميع مسامهم .
>
> « روسيلليني وأنا احتفظنا لأنفسنا بالجزء الخاص بالتعليقات الهيروغليفية المطولة فى كثير من الاحيان التى تصاحب كل شكل أو مجموعة من الأشكال فى الرسومات التاريخية المنحوته - (الباروليف) . نقوم بنسخها فى مواقعها أو طبقاً لبصمتها على الورق عندما تكون مرتفعة جداً [...] هذا هو الوضع بالنسبة لحملتنا التاريخية فى أبوسمبل . أنها أكثرها أرهاقاً لنا وأمجدها على الإطلاق فيما يمكن أن نقوم به خلال هذه الرحلة كلها . الفرنسيون والتوسكانيون تنافسوا فى حماسهم وإخلاصهم » .

يجب علينا أن نتوقف عند هذه النقطة لأن الموضوع أثار تشككات لاحصر لها . كثيرا ما أثارتها الشوفينيه إن لم تكن الغيرة الشخصية لجاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك . عندما نشر رسائل أخيه بادر بأن عدّل فى نصها أو زيّف بعضاً منها . وعلى

وجه الخصوص تلك التى ذكرناها للتو . وهكذا فبدلاً من قراءة : « روسيلليني وأنا احتفظنا لانفسنا بالجزء .. » وجدنا أنه نشر : « أحتفظت لنفسى . » وهو ما يغير المعنى تماما . وإضطر روسلليني أن يكتب عن ذلك بعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ :

« ما أن نصل إلى أحد الآثار إلا ونتدارس معاً بعناية جميع أجزائه ونوزع على الرسامين المصاحبين لنا مختلف التفاصيل التى يهمنا الحصول على نسخه منها . وتوزع فيما بيننا نحن الاثنين مهمة وصف المبنى ونسخ مخطوطاته » .بعد تأدية عملنا - سواء كان ذلك خلال الليل أو أثناء إبحارنا على النيل - كنا نتوصل عبر تبادل الآراء والإتصال المشترك من تمكن كلانا من العمل بأكمله . وبنفس الأسلوب كان الرسامون التوسكانيون ينقلون أعمال الرساميين الفرنسيين والعكس صحيح ، هكذا تكوّن لدينا ملفان كاملان متطابقان [....] أن المذكرات والمستندات التى جمعت خلال رحلتنا كانت تستهدف عملاً مشتركا يشرف فرنسا وتوسكانيا معا بأن يوفر لعلوم العصور القديمة ثمارا عظيمة للغاية .. » .

من ناحيته ذكر شامبوليون هو الأخر فى خطاب لروسيلليني مؤرخ فى ٣٠ سبتمبر ١٨٣٠ هذا المبدأ الخاص بالعمل المشترك : « لا يمكننى وكما لا يمكنك تصور إمكانية نشر أى شئ بدونى [...] لا يمكننى القيام بذلك بدونك وإلا إنتهى بنا الأمر إلى عملين غير كاملين وغير مترابطين .. » .

فى ١٦ يناير وبعد أن كتب بضعة خطابات وبيض ومذكراته عن النوبة : أعطى شامبوليون أوامره بالإقلاع . لقد أفشت « المعابد - الجبال » التى فى أبو سمبل بأهم أسرارها .. أزيلت الشدات الخشبية التى كانت تحجز الرمال أمام مدخل المعبد الكبير حتى لا يدفن الباحثون أحياء داخله وسحبت المراكب وأعلامها مرفوعة فى حين صدح البحارة بأغانيهم . أما التماثيل الماردة فكانت تتسامى فى ضوء الشمس . بينما المراكب تبتعد شعر فرانسوا بإحساس يتملكه فجاة (كما أفضى هو ذلك بنفسه) أنه متأكد أن المعبد الذى يختفى هكذا من أمام ناظرى وراء منحنى للنيل هو أول المعابد التى لن يراها أبداً بعد ذلك .

يجب ألا نتصوره على الرغم من ذلك مثل أى مازبياً تمزقه أحاسيس متضاربة ، مصلوب فوق آلامه ، يمزقه الحزن وقد تملك منه الحاح علوم المصريات . بل أن كل شئ

كان يثير اهتمامه : ففى درّى * على سبيل المثال نراه يكرس وصفا أقصر للمعبد الحجرى عن سرده لحوار طريف دار بينه وبين ثلاثة نوبيين بجلاليبهم البيضاء وهم يحيطونه علما بسعر البلح وزراعة النخيل والضريبة المفروضة على كل شجرة منه (وكانت توجد بهذه المقاطعة وحدها فى ذلك الوقت سبعمائة ألف نخلة وهى الأجمل وتحمل ألذ الثمار فى مصر كلها) وكان جان - فرانسوا يسجل باهتمام جميع هذه المعلومات . كان الأحياء يثيرون إهتمامه مثلما كان الحال بالنسبة للأموات : وقد سجل بشئ من الغضب الشديد أن الضرائب المفروضة كانت « كفيلة بهدم إقتصاد البلد وإبقاء السكان فى حالة إملاق » .

بعد ذلك بأيام قليلة إذ كان داخل سبيوس ** فى إبريم ، سجل مشهداً سمح له بأن يعبر عن أرائه فى موضوع أحوال المرأة . نرى فيه زوجة أحد الأمراء تتقدم نحو فرعون وهى واقفة وراء زوجها مباشرة تسبق جميع كبار الموظفين ، هذا يثبت تفوق الحضارة المصرية على منافساتها الشرقية ، « لأنه يمكن تقدير درجة تحضر الشعوب بناءًا على الوضع المحتمل أو الأقل احتمالاً للنساء فى التركيبة الاجتماعية . براڤو يامايسترو !! » .

قلب سخى مثل هذا القلب من المؤكد أنه سيكافأ بمقابلات سعيدة . فى « درّى » على سبيل المثال . ألتقى بهذا البربرى فسأله إن كان يعرف سم من بنى هذا المعبد .

> « أجابنى على الفور أنه أصغر من أن يتمكن من معرفة ذلك إلا أن شيوخ المنطقة بدوا له متفقين على اعتبار أن هذا « البيربى » بنى حوالى ثلثمائة ألف عام قبل الإسلام [..] هناك بعض الشيوخ غير متأكدين من إحدى النقاط وهى ما إذا كان الفرنسيون أم الانجليز أم الروس هم الذين شيدوا هذا العمل العظيم .. » .

فى اليوم التالى فى « عمادة » سجل ملحوظة وهى وإن كانت تخص فترة أحدث فهى لا تقل عنها طرافة . كانت الرسومات المنحوتة فى هذا المعبد مغطاة « بطبقات من الجبس سيئة للغاية » وضعها الأقباط لكى يحولوه إلى كنيسة . وأضطر إلى أن ينزع هذه الطبقة الجبسية التى عليها صور القديسين لكى يصل إلى الصور الأصلية . ملحوظة جادة منه : « رد الفعل الوثنى هذا كان يتسم بجانب خاص به وهو أن الذى أمر (بعمل هذا) كان مسيحيا والذين نفذوه مسلمون فى صالح الوثنية » . فكأننا نسمع ديدرو ! .

---

* كتبت در قبل ذلك (المترجم) .

** كهف فى الصخر مختلف عن المقبرة .

أخذ النيل يشبه نهر اللوار الذى كان تجرى فيه لقاءات جميلة جداً فى عهد رونسار . من بعيد ظهرت على صفح النهر شراع عليه علم إتضح أنه إنجليزى : أليس هذا اللورد برودويه الذى أعلنوا له فى « درّى » عن سفره إلى سنار والحبشة ؟ ولكى يتخاطب معه لم يكن الرحالة النبيل محتاجاً لأن يقول « مستر شامبوليون على ما أعتقد ؟ » فقد سبق أن التقيا فى القاهرة ، كما قلنا من قبل ، مع الميجور فيليكس الذى مازال يرافق برودويه . تم اللقاء بعد أن توقفوا وتبادلوا المعلومات و« الملفات » وعبر جان فرانسوا وهو يودعه عن تأثره لإبتعاد « رجل يمتلك ثروة هائلة ومع ذلك ، فإن سمو قلبه جعله يلقى بنفسه فى عملية خطيرة ولكنها مفيدة بالنسبة للعلم .. » .

هذه المقابلات كانت تقابل بكل ترحاب . كما حدث بعد بضعة أيام مع قنصل النمسا أسيربى الذى كان متوجهاً إلى الشلال الثانى – وهو الذى أحسن استقباله فى الاسكندرية . وكان اللقاء الجديد وديا للغاية . ولم يقطع الدبلوماسى علاقاته بشامبوليون سوى بعد ذلك بعد أن أمره وليام بانكس صديق يانج ! « إما هو وإما نحن » .

قصيرة كانت أم غامضة كانت هذه اللقاءات تكسر رتابة الأيام التى لا تثيرها تماثيل النوبة العملاقة ولا قاعات العواميد التى سيزورها بعد ذلك .

« أرى أن خطاباتك مختصرة بعض الشئ [كتب ذلك لأخية] تذكر إنى على بعد ألف فرسخ منك وأن أقل نميمة لها مذاق عظيم ومنعش . كم هى طويلة الليالى – لا شئ يشغلها سوى التدخين أو لعب الورق – وذلك ممل فى النهاية ، وأكون سعيداً جداً عند إعادة البحث فى اللفافات الصغيرة القادمة من باريس .. » .

ما زالت هناك عدة ساعات طويلة إنتظاراً لطيبه وهى التى أمضاها داخل معبد كلابشى * الأغريقى – الرومانى . أنه بالطبع يرى أن « النحت فيها أصبح سيئا للغاية بعد أن جعلوه ثريا لأنهم لم يعودوا يعرفون كيف يصنعوه جميلاً » ..

إلا أنه يكتشف فيه « جيلاً جديداً من الآلهه » – وهذا ليس بالشئ البسيط بالنسبة لمؤلف « البانتيون » . إنه بالطبع يتأكد من أن أمون – رع لا يزال هو الكيان الاسمى والرئيسى والإله موت تنبع من ذات الجوهر المذكر والأنثوى فى نفس الوقت وأن جميع الآلهه المصرية الأخرين ليسوا سوى « أشكالاً من هذين المبدئين الذين يعتبران تجريدات خالصة للوجود الاعظم .. » أخذت أشكالاً بشرية حتى أخر تجسيد

---

* تنطق اليوم كلابشة .

وهو جسد حورس ؛ ومع ذلك فهو يعتقد أنه إكتشف - تأسيساً على الثلاثية المبدئية (أمون - رع وموت وخونسو الابن) - « الثلاثية النهائية » المشكّلة من حورس ووالدته إيزيس وابنهما مالولى . وهذا الأخير هو الذى كان يعبد فى كلابشة ، لأن إذا كان أمون - رع يسود كل الأماكن ويحتل الجانب الأيمن من قدس الأقداس إذ أن كل قرية ومدينة تقدس إلها تقديساً خاصاً دون أن ينتج عن ذلك أى حقد مع المدن المجاورة ، بسبب ما يصفه صاحب الكشف بارتياح « نوعا من الاحترام المتبادل المدروس بعناية » .

لم ينجح سحر فيله « الجزيرة المقدسة » فى التأثير عليه . وإذا كان ينسب فضل بناء المعبد الجنوبى الصغير إلى نكتانييو أخر الفراعنة من أصل مصرى فهو لا يخفى أزدرائه للباقى الذى يعود إلى عهد الرومان وعلى وجه الخصوص - (نرجو منكم التسجيل) : « ماهو منحوت .. » أخص ! أما جزيرة سيم الصغيرة ، جارتها ، والغنية بمخطوطاتها الحجرية فقد أوحت له بأكثر مما أوحت له به الآثار المشيدة والنحت البارز الموجود فى جزيرة إيزيس . فى المجموع فهو يفضل أن يؤخذ بسحر معابد أومبوس * وإدفو وإسنا حتى ولو أنهم جميعاً إغريقيون ومن « مرحلة الانحطاط » إلا أنهم « جمال من الناحية المعمارية ولهم تأثير ضخم » ولكن كم أن هيروغليفياتهم « سوقية » !

ولكن متى سيجئ دور طيبة ، طيبة صاحبة المائة باب ؟ .

« .... كان الحزن فى قلوبنا لما رأينا هذه الاطلال الضخمة مرة أخرى : وأضافت معداتنا إلى هذا الشعور لأننا كنا قد سمعنا أن مراكب تحمل مؤناً صابحة وصلت إلى عنوانى فى الأقصر ولكن الهواء البحرى كان عنيفاً للغاية وقفنا فى المسافة بين هيرمورنيس وطيبة التى لم نصلها سوى فى الصباح الباكر من يوم ٨ مارس . رسى أسطولنا الصغير على أعتاب الرصيف الأثرى الذى كشف النيل جدرانه وهو لن يصمد طويلاً ليدافع عن سراى ** الاقصر إذ أن أخر أعمدته تكاد تمس شواطئ النهر ... » .

« الشئ الغريب هو أن مذكرات شامبوليون والرسائل التى كتبها من طيبة أهملت الأثر الذى كان يعجب به أكثر من الأخرين جميعاً وهو معبد الكرنك وإن كان يتكلم - كما نرى فيما بعد - عن عمليات التنقيب إلى أجراها فيه ولكن دون تعليق .

---

* كوم أومبو .

** يستخدم شامبوليون هذا التعبير علماً بأن الهدف الاساسى منه كما يعرف (أى معبد الأقصر) كان دينيا .

لا يوجد لدينا فى هذا الصدد سوى رسالته الرائعة المؤرخة ٢٤ نوفمبر ١٨٢٨* التى تقول الكثير ولكنها تبقى مثل مدخل لامثيل له لمعبد إختفى . لماذا هذا الصمت ؟ هل ضاع هذا الجزء من مراسلاته ؟ هل إحتجزه فيجاك لسبب غامض ؟ الواقع هو أن الجزء الرئيسى من التقارير الخاصة بإقامة جان - فرانسوا المطولة فى طيبة يتعلق بالأقصر من جهة وبمجموعة الجبانات ومعابد الضفة الغربية من جهة أخرى .

يبدو إذن أن الأقصر إستقطبت اهتمامه وبداية كان ذلك من زاوية غير متوقعة .

« ....هذه السراى الرائعة ، الأكثر تديناً من جميع آثار مصر ، التى تعوق الوصول إليها دور الفلاحين التى تحجب وتشوه جمال بواباتها بخلاف دار هزيله لأحد البكابشية ** المعلقة فوق الساحة التى اجريت فيها الثقوب بواسطة الازاميل لكى تسمح بمرور الكناسة الخاصة بالضابط التركى . هذه البوابات تؤدى إلى قدس أقداس رائع نحت فى عهد ابن الاسكندر الاكبر . أقول أن هذه السراى الرائعة لم تقدم لنا أى مكانٍ لائق يسمح لنا للإقامة فيه .. » .

ظلوا مقيمين فوق المعاش والدهبية والمراكب طوال فترة الأعمال التى أجروها فى الضفة الشرقية قبل أن ينقلوا وكرهم بعد ذلك بخمسة عشر يوماً داخل إحدى المقابر فى الضفة الغربية ! ولكن شيئاً من الصبر»

فعندما شرع فى الدراسة المنظمة للمجمع الأثرى الضخم فى طيبة وقع حدث فى باريس أثار لديه طفرة من الحماس المتوقد باستمرار والذى يؤججه فيه التناقض الفكرى . إذ وجد فى إنتظاره لدى وصوله إلى طيبة خطاباً من جاك - جوزيف يسرد له فيه ما حدث فى جلسة من جلسات المعهد (الانستيتو) التى قرأ رئيسه - أراجو خلالها خطابا موجه من توماس يانج يعاتبه فيه لأنه يعطى أهمية مبالغاً فيها لأعمال شامبوليون ، مما دفع عالم الفيزيقا الفرنسى إلى إلقاء مرافعة فصيحة فى صالح صاحب كتاب « رسالة إلى مسيو دايسيه » جاء رد فعل صاحب الاكتشاف مثيراً للأهتمام لأنه - كما سنرى - يتخطى بكثير الجدل الذى ينبغ هو فيه :

« ....مسكين الدكتور يانج *** الن ينصلح حاله أبداً ؟ لماذا يحرك قضية قديمة أصبحت مومياء بالفعل ؟ أشكر مسيو أراجو للهجوم الذى قام به بكل هذه الشجاعة

* التى سبق أن تحدثنا عنها فى الفصل السابق (ص ٥٥٩ - ٥٦٠) .

** رائد [كذا] وهو اللقب الذى كان يتقلده بعد ذلك بمائة وثلاثين سنة جمال عبد الناصر عندما أستولى على الحكم (المترجم) .

*** سيموت بعد ذلك بثلاثة شهور .

دفاعاً عن شرف الأبجدية الفرنسية الفرعونية . البريطانى مهما فعل سيبقى لنا [عقدة] لايزال الدكتور يناقش الابجدية وأنا - وقد ألقيت بنفسى منذ ستة شهور وسط آثار مصر - مذهول لأنى أقرا فيها بسهولة ويسر أكبر مما كنت أسمح لنفسى أن أتصوره . توصلت إلى نتائج (ليبقى ذلك بيننا) مثيره للحرج بكل تأكيد من مختلف الزوايا وسنضطر إلى الاحتفاظ بها فى الكتمان : لم يخذلنى انتظارى قط والعديد من الأمور التى كنت أشك فيها بشكل عام قد تجسدت أمامى وأصبحت مؤكدة ولا تقبل الجدل .. » .

« خائف ؟ » من ماذا إذن ؟ ولماذا يخاف مخترع من اختراعه ؟ من الواضح أن ما قرأه هذا البصير فى وادى النيل هو حياة سابقة للبشرية وحضارة وإن كانت لا ترجع إلى الثلاثمائة ألف عام التى تخيلها « بربرى » قرية درى إلا أنها تنسف التعاليم اليهودية المسيحية من أساسها وكذلك الترتيب الزمنى التوراتى ومعتقدات الفاتيكان . الآن العزيز جان فرانسوا لن يُرسم كاردينالا أبداً حتى لو أحتفظ لنفسه وفى كتمان تام ولبعض الوقت بما اكتشفه بين ممفيس وأبوسمبل .

لن يضطر هو أن يصرخ مؤكداً « ومع ذلك فهى تدور*.. ! » ولكنه سيضطر يوماً إلى القول « ومع ذلك فهى متقدمة جداً فى السن » أرض البشر بالنظر إلى حضارة وادى النيل وهى ليست فقط عجوز بل إنها إيضاً أم وهى إيضاً رائدة وهى إيضاً مخترعة لهذه الاساطير وهذه المعتقدات التى زودت بها اليهود ثم المسيحيين والإسلام كل بدوره فى الشرق الأدنى والغرب والأهم هو إنها إخترعت الثالوث المسيحى ..

بالتأكيد كانت لديه أسباب « لفزعه » ، خاصة إذا كان الذى كلفه بالذهاب إلى هذه الأماكن هو الملك المسيحى « جداً » والذى يعتمد كلية على الكنيسة المقدسة ... رأينا فى أزمان لاحقه كاشفى أسرار أخرى - أسرار المادة - وهم فى فزع شديد أمام الاثار المترتبة على إكتشافاتهم . ولكن إذا كان جان - فرانسوا شامبوليون لن يتسبب فى هيروشيما أخرى فهو يعتبر فى رأى الكنيسة كافراً عندما كان يدون مذكراته كل

---

* « ومع ذلك فهى تدور » تعبير يعزى إلى العالم الإيطالى جاليليو (القرن السابع عشر) ، قاله بعد أن أرغمته الكنيسة على الإعتراف بخطئه عندما قال أن الأرض تدور حول نفسها - مؤكداً ما إكتشف قبله « كوبرنيكس - وكانت الكنيسة فى ذلك الوقت تؤكد أن النصوص الدينية توضح أن الأرض مسطحة وثابتة فى مكانها وأنها مركز الكون . ومع ذلك فقد حكم عليه بالإقامة الجبرية فى داره وأمضى فيه الثمان سنوات الأخيرة من حياته . (المترجم) .

مساء على ضوء الشموع فى قمرته على « المعاش » الثابت عند مرساه فى الأقصر خاصة وأن ذلك كان يحدث فى عصر « الحلف المقدس » وبعد ذلك بقليل « السيلابوس » * ؟

لن نتوقف طويلاً عند وصفه معبد الأقصر ، الأمينوفيوم (نسبه إلى مؤسسه أمينوفيس الثالث) الذى أرسله « الجنرال » إلى أخيه ولا للجزء الشمالى منه وهو ينسبه لرمسيس الثانى ويسميه - بناءاً على ذلك - راميسيوم الضفة الغربية . هنا يجب أن نرجع إلى نصوص كتابه « **آثار مصر والنوبة** » . ما يسترعى الأنتباه فى ملاحظاته الخاصة بالأقصر هو إهتمامه الشديد بمسلتين من الجرانيت الأحمر مقامتين أمام واجهة المعبد البحرى وإختياره الفورى للتى على اليمين لكى تزين احد ميادين باريس . سنعود بالطبع إلى الحديث عن هذا التوقع المذهل ** .. إلا أننا لا يمكن أن نغفل الإشارة .

الحماس المتدفق الذى يبذله ليفرض على الجميع فكره غيرت من معالم باريس وهى فكرة يعود له وحده فضل بلورتها وتحقيقها ومع ذلك لن يعترف له أحد بذلك .

قبل أن يتعامل مع المسلة بدأ شامبليون حفرياته التى انتزع من أجلها فرمانات الباشا التى تسمح له بالقيام بها بعد صراع عنيف فى الاسكندرية دون أن يتمكن من الحصول فى الوقت المناسب على الأموال الضرورية لذلك من باريس (حيث نشط أصدقاء دروفيتى ومنهم بالطبع ودائما جومار) ... .

« ...بدأت فى تنفيذ الحفريات فى الكرنك والجرنه ، وحصلت بالفعل على ثمانية عشرة مومياء من كل نوع وصنف إلا إننى لن أخذ معى سوى أفضلها [..] جميع الأشياء المصنوعة من البرونز والناتجة من حفريات فى الكرنك والمأخوذة من منازل طيبة القديمة ذاتها من أعماق تصل إلى خمسة عشرة أو عشرين قدماً تحت المستوى الحالى للهضبة هم فى حالة صدأ كامل مما لايسمح بالاستفادة منها . وضعت على

* اسم مرسوم باباوى نشر فى ٨ ديسمبر ١٨٦٤ فى عصر البابا بيوس التاسع يدين فيه « أخطاء » تلك الفترة مثل الليبرالية والاشتراكية والطبيعية ... » [المترجم]

** راجع الفصل الختامى .

رأس الحفريات فى الضفة الشرقية رئيس عمال الحفر الخاص بدروفيتى المدعو تمساح وهو يبدو لى رجلاً ماهراً مما يسمح لى بأن أعلق عليه أمالاً واسعة إلا أننا ينبغى أن نعمل « على الواسع [..] فمن الأفضل إذن أن أحصل على الأموال الإضافية التى طلبتها . الزمن يتطاير وسأحصل على الأرجح على الرد النهائى عندما أكون مضطرا لمغادرة طيبة وهى المكان الوحيد الذى يمكن أن تجد فيه أشياء عظيمة وجميلة بشكل مؤكد [..] .

إذا حملت معى بعض الأشياء الجيدة سيكون ذلك نتيجة صدفة من جهة ونتيجة لكرم خاصة منى من ناحية أخرى بما أنى غير مضطر إلى جلب أى مجموعة آثار إلى اللوفر - بما أن الأموال المطلوبة لذلك قدر رفضت مع سبق الإصرار [..] لدى أربعون رجلاً يعملون وسأرى إذا كان الناتج سيعوض المصاريف وإنما كانت ميزانيتى تسمح بتحميل نفقاتهم ولدى أيضاً ستة وثلاثون رجلاً يقومون بالتنقيب فى الجرنة نصف مصاريفهم على روسيلينى . من الواضح أنه ليس فى إمكانى أن أنقل معى ما يحتاجه المتحف الملكى وهى القطع الضخمة ، لأن الشحن وحده إلى الأسكندرية سيبدد ماليتى بالكامل علماً بأن اليد العاملة هنا لا تكلف شيئاً . عمال التنقيب - بعد عمل مضنى يتقاضون عشرين بارة (ثلاثة سولات وثلاثة ليااردات) .. » .

لم تكن الحفريات التى أمر بها المسئولان عن الحملة - «بالمناصفة فى المصاريف» - متعمقة كما كانا يودونها طبقا لما سمح به التصريح الذى إنتزاعاه من الباشا لدى زيارتيهما له .

ومع ذلك ففى العاشر من مارس قام الباحثون عن الكنز بفتح مقبرة لم تستكشف بعد . نستور لوت الذى سمح له شامبوليون بأن يكون أول من يدخلها تعبيراً على شكره له لما يبديه من الجد فى عمله - اكتشف حسبما قال « أثاثاً جميلاً ومومياتين لزوجين يرتديان قناعين من الذهب وعند اقدامهما وضعت حبوب من القمح التى أنبتت داخل وعاء على هيئة تمثال مفرغ من الداخل » .

يعرب علماء المصريات المعاصرون عن دهشتهم من « الإجراءات التى أتبعها هؤلاء الرواد ، وتقول إدّا بريشيانى التى تحتل اليوم كرسى علم المصريات فى جامعة بيزا والذى أنشأ من أجل روسيلينى وبواسطته والتى تعتبر وريثته المعنوية إنها « صدمت لسلوك رئيسى البعثة الفرنسية التوسكانية . فهما - على النقيض من الباحثين

المعـاصـرين لهمـا - لم يتـواجدا بأشـخاصـهـم فى أمـاكن التنقيب وتركـا ذلك للعمـال المعينين لتنفيذ هذه الأبحـاث » . ثم توضح أن « روسيلليني عندمـا مر بطيبة وهو فى طريقه إلى النوبه فى فبراير ١٨٢٨ أصدر أوامره لعمـال الرئيس أبو سقاره - الذى كان يشرف عليهم لوكوا بيتشنيني وهو ممثل أستشارى للحفريات والذى كان يقيم فى الجرنة - أن ينقب على الآثار عند سفح « الجبل الطيباوى » وذلك يعنى وجود العديد من الوسطاء ووسطاء الوسطاء من أجل عملية على هذا القدر من التخصص .

عاد مرة أخرى جان - فرانسوا يتحدث فى ذات الموضوع فى ١١ سبتمبر ١٨٢٩ بعد أن ترك المواقع الطيباوية إلى أخيه الكبير قائلاً أنه لو حصل على التمويل المطلوب لهذا الغرض لما أنفق « سـولاً واحـداً فى التنقيب » لماذا ؟ « عـدلت عن ذلك منذ عـدة شهور لأنه ليس مهنتى وأن العرب المنقبين محتاجون لرقـابـة مستـمرة فى كـل ثانيـة فهـم لا يجدون شيئا دون رقابة أو يخفون كل ما يجدونه ... » .

باختصار ، لم تكن الحملة الفرنسية التوسكانية حملة تنقيب بأى معيار . كلاهما أحضر معه إلى باريس وفلورنسا بعض الروائع التى إنتزعت من المقبرتين اللتين فتحتا فى ١٣ و١٨ مارس ١٨٢٩ (المقبرة الأخيرة مسماه « مقبرة المرضعة ») ومن مخزن للبناء للملكة حتشبسوت فتح فى شـهـر مـايو التـالى : مـومـيـاوات وتوابيت وأوانى وأوشيبتى ومرايا وأوانى من الألبستر . كما إنتزع شـامبوليون وروسيلليني قطعتين من النحت البارز من مقبرة سيتى الأولى الرائعة : وضعت الأولى فى اللوفر والأخرى فى فلورنسـا . وتلاحظ مدام بريشيـانى بإختصـار أنه « إذا كـان هذا النوع من التـخريب يفزعنا اليوم فيجب أن نتذكر أنه كان شيئاً عاديا فى ذلك الوقت » .

فى نهاية شهر مارس عبر الباحثون عن الكنوز النهر ليقيموا بالقرب من - ثم عند مـدخل - وادى الملوك وكـان أهل البلد يسـمـونه بيـان الملوك (أبـواب الملوك) وكـان شامبوليون يشكك فى ذلك ويرى أن أصل التسمية - راجعاً فى ذلك إلى تفسير إستاذه سـاسـى ، « تحـريف فى النطق للإسم المصـرى القـديم وهو بيب - آن - أوروع - أو مقابر الملوك » إختارو فى البداية الجرنة ليقيموا فيهـا - أى فى « السراى » المبنية بالطوب اللبن والتى إستمرت لفترة طويلة مأواهم قبل وبعد إقامتهم المشهورة لمدة ثلاثة أسابيع داخل مقبرة رمسيس الرابع . ولكن قبل أن يتجرأوا على خوض هذه التجربة الفـريـدة أعطـا « الجـنـرال » للفـــرنسـيين والتـوسكانيين فكرة مـبـدئيـة عن ذلك - فلنستمع إليه :

« .. أقيم هذا المساء لشبابنا حفلاً « وليمياً » داخل إحدى أجمل قاعات مقبرة أوزيريبى * وهو عيد ميلاد الأنسة زورايد ** وقد أعلنته للتاريخ يوم زوررابيد ووعدت بأننا سنحتفل به عيداً إحتفائياً . كان من المفروض أن نحتفل به فى الأول من مارس ولكننا كنا فى ذلك الوقت وسط فظائع الشلال ويكاد لايكون لدينا خبز نأكله . وتأجيل الإحتفال لذلك السبب إلى اليوم .

الطعام لن يصل إلى مستوى عظمة المكان ولكننا سنفعل المستحيل لكى لا يكون دونه بكثير . وهى مفاجأة أعدها لشبابنا . ويوجد طبق سيصبح مفاجأة الحفل : هو قطعة من تمساح صغير بالصلصة الحريفة .

وتشاء الظروف أن يأتونى بواحد صيد وقتل صباح أمس . وإنى أضع الكثير من الأمال فى هذا الطبق لإحداث التأثير المطلوب . سنشرب فى صحتكم جميعاً ياسكان باريس وستكونون معنا فى حفلنا [...] ملحوظة : فسدت أكلة التمساح خلال الليل ونتن لحمه وأخضر لونه يالسوء الحظ ! ويجب أن نواسى أنفسنا بأننا تفادينا عسر هضم أو على الأقل ثقل فى المعدة » .

حفلة وليمية ! عيد إحتفالى ! فى هذا اليوم التاريخى ! وفى داخل مقبرة ستى الأول المبهرة .. بتمساح أو بدون تمساح يروق لنا أن نعرف أن صديقنا جان - فرانسوا قد عرف - وسط عدد لابأس به من الصعاب - ساعات مثل تلك . ولم يكن لطيبة قلبه أن ترضى بأن لايجعل رفاقه الشجعان يشاركونه فرحته . إذ أراد أن يجعل من هذه السهرة تحية أيضاً إلى العظيم چيانباتيستا بالزونى مكتشف جبانة سيتى الأول فى ١٨١٧ وكان قد نقل صورة طبق الأصل لها منسوخة منها إلى أوروبا . وقد بهر بها الباريسيون ومن ضمنهم جان - فرانسوا المصرى . وسمع فى ذلك الوقت العزيز داسييه ينصحه بأن يلحق « بمارد بادوفا » فى طيبة : يمكن أن نتصور طلاقة لسان وأنفعال « الجنرال » وهو يتذكر ويثير ذكريات تلك الليلة وهو فى قمة حفله وعلى ضوء الشموع مما جعل الألهة والملوك والرموز تتمايل على جدران المقبرة ، صورة هذه الشخصية العظيمة التى حركت المعابد .

ومع ذلك لم تكن مقبرة سيتى الأول تلك التى سيقيمون فيها وإنما مقبرة رمسيس الرابع .

---

* المقصود هنا هو سيتى الأول وتعتبر مقبرته فى العادة أجمل مقابر وادى الملوك .

** كان هذا هو عيد ميلاد ابنته الخامس فقد ولدت فى أول مارس ١٨٢٤ .

« ... المقبرة التى نسكنها تعتبر كنزا بالنسبة لهذا الفصل من السنة . الحرارة داخلها [...] ٢٠ أو ٢١ درجة مئوية فى حين أن التيرمومتر يقفز على بعد خطوتين من بابنا إلى ٣٥ أو ٣٦ درجة فى الظل [....] علاوة على أن الشهر الماضى مر وسيمر هذا الشهر أيضاً – دون أن تهل فترة الخماسين [...] وهى رياح حارة جداً ومخيفة [..] يتيبس كل شئ فى طريقها .. » .

هذا الملاذ الرطب فى قلب الأتون ذاته التى هى الجبانة الملكية « مقام الموت بحق إذا لا يوجد بها عود أخضر أو أحياء فيما عدا الضباع والهايينا » هو مقبرة بالفعل .

« أقامت إذن قافلتنا المكونة من الحمير والعلماء * [داخل] أفضل المساكن والأروعها التى يمكن العثور عليها فى مصر . الملك رمسيس [الرابع من الاسرة التاسعة عشرة] هو الذى يستضيفنا فى مقبرته العظيمة وهى الثانية التى تقابلها على اليمين لدى دخولك فى وادى بيبان الملوك . تستقبل هذه المقربة المحفوظة بشكل رائع ما يكفى من الهواء والضوء لكى نقيم فيها إقامة ممتازة . نحتل منها القاعات الثلاثة الأوائل والتى يبلغ طولها حوالى خمسة وستين خطوة ترتفع الجدران من خمسة عشر إلى عشرين قدماً والاسقف جميعاً مغطاة بنحت ملون تكاد تحتفظ ألوانها ببريقها الكامل . إنها بالفعل سكن لأمير فيما عدا عيب واحد هو أن غرفها فى صف واحد : الارض مفروشة كلها بالحصر الحيرزان » .

لماذا أبقى جيشه لهذه الفترة الطويلة – ثلاثة شهور تقريباً – داخل هذا الوادى التراجيدى ؟ لأنه لا يوجد مكان أخر تعبر فيه هذه الحضارة عن ذاتها بمثل هذه الدقة والتنوع والذى يعطى فيها المرور على الأموات هذا التعبير الاسمى عن الحياة بأنه يمد فيها ويتسامى بها ويشرحها .

« ... لم اتصور أبداً إنى سأبقى لهذه الفترة الطويلة هنا ، ولكن جدران هذه المقابر وبالذات الأسقف مغطاة بمواضيع غريبة لدرجة أنه تعين علينا أن نستمع إلى صوت الضمير وأن نقرر نسخها صوراً ونصوصاً . حيث أن بحثنا عن مثل هذه اللوح لم يكن مجدياً فى الأماكن الأخرى ، أنا الذى أقوم بهذا العمل ، محتفظاً بأنامل

* ترديد لأمر يقال أن أحد معاونى بونابرت قد أصدره خلال الحملة : « شكلوا المربع ! الحمير والعلماء فى الوسط » .

رسـامينا المهرة * لتنفيذ الرسومات التاريخية التى تهم تاريخ الفن فى مصر مباشرة . وعلى العموم فانا لا يمكن أن أعتمد على نفسى لنسخ هذه المشاهد الشيطانية التى تعكس - فى أكثر الأشكال وحشية وتعقيداً - جميع القوى الجهنمية والعادات والتقاليد الموجودة فى العالم الأخر . إنه علم النفس فى أرقى صوره .. » .

قد نندهش لاستخدامه للتعبير « علم نفس » فى هذا الصدد (ومن المرجح أنه يقصد « دراسة للأرواح فى العالم الآخر ») وكلمة « جهنم » ليس لها مدول واضح فى ديانة المصريين القدماء . إلا أننا سنرى فيما بعد أن شامبوليون - دون أن ينسى ذكر دانتى - قد اكتشف فى المقابر الطيباوية تصوراً مسبقاً لعالم أضفت عليه اليهودية - المسيحية - مفهوم الخطيئة .

من مقبرة إلى أخرى أوصلت الابحاث صاحب الكشف إلى نظرية حقيقية عن الحياة الملكية ورسالتها وذلك بناءاً على المعاملة التى يلقاها الملك المتوفى . وهو يذكر أن أياً من كل تلك التفسيرات لم يكن نابعاً من تصوراته هو لأن « زمن التخمينات قد ولى بالنسبة لمصر القديمة » منذ أن أصبح يكفيك أن تشاهد - والأبجدية فى يدك - « الاساطير التى تغطى « المقابر الملكية » . ويوضح شامبوليون أن حياة الملك تشبه مسيرة الشمس من الشرق إلى الغرب . كما أن وموته هو مثل هبوط نجم الشمس إلى نصف الكرة السفلى أو الأمنتى ، إنتظارا لبعثه من جديد طبقاً للدورة الشمسية .

صاحب كتاب « البانتيون المصرى » أو « عالم الألهة المصرى » أقام عرضه التوضيحى على أساس مقبرة رمسيس السادس ** وهو الأكثر كمالاً وتفصيلاً فى هذا المجال ! المركب (بارى) تنطلق حاملة الملك - الإله فى بريق الشمس وسرعان ما يلقى فى طريقه الثعبان أبوفيس وهو الآخ - العدو للشمس ، ومع ذلك فإن البارى تعبر المناطق الأثيرية - الشانزيليزية *** القديسيين المتحالفين معه ضد الوحش . إلا أن الإلهة نيفتن تأخذ المركب بين ذراعيها وتغمره فى النيل السماوى . عندئذ يبدأن السباق فى النصف التحتى الذى تعتبر أوساطه التى يسكنها الأرواح المدانة مقدمات لإختراعات دانتى : والعذاب فيها لاتقل قسوة ولا تنوعاً و« المكافئات أقل مثالية . فلنحكم بأنفسنا ! .

---

* التوسكانيون على وجه الخصوص - هذا ما أوضحه فى مكان آخر .

** كان شامبوليون معتقد فى ذلك الوقت أنه رمسيس الخامس .

*** فى الميثولوجيا هى نقر أرواح الأبطال والرجال الورعين .

« نقرأ دائماً بجانب المدانين بالعذاب الحكم عليهم بالإدانة والعقوبة التى يلقونها . فنقرأ مثلاً « هذه الأرواح العدائية لا يرقى قط الاله وهو يرسل أشعة قرصه ، إنها لم تعد تعيش فى العالم الأرضى وهى لا تستمع قط إلى صوت الإله العظيم عندما يعبر منطقتهم » فى حين نقرأ عكس ذلك بجانب تصوير النفوس السعيدة فى الجدران المقابلة « وجدوا الرضاء عند الإله العظيم . إنها تقيم فى دار المجد حيث تعيش الحياة السماوية . الأجساد التى تركتها ستستريح إلى الأبد فى قبورها بينما هى تتمتع بوجود الإله الأعظم » .

وعليه يؤكد صاحب الكشف :

« بهذا يكون كل ما قاله الأقدمون عن العقيدة المصرية فى خلود الروح والهدف الإيجابى للحياة الإنسانية قد تم إثباته بالكامل . لاشك إنها عظيمة وسعيدة فكرة الرمز إلى قدر الأرواح بأكثر الظواهر السماوية لفتاً للأنظار وهو مسار الشمس فى نصفى الأرض وإلى ربط رسمها بهذا المشهد العظيم والرائع » .

هاهو جان – فرانسوا الذى ولد عالم لغويات ثم جُعل مؤرخاً ، وهو فنان بميوله الطبيعية ودخل مجالاً علمنا – دون أن يدهشنا ذلك – أنه خائف من الذى يكتشفه فيه أو يتصوره عنه . وهو إذ يتلمس طريقة فى هذه المقابر السامية المقام حيث تراكم ثم تركز عشرون قرنا يخلص إلى الآتى :

« كانت الديانة هى الأساس الثابت لكل النظام الاجتماعى المصرى . فى مثل هذا النظام السياسى كان لكل علم من العلوم جزءان متباينان : الجزء الخاص بالوقائع المسجلة الذى تتكون منه علومنا الحالية والجزء التأملى الذى يربط العلم بالمعتقد الدينى وهو الرباط الضرورى بل الذى لا غنى عنه فى مصر حيث أن الدين – ليكون قوياً وليستمر على قوته للأبد – أراد أن يجمع داخله الكون كله ... » .

فى بداية شهر يونيو تخلص جان – فرانسوا تعبيراً عن إحترامه للدورة المقدسة من أبوفيس وإنتزع نفسه من الأمنتى وبعد أن صعد من المناطق السفلى عاد من جديد إلى المناطق الشمسية – من وادى الملوك وصل دون أن يترك الضفه الغربية – إلى هذا البرج الذى ولع به بوضوح منذ البداية وهو الذى أطلق عليه اسم الرامسيوم .

« يثور الخيال ويختلج في النفس شعور طبيعي بالرهبة لدى زيارة هذه القاعات المهدمة [..] عندما نتذكر أن الذى شيدها وأقام فيها طويلاً هو أشهر وأفضل الأمراء الذين عرفتهم مصر القديمة عبر تاريخها الطويل كله.. وفى كل مرة أمر بها أقدم لذكرى سيزوستريس شيئاً من الطقوس الدينية الذى أحاطته بها العصور القديمة كافة » .

إننا نعرف أن جان – فرانسوا – منذ زيارته لمتحف تورينو – مغرم بتمثال سيزوستريس وأنه منذ فترة طويلة متيم بهذه الشخصية العظيمة . إلا أن بعض المورخين المعاصرين * يعبرون عن تحفظهم إزائها : ذلك لأن بطل قادش كان رجل بروباجندا عبقرياً وأن الفن المصرى لم يخرج سليماً من أيدى مشيدى الرامسيوم . أما عن كونه « أفضل الأمراء » فإن هذا اللقب نادراً ما يستحقه الغزاه أو مشيدو القصور الفخمة . « ولكن ألم يكن من حق المكتشف أن يتطرف في غرمياته ؟ ولذا فإننا لن نجادله عندما يقول : « إن الرامسيوم [..] وإن كان أكثر الآثار تدهوراً [...] فهو أكثر ما تتضمنه طيبة نبلاً ونقاءاً ، » بل ونزداد أعجاباً بتعليقه الغريب الذى أثارته مشاهدته للبقايا المذهلة لتمثال رمسيس الضخم وهو على الرغم من كونه مهدم ومفتت ومنثور على الأرض مازال مسيطراً على الفراغ الذى كان يسحقه بوجوده فى محيطه فى قديم الزمان « يجب أن نعبر عن أعجابنا فى آن واحد بمقدرة الشعب الذى شيده وبالبرابرة الذين هدموه بكل هذه البراعة وهذا الاتقان » .

ثم بعد أن يضيف لچاك – چوزيف المنحوتات البارزه الهائلة التى تصف المعارك التـى تصف مجد أكبر رامسيات آثار مصر الفخمة ، يلخص «چنرالنا » رأيه بقوة ساحقة :

« أردت بدخولى فى كل هذه التفاصيل أن أعطى لك فكرة عن النحت البارز التاريخى الذى كانت تزين به الآثار الفخمة فى مصر وعن النصوص العظيمة التى يروق لى أن أسميها لوحاً هوميريه أو نحوتات بطولية لأنها مليئة بهذه النار وهذه الفوضى المهيبة التى تحرك فينا الأحاسيس لدى قراءة معارك الإلياذه ... » .

كيف يمكن التعبير بأفضل من ذلك عن إعجابه وبأقل شوفينية مصرية ؟

فمنذ سنوات وهو يثبت بما فيه الكفاية الدور التأسيسى لمصر للحضارة والفن

---

* مثل جان يريوت .

على الإطلاق مما يتيح له فرص تحية الثقافة التى كانت أفضل من عبر عن عظمتها وذلك من خلال هوميروس .

إن وصف جان - فرانسوا شامبوليون للرامسيوم يعتبر أغنية غرامية . أما الذى خصصه للدير البحرى - تحت المسمى الذى جاء فى وصف مصر أى « الاطلال الواقعة شمال مقبرة أوزيما ندياس » - فهو درس فى التحليل التاريخي فهو يثبت أن أعظم المفكرين يمكنه أن يستخدم جميع الوسائل التى يمكنها أن تكشف الحقيقة دون أن يبلغها على الرغم من ذلك لأن الشروط المادية لم تكن متوفرة بعد .

سبق أن رأينا * أنه خلال رحلته إلى الصعيد فى نوفمبر ١٨٢٨ أعتقد المكتشف - وهو يزور هذه الآثار التى لم تكن درست بما فيه الكفاية بعد وكانت الرمال لا تزال تغطيها - أنه رأى خلال مروره أمام صور وجه تم محوه بالطرق عليه - صورة ملك مدان ومخلوع عن عرشه .

الدراسة المتأنية التى قام بها بعد ذلك بستة شهور كشفت له عن شخصية من الشخصيات التى تظهر فى هذه المواقع تحت اسم أمييننتى تسبق فى كل مكان اسم تحتمس الثالث الشهير (ماوريس عند الإغريق ووضعوه فى مستوى سيزوستريس ذاته) . ولكن - وهو الاكثر غرابة - أن أحداً لا يتكلم عن هذا الملك الملتحى الذى يرتدى الزى التقليدى لفرعون « إلا مستخدماً أسماءً وأفعالاً مؤنثة كما لو كان يتكلم عن ملكة » .

ويلاحظ « الجنرال » فى هذا الصدد أن اسم أمييننتى يسبقة باستمرار لقب « الملك سيدة العالم كله » ويتبعه لقب « إبنة الشمس » ويستمر شامبوليون ، فى تعميق بحثه وهو فى ذهول فيلاحظ أن فى كل مكان تقريباً كان خرطوش أمينتى ليس فقط مطرقاً بل وضع فوقه خرطوش تحتمس الثالث وإلى جواره ظهر فجأة اسم أمنسى وعلى هذا الأساس راح يغير من ترتيب الأسرة الثامنة عشر جاعلاً من أمنسى أبنة تحتمس الأول ليس فقط أخت وزوجة تحتمس الثانى ولكن جعلها أيضا ملكة مصر الحقيقية لأكثر من عشرين عاماً قبل أن تتزوج أمييننتى الوصى على العرش خلال السنوات الأولى من عصر تحتمس الثالث ويخلص إلى الآتى :

* راجع الفصل ١٦ ص 561

« الإضافات التى تأثرت بها معظم النصوص الشارحة لما قام به الوصى أمينتى تثبت أن وصايته كانت بغيضة وثقيلة على الموصى عليه تحتمس الثالث ويبدو أن هذا الأخير قد إهتم بأن يزج بالوصى عليه فى غياهب النسيان . ففى عهد تحتمس الثالث جرى بالفعل تطريق كل قصص أمينانتى .. » .

خلفاء مؤسس علم المصريات توصلوا إلى الحقيقة التى هربت عن إدراكه وتعرفوا على حتشبسوت تحت ماطرقه ماوريس على الرغم من تخميناته التقريبية لعام ١٨٢٩ . لعله من حقنا أن نقيم هذه الأبحاث التجريبية العبقرية فنعتبرها أفضل من كونها إنتصار كامل للحقيقة نظراً لأن التنقيب كان يتم فى رمال تخفى جيداً ما تحتوية ، كما تخفيه آلاف السنين فلا تكشف المعاول التى تتعامل معها سوى عن جزء بسيط من الحقيقة . هل وقع شامبوليون هنا ضحية عدم كفاية المستندات المتاحة للباحث أم وقع فى خطأ لغوى بسبب تفسير خاطئ لنهايات الكلمات المحددة لوظيفتها ؟ إن هذه النهايات ذاتها وهى عبارة من رموز صوتية تقع عادة فى أخر « الكلمات » كانت من إكتشافه هو وهى أحد العناصر الجوهرية من « أوريكا » عام ١٨٢٢ ؟ إننا نمتنع هنا عن الفصل فى الأمر ولكننا نقول فى ذات الوقت أننا نحبه على هذه الصورة وهو يتهته ويخطئ هدفه بقليل ..

بعد ذلك ببضعة أيام يواجه أوديب لغزاً أخر من الألغاز الشهيرة فى طيبة أى : أصل ومعنى والهدف من وراء « تمثالى ممنون العملاقين » وهو الاسم الذى أطلقه عليهما الاغريق . غيران المحترم والحذق دونون - كما يذكر جان - فرانسوا - رأى أنهما لأميرتين . لم يقف عدم الوضوح الخاص بجنس صاحبى التمثالين حائلاً أمام حصافة المكتشف إذ أعلن أنهما شيدا لتمجيد أمينوفيس الثالث وهما على ما يبدو كانا فى موقعهما عند مدخل هذا المعبد البالغ الفخامة « أكثر روائع العاصمة القديمة إثارة للدهشة » وكان المصريون يسمونه « أمينوفيون » . أما اللغز الآخر الذى كان يطرحه هذان العملاقان فهو الغناء الذى أدعى العديد من الرحالة الأغريق والرومان أنهم سمعوه يصدر من حنجرة أحد التمثالين العملاقين ما أن تقع عليه أولى أشعة الشمس ، عن هذه الظاهرة كان بطلنا أقل ثقة إزائها واكتفى بأن أورد شهادته :

« وإذ كنت جالساً مع شروق الفجر فوق ركبتى ممنون » حسبما أورد ساخراً ، فإننى أسجل « عدم صدور أى نغمة موسيقية من فمه تشتت إنتباهى من الصور الحزينة التى كنت أتأملها ... » .

كشفت دراسته المستفيضة للآثار التى لا يمكن حصرها فى مدينة حابو أن هذا التل يعتبر بمثابة « كشف مختصر للآثار المصرية الضخمة » حيث يتزامل « الرائع والأصيل مع المقوت (المضاف) » . وهو ما يقود جان - فرانسوا - إلى تأملات جديدة حول العلاقة بين الفن المصرى والجماليات الاغريقية . نقطة إنطلاقه فى تقييمه كانت « الحالة المزرية » لترميم أحد معابد الاسرة الثامنة عشر تحت حكم بطليموس - إيفرجات الثانى : أنه يرى فى ذلك نفياً قاطعاً للرأى القائل بأن الفن الفرعونى إكتسب اكتمالاً على يد الإغريق فى مصر .. هل كان من واجبه أن يؤسس إثباته على مثل هذا البرهان المشكوك فيه من حيث أنه لا يمكن أن نعتبر المستعمر البطليموسى (اللاجيدى) أفضل الممثلين للفن والجماليات الإغريقية ولا الترميم هو أفضل تعبير عن إحدى الثقافات . إلا أن مرافعته فى تطرفها - وهى مثالاً فى نوعيتها - تعتبر بالفعل مؤثرة :

« أكرر من جديد أن الفن المصرى لايدين إلا لنفسه بكل ما أنتج من أشياء ضخمة ونقية وجميلة وأرجو ألا اثير استياء العلماء الذين أقاموا معتقادتهم على أساس إيمان راسخ بأن فنون اليونان تولدت تلقائياً بأننى أؤكد أنه من الواضح بالنسبة لى كما هو الحال بالنسبة لجميع الذين شاهدوا مصر جيداً أو الذين لديهم معرفة حقيقية بالآثار المصرية الموجودة فى أوروبا بأن الفنون بدأت فى اليونان بأن قلدت تقليداً أعمى الفنون المصرية التى هى أكثر تقدما بكثير مما يعتقده العامة فى زمن كانت المستعمرات المصرية الأولى على إتصال بالسكان المتوحشين لمنطقتى الاتيك والبيلوبونيز .

علمت مصر القديمة الفنون لليونان التى بدورها طورتها نحو مراحلها الأسمى . ولكن بدون مصر لم يكن لليونان أن تصبح الارض الكلاسيكية للفنون الجميلة . هذه هى نظريتى التى أؤمن بها إيماناً راسخاً حول هذا الموضوع البالغ الأهمية وأكاد أخط هذه السطور وأنا أمام النحت البارز الذى نفذه المصريون بأفضل حنكة .. فى الصنعة وذلك ١٧٠٠ عاما قبل العصر الميلادى فماذا كان يفعل الإغريق حينذاك .. » .

ولكن كيف كان يعيش - أوكانوا يعيشون - فيما أسماه جان - فرانسوا - «الأرض المقدسة » الواقعة بين المناطق السفلى التى تغوص فيها الألهة ونار السماء التى لا ترحم ؟ فى ٤ يوليو ١٩٢٩ - بعد أقل من عام من وصول الحملة كتب إلى جان - جوزيف هذا التقرير الملئ بالأيحاءات :

« لعلك تعتبرنى رجلاً قام لتوه من بين الأموات : حتى الأيام الأولى من شهر يونيو كنت أحد سكان القبور حيث لا يهتم أحد بشئون الدنيا [..] أسكن منذ ٨ يونيو قصرنا فى الجرنة * وهو عبارة عن كوخ من اللبن من دور واحد وهو يعتبر فخيما بالمقارنة بالأوكار والشقوق التى يقطنها مواطنونا العرب [..] لا أقيم فى القصر سوى فى الليل ، فما أن يبزغ أول ضوء النهار إلا وأقوم وأركب حمارى وأنطلق فى السهل بخطى وئيدة استنشق نضارة الصباح ... » .

إقامتهم هذه فى القرية تنبع أهميتها من أنها جعلت رجالنا الباحثين عن الكنوز فى مكان يعطى فكرة عما كان عليه مقر إقامه إحدى الشخصيات الهامة فى مصر القديمة . فبعد المعابد والقبور أخذوا يجربون هنا بعضا من مكونات الحياة اليومية لرعية فرعون - الاكثر ثراءاً . ونحن نعلم منذ إقامته فى بنى حسن أن صاحب الكشف يوجه إهتماماً لمعطيات الحياة الإجتماعية لسكان وادى النيل بنفس مقدار اهتمامه بالمواضيع الهامة المقدسة والتاريخية ** .

كان يعمل من سبع إلى ثمان ساعات يوميا ، من الفجر حتى الظهيرة والساعة الرابعة حتى السادسة فى الحر الشديد . ولكن كم هو مرهق الآن .... ومهما قال فى رسائله أنه فى صحة « تتماسك فى روعة » فإن رفاقه كانوا يعبرون عن قلقهم من آثار الجو والمجهود الضخم والمشاكل والمسئوليات على صحته وربما أيضا بعض المجازفات الغذائية . إن تكوينه الجسدى الذى أشرنا إلى نقاط ضعفه فى عديد من المرات لم يكن ليكتفى بالغذاء الضعيف الذى أشار إليه أحيانا فى مراسلاته والأكثر من ذلك أهمية ، شرب كميات كبيرة من ماء النيل دون ترشيحها .

كان معاونوه يكتشفونه مدداً أرضا فى أغمائة أمام أحد المقابر أو داخلها ومذكراته منثوره حوله فتقرروا عدم تركه وحده بعد ذلك . إلا أنه أصر على أنه يأسر على الجميع أن يتركوه وحده فى بعض الحالات فى وحدة وسكون « حتى اتمكن من سماع أصوات الأجداد » .

وحيداً فى قلب مقبره سيتى الأول المحفورة فى الجبل ، وحيداً مع « أجداده » الذين يلهمونه حياته كلها منذ ما يقرب من ثلاثين عاما ، هاهو « صاحب الرؤية

---

* الذى وضعه بيتشينى تحت تصرفهم وهو المسئول عن حفريات أناستازى .

** سيسكن جان - فرانسوا ورفاقه خلال الأسابيع الأخيرة من إقامتهم فى طيبة ، المعبد الصغير للإله أدبه بالأقصر .

النافذة » الذى يجِّد بكل ما أوتى ليعرف ، ثم يفزع من فتوحاته ، يقف وحده فى هذا الظلام الذى يمزقه – كما لو كان حريراً – طيران الخفافيش وقد بهره مسار إله – الشمس ونعم نيفتى وبياض بشرة أوزيريس المقدس .

هاهو جان – فرانسوا شامبوليون المكتشف وقد اكتشفته مصر . واكتشفه زملاؤه أيضاً . كانوا أربع عشرة حوله فى البداية ثم أثنى عشرة ثم تسعة ثم سبعاً . كان بيبانت أول من تركه ثم جالا سترى . ثم أنسحب لنورمان فى أول يناير ١٨٢٩ الذى كان كما يقال اليوم – قد أخذ تذكرة « ذهاب فقط » . وبعد ذلك بفترة قصيرة لدغه عقرب الدكتور ريتشى فأقعده عن العمل – وقد توفى بعد ذلك بخمسة أعوام فى فلورنسا مشلولاً .ويقول بعضهم : مجنوناً . أما البروفسور راضى فسنراه يهرب يوماً ناحية الدلتا التى أراد أن يعبرها سيراً على الأقدام فتاه فيها إلى الأبد .

سيترك الكسندر دوشان القافلة بدوره وكان على وشك أن يجر معه لوت ولوهو وبيرتان – لولا أن شيروبينى نجح فى إبقائهم إلى جوار « الجنرال » .

ظل أبن مؤلف موسيقى أوبرا « ميدى » وسيظل ، أكثر رفاقه المتحمسين له وأكثرهم ولاءاً والأكثر حناناً . منذ بداية الرحلة أندمج داخل المجموعة الفرنسية * وتصرف كما لوكان سكرتير وياور شامبوليون : إذ كان حريصاً على تلبية كافة رغباته وعلى مساندته فى أزماته الصحية ومرافقته فى نزهاته العفوية وحصل لذلك على اعتراف المكتشف بجميله عليه . وكلما إقتربت الرحلة من نهايتها كلما فرض شيروبينى نفسه كالرفيق المفضل ** .

بعد أن مرت حادثة « لوحة النزاع » ظلت العلاقات بين الفرنسيين والتوسكانيين صافية على الدوام . لم يكن « الجنرال » يكتفى بتقدير أيبوليتو روسيللينى لفضائله العلمية وفهمه للظروف المحيطة ومزاجه المعتدل دائما بل أعجب إيضاً بقدرات عمه جياتانو روسللينى كمهندس معمارى وموهبة الرسام جيسيبى أنجيلليلى وكان يفضله على زملائه الفرنسيين ، كما كان مقداراً للخدمات التى أداها الدكتور ريتشى فى هذا المجال والمجالات الأخرى .

---

* كان قد نال الجنسية الفرنسية .

** عثر على بعض أجزاء من مذكراته وهى تحتوى على رسومات وتعتبر إحداها أكثر صور شامبوليون المعروفة تأثيراً على المشاهد . وقد نقله وعلق عليه بذكاء ميشال دوفاشتار فى Revue Fransaise d' Egyptologie الجزء ٢٨ صفحات ١٩٨ - ٢٠١ .

الواقع أن المشاكل جائته من الجانب الفرنسى . لنمر كالكرام على انطوان بيبانت الذى أفقدته مغامرة الرحلة كيانه . ثم إننا نعرف أن شارل لونورمان كان قد أخطر رئيسه بـأنـه لن يتمكن من إطالة إقامته لما بعد الأيام الأخيرة من عام ١٨٢٨ إلا أن « الجنرال » أسف كثيراً لمغادرة الكساندر دوشان إلى اليونان فهو مجد فى عمله بقدر ما هو كفء ، وقد تأثر للغاية لما أبداه الرسامون الشبان الثلاثة من رغبتهم فى الانضمام إليه فى الإبتعاد عن المهمة .

كاد أن يؤدى نستورلوت دور يهوذا عندما صرح بأنه أصيب « بتخمة من الهيروغليفيات » وأن ما يتقاضاه لا يتناسب مع مجهوداته . غريب أمر موظف الجمارك هذا الذى ولع بعلم المصريات ثم كان يحلم بصوت عال - فى بعض الأحيان - بالعودة إلى وظيفته الأصلية وكان يصف نفسه بأنه « رجل يعبر النار ويعتقد أنه وصل باستمرار إلى حافة الموت ». كان قلوقاً ومتطرفاً فى انفعالاته ومتقلب المزاج وسريع الغضب ، حاداً أكثر منه ذكياً هذا الجمركى الذى فعل الكثير ليرفع من درجة القلق لدى قائد الحملة . إلا أنه عوض كل ذلك بأن سهر عليه وهو على فراش الموت ثم بأن دافع ببسالة عن ذكراه .

لو أن هذه الشهادة لشارل لونورمان لا تنصب سوى على الجزء الأول من الرحلة إلا أنها تظل ذات قيمة بالغة ! « لا أجد سوى المديح لأصف به زملائى الفرنسيين فى الرحلة . شامبوليون ممتاز باستمرار مسرفا فى عطائه من كنوزه العلمية ، سهل المراس على الرغم من عبقريته . رفيق مكتمل وأنى لمدين له لدرجة أنه لا يمكننى سوى أن اتعلق به مدى الحياة . الرسامون الخمسة أعضاء البعثة جميعهم شباب ممتازون ودمثو الاخلاق عشت معهم كأخ لهم : أفضل الجميع هو دوشان ... *» .

ثم بعد ذلك بفترة عندما راجع شارل لونورمان الدروس المستخلصة من تعاونه مع شامبوليون كتب يقول : « .... إن ماتمكن نفر قليل جداً من الناس مثلى من تقديره عنده هو هذه السرعة التى تحكم النتيجة وهذه القوة فى الحدس التى لا تملكها سوى العبقرية وفى نفس الوقت هذه البرائة عند البحث عن الحقيقة وهذه البساطة النبيلة فى الإعتراف بالخطأ عندما يكتشف أنه وقع فيه ... » .

---

* هذا التقدير آثر فيه لدى لونورمان - وله صفة شبه رسمية وشخصية متعالية بعض الشيئ - كون دوشان ابن محافظ المكتبة الملكية .

أضاف لونورمان لهذه الصورة الجميلة للعالم وهو يعمل على أرض الواقع لمسة يجب أن نعيرها أهتمامنا . بعد أن عدد مناقب شامبوليون العلمية - حيا فيه ممثل سلطة آل بوربون المتحفظ : « ميله الهادئ لأن يتجاهل مالم يحن الوقت لمعرفته » : وهكذا - بينما كان يعترف لأخية « برعبه » لما أكتشفه ، كان جان فرانسوا يقول لزملائه المتدينين أنه يقبل ألا يتضح « كل شئ الآن » فيما يتعلق بالأمور التى تعرض العقيدة الكاثوليكية للخطر وتثير فزع هؤلاء الذين كانوا يرعون حملته ..

الحقيقة ستكون الأقوى وستفرض نفسها بسرعة . ولكن يمكن أن نقول منذ الآن أن « صاحبنا الدوفيني المعفرت » لن يمنع نفسه من إلقاء غطاء مؤقت على وعاء الساحرات إلى أن تتولى ثورة عام ١٨٣٠ عملية فك أسر التاريخ بالمعنى الكامل الكلمة . ولكنه كان قبل ذلك قد حرر مذكرة سرية لمحمد على سلمها لنائب الملك فى مصر قبل رحيله منها ، تجرأ فيها فإنتقد التسلسل التاريخي الذى جاء فى التوراة . ويجدر أن نذكر هنا أن ملحوظة لونورمان تزداد أهمية عندما ندرك أنه كان متخصصا فى الآثار المسيحية القديمة وأن هذه المشاكل الخاصة (« وربما حان الوقت لمعرفته ») قد فرضت نفسها عليه أيضا وقد أصبح فى أخر أيامه غاية فى التدين .

وإذا كان صاحب الاكتشاف لم يمنع نفسه من الحيطة التكتيكية فيما يخص صلب الموضوع ! فهو لا يخطئ ولا يتردد فى الشئون المتعلقة بواقع مصر الحى . لقد رأيناه مهتما منذ البداية بهذا الشعب الوريث البعيد لتاريخ عظيم وقد تأثر للغاية من ظروفه الحالية . هذا وكان صديقه الدكتور باريزية عالم الأوبئة الموفد إلى الشرق للبحث عن وسائل مكافحة الطاعون قد حثه على ذلك ولما لم ليتمكن من لقائه فى صعيد مصر كتب له فى يناير ١٨٢٩ :

« .... إنك تعجب بروائع مصر القديمة أما نحن فإننا نبحث بتمعن فى مصائب مصر الحديثة التى لا نهاية لها . أوه ! كم هى شاسعة المسافة التى تفصل الآثنين !! كلما أمعنت التفكير كلما زادت دهشتى لتاريخ مصر القديم ولحكمتها وعبقريتها وعلومها وقوتها . وكلما زادت مشاهدتى زادت قناعتى بأن مصر اليوم وضعت وسط الأمم كمثال لا يجب أن يخشى منه ويلزم الهروب بعيداً عنه . كل ذلك يحدث وهى تحت سماء رائعة وعلى أرض خصوبتها متناهية ... » .

لم تكن أراء شامبوليون أقل تشدداً عن مصر المصريين وقد انحنت قامتهم أمام سطوة الباشا الكبير ولم تتوقف عن كونها بضعة سطور فى رسائله إلى أخيه أو إلى داسييه وكان معروفا منذ البداية أن لهذه الرسائل صبغة العلنية . أثناء حياته اليومية فى صعيد مصر لم يكن يتحرج من إسداء النصح للفلاحين ليتفادوا بعض المضايقات أو دفع بعض الضرائب ولابد أن ذلك لم يخفى عن عيون جواسيس الباشا . وسنرى من محادثات الباشا مع « الجنرال » والدكتور باريزيه فى نوفمبر ١٨٢٩ أنها ستوضح له الأمور .

حكم صاحب الكشف حكماً يبدو كما لو أنه لا يقبل النقض ضد نظام محمد على فى خطاب إلى مسيو داسييه غداة عودته إلى فرنسا .

« .... محمد على هذا الرجل الممتاز لا يفكر فى شئ سوى إخراج أكبر كمية ممكنة من المال من مصر المسكينة ولما كان يدرك أن القدماء رمزوا إلى هذا البلد بالبقرة فهو يحلبها ويرهقها من الصباح إلى المساء قبل أن يذبحها وهو ما سيحدث عن قريب . هذا هو بالضبط ما ينتج عن مشورة دروفيتى الطيبة والنبيلة وجومار العظيم ومن كانوا على شاكلتهما من رعاة الشعوب الأخرى . إن مصر تثير الرعب والشفقة .. » .

إلا أنه يعبر عن رأى أقل قسوة فى الباشا الكبير عندما يلقبه فى أحاديثه بكنية كاشفة لما يريد قوله وهى : حورس – تيفون . حورس المفيد والخالق وصانع حداثة مصر ؛ تيفون هو الإله القاتل الذى حدد لنفسه هدف انتزاع وادى النيل من غياهب الظلمات ففرض على شعبه قانونا لا إنسانياً وأجبره على السخرة الدائمة فى جميع المجالات وعلى تشييد هرم لا يكتمل .

فى ٤ سبتمبر ١٨٢٩ أعطى « الجنرال » أوامره لمغامريه بالانسحاب .. الإبحار تم بعد هبوط الليل عند أعتاب معبد الأقصر . كانوا جميعا يستعجلون الانتهاء من كل هذا . اذ لعب المناخ دوره فى تلك الحالة التى انتابتهم . وكانت المهمة قد انتهت فى مجملها ، وبدأت بعض التوترات تظهر على السطح وكان شامبوليون قد بلغ به الإرهاق مداه . وذهبت آثار النشوة بعد أربعة عشر شهراً من الأعمال الجسورة والاكتشافات والانبهارات ، وهذا شئ طبيعى جداً .

كان من المخطط التوقف في دندره وأبيدوس . التوقف الأول تم اختصاره بسبب حالة الإرهاق الذى كان عليها رئيس البعثة ولم يعد في إمكانه أن يخفى ذلك سوى عن أخيه . أما التوقف الآخر فقد ألغى بسبب الفيضان . سنذكر هنا إشارتين متوازيتين إلى هذه المرحلة النيلية في اتجاه الدلتا .

الأولى لروسيلليني : « وسط أشجار التمر هندى والسنط والصفصاف كانت هذه الرحلة قصيرة ولكنها ممتعة لأنها جاءت بعد الإقامة في الصحراء الجرداء فأعادت الطبيعة الصفاء إلى نفوسنا » .

الأخرى لشامبوليون : « نرى البؤساء من الفلاحين نساءً ورجالاً وأطفالاً يسرعون الخطى حاملين القفف المليئة بالتراب ليتمكنوا من إنقاذ منازلهم وماتبقى لهم من مؤن [....] إنه مشهد مؤسف [....] الحكومة لن تطالب بضرائب أقل على الرغم من كل هذه الكوارث ...... » .

ومهما كان جان فرانسوا شامبوليون لا يميل كثيراً للمشاركة في نهب وادى النيل إلا أنه لم يترك وادى النيل خالى الوفاض . فهو لم يجعل من صرخة الأسف الشديد الزائفة التى أطلقها قبل ذلك بتسعة أعوام بخصوص رسم أبراج معبد دندره ، لم يجعلها نبراساً له ، فعلى الرغم من تفاهة المبلغ الذى خصص له مؤخراً (عشرة آلاف فرنكا) نجح في أن يضيف إلى لوحتى النحت البارز الرائعة التى اقتسمها مع روسيلليني والتى انتزعت من مقبرة سيتى الأول ، تابوتا لا يقل عنهما جمالاً وهو من البازالت الأخضر تم شراؤه بناءاً على أوامر منه لدوشان من وزير الحربية محمود بك * .

إقامته القصيرة في القاهرة خلال شهر سبتمبر أتاحت له فرصة مقابلة أبن محمد على ** وقائد حملاته العسكرية إبراهيم باشا وقد وجد فيه مثل العديد من المؤرخين بعده - رجلاً ذا شخصية أكثر عظمة من أبيه بل إنه ذهب إلى القول عنه في خطاب لداسييه : « إنه رجل فريد في عظمته . جدير تماماً بحضارة مصر .. » وهو لذلك حث إبراهيم إلى القيام بحملة سلمية لمرة واحدة على الأقل إلى منابع النيل : إنه هدف جميل لمنتصر سلبت منه انتصاراته حتى ذلك الحين .

---

* القطعتان معروضتان في اللوفر في صالة هنرى الرابع.

** بالتبنى .

ملحوظة من المترجم : نرى أن المؤلف أقر دون تحفظ ما يتردد عن عدم أبوة محمد على لإبراهيم على الرغم من أن المؤرخين لم يتفقوا قط على ذلك . (المترجم) .

فى الإسكندرية – حيث سيبقى لأكثر من شهر ، استقبله القنصل ميمو – الذى تولى منصبه مؤخراً بعد دروڤيتى – يقول أنه غمره بالعديد من علامات « الود الصادق» وهو يستخدم صفة « الصدق » حتى يميز هذه العلاقة عن التى ربطته بسلفه . وقد كان « الجنرال » أكثر وضوحاً فيما بعد إذ قال : « إن ميمو رجل سكن قلبى مباشرة فكان بالنسبة لى ما كان على دروڤيتى أن يكون » .

الطراد « أسترولاب » أنيط به إعادة شامبوليون إلى فرنسا ومعه أخر الرفاق سالفادور شيروبينى وقد لقبه بحنان « ياورى الشخصى » . أما التوسكانيون فقد سبقوه إلى ليفورن فى السابع من اكتوبر على متن مركب تجارى . فى حين وجد الرسامون الشباب أعضاء اللجنة الفرنسية وهم لوت ولوهو وبيارتان فرصة استغلال موهبتهم فى الاسكندرية ثم بعد ذلك فى القاهرة لبعض الوقت . ولما كان على المركب الفرنسى التوجه أولاً إلى محطات الشام فقد اضطر صاحب الكشف أن ينتظر الإبحار حتى شهر ديسمبر .

وجد فى هذه المهلة فرصة يجرى فيها عدة مقابلات جديدة هو وصديقه الدكتور باريزييه مع الباشا وأبنه إبراهيم . ولما كان الطبيب قد أنقذ الأمير من نوبة صرع أصابته بعد وجبة دسمة للغاية أصبح محمد على يعبر للشخصين الأوربيين عن نفس القدر من الإعتزاز : « الأول أقام أبنى من فراش الموت والآخر أعاد إلى الحياة « أمجاد بلادى » . وأتاح ذلك للضيفين فرصة الدفاع عن التراث التاريخى لمصر لدى الباشا من أجل الحفاظ عليه والدفاع أيضاً عن « كرامة الإنسان المصرى » . إلا أن توزيع الأدوار هنا لم يمنع قط عالم المصريات من الخوض فيما يطلق عليه اليوم «شئون الساعة » .

لم يكن جان – فرانسوا شامبوليون رجلاً يدع كل هذه الفرص تمر دون أن يدفع بالأمور التى تهمه وتشغل بال مواطنيه إلى الأمام . فخلال مقابلاته مع محمد على وإبراهيم دافع عن مشاريع صديقة لينان دو بالفون من أجل إخضاع النيل بصورة نهائية فى خدمة الزراعة المصرية وذلك بواسطة « الرى الدائم » . ونجح فى أن يغير من لتجاه الباشا لتحويل مستشفى القاهرة إلى مصنع للحرير وهو المستشفى الذى أنشأه لتوه الدكتور بارتيليمى كلوت مواطنه من جرونوبل كما جعل الباشا يقتنع تماماً بحتمية دعمه الكامل والنشط للبعثة التعليمية التى تضم مجموعة من الشباب المصرى المتعلم والتى كانت موجودة فى فرنسا والذى سيكون نجمها المتألق رفاعة الطهطاوى

والتى ظلت بمثابة همزة وصل بين الثقافتين لفترة طويلة . وحصل فى النهاية على تأكيد إهداء مسلة الأقصر من محمد على لفرنسا - وهى المسلة التى تيم بها جان فرانسوا قبل ذلك بأربعة شهور * .

إلا أن أهم مبادرات صاحب الكشف كانت المذكرة التى سلمها الباشا من أجل الحفاظ على آثار وادى النيل وكان قد سجل عبر رحلته فيه الحالة المتدهورة التى كانت عليها هذه الآثار بل سجل أيضاً إختفاء بعضها . إنها صرخة استغاثة شجاعة أطلقها بعد التحذيرات الشفهية التى لم يظل يكررها بها خلال لقائاته مع سيد مصر . فلنحكم بأنفسنا .

« ....إنه من مصلحة مصر العليا نفسها أن تحرص حكومة سموكم على المحافظة على المبانى والاثار القديمة التى تشعر أوروبا وعلماؤها جميعاً بالأسف العميق على الدمار الذى يلحق بها . [..] من المعلوم بالطبع أن هذا التدمير البربرى يتم على الرغم من نوايا سموكم ومن رؤيتكم الثاقبة المعروفة جيداً من الكافة ** ومن أشخاص عاجزين عن تقدير الأضرار التى يسببونها لبلادهم عن جهل .. ومع ذلك فإن هذه الآثار قد ضاعت بالفعل دون رجعة .. » .

وبعد أن ذكر قائمة بثلاثة عشر وأربعة عشر أثر تم تدميرها مؤخراً مثل آثار أشمونين أو الكاب » أو جزيرة اليفانتين أخذ شامبوليون يستحلف محمد ألا ينتزع شيئاً من الآثار بعد الآن ولأى سبب كان من الأربعين موضعاً الذى حددهم - ومنهم الكرنك ، الأقصر ، الجرنة ، ومدينة حابو ، أسنا ، إدفو ، كوم أمبو ، أبو سمبل وبعض الآثار الأخرى فيما وراء الشلال الثانى .

وبعد أن أوضح أن « الاثار المحفورة فى الجبال لا تقل أهمية من المشيدة بالحجارة المستخرجة من هذه الجبال » دافع صاحب الكشف عن حماية سقارة وبنى حسن وبيبان الملوك وغيرها .

« .. الآثار التى تدمر يوميا تدميراً كاملاً [...] على يد الفلاحين لحسابهم الخاص أو على وجه الخصوص - لحساب تجار الآثار الذين يعملون لحسابهم [..] إن الكهوف المنحوته أو المرسومة التى تكتشف يومياً فى سقارة وفى العرابة أو فى الجرنة تكاد تدمر تماماً فور فتحها بسبب جهل المنقبين أو عمالهم [..] إن مصلحة

---

* راجع الخاتمة ص 645 .

** خداع جسكونى .

العلم لا تفرض بطبيعة الحال توقف عمليات التنقيب لما تجنيه العلوم كل يوم من حقائق مؤكدة وأنوار لم تكن تحلم بها قط ولكنها تطالب بفرض نظام على المنقبين يسمح بأن تكون المحافظة على المقابر التى يتم الكشف عنها اليوم وفى المستقبل مؤكدة تماماً ومؤمنة جيداً ضد ما يناله منها الجهل والجشع الأعمى » ..

الاسكندرية فى نوفمبر ١٨٢٩

وهكذا استكمل محافظ المتحف مهمة المكتشف . صحيح إننا رأينا أن رئيس الحملة لم يحجم هو ذاته عن انتزاع لوح رائعة من الحفر البارز من مقبرة سيتى الأول ولا من استعادة أو الحصول على هدايا أو شراء قطع أثرية لم يكن الهدف من ورائها إثراء مجموعات متحف أجنبى . ولكننا نتذكر أيضاً مانقلناه عن مدام بريشيانى عن تقاليد ذلك الزمان . ولنا أن نتخيل ما كان يمكن لأفراد أقل تمسكاً بالتراث الثقافى المصرى من شامبوليون وروسيللينى أن يأخذوه معهم من رحلة مثل هذه وفى ذلك الزمان ... أن المصلح الكبير لا يلغى السلوك القديم برمته ولكنه يندد بمساوئه ويحدد فضائل جديدة .

قبل أن ينصب نفسه رائداً لاوجوست مارييت الذى أسس بعد ذلك بثلاثين عاماً إدارة الآثار المصرية - أشرف جان - فرانسوا على شحن تابوت « زيهار » الرائع على متن الاسترولاب وكذلك تمثال الملكة كاروماما الذى اشتراه فى الاسكندرية ولوحة النحت البارز المأخوذة من مقبرة « سيتى الأول » وكان فى حالة قلق من أن تفعل معه الحكومة البريطانية ما فعلته بالنسبة لحجر رشيد : لأن لندن ادعت الآتى : بما أن من اكتشف مقبرة ستى الأول هو بلزونى وبما أن هذا الآخير يعمل لحساب هنرى سولت فإن جميع القطع الخاصة بالمقبرة تعتبر ملكية إنجليزية إلا أن هذه المطالبة لم تصل إلى أية نتيجة واحتفظ شامبوليون بغنيمته .

رفع هلب « الاسترولاب » الذى كان يقوده فارنيناك دو سان - مور وهو من مقاطعة كارسى مثل صاحب الكشف - فى ٦ ديسمبر ١٨٢٩ - كان معروف عن هذه السفينة التى قادها دومون دورفيل عبر عدد لا بأس به من العواصف وفى عدد مماثل من المناطق ، أنها ثقيلة وبطيئة ولكنها محصنة ضد الأزمات الكبيرة . واستغرق عبورها للضفة الأخرى من البحر تسعة عشر يوماً وهو متوسط طول الرحلة فى الشتاء وذلك على الرغم من أن بضعة أيام منها كان الجو فيها هادئاً تماماً .

استمتع جان فرانسوا شامبوليون بالرحلة . فبخلاف الصحبة الطيبة لسالفادور شيروبينى سعد أيضاً بصحبة القبطان فانيناك . وهو رجل شجاع على درجة عالية من الثقافة . كانوا يتبادلون أطراف الحديث وكان هو يسجل ملحوظاته ولكنه كان يغفو كثيراً إذ كان منهكاً للغاية .

فى يوم عيد ميلاده التاسع والثلاثين - ٢٣ ديسمبر ١٨٢٩ - رسى الاسترولاب فى ميناء هيار . وكان عليه أن يعبر محنة (الكارنتينا) والحجر الصحى لأن الطاعون كان منتشرا حسبما يقال فى الشرق كله وأحيط بعد ذلك علماً بأن العشرين يوماً اللازمة للعزل قد أضيفت لها عشرة أخرون له ولزملائه لأن الاسترولاب كانت قد توقف فى ميناء اللاذقية حيث يقال أن خطر نقل الطاعون منها قد أرتفع . أكدت مدام مارتلو بان فى مذكراته المصاحبة لمراسلات شامبوليون التى قامت بنشرها أن البارون د بسار - وزير البحرية فى ذلك الوقت - كان المسئول عن هذا الإجراء التعسفى الذى أثر كثيرا فى صحة الرحالة شامبوليون - وقد ذكر تلك المحنة فى رسالة موجهة إلى مسيو داسييه : « لدى وصولى إلى بلاد الأجراس * كما يسميها أصدقائى الأعزاء من أهل الصحراء ، إضطرت إلى أن أتركهم يعاملونى معاملة المصابين بالطاعون ويحبسونى فى محجر قذر وتعيس .. » .

أوضح لجاك - جوزيف أنه قرر فى بادئ الأمر تمضية فترة الحجر الصحى على متن الاسترولاب إلا أنه اضطر - بسبب استحالة إشعال النار داخله - إلى اللجوء إلى غرفة سيئة فى الحجر لأنها مزودة بمدفأة إلا أن هذه الأخيرة كانت تصدر كمية هائلة من الدخان ولذا كانوا يطفئونها فى كثير من الأحوال إذا لم يتولى الهواء العاصف ذلك بنفسه .. كانت الأمطار والثلوج تنهمر . بالنسبة له لسالفادور وكانا قد خرجا لتوهما من وادى النيل كانت المحنة قاسية . وكانت بالفعل محنة بالنسبة له قاتلة .

لنحاول أن نتصور الحالة الفكرية التى كان عليها الرجل الذى أكمل لتوه رحلة لانظير لها وهو يعود لبلاده ومعه ثروات تخصها - تحيط به هالة المجد . كانت أوروبا كلها قد قرأت لتوها رسائله التى أرسلها من عمق آلاف السنين ومن أرض أسطورية وهو الأن قابع ينهش السعال صدره بجوار مدفأة فى جو زمهرير ينتظر الإفراج عنه من هذا السجن المخصص للمصابين بالوباء . . الشئ المؤكد فى مجمل الأمر أن استقبال كريستوفر كولومبس كان أفضل من ذلك ..

---

* أى بلاد المسيحيين - بسبب الكنائس .

شغل وقته فى فترة الانتظار القاسية هذه بأن أمطر بالخطابات كل من كان عليه أن يقدم له تقريراً عن رحلته لسبب أو لآخر .

فإلى سوستان دولاروشفوكو - حامى حماه قال :

« من ناحية الأبحاث العلمية التى كانت الهدف الرئيسى (للرحلة) يمكن القول بأن ما حدث قد فاق كل آمالى : إذ أن الثراء الذى تتسم به ملفاتى يثير الإعجاب [..] كان من واجبى أن أفعل ما فى وسعى لكى أثرى القسم المصرى بالمتحف الملكى بمختلف أنواع الآثار التى تنقصه [...] لم آلو جهداً للوصول إلى هذا الهدف : كل ما أمكننى إدخاره من أموال تفضل بها علىّ بلاط الملك ومختلف الوزارات من أجل القيام بالرحلة - أستخدم فى التنقيب والحصول على آثار مصرية من كل نوع - من أجل متحف شارل العاشر ... » .

وكتب إلى البارون دولابويورى - وزير البلاط الملكى الذى أتاح لهذه الرحلة أن تتم :

« جلت فى مصر خطوة خطوة وأقمت فى كل مكان ترك الزمان فيه بعض آثار من روعة الماضى [..] الأشياء التى جمعتها تخطت توقعاتى [..] أعتقد أنه فى استطاعتى القول أن تاريخ مصر وديانتها والفنون التى راعتها لن تعرف جيداً وتقدر على حقيقتها سوى بعد نشر الرسومات التى جنيتها من رحلتى » .

أما الخلاصة النهائية فهى من حق حاملى سرّه المقربين :

كتب إلى جاك - جوزيف ما يلى .

« انتهت حملتى إذن ياصديقى العزيز - وكل شئ جرى كما كنت تشتهى وأشتهيه أنا ..»

وإلى مسيو داسييه

« يهمكم أن تعرفوا ياسيدى أن نتائج رحلتى عبر البحار تخطت كل أمالى » .

انتظار ؟ نعم . ولكن ما هو الثمن ؟ كتب إلى صديقه جان جوزيف دوبوا أيضاً من محجر طولون : « قمت بجمع أعمال تكفى حياة بأكملها ! »

كان ذلك يعنى بالنسبة له خمسة وعشرين شهراً .

١٨ - " الموت يتربص بى فى بابل ! "

« الثلاثة أيام المجيدة » والحزن - سكة - مدام أديل .. » دُفعة أكاديمية - المتحف - أبواب الكولاج دوفرانس - أثنان مع - الانسحاب إلى فيجاك - آخر عربة بريد ..

١٨٣٠ ... بعد أن أقام لمدة ثمانية عشر شهراً تحت سلطة حاكم شرقى مستبد هل كان من الممكن أن يحلم المواطن شامبوليون بسنة أفضل من سنة « الأيام الثلاثة المجيد » ليعود فيها إلى فرنسا ، وهى التى وضعت حداً نهائياً وبصورة باهرة لخمسة عشر عاماً من الحكم المطلق وسيطرة « طافئ الأنوار » . .

هو الذى حركت فى نفسه عودة الليبرالية - الممثلة فى وصول وزارة مارتينياك للحكم فى ١٨٢٨ - الآمال وهو فى أعماق صعيد مصر ، كيف لا يصفق للحركة التى أطاحت بآل بروبون (« المرة الأخيرة » . حسبما قال شاتوريان ..) واوصلت للعرش دوق دورليان الذى كان يعتبر رمزاً للمساواة بين المواطنين وهو الذى كان يعبر له منذ ثمانى سنوات عن تعاطفه القوى والنشط ؟ .

الأفكار التى كانت تحرك السلطة الجديدة هى التى كان يدافع عنها وهو فى جرونوبل عندما عمل صحفياً بحكم الظروف فى عام ١٨١٥ . جمهورى القلب ، لم يكن لديه ما يجعله يعترض على نظام ملكى يحترم حقوق الشعب . ولم تكن الأفكار فقط بل أصدقاؤه أيضاً هم الذين وصلوا إلى السلطة : فرانسوا أراجو لم يكن بعد سوى أحدى مفكرى التحرك أما كازيمير بيرييه - ابن الدوفينيه من مدينة فيزيل فهو التجسيد الحى لبرجوازية منطقة الإيزار التى تتبنى التحديث فكان يستعد لرئاسة الحكومة .

ومع ذلك فإن ما يسترعى الانتباه فى مراسلات وأقوال كاشف أسرار الهيروغليفية لدى عودته من مصر هو أنها لا تعكس قط الحماس الذى كان يحرك فيما مضى عالم اللغويات إزاء كل تقدم تحققه الديمقراطية .

إننا نعرف - من خلال خطاب إلى زلير بوجه خاص - أن جان - فرانسوا قد تحرر من الكثير من الأوهام فى هذا المجال . إنه لا يزال من حزب « التنوير » ومناهضاً جداً « للمنافقين » لأنه إزداد إيماناً بأن سلطانهم يمنع ظهور الحق .

وهو لم يخفى تعاطفه مع القادمين الجدد ولكن فى اعتدال يعكس ما يمكن أن نسميه انقشاع أوهامه الحماسية .

هل نستخلص من ذلك أنه أصبح الأن - ملكا لمصر وحدها وأن التحركات الانفعالية لصغار القوم الذين شهروا على وجه البسيطة بعد خمسين قرناً من الملك - العقرب لم تعد تدخل فى نطاق اهتماماته ؟ هذا محتمل بالفعل . ولكن إذا كان يميل إلى ارجاع الأمور كافة إلى العلم الذى أسسه لا فهو لا يفعل ذلك إهمالا لكل ما لا يتعلق بهذا العلم الجديد ولكن لأنه لم يعد يحكم على الرجال والأشياء سوى بمقدار مشاركتهم فى معرفة حضارة وادى النيل . فهو إذن يعير أهمية أقل لشخص جاكوبى لا يحب مصر عن جيزويتى يحب مصر .

إذا كان الانهيار المفاجئ لنظام « الرستوراسيون » أو إعادة الملكية يثير حماسه فذلك لأن الحدث حكم على العديد من هؤلاء النبلاء الذين خدموا أهدافه بكل سخاء لعدة سنوات بالانسحاب من الحياة العامة أو بالنفى ، أمثال دودوفيل ولاروشفوكو ولابوبورى ونواى .... وعلى وجه الخصوص بطبيعة الحال بلاكاس .. العزيز إلى قلبه بلاكاس . يمكن أن تكون « الثلاثة أيام المجيدة » قد سحرت فؤاده إلا أن رحيل الدوق للمنفى (وعلى الرغم من أن شارل العاشر كان قد غضب عليه من قبل إلا أنه أصر على أن يكون مصيره هو المنفى) قد مزق قلبه . هذا الرجل الجمهورى هو قبل كل شئ رجل ولاء وعلاقات إنسانية : علاقات المركز فيها والقلب هو مصر . ولذلك فيما يخص مصر كان لراعيه - فى تصوره - حقوقاً عليه . ولذلك فإنه لا يوجد تناقض فى قولنا أنه أستقبل ثورة يوليو « وهو يبتسم من خلال دموعه » .

هل كررنا ذلك بما يكفى : هذا الشامبوليون العائد من مصر منتصراً وتحوط بهامته أوراق الغار للنصر العلمى الذى توصل إليه كان رجلاً منهكا إلى أبعد الحدود .

كما لو أن الغنيمة الثقيلة قد أثقلت كاهله حتى بدا كما لو أن ردائه الذهبى يسحقه بثقله . وهو إذا كان يستقبل انتصار الحريات بفرحة غير عارمة فإن ذلك يرجع أيضاً لهذا السبب . الولاء العاطفى والحاح مصر على فكره وفؤاده لعباً أيضاً دورهما بالتأكيد إلا أن الإحساس المسيطر عليه قد يكون نوعاً من الإرهاق الحزين بسبب الآمال التى تبددت .. هذا الرجل اكتملت أبعاده وحقق ذاته وهو فى نفس الوقت

مستنفذ بالمعنى الكامل للكلمة – مازال بالطبع أمامه مهمات عظمى ولكنها لاتعدو أن تكون « من قبيل : « إكمال ما توصل إليه بالفعل » .

تركناه فريسة لزمهرير مقاطعة بروفانس وجسمه المسكين يتقلص أمام العدوان المناخى (شتاء ١٨٢٩ – ١٨٣٠ لا يزال مشهوراً فى التاريخ ونهر السين قد تجمد فى باريس) منذ يناير ١٨٣٠ لم يعد جان فرانسوا سوى رجلاً مريضاً * أصيبت رئتاه مؤخراً بإصابات لا تعالج وهذه التهاب رئوى مزمن هزاً وهو فريسة لمرض السكرى . كبده تنهشه طفيليات النيل ، رأسه يتعذب من طنين فى الأذان ثم أن النقرس لن يتوقف قط عن إيلامه أشد الألم . نقرأ شكاويه من قسوة المناخ عبر جميع مراسلاته وبصورة منتظمة : « ما هذا الشتاء الشيطانى الذى ترسله لنا السماء هذا العام ؟ إنى أتألم لذلك جداً وأخشى كثيراً أن أجد النقرس فى إنتظارى فى ضباب باريس » .

يعكس بوضوح الطريق شديد التعقيد الذى سلكه عند العودة مخاوفه هذه فهو بعد أن عدل عن فكرة التوقف فى إيطاليا (حيث كانت تراوضه فكرة الانضمام فيها إلى التوسكانيين العائدين بسرعة إلى ليفورن حيث لازالت تتكهن فيها الكاهنة ..) قرر أن يقوم ببعض الالتفافات فى طرق الجنوب – الغربى الفرعية .

> « .. إن البرد القارص الذى تعانون منه تحت هذه السماء السعيدة يوقف شعر رأسى ولذلك قررت أن أسلك طريقاً يجعلنى لا أترك شمس الجنوب سوى بعد أطول فترة ممكنة لكى أراعى الانتقال المرحلى . ولذلك فإنى لن أسلك طريق ليون الذى يكاد يكون غير صالح للسير فيه بسبب الثلوج وخاصة فى القطاع الذى يفصل بين ليون وباريس . لدى عمل أوديه فى مدينة أكس لسبعة أو ثمانية أيام على الأقل لدراسة بردية سالبية [..] كما أنوى زيادة أفينيون لزيارة متحف كالفيت . وأعود إلى نيم لزيارة حفرياتها الجديدة ثم إلى مونبولبين – ناربون – كاركاسون ، تولوز وبوردو .. » .

* ومع ذلك نقرأ فى خطاب غريب من روزين لأخيها هوج تقول فيه على الرغم من ذلك أن « الصغير » يتمتع بصحة جيدة غير أنه « يزداد سمنة بأكثر مما ينبغى » وهذه هى الإشارة الوحيدة فى هذا الاتجاه (نهاية ١٨٣٠) .

توجد في خطاب أخر إلى جاك - جوزيف بتاريخ ١٨ فبراير ١٨٣٠ إشارة تسترعي منا التوقف عندها :

« بما أني سافرت دون أن أتوقف في فيجاك فمن العدل أن أرى فيها الأسرة بالمرة . وأنا هنا * أنتظر في أي لحظة وصول هذه الشخصية التي ظلت تنتظر رؤيتي أثني عشر عاماً ولا أشك أن درجة تعلقي بها لا يقل عما تكنه هي لي . وهي أيضاً إحدى احتياجات قبلي . فاستسلمت لها . ستغفر لي هذا التأخير لبضعة أيام [...] إنك تعرف بالطبع أني أعني مدام أديل . سوف نسافر على الفور إلى فيلفرانش حيث ينعقد مؤتمر عائلي لمدة يومين .. » .

ها هي إذن « مدام أديل » تعود من جديد وهو لا يذكر أسمها سوى بعد أن دار طويلاً وإ ـ إمعاناً في الغموض ، « هذا الشخصية الذي ظلت تنتظر رؤيتي أثني عشر عاماً » والتي يشركها بعد ذلك في أمور أسرية . هل هي « ماما الجميلة » التي تحدث عنها عام ١٨١٧ أم هي بطلة إحدى المغامرات التي خاضها « صغير » وهو في مقاطعة كارسي؟ هلي لعبت مدام أديل ** الدورين في تتابع فتوات في النهاية دور الأمومة الحية ؟

نوع غريب من العلاقات من كافة الوجوه . بعد فترة زمنية كتب إيميه شامبوليون - فيجاك - أبن جاك جوزيف - بخط يده على هامش أحد النصوص الخاصة بنشاط جان - فرانسوا التعليمي في مقاطعة كارسي وهو بصدد التعليق عليه : « إن هذا النص كان ملكاً « لعشيقة عمه » . وهو لا يضيف شيئاً بعد ذلك . وهذا لا يكشف لنا الكثير عـن الحياة العاطفيـة لصاحب الاكتشاف في مسقط رأسه ولكنه يؤكد وجود « شخص » في فيجاك « مرتبط » به بنفس قدر ارتباط أخيه به وهو ما يعني الكثير . وعندما سيشعر جان فرانسوا شامبليون بعد عشرين شهراً أن النهاية اقتربت فسيصر على أن يذهب للإقامة لبعض الوقت في كارسي ولم يكن ذلك لأسباب مناخية فقط .

هذه الجولة الريفية العاطفية والأثرية لم تمنع إصابته ببعض من ضغائن وأحقاد قادمة من باريس ففي إكس وصلته أصداء منشور صادر من المجموعة العدائية له حول رحلته إلى مصر . وإذا كان جاك - جوزيف قد أحاطه بها علماً فكان ذلك من

* في تولوز .

** راجع الفصل (٧) .

أجل إعداد هجومهما المضاد . إلا أن الأخ الأصغر ألقى بالأوراق فى النار وكتب لأخيه يقول له :

« وجدت [..] بعضا من الكلمات الحلوة المذاق التى تضمنتها المنشورات التى أتحفتنى بها « العصابة » أثناء غيابى . إنها تنم عن سوء طوية تجعل المرء يتقيأ ولن أنزل أبداً إلى مستوى مصارعة هذه النفايات ، ولن أرد عليها سوى بالمضى فى طريقى محتقراً كل هذه المناورات الخسيسة . إن الحسد يخرج من جميع المسام – وهو يعتبر من طبيعة الأمور . إنى أبصق * عليه وأكمل طريقى ... » .

فى ٤ مارس ، شارع كوك – هيرون فى باريس . صدم جان – جوزيف وبه لفادور شيروبينى اللذان جاءا لاستقباله لدى وصول العربة القادمة من الجنوب الغربى لفرنسا – بالإرهاق البادئ عليه وبثقل مشيته فقد أصبح بدينا ويتنفس فى اهتزازات متلاحقة . كم من السنوات أضافتها مصر إليه ! .. صوته فيه حشرجة وسوالفه تلونت بالمشيب والنظرة الجميلة فى حزن أحتجبت . يجب ألا يحبه المرء سوى قليلاً حتى لا يتملكه القلق كما حدث لهذين الوفيين ..

سارع جان فرانسوا بالعمل على الإقامة فى مكان دافئ . فمن طيبة ومن الحجر الصحى فى طولون كان قد أرسل بالتعليمات لأخيه :

« أكتب الآن لزوجتى عن المسكن الذى يجب أن تأخذه . فهى إذا لم تتمكن من التصرف وبما أن معك توكيلاتها فقم بذلك بنفسك واختاره بالقرب منك . مكتب كبير للعمل وغرفة نوم صغيرة ملاصقة له ** أهم شئ أن تكون الشقة دافئة .. » [ثم يطلب بعد عدة أيام] : « بسجاد جيد وسميك للأقدام *** فى مكتبى وفى غرفة نومى : إن هذا البند هام جداً بالنسبة لى [...] كرسى من الجلد ، مكتب صغير مدفأة كبيرة جداً فى وسط غرفة المكتب ، أما بالنسبة للسرير فهو لا يهمنى » .

---

* الغضب ليس دائماً من مصادر الإلهام للأسلوب الجميل .

** السطر موضوع فى النص الأصلى للخطاب .

*** إن سرد الأحداث يعطى الرؤية صورة شخصية باهتة ومخيب للآمال أكثر مما تعكسه مراسلاتها حيث يمكن ملاحظة أبعاد تؤكد أنها على شئ من الثقافة السياسية والتعقل .

ها هو يهتم بحياته الأسرية الخاصة أكثر جداً من اهتمامه بظروف عمله إنه سيهتم قليلاً جداً بزوجته كما تفعل هى إيضاً به : « إذا لم تتمكن من التصرف .. » وهو يكتب ذلك وهو عائد من رحلة طويلة ومرهقة .. أن ذلك يعنى أن الأوهام لم تكن تداعبه بخصوص زوجته حتى أنه لم يكن متأكداً من أنها ستفعل كل ما فى طاقتها لإعداد مسكن له .

السكن الذى عثر عليه جاك - جوزيف - الذى أصبح الآن محافظاً للوثائق فى المكتب الملكى وبالتالى حظى بسكن خاص بوظيفته - كان مجاوراً بالفعل له : ٤ شارع نافار . وسيعلن صاحب الكشف عن رضائه عليه . كان يحب شارع مازارين والشوارع الصغيرة المحطية ، إلا أنه استعاد هكذا الحى الذى أمضى فيه فترة المراهقة وهو طالب . وفى متناول يده هنا توجد كل الكتب وإذا عبر جسر ديزار - كوبرى الفنون - فهو على بعد دقائق قليلة من مسيو داسييه والأنستيتو (المجمع العلمى) .

الانستيتو ... ! إن علاقات الشقيقين شامبوليون بالرجال ذوى الرداء الأخضر كانت ولازالت عاصفة . وهى تلخص فى الواقع تلك التى كانت قائمة بين القبة * وأغلبية الكتاب والمثقفين الفرنسيين والتى تتراوح بين الطمع الملّح (فى عضويته) والأزدراء مع الحنين إليه .

يقول هؤلاء لماذا نكون أعضاء فيه مشيرين (فى تكتم) إلى أن عدم عضويته لا تكفى قط لتمييز العبقرية . فى حين يقول الاخرون فى أسى كيف لا نكون أعضاء فيه ؟ .. كان جاك - جوزيف مثالاً حياً لطالب العضوية وجان - فرانسوا مثالاً لمن لا يريد - أن يطلب العضوية .. ولكن ...

ليس من المبالغة فى شئ أن نقول أن حياة جاك - جوزيف المهنية كلها كانت تستهدف المجد الأكاديمى . الكرسى - والوظيفة الهامة كانا الأملين اللذين سار ورائهما منذ بداياته فى جرونوبل - وهو عالم آثار علم نفسه بنفسه . وكانت استراتيجيته الاجتماعية تستهدف هذا التتويج . لقد اكتسب صداقة فورييه وصداقة ميلان وكان يعتنى بعلاقاته بساسى وكان يتودد لداسييه .. ويمكن أن نذكر العديد من تقلباته السياسية من أجل طموحه البرئ هذا .

---

* قبة الاسنستيتو أصبحت ولا تزال « كنية » لهذا الصرح العلمى [المترجم] .

أما التشاؤم العميق وتعالى جان – فرانسوا فكانا يضعانه فوق تفاهات هذا العالم . وهو إذا كان قد تطلع للحصول على مكانة أكاديمية فذلك لأنه كان يقدر أن هذا الشرف هو بمثابة تقنين لاكتشافه وأنه من حق العالم الذى فك شفرة الهيروغليفيات ، وهو إذا استمر على إصراره فكان ذلك لأنه فى تقديره أن ظلما قد وقع فى حقه وفى حق أعماله .

بهذا المعنى فإن اكتشاف عام ١٨٢٢ كان كارثة بالنسبة لشامبوليون – فيجاك :

لأن الذى يمكن أن يقبل أصبح الآخر .. يبدو أن أعضاء الأكاديمية فى ذلك الوقت لم تجل بخاطرهم فكرة قبول الأخين ابنا صاحب مكتبة فيجاك معاً كما فعل زملاؤهم بعد ذلك بقرن كامل مع الأخوين تارو ... ولكان ذلك عملاً ذكيا وملائماً إذا أخذنا فى الاعتبار ما قام به الأخ الأكبر فى إنجازات الأخ الأصغر : أحدهما يسحب الأخر إلى أعلى والأخر يجر الأول إلى الأكاديمية .

على الرغم من أنه يتوارى وراء أخيه فإن جان – فرانسوا كان يعتبر نفسه عضواً محتملاً . فهو عندما يعلن لتيڤونيه عن نشر كتابه « **الملخص** » وكان قد قدمه لتوه للأكاديمية فى ٩ إبريل ١٨٢٤ – أضاف يقول له :

« الجميع يردد لى أن أول مكان يخلى فى الأكاديمية سيكون لى » إن ترديد مثل هذه الأقوال وذلك دون تعليق ساخر يكشف وجود بعض الاهتمام بها .

لم تكن العلاقات بين الشقيقين وكى كونتى * قد تحسنت منذ أن راح جان فرانسوا يجوب العالم . وسبق أن تحدثنا عن فشل الأخ الأكبر فى الفوز بعضوية هذه الهيئة التعليمية الجليلة عندما كان صاحب الكشف مقيماً فى إيطاليا . كما تحدثنا عن فشل الأخ الأصغر أيضاً بعد عدة شهور عندما كان يعد « متحفه » فى اللوفر ويستعد لرحلته إلى مصر واندفع دون تروى فى التقدم بعضويته الفاشلة . إذ تفوق عليه الرحالة المجهول بوكوفيل ** . بعد ذلك بثلاثة عشر شهراً بينما كان جان فرانسوا منكبا على قراءة المخطوطات التى على أعمدة امينوفيون فى الأقصر .

---

* Quai Conti اسم الشارع الموازى لنهر السين والذى يقع فيه الأنستيتو » [المترجم] .

** راجع الفصل ١٥

إجتمع أعضاء الأكاديمية لاختيار خليفة عالم الإغريقيات جيل وهو الذى كان أعداؤه يؤكدون أنه لكى يشرح لتلاميذه نصوص اكزنوفون كان يطلب ترجمتها إلى اللاتينية أولاً لكى يتمكن من قراءتها إلا شئ يجعلنا نعتقد أن صاحب الكشف قد تقدم بنفسه لطلب العضوية ويبدو بالطبع أن المبادرة جائت من أخيه ومن مسيو داسييه اللذين إعتقدا أن من المناسب مفاجأته بذلك . من كان فى إمكانه فى ذلك اليوم أن يُفضل على شامبوليون الصغير ؟ فالمنافسين الوحيدين اللذين كانا فى إمكانهما التغلب عليه وهما فيكتور كوران وأوجو شان تييرى كان عدد أعداءهما أكبر من أعدائه .

ومع ذلك فإن نتيجة الاقتراع لم تكن فى صالحه إذ نجح رجل القانون جان - مارى پاردوسو - الأستاذ بكلية الحقوق - عند الاقتراع الرابع بخمسة عشر صوتاً ، تسعة إلى شامبوليون الصغير فى حين حصل كوزان على ثلاثة أصوات وتييرى (الذى لم يتقدم بطلب العضوية على الأرجح) صوت واحد ... كان فشلاً مهيناً عمل جاك - جوزيف علي إخفائه لفترة طويلة عن أخيه ولم تتم احاطه « الجنرال » علماً بهذا الاخفاق سوى فى رسالة مؤرخة ١١ سبتمبر ١٨٢٩ وصلته وهو فى الرحلة النيلية بين دندره وأبيدوس .

كما لو أنه يريد أن يحصل على مغفرة أخيه ، قدم جاك - جوزيف « خطأه » على أنها فضيحة رهيبة وهاجم المنتصر متجنياً عليه وجعل من المهزوم ضحية خطأ قانونى مشين ، وأضاف مؤكداً أن هذا الإقتراع « أصبح موضوعاً لهجوم (الصحف) [..] ولم يحدث قط أن إندلع مثل هذا الحريق فى المجلات الأكاديمية والأدبية [..] وأصبحت محك وحجر الزاوية لكل ذلك وأصبح أسما باردوسو وشامبوليون - ولم يكونا ليلتقيا أبداً - مجتمعين كل صباح تطلقهما سوياً فوهات المدافع ... » .

مادمنا سقطيا فليكن ذلك باكبر دوى ممكن ... ! » من ناحيته تظاهر جان - فرانسوا بأنه يهزأ من كل ذلك إلا أن رسالته لفيجاك لم تنجح فى إخفاء استيائه بالكامل :

« ... أرجو الا يكون [مسيو داسييه] قد استاء كثيراً من أن قطيعه الذى ينخر الجدرى فيه - قد وضعنى تحت مسيو باردوسو * أن ذلك لا يدهشنى منهم . كنت

* مهما كان انتصار مسيو باردرسو غريباً (ولكن طبيعياً بالنسبة للاكاديمية) على شامبوليون فهو يستحق أكثر من الاستهزاء به . جاء فى ملحوظة بقلم ميشال دوفاشتار فى العدد رقم ٩٨ - أكتوبر ١٩٨٣ من نشرة الجمعية الفرنسية للمصريات أنه كان من مواليد مقاطعة لواروشا - وكان مرجعاً أوربياً فى قانون البحار .

ساشعر بقيمة الأطراء إذا إستدعتنى الأكاديمية عندما كانت اكتشافاتى مشكوكاً فيها – عن قصد أو غير قصد فهذا لايهم : ساعتها كانت هيئة الاكاديمية ستستحق منى العرفان بالجميل . وكنت ساشعر أيضاً بالاطراء لو أن هذه الهيئة تذكرتنى عندما كنت أرتقى بدراساتى وأحقق حصاداً رائعاً وسط أطلال طيبة . كنت سأعتبر قبولى بها نوعاً من المكافأة الوطنية ، ولكنها رأت أنه من الأفضل أن تمنع عنى هذه الترضية . ولذلك فمن الآن وصاعداً لن أخط قط خطوة واحدة فى اتجاهها وحتى لوحدث أن نادتنى الأكاديمية فسأتردد كثيراً فى الجلوس على كرسيها مثلما يفعل خبير بالنسبة لزجاجة من الشامبانيا نزعت عنها سدادتها قبل ستة شهور . إن ماء النيل ذاته سيثير الغثيان عندما يزول العطش ... » .

من الجائز أن يشعر المرء بالحرارة عندما يكون الأمر فى محله . كما هو الحال هنا . كان صاحب الكشف وهو فى طريقه إلى القاهرة على حق حين أكد أن فى مرحلة ما كان التصويت الاكاديمى سيخدم هيبته ومن ثم ابحاثه وعلمه الجديد – وأن هذا الوقت قد ولى . وأن من الآن فصاعداً أنه هو الذى سيشرف الأكاديمية بقبول عضويتها – لكى تضع حداً على الأقل للخطأ المثير للسخرية والذى تجلبه على نفسها بإصرارها على تنحية رجل تتصارع عليه جميع الجمعيات العلمية فى أوروبا كلها . وقد كان فى استطاعته الآن أن يلقى الضوء على هذه العلاقة الجديدة بين القوتين ... إلا أنه لن يتمادى فى هذا الاتجاه .

فإذا لم نره يصارع الرجل الممتاز فان برايت – محافظ المكتبة الملكية خلال الإقتراع التالى والذى جرى فى ١٩ مارس (فهو لم يجد سوى الإطراء يوجهه له منذ أيام الدراسة) إلا أنه وجد من الأمور الطبيعية أن ينضم إلى المجموعة التى إنتخبت فى ٧ مايو سنة ١٨٣٠ والتى سمحت بتصحيح وضع خلو ستة مقاعد * وهو إجراء غير مسبوق وسيبقى فريداً فى تاريخ هذه المؤسسة ** وهكذا جرى تعيين شامبوليون كما لوكان ضمن تعبأة عامة دون مجد ولا مناقشات على الرغم من أنه تفوق على شارل نودييه بأربعة وعشرين صوتا مقابل صوتين كما قبل ضمن هذه المجموعة كل من أوجستان تيرى وأميديه جوبار ، عالم اللغويات التركية العجوز عضو الحملة الفرنسية (حمله القرن السابق) .

---

* من أصل عشر مقاعد كانت مجمدة بعملية الإصلاح التى قررها كوربيا – عام ١٨٢٣ .

** إلا أن الاكاديمية الفرنسية قامت بنفس الاجراء عام ١٩٤٧ ، وقد أدى بول كلودال دور شامبوليون فى عام ١٨٣٠ .

هل كان إنتخاب شامبوليون إنتخاباً غير لائق ؟! إن السؤال الوحيد الذى طرح بعد عمليتى الإعاقة التى تزعمها جومار وكاترومار - وراؤول - روشات وسان مارتان هو هل - سيحبس نفسه أم لا داخل سجن كرامته المجروحة .

(« لست من الذين يقبلون أن يرفضوا عدة مرات متتالية ... » هذا ما كتبه لروسيلليني) وما أن قبل أن يجلس إلى جوار الذين تكالبوا ضده منذ سنوات عديدة إلا وتناقشوا حول موضوع أهم بكثير ممن له الحق فى ارتداء قبعة الأكاديمية - : وهو وببساطة شديدة موضوع أمانته العلمية - فإن طبيعة الإنتخابات ونوعية الناخبين وتوازن نتيجة الاقتراع لا تهم كثيرا . وإذا كان حديث قد جرى فهو فقط و بإختصار عن عملية تصحيح بسيطه وسريعة .

وتجدر الاشارة أنه ما تم ذلك إلا وكان جان - فرانسوا شامبوليون من الأكاديميين المواظبين جداً على الحضور . وحضر الإجتماعات منذ جلسة ٢٨ مايو . وفى ٦ أغسطس قدم عرضا عن آثار مصر كما قدم فى ٢٤ سبتمبر بعض الرسومات التى جلبها معه فى رحلته ، فى حين آثارت مشاركته الثالثة الخاصة بطرق حساب الزمن عند المصريين القدما ، مفاجأة غير متوقعة : إذ بعد أن استمع إليه أندفع راؤول - روشات نحوه ورجاه أن يقبل أن يكون صديقه ، (أ) . كما حضر أيضاً جلسات ديسمبر ١٨٣١ ويناير ١٨٣٢ أى قبل وفاته بأسابيع قليلة لا يمكن إذن أن نقول أنه عبر عن أقل قدر من الاستهانة نحو هذه الجمعية التى اساءت معاملته لفترة طويلة .

يبدو أن عناق راؤول روشات - وهو خير مثل « لحزب القساوسة » كان تعبيراً - منهم - عن أنهم سامحوا تماماً جاكوبى مدينة جرونوبل ، صديق الأب جرجيوار وأعضاء الحزب الكاربونارى فى مقاطعة الدوفينيه . فهل كان ذلك بسبب أنه لم يعد يثير الخوف ؟ أو لأن « طافئى الأنوار » - وقد أحسوا بقرب هبوب عاصفة شهر يوليو - طالبوا بمغفرة وسعة صدر رجل التنوير ؟ بعد ثلاثة شهور كان روشات وسان مارتان وأمثالهم قد خسروا المباراة : إذ لم يتمكن مزلاج رجال الدين الصمود أمام كشف الحقائق الأساسية واستولى التاريخ على السلطة : فى الجامعة : ميشليه وكينيه وتييرى . فى الحكومة : جيز وتيار ... ولم يعد تاريخ بداية العالم متعلقاً بإدارة مونسنيور دوفريسنوس المنفردة .

وإذا لم يحتفل جان فرانسوا شامبوليون بهذه الساعات فى جو من الحماس مثلما كان يفعل فى أزمان سابقة ، وإذا كان يستمتع بها استمتاع الذى خاض تجارب عديدة فلا يجب أن نتصوره متقوقعاً داخل مكتبه فوق سجادته المصنوعة من الصوف داخل أبواب مغلقة . بل كان يستقبل كثيرا فى داره بشارع فافار . وعلى الرغم من بدانته وثقل حركته فهو لا يزال يساير التحرك العام للمجتمع ففى عشية الأيام المجيدة الثلاثة فى ٢٥ يوليو ١٨٣٠ سنراه يتحاور مع فرانسوا أراجو والمارشال مارمون الذين حضرا إحدى جلسات الاكاديمية . المساعد السابق لبونابارت – وكان قد استدعى فجأة لقيادة قوات العاصمة – عبر لمحدثيه عن نفوره من المهمة التى إضطر إلى الاضطلاع بها بسبب كون الهدف الواضح منها هو هدف قمعى :

« .... إنكم لن تعانون من ذلك أنتم بصفتكم مواطنين عاديين – فرنسين عاديين . ولكن كما أننى جدير بالمواساة لأنى بصفتى رجلاً عسكرياً قد أجد نفسى مضطراً أن أقتل بسبب أعمال امقتها ومن أجل أشخاص تفننوا منذ زمن طويل فى كيفية إشباعى بمشروب الاشمئزاز » . ولكن عبثاً لم ينجح كل من شامبوليون وأراجو وكازيمير بيرييه فى اقناعه بتقديم استقالته (2) ... » .

« الثلاثة المجيدة » عاشها شامبوليون بطريقة أقل مأساوية من المارشال المشمئز ولكنها تمر بدون أخطار أحدقت به . هذه الأيام التى كان من الطبيعى أن تثير خيال أستاذ جرونوبل كانت بالنسبة له مثيرة للقلق ففى هجومها على التويلورى صبيحة ١٩ يوليو إندفعت الكتائب الباريسية داخل متحفه واستولت على عدد غير قليل من القطع الصغيرة . منها بالطبع بعض من أجمل المجوهرات . إن من عاين أحداث نهب يمكن أن يتصور الصدمة التى لحقت بمعنويات هذا الإنسان القلق بطبعه وهو فى مرحلة وهن حقيقية .

وهكذا أصبحت « الثلاثة أيام المجيدة » بالنسبة له « الثلاثة المائجة » تماما كما بدت لمن إستمروا على ولائهم للبوربون من أصدقائه وهو ما أدى إلى توطيد العلاقة بينهم .

لم تحول الصدمة التى أصابته من نظرته لمهمته كمحافظ « للقسم الثانى للآثار » وهو الذى أثراه – كما سبق أن رأينا – بقطعتين لامثيل لهما – الجدارية بالنحت البارز المأخوذة من مقبرة سيتى الأولى وتابوت زاهر – هذا بخلاف تمثال الملكة كاروساسا ووجه رمسيس الأول الذى أخذه من بوهان . بل أنه شرع إيضاً فى تحرير كشف جرد جديد للمجموعة مستكملاً بذلك المقالة التى حررها فى ١٨٢٨ .

غير أن الكونت دوفوربان لم يكن قد تقبل قط إنتصار صاحب الاكتشاف . فعادت حرب العصابات بينهما من جديد . وانتهز مدير المتحف فرصة موت جان – فرانسوا فألغى ببساطة وبجرة قلم وظيفته ومركزه . ويجدر هنا أن ننشر النص الذى وقع عليه فى هذا الصدد رجل البلاط هذا :

« .... الإدارة العامة للمتحف تدخل دائماً فى إطار الفنون أكثر من كونها جزءاً من العلوم * فلا داعى لذلك تعيين أحد فى المكان الذى شغر كما أن الجمع بين قسمى الآثار فى إدارة واحدة كما كان الحال عام ١٨٢٦ سيعود بالإدارة إلى الهدف الأول من إقامتها وبذلك نحصل بهذا الجمع بين القسمين على إلغاء مرتب أحد المحافظين .. »(3).

كان جان – فرانسوا شامبوليون فى تلك المرحلة مهتما بالتشريف الأكاديمى له . أكثر من إهتمامه بمسئولياته كعالم فى الشئون المتحفية – وكان لديه إحساس بأنه أداها على أكمل وجه (ومن هو الذى كان يعتبره « محافظاً » لمتحف ؟) .

كان إذن مركزاً إهتمامه « بنشر وتداول النتائج » التى توصل إليها فى حملته . ولكن كيف يمكن نشر المعارف الفريدة والى لا مثيل لها والتى عمقها بالنسبة للبعض أو اكتشفها بالنسبة للبعض الأخر ، بغير اللجوء إلى صحافة غير مأمونة الجانب وإلى سبل الاتصال الاكاديمى التى تبقى من الأمور الداخلية شبه السرية ؟ كانت علاقاته بالإدارة التعليمية وظلت عاصفة ، فهو ظل على حنقه عليها بسبب تشككها فيه وبسبب إقالته المتكررة وعموماً بسبب جبن الأغلبية العظمى من زملائه ازاء الأوامر التى تصدرها لهم السلطة الموجودة فى الحكم . إذن ، أين وكيف يمكن أن يقوم « بتدريس مصره » هو ؟

---

* وهو ما يتناقض تماماً مع نصوص لاروشفوكو المذكورة فى الفصل ١٥ .

فرض « الكولاج دو فرانس » نفسه عليه . ألم ينشئ الملك فرانسوا الأول هذه الدار العتيقة تحديداً لدراسة ونشر اللغات القديمة وعلى الوجه الخصوص الإغريقية والعبرية - اللتين كانتا تثيران مخاوف أهل السوربون ؟ سبق أن رأينا أن جان - فرانسوا كانت له خبرة سابقة فى هذا الإطار حيث أنه تابع فيه قبل عشرين عاماً دروس دوساسى ولانجالاس وكوسان دودران (هو الذى كان يطلب منه أحيانا تدريس العبرية مكانه) . عبر الكولاج العواصف التى اجتاحت تلك الفترة الزمنية - متلقيا طعنات أقل لهيباً من معظم المؤسسات الأخرى . من هذا المبنى سيتعين عليه نشر معارفه . ولكن يجب أن يحصل على مقعد فيه قبل كل شئ .

تحدث فى الموضوع مع الدوق دوبلاكاس غداة وصوله من مصر . ولما كان هذا الأخير مقتنعاً بذلك فقد ضغط على القصر لكى يعبر لمؤسس علم المصريات على إهتمام الحكم الملكى بنجاحاته العلمية : إلا أن حكومة بولينياك لم تكن قد عينت لتأخذ فى إعتبارها مميزات رجل يجمع الرأى العام دائماً بينه وبين مرحلة إلى الجاكوبية المقوته وبغول كورسيكا (نابوليون) .

ثم كانت « أيام يوليو » . فلما تأكد أن الرجال الذين وصلوا إلى سدة الحكم سيستمعون إليه - وليس فقط بعض النبلاء العظماء غير المصنفين - رجا أصدقائه فيكتور كوزان ، مفكر الليبراليه المعتدلة وملهم المجلس الملكى للتعليم العام ، وشارل لونرمان زميل رحلته إلى مصر الذى أصبح فى « أروقة الحكم » أن يعضدوا عضويته فى الكولاج دو « فرانس وكان يديره دوساسى « الخالد » . تبرز الرسالة التى بعث بها إلى لونورمان فى ٣٠ سبتمبر ١٨٣٠ رغبته الشديدة » فى الوصول إلى غرضه :

« .. حاول فى الحملة التى ستقوم بها على إنجاح موضوعى فى الكولاج دوفرانس. ليس لى أمل سوى فى مسيو جيزو وإنى لارتعد خوفاً من حكم المحامين . ستفشل العملية حتماً لو وصلوا هم إلى دفة الأمور . أعرض الأمر على الوزير على أنه عمل ورع ، أن ذلك يعتبر هلب الأمان بالنسبة للمدرسة المصرية [4] .... » .

واضح أن عزيزنا جان - فرانسوا لم يعد يثق سوى فى المعتدلين وعلى رأسهم جيزو ، ضد « المحامين » أى اليسار أى مسيو تيار ذاته .. لم يكن لخوفه أى أساس فى غياب مسيو جيزو - الذى رحل لفترة - لم يصل رجال القانون إلى السلطة وإنما البنك هو الذى اعتلى سدة الحكم ممثلاً فى شخص لافيت .. وكانت هذه السلطة هى التى لبت طلبات عالم المصريات .

فى ١٢ مارس ١٨٣١ أمر « لوى – فيليب ، ملك الفرنسيين » بناءاً على تقرير مرفوع من وزير الداخلية مونتاليفيه – بإنشاء كرسى للآثار فى الكولاج دوفرانس يحتله « مسيو شامبوليون الصغير . عضو الانستيتو (المجمع العلمى) » . هكذا حظى الكونت دومونتاليفيه الذى إستقال فى اليوم التالى – وكان له الفضل فى ربط أسمه – فى أخر لحظة بالاعتراف العلنى بالمصريات على أنها علم * مستقل ، علماً بأن الكلمة ذاتها لم تذكر ولم يتحدث النص الرسمى سوى عن « الاركيولوجيا » « الاثار القديمة » إلا أن إسم شامبليون كان كافياً والتقليد فى الكولاج دو فرانس هو أن التعليم لا يرتبط بتسمية المركز بقدر ارتباطه بشخصية من إختير لإحتلال كرسيه .

باختصار فإن إجتماع الاساتذه الذى تم يوم الاحد ٢٧ مارس ١٨٣١ ضم بين الاعضاء الثلاثة الجدد (ومنهم رجل الإقتصاد الاشهر باتيست ساى) مسيو شامبوليون الصغير ، وجاء فى الإعلان عن محاضراته فى المرحلة الثانية من العام الدراسى ما يلى :

« تحت عنوان « علم الاثار » سيعرض مسيو شامبوليون الصغير – عضو المجمع العلمى (الإنستيتو) – مبادئ المنظومات المختلفة للكتابة الخاصة بمصر القديمة – وهو فى تطويره لسلسلة قواعد اللغة المستخدمة فى النصوص الهيروغليفية والهيراطيقية سيوضح التماثل بين اللغة القبطية ولغة المصريين القدماء . أيام الثلاثاء والخميس والسبت . فى الساعة الثامنة صباحاً ... » .

ألقى جان – فرانسوا شامبوليون محاضرته الافتتاحية فى ١٠ مايو . وكان ضمن الحضور الكثيف أحد أبناء الملك لوى – فيليب والعديد من السفراء . خصصت صحيفة لوتان Le Temps صفحتين للحدث ، ممتدحة « الأستاذ العلامة الذى سيعرض فى محاضراته نتائج إكتشافته الرائعة وأعماله ورحلاته » ، ونشرت النص الحرفى للمحاضرة – التى سيجعل منها فيجاك مقدمة كتاب « القواعد » الذى قام بنشره تحت إشرافه بعد ثلاث سنوات .

سبق أن إستعرنا الكثير من هذا النص الكلاسيكى وعلى وجه الخصوص فى الفصول الخاصة بتاريخ الكشف ** . وفيه أعاد صاحب « رساله إلى مسيو داسييه »

---

* كانت بيزا اسبق من باريس فى هذا الصدد بسبع سنوات . بإنشائها كرسى روسيلينى فى ١٨٢٤ .

** الفصول : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ .

سرد المراحل الهامة للكشف . مع شئ من العدل تجاه من سبقوه (ماعدا كيرشار الذى استهزء به فى تطرف) وهو يحيى فيه على وجه الخصوص زويجا لأنه أكد على أهمية دراسة الاثار وعارض بشدة « الحكم المسبق المنتشر جداً بأن الهيروغليفيات كانت تستخدم لأغراض سرية ويختص بها عدد محدود من المؤمنين وهدفها الوحيد هو نقل الاسرار المقدسة » .

لم يحجم الأستاذ الجديد عن إلقاء الضوء على أهمية « المواد الهائلة التى جمعها » أثناء إقامته فى وادى النيل والأفضل من ذلك على تأثير مصر فى فنون اليونان فى عصورها القديمة - مذكرا - (وهو ماكان بمثابة « اللحن المميز » له) - أن « شرح المبانى والآثار المصرية سيكشف بوضوح ويؤكد على الأصول المصرية للعلوم والنظريات الفلسفية الرئيسية لبلاد الاغريق » ... واختتم محاضرته قائلاً :

> « مثل هذه النتائج الهامة لا يمكنها أن تحظى بكل الثقل واليقين سوى بعد الفهم الكامل للمخطوطات العديدة المحفورة أو المرسومة على الاثار المصرية ، كما أن دراسة لغة الكلام يجب أن تسبق دارسة النصوص التى تستخدمها . ولذلك فإن عرض مبادئ القواعد المصرية بشكل متعمق وكذلك الرموز الخاصة بها هى التى سنبدأ بها محاضراتنا » .

مقال جريدة « لوتان » Le Temps : إن « الجلسات القادمة ستخصص للقواعد وللعلاقة بين اللغات القبطية والمصرية (القديمة) وأن الاستاذ سينتقل بعد ذلك إلى التاريخ التطبيقى [...] من خلال الآثار » لم يُلقى جان - فرانسوا سوى محاضرتين قبل الإجازة وذلك يومى ٢٣ ، ٢٦ مايو والاخيرة حضرها الكسندر فون هومبولدت . وجاء فى لوتان أن أخر هذه المحاضرات « استرجعت المراحل الهامة من التاريخ المصرى وأكدت على أهمية الثقافة القبطية . بعد عودته من إقامة مطولة فى مقاطعة كارسى حيث ذهب ليسترد عافيته فى خريف ١٨٣١ تمكن البروفيسور شامبوليون من إلقاء ثلاثة محاضرات أخرها لم تستكمل فى شهر ديسمبر ١٨٣١ . وكانت هذه هى الأخيرة كما سنرى .

المتحف ، الكولاج (دو فرانس) ؟ كانت فى ذهن هذا الرجل المنهك تماماً أمور أخرى تشغل باله . أولها مشروعان علميان جوهريان : نشر الأعمال - النصوص

والرسومات التى عاد بها من مصر وتحرير « قواعد » و« قاموس اللغة المصرية » حتى يجعل منهما التجميع البراق والنهائى لإكتشافاته العلمية . الإنتهاء من العمل الثانى إستدعى منه مجهوداً فاق فى نهاية الأمر كل قدراته ، كما إن العمل الأول تطلب من جهة أخرى مجهودات هائلة من الدبلوماسية والتفاهم لأن مبدآ العملية الأصلى هو الإزدواجيه الفرنسية التوسكانية ... ومعروف الكم الهائل من المجازفات التى تتضمنها مثل هذه المواقف .

كان إبيوليتو وجايتانو روسيللينى قد وصلا إلى ليفورن فى نهاية شهر نوفمبر ١٨٢٩ وذلك قبل أسبوع من مغادرة شامبوليون وشيروبينى مصر متجهين إلى طولون . وبقدر ما كانت عودة صاحب الكشف إلى فرنسا شبه سرية ومرهقة بقدر ما كانت عودة التوسكانيين عودة المنتصرين . روسيلينى الذى كان يزور على الدوام تجار القاهرة والاسكندرية عاد ومعه ٧٩ صندوقا من الآثار للجران دوق ليوپولد الذى نظم عرضاً لهذا الكنز قبل أن يودعه متحف آثار فلورنسا بهدف إثرائه .

لم يهدأ لليوپولد الثانى بال بعد ذلك قبل أن يتحقق النشر العلنى لنتائج الحملة وكان مجدها يعود له بقدر كبير : ألم يكن هو أول من استجاب لندائات شامبوليون وأول من ضمن له المساندة ؟ ومن وضع تحت إمرة روسيللينى الفريق العلمى والفنى المتاز ؟ ومن كان أخيرا ممول مول العملية فى جانبها الأكبر ؟

لايمكن تلخيص هذا الجو العام التوسكانى بأفضل مما فعله روسيللبى فى خطاب مؤرخ يوم ٢٠ (أو ٢٢) فبراير ١٨٣٠ موجه لشامبوليون :

« لا يمكننى أن أصف لك الحماس الذى آثارته فى نفس الجران – دوق الطيب مشاهدة الملف الذى درسه فى أدق تفاصيله لعدة أيام [..] لقد تم تقدير تعبنا والنتائج التى توصلنا إليها بأكثر الاشكال أطراءا لنا . كما أن الجران دوقات طالبننى بأن أسرد عليهن جميع الأحداث والقصص التى عرفناها فى رحلتنا » .

« كل شئ كان جميلاً ورائعاً . حتى لحيتى ، وصورتك التى جرى تداولها أمام أعين الجميع وكان لها أثر قوى وأخيراً أندهش الجميع أمام عدد كبير جداً من الروائع . إن مجهودات شلة [باريس] معروفة هنا للكافة وهم ينتظرون أن يكون انتصارك أكثر روعة بفضل هذه المعارضات [...] كان الجران دوق سعيداً للعلاقات التى ربطت بيننا وللنتائج الكبيرة التى عدنا بها وهو لذلك يرجع لذاته مجد مساعدتنا بكل هذه القوة . وهو سوف سيقدم لك ما يثبت لك سعادته وتقديره .. »

بعد مرور شهرين تغيرت اللهجة ، فبعد لفت النظر الذى تلقاه ايبولتو روسيلليني من الأوساط العليا نقل له الإشاعات التى تتناقلها فلورنسا : « إنهم فى باريس لا يأبهون بنتائج الحملة [..] الملك والبلاط لا يوافقون على الدراسات التى تقلل من هيبة التوراة .. »

والجران - دوق وقد بدأ يعرب عن قلقه إذاء « المضايقات » التى ربما يتعرض لها شامبوليون ، أخذ يستعد لكى « يعطى أوامره لنشر » نتائج الحملة وذلك من جانب واحد واستمر أستاذ بيزا فى ضغوط على شامبوليون «يجب إذن أن نهتم بالأمر بجدية دون تأخير لأن هذا العمل - مع كتاب القواعد الذى تؤلفه - هو أهم أعمالك ... » وهو لذلك يدعو « الجنرال » لتمضية عدة شهور فى توسكانيا بعيداً عن « بابل » * هذه ، والتى لا يعتبر مناخها مواتياً للعمل .

وإذ تلقى من شامبوليون إجابات تسويفيه بعض الشئ مشيراً إلى أعماله الآخرى والأجواء غير المستقرة التى تسود باريس عبر روسيلليي - وكان واقعاً تحت ضغط من الجران دوق - عن نفاذ صبره : فعبر فى ٦ سبتمبر عن « شعوره بالمرارة » لأنه لاتوجد أى إشارة من باريس تؤيد هذا « التعاون الأدبى مع توسكانيا » وأخذ يذكر بأن الحساسية لديهم مرتفعة بقدر ما هم أصغر حجماً » وإذا كن التوسكان يتركون للفرنسيين أغصان الغار التى تستحقونها فى مجال الحملات العسكرية والثورات العظيمة فإنهم يتمتعون « فى الشئون الأدبية » « بشهرة قديمة للغاية » كما أنهم يتباهون « بادعائتهم الصغيرة » . هذه ثم أعلم صاحب الكشف أنه « اتخذ القرار بنشر نتائجنا ** » [على حدة] فى الوقت الذى كان خطابه الأخير يؤكد له أن « المهمة المشتركه » ستتم على أكمل وجه - ويضيف دون مراعاة مشاعر صديقه الاكبر سناً «فى الوقت الذى كنتم تقومون بالثورة كنت أعمل أنا مثل الكلب لإعداد مهمتى ... » ثم ينتهى به القول إلى : « أنه فى إنتظار معلومات عن طريقة تقسيم المواد فيمابنينا : مشروع الكتيب الذى سينشر بالفرنسية والإيطالية والذى سيسمح بالبدأ فى عملية الاكتتاب فى الوقت الذى تنهون فيه من كتاب « القواعد ... » .

بإختصار كان السيف موضوعاً على رقبة شامبوليون فى الوقت الذى تزداد فيه صحته سوءاً و يأخذ « كتاب » القواعد وقته كله - ولما كان يعرف الجران - دوق

* رأينا أن شامبوليون كان يطلق على باريس تارة إسم بابيلون وتارة أخرى بابل .

** الضمير هنا عائد على اللجنة التوسكانية .

واصدقائه التوسكانين فقد كان متفهما لنفاذ صبرهم : فهم ليسوا مهددون بالازمات السياسية كما أن الحملة مثلت بالنسبة لميزانيتهم عبئاً كبيراً نسبيا بالمقارنة بما قدمته باريس ثم أن العاهل الشاب كان شديد الإحتجاج لتحقيق بعض الأمجاد . ولما كانت المواقف مختلفة إختلافاً جوهرياً فى الناحيتين ولما كان الرجلان مطلبان بتحقيق لكثير وتحركهم أمورا متباينة فمن المتوقع أن يصلا إلى قرارات متباينة .

ومع ذلك نفى شهر مايو ١٨٣١ وقد اجتمعا في باريس أعد شامبوليون وروسيللنى مشروعاً مشتركاً لكتاب « آثار مصر والنوبة » يوزع بينهما مسئوليات النشر على النحو التالى : « سيتناول شامبوليون الآثار التاريخية بمعنى الكلمة ما يتعلق بالألهة والمواضيع الخاصة بالفلك والنجوم . روسيلينى سيهتم بالفنون والحرف والحياة اليومية والإحتفالات الدينية والجنائزيه » . ويعتبر هذا التقسم جائراً لأنه يضع على كاهل روسيللينى مسئوليات كبرى ولكنه يعبر عن إرادة فى إستغلال مساو للمواد العلمية * .

إلا أن هذا العمل المشترك لم يكتب له أن يرى النور . لأن شامبوليون وقد شغلته أمورأخرى أجل مشاركته فيه لدرجة أن الجران – دون فقد صبره معتبراً أنه مالك للمواد التى جمعها التوسكانيون ودفع روسيلينى إلى الإسراع فى عملية النشر التى تمت بعد وفاة شامبوليون والنسخة الأولية للملزمة الأولى من طبعة فلورنسا ظهرت يوم وفاة صاحب الكشف فى بداية مارس ١٨٣٢ .

ومنذ ذلك اليوم أصبح الموضوع من وجهة النظر الفرنسية فى أيدى جاك – جوزيف شامبوليون – فيجاك وهو الذى لم يخف قط تحفظاته نحو التلميذ المفضل (روسيلينى) ولا على مبدأ هذا التعاون الدولى ذاته .

والذى كان فى الأصل تباينا حول وتيرة العمل تفاقم ليصبح إختلافاً فى المبادئ . من – التلميذ أم الأخ – كان الأجدر بتنفيذ العمل حتى يبلغ غايته ؟ إختلاف حول جنسية العمل أيضاً . فلم ينتهى الأمر إلى تحقيق « أول عمل علمى دولى فى التاريخ كله »[5] وهو ما كان يحلم بتحقيقه الرفاق الاعزاء على متن المركب « إيزيس » – ولكن تم إلى نشر عملين متوازيين – وهما فى الواقع متشابهين جدا (أكثر من نصف الرسومات المنشورة فى النسخة الفرنسية كانت بيد فنانين توسكانيين) ومتكاملين .

* نشر الكتيب باللغتين وبتوقيع المؤلفين فى باريس لدى فيرمان – ديدو – فى سبتمبر ١٨٣١ . وتم توقيع عقد دقيق للغاية من الرجلين فى نفس الفترة .

فى المقدمة التى صدَّر بها الشقيق الأكبر كتاب « القواعد » وهو الذى عنى بنشره فى عام ١٨٣٦ وأهداه لسيلفاستر دوساسى ، كتب جاك - جوزيف شامبوليون - فيجاك يؤكد « على أهمية معرفة تاريخ تأليف هذا الكتاب لكى نتأكد - واثقين تماما - من الأهمية العلمية التى يتحلى بها هذا الكتاب المرجع .. نظراً للتطور المستمر الذى طرأ على نظريات مؤلفه ونظراً لتنقيحه لها بناءاً على مشاهداته على الطبيعة وملاحظاته الجديدة ... » .

وبناءاً على ذلك يؤكد هذا الأخ المجد أن قواعد اللغة المصرية هو «أخر أعمال » جان - فرانسوا (وهذا يعنى فى رأى صاحب المقدمة أنه أكثر أعمال أخيه كمالا من وجهة النظر العلمية) وأنه قام بتحرير النسخة الأولى ، المحررة لثانى مره ، » فور عودته من مصر . كما أنه يوضح أن المؤلف أضاف إلى مخطوطه أمثلة عديدة مأخوذة من الآثار التى قام بدراستها خلال هذه الرحلة وأنه إذ أمضى خريف عام ١٨٣١ فى فيجاك فقد كتب هناك لـ ٣٣٢ صفحة التى تشكل النسخة الثانية كما أنه كرس أبتداء من شهر ديسمبر من نفس العام الأوقات القصيرة من الراحة التى سمح له بها مرضه - هذه الهدنه القصيرة جداً والمضللة للغاية - لمراجعة النص ولترتيبه » .

إن كتاب « القواعد » هو إذن وبالفعل - حسبما يقول فيجاك - ليس فقط العمل « المفضل » ولكنه الوصية العلمية لجان - فرانسوا شامبوليون وهو بنفسه الذى قال عنه ذلك . كما أنه قمة فى تكنيكية النشر « أول ثمار التحالف - فى فرنسا - بين التيبوجرافيا والليتوجرافيا » . هذا أيضاً ماكتبه صاحب مقدمة الكتاب * . وهو فى النهاية عمل فنى . وقد أناط فيجاك بمهمة نسخ الصور التى لم يتمكن صاحب الكتاب من الإنتهاء منها إلى يد سالفادور شيروبينى الأمينة والواعية والمحنكة .

فلنحاول أن نتخيل ما تمثله الكتابة لهذا الرجل وهو فريسة لألام متعددة الاشكال وعليه الإضطلاع بعمله كمحافظ لمتحف وعليه أيضاً تبادل للرسائل الحادة اللهجة مع توسكانيا وإعداد محاضرات فى الكولاج دو فرانس وإجراء المناقشات التى أثارها مشروع نقل مسلة الأقصر والطلبات التى لاتنتهى من فيروساك وفوربان وأخيه أومن مراسليه العديدين عبر أوروبا وتشكيل هذه المجموعات الفكرية والمرئية التى هى إحياء لعالم مدفون وتوضيح لفكر دام آلاف السنين . يقال أن أحداً لا يموت من العمل ؟ ولكن

* اعاد نشره فى طبعة جميلة جداً عام ١٩٨٤ ميشيل سيدهم - معهد الشرق ٢ ، ٥١ شارع لاسبياد فى باريس .

إن وجد إستثناء لهذه القاعدة فالغالب أن البحث عنه يجب أن يكون فى إتجاه شامبوليون .

من الصعب جداً معرفة مقدار ما إختزله الجو السياسى والاجتماعى المضطرب من حياة جان - فرانسوا ، وهو الغليان الذى جعل من الأيام الأولى للكية يوليو - إبتداءاً من محاكمات وزراء شارل العاشر إلى جنازة جنرال لامارك التى سادها الاضطراب - ثورة بعد الثورة . بدت كما لو أنها لا تستهدف إلا أن تكون مقدمة لثورة جديدة . لقد فاجئنا عدة مرات بأنه طواق للسلام الاجتماعى والنظام ومندد بجميع أشكال الإثارة . ومع ذلك فإننا نجد أيضاً فى بعض خطاباته المحررة فى ذلك الوقت بعض الأفكار الجديرة بالصديق القديم للكاربوناريين ، وبأحد المعجبين بالأب جريجوار ورفيق راى . وقد تحدث حينذاك عن « ربيع الحرية » كما أنه مهما بلغ تأثره بالقلاقل الباريسيه فهو ينظر بعين متعاطفة مع ردود الفعل التى تثيرها هذه الأحداث عبر أوروبا داخل الامارات الصغيرة .

أما فيما يتعلق بفرنسا فهو بالقلب والفكر مع « بلدياته » كازيمر بيربيه ، الليبرالى المتسلط ، والبورجوازى الكبير الذى يريد كل شئ للشعب ولاشئ بواسطة الشعب .. المعارك التى جرت من أجل النظام التى قادها جل فيزيل بعد أن أنهيار حكومة لافيت ولافاييت كانت معاركه هو . وهل كان أى من الرجال العظام الذين واكبوا فترة مراهقته الثورية سيسلك سلوكاً مختلفاً ؟

أصبحت رؤيته للعالم وفهمه للتاريخ .. كما يتضح ذلك من رسائله إلى زلمير - متشائمة للغاية حتى أنها لم تسمح له بغير مرارة اليقين بأن الشعوب ترغب أن تكون اليد التى تقودها حازمة فى غير وهن . إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يتخيل فى شئ من السذاجة أن توثيق العلاقات بين فرنسا ومصر التى ستترتب على إقامة آثار فرعونية وسط باريس ستفتح آفاقاً لتحرير شعب وادى النيل .

كان صاحب الاكتشاف فى ذلك الوقت مفتوناً تماماً بمصر وتحت هيمنتها حيث أن الأشهر التى امضاها فى ربوعها كانت هى الحاسمة فى حياته . من وجهة النظر الشاملة نتج عن هذه الرحلة درس مزدوج ومتناقض فى أن واحد . أوضلع مصر الحديثه أيقذت داخله الاحتجاج الاجتماعى إذ أدرك أن كل البؤس فى ظل كل هذا الظلم شئ لا يحتمل . إن الإنسان الجدير بهذا الاسم يجب عليه أن ينهض فى مواجهة هذا الضيم ومهما كان هذا الاستبداد عريقاً فهو يتطلب الثورة عليه . وكان الواجب

الذى فرض نفسه على الضيف هو أن يختزل الفضيحة وأن يعمل ما فى وسعه لكى لا تفتح الانتفاضة الحتمية الطريق أمام أحداث مفرطة فى دمويتها .

ولكن كيف لا يتأثر صاحب الكشف بتأملاته وهو يعيش فى أعماق المقابر ويتحاور مع « الاجداد » ؟ إن ما شاهده من أحوال الفلاحين المصريين كان يدفعه إلى الثورة فى حين أن تعامله مع أمون - رع ومع سيزوستريس وموريس ومع أمنحوتب وسمنوت كان يطالبه بإحترام مبادئ الاستقرار .

لقد أيقن منذ ذلك الحين أن التاريخ بالنسبة للمصريين فى العصور الكلاسيكية القديمة كان « رسالة تكررها مصر لمصر » وأن « المصريين القدماء كانوا لا يعرفون ماهية مجازفات التاريخ أو فى كلمات أخرى أنهم كانوا يقيمون التاريخ على أساس أنه تكرار لذات المجازفة المتواصلة وهى المجازفة التى تولدت من عملية الخلق ذاتها والتى كانت تتوالى فى هيئة صور محكمة النظام والثبات تنطق بها الآثار والهيروغليفيات فى شعائر تنظيم الكون ، وهو ماكان يبعث فى نفوسهم الطمأنينة .. »(6).

التاريخ كان يراه يومياً - طبقاً لما جاء - فى رسالة إلى أنجيليكا - فى هيئة إمرأة فى ثورة عارمة فى غير سيطرة ، حاملة شعلة من نار وتعبر بها نهراً من الدماء . إكتشف وهو على ضفاف النيل أن هذا النهر أنه مدرسةً فى الاستقرار والهدوء الصافى . كان الكهنة والملوك هنا يبدعون فى تنظيم الاستمرارية . ولولا غزوات الاسيويين الغاصبين لتواصلوا بها لأكثر من ثلاثين قرناً أخرى .. وهكذا عاد المسافر من مصر وهو تواق لأن يغير من الحالة التى كانت عليها الأمور فى فرنسا وقد أصبح الوقت ذاته مقتنعاً تماماً بحتمية مشبع احترام الاستمرارية .

جان - فرانسوا شامبليون مثله فى ذلك مثل جاره فى مقاطعة الدوفينيه هنرى بال (ستندال) لا يأبه كثيراً بالرجال ولكنه يكره المستبدين بأكثر من ذلك . إنه من الديموقراطيين المتسامين الذين يضحون بانفسهم من أجل الحريات التى إذا استخدمتها المجاميع من الشعوب التى يحبها - تلك التى شيدت الكنائس الرومانية ومعابد وادى النيل - فهى تؤدى فى كثير من الأحيان إلى التجاوزات التى يمقتها . إنه قدم التحية - مع بعض التحفظات التى سبقت الاشارة إليها بخصوص أصدقائه المؤيدين للشرعية (الملكية) - لحركة عام ١٨٣٠ . وهو أيضاً الذى اجتاحه القلق من مشاهدة التحركات الجماهيرية الهوجاء التى تنبئ بعواصف جديدة يخفيها تحت السطح « الدستوريون » والسيطرة البرجوازية الليبرالية .

لم يكن لدى هذا الجمهورى العريق - كما رأينا - ما يعاتب به الملوك . خارج حدود فرنسا ، فى تورينو : كارو - فيليتشى كان الوحيد الذى يخشاه كثيرا . ولكن من الجران - دوق عاهل فلورنسا إلى ملك نابولى والبابا فى الفاتيكان والشركاء فى الحلف المقدس عاملوا « روبسبير » جرونوبل بأفضل ما تكون المعاملة - هذا بخلاف نائب الملك المصرى ..

أما فى باريس فقد كانت شخصيته تعكس صورة قديمة للجاكوبى الثورى يصعب التخلص من أثارها .وظلت مجموعة من رجال الشرطة الحقودين والمحافظين الكائدين والمستشرقين الغاضبين تؤكد عليها بعناية فائقة ، ولكن تعاطف بلاكاس معه ومن بعده دودوفيل ولاروشفوكو وبدرجة أقل لابويورى ، نجح فى فتح جميع الأبواب أمامه - ولكن خلف كل باب كان يقبع له مخبر شرطة .

رأينا كيف أن لويس الثامن عشر إستقبله بعد إصرار من بلاكاس . ولم يعامله شارل العاشر بأقل من ذلك ومنحه فى نهاية الأمر الوظائف الرسمية التى أرتبط بها أسم الكونت دارتوا السابق ذاته وكانت تلك المعاملة التى حظى بها صاحب « النخب إلى الجمهورية » عام ١٨١٥ ومقتحم باستيل جرونوبل عام ١٨٢١ ، بعد ذلك كله معاملة لم يكن يحلم بها .. ثم ما الذى كان لا يمكن أن يحصل عليه من علاقاته مع الدوق - دورليان الذى كان قد أعلن بوضوح « اعجابه » بالرسالة إلى « مسيو داسييه » قبل أن يصبح الملك - المواطن ؟

لعله علق أمالا كثيرة على ذلك . لقد حاز بالفعل من السلطات الجديدة على تعيينه فى الكولاج دو فرانس وهو مالم ينجح بلاكاس فى إنتزاعه من شارل العاشر . وبالفعل أتيحت له إمكانية الوصول إلى الملك بفضل توسط مسيو فاتو - أمين مكتبته . وكان على علاقة به منذ فترة طويلة ، كما أنه أقام علاقات ودية مع البلاط الملكي ورأى السحب القديمة تتبدد ويختفى التأثير السئ للمثقفين المتدنيين الذين كانت لهم يد فى الانستيتو وأخرى فى التويلورى (القصر الملك) وكانوا يطاردونه منذ سنين عديدة . إلا أن بعض الظروف ، بالإضافة إلى الشخصية الحادة لعالم المصريات ، منعت إقامة علاقة بينه وبين العاهل الليبرالى شبيهة بتلك التى كانت تعقد فى قرن التنوير بين السلطة والمعرفة ولنا فيها العديد من الأمثلة الرائعة .

إصطدمت إرادتا الملك وعالم اللغويات مرتين على الأقل فى عام ١٨٣١ عندما دار الحديث حول الإهداء والتحية الخاصة بنشر أعمال الحملة العلمية الفرنسية -

التوسكانية فقد أوضح جان فرانسوا للبلاط دون أى مرارة أنه إذا كانت النسختان الأولى والثانية مهداتين إلى ملك الفرنسيين والجران - دوق ليوبولد فإن الثالثة ستهدى رسميا إلى الدوق دوبلاكاس - الذى لحق بشارل العاشر فى منفاه . ثم عندما دخل مشروع نقل مسلات الأقصر إلى باريس فى مرحلته التنفيذية ، تناقضت أراء جان - فرانسوا مع لويس - فيليب حول أفضل الأماكن التى ستقام (أو تقامان) فيها * .

وهكذا نجد بغرابة شديدة أن شقيق لويس السادس عشر قد خصَّ منبوذ جرونوبل بمعاملة طيبة فى حين أن أبن فيليب - المساواة لم يعقد التحالف الذى كانت تفرضه ولو نظرياً تماثل أفكارهما التاريخية والثقافية .

فى نهاية أغسطس ١٨٣١ غادر جان - فرانسوا شامبوليون باريس إلى فيجاك . هل كان هروبا أم إختيارا منه لعزلة للعمل ؟ لم يفتر قط إزدرائه « لعاصمة فرنسا القذرة » . إذا كان هذا التعبير قد كتب فى عصر نابوليون فهو يمكن أن ينطبق أيضا على عصر آل الفرع الصغير من البوربون .. صحيح أنه كان يستقبل بترحاب حتى فى أعلى دوائر الدولة والاوساط الثقافية . فقد كان فى نفس الوقت صديقاً لرئيس الوزراء (بيرييه) والأمين العام الدائم للأكاديمية (داسييه) ومفتش التعليم العام (كوزان) وأشهر العلماء (أراجو ، كوفييه ، بيو ..) وهو ما أحاط بالشخصية العامة التى أصبح يتميز بها جواً صحياً أكثر نقائا من ذلك الذى عاش فيه عندما كان هدفاً لأحقاد أمثال كوربييار ودواساز .

ولكن ماذا نقول عن حياته الخاصة ؟ كان جان فرانسوا يشعر بسعادة جمة مع أبنته التى قاربت الثامنة من العمر وكشفت عن مواهب جيدة عديدة . وهو إذا كان نادماً جداً على افتراقه عن أسرة أخية ولو أن قربه منها قد قلل من حدة الندم ، فذلك لأن بقائه وحيداً مع روزين يضايقه كانت فى الواقع علاقات التفاهم والثقة مع زوبه زوجة أخيه أوثق من تلك التى . كانت مع زوجته . كما أنه لاحظ أن العلاقات بين جاك - جوزيف وروزين ، وهى أصلا لم تكن جيدة ، أزدادت مراراة ولعله ركب العربة التى حملته لتولوز وفيجاك فى ذلك الصيف لكى يهرب أيضاً من هذا المناخ .

---

* راجع الخاتمة .

وهو يبتعد أيضا من الهموم والمضايقات التى تأتيه من متحف شارل العاشر ومن فلورنسا وأيضاً من مجلة النشرة الدولية Le Bulletin Universel الذى يصدره مسيو دوفيروساك . بل أنه يبتعد أيضا من المشاكل التى يواجهها صديقة كازيمير بيرييه بسبب القلاقل والتهديدات الخارجية وقد كان هو الآخر منهك القوى وفاقداً للصبر . كان شامبوليون لا يفكر سوى فى كتاب « القواعد » وكان قد قرر أن يستثمر فيه كل ما المقابل تبقى له من قوى . أما فى باريس فلا يمكن أن يقاوم كل المطالبات التى تلاحقه فى فسيكون الدفا ع عنه فى كارسى أفضل وسيبقى مركزا على كتابه الذى هو بمثابة وصيته العلمية .

كما يدخل فى الحساب أيضاً الأمل فى إنقاذ ما تبقى له من صحة فى هواء مقاطعة اللوت الطلق .. لو كان أصلاً هناك ما يمكن إنقاذه .. الرسائل التى كتبها من فيجاك تعمل على طمأنه المقربين منه وتمجد من آثار الجو فى الجنوب .. غير أن رئتيه كانتا مصابتين لدرجة متقدمة وأزمات السعال مؤلمة وحنجرته ملتهبة وكبده مرهقاً وأزمات النقرس عنيفه لدرجة أن الشهور الثلاثة التى أمضاها فى كارسى من نهاية أغسطس حتى نهاية نوفمبر لم تأتى له سوى بمسكنات واهية . هل كان يمكن لاختياره حل الانسحاب إلى مسقط رأسه أن ينقذ حياته ؟ لقد توسل أطباؤه أن يفعل ولكنه لم يكن يؤمن بإمكانية تنفيذ ذلك . خلال تلك الرحلة السعيدة القصيرة كان للعواطف دور أيضاً . لايوجد ما يسمح بالإعتقاد بأنه قام بتلك الرحلة لكى يرى للمرة الأخيرة مادام أديل ، هذه « الشخصية العزيزة جداً عليه » الذى أصر على رؤيتها عند عودته من مصر مكلفاً نفسه عناء سفر مطول . لا يوجد أى أثر فى مراسلاته هذه المرة لهذا النوع من الإهتمام ولكن توجد إشارات عاطفية متبادلة مع أختيه اللتين تقومان على شئون مكتبة ميدان الهال . إلا أنه من الواضح أن لقائه من جديد مع سيدة فيجاك كان له وزنه الهام عند إتخاذه لقرار إنسحابه هذا إلى موطن رأسه . فى المنزل الواسع الكائن بما سمىّ الآن بشارع شامبوليون . أخذ يعمل كالمجنون . نعم كان يسعل من

وقت لآخر إلا أن اختيه كانتا حوله تدخلان السكينة إلى قلبه وخاصة أخته مارى . كما كانت تفعل الصداقات التى أحاطت « برجلهم العظيم » .. حتى أنه بدأ يستدرج إلى الحياة الإجتماعية التى عرفها هنا عام ١٨١٧ .. كان يود مد فترة إقامته . غير أن رسائل جاك - جوزيف زادت من إلحاحها عليه : فهى لا تتحدث سوى عن مؤامرات فوربان فى المتحف وعن التوسكانيين نافذى الصبر وعلاوة على ذلك عن « نشرة فير وساك » التى تتدهور .. وأخيراً محاضراته فى الكولاج دوفرانس التى يجب أن تبدأ من جديد فى أول ديسمبر . لم يكن أمامه مفر...

وأفضى إلى صديقه البارون شودروك دو كرازان المثقف الكارسينى الذى شاركه وأخوه فى حفريات أوكسا لدوم عام ١٨١٧ فى إحدى السهرات : « إن الموت يتربص بى فى بابل » . فى ٢٨ نوفمبر ركب عربة البريد التى أوصلته إلى هناك بعد أربعة أيام .



١٩ - وفيما بعد ذلك بكثير، حتى طيبه ....

« ولا ثقل إضافى من أثقال الأرض .. » مستمع فى الكولاج .. البروفسير / الذى سقط - « يا إلهى ، علمان أحزان .. توجد فى الداخل أشياء كثيرة ! » - وفاة لأسباب عديدة - أخر سهام مسيو دوساسى - وداع روسيللينى ، وويلكسون وشاتوبريان ، ها عاقل من عقلاء الامبراطورية الجديدة ..» ..

« ظهر إله مثل النور ، سيعيش .. »

كتاب الموتى

بابل ؟ بابيلونيا ؟ أم هدف لجراح مصر ؟ وباء الكوليرا الذى جاء من الشرق عبر وادى نهر الرون سينقض على باريس . وسيصل عدد ضحاياه فى ثلاثة شهور * إلى عشرين ألف شخص منهم (رئيس الوزراء) كازيمير بيرييه . صحيح أن أحداً من الذين بحثوا فى أسباب وفاة مؤسس علم المصريات لم يذكر هذا الوباء ** ، إلا أن هذه الكارثة التوراتية تلقى على أخر أيامه بضوء يمكن أن نسميه أركيولوجى . إقامته فى كارسى أعادت إليه شيئا من صحته كما أن تنقيح كتاب « القواعد » قد أضفى عليه نوعاً من الإحساس بالسعادة والنشوة خدعت عدداً كبيراً من المقربين له أمثال دوبوا ولونورمان ونستوررة لوث (الذى تقرب جدا من « الجنرال » بعد عدة مضايقات راجعة

* من فبراير حتى مايو ١٨٣٢

** أعراضه يسهل التعرف عليها .

إلى شخصيته المتقلبة المزاج) وعلى وجه الخصوص سالفادور شيروبينى الذى أضحى مع جاك – جوزيف أقرب الأصدقاء وأئمنهم – فى حين أن شخصا يدعى سالطونينى نجح فى التقرب من صاحب الكشف وكان يعلن أنه من أقرب تلاميذه المتحمسين ، أخذ يسرق بعض الأوراق الخاصة بالعلاقة بين الحروف الهيروغليفية والهراطيقيه وقام بنشرها على أنها من تأليفه – ولم يكشف عنها النقاب سوى بعد وفاته .

إلا أن الذين لم يروه قبل فترة طويلة صدموا لما طرأ على سمات وجهه من تغيير فى هيئته وقوامة من بدانة * وعلى صوته من حشرجة بين أزمتين من السعال الحاد ، ومن قصر أنفاسه . وهكذا فإن الكونت فونشال سفير البرتغال فى روما الذى كان قد استقبله بترحاب يتسم بالود قبل ذلك بأربع سنوات وإذ كان يعتقد أن بإمكانه أن يطلب منه الإهتمام بنشر كل المخطوطات المنحوته على المسلات الرومانية ، عدل تماماً عن تقديم عرضه وأفضى إلى لونورمان :

« .. رأيت شخصا يسرع الخطى ناحية أبواب الأبدية ولا يمكن أن نرهقه بأحمال دنيوية إضافية .. » [1] .

ولكن كانت عليه التزامات تجاه مستمعى محاضراته فى الكولاج دوفرانس وقد خصص لهم ولكتاب « القواعد » أخر ما تبقى له من طاقة . وكان قد عاود إلقاء محاضراته بعد وصوله إلى باريس بيومين فى ٥ ديسمبر . وقد حضر جمهور كبير كما حدث فى الربيع ، وكان

* إشتكت روزين فى إحدى رسائلها لسلفتها من سمنة – « صغير » .

على نفس الدرجة من الحماس والانتباه وقد شدته هذه الطلاقة فى الحديث فهى التى يمكنها أن تستدرج إليه الحضور عندما يكون الإلهام حاضراً .. وقد ردد الشهود وخاصة لونورمان على الجوانب المؤثرة والتنبؤية لهذه المحاضرات .

ترك لنا أحدهم- وهو شارل لامبار- وهو من الخريجيين الشباب لكلية الهندسة (بوليتكنيك) والذى أصبح من السان-سيمونيين ورحل إلى مصر مثل العديدين منهم ودخل فى خدمة محمد على كمهندس أشغال عامة - بعض المذكرات(2) التى دونها خلال إثنين من محاضراته الثلاثة الأخيرة. هل كانت تعكس بدقة تعاليم صاحب الكشف ؟ سنجد فى ذلك مادة للتأمل حول عملية نقل المعرفة ، إن قرائة هذا النقل غير الدقيق لآخر محاضرات هذا الرجل العظيم ، على الرغم من أنها بقلم رجل حسن النية، تدعو لذلك:

الدرس الأول (٩ ديسمبر)

" بدأ مسيو شامبوليون محاضرته بشرح الحروف الهيروغلوفية وعددهم ٨٠٠,٠٠٠ حرفاً ، يوجد نوعان من الخطوط الهيروغلوفية الديموطيقية والإيراطيقية (كذا) الإيراطيقية خاصة بالمعابد ، الديموطيقية بالكتابة اليومية العادية، الكتابة الإيراطيقية منحوتة ١ - بارزة ٢ - سليويت ٣ - بارزة داخل حفر ٤ - على قطع مطلية بالمينا أو المزايكو أو مرسومة "

الدرس الثانى (١٢ ديسمبر) :

" الكتابة الهيروغلوفية الخطية على الرغم من كونها مختصرة عن الكتابة الهيروغلوفية الملونة كانت تتطلب وقتاً طويلاً فى التنفيذ ولذلك عملوا على اختصارها وهكذا أنشأوا كتابة جديدة أيسر وأسهل سميت إيراطيقية لأن الذى كان يستخدمها هم الطبقة الكهنوتية ...... "

لم يتمكن شامبوليون من إنهاء محاضرته فى ١٣ ديسمبر ففى ذلك اليوم - كما جاء فى مذكرات الدكتور هوبار - فرانسوا جان (الذى سبق أن ذكرنا علاقته الوثيقة بعالم البصريات) أحس " بعض أعراض الصرع " أصبحت حركاته " صعبة " ولسانه أخذ يتلعثم إلا أن "الإفرازات الدموية * وضعت حداً فورياً لهذا الحادث. " لم يعد أستاذ الآثار بعد ذلك أبداً إلى الكولاج ". فى سردها الجميل للاسابيع الأخيرة من حياة جان فرانسوا شامبوليون ذكرت مدام هارتلوبان فى ٢٣ ديسمبر وهو يوم عيد ميلاده الواحد والأربعين:أراد المريض أن ينقل إلى مكتبه الذى

* لم يكتشف الدكتور جامنان إن كانت هذه الانبعاثات الدموية تلقائية أم لا .

كان يقع فى شارع مازارين والذى اندفع خارجاً منه إلى مكتبة الانستيتو فى ١٤ سبتمبر ١٨٢٢ ظهراً ليعلن لأخيه أنه نجح فى الوصول إلى حل الموضوع .. " إن علمى ولد هناك وأنا وهو نكون وحدة لا تنفصم: إننا شئ واحد" إنه موقف " فكرى مصرى خالص لرجل يحتضر ينصهر فيه شامبوليون مع علمه فينصهر داخله الفكر والـــمكان الزمان والرسالة . كما أنه سلوك نموذجى للمحتضر - ومع ذلك فإن صاحب الكشف إنتقل/ونفسه مرة جديدة لزيارة عزيزة داسييه (" أبى الحقيقى) الذى كان قد بلغ التسعين ولم يكن يغادر سريره قط كانت حواراته الأخيرة تتم فى غرفته شارع فاڤار .

فى ٤ يناير كتب له إبيوليتو روسيللبى معرباً عن أسفه "للوعكة" التى قالت له مدام شيروبينى أنها ألمت به وأضاف التلميذ التوسكانى أن أسفه كان سيصبح كبيراً جداً لولا أنه علم بعد ذلك أن "الهزة" كانت "بسيطة" ولم يترتب عليها "أى أثر سئ " وإن "الأمراض التى تكتفى بالإنذار تحل محل المستشار الجيد الذى يوجهنا إلى الاحتياجات التى يجب إتخاذها " . فلسفة حكيمة يخلص منها الودود إيبوليتو بأن يحث صديقه على "وضع العمل جانباً لبعض الوقت " .

ومع ذلك فهذا الراعى الصالح لا ينسى أن يعود إلى ذكر الموضوع الذى يخصه «بالنسبة لما تبقى لنا تأديته فإن العمل ممكن أن يسير دون أن يؤثر ذلك بأى شكل من الاشكال على الاحطياتات اللازمة لك . إنه لا يتطلب منك عملاً آخر سوى أن تلقى نظرة عابرة على الأشياء التى سأرسلها لك» . ثم أعلن له روسيلينى أنه ينوى أن ينشر فى القريب العاجل "النصوص الخاصة " " بالأوضاع المدنية " الذى كلف به طبقاً لتوزيع المهام الذى قاما بتحديده سويا قبل بضعة شهور ؛ وبعد أن كرر دعوته له لكى يستعيد صحته فى توسكانا ، أكد رفيق الرحلة إلى مصر إلى جان - فرانسوا « كل الود الذى لن يتغير أبداً » .

جملة كان لها ما يبررها : فإن الشد والجذب الذى حدث بسبب تباين مواقفهما من علاقات غير متساوية مع سلطات هى أيضاً غير متكافئة وكذلك بسبب إختلاف السن والمستوى العلمى وحتى بسبب إختلاف الأمزجة بينهما ، فهى إذا كانت قد نجحت فى تعطيل النشر المزدوج والذى كانا يحلمان بتحقيقه سوياً والذى نظماه بذكاء، فهى لم تنجح فى فصم علاقه صداقة مؤثرة ومثمرة ستؤكدها للأسف الشديد بعد وقت قصير كلمة الوداع الرائع الذى خص به التوسكانى صديقه الفرنسى . يجب أن نذكر ونكرر إلى ماشاء الله أن على الرغم من كل الإفتراضات التى ذكرت (ولم يكن جاك

-جوزيف غريباً عنها فى كثير من الأحيان) فإن الصداقة والتعاون والتكامل بين جان -فرانسوا شامبوليون وإيبوليتوروسيلليني كانت نوراً فى حياة كلها أنوار وبقيت مثلاً يحتذى به فى الأوساط العلمية .

فى ١٢ يناير ١٨٣٢ إستقبل جان-فرانسوا بيو الذى جاء لزيارته وكان قد أشاد فى اليوم السابق بما قدمه علم المصريين القدماء إلى علم الفلك الحديث. وكان المريض قد حارب كثيراً فى هذا المجال أفكار ليترون (وكان يقول "هؤلاء القوم لا يعرفون سوى قراءة الطالع فى النجوم) كما أنه فاضل كثيراً فى موضوع الزودياك (لوحة الأبراج السماوية المأخوذة من معبد دندره) وقد رفعت هذه الزيارة من حالته المعنوية والجسدية فأستقبل عالم الفلك مبتهجاً إذ كانت تربطه به وشائج كثيرة توثقت خلال كثير من الجدل لم يكونا خلاله من نفس الجانب فى كثير من الأحيان .

وفجأة ترنح ثم وقع أرضاً وهو يصرخ من الألم ، تم استدعاء إثنين من الأطباء الإستشاريين الدكاترة بروسيه وكروفاليار اللذين وجدا شامبوليون مشلولاً ويكاد لا يقوى على التعبير عن نفسه وهو مع ذلك يصدر بعض الأنات كثيراً ما وصفت بأنها صرخات الإحتضار وهى التى إضفت على أزمة ١٢ يناير هذه- التى ردد أخوه وصفها كثيراً - بعداً مأساوياً : "يا ألهى عامين آخرين ، ولما لا !.... " ثم أخذ يضرب رأسه بيديه "لازال الوقت مبكراً ، فما أكثر ما هو موجود هنا بالداخل " .

سيتمكن من العمل لبضعة ساعات أخرى فى تنقيح كتاب "القواعد" مع جاك - جوزيف الذى كتب فى المقدمة التى وضعها بعد ذلك بعامين فى صدر هذا المؤلف - الوصية إن جان-فرانسوا وهو يسلمه المخطوط قال له "إحتضنه جيداً إذ أن أملى هو أن يكون بطاقتى إلى الأجيال القادمة ."كما تمكن المريض أيضاً من أن يستعلم عن مراحل الحملة الثالثة إلى مصر ، تلك التى سمحت بنقل مسلة الأقصر إلى فرنسا والتى جائته فكرة إقامتها فى أحد المواقع الباريسية وهو الذى أقنع محمد على بإهدائها لفرنسا * وكان هذا الموضوع يلح عليه وسط هذه الآلام وخلال هبوطه الطويل نحو "الأماكن السفلى" - بمثابة قبس من الزهو القلق : إلى أين وصل المركب "الأقصر" الذى كان يقوده صديقه فارنيناك دوسان مور والذى كلف بنقل أكثر الغنائم قيمة وعظمة إلى فرنسا ؟

---

* راجع الخاتمة .

إبتداء من أول فبراير دخل مرحلة الهلوسة التى لا عودة منها . هل تعرف حتى على كازمير بيرييه رئيس الوزراء الذى جاء لزيارته وهو يعرف أنها المرْة الأخيرة التى يراه فيها والتى لم يعش هو نفسه بعدها سوى شهرين فقط إذا صرعه مرض الكوليرا فى بداية شهر مايو . يبدو أن المحتضر لم يترك وصية : إنما طلب شفوياً من أخيه أن يدفن فى مقابر الأب لاشاز بالقرب من فورييه "

فى مساء ٣ مارس حصل على المباركة الدينية النهائية وعلمنا من مراسلاته مع أنجليكيا أن هذا المناهض الشرس للكهنوت قد أكتشف أنه مؤمن ... أراد أن يرى مرة أخرى الأشياء التى أحضرها معه من مصر – جلبيته وقفطانه* الأسود وطربوشه وشبشبه الذى أحضره من الجرنة. وسمع بعض أقربائه أنينا طويلاً اعتقد البعض منهم أنه قال " إذن فهيا إلى أبعد من ذلك إلى مصر حتى طيبة .. " أبنته زورابيد التى كانت قد بلغت لتوها عامها الثامن وكانت قد ولدت على نفس هذا السرير ، هل شعر بوجودها ؟

جان – فرانسوا شامبوليون يواجه الموت ...." إذن فإلى أبعد من ذلك حتى طيبة .. " إن ما بقى له من وعى عبر به الدورة التى قادته نحو المناطق السفلى فى إتجاه "الأمنتى" قبل الصعود التطهيرى التى سيولد بعده من جديد – كما هو موقن– إلى جوار الأجداد .

ما الذى يمكن أن تعنية هذه المعرفة الهائلة التى كرس لها حياته كلها ، ما الذى يمكن أن يكونه شعب الآلهة الذى حضر مؤخراً لاستقباله لفترة دامت شهوراً من ممفيس إلى أبو سمبل إذا لم يكن وعداً بالأبدية ؟ إن التماثيل المصنوعة من الجرانيت الأحمر والبازالت الأخضر الذى نجح فى أن يقرأ عليها ، منذ إقامته فى تورينو ، الهيروغليفيات الأسطورية التى تشهد على وجود حياة غير قابلة للفناء ، ماذا يمكن أن تكون – سيزوستريس المحبوب وتحتمس المرهوب – سوى الصورة الصلبة من حجر التى يتم من خلالها استمرارية الحياة؟

هذا الاحتضار الذى لا يحتمل ملئ بحقائق لا ريب فيها ودائمة: إن الرجل الذى كان يحاور داخل مقابر بيبان الملوك ولفترات زمنية طويلة "الأجداد" فى خدة متناهية ، لدرجة أن سلفادور شيروبينى كان يجده منهاراً ووجهه إلى الأرض ، هذا الرجل كان

* محتفظ بها فى منزل الأسرة فى فيف

يعرف وهو فى أكثر الفترات عذاباً – "لا يزال الوقت مبكراً " ما أكثر ما هو موجود هنا فى الداخل .. " أن العالم الذى أحياه من جديد سيضمن له حياة لا ملل فيها .

توفى فجر ٤ مارس ١٨٣٢ ، كان عمره واحد وأربعون عاماً وشهران ونيف . كانت قسمات وجهه التى تشبه وجه محارب أفريقى قد أسائت إليها فغيرتها الآلام وكانت الشيخوخة التى طالت هيئته مأساوية لدرجة أن روزين وجاك جوزيف رفضا فى بادئ الأمر أن تؤخذ لوجهه بصمة شمعية ولكنهما وافقا على ذلك فى النهاية* ولم يسمح سوى لعدد قليل جداً من الأشخاص بتحية الرفات .

كثر الجدل حول أسباب وفاته ** كان السل أهمها جميعاً وكانت هشاشة رئتيه معروفة منذ فترة طويلة ثم إن المحنة المناخية القاسية للغاية التى فرضت عليه فى بداية عام ١٨٣٠ لدى عودته من مصر (إذ بعد أن كان قد مر لتوه من جو الإسكندرية الخانق واجه على الفور ثليج محجر طولان الصحى فى شتاء لا يمكن تصور قسوته فى ذلك العام وهو الأكثر برودة لنصف قرن كامل) كل ذلك حول الوهن إلى مرض قاتل .

على الرغم من أن المتخصصين المعاصرين يرفضون إعتبار حالات الإغماء التى كانت تطرحه أرضاً فى كثير من الأحيان (وخاصة فى اليوم المشهود يوم "وجدتها" وفى ١٤ سبتمبر١٨٢٢) تشخيصاً إكلينيكياً لهذا المرض،فقد كان مريضاً بالسكر. سبق أن أشرنا إلى أزمات النقرس التى عصفت بالسبع سنوات الأخيرة من حياته،كما توجد أسباب عديدة للإعتقاد بأن إقامته فى مصر وما شربه فيها من(ماء النيل) وما أكله خلال

---

* حدث نفس الشئ عندما طلبت جمعيه فراسة الدماغ صب قالب للرأس لولا أن العلاقات القوية التى كانت تربط الدكتور جانين بالمتوفى أقنعت الأسرة بالسماح بإجراء هذه العملية ، مما سمح للطبيب بإجراء بعض التعقيبات التى جائت مخيبة للآمال على العموم .

** قدم الدكاترة كروفيليا دبروسيه ودوبار التشخيص الثانى : "مرض معقد جداً " وهن عام نتج عنه مرض السكرى ، البقاء فى الحجر الصحى ، الإنفعالات لأحداث الثورة ، الإرهاق المستمر والإحساس بأن الموت يقترب منه وهى جميعاً أسباب معنوية لها آثار رهيبة على المريض بداء السكر ومن ثم التئام سيئ للجراح وتنتج عنه انتشار السل . سبب آخر النقرس الصاعد ، كانت الأزمات التى لحقت بشامبليون أزمات إحتقان أكثر منها أزمات جرح (تسببت رحلته المرهقة والأجواء السيئة داخل مقابر الملوك وشرب كميات كبيرة من ماء النيل كل ذلك تسبب فى مرض الكبد تم تشخيصه فى وقت متأخر جداً) نشاط عقله المتوهج وإنشغاله الفكرى المستمر جمد دمه وأوصله إلى القبر.

فترة إقامته الطويلة فى الجرنة لم تكن غريبة عن التدهور المفاجئ لصحته . إن مرضى الدرن يعرفون مثل هذا التدهور السريع لصحتهم وأكثر من ذلك إذا كان جسدهم قد أصيب بفيروس أو أميبا مثل الذين جاء بهم من الشرق (الذى لم يكن صحياً فى تلك الأزمنة) الرحالة الجسورون .

جرت مراسم الجنازة صبيحة ٦ مارس ١٨٣٢ وكان يوم الثلاثاء المرفع .... والصلاة أديت فى كنيسة سان روش التى كان لها دور هام فى حياة المتوفى وفى حل شفرة اليهروغليفيات. ففيها التقى بالقس شيفتيشى وكان فى السابعة عشرة من عمره وكان أفضل أساتذته للغة القبطية وكان يستمع إليه وهو يقيم القداس " بلغة أعزائه رمسيـ ں وتحتمس " . فى أي مكان آخر أفضل من هذا يمكن إثارة الرحلة الأخيرة لروح لشخص الذى كان يطلق عليه الدكتور باريزيه اسم "ميامون" ؟ أين يمكن أن نجد مصدراً أكثر تفعيلاً لاستناره .. الرابع عشرين سبتمبر ١٨٢٢ ؟ اللغة القبطية ..

للانتقال إلى مقابر پارلاشاز أحاط بالنعش سليفاستر "دوساسى ، المعلم فرانسوا أرجوا، الصديق ، الكسندر فون هومبولدت ، ممثلاً لعلماء أوروبا كما كان يحب أن يصفه والكونت دو فوربان ، ممثلاً للسلطة بصفته مديراً عاماً للمتاحف وكان الحضور كبيراً جداً ولم تصرفه إحتفالات الكارنفال .

خطبة وداع مؤسس علم المصريات ألقاها سيلفاستردوساسى فى جلسة أكاديمية يوم ٢ أغسطس التالى للوفاة . "كان "إطراءاً" فريداً من نوعه بسبب غموضه وهو يلقى الضوء – فى صراحة غير مألوفة فى مثل تلك المناسبات– على الشك الذى كان على مكتشف الشفرة أن يواجهه ويتخطاه وعلى الإنضمام الحذر والمتأخر لمؤيدى شامبوليون حتى قبل تأييد أستاذ الإستشراق ومعلمه .

" من المؤكد أن شباب المؤلف والحيوية التى يتسم بها خياله وحماسه غير المتأنى كان لهم دور هام فى الأمال التى كان يفتخر بها وفى الثقة التى كان يعرضها بها للخطر ولم يكن النقد الذى ظل متردداً فى قبول مثل تلك الوعود سوى حذراً وعادلاً* .

" ومع ذلك فـــإن ما كان يعد به دون حذر فى ذلك الوقت قام بتحقيق الجزء الأكبر منه بعد ذلك ببضعة سنوات ولو لم يحصده الموت مبكراً فلاشك

* أكثر "حذراً" من كونه "عادلاً"

أنه كان سيحققه تماماً بل لعله كان يتخطى أماله ذاتها " .

حتى وهو على أعتاب مقبرة تلميذه السابق لم يسحب المعلم العجوز تحفظاته إلا وهو نادم ، وقبل أن يستسلم فهو يفاوض على إستسلامه حتى آخر لحظة ، متهماً فى عناد "الحماس غير المتأنى " للرجل الذى لم يبح فى "رسالته إلى مسيوداسييه" فى ٢٧ سبتمبر١٨٢٢ سوى بجزء بسيط من إكتشافه. استمر الجدل-كما لو أن وفاة صاحب الكشف لم تكن بالفعل سوى عبور مؤقت للممالك السفلى فى إنتظار ميلاد الشمس الجديد

بعد أن أطلق أخر سهامه أصبح ساسى على سجيته وأخذ يحىّ فى الرجل شخصيته "هذه الإستقامة فى القلب ، وهذه البساطة فى الشخصية وهذه الصلابة فى الفكر الممتزجة بكل هذا المرح وهذا الولاء الدائم فى العواطف وهذه النزاهة الشخصية وهذا الإمتنان الحى والصادق أى وفى كلمة واحدة جميع الصفات العظيمة التى طبعت بها كتاباته" . ثم يضيف الخطيب متساءلاً:" ولكن من منكم أيها السادة لا يؤيد ما نمتدحة فيه هنا ؟ ولو أن الأكاديمية لم تضم لها شامبوليون سوى مؤخراً ولفترة وجيزة إلا أنها كانت تعترف بكل ما سبق كما كانت تفعل لها بالنسبة لدراساته العلمية وأدابه وذلك لأن قوة أحاسيسه واستمراريتها لم تكن سوى العلامة المميزة لقلبه وبنفس القدر الذى تميز به فكره من تعاطف واستعداد طيب " .

أهم تحيتين قدمتا لجان – فرانسوا شامبوليون ندين بهما لأقرب مريديه له وهما إيبوليتو روسيللينى والغريم الذى ظل لفترة طويلة على عنادة ضد الشخصية المسيطرة لمؤسس علم المصريات جون جاردنى ويلكنسون .

بعد أسابيع من وفاة زمليه فى الرحلة إلى مصر نشر البروفيسور التوسكانى فى بيزا : تقدير الامتنان والحب فى ذكرى جان – فرانسوا شامبوليون الصغير : حيث عبر فيه – فيما وراء المبالغات التقليدية المعهودة فى مثل تلك المناسبات – عما يجب تسميته صرخة من القلب وهو ما يعتبر شيئاً نادراً فى مثل هذا المجال : " .. لك الفخر يا فرنسا أن أخرجت "كولومبس" جديداً فتح أمام العلم عالماً ظل لعديد من القرون عاجزاً عن اكتشافه ! آلام رجال العلم الذين وقفوا حول جثمانه عبرت عن الخسارة التى لا تعوض المتمثلة فى إختفاء مثل هذه العبقرية والحزن الذى ألم بأصدقائه العديدين يذكرنا كم كان طيب القلب وخدوما وأمينا ويستحق الاحترام والتقدير والحب (..) كم كان عفيفاً ورزيناً ومقبلاً على العمل ، قليل الإهتمام بالشكليات الاجتماعية كما أنه

أكثر الناس سخائاً بالتعريف بنظرياته .. "

في ١٧ أبريل ١٨٣٢ تلقى جون جاردنر ويلكنسون الذى ظل عشر سنوات متقوقعاً في منزله المشيد باللبن فى ألجرنه (حيث رفض قبل ثلاث سنوات حتى ولو بصفته جاراً – مقابلة أعضاء البعثة الفرنسية التوسكانية وذلك ولاءاً منه ليانج) تلقى نبأ وفاة شامبوليون فكتب رسالة إلى فارنيناك دوسان مور الضابط المولود فى منطقة اللوت والذى قاد مركب "أسترولاب" الذى عاد عليه صاحب الكشف فى فرنسا :

"لا أحد يمكنه " أفضل منى تقدير الموهبة الخارقة لهذه العالم ولا أحد أيضاً يمكنه تقدير فداحة هذه الخسارة أفضل من الذى شغل نفسه لهذه المدة الطويلة بنفس دراساته . هكذا توقفت إشعاعات النور التى كان علمه يلقيها على الهيروغليفيات! وقعت الشعلة . لى الأرض ولا يمكن لأحد أن يرفعها . أخشى كثيراً أن تكون وفاته نتيجة للهجوم . ير الطيب الذى قامت به العديد من الشخصيات مؤخراً فى إيطاليا وإنجلترا وألمانيا وحتى فى فرنسا على منظومته وسمعته. إلا أن الأمل يحدونى فى أن العالم سيكون عادلاً بما يكفى لمنحه ما يستحقه. الواقع هو أنه لا يمكن إنكار أن دراسة الآثار واللغة المصرية لا تدين بما هى عليه الآن سوى لأعمال شامبوليون* ..

بين كافة التعبيرات عن الحزن والإعجاب التى وصلته حينذاك وضع الآخ الأكبر لجان فرانسوا شامبوليون هذه الشهادة وحدها فى المقدمة وقد حث إبنه إيميه على نشرها – دون الاخرين جميعاً فى كتابة "الشقيقان شامبوليون " (ص ١٠٦)

"إن الأعمال الرائعة التى قام بها أخوكم مضاءة بمعارفكم أنتم أيضاً وستدوم مثلما تدوم الآثار التى شرحها لنا لتوه " توقيع : شاتوبريان ** .

الأنوار : نفس الكلمة تظهر فى كتابات روسيللنى وولكسنون وشاتوبريان وهى تفرض نفسها بالفعل منذ البدايات القديمة لعملية الكشف حتى إختفاء صاحبه " هذه هى نهاية الأنوار" أعلنها ويلكنسون ولكنا يمكن أن نقول أيضاً " ها هى الأنوار قد هلت .. "

حكيم مصرى من الأمبراطورية الحديثة قال ما يلى، منقولاً من بردية شيستر بيتى الرابع : " رجل ذهب، جثمانه مسجى داخل الأرض ، جميع معاصريه ذهبوا " عن الأرض : إلا أن المكتوب سيضع ذكراه على شفاه من سينقلها إلى شفاه أخرى .."

---

* سبق أن أشرنا إلى هذا الخطاب فى الفصل ١٢ .

** أعاد شاتوبريان هذه الجملة بالنص تقريباً فى الصفحة قبل الأخيرة من مؤلفة مذكرات من وراء القبر.

خاتمة

الغائب عن المسلة

بقلم
جان فيدال

فى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ إجتاح مئتا ألف باريسى ساحة لا كونكورد وحدائق التويلورى لحضور حدث ظلوا ينتظرونه طويلاً : إقامة المسلة .

منذ أن أهداها محمد على لفرنسا ظلت المسلة المصرية موضوعاً للمقالات وسبباً لإثارة الرأى العام و تابعت الصحف يومياً تقريباً مختلف مراحل إقتلاعها من مكانها ورحلتها التى دامت ستة عشر شهراً ونقلها من ضفاف النيل بالقرب من طيبة حتى شواطئ نهر السين .

ولكن ، وحتى قبل أن تصل إلى باريس فى نهاية ١٨٣٣ ، أثار موضوع إقامتها فى العاصمة واختيار المكان الأمثل لذلك العديد من المناقشات المريرة وكمية غزيرة من الكتابات تغذيها فصاحة محبى المجادلات . أخيراً ستراها الأعين تلك المسلة القادمة من هذه الأقطار النائية بعد كل هذا المجهود وهذه الأموال : .

كانت لا تزال فى صندوقها الخشبى الضخم الذى حماها عبر رحلتها عندما رفعت على منحنى مريح زاويته صغيرة ينتهى عند قمة القاعدة التى أقيمت لاستقبالها ، فى الوضع الذى كانت عليه فى ذلك الوقت ، ممدة على الرديم المائل . كانت قاعدتها تمس سطح القاعدة التى سترسو فوقها وكان الموضوع الآن هو تنفيذ أصعب العمليات وأدقها وهو إيقافها على قاعدتها .

بفضل الآلية التى اخترعها المهندس "لوبا" الذى كان يشرف على المناورة وبفضل الشدة الخشبية والحبال العجلات والونش وعضلات ٤٨٠ من جنود سلاح المدفعية شاهد الناس هذه الكتلة الضخمة والتى تزن ٢٣٠ طناً ترفع وهى تدور حول نفسها ببطء – بل ببطء شديد فى شكل قوس زاويته ٩٠ درجة تقف بدقة متناهية فوق قاعدتها. ارتفعت صرخات الاستحسان من الحضور الغفير فى حين راح الملك فيليب وأسرته التى أحاطت به فى شرفة وزارة البحرية يصفقون لهذا الأداء الميكانيكى الرائع .

أصبح لباريس الآن مسلتها . كان الوقت متأخراً لكى يتمكن شامبوليون من حضور انتهاء المشروع الذى بدأه والذى كان التأخير المتكرر والمعوقات أمام تنفيذه أحد المنغصات التى أثرت على السنوات الآخيرة من حياته .

غير أن ذكرى صاحب الآكتشاف كانت عالقة فى أذهان عدد كبير من المشاهدين عندما ارتفع الحجر ذو القاعدة المربعة المزين بالهيروغليفيات نحو سماء باريس. بالنسبة لهؤلاء كما كان آلأمر بالنسبة لكل من كان يتعلم فى فرنسا وأوروبا الذين يعرفون قدر ما يدين به العلم لاكتشافه العظيم فإن إفتتاح هذا الأثر اعتبر تحية ضمنية لمؤسس علم المصريات .

مضت الآن مائة وخمسون سنة ونيف على الحدث وعندما نمر أمام المسلة فيكفى أن نرنو إليها لكى تذكر شفاهنا اسمه .

إنه اسم ننتظر أن نراه مكتوباً أسفل القاعدة الحديثة لهذا الأثر ومع ذلك وللعجب لا نجده وسنذهب بانفسنا لنتأكد من ذلك عندما يحين الوقت ولكن يجب علينا أولاً أن نذكر بالدور الذى قام به شامبوليون فى المغامرة الفريدة التى قام بها هذا الأثر الذى هو "رمز الشمس والحياة يقف رأسياً مثل شعاع مضئ ومثل أير منتصب " * أنشئ لكى يجل التسامى الإلهى للفرعون المصرى والذى أصبح أحد معالم الحياة الباريسية المشهورة والشاهد العلنى لأعظم أيام فرنسا الجمهورية .

مسلة فى بريس؟ لم تكن الفكرة جديدة . قدم جان أومبار فى كشف موثق ضمن مقالة "مسلات باريس " المشاريع والذى تحقق منها " الذى ظهر فى مجلة لاروفو دولار La Revue de l'Art [1] تضمن كافة الأعمال المقامة على شكل مسلة والتى أقيمت منذ القرن السادس عشر لكى يتزين بها ميدان أو مجموعة معمارية أو للإحتفال بذكرى حدث ما مثل ذلك ، المسلة التى شيدت فى عام ١٥٤٩ فى شارع سان دونى بمناسبة دخول الملك هنرى الثانى إلى عاصمته ويبلغ إرتفاعه سبعين قدماً فوق قاعدة على هيئة حيوان وحيد القرن .

---

* التعبير منقول من الكتاب الممتاز التى ألفته مدام برناديت مونو : "مسلة الكونكورد" ونشر بمناسبة العيد المائة والخمسين لإقامتها ، قدمت له نبذة تاريخية مدام ديروش نوبلكور ، وتزينه رسومات أصلية . يوفر هذا الألبوم كافة التفاصيل الخاصة بهذا الحجر الصلب ، ومعانى مخطوطاته وتاريخ رحلته والوسائل التقنية التى استخدمت لنقله من طيبة إلى باريس .

السحر الذى كانت تؤثر به مصر وأسرارها على الأذهان فى القرن الثامن عشر، إذ تطور فأصبح جنوياً بمعنى الكلمة أطلق عليه اسم "جنون الولع بمصر" أدى إلى ظهور مسلات ليس فى المدينة فقط وإنما فى الحدائق وفى المنازل الريفية الترفيهية المحيطة . كانت نزوات تستلهم وجودها من الآثار الفرعونية الأصيلة الوحيدة الموجودة فى أوروبا الغربية وهى مسلات إيطاليا، المستوردة اليها فى العصور القديمة وخاصة فى روما والتى نجح باباوات المدينة الأميرية فى عصر النهضة فى إدخالها فى الإطار العام لعاصمتهم فى تناغم رائع معه . ولكن بعد الأباطرة- من أغسطس إلى قستنطين الذين أسقطوا ثم نقلوا إلى شواطئ التيبر والهيليسبوتن معظم المسلات التى كانت قائمة أمام معابد وادى النيل - لم يفكر أحد فى تقليدهم .

ثم جاءت الحملة على مصر. أن تكون فكرة إحضار مسلة إلى فرنسا ضمن الأفكار العديدة التى ألهبت خيال بونابارت وأعوانه وتلقى قبوله، فهذا يعتبر من طبيعة الأمور ولم يتردد الإسكندر الجديد فى حملاته السابقة من إنتزاع غنائم عديدة أخرى إلا أن المشروع توقف وسبق أن قلنا لماذا .

إلا أن المشروع عاد إلى الظهور المفاجئ مرة أخرى ولكن فى صورة مختلفة عندما أراد نابوليون وقد بلغ قمة المجد بعد انتصاراته فى يينا والفيستول ، أن يمجدها إلى الأبد. وبتأثير من دونون الذى إمتدح له جلال مسلة الكرنك حدد اختياره فى هذا النوع من التشييد ولكن لم يكن الأمر خاصاً بأثر مصرى ولكن بمسلة خاصة ترتفع مائة وثمانين قدماً تقام عند نهاية جزيرة لاسيتته أمام ساحة جسر البون نوف - وكان المفروض أن يكتب عليها عبارة "الإمبراطور نابوليون إلى الشعب الفرنسى " .

وصدر قرار باعتماد هذا المشروع فى ١٥ أغسطس ١٨٠٩ وبدئ بالفعل فى تشييد أساس هذا الأثر الضخم واستعدت ساحة البون - نوف لاستقبال مسلتها عندما غيرت الظروف التاريخية فى ١٨١٤ من الأثر الذى تحول إلى تمثال للملك هنرى الرابع فوق جواده تم صبه من برونز إحدى تماثيل نابوليون واحتل القاعدة التى أعدت للمسلة الإمبراطورية وظل فى مكانها حتى الآن .

إلا أن باريس أصبحت مركزاً للدراسات المصرية : ظلت أجزاء كتاب"وصف مصر"تظهر تحت رعاية لويس الثامن عشر بينما عمليات إقتناص الآثار كانت على أشدها عند ممفيس والكرنك، ولم يطل الوقت حتى عاد الحديث بدور من جديد عن المسلة.

هل قام ملك فرنسا بالأمر بالمفاوضة على للحصول عليها أم أن نائب – ملك مصر هو الذى بادر بإهدائها له ؟ إن المراجع حول هذه النقطة غير دقيقة إلا أن الإفتراضين لا يتعارضان ونتفق مع ماكتبه شامبوليون – فيجاك أن "نائب ملك – مصر كان يسمح بشئ من البذخ: ففى مقابل بعض التعويض له بتصدير المنتجات الأثرية للخاصة الملكية وفى مقابل بعض الهدايا من القطع الأثرية الهامة كان يتلقى خدمات ويستفيد من ورعاية أمراء الغرب له" (2)

نضيف إلى ذلك أن تأثير صديق الباشا الحميم – (القنصل برناردينو دروفيتى) – فى هذا الموضوع كان عظيماً. يبدو أن فكرة إهداء مسلة لملك فرنسا كانت تراوده ، ففى إحدى رسائل دروفيتى المحررة فى القاهرة بتاريخ ١١ يناير ١٨١٩ نقرأ ما يلى: "أما بخصوص المسلة التى كنت أخصصها كهدية إلى ملك فرنسا فقد ضاعت بالنسبة لكم بسبب الخطأ الرهيب الذى ارتكبه مسيو ريفان (ريفو) الذى لم يقبل أن يذهب ليأخذها عندما أرسلت فور وصولى إلى هنا زوج ابنتى إلى ســيان* مكلفاً إياه بشحنها (إلى فرنسا) (3) .

المرسل إليه غير مذكور فى الرسالة ، لكن لا شك أن خطاب دروڤيتى هذا كان ردا على الرسالة التى أرسلها له شخص يدعو جويو كان قد كتب له من أسوان فى ١٣ ديسمبر السابق يقول له فيها : " إنى انتهز فرصة كرم ميسو سولت علىّ لأصعد أبعد من ذلك فى نهر النيل " أريد أن أعلمكم أن المسلة موضوعة بالفعل فوق المركب والذى سيغادر الجزيرة غداً" (4).

ما هى هذه المسلة التى أراد دروفيتى إرسالها لملك فرنسا والتى خطفها منه غريمة البريطانى – ضمن *سلسلة الصراعات القائمة* بين تاجرى الآثار ؟ هل كانت الجزيرة المذكورة هى جزيرة فيلة وهل كانت المسلة هى تلك التى أخذها بانكس شريك سولت ونقلها إلى أنجلترا ؟ من المعلوم أن خرطوش كليوباترا الهيروغليفى الذى يعتبر من أهم العناصر التى بنى عليها شامبوليون اكتشافه كان منقوشاً عليها .....

فى تلك الأونة كان دروڤيتى يعمل على استعادة رضاء أسره البوربون عليه فقد خلع من منصبه بعد عودة الملكية ، كقنصل فرنسا العام فى مصر، وكان الأمل يحدوه فى العودة إليه،كما أنه كان يأمل فى أن تشترى منه فرنسا مجموعته الأولى من الآثار

---

* أسوان (المترجم) .

المصرية القديمة وكان مدير عام المتاحف الملكية – الكونت دو فوريان قد تأثر للغاية من حسن استقبال القنصل السابق له لدى مروره على الإسكندرية فى بداية عام ١٨١٨ كما أعجب للغاية بمجموعة الآثار التى جمعها ، ولدى عودته إلى باريس أعلن الكونت لدورڤيتى أن عودته إلى منصبه تكاد تكون مؤكدة وأفهمه أن ذلك يساوى بعضاً من التضحية بالنسبة للسعر الذى يطلبه لمجموعته الأثرية وأضاف "سينظرون هنا بعين الرضا إلى بعض العينات من مصر الرائعة التى قد تهدونها مباشرة إلى صاحب الجلاله " (5)

فضل دروڤيتى أن يبيع مجموعته إلى ملك سردينا ، ولكن بعد أن أعيد إلى منصبه كقنصل عام لم يكن فى إمكانه أن يغفل التعبير عن ولائه بتقديم هدية إلى ملك فرنسا، ويعود له الفضل دون شك فى أن أصبح لويس الثامن عشر فى أواخر عهده مالكا لمسلة هى واحدة من إثنتين موجودتين فى الإسكندرية تسميان عن خطأ "بإبر كليوباترا" أما الأخرى فقد أهديت إلى إنجلترا للحفاظ على حسن التوازن الدبلوماسى بين الدولتين العظميين .

ومرت الأعوام دون أن يفكر الملاك الجدد للمسلتين فى الحضور لاخذهما ونسى شارل العاشر ووزراؤه وجودهما إلى أن ذكرهما كل من الكونت لابورد لدى عوته من مصر وشامبوليون لدى وصوله إليها بأن قال إن إحدى المسلات المملوكة لفرنسا تركت فى إهمال وسط آثار الإسكندرية .

غداه وصوله إلى الإسكندرية فى ١٨ أغسطس ١٨٢٨ ذهب شامبوليون لزيادة "ابر كليوباترا" ولفك شفرة الهيروغليفيات التى عليها فيتعرف على مصدرها – هليوبوليس – وعلى عصرهما : تحتمس الثالث كما سجل أيضاً حالتهما السيئة للغاية – وواجهاتهما تآكلت بفعل هواء البحر والمنحوتات تكاد تكون مطموسة تماماً – إلا أنه ينصح فى إحدى رسائله لأخيه "بعدم التأخير فى أخذ تلك التى تخص فرنسا خشية أن تخطف الهدية من أساسها " ولكنه سيندم على تقديمه لهذه النصيحة فى تسرع وذلك عندما رأى مسلات الأقصر .

إلا أن الخطاب كان قد أخذ طريقه وبينما كان شامبوليون والحملة الفرنكو –توسكانية يبحرون فى إتجاه مصر العليا كان الخطاب قد فجر فى باريس كل طاقات المنقذ الذى لا يكل شامبوليون – فيجاك– فحاصر أصدقائه وأخذ يهز جمود البيروقرطيين فعاد ملف المسلة إلى السطح، وتملكت شارل العاشر رغبة أن يراها

منقولة إلى عاصمته وكلف فيجاك من البلاط الملكى بدراسة تكلفة وضع هذه المسلة على ظهر إحدى سفن البحرية الملكية .

كانت الحكومة البريطانية قد درست الموضوع بالفعل وطبقاً لتقديرات مهندسى البحرية الإنجليزية الذين أرسلوا للمعاينة على الطبيعة فإن نقل المسلات يتطلب إنشاء طريق سيتكلف ثلاثمائة ألف فرنك . بناءاً على ذلك صرفت إنجلترا النظر عن نقل الأثر الذى يخصها وسُر شامبوليون لدى سماعه النبأ وهو فى قلب منطقة طيبة: " إنى لفى غاية السعادة لأن المهندس العلامة الإنجليزى طرأت له فكرة إنشاء طريق يكلف ثلاثمائة ألف فرنك حتى ترفض حكومته وبالتالى حكومتنا أيضاً مسلتى الإسكندرية فهما يثيران الشفقة منذ أن شاهدت مسلات طيبة . " رأهم للمرة الأولى لدى توقف قصير هناك (فى الأقصر) فى ٢٣ نوفمبر ١٨٢٨ ولما كان يريد الإسراع فى مواصلة رحلته إلى النوبة فقد اكتفى بالتعبير عن إعجابه إزاء "العمل الرائع الذى شغلت به كتلتى الجرانيت الأحمر القائمتين أمام معبد الأقصر " وكان من نتيجة هذا الحب من أول نظره .. أن حصلنا على الصرح النبيل الذى يزين ميدان الكونكورد .

بعد عودته إلى طيبة فى بداية مارس ١٨٢٩ وبعد أن راجع من جديد المسلتين إستبعد أى خيار آخر وكانت أولى رسائله موجهة إلى دروڤيتى الذى كان يستعد لمغادرة مصر : "أود أن تصلكم هذه الرسالة فى الوقت المناسب حتى تقدمون فى باريس إقتراح فكرة الحصول على إحدى مسلتى الأقصر بدلاً من تلك المسكينة المطموسة القائمة عند الميناء القديم وسيكون ذلك أجدر بالأمة وبالوزارة وبكم .. "

وفى نفس التاريخ كتب لأخيه يقول : "شاهدت مرة أخرى المسلات الجميلة ، لماذا نلهى أنفسنا بنقل مسلة الإسكندرية بينما يمكن أن نحصل على إحدى القائمتين هنا مقابل مبلغ بسيط قد يصل إلى أربعمائة ألف فرنك فقط". ويعاود مرة أخرى بعد بضعة أيام : " إذا أرادت الحكومة أن يكون لها مسلة فى باريس فيجدر بالشرف الوطنى أن تكون واحدة من الموجودتين فى الأقصر (التى على اليمين عند الدخول) فصنعتها رائعة وهى فى حالة جيدة لدرجة مذهلة . أصّر على ذلك وحاول أن تجد وزيراً يود أن يخلد اسمه بأن يزين باريس بمثل هذه الرائعة . ثلاثمائة ألف فرنك تكفى......."

ثلاثمائة ألف فرنك ، أربعمائة ألف فرنك .. لم تكن لدى شامبوليون أدنى فكرة عما سيتكلفه نقل المسلة وتسليمها ثم إقامتها فى محيطها العام الباريسى .

ولكن دعونا من التفكير فى ذلك ولنشاهد معه ونعرب عن إعجابنا ونحن أمام الواجهة الشمالية لمعبد الأقصر بالمسلتين المشهورتين المصنوعتين من الجرانيت الأحمر: "هاتان الكتلتان الضخمتان " تحفتان حقيقيتان ترتفعان لأكثر من سبعين قدماً أقامهما رمسيس الأكبر فى هذا المكان لأنه أراد أن يزين بهما الرامسيون كما هو مكتوب بالنص فى مخطوط المسلة اليسرى .. "

وكان صاحب الكشف فى قمة السعادة عندما لاحظ من جديد أن النصوص المنحوتة على هذه الآثار "كانت أبعد ما تكون عن إحتواء أسرار دينية كبيرة أو تأملات فلسفية أو أسرار علوم السحر أو على أقل تقدير دروس فى الفلك بل هى إهداءات مكتوبة كتعبير عن الفخامة للمبانى المشيدة أمامها .

وقام شامبوليون بنسخ هذه النصوص بعناية تامة على الرغم من أن أياً من أسرارها كان لا يخفى عليه . الجزء الأسفل من المسلتين كان مغموراً فى الرمال ، فعمل على إزاحتها حتى الأساس لينسخ الهيروغليفيات المنحوتة على ثلاثة صفوف عمودية فوق كل من وجوهها الأربع . ظل جزء من المخطوطات تخفيه عنه بيوت بعض الفلاحين المبنية بالطوب اللبن ولكن سيحصل عليها فيما بعد على يد المهندس لوبا الذى حضر بعد ذلك بعامين ليشرف على أعمال إنزال المسلة التى اختارها ونقلها : أى تلك الذى على اليمين عند الدخول .

لماذا وقع شامبوليون فى غرام هذه المسلة بالذات (وهى المسلة الغربية لان مدخل قصر الأقصر فى إتجاه الشمال*) ؟ إن الأسباب التى يسوقها لأخيه ليست مقنعة بالقدر الكافى : "أختار التى على اليمين لأسباب جيدة بالنسبة لى على الرغم من أن الهرم الصغير الذى يعلوها مشطوف وأنها تبدو أصغر من جارتها ببضعة أقدام .."

السبب الوحيد الجاد تضمنه تقرير مرفوع للوزير " إنها أفضل بكثير من التى على اليسار ؛ لأن الجزء الأسفل لهذه الأخيرة مصاب حتى ارتفاع قاعدتها بأضرار جسيمة " .

---

* يجب أن نسجل هنا من ناحية أخرى أن فى ضعها الحالى فى ساحة لاكونكورد غيرت المسلة من توجيهاتها، إذ أن واجهتها الشمالية أصبحت اليوم فى إتجاه الغرب وتواجه الشانزليزيه .

هل لم يلاحظ شامبوليون أن مسلة اليمين كانت بها بعض الشروخ وهى ظلت تقلق بال لويا فى عملياته المختلفة (وهى شروخ واضحة جداً أحدها على الوجه المطل على كنيسة المادلين والآخر عند القاعدة فى إتجاه السين ؟) على العموم كانت هذه هى المسلة التى رأى شامبوليون أنها الأجمل : وهو سبب يكفى .. "

بعد أن تم الاختيار بقى كل شئ ينتظر التنفيذ : أى إقناع الحكومة الفرنسية بالعدول عن مسلة الإسكندرية ثم الحصول على إهداء الباشا لإحدى المسلتين الأقصريتين (أو الاثنين معاً ولما لا ؟) ثم - وهو الأهم - نقل كتلة تزن ٢٣٠,٠٠٠ كيلو جرام طولها ٢٣ متراً من طيبة إلى باريس .. لا يوجد أى مجال لتقطيعها إلى أجزاء مختلفة ! "لن أوافق أبداً على مشروع نشر هذه المسلات الرائعة المصنوعة من كتلة حجرية واحدة إلى ثلاثة أجزاء. إن ذلك يعتبر خطيئه مميتة : كل شئ أولا شئ! ".

ماذا ؟ هل كان فرنسيو القرن التاسع عشر غير قادرين على عمل ما نجح فيه الرومان؟ تصور شامبوليون تجهيز طوف ذى أبعاد مناسبة توضع عليه المسلة تنقله مياة الفيضان إلى المركب التى ستتولى حمله ونقله إلى أوروبا . هذا هو الممكن .

من الأمور المبالغ فيها أن نرجع إلى شامبوليون الفضل- كما فعلت كاتبة سيرته هيرمينى هارتلوبان- تصميم فى اختراع المركب الذى تمكنت المسلة من السفر على متنه من الأقصر حتى باريس دون تغيير فى وسيلة الانتقال من بداية الرحلة لنهايتها. إن فكرته الخاصة بتصنيع طوف قام بتصميمه بسيون - وهو من ضباط البحرية- لم يتم إعتمادها. إلا أن مبدأ الفكرة ذاتها موجود فى تصميم حوض السفن "الأقصر" ذى القاع المسطح الذى يسمح له بالإبحار فى البحار والأنهار والذى بنى خصيصاً لنقل المسلة .

سبق القول أن شامبوليون لدى عودته إلى الإسكندرية فى نهاية شهر سبتمبر ١٨٢٩ اضطر أن ينتظر بها شهرين لحين وصول المركب الذى عاد به إلى فرنسا . تعتقد مدام هارتلوبان أنه "أنهى خلال لاقاءاته بمحمد على وابنه إبراهيم باشا موضوع نقل مسلتى الأقصر بعد أن أهدياها إلى فرنسا " إلا أن شامبوليون -فيجاك كان أكثر حذراً ؛ إذ يقول : "خلال إقامته فى إسكندرية وضع شامبوليون الصغير خطة الحصول من نائب الملك على مسلتى الأقصر مع مسيو ميجو قنصل عام فرنسا الذى خلف دروفيتى ، كما أنه تحدث مع نائب الملك ذاته فى الموضوع خلال اللقاءات العديدة التى تفضل بها عليه صاحب السمو "(6)، وعود حذرة حول قدح من القهوة هذا هو كل ما

حصل عليه شامبوليون . ومع ذلك فقد كان بإمكانه أن يعتقد وهو يغادر مصر أن المسلتين كانتا فى حوزته . إن الباشا فى تعبيره عن تقديره له أوضح له عدة مرات أنه يود أن يعبر لفرنسا عن تقديره كما أن ميجو أثبت أنه مفاوض ماهر . وكان من الممكن الاعتماد عليه للوصول بالعملية إلى نهايتها السعيدة .

أثناء رحلة "الاسترولاب" ارتبط شامبوليون بعلاقات صداقة مع أحد الرجال الثلاثة الذين تظهر أسماؤهم على قاعدة المسلة القائمة فى ميدان الكونكورد وهو النقيب بحرى فارنيناك دوسان مور الذى حصل على منصب قيادة "الأقصر" وعلى المهمة الشاقة التى هى إحضار الحمل الثمين إلى فرنسا " . هو من مقاطعة كارسى مثله وقد ظل فارنيناك على ولائه له وظل يفيده علماً بكافة تطورات العملية .

ومع ذلك أصبحت المسلة فى باريس أحد شئون الحكومة. "إبحث عن وزير" كان هذا هو النداء الذى وجهه جان فرانسوا إلى شقيقه من طيبة وهو مشدوه أمام كتلتى الجرانيت الأحمر . هذا الوزير لم يكّد فيجاك طويلاً للتوصل إليه . ففى شهر أغسطس ١٨٢٩ خلف بولينياك مارتيناك فى رئاسة الوزارة وعين وزيراً للبحرية المسئول عن ملف المسلة من ..؟ أسوء أعداء شامبوليون ، البارون دوساز – محافظ جرونوبل السابق الذى لم يغفر قط لشامبوليون إحتجاجه بخصوص سرقه رسالة له * .

الغريب فى الأمر أن دوساز بدا كما لو أنه نسى الإهانة فما أن نزل شامبوليون إلى طولون إلا ودعاه الوزير إلى كتابة تقرير مفصل على المسلة وطرق نقلها إلى فرنسا

وعلى الرغم من إنغماسه الكامل فى الإعداد للحملة على الجزائر حيث كان يمارس مواهبه التنظيمية ، إلا أن المحافظ السابق كان يولى إهتماماً مثيراً للدهشة بموضوع المسلات وخاصة فى لحظة كهذه . هل كان يجد فيها وسيلة للظهور فقط؟ الواقع أن هناك دافعاً خاصاً لسلوكه هذا ، إذ أن موضوع المسلات أتاح لدوساز وسيلة لرد الإهانة التى تلقاها من صاحب الكشف قبل ذلك بعشرة أعوام .

كان الملف فى حوزته فهو الوزير ولا يمكن ألا يكون على علم بالدور المحورى الذى يؤديه شامبوليون فى هذه العملية كما أنه على علم بالخطوات التى اتخذها عالم المصريات للحصول من الباشا على هدية مسلتى الأقصر ولكنه سيدعى دائماً أنه لا

---

* راجع الفصل العاشر .

يعلم شيئاً . فى مذكراته التزم صمتاً كاملاً إزاء ما قام به العالم وأرجع لذاته وبحماس شديد كل مميزات العملية : " ما أن عرفت الأوساط العملية أنى أفكر فى إثراء فرنسا بأثر لا يوجد فى أوروبا كلها مثيل له سوى فى روما إلا وراحوا يحثونى على محاولة الحصول على مسلتين أكبر قيمة من مسلتى الإسكندرية ولكنهما أكثر صعوبة فى نقلهما بسبب موقعهما فى الأقصر(7) .. "

لحل مشكلة النقل هذه شكل دوساز لجنة مكونة من بعض الخبراء والمستشارين ورأسها بنفسه وأقصى شامبوليون عن المشاركة فيها بالطبع ولكن لم يمنع هذا الوزير من اللجوء إليه لكفاءاته التى كان يقدرها تقديراً عظيماً ، فقد إستعار من الحجج التى ساقها لكى يدافع أمام شارل العاشر عن قضية مسلات الأقصر والتى أنحاز إليها بنفسه ، وكان التقرير الذى طلبه من عالم المصريات يتضمن عديداً من الأفكار التى اعتمدها ولكن طالما كان المحافظ السابق سيد الموقف لم يذكر اسم شامبوليون قط .

ومع هذا فيجب أن نعطى فعالية وكفائة دوساز حقهما فيرجع إليه فضل حل المشكلة الشائكة الخاصة بنقل الكتلة الحجرية بسرعة حتى قبل أن تتم عملية الحصول على حق حيازة الأثر. كان المركب الذى صمم خصيصاً لنقل المسلة من طيبة إلى باريس وهو الخوض العائم الذى سمى "الأقصر" قد دخل مرحله الإنشاء بناءاً على أوامره فى ترسانة طولون لا شك أنه كان يتمتع بإرادة صلبة ونافذة " لكى يتغلب على مقاومة الذين كانوا يرون أن العملية مستحيلة التنفيذ ولكن أن يأمل فى "أن فرنسا ستدين له بأجمل أثرين تركتها العصور القديمة على الأرض المصرية " كان بمثابة الإعتماد على أوهام سرعان ما ستتبدد ، فبعد أقل من عام من توليه وزارة البحرية قامت ثورة يوليو لتخرجه منها .

وإذ أرغم دوساز على الهجرة أعرب فيما بعد عن خيبة أمله : "لم تتح لى فرصة أن أرى استكمال هذا العمل أثناء ولايتى للوزارة ولن يعرف على الأرجح وإلى الأبد أن فكرته كانت من أعمالى وان كافة وسائله التنفيذية أعدت ودخلت مرحلة التنفيذ على يدى". إلا أن الظلم الذى إدعى دوساز أنه وقع عليه أراد أن يرفعه عن الرجل الذى "ساعده بقوة وهو " يوصى به جميع محبى الفنون " إلا وهو البارون تيلور وهو شخص آخر قال وترك الآخرون يرددون أن فرنسا تدين له – حسبما جاء فى أقوال واحد من الذين كتبوا سيرته "بالعينة الغريبة للمعمار المصرى التى تتزين بها ساحة لاكونكورد فى باريس " .

ابن أحد الإنجليز المتجنسين، كان البارون تيلور شخصية من عالم الفن والأدب. فهو رسام وكاتب وقادته نجاحاته في مجال التأليف المسرحي إلى وظيفة كوميسار الملك في الكوميدى فرانساز ووضعه ولعه بعلم الآثار على إتصال بالكونت دو فوربان وهو صديق لجومار ومهتم بمصر. هل زارها قبل أن يتصل بدوساز بواسطة جبهة جومار؟ يبدو ذلك . المهم أنه هو الذى أعلم دوساز بوجود "إبر كليوباترا" وتحت ضغط "محب الفنون المتحمس " هذا قرر الوزير نقل الأثر الخاص بفرنسا وتلقى الطراد "درومادار " (الجمل) الأوامر بالإبحار إلى الإسكندرية ، ثم عندما ظهر أن الحصول على إهداء عن مسلات الأقصر أصبح ممكناً ، كلف الوزير تيلور بالذهاب إلى الباشا ومعه بعض الهدايا المختارة والقيمة بقصد حث الباشا على المضئ قدماً فى تنفيذ مانواه ومن نيات حسنة سبق أن عبر عنها " .

مفوضاً لدى باشا مصر بمرسوم ملكى ومزوداً بمبلغ مريح مقداره مائة ألف فرنك لتغطية مصاريف مهمته الرسمية ولشراء بعض الآثار لمتحف اللوفر ، وصل البارون تايلور إلى الإسكندرية فى ٢٣ أبريل ١٨٣٠ ، إلا أن الهدايا التى حملها معه لباشا مصر لم ينتج عنها رد الفعل الفورى والحاسم الذى توقعه دوساز .

لما بلغ إلى علم بيكر قنصل إنجلترا أن محمد على أهدى مسلتى الأقصر إلى فرنسا طالبه بهما من أجل بلده. وإذ فات محمد على أنه سبق أن وعد أخرين بهما تعهد بمنحهما إياه .. وعندما وصل تايلور تغلب عليه حبه لفرنسا، شعر الباشا بحرج شديد.. هنا تمكن ميجو من حل للموقف . ويرجع الفضل فى إيجاد فكرة هذا الحل لشامبوليون إذ كتب له فى ٦ يونيو : "كانت هناك عقبة كبيرة كما تعلم إلا أنك آقترحت على بنفسك طريقة إزاحتها . تذكرتها مثل الإلهام السماوى وسط موقف الباشا المتردد الذى قبلها على الفور وأصبحت المسلتان لنا " . ما هى هذه الوسيلة ؟ هى أن يقترح على قنصل إنجلترا الذى وافق على الفور تبديل مسلتى الأقصر بمسلة الكرنك أجمل المسلات على الإطلاق وكان شامبوليون على يقين من إستحاله نقلها ، التفاهم الودى كان لا يزال بعيداً ..

بدت العملية محسومة لولا أن قامت ثورة الثلاثة أيام المجيدة " فى شهر يوليو وكادت أن تعيد الأمور كلها إلى نقطة البداية إذ أن المسلات كانت مهداة إلى شارل العاشر فلما تم عزله عاد القنصل الإنجليزى يصر من جديد على الحصول عليهما ،

ولكن تايلور وميمو حاولا إقناع الباشا بعدم إمكانية الرجوع فى قراره ؛ لأن الهدية كانت مقدمة لملك فرنسا لا إلى شخص الملك ولكن إلى الأمة ذاتها .

فى باريس نفسها كان الإنقلاب السياسى الذى حدث قد خلق مناخاً مواتياً للمبادرات ، إلا أن إقامة مسلة فى العاصمة لم تكن ضمن أولويات الحكومة وبالتالى كاد المشروع أن يختفى لولا أن شامبوليون قام بجهد جبار لكى يعيد إثارته على الساحة.

كان على صلة بالملك لوى فيليب الذى سبق أن عبر له عن تقديره العظيم واستقبله فى قصره . ونجح فى الوصول إليه خلال الاسابيع الأولى لتوليه العرش... غير أن الملك إكتفى- فيما يبدو - بأن أوصى بشامبوليون ومسلاته لدى وزير البحرية الجديد الجنرال - كونت سيباستيانى .

كان خليفة دواساز ضابطاً سابقاً فى جيوش الثورة ثم نابوليون وكان يدعى أنه من أسرة الإمبراطور وأنه صحبه فى جميع حملاته العسكرية . ضمن عالم المصريات فى تقريره (واحد آخر!!) الذى قدمه للوزير عاملاً جديداً جديراً بأثارة إهتمامه ودفعه إلى التحرك وهو أن رغبة الحكومة السابقة انحصرت فى جعل المسلة مجرد رونق تتزين به العاصمة فى أحد ميادينها إلا أن الحكومة الوطنية (الحالية) يتعين عليها أن تحدد لها هدفاً أسمى ألا وهو الاحتفال بالصفحات المجيدة التى حفلت بها تطورات الحملة على مصر والتى لا يشير إليها أى من معالم باريس حتى الآن كانت الفكرة جديرة بأن تروق للويس -فيليب أيضا إذ كان يمد يده للبونابارتيين .

الفترة الصغيرة التى أمضاها سيباستيانى فى وزارة البحرية أتاحت له فرصة إعادة مشروع نقل المسلتين إلى الساحة من جديد . كان مبلغ الثلاثمائة ألف فرنك الذى خصصته حكومة بولينياك فى بداية عام ١٨٣٠ قد أنفق فى تشييد المركب "الأقصر" وعلى مهمة تايلور. فحصل الوزير على موافقة البرلمان على اعتماد جديد قيمته مائتان ألف فرنك تبعته بعد ذلك العديد من المبالغ الأخرى هى التى سمحت بتحريك الخطة التى وضعها سلفه وبتحديد ربيع ١٨٣١ موعداً لسفر الحملة .

فى أثناء ذلك إستلم الوزير سيباستيانى خطاباً من وزير الباشا -بوغوز يوسف -يعتمد فيه التنازل عن المسلتين لفرنسا . بهذا الخطاب المؤرخ ٢٩ نوفمبر ١٨٣٠ وضع صاحب السمو الملكى محمد على نائب الملك على مصر تحت طلب صاحب الجلالة لويس -فيليب ملك الفرنسيين -"إبرة كليوباترا الموجودة فى الإسكندرية ومسلتى الأقصر الموجودة ضمن آثار طيبة" .

ثلاث مسلات مرة واحدة !! فى حين لم يكن يبقى على أرض الفراعنة سوى نصف دستة منها ..

لحسن الحظ لم يكن من الممكن نقلها جميعاً دفعة واحدة . بمن سيبدأ العمل ؟ البارون تايلور الذى كان على علاقة طيبة مع بلاط لويس فيليب كما كان الحال بالنسبة لشارل العاشر" أعطى الأولوية "لإبرة أو مسلة كليو باترا " . كانت محاولة نقل هذا المنليت من قبل قد فشلت لأن السفينة "درومادير" التى أرسلها دوساز إلى الإسكندرية لتسلمها عادت فارغة لأنها لم تكن مجهزة بالأخشاب الضرورية لتنفيذ العملية – هل ستعاد الكرة والعودة لنقلها ؟ إنتهى الأمر بالعدول عن ذلك .

وظلت "مسلة كليوباترا" على حالها* .

إنتصر فى النهاية رأى شامبوليون السديد! ففى ١٥ إبريل ١٨٣١ غادرت "الأقصر" ميناء طولون إلى مصر وبعد ذلك بعاملين ونصف ، فى ٢٣ ديسمبر ١٨٣٣ عادت لترسو بجواركوبرى الكونكورد وعلى متنها حملها الثمين.... مسلة الأقصر الغربية التى حددها شامبوليون للحملة التى تم تنفيذها بدقة متناهية .....كانت حملة مكلفة للغاية والانتقادات حادة جداً لدرجة أن أياً من الحكومات لم تفكر حتى فى تكرارها أما شقيقة المسلة الباريسية فقد وضع الشاعر تيوفيل جوتييه هذه الأبيات الحزينة على لسانها

كم أود مثل أختى

لباريس العظيمة أنقل

إلى جوارها ، لأتسلى

وسط ساحة ، أزرع فيها .

لا يمكنها اليوم أن تأمل فى ترك موقعها الذى تحتله منذ ثلاثة وثلاثين قرناً .

عبور البحر المتوسط حتى الإسكندرية ثم الإبحار فى النيل صعوداً حتى طيبة وتحميل المسلة ثم العودة على النيل ثم بعد الوصول إلى طولون (والتوقف فيها لأسباب فنية) ثم الإلتفاف حول شبه الجزيرة الإيبيرية وعبور خليج جاسكونيا والوصول إلى

---

* إنتهى بها الحال أن رحلت إلى الولايات المتحدة وهى تقف اليوم فى نيويورك وسط سنترال بارك بجوار متحف المتروبوليتان أما شقيقتها (المسلة التى وهبت لإنجلترا فقد نقلت عام ١٨٧٨ إلى لندن عبر رحلة عصيبة وشيدت إلى جوار جسر واترلو.

الهافر ومنها الإبحار فى نهر السين حتى باريس : كانت هذه هى الرحلة التى قامت بها "الأقصر" لمسافة ٢,١٦٠ فرسخا بحريا (١٢,٠٠٠ كم)

كان يقود "الأقصر" فارنيناك دوسان مور- قبطان "استرولاب" السابق الذى أعاد شامبوليون من مصر . وكان على متنها حوالى عشرة ضباط وضباط صف - منهم كمساعد للقبطان ليون دوجوهانيس نقيب بحرى وأنجولان الطبيب الجراح بحرى وشاب متخرج لتوه من الكلية البحرية- شارل جوراس أحد أنجال ابن عم جان جوارس أما الطاقم فقد بلغ عدد أعضائه مائة وخمسون رجلاً وضم مع البحارة عمالاً من مختلف التخصصات من نجارين وحدادين وميكانيكيين كان وجودهم ضرورياً من أجل إقامة التجهيزات اللازمة لتحريك المسلة .

المسافر الوحيد كان مهندس البحرية أبولينار لوما المكلف بإدارة عمليات إنزال المسلة من مكانها ونقلها إلى المركب . كما تم تعيينه بعد ذلك مسئولاً عن إقامتها تحت سماء باريس .

بالنسبة لمعظم هؤلاء الرجال كانت هذه الرحلة والإقامة الطويلة فى مصر مغامرة حياتهم العظمى فهى بالفعل كذلك بالنسبة لمن تولى مسئولية مركب صممت لكى تبحر فى البحار والأنهار معاً -فكرة شامبوليون - ولكنها لم تكن مزودة بإمكانية مواجهة أعالى البحار والحالات الجوية الصعبة . إذ تمكنت "الأقصر" من الوصول إلى مصر بوسائلها الخاصة ولكنها إضطرت إلى أن تعود مسحوبة من أحدى أوائل المراكب الفرنسية التى تحركها محركات تسير بالبخار : "السفنكس" .

إنها أيضاً لمغامرة تلك المتمثلة فى الحياة لأكثر من عام وسط أطلال حضارة عظيمة وأن تقيم داخل سراى سيزوستريس وأن تتعرف على الشرق بفخامته وبؤسه وأن تتفادى وباء الكوليرا وأن تنتظر أشهر طويلة فى أعماق منطقة طيبة عودة فيضان النيل الذى سمح "للأقصر" أن ترسو بجوار المسلة حتى السنة التالية لتحملها بحمولتها وتعود بها إلى البحر .

أما بالنسبة للمهندس لوبا فالرحلة كانت شيئاً أخراً ، غير كونها مغامرة عظيمة : لقد كانت فيما يخصه هو عملية محفوفة بالمخاطر يغامر فيها بمستقبله العملى كله : وكان واعياً جداً بخطورة المهمة الموكلة إليه ، وقد كتب يقول "بالنسبة إلىّ كان كل شئ مركزاً فى هذه الكتلة من الجرانيت التى تزن ٢٣٠,٠٠٠

كجم التى ينبغى إنتزاعها من أساسها المغروز داخل الأرض وتحميلها فوق مركب (..) كانت هذه العملية فى نظرى – تحتوى على شئ عظيم ظل يثير وجدانى[8] .

" هذا الشئ العظيم" يحمل هذا التعبير معناه بالكامل إذا عرفنا الخاصية البدنية التى تميز بها صاحبنا ، إذ أن لوبا كان قزماً أو يكاد .. وهو يسوق بنفسه العديد من النكات حول ضئالة جسمه . فى طيبة . عندما علم "عربى" بأنه يهم برفع المسلة لم يصدق وصرخ قائلاً " الله الله !! من ؟ هذا ؟ إن عصاى أطول منه " . فى مرة أخرى حملاه أثنان من السياس ثم :" وضعانى فوق حصان تناقض حجمه الهائل بشكل كبير مع ضئالة حجمى .. حتى أن ساقاى كانتا فى وضع يكاد يكون أفقياً .. "

كان لوبا يستخدم هذه النكات بشئ من السخرية ولكنه لم يكن مزاجه رائقاً عندما تظاهر الباشا أثناء أحد اللقائات أنه لا يراه " أين هو المهندس ؟ أطلبوا منه أن يجلس بجوارى حتى آتمكن من رؤيته " . على الرغم من صغر حجمه كان أبولينار لوبا رجل الموقف وعلى مستوى المواصفات اللازمة لهذا الرجل ، كما حددها شامبوليون إذ طالب بإرسال "مهندس معمارى أو ميكانيكا عملى النزعة وليس عالماً " كان بالفعل عملياً وقد حمل معه فى ملفاته رسومات الأجهزة التى تصورها من أجل رفع هذا الحجر الهائل الضخامة ، ولكنه كان من العلماء أيضاً لأن حساباته كلها كانت سليمة إذ بعد خمس سنوات كاملة سينجح فى نصب المسلة فى مكانها الحالى دون أن تصاب بأقل خدش .

لنعد الآن إلى شامبوليون فى باريس : عندما كانت الأقصر تستعد للإقلاع لم يكن أمامه سوى عام واحد من الحياة . كان مريضاً وأعصابه متوترة للغاية ممزقاً بين واجباته كمحافظ للمتحف ومحاضراته فى الكولاج دوفرانس والانتهاء من تأليف "القواعد" ومناشدات روسيللينى التى تطالبه بالبدأ فى عملهما المشترك ؛ ومع ذلك فلم تغب عن مخيلته السفينة المتوجهة نحو المسلتين المقربتين لقلبه . كلما غادر المتحف ومر أمام أعمدة پيرو كان يتخيلهما منتصبتين أمام المبنى الأوسط على جانبى الباب الرئيسى وإذا لم تتح له سوى واحدة فكان يراها واقفة وسط فناء اللوفر بجوار المجموعات الأثرية الموضوعة تحت مسئوليته .

كانت هذه رغبته كما عبر عنها ، غداة أحداث يوليو . فى تقريره إلى سيباستيانى عن المسلات : "إن مكانهما محدد بالطبع إما على جانبى الواجهة أمام سلسلة عواميد اللوفر وإما أمام البوابة المواجهة للمجادلين فى حالة لوأن هذا المبنى إستعاد اسمه كما هو مأمول وهويته كمعبد للمجد الفرنسى. إن استخدامهما على هذه الصورة

يحتفظ للمسلات بمهمتهما الأصلية .

بصفته عاشق لمصر أراد شامبوليون فى الواقع الإحتفاظ بالهوية والهدف الذى كان مـنوطاً بالمسلات داخل الإطار المعمارى للمعبد المصرى عند اختيار موقعهما الباريسى .

كان يريد لهما أن تقامان على قاعداتهما الأصلية لتفادى إقامة "القواعد المضحكة ذات الشكل المعمارى الحديث التى أقيمت مثيلاتهما عليها فى أوروبا -" . وكان يريد أيضاً عدم إقامتهما وسط ساحات مسطحة واسعة لأنها تفترسها وتسلبها عظمتها وجلالها . هذا التمسك بالنواحى الجمالية إصطدم بتناقضات قوية إذ كان شامبوليون يفكر كعالم أثار . إلا أن الموضوع كان مطروحاً من وجة نظر تخطيط المدن .

أثار أحد أشد منتقدى المسلة الباريسية - بيتروس بورال تأييداً لنظرية موضوع إحترام النمط المحلى : "لماذا لاتتركون لكل مكان ولكل منطقة أمجادها وزينتها ؟ لا توجد قيمة لشئ سوى فى مكانه الأصلى وفوق أرض وطنه وتحت سمائه، إذا توجد علاقة متبادلة وتناغم حميم بين المبانى المشيدة والبلد الذى أقامها .إن المسلات محتاجة لواجهات المعابد وعبادة الشمس وتعدد الألهة .. وجود الصحراء واجب :

موقع المسلة كان موضوع جدل عام عندما وصلت إلى باريس. بل إنها أصبحت سبباً فى إنشغال بال الأوساط السياسة العليا وعلى الرغم أن المنتظر وصولها كانت مسلة وحيدة على متن "الأقصر" إلا أن الجميع كان يفكر فى إثنين إن لم تكن ثلاثة - فى إعدادهم للمشاريع التخطيطية .

لم يخُف الملك رغبته فى نصبيها فى المحور الذى يبدأ من التويلورى حتى قوس النصر إحداهما فى ميدان الشانزيليزيه Rond-point des Champs - Elysées والأخـــرى فى ساحة لويس الخامس عشر (التى ستستعيد اسمها فى ميدان لاكونكورد) . بالنـــسبة لـــشامبوليون كان إختيار هذه الأمـــاكن ضرباً من الهرطقة كما رأينا قبل قليل وكـــان يأمل فى أن يجعل الملك يعود عن قراره . حصل عن طريق جان فاتو صديقه وأمين مكتبة المـــلك على عـــدة لـــقاءات مع لويس فيـــليب ولكنه دافع عـــن مواقفه هو دون جدوى أى "فـــى ســـاحة اللوفر ولا مـــكان أخر " فى حالة لو الذى نحصل عليه هو مسلة واحدة . كان الملك قد إختار ولا يريد تعديل قراره ولم

يكن شامبوليون الشخص الذى يتنازل عن رأية هو أيضاً . اختلافات وجهات النظر هذه ألقت بظلالها على علاقاتهما ، ثم وقع حدث آخر زاد من تدهورها .

سرت شائعة عن قرب قيام لويس – فيليب بإحلال البارون تايلور مكان ميمو بحجة أن حكومة شارل العاشر هى التى عينت القنصل ولما كان شامبوليون لا يمكنه إحتواء سخطه عندما يتعرض صديق له للظلم فقد احتدم نقاش له مع الملك ولا بد أنه ذكر له أن البارون ذاته كان من محاسيب النظام السابق ...

لم يكرر شامبوليون محاولاته لاعتماد وجهات نظره حول مكان إقامة المسلات . إلا أن الفرص أتيحت له قرب نهاية العام لتوضيح رأيه حول ضرورة إقامتها فوق قواعدها الأصلية ، وكان الملك قد أرسل يطلب منه إيضاحات حول مصدر ومخطوطات مسلات الأقصر وكان وزير البحرية أيضاً الأميرال دوريني يود أيضاً الاستعلام عن الرسومات والمخطوطات المنقوشة على القاعدة التى كان لوبا قد أخلاها وأرسل صوراً منها لصاحب الاكتشاف .

الخطاب الطويل الذى حرره يوم ١٠ ديسمبر للرد على الوزير كان من آخر الأعمال التى أداها فى حياته . فبعد ثلاثة أيام أصيب بنوبة خرج فيها بشلل نصفى وكان قد علم لتوه أن وباء الكوليرا اجتاح مصر العليا وأوقف فى طيبة أعمال الحملة، عندما وصلته رسائل دوفارنيناك التى أفادته بإنتهاء الوباء وبتحميل المسلة على متن "الأقصر" كان قد قارب النهاية. لقد علم على الأقل قبل وفاته أن المأمورية التى كان حسبما وصفه ميمو. (محركها الأساسى) فى إتجاهها إلى التبلور .

فى باريس أصبحت المسلة فى الصالونات وفى الشارع موضوع الأحاديث الذى تغذيه المقالات الصحافية وكانت الجرائد قد أعلنت عن مغادرة "الأقصر" ووصولها طيبة فى ١٤ أغسطس ١٨٣١. ونشرت صحيفة لومونيتور Le Moniteur يوم ٢٩ يوليو تقريراً عن رحلتها من طولون إلى الإسكندرية وكانت الصحافة تنشر تقاريرها تباعاً عن سير عمل الحملة بقدر ما كانت تسمح به وسائل الاتصال فى ذلك الوقت وكان شامبوليون بدوره ينقل إليها الأنباء التى كان يتلقاها من أصدقائه .

وعلم الناس أن المسلة التى كانت قد أنزلت فى الأسبوع الأخير من أكتوبر وحُملت على ظهر "الأقصر" فى نهاية ديسمبر ١٨٣١ ظلت تنتظر فيضان النيل لتغادر

طـيبة فى ٢٥ أغسطس ١٨٣٢ وأنها إضطرت للأنتظار فترات أخرى بسبب مصاعب الإبحار قبل مغادرتها رشيد والإسكندرية التى غادرتها فى نهاية الأمر فى أول أبريل ١٨٣٣ .

بدأ الباريسيون يأخذون المسلة على محمل الجد ، وكان موقع إقامتها بالطبع هو محور المناقشات . ولتهدئة النفوس أعتقد لويس – فيليب أنه من الأفضل تنظيم إستفتاء عام للجمهور. وبمناسبة إحتفالات يوليو ١٨٣٣ أقام مسلتين مقلدتين تشبهان المسلات المنتظرة : إحداهما فى ساحة لاكونكورد والأخرى فى الساحة التى أمام الآنفاليد . هذه الأخيرة كانت حياتها قصيرة جداً أما التى أقيمت فى ميدان لاكونكورد فقد ظلت فى مكانها حتى معرض الفن والصناعة الذى أقيم عام ١٨٣٤ .

بدلاً من تهدئة النفوس أثارت هذه المسوخ – المصنوعة من مواد رديئة ومغطاة بهيروغليفيات ذات خطوط ركيكة– الانتقادات ونشر عنها وابل من المنشورات – ومشاريع تنتقد المكان المختار وتقترح أماكن أخرى . كان عدد كبير من المنتقدين يلومون على المسلة أنها تحجب فى نفس الوقت المنظر العام من التويلورى حتى قوس النصر وكذلك المشهد العام من المادلين إلى مجلس النواب ولدى سماعة المرء لهؤلاء، يعتقد أنها ستحجب تماماً هذه المبانى فى حين كان يأسف البعض الآخر "لاختيار هذ الأثر النحيل لتكون وسيلة الزينة الرئيسية التى تتحلى بها "أوسع ميادين أوروبا" والتى كان يمكن أن يصبح أجملها على الإطلاق فى حين ردد غيرهم لو أنها وضعت فى الانفاليد أو وسط اللوفر أو فى ميدان الشانزيليزيه (..) لكان ذلك أفضل لها "فلتوضع فى ميدان الباستيل" ! كان ذلك الإقتراح صادر من عمدة الحى الثالث الذى لم يكن على دراية بأن مكان الحصن السابق قد خصص لإقامة عمود فى ذكرى "المجيدات الثلاثة" ومرة أخرى عاد الحديث عن الأرض الموجودة أمام البون–نوف لتحل محل تمثال هنرى الرابع ويجدد شباب الكوبرى ذاته وتعاد زخرفته على النمط المصرى .

كانت أكثر الأراء الموثقة تلتقى مع وجهة نظر شامبوليون : المهندس المعمارى جو زار مصر ودرس ورسم معابدها : "لم يرى فيها أبداً مسلات موضوعة وسط مساحات شاسعة " . الآن وقد أصبح الحديث مختصراً فى مسلة واحدة فهو "يعتقد مع فنانين كثيرين غيره .." أنها يجب أن توضع فى ساحة اللوفر إذ ستزداد فيها عظمة وأبهة وهى على رأس مجموعة النفائس التى تثير أعجاب الأوروبيين .

كانت ساحة اللوفر هى إختيار مناصرى المساحات المقفولة والكونكورد إختيار مفضلى المنظر العام وكما يحدث فى مثل هذه الأحوال دائماً كانت وجهة نظر الملك هى التى تغلبت .

وعندما رست "الأقصر" فى نهاية عام ١٨٣٣ عند الكونكورد لم يعد هناك مجال للشك فى إختيار المكان ، وكان الحوض العائم قد وصل إلى ميناء طولون فى ١٠ مايو وغادره فى ٢٠ يونيو وبعد أن مرت من أمام جبل طارق واتخذت طريقاً إلتفافياً عبر المحيط الأطلنطى دخلت إلى مصب نهر السين فى مدينة روان ونزعت عنها سواريها لكى تتمكن من العبور أسفل الجسور وجذبت حتى باريس حيث كان لوبا قد بنى لها مرسى خاص لاستقبالها . عملية إنزال المسلة ونقلها إلى المكان الذى ستنتصب فيه كانت على درجة من التعقيد تساوى – إن لم تكن تفوق تلك التى تم إنتزاعها بها من مكانها الأصلى . هذه العملية تمت على عدة مراحل ودامت نحو ثلاث سنوات .

لإخراج هذا المثلث الضخم من أحشاء السفينة كان يجب إنتظار هبوط منسوب نهر السين ولم يكن إنزاله على رصيف النهر قبل شهر أغسطس ١٨٣٤، ثم رفعه حتى قمة المطلع اليمين لكوبرى الكونكورد حيث بقى هكذا لعدة شهور أخرى لأن إيقافه منتصباً آثار فى الواقع مشاكل عديدة أولها مشكلة القاعدة التى سيقف فوقها .

كانت أمنية شامبوليون كما رأينا من قبل هى أن توضع المسلة فوق قاعدتها الأصلية وكان قد أوصى لوبا وفارنيناك أن يحضرا الأثر (مع ملحقاته) . فلما وصل لوبا إلى طيبة أزاح الأتربة من حول الأساس من أوجهه الأربعة المنحوت فيها رؤوس قردة على كل وجه . ثم أرسل إلى عالم المصريات نسخة من خرطوش رمسيس الأكبر وأيضاً نسخاً من الهيروغليفيات المنحوتة على القاعدة . إلا أن هذه القاعدة كانت تآكلت تماماً بفعل أملاح الأتربة لدرجة أن لوبا تخلى عن فكرة إحضارها معه . وعلى الرغم من بغض شامبوليون الشديد" للقواعد السخيفة التى يخترعها المعمار الحديث " فكان من الواجب إنشاء واحدة لا تكون على درجة كبيرة من السخف .

إلا أن مسألة المسلة وقاعدتها كانت مرتبطة بمشروع أضخم بكثير وهو مشروع التخطيط العام لميدان الكونكورد . فى تلك المرحلة التى نحن بصددها لم يكن الميدان

سوى أرض فضاء وكان قصر جابريل وتماثيل خيول مارلى وخيول كوازوفوكس تحيط بمساحة من الوحل ومن وراء "الدرابزين" تمر بها مصارف مليئة بالنباتات البرية والقمامة والمياة الآسنة [9] .

كان أحد أهم المشاريع التى أراد لويس- فيليب تحقيقها عندما إعتلى العرش هو ردم هذه القنوات وأن يجعل من الكونكورد ميداناً يليق بالعاصمة إذ أنه يحتل مركزها وكان الموقع محملاً بتاريخ قريب لا يزال حيا فى الأذهان وكان قصد الملك هو أن يجعل منه مكاناً يرمز للتصالح بين الفرنسيين ويكون هو حكماً بينهم وهو عندما يضع المسلة التى هى أثر محايد من وجهة النظر السياسية فى ذات الموقع الذى أخلى منه تمثال لويس الخامس عشر فى عام ١٧٩٣ وحل محله تمثال الحرية وهى ترتدى القلنسوة الفريجية* " فلعله كان يتصور - مثلماً فعل شاتوبريان : "ستأتى الساعة التى ستلتقى فيها(المسلة) من جديد ، وهى فى ساحة الاغتيالات - بالصمت والوحدة المخيمان عليها فى الأقصر"[10] ولكن الوقت لازال مبكراً إذ أن مشروع تخطيط ميدان الثورة القديم أثار إحتجاجات الذين كانوا يأملون رؤية صرح يقام تخليداً لذكرى لويس السادس عشر الذى وعد شارل العاشر بتشييده "حيث سالت دماء رجل شريف " .

فما هو العمل ؟ حول الملك لم تكن الأفكار المقترحة قليلة العدد .. كان من رأى البارون تايلور- إذ كان على ولائه لكليو باترا ومسلتها - أن يضعها مع مسلتى الأقصر فى جنبات الكونكورد الأربعة وتصنيع الرابعة من الجرانيت الفرنسى . رفض المجلس فكرة المسلات الأربعة ولكنه أقر فكرة تزيين الميدان وشارع روايال والشانزليزيه بتماثيل لرجال عظماء .

أوكل لويس فيليب - بتعقل شديد مهمة تجميل ميدان الكونكورد إلى مهندس تخطيط مدن حقيقى - جاك إينياس هيتورف وهو المهندس الذى تولى إحتفالات عودة الملكية الكبرى وهو الذى جعل - خلال عشرين عاماً من هذه المساحة بنافوراتها وأعمدتها المزينة برموز بحرية وأعمدة إنارتها المشعبة وتماثيلها التى ترمز إلى مدن فرنسا - أحد المعالم الهامة للعاصمة .

كان هيتورف منذ عام ١٨٣٣ يضع المسلة - علما بأنه لم يكن قد رأها بعد-

---

* كانت القلنسوة الفريجية يرتديها العبيد المحررون فى روما القديمة وأصبت أبان الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ رمزا لتحرر الشعب (المترجم) .

في دراساته المختلفة لميدان الكونكورد. كانت الدراسات تتضمن نافورتين وأحياناً أربع نافورات والمسلة تظهر فيها وواقفة أحياناً على قاعدتها الأصلية ذات وجوه القرود الأربعة .

هل يجب إعادة نحت القاعدة ما دامت الأصلية غير متوفرة – أم إنشاء أخرى مستلهمة من نمطها؟ كان وزير الداخلية أدولف تيلر ميالاً لقاعدة على الطريقة المصرية وبنائا. على طلبة قدم له هيتورف ست مشروعات مختلفة لقاعدات مع تعديلات خاصة لكل منها فيما يتعلق بالأسود أو أبو الهول المستخدمة كدعائم) وكلها مشروعات لم تكن ترضيه ولكنه وضعها فقط حسب قوله –لكي يثنى مسيو تيار عن عزمه المضي في هذا الاتجاه. ومن ناحية أخرى لم يكن مجلس المباني المدنية متفقاً مع ذوق الوزير[11].

تقرر إختيار سداسي متوازي الأضلاع خطوطه مجردة وبدون أي زخرفة ولكن يعوض بساطته البالغة نبل المادة المصنوع منها .. طاف هيرتورف كافة سواحل مقاطعة بريطانيا الفرنسية بحثاً عن الجرانيت الذى كان يحلم به إلى أن عثر عليه عند مدينة براست في المحاجر الواقعة عند مصب نهر الأيبار – إيلدوت . رست مناقصة أجريت في هذا الصدد في ١٥ مايو ١٨٣٤ على المقاول جياستريناك الذى تعهد باستخراج وقطع خمس قطع من هذا الجرانيت المخصص للطبلية والقاعدة مقابل ١٩١,٢٥٠ فرنكاً وهو مبلغ ضخم في ذلك الوقت – إلا أنه كان يجب الذهاب إلى أخر مقاطعة الفينيستار لإحضارها . فتم تكليف "الأقصر" ، "والسفنكس" للقيام بذلك. غادرت "الأقصر" باريس لمهمتها الثانية في بداية سبتمبر ١٨٣٥ وهي ما زالت تحت قيادة ڤارنيناك وعادت في نهاية العام محملة بالقاعدة وهي في قطع مفككة زنتها ٢٤٠ طناً. كان عليها أن تنتظر حلول الربيع الثاني لإنزالها من المركب وتجميعها وسط ميدان الكونكورد، إلى أن أصبحت مستعدة لإستقبال المسلة في بداية شهر أغسطس ١٨٣٦ كانت هذه الأخيرة قد نقلت من مكانها مجدداً : وأصبحت الآن ممدة عند أقدام الطريق المائل الذى أقامه لوبا لكي تصعد فوقه حتى قاعدتها . للقيام بهذه العملية أراد المهندس في بادئ الأمر اللجوء إلى أحدث تقنية متاحة في ذلك الوقت وهي آلة تدور بالبخار ولكنه لم يتمكن من أن يحصل منها على الطاقة المطلوبة واكتفى مضطراً بعضلات جنوده من سلاح المدفعية .

في ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ شاهدت باريس كلها المسلة وهي تقف على قاعدتها وكان هذا اليوم أطول أيام حياة لوبا كلها : "أمر أعطيه ولا يفهم جيداً أو رسو خاطئ أو مسمار بصمولته إعوجّ (..) أي من ذلك كان كفيلاً بأحداث كارثة مروعة والمسلة

ستتهشم والملايين تضيع وأكثر من مائة عامل يسحقون لا محالة* .. " ولكن سبق أن رأينا كيف أن كل شئ تم على أكمل وجه على الرغم من حدث بسيط عطل العملية لبعض الوقت .

أصبح لباريس مسلتها أخيراً ولكن إقامتها فى مكانها لم يضع حداً للجدل حولها: فقد بدأ إجراء الحسابات التى أوضحت أن المبلغ وصل حتى الآن إلى ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنكا مع حساب القاعدة – ولم يكتمل الحساب بعد– هذا ما تكلفته هدية محمد على مما دفع بيتروس بورال ليقول : "أشعر بأسى عندما أتذكر المبالغ الهائلة التى صرفت لنقل وتركيب قطعة من الحجر... وبينما يقومون بإرهاق الميزانية تقع كاتدرائياتنا أطلالاً ويتدهور حال قصورنا ، إن دير روايومون أصبح نصف مدمر وخرباً" .

فإذا كان الجدل حول مكان إقامتها قد هدأ أثير آخر وكان أكثر خبثاً حول العبارات التى ستنقش على القاعدة. كل فرد كانت له رغبة مختلفة بل أن الموضوع أثير حتى قبل وصول الأثر إلى باريس ، ويبدو أن أحد التيارات كان قادماً من الجهات العليا يهدف إلى إختصار هذه التعبيرات إلى أقل قدر ممكن وتحاشى ذكر حدث أو فرد قد يثير النفوس أو يجرح الكرامات كتب الكونت لابورد فى الكتب الذى نشره عام ١٨٣٣ عن "مسلات الأقصر" أن "عدداً من الشخصيات المرموقة " تتصارع من أجل إحضارها لفرنسا ثم تسائل : " من هو صاحب الفكرة ؟ " وكان يقصد بالطبع شامبوليون إلا أنه أضاف بحذر " يعود الشرف الأهم إلى الذين نفذوا العملية ببراعة وهكذا فإن الفضل كله يعود إلى البحرية الفرنسية ".

فى نهاية العام ذاته نشر شامبوليون– فيجاك مقالاً تحت عنوان"مسلة الأقصر المنقولة إلى باريس" يثبت فيه بالمستندات أن شرف إختيار المسلة وإهدائها إلى فرنسا يعود دون أدنى شك إلى أخيه. فى هذا المؤلف الذى نشر فيه "صورة المسلة وترجمة لخطوطاتها الهيروغليفية طبقاً للرسومات والمذكرات الخطية لشامبوليون الصغير ." إعترض فيجاك على النية المعلنة لكى لا يظهر على القاعدة سوى الإنجاز الفنى فى إقامتها : "هل سيكفى لإرضاء الحكومة إظهار (المسلة قائمة) على أنها براعة كانت محفوفة بالمخاطر أنجزتها تقنياتنا الميكانيكية الحديثة؟ (..) ألا يخطر على بال أو قلب أى من الشخصيات التى لها صوت مسموع فى مجالس الأمير أو الأمة لتقول إن العديد من الذكريات الخالدة تدور فى فلك هذا الحجر وتحييه؟ .."(12).

---

* نلاحظ ترتيب المخاطر .

مثلما فعل جان فرانسوا فيما مضى إقترح شامبليون- فيجاك أهداء الأثر المصرى إلى ذكرى جيش الشرق، ولكنه عندما عبر عن أمله فى ربط ذكريات أخرى به ، كان يشير على وجه الخصوص - أو إن ذلك هو ما يشعر به المرء من كلامه- إلى اكتشاف أخيه . للأسف فإن أياً من مستشارى الأمير لم يستمع إليه .

أقيمت إذن المسلة فوق قاعدة خالية من أى إهداء ولم يضع هيتورف لمساته الأخيرة على زخرفة القاعدة سوى فى عام ١٨٤٠ . وإذا عدنا إلى مراسلاته الرسمية مع السلطات المسئولة سنجد أن فكرة هذا العمل تعود إليه فما هو الموضوع الذى إختاره وسط جميع المواضيع الأخرى التى كان يمكن أن تثيرها فى الأذهان إقامة المسلة المصرية لزخرفة قاعدتها ؟ قال : "يجب أن تتعرف الأجيال القادمة على إحدى أهم العمليات الميكانيكية فى العصر الحديث" . إختيار غريب بل هو مذهل : ألم يكن من الأفضل أن تعرف الأجيال التالية شيئاً عن إحدى الإكتشافات التى إعتبرتها أوروبا فى ذلك الوقت من أهم ما عرفه القرن وهو إكتشاف عالم فرنسى تحمل المسلة والهيروغليفيات التى عليها بعد أن حلت شفرتها الدليل على عظمته؟ بالطبع! وكان المهندس المعمارى فى ذلك الوقـــت جـــيداً. إلا أنه كان يعرف كذلك أنه بتفضيله الوجه اللوجيستى للحدث فإنه يساير وجـــهات نطر السلطة وهكذا إضطر شامبوليون المكتشف أن يتنحى أمام لوبا الشيّال (13) .

بعد أن ظلت المسلة معزولة عن العالم بسبب دوامة المرور أصبح الآن من الممكن زيارتها (بفضل إشارات المرور التى أقيمت لذلك) فالنعبر الطريق إذن وندور حول قاعدتها، على وجهتها الغربية فى إتجاه الشانزيليزيه كتب ما يلى :

فى حضور الملك .

لويس -فيليب الأول هذه المسلة

المنقولة من الأقصر إلى فرنسا

أقامها على هذه القاعدة .

مسيو لوبا ، مهندس

وسط تصفيق

جمهور غفير

فى ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦

وعلى الوجه الشمالى (فى إتجاه شارع روايال) والوجه الجنوبى (ناصية السين) نحتت رسومات مطلية بالذهب لها أثر زخرفى جميل تصف طبقاً لنماذج لوبا الأجهزة التى سمحت له برفع كتلة الحجر الهائلة التى تزن ٢٣٠ طناً من فوق قاعدتها فى الأقصر ثم سحبها حتى ضفاف النيل ثم من شاطئ السين حتى موقعها الحالى وأخيراً إقامتها على قاعدتها .

يشرف لوبا بظهور آسمه على ثلاث من واجهات القاعدة وكان اسمه سيظل وحده مع اسم الملك مذكوراً على الصرح لولا أن أضيف اسم فرنيناك قبطان المركب "الأقصر" المذكور فى تواضع فى الوصف العام [14] لأنه إحتج باسم سلاح البحرية على هذا السهو .

إستوجب الأمر أيضاً إرضاء جزء من الرأى العام الذى اراد مثل شامبوليون رؤية ذكرى الحملة على مصر مشاراً إليها على الصرح كما أن هدية الباشا كانت تستوجب كذلك كلمة شكر.

الغريب أن ملك الفرنسين أوفى بواجب الشكر هذا باللغة اللاتينية كما أهدى المسلة إلى ذكرى النجاحات التى أحرزها جيش الجمهورية وهى المسلة التى تعلن إلى الجهات الأصلية الأربعة عظمة أحد الفراعنة الذى يعتبر أجمل أعماله المجيدة هو أنه رد المهاجمين على أعقابهم بعيداً عن إمبراطوريته .

LUDOVICUS PHILIPPUS I
FRANCORUM REX
UT ANTIQUISSIMUM ARTIS AEGYPTACIAE OPUS
IDEMQUE
RECENTIS GLORIAE AD NILUM ARMIS PARTAE
INSIGNE MONUMENTUM
FRANCIAE AB IPSA AEGYPTO DONATUM
POSTERITATI PROROGARET
OBELISCUM
DIE XXV AUG A MDCCCXXXII THEBIS HECATOMPYLIS AVECTUM
NAVIG AD ID CONSTRUCTA INTRA MENSES XIII IN GALLIAM PERDUCTUM
ERIGENDUM CURAVIT
D. XXV OCT A MDCCCXXXVI ANNO REGNI SEPTIMO

هذه العبارة اللاتينية التى عهد بتحريرها إلى أكاديمية المخطوطات والآداب تحتل الساحة الشرفية للأساس التى تطل على التويلورى قام بترجمتها الى الفرنسـية آلان پاچاس :

"ملك الفرنسيين إذا يبغى أن ينقل إلى الأجيال التالية أحد قمم الفن المصرى وكذلك الذكرى الرائعة لإحدى الأعمال المجيدة التى تحققت بالسلاح مؤخراً على ضفاف النيل. تم رفع هذه المسلة الممنوحة لفرنسا من مصر ذاتها . رفعت من مقابر طيبة فى ٢٥ أغسطس ١٨٣٢ ونقلت إلى فرنسا على متن سفينة شيدت لهذه المناسبة خلال رحلة دامت ثلاثة عشر شهراً. أقيمت هنا فى يوم ٢٥ أكتوبر ١٨٣٦ ، سابع أعوام ولايته " .

لا توجد إشارة واحدة فى هذا النص لمنشئ المسلة رمسيس الثانى وهو العظيم الغائب الآخر عن هذه القاعدة . فلنصحح هنا هذا الظلم إن كان ذلك ممكناً بأن نردد أحد التراتيل التى أمر ملك مصر العليا ومصر السفلى بنحتها بالهيروغليفية على واجهة المسلة التى تنيرها فى هذه الأيام الشمس الغاربة :

"ملك المنـطقة العليا ، ملك المنطقة السفلى ، منظم وملك مصر ، الذى أدب الشعوب ، حورس الوضاء ، حارس السنين ، عظيم بانتصاراته ، ملك الشعب المطيع ، الشمس حامية الحقيقة ، حاكم الحكام ، الذى أنجبه شمو ، لكى يمارس الأحكام الملكية على العالم عدداً عظيماً من الأيام ، ابن الشمس ، عزيز أمون : رمسيس ، ليحيا!

لتحيا أيضاً فى ذاكرة البشر أعمال وأفكار چان- فرانسوا شامبوليون .

حواشي

تمهيد: وميض هائل من نور صامت

1. Préface à l'*Essai sur les hiéroglyphes* de Warburton, Aubier-Flammarion, 1977.
2. *Les Prêtres de l'ancienne Égypte*, Seuil, 1967, pp. 110-130.
3. *Ibid.*, pp. 111-130.
4. *Lettre à Zelmire*, « l'Asiathèque », Paris, 1978, p. 63.
5. *Les Prêtres de l'ancienne Égypte, op. cit.*, p. 115.
6. *Silex, op. cit.*, p. 59.
7. Flammarion, Coll. « Les Perspectives dépravées », Paris, 1985.
8. *Naissance de l'égyptologie au XVIIe siècle*, revue publiée par le CNRS, n° 158, 1988.
9. En trois tomes, chez Jacques Guérin, libraire quai des Augustins.
10. Ces diverses citations sont empruntées au livre III, pp. 210-214.
11. Voir à ce sujet le récit savoureux de Gérard de Nerval dans *les Illuminés*, pp. 202-214.
12. Jean Leclant, « En quête de l'égyptomanie », *Revue de l'art*, 5, 1969, p. 83.
13. « L'expédition d'Égypte et l'art français », dans *Revue des Études napoléoniennes*, janvier 1925.
14. Jurgis Baltrusaïtis, *la Quête d'Isis*, Flammarion, p. 34.
15. *Ibid.*, p. 218.
16. IIIe partie, chap. 3.
17. *Mémoires d'outre-tombe*, I, p. 735.
18. Jean Tulard, *l'Histoire*, n° 61, novembre 1983, p. 34.
19. *Mémorial de Sainte-Hélène*, coll. « l'Intégrale », Seuil, 1968, chap. 1, p. 67.
20. *Mémoires d'outre-tombe*, I, p. 719.
21. Oxford University Press, Londres, 1931.
22. *Mémorial de Sainte-Hélène*, chap. 10, p. 503.
23. *Bonaparte et l'expédition d'Égypte*, traduction 1962.

24. *Journal d'un notable du Caire durant l'expédition française,* Albin Michel, 1979, traduction J. Cuoq, pp. 90-91.
25. Herold, *op. cit.*, p. 218.
26. Ch.-O. Carbonell, *l'Autre Champollion,* « l'Asiathèque » et Presses de l'IEP, Toulouse, 1984, p. 10.
27. *Vivant Denon ou la conquête du bonheur,* IFAO, 1986, pp. 163-177.
28. Duchesse de Maillé, *Souvenirs de deux Restaurations,* Librairie académique Perrin, 1984.
29. *A la recherche de l'Égypte oubliée,* Gallimard, 1986, p. 54.

١ – الحياة فى فيجاك فى عهد الثورة

1. Archives du Lot, série C., n° 960.
2. Document communiqué par Mme Simone Foissac, professeur à Figeac.
3. Ch.-O. Carbonell, *l'Autre Champollion, op. cit.*, p. 4.
4. Philippe Calmon, *Bulletin de la Société des études du Lot,* III[e] fascicule, 1982, pp. 250-252.
5. *Ibid.*
6. *L'Évolution de l'humanité,* Albin Michel, chap. VII.
7. *La Vie quercynoise,* repris dans une brochure des Amis de Champollion, à Figeac.
8. Traduction française publiée en 1983 chez Pygmalion, Paris.
9. *Op. cit.*, p. 41.
10. *Op. cit.*, p. 18.
11. *Op. cit.*, p. 22.
12. H. Hartleben, *op. cit.*, pp. 44-45.
13. Gérard Macé, *Revue de la Bibliothèque nationale,* 15, 1985, p. 45.
14. Lucien Cavalié, *Monographie de Figeac* (cité par André Sors : *les Frères Champollion et l'énigme égyptienne*).
15. Fonds Champollion, Grenoble, AF 10, f° 2.
16. Fonds Grenoble, AF 00, f° 68.
17. Fonds Grenoble, AF 1, f° 75.
18. Fonds Grenoble, AF 61, f° 3.
19. Fonds Grenoble, AF 1, f° 79.
20. Fonds Grenoble, AF 1, f° 77.
21. *Émile,* Œuvres complètes, « l'Intégrale », Seuil, 1971, p. 451.

٢ – أخ ، أم أستاذ ، أم أب ؟

1. Fonds Grenoble, AF 1, f° 25.
2. Lettre publiée lors de l'exposition de Grenoble, en 1987.
3. Madeleine Pourpoint, *Champollion et l'énigme égyptienne,* p. 3.
4. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 10.
5. *Bulletin de l'Académie delphinale,* 1[er] janvier 1973.
6. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 13, note 22.
7. *Ibid.*, p. 22.
8. *Ibid.*, p. 23.
9. Fonds Grenoble, AF 1, f° 77.
10. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, pp. 48-49.

11. *Op. cit.*, p. 29.
12. *Louis Lambert*, « l'Intégrale », Seuil, t. 7, p. 287.

٣ - جرونوبل ومكان إقامة قاتل

1. *La vie d'Henry Brulard*, Pléiade, p. 620.
2. *Ibid.*, p. 582.
3. A. Champollion-Figeac, *Chroniques dauphinoises*, pp. 153-156.
4. *Ibid.*, p. 148.
5. Papiers de famille, Fonds Grenoble, I, mi 17.
6. Stendhal, « Œuvres intimes », Pléiade, p. 741.
7. *Ibid.*, p. 742.
8. Fonds Grenoble. (Cette mention apparaîtra seule désormais.)
9. Léon de La Brière, *Champollion inconnu*, Plon, 1897, p. 28.
10. *Chroniques dauphinoises, op. cit.*, t. 2, pp. 156-157.
11. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 55.
12. *Ibid.*, p. 69.
13. *Chroniques dauphinoises, op. cit.*, t. 2, p. 386.
14. Fonds Grenoble, N. 1549 (4).
15. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 73.

٤ - بابل أو متاعب باريس

1. *Vie de Henry Brulard, op. cit.*, pp. 870-874.
2. Document des archives municipales, communiqué par Mme Foissac.
3. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 41.

٥ - أستاذ في سن العشرين

1. Vital Chomel, *Histoire de Grenoble*, chap. IX, p. 219.
2. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 74.
3. *Ibid.*, p. 76.
4. *Ibid.*, p. 77.
5. Les premières leçons du jeune professeur ont été publiées dans les *Annales de l'université de Grenoble*, par Herminie Hartleben et J. de Crozals, en 1897.
6. Jean Paquet, *Bulletin de l'Académie delphinale*, janvier 1973.
7. *Ibid.*, p. 38.
8. *Chroniques dauphinoises*, t. 2, p. 97.
9. Fonds Grenoble, AF 2.
10. *Chroniques dauphinoises*, t. 2, p. 403.
11. Léon de La Brière, *op. cit.*, pp. 113-116.
12. *Chroniques dauphinoises*, t. 2, p. 404.
13. *Ibid.*, t. 2, p. 305.
14. Gabrielle Kuani, *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, n° 39, avril 1964.
15. Jean Paquet, *Bulletin de l'Académie delphinale*, article cité, p. 35.
16. Fonds Champollion.
17. Keppel Jeannot, *Correspondance inédite*, p. 123.
18. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 84.

19. Fonds Grenoble, AF 9, f° 138.
20. Herminie Hartleben, *op cit.*, p. 125.
21. Fonds Champollion.
22. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 54.
23. Fonds Grenoble.

٦ – الفول وزهور الزنبق

1. Vital Chomel, *Histoire de Grenoble*, p. 263.
2. Aimé Champollion-Figeac, *Les Deux Champollion*, pp. 15-16.
3. Jacques-Joseph Champollion-Figeac, *Fourier et Napoléon*, p. 310.
4. Correspondance Keppel, *op. cit.*
5. Fonds Grenoble, AF 10, f° 323.
6. « Le procès du maréchal Ney », *Revue des Deux Mondes*, mars 1893.
7. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 145.
8. Fonds Grenoble, AF 4, 191.
9. *Op. cit.*, p. 305.
10. *Fourier et Napoléon, op. cit.*, pp. 306-307.
11. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 68.
12. *Les Deux Champollion, op. cit.*, p. 158.
13. M. Pourpoint, *op. cit.*, p. 69.
14. *Fourier et Napoléon, op. cit.*, p. 306.

٧ – منفى وسط نويه

1. Vital Chomel, *Histoire de Grenoble, op. cit.*, pp. 263-264.
2. *Les Deux Champollion, op. cit.*, p. 26.
3. Fonds Grenoble, AFT 2, f° 95.

٨ – روبسبيير جرونوبل

1. *Les Deux Champollion, op. cit.*, p. 49.
2. *Ibid.*
3. *Ibid.*, p. 50.
4. Henri Dumolard, *Jean-Paul Didier et la Conspiration de Grenoble*, Rey-Arthaud, Grenoble, 1928, p. 242.
5. N° IV de 1957, pp. 373-394.
6. Ch.-O. Carbonell, *op. cit.*, p. 153.
7. *Ibid.*, p. 159.
8. Lettre publiée *in extenso* dans les *Lettres à son frère* réunies par M. Vaillant, L'Asiathèque, *op. cit.*, pp. 41-43 et 48-49.
9. *Bulletin de l'Académie delphinale*, 1922, 5e série, t. 13/1.
10. Cité dans le catalogue de l'exposition Champollion à Grenoble, 1987, pp. 71-73 (archives BMG R. 7636). Les responsables de cette brochure produisent une attestation de H. Gariel attribuant ce texte à Champollion.
11. *Les Deux Champollion*, p. 53.
12. *Ibid.*
13. *Op. cit.*, p. 75

14. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 188.
15. *La France des notables*, de A. Jardin et A. J. Tudesq, Seuil, 1973, pp. 65-66.

٩ – أوديب ، من قرن لآخر

1. Préface de la réédition (1922) de la *Lettre à M. Dacier*, p. 32.
2. Leçon inaugurale du Collège de France, publiée dans la *Grammaire égyptienne*, réédition 1984, Michel Sidhom, p. IX.
3. *Ibid.*
4. La plupart de ces indications sont tirées de *l'Athanasius Kircher*, de Joscelyn Godwin, J.-J. Pauvert, Paris, 1981. (Trad. de l'anglais.)
5. Madeleine V. David, *le Débat sur les écritures et l'hiéroglyphe aux XVII^e^ et XVIII^e^ siècles*, Jean Touzot, Paris, p. 48.
6. M. V. David, *op. cit.*, p. 70.
7. *Leçon inaugurale, op. cit.*, p. X.
8. M. V. David, *op. cit.*, p. 96.
9. M. V. David, *op. cit.*, p. 100.
10. Warren R. Dawson et Eric P. Uphill, 2^e^ édition révisée, Londres, 1972.
11. M. V. David, *op. cit.*, p. 103.
12. *Encyclopédie*, article « alphabet ».
13. Cité dans M. V. David, *op. cit.*, p. 112.
14. J.-F. Champollion, *Leçon inaugurale*, p. X, ij.
15. Jean Leclant, article cité, p. 5.
16. M. V. David, *op. cit.*, p. 134, note.
17. *Leçon inaugurale, op. cit.*, p. X iv.
18. H. Sottas, *op. cit.*, pp. 50-51.

١٠ – الرائد ذو الوردة

1. Seconde édition, Egypt Expl. Society, Londres, 1972, p. 313.
2. Préface à la *Lettre à M. Dacier, op. cit.*, p. 12.
3. *Précis*, p. 22.
4. Préface de Sottas à la *Lettre à M. Dacier, op. cit.*, pp. 45-46.
5. *Ibid.*, pp. 59-60.
6. Cité dans Camille Lagier, *Autour de la pierre de Rosette*, p. 110.
7. *Ibid.*, pp. 90-91.
8. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 208.
9. *Young et Champollion*, Le Page-Renouf. *Proceedings of the BASL*, vol. IX.
10. Cité par H. Sottas, *op. cit.*, p. 47.
11. *Ibid.*, pp. 11 et 59.

١١ – " تمكنت من الموضوع! "

1. Marquise de Maillé, *Souvenirs de deux Restaurations*, p. 311.
2. Préface de la *Lettre à M. Dacier, op. cit.*, p. 5.
3. H. Sottas, *op. cit.*, p. 17.
4. *Ibid.*

5. Doblöhfer, *op. cit.*, p. 71.
6. Cf. *Précis*, p. 316.
7. Adolphe Cattaui, *Champollion et le déchiffrement des hiéroglyphes*, Le Caire, 1918, p. 12.
8. Jean Leclant, *Publication de l'Acad. des Inscriptions et Belles-Lettres*, 1972, p. 8.
9. H. Hartleben, *op. cit.*
10. H. Sottas, *op. cit.*, p. 68.
11. Pierre Grandet, « La méthode de Champollion », *l'Histoire*, n° 106, p. 24.
12. Cf. l'article sur Huyot de Jean Leclant : *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, n° 32, déc. 1961, pp. 35-42.
13. J. Leclant, *op. cit.*, p. 9.
14. Cité dans H. Hartleben, *op. cit.*, p. 232.
15. J. Leclant, *op. cit.*, p. 9.
16. *Mémoires d'outre-tombe*, La Pléiade II, pp. 689-690.
17. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 244.
18. Jean Yoyotte, article BSFE, octobre 1982, n° 95, p. 102.
19. J. Leclant, article cité, p. 12.
20. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 248.

١٢ – القضية

1. H. Sottas, *op. cit.*, p. 4.
2. « *An account of some recent discoveries* »... *Quarterly Review*, 1823, p. 54.
3. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 252.
4. Londres, 1825, Longman and Hurst.
5. C. Lagier, *op. cit.*, p. 109.
6. H. Hartleben, *op. cit.*, pp. 266-267.
7. *Proceedings of the B.S.A.L.*, vol. XIX, 1987.
8. Librairie orientale de Dondey-Dupré et fils, 1832.
9. *Examen critique des travaux de M. Champollion*, p. 12.
10. *Bulletin de l'Académie royale de Belgique*, n° 5, 1922, pp. 135-152.
11. Cf. H. R. Hall, « *Letters of Champollion* », *Journal of Egyptian Archaeology*, vol. II, 1915, pp. 76-87 et 133-167.

١٣ – الطريق إلى ممفيس يمر من تورينو

1. *Itinéraire de Paris à Jérusalem*, La Pléiade, pp. 374-375.
2. H. Hartleben, *Correspondance de J.-F. Champollion*, Lettres d'Italie.
3. *Histoire de l'art*, II, chap. 46.
4. *Précis*, IX, II, 364.
5. H. Hartleben, *Correspondance de J.-F. Champollion*, p. 204.
6. *Ibid.*, p. 209.
7. *Mémoires d'outre-tombe*, Pléiade, t. II, p. 236.

١٤ – إنجيليكا – عرّافة توسكانا

1. *Lettres à Zelmire*, l'Asiathèque, Paris, 1978.
2. *Vita di I. Rosellini, padre dell'Egittologia Italiana*, Giardini, Pise, p. 25.

١٥ - أمين متحف نو نعال من ريح

1. P. Quoniam, *Bulletin de la Société française d'archéologie*, n° 15, 1982.
2. « Champollion et le musée du Louvre », *Bulletin de la Société française d'égyptologie*, n° 95, 1982.
3. *Notice descriptive des monuments égyptiens du musée Charles X*, Paris, 1827.
4. *Lettres de Champollion le Jeune*, éditées par son frère, t. I, Italie, éd. C. Bourgois, 1986, p. 425.

١٦ - ماء النيل

1. Note de Mme Hartleben, *Lettres et journaux d'Égypte*, p. 121.
2. *Ibid.*, pp. 486-487.
3. Edda Bresciani, « L'expédition franco-toscane en Égypte et en Nubie », *Bulletin de la Société française d'égyptologie*.

١٨ - "الموت يتربص بي في بابل"

1. R. Maréchal, article cité, p. 28.
2. *Ibid.*, p. 20.
3. Cité par P. Quoniam, article cité.
4. Jean Leclant, *Champollion et le Collège de France*, B.S.F.E., octobre 1932, p. 38.
5. Robert Hari, « Rosellini et Champollion, deux vies pour l'égyptologie ».
6. Jean Yoyotte, communication pour le colloque du Caire de 1988.

١٩ - فيما بعد ذلك ، حتى طيبة

1. H. Hartleben, *op. cit.*, p. 579.
2. Retrouvées par Mme Catherine Berger et citées par Jean Leclant dans l'article cité au chap. 11.

خاتمة : بقلم جان فيدال - الغائب عن المسلة

1. *Revue de l'Art*, n° 23, éd. du CNRS, 1974.
2. J. J. Champollion-Figeac, *l'Obélisque de Louqsor transporté à Paris*, notice historique, descriptive et archéologique de ce monument par M. Ch... avec la figure de l'obélisque et l'interprétation de ses inscriptions hiéroglyphiques d'après les dessins et notes manuscrites de Champollion le Jeune, Paris, 1833.
3. Bernardino Drovetti, *Epistolario (1800-1851)*, publié par Silvio Curto avec Laura Donatelli, Instituto Editoriale Cisalpino, Milan, 1985, lettre n° 94.
4. *Ibid.*, lettre n° 90.
5. *Ibid.*, lettre du comte de Forbin à B. Drovetri du 30 juillet 1818.
6. J. J. Champollion-Figeac, *op. cit.*
7. Baron d'Haussez, *Mémoires*, publiés par son arrière-petite-fille, la duchesse d'Almazen, 2 vol., Paris, 1896-1897, pp. 167-170.

8. J.-B. Apollinaire Lebas, *l'Obélisque de Louqsor*, histoire de sa translation à Paris par M. A. Lebas, ingénieur de la Marine, Paris, 1839.
9. Robert Burnand, *la Vie quotidienne en 1830*, Hachette.
10. Cité par Giovanni Macchia, in *Paris en ruine*, Flammarion, p. 374.
11. Archives nationales, F 13 1230.
12. J. J. Champollion-Figeac, *op. cit.*
13. Archives nationales, *ibid.*
14. *Ibid.*

مراحل حل شفرة الكتابات المصرية

١ – العصور القديمة : مؤلفون إغريق ورومان ، متعهدون التبس عليهم أمر المنظومة

ظلال وأضواء على طبيعة الهيروغليفيات

– شيريمون (اكتشف فى القرن الثانى عشر على يد تزيتنرس نشر فى فرنسا فى القرن التاسع عشر)

أصوات وصور مختلطة ببعضها ؟

– هيرمابيون (ذكره أميين مارسولان فى كتاب التاريخ حول عام ٣٩٠) .

ترجمةلمخطوط مكتوب بلغتين ...

هورا بوللون (القرن الخامس)

محاولات تفسيرية غير دقيقة .

– كليمان السكندرى (١٨٠ – ٢١٥) .

إيديوجرامات (صور تمثل أشياء) ، رموز .

٢ – جامعو الرموز

أحداس ، تخمينات ، فروض

المشلكة تتضح

القرن السابع عشر

– أثاناسيوس كيرشار

Podromus coptus sive AEgyptiacus (1636)

OEdipus AEgyptiacus.......

تأويل هوائى جداً للهيروغليفيات ، ولكن طرح جوهرى :

اللغة القبطية هى إمتداد للغة الشعبية لقدماء المصريين .

القرن الثامن عشر :

– ويلكنز : منظومة من صور بدائية ؟

– واربورتون (إقتبسه بالفرنسية ل . دو ماليان) : المرور من الصورة إلى الكلمة ، ومن الإيديوجرام إلى الكتابة .

– جابلونسكى : محاولة ترجمة أسماء الألهة المصرية بواسطة اللغة القبطية بارتيلمى ثم جينى وزويجا .

البيضويات (الخراطيش) تحتوى على أسماء الألهة أو الملوك .

– جينى : وحدة الكتابات المصرية الثلاثة .

– نيبيور : بعض الهيروغليفيات أبجدية ، هل هى صوتية ؟

– زويجا : لا بد أن المنظومة تتضمن عناصر صوتية .

٣ – الحل العلمى :

١٧٩٨ .

– حملة بونابارت على مصر ، يصطحب معه لجنة من العلماء.

٢٢ أغسطس ، تأسيس معهد مصر (المجمع العلمى المصرى) فى القاهرة ١٧٩٩ ،

١٩ يوليو – بونابارت يشكل لجنتين – يرأس فوريه الأولى ، وكوستاز الأخرى – تتوليان الدراسة العلمية للمبانى الأثرية القديمة فى مصر العليا ورسمها بدقة ، لدى نشرها فى بداية القرن التاسع عشر فى كتاب "وصف مصر" ، أعطت الرسومات والمستندات التى جمعتهما هاتان اللجنتان ودفعة حاسمة لدراسات المصريات .

فى اليوم ذاته – فى مدينة رشيد – بالقرب من مصب النيل يعثر ضابط فرنسى على حجر مدفون من الجرانيت الأسود منقوشة عليه مخطوطة بكتابات ثلاثة وهى عبارة عن ثلاثة نسخ لنص واحد الأولى بالهيروغلوفية – لم يبقى سوى جزء منها فقط والثانية بالديموطيقية – وهى الكتابة الخطية الشعبية المصرية والثالثة باللغة اليونانية – لغة معروفة .

حجر رشيد

سيصبح المستند الحاكم فى عملية حل شفرة الكتابات المصرية .

١٧٩٩ - ١٨٠٠

ترجمات عديدة للنسخة اليونانية لحجر رشيد - النص الذى تعبر عنه المخطوطات الثلاثة هو قرار أصدره الكهنوت المصرى لتحية بطليموس الخامس صدر عام ١٩٦ قبل الميلاد ، بالإضافة إلى اسم بطليموس ، تضمن القرار أيضاً أسماء إغريقية أخرى ، فهى إذن اسماء أجنبية مثله .

١٨٠٢

- الفرنسى سيلفاستردوساسى والسويدى أوكربلاد يدرسان المخطوط الديموطيقى لحجر رشيد. اعتقدوا أنه أبجدى بالكامل ويقارنانه بالنص الأغريقى .

- س . دوس ساسى يتوصل إلى عزل مجموعات من الرموز فى النص الديموطيقى توازى الأسماء اليونانية الموجودة فى النص اليونانى أوكربلاد يحمل هذه الرموز قيماً صوتية (فونيتية) غير أن الأبجدية المكونة من ١٦ رمزاً لا تسمح له بترجمة بقية النص ومع ذلك فقد ثبت أن :

الكتابة الديموطيقية تعبر عن الأسماء العلم الأجنبية بواسطة رموز أبجدية

- بعد استسلام الجيش الفرنسى فى مصر أصبح حجر رشيد غنيمة حرب وأودع البريتيش ميوزيوم (المتحف البريطانى) ولكن بعض البصمات كانت موجودة فى فرنسا وكذلك بعض النسخ (غير الدقيقة) .

- يؤسس القنصل الأول (بونابارت) لجنة تتولى تنفيذ العمل الذى أصبح "وصف مصر" والذى كتب فورييه مقدمته . الكوميسارات المكلفون بهذا التنفيذ كانوا على التوالى كونتى (حتى ديسمبر ١٨٠٥) لا نكريه ثم جومار (اعتبار من ١٨٠٧) .

- فيفان دونون ينشر كتابه "رحلة إلى مصر السفلى والعليا" أثناء حملات الجنرال بونابرت وهو يتضمن على وجه الخصوص نسخاً للعديد من البرديات .

١٨٠٨

شامبوليون - طالب فى باريس - يخطو "أولى خطواته " كحلال للشفرة: يقوم

بدراسة المخطوط الديموطيقى لحجر رشيد من إحدى الصور له ويقارنه ببردية دونون ثم يحاول تحسين أبجدية أوكربلاد . سيظل لسنين طويلة - وهو يعمق دراسته للغة القبطية - يحاول فهم الكتابات المصرية الثلاثة.

١٨١٠

النسخة الأولى من "وصف مصر" (مؤرخة ١٨٠٩) تظهر وهى تحتوى - بالنسبة للآثار : على لوح مرسومة، المجلد الأول للوصف "الجزء الأول" وبالنسبة للمذكرات - الجزء الأول - يؤكد شامبوليون فى مذكرة قرأها فى السابع من أغسطس أمام أكاديمية فنون وعلوم مدينة جرونوبل أنه للتعبير عن الأسماء الأغريقية.

لا بد أن للهيروغليفيات خاصية التعبير عن أصوات .

١٨١٣

- شامبوليون فى كتابه "مصر فى عهد الفراعنة" (ظهر عام ١٨١٤) المجلد الأول ، ص ١٠٥ يؤكد .

كان المصريون يهملون الحروف المتحركة فلا يدونوها فى كثير من الأحيان .

- الدفعة الثانية من وصف مصر (مؤرخة ١٨١٢) الآثار لوح الجزئين الثانى والثالث .

١٨١٤

توماس يانج ، عالم فيزياء وطبيب ومثقف إنجليزى يدرس بدوره فى يونيو ١٨١٤ المخطوط الديموطيقى (أنكوربالى) لحجر رشيد يستخدم فى البداية - دون جدوى أبجدية أوكربلاد ثم يلجأ إلى المقارنة المادية مع النص اليونانى فيتوصل إلى عزل مجموعات من الرموز تتوافق مع كلمات من النص اليونانى يتوصل هكذا إلى " ترجمة تقريبية (ظرفية) للنص الديموطيقى يرسلها إلى مسيو دوساسى فى ١٣ أكتوبر وينشرها فى مجلته ميوزيوم كريتيكوم عام ١٨١٥ وفى مجلة أركيولوجيا عام ١٨١٧ يتمكن يانج بإتباع الطريقة ذاتها من التعرف على مجاميع من الرموز الهيروغليفية تتفق مع كلمات من النص اليونانى .

١٨١٨/١٨١٧

- الدفعة الثالثة من "وصف مصر" الآثار القديمة : لوح المجلد الرابع ، الوصف: الجزء الثانى المذكرات : الجزء الثانى .

١٨١٩/١٨١٨

ينشر توماس يانج فى مقال للإنسيكلوبيديا برتيانيكا الملحق الرابع (١٨١٩) كشف يتضمن ٢٢٠ "كلمة" أو مجموعة رموز هيروغليفية منها مائة تقريباً توصل إلى تحديدها "بالحظ السعيد " (سوتاس) .

يحاول يانج فى المقال ذاته تحليل خرطوش بطليموس صوتياً وهو تردد عدة مرات فى حجر رشيد وخرطوش بيرنيس المأخوذ من "وصف مصر" وهو :

يستشعر وجود هيروغليفيات صوتية .كما يخمن وجود علاقة قرابة بين الكتابات المصرية الثلاثة

ولكنه يتوقف فى الطريق بعد أن أقترب جداً من الحقيقة **دون أن يكتشف الطبيعة الحقيقية للمنظومة.**

١٨٢١

ينشر شامبوليون فى مايو قبل أن يغادر جرونوبل ٧ لوح من القطع الكبير مع نص يثبت فيه أن الكتابة الهيراطيقية هى تبسيط أو إختزال لهيروغليفية **٢٧ أغسطس** فى باريس يعلن أمام أكاديمية المخطوطات والأداب بحثه عن الكتابة الهيرطيقية ثم بعد ذلك بعام يتقدم ببحثه عن الكتابة الديموطيقية ويثبت فيها أن **الحروف الديموطيقية ذاتها ليست سوى تبسيط نهائى للرموز الأصلية .**

وأن الكتابات الثلاثة نابعة من ذات المنظومة الواحدة .

٢٣ ديسمبر :يجمع شامبوليون عدد الرموز الهيروغليفية وما يقابلها من كلمات يونانية فى حجر رشيد فيجد ١٤١٩ هيروغليفية و ٤٨٦ كلمة يونانية .

مستحيل أن تصور كل هيروغليفية فكرة مستقلة

إلا أن الـ ١٤١٩ هيروغليفية تختزل فى ١٦٦ شكلاً رئيسياً .

من الصعب التسليم بأن تكون كل هيروغليفية رمزاً لصوت .

١٨٢٢

– رابع دفعة من "وصف مصر" الأثار القديمة لوح مجلد (يتضمن النسخة الكاملة لحجر رشيد) .

– حاول شامبوليون مثل يانج التحليل الصوتى (خرطوش بطليموس الموجود على حجررشيد وينسب لسبع رموز هيروغليفية مدلول ٧ حروف للإسم القبطى PTOLMIS – فرض ينتظر إثباته ،

– بداية يناير : يحصل شامبوليون على نسخة من خرطوش كليوباترا بالقبطية KLEOPTRA ثلاث رموز هيروغليفية O,P,L تتماثل فى الاسمين وهى أيضاً رموز لأصوات.

إذن فإن الأسماء الإغريقية هى بالفعل منقولة بواسطة هيروغليفيات صوتية.

– مزوداً باثنى عشر حرفاً أبجدياً يستمر شامبوليون فى إستكمال الأبجدية بدراسة الخراطيش الملكية للفترة الإغريقية الرومانية المنشورة فى كتاب "وصف مصر"

– ١٤ سبتمبر يستلم شامبوليون خرطوشين ملكين أرسلهما له شارل هيو وهما لرمسيس وتحتمس : الهيروغليفيات الصوتية التى فيها تختلط بها رموز إيديوجرافية يكتشف شامبوليون المبدأ الرئيسى للكتابة المصرية فهى:

كتابة ترسم الأفكار تارة والأصوات تارة أخرى .

٢٢/١٤ سبتمبر يحرر شامبوليون مع أخيه رسالة إلى مسيو داسييه ويقرأها فى ٢٧ سبتمبر أمام أكاديمية المخطوطات والأداب .

١٨٢٢/ ٢٤

– شامبوليون فى كتابه "رسالة إلى مسيو داسييه" بخصوص أبجدية الهيروغليفيات الصوتية التى استخدمها المصريون لكتابة القاب وأسماء أسرات الملوك الأغريق والرومان "لم يكشف سوى عن جزء من اكتشافه محتفظاً بواجب أثباته على أسس لا تقبل الجدل قبل نشره على الجمهور .

– فى ١٨٢٤ نشر "كتابه" ملخص المنظومة الهيروغليفية عند المصريين القدماء – أو أبحاث فى العناصر الأولية لهذه الكتابة المقدسة وفى تركيبياتها المختلفة وفى العلاقات القائمة بين هذه المنظومة والمنظومات الكتابية المصرية الأخرى" وهى المنظومة التى لم يتوقف عن تنقيحها حتى آخر يوم فى حياته وفى إطارها صدر "كتاب القواعد" المصرية بعد وفاته على يد أخيه جاك – جوزيف وهو أخر مراحلها .

علامات تاريخية

علامات تاريخية	الشقيقان شامبوليون
١٧٧٤ جلوس لويس السادس عشر على العرش .	١٧٧٣ جاك شامبوليون - ولد عام ١٧٤٤ فى لاروش - أن- ڤالبونيه (بالقرب من جرونوبل) بائع كتب متجول - أول الأمر ثم استقر عام ١٧٧٠ فى فيچاك - مقاطعة كارسى حيث فتح مكتبة لبيع الكتب وتزوج جان فرانسوا جاليو من أصل بورجوازى ١٧٧٤ مولد تيريز وتبعها بيترونيل عام ١٧٧٦ ومارى فى ١٧٨٢ .
١٧٧٦ ، ٤ يوليو : إعلان إستقلال الولايات المتحدة	
	١٧٧٨ ، ٨ أكتوبر : مولد چاك - چوزيف شامبوليون .
١٧٨٧ جرونوبل إجتماع البرلمان المحلى ٧ يونيو : أيام القراميد journées des tuiles ٥ يوليو : إجتماع المؤتمرات العامة لمقاطعة الدوفينيه .	

٢٣ يوليو : مؤتمر ڤيزيل
١٧٨٩ ، ٩ يوليو : إجتماع المؤتمرات العامة
١٤ يوليو : الإستيلاء على الباستيل .
١٧٩٠ ، ١٢ يوليو إنشاء الهيئة المدنية لرجال الكنسية.
١٤ يوليو : عيد الفيدرالية .

١٧٩١ ٢٠ - ٢١ يونيو : فرار الملك ثم القبض عليه فى فاران
١٧٩٢ ، ١٠ أغسطس : سقوط لويس السادس عشر .
٢ - ٦ سبتمبر : مجازر سبتمبر
٢٠ سبتمبر : إجتماع الجمعية التأسيسية بإعلان الجمهورية .
١٧٩٣ ، ٢١ يناير : إعدام لويس السادس عشر .
٣١ مايو : سقوط الجيرونديين
فترة الإرهاب
١٧٩٤ ، ٢٧ يوليو (٩ تارميدور) : سقوط روبسبيار .
١٧٩٥ أكتوبر : إنفضاض الجمعية التأسيسية ، الديركتوار
إنشاء مدرسة اللغة الشرقية .

١٧٩٠ ، ٢٣ ديسمبر : مولد جان فرانسوا شامبوليون فى فيچاك . فى منزل كائن بحارة لابوردسكورى أخوه جاك -جوزيف هو أبوه الروحى .
١٧٩١ چاك چوزيف يقبل فى الفصل الخامس .

١٧٩٤ فى مايو جاك- جوزيف يعين موظفاً فى بلدية المقاطعة .

١٧٩٦ حملة بوناپارت على إيطاليا
١٧٩٧ ، ١٨ أكتوبر : معاهدة كامبوفورميو إنتهاء حرب إيطاليا .

١٧٩٦ جاك جوزيف يعطى أول دروسه لأخيه الأصغر .

١٧٩٨ : مايو إعداد الحملة على مصر .

١٧٩٨ جان فرانسوا يدخل المدرسة الإبتدائية .

أول يوليو : نزول بوناپارت على شاطئ الإسكندرية .
أول أغسطس : تدمير الأسطول الفرنسى فى أبو قير .
تأسيس المعهد المصرى فى القاهرة (المجمع العلمى المصرى) أنستيتوديجيبت

جاك جوزيف يعين موظفاً فى مؤسسة « لا شانال وشامبوليون وريف» فى جرونوبل وينفصل عن أخيه .

١٧٩٩ فبراير : الحملة على سوريا
نهاية أغسطس : يغادر بوناپارت مصر تاركاً لكليبار قيادة الجيش
٩ أكتوبر : عودة بوناپارت إلى فرنسا
٩ نوفبر : إنقلاب ١٨ بروماز: بوناپارت القنصل الأول .

١٧٩٩ جان فرانسوا - يسحب من المدرسة ويضع تحت مسئولية دوم كالالز الذى يعلمه مبادئ اللغة اللاتينية (واليونانية) جاك جوزيف - يعمق دراساته فى الأداب القديمة .

١٨٠٠ ، ٦ يونيو : أغتيال كليبار فى مصر الحملة الثانية على إيطاليا
١٤ يونيو : إنتصار مارنجو

١٨٠٠، ٢٣ ديسمبر جان فرانسوا شامبوليون يبلغ العاشرة من عمره .

١٨٠١ ، ٣١ أغسطس : فى مصر إستلام مينو .
الحجر المكتوب بلغتين والمكتشف

١٨٠١ مارس : يحضر جاك جوزيف أخاه إلى جبرونوبل يوضع تحت مسئولية مدرس خاص فى بادئ الأمر ثم يدرس تحت إشراف أخيه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

١٨٠٢ فبراير : الفصل الأول يشكل لجنة تتولى نشر "وصف مصر" – تعيين جوزيف فوريه محافظاً لمنطقة الإيزار .

٢٧ مارس : سلام أبيان مع إنجلترا .

إلغاء المدارس المركزية وإنشاء مدارس الليسيه .

جوزيف فوريه يستقر فى جرونوبل فى ١٨ أبريل .

١٨٠٢ جان فرانسوا يدخل مدرسة الأب دوسار حيث يتعلم العبرية وفى نفس الوقت يتابع دراسته فى المدرسة المركزية .

جاك -جوزيف يسافر سفريات عمل ، ويبدأ دخوله فى المجتمع الجرونوبلوازى وينشئ لنفسه مكتبة خاصة ، يراسل أ.ل ميلان محافظ الآثار القديمة فى المكتبة الوطنية ومؤسس مجلة المخزن الأنسيكلوبيدى (ماجازان انسيكوبيديك) .

١٨٠٣ جان-فرانسوا يواصل دراسة العربية بداية دراسة العربية ، والسيريانية والكالدية (الأرامية) جاك جوزيف وقد بدأ يهتم بالدراسات الأثرية يتولى بتكليف من المحافظ فوريه الآثار القديمة المحلية – يكتب بحثاً وينشره تحت عنوان « بحث فى أثر تحت الأرض موجود فى جرونوبل» .

فى ديسمبر يقبل فى أكاديمية العلوم والفنون.

١٨٠٤ مايو : نابوليون الأول : إمبراطور الفرنسية .

٢ ديسمبر : حفل تنصيب نابوليون.

١٨٠٤ دخول جان فرانسوا فى الليسيه الأمبراطورى بصفته تلميذ الحكومة يتعاون جاك جوزيف مع الماجازان الآنسيكلوبيدى ومع حوليات مقاطعة الإيزار (أنال دوديبارتومان دو ليزار) .

٨ يونيو : يقدم بحثا إلى أكاديمية العلوم والفنون عن مخطوطات حجر رشيد .

١٨٠٥، ٢ ديسمبر : أوسترليتز

١٨٠٦ مايو تأسيس الجامعة الأمبراطورية.
٢٤ أكتوبر : يينا .

١٨٠٧ معاهدة تيلسيت . ناپوليون فى أوج قوته ،

١٨٠٥ جان فرانسوا يشكو لأخيه من "الإقامة الجهنمية " التى يمثله له بقاؤه فى الليسيه .
جاك -جوزيف يترجم النص اليونانى لحجر رشيد .
٢٣ ديسمبر : جان فرانسوا فى الخامسة عشر .

١٨٠٦ جان فرانسوا بمناسبة توزيع الشهادات فى شهر أغسطس يشرح فى حضرة المحافظ فورييه مقطعاً من سفر التكوين من النص العبرى .
تعيين جاك جوزيف سكرتيراً لأكاديمية العلوم والفنون لمدينة جرونوبل وينشر "رسالة عن النص اليونانى لمعبد دندرة" – موجهة لميسو فورييه .

١٨٠٧ ، ١٩ يونيو : وفاة مدام شامبوليون فى فيجاك .
أول يوليو : زواج جاك- جوزيف بزويه بيريا فى جرونوبل وكانت من "دوطتها" المنزل الريفى فى ڤيف .
جان فرانسوا يفكر فى تأليف كتاب عن مصر الفرعونية ويبدأ فى كتابة جزئه الجغرافى – ويعطى وقته كله لدراسة اللغتين القبطية والعربية.
٣١ أغسطس : يترك الليسيه دون رجعة .
أول سبتمبر : يقرأ أمام أكاديمية العلوم والفنون بحثه" فى الوصف الجغرافى لمصر"

قبل غزو قمبيز" وكان حينذاك فى السادسة عشرة والنصف من العمر .

١٣ سبتمبر : جان فرانسوا يصل إلى باريس بصحبة أخيه ويحضر محاضرات فى الكولاج دو فرانس ومدرسة اللغات الشرقية – يدرس العبرية والعربية والفارسية والسيريانية والكالدية والقبطية .

فى أكتوبر : يعترف لأخيه فى إحدى رسائله بحبه لبولين أخت زوييه .

١٨٠٨ حرب إسبانيا

٢ – ٣ مايو : ثورة مدريد ، قمعها بقسوة شديدة .

تشكيل الجامعة الأمبراطورية إنشاء كليات الآداب .

١٨٠٨ جاك جوزيف أمين – مساعد مكتبة جرونوبل ويصبح رئيس تحرير "حوليات منطقة الإيزار" (إنال دوديبارتمان دوليزار) .

تعيين جان فرانسوا وهو فى السابعة عشرة من عمره عضواً مراسلاً لأكاديمية علوم وفنون جرونوبل – يدرس برديات مكتوبة ،بالخط المرسل cursive ويعكف على تأليف كتاب "القواعد المصرية" (اللغة القبطية) بلهجة مدينة طيبة – يقابل لويز ديشان ثانى حب فى حياته .

١٨٠٩ – يوليو : فاجرام .

١٨٠٩ : ٢٧ يوليو تعيين جاك – جوزيف أستاذاً للأدب اليونانى وأميناً عاماً لكلية الآداب .

مارس : أتم جان فرانسوا – كتاب "القواعد القبطية" – يعكف على دراسة نسخة من حجر رشيد .

١٨١٠ أبريل : نابوليون يتزوج مارى لويز النمسا .

١٨١١ مارس : مولد ملك روما (ابن نابوليون)

١٨١٢ : الحملة على روسيا
سبتمبر: الإستيلاء على موسكو وحرقها .
أكتوبر : الانسحاب من روسيا .

يوليو : يعين استاذاً مساعداً للتاريخ القديم فى كلية أداب جرونوبل
١٥ أكتوبر : يغادر باريس إلى جرونوبل
١٨١٠ جاك جوزيف وجان فرانسوا يحصلان على الدكتوراه فى الأداب بمرسوم أمبارطورى يحىّ أيام "الأربعاء، فورييه فى داس دوليديجيا (مقر إقامته الرسمى) ويقيمان كشفاً بالقطع الأثرية الموجودة بمتحف جرونوبل
٣٠ مايو : جان فرانسوا يُلقى محاضرته الإفتتاحية فى مادة التاريخ.
٧ أغسطس يعرض أمام أكاديمية العلوم والأداب أفكاره التى كونها فى ذلك الحين عن كتابة المصريين معتقداً أن الهيروغليفيات لها دلائل صوتية .
٢٧ ديسمبر : جان فرانسوا بلغ العشرين .
١٨١١ ينشر فى جرونوبل مقدمة كتابة "مصر تحت حكم الفراعنة" (راجع كشف المؤلفات) .
١٨١٢ تعيين جاك - جوزيف كبير محافظى مكتبة جرونوبل وعميداً لكلية الآداب ولكنه يفقد وظيفة رئيس تحرير "حوليات مقاطعة الإيزار" بسبب نشره "معلومات ضارة " ، علاقاته مع فورييه

تعيين جان فرانسوا مساعداً فى مكتبة جرونوبل وأميناً عاماً لكلية الأداب – يتعرف ويصادق روز بلان (روزين) ابنة صاحب مصنع قفازات فى جرونوبل وفاة پولين بيريا .

١٨١٣ : أكتوبر : هزيمة لايپتزج تحلل الأمبراطورية .

١٨١٤ الحملة على فرنسا

٣١ مارس : سقوط باريس

٦ أبريل: تنازل ناپوليون عن العرش فى فونتانبلو

٣ مايو : عودة لويس الثامن عشر عودة الملكية الأولى .

مايو : ناپوليون فى جزيرة البا .

جرونوبل

أكتوبر : الكونت دارتوا (الذى سيصبح فيما بعد الملك (شارل العاشر) وهو زعيم حزب اليمين المتطرف ultras يزور مقاطعة الدوفينيه

١٨١٤

جاك – جوزيف يناصر نظام آل بوربون يحصل على الوسام الملكى زهرة الزنبق.

جان فرانسوا بعد تردد يفعل مثله وينشر "مصر تحت حكم الفراعنة" ويهديه إلى لويس الثامن عشر .

١٨١٥ : المائة يوم :

مارس : ناپوليون ينزل على شاطئ جولف – جوان (خليج جوان)

٧ – ٩ مارس : يقيم فى جرونوبل.

٢٠ مارس : يصل إلى باريس لويس الثامن عشر يهرب فى صباح نفس اليوم .

١٨ – يونيو : واترلو

١٨١٥ جاك جوزيف – فور وصول ناپوليون يصبح أقرب معاونية ويلحق به فى باريس حيث يعين سكرتير مجمع ناخبى دائرة جرونوبل .

يحصل على وسام جوقة الشرف،

يصبح عضواً فى جمعية تشجيع التعليم التعاونى (المتبادل) يناصر جان فرنسوا ناپوليون هو أيضاً ويصبح نصير الفيدرالية (حزب مؤيد لبوناپارت خلال المائة يوم) – ويدير" ليزانال دوليزار" بدلاً من أخيه..بعد هزيمة

يتنازل نابوليون عن العرش للمرة الثانية.

عودة لويس الثامن عشر إلى العرش .

جرونوبل

الإرهاب الأبيض يأخذ فى مدينة جرونوبل شكلاً مستتراً على يد مونليفو محافظ الإيزار .

١٨١٦ سبتمبر : حل الجمعية الوطنية الملكية المتطرفة النزعة – الدوق دروريشوليو رئيساً للحكومة

جرونوبل

مايو : مؤامرة دبيبه . إعدام ١٨ متآمراً رميا بالرصاص فى ميدان جرونات

١٨١٧ : تأسيس مدارس التعليم التعاونى فى ١٣ أكاديمية

جرونوبل .

جزف شوبان درانوفيل المحافظ الجديد (ليبرالى) لمقاطعة الإيزار .

يطرد من "ليزانال" لأنه نشر تحدياً لحزب المتطرفين فى "نخب الجمهورية" وهو منشور مناهض " لأصحاب القبعة أو الرداء الأسود (المتدينين المتطرفين) – كما ألغى قسم التاريخ الذى يدرسه

٢٣ ديسمبر : جان فرانسوا بلغ عامه الخامس والعشرين .

١٨١٦ الشقيقان شامبوليون تحت الإقامة الجبرية فى فيچاك حيث يلتقون مرة أخرى مع والدهما وأخواتهما ويحسن "المجتمع النخبى الفيجاكى " إستقبالهما يتعرف جان فرانسوا على مدام أديل .

جاك جوزيف يقوم بمساعدة أخيه بابحاث أركيولوجيه بتقنين موقع أوكسيلودونوم الحالى – ينشط الإثنان فى مجال التعليم التعاونى المتبادل طبقاً لأسلوب لانكاستر .

١٨١٧ أبريل : يسمح لجاك جوزيف بالعودة إلى باريس حيث يصبح رجل مسيو داسييه الموثوق فيه داسييه هو السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والأداب. جان فرانسوا يبقى فى فيجاك لحل بعض المشاكل العائلية – توتر مع والده – يعاود عمله الاسكتشافى فى الهيروغليفية يعاود تنقيح "قاموس وقواعد اللغة القبطية" وينشط فى مدرسة من مدارس التعليم التعاونى المتبادل .

١٨١٨ يحل دوكاز (معتدل) محل ريشوليو

١٨٢٠ نوفمبر : انتصار المتطرفين فى الانتخابات ويسيطرون على مجلس النواب .

جرونوبل

البارون دوساز يحل محل شويان دارنوفيل كمحافظ للإيزار .

٢١ أكتوبر : يعود إلى جرونوبل حيث يحسن أصدقاؤه إستقباله .

١٨١٨ بصفته سكرتيراً خاصاً لسيو داسيه يصبح جاك جوزيف عضواً مراسلاً لأكاديمية المخطوطات والآداب التى منحه جائزتها لكتابة (حوليات اللاجيد) (البطالمة) (راجع المراجع الكتب) .

فى جرونوبل ، يشرف جان فرانسوا وينشط فى مدرسة التعليم المتبادل .

١٨ يونيو : يعاد جان فرانسوا إلى وظيفته فى المكتبة .

١٩ أغسطس : يقرأ أمام أكاديمية العلوم والفنون بحثه حول "بعض هيروغليفيات حجر رشيد" .

٣٠ ديسمبر : يتزوج روزين بلان فى غياب جاك جوزيف الذى لا يوافق على هذه الزيجة .

١٨١٩ جان فرانسوا يدير "المدرسة اللاتينية " فى هونفلور .

١٨٢٠ جاك -جوزيف يتقدم لعضوية أكاديمية المخطوطات والآداب ولكنه يفشل .

جان فرانسوا ينشط فى "النادى الجمهورى للوحدة ": الشرطة تراقب مراسلاته

سبتمبر : يشترك فى تحرير كتاب : "احترس" ! يحذر فيه الحكومة من التمادى فى عمليات القمع وجان فرانسوا يلتقى مع المحافظ دوساز فى لقاء عاصف

١٨٢١ ٢٠ مارس ثورة الطلبة المناهضة للملكية فى جرونوبل .

٢٥ مارس : الانتفاضة الوطنية لليونانيين ضد الأتراك .

٥ مايو وفاة نابوليون فى سانت هيلان .

نوفمبر : فيلان يحل مكان ريشوليو .

٢٣ ديسمبر : جان فرانسوا فى الثلاثين

١٨٢١ جان فرانسوا يفقد وظيفة استاذ التاريخ فى الليسيه .

٢٠ مارس : يشترك فى انتفاضة الطلبة مع صديقه تبقونيه .

يونيو : يهرب من محاكمة بتهمة الخيانة العظمى : إلا أن المحافظ دوساز يجعل إقامته فى جرونوبل غير محتملة ويقرر مغادرتها .

١١ يوليو : يركب العربة فى إتجاه باريس حيث تلحق به روزين .

٢٠ يوليو : يقيم فى باريس عند أخيه ٢٨ شارع مازارين بعد أن حرم من جميع وظائفه، يكرس كل وقته لعملية فك شفرة الهيروغليفيات .

٢٧ أغسطس : فى أكاديمية المخطوطات والآداب يقرأ جان فرانسوا - بحث عن الكتابة الهيراطيقية يعبر فيها عن مبدأ علاقة القرابة اللصيقة بين الكتابات المصرية الثلاثة ، إلا أنه يبقى متأثراً "بتخطيئ فكرة الأيدوجرافية والرمزية "

سبتمبر :جان فرانسوا يقابل يانج لدى مروره على باريس .

٢٣ ديسمبر بواسطة عملية حسابية بحتة يتأكد من الجانب الصوتى الجزئى للهيروغليفيات وهو ما

كان قد إقترحه عام ١٨١٠ – نشر كتابة عن "الكتابة الهيراطيقية لقدماء المصريين" فى جرونوبل (راجع كشف مؤلفاته)

١٨٢٢ – ٢٢ يناير : يحصل جان فرانسوا على نسخة – مرفوعة من مسلة فيلة – لخرطوش لكيوباترا ويمقارنته بخرطوش بطليموس – حيث الهيروغليفيات لها ذات المداليل الصوتية – يتوصل إلى العناصر الأولية لأبجدية هيروغليفية .نشر مؤلفه : عن المسلة المصرية فى فيلة (راجع كشف المؤلفات).

أغسطس : جان فرانسوا يقرأ فى الأكاديمية بحثه عن الكتابة الديموطيقية .

١٤ سبتمبر : يلاحظ جان فرانسوا أن خراطيش رمسيس وتحتمس التى نسخها هيبو من معبد أبو سمبل تحتوى فى ذات الوقت على رموز أيديوجرافية ورموز صوتية ويتمكن من حل شفرتها ويخترق كالبرق سر طبيعة الكتابة المصرية التى ترسم (تارة الأفكار وتارة أخرى أصوات اللغة) ويهرع إلى منزل أخيه: الموضوع فى حوزتى " وضعت يدى على الموضوع " .

ثم يغمى عليه .

١٨٢٢ مونسينيور دوفريسينوس رئيساً للجامعة.

قانون الصحافة– عودة الرقابة .

١٤ – ٢٢ سبتمبر : يكتب جان-فرانسوا مع جاك جوزيف البحث الخاص لهذا الاكتشاف – ويطلق عليه عنوان "رسالة إلى مسيو داسيه " .

٢٧ سبتمبر يقرأ البحث أمام أكاديمية المخطوطات والآداب المجتمعة فى جلسه تاريخية .

١٨٢٣ يناير : المكتشف يقابل الدوق دوبلاكاس دولب أول أمراء الملك الذى يضعه تحت رعايته وبعد بضعة أيام يقدم له بلاكاس علبة من الذهب هدية من الملك لويس الثامن عشر تقديراً لاكتشافه .

٢٦ أبريل : الدوق لويس فيليب دورليان يحّى اكتشافه فى الجمعية الأسيوية .يقدم جان فرانسوا أيضاً بالتعاون مع صديقه الرسام وعالم الآثار ل.ج.ح دوبوا كتاباً مصوراً عن الميثولوجيا المصرية والذى سينشر تحت اسم "البانتيون المصرى" (راجع كشف المؤلفات) .

١٨٢٤ ينشر صاحب الكشف كتابه المختصر فى المنظومة الهيروغليفية للمصريين القدماء أو البحث .. ألخ "وهو يعتبر مسودة لكتاب القواعد (راجع كشف المؤلفات) .

– البلاط الملكى فى تورينو يشترى مجموعة دورفيتى :يزود بلاكاس جان

١٨٢٤ ، ٩ سبتمبر وفاة لويس الثامن عشر يتولى العرش بعده أخوه شارل العاشر.

حرب تحرير اليونان بمساندة أنجلترا وفرنسا .

فرانسوا بالمال اللازم لكى يذهب لدراستها فى موقعها الجديد .

منتصف مايو : جان فرانسوا يسافر إلى إيطاليا مروراً بجرونوبل - يتعرف فى ڤيف على ابنته زورابيد التى ولدت فى الأول من مارس .

٧ يونيو : يصل إلى تورنيو

٩ يونيو : يدخل (الدروفيتيانا) حيث تنتزع منه المجموعة الأثرية هذه الصرخة " إنه شئ مدهش "

توحى إليه دراساته المنظمة والدقيقة للآثار والبرديات التى تتضمنها المجموعة برسالتين إلى السيد الدوق "دوبلاكاس " الأولى فى ١٨٢٤ والأخرى فى ١٨٢٦ (راجع كشف المؤلفات) .

دراسة البرديات الجنائزية والمخطوطات المهلهلة تسمح له بإعادة تجميع قانون ملكى صادر قبل الأسرة الثامنة عشر وبالقاء الضوء على الأرقام العددية التى استخدمها المصريون

نوفمبر : جاك جوزيف يتقدم لعضوية أكاديمية المخطوطات لثانى مرة دون جدوى .

١٨٢٥ مارس جان فرانسوا يغادر تورنيو لرحلة عبره إيطاليا تدوم أربعة شهور .

١١ مارس روما زيارة سياحية (المدينة الأبدية) .

١٨٢٥ ، ٢٩ مايو تتويج شارل العاشر فى مدينة رانس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٠ مارس : بلاكاس يستقبله فى نابولى حيث أصبح سفيراً لفرنسا- زيارة يومبى ويايستوم .

٢٢ أبريل : بعد عودته إلى روما يكلف بعمل كتالوج برديات مكتبة الفاتيكان .

١٥ يونيو : يستقبله البابا ليون الثانى عشر .

١٧ يونيو : فلورنسا : بناءاً على طلب الجران دوق (عاهل فلورنسا) يدرس مجموعة نيتزولى .

بداية يوليو : ليفورن. زيارة مجموعة سولت التى يود أن تقتنيها فرنسا . بعد إقامة جديدة فى تورينو يعود جان فرانسوا إلى جرونوبل .

١٥ نوفمبر : يلتقى من جديد بأخيه وبأسرته .

١٨٢٦ فبراير : الملك يكلف جان فرانسوا بتقدير قيمة مجموعة سولت ويمنح مبلغ خمسة آلاف فرنكاً للمصاريف الخاصة بالمهمة يعود جان فرانسوا عبور جبال الألب من جديد ويصل إلى ليڤورن حيث يتعرف على إيپوليتو روسيللينى الاستاذ الشاب القادم من بيزا الذى يصبح من تلاميذه.

٢ أبريل : أثناء إجتماع عام لأكاديمية ليڤورن ، ترتجل الشاعرة انجيليكا باللى قصيدة تمتدحه فيها ويقع جان فرانسوا فى حبها .

١٨٢٦ ، ٢٣ إبريل الأتراك سيتولون على ميسولونجى .

١٤ مـايـو جـان فـرانـسـوا يـعـين محافظاً للمتحــف المصرى فى اللوفر
١٦ يوليو يلتقى لثانى مرة مع أنچيليكا فى الاحتفالات الضخمة "لوميناراتِ"فى بيزا وبعدها يسافر جان فرنسوا بصحبة روسيللينى إلى فلورنسا وروما ونابولى حيث يرسم مع بلاكاس خطة لحملة علمية أوروبية إلى مصر .
٢١ سـبـتـمـبـر : لدى عودته إلى ليڤورن يقابل أنجيليكا للمرة الأخيرة أرسل لها ٣٠ خطاباً تحت أسماء مستعارة من "زيد إلى زيلمير" فى الفترة من ١٨٢٦ حتى ١٨٢٩ يعود إلى فرنسا عبر البندقية
جرونوبل : أزمة نقرس حادة .
٣٠ أكتوبر : يسافر إلى باريس مع زوجته وابنته .
٤ نوفمبر فى باريس يقطن جان فرانسوا مع روزين وأخيه فى شقة جديدة ١٩ شارع مازارين حيث تلحق بهم زوييه وأسرة جرونوبل الصغيرة .
نـوفـمـبـر – ديـسـمـبـر : يـسـتـلـم مجموعة سولت التى وصلت ميناء الهاڤر عبر نهر السين – بمساعدة دوبوا يقوم بتجهيز متحفه – أفكاره التجديدية تـتـسـبـب فـى خلافات مع الكونت دوفوربان مدير متاحف فرنسا

ديسمبر : روسيلليني يلحق بچان فرانسوا في باريس .

١٨٢٧ فبراير : يتقدم جان فرانسوا للمرة الأولى دون أن يصيب النجاح لعضوية أكاديمية المخطوطات والآداب.

يوليو أغسطس تم تقديم مذكرة بمشروع حملة إلى مصر تجمع فرنسين وتوسكانيين مع شامبوليون وروسيلليني إلى الجران - دوق عاهل توسكانيا الذي يوافق عليها .

نهاية أكتوبر : وفاة سولت .

٣٠ أكتوبر : زواج روسيلليني بزينوبيا شيروبيني ابنة الموسيقار شيروبيني. جان فرانسوا يشهد على الزواج من طرف العريس .

نوفمبر - ديسمبر : فتح وإفتتاح المتحف المصري في اللوفر حاملاً اسم متحف شارل العاشر .

١٨٢٨ أبريل : بمساندة مارتيناك رئيس الحكومة الجديد يوافق الملك على مشروع الحملة الفرنسية التوسكانية إلى مصر .

١٨٢٨ هزيمة فيلال في الانتخابات يحل مارتيناك (ليبرالي) محله.
القوات المصرية تجلوا عن المورة

١٦ يوليو : شامبوليون يغادر باريس بصحبة سالفادور شيروبيني - توقف في ليون عند الصديق أرتو وفي أكس عند سالبيه

٢٤ يوليو، لقاء الحملة: الفرنسيون: شارل لونورمان المهندس المعماري

أنطوان بيبان ، الرسامون لوت ، الكساندر دوشان بيرتان الإبن، لوهو .

التوسكانيون : إيبوليتو وجاتينانو روسيلليني ، إليساندروريتشي، طبيب وعالم آثار، جيوسيبي إنجيليلي رسام ، جـ ، راضي عالم طبيعة ومساعده جالاستري .

٣١ يوليو : الحملة تصعد إلى الإيجلي السفينة : "

١٨ أغسطس : في الإسكندرية شامبوليون ورفاقه يقابلون القنصل دروفيتي الذي كان في استقبالهم . زيارة "مسلات كليوباترا"

٢٤ أغسطس : محمد علي باشا يستقبل شامبوليون .

١٤ سبتمبر تبحر الحملة على متن المعاش "إيزيس" والذهبية "أثير" إلى القاهرة.

٢٠ سبتمبر الوصول إلى القاهرة إحتفال بالمولد النبوى .

١ – ٨ أكتوبر ممفيس تمثال رمسيس الثاني الضخم – سقارة .

٨ أكتوبر : جيزة أبو الهول ، الأهرام .

١٨ أكتوبر : يرفع الأسطول الصغير الهلب ويبحر إلى صعيد مصر – بيانت يترك الحملة .

٢٣ أكتوبر ٦ – نوفمبر: بني حسن : محصول ضخم من الرسومات .

١٦ نوفمبر دندره .

١٩ - ٢٦ نوفمبر : طيبة (" كنت أعدو من روعة إلى روعة أخرى ") رامسيوم الأقصر وبها المسلتان من الجرانيت الأحمر ، الكرنك وبهو الأعمدة

٢٦ نوفمبر - ٤ ديسمبر : هيرومونيس إسنا - إدفو - كوم أمبوم (أمبوس) .

٤ ديسمبر : أسوان : الشلال الأول إنتقال الحملة إلى مراكب أقل وزناً .

٥ ديسمبر : فيلة . أزمة نقرس حادة تجعل شامبوليون يطلب حمله إلى المعبد ١٦ - ٢٦ ديسمبر : ديبود ، كلابشة ، دكا ، أمادا.

٢٦ ديسمبر : أبو سمبل : قدس أقداس المعبد في درجة حرارة ٥٢ مئوية.

٢٨ ديسمبر : إلى وادى حلفا : الفرنسيون والتوسكانيون يتنازعون على ملكية " لوحة الخلاف" .

٣١ ديسمبر : الرحالة يحتفلون برأس السنة عند الشلال الثانى : شامبوليون يكتب لداسييه "من حقى أن أعلن لكم أنه لا يوجد أى تعديل يجب إدخاله على خطابنا الخاص بالأبجدية الهيروغليفية أن أبجديتنا سليمة "

١٨٢٩ أغسطس : إقالة مارتيناك. بوليناك (متطرف) يعين رئيساً للحكومة – المعارضة تثور فى الصحف .

١٨٢٩ أول يناير : وداع لونورمان الذى يعود لفرنسا الأسطول يغير إتجاهه العمل العلمى يبدأ .

٣ – ١٦ يناير : أبو سمبل: رسم الحائطيات المنحوتة فى المعبد الكبير

١٦ – ٣١ يناير (ديرّى أمادا ، كلابشة حيث يكتشف شامبليون "جيلا آخر من الآلهة" .

٢ – ٧ فبراير : فيلة "اليفانتين"

٧ فبراير – ٨ مارس : كوم أمبو ، إدفو ، إسنا ، طيبة .

مارس – سبتمبر : الإقامة فى طيبة

٨ – ٢٣ مارس : الضفة الشرقية الأقصر ومسلتاها ، يحدد شامبليون تلك التى يود يراها منصوبة فى باريس .

٢٣ مارس : الحملة تعبر إلى الضفة الغربية للنهر وتقيم قيادتها فى الجرنة – الحفريات غير مجدية الباتة

أبريل – مايو – شامبوليون يحتفل بعيد ميلاد أبنته (المولودة فى أول مارس ١٨٢٤) داخل مقبرة سيتى الأول.

ببيان الملوك (وادى الملوك) دراسة الأشكال والمخطوطات فى المقابر – يعسكر أعضاء الحملة داخل مقبرة رمسيس الرابع – شامبوليون بنسخ ليلاً ونهاراً ، الرحلة النهرية التى

قام بها رمسيس السادس والمرسوم فى مقبرته .

يونيو - يوليو - الرامسيوم ، تمثالاً ممنون ، معبد وأطلال مدينة حابو - أحداث وتوترات داخل الفريق المرهق - دوشان يرحل إلى فرنسا ريتشى يلدغه عقرب .

أول أغسطس : عودة إلى الضفة الشرقية لدراسة الكرنك .

٤ سبتمبر الحملة التوسكانية الفرنسية تغادر طيبة .جان فرانسوا يعلم بوفاة يانج (١٥ مايو ١٨٢٩) وهو فى الطريق كما يبلغ بفشله الثانى فى أكاديمية المخطوطات والأداب .

١٥ سبتمبر: القاهرة زيارة إبراهيم باشا ابن محمد على .

٢٠ سبتمبر: إسكندرية ميمو خليفة دروفيتى يستقبل شامبوليون .

٧ أكتوبر يرحل التوسكانيون إلى ليڤورن

أكتوبر - نوفمبر مقابلات مع محمد على. شامبوليون - يكتب له مذكرة من أجل الحفاظ على آثار وادى النيل .

٦ ديسمبر : شامبوليون وشيروبينى يبحران إلى فرنسا على متن "الاسترولاب" - شامبوليون يحمل معه أكثر من مائة قطعة من أجل متحف اللوفر (منها تابوت تاهو و حائطية سيتى الأول من النحت البارز) وللملكة كاروماما ، الخ) .

١٨٣٠ ، ٥ يوليو الإستيلاء على مدينة الجزائر

٢٧ – ٢٩ يوليو : ثورة يوليو " الثلاثة أيام المجيدة " .

٣١ يوليو : تنازل شارل العاشر عن العرش

٧ أغسطس : لويس فيليب دوق دورليان يصبح ملك الفرنسيين .

ديسمبر محاكمة وزراء شارل العاشر (بولينياك) فى عهدة وزارة لافيت .

٢٣ ديسمبر : "الاسترولاب" فى ميناء هيار .

٢٤ ديسمبر – ٢٣ يناير ١٨٣٠ ، شامبوليون وشروينى فى الحجر الصحى فى طولون .

١٨٣٠ ٢٤ يناير : نهاية الحجر الصحى – مقابلة دروفيتى .

٢٦ يناير العودة إلى باريس مروراً بالجنوب الغربى (ياله من شتاء رهيب) إنى اتألم منه جداً) (مارسيليا – أكس) حيث إستقبله ساليه ويشاهد مرة أخرى بردية سيزوستريس – مونبوليه – ناربون، كاركاسون وبوردو تولوز حيث يلتقى من جديد بمدام أديل يرى أخواته فى فيلفرانش .

٤ مارس عودة : شامبوليون إلى باريس يقطن مع زوجته وابنته فى شقة جديدة ٤ شارع فافار يعود لوظيفته محافظاً للمتحف المصرى فى اللوفر .

٧ مايو ، يتقدم للمرة الثالثة وينتخب فى أكاديمية المخطوطات والآداب .

١٥ مايو زيارة أخيرة لفورييه الذى توفى فى اليوم التالى .

٢٧ – ٢٩ يوليو شامبوليون بقلبه مع المتمردين ولكن متحفه الذى جرى إقتحامه فى عملية الإستيلاء على اللوفر تحدث فيه عدة عمليات سلب ونهب .

٦ أكتوبر رسالة من روسيللنى تحثه على الإسراع فى نشر أعمال اللجنة الفرنسية التوسكانية التى يود الجران دون بشوق رؤيتها منشورة إلا أن شامبليون يعطى أولوية للإنتهاء من كتاب "القواعد" .

١٨٣١

١٢ مارس : الملك لويس فيليب يؤسس من أجل شامبليون قسم (كرسى) للآثار المصرية فى الكولاج دو فرانس .

١٨٣١ - ١٣ مـــــارس : وزارة كازيمير بيرييه

١٠ مايو : شامبليون يفتتح سلسلة محاضراته .

٢٣ ، ٢٦ مايو يلقى محاضرتين فى الكولاج دوفرانس .

نهاية مايو : روسيلينى يصل إلى باريس ليحدد مع شامبليون كيفية النشر المشترك لكتاب "آثار مصر والنوبة" ولكن ستظهر بعد وفاة شامبليون طبعتان منفصلتان فرنسية وايطالية .

أغسطس : شامبليون يسافر إلى فيجاك ليسترد صحته إلى جوار شقيقاته يرى مدام أديل ويعمل فى كتاب "القواعد".

نوفمبر : العودة إلى باريس .

٥ ديسمبر شامبليون يعود إلى إلقاء محاضراته فى الكولاج دوفرانس .

١٣ ديسمبر : لم يتكمن من الإنتهاء من إلقاء محاضراته – لن يعود أبداً إلى الكولاج دوفرانس .

١٨٣٢ يناير : لم يعد شامبوليون يترك غرفته في شارع فاڤار – معاونوه وأصدقائه يأتون لزيارته كثيراً .

٤ يناير روسيلليني يؤكد له في رسالة ولائه له الذي لا يهتز .

١٢ يناير أثناء لقاء مع بيو ، يقع صاحب الكشف نصف مشلول سيستعيد بعضا من صحته للعمل مع أخيه في تنقيح كتاب "قواعد اللغة المصرية" وهي بمثابة "بطاقة زيارة يتركها للأجيال التالية" والتي سينشرها شامبوليون فيجاك مع "قاموسه" بعد وفاته.

نهاية فبراير : يدخل شامبوليون مرة جديدة في شبه – كوما يطلب من أخيه أن يدفن في مقابر الأب لاشاز فوربيه .

٣ مارس : يحصل على المسح بالذيت المقدس الأخير .

٤ مارس : يتوفى في الفجر .

١٨٣٢ مارس ، وباء الكوليرا يصل إلى باريس وفاة كازمير بيرييه .

المؤلفات

أهم أعمال شامبوليون الصغير

لا نذكر هنا لا الدراسات ولا المقالات التى كتبها شامبوليون فى الماجازان انسيكلوبيديك ، البولتان(وفيروساك (نشرة الفيروساك) ولا ليزانال دوليزار (جوليات مقاطعة الإيزار) والدوريات الأخرى ولا مقدماته وكتاباته الصغيرة ولا كتاباته السياسية . يمكن الرجوع إلى قائمة مؤلفات صاحب الكشف الكاملة المنشورة فى النسخة الألمانية لسيرته التى كتبتها هارتلوبان (برلين ١٩٠٦) ، كما توجد سيرة أخرى ألفها سيمور دوريتـــشى ظهـــرت فى Recueil Champollion (باريس شامبيون ١٩٢٢) .

* "خطبة إفتتاح دروس التاريخ أمام أكاديمية جرونوبل" ، جرونوبل بيرونار ١٨١٠، قطع كوارتو .

* "مقدمة (نشر منفصل) لمصر فى عهد الفراعنة" ، قطع ثمانى أوكتافو – ١٧ صفحة ، جرونوبل ، حـ – ب بيرونار ، ١٨١١ ، ٦٧ صفحة .

* مصر فى عهد الفراعنة أو بحث فى الجغرافيا والدين واللغة والكتابات وتاريخ مصر قبل غزو قمبيز وصف جغرافى ، باريس دوبور يوليو ١٨١٤ ، جزئان ٣٦ + ٣٧٩ و ٤٣٧ صفحة وخريطة .

* "عن الكتابة الهيراطيقية عند قدماء المصريين" ، جرونوبل ، الأخوة باراتيه ١٨٢١ ، قطع كبير ٧ صفحات و٧ لوح بالليتوجرافيا .

* "رسائل إلى السيد محرر الروفو انسيكلوبيديك حول خريطة أبراج (زودياك) دندره" فى الروفو انسيكوبيديك الجزء الخامس عشر ، ١٨٢٢ ، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٩ – ثم نشر منفصلاً فى باريس لانوا ، ١٨٢٢ ، وكتافو ٨ ص .

* "رسالة إلى مسيو داسيه ، السكرتير الدائم للأكاديمية الملكية للمخطوطات والأداب خاصة بأبجدية الهيروغليفيات الصوتية التى استخدمها المصريون لكتابة الأسماء وكتابات الملوك الأغريق والرومان" باريس ، ديدو (أكتوبر) ١٨٢٢ ، أوكتافو ٥٢ ص ٤ لوح الليثوغرافيات .

* "البانتيون المصرى" ، مجموعة الشخصيات الاسطورية (الميثولوجية) لمصر القديمة كما جاءت فى الآثار مع نص بالشرح السيد جـ - ف - شامبوليون الصغير والصور من رسم ل.ح.ح دوبوا "باريس" ، ديدو ، ١٨٢٣ ، ١٨٢٥ ١٥٠ دفعة ، كوارتوا "ملخص المنظومة الهيروغليفية لقدماء المصريين أو أبحاث فى العناصر الأولية لهذه الكتابة المقدسة وفى تشكيلاتها المختلفة وعلى علاقات هذه المنظومة وأنظمة الكتابة المصرية الأخرى" وبالإضافة إلى مجلد اللوح باريس ١٨٢٤ ، تروتال ووتر .

"ملخص المنظومة الهيروغليفية ..." الطبعة الثانية نقحها المؤلف أضاف إليها" رسالة إلى مسيو داسييه عن الأبجدية الهيروغليفية الصوتية التى استخدمها المصريون على معابدهم الراجعة إلى العصر الإغريقى والعصر الرومانى" باريس ، المطبعة الملكية ١٨٢٨ ، مجلدان أو كتافو ٢٤ صـ مقدمة ٤٦٨ ، ٤٨ ص و ٥٢ لوحة رسم بالليثوغرافيا .

* "رسائل إلى السيد الدوق دوبلاكاس دوليس من المتحف الملكى المصرى فى تورينو الرسالة الأولى ، الأثار التاريخية" ، باريس ديبو ١٨٢٤ ، أوكتافو ١٠٩ ص ، ولوح ٣٠

* رسائل إلى السيد الدوق دوبلاكاس ..... دوليس .. الرسالة الثانية تابع الأثار التاريخية"،باريس ديدو ١٨٢٦ أو كتافو ١٦٧ ص ، ولوح ٤ - ٨ و٨ مكرر ، ٩ - ١٥ .

* "رسائل إلى السيد الدوق دوبلاكاس عن المنظومة الهيروغليفية الجديدة للسيدين سبوهن وسيفارت" ، فلورنسا ، حـ بياتى ١٨٢٦ أوكتافو ٢٣ ص طبعه مستقلة ، باريس فإن ١٨٢٦ أو كتافو ٢٣ ص .

* "مذكرة وصفة للأثار المصرية فى متحف شارل العاشر القسم الثانى" ، باريس، كرابوليه ، ١٨٢٧ ، قطع ١٢ ، ٨ + ١٦٦ ص .

أعمال نشرت بعد وفاته على يد أخيه

*" رسائل من مصر والنوبة عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩" باريس ، فيرمان ديدو ١٨٣٣، أوكتافو ١٦ + ٤٧٢ ص و ٧ لوج بالليثوغرافيا .

* "رسائل من مصر والنوبة عامى ١٨٢٨ و ١٨٢٩" طبعة جديدة ديدييه ، ١٨٦٨ أوكتافر ٢ + ٣٩٧ ، ٣ لوح وخريطة واحدة (طبعة نشرت تحت إشراف إبنته زورابيا

شيرونيه – شامبوليون) "آثار مصر والنوبة منقولة عن الرسومات التى تمت على الطبيعة تحت إشراف شامبوليون الصغير والأوصاف المحررة بيده عليها" ، باريس فيرمان ديدو ١٨٣٥ – ١٨٤٥ ، ٤ مجلدات قطع كامل ٥٠٧ لوحة .

* "قواعد اللغة المصرية أو المبادئ العامة للغة المقدسة المصرية مطبقة على لغة الحديث" .. نشرت عن المخطوط اليدوى بأمر من مسيو جيزو وزير التعليم العام وباريس ، فيرمان – ديدو ١٨٣٦ قطع كامل ٨ ، ٣٣ + ٥٥٥ ص .

* "القاموس المصرى بالخط الهيروغليفى ينشرها من المخطوطات بيد المؤلف وتحت رعاية مسيو فيلومان ، شقيقه مسيو شامبوليون فيجاك" ، باريس ، فيرمان ديدو، ١٨٤١ ، فوليو ، ٣٦ + ٤٨٧ ص بخط اليد .

طبعات وإعادة طبعات أخرى

* "رسائل شامبليون الصغير جمعتها وعلقت عليها هـ هارتلوبان" مكتبة المصريات : نشرت تحت إدارة جـ ، ماسبيرو

– المجلد ١ : "رسائل مكتوبة من إيطاليا ، باريس لورو ١٩٠٩ ، أوكتافو ٩ + ٤٤٥ ص وصور شخصية .

– المجلد ٢ : رسائل ويوميات حررت خلال الرحلة إلى مصر" ، باريس لورو ، ١٩٠٩ أوكتافو ٧ + ٤٩٠ ص صورتان .

* "رسائل شامبوليون الصغير جمعتها وعلقت عليها هـ هارتلوبان إعادة طبع س بورجوا (١٩٨٦) .

* "جان فرانسوا شامبوليون" ، "رسائل إلى زلمير" قدمت لها إيداً بريشياني ، أستاذة بجامعة بيزا ، مقدمة لجان لوكلان عضو الانسيتتو ، الناشر لازياتاك ، لم تنشر من قبل باريس ١٩٧٨ .

* جان فرانسوا شامبوليون ، "رسائل إلى أخيه ١٨٠٤ – ١٨١٨" تقديم ب. فابان، مقدمة جان لوكلان ، عضو الانستيو الناشر لازياتاك لم تنشر قبل ١٩٨٤ .

* "قواعد اللغة المصرية ".. إعادة طبع ، صورة طبق الأصل من الطبعة الأصلية الصادرة عام ١٨٣٦ ، معهد الشرق (ميشيل سيدهم) مقدمة كريستيان زيجلار باريس، ١٩٨٤ .

* "البانتيون المصرى" إعادة طبع صورة طبق الأصل للطبعة ١٨٢٤ / ١٨٢٥ الأصلية الناشر بارسيا ، باريس ١٩٨٦ .

المخطوطات

أوراق العمل والمخطوطات اليدوية ورسومات جان فرانسوا شامبوليون التى إقتنتها الدولة بعد وفاته محفوظة فى قسم المحفوظات بالمكتبة الوطنية .هذه المستندات جمعت فى ٨٨ مجلداً مرقمة من ٢٠,٣٠٣ حتى ٢٠,٣٩٠ تشتمل على المخطوطات اليدوية للجزء الأكبر من أعماله المنشورة والتى لم تنشر بعد "أوراقه الخاصة بحل شفره المنظومة الهيروغليفية ودراسة الطرق الثلاثة للكتابة المصرية وأعماله عن تاريخ المصريين وحــياتهم المدنية اليومية ومبانيهم ، ودياناتهم (پانتيون) دراساته عن المتحف المصرى فى تورينو) رسائل إلى الدوق (الدوبلاكاس) ومذكراته ويوميات رحلته إلى مصرأعماله الخارجة عن نطاق مصر– إلخ .. جزء آخر من مراسلاته محفوظ فى قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية تحت أرقام مختلفة .

من جهة أخرى فإن الرسائل العديدة جداً التى أرسلها لأخيه منذ طفولته حتى وفاته بقت لدى أسرة هذا الأخير. هذه الرسائل تعتبر المصدر الرئيسى للمعلومات المتاحة عن حياته وأعمال ومعارك والرحلات إلى إيطاليا ومصر لصاحب اكتشاف أسرار الهيروغليفية وهى كلها مدموجة– مع كميات من المذكرات والملحوظات والأوراق التى لم يسبق نشرها ورسومات طراحية– فى الأربع وستين مجلداً التى يتكون منها الأرشيف العائلى التى يحتفظ به فى دارهم فى فيف بالقرب من جرونوبل. الأحفاد الحاليون لشامبوليون فيچاك مسيو ومدام شاتومينوا وقد أودعت صور ميكروفيلمية لهذه المستندات فى المكتبة البلدية للدراسات التابعة لمدينة جرونوبل .

أعمال شامبوليون فيچاك الخاصة بمصر

رسالة عن مخطوط يونانى فى معبد دندره إلى مسيو فورييه محافظ الإيزار جرونوبل ، بيرواز ، ١٨٠٦ أو كتافو ١٨ص + لوحة .

* "حوليات اللاجيد" (البطالسة) أو "المسلسل التاريخى لملوك مصر الإغريقية خلفاء الإسكندر الأكبر" ، باريس فاندج ، ١٨١٩ مجلدان أو كتافو مع لوح ، ووت

الیشاین (حصل على جائزة لانستيتو ١٨١٨) .

* مسلسلة الأقصر المنقولة إلى باريس مذكرة تاريخية وصفية وأثرية عن الأثر" بقلم شامبوليون فيچاك ، مع رسم المسلة وتفسير للمخطوطات الهيروغليفية كما رسمها وطبقاً للمذكرات المكتوبة بخط يد شامبوليون الصغير" ، باريس ديدو ، ١٨٣٣ أوكتافو ، ٩ + ٩٢ ص ولوختان مصر القديمة ، باريس ، ديدو ، ١٨٣٩ ، أوكتاتو ٥٠٠ ص مجموعة العالم المصور .

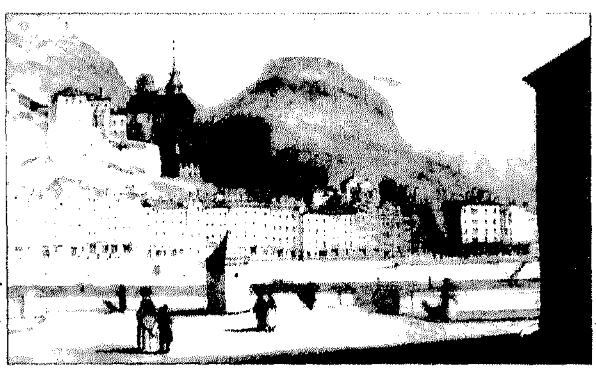
* "فورييه ونابوليون : مصر والمائة يوم ، مذكرات ومستندات لم يصبق نشرها" باريس ، ديدو ١٨٤٤ ، أوكتافو مع لوحة واحدة و ٣٧١ ص .

" أخ وأستاذ وأب " : چاك چوزيف شامپوليون - فيچاك فى بداية القرن التاسع عشر عندما كان موجهاً لأخيه .





إلى أعلى (يمين) المنزل الذى ولد فيه چان- فرانسوا وحارة لابوبوسكورى فى مدينة فيچاك .



جرونوبل فى القرن التاسع عشر -مشهد من شاطئ الإيزار .



منزل الأسرة فى ڤيف عند سفح جبل بالدون.كان ضمن "دوطة" زوويه عند زواجها بچاك چوزيف شامپوليون - فيچاك.

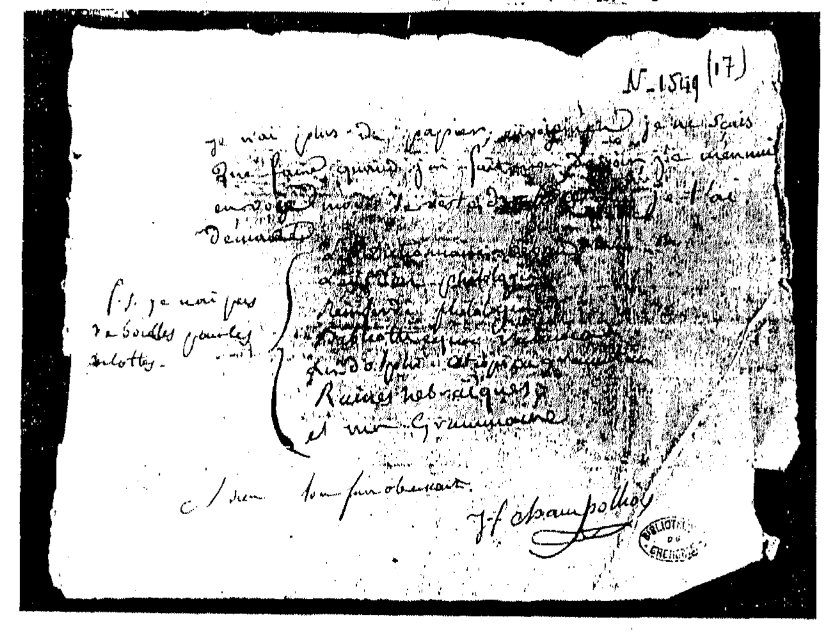


شغب "يوم التويلورى" أمام مدرسة الآباء اليسوعيين (الچيزويت) التى ستتحول إلى المدرسة المركزية ، الليسيه الامبريالى ، الذى التحق به چان فرانسوا فى نوفمبر ١٨٠٤ - وهو الآن ليسيه - ستاندال .

رسم كروكى بيد التلميذ چان- فرانسوا (لعله كان لأحد مدرسيه).



خطاب من التلميذ چان - فرانسوا لشقيقه چاك چوزيف يطالبه فيه بتموين من الورق وزراير لسراويله وكتاب "قواعد عبرية" وكتابه "القواعد".



چان فرانسوا شامپوليون وهو فى سن
العشرين وقد أصبح أستاذ جامعة فى
جامعة جرونوبل.





سيلفاستر دو ساسى المعلم
الأشهر والخائن عند اللزوم ...

أحد ندائات چان فرانسو لأخيه الأكبر
چاك -چوزيف طالباً النجدة مطالباً فيه
بإنتزاعه من "هذا الجحيم" الذى هو
مدرسة الليسيه - والتى وصفها فى
مكان أخر بأنها "مأوى الموت".

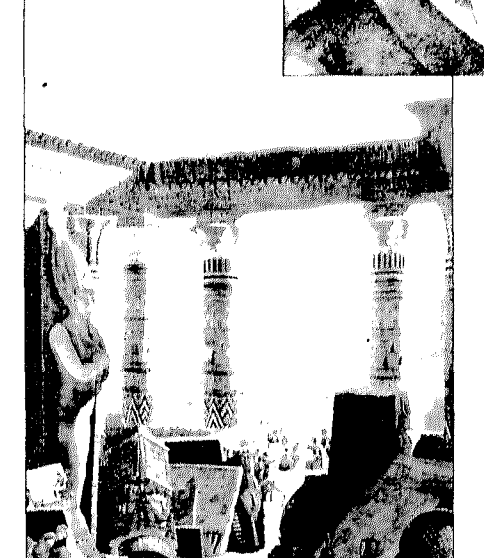
المكتبة الإمبريالية - ثم الملكية - ثم
الوطنية حيث عمل الشقيقان شامپوليون.





اللجنة العلمية التى أرسلها بونابارت إلى صعيد مصر فى حشد كبير وبالزى العسكرى .

چوزيف فورييه من علماء الفيزياء المشهورين رفيق بونابارت فى مصر ، صاحب مقدمة كتاب "وصف مصر" محافظ مقاطعة الإيزار وصديق الشقيقين شامپوليون - وكثيراً ما كان واحداً من الذين شملوهما بالرعاية .



صفحة غلاف كتاب "وصف مصر" . ينبه الرسم أن الحملة كانت عسكرية قبل أن تكون علمية .

أدْم چومار - عالم الجغرافيا - المسئول عن إصدار كتاب "وصف مصر" . إنه لم يتقبل قط أن يكون چان - فرانسوا شامپوليون متفوقاً عليه .





نابوليون ، بعد هروبه من جزيرة إلبا يعلن فى مدينة جرونوبل "الإمبراطورية الجديدة " فى حضور أفراد الشعب ومنهم الشقيقان شامبوليون.



البارون دوساز محافظ مقاطعة الإيزار لدى عودة الملكية وكان مناهضاً شرساً لجان -فرانسوا شامبوليون ("روبسپيير مدينة جرونوبل ") ثم أصبح وزيراً للبحرية وكُلف بنقل مسلة الأقصر إلى باريس .

بون-چوزيف داسييه السكرتير الدائم لأكاديمية المخطوطات والآداب ، الذى وجه له چان-فرانسوا شامبوليون "رسالته" المشهورة وكان ملهما وراعيا






أنچليكا پاللي شاعرة مدينة ليڤورن التي كان يراسلها شامپليون وقد أحبها ، وكان حباً من جانب واحد وظهرت هذه الرسائل في كتاب بعنوان "خطابات إلى زيلمير" .

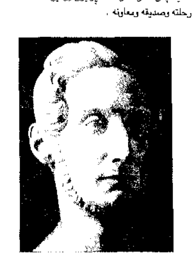
صورة لأعضاء اللجنة الفرنسية التوسكانية رسمها لزملائه الرسام الإيطالي إنچليللي في مصر: شامپليون (جالس وهو ملتحي ويظهر السيف الذي أهداه له محمد علي معلقاً حول وسطه) وإلى يمينه يظهر روسيلليني واقفاً ورأسه عارياً .

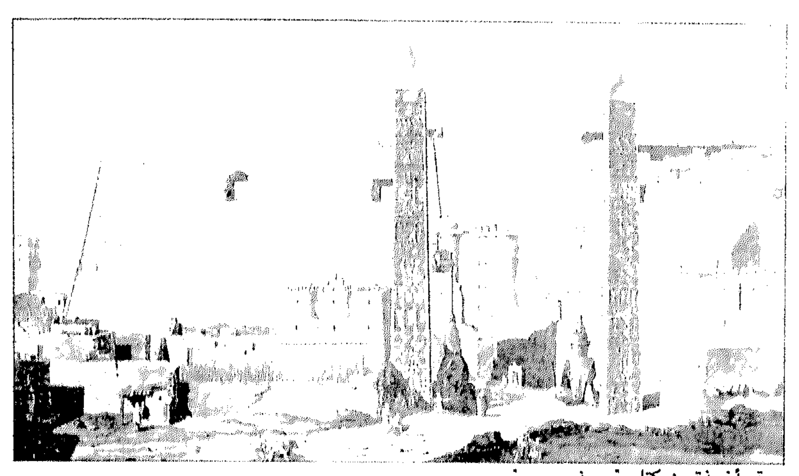




قاعة التماثيل الملكية في متحف تورينو التي جعلت چان- فرانسوا شامپليون يصرخ قائلاً . "إنه شئ مبهر"

إيپوليتو روسيلليني إبن مدينة بيزا تلميذ چان- فرانسوا شامپليون ورفيق رحلته وصديقه ومعاونه .





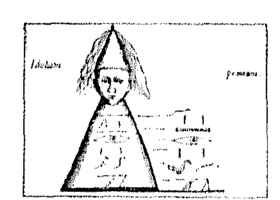
صورة مأخوذة من كتاب "وصف مصر".
المسلتان عند مدخل معبد الأقصر.
التى على اليمين هى التى اختارها
شامپوليون لكى يزين بها "أحد ميادين
باريس".

صورة لشامپوليون وقد ظهرت على
ملامحه آثار التجارب القاسية التى مرّ
بها، ولعلها رسمت له فى المرحلة التى
تلت عودته من مصر (١٨٢٩) وقبل وفاته
(١٨٣٢).

مذكرات ورسومات خطها صاحب
الكشف خلال رحلته فى مصر والتى
رأس خلالها اللجنة الفرنسية التوسكانية
المشتركة.

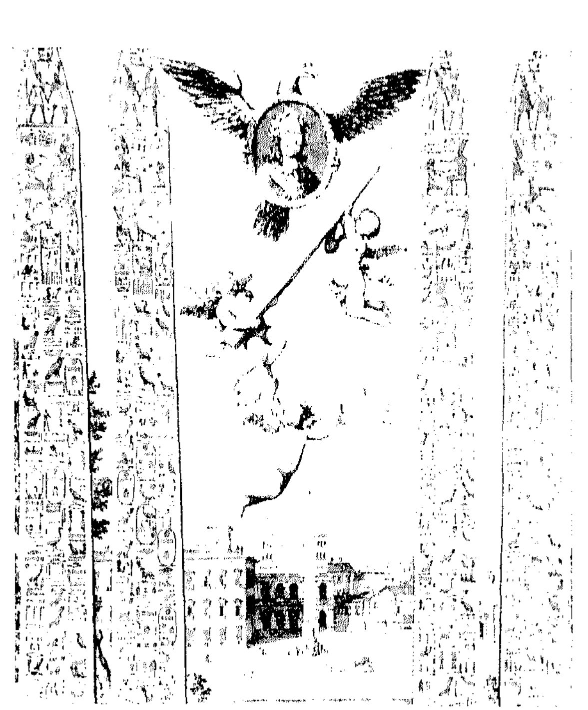
أعطى الأب أثناس كيرشار فى القرن السابع عشر تفسيراً غريباً للهيروغليفيات فى كتابه "أوديب المصرى "OEdipus AEgyptiacus (١٦٥٢) إلا أنه وجه مجهودات حل الشفرة فى الإتجاه الصحيح وذلك بأنه طرح الفكرة المبدئية أن اللغة القبطية هى لغة المصريين القدماء .





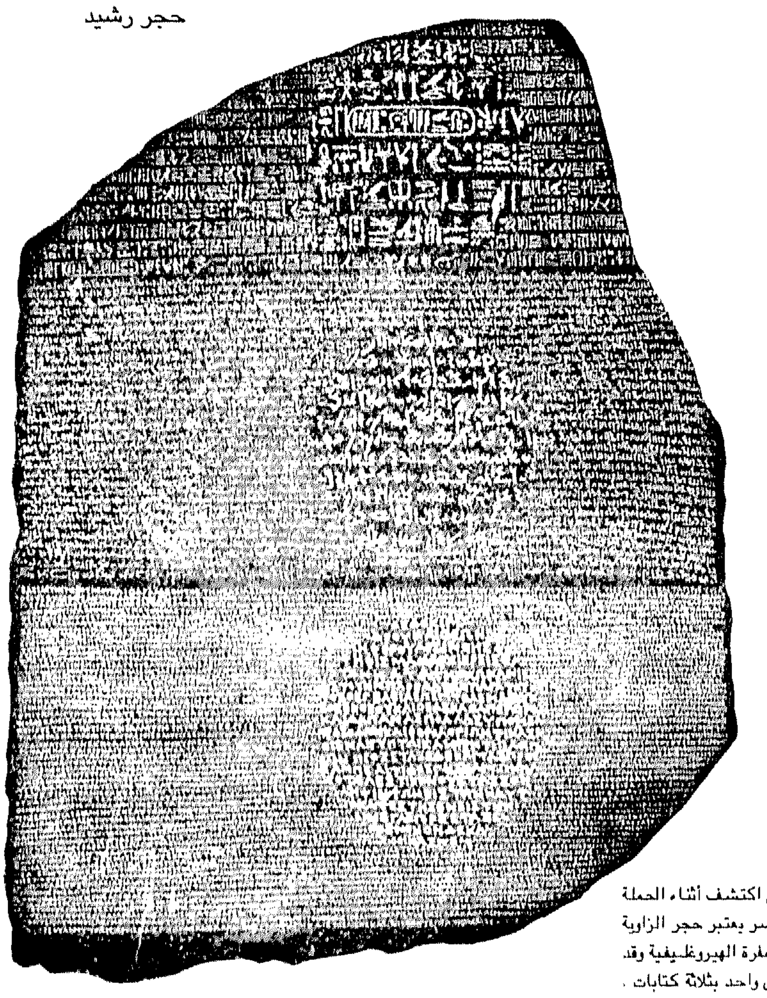
صورة منقولة عن كتاب "أوديب المصرى" .

كان كيرشار يدرس الرسومات الهيروغليفية المحفورة على المسلات المصرية المقامة فى ميادين مدينة روما وهى المسلات التى جلبها الإمبراطور الرومانى أغسطس ومن خلفوه إلى روما . ظلت هذه المسلات ولفترة طويلة الآثار المصرية الوحيدة الموجودة فى أوروبا وقد خصها العالم الدانماركى زويجا (١٧٥٥ - ١٨٠٩) بدراسة هامة قام شامبوليون ببحثها بحثاً مستفيضاً



مسلة تحوتموس الرابع المقامة فى ميدان سان-چان اللاترانى فى روما .

حجر رشيد



حجر رشيد الذى اكتشف أثناء الحملة الفرنسية على مصر يعتبر حجر الزاوية فى عملية حل الشفرة الهيروغليفية وقد حفرت عليها (نص واحد بثلاثة كتابات ، إثنان باللغة المصرية (بكتابتين مختلفتين) والكتابة الثالثة باللغة اليونانية (وهى لغة معروفة) .

إلى أعلى : النص مكتوباً بالهيروغليفية وقد فُقد جزء كبير منه ، فى المنتصف : النص بالكتابة الديموطيقية أو الخط الشعبى المتصل .

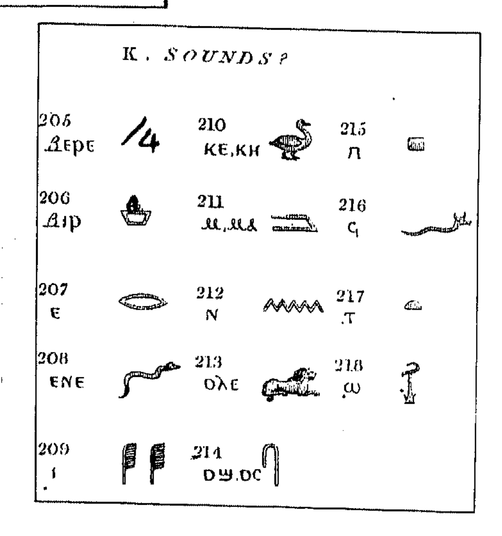
أسفل : النص اليونانى وفى داخل الدوائر تكبير لكل خط منهم ويمكن ملاحظة خرطوش اسم بطليموس فى النص المكتوب بالهيروغليفية



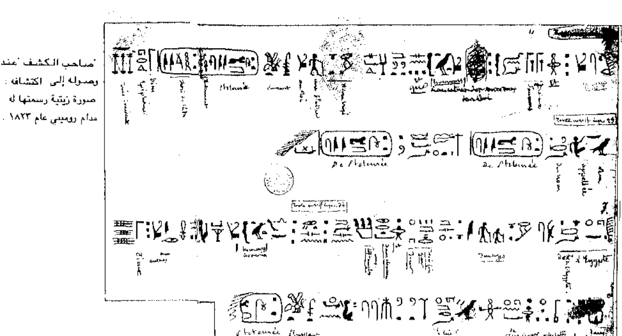
توماس يانج



كان الإنجليزى توماس يانج (١٧٧٣ - ١٨٢٩) عالماً مشهوراً فى علوم الطبيعة والطب وكان أعظم منافس لشامپوليون ، ولما كان يمارس هواية البحث فى علم اللغويات فى أوقات فراغه فقد أخذ يتعامل مع حجر رشيد عام ١٨١٤ ، وقد توصل بسرعة إلى نتائج مبهرة وذلك باستخدامه وسائل حسابية وباللجوء إلى مقارنات مادية بين النصوص .



المقال المطول الذى نشره يانج تحت عنوان "مصر" فى "الإنسكلوپيديا بريتانيكا" عام ١٨١٩ وهو يعتبر استيفاءاً لأبحاثه . إستشف يانج من هذه الأبحاث وجود هيروغليفيات فونيتيكية أطلق عليها اسم "أصوات" (sounds) كما أنه أدرك تكامل المنظومة الهيروغليفية إلا أنه توقف فى منتصف الطريق دون أن يتوصل إلى كشف المبدأ العام الذى تقوم عليه هذه المنظومة .

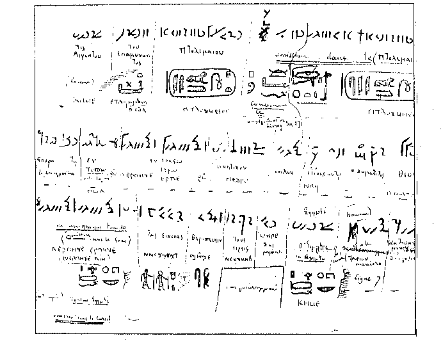


أولى خطوات شامبوليون على طريق فك الشفرة الهيروغليفية قام بها وهو طالب في باريس عام ١٨٠٨ وذلك بناءً على صورة لحجر رشيد. ساعده في ذلك إلمامه باللغة القبطية التي حفزته على حل ألغاز الكتابة الهيروغليفية وبدأ يتساءل عن طبيعة كتابة هذه الرموز . هل تعبر عن أصوات أم أفكار ؟ توضح هاتان الصفحتان المقتطفتان من مخطوطاته ، [illegible] بذاته

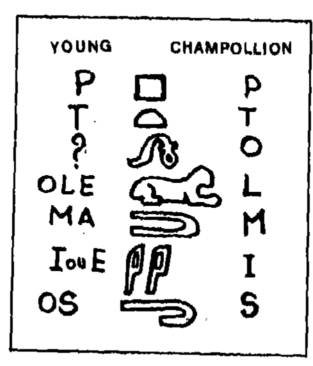
إلى أسفل : شامبوليون أثبت في كتابه عن الخط الهيراطيقي أن رسومات هذا الخط المتصل ليست سوى تبسيط للرسومات الهيروغليفية .



صاحب الكشف عند وصوله إلى اكتشافه : صورة زيتية رسمتها له مدام روميي عام ١٨٢٣ .



حاول يانج وشامبليون – كل منهما من ناحيته – إعطاء قيمة فونيتيكية (صوتية) للرسومات الهيروغليفية للخرطوش المنحوت داخل اسم بطليموس (إلى اليسار) وهو يظهر أربع مرات على حجر رشيد. أما الخرطوش الدال على اسم كليوباترا (أسفل وعلى اليمين) فقد سمح لشامبليون أن يتأكد من سلامة افتراضه وأن يضع أبجدية أولى تضم ١٢ رسماً.
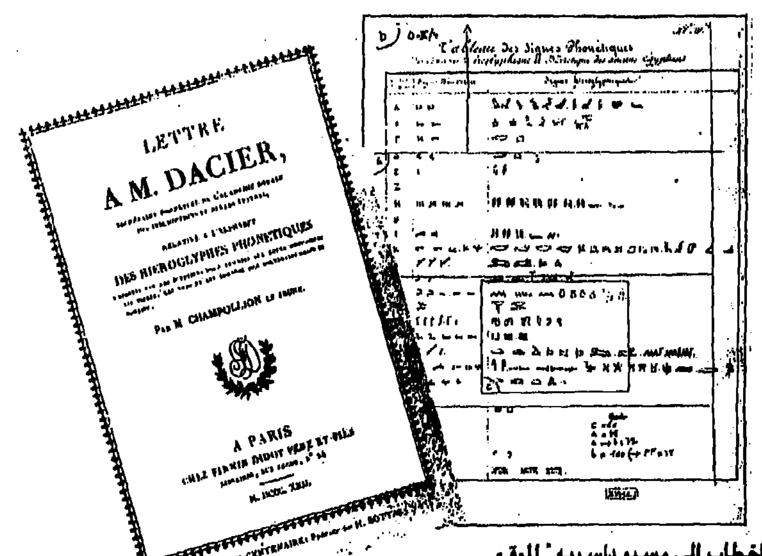


فرضيات يانج وشامبليون





ثلاثة من الرسومات الهيروغليفية كانت لها نفس القيمة الصوتية وهى : ب ، أو ، ل فى خرطوشين مختلفين



LETTRE

A M. DACIER,

RELATIVE A L'ALPHABET

DES HIÉROGLYPHES PHONÉTIQUES

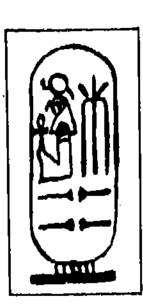
Par M. CHAMPOLLION LE JEUNE.

A PARIS

CHEZ FIRMIN DIDOT PÈRE ET FILS

M. DCCC. XXII.

"الخطاب إلى مسيو داسييه " الموقع بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٨٢٢ – والذى تُلى أمام أكاديمية المخطوطات يعتبر الإعلان الأول عن مولد علم الدراسات المصرية القديمة أو الإيجيبتولوجيا"



خرطوش رمسيس (إلى اليسار) وتحوتمس (إلى اليمين) . إن اسمى هذين العاهلين - وهما من أسرات مالكة مصرية صميمة - وقد خُطا بهيروغليفيات أيديوجرافية (تعبر عن أفكار) وفونيتية (صوتية) فى آن واحد - كشفا لشامبوليون عن طبيعة الكتابة المصرية ، أى أنها "ترسم أفكاراً تارة ، وتعبر عن أصوات لغوية تارة أخرى" .



كتاب "إلى مسيو داسييه" يتعلق فى الأساس باكتشاف الهيروغليفيات الصوتية أما المنظومة المتكاملة للكتابة المصرية القديمة فقد أوردها شامبوليون فى طبعتى كتابه "الملخص" (عامى ١٨٢٤ ، ١٨٢٨) وفى كتاب "القواعد" .

	Plante du genre des Colchiques.
	Paille.
	herbe, foin, fienu
	Fleur
	Fleur, nourriture
	Epi de blé.

	Eau
	Fontaine.
	La Mer
	Source
	Sang.

حتى يمكن تعويض الاختلاف فى الشكل الإملائى وبالتالى عدم دقته فإن المصريين كانوا يصنعون شكلاً تحديدياً للكلمة المكتوبة فونيتيكياً (صوتياً) : مثل زهرة اللوتس تشير إلى فكرة السائل والرطوبة .

Ce même est 1° au caractère figuratif, même dans les textes hiératiques comme lotus et PUAN ou POUAN Grenade; 2° le figuratif accompagnant le nom phonétique comme CYNIN. CYNN: Lotus; 3° enfin il est par des caractères tropiques comme hiérat ОYОТОYЕТ Les Bourgeons, les Pousses des Plantes.

F. Divers genres de Reptiles ; (1)

G. Quelques espèces de Poissons ; (2).

H. Des Insectes en fort petit nombre ; (3).

I. Des Végétaux des Fleurs et des Fruits.

J. Des objets d'Habillement ou de Costume (4).

K Des Meubles armes et Insignes divers ; (5)

L. Des Vases et un grand nombre d'Ustensiles (6)

M Les Instruments de la plupart des arts et métiers, (7)

(1) Le lézard, le Crocodile, la Grenouille, des couleuvres, la vipère Haygé, et le Ceraste &c,
(2) Le Latus, le Lepidote, l'Oxyrynchus &c.
(3) Le Scarabée, la Scorpion, la Mante, une espèce d'abeille. &c
(4) Diverses coeffures, un collier, un bracelet, des sandales &c &c.
(5) un trône, un coffre, un lit funèbre, un arc, une flèche, un trait des sceptres.
(6) trois sortes de Vases, un Vase à brûler l'encens, un bassin, une Corbeille, une natte.
(7) un Théorbe, les instruments pour écrire, un volume de papyrus, un couteau, une Scie, une hache, [illegible]

جاك جوزيف شامبوليون – فيجاك – وقد عاش لسنوات عديدة بعد وفاة شقيقه الأصغر، تولى نشر أعماله التى لم تمهله المنية نشرها وهى: كتاب "آثار مصر والنوبة" وكتابه "القاموس المصرى" – وأخيراً "قواعد اللغة المصرية"



فهرس	صفحة

المشروع القومى للترجمة

١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : يسرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	جيرار جينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرا متى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاجنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أتبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥١ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد

(تحت الطبع)

الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
العنف والنبوءة
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون فى الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
من المسرح الإسبانى المعاصر
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
حكايات ثعلب

الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
آلة الطبيعة
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
أيديولوجى
تاريخ الكنيسة
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علماً جديداً
مختارات من النقد الأنجلو – أمريكى
النقد الأدبى الأمريكى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٩١٩ / ١٩٩٩







CHAMPOLLION
une vie de lumieres

JEAN LACOUTURE



أسس چان - فرانسوا شامپوليون علمَ المصريات «Egyptology» بعدما حل شفرة الكتابة الهيروغليفية .. وكانت هذه الكتابة تحيّر الباحثون فيها لعدة قرون تبدأ من القرن الثالث الميلادى عندما حرّم قرارًا إمبرطوريًا رومانيًا الكتابة بها .. إلى أن تمكن هذا الباحث الجامعى الفذ من اللغز ؛ فارتبط اسمه إلى الأبد باسم مصر التى أحبها . فالحب وحده هو الذى كان قادراً على أن يصل بشامپوليون إلى هدفه؛ فأبعده عن اليأس عدة مرات ، فظل على مثابرته إلى أن نجح فى مهمته.

حبُّ شامپوليون لمصر كان خالصاً وكاملاً؛ فهو يقول : «إنها كل شىء بالنسبة إلىّ» ، كما أنه أحب شعب مصر عندما زارها وأقام فيها عاماً ونصف تقريباً .

وحبُّ مصر أيضًا هو الذى حرك كاتب سيرة شامپوليون «چان لاكوتير»، فهذا هو الكتاب الثانى له عن مصر بعد كتابه الأول عن جمال عبد الناصر ، الذى عرفه عن قرب وعاش فى مصر عدة سنوات، ولا يمر عام الآن إلا ويزورها لمرة أو أكثر.. وله حوالى سبعين كتابًا ومؤلفًا معظمهم سير لشخصيات عظيمة .

وهذا الكتاب يلقى الضوء أيضًا على العلاقات التى كانت قائمة بين فرنسا ومصر فى مرحلة من أهم مراحل تاريخها الحديث؛ مرحلة بناء الدولة الحديثة على يد محمد على ومحاولة تحويل مصر من ولاية تتبع الإمبراطورية «الخلافة» العثمانية إلى دولة مستقلة ذات سيادة .

LE 30.00